(فهرسة الجزء الرابع من فتح البيان)

(تمت)

(فهرسة الجزء الرابع من تفسير الحافظ ابن كثير)

(تمت)

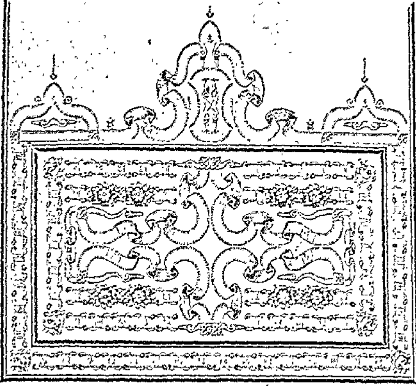
(الجزء الرابع)

من التفسير المسمى فتح البيان
في مقاصد القرآن للسيد الامام المجتهد المحقق
الهمام المؤيد من مولاه القدير البارى أبى الطيب
صديق بن حسن القنوجى البخارى ملك
مدينة بهوبال حالا بالاقطار الهندية
لازالت كواكب فضله
في الآفاق زاهرة

مضـــــه
آمين

وبهامشه تفسير الامام الجليل الكبير الحافظ عماد الدين أبى الفداء اسمعيل بن عمر بن
كثير القرشى الدمشقى المولود سنة سبعمائة وعشرة المتوفى سنة سبعمائة وأربعة وسبعين
وهذا التفسير جليل فسر بالاحاديث والآثار مسندة من أصحابها مع
الكلام على ما يحتاج اليه جرحا وتعديلا اهـ من كشف الظنون

(الطبعة الاولى)
(بالمطبعة الكبرى الميرية ببولاق مصر المحمية)
سنة ١٣٠١ هجريه



بسم الله الرحمن الرحيم

(سورة الانفال)

صرح كثير من المفسرين بأنها مدنية لم يستثنوا منها شيأ وبه قال الحسن وعكرمة وجابر ابن زيد وعطاء وعبد الله بن الزبير وزيد بن ثابت وعن ابن عباس أنه قال نزلت في بدر وفي لفظ تلك سورة بدر قال القرطبي وعنه هي مدنية الاسبع آيات من قوله واذ يمكر بك الذين كفروا الى آخرها يعني فانها مكية (قلت) وان كانت في شأن الواقعة التي وقعت بمكة فلا يلزم أن تكون كذلك فالآيات نزلت بالمدينة تذكيراله بما وقع في مكة فهذا القول ضعيف والاول هو الاصح وجملة آياتها خمس أوست أوسبع وسبعون آية وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ بها في صلاة المغرب كما أخرجه الطبراني بسند صحيح عن أبي أيوب

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يسألونك) يا محمد (عن الانفال) جمع نفل محركا وهو الغنيمة أي الغنائم لمن هي وبه قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة وأكثر المفسرين على أنها نزلت في غنائم بدر وأصل النفل الزيادة وسميت الغنيمة به لانها زيادة فيما أحل الله لهذه الامة مما كان محرما على غيرهم أولانها زيادة على ما يحصل للمجاهدين من أجر الجهاد ويطلق النفل على معان أخر منها اليمين والابتغاء ونبت معروف والنافلة التطوع لكونها زائدة على الواجب والنافلة ولد الولد لانه زيادة على الولد وهو سؤال استفتاء لان هذا أول تشريع الغنيمة

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما واتقوا الله الذي اليه تحشرون جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا ان الله يعلم ما في السموات وما في الارض وان الله بكل شئ عليم اعلموا ان الله شديد العقاب وان الله غفور رحيم ما على الرسول الا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس في رواية عنه وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وغيرهم في قوله تعالى أحل لكم صيد البحر يعني ما يصاد منه طريا وطعاما يتزود منه مملحا يابسا وقال ابن عباس في الرواية المشهورة عنه صيده ما أخذ منه حيا وطعامه ما لفظه ميتا وهذا روى عن أبي بكر الصديق وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمرو وأبي أيوب الانصاري رضي الله عنه وعكرمة وأبي سلمة بن عبد الرحمن وابراهيم النخعي والحسن البصري قال سليمان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن أبي بكر الصديق أنه قال طعامه كل ما فيه رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد

وفاعل

حدثنا جرير عن مغيرة عن سماك قال حدثت عن ابن عباس قال خطب أبو بكر الناس فقال أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وطعامه ما قذف قال وحدثنا يعقوب بن علية عن سليمان التيمي عن أبي مجلز عن ابن عباس في قوله أحل لكم صيد البحر وطعامه قال طعامه ما قذف وقال عكرمة عن ابن عباس طعامه قال مالفظ من ميتة ورواه ابن جرير أيضا وقال سعيد بن المسيب طعامه مالفظه حيا أوحسر عنه فمات رواه ابن أبي حاتم وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الوهاب حدثنا أيوب عن نافع أن عبد الرحمن بن أبي هريرة سأل ابن عمر فقال ان البحر قد قذف حيتانا كثيرة ميتة أفنأكلها فقال لا تأكلوها

وفاعل السؤال من حضر بدرا وقال الضحاك وعكرمة هو سؤال طلب وعن بمعنى من وهذا الاضرورة تدعو اليه وقيل صلة ويؤيده قراءة سعد بن أبي وقاص وابن مسعود وعلي ابن الحسين وغيرهم بدون عن والصحيح أنها على ارادة حرف الجر وكان سبب نزول الآية اختلاف الصحابة في غنائم يوم بدر فقال الشبان هي لنا لانا باشرنا القتال وقال الشيوخ كنا ردأ لكم تحت الرايات ولو انكشفتم لفئتم الينا أي لرجعتم الينا فنزع الله ما غنموه من أيديهم وجعله لله والرسول فقال (قل) لهم (الانفال لله والرسول) أي حكمها مختص بهما يقسمها بينكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أمر الله سبحانه حيث شاء وليس لكم حكم في ذلك فقسمها صلى الله عليه وآله وسلم بينهم على السواء رواه الحاكم في المستدرك وقد ذهب جماعة من الصحابة والتابعين الى أن الانفال كانت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاصة ليس لاحد فيها شيء حتى نزل قوله تعالى واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه فهي على هذا منسوخة وبه قال مجاهد وعكرمة والسدي وقال ابن زيد محكمة مجملة وقد بين الله مصارفها في آية الخمس وللامام أن ينفل من شاء من الجيش ما شاء قبل التخميس (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم) أي نفس ما بينكم والذي بينهم هو الوصلة الاسلامية فالبين هنا بمعنى الاتصال كما في قوله لقد تقطع بينكم والبين يطلق على الضدين الاتصال والفراق وذات هذا البين هي حاله أي الامور التي تحققه بالمودة وترك النزاع (وأطيعوا الله ورسوله) أمرهم بالتقوى واصلاح ذات البين وطاعة الله والرسول بالتسليم لامرهما وترك الاختلاف الذي وقع بينهم وقال امتثلوا هذه الاوامر الثلاثة (ان كنتم مؤمنين) بالله جوابه كما ذهب اليه أبو العباس المبرد وغيره أطيعوا الله السابق اذ يجوز عندهم تقديم الجواب على الشرط والصحيح ما ذهب اليه سيبويه وهو أنه محذوف لدلالة ما قبله عليه وفيه من التهييج والالهاب والتنشيط للمخاطبين والحث لهم على المسارعة الى الامتثال مالا يخفى مع كونهم في تلك الحال على الايمان فكأنه قال ان كنتم مستمرين على الايمان بالله لان هذه الامور الثلاثة لا يكمل الايمان بدونها بل لا يثبت أصلا لمن لم يمتثلها فان من ليس بمتق وليس بمطيع لهما ليس بمؤمن قال عطاء طاعة الله والرسول اتباع الكتاب والسنة أخرجه ابن أبي حاتم (انما المؤمنون) جملة مستأنفة مسوقة لبيان من أريد بالمؤمنين بذكر أوصافهم الجليلة

فلما رجع عبد الله الى أهله أخذ المصحف فقرأ سورة المائدة فأتى هذه الآية وطعامه متاعا لكم وللسيارة فقال اذهب فقل له فليأكل فانه طعامه وهكذا اختار ابن جرير أن المراد بطعامه مامات فيه قال وقد روى في ذلك خبر وان بعضهم يرويه موقوفا وحدثنا هناد بن السري قال حدثنا عبدة ابن سليمان عن محمد بن عمرو حدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم قال طعامه مالفظه ميتا ثم قال وقد وقف بعضهم هذا الحديث على أبي هريرة حدثنا هناد حدثنا ابن أبي زائدة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة في قوله أحل لكم صيد البحر وطعامه قال طعامه مالفظه ميتا وقوله متاعا لكم وللسيارة أي منفعة وقوتا لكم أيها المخاطبون وللسيارة وهو جمع سيار قال عكرمة لمن كان بحضرة البحر والسفر وقال غيره صيده ما اصطاد ممن حاضرة البحر وطعامه مامات فيه واصطيد منه وملح يكون زاد المسافرين والنائين عن البحر وقد روى نحوه عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما وقد استدل الجمهور على حل ميتته بهذه الآية الكريمة وبما رواه الامام مالك بن أنس عن ابن وهب وابن كيسان عن جابر بن عبد الله قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا قبل الساحل فأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح وهم ثلثمائة وأنا فيهم قال فخرجنا حتى اذا كنا ببعض الطريق فني الزاد فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش فجمع ذلك كله فكان مزودي تمر قال فكان يقوتنا كل يوم قليلا قليلا حتى فني فلم يكن يصيبنا الا تمرة تمرة فقال فقد وجدنا فقدها حين فنيت ثم انتهينا الى البحر فاذا حوت مثل الظرب فأكل منه ذلك الجيش ثمان عشرة ليلة

ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعها فانصب ثم أمر براحلة فرحلت ومرت تحتها فلم تصبها وهذا الحديث مخرج من الصحيحين

وله طرق عن جابر وفي صحيح مسلم من رواية أبي الزبير عن جابر فاذا على ساحل البحر مثل الكثيب الضخم فأتيناه فاذا دابة يقال لها العنبر قال قال أبو عبيدة ميتة ثم قال لا نحن رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد اضطررتم فكلوا قال فأقمنا عليه شهرا ونحن ثلثمائة حتى سمنا ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينيه بالقلال الدهن ونقتطع منه القدر كالثور قال ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلا فأقعدهم في وقب عينيه وأخذ ضلعا من اضلاعه فأقامها ثم رحل أعظم بعير معنا فمر من تحته وتزودنا من لحمه وشائق فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا ذلك له فقال هو رزق أخرجه الله لكم هل معكم من لحمه شيء فتطعمونا قال فأرسلنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه فأكله وفي بعض روايات مسلم انهم كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم حين وجدوا هذه السمكة فقال بعضهم هي واقعة أخرى وقال بعضهم هي قضية واحدة ولكن كانوا أولا مع النبي صلى الله عليه وسلم ثم بعثهم سرية مع أبي عبيدة فوجدوا هذه في سريتهم تلك مع أبي عبيدة والله أعلم وقال مالك عن صفوان بن سليم عن سعيد بن سلمة من آل ابن الازرق أن المغيرة بن أبي بردة وهو من بني عبد الدار أخبره انه سمع أبا هريرة يقول سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله انا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء فان توضأنا به عطشنا افنتوضأ بماء البحر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الطهور ماؤه الحل ميتته وقد روى هذا الحديث الامامان الشافعي وأحمد بن حنبل وأهل السنن الاربع وصححه البخاري والترمذي وابن خزيمة وابن حبان وغيرهم وقد روى عن جماعة من الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه وقد روى الامام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه من طرق عن حماد بن سلمة حدثنا أبو المهزم هو يزيد بن سفيان سمعت أبا هريرة يقول كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حج أو عمرة فاستقبلنا رجل جراد فجعلنا نضربهن بعصينا فنقتلهن فسقط في أيدينا فقلنا ما نصنع ونحن محرمون فسألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لا بأس بصيد البحر أبو المهزم ضعيف والله أعلم وقال ابن ماجه حدثنا هرون بن عبد الله الجمال حدثنا هاشم بن القاسم

المستتبعة لما ذكر من الخلال الثلاث وفيه مزيد ترغيب لهم في الامتثال بالاوامر المذكورة أي انما الكاملون في الايمان المخلصون فيه (الذين اذا ذكر الله) أي وعيده (وجلت) أي فزعت وخضعت وخافت ورقت (قلوبهم) لذكر الله استعظاما له وتهيبا من جلاله والوجل الخوف والفزع يقال وجل بالكسر في الماضي يوجل بالفتح وقرئ كوعد يعد ويقال باثبات الواو في المضارع والمراد أن حصول الخوف من الله والفزع منه عند ذكره هو شأن المؤمنين الكاملي الايمان المخلصين لله فالحصر باعتبار كمال الايمان لا باعتبار أصل الايمان قال جماعة من المفسرين هذه الآية متضمنة التحريض على طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما أمر به من قسمة الغنائم ولا يخفاك أن هذا وان صح ادراجه تحت معنى الآية من جهة أن وجل القلوب عند الذكر وزيادة الايمان عند تلاوة آيات الله يستلزمان امتثال ما أمر به سبحانه من كون الانفال لله والرسول ولكن الظاهر أن مقصود الآية هو اثبات هذه المزية لمن كمل ايمانه من غير تقييد بحال دون حال ولا بوقت دون وقت ولا بواقعة دون واقعة وعن ابن عباس وجلت فرقت وقال المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند اداء فرائضه ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ولا يتوكلون على الله ولا يصلون اذا غابوا ولا يؤدون زكاة أموالهم فأخبر الله أنهم ليسوا بمؤمنين ثم وصف المؤمنين فقال انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم وأدوا فرائضه وعن أم الدرداء قالت انما الوجل في القلب كاحتراق السعفة يا شهر بن حوشب أما تجد قشعريرة قلت بلى قالت فادع عندها فان الدعاء يستجاب عند ذلك وقال ثابت البناني قال فلان اني لاعلم متى يستجاب لي قالوا ومن أين لك قال اذا اقشعر جلدي ووجل قلبي وفاضت عيناي فذلك حين يستجاب لي وعن عائشة قالت ما الوجل في قلب المؤمن الا كضرمة السعفة فاذا وجل أحدكم فليدع عند ذلك وعن السدي قال هو الرجل يريد أن يظلم أو يهم بمعصية فيقال له اتق الله فيجل قلبه فان قيل قال هنا وجلت قلوبهم وقال في آية أخرى وتطمئن قلوبهم فكيف الجمع بينهما قلت الاطمئنان بذكره بصفات الجمال والوجل انما هو بذكر وعيده (واذا تليت عليهم آياته) المراد من التلاوة تلاوة الآيات المنزلة أو التعبير عن بديع صنعته وكمال قدرته في آياته التكوينية بذكر خلقها البديع وعجائبها التي يخشع عند ذكرها المؤمنون (زادتهم ايمانا) أي تصديقا

حدثنا زياد بن عبد الله بن علاثة عن موسى بن محمد بن ابراهيم عن أبيه عن جابر وأنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا دعا على الجراد قال اللهم أهلك كباره واقتل صغاره وأفسد بيضه واقطع دابره وخذ بأفواهه عن معايشنا وارزاقنا انك سميع الدعاء فقال خالد يارسول الله كيف تدعو على أجناد من أجناد الله بقطع دابره فقال ان الجراد نثرة حوت في البحر قال هشام قال زياد فحدثني من رأى الحوت ينثره تفرد به ابن ماجه وقد روى الشافعي عن سعيد عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس انه أنكر على من يصيد الجراد في الحرم وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من الفقهاء الى أنه يؤكل دواب البحر ولم يستثن من ذلك شيأ وقد تقدم عن الصديق أنه قال طعامه كل ما فيه وقد استثنى بعضهم الضفادع وأباح ما سواها لما رواه الامام أحمد وأبو داود والنسائي من رواية ابن أبي ذئب عن سعيد بن خالد عن سعيد بن المسيب عن أبي عبد الرحمن بن عثمان التيمي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن قتل الضفدع وللنسائي عن عبد الله بن عمرو قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الضفدع وقال نقيقها تسبيح وقال آخرون يؤكل من صيد البحر السمك ولا يؤكل الضفدع واختلفوا فيما سواهما فقيل يؤكل سائر ذلك وقيل لا يؤكل وقيل ما أكل شبهه من البر أكل مثله في البحر وما لا يؤكل شبهه لا يؤكل وهذه كلها وجوه في مذهب الشافعي رحمه الله تعالى وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى لا يؤكل ما مات في البحر كما لا يؤكل ما مات في البر لعموم قوله حرمت عليكم الميتة وقد ورد حديث بنحو ذلك فقال ابن مردويه حدثنا عبد الباقي هو ابن قانع حدثنا الحسين بن اسحق التستري وعبد الله بن موسى بن أبي عثمان قالا حدثنا الحسين بن يزيد الطحان حدثنا حفص بن غياث عن ابن أبي ذئب عن أبي الزبير عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صدتموه وهو حي فمات فكلوه وما ألقى البحر ميتا طافيا فلا تأكلوه ثم رواه من طريق اسمعيل بن أمية ويحيى بن أبي أنيسة عن أبي الزبير عن جابر به وهو منكر وقد احتج الجمهور من أصحاب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل بحديث العنبر المتقدم ذكره وبحديث هو الطهور ماؤه الحل ميتته وقد تقدم أيضا وروى الامام أبو عبد الله الشافعي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه

قاله ابن عباس وعن الربيع بن أنس قال خشية والمراد بزيادة الايمان هو زيادة انشراح الصدر وطمأنينة القلب وانفلاج الخاطر عند تلاوة الآيات وقيل المراد بها زيادة العمل لان الايمان شيء واحد لا يزيد ولا ينقص والآيات المتكاثرة والاحاديث المتواترة ترد ذلك وتدفعه والآية صريحة في زيادة الايمان وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الايمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا اله الا الله وأدناها اماطة الاذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان أخرجه الشيخان وفي هذا دليل على أن الايمان فيه أعلى وأدنى واذا كان كذلك كان قابلا للزيادة والنقصان قال الواحدي عن عامة أهل العلم ان كل من كانت الدلائل عنده أكثر وأقوى كان ايمانه أزيد قال الكرخي ان نفس التصديق يقبل القوة وهي التي عبر عنها بالزيادة للفرق المميز بين يقين الانبياء وأرباب المكاشفات ويقين آحاد الامة ويؤيد ذلك قول علي رضي الله عنه لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا وكذا من قام عليه دليل واحد ومن قامت عليه أدلة كثيرة لان تظاهر الادلة أقوى للمدلول عليه وأثبت لقدمه وعليه يحمل ما نقل عن الشافعي من أنه يقبل الزيادة والنقص فلا يرد كيف قال ذلك مع أن حقيقة الايمان عند الاكثر لا تزيد ولا تنقص كالالهية والوحدانية اه وقيل المعنى أنهم كلما سمعوا آية جديدة أتوا باقرار جديد وتصديق جديد فكان ذلك زيادة في ايمانهم (وعلى ربهم يتوكلون) التوكل على الله تفويض الامر اليه في جميع الامور قال ابن عباس لا يرجون غيره وعلى بمعنى الباء ويتوكلون بمعنى يثقون وتقديم المعمول للحصر وقال السمين التقديم يفيد الاختصاص أي عليه لا على غيره والجملة في محل الحال أو مستأنفة أو معطوفة على الصلة (الذين يقيمون الصلاة) المفروضة بحدودها وأركانها في أوقاتها ومن في (ومما) للتبعيض (رزقناهم ينفقون) ويدخل فيه النفقة في الزكاة والحج والجهاد وغير ذلك من الانفاق في أنواع البر والقربات وخص اقامة الصلاة والصدقة لكونهما أصل الخير وأساسه (أولئك) أي المتصفون بالاوصاف المتقدمة (هم المؤمنون) أي الكاملون الايمان البالغون فيه الى أعلى درجاته وأقصى غاياته (حقا) أي حق ذلك حقا أو ايمانا حقا يعني يقينا لا شك في ايمانهم وصدقا لا ريب فيه قال ابن عباس برئوا من الكفر وحقا أي خالصا وقيل التقدير حقا لهم درجات وهذا انما يجوز على رأي ضعيف أعني تقديم المصدر

وسلم أحلت لنا ميتتان ودمان فاما المتتان فالحوت والجراد وأما الدمان فالكبد والطحال ورواه أحمد وابن ماجه والدارقطني والبيهقي وله شواهد وروي موقوفا والله أعلم وقوله وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرما أي في حال احرامكم يحرم عليكم الاصطياد ففيه دلالة على تحريم ذلك فاذا اصطاد المحرم الصيد متعمدا أثم وغرم أو مخطأ غرم وحرم عليه أكله لانه في حقه كالميتة وكذا في حق غيره من المحرمين والمحلين عند مالك والشافعي في أحد قوليه وبه يقول عطاء والقاسم وسالم وأبو يوسف ومحمد بن الحسن وغيرهم فان أكله أو شيأ منه فهل يلزمه جزاء فيه قولان للعلماء أحدهما نعم قال عبد الرزاق عن ابن جريج عن عطا قال ان ذبحه ثم أكله فكفارتان واليه ذهب طائفة والثاني لاجزاء عليه في أكله نص عليه مالك بن أنس قال أبو عمر بن عبد البر وعلى هذا مذاهب فقهاء الانصار وجمهور العلماء ثم وجهه أبو عمر بما لو وطئ ثم وطئ ثم وطئ قبل أن يحد فانما عليه حد واحد وقال أبو حنيفة عليه قيمة ما أكل وقال أبو ثور اذا قتل المحرم الصيد فعليه جزاؤه وحلال أكل ذلك الصيد الا أنى أكرهه للذي قتله للخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صيد البر لكم حلال مالم تصيدوه أو يصد لكم وهذا الحديث سيأتي بيانه وقوله باباحته للقاتل غريب وأما لغيره ففيه خلاف قد ذكرنا المنع عمن تقدم وقال آخرون باباحته لغير القاتل سواء المحرمون والمحلون لهذا الحديث والله أعلم وأما اذا صاد حلال صيدا فأهداه الى محرم فقد ذهب ذاهبون الى اباحته مطلقا ولم يستفصلوا بين أن يكون قد صاده لاجله أم لا حكى هذا القول أبو عمر بن عبد البر عن عمر بن الخطاب وأبي هريرة والزبير بن العوام وكعب الاحبار ومجاهد وعطاء في رواية وسعيد بن جبير وبه قال الكوفيون قال ابن جرير حدثنا محمد ابن عبد الله بن بزيغ حدثنا بشر بن المفضل حدثنا سعيد عن قتادة أن سعيد بن المسيب حدثه عن أبي هريرة أنه سئل عن لحم صيد صاده حلال أيأكله المحرم قال فأفتاهم بأكله ثم لقي عمر بن الخطاب فأخبره بما كان من أمره فقال لو أفتيتهم بغير هذا لاوجعت لك رأسك وقال آخرون لايجوز أكل الصيد للمحرم بالكلية ومنعوا من ذلك مطلقا لعموم هذه الآية الكريمة وقال عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس وعبد الكريم عن ابن أبي آسية عن طاوس عن ابن عباس أنه كره أكل الصيد للمحرم وقال هي مبهمة يعني

المؤكد لمضمون جملة عليها وقد استدل بظاهر هذه الآية أبو حنيفة ومن قال بقوله انه يجوز أن يقول أنا مؤمن حقا ولا يجوز الاستثناء وأجيب عنه بأن الاستثناء ليس على طريق الشك بل للتبرك كقوله وانا ان شاء الله بكم لاحقون مع العلم القطعي أنه لاحق بهم أو المراد صرف الاستثناء الى الخاتمة والنزاع عند التحقيق لفظي كما تقرر في موطنه وانما حكم سبحانه بكونهم مؤمنين حقا في هذه الآية اذا أتوا بتلك الاوصاف الخمسة كما يفيده لفظة انما لانها للحصر (لهم درجات) يعني فضائل ورحمة قاله سعيد بن جبير وعن مجاهد قال أعمال رفيعة وقال الضحاك أهل الجنة بعضهم فوق بعض فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه ولا يرى الاسفل فضل أحد عليه ذكر ما أعد لمن كان جامعا بين هذه الاوصاف من الكرامة فقال لهم منازل خير وكرامة وشرف في الجنة كائنة (عند ربهم) وفي كونها عنده سبحانه زيادة تشريف لهم وتكريم وتعظيم وتفخيم (ومغفرة) لذنوبهم وعن ابن زيد قال بترك الذنوب (ورزق كريم) دائم مستمر يكرمهم الله به من واسع فضله وفائض جوده وعن ابن زيد قال هو الاعمال الصالحة وعن محمد بن كعب القرظي قال اذا سمعتم الله يقول ورزق كريم فهي الجنة (كما أخرجك ربك) قال الزجاج أي الانفال ثابتة لك مثل اخراج ربك وبه قال المبرد والمعنى امض لامرك في الغنائم ونفل من شئت وان كرهوا لان بعض الصحابة قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين جعل لكل من أتى بأسير شيأ قال بقي أكثر الناس بغير شئ فموضع الكاف نصب وقال أبو عبيدة هو قسم أي والذي أخرجك فالكاف بمعنى الواو وما بمعنى الذي وقال الاخفش المعنى أولئك هم المؤمنون حقا كما أخرجك ربك وقال عكرمة المعنى أطيعوا الله ورسوله كما أخرجك ربك وقيل الكاف كاف التشبيه على سبيل المجازاة وقيل بمعنى على أي امض على الذي أخرجك فانه حق وقيل بمعنى اذ أي اذكر يا محمد اذ أخرجك وقيل هذه الحال كحال اخراجك يعني أن حالهم في كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم في كراهة خروجك للحرب ذكره صاحب الكشاف وقال السمين فيه عشرون وجها * الثاني منها أن تقديره أصلحوا ذات بينكم اصلاحا كما أخرجك وقد التفت من خطاب الجماعة الى خطاب الواحد * الثالث تقديره وأطيعوا الله ورسوله طاعة ثابتة محققة كما أخرجك * الرابع تقديره يتوكلون توكلا حقيقيا كما أخرجك * السادس عشر منها تقديره قسمتك

الغنائم

قوله وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما قال وأخبرني معمر عن الزهري عن ابن عمر أنه كان يكره للمحرم أن يأكل من لحم الصيد
على كل حال قال معمر وأخبرني أيوب عن نافع عن ابن عمر مثله قال ابن عبد البر وبه قال طاوس وجابر بن زيد واليه ذهب الثوري
واسحق بن راهويه في رواية وقد روي نحوه عن علي بن أبي طالب رواه ابن جرير من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن
سعيد بن المسيب أن عليا كره أكل لحم الصيد للمحرم على كل حال وقال مالك والشافعي وأحمد بن حنبل واسحق بن راهويه في
رواية والجمهور ان كان الحلال قد قصد المحرم بذلك الصيد لم يجز للمحرم أكله لحديث الصعب بن جثامة انه اهدى
للنبي صلى الله عليه وسلم حمارا
وحشيا وهو بالابواء أو بودان فرد
عليه فلما رأى ما في وجهه قال انا لم
نرده عليك الا أنا حرم وهذا الحديث
مخرج في الصحيحين وله ألفاظ
كثيرة قالوا فوجهه أن النبي صلى
الله عليه وسلم ظن ان هذا انما
صاده من أجله فرده لذلك فأما اذا
لم يقصده بالاصطياد فانه يجوز له
الاكل منه لحديث أبي قتادة
حين صاد حمار وحش وكان حلالا
لم يحرم وكان الصحابة محرمين
فتوقفوا في أكله ثم سألوا رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال هل كان
منكم أحد أشار اليها أو أعان في
قتلها قالوا لا قال فكلوا وأكل
منها رسول الله صلى الله عليه وسلم
وهذه القصة ثابتة أيضا في
الصحيحين بألفاظ كثيرة وقال
الامام أحمد حدثنا سعيد بن
منصور وقتيبة بن سعيد قالا حدثنا
يعقوب بن عبد الرحمن عن عمرو
ابن أبي عمرو عن المطلب بن عبد الله
ابن حنطب عن جابر بن عبد الله
قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم وقال قتيبة في حديثه سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول صيد البر لكم حلال قال سعيد وأنتم حرم ما لم تصيدوه أو يصد لكم وكذا رواه أبو داود
والترمذي والنسائي جميعا عن قتيبة وقال الترمذي لا نعرف للمطلب سماعا من جابر ورواه الامام محمد بن ادريس الشافعي رضي
الله عنه من طريق عمرو بن أبي عمرو عن مولاه المطلب عن جابر ثم قال وهذا أحسن حديث روي في هذا الباب وأقيس وقال مالك
رضي الله عنه عن عبد الله بن أبي بكر عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال رأيت عثمان بن عفان بالعرج وهو محرم في يوم صائف
قد غطى وجهه بقطيفة أرجوان ثم أتي بلحم صيد فقال لاصحابه كلوا فقالوا أولا تأكل أنت فقال اني لست كهيئتكم انما صيد

الغنائم حق كما كان اخراجك حقا * السابع عشر أن التشبيه وقع بين اخراجين اه (من بيتك) أي المدينة أو بيتك الذي بها (بالحق) أي اخراجا متلبسا بالحق لا شبهة فيه وقال مجاهد كما أخرجك ربك من بيتك بالحق كذلك يجادلونك في خروج القتال وعن السدي قال خروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم الى بدر وقيل المراد اخراجه من مكة الى المدينة للهجرة والاول أولى وبه قال جمهور المفسرين وقيل هذا الوعد للمؤمنين حق في الآخرة كما أخرجك ربك من بيتك بالحق الواجب له فأنجز وعدك وظفرك بعدوك وأوفى لك ذكره النحاس واختاره وفي الجمل أي أخرجك من المدينة لتأخذ العير التي مع أبي سفيان أي فتغنمها فأصل خروج النبي والمؤمنين لاجل أن يغنموا القافلة فلم تكن في خروجهم كراهة وانما عرضت لهم الكراهة بعد الخروج قريب بدر لما أخبروا أن العير نجت منهم وأن قريشا أتوا الى بدر وأشار عليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنهم يمضون الى قتال قريش الذين خرجوا ليذبوا المسلمين عن القافلة فكره المسلمون القتال لا عصيانا بل بالطبع حيث خرجوا من غير استعداد للقتال لا بعدد ولا بعدد وانما كان أصل خروجهم لاخذ الغنيمة لقوله (وان فريقا من المؤمنين لكارهون) حال مقدرة لما علمت أن الكراهة لم تقارن الخروج وقيل أي كما أخرجك في حال كراهتهم لذلك لانه لما وعدهم الله احدى الطائفتين اما العير أو النفير رغبوا في العير لما فيها من الغنيمة والسلامة من القتال وكرهوه لقلة عددهم وسلاحهم وكثرة عدوهم وسلاحهم وفي لكارهون مراعاة معنى الفريق (يجادلونك) ومجادلتهم لما ندبهم الى احدى الطائفتين وفات العير وأمرهم بقتال النفير ولم يكن معهم كثير أهبة لذلك شق عليهم وقالوا لو أخبرتنا بالقتال لاخذنا العدة وأكملنا الاهبة والجملة مستأنفة أو حال ثانية أي أخرجك حال مجادلتهم أو حال من الضمير في لكارهون أي لكارهون في حال الجدال والضمير يجوز أن يعود على الكفار وجدالهم ظاهر والظاهر أنه يعود على الفريق المتقدم (في الحق) أي في القتال (بعد ما تبين) لهم أنك لا تأمر بشئ الا باذن الله أو بعد ما تبين لهم ان الله وعدهم بالظفر باحدى الطائفتين وأن العير اذا فاتت ظفروا بالنفير (كأنما يساقون الى الموت) أي حال كونهم في شدة فزعهم من القتال يشبهون حال من يساق بالعنف والصغار ليقتل (وهم ينظرون) يعني الى الموت لكن هو مشاهد لاسباب قتله ناظر اليها بعينه لا يشك فيها والجامع بينهما الكراهة في كل

جلى (قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم وان تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين) يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم قل يا محمد لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث يعنى أن القليل الحلال النافع خير من الكثير النافع الحرام كما جاء ما قل وكفى خير مما كثر وألهى وقال أبو القاسم البغوى فى معجمه حدثنا أحمد بن زهير حدثنا الحوطى (٨) حدثنا محمد بن شعيب حدثنا معان بن رفاعة عن على بن يزيد عن القاسم عن أبى امامة أن ثعلبة ابن حاطب قال يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا قال قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه فاتقوا الله يا أولى الألباب أى يا ذوى العقول الصحيحة المستقيمة وتجنبوا الحرام ودعوه واقنعوا بالحلال واكتفوا به لعلكم تفلحون أى فى الدنيا والآخرة ثم قال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين ونهى لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم فى السؤال والتنقيب عنها لانها ان ظهرت لهم تلك الامور ربما أساءتهم وشق عليهم سماعها كما جاء فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يبلغنى أحد عن أحد شيأ انى أحب أن أخرج اليكم وأنا سليم الصدر وقال البخارى حدثنا منذر بن الوليد بن عبد الرحمن الجارودى حدثنا أبى حدثنا شعبة عن موسى بن أنس عن أنس بن مالك قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها قط وقال فيها لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا قال فغطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوههم لهم حنين فقال رجل من أبى قال فلان فنزلت هذه الآية لا تسألوا عن أشياء رواه النضر وروح ابن عبادة عن شعبة وقد رواه البخارى فى غير هذا الموضع ومسلم وأحمد والترمذى والنسائى من طرق عن شعبة بن الحجاج به وقال ابن جرير حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة فى قوله يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم الآية قال فحدثنا أن أنس بن مالك حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سألوه حتى أحفوه بالمسئلة فخرج عليهم ذات يوم فصعد المنبر فقال

(واذ يعدكم الله احدى الطائفتين) أى واذكروا وقت وعد الله اياكم وأمرهم بتذكر الوقت مع أن المقصود ذكر ما فيه من الحوادث لقصد المبالغة والطائفتان هما فرقة أبى سفيان مع العير وفرقة أبى جهل مع النفير (أنها) أى احدى الطائفتين مسخرة (لكم) وانكم تغلبونها وتغنمون منها وتصنعون بها ما شئتم من قتل وأسر وغنيمة لا يطيقون لكم دفعا ولا يملكون لانفسهم منكم ضرا ولا نفعا وفى هذه الجملة تذكير لهم بنعمة من النعم التى أنعم الله بها عليهم (وتودون) أى تريدون وتتمنون معطوف على يعدكم من جملة الحوادث التى أمروا بذكر وقتها (أن غير ذات الشوكة) من الطائفتين وهى طائفة العير التى ليس فيها قتال ولا شوكة (تكون لكم) دون ذات الشوكة وهى طائفة النفير قال أبو عبيدة أى غير ذات الحد والشوكة السلاح والنبت الذى له حد ومنه رجل شائك السلاح أى حديد السلاح ثم يقلب فيقال شاكى السلاح فالشوكة مستعارة من واحدة الشوك والمعنى وتودون أن تظفروا بالطائفة التى ليس معها سلاح وهى طائفة العير لانها غنيمة صافية عن كدر القتال اذ لم يكن معها من يقوم بالدفع عنها قال الضحاك وهى عير أبى سفيان ود أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن العير كانت لهم وأن القتال صرف عنهم (ويريد الله أن يحق الحق بكلماته) وهو من جملة ما أمروا بذكر وقته أى ويريد الله غير ما تريدون وهو أن يحق الحق باظهاره لما قضاه من ظفركم بذات الشوكة وقتلكم لصناديدهم وأسر كثير منهم واغتنام ما غنمتم من أموالهم التى أجلبوا بها عليكم وراموا دفعكم بها والمراد بالكلمات الآيات التى أنزلها فى محاربة ذات الشوكة ووعدكم منه بالظفر بها وقيل الكلمات عداته التى سبقت لكم من اظهار الدين واعزازه وقيل أسباب النصر مثل نزول الملائكة وأوامره لهم بالامداد (ويقطع دابر الكافرين) الدابر الآخر وقطعه عبارة عن الاستئصال والمعنى ويستأصلهم جميعا حتى لا يبقى منهم أحد (ليحق الحق ويبطل الباطل) هذه الجملة علة لما يريده الله أى أراد ذلك أو يريده ليظهر الحق ويرفعه وهو الاسلام ويبطل الباطل ويضعه وهو الكفر أو فعل ذلك ليحق الحق وليس فى هذه الجملة تكرير لما قبلها لان الاولى لبيان التفاوت فيما بين الارادتين وهذه لبيان الحكمة الداعية الى ذلك والعلة المقتضية له والمصلحة المترتبة عليه وقيل لا يقال فيه تحصيل الحاصل اذ المراد بالحق الايمان وبالباطل الشرك وقيل المراد بالاول تثبيت ما وعد به

فى

لاتسألوني اليوم عن شيء الا بينته لكم فأشفق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون بين يدى أمر قد حضر فجعلت لا ألتفت لاعينا ولا شمالا الا وجدت كلا لافا رأسه في ثوبه يبكي فأنشأ رجل كان يلاحى فيدعى الى غير أبيه فقال يا نبي الله من أبي قال أبوك حذافة قال ثم قام عمر أو قال فأنشأ عمر فقال رضينا بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا عائذا بالله أو قال أعوذ بالله من شر الفتن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أر في الخير والشر كاليوم قط صورت لى الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط أخرجاه من طريق سعيد ورواه معمر عن الزهري عن أنس بنحو ذلك أو قريبا منه (٩) قال الزهري فقالت أم عبد الله بن حذافة ما رأيت ولدا أعق منك قالت أكنت تأمن أن أمك قد قارفت ما قارف أهل الجاهلية فتفضحها على رؤس الناس فقال والله لو ألحقني بعبد أسود للحقته وقال ابن جرير أيضا حدثنا الحرث حدثنا عبد العزيز حدثنا قيس عن أبي حصين عن أبي صالح عن أبي هريرة قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غضبان محمار وجهه حتى جلس على المنبر فقام اليه رجل فقال أين أنا قال في النار فقام آخر فقال من أبي قال أبوك حذافة فقام عمر بن الخطاب فقال رضينا بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا وبالقرآن اماما انا يا رسول الله حديثو عهد بجاهلية وشرك والله أعلم من آباؤنا قال فسكن غضبه ونزلت هذه الآية يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم الآية اسناده جيد وقد ذكر هذه القصة مرسلة غير واحد من السلف منهم أسباط عن السدى أنه قال في قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم قال غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما من الايام فقام خطيبا فقال سلوني فانكم لا تسألوني عن شيء الا أنبأتكم به فقام اليه رجل من قريش من بني سهم يقال له عبد الله بن حذافة وكان يطعن فيه فقال يا رسول الله من أبي فقال أبوك فلان فدعاه لابيه فقام اليه عمر بن الخطاب فقبل رجله وقال يا رسول الله رضينا بالله ربا وبك نبيا وبالاسلام دينا وبالقرآن اماما فاعف عنا عفا الله عنك فلم يزل به حتى رضى فيومئذ قال الولد للفراش وللعاهر الحجر ثم قال البخاري حدثنا الفضل بن سهل حدثنا أبو النضر حدثنا أبو خيثمة حدثنا أبو الجويرية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كان قوم يسألون رسول الله صلى الله

في هذه الواقعة من النصرة والظفر بالاعداء وبالثاني تقوية الدين واظهار الشريعة لان الذي وقع يوم بدر من نصر المؤمنين مع قلتهم ومن قهر الكافرين مع كثرتهم كان سببا لاعزاز الدين وقوته ولهذا قرنه بقوله ويبطل الباطل (ولو كره) أن يحق الحق ويبطل الباطل (المجرمون) أي المشركون من قريش أو جميع طوائف الكفار ووقعة بدر قد اشتملت عليها كتب الحديث والسير والتواريخ مستوفاة فلا نطيل بذكرها (اذ تستغيثون ربكم) أي اذكروا وقت استغاثتكم تذكيرا لهم بنعمة أخرى والمقام للماضي وانما عبر بالمضارع حكاية للحال الماضية أي اذ تستجيرون بربكم من عدوكم وتطلبون منه الغوث والنصر والاستغاثة طلب الغوث يقال استغاثني فلان فأغثته والاسم الغياث والمعنى أن المسلمين لما علموا أنه لابد من قتال الطائفة ذات الشوكة وهم النفير كما أمرهم الله بذلك وأراده منهم ورأوا كثرة عدد النفير وقلة عددهم استغاثوا بالله سبحانه وهو معنى قول الازهري وقيل المستغيث هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحده وانما ذكره بلفظ الجمع تعظيما له وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب أن عدد المشركين يوم بدر ألف وعدد المسلمين ثلثمائة وسبعة عشر رجلا وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما رأى ذلك استقبل القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه اللهم أنجز لى ما وعدتني اللهم آتني ما وعدتني اللهم ان تهلك هذه العصابة من أهل الاسلام لا تعبد في الارض فما زال يهتف بربه حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فانه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عز وجل هذه الآية (فاستجاب لكم) عطف على تستغيثون داخل معه في التذكير وهو وان كان مستقبلا فهو بمعنى الماضي ولهذا عطف عليه استجاب (أني) أي بأني (ممدكم) بوعدي اياكم بالامداد وذلك لانه وقت الاجابة لم يحصل الامداد بالفعل لان الدعاء واستجابته كانا قبل وقوع القتال (بألف من الملائكة مردفين) قرئ بكسر الدال وفتحها وهما واضحتان لانه يروى في التفسير أنه كان وراء كل ملك ملك رديفا له فقراءة الفتح تشعر بأن غيرهم أردفهم لركوبهم خلفهم وقراءة الكسر تشعر بأن الراكب خلف صاحبه قد أردفه فصح التعبير باسم الفاعل تارة واسم المفعول أخرى وجعل أبو البقاء مفعول مردفين بالكسر محذوفا أي مردفين أمثالهم ويجوز أن يكون معنى الارداف المجيء بعد الاوائل أي جعلوا ردفا للاوائل قاله

عليه وسلم استهزاء فيقول الرجل من أبي ويقول الرجل تضل ناقته أين ناقتي فأنزل الله فيهم هذه الآية يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم حتى فرغ من الآية كلها تفرد به البخاري وقال الامام أحمد حدثنا منصور بن وردان الاسدي حدثنا علي بن عبد الاعلى عن أبيه عن أبي البختري وهو سعيد بن فيروز عن علي قال لما نزلت هذه الآية ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا قالوا يا رسول الله أفي كل عام فسكت فقالوا أفي كل عام فسكت قال ثم قالوا أفي كل عام فقال لا ولو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم فأنزل الله يا أيها الذين (١٠) آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم الآية وكذا رواه الترمذي وابن ماجه من طريق منصور بن وردان به وقال الترمذي غريب من هذا الوجه وسمعت البخاري يقول أبو البختري لم يدرك عليا وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا عبد الرحيم بن سليمان عن ابراهيم بن مسلم الهجري عن ابن عياض عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله كتب عليكم الحج فقال رجل أفي كل عام يا رسول الله فأعرض عنه حتى عاد مرتين أو ثلاثا فقال من السائل فقال فلان فقال والذي نفسي بيده لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت عليكم ما أطقتموه ولو تركتموه لكفرتم فأنزل الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم حتى ختم الآية ثم رواه ابن جرير من طريق الحسين ابن واقد عن محمد بن زياد عن أبي هريرة وقال فقام محصن الاسدي وفي رواية من هذا الطريق عكاشة بن محصن وهو أشبه وابراهيم بن مسلم الهجري ضعيف وقال ابن جرير أيضا حدثني زكريا بن يحيى عن صفوان بن عمرو حدثني سليم بن عامر قال سمعت أبا أمامة الباهلي يقول قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس فقال كتب عليكم الحج فقام رجل من أنه الاعراب فقال أفي كل عام قال فعلق كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسكت واستغضب ومكث طويلا ثم تكلم فقال من السائل فقال الاعرابي أنا ذا فقال ويحك ماذا يؤمنك ان أقول نعم والله لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لكفرتم ألا انه انما أهلك الذين من قبلكم أئمة الحرج والله لو اني أحللت لكم جميع ما في الارض وحرمت عليكم منها موضع خف لوقعتم فيه قال فأنزل الله عند ذلك يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم الى آخر الآية في اسناده ضعف وظاهر الآية النهي عن السؤال عن الاشياء التي اذا علم

السمين وقد قيل ان ردف وأردف بمعنى واحد وأنكره أبو عبيدة قال لقوله تعالى تتبعها الرادفة ولم يقل المردفة قال ابن عباس مردفين متتابعين وعنه قال المدد وعنه قال وراء كل ملك ملك وعن الشعبي قال كان ألف مردفين وثلاثة آلاف منزلين وكانوا أربعة آلاف وهم مدد المسلمين في ثغورهم وقال مجاهد مردفين ممدين وقال قتادة متتابعين أمدهم الله بألف ثم بثلاثة ثم أكملهم خمسة آلاف وعن علي قال نزل جبريل في خمسمائة من الملائكة عن ميمنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفيها أبو بكر ونزل ميكائيل في خمسمائة من الملائكة عن ميسرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأنا في الميسرة وعن مجاهد قال ما أمد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأكثر من هذه الالف التي ذكر الله في الانفال وما ذكر الثلاثة الآلاف والخمسة الآلاف الا بشرى قال في الجمل لم يثبت أن الملائكة قاتلت في وقعة الا في بدر وأما في غيرها فكانت تنزل لتكثير عدد المسلمين ولا تقاتل كما وقع في حنين (وما جعله الله) أي الامداد المدلول عليه بقوله أني ممدكم (الا بشرى) أي بشارة لكم بنصره وهو استثناء مفرغ أي ما جعل امدادكم بشيء من الاشياء الا للبشرى لكم بالنصر (ولتطمئن به) أي بالامداد (قلوبكم) وفي هذا اشعار بأن الملائكة لم يقاتلوا بل أمد الله المسلمين بهم للبشرى لهم وتثبيت قلوبهم يعني بنزول الملائكة قال قتادة وذكر لنا أن عمر قال أما يوم بدر فلا نشك أن الملائكة كانوا معنا وأما بعد ذلك فالله أعلم (وما النصر الا من عند الله) لا من عند غيره ليس للملائكة في ذلك أثر فهو الناصر على الحقيقة وليسوا الا سببا من أسباب النصر التي سببها الله لكم وأمدكم بها وفيه تنبيه على أن الواجب على المسلم أن لا يتوكل الا على الله في جميع أحواله ولا يثق بغيره فان الله تعالى بيده الظفر والاعانة (ان الله عزيز) لا يغالب (حكيم) في كل أفعاله (اذ يغشيكم) الفاعل هو الله وفيه ثلاث قرآت سبعية يغشاكم كيلقاكم من غشيه اذا أتاه وأصابه ويغشيكم من أغشاه أي أنزله بكم وأوقعه عليكم ويغشيكم من غشاه تغشية غطاه وقيل الفاعل (النعاس أمنة منه) وهو النوم الخفيف والاكثر على الاول وهذه الآية تتضمن ذكر نعمة أنعم الله بها عليهم وهي أنهم مع خوفهم من لقاء العدو والمهابة لجانبه سكن الله قلوبهم وأمنها حتى ناموا آمنين غير خائفين وكان هذا النوم في الليلة التي كان القتال في غدها قيل وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان أحدهما

بها الشخص ساءته فالاولى الاعراض عنها وتركها وما أحسن الحديث الذى رواه الامام أحمد حيث قال حدثنا حجاج قال سمعت اسرائيل بن يونس عن الوليد بن أبى هاشم مولى الهمدانى عن زيد بن زائد عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصحابه لا يبلغنى أحد عن أحد شيأ فانى أحب أن أخرج اليكم وأنا سليم الصدر الحديث وقد رواه أبو داود والترمذى من حديث اسرائيل قال أبو داود وعن الوليد وقال الترمذى عن اسرائيل عن السدى عن الوليد بن أبى هاشم به ثم قال الترمذى غريب من هذا الوجه وقوله تعالى وان تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم أى وان تسألوا (١١) عن هذه الاشياء التى نهيتم عن السؤال عنها حين ينزل الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم تبين لكم وذلك على الله يسير ثم قال عفا الله عنها أى عما كان منكم قبل ذلك والله غفور حليم وقيل المراد بقوله وان تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم أى لا تسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها فلعله قد ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو تضييق وقد ورد فى الحديث أعظم المسلمين جرما من سأل عن شئ لم يحرم فحرم من أجل مسئلته ولكن اذا نزل القرآن بها مجملة فسألتم عن بيانها بينت لكم حينئذ لاحتياجكم اليها عفا الله عنها أى ما لم يذكره فى كتابه فهو مما عفا عنه فاسكتوا أنتم عنها كما سكت عنها وفى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ذرونى ما تركتكم فانما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم وفى الحديث الصحيح أيضا ان الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها ثم قال تعالى قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين أى قد سأل هذه المسائل المنهى عنها قوم من قبلكم فأجيبوا عنها ثم لم يؤمنوا بها فأصبحوا بها كافرين أى بسببها أى بينت لهم فلم ينتفعوا بها لانهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد بل على وجه الاستهزاء والعناد وقال العوفى عن ابن عباس فى الآية ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن فى الناس فقال يا قوم كتب عليكم الحج فقام رجل من بنى أسد فقال يا رسول الله أفى كل عام فأغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا فقال والذى نفسى بيده لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت ما استطعتم واذا لكفرتم فاتركونى ما تركتكم واذا أمرتكم بشئ فافعلوا واذا نهيتكم عن شئ فانتهوا عنه فأنزل الله

أنه قواهم بالاستراحة على القتال من الغد الثانى أنه أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم وقيل ان النوم غشيهم فى حال التقاء الصفين وقد مضى فى يوم أحد نحو من هذا فى سورة آل عمران عن على قال ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا الا نائم الا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلى تحت شجرة حتى أصبح قال مجاهد أمنة منه أى أمنا من الله لكم من عدوكم أن يغلبكم وقال قتادة رحمة منه أمنة من العدو وعنه قال النعاس فى الرأس والنوم فى القلب وعنه قال كان النعاس أمنة من الله وكان النعاس نعاسين يوم بدر ويوم أحد وقال ابن مسعود النعاس فى القتال أمنة من الله وفى الصلاة من الشيطان وقيل ان ذلك النعاس كان فى حكم المعجزة لانه أمر خارق للعادة (وينزل عليكم من السماء ماء) هذا المطر كان بعد النعاس وقيل قبله وحكى الزجاج أن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين الى ماء بدر فنزلوا عليه وبقى المؤمنون لا ماء لهم فأنزل الله المطر ليلة بدر والذى فى سيرة ابن اسحق وغيره أن المؤمنين هم الذين سبقوا الى ماء بدر وأنه منع قريشا من السبق الى الماء مطر عظيم ولم يصب المسلمين منه الا ما شد لهم دهس الوادى وأعانهم على المسير وقال مجاهد المطر أنزله الله عليهم قبل النعاس فأطفأ بالمطر الغبار والتبدت به الارض وطابت به أنفسهم وثبتت به أقدامهم وعن عروة بن الزبير قال بعث الله السماء وكان الوادى دهسا وأصاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ما لبد الارض ولم يمنعهم المسير وأصاب قريشا ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه (ليطهركم به) أى ليرفع عنكم الاحداث والجنابة عن ابن عباس أن المشركين غلبوا المسلمين فى أول أمرهم على الماء فظمأ المسلمون وصلوا مجنبين محدثين وقد قدمنا أن المشهور فى كتب السير المعتمدة أن المشركين لم يغلبوا المؤمنين على الماء بل المؤمنون هم الذين غلبوا عليه من الابتداء وهذا المروى عن ابن عباس فى اسناده العوفى وهو ضعيف جدا (ويذهب عنكم رجز الشيطان) أى وسوسته لكم بما كان قد سبق الى قلوبكم من الخواطر التى منها الخوف والفشل حتى كانت حالكم حال من يساق الى الموت والرجز فى الاصل العذاب الشديد وأريد به هنا نفس وسوسة الشيطان مجازا لمشقتها على أهل الايمان كما قيل كل ما اشتدت مشقته على النفوس فهو رجز (وليربط على قلوبكم) بالنصر واليقين فيجعلها صابرة قوية ثابتة فى مواطن الحرب والربط فى اللغة الشد وكل من صبر على أمر

هذه الآية نهاهم أن يسألوا عن مثل الذى سألت عنه النصارى من المائدة فأصبحوا بها كافرين فنهى الله عن ذلك وقال لا تسألوا عن أشياء إن نزل القرآن فيها بتغليظ ساءكم ذلك ولكن انتظروا فإذا نزل القرآن فإنكم لا تسألون عن شىء إلا وجدتم بيانه رواه ابن جرير وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم قال لما نزلت آية الحج نادى النبى صلى الله عليه وسلم فى الناس فقال يا أيها الناس إن الله قد كتب عليكم الحج فحجوا فقالوا يا رسول الله أعاما واحدا أم كل عام فقال لا بل (١٢) عاما واحدا ولو قلت كل عام لوجبت ولو وجبت لكفرتم ثم قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إلى قوله ثم أصبحوا بها كافرين رواه ابن جرير وقال خصيف عن مجاهد عن ابن عباس لا تسألوا عن أشياء قال هى البحيرة والوصيلة والسائبة والحام ألا ترى أنه قال بعدها ما جعل الله من بحيرة ولا كذا ولا كذا قال وأما عكرمة فقال إنهم كانوا يسألونه عن الآيات فنهوا عن ذلك ثم قال قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين رواه ابن جرير يعنى عكرمة رحمه الله أن المراد بهذا النهى عن سؤال وقوع الآيات كما سألت قريش أن يجرى بهم أنهارا وأن يجعل لهم الصفا ذهبا وغير ذلك وكما سألت اليهود أن ينزل عليهم كتابا من السماء وقد قال الله تعالى وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا وقال تعالى وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون وهو

(ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون) قال البخارى حدثنا موسى بن إسمعيل حدثنا إبراهيم بن سعد عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب قال البحيرة التى يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس والسائبة كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شىء قال وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

تشد ربط نفسه عليه قيل الفلفة على صلة كذا فى الوسيط وقيل للاستعلاء أى أن القلوب امتلأت من ذلك الربط حتى كأنه علا عليها وارتفع فوقها ذكره الواحدى (ويثبت به) أى بالماء الذى أنزله الله عند الحاجة إليه وقيل الضمير راجع إلى الربط المدلول عليه بالفعل (الأقدام) أى أقدامكم فى مواطن القتال ومعارك الجدال وقال قتادة كان الوادى دهاسا فلما مطروا اشتدت الرملة وسهل المشى عليه لأن العادة أن المشى فى الرمل عسر فإذا نزل عليه الماء وجد سهل المشى ولم يبق فيه غبار يشوش على الماشى فيه (إذ يوحى ربك) أى اذكر يا محمد وقت إيحاء ربك لأنه لا يقف على ذلك سواه وقيل يثبت الأقدام وقت الوحى وليس لهذا التقييد معنى وقيل العامل فيه ليربط ولا وجه لتقييد الربط على القلوب بوقت الإيحاء (إلى الملائكة) الذين أمدبهم المسلمين (أنى معكم) بالنصر والمعونة عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف قال قال لى أبى يا بنى لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى رأس المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف وعن الربيع بن أنس قال كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب على الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد احترق به (فثبتوا الذين آمنوا) أى بشروهم بالنصر والظفر أو ثبتوهم على القتال بالحضور معهم وتكثير سوادهم أو قووا قلوبهم وهذا أمر منه سبحانه للملائكة الذين أوحى إليهم بأنه معهم والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها واختلفوا فى كيفية هذه التقوية والتثبيت فقيل كما أن الشيطان له قوة فى إلقاء الوسوسة فى قلب ابن آدم بالشر فكذلك للملك قوة إلقاء الإلهام فى قلب ابن آدم بالخير ويسمى ما يلقى الشيطان وسوسة وما يلقى الملك لمة وإلهاما فهذا هو التثبيت (سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) أى الخوف فلا يكون لهم ثبات وقد تقدم بيان معنى إلقاء الرعب فى آل عمران وكان ذلك نعمة من الله على المؤمنين حيث ألقى الرعب فى قلوب الكفار قيل هذه الجملة تفسير لقوله أنى معكم وكانت الملائكة لا تعرف قتال بنى آدم فعلمهم الله ذلك بقوله (فاضربوا فوق الأعناق) المراد بها أنفسها قاله عطية وفوق زائدة قاله الأخفش وغيره وقال محمد بن يزيد وهذا عند الجمهور خطأ لأن فوق يفيد معنى فلا يجوز زيادتها ولكن المعنى أنه أبيح لهم ضرب الوجوه وما قرب منها وقيل المراد الرؤس قاله عكرمة وهذا ليس بجيد لأن فوق لا يتصرف وزعم بعضهم أنه يتصرف وأنك تقول فوق رأسك برفع فوق

ربيب عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار كان أول من سيب السوائب والوصيلة الناقة البكر تبكر في أول نتاج الابل ثم تثني بعد بأنثى وكانوا يسيبونهم لطواغيتهم ان وصلت احداهما بالاخرى ليس بينهما ذكر والحام فحل الابل يضرب الضراب المعدود فاذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأعفوه عن الحمل فلم يحمل عليه شئ وسموه الحامي وكذا رواه مسلم والنسائي من حديث ابراهيم بن سعد به ثم قال البخاري وقال لي أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري سمعت سعيدا قال يخبره بهذا قال وقال أبو هريرة سمعت النبي صلى الله عليه وسلم نحوه ورواه ابن الهاد عن ابن شهاب عن سعيد (١٣) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه سمعت عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الحاكم أراد البخاري أن يزيد بن عبد الله بن الهاد رواه عن عبد الوهاب بن بخت عن الزهري كذا حكاه شيخنا أبو الحجاج المزي في الاطراف وسكت ولم ينبه عليه وفيما قاله الحاكم نظر فان الامام أحمد وأبا جعفر بن جرير روياه من حديث الليث بن سعد عن ابن الهاد عن الزهري نفسه والله أعلم ثم قال البخاري حدثنا محمد بن أبي يعقوب أبو عبد الله الكرماني حدثنا حسان بن ابراهيم حدثنا يونس عن الزهري عن عروة أن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت جهنم يحطم بعضها بعضا ورأيت عمرا يجر قصبه وهو أول من سيب السوائب تفرد به البخاري وقال ابن جرير حدثنا هناد حدثنا يونس بن بكير حدثنا محمد بن اسحق حدثني محمد بن ابراهيم بن الحرث عن أبي صالح عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأكثم بن الجون يا أكثم رأيت عمرو بن لحي بن قمعة ابن خندف يجر قصبه في النار فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ولا به منك فقال أكثم تخشى أن يضرني شبهه يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا انك مؤمن وهو كافر انه أول من غير دين ابراهيم وبحر البحيرة وسيب السائبة وحمى الحامي ثم رواه عن هناد عن عبدة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه أو مثله ليس هذان الطريقان من الكتب وقال الامام أحمد حدثنا عمرو بن مجمع حدثنا ابراهيم الهجري عن أبي الاحوص عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان أول من سيب السوائب وعبد الاصنام أبو خزاعة عمرو بن عامر واني رأيته يجر أمعاءه في النار تفرد به أحمد من هذا الوجه وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن زيد بن أسلم قال قال

وهو ظاهر قول الزمخشري وقال أبو عبيدة انها بمعنى على تقديره فاضربوهم على الاعناق وهو قريب من الاول وقال ابن قتيبة هي بمعنى دون قال ابن عطية وهذا خطأ بين وغلط فاحش وانما دخل عليه اللبس من قوله تعالى بعوضة فما فوقها أي فما دونها وليست فوق هنا بمعنى دون وانما المراد فما فوقها في القلة والصغر وعن الضحاك قال اضربوا الرقاب وقيل المراد بفوق الاعناق أعاليها لانها المفاصل التي يكون الضرب فيها أسرع الى القطع قاله في الكشاف قيل هذا أمر للملائكة فيكون متصلا بما قبله وقيل للمؤمنين فيكون منقطعا عما قبله وعلى الاول قيل هو تفسير لقوله فثبتوا الذين آمنوا (واضربوا منهم كل بنان) أي كل مفصل قال الزجاج واحد البنان بنانة وهي هنا الاصابع وغيرها من الاعضاء والبنان مشتق من قولهم أبن الرجل بالمكان اذا أقام به لانه يعمل بها ما يكون للاقامة والحياة وقيل المراد بالبنان هنا أطراف الاصابع من اليدين والرجلين وهو عبارة عن الثبات في الحرب فاذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال بخلاف سائر الاعضاء قال ابن فارس البنان الاصابع وقال عطية كل مفصل بنانة وقال ابن عباس الاطراف وقال أبو الهيثم البنان المفاصل قيل أمرهم الله بضرب أعلى الجسد وهو الرأس وفيه هلاك الانسان وبضرب أضعف الاعضاء وهو البنان وفيه تعطيل حركة الانسان فيدخل في ذلك كل عضو في الجسد (ذلك) اشارة الى ما وقع عليهم من القتل والاسر ودخل في قلوبهم من الرعب (بأنهم شاقوا الله ورسوله) أي بسبب مشاقتهم والمشاقة المخالفة وأصلها من المجانبة وكذا الشقاق أصله أن يصير كل واحد من الخصمين في شق كأنهم صاروا في شق وجانب عن شق المؤمنين وجانبهم وهذا مجاز معناه أنهم شاقوا أولياء الله وهم المؤمنون أو شاقوا دين الله وقد تقدم تحقيق ذلك (ومن يشاقق الله) أي يخالفه ويجانبه (ورسوله فان الله شديد العقاب) له يعاقبه بسبب ما وقع منه من الشقاق يعني ان الذي نزل بهم في ذلك اليوم من القتل والاسر شئ قليل فيما أعد الله لهم من العقاب يوم القيامة والشرطية تكملة لما قبلها وتكرير لمضمونه وتحقيق للسببية بالطريق البرهاني كأنه قيل ذلك العقاب الشديد بسبب مشاقتهم لله تعالى ورسوله وكل من يشاقق الله ورسوله كائنا من كان فله بذلك عقاب شديد فاذا لهم بسبب مشاقتهم لهما عقاب شديد قاله أبو السعود (ذلكم) اشارة الى ما تقدم من العقاب والعذاب بالقتل

رسول الله صلى الله عليه وسلم اني لاعرف أول من سيب السوائب وأول من غير دين ابراهيم عليه السلام قالوا ومن هو يا رسول الله قال عمرو بن لحي أخو بني كعب لقد رأيته يجر قصبه في النار تؤذي ريحه أهل النار واني لاعرف أول من بحر البحائر قالوا ومن هو يا رسول الله قال رجل من بني مدلج كانت له ناقتان فجدع آذانهما وحرم ألبانهما ثم شرب ألبانهما بعد ذلك فلقد رأيته في النار وهما يعضانه بأفواههما ويطآنه بأخفافهما فعمرو هذا هو ابن لحي بن قمعة أحد رؤساء خزاعة الذين ولوا البيت بعد جرهم وكان أول من غير دين ابراهيم الخليل فأدخل (١٤) الأصنام الى الحجاز ودعا الرعاع من الناس الى عبادتها والتقرب بها وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الانعام وغيرها كما ذكره الله تعالى في سورة الانعام عند قوله تعالى وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا الى آخر الآيات في ذلك فأما البحيرة فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما هي الناقة اذا نتجت خمسة أبطن نظروا الى الخامس فان كان ذكرا ذبحوه فأكله الرجال دون النساء وان كان أنثى جدعوا آذانها فقالوا هذه بحيرة وذكر السدي وغيره قريبا من هذا واما السائبة فقال مجاهد هي من الغنم نحو ما فسر من البحيرة الا أنها ما ولدت من ولد كان بينها وبينه ستة أولاد كانت على هيئتها فاذا ولدت السابع ذكرا أو ذكرين ذبحوه فأكله رجالهم دون نسائهم وقال محمد بن اسحق السائبة هي الناقة اذا ولدت عشر اناث من الولد ليس بينهن ذكر سيبت فلم تركب ولم يجز وبرها ولم يحلب لبنها الا الضيف وقال أبو روق السائبة كان الرجل اذا خرج فقضيت حاجته سيب من ماله ناقة أو غيرها جعلها للطواغيت فما ولدت من شئ كان لها وقال السدي كان الرجل منهم اذا قضيت حاجته أو عوفي من مرض أو كثر ماله سيب شيأ من ماله للاوثان فمن عرض له من الناس عوقب بعقوبة في الدنيا وأما الوصيلة فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس هي الشاة اذا نتجت سبعة أبطن نظروا الى السابع فان كان ذكرا وهو ميت اشترك فيه الرجال دون النساء وان كان أنثى استحيوها وان كان ذكرا وأنثى في بطن واحد استحيوهما وقالوا وصلته اخته فحرمته علينا رواه ابن أبي حاتم وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب ولا وصيلة قال فالوصيلة من الابل كانت الناقة تبتكر بأنثى ثم تثنى بأنثى فسموها الوصيلة ويقولون وصلت اثنتين ليس بينهما ذكر فيجدعونها

والامر فيه أوجه منها العقاب ذلكم أو الامر ذلكم الثاني ذلكم العقاب (فذوقوه) الخطاب هنا للكافرين كما أن الخطاب في قوله ذلكم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يصلح للخطاب وأشار بالذوق الى أن عذاب الدنيا عاجل يسير بالاضافة الى المؤجل (وان للكافرين عذاب النار) معطوفة على ما قبلها فتكون الاشارة على هذا الى العقاب العاجل الذي أصيبوا به ويكون ذلك اشارة الى العقاب الآجل الذي أعده الله لهم في الآخرة ووضع الظاهر فيه موضع المضمر للدلالة على أن الكفر سبب العذاب الآجل أو الجمع بينهما وفي أن وجوه خمسة ذكرها السمين (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا) الزحف الدنو قليلا قليلا وأصله الاندفاع على الالية ثم سمي كل ماش في الحرب الى آخر زاحفا والتزاحف التداني والتقارب يقال زحف الى العدو زحفا وازدحف القوم أي مشى بعضهم الى بعض ويطلق على الجيش الكثير زحف تسمية بالمصدر والجمع زحوف أي حال كونكم زاحفين الى الكفار أو حال كون الكفار زاحفين اليكم أو متزاحفين على أدبارهم في بطء السير وذلك لان الجيش اذا كثر والتحم بعضهم ببعض يتراءى أن سيره بطيء وان كان في نفس الامر سريعا فالمقصود من هذه الحال بعد كون المراد التشبيه ما يلزم هذه المشابهة وهو الكثرة أي مجتمعين كأنهم لكثرتهم يزحفون (فلا تولوهم الأدبار) أي ظهوركم منهزمين منهم فان المنهزم يولي ظهره ودبره نهى الله المؤمنين أن ينهزموا عن الكفار اذا لقوهم وقد دب بعضهم الى بعض للقتال وظاهر هذه الآية العموم لكل المؤمنين في كل زمن وعلى كل حال الا حالة التحرف والتحيز وقد روي عن عمر وابن عمر وابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وأبي نضرة وعكرمة ونافع والحسن وقتادة وزيد بن أبي حبيب والضحاك أن تحريم الفرار من الزحف في هذه الآية مختص بيوم بدر وان أهل بدر لم يكن لهم أن ينحازوا ولو انحازوا لانحازوا الى المشركين اذ لم يكن في الارض يومئذ مسلمون غيرهم ولا لهم فئة الا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاما بعد ذلك فان بعضهم فئة لبعض وبه قال أبو حنيفة قالوا ويؤيده قوله ومن يولهم يومئذ دبره فانه اشارة الى يوم بدر وقيل ان هذه الآية منسوخة بآية الضعف وذهب جمهور العلماء الى أن هذه الآية محكمة عامة غير خاصة وان الفرار من الزحف محرم ويؤيد هذا أن هذه الآية نزلت بعد انقضاء الحرب في يوم بدر وأجيب عن قول الأولين بأن الاشارة في يومئذ

لطواغيتهم وكذا روى عن الامام مالك بن أنس رحمه الله تعالى وقال محمد بن اسحق الوصيلة من الغنم اذا ولدت عشر اناث في خمسة أبطن توأمين توأمين في كل بطن سميت الوصيلة وتركت فما ولدت بعد ذلك من ذكر وأنثى جعلت للذكور دون الاناث وان كانت ميتة اشتركوا فيها وأما الحام فقال العوفي عن ابن عباس قال كان الرجل اذا لقح فحله عشرا قيل حام فاتركوه وكذا قال أبو روق وقتادة وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وأما الحام فالفحل من الابل اذا ولد لولده قالوا حمى هذا ظهره فلا يحملون عليه شيأ ولا يجزون له وبرا ولا يمنعونه من حمى رعى ومن حوض يشرب منه وان كان الحوض لغير صاحبه وقال ابن وهب سمعت مالكا يقول اما الحام فمن الابل كان يضرب في الابل فاذا انقضى ضرابه جعلوا عليه ريش الطواويس وسيبوه وقد قيل غير ذلك في تفسير هذه الآية وقد ورد في ذلك حديث رواه ابن أبي حاتم من طريق أبي اسحق السبيعي عن أبي الاحوص الجشمي عن أبيه مالك بن نضلة قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في خلقان من الثياب فقال لي هل لك من مال فقلت نعم قال من أي المال قال فقلت من كل المال الابل والغنم والخيل والرقيق قال فاذا آتاك الله مالا فليكثر عليك ثم قال تنتج ابلك وافية آذانها قال قلت نعم قال وهل تنتج الابل الا كذلك قال فلعلك تأخذ الموسى فتقطع آذان طائفة منها وتقول هذه بحير وتشق آذان طائفة منها وتقول هذه حرم قلت نعم قال فلا تفعل ان كل ما آتاك الله لك حل ثم قال ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام أما البحيرة فهي التي يجدعون آذانها فلا تنتفع امرأته ولا بناته ولا أحد من أهل بيته بصوفها ولا أوبارها ولا أشعارها ولا ألبانها فاذا ماتت اشتركوا فيها وأما السائبة فهي التي يسيبون لآلهتهم ويذهبون الى آلهتهم فيسيبونها وأما الوصيلة فالشاة تلد ستة أبطن فاذا ولدت السابع جدعت وقطعت قرنها فيقولون قد وصلت فلا يذبحونها ولا تضرب ولا تمنع مهما وردت على حوض هكذا يذكر تفسير ذلك مدرجا في الحديث وقد روي من وجه آخر عن أبي اسحق عن أبي الاحوص عوف بن مالك من قوله وهو أشبه وقد روى هذا الحديث الامام أحمد عن سفيان بن عيينة عن أبي الزعراء عمرو بن عمرو عن عمه أبي الاحوص عوف بن مالك بن نضلة عن أبيه وليس فيه تفسير هذه والله أعلم وقوله تعالى ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون أي

الى يوم بدر بأن الاشارة الى يوم الزحف كما يفيده السياق ولا منافاة بين هذه الآية وآية الضعف بل هذه الآية مقيدة بها فيكون الفرار من الزحف محرما بشرط ما بينه الله في آية الضعف ولا وجه لما ذكروه من أنه لم يكن في الارض يوم بدر مسلمون غير من حضرها فقد كان في المدينة اذ ذاك خلق كثير لم يأمرهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالخروج لانه صلى الله عليه وآله وسلم ومن خرج معه لم يكونوا يرون في الابتداء أنه سيكون قتال ويؤيد هذا ورود الاحاديث الصحيحة المصرحة بأن الفرار من الزحف من جملة الكبائر كما في حديث اجتنبوا السبع الموبقات وفيه والتولي يوم الزحف ونحوه من الاحاديث وهذا البحث تطول ذيوله وتتشعب طرقه وهو مبين في مواطنه وورد عن جماعة من الصحابة أن التولي يوم الزحف من الكبائر قال ابن عطية والادبار جمع دبر والعبارة بالدبر في هذه الآية متمكنة في الفصاحة لما في ذلك من الشناعة على الفار والذم له قلت ويطلق الدبر على مقابل القبل وعلى الظهر وهو المراد هنا والمقصود ملزوم تولية الظهر وهو الانهزام وهذا من باب التعريض حيث ذكر لهم حالة تستهجن من فاعلها فأتى بلفظ الدبر دون الظهر لذلك وبعض أهل علم البيان يسمي هذا النوع كناية وليس بشيء (ومن يولهم يومئذ) أي يوم لقيتموهم (دبره الا متحرفا لقتال) أي منعطفا ومائلا اليه والنصب على الحال أو الاستثناء من ضمير المؤمنين أي ومن يولهم الا رجلا منهم متحرفا واللام للتعليل أي لاجل قتال أي لاجل التمكن منه والتحرف الزوال عن جهة الاستواء والمراد به هنا التحرف من جانب الى جانب في المعركة طلبا لمكائد الحرب وخداعا للعدو وكمن يوهم أنه منهزم ليتبعه العدو فيكر عليه ويتمكن منه ونحو ذلك من مكائد الحرب فان الحرب خدعة (أو متحيزا الى فئة) أي منضما وصائرا الى جماعة من المسلمين غير الجماعة المقابلة للعدو وأي رجلا منهم متحرفا أو متحيزا ووزن متحيز متفيعل لا متفعل لانه من حاز يحوز فبناء متفعل منه متحوز والتحيز والتحوز الانضمام وتحوزت الحية انطوت وحزت الشيء ضممته والحوزة ما يضم الاشياء (فقد باء) أي من ينهزم ويفر من الزحف الا في هاتين الحالتين فقد رجع (بغضب) كائن (من الله ومأواه جهنم) أي المكان الذي يأوي اليه هو النار ففراره أوقعه الى ما هو أشد بلاء مما فر منه وأعظم عقوبة والمأوى ما يأوي اليه الانسان (وبئس المصير) ما صار اليه من عذاب النار وقد اشتملت هذه الآية على هذا الوعيد الشديد لمن يفر عن الزحف وفي

ما شرع الله هذه الأشياء ولا هي عنده قربة ولكن المشركون افتروا ذلك وجعلوه شرعا لهم وقربة يتقربون بها إليه وليس ذلك بحاصل لهم بل هو وبال عليهم وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أي إذا دعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجبه وترك ما حرمه قالوا يكفينا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك قال الله تعالى أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا أي لا يفهمون حقا ولا يعرفونه ولا يهتدون إليه فكيف يتبعونهم والحالة هذه لا يتبعهم إلا من هو أجهل منهم وأضل سبيلا (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم (١٦) لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون)

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقتهم ومخبرا لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس سواء كان قريبا منه أو بعيدا قال العوفي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية يقول تعالى إذا ما العبد أطاعني فيما أمرته به من الحلال ونهيته عنه من الحرام فلا يضره من ضل بعده إذا عمل بما أمرته به وكذا روى الوالبي عنه وهكذا قال مقاتل بن حيان فقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم نصب على الإغراء لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون أي فيجازي كل عامل بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر وليس فيها دليل على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كان فعل ذلك ممكنا وقد قال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا هاشم ابن القاسم حدثنا زهير يعني ابن معاوية حدثنا إسمعيل بن أبي خالد حدثنا قيس قال قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس إنكم تقرؤن هذه الآية يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى آخر الآية وإنكم تضعونها على تعالى غير موضعها وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك أن الله عز وجل أن يعمهم بعقابه قال وسمعت أبا بكر يقول يا أيها الناس إياكم والكذب فإن الكذب مجانب الإيمان وقد روى هذا الحديث أصحاب السنن الأربعة وابن حبان في صحيحه وغيرهم من طرق كثيرة عن جماعة كثيرة عن إسمعيل بن أبي خالد به متصلا مرفوعا ومنهم من رواه عنه به موقوفا على الصديق وقد رجح رفعه الدارقطني وغيره وذكرنا طرقه والكلام عليه مطولا في مسند الصديق رضي الله عنه وقال

ذلك دلالة على أنه من الكبائر الموبقة (فلم تقتلوهم) أي إذا عرفتم ما قصه الله عليكم من إمداده لكم بالملائكة وإيقاع الرعب في قلوبهم فلم تقتلوهم بقوتكم (ولكن الله قتلهم) بما يسره لكم من الأسباب الموجبة للنصر قال الزمخشري الفاء في فلم جواب شرط محذوف أي وإن افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم أنتم وقال الشيخ وليست جوابا بل لربط الكلام بعضه ببعض (وما رميت إذ رميت) اختلف المفسرون في هذا الرمي على أقوال فروي عن مالك أن المراد به ما كان منه صلى الله عليه وآله وسلم في يوم حنين فإنه رمى المشركين بقبضة من حصباء الوادي فأصابت كل واحد منهم وقيل المراد به الرمية التي رمى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبي بن خلف بالحربة في عنقه فانهزم ومات منها وقيل المراد به السهم الذي رمى به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حصن خيبر فسار في الهواء حتى أصاب ابن أبي الحقيق وهو على فراشه وهذه الأقوال ضعيفة فإن الآية نزلت عقب وقعة بدر وأيضا المشهور في كتب السير والحديث في قتل ابن أبي الحقيق أنه وقع على صورة غير هذه الصورة والصحيح كما قال ابن إسحق وغيره أن المراد بالرمي المذكور في هذه الآية هو ما كان منه صلى الله عليه وآله وسلم في يوم بدر فإنه أخذ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه المشركين فأصابت كل واحد منهم ودخلت في عينيه ومنخريه وأنفه قال ثعلب المعنى وما رميت الفزع والرعب في قلوبهم إذ رميت بالحصباء فانهزموا (ولكن الله رمى) أي أعانك وأظفرك والعرب تقول رمى الله لك أي أعانك وأظفرك وصنع لك وقد حكى مثل هذا أبو عبيدة في كتاب المجاز وقال محمد بن يزيد المبرد المعنى وما رميت بقوتك إذ رميت ولكنك بقوة الله رميت وقيل المعنى إن الرمية تلك القبضة من التراب التي رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة لأنك لو رميتها ما بلغ أثرها إلا ما يبلغه رمي البشر ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم فأثبت الرمية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأن صورتها وجدت منه ونفاها عنه لأن أثرها الذي لا يطيقه البشر فعل الله عز وجل فكأن الله فاعل الرمية على الحقيقة وكأنها لم توجد من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصلا هكذا في الكشاف وفي الآية بيان أن فعل العبد مضاف إليه كسبا وإلى الله خلقا لا كما تقوله الجبرية والمعتزلة لأنه أثبت الفعل للعبد ثم نفاه عنه وأثبته لنفسه فصح هذا النفي والإثبات قال الكرخي نفى الفعل عنهم وعنه باعتبار الإيجاد إذ الموجد حقيقة هو الله

تعالى وإثباته لهم وله باعتبار الكسب والصورة قال مجاهد هذا لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم حين حصب الكفار وقال قتادة رماهم يوم بدر بالحصباء وعن حكيم بن حزام قال لما كان يوم بدر سمعنا صوتا من السماء إلى الأرض كأنه صوت حصاة وقعت في طست ورمى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بتلك الحصباء وقال شاهت الوجوه فانهزمنا فذلك قوله تعالى وما رميت إذ رميت الآية وعن جابر نحوه وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي ناولني قبضة من حصباء فناوله فرمى بها في وجوه القوم فما بقي أحد من القوم إلا امتلأت عيناه من الحصباء فنزلت هذه الآية وقال ابن المسيب أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حربته في يده فرمى بها أبي بن خلف وكسر ضلعا من أضلاعه وفي ذلك أنزل الله وما رميت إذ رميت وعن الزهري نحوه وإسناده صحيح إليهما قال ابن كثير وهذا القول عن هذين الإمامين غريب جدا ولعلهما أرادا أن الآية تتناوله بعمومها وهكذا قال فيما قاله عبد الرحمن بن جبير أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا بقوس فرمى بها الحصن فأقبل السهم حتى قتل ابن أبي الحقيق في فراشه فأنزل الله وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى (وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا) البلاء يستعمل في الخير والشر على حد وبلوناهم بالحسنات والسيئات والمراد هنا الخير والنعمة وعليه أجمع المفسرون والمعنى ولينعم على المؤمنين بالغنيمة إنعاما جميلا أي للإنعام عليكم بنعمه الجليلة فعل ذلك لا لغيره وقيل التقدير لكن الله رمى ليمحق الكافرين وليبلي المؤمنين وقال عروة بن الزبير أي ليعرف المؤمنين من نعمته عليهم في إظهارهم على عدوهم مع كثرة عددهم وقلة عددهم ليعرفوا بذلك حقه ويشكروا بذلك نعمته (إن الله سميع) لدعائهم (عليم) بأحوالهم (ذلكم) أي البلاء الحسن والقتل والرمي (وأن الله موهن كيد الكافرين) أي إن الغرض منه بما وقع مما حكته الآيات السابقة إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) الاستفتاح طلب النصر وقد اختلف في المخاطبين بالآية من هم فقيل إنها خطاب للكفار تهكما بهم لأنهم الذين وقع بهم الهلاك والذلة والمعنى إن تستنصروا الله على محمد فقد جاءكم النصر وقد كانوا عند خروجهم من مكة سألوا الله أن ينصر أحق الطائفتين وأعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين بالنصر والظفر وهو في نفس الأمر دعاء

أبو عيسى الترمذي حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقاني حدثنا عبد الله بن المبارك حدثنا ... اللخمي عن أبي أمية الشعباني قال أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له ما تصنع في هذه الآية قال ... تعالى يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم قال أما والله لقد سألت عنها خبيرا سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع العوام فإن من ورائكم أياما الصابر فيهن مثل القابض على الجمر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون كعملكم قال عبد الله بن المبارك وزاد غير عتبة قيل يا رسول الله أجر خمسين رجلا منا أو منهم قال لا بل أجر خمسين منكم ثم قال الترمذي هذا حديث حسن غريب صحيح وكذا رواه أبو داود من طريق ابن المبارك ورواه ابن ماجه وابن جرير وابن أبي حاتم عن عتبة بن أبي حكيم وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الحسن أن ابن مسعود رضي الله عنه سأله رجل عن قول الله عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم فقال إن هذا ليس بزمانها إنها اليوم مقبولة ولكنه قد يوشك أن يأتي زمانها تأمرون فيصنع بكم كذا وكذا أو قال فلا يقبل منكم فحينئذ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل ورواه أبو جعفر الرازي عن الربيع عن أبي العالية عن ابن مسعود في قوله يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل الآية قال كانوا عند عبد الله بن مسعود جلوسا فكان بين رجلين بعض ما يكون بين الناس حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه فقال رجل من جلساء عبد الله ألا أقوم فآمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر فقال آخر إلى جنبه عليك بنفسك فإن الله يقول عليكم أنفسكم الآية قال فسمعها ابن مسعود فقال مه لم يجئ تأويل هذه بعد إن القرآن أنزل حيث أنزل ومنه آي قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن ومنه آي قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنه آي قد وقع تأويلهن بعد النبي صلى الله عليه وسلم بيسير ومنه آي يقع تأويلهن يوم الحساب ما ذكر من الحساب والجنة والنار فما دامت قلوبكم واحدة وأهواؤكم واحدة ولم تلبسوا شيعا ولم يذق بعضكم بأس بعض فأمروا وانهوا وإذا اختلفت القلوب

والاهواء وألبستم شيعا وذاق بعضكم بأس بعض فامرء نفسه وعند ذلك جاءنا تأويل هذه الآية رواه ابن جرير وقال ابن جرير حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا شبابة بن سوار حدثنا الربيع بن صبيح عن سفيان بن عقال قال قيل لابن عمر لو جلست في هذه الايام فلم تأمر ولم تنه فان الله قال عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم فقال ابن عمر انها ليست لي ولا لأصحابي لان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الا فليبلغ الشاهد الغائب فكنا نحن الشهود وأنتم الغيب ولكن هذه الآية لاقوام يجيئون من بعدنا ان قالوا لم يقبل منهم وقال أيضا حدثنا محمد بن بشار (١٨) حدثنا محمد بن جعفر وأبو عاصم قالا حدثنا عوف عن سوار بن شبيب قال كنت عند ابن عمر اذ أتاه رجل جليد في العين شديد اللسان فقال يا أبا عبد الرحمن نفر ستة كلهم قد قرأ القرآن فأسرع فيه وكلهم مجتهد لا يألو وكلهم بغيض اليه أن يأتي دناءة الا الخير وهم في ذلك يشهد بعضهم على بعض بالشرك (١) فقال الرجل اني لست اياك أسأل انما أسأل الشيخ فأعاد على عبد الله الحديث فقال عبد الله لعلك ترى لا أبا لك اني سآمرك أن تذهب فتقتلهم عظهم وانههم فان عصوك فعليك بنفسك فان الله عز وجل يقول يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم الآية وقال أيضا حدثني أحمد بن المقدام حدثنا المعتمر ابن سليمان سمعت أبي حدثنا قتادة عن أبي مازن قال انطلقت على عهد عثمان الى المدينة فاذا قوم من المسلمين جلوس فقرأ أحدهم هذه الآية عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل فقال أكثرهم لم يجيء تأويل هذه اليوم وقال حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا ابن فضالة عن معاوية بن صالح عن جبير بن نفير قال كنت في حلقة فيها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واني لأصغر القوم فتذاكروا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فقلت أنا أليس الله يقول في كتابه يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم فأقبلوا علي بلسان واحد وقالوا تنزع آية من القرآن لا تعرفها ولا تدري ما تأويلها فتمنيت اني لم أكن تكلمت وأقبلوا يتحدثون فلما حضر قيامهم قالوا انك غلام حديث السن وانك نزعت آية ولا تدري ما هي وعسى أن تدرك ذلك الزمان اذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا واعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك لا يضرك من ضل اذا اهتديت وقال ابن جرير حدثنا علي

(١) بياض بالاصل

عليهم وان أرادوا به الدعاء على محمد وحزبه صلى الله عليه وآله وسلم فتحكم انه بهم وحكى ما حل بهم من الهلاك نصرا ومعنى بقية الآية على هذا القول (وان تنتهوا) عما كنتم عليه من الكفر والعداوة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (فهو) أي الانتهاء (خير لكم وان تعودوا) الى ما كنتم عليه من الكفر والعداوة (نعد) بتسليط المؤمنين عليكم ونصرهم كما سلطناهم ونصرناهم في يوم بدر وقال قتادة نعد لكم بالقتل والاسر (ولن تغني عنكم فئتكم) أي جماعتكم (شيأ ولو كثرت) أي لا تغني عنكم في حال من الاحوال ولو في حال كثرتها ثم قال (وان) بالكسر استئنافا وبفتحها على تقدير اللام (الله مع المؤمنين) أي محمد وأصحابه قاله السدي ومن كان الله معه فهو المنصور ومن كان الله عليه فهو المخذول وقيل ان الآية خطاب للمؤمنين والمعنى ان تستنصروا الله فقد جاءكم النصر في يوم بدر وان تنتهوا عن مثل ما فعلتموه من أخذ الغنائم وفداء الاسرى قبل الاذن لكم بذلك وعن التكاسل في القتال والرغبة عما يختاره الرسول فهو خير لكم وان تعودوا الى مثل ذلك نعد الى توبيخكم كما في قوله لولا كتاب من الله سبق الآية ولا يخفى انه يأبى هذا القول معنى ولن تغني عنكم فئتكم شيأ ويأباه أيضا ان الله مع المؤمنين وتوجيه ذلك لا يمكن الا بتكلف وتعسف وقيل ان الخطاب في ان تستفتحوا للمؤمنين وفيما بعده للكافرين ولا يخفى ما في هذا من تفكيك النظم وعود الضمائر الجارية في الكلام على نمط واحد الى طائفتين مختلفتين (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله) أمر الله سبحانه المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله في أمر الجهاد لان فيه بذل المال والنفس (ولا تولوا) نهاهم عن التولي عن رسوله فالضمير في (عنه) عائد الى الرسول لان طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي من طاعة الله ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ويحتمل أن يكون راجعا الى الله والى رسوله كما في قوله والله ورسوله أحق أن يرضوه وقيل راجع الى الامر الذي دل عليه أطيعوا هذا تفسير الآية على ظاهر الخطاب للمؤمنين وبه قال الجمهور وقيل انه خطاب للمنافقين والمعنى يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم فقط قال ابن عطية وهذا وان كان محتملا على بعد فهو ضعيف جدا لان الله وصف من خاطبه في هذه الآية بالايمان وهو التصديق والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشيء وأبعد من هذا من قال الخطاب لبني اسرائيل فانه أجنبي من الآية (وأنتم تسمعون) ما يتلى عليكم

ابن سهل حدثنا ضمرة بن ربيعة قال تلا الحسن هذه الآية يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم فقال الحسن الحمد لله بها والحمد لله عليها ما كان مؤمن فيما مضى ولا مؤمن فيما بقي الا والى جنبه منافق يكره عمله وقال سعيد بن المسيب اذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر فلا يضرك من ضل اذا اهتديت رواه ابن جرير وكذا روى من طريق سفيان الثوري عن أبي العميس عن أبي البختري عن حذيفة مثله وكذا قال غير واحد من السلف وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام بن خالد الدمشقي حدثنا الوليد حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن كعب في قوله عليكم (١٩) أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم قال اذا هدمت كنيسة مسجد دمشق فجعلت مسجدا وظهر لبس العصب فحينئذ تأويل هذه الآية

(يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم ان أنتم ضربتم في الارض فأصابتكم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله ان ارتبتم لا نشتري به ثمنا ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله انا اذا لمن الآثمين فان عثر على انهما استحقا اثما فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا انا اذا لمن الظالمين ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها او يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدي القوم الفاسقين)

اشتملت هذه الآية الكريمة على حكم عزيز قيل انه منسوخ رواه العوفي عن ابن عباس وقال حماد ابن أبي سلمان عن ابراهيم انها منسوخة وقال آخرون وهم الاكثر فيما قاله ابن جرير بل هو محكم ومن ادعى نسخه فعليه البيان فقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان هذا هو الخبر (١) لقوله شهادة بينكم فقيل تقديره شهادة اثنين حذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه وقيل دل الكلام على تقدير ان يشهد اثنان وقوله تعالى ذوا عدل وصف الاثنين بأن يكونا عدلين وقوله منكم أي من المسلمين قاله الجمهور قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله ذوا عدل منكم قال من المسلمين رواه ابن أبي حاتم ثم قال وروي عن عبيدة وسعيد بن المسيب والحسن ومجاهد ويحيى بن يعمر والسدي وقتادة وغيرهم نحو ذلك قال ابن جرير وقال آخرون عنى بذلك ذوا عدل منكم أي من

من الحجج والبراهين والقرآن والمواعظ وتصدقون بها ولستم كالصم البكم (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا) وهم المشركون أو المنافقون أو اليهود والجميع من هؤلاء فانهم يسمعون بآذانهم من غير فهم ولا عمل (وهم لا يسمعون) سماع تدبر واتعاظ أي فهم كالذي لم يسمع أصلا لانه لم ينتفع بما سمعه وهذه صفة المنافقين أو المشركين (ان شر الدواب) أي ما دب على وجه الارض واطلاق الدابة على الانسان حقيقي لما ذكروه في كتب اللغة من أنها تطلق على كل حيوان ولو آدميا وفي المصباح الدابة كل حيوان في الارض مميزا أو غير مميز (عند الله) أي في حكمه (الصم البكم) أي الذين لا يسمعون ولا ينطقون وصفوا بذلك مع كونهم ممن يسمع وينطق لعدم انتفاعهم بالسمع والنطق (الذين لا يعقلون) ما فيه النفع لهم فيأتونه وما فيه الضرر عليهم فيجتنبونه فهم شر الدواب عند الله لانها تميز بعض تمييز وتفرق بين ما ينفعها ويضرها قال ابن عباس هم نفر من قريش من بني عبد الدار وعن ابن جريج قال نزلت هذه الآية في النضر بن الحرث وقومه (ولو علم الله فيهم) أي في هؤلاء الصم البكم (خيرا) أي خير (لأسمعهم) سماعا ينتفعون به ويعقلون عنده الحجج والبراهين قال الزجاج لأسمعهم جواب كل ما سألوا عنه وقيل لأسمعهم كلام الموتى الذين طلبوا احياءهم لانهم طلبوا احياء قصي بن كلاب وغيره ليشهدوا بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقال عروة بن الزبير لأسمعهم أي لأنفذ لهم قولهم الذي قالوا بألسنتهم ولكن القلوب خالفت ذلك منهم (ولو أسمعهم) فرضا وقد علم أن لا خير فيهم (لتولوا) عنه ولم ينتفعوا بما يسمعون من المواعظ والدلائل ولم يستقيموا (وهم معرضون) عن قبوله عنادا وجحودا لانه قد سبق في علمه انهم لا يؤمنون (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول) الامر هنا بالاستجابة مؤكد لما سبق من الامر بالطاعة والاستجابة الطاعة قال أبو عبيدة معنى استجيبوا أجيبوا والسين والتاء زائدتان وان كان استجاب يتعدى باللام وأجاب بنفسه كما في قوله يا قومنا أجيبوا داعي الله وقد يتعدى استجاب بنفسه (اذا دعاكم) وحد الضمير هنا كما وحده في قوله ولا تولوا عنه لان استجابة الرسول استجابة لله تعالى وانما يذكر أحدهما مع الآخر للتوكيد وقد تقدم وجه ذلك (لما يحييكم) أي استجيبوا لما يحييكم اذا دعاكم ولا مانع من أن تكون اللام متعلقة بدعا أي اذا دعاكم الى ما فيه حياتكم من علوم الشريعة لان العلم حياة كما ان

(١) قوله هذا هو الخبر كذا بالنسخ التي بأيدينا وحرر اه

أهل الموصي وذلك قول روي عن عكرمة وعبيدة وعدة غيرهما وقوله أو آخران من غيركم قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا سعيد بن عوف حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبير قال قال ابن عباس في قوله أو آخران من غيركم قال من غير المسلمين يعني أهل الكتاب ثم قال وروي عن عبيدة وشريح وسعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين ويحيى بن يعمر وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير والشعبي وإبراهيم النخعي وقتادة وأبي مجلز والسدي ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم نحو ذلك وعلى ما حكاه ابن جرير عن عكرمة وعبيدة في قوله منكم أن المراد من قبيلة الموصي يكون المراد ههنا أو آخران من غيركم أي من غير قبيلة الموصي وروى ابن أبي حاتم مثله عن الحسن البصري والزهري رحمهما الله وقوله تعالى ان أنتم ضربتم في الأرض أي سافرتم فأصابتكم مصيبة الموت وهذان شرطان لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين أن يكون ذلك في سفر وأن يكون في وصية كما صرح بذلك شريح القاضي قال ابن جرير حدثنا عمرو بن علي حدثنا أبو معاوية ووكيع قالا حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن شريح قال لا تجوز شهادة اليهود والنصارى إلا في سفر ولا تجوز في سفر إلا في الوصية ثم رواه عن أبي كريب عن أبي بكر بن عياش عن أبي إسحق السبيعي قال قال شريح فذكر مثله وروي نحوه عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى وهذه المسئلة من أفراده وخالفه الثلاثة فقالوا لا تجوز شهادة أهل الذمة على المسلمين وأجازها أبو حنيفة فيما بين بعضهم بعضا وقال ابن جرير حدثنا عمرو بن علي حدثنا أبو داود حدثنا صالح بن أبي الأخضر عن الزهري قال مضت السنة أن لا تجوز شهادة الكافر في حضر ولا سفر إنما هي في المسلمين وقال ابن زيد من نزلت هذه الآية في رجل توفي وليس عنده أحد من أهل الإسلام وذلك في أول الإسلام والأرض حرب والناس كفار وكان الناس يتوارثون بالوصية ثم نسخت الوصية وفرضت الفرائض وعمل الناس بها رواه ابن جرير وفي هذا نظر والله أعلم وقال ابن جرير اختلف في قوله شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم هل المراد به أن يوصي إليهما أو يشهدهما على قولين أحدهما أن يوصي إليهما كما قال ابن إسحق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط قال قال ابن مسعود رضي

الجهل موت

لا تعجبن الجهول حلته * فذاك ميت وثوبه كفن

قال الجمهور من المفسرين المعنى استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهي ففيه الحياة الأبدية والنعمة السرمدية وقيل المراد الجهاد فإنه سبب الحياة في الظاهر لأن العدو إذا لم يغز غزا قاله ابن إسحق وقال السدي هو الإيمان لأن الكافر ميت فيحيا بالإيمان وقال مجاهد هو الحق وقيل هو الشهادة لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون وعن قتادة قال هذا هو القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة وقال عروة بن الزبير الحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل وقواكم بها بعد الضعف ومنعكم بها من العذاب بعد القهر منهم لكم وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي سعيد ابن المعلى قال كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلم أجبه ثم أتيته فقلت يا رسول الله إني كنت أصلي فقال ألم يقل الله تعالى استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم الحديث وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج على أبي ابن كعب وهو يصلي فقال يا أبي فالتفت أبي ولم يجبه الحديث وفيه فقال إني كنت في الصلاة فقال أفلم تجد فيما أوحى الله إلي استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم قال بلى ولا أعود إن شاء الله تعالى أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح وهذه الإجابة مختصة بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم فليس لأحد أن يقطع صلاته لدعاء أحد آخر وقيل لو دعاه أحد لأمر مهم لا يحتمل التأخير فله أن يقطع صلاته والأول أولى ويستدل بهذا الأمر بالاستجابة على أنه لا بد من الإجابة في كل ما دعا الله ورسوله إليه فيجب على كل مسلم إذا بلغه قول الله أو قول رسوله في حكم من الأحكام الشرعية أن يبادر إلى العمل به كائنا ما كان ويدع ما خالفه من الآراء وأقوال الرجال وفي هذه الآية الشريفة أعظم باعث على العمل بنصوص الأدلة وترك التقليد بالمذاهب وعدم الاعتداد بما يخالف ما في الكتاب والسنة كائنا ما كان (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) قيل معناه بادروا إلى الاستجابة قبل أن لا تتمكنوا منها بزوال القلوب التي تعقلون بها بالموت الذي كتبه الله عليكم وقيل معناه أنه خاف المسلمون يوم بدر كثرة العدو فأعلمهم الله أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبدلهم بعد الخوف أمنا ويبدل عدوهم من الأمن خوفا واختار ابن جرير أن هذا من باب الإخبار

الله عنه فى هذه الآية هذا رجل سافر ومعه مال فأدركه قدره فان وجد رجلين من المسلمين دفع اليهما تركته
المسلمين ورواه ابن أبى حاتم وفيه انقطاع والقول الثانى يكونان شاهدين وهو ظاهر سياق الآية انهما فان لم يكن
معهما اجتمع فيهما الوصفان الوصاة والشهادة كما فى قصة تميم الدارى وعدى بن بداء كما سيأتى ذكرها آنفا ان شاء
وقد استشكل ابن جرير كونهما شاهدين قال لانا لا نعلم حكما يحلف فيه الشاهد وهذا لا يمنع الحكم الذى تضمنته هذه
الكريمة وهو حكم محكم مستقل بنفسه لا يلزم أن يكون جاريا على قياس جميع (٢١) الاحكام على أن هذا حكم خاص بشهادة
خاصة فى محل خاص وقد اغتفر فيه من الامور ما لم يغتفر فى غيره فاذا قامت قرينة الريبة حلف هذا الشاهد بمقتضى ما دلت عليه هذه الآية الكريمة وقوله تعالى تحبسونهما من بعد الصلاة قال العوفى عن ابن عباس يعنى صلاة العصر وكذا قال سعيد بن جبير وابراهيم النخعى وقتادة وعكرمة ومحمد بن سيرين وقال الزهرى يعنى صلاة المسلمين وقال السدى عن ابن عباس يعنى صلاة أهل دينهما وروى عن عبد الرزاق عن أيوب عن ابن سيرين عن عبيدة وكذا قال ابراهيم وقتادة وغير واحد والمقصود أن يقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهم فيقسمان بالله أى يحلفان بالله ان ارتبتم أى ان ظهرت لكم منهما ريبة انهما خانا أو غلا فيحلفان حينئذ بالله لا نشترى به أى بأيماننا قاله مقاتل بن حيان ثمنا أى لا نعتاض عنه بعوض قليل من الدنيا الفانية الزائلة ولو كان ذا قربى أى ولو كان المشهود عليه قريبا لنا لا نحابيه ولا نكتم شهادة الله أضافها
الى الله تشريفا لها وتعظيما لامرها وقرأ بعضهم ولا نكتم شهادة الله مجرورا على القسم رواها ابن جرير عن عامر الشعبى
والقراءة الاولى هى المشهورة انا اذا لمن الآثمين أى ان فعلنا شيأ من ذلك من تحريف الشهادة أو تبديلها أو تغييرها أو كتمها
بالكلية ثم قال تعالى فان عثر على أنهما استحقا اثما أى فان اشتهر وظهر وتحقق من الشاهدين الوصيين أنهما خانا أو غلا شيأ من
المال الموصى به اليهما وظهر عليهما بذلك فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الاوليان هذه القراءة المشهورة
استحق عليهم الاوليان وروى عن الحسن وغيره أنهم قرؤها (١) وروى الحاكم فى المستدرك من طريق اسحق بن محمد

(١) بياض بالاصل ولعله من الذين استحق عليهم الاولان كما سيأتى قريبا اه مصححه

من الله عز وجل بأنه أملك لقلوب عباده منهم وأنه يحول بينهم و بينها اذا شاء حتى لا يدرك الانسان شيأ الا بمشيئته عز وجل ولا يخفاك انه لا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعانى وقال ابن عباس يحول بين المؤمن و بين الكفر ومعاصى الله ويحول بين الكافر و بين الايمان وطاعة الله وبه قال سعيد بن جبير والضحاك ومجاهد وقال السدى يحول بين الانسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن أو يكفر الا باذنه وارادته قيل وهذا القول هو الذى دلت عليه البراهين العقلية لان أحوال القلوب اعتقادات ودواع وارادات وتلك الارادات لا بد لها من فاعل مختار وهو الله تعالى فثبت بذلك أن المتصرف فى القلب كيف شاء هو الله فالمعنى أنه يحول بين المرء وخواطر قلبه أو وادراك قلبه بمعنى أنه يمنعه من حصول مراده أو يمنعه من الادراك والفهم وفى الشهاب أصل الحول كما قال الراغب تغير الشئ وانفصاله عن غيره و باعتبار التغير قيل حال الشئ يحول و باعتبار الانفصال قيل حال بينهما كذا فحقيقة كون الله يحول بين المرء وقلبه أنه يفصل بينهما ومعناه الحقيقى غير متصور فى حقه فهو مجاز عن غاية القرب من العبد لان من فصل بين شيئين كان أقرب الى كل منهما من الآخر لاتصاله بهما وانفصال أحدهما عن الآخر وهو اما استعارة تبعية فمعنى يحول يقرب أو تمثيلية وقيل ان الانسب أن يكون مجازا مركبا مرسلا لاستعماله فى لازم معناه وهو القرب وليس ببعيد وقال أبو السعود هذا تمثيل لغاية قربه من العبد كقوله نحن أقرب اليه من حبل الوريد وتنبيه على أنه مطلع على مكنونات القلوب ما عسى يغفل عنه صاحبها أو حث على المبادرة الى اخلاص القلوب وتصفيتها قبل ادراك المنية فانها حائلة بين المرء وقلبه أو تصوير وتخييل لتملكه على العبد قلبه بحيث يفسخ عزائمه و يغير نياته ومقاصده و يحول بينه و بين الكفر ان أراد سعادته و يبدله بالامن خوفا و بالذكر نسيانا وما أشبه ذلك من الامور العارضة المفوتة للفرصة اه وقال الربيع بن أنس علمه يحول وقال مجاهد يحول حتى يتركه لا يعقل وعن الحسن قال فى القرب منه وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ان قلوب بنى آدم بين اصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء ثم قال اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك أخرجه مسلم وفى الباب أحاديث وهذا الحديث من أحاديث الصفات يجب امراره على ما جاء من غير تأويل

القروى عن سليمان بن بلال عن جعفر بن محمد عن أبيه عن عبيد الله بن أبي رافع عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ من الذين استحق عليهم الاوليان وقرأ الحسن من الذين استحق عليهم الاولان حكاه ابن جرير فعلى قراءة الجمهور يكون المعنى بذلك أي متى تحقق ذلك بالخبر الصحيح على خيانتهما فليقم اثنان من الورثة المستحقين للتركة وليكونا من أولى من يرث ذلك المال فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما أي لقولنا انهما خانا أحق وأصح وأثبت من شهادتهما المتقدمة وما اعتدينا أي فيما قلنا فيهما من الخيانة انا اذا لمن الظالمين أي (٢٢) ان كنا قد كذبنا عليهما وهذا التحليف للورثة والرجوع الى قولهما والحالة هذه كما يحلف أولياء المقتول اذا ظهر لوث في جانب القاتل فيقسم المستحقون على القاتل فيدفع برمته اليهم كما هو مقرر في باب القسامة من الاحكام وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة فقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا الحسين بن زياد حدثنا محمد بن سلمة عن محمد بن اسحق عن أبي النضر عن زاذان يعني أبا صالح مولى أم هانئ بنت أبي طالب عن ابن عباس عن تميم الداري في هذه الآية يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت قال برئ الناس منها غيري وغير عدي ابن بداء وكانا نصرانيين يختلفان الى الشام قبل الاسلام فأتيا الشام لتجارتهما وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له بديل بن أبي مريم بتجارة معه جام من فضة يريد به الملك وهو أعظم تجارته فمرض فأوصى اليهما وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله قال تميم فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم واقتسمناه أنا وعدي فلما قدمنا الى أهله دفعنا اليهم ما كان معنا وفقدوا الجام فسألونا عنه فقلنا ما ترك غير هذا وما دفع الينا غيره قال تميم فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة تأثمت من ذلك فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر ودفعت اليهم خمسمائة درهم وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها فوثبوا اليه فأمرهم النبي أن يستحلفوه بما يحكم به على أهل دينه فحلف فنزلت يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم الى قوله فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما فقام عمرو بن العاص ورجل آخر منهم فحلفا فنزعت الخمسمائة من عدي بن بداء وهكذا رواه أبو عيسى الترمذي وابن جرير كلاهما عن الحسن بن أحمد بن أبي شعيب الحراني عن محمد بن سلمة عن محمد بن اسحق به فذكره وعنده فأتوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألهم البينة فلم يجدوا فأمرهم

ولا تعطيل ولا تشبيه وكذا هذه الآية وكونه من الصفات يردنا أو يلهانا بالتمثيل (وأنه اليه تحشرون) أي وانكم محشورون اليه وهو مجازيكم بالخير خيرا وبالشر شرا قال الفراء ولو استأنفت فكسرت همزة انه لكان صوابا ولعل مراده أن مثل هذا جائز في العربية (واتقوا) خطاب للمؤمنين مطلقا صلحائهم وغيرهم (فتنة) المراد بها العذاب الدنيوي كالقحط والغلاء وتسلط الظلمة وغير ذلك أي اتقوا أسباب فتنة (لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) أي اتقوا فتنة تتعدى الظالم فتصيب الصالح والطالح ولا تختص اصابتها بمن يباشر الظالم منكم وفي لا وجهان احدهما انها ناهية والنهي في الصورة للمصيبة وفي المعنى للمخاطبين والثاني انها نافية والجملة صفة لفتنة وهذا أوضح من هذه الجهة الا انه يشكل عليه توكيد المضارع في غير قسم ولا طلب ولا شرط وفيه خلاف وقد اختلف النحاة في هذه النون المؤكدة في تصيبن فقال الفراء هو جواب الامر بلفظ النهي ومثله قوله تعالى ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم أي ان تدخلوا وقال المبرد انه نهي بعد أمر والمعنى النهي للظالمين أي لا يقربن الظلم ومثله ما روي عن سيبويه لا أرينك ههنا أي لا تكن ههنا فان من كان ههنا رأيته وقال الجرجاني نهي في موضع وصف لفتنة وقيل لا تصيبن جواب قسم محذوف والجملة القسمية صفة لفتنة أي فتنة والله لا تصيبن ودخول النون أيضا قليل لانه منفي قال الزبير الفتنة البلاء والامر الذي هو كائن وعن الحسن قال نزلت في علي وعثمان وطلحة والزبير وعن الضحاك قال نزلت في أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصة وعن السدي قال نزلت في أهل بدر خاصة فأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا وكان من المقتولين طلحة والزبير وهما من أهل بدر فتصيب الظالم والصالح عامة وعن مجاهد والضحاك وقتادة مثله روى البغوي بسنده عن عدي بن عدي قال حدثني مولى لنا أنه سمع جدي يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ان الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه فاذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة والذي ذكره ابن الاثير في جامع الاصول عن عدي بن عميرة الكندي ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال اذا عملت الخطيئة في الارض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها وأخرج أبو داود عن جرير ابن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ما من رجل يكون في قوم

يعمل

أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه فحلف فأنزل الله هذه الآية الى قوله أو يخافوا ان ترد أيمان بعد أيمانهم فقام عمرو بن العاص ورجل آخر فحلفا فنزعت الخمسمائة من عدى بن بداء ثم قال هذا حديث غريب وليس اسناده بصحيح وأبو النضر الذى روى عنه محمد بن اسحق هذا الحديث هو عندى محمد بن السائب الكلبى يكنى أبا النضر وقد تركه أهل العلم بالحديث وهو صاحب التفسير سمعت محمد بن اسمعيل يقول محمد بن السائب الكلبى يكنى أبا النضر ثم قال ولا نعرف لأبى النضر رواية عن أبى صالح مولى أم هانئ وقد روى عن ابن عباس شئ من هذا على الاختصار من غير (٢٣) هذا الوجه حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا يحيى ابن آدم عن ابن أبى زائدة عن محمد ابن أبى القاسم عن عبد الملك بن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن عباس قال خرج رجل من بنى سهم مع تميم الدارى وعدى بن بداء فمات السهمى بأرض ليس بها مسلم فلما قدما بتركته فقدوا جاما من فضة مخوصا بذهب فأحلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجدوا الجام بمكة فقيل اشتريناه من تميم وعدى فقام رجلان من أولياء السهمى فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وان الجام لصاحبهم وفيهم نزلت يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم الآية وكذا رواه أبو داود عن الحسن بن على بن يحيى بن آدم به ثم قال الترمذى هذا حديث حسن غريب وهو حديث ابن أبى زائدة ومحمد بن أبى القاسم الكوفى قيل انه صالح الحديث وقد ذكر هذه القصة مرسلة غير واحد من التابعين منهم عكرمة ومحمد بن سيرين وقتادة وذكروا ان التحليف كان بعد صلاة العصر رواه ابن جرير وكذا ذكرها مرسلة مجاهد والحسن والضحاك وهذا يدل على اشتهارها فى السلف وصحتها ومن الشواهد لصحة هذه القصة أيضا ما رواه أبو جعفر بن جرير حدثنى يعقوب حدثنا هشيم قال أخبرنا زكريا عن الشعبى أن رجلا من المسلمين حضرته الصلاة بدقوقا قال فحضرته الوفاة ولم يجد أحدا من المسلمين يشهده على وصيته فأشهد رجلين من أهل الكتاب قال فقدما الكوفة فأتيا الاشعرى يعنى أبا موسى الاشعرى رضى الله عنه فأخبراه وقدما الكوفة بتركته ووصيته فقال الاشعرى هذا أمر لم يكن بعد الذى كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فأحلفهما بعد العصر بالله ما خانا ولا كذبا ولا بدلا ولا كتما ولا غيرا وانها لوصية الرجل وتركته قال فأمضى شهادتهما ثم رواه عن عمرو بن على الفلاس

يعمل فيهم بالمعاصى يقدرون أن يغيروا عليه ولم يغيروا الا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا وقال ابن زيد أراد بالفتنة افتراق الكلمة ومخالفة بعضهم بعضا وروى الشيخان عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشى والماشى خير من الساعى من تشرف لها تستشرفه ومن وجد ملجأ أو معاذا فليعذ به قال الكرخى واستشكل هذا بقوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى وأجيب بأن الناس اذا تظاهروا بالمنكر فالواجب على كل من رآه أن يغيره اذا كان قادرا على ذلك فاذا سكت فكلهم عصاة هذا بفعله وهذا برضاه وقد جعل الله بحكمته الراضى بمنزلة العامل فانتظم فى العقوبة اه وعلامة الرضا بالمنكر عدم التألم من الخلل الذى يقع فى الدين بفعل المعاصى فلا يتحقق كون الانسان كارها له الا اذا تألم للخلل الذى يقع فى الدين كما يتألم ويتوجع لفقد ماله أو ولده فكل من لم يكن بهذه الحالة فهو راض بالمنكر فتعمه العقوبة والمصيبة بهذا الاعتبار هكذا قرره القسطلانى على البخارى (واعلموا أن الله شديد العقاب) ومن شدة عقابه أنه يصيب بالعذاب من لم يباشر أسبابه وقد وردت الآيات القرآنية بأنه لا يصاب أحد الا بذنبه ولا يعذب الا بجنايته فيمكن حمل ما فى هذه الآية على العقوبات التى تكون بتسليط العباد بعضهم على بعض ويمكن أن تكون هذه الآية خاصة بالعقوبات العامة والله أعلم ويمكن أن يقال ان الذين لم يظلموا قد تسببوا للعقوبة بأسباب كترك الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فتكون الاصابة المتعدية للظالم الى غيره مختصة بمن ترك ما يجب عليه عند ظهور الظلم وعن ابن عباس قال أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بعذاب (واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون فى الارض) الخطاب للنبى وللمهاجرين بتذكير نعمة الله عليهم بالحماية من أعدائهم حيث آواهم فى المدينة ونصرهم ببدر وهذه الآية نزلت بعد بدر أى اذكروا وقت قلتكم والارض هى أرض مكة وأطلقها هنا فى الآية لانها لعظمها كأنها هى الارض كلها أولان حالهم كان فى بقية البلاد كحالهم فيها أو قريبا من ذلك ولهذا عبر عنهم بالناس فى قوله (تخافون أن يتخطفكم الناس) والخطف الاخذ بسرعة والمراد بالناس مشركو قريش وكفار مكة وقال عكرمة كفار العرب وقيل فارس والروم قاله وهب (فآواكم) يقال اوى اليه بالمد والقصر بمعنى الضم اليه

عن أبي داود الطيالسي عن شعبة عن مغيرة الازرق عن الشعبي أن أبا موسى قضى به وهذان اسنادان صحيحان الى الشعبي عن
أبي موسى الاشعري فقوله هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الظاهر والله أعلم انه انما أراد بذلك
قصة تميم وعدي بن بداء وقد ذكروا ان اسلام تميم بن أوس الداري رضي الله عنه كان سنة تسع من الهجرة فعلى هذا يكون هذا
الحكم متأخرا يحتاج مدعي نسخه الى دليل فاصل في هذا المقام والله أعلم وقال أسباط عن السدي في الآية يا أيها الذين آمنوا
شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت حين الوصية (٢٤) اثنان ذوا عدل منكم قال هذا في الوصية عند الموت يوصي ويشهد
رجلين من المسلمين على ماله وما عليه قال هذا في الحضر أو آخران من غيركم في السفر ان أنتم ضربتم في الارض فاصابتكم مصيبة الموت هذا الرجل يدركه الموت في سفره وليس بحضرته أحد من المسلمين فيدعو رجلين من اليهود والنصارى والمجوس فيوصي اليهما ويدفع اليهما ميراثه فيقبلان به فان اوصلا أهل الميت الوصية وعرفوا ما لصاحبهم تركوهما وان ارتابوا رفعوهما الى السلطان فذلك قوله تعالى تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله ان ارتبتم قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه كأني انظر الى العلجين حين انتهى بهما الى أبي موسى الاشعري في داره ففتح الصحيفة فأنكر أهل الميت وخوفوهما فأراد أبو موسى أن يستحلفهما بعد العصر فقلت انهما لا يباليان صلاة العصر ولكن استحلفهما بعد صلاتهما في دينهما فيوقف الرجلان بعد صلاتهما في دينهما فيحلفان بالله لا نشتري به ثمنا قليلا ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله انا اذا لمن الآثمين ان صاحبهم لبهذا أوصى وان هذه لتركته فيقول لهما الامام قبل أن يحلفا انكما ان
كتمتما أو خنتما فضحتكما في قومكما ولم تجز لكما شهادة وعاقبتكما فاذا قال لهما ذلك فان ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة سعد
على وجهها رواه ابن جرير وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا هشيم أخبرنا مغيرة عن ابراهيم وسعيد بن جبير انهما
قالا في هذه الآية يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم الآية قالا اذا حضر الرجل الوفاة في سفر فليشهد رجلين من المسلمين فان لم يجد
رجلين من المسلمين فرجلين من أهل الكتاب فاذا قدما بتركته فان صدقهما الورثة قبل قولهما وان اتهموهما احلفا بعد صلاة العصر
بالله ما كتمنا ولا كذبنا ولا خنا ولا غيرنا وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية فان ارتيب في شهادتهما استحلفا بعد

والمعنى ضمكم الله الى المدينة أو الى الانصار (وأيدكم بنصره) أي وقواكم بالنصر في مواطن الحرب التي منها يوم بدر أو قواكم بالملائكة يوم بدر (ورزقكم من الطيبات) التي من جملتها الغنائم أحلها لكم ولم يحلها لاحد قبلكم (لعلكم تشكرون) أي ارادة أن تشكروا هذه النعم التي أنعم الله بها عليكم قال قتادة كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلا وأشقاه عيشا وأجوعه بطنا وأعراه جلودا وأبينه ضلالة من عاش عاش شقيا ومن مات منهم ردي في النار يؤكلون ولا يأكلون لا والله ما نعلم قبيلا من حاضري الارض يومئذ كان أشر منزلا منهم حتى جاء الله بالاسلام فمكن به في البلاد ووسع به في الرزق وجعلهم به ملوكا على رقاب الناس وبالاسلام أعطى الله ما رأيتم فاشكروا الله نعمه فان ربكم منعم يحب الشكر وأهل الشكر في مزيد من الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم) الخون أصله كما في الكشاف النقص كما ان الوفاء التمام ثم استعمل في ضد الامانة والوفاء لانك اذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان وقيل معناه الغدر واخفاء الشيء ومنه قوله تعالى يعلم خائنة الاعين نهاهم الله عن أن يخونوه بترك شيء مما افترضه عليهم أو يخونوا رسوله بترك شيء مما أمرهم الله عليه أو بترك شيء مما سنه لهم أو يخونوا أشياء من الامانات التي ائتمنوا عليها وسميت أمانات لانه يؤمن معها من منع الحق مأخوذة من الامن قال ابن عباس لا تخونوا الله بترك فرائضه والرسول بترك سننه وارتكاب معصيته وقال المغيرة بن شعبة نزلت هذه الآية في قتل عثمان وقال يزيد ابن أبي حبيب هو الاخلال بالسلاح في المغازي ولعل مرادهما ان هذا مما يندرج تحت عمومها وقال جابر بن عبد الله ان أبا سفيان خرج من مكة فأتى جبريل النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال ان أبا سفيان بمكان كذا وكذا فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انه بمكان كذا فاخرجوا اليه واكتموا فكتب رجل من المنافقين الى أبي سفيان ان محمدا يريدكم فخذوا حذركم فأنزل الله هذه الآية وعن عبد الله بن أبي قتادة قال نزلت هذه الآية في أبي لبابة بن عبد المنذر سألوه يوم قريظة ما هذا الامر فأشار الى حلقه انه الذبح فنزلت وعن الزهري نحوه بأطول منه وعن الكلبي والسدي نحوه ولما اشتد الحصار بني قريظة أطاعوا وانقادوا وأن ينزلوا على ما يحكم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فحكم فيهم

العصر بالله ما اشترينا بشهادتنا ثمنا قليلا فان اطلع الاوليان على ان الكافرين كذبا في شهادتهما قام رجلان من الاولياء فحلفا بالله ان شهادة الكافرين باطلة وانا لم نعتد فذلك قوله فان عثر على انهما استحقا اثما يقول ان اطلع على ان الكافرين كذبا فآخران يقومان مقامهما يقول من الاولياء فحلفا بالله ان شهادة الكافرين باطلة وانا لم نعتد فترد شهادة الكافرين وتجوز شهادة الاولياء وهكذا روى العوفي عن ابن عباس رواهما ابن جرير وهكذا اقرر هذا الحكم على مقتضى هذه الآية غير واحد من أئمة التابعين والسلف رضي الله عنهم وهو مذهب الامام أحمد رحمه الله وقوله ذلك أدنى (٢٥) ان يأتوا بالشهادة على وجهها اى شرعية هذا الحكم على هذا الوجه المرضي من تحليف الشاهدين الذميين أقرب الى اقامتهما وقوله أو يخافوا ان ترد أيمان بعد أيمانهم أى يكون الحامل لهم على الاتيان بها على وجهها هو تعظيم الحلف بالله ومراعاة جانبه واجلاله والخوف من الفضيحة بين الناس ان ردت اليمين على الورثة فيحلفون ويستحقون ما يدعون ولهذا قال أو يخافوا ان ترد أيمان بعد أيمانهم ثم قال واتقوا الله أى في جميع أموركم واسمعوا أى وأطيعوا والله لا يهدي القوم الفاسقين أى الخارجين عن طاعته ومتابعة شريعته (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا انك أنت علام الغيوب) هذا اخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة عما أجيبوا به من أممهم الذين أرسلهم اليهم كما قال تعالى فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين وقال تعالى فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون وقول الرسل لا علم لنا قال مجاهد والحسن البصري والسدي انما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم قال عبد الرزاق عن الثوري عن الاعمش عن مجاهد يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم فيفزعون فيقولون لا علم لنا رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا حكام حدثنا عنبسة قال سمعت شيخا يقول سمعت الحسن يقول في قوله يوم يجمع الله الرسل الآية قال من هول ذلك اليوم وقال أسباط عن السدي يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا ذلك انهم نزلوا منزلا ذهلت فيه العقول فلما سئلوا قالوا لا علم لنا ثم نزلوا منزلا آخر فشهدوا على قومهم رواه ابن جرير ثم قال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا الحجاج عن ابن جريج قوله يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم أى ماذا عملوا بعدكم وما أحدثوا بعدكم قالوا لا علم لنا انك أنت علام الغيوب وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يوم يجمع الله

سعد بن معاذ وقال انى أحكم فيهم ان تقتل الرجال وتقسم الاموال وتسبى الذرارى والنساء فقال صلى الله عليه وآله وسلم لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة وفى رواية محمد بن الصالح لقد حكمت اليوم فيهم بحكم الله الذى حكم به من فوق سبع سموات والقصة بطولها فى المواهب اللدنية (وأنتم تعلمون) ان ذلك الفعل خيانة فتفعلون الخيانة عن عمد وأنتم من أهل العلم لا من أهل الجهل ثم قال (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) لانهم سبب الوقوع فى كثير من الذنوب وصادة عن أمور الآخرة فصاروا من هذه الحيثية محنة يختبر الله بها عباده وان كانوا من حيثية أخرى زينة الحياة الدنيا كما فى الآية الاخرى عن ابن مسعود قال ما منكم من أحد الا وهو يشتمل على فتنة لان الله يقول انما أموالكم وأولادكم فتنة فمن استعاذ منكم فليستعذ بالله من مضلات الفتن وقال ابن زيد فتنة الاختبار اختبرهم وقرأ ونبلوكم بالشر والخير فتنة (وان الله عنده أجر عظيم) فآثروا حقه على أموالكم وأولادكم ليحصل لكم ما عنده من الاجر المذكور (يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) جعل سبحانه التقوى شرطا فى الجعل المذكور مع سبق علمه بأنهم يتقون جريا على ما يخاطب به الناس بعضهم بعضا والتقوى اتقاء مخالفة أوامره والوقوع فى مناهيه والفرقان ما يفرق به بين الحق والباطل والمعنى أنه يجعل لهم من ثبات القلوب وثقوب البصائر وحسن الهداية ما يفرقون به بينهما عند الالتباس وقيل الفرقان المخرج من الشبهات والنجاة من كل ما يخافونه قاله ابن عباس وعكرمة وقال الفراء المراد بالفرقان الفتح والنصر قال ابن اسحق الفرقان الفصل بين الحق والباطل وبمثله قال ابن زيد وقال السدي الفرقان النجاة ويؤيد تفسير الفرقان بالمخرج والنجاة قوله ومن يتق الله يجعل له مخرجا وبه قال مجاهد ومالك بن أنس (ويكفر عنكم سيآتكم) أى يسترها حتى تكون غير ظاهرة (ويغفر لكم) ما اقترفتم من الذنوب وقد قيل ان المراد بالسيآت الصغائر وبالذنوب التى تغفر الكبائر وقيل المعنى أنه يغفر لهم ما تقدم من الذنوب وما تأخر (والله ذو الفضل العظيم) فهو المتفضل على عباده بتكفير السيآت ومغفرة الذنوب (واذ يمكر بك الذين كفروا) أى واذكر يا محمد وقت مكر الكافرين بك ذكر الله رسوله هذه النعمة العظمى التى أنعم بها عليه وهى نجاته من

الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا انك أنت علام الغيوب يقولون للرب عزوجل لا علم لنا الا علم أنت أعلم به منا رواه ابن جرير ثم اختاره على هذه الاقوال الثلاثة ولا شك انه قول حسن وهو من باب التأدب مع الرب جل جلاله أى لا علم لنا بالنسبة الى علمك المحيط بكل شئ ونحن وان كنا قد أجبنا وعرفنا من أجابنا ولكن منهم من كنا انما نطلع على ظاهره لا علم لنا بباطنه وأنت العليم بكل شئ المطلع على كل شئ فعلمنا بالنسبة الى علمك كلا علم فانك أنت علام الغيوب (اذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس (٢٦) فى المهد وكهلا واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا باذنى وتبرئ الاكمه والابرص باذنى واذ تخرج الموتى باذنى واذ كففت بنى اسرائيل عنك اذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم ان هذا الا سحر مبين واذ أوحيت الى الحواريين ان آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) يذكر تعالى ما من به على عبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام مما أجراه على يديه من المعجزات الباهرات وخوارق العادات فقال اذكر نعمتى عليك أى فى خلقى اياك من أم بلا ذكر وجعلى اياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتى على الاشياء وعلى والدتك حيث جعلتك لها برهانا على براءتها مما نسبه الظالمون الجاهلون اليها من الفاحشة اذ أيدتك بروح القدس وهو جبريل عليه السلام وجعلتك نبيا داعيا الى الله فى صغرك وكبرك فأنطقتك فى المهد صغيرا فشهدت ببراءة أمك من كل عيب واعترفت لى بالعبودية وأخبرت عن رسالتى اياك ودعوتك الى عبادتى ولهذا قال تكلم الناس فى المهد وكهلا أى تدعو الى الله الناس فى صغرك وكبرك وضمن تكلم تدعو لان كلامه الناس فى كهولته ليس بأمر عجيب وقوله واذ علمتك الكتاب والحكمة أى الخط والفهم والتوراة وهى المنزلة على موسى بن عمران الكليم وقد يرد لفظ التوراة فى الحديث ويراد به ما هو أعم من ذلك وقوله واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى أى تصوره وتشكله على هيئة الطائر باذنى لك فى ذلك فيكون طيرا باذنى أى فتنفخ فى تلك الصورة التى شكلتها باذنى لك فى ذلك فتكون طيرا ذا روح تطير باذن الله وقوله تعالى وتبرئ الاكمه والابرص باذنى قد تقدم الكلام عليه فى سورة آل عمران بما أغنى عن اعادته وقوله واذ تخرج الموتى باذنى أى تدعوهم فيقومون من قبورهم باذن الله وقدرته وارادته

مكر الكافرين وكيدهم له بمكة لان هذه الواقعة كانت بمكة قبل أن يهاجر الى المدينة والسورة مدنية وقال عكرمة هذه الآية مكية والمكر الاحتيال فى ايصال الضرر للغير (ليثبتوك) أى يثخنوك بالجراحات كما قال ثعلب وأبو حاتم وغيرهما وقيل المعنى ليحبسوك يقال أثبته اذا حبسه وقيل ليوثقوك لان كل من شد شيئا وأوثقه فقد أثبته لانه لا يقدر على الحركة وهذا اشارة لرأى أبى البخترى ومنه فشدوا الوثاق وقرأ الشعبى ليبيتوك من البيات (أو يقتلوك) أى كلهم قتلة رجل واحد كما أشار عليهم أبو جهل (أو يخرجوك) منفيا من مكة التى هى بلدك وبلد أهلك وهذا اشارة لرأى هشام بن عمرو كذا فى شرح المواهب عن ابن عباس قال تشاورت قريش بمكة ليلة فقال بعضهم اذا أصبح فأثبتوه بالوثاق يريدون النبى صلى الله عليه وآله وسلم وقال بعضهم اقتلوه وقال بعضهم بل أخرجوه فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك فبات على على فراش النبى صلى الله عليه وآله وسلم حتى لحق بالغار فلما أصبحوا ثاروا اليه فلما رأوه عليا رد الله مكرهم فقالوا أين صاحبك هذا فقال لا أدرى فاقتصوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا فى الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاث ليال وروى البيهقى وغيره عنه بأطول مما هنا وفيها ذكر الشيخ النجدى أى ابليس ومشورته عليهم عند اجتماعهم فى دار الندوة للمشاورة فى أمر النبى صلى الله عليه وآله وسلم وان أبا جهل أشار بأن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش غلاما ويعطوا كل واحد منهم سيفا ثم يضربونه ضربة رجل واحد فاذا قتلوه تفرق دمه فى القبائل فقال الشيخ النجدى هذا والله هو الرأى فتفرقوا على ذلك (ويمكرون) بك (ويمكر الله) بهم والمكر التدبير فى الامر فى خفية والمعنى انهم يخفون ما يعدونه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المكائد فيجازيهم الله على ذلك ويرد كيدهم فى نحورهم بأن يخرجهم الى بدر ويقلل المسلمين فى أعينهم حتى يحملوا عليهم فيقتلوا وسمى ما يقع منه تعالى مكرا مشاكلة كما فى نظائره والمشاكلة تزيده حسنا على حسن وقيل استعارة تبعية وقيل مجاز مرسل بعلاقة السببية وقيل استعارة تمثيلية (والله خير) المجازين لمكر (الماكرين) بمثل فعلهم فهو يعذبهم على مكرهم من حيث لا يشعرون فيكون ذلك أشد ضررا عليهم وأعظم بلاء من مكرهم ووضع خير موضع أقوى وفيه تنبيه على ان كل مكر

ومشيئته وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا مالك بن اسمعيل حدثنا محمد بن طلحة يعني ابن مصرف عن أبي بشر عن أبي الهذيل قال كان عيسى بن مريم عليه السلام اذا أراد ان يحيي الموتى صلى ركعتين يقرأ في الاولى تبارك الذي بيده الملك وفي الثانية الم تنزيل السجدة فاذا فرغ منها مدح الله واثنى عليه ثم دعا بسبعة أسماء ياقديم ياخفي يادائم يافرد ياوتر ياأحد ياصمد وكان اذا أصابته شديدة دعا بسبعة أخر ياحي ياقيوم ياالله يارحمن ياذا الجلال والاكرام يانور السموات والارض وما بينهما ورب العرش العظيم يارب وهذا أثر عظيم جدا وقوله تعالى واذ كففت بني اسرائيل عنك اذ جئتهم (٢٧) بالبينات فقال الذين كفروا منهم ان هذا الا سحر مبين أي واذكر نعمتي عليك في كفي اياهم عنك حين جئتهم بالبراهين والحجج القاطعة على نبوتك ورسالتك من الله اليهم فكذبوك واتهموك بانك ساحر وسعوا في قتالك وصلبك فنجيتك منهم ورفعتك الى وطهرتك من دنسهم وكفيتك شرهم وهذا يدل على ان هذا الامتنان كان من الله اليه بعد رفعه الى السماء أو يكون هذا الامتنان واقعا يوم القيامة وعبر عنه بصيغة الماضي دلالة على وقوعه لامحالة وهذا من أسرار الغيوب التي أطلع الله عليها نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم وقوله واذ أوحيت الى الحواريين ان آمنوا بي وبرسولي وهذا أيضا من الامتنان عليه عليه السلام بان جعل له أصحابا وأنصارا ثم قيل ان المراد بهذا الوحي وحي الهام كما قال تعالى وأوحينا الى أم موسى ان أرضعيه الآية وهو وحي الهام بلا خلاف وكما قال تعالى وأوحى ربك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا الآية وهكذا قال بعض السلف في هذه الآية واذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون أي ألهموا ذلك فامتثلوا ما ألهموا قال الحسن البصري ألهمهم الله عز وجل ذلك وقال السدي قذف في قلوبهم ذلك ويحتمل أن يكون المراد ما أوحيت اليهم بواسطتك فدعوتهم الى الايمان بالله وبرسوله واستجابوا لك وانقادوا وتابعوك فقالوا آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون (اذ قال الحواريون ياعيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله ان كنتم مؤمنين قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون

يبطل بفعل الله (واذا تتلى عليهم آياتنا) التي تأتيهم بها وتتلوها عليهم (قالوا) تعنتا وتمردا وبعدا عن الحق (قد سمعنا) ما تتلوه علينا (لو نشاء لقلنا مثل هذا) الذي تلوته علينا أي مثل هذا القرآن وهو التوراة والانجيل وقد تنازع هذا العامل مع قوله لقلنا في قوله مثل هذا كما يستفاد من الخازن قيل انهم قالوا هذا توهما منهم انهم يقدرون على ذلك لانهم أهل الفصاحة وفرسان البلاغة فلما راموا ان يقولوا مثله عجزوا عنه ثم قالوا عنادا وتمردا (ان هذا الا أساطير الاولين) أي ما يسطره الوراقون من اخبار الاولين وقد تقدم بيانه مستوفى وعن السدي أنها نزلت في النضر بن الحرث وكان يختلف الى ارض فارس والحيرة ويسمع اخبارهم عن رستم واسفنديار وأحاديث العجم فلما جاء مكة ووجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أوحي اليه قال قد سمعنا الآية (و) اذكر (اذ قالوا اللهم ان كان هذا) أي القرآن الذي جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم (هو الحق) قرئ بالنصب وهو خبر الكون وبالرفع على الخبر وبه قرأ الاعمش وزيد بن علي قال ابن عطية ويجوز في العربية رفع الحق على خبر هو والجملة خبر لكان قال الاخفش ولا أعلم أحدا قرأ بهذا الجائز قلت قد ظهر من قرأ به وهما رجلان جليلان قاله السمين (من عندك فأمطر) قال أبو عبيدة يقال أمطر في العذاب ومطر في الرحمة وقال في الكشاف قد كثر الامطار في معنى العذاب والامطار استعارة أو مجاز عن الانزال أي أنزل (علينا حجارة) فائدة توصيف الحجارة بقوله (من السماء) الدلالة على ان المراد بالحجارة السجيل وهو حجارة مسومة أي معلمة معدة لتعذيب قوم من العصاة (أو ائتنا بعذاب أليم) قالوا هذه المقالة مبالغة في الجحود والانكار سألوا أن يعذبوا بالرجم بالحجارة من السماء أو بغيرها من انواع العذاب الشديدة فأجاب الله عليهم بقوله (وما كان الله ليعذبهم وأنت) يا محمد (فيهم) موجود فانك مادمت فيهم بارض مكة فهم في مهلة من العذاب الذي هو الاستئصال قال السيوطي لان العذاب اذا نزل عم ولم تعذب أمة الا بعد خروج نبيها والمؤمنين منها أخرج البخاري وابن أبي حاتم والبيهقي عن انس بن مالك قال قال أبو جهل بن هشام اللهم ان كان هذا هو الحق الآية فنزلت وما كان الله ليعذبهم وعن قتادة أنها نزلت في أبي جهل وعن سعيد بن جبير أنها نزلت في النضر بن الحرث وعن مجاهد وعطاء نحوه قال عطاء

لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين قال الله اني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فاني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين) هذه قصة المائدة واليها تنسب السورة فيقال سورة المائدة وهي مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى لما أجاب دعاءه بنزولها فأنزلها الله آية باهرة وحجة قاطعة وقد ذكر بعض الأئمة ان قصتها ليست مذكورة في الانجيل ولا يعرفها النصارى الا من المسلمين فالله أعلم فقوله تعالى اذ قال الحواريون وهم اتباع عيسى عليه السلام يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك وهذه قراءة كثيرين وقرأ آخرون هل تستطيع ربك أي هل تستطيع (٢٨) أن تسأل ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء والمائدة هي الخوان عليه طعام

وذكر بعضهم انهم انما سألوا ذلك لحاجتهم وفقرهم فسألوه أن ينزل عليهم مائدة كل يوم يقتاتون منها ويتقوون بها على العبادة قال اتقوا الله ان كنتم مؤمنين أي فأجابهم المسيح عليه السلام قائلا لهم اتقوا الله ولا تسألوا هذا فعساه أن يكون فتنة لكم وتوكلوا على الله في طلب الرزق ان كنتم مؤمنين قالوا نريد أن نأكل منها أي نحن محتاجون الى الأكل منها وتطمئن قلوبنا اذا شاهدنا نزولها رزقا لنا من السماء ونعلم أن قد صدقتنا أي ونزداد ايمانا بك وعلما برسالتك ونكون عليها من الشاهدين أي ونشهد أنها آية من عند الله ودلالة وحجة على نبوتك وصدق ما جئت به قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا قال السدي أي نتخذ ذلك اليوم الذي نزلت فيه عيدا نعظمه نحن ومن بعدنا وقال سفيان الثوري يعني يوما نصلي فيه وقال قتادة أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم وعن سلمان الفارسي عظة لنا ولمن بعدنا وقيل كافية لأولنا وآخرنا وآية منك أي دليلا تنصبه على قدرتك على الأشياء وعلى اجابتك لدعوتي فيصدقوني فيما أبلغه عنك وارزقنا أي من عندك رزقا هنيئا بلا كلفة ولا تعب وأنت خير الرازقين قال الله اني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم أي فمن كذب بها من أمتك يا عيسى وعاندها فاني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين أي من عالمي زمانكم كقوله تعالى يوم القيامة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب وكقوله ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار وقد روى ابن جرير من طريق عوف الأعرابي عن أبي المغيرة القواس عن عبد الله بن عمرو قال ان أشد الناس عذابا يوم القيامة ثلاثة المنافقون ومن كفر من أصحاب

لقد نزل في النضر بن الحرث بضع عشرة آية فحاق به ما سأل من العذاب يوم بدر قال سعيد بن جبير قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر ثلاثة من قريش صبرا طعيمة بن عدي وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحرث وفيه نزل سأل سائل بعذاب واقع (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) روي انهم كانوا يقولون في الطواف غفرانك فنزلت أي وما كان الله معذبهم في حال كونهم مستغفرين قال ابن عباس كان فيهم أمانان النبي صلى الله عليه وآله وسلم والاستغفار فذهب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبقي الاستغفار وأخرج الترمذي وضعفه عن أبي موسى الأشعري قال قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنزل الله علي أمانين لامتي وما كان الله ليعذبهم الآية فاذا مضيت تركت فيهم الاستغفار وقيل معنى الآية لو كانوا ممن يؤمنون بالله ويستغفرونه لم يعذبهم وقيل ان الاستغفار راجع الى المسلمين الذين هم بين أظهرهم أي وما كان الله ليعذبهم وفيهم من يستغفر من المسلمين فلما خرجوا من بين أظهرهم عذبهم يوم بدر وما بعده وقيل المعنى وفي أصلابهم من يستغفر الله وقيل هذا دعاء لهم الى الاسلام والاستغفار بهذه الكلمة وقال مجاهد وعكرمة وهم يستغفرون أي يسلمون يعني لو أسلموا لما عذبوا وقال أهل المعاني دلت هذه الآية على ان الاستغفار أمان وسلامة من العذاب والاحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مطلق الاستغفار كثيرة جدا معروفة في كتب الحديث (وما لهم ألا يعذبهم الله) لما بين سبحانه أن المانع من تعذيبهم هو الامران المتقدمان وجود رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين ظهورهم ووقوع الاستغفار ذكر بعد ذلك ان هؤلاء أعني كفار مكة مستحقون لعذاب الله لما ارتكبوا من القبائح والمعنى أي شيء لهم يمنع من تعذيبهم قيل هذا العذاب هو القتل والاسر يوم بدر وقيل عذاب الآخرة (وهم) أي والحال انهم (يصدون) الناس (عن المسجد الحرام) كما وقع منهم عام الحديبية من منع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من البيت (وما كانوا أولياءه) كما زعموا أي مستحقين ولاية أمره مع شركهم وهذا كالرد لما كانوا يقولونه من انهم ولاة البيت والحرم وان أمرهما مفوض اليهم ثم قال مبينا لمن له ذلك (ان أولياؤه الا المتقون) أي من كان في عداد المتقين للشرك والمعاصي وعن مجاهد قال من كانوا حيث كانوا (ولكن أكثرهم) أي أكثر

المائدة وآل فرعون * (ذكر أخبار رويت عن السلف في نزول المائدة على الحواريين) * قال أبو جعفر بن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثني حجاج عن ليث عن عقيل عن ابن عباس أنه كان يحدث عن عيسى أنه قال لبني اسرائيل هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوما ثم تسألوه فيعطيكم ما سألتم فان أجر العامل على من عمل له ففعلوا ثم قالوا يا معلم الخير قلت لنا ان أجر العامل على من عمل له وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوما ففعلنا ولم نكن نعمل لاحد ثلاثين يوما الا أطعمنا حين نفرغ طعاما فهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال عيسى اتقوا الله ان كنتم مؤمنين قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم ان قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لاولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين قال الله اني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فاني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين قال فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبع أحوات وسبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم كذا رواه ابن جرير ورواه ابن أبي حاتم عن يونس بن عبد الاعلى عن ابن وهب عن الليث عن عقيل عن ابن شهاب قال كان ابن عباس يحدث فذكره نحوه وقال ابن أبي حاتم أيضا حدثنا سعد بن عبد الله بن عبد الحكم حدثنا أبو زرعة وهب بن راشد حدثنا عقيل بن خالد أن ابن شهاب أخبره عن ابن عباس ان عيسى بن مريم قالوا له ادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء قال فنزلت الملائكة بالمائدة يحملونها عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا الحسن بن قزعة الباهلي حدثنا سفيان بن حبيب حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن خلاس عن عمار بن ياسر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال نزلت المائدة من السماء عليها خبز ولحم وأمروا أن لا يخونوا ولا يرفعوا لغد فخانوا وادخروا ورفعوا فمسخوا قردة وخنازير وكذا رواه ابن جرير عن الحسن بن قزعة ثم رواه ابن جرير عن ابن بشار عن ابن أبي عدي عن سعيد عن قتادة عن خلاس عن عمار قال نزلت المائدة وعليها ثمر من ثمار الجنة فأمروا أن لا يخونوا ولا يخبأوا ولا يدخروا قال فخان القوم وخبأوا وادخروا فمسخهم الله قردة وخنازير وقال ابن جرير حدثنا ابن المثنى حدثنا عبد الاعلى حدثنا داود عن سماك بن حرب عن رجل من

أكثر الناس (لا يعلمون) ذلك والحكم على الاكثرين بالجهل يفيد ان الاقلين يعلمون ولكنهم يعاندون أو أراد به الكل كما يراد بالقلة العدم (وما كان صلاتهم عند البيت) أي ما كان شيء مما يعدونه صلاة وعبادة (الا مكاء وتصدية) أي الا هذين الفعلين والمكاء الصفير من مكا يمكو مكاء ومكوا ومنه مكت است الدابة اذا نفخت بالريح وقيل المكاء هو الصفير على لحن طائر أبيض بالحجاز يقال له المكاء والتصدية التصفيق يقال صدى يصدى تصدية اذا صفق وقيل المكاء الضرب بالايدي والتصدية الصياح وقيل المكاء ادخالهم أصابعهم في أفواههم والتصدية الصفير وقيل التصدية صدهم عن البيت ومعنى الآية أن المشركين كانوا يصفرون ويصفقون عند البيت الذي هو موضع للصلاة والعبادة فوضعوا ذلك موضع الصلاة قاصدين به أن يشغلوا المصلين من المسلمين عن الصلاة وعن عكرمة قال كان المشركون يطوفون بالبيت على الشمال فالمكاء مثل نفخ البوق والتصدية طوافهم على الشمال وقال السمين التصدية فيها قولان أحدهما انها من الصدى وهو ما يسمع من رجع الصوت في الامكنة الخالية الصلبة يقال منه صدى يصدى تصدية والمراد بها هنا ما يسمع من صوت التصفيق باحدى اليدين على الاخرى وقيل مأخوذ من التصدد وهو الضجيج والصياح والتصفيق ويدل عليه قراءة اذا قومك منه يصدون بالكسر أي يضجون ويلغطون والثاني انها من الصد وهو المنع ويؤيده قراءة يصدون بالضم أي يمنعون انتهى والمكاء الصفير وهو الصوت الخالي عن الحروف والمعنى انهم فوتوا ما حقهم أن يشتغلوا به في هذا المكان من الصلاة وشغلوه بهذا اللعب والخراف والهوس واستثنى المكاء والتصدية مع انهما ليسا من جنس الصلاة تقريعا للمشركين بتركهم ما أمروا به في المسجد الحرام فان ما لا يدخل تحت الشئ قد يستثنى منه لمصلحة وغرض كقصد المدح والذم فعلى هذا يكون التقدير وما كان موضع صلاتهم أي عوضها الامكاء وتصدية (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) هذا التفات الى مخاطبة الكفار تهديدا لهم ومبالغة في ادخال الروعة في قلوبهم والمراد به عذاب الدنيا كيوم بدر وعذاب الآخرة قال الضحاك يعني أهل بدر عذبهم الله بالقتل والاسر (ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله) لما فرغ سبحانه من شرح حال هؤلاء الكفرة في الطاعات البدنية اتبعها شرح أحوالهم في الطاعات المالية والمعنى أن غرض هؤلاء

بن عجل قال صليت الى جانب عمار بن ياسر فلما فرغ قال هل تدري كيف كان شأن مائدة بني اسرائيل قال قلت لا قال انهم سألوا عيسى بن مريم مائدة يكون عليها طعام يأكلون منه لا ينفد قال فقيل لهم فانها مقيمة لكم مالم تخبأوا او تخونوا او ترفعوا فان فعلتم فاني معذبكم عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين قال فما مضى يومهم حتى خبأوا ورفعوا وخانوا فعذبوا عذابا لم يعذبه أحد من العالمين وانكم يامعشر العرب كنتم تتبعون أذناب الابل والشاء فبعث الله فيكم رسولا من أنفسكم تعرفون حسبه ونسبه وأخبركم انكم ستظهرون على العجم ونهاكم (٣٠) أن تكنزوا الذهب والفضة وايم الله لا يذهب الليل والنهار حتى تكنزوهما ويعذبكم الله عذابا أليما وقال حدثني القاسم حدثنا حسين حدثنا حجاج عن أبي معشر عن اسحق بن عبد الله أن المائدة نزلت على عيسى بن مريم عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات يأكلون منها ماشاؤا قال فسرق بعضهم منها وقال لعلها لا تنزل غدا فرفعت وقال العوفي عن ابن عباس نزل على عيسى بن مريم والحواريين خوان عليه خبز وسمك يأكلون منه أينما نزلوا اذا شاؤا وقال خصيف عن عكرمة ومقسم عن ابن عباس كانت المائدة سمكة وأرغفة وقال مجاهد هو طعام كان ينزل عليهم حيث نزلوا وقال أبو عبد الرحمن السلمي نزلت المائدة خبزا وسمكا وقال عطية العوفي المائدة سمك فيه طعم كل شئ وقال وهب بن منبه أنزلها من السماء على بني اسرائيل فكان ينزل عليهم في كل يوم في تلك المائدة من ثمار الجنة فأكلوا ماشاؤا من ضروب شتى فكان يقعد عليها أربعة آلاف واذا أكلوا أبدل الله مكان ذلك لمثلهم فلبثوا بذلك ماشاء الله عز وجل وقال وهب بن منبه نزل عليهم قرصة من شعير وأحوات وحثا الله بين أضعافهن البركة حتى وكان قوم يأكلون ثم يخرجون حتى أكل جميعهم وأفضلوا وقال الاعمش عن مسلم عن سعيد بن جبير أنزل عليها كل شئ الا اللحم وقال سفيان الثوري عن عطاء بن السائب عن زاذان وميسرة وجرير عن عطاء عن ميسرة قال كانت المائدة اذا وا لبني اسرائيل اختلف عليها الايدي بكل طعام الا اللحم وعن عكرمة كان خبز المائدة من الارز رواه ابن أبي حاتم وقال ابن أبي حاتم حدثنا جعفر بن علي فيما كتب الي حدثنا اسمعيل بن أبي أويس حدثني أبو عبد الله عبد القدوس بن ابراهيم بن أبي عبيد الله بن

الكفار في انفاق أموالهم هو الصد عن سبيل الحق بمحاربة رسول الله صلى الله عليه وآله وبارك وسلم وجمع الجيوش لذلك وذلك كما وقع من كفار قريش يوم بدر ويوم أحد ويوم الاحزاب فان الرؤساء كانوا ينفقون أموالهم على الجيش وعن ابن عباس قال نزلت في أبي سفيان بن حرب وعن مجاهد وسعيد بن جبير نحوه وعن الحكم بن عتيبة قال نزلت في أبي سفيان أنفق على مشركي قريش يوم أحد أربعين أوقية من ذهب وكانت الاوقية يومئذ أربعين واثنين مثقالا من ذهب ثم أخبر الله سبحانه عن الغيب على وجه الاعجاز فقال (فسينفقونها) أي سيقع منهم هذا الانفاق وسيعلمون عاقبة انفاقها من الخيبة وعدم الظفر بالمقصود فحصلت المغايرة (ثم تكون) أي عاقبة ذلك أن يكون انفاقهم (عليهم حسرة) كأن ذات الاموال تنقلب حسرة وتصير ندما لفوات ما قصدوه بها (ثم) آخر الامر (يغلبون) في الدنيا كما وعد الله في مثل قوله كتب الله لاغلبن أنا ورسلي ومعنى ثم في الموضعين اما التراخي في الزمان لما بين الانفاق المذكور وبين ظهور دولة الاسلام من الامتداد واما التراخي في الرتبة لما بين بذل الاموال وعدم حصول المقصود من المباينة ثم قال (والذين كفروا) أي استمروا على الكفر لان من هؤلاء الكفار المذكورين سابقا من أسلم وحسن اسلامه (الى جهنم يحشرون) أي يساقون اليها لا الى غيرها ثم بين العلة التي لاجلها فعل بهم ما فعل فقال (ليميز الله الخبيث) وهم الكافرون (من الطيب) وهم المؤمنون قال ابن عباس يميز أهل السعادة من أهل الشقاوة وقيل العمل الخبيث من العمل الطيب وقيل الانفاق في طريق الشيطان وسبيل الرحمن وقيل الخبيث والطيب صفة للمال والتقدير ليميز المال الخبيث الذي أنفقه المشركون في عداوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من المال الطيب الذي أنفقه المسلمون في نصرته صلى الله عليه وآله وسلم فيضم تلك الاموال الخبيثة بعضها الى بعض فيلقيها في جهنم ويعذبهم بها كما في قوله تعالى فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم قال في الكشاف واللام على هذا متعلقة بقوله ثم تكون عليهم حسرة وعلى الاول بيحشرون انتهى وعن شمر بن عطية قال يميز يوم القيامة ما كان من عمل صالح في الدنيا ثم تؤخذ الدنيا بأسرها فتلقى في جهنم (ويجعل الخبيث) أي يجعل فريق الكفار الخبيث (بعضه على بعض) أي فوق بعض (فيركمه) الركوم عبارة عن الجمع والضم أي يجمع بعضهم الى بعض ويضم بعضهم الى بعض

مرداس العبدري مولى بني عبد الدار عن ابراهيم بن عمر عن وهب بن [illegible] عن سلمان الخير أنه قال لما سأل الحواريون عيسى بن مريم المائدة كره ذلك جدا فقال اقنعوا بما رزقكم الله في الارض ولا تسألوا المائدة من السماء فانها ان نزلت عليكم كانت آية من ربكم وانما هلكت ثمود حين سألوا نبيهم آية فابتلوا بها حتى كان بوارهم فيها فأبوا الا أن يأتيهم بها فلذلك قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا الآية فلما رأى عيسى أن قد أبوا الا أن يدعو لهم بها قام فألقى عنه الصوف ولبس الشعر الاسود وجبة من شعر وعباءة من شعر ثم توضأ واغتسل ودخل مصلاه فصلى ماشاء الله فلما قضى صلاته قام

قائما مستقبل القبلة وصف قدميه حتى استويا فألصق الكعب بالكعب وحاذى الاصابع ووضع يده اليمنى على اليسرى فوق صدره وغض بصره وطأطأ رأسه خشوعا ثم أرسل عينيه بالبكاء فمازالت دموعه تسيل على خديه وتقطر من أطراف لحيته حتى ابتلت الارض حيال وجهه من خشوعه فلما رأى ذلك دعا الله فقال اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء فأنزل الله عليهم سفرة حمراء بين غمامتين غمامة فوقها وغمامة تحتها وهم ينظرون اليها في الهواء منقضة من فلك السماء تهوي اليهم وعيسى يبكي خوفا من أجل الشروط التي أخذها الله عليهم فيها أنه يعذب من يكفر بها منهم بعد نزولها عذابا لم يعذبه أحدا من العالمين وهو يدعو الله في مكانه و يقول اللهم اجعلها رحمة لهم ولا تجعلها عذابا الهي كم من عجيبة سألتك فأعطيتني الهي اجعلنا لك شاكرين اللهم اني أعوذ بك أن تكون أنزلتها غضبا وجزاء الهي اجعلها سلامة وعافية ولا تجعلها فتنة ومثلة فما زال يدعو حتى استقرت السفرة بين يدي عيسى والحواريين وأصحابه حوله يجدون رائحة طيبة لم يجدوا فيما مضى رائحة مثلها قط وخر عيسى والحواريون لله سجدا شكرا له لما رزقهم من حيث لم يحتسبوا وأراهم فيه آية عظيمة ذات عجب وعبرة وأقبلت اليهود ينظرون فرأوا أمرا عجيبا أورثهم كمدا وغما ثم انصرفوا بغيظ شديد وأقبل عيسى والحواريون أصحابه حتى جلسوا حول السفرة فاذا عليها منديل مغطى فقال عيسى من أجرأنا على كشف المنديل عن هذه السفرة وأوثقنا بنفسه وأحسننا بلاء عند ربه فليكشف عن هذه الآية حتى نراها ونحمد ربنا ونذكر باسمه ونأكل من رزقه الذي رزقنا فقال الحواريون يا روح الله وكلمته أنت أولانا بذلك وأحقنا

حتى يتراكموا الفرط ازدحامهم يقال ركم الشيء يركمه اذا جمعه وألقى بعضه على بعضه وبابه نصر وارتكم الشيء وتراكم اجتمع والركام الرمل المتراكم والسحاب ونحوه (جميعا) حال من الهاء في يركمه أو توكيد لها (فيجعله) أي الخبيث فيه مراعاة اللفظ (في جهنم أولئك) أي الفريق الخبيث (هم الخاسرون) أي الكاملون في الخسران فيه مراعاة المعنى لان الضمير راجع على الخبيث (قل للذين كفروا) كأبي سفيان وأصحابه واللام للتبليغ (ان ينتهوا) الخ أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لهم هذا المعنى سواء قاله بهذه العبارة أو غيرها قال ابن عطية ولو كان كما قال الكسائي انه في مصحف ابن مسعود تنتهوا بالتاء لما تأدت الرسالة الا بتلك الالفاظ بعينها وقال في الكشاف هي لام العلة أي قل لاجلهم هذا القول وهو ان ينتهوا ولو كان بمعنى خاطبهم به لقيل ان تنتهوا يغفر لكم والمعنى ان ينتهوا عما هم عليه من عداوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقتاله بالدخول في الاسلام (يغفر لهم ماقد سلف) لهم من العداوة اه وقيل معناه ان ينتهوا عن الكفر قال ابن عطية والحامل على ذلك جواب الشرط بيغفر لهم ماقد سلف ومغفرة ماقد سلف لا يكون الا لمنته عن الكفر وفي هذه الآية دليل على أن الاسلام يجب ماقبله وأخرج أحمد ومسلم عن عمرو بن العاص قال لما جعل الله الاسلام في قلبي أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقلت ابسط يدك فلأبايعك فبسط يمينه فقبضت يدي قال مالك فقلت أردت ان أشترط قال تشترط ماذا قلت أن تستغفر لي قال اما علمت أن الاسلام يهدم ما كان قبله وان الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله وقد ثبت في الصحيح من حديث ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال الاسلام يجب ماقبله والتوبة تجب ماقبلها قال يحيى بن معاذ الرازي التوحيد لم يعجز عن هدم ماقبله من كفر فكيف يعجز عن هدم مابعده من ذنب (وان يعودوا) الى القتال والعداوة أو الى الكفر الذي هم عليه ويكون العود بمعنى الاستمرار وفي الجمل العود يشعر بسبق التلبس بالشيء الذي حصل العود اليه فالمعنى وان يرتدوا عن الاسلام بعد دخولهم فيه ويرجعوا الى الكفر وقتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجواب الشرط محذوف تقديره ننتقم منهم بالعقاب والعذاب وقوله (فقد مضت سنت الاولين) تعليل للمحذوف ولا يصلح للجوابية كما لا يخفى أي سبقت واستقرت سنة الله في اهلاك أعدائه ونصر أوليائه وهذه

بالكشف عنها فقام عيسى عليه السلام واستأنف وضوأ جديدا ثم دخل مصلاه فصلى كذلك ركعات ثم بكى بكاء طويلا ودعا الله أن يأذن له في الكشف عنها ويجعل له ولقومه فيها بركة ورزقا ثم انصرف وجلس الى السفرة وتناول المنديل وقال بسم الله خير الرازقين وكشف عن السفرة فاذا هو عليها بسمكة ضخمة مشوية ليس عليها بواسير وليس في جوفها شوك يسيل السمن منها سيلا قد تحدق بها بقول من كل صنف غير الكراث وعند رأسها خل وعند ذنبها ملح وحول البقول خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الآخر تمرات وعلى الآخر خمس رمانات فقال شمعون رأس الحواريين لعيسى يا روح الله وكلمته أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الجنة فقال عيسى اما آن لكم أن تعتبروا بما ترون من الآيات وتنتهوا عن تنقير المسائل ما أخوفني عليكم أن تعاقبوا في سبب نزول هذه الآية فقال له شمعون واله اسرائيل ما أردت بها سؤالا يا ابن الصديقة فقال عيسى عليه السلام ليس شيء مما ترون من طعام الدنيا ولا من طعام الجنة انما هو شيء ابتدعه الله في الهواء بالقدرة الغالبة القاهرة فقال له كن فكان أسرع من طرفة عين فكلوا مما سألتم بسم الله واحمدوا عليه ربكم يمدكم منه ويزدكم فانه بديع قادر شاكر فقالوا يا روح الله وكلمته انا نحب أن يرينا الله آية في هذه الآية فقال عيسى سبحان الله أما اكتفيتم بما رأيتم من هذه الآية حتى تسألون آية أخرى فيها ثم أقبل عيسى عليه السلام على السمكة فقال يا سمكة عودي باذن الله حية كما كنت فأحياها الله بقدرته فاضطربت وعادت باذن الله حية طرية تلمظ كما يتلمظ الاسد تدور عيناها لها بصيص وعادت عليها بواسيرها ففزع القوم منها وانحازوا فلما رأى عيسى منهم ذلك قال ما لكم تسألون الآية فاذا أراكموها ربكم كرهتموها ما أخوفني عليكم أن تعاقبوا بما على تصنعون يا سمكة عودي باذن الله كما كنت فعادت باذن الله مشوية كما كانت في خلقها الاول فقالوا يا عيسى كن أنت يا روح الله الذي تبدأ بالاكل منها ثم نحن بعد فقال عيسى معاذ الله من ذلك يبدأ بالاكل من طلبها فلما رأى الحواريون وأصحابه امتناع عيسى منها خافوا أن يكون نزولها سخطة وفي أكلها مثلة فتحاموها فلما رأى ذلك عيسى منهم دعا لها الفقراء والزمنى وقال كلوا من رزق ربكم ودعوة نبيكم واحمدوا الله الذي أنزلها لكم فيكون مهنؤها لكم وعقوبتها على غيركم وافتتحوا أكلكم بسم الله واختموه بحمد الله

العبارة مشتملة على الوعيد والتهديد والتمثيل بمن أهلك من الامم في سالف الدهر بعذاب الله أي قد مضت سنة الله فمن فعل مثل فعل هؤلاء من الاولين من الامم أن يصيبه بعذاب فليتوقعوا مثل ذلك عن مجاهد قال فقد مضت سنة الاولين في قريش وغيرها يوم بدر والامم قبل ذلك وقد فسر كثير من السلف هذه الآية بما مضى في الامم المتقدمة من عذاب من قاتل الانبياء وصمم على الكفر وقال السدي ومحمد بن اسحق المراد بالآية يوم بدر وترسم سنت هذه بالتاء المجرورة وكذا الثلاثة التي في فاطر وكذا التي في آخر غافر والاضافة على معنى في (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) أي شرك قاله ابن عباس وقيل بلاء قاله الحسن وقد فسرها جمهور السلف بالكفر وقال محمد بن اسحق بلغني عن الزهري عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا الفتنة حتى لا يفتن مسلم عن دينه وقد تقدم تفسير هذا في البقرة مستوفى والجملة معطوفة على قل للذين لما كان الغرض من الاول التلطف بهم وهو وظيفة النبي وحده جاء بالافراد ولما كان الغرض من الثاني تحريض المؤمنين على القتال جاء بالجمع نحو وطبوا اجمعا (ويكون الدين كله) أي الطاعة والعبادة كلها (لله) خالصة دون غيره وقال قتادة حتى يقال لا اله الا الله عليه قاتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واليه دعا وقيل يضمحل عنهم كل دين باطل ويبقى فيهم دين الاسلام وحده والمعاني متقاربة (فان انتهوا) عما ذكر من الشرك وافتتان المؤمنين وايذائهم (فان الله بما يعملون) بالتحتية باتفاق السبعة وقرأ بالفوقية يعقوب من العشرة (بصير) لا يخفى عليه ما وقع منهم من الانتهاء فيجازيهم به (وان تولوا) عما أمروا به من الانتهاء أو عن الايمان وجوابه محذوف أي فلا تخشوا بأسهم (فاعلموا) أيها المؤمنون (ان الله مولاكم) أي ناصركم عليهم ومتولي أموركم (نعم المولى) هو (ونعم النصير) فمن والاه فاز ومن نصره غلب (واعلموا أنما) ما موصولة وكان القياس فصلها في الرسم من أن لكن ثبت وصلها في خط المصحف الامام وثبت فصلها أيضا في بعضها على القياس كما ذكره ابن الجزري في قوله * وخلف الانفال ونحل وقعا * (غنمتم) لما أمر الله سبحانه بالقتال بقوله وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة وكانت المقاتلة مظنة حصول الغنيمة ذكر حكم الغنيمة والغنيمة قد قدمنا ان اصلها اصابة الغنم من العدو ثم استعملت في كل ما يصاب منهم وقد يستعمل في كل ما ينال بسعي وأما معنى الغنيمة في الشرع فحكى القرطبي الاتفاق

ففعلوا فأ كل منها ألف وثلثمائة انسان بين رجل وامرأة يصدرون عنها كل واحد منها شبعان يتجشأ ونظر عيسى والحواريون فاذا ما عليها كهيئته اذ نزلت من السماء لم ينقص منها شئ ثم انها رفعت الى السماء وهم ينظرون فاستغنى كل فقير أ كل منها وبرئ كل زمن أ كل منها فلم يزالوا أغنياء أصحاء حتى خرجوا من الدنيا وندم الحواريون وأصحابهم الذين أبوا أن يأ كلوا منها ندامة سالت منها أشفارهم وبقيت حسرتها فى قلوبهم الى يوم الممات قال وكانت المائدة اذا نزلت بعد ذلك أقبل بنو اسرائيل اليها يسعون من كل مكان يزاحم بعضهم بعضا الاغنياء والفقراء والصغار والكبار والاصحاء (٣٣) والمرضى يركب بعضهم بعضا فلما رأى ذلك جعلها نوائب تنزل يوما ولا تنزل يوما فلبثوا على ذلك اربعين يوما تنزل عليهم غبا عند ارتفاع النهار فلا تزال موضوعة يؤ كل منها حتى اذا قالوا ارتفعت عنهم الى جو السماء باذن الله وهم ينظرون الى ظلها فى الارض حتى توارى عنهم قال فأوحى الله الى نبيه عيسى عليه السلام أن اجعل رزقى المائدة للفقراء واليتامى والزمنى دون الاغنياء من الناس فلما فعل ذلك ارتاب بها الاغنياء من الناس وغمصوا ذلك حتى شكوا فيها فى أنفسهم وشككوا فيها الناس وأذاعوا فى امرها القبيح والمنكر وادرك الشيطان منهم حاجته وقذف وسواسه فى قلوب المرتابين حتى قالوا لعيسى أخبرنا عن المائدة ونزولها من السماء أحق فانه قد ارتاب بها منا بشر كثير فقال عيسى عليه السلام هلكتم واله المسيح طلبتم المائدة الى نبيكم أن يطلبها لكم الى ربكم فلما ان فعل وأنزلها عليكم رحمة لكم ورزقا وأرا كم فيها الآيات والعبر كذبتم بها وشككتم فيها فابشروا بالعذاب فانه نازل بكم الا أن يرحمكم الله فأوحى الله الى عيسى انى آخذ المكذبين

بشرطى فانى معذب منهم من كفر بالمائدة بعد نزولها عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين قال فلما أمسى المرتابون بها وأخذوا مضاجعهم فى أحسن صورة مع نسائهم آمنين فلما كان فى آخر الليل مسخهم الله خنازير فاصبحوا يتبعون الاقذار فى الكناسات هذا اثر غريب جدا قطعه ابن أبى حاتم فى مواضع من هذه القصة وقد جمعته أنا ليكون سياقه أتم وأ كمل والله سبحانه وتعالى أعلم وكل هذه الآثار دالة على ان المائدة نزلت على بنى اسرائيل أيام عيسى بن مريم اجابة من الله لدعوته وكما دل على ذلك ظاهر هذا السياق من القرآن العظيم قال الله انى منزلها عليكم الآية وقال قائلون انها لم تنزل فروى ليث بن أبى سليم عن مجاهد فى قوله أنزل علينا مائدة من السماء قال هو مثل ضرب الله ولم ينزل شئ رواه ابن أبى حاتم وابن جرير ثم قال ابن جرير حدثنا الحرث

على أن المراد بقوله أنما غنمتم مال الكفار اذا ظفر بهم المسلمون على وجه الغلبة والقهر قال ولا تقتضى اللغة هذا التخصيص ولكن عرف الشرع قيد هذا اللفظ بهذا النوع وقد ادعى ابن عبد البر الاجماع على أن هذه الآية نزلت بعد قوله يسئلونك عن الانفال وان أربعة أخماس الغنيمة مقسومة على الغانمين وان قوله يسئلونك عن الانفال نزلت حين تشاجر أهل بدر فى غنائم بدر وقيل انها يعنى قوله يسئلونك عن الانفال محكمة غير منسوخة وان الغنيمة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وليست مقسومة بين الغانمين وكذلك لمن بعده من الائمة حكاه الماوردى عن كثير من المالكية قالوا وللامام أن يخرجها عنهم واحتجوا بفتح مكة وقصة حنين وكان أبو عبيدة يقول افتتح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة عنوة ومنّ على أهلها فردها عليهم ولم يقسمها ولم يجعلها فيأ وقد حكى الاجماع جماعة من أهل العلم على أن أربعة أخماس الغنيمة للغانمين وممن حكى ذلك ابن المنذر وابن عبد البر والداودى والمازرى والقاضى عياض وابن العربى والاحاديث الواردة فى قسمة الغنيمة بين الغانمين وكيفيتها كثيرة جدا قال القرطبى ولم يقل أحد فيما أعلم ان قوله تعالى يسئلونك عن الانفال الآية ناسخ لقوله واعلموا أنما غنمتم الآية بل قال الجمهور ان قوله واعلموا أنما غنمتم ناسخ وهم الذين لا يجوز عليهم التحريف ولا التبديل لكتاب الله واما قصة فتح مكة فلا حجة فيها لاختلاف العلماء فى فتحها قال واما قصة حنين فقد عوض الانصار لما قالوا يعطى الغنائم قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم نفسه فقال لهم اما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى بيوتكم كما فى مسلم وغيره وليس لغيره ان يقول هذا القول بل ذلك خاص به وقوله أنما غنمتم يشمل كل شئ يصدق عليه اسم الغنيمة قليلا كان أو كثيرا و(من شئ) بيان لما الموصولة وقد خصص الاجماع من عموم الآية الاسارى فان الخيرة فيها الى الامام بلا خلاف وكذلك سلب المقتول اذا نادى به الامام قيل وكذلك الارض المغنومة ورد بأنه لا اجماع على الارض (فان) أى فحق أو فواجب أن (لله خمسه وللرسول) وقد اختلف العلماء فى كيفية قسمة الخمس على أقوال ستة * الاول قالت طائفة يقسم الخمس على ستة فيجعل السدس للكعبة وهو الذى لله والثانى لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والثالث لذوى القربى والرابع لليتامى والخامس للمساكين والسادس

حدثنا القاسم هو ابن سلام حدثنا حجاج عن ابن جريج عن مجاهد قال مائدة عليها طعام وعنه قال أبوها حين عرض عليهم العذاب ان كفروا فأبوا أن تنزل عليهم وقال أيضا حدثنا ابن المثنى حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن منصور بن زاذان عن الحسن أنه قال في المائدة انها لم تنزل وحدثنا بشر حدثنا يزيد وحدثنا سعيد عن قتادة قال كان الحسن يقول لما قيل لهم فمن يكفر بعد منكم فاني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين قالوا لا حاجة لنا فيها فلم تنزل وهذه أسانيد صحيحة الى مجاهد والحسن وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا تعرفه النصارى (٣٤) وليس هو في كتابهم ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعي على نقله وكان يكون موجودا في كتابهم متواترا ولا أقل من الآحاد والله أعلم ولكن الجمهور انها نزلت وهو الذي اختاره ابن جرير قال لان الله تعالى أخبر بنزولها في قوله تعالى اني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فاني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين قال ووعد الله ووعيده حق وصدق وهذا القول هو والله أعلم الصواب كما دلت عليه الاخبار والآثار عن السلف وغيرهم وقد ذكر أهل التاريخ ان موسى بن نصير نائب بني أمية في فتوح بلاد المغرب وجد المائدة هنالك مرصعة باللآلئ وأنواع الجواهر فبعث بها الى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك باني جامع دمشق فمات وهي في الطريق فحملت الى أخيه سليمان بن عبد الملك الخليفة بعده فرآها الناس فتعجبوا منها كثيرا لما فيها من اليواقيت النفيسة والجواهر اليتيمة ويقال ان هذه المائدة كانت لسليمان بن داود عليهما السلام فالله أعلم وقد قال الامام أحمد حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن سلمة بن كهيل عن عمران بن الحكم عن ابن عباس قال قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبا ونؤمن بك قال وتفعلون قالوا نعم قال فدعا فأتاه جبريل فقال ان ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك ان شئت أصبح لهم الصفا ذهبا فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين وان شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة قال بل باب التوبة والرحمة ثم رواه أحمد وابن مردويه والحاكم في مستدركه من حديث سفيان الثوري به

(واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك انك أنت علام الغيوب ما قلت لهم الا ما أمرتني به ان اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد ان تعذبهم فانهم عبادك

لابن السبيل * القول الثاني قاله أبو العالية والربيع أنها تقسم الغنيمة على خمسة فيعزل منها سهم واحد ويقسم أربعة على الغانمين ثم يضرب يده في السهم الذي عزله فما قبضه من شئ جعله للكعبة ثم يقسم بقية السهم الذي عزله على خمسة للرسول ومن بعده في الآية * القول الثالث روي عن زين العابدين علي بن الحسين أنه قال ان الخمس لنا فقيل له ان الله يقول واليتامى والمساكين وابن السبيل فقال يتامانا ومساكيننا وابناء سبيلنا * القول الرابع قول الشافعي ان الخمس يقسم على خمسة وان سهم الله وسهم رسوله واحد يصرف في مصالح المؤمنين والاربعة الاخماس على الاربعة الاصناف المذكورة في الآية * القول الخامس قول أبي حنيفة انه يقسم الخمس على ثلاثة اليتامى والمساكين وابن السبيل وقد ارتفع حكم قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بموته كما ارتفع حكم سهمه قالوا ويبدأ من الخمس باصلاح القناطر وبناء المساجد وارزاق القضاة والجند وروي نحو هذا عن الشافعي * القول السادس قول مالك انه موكول الى نظر الامام واجتهاده فيأخذ منه بغير تقدير ويعطي منه الغزاة باجتهاده ويصرف الباقي في مصالح المسلمين قال القرطبي وبه قال الخلفاء الاربعة وبه عملوا وعليه يدل قوله صلى الله عليه وآله وسلم مالي مما أفاء الله عليكم الا الخمس والخمس مردود عليكم فانه لم يقسمه أخماسا ولا أثلاثا وانما ذكر ما في الآية من ذكره على وجه التنبيه عليهم لانهم من أهم من يدفع اليه قال الزجاج محتجا لهذا القول قال الله تعالى يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والاقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وجائز باجماع أن ينفق في غير هذه الاصناف اذا رأى ذلك أخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يجعل سهم الله في السلاح والكراع وفي سبيل الله وفي كسوة الكعبة وطيبها وما تحتاج اليه الكعبة ويجعل سهم الرسول في الكراع والسلاح ونفقة أهله وسهم ذي القربى لقرابته يضعه رسول الله فيهم مع سهمهم مع الناس واليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم يضعها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيمن شاء وحيث شاء ليس لبني عبد المطلب في هذه الثلاثة الاسهم ولرسول الله سهم مع سهام الناس وعن ابن بريدة قال الذي لله لنبيه والذي للرسول لازواجه وعن محمد بن الحنفية في قوله فان لله خمسه قال هذا مفتاح كلام لله الدنيا والآخرة وللرسول ولذي القربى فاختلفوا بعد وفاة رسول الله صلى

وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم) هذا أيضا مما يخاطب الله به عبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام قائلا له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه الهين من دون الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤس الاشهاد هكذا قاله قتادة وغيره واستدل قتادة على ذلك بقوله تعالى هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم وقال السدى هذا الخطاب والجواب في الدنيا وصوبه ابن جرير قال وكان ذلك حين رفعه الى السماء الدنيا واحتج ابن جرير على ذلك بمعنيين أحدهما ان الكلام بلفظ المضى والثانى قوله ان تعذبهم (٣٥) وان تغفر لهم وهذان الدليلان فيهما نظر لان كثيرا من أمور يوم القيامة ذكر بلفظ المضى ليدل على الوقوع والثبوت ومعنى قوله ان تعذبهم فانهم عبادك الآية التبرى منهم ورد المشيئة فيهم الى الله وتعليق ذلك على الشرط لا يقتضى وقوعه كما فى نظائر ذلك من الآيات والذى قاله قتادة وغيره هو الاظهر والله أعلم ان ذلك كائن يوم القيامة ليدل على تهديد النصارى وتقريعهم وتوبيخهم على رؤس الاشهاد يوم القيامة وقد روى بذلك حديث مرفوع رواه الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أبى عبد الله مولى عمر بن عبد العزيز وكان ثقة قال سمعت أبا بردة يحدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبى موسى الاشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم القيامة دعى بالانبياء وأممهم ثم يدعى بعيسى فيذكره الله نعمته عليه فيقر بها فيقول يا عيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك الآية ثم يقول أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله فينكر أن يكون قال ذلك فيؤتى بالنصارى فيسئلون فيقولون نعم هو أمرنا بذلك قال فيطول شعر عيسى عليه السلام فيأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعر رأسه وجسده فيجاثيهم بين يدى الله عز وجل مقدار ألف عام حتى ترفع عليهم الحجة ويرفع لهم الصليب وينطلق بهم الى النار وهذا حديث غريب عزيز وقوله سبحانك ما يكون لى ان أقول ما ليس لى بحق هذا توفيق للتأدب فى الجواب الكامل كما قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا ابن أبى عمر حدثنا سفيان عن عمرو عن طاوس عن أبى هريرة قال يلقى عيسى حجته ولقاه الله تعالى فى قوله واذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله قال أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فلقاه الله سبحانك ما يكون لى ان أقول ما ليس لى بحق الى آخر الآية وقد رواه الثورى عن معمر عن ابن طاوس عن طاوس بنحوه وقوله ان كنت قلته فقد علمته أى ان كان صدر منى هذا فقد علمته يا رب فانه لا يخفى عليك شئ مما قلته

الله عليه وآله وسلم فى هذين السهمين قال قائل منهم سهم ذى القربى لقرابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال قائل منهم سهم ذى القربى لقرابة الخليفة وقال قائل منهم سهم النبى صلى الله عليه وآله وسلم للخليفة بعده واجتمع رأى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أن يجعلوا هذين السهمين فى الخيل والعدة فى سبيل الله فكان ذلك فى خلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما أخرجه عبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وأبو الحاكم عن قيس بن مسلم الجدلى عن محمد بن الحنفية وأخرج ابن جرير والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال فان لله خمسه مفتاح كلام أى على سبيل التبرك وانما أضافه لنفسه لانه هو الحاكم فيه فيقسمه كيف شاء وليس المراد منه أن سهما منه لله مفردا لان لله ما فى السموات وما فى الارض وبه قال الحسن وقتادة وعطاء وابراهيم النخعى قالوا سهم الله وسهم رسوله واحد وذكر الله للتعظيم فجعل هذين السهمين فى الخيل والسلاح وجعل سهم اليتامى والمساكين وابن السبيل لا يعطيه غيرهم وجعل الاربعة الاسهم الباقية للفرس سهمين ولراكبه سهما وللراجل سهما وعنه رضى الله عنه قال كانت الغنيمة تقسم على خمسة أخماس فأربعة منها بين من قاتل عليها وخمس واحد يقسم على أربعة أخماس فربع لله وللرسول ولذى القربى يعنى قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فما كان لله وللرسول فهو لقرابة النبى صلى الله عليه وآله وسلم ولم يأخذ النبى صلى الله عليه وآله وسلم من الخمس شيأ والربع الثانى لليتامى والربع الثالث للمساكين والربع الرابع لابن السبيل وهو الضعيف الفقير الذى ينزل بالمسلمين أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم (ولذى القربى) قيل اعادة اللام فى ذى القربى دون من بعدهم لدفع توهم اشتراكهم فى سهم النبى صلى الله عليه وآله وسلم والمعنى أن سهما من خمس الخمس لذوى القربى وقد اختلف العلماء فيهم على أقوال الاول انهم قريش كلها روى ذلك عن بعض السلف واستدل بما روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه لما صعد الصفا جعل يهتف ببطون قريش كلها قائلا يا بنى فلان يا بنى فلان وقال الشافعى وأحمد وأبو ثور ومجاهد وقتادة وابن جريج ومسلم بن خالد هم بنو هاشم وبنو المطلب وليس لبنى عبد شمس وبنى نوفل منه شئ وان كانوا اخوة لقوله صلى الله عليه وآله وسلم انما بنو هاشم وبنو المطلب شئ واحد وشبك بين أصابعه

ولا ارد نه تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك انك أنت علام الغيوب ماقلت لهم الا ما أمرتني به بابلاغه أن اعبدوا الله ربي وربكم أي هذا هو الذي قلت لهم وقوله وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم اي كنت أشهد على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد قال أبو داود الطيالسي حدثنا شعبة قال انطلقت أنا وسفيان الثوري الى المغيرة ابن النعمان فأملى على سفيان وأنا معه فلما قام انتسخت من سفيان فحدثنا قال سمعت سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣٦) بموعظة فقال يا أيها الناس انكم محشورون الى الله عز وجل حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وان أول الخلائق يكسى ابراهيم الا وانه يجاء برجال من أمتي يوم القيامة فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول أصحابي فيقال انك لاتدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم فيقال ان هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم ورواه البخاري عند هذه الآية عن أبي الوليد عن شعبة وعن محمد بن كثير عن سفيان الثوري كلاهما عن المغيرة بن النعمان به وقوله ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم هذا الكلام يتضمن رد المشيئة الى الله عز وجل فانه الفعال لما يشاء لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ويتضمن التبري من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسوله وجعلوا لله ندا وصاحبة وولدا تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا وهذه الآية لها شان عظيم ونبأ عجيب وقد ورد في الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم قام بها ليلة الى الصباح يرددها قال الامام أحمد حدثنا محمد بن فضيل حدثني فليت العامري عن جسرة العامرية عن أبي ذر رضي الله عنه قال صلى النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم فلما أصبح قلت يا رسول الله لم تزل تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها قال اني سألت ربي عز وجل الشفاعة لامتي فأعطانيها وهي نائلة ان شاء الله لمن لا يشرك بالله شيأ وقال أخرى قال أحمد حدثنا يحيى حدثنا قدامة بن عبد الله حدثتني جسرة بنت دجاجة انها انطلقت معتمرة فانتهت الى الربذة فسمعت أباذر يقول قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة من الليالي في صلاة العشاء فصلى بالقوم ثم تخلف أصحاب له يصلون فلما رأى قيامهم وتخلفهم انصرف الى رحله فلما رأى القوم قد

وهو في الصحيح وأخرج ابن اسحق وابن أبي حاتم عن الزهري وعبد الله بن أبي بكر عن جبير بن مطعم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قسم سهم ذوي القربى من خيبر على بني هاشم وبني المطلب قال فمشيت أنا وعثمان بن عفان حتى دخلنا عليه فقلنا يا رسول الله هؤلاء اخوانك من بني هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك منهم أرأيت اخواننا من بني المطلب أعطيتهم دوننا فانما نحن وهم بمنزلة واحدة في النسب فقال انهم لم يفارقونا في الجاهلية والاسلام وقد أخرجه مسلم في صحيحه وقيل هم بنو هاشم خاصة وبه قال مالك والثوري والاوزاعي وغيرهم وهو مروي عن علي بن الحسين ومجاهد وأخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم قال آل محمد الذين اعطوا الخمس آل علي وآل عباس وآل جعفر وآل عقيل وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال كان للنبي صلى الله عليه وآله وسلم شئ واحد من المغنم يصطفيه لنفسه اما خادما واما فرسا ثم يصيب بعد ذلك من الخمس وعن علي وصححه الحاكم قال ولاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خمس الخمس فوضعته مواضعه حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما واختلفوا في سهمهم هل هو ثابت اليوم أم لا فذهب أكثرهم الى أنه ثابت فيعطى فقراؤهم وأغنياؤهم من خمس الخمس للذكر مثل حظ الانثيين وبه قال مالك والشافعي وقيل انه غير ثابت وسقط سهمه وسهمهم بوفاته وصار الكل مصروفا الى الثلاثة الباقية وبه قال أبو حنيفة وأصحاب الرأي وحجة الجمهور أن الكتاب والسنة يدلان على ثبوت سهم ذوي القربى وكذا الخلفاء بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يعطونهم ولا يفضلون فقيرا على غني لان النبي صلى الله عليه وآله وسلم اعطى العباس مع كثرة غناه وكذا الخلفاء بعده وألحقه الشافعي بالميراث الذي يستحق باسم القرابة غير انهم يعطون القريب والبعيد (واليتامى والمساكين وابن السبيل) قد تقدم بيان سهمهم قريبا والمراد باليتيم هنا هو الصغير المسلم الذي لا أب له فيعطى مع الحاجة اليه والمساكين هم أهل الفاقة من المسلمين وابن السبيل هو المسافر البعيد عن ماله المنقطع في سفره فهذا مصرف خمس الغنيمة ويقسم أربعة أخماسها الباقية بين الغانمين الحاضرين في الوقعة الحائزين للغنيمة فيعطى للفارس ثلاثة أسهم سهم له وسهمان لفرسه وللراجل سهم واحد لحديث ابن عمر في الصحيح وبه قال أكثر أهل العلم واليه ذهب الثوري والاوزاعي ومالك وابن

المبارك

أخلوا المكان رجع الى مكانه فصلى فجئت فقمت خلفه فأومأ الى بيمينه فقمت عن يمينه ثم جاء ابن مسعود فقام خلفي وخلفه فأومأ
اليه بشماله فقام عن شماله فقمنا ثلاثتنا يصلي كل واحد منا بنفسه ونتلو من القرآن ماشاء الله ان نتلو وقام بآية من القرآن يرددها
حتى صلى الغداة فلما أصبحنا أومأت الى عبد الله بن مسعود أن سله ما أراد الى ما صنع البارحة فقال ابن مسعود لا أسأله عن شئ
حتى يحدث الى فقلت بأبي وأمي قمت بآية من القرآن ومعك القرآن لو فعل هذا بعضنا لوجدنا عليه قال دعوت لأمتي قلت فماذا
أجبت أو ماذا رد عليك قال أجبت بالذي لو اطلع عليه كثير منهم طاعة تركوا (٣٧) الصلاة قلت أفلا أبشر الناس قال بلى فانطلقت
معنقا قريبا من قذفة بحجر فقال عمر يارسول الله انك ان تبعث الى الناس بهذا نكلوا عن العبادة فناداه أن ارجع فرجع وتلك الآية ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم وقال ابن أبي حاتم حدثنا يونس بن عبد الاعلى حدثنا ابن وهب اخبرني عمرو بن الحرث أن بكر بن سوادة حدثه عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص ان النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول عيسى ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم فرفع يديه فقال اللهم أمتي وبكى فقال الله ياجبريل اذهب الى محمد وربك أعلم فاسأله ما يبكيه فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال فقال الله ياجبريل اذهب الى محمد فقل انا سنرضيك في أمتك ولا نسيئك وقال الامام أحمد حدثنا حسين قال حدثنا ابن لهيعة حدثنا ابن هبيرة انه سمع أبا تميم الجيشاني يقول حدثني سعيد بن المسيب سمعت حذيفة بن اليمان يقول غاب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فلم يخرج حتى
ظننا ان لن يخرج فلما خرج سجد سجدة ظننا ان نفسه قد قبضت فيها فلما رفع رأسه قال ان ربي عز وجل استشارني في أمتي ماذا افعل
بهم فقلت ماشئت اى رب هم خلقك وعبادك فاستشارني الثانية فقلت له كذلك فقال لى لا أخزيك في أمتك يا محمد وبشرني ان أول
من يدخل الجنة من امتي معي سبعون الفا مع كل ألف سبعون الفا ليس عليهم حساب ثم ارسل الى فقال ادع تجب وسل تعط فقلت
لرسوله أومعطى ربي سؤلي فقال ما أرسلني اليك الا ليعطيك ولقد اعطاني ربي ولا فخر وغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر وأنا أمشي
حيا صحيحا واعطاني ان لا تجوع أمتي ولا تغلب واعطاني الكوثر وهو نهر في الجنة يسيل في حوضي واعطاني العز والنصر والرعب
يسعى بين يدي امتي شهرا واعطاني اني أول الانبياء يدخل الجنة وطيب لي ولامتي الغنيمة وأحل لنا كثيرا مما شدد على من قبلنا

المبارك والشافعي وأحمد واسحق وقال أبو حنيفة للفارس سهمان وللراجل سهم والحديث يرد عليه وظاهر الآية يدل على أنه لافرق بين العقار والمنقول وعند أبي حنيفة يخير الامام في العقار بين قسمه ووقفه على المصالح ومن قتل من المسلمين مشركا استحق سلبه من رأس الغنيمة لما روى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ومن قتل قتيلا فله سلبه أخرجه الشيخان وغيرهما ويجوز تنفيل بعض الجيش من الغنيمة (ان كنتم آمنتم بالله) قال الزجاج عن فرقة ان المعنى فاعلموا ان الله مولاكم ان كنتم آمنتم بالله وقالت فرقة أخرى ان ان متعلقة بقوله واعلموا انما غنمتم قال ابن عطية وهذا هو الصحيح لان قوله واعلموا يتضمن الامر بالانقياد والتسليم لامر الله في الغنائم فعلق ان بقوله واعلموا على هذا المعنى أي ان كنتم مؤمنين بالله فانقادوا وأسلموا الامر لله فيما أعلمكم به من حال قسمة الغنيمة وقال في الكشاف انه متعلق بمحذوف يدل عليه واعلموا بمعنى ان كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن الخمس من الغنيمة يجب التقرب به فاقطعوا عنه اطماعكم واقنعوا بالاخماس الاربعة وليس المراد بالعلم العلم المجرد ولكن العلم المضمن بالعمل والطاعة لامر الله لان العلم المجرد يستوي فيه المؤمن والكافر اه (وما أنزلنا على عبدنا) أي ان كنتم آمنتم بالله وبما أنزلنا على محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهذه اضافة تشريف وتعظيم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم (يوم الفرقان) يوم بدر وبدر ماء بين مكة والمدينة وسمي يومه يوم الفرقان لان الله فرق بين أهل الحق باظهاره وأهل الباطل باخماده (يوم التقى الجمعان) أي الفريقان من المسلمين والكافرين عن علي بن أبي طالب قال كانت ليلة الفرقان ليلة التقى الجمعان في صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان وهو أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (والله على كل شئ قدير) ومن قدرته العظيمة نصر الفريق الاقل على الفريق الاكثر (اذ) أي اذكروا أيها المسلمون اذ (أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى) قرئ بضم العين في الموضعين وكذا بالفتح والكسر وقرئ بهما أيضا وهي لغات بمعنى واحد وهذا هو قول جمهور اللغويين والعدوة شط الوادي وشفيره وحافته سميت بذلك لانها عدت ما في الوادي من ماء ونحوه أن يتجاوزها أي منعته وقال أبو عمرو هي المكان المرتفع والدنيا تأنيث الادنى من دنا يدنو أي القربى من المدينة والقصوى تأنيث الاقصى من قصا يقصو ويقال القصيا

ولم يجعل علينا في الدين من حرج (قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم لله ملك السموات والارض وما فيهن وهو على كل شئ قدير) يقول تعالى مجيبا لعبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام فيما أنهاه اليه من التبري من النصارى الملحدين الكاذبين على الله وعلى رسوله ومن رد المشيئة فيهم الى ربه عز وجل فعند ذلك يقول تعالى هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم قال الضحاك عن ابن عباس يقول يوم ينفع الموحدين توحيدهم لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها أبدا أي ماكثين فيها لا يحولون ولا يزولون رضي الله عنهم ورضوا عنه كما قال تعالى ورضوان من الله أكبر وسيأتي ما يتعلق بتلك الآية من الحديث وروى ابن أبي حاتم ههنا حديثا عن أنس فقال حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا المحاربي عن ليث عن عثمان يعني ابن عمير أخبرنا اليقظان عن أنس مرفوعا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ثم يتجلى لهم الرب جل جلاله فيقول سلوني سلوني اعطكم قال فيسألونه الرضا قال فيشهدهم انه قد رضي عنهم سبحانه وتعالى وقوله ذلك الفوز العظيم أي هذا هو الفوز الكبير الذي لا أعظم منه كما قال تعالى لمثل هذا فليعمل العاملون وكما قال وفي ذلك فليتنافس المتنافسون وقوله لله ملك السموات والارض وما فيهن وهو على كل شئ قدير أي هو الخالق للاشياء المالك لها المتصرف فيها القادر عليها فالجميع ملكه وتحت قهره وقدرته ومشيئته فلا نظير له ولا وزير ولا عديل ولا والد ولا ولد ولا صاحبة ولا اله غيره ولا رب سواه قال ابن وهب سمعت حيي بن عبد الله يحدث عن ابي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمر قال آخر سورة أنزلت سورة المائدة

والاصل الواو وهي لغة أهل الحجاز والمعنى وقت نزولكم بالجانب الادنى من الوادي الى جهة المدينة وعدوكم بالجانب الاقصى منه مما يلي مكة والباء بمعنى في كقولك زيد بمكة (والركب أسفل منكم) أي والحال ان الركب في مكان أسفل من المكان الذي أنتم فيه مما يلي البحر وأجاز الاخفش والكسائي والفراء رفع أسفل على معنى أشد سفلا منكم وقيل الواو للعطف والركب اسم جمع لراكب أو جمع له وهم العشرة فصاعدا ولا تقول العرب ركب الا للجماعة الراكبي الابل وقد يقال لمن كان على فرس وغيرها ركب والجمع أركب وركوب كذا قال ابن فارس وحكاه ابن السكيت عن أكثر أهل اللغة والمراد بالركب هنا ركب أبي سفيان وهي المراد بالعير فانهم كانوا في موضع أسفل منهم مما يلي ساحل البحر على ثلاثة أميال من بدر قيل وفائدة ذكر هذه الحالة التي كانوا عليها من كونهم بالعدوة الدنيا وعدوهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منهم الدلالة على قوة شأن العدو وشوكته وذلك لان العدوة القصوى التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء وكانت أرضا لا بأس بها واما العدوة الدنيا فكانت رخوة تسوخ فيها الاقدام ولا ماء بها وكانت العير وراء ظهر العدو مع كثرة عددهم فامتن الله على المسلمين بنصرتهم عليهم والحال هذه (ولو تواعدتم) أي أنتم والمشركون من أهل مكة على أن تلتقوا في هذا الموضع للقتال وأعلم كل منكم الآخر بالخروج له (لاختلفتم في الميعاد) أي خالف بعضكم بعضا فثبطكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالوعد وثبطهم ما في قلوبهم من المهابة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فالميعاد معناه التواعد والميعاد المواعدة ووقتها ومكانها كما في القاموس (ولكن) جمع الله بينكم في هذا الموطن بغير ميعاد (ليقضي الله أمرا كان مفعولا) أي حقيقا بأن يفعل من نصر أوليائه وخذلان أعدائه واعزاز دينه واذلال الكفر فأخرج المسلمين لاخذ العير وغنيمتها عند أنفسهم وأخرج الكافرين للمدافعة عنها ولم يكن في حسبان الطائفتين أن يقع هذا الاتفاق على هذه الصفة (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة) أي ليموت من يموت عن بينة ويعيش من يعيش عن بينة رآها وعبرة عاينها وحجة قامت عليه لئلا تبقى لاحد على الله حجة وقيل الهلاك والحياة مستعاران للكفر والاسلام أي ليصدر اسلام من أسلم عن وضوح بينة ويقين بأنه دين الحق ويصدر كفر من كفر عن وضوح بينة لا عن مخالجة شبهة وهو معنى قول ابن

(تفسير سورة الانعام وهي مكية) قال العوفي اسحق وعكرمة وعطاء عن ابن عباس انزلت سورة الانعام بمكة وقال الطبراني حدثنا علي بن عبد العزيز حدثنا حجاج بن منهال حدثنا حماد ابن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال نزلت سورة الانعام بمكة ليلا جملة واحدة حولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح وقال سفيان الثوري عن ليث عن شهر بن حوشب عن اسماء بنت يزيد قال نزلت سورة الانعام على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مسير في زجل من الملائكة وقد نظموا ما بين السماء والارض وقال السدي عن مرة عن عبد الله قال نزلت سورة الانعام يشيعها سبعون ألفا من الملائكة وروى نحوه من وجه آخر عن ابن مسعود وقال الحاكم في مستدركه حدثنا

أبو عبد الله محمد بن يعقوب الحافظ وأبو الفضل الحسن بن يعقوب العدل قالا حدثنا محمد بن عبد الوهاب العبدى أخبرنا جعفر بن عوف حدثنا اسمعيل بن عبد الرحمن السدى حدثنا محمد بن المنكدر عن جابر قال لما نزلت سورة الانعام سبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الافق ثم قال صحيح على شرط مسلم وقال أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد ابن معمر حدثنا ابراهيم بن درستويه الفارسى حدثنا أبو بكر بن أحمد بن محمد بن سالم حدثنا ابن أبى فديك حدثنى عمر بن طلحة الرقاشى عن نافع بن مالك بن أبى سهيل عن أنس بن مالك قال قال رسول الله (٣٩) صلى الله عليه وسلم نزلت سورة الانعام معها موكب من الملائكة سد ما بين الخافقين لهم زجل بالتسبيح والارض بهم ترتج ورسول الله يقول سبحان الله العظيم سبحان الله العظيم ثم روى ابن مردويه عن الطبرانى عن ابراهيم بن نائلة عن اسمعيل بن عمر عن يوسف بن عطية عن ابن عون عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلت على سورة الانعام جملة واحدة وشيعها سبعون ألفا من الملائكة لهم زجل بالتسبيح والتحميد

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الحمد لله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون وهو الله فى السموات وفى الارض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون) يقول تعالى مادحا نفسه الكريمة وحامدا لها على خلق السموات والارض قرارا لعباده وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده فى ليلهم ونهارهم فجمع لفظ الظلمات ووحد لفظ النور لكونه أشرف كقوله تعالى عن اليمين وعن الشمائل وكما قال فى آخر هذه السورة وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ثم قال تعالى ثم الذين كفروا بربهم يعدلون أى ومع هذا كله كفر به بعض عباده وجعلوا له شريكا وعدلا واتخذوا له صاحبة وولدا تعالى الله عز وجل عن ذلك علوا كبيرا وقوله تعالى هو الذى خلقكم من طين يعنى أباهم آدم الذى هو أصلهم ومنه خرجوا فانتشروا فى المشارق والمغارب وقوله ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده قال سعيد بن جبير عن ابن عباس ثم قضى أجلا يعنى الموت وأجل مسمى عنده يعنى الآخرة وهكذا روى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير

اسحق وقتادة (وان الله لسميع) بكفر الكافرين وايمان المؤمنين (عليم) بهما لا يخفى عليه خافية (اذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم فى الامر) المعنى ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم رآهم فى منامه قليلا فقص ذلك على أصحابه فكان ذلك سببا لثباتهم قاله مجاهد ولو رآهم فى منامه كثيرا لفشلوا وجبنوا عن قتالهم وتنازعوا فى الامر هل يلاقونهم أم لا والمضارع بمعنى الماضى لان نزول الآية كان بعد الاراءة (ولكن الله سلم) وعصمهم من الفشل والتنازع فقللهم فى عين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى المنام قال ابن عباس سلم أى أتم يقول سلم لهم أمرهم حتى أظهرهم على عدوهم وقيل عنى بالمنام محل النوم وهى العين أى فى موضع منامك وهو عينك روى ذلك عن الحسن قال الزجاج هذا مذهب حسن ولكن الاول أسوغ فى العربية لقوله واذ يريكموهم اذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم فدل بهذا على أن هذه رؤية الالتقاء وتلك رؤية النوم (انه عليم بذات الصدور) أى بما يحصل فيها من الجراءة والجبن والصبر والجزع وقيل بما فيه من الحب لله عز وجل قاله ابن عباس (واذ يريكموهم اذ التقيتم فى أعينكم قليلا) أى واذكروا وقت اراءتكم اياهم حال كونهم قليلا حتى قال القائل من المسلمين لآخر أتراهم سبعين قال هم نحو المائة قال ابن مسعود حتى أخذنا رجلا منهم فسألناه قال كنا ألفا (ويقللكم فى أعينهم) أى وقلل المسلمين فى أعين المشركين حتى قال قائلهم انما هم أكلة جزور وكان هذا قبل القتال والتحام الحرب فلما شرعوا فيه كثر الله المسلمين فى أعين المشركين كما قال فى آل عمران يرونهم مثليهم رأى العين ووجه تقليل المسلمين فى أعين المشركين هو أنهم اذا رأوهم قليلا أقدموا على القتال غير خائفين ثم يرونهم كثيرا فيفشلون وتكون الدائرة عليهم ويحل بهم عذاب الله وسوط عقابه (ليقضى الله أمرا كان مفعولا) فى علمه وانما كرره لاختلاف الفعل المعلل به عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال ليلقى بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه والانعام على من أراد النعمة عليه من أهل ولايته وقيل المراد بالامر اعلاء كلمة الاسلام ونصر أهله واذلال كلمة الشرك وخذلان أهله والمعانى متقاربة (والى الله ترجع) أى تصير (الامور) كلها يفعل فيها ما يريد ويقضى فى شأنها ما يشاء (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة) اللقاء الحرب والفئة الجماعة ولا واحد لها من لفظها وتجمع

والحسن وقتادة والضحاك وزيد بن أسلم وعطية والسدي ومقاتل بن حيان وغيرهم وقول الحسن في رواية عنه ثم قضى أجلا وهو ما بين ان يخلق الى أن يموت وأجل مسمى عنده وهو ما بين أن يموت الى أن يبعث هو يرجع الى ما تقدم وهو تقدير الاجل الخاص وهو عمر كل انسان وتقدير الاجل العام هو عمر الدنيا بكمالها ثم انتهائها وقضائها وزوالها والمصير الى الدار الآخرة وعن ابن عباس ومجاهد ثم قضى أجلا يعني مدة الدنيا وأجل مسمى عنده يعني عمر الانسان الى حين موته وكأنه مأخوذ من قوله تعالى بعد هذا وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار (٤٠) الآية وقال عطية عن ابن عباس ثم قضى أجلا يعني النوم يقبض فيه الروح ثم يرجع الى صاحبه عند اليقظة وأجل مسمى عنده يعني أجل موت الانسان وهذا قول غريب ومعنى قوله عنده أي لا يعلمه الا هو كقوله انما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها الا هو وكقوله يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من ذكراها الى ربك منتهاها وقوله تعالى ثم أنتم تمترون قال السدي وغيره يعني تشكون في أمر الساعة وقوله تعالى (وهو الله في السموات وفي الارض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون) اختلف مفسرو هذه الآية على أقوال بعد اتفاقهم على انكار قول الجهمية الأول القائلين تعالى عن قولهم علوا كبيرا بأنه في كل مكان حيث حملوا الآية على ذلك فالاصح من الاقوال أنه المدعو في السموات وفي الارض أي يعبده ويوحده ويقر له بالالهية من في السموات ومن في الارض ويسمونه الله ويدعونه رغبا ورهبا الا من كفر من الجن والانس وهذه الآية على هذا القول كقوله تعالى وهو الذي في السماء اله وفي الارض اله أي هو اله من في السماء واله من في الارض وعلى هذا فيكون قوله يعلم سركم وجهركم خبرا أو حالا والقول الثاني أن المراد انه الله الذي يعلم ما في السموات وما في الارض من سر وجهر فيكون قوله يعلم متعلقا بقوله في السموات وفي الارض تقديره وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الارض ويعلم ما تكسبون والقول الثالث أن قوله وهو الله في السموات وقف تام ثم استأنف الخبر فقال وفي الارض يعلم سركم وجهركم وهذا اختيار ابن جرير وقوله ويعلم ما تكسبون أي جميع أعمالكم خيرها وشرها (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم

على فئات وقد تجمع بالواو والنون جبرا لما نقص منها أي اذا حاربتم جماعة من المشركين (فاثبتوا) لهم ولا تجبنوا عنهم وهذا لا ينافي الرخصة المتقدمة في قوله الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فان الامر بالثبات هو في حال السعة والرخصة هي في حال الضرورة وقد لا يحصل الثبات الا بالتحرف أو التحيز (واذكروا الله كثيرا) عند جزع قلوبكم فان ذكره يعين على الثبات في الشدائد وقيل المعنى اثبتوا بقلوبكم واذكروا بألسنتكم فان القلب قد يسكن عند اللقاء ويضطرب اللسان فأمرهم بالذكر حتى يجتمع ثبات القلب واللسان قيل وينبغي أن يكون الذكر في هذه الحالة بما قاله أصحاب طالوت ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين وفي الآية دليل على مشروعية الذكر في جميع الاحوال حتى في هذه الحالة التي ترجف فيها القلوب وتزيغ عندها البصائر قال قتادة افترض الله ذكره عند أشغل ما يكونون عند الضراب بالسيوف وأخرج الحاكم وصححه عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثنتان لا تردان الدعاء عند النداء وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضا وأخرج الحاكم وصححه عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يكره الصوت عند القتال (لعلكم تفلحون) أي كونوا على رجاء الفلاح والنصر والظفر (وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا) أمرهم بطاعة الله فيما يأمرهم به وطاعة رسوله فيما يرشدهم اليه ونهاهم عن التنازع وهو الاختلاف في الرأي فان ذلك يتسبب عنه الفشل وهو الجبن في الحرب واما المنازعة بالحجة لاظهار الحق فجائزة كما قال وجادلهم بالتي هي أحسن بل هي مأمور بها بشروط منها اقصد اظهار الحق على لسان أي الخصمين وعلامته ان يفرح لظهوره على لسان خصمه (وتذهب ريحكم) الريح القوة والنصر كما يقال الريح لفلان اذا كان غالبا في الامر وقيل الريح الدولة شبهت في نفوذ أمرها بالريح في هبوبها والمختار ان الريح يطلق ويراد به القوة والغلبة والرحمة والنصرة والدولة قال في الخازن الريح هنا كناية عن نفاذ الامر وجريانه على المراد تقول العرب هبت ريح فلان اذا اقبل امره على ما يريد وقال قتادة وابن زيد هي ريح النصر ولم يكن نصر قط الا بريح يبعثها الله تضرب وجوه العدو ومنه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم نصرت بالصبا واهلكت عاد بالدبور (واصبروا ان الله مع الصابرين) امرهم بالصبر على شدائد الحرب واخبرهم

في الارض مالم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الانهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) يخبر تعالى عن المشركين المكذبين المعاندين أنهم كلما أتتهم من آية أي دلالة ومعجزة وحجة من الدلالات حجة على وحدانية الله وصدق رسله الكرام فانهم يعرضون عنها فلا ينظرون اليها ولا يبالون بها قال الله تعالى فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن وهذا تهديد لهم ووعيد شديد على تكذيبهم بالحق بأنه لابد أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب وليجدن غبه وليذوقن وباله ثم قال تعالى واعظا ومحذرا لهم (٤١) أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوي ما حل بأشباههم ونظرائهم من القرون السالفة الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعا وأكثر أموالا وأولادا واستقلالا للارض وعمارة لها فقال ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الارض مالم نمكن لكم أي من الاموال والاولاد والاعمار والجاه العريض والسعة والجنود ولهذا قال وأرسلنا السماء عليهم مدرارا أي شيأ بعد شئ وجعلنا الانهار تجري من تحتهم أي أكثرنا عليهم أمطار السماء وينابيع الارض استدراجا واملاء لهم فأهلكناهم بذنوبهم أي بخطاياهم وسيآتهم التي اجترموها وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين أي فذهب الاولون كامس الذاهب وجعلناهم أحاديث وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين أي جيلا آخر لنختبرهم فعملوا مثل أعمالهم فأهلكوا كاهلاكهم فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم ما أصابهم ما أنتم بأعز على الله منهم والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسولهم فأنتم أولى بالعذاب ومعاجلة العقوبة منهم لولا لطفه واحسانه (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الامر ثم لا ينظرون ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن قل سيروا في الارض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) يقول تعالى مخبرا عن عناد المشركين للحق ومباهتتهم فيه ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم أي عاينوه ورأوا نزوله وباشروا ذلك لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين وهذا كما قال تعالى مخبرا عن مكابرتهم للمحسوسات ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا

بأنه مع الصابرين بالنصر والعون في كل أمر ينبغي الصبر فيه وياحبذا هذه المعية التي لا يغلب من رزقها غالب ولا يؤتى صاحبها من جهة من الجهات وان كانت كثيرة (ولا تكونوا) في البطر والاستكبار (كالذين خرجوا من ديارهم) أي مكة (بطرا) أي فخرا وأشرا (ورئاء الناس) فيصيبكم مثل ما أصابهم نهاهم عن أن تكون حالتهم كحالة هؤلاء وهم قريش فانهم خرجوا يوم بدر ليحفظوا العير التي مع أبي سفيان ومعهم القيان والمعازف فلما بلغوا الجحفة بلغهم ان العير قد نجت وسلمت فلم يرجعوا بل قالوا لابد لهم من الوصول الى بدر ليشربوا الخمر وتغني لهم القيان وتسمع العرب بمخرجهم فكان ذلك منهم بطرا وأشرا وطلبا للثناء من الناس والتمدح اليهم والفخر عندهم وهو الرياء قيل والبطر في اللغة التقوي بنعم الله على معاصيه أي خرجوا بطرين مرائين أو خرجوا للبطر والرياء قال الزجاج البطر الطغيان في النعمة وترك شكرها وجعلها وسيلة الى مالا يرضاه الله والرياء اظهار الجميل مع ابطان القبيح وقيل معناهما الفخر بالنعمة ومقابلتها بالتكبر والخيلاء والفخر بها والرياء مصدر أي كقاتل قتالا وظاهر النظم الكريم ان قوله بطرا متعلق بخرجوا وهو لا يوافق الواقع لان خروجهم كان الغرض منه هو المنع عن عيرهم ولهذا جعله السيوطي متعلقا بمحذوف وقدر لخرجوا علة أخرى حيث قال خرجوا من ديارهم لمنعوا عيرهم ولم يرجعوا بعد نجاتها بطرا فجعله علة لهذا المقدر وهو قوله ولم يرجعوا والمعنى عليه واضح ولم يسلك هذا المسلك غيره ممن رأيناه من المفسرين عن قتادة قال ذكر لنا ان نبي الله صلى الله عليه وسلم قال يومئذ اللهم ان قريشا قد أقبلت بفخرها وخيلائها لتجادل رسولك وقال جاءت من مكة أفلاذها وقد احتج بهذه الآية الشيخ عبد العزيز الدهلوي على انه لا يجوز طوف البلد للعروس بركوب الخيل وغيرها كما اعتاده أهل الهند في عقود مناكحاتهم (ويصدون عن سبيل الله) عطف على بطرا ان جعل مصدرا في موضع الحال وكذا ان جعل مفعولا له لكن على تأويل المصدر يعني صادين عن دين الله أو للصد عنه والصد اضلال الناس والحيلولة بينهم وبين طرق الهداية ويجوز أن يكون ويصدون معطوفا على يخرجون والمعنى يجمعون بين الخروج على تلك الصفة والصد ونكتة التعبير بالاسم أولا ثم الفعل ان البطر والرئاء كانا دأبهم بخلاف الصد فانه تجدد لهم في زمن النبوة قاله الشهاب (والله بما يعملون محيط) لا يخفى عليه من أعمالهم خافية فهو مجازيهم

فيه يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون وكقوله تعالى وان يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم وقالوا لولا أنزل عليه ملك أي ليكون معه قال الله تعالى ولو أنزلنا ملكا لقضي الامر ثم لا ينظرون أي لو نزلت الملائكة على ما هم عليه لجاءهم من الله العذاب كما قال تعالى ما ننزل الملائكة الا بالحق وما كانوا اذا منظرين وقوله يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين الآية وقوله تعالى ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون أي لو أنزلنا مع الرسول البشري ملكا أي لو بعثنا الى البشر رسولا ملكيا لكان (٤٢) على هيئة الرجل ليمكنهم مخاطبته والانتفاع بالاخذ عنه ولو كان كذلك لالتبس عليهم الامر كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشري كقوله تعالى قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا فمن رحمته تعالى بخلقه أن يرسل الى كل صنف من الخلائق رسلا منهم ليدعو بعضهم بعضا وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال كما قال تعالى لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم الآية قال الضحاك عن ابن عباس في الآية يقول لو أتاهم ملك ما أتاهم الا في صورة رجل لانهم لا يستطيعون النظر الى الملائكة من النور وللبسنا عليهم ما يلبسون أي ولخلطنا عليهم ما يخلطون وقال الوالبي عنه ولشبهنا عليهم وقوله ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون هذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم في تكذيب من كذبه من قومه ووعد له وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة ثم قال تعالى قل سيروا في الارض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين أي فكروا في أنفسكم وانظروا ما أحل الله بالقرون الماضية الذين كذبوا رسله وعاندوهم من العذاب والنكال والعقوبة في الدنيا مع ما ادخر لهم من العذاب الاليم في الآخرة وكيف نجى رسله وعباده المؤمنين (قل لمن ما في السموات والارض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم الى يوم القيامة لا ريب فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والارض وهو يطعم ولا يطعم قل اني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين قل اني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين) يخبر

قالوا

عليها (واذ زين لهم الشيطان أعمالهم) أي واذكر يا محمد تزيين الشيطان لهم أعمالهم بان شجعهم وقواهم لما خافوا الخروج من أعدائهم بني بكر وهم قبيلة كنانة قريبة من قريش وبينها وبينهم الحروب الكثيرة والتزيين التحسين وقد روي ان الشيطان تمثل لهم يوم بدر في جند من الشياطين معه قال ابن عباس رأيته في صورة رجل من رجال بني مدلج سراقة بن مالك بن جعشم سيد تلك الناحية وكانت قريش تخاف من بني بكر ان يأتوهم من ورائهم (وقال) لهم (لا غالب لكم اليوم من الناس) أي كنانة وغيرها (واني جار) أي مجير ومعين وناصر (لكم) من كل عدو أو من بني كنانة ومعنى الجار هنا الدافع عن صاحبه أنواع الضرر كما يدفع الجار عن الجار وقيل المعنى انه ألقى في روعهم هذه المقالة وخيل اليهم انهم لا يغلبون ولا يطاقون (فلما تراءت) التقت (الفئتان) أي فئة المسلمين والمشركين ورأى الملائكة وكان يده في يد الحرث بن هشام (نكص) أي رجع (على عقبيه) هاربا أي رجع القهقرى يمشي الى ظهره وقيل معنى نكص ههنا بطل كيده وذهب ما خيله (وقال اني بريء منكم) أي من جواركم وحفظكم ونصركم والذب عنكم وتبرأ منهم لما رأى امارات النصر مع المسلمين بامداد الله لهم بالملائكة ثم علل ذلك بقوله (اني أرى ما لا ترون) من الملائكة ثم علل بعلة أخرى فقال (اني أخاف الله) قيل خاف أن يصاب بمكروه من الملائكة الذين حضروا الوقعة وقيل ان دعوى الخوف كذب منه ولكنه رأى انه لا قوة له ولا للمشركين فاعتل بذلك (والله شديد العقاب) يحتمل أن يكون من تمام كلام ابليس بسطا للعذر ويحتمل أن يكون كلاما مستأنفا من جهة الله سبحانه تهديدا لابليس (اذ يقول المنافقون) قيل هم الذين أظهروا الايمان وأبطنوا الكفر وكانوا بالمدينة وهو ابتداء كلام منقطع عما قبله (والذين في قلوبهم مرض) هم الشاكون من غير نفاق الكائنون بمكة لم يقو اسلامهم لكونهم حديثي عهد بالاسلام وعن الحسن قال مرضى القلوب هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسموا منافقين وقال الكلبي هم قوم كانوا أقروا بالاسلام وهم بمكة ثم خرجوا مع المشركين يوم بدر فلما رأوا المسلمين وافقوا المنافقين في قولهم (غر هؤلاء) المسلمين (دينهم) حتى تكلفوا ما لا طاقة لهم به من قتال قريش وعن الشعبي نحوه وقيل هم المشركون ولا يبعد ان يراد بهم اليهود الساكنون في المدينة وما حولها وانهم هم والمنافقون من أهل المدينة

تعالى انه ملك السموات والارض ومن فيهما وانه قد كتب على نفسه المقدسة الرحمة كما في الصحيحين من طريق الاعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله لما خلق الخلق كتب كتابا عنده فوق العرش ان رحمتي تغلب غضبي وقوله ليجمعنكم الى يوم القيامة لا ريب فيه هذه اللام موطئة للقسم فاقسم بنفسه الكريمة ليجمعن عباده لميقات يوم معلوم وهو يوم القيامة الذي لا ريب فيه أي لا شك عند عباده المؤمنين فاما الجاحدون المكذبون فهم في ريبهم يترددون وقال ابن مردويه عند تفسير هذه الآية حدثنا محمد بن أحمد بن ابراهيم حدثنا عبيد الله بن أحمد بن عقبة حدثنا عباس بن محمد حدثنا حسين ابن محمد حدثنا محصن بن عقبة اليماني عن الزبير بن شبيب عن عثمان بن حاضر عن ابن عباس قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوقوف بين يدي رب العالمين هل فيه ماء قال والذي نفسي بيده ان فيه لماء ان أولياء الله ليردون حياض الانبياء ويبعث الله تعالى ألف ملك في أيديهم عصي من نار يذودون الكفار عن حياض الانبياء هذا حديث غريب وفي الترمذي ان لكل نبي حوضا وأرجو أن أكون أكثرهم واردا وقوله الذين خسروا أنفسهم أي يوم القيامة فهم لا يؤمنون أي لا يصدقون بالمعاد ولا يخافون شر ذلك اليوم ثم قال تعالى وله ما سكن في الليل والنهار أي كل دابة في السموات والارض الجميع خلقه وعباده وتحت قهره وتصرفه وتدبيره ولا اله الا هو وهو السميع العليم أي السميع لاقوالهم العليم بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم ثم قال تعالى لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم الذي بعثه بالتوحيد العظيم وبالشرع القويم وأمره أن يدعو الناس الى صراطه المستقيم قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والارض كقوله قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون والمعنى لا اتخذ وليا الا الله وحده لا شريك له فانه فاطر السموات والارض أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق وهو يطعم ولا يطعم أي وهو الرازق لخلقه من غير احتياج اليهم كما قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون الآية وقرأ بعضهم ههنا وهو يطعم ولا يطعم أي لا يأكل وفي حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال دعا رجل من الانصار من أهل قباء النبي صلى الله عليه وسلم على طعام فانطلقنا معه فلما طعم النبي صلى الله عليه وسلم وغسل يديه قال الحمد لله الذي يطعم ولا يطعم ومن علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا من الشراب وكل بلاء حسن أبلانا الحمد لله غير مودع ولا مكافى

قالوا هذه المقالة عند خروج المسلمين الى بدر لما رأوهم في قلة من العدد وضعف من العدد فاجاب الله عليهم بقوله (ومن يتوكل على الله) يثق به (فان الله عزيز) لا يغلبه غالب ولا يذل من توكل عليه (حكيم) له الحكمة البالغة التي تقصر عندها العقول (ولو ترى) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من يصلح له كما تقدم تحقيقه في غير موضع والرؤية بصرية والمعنى لو رأيت (اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة) لان لو يقلب المضارع ماضيا أي ولو ترى الكافرين وقت توفي الملائكة لهم قيل أراد بالذين كفروا من لم يقتل يوم بدر وقيل هي فيمن قتل ببدر وجواب لو محذوف تقديره لرأيت أمرا عظيما (يضربون وجوههم) أي جهة الامام (وأدبارهم) أي جهة الخلف يعني استاههم كنى عنها بالادبار وقيل ظهورهم بمقامع من حديد وهذا نص في ان ملائكة الموت عند قبضها الروح الكافر تضربه بما ذكر وتقول له ماذكر وان كنا محجوبين عن رؤية ذلك وسماعه واختلفوا في وقت هذا الضرب فقيل يكون عند الموت تضرب الملائكة وجوه الكفار وأدبارهم بسياط من نار كما يفيده ذكر التوفي وقيل هو يوم القيامة حين يسيرون بهم الى النار قال ابن جريج يريد ما أقبل من اجسادهم وأدبر يعني يضربون جميع أجسادهم قيل كان المشركون اذا اقبلوا بوجوههم على المسلمين ضربت الملائكة وجوههم بالسيوف واذا ولوا أدبارهم ضربت الملائكة ادبارهم قيل كان معهم مقامع من حديد محماة بالنار يضربون بها الكفار فتلتهب النار في جراحاتهم (و) يقول لهم خزنة جهنم عند القتل (ذوقوا عذاب الحريق) أي المحرق وقال ابن عباس تقول لهم الملائكة ذلك بعد الموت وقال الحسن هذا يوم القيامة والذوق قد يكون محسوسا وقد يوضع موضع الابتلاء والاختبار واصله من الذوق بالفم (ذلك) اشارة الى ما تقدم من الضرب والحريق والعذاب والقتل (بما قدمت أيديكم) اى واقع بسبب ما كسبتم من المعاصي واقترفتم من الذنوب هذا من جملة قول الملائكة عبر بها دون غيرها لان اكثر الافعال تزاول بها (وان الله ليس بظلام للعبيد) اى والامر انه لا يظلمهم أو ذلك العذاب بسبب المعاصي وبسبب ان الله ليس بذي ظلم لهم فيعذبهم بغير ذنب لانه سبحانه قد ارسل اليهم رسله وانزل عليهم كتبه وأوضح لهم السبيل وهداهم النجدين كما قال سبحانه وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبلها

الحمد لله الذي أطعمنا من الطعام وسقانا من الشراب وكسانا من العري وهدانا من الضلال وبصرنا من
ولا مكفور ولا مستغنى عنه الحمد لله رب العالمين قل اني أمرت أن أكون أول من أسلم أي من هذه الامة ولا تكونن من
العمى وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلا يومئذ فقد رحمه يعني فقد رحمه يعني يوم القيامة من يصرف عنه أي العذاب
المشركين قل اني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم ونفي الخسارة (وان يمسسك الله
الله وذلك هو الفوز المبين كقوله فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز والفوز حصول الربح وهو الحكيم الخبير قل أي شيء أكبر
بضر فلا كاشف له الا هو وان يمسسك بخير فهو (٤٤) على كل شيء قدير وهو القاهر فوق عباده

شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم
وأوحي الي هذا القرآن لأنذركم به
ومن بلغ أئنكم لتشهدون ان مع الله
آلهة أخرى قل لا أشهد قل انما هو اله
واحد وانني بريء مما تشركون الذين
آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون
أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم
لا يؤمنون ومن أظلم ممن افترى على
الله كذبا أو كذب بآياته انه لا يفلح
الظالمون) يقول تعالى مخبرا أنه مالك
الضر والنفع وانه المتصرف في خلقه
بما يشاء لا معقب لحكمه ولا راد
لقضائه وان يمسسك الله بضر فلا
كاشف له الا هو وان يمسسك بخير
فهو على كل شيء قدير كقوله تعالى
ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك
لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده
الآية وفي الصحيح أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم كان يقول اللهم
لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما
منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد
ولهذا قال تعالى وهو القاهر فوق
عباده أي هو الذي خضعت له
الرقاب وذلت له الجبابرة وعنت له
الوجوه وقهر كل شيء ودانت له
الخلائق وتواضعت لعظمة جلاله
وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته الاشياء واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمه وهو الحكيم أي في المراد
جميع أفعاله الخبير بمواضع الاشياء ومحالها فلا يعطي الا من يستحق ولا يمنع الا من يستحق ثم قال قل أي شيء أكبر شهادة أي من
أعظم الاشياء قل الله شهيد بيني وبينكم أي هو العالم بما جئتكم به وما أنتم قائلون لي وأوحي الي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أي
وهو نذير لكل من بلغه كقوله تعالى ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا وكيع
وأبو أسامة وأبو خالد عن موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب في قوله ومن بلغ من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي صلى الله عليه وسلم

(كدأب) لما ذكر سبحانه ما أنزله بأهل بدر أتبعه بما دل على ان هذه سنته في فرق الكافرين
وأصل الدأب في اللغة ادامة العمل يقال فلان يدأب في كذا اذا داوم عليه وأتعب
نفسه فيه ثم سميت العادة دأبا لان الانسان يداوم على عادته ويواظب عليها اي دأب هؤلاء
في كفرهم مثل دأب (آل فرعون والذين من قبلهم) والمعنى انه جوزي هؤلاء كما
جوزي أولئك فكانت العادة في عذاب هؤلاء كالعادة الماضية لله في تعذيب طوائف
الكفر من الامم الماضية المكذبة فيما فعلوا وفعل بهم (كفروا بآيات الله) مفسرة
لدأب آل فرعون وبيان لعلهم اي دابهم هذا هو انهم كفروا بها (فأخذهم الله بذنوبهم)
هذا بيان لما فعل بهم اي فتسبب عن كفرهم اخذ الله سبحانه لهم والمراد بذنوبهم معاصيهم
المترتبة على كفرهم فالباء للملابسة اي فأخذهم متلبسين بذنوبهم غير تائبين عنها (ان الله
قوي) على ما يريده (شديد العقاب) جملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها (ذلك) أي
العقاب الذي أنزله الله بهم (بأن الله لم يك) مجزوم بسكون النون المحذوفة تخفيفا أي
ما كان (مغيرا نعمة أنعمها على قوم) المراد بالنعمة هو محمد صلى الله عليه وسلم أنعم بها
على قريش فكفروا به وكذبوه فنقله الله الى الانصار قاله السدي والجملة جارية مجرى
التعليل لما حل بهم من عذاب الله أي ان ذلك العقاب بسبب ان عادة الله في عباده عدم
تغيير النعمة التي ينعم بها عليهم مبدلا لها بالنقمة (حتى يغيروا ما بأنفسهم) من الاحوال
والاخلاق بكفران نعم الله وغمص (١) احسانه واهمال أوامره ونواهيه وهذا في الحال
المرضية والقبيحة فكما تغير الحال المرضية الى المسخوطة كذلك تغير الحال المسخوطة الى
ما هو أسوأ منها هذا حاصل ما في الكشاف وذلك كما كان من آل فرعون ومن قبلهم ومن
قريش ومن يماثلهم من المشركين فان الله فتح لهم أبواب الخيرات في الدنيا ومن عليهم
بارسال الرسل وانزال الكتب فقابلوا هذه النعم بالكفر فاستحقوا تغيير النعم كما غيروا
ما كان يجب عليهم سلوكه والعمل به من شكرها وقبولها وجملة (وان الله سميع عليم)
معطوفة على ما قبلها داخلة معها في التعليل اي ذلك بسبب ان الله لم يك مغيرا وبسبب ان
الله سميع يسمع ما يقولونه وعليم يعلم ما يفعلونه ثم كرر ما تقدم فقال (كدأب آل فرعون
والذين من قبلهم) لقصد التأكيد مع زيادة انه كالبيان للاخذ بالذنوب بانه كان بالاغراق
وقيل ان الاول باعتبار ما فعله آل فرعون ومن شبه بهم والثاني باعتبار ما فعل بهم وقيل

(١) الغمص كفران النعمة اهـ منه

زاد أبو خالد وكلمه ورواه ابن جرير من طريق أبي معشر عن محمد بن كعب قال من بلغه القرآن فقد أبلغه محمد صلى الله عليه وسلم وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله تعالى لأنذركم به ومن بلغ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بلغوا عن الله فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله وقال الربيع بن أنس حق على من اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو كالذي دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن ينذر بالذي أنذر وقوله أئنكم لتشهدون أيها المشركون ان مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد كقوله فان شهدوا فلا تشهد معهم قل انما هو اله واحد وانني بريء (٤٥) مما تشركون ثم قال تعالى مخبرا عن أهل الكتاب انهم يعرفون هذا الذي جئتهم به كما يعرفون ابناءهم بما عندهم من الاخبار والانباء وان الرسل كلهم بشروا بوجود محمد صلى الله عليه وسلم ومبعثه وصفته وبلده ومهاجره وصفة أمته ولهذا قال بعده الذين خسروا أنفسهم أي خسروا كل الخسارة فهم لا يؤمنون بهذا الامر الجلي الظاهر الذي بشر به الانبياء ونوهت به في قديم الزمان وحديثه ثم قال ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته وحججه وبراهينه ودلالاته انه لا يفلح الظالمون اى لا يفلح لا هذا ولا هذا لا المفتري ولا المكذب (ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ثم لم تكن فتنتهم الا ان قالوا والله ربنا ما كنا مشركين انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة ان يفقهوه وفي آذانهم وقرا وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى اذا جاؤك يجادلونك يقول الذين كفروا ان هذا الا أساطير الاولين وهم ينهون عنه وينأون عنه وان يهلكون الا أنفسهم وما يشعرون) يقول تعالى مخبرا عن المشركين يوم نحشرهم جميعا يوم القيامة فيسألهم عن الاصنام والانداد التي كانوا يعبدونها من دونه قائلا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون كقوله تعالى في سورة القصص ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون وقوله تعالى ثم لم تكن فتنتهم أي حجتهم الا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين قال الضحاك عن ابن عباس ثم لم تكن فتنتهم أي حجتهم وقال عطاء الخراساني عنه أي معذرتهم وكذا قال قتادة وابن جريج عن ابن عباس أي قيلهم وكذا قال الضحاك وقال عطاء الخراساني ثم لم تكن بليتهم حين ابتلوا الا أن قالوا والله ربنا ما كنا

المراد بالاول كفرهم بالله وبالثاني تكذيبهم الانبياء وقيل الاول اخبار عن عذاب لم يمكن الله أحدا من فعله وهو ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند نزع أرواحهم والثاني اخبار عن عذاب مكن الله الناس من فعل مثله وهو الاهلاك والاغراق وقيل غير ذلك مما لا يخلو عن تعسف وفي قوله (كذبوا بآيات ربهم) زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق والكلام في (فأهلكناهم بذنوبهم) كالكلام المتقدم في فأخذهم الله بذنوبهم قيل المعنى أهلكنا بعضهم بالرجفة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالحجارة وبعضهم بالريح وبعضهم بالمسخ فكذلك أهلكنا كفار قريش بالسيف (وأغرقنا آل فرعون) أي قومه معه معطوف على أهلكناهم عطف الخاص على العام لفظاعته وكونه من أشد أنواع الاهلاك (وكل كانوا ظالمين) حكم على كلا الطائفتين من آل فرعون والذين من قبلهم ومن كفار قريش بالظلم لانفسهم بما تسببوا به لعذاب الله من الكفر بالله وآياته ورسله وبالظلم لغيرهم كما كان يجري منهم في معاملاتهم للناس بأنواع الظلم وبالتكذيب لانبيائهم وجمع الضمير في كانوا وفي ظالمين مراعاة لمعنى كل لان كلا متى قطعت عن الاضافة جاز مراعاة لفظها تارة ومعناها أخرى وانما اختير هنا مراعاة المعنى لاجل الفواصل ولو روعي اللفظ فقط فقيل وكل كان ظالما لم تتفق الفواصل قاله السمين (ان شر الدواب عند الله الذين كفروا) أي شر ما يدب على وجه الارض في حكم الله وقضائه المصرون على الكفر المتمادون في الضلال وجعلهم شر الدواب لا شر الناس ايماء الى انسلاخهم عن الانسانية ودخولهم في جنس غير الناس من أنواع الحيوان لعدم تعقلهم لما فيه رشادهم ومع ذلك هم شر من جميع افرادها حسبما نطق به قوله تعالى ان هم الا كالانعام بل هم أضل عن سعيد بن جبير قال نزلت في ستة رهط من اليهود فيهم ابن تابوت ولهذا قال (فهم لا يؤمنون) أي هذا شأنهم لا يؤمنون أبدا ولا يرجعون عن الغواية أصلا وهذا حكم مترتب على تماديهم في الكفر ورسوخهم فيه وتسجيل عليهم بكونهم من أهل الطبع لا يلويهم صارف ولا يثنيهم عاطف أصلا جيء به على وجه الاعتراض لانه عطف على كفروا داخل معه في حيز الصلة التي لا حكم فيها بالفعل قاله أبو السعود (الذين عاهدت منهم) اى أخذت منهم عهدهم ان لا يعينوا المشركين أي كفار مكة قيل من في

ثم لم يكن قيلهم عند فتنتنا إياهم اعتذارا عما سلف منهم من الشرك بالله إلا أن قالوا والله

مشركين وقال ابن جرير والصواب ... وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو يحيى الرازي عن عمرو بن أبي قيس عن مطرف عن المنهال

ربنا ما كنا مشركين وقال ابن أبي حاتم ... والله ربنا ما كنا مشركين قال أما قوله والله

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أتاه رجل فقال يا أبا عباس سمعت الله يقول والله ربنا ما كنا مشركين قال أما قوله والله ربنا ما كنا مشركين فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة فقالوا تعالوا فلنجحد فيجحدون فيختم الله على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتمون الله حديثا فهل (٤٦) في قلبك الآن شيء لأنه ليس من القرآن شيء إلا ونزل فيه شيء ولكن لا تعلمون وجهه قال الضحاك عن ابن عباس هذه في المنافقين وفيه نظر فإن هذه الآية مكية والمنافقون إنما كانوا بالمدينة والتي نزلت في المنافقين آية المجادلة يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له الآية وهكذا قيل في حق هؤلاء انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون كقوله ثم قيل لهم أينما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا الآية وقوله ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها أي يجيئون ليستمعوا قراءتك ولا يجزي عنهم شيئا لأن الله جعل على قلوبهم أكنة أي أغطية لئلا يفقهوا القرآن وفي آذانهم وقرا أي صمما عن السماع النافع فيهم كما قال تعالى ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء الآية وقوله وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها أي مهما رأوا من الآيات والدلالات والحجج البينات والبراهين لا يؤمنوا بها فلا فهم عندهم ولا إنصاف كقوله تعالى ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم الآية وقوله تعالى حتى إذا جاءوك يجادلونك أي يحاجونك ويناظرونك في الحق على بالباطل يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين أي ما هذا الذي جئت به إلا مأخوذ من كتب الأوائل ومنقول عنهم وقوله وهم ينهون عنه وينأون عنه وفي معنى ينهون عنه قولان أحدهما أن المراد أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق وتصديق الرسول والانقياد للقرآن وينأون أي ولا يدعون أحدا ينتفع قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس وهم ينهون عنه يردون الناس عن محمد صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا به وقال محمد بن الحنفية كان كفار قريش لا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم

منهم صلة أي عاهدتهم وقيل للتبعيض أي الذين عاهدتهم وهم بعض أولئك الكفرة يعني الأشراف منهم (ثم ينقضون عهدهم) الذي عاهدتهم وعطف المستقبل على الماضي للدلالة على استمرار النقض منهم وهؤلاء هم قريظة عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يعينوا الكفار فلم يفوا بذلك (في كل مرة) من مرات المعاهدة فنقضوا وأعانوهم بالسلاح وقالوا نسينا العهد ثم عاهدهم فنكثوا ومالؤا الكفار عليه يوم الخندق (وهم) أي والحال أنهم (لا يتقون) الله في النقض والغدر ولا يخافون عاقبته ولا يتجنبون أسبابه ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالشدة والغلظة عليهم فقال (فإما تثقفنهم في الحرب) أي فإما تصادفنهم في ثقاف وتلقاهم في حالة تقدر عليهم فيها وتتمكن من غلبهم وتظفر بهم يقال ثقفت الشيء ثقفا من باب تعب أخذته وثقفت الرجل في الحرب أدركته وثقفته ظفرت به وثقفت الحديث فهمته بسرعة والفاعل ثقيف وبه سمي حي من اليمن والثقاف في أصل اللغة ما يشد به القناة ونحوها يقال فلان ثقف أي سريع الوجود لما يحاوله (فشرد بهم) أي ففرق بقتلهم والتنكيل بهم والعقوبة لهم (من خلفهم) من المحاربين لك من أهل الشرك كفار مكة حتى يهابوا جانبك ويكفوا عن حربك مخافة أن ينزل بهم ما نزل بهؤلاء أو يخاف من وراءهم من أهل مكة واليمن والتشريد التفريق مع الاضطراب والإزعاج وقال أبو عبيدة شرد بهم سمع بهم وقال الزجاج افعل بهم فعلا من القتل تفرق به من خلفهم يقال شردت بني فلان قلعتهم عن مواضعهم وطردتهم عنها حتى فارقوها ومنه شرد البعير إذا فارق صاحبه وقرأ ابن مسعود بالذال قال قطرب التشريذ هو التنكيل وبالمهملة هو التفريق وقال المهدوي الذال المعجمة لا وجه لها ولا يعرف في اللغة (لعلهم) أي الذين خلفهم (يذكرون) أي يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك قاله السدي (وإما تخافن من قوم خيانة) أي غشا ونقضا للعهد من القوم المعاهدين بأمارة تلوح لك وهم قريظة والنضير (فانبذ) أي فاطرح (إليهم) العهد الذي بينك وبينهم والنبذ الطرح وهذا مجاز عن إعلامهم بأن لا عهد لهم بعد اليوم فشبه العهد بالشيء الذي يرمى لعدم الرغبة فيه وأثبت النبذ له تخييلا ومفعوله محذوف وهو عهدهم قاله الشهاب (على سواء) أي طريقة مستوية والمعنى أنه يخبرهم إخبارا ظاهرا مكشوفا بالنقض ولا يناجزهم الحرب بغتة وقيل معنى على سواء

وينهون عنه وكذا قال قتادة ومجاهد والضحاك وغير واحد وهذا القول أظهر والله أعلم وهو اختيار ابن جرير والقول الثاني رواه سفيان
الثورى عن حبيب بن أبي ثابت عمن سمع ابن عباس يقول فى قوله وهم ينهون عنه قال نزلت فى أبي طالب كان ينهى عن النبي صلى
الله عليه وسلم ان يؤذى وكذا قال القاسم بن مخيمرة وحبيب بن أبي ثابت وعطاء بن دينار وغيره أنها نزلت فى أبي طالب وقال سعيد بن
جبير بن هلال نزلت فى عمومة النبي صلى الله عليه وسلم وكانوا عشرة فكانوا أشد الناس معه فى العلانية وأشد الناس عليه فى
السر رواه ابن أبي حاتم وقال محمد بن كعب القرظى وهم ينهون عنه (٤٧) أى ينهون الناس عن قتله وقوله وينأون عنه أى
يتباعدون منه وان يهلكون الا
أنفسهم وما يشعرون أى وما
يهلكون بهذا الصنيع ولا يعود
وباله الا عليهم وما يشعرون (ولو ترى
اذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا
نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون
من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا
يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما
نهوا عنه وانهم لكاذبون وقالوا
ان هى الا حياتنا الدنيا وما نحن
بمبعوثين ولو ترى اذ وقفوا على ربهم
قال أليس هذا بالحق قالوا بلى
وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم
تكفرون) يذكر تعالى حال الكفار
يوم القيامة اذ وقفوا على النار
وشاهدوا ما فيها من السلاسل
والاغلال ورأوا بأعينهم تلك الامور
العظام والاهوال فعند ذلك قالوا
ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا
يتمنون أن يردوا الى الدار الدنيا
ليعملوا عملا صالحا ولا يكذبوا بآيات
ربهم ويكونوا من المؤمنين قال الله
تعالى بل بدا لهم ما كانوا يخفون
من قبل فى أنفسهم من الكفر
والتكذيب والمعاندة وان أنكروها
فى الدنيا أو فى الآخرة كما قال قبله
بيسير ثم لم تكن فتنتهم الا أن قالوا
والله ربنا ما كنا مشركين أنظر كيف كذبوا على أنفسهم ويحتمل انهم أظهروا ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءت به الرسل
فى الدنيا وان كانوا يظهرون لاتباعهم خلافه كقوله مخبرا عن موسى انه قال لفرعون لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والارض
بصائر الآية وقوله تعالى مخبرا عن فرعون وقومه وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين
الذين كانوا يظهرون الايمان للناس ويبطنون الكفر ويكون هذا اخبارا عما يكون يوم القيامة من كلام طائفة من الكفار
ولا ينافى هذا كون هذه مكية والنفاق انما كان من بعض أهل المدينة ومن حولها من الاعراب فقد ذكر الله وقوع النفاق فى

على وجه يستوى فى العلم بالنقض أقصاهم وأدناهم أو تستوى أنت وهم فيه لئلا يتهموك
بالغدر قال الكسائى السواء العدل وقد يكون بمعنى الوسط ومنه قوله فى سواء الجحيم
وقيل معنى على سواء على جهر لا على سر والظاهر أن هذه الآية عامة فى كل معاهد يخاف
من وقوع النقض منه قال ابن عطية والذى يظهر من ألفاظ القرآن ان أمر بنى قريظة
انقضى عند قوله فشرد بهم من خلفهم ثم ابتدأ تبارك وتعالى فى هذه الآية يأمره بما
يصنعه فى المستقبل مع من يخاف منه خيانة (ان الله لا يحب الخائنين) تعليل لما قبلها
يحتمل أن تكون تحذيرا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن المناجزة قبل أن ينبذ اليهم
على سواء ويحتمل أن تكون عائدة الى القوم الذين تخاف منهم الخيانة (ولا يحسبن الذين
كفروا سبقوا) أى فاتوا عذابه وخلصوا ونجوا منه وانهزموا يوم بدر وأفلتوا من أن يظفر
بهم وعلى القراءة بالفوقية يكون الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهى قراءة
واضحة قاله أبو السعود وقال الخفاجى وهى ظاهرة وقد زعم جماعة من النحويين
منهم أبو حاتم ان قراءة من قرأ يحسبن بالتحتية لحن لا تحل القراءة بها لانه لم يأت ليحسبن
بمفعول وهو يحتاج لمفعولين قال النحاس وهذا تحامل شديد ومعنى هذه القراءة ولا يحسبن
من خلفهم الذين كفروا سبقوا فيكون الضمير يعود على ما تقدم الا أن قراءة التاء أبين
قال الخفاجى واما القراءة بالياء للغيبة فضعفها الزمخشرى وقال انها غير نيرة وقد ردوا
عليه ذلك بوجهين * الاول ان حمزة وحفصا وابن عامر وغيرهم قرؤا بها * والثانى أن قوله
انها غير نيرة ليس كما زعم فانها أنور من الشمس فى وسط النهار لان فاعل يحسبن ضمير أى
لا يحسبن هو أى قبيل المؤمنين أو الرسول أو الحاسب أو من خلفهم أو أحد لانه معلوم من
الكلام فلا يرد عليه انه لم يسبق له ذكر واما حذف الفاعل فلا يخطر بالبال كما توهم وعليه
فمفعولاه الذين كفروا سبقوا وقيل الفعل مسند الى الذين كفروا والمفعول الاول
محذوف وسبقوا هو الثانى أى لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سابقين انتهى (انهم
لا يعجزون) تعليل لما قبلها أى انهم بهذا السبق لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزا عن
ادراكهم والانتقام منهم وقيل المراد بهذه الآية من أفلت من وقعة بدر من المشركين
والمعنى انهم وان أفلتوا من هذه الوقعة ونجوا فانهم لا يعجزون بل هم واقعون فى عذاب
الله فى الدنيا بالقتل وفى الآخرة بعذاب النار وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم

سورة مكية وهي العنكبوت فقال وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين وعلى هذا فيكون اخبارا عن حال قول المنافقين في الدار الآخرة حين يعاينون العذاب يظهر لهم حينئذ غب ما كانوا يبطنون من الكفر والشقاق والنفاق والله أعلم وأما معنى الاعتراف في قوله بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل فانهم ما طلبوا العود الى الدنيا رغبة في الايمان بل خوفا من العذاب الذي عاينوه جزاء على ما كانوا عليه من الكفر فسألوا الرجعة الى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار ولهذا قال ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون أي في طلبهم الرجعة رغبة ومحبة (٤٨) في الايمان ثم قال مخبرا عنهم انهم لو ردوا الى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون أي في قولهم يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين وقالوا ان هي الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين أي لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون ولقالوا ان هي الا حياتنا الدنيا اي ما هي الا هذه الحياة الدنيا ثم لا معاد بعدها ولهذا قال وما نحن بمبعوثين ثم قال ولو ترى اذ وقفوا على ربهم أي وقفوا بين يديه قال أليس هذا بالحق أي أليس هذا المعاد بحق وليس بباطل كما كنتم تظنون قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون أي بما كنتم تكذبون به فذوقوا اليوم مسه أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون) يقول تعالى مخبرا عن خسارة من كذب بلقائه وعن خيبته اذا جاءته الساعة بغتة وعن ندامته على ما فرط من العمل وما أسلف من قبيح الفعال ولهذا قال حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهذا الضمير يحتمل عوده على الحياة وعلى الاعمال وعلى الدار الآخرة أي في أمرها وقوله وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم الا ساء ما يزرون أي يحملون وقال قتادة يعملون قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا أبو خالد عن عمرو ابن قيس عن أبي مرزوق ويستقبل الكافر أو الفاجر عند خروجه من قبره كاقبح صورة رأيتها وأنتن ريحا فيقول من أنت فيقول أو ما تعرفني فيقول لا الا ان الله قبح وجهك وأنتن ريحك فيقول انا عملك الخبيث هكذا كنت في الدنيا خبيث العمل منتنه فطالما ركبتني في الدنيا هلم أركبك فهو قوله وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم الآية وقال أسباط عن السدي انه قال ليس من

فمن فاته من المشركين ولم ينتقم منهم فأعلمه الله انهم لا يعجزونه (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) أمر سبحانه باعداد القوة للاعداء الناقضي العهد كما يقتضيه السياق أو للكفار مطلقا كما يقتضيه ما بعده والاعداد اتخاذ الشئ لوقت الحاجة اليه ومن لبيان الجنس والقوة كل ما يتقوى به في الحرب على العدو ومن ذلك السلاح والقسي وقد ثبت في صحيح مسلم وغيره من حديث عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو على المنبر يقول وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا ان القوة الرمي قالها ثلاث مرات وقيل هي الحصون والمعاقل والمصير الى التفسير الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متعين وعن ابن عباس القوة الرمي والسيوف والسلاح وقال ابن الزبير أمرهم باعداد الخيل وعن عكرمة قال القوة ذكور الخيل والرباط الاناث وعن مجاهد مثله وعن ابن المسيب قال القوة السهم الى الفرس فما دونه وقال عكرمة الحصون وقيل كل ما هو آلة يستعان بها في الجهاد فهو من جملة القوة المأمور باعدادها وقوله صلى الله عليه وآله وسلم ألا ان القوة الرمي لا ينفي كون غير الرمي ليس من القوة فهو كقوله الحج عرفة وقوله الندم توبة فهذا لا ينفي اعتبار غيره بل يدل على أن هذا المذكور من أفضل المقصود وأجله فكذا هنا يحمل معنى الآية على الاستعداد للقتال في الحرب وجهاد العدو بجميع ما يمكن من الآلات كالرمي بالنبل والنشاب والسيف والدرع وتعليم الفروسية كل ذلك مأمور به لانه من فروض الكفايات (ومن رباط الخيل) قال أبو حاتم الرباط من الخيل الخمس فما فوقها وهي الخيل التي ترتبط بازاء العدو قال في الكشاف الرباط اسم للخيل التي تربط في سبيل الله ويجوز أن تسمى بالرباط الذي هو بمعنى المرابطة ويجوز أن يكون جمع ربيط كفصيل وفصال اه والرباط ما تربط به القربة وغيرها والجمع ربط مثل كتاب وكتب ويقال للمصاب ربط الله على قلبه بالصبر كما يقال أفرغ الله عليه الصبر أي ألهمه والرباط الذي يبنى للفقراء مولد يجمع في القياس على ربط بضمتين ورباطات والمرابطة اقامة المسلمين بالثغور لحراسة فيها وربط الخيل للجهاد من أعظم ما يستعان به قال ابن محيريز كانت الصحابة يستحبون ذكور الخيل عند الصفوف واناث الخيل عند الشتات والغارات وقيل ربط الفحول أولى من الاناث لانها أقوى على الكر والفر والعدو وقيل لفظ الخيل عام يتناول الفحول والاناث فأي ذلك ربط بنية الغزاة كان في

سبيل

رجل ظالم يدخل قبره الا جاءه رجل قبيح الوجه اسود اللون منتن الريح وعليه ثياب دنسة حتى يدخل معه قبره فاذا رآه قال ما أقبح وجهك قال كذلك كان عملك قبيحا قال ما أنتن ريحك قال كذلك كان عملك منتنا قال ما أدنس ثيابك قال لان عملك كان دنسا قال له من أنت قال أنا عملك قال فيكون معه فى قبره فاذا بعث يوم القيامة قال له انى كنت أحملك فى الدنيا باللذات والشهوات وأنت اليوم تحملنى قال فيركب على ظهره فيسوقه حتى يدخله النار فذلك قوله وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم الا ساء ما يزرون وقوله وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو اى اشغال بها وللدار الآخرة خير للذين يتقون (٤٩) أفلا يعقلون (قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإ المرسلين وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت ان تبتغى نفقا فى الارض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين انما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون) يقول تعالى مسليا لنبيه صلى الله عليه وسلم فى تكذيب قومه له ومخالفتهم اياه قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون أى قد أحطنا علما بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم كقوله فلا تذهب نفسك عليهم حسرات كما قال تعالى فى الآية الاخرى لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا وقوله فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون أى لا يتهمونك بالكذب فى نفس الامر ولكن الظالمين

بآيات الله يجحدون أى ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم كما قال سفيان الثورى عن أبى اسحق عن ناجية بن كعب عن على قال قال أبو جهل للنبى صلى الله عليه وسلم انا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به فأنزل الله فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ورواه الحاكم من طريق اسرائيل عن أبى اسحق ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن الوزير الواسطى بمكة حدثنا بشر بن المبشر الواسطى عن سلام بن مسكين عن أبى يزيد المدنى ان النبى صلى الله عليه وسلم لقى أبا جهل فصافحه فقال له رجل الا أراك تصافح هذا الصابئ فقال والله انى لاعلم انه لنبى ولكن متى كنا لبنى عبد مناف تبعا وتلا أبو يزيد فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون وقال أبو صالح وقتادة يعلمون انك

سبيل الله ومن فسر القوة بكل ما يتقوى به فى الحرب جعل عطف الخيل من عطف الخاص على العام وقد ورد فى استحباب الرمى وما فيه من الاجر واستحباب اتخاذ الخيل واعدادها وكثرة ثواب صاحبها أحاديث كثيرة لا يسع المقام بسطها وقد أفرد ذلك جماعة من العلماء بمصنفات (ترهبون به عدو الله وعدوكم) الترهيب التخويف والضمير فى به راجع الى ما فى ما استطعتم أو الى المصدر المفهوم من وأعدوا وهو الاعداد فقوله ترهبون اما حال من فاعل أعدوا أو من مفعوله أى حصلوا لهم هذا حال كونكم مرهبين أو أعدوه مرهبا به وجاز نسبته لكل منهما لان فى الجملة ضميريهما والمراد بعدو الله وعدوهم هم المشركون من أهل مكة وغيرهم من مشركى العرب (وآخرين من دونهم) معطوف على عدو الله وعدوكم ومعنى من دونهم من غيرهم قيل هم اليهود وقيل فارس والروم وقيل المنافقون وفيه بعد وقيل كفار الجن قاله الحسن ورجحه ابن جرير الطبرى وهو أبعد وقيل المراد كل من لا تعرف عداوته قاله السهيلى وقيل هم بنو قريظة خاصة وقيل غير ذلك والاولى الوقف فى تعيينهم لقوله (لا تعلمونهم) أى لا تعرفونهم بأعيانهم ومن عينهم قال أى لا تعلمون بواطنهم وما انطووا عليه من النفاق والعلم فيه قولان أحدهما أنه متعد لواحد لانه بمعنى المعرفة ولذلك تعدى لواحد والثانى أنه على بابه فيتعدى لاثنين والثانى محذوف أى لا تعلمونهم فازعين أو محاربين وهذان القولان لا يجوز أن يجريا فى قوله (الله يعلمهم) بل يجب أن يقال انه المتعدى الى اثنين وأن ثانيهما محذوف للفرق بين العلم والمعرفة بوجوه منها أن المعرفة تستدعى سبق جهل ومنها أن متعلقها الذوات دون النسب وقد اتفق العلماء على أنه لا يجوز أن يطلق الوصف بالمعرفة على الله تعالى وهذا لا يرد لانه ليس فى الآية اطلاق اسم العارف عليه وانما فيها اطلاق اسم العلم وان كان بمعنى العرفان (وما تنفقوا من شئ فى سبيل الله) أى فى الجهاد وان كان يسيرا حقيرا وقيل هو أمر عام فى كل وجوه الخيرات والطاعات ويدخل فيه نفقة الغزو دخولا أوليا (يوف اليكم) أجره وجزاؤه فى الآخرة فالحسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف الى أضعاف كثيرة كما قررناه سابقا ويعجل لكم عوضه فى الدنيا (وأنتم لا تظلمون) فى شئ من هذه النفقة التى تنفقونها فى سبيل الله أى من ثوابها بل يصير ذلك اليكم وافيا وافرا كاملا وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما أنى لا أضيع

رسول الله و يجحدون وذكر محمد بن اسحق عن الزهري في قصة أبي جهل حين جاء يستمع قراءة النبي صلى الله عليه وسلم من الليل هو وأبو سفيان صخر بن حرب والاخنس بن شريق ولا يشعر أحد منهم بالآخر فاستمعوها الى الصباح فلما هجم الصبح تفرقوا فجمعتهم الطريق فقال كل منهم للآخر ما جاء بك فذكر له ما جاء به ثم تعاهدوا أن لا يعودوا لما يخافون من علم شبان قريش بهم لئلا يفتتنوا بمجيئهم فلما كانت الليلة الثانية جاء كل منهم ظنا أن صاحبيه لا يجيئان لما سبق من العهود فلما أصبحوا جمعتهم الطريق فتلاوموا ثم تعاهدوا أن لا يعودوا فلما كانت الليلة الثالثة (٥٠) جاؤا أيضا فلما أصبحوا تعاهدوا أن لا يعودوا لمثلها ثم تفرقوا فلما أصبح الاخنس ابن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته فقال أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد قال يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها قال الاخنس وأنا والذي حلفت به ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد قال ماذا سمعت قال تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى اذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذه والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه قال فقام عنه الاخنس وتركه وروى ابن جرير من طريق أسباط عن السدي في قوله قد نعلم انه ليحزنك الذي يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون لما كان يوم بدر قال الاخنس ابن شريق لبني زهرة يا بني زهرة ان محمدا ابن أختكم فأنتم أحق من ذب عن ابن أخته فانه ان كان نبيا لم تقاتلوه اليوم وان كان كاذبا فأنتم أحق من كف عن ابن أخته قفوا حتى ألقى ودفع أبا الحكم فان غلب محمد رجعتم سالمين وان غلب محمد فان قومكم لم يصنعوا بكم شيأ فيومئذ سمي الاخنس وكان اسمه أبي فالتقى الاخنس وأبو جهل فخلا الاخنس بأبي جهل فقال يا أبا الحكم اخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب فانه ليس ههنا من قريش غيري وغيرك يستمع كلامنا فقال أبو جهل ويحك والله ان محمدا الصادق وما كذب محمد قط ولكن اذا ذهبت بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش فذلك قوله فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون فآيات الله محمد صلى الله عليه وسلم وقوله ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا هذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم

عمل عامل منكم والتعبير عنه بالظلم مع أن الاعمال غير موجبة للثواب حتى يكون ترك ترتيبه عليها ظلما لبيان كمال نزاهته سبحانه عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح وابراز الاثابة في معرض الامور الواجبة عليه تعالى (وان جنحوا للسلم فاجنح لها) أي ان مالوا الى المصالحة فاقبل منهم الصلح وملْ الى المصالحة والجنوح الميل يقال جنح الرجل الى الرجل مال اليه ومنه قيل للاضالع الجوانح لانها مالت الى الحشوة وجنحت الابل اذا مالت أعناقها في السير ويقال جنح الليل أقبل قال النضر بن شميل جنح الرجل الى فلان ولفلان اذا خضع له والجنوح الاتباع أيضا لتضمنه الميل والجناح من ذلك لميلانه الى الطائر والسلم الصلح قرئ بالكسر والفتح وهما قراءتان سبعيتان وقرئ فاجنح بضم النون وبالفتح والاولى لغة قيس والثانية لغة تميم قال ابن جني ولغة قيس هي القياس والسلم يذكر ويؤنث كما يؤنث الحرب اذ هي مؤولة بالخصلة أو الفعلة وعن مجاهد قال وان جنحوا يعني قريظة وعن ابن عباس قال السلم الطاعة وقد اختلف أهل العلم هل هذه الآية منسوخة أم محكمة فقيل هي منسوخة بقوله فاقتلوا المشركين قاله ابن عباس وقيل ليست بمنسوخة لان المراد بها قبول الجزية وقد قبلها منهم الصحابة فمن بعدهم فتكون خاصة بأهل الكتاب قاله مجاهد وقيل ان المشركين ان دعوا الى الصلح جاز أن يجابوا اليه وتمسك المانعون من مصالحة المشركين بقوله تعالى ولا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الاعلون والله معكم وقيدوا عدم الجواز بما اذا كان المسلمون في عزة وقوة لا اذا لم يكونوا كذلك فانه جائز كما وقع منه صلى الله عليه وآله وسلم من مهادنة قريش ومازالت الخلفاء والصحابة على ذلك وهذا كله مبني على أن المراد بالصلح هو عقد الجزية أم لا وأريد غيره من العقود التي تفيدهم الامن وهي الهدنة والامان فلا نسخ مطلقا اذ يصح عقدهما لكل كافر وكلام أهل العلم في هذه المسئلة معروف مقرر في مواطنه (وتوكل على الله) في جنوحك للسلم ولا تخف من مكرهم وفوض أمرك اليه فيما عقدته معهم ليكون ذلك عونا لك في جميع أحوالك (انه) سبحانه (هو السميع) لما يقولون (العليم) بما يفعلون (وان يريدوا أن يخدعوك) بالصلح وهم مضمرون الغدر والخدع وجواب الشرط محذوف أي فصالحهم ولا تخش منهم (فان) أي لأن (حسبك الله) أي كافيك بنصره ومعونته ما تخافه من شرورهم بالنكث والغدر

وتعزية له صلى الله عليه وسلم فيمن كذبه من قومه وأمر له بالصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ووعد له بالنصر كما نصروا بالظفر كما كانت لهم العاقبة بعدما نالهم من التكذيب من قومهم من الأذى البليغ ثم جاءهم النصر في الدنيا كما لهم النصر في الآخرة ولهذا قال ولا مبدل لكلمات الله التي كتبها بالنصرة في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين كما قال ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون وقال تعالى كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ان الله قوي عزيز وقوله ولقد جاءك من نبإ المرسلين أي من خبرهم كيف نصروا وأيدوا على من كذبهم من قومهم فلك فيهم اسوة (٥١) وبهم قدوة ثم قال تعالى وان كان كبر عليك اعراضهم أي ان كان شق عليك اعراضهم عنك فان استطعت أن تبتغي نفقا في الارض أو سلما في السماء قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس النفق السرب فتذهب فيه فتأتيهم بآية أو تجعل لهم سلما في السماء فتصعد فيه فتأتيهم بآية أفضل مما آتيتهم به فافعل وكذا قال قتادة والسدي وغيرهما وقوله ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين كقوله تعالى ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا الآية قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ولو شاء الله لجمعهم على الهدى قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى فأخبر الله انه لا يؤمن الا من سبق له من الله السعادة في الذكر الاول وقوله تعالى انما يستجيب الذين يسمعون أي انما يستجيب لدعائك يا محمد من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه كقوله لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين وقوله والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون يعني بذلك الكفار لانهم موتى القلوب فشبههم الله بأموات الاجساد فقال والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون وهذا من باب التهكم بهم والازراء عليهم (وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل ان الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شئ ثم الى ربهم يحشرون والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) يقول تعالى مخبرا عن المشركين انهم كانوا يقولون لولا نزل عليه آية من ربه أي خارق على مقتضى ما كانوا يريدون ومما يتعنتون كقولهم لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا الآيات قل ان الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون أي هو تعالى قادر على ذلك

ودفع خديعتهم (هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين) تعليلية أي لا تخف من خدعهم ومكرهم فان الله الذي قواك عليهم بالنصر فيما مضى وهو يوم بدر هو الذي سينصرك ويقويك عليهم عند حدوث الخدع والنكث والمراد بالمؤمنين المهاجرون والانصار فان قلت اذا كان الله قد أيده بنصره فأي حاجة الى نصر المؤمنين حتى يقول وبالمؤمنين قلت التأييد والنصر من الله عز وجل وحده لكنه يكون بأسباب باطنة غير معلومة وبأسباب ظاهرة معلومة فاما الذي يكون بالاسباب الباطنة فهو المراد بقوله هو الذي أيدك بنصره لان أسبابه باطنة بغير وسائط معلومة واما الذي يكون بالاسباب الظاهرة فهو المراد بقوله وبالمؤمنين لان أسبابه ظاهرة بوسائط معلومة وهم المؤمنون والله تعالى هو مسبب الاسباب وهو الذي أقامهم لنصره ثم بين كيف كان تأييده بالمؤمنين فقال (وألف بين قلوبهم) وظاهره العموم وان ائتلاف قلوب المؤمنين هو من أسباب النصر التي أيد الله بها رسوله وقال جمهور المفسرين المراد الاوس والخزرج فقد كان بينهم عصبية شديدة وأنفة عظيمة وانطووا على الضغينة من أدنى شئ وحروب عظيمة وفتن من منذ مائة وعشرين سنة لا يكاد يأتلف منهم قلبان فألف الله بين قلوبهم بالايمان برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وانقلبت تلك الحالة واستجمعت كلمتهم وزالت حمية الجاهلية وأبدلت تلك الضغائن بالمحبة لله وفي الله واتفقوا على الطاعة وصاروا أنصار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأعوانا يقاتلون عنه ويحمونه وهذا مما لا يقدر عليه الا الله عز وجل وصار ذلك معجزة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ظاهرة باهرة دالة على صدقه وقيل أراد التأليف بين المهاجرين والانصار والحمل على العموم أولى فقد كانت العرب قبل البعثة المحمدية يأكل بعضهم بعضا ولا يحترم ماله ولا دمه حتى جاء الاسلام فصاروا يدا واحدة وذهب ما كان بينهم من العصبية والانفة والحمية الجاهلية (لو أنفقت ما في الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم) مقررة لمضمون ما قبلها والمعنى أن ما كان بينهم من العصبية والعداوة قد بلغ الى حد لا يمكن دفعه بحال من الاحوال ولو أنفق الطالب له جميع ما في الارض لم يتم له طلبه من التأليف لان أمرهم في ذلك قد تفاقم جدا (ولكن الله ألف بينهم) بعظيم قدرته وبديع صنعه وفيه دليل على أن القلوب بيد الله يصرفها كيف يشاء (انه عزيز) لا يغالبه مغالب ولا يستعصي عليه أمر من الامور (حكيم) في تدبيره ونفوذ أمره

ولكن حكمته تعالى تقتضي تأخير ذلك لانه لو أنزلها وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا لعوجلوا بالعقوبة كما فعل بالامم السالفة كما قال تعالى وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات الا تخويفا وقال تعالى ان نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين وقوله وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم قال مجاهد أي أصناف مصنفة تعرف بأسمائها وقال قتادة الطير أمة والانس أمة والجن أمة وقال السدي الا أمم أمثالكم أي خلق أمثالكم وقوله ما فرطنا في الكتاب من شيء (٥٢) أي الجميع علمهم عند الله ولا ينسى واحدا من جميعها من رزقه وتدبيره سواء كان بريا أو بحريا كقوله وما من دابة في الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين أي مفصح بأسمائها وأعدادها ومظانها وحاصر لحركاتها وسكناتها وقال تعالى وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها واياكم وهو السميع العليم وقد قال الحافظ أبو يعلى حدثنا محمد المثنى حدثنا عبيد بن واقد القيسي أبو عباد حدثني محمد ابن عيسى بن كيسان حدثنا محمد ابن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال قل الجراد في سنة من سني عمر رضي الله عنه التي ولي فيها فسأل عنه فلم يخبر بشيء فاغتم لذلك فأرسل راكبا الى كذا وآخر الى الشام وآخر الى العراق يسأل هل رؤي من الجراد شيء أم لا فأتاه الراكب الذي من قبل اليمن بقبضة جراد فألقاها بين يديه فلما رآها كبر ثلاثا ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول خلق الله عز وجل ألف أمة منها ستمائة في البحر وأربعمائة في البر وأول شيء يهلك من هذه الامم الجراد فاذا هلكت تتابعت مثل النظام اذا قطع سلكه وقوله ثم الى ربهم يحشرون قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس في قوله ثم الى ربهم يحشرون قال حشرها الموت وكذا رواه ابن جرير من طريق اسرائيل عن سعيد ومسروق عن عكرمة عن ابن عباس قال موت البهائم حشرها وكذا رواه العوفي عنه قال ابن أبي حاتم وروي عن مجاهد والضحاك مثله والقول الثاني ان حشرها هو بعثها يوم القيامة لقوله واذا الوحوش حشرت وقال الامام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن سليمان عن منذر الثوري عن أشياخ لهم عن أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين ينتطحان فقال يا أبا

ونهيه وعن ابن مسعود قال ان هذه الآية نزلت في المتحابين في الله وهذا يدل على أن التأليف المذكور هو بين المؤمنين الذين أيد الله بهم رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وفيه رد على الرافضة حيث اعتقدوا في الصحابة ما يخالف تأليف الله تعالى بينهم وأخرج ابن عساكر عن أبي هريرة قال مكتوب على العرش لا اله الا الله أنا الله وحدي لا شريك لي محمد عبدي ورسولي أيدته بعلي وذلك قوله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين والله أعلم (يا أيها النبي حسبك الله) في كل شيء وعند كل مهم ليس هذا تكريرا لما قبله فان الاول مقيد بارادة الخدع وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله فتلك كفاية خاصة وفي هذه كفاية عامة غير مقيدة أي حسبك الله في كل حال فيما بينك وبين الكفرة من الحراب والواو في قوله (ومن اتبعك من المؤمنين) يحتمل أن تكون للعطف على الاسم الجليل والعلم الشريف على انه في محل الرفع والمعنى حسبك الله وحسبك المؤمنون أي كافيك الله وكافيك المؤمنون قال علي المهايمي في تفسيره تبصير الرحمن حسبك الله وان لم يكن معك أحد وان نظرت الى السببية حسبك من اتبعك من المؤمنين وان لم يألفهم من لم يتم اتباعهم لك فان لمتابعتك أثرا عظيما في سببية النصر اه وقال أبو السعود والقاضي الجملة في محل النصب على أنه مفعول معه أي كفاك وكفى اتباعك الله ناصرا كقوله

اذا كانت الهيجاء وانشقت العصا * فحسبك والضحاك عضب مهند

انتهى واختاره النحاس وقال الفراء انه يقدر نصبه على موضع الكاف واختاره ابن عطية ورده السفاقسي بأن اضافته حقيقية لا لفظية فلا محل له اللهم الا أن يكون من عطف التوهم وكونه مفعولا معه ذكره الزجاج وقال أبو حيان انه مخالف لكلام سيبويه فانه جعل زيدا في قولهم حسبك وزيدا درهم منصوبا بفعل مقدر أي وكفى زيدا درهم وهو من عطف الجمل عنده لا يضرنا وذكره الفراء في تفسيره وقيل في محل الجر عطفا على الضمير أي اسم الله تعالى أي كافيك وكافي المؤمنين الله لان عطف الظاهر على المضمر في مثل هذه الصورة ممتنع عند البصريين كما تقرر في علم النحو وأجازه الكوفيون ووجه المانعين انه كجزء الكلمة فلا يعطف عليه قال الفراء ليس بكثير في كلامهم أن تقول حسبك وأخيك بل المستعمل أن تقول حسبك وحسب أخيك باعادة الجار فلو كان قوله ومن اتبعك مجرورا لقيل حسبك الله وحسب من اتبعك وبه قال الشعبي وقال شيخ

الاسلام

ذرّ هل تدرى فيم ينتطحان قال لا قال لكن الله يدرى وسيقضى بينهما ورواه عبد الرزاق عن معمر عن الاعمش عمن ذكره عن أبى ذر قال بينا انا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا انتطحت عنزان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتدرون فيم انتطحتا قالوا لا ندرى قال لكن الله يدرى وسيقضى بينهما رواه ابن جرير من طريق منذر الثورى عن أبى ذر فذكره وزاد قال أبو ذر ولقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يقلب طائر جناحيه فى السماء الا ذكر لنا منه علما وقال عبد الله ابن الامام أحمد فى مسند أبيه حدثنى عباس بن محمد وأبو يحيى البزار قالا حدثنا حجاج بن نصر حدثنا (٥٣) شعبة عن العوام بن مزاحم من بنى قيس بن ثعلبة عن أبى عثمان النهدى عن عثمان رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الجماء لتقتص من القرناء يوم القيامة وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن جعفر ابن برقان عن يزيد بن الاصم عن أبى هريرة فى قوله الا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شئ ثم الى ربهم يحشرون قال يحشر الخلق كلهم يوم القيامة الدواب والبهائم والطير وكل شئ فيبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذ للجماء من القرناء ثم يقول كونى ترابا فلذلك يقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا وقد روى هذا مرفوعا فى حديث الصور وقوله والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات أى مثلهم فى جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصم وهو الذى لا يسمع أبكم وهو الذى لا يتكلم وهو مع هذا فى ظلام لا يبصر فكيف يهتدى مثل هذا الى الطريق أو يخرج مما هو فيه كقوله مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون وكما قال أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ولهذا قال من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم أى هو المتصرف فى خلقه بما يشاء

الاسلام أحمد بن تيمية رضى الله عنه أى وحده حسبك وحسب المؤمنين الذين اتبعوك ومن قال ان المعنى ان الله والمؤمنين حسبك فقد ضل بل قوله من جنس الكفر فان الله وحده هو حسب كل عبد مؤمن والحسب الكافى كما قال تعالى أليس الله بكاف عبده وقال تعالى وقالوا حسبنا الله ولم يقل ورسوله وقالوا انا الى الله راغبون ولم يقل هنا والى رسوله اه وضعف فى الهدى النبوى رفعه عطفا على اسم الله وقال انما هو عطف على الكاف فان المعنى عليه قال الخفاجى ولا وجه له فان الفراء والكسائى رجحاه وما قبله وما بعده يؤيده اه قلت وليس كما ينبغى فتأمل وقيل يجوز أن يكون التقدير ومن اتبعك من المؤمنين حسبهم الله فحذف الخبر وعبارة البغوى فى المعالم اختلفوا فى محل من فقال أكثر المفسرين محله خفض عطفا على الكاف فى قوله حسبك معناه حسبك الله وحسب من اتبعك اه قال الزهرى نزلت فى الانصار وقيل فى جميع المهاجرين والانصار وقال سعيد بن جبير لما أسلم مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ثم أسلم عمر نزلت هذه الآية وعن ابن عباس نحوه قال الشيخ معين الدين فى جامع البيان اعترض عليه بأن الانفال كلها مدنية واسلام عمر قبل الهجرة فلا يصح هذا اه لكن قال الخازن وسليمان الجمل ان هذه الآية مكية كتبت فى سورة مدنية بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقيل نزلت بالبيداء فى غزوة بدر قبل القتال (يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال) أى حثهم وحضهم والتحريض فى اللغة المبالغة فى الحث على الشئ بكثرة الترغيب وتسهيل الخطب فيه كأنه فى الاصل ازالة الحرض وهو الهلاك وهو كالتحضيض مأخوذ من الحرض وهو أن ينهكه المرض ويتبالغ فيه حتى يشفى على الموت كأنه ينسبه الى الهلاك لو تخلف عن المأمور به ثم بشرهم تثبيتا لقلوبهم وتسكينا لخواطرهم بأن الصابرين منهم فى القتال يغلبون عشرة أمثالهم من الكفار فقال (ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) أى فيهم قوة وشجاعة فالمقاومة مدارها على العدد مع مراعاة المعنى لا على العدد وحده كما هو مقرر فى الفروع وفى البحر انظر الى فصاحة هذا الكلام حيث أثبت فى الشرطية الاولى قيد الصبر وحذف نظيره من الثانية وأثبت فى الثانية قيد كونهم من الكفرة وحذفه من الاولى وهو غاية الفصاحة وقال الخفاجى ولما كان الصبر شديد المطلوبية أثبت فى جملتى التخفيف وحذف من

(قل أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون ان كنتم صادقين بل اياه تدعون فيكشف ما تدعون اليه ان شاء وتنسون ما تشركون ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ حتى اذا

فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ۝ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) يخبر تعالى أنه الفعال لما يريد المتصرف في خلقه بما يشاء وأنه لا معقب لحكمه ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه بل هو وحده لا شريك له الذي إذا سئل يجيب لمن يشاء ولهذا قال قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أي أتاكم هذا أو هذا أغير الله تدعون إن كنتم صادقين أي لا تدعون غيره لعلمكم أنه لا يقدر أحد على دفع ذلك سواه ولهذا قال إن كنتم صادقين أي في اتخاذكم آلهة معه بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون (٥٤) إليه إن شاء وتنسون ما تشركون أي في وقت الضرورة لا تدعون أحدا سواه وتذهب عنكم أصنامكم وأندادكم كقوله وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه الآية وقوله ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء يعني الفقر والضيق في العيشة والضراء وهي الأمراض والأسقام والآلام لعلهم يتضرعون أي يدعون الله ويتضرعون إليه ويخشعون قال الله تعالى فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا أي فهلا إذا ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا وتمسكنوا إلينا ولكن قست قلوبهم أي ما رقت ولا خشعت وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون أي من الشرك والمعاندة والمعاصي فلما نسوا ما ذكروا به أي أعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم فتحنا عليهم أبواب كل شيء أي فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم عياذا بالله من مكره ولهذا قال حتى إذا فرحوا بما أوتوا أي من الأموال والأولاد والأرزاق أخذناهم بغتة أي على غفلة فإذا هم مبلسون أي آيسون من كل خير قال الوالبي عن ابن عباس المبلس الآيس قال الحسن البصري من وسع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأي له ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر له فلا رأي له ثم قرأ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون الآية قال الحسن مكر بالقوم ورب الكعبة أعطوا حاجتهم ثم أخذوا رواه ابن أبي حاتم وقال قتادة بغت القوم أمر الله وما أخذ الله قوما قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم فلا تغتروا بالله فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون رواه ابن أبي حاتم أيضا وقال مالك عن الزهري فتحنا عليهم أبواب كل شيء قال رخاء الدنيا ويسرها وقد قال الإمام أحمد حدثنا يحيى

الثانية الدلالة السابقة عليه ثم ختمت بقوله والله مع الصابرين مبالغة في شدة المطلوبية ولم يأت في جانب التخفيف بقيد الكفر اكتفاء بما قبله قلت هذا نوع من البديع يسمى الاحتباك وبقي عليه أنه ذكر في التخفيف بإذن الله وهو قيد لهما وقوله والله مع الصابرين إشارة إلى تأييدهم وأنهم منصورون حتما لأن من كان الله معه لا يغلب وبقي فيها لطائف فلله در التنزيل ما أحلى ما فصاحته وأنضر رونق بلاغته ثم زاد هذا إيضاحا مفيدا لعدم اختصاص هذه البشارة بهذا العدد بل هي جارية في كل عدد فقال (وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا) وفي هذا دلالة على أن الجماعة من المؤمنين قليلا كانوا أو كثيرا لا يغلبهم عشرة أمثالهم من الكفار بحال من الأحوال وقد وجد في الخارج ما يخالف ذلك فكم من طائفة من طوائف الكفار يغلبون من هو مثل عشرهم من المسلمين بل مثل نصفهم بل مثلهم وأجيب عن ذلك بأن وجود هذا في الخارج لا يخالف ما في الآية لاحتمال أن لا تكون الطائفة من المؤمنين متصفة بصفة الصبر عند اللقاء وقيل إن هذا الخبر الواقع في الآية هو في معنى الأمر كقوله تعالى والوالدات يرضعن أولادهن والمطلقات يتربصن فالمؤمنون كانوا مأمورين من جهة الله سبحانه بأن يثبت الجماعة منهم لعشرة أمثالهم وفي الخطيب حاصل هذه العبارة المطولة أن الواحد يثبت للعشرة فما الفائدة في العدول إلى تلك أجيب بأن هذا إيماء ورد على وفق الواقعة فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبعث السرايا والغالب أن تلك السرايا ما كان ينقص عددها عن العشرين وما كانت تزيد على المائة فلهذا المعنى ذكر الله هذين العددين (بأنهم قوم لا يفقهون) أي إن هذا الغلب بسبب جهلهم بالله وباليوم الآخر وعدم فقههم وأنهم يقاتلون على غير بصيرة ولا يقاتلون احتسابا وامتثالا لأمر الله تعالى وإعلاء لكلمته وابتغاء لرضوانه كما يفعله المؤمنون وإنما يقاتلون للحمية الجاهلية واتباع خطوات الشيطان وإثارة ثائرة البغي والعدوان ومن كان هكذا فهو مغلوب في الغالب ثم لما شق ذلك عليهم واستعظموه خفف عنهم ورخص لهم لما علمه سبحانه من وجود الضعف فيهم فقال (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا) عن قتال عشرة أمثالكم قرئ بضم الضاد وفتحها (فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين) منهم (وإن يكن

منكم

ابن غيلان حدثنا رشدين بن سعد أبو الحجاج المهدي عن حرملة بن عمران التجيبي عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فانما هو استدراج ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث حرملة وابن لهيعة عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر به وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام بن عمار حدثنا عراك بن خالد بن يزيد حدثني أبي عن ابراهيم بن

أبي عبلة عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول اذا أراد الله بقوم اقتطاعا فتح لهم أو فتح عليهم باب خيانة حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون كما قال فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ورواه أحمد وغيره (قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من اله غير الله يأتيكم به انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون قل أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك الا القوم الظالمون وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون) يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم قل لهؤلاء المكذبين المعاندين أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم اى سلبكم اياها كما اعطاكموها كما قال تعالى قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والابصار الآية ويحتمل أن يكون هذا عبارة عن منع الانتفاع بهما النفع الشرعي ولهذا قال وختم على قلوبكم كما قال أمن يملك السمع والابصار وكقوله واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه وقوله من اله غير الله يأتيكم به اى هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك اليكم اذا سلبه الله منكم لا يقدر على ذلك أحد سواه ولهذا قال انظر كيف نصرف الآيات اى نبينها ونوضحها ونفسرها دالة على انه لا اله الا الله وان ما يعبدون من دونه باطل وضلال ثم هم يصدفون أى ثم هم مع هذا البيان يصدفون أى يعرضون عن الحق ويصدون الناس عن اتباعه قال العوفي عن ابن عباس يصدفون أي يعدلون وقال مجاهد وقتادة يعرضون وقال السدي يصدون وقوله تعالى قل أرأيتكم ان

منكم ألف يغلبوا ألفين) فأوجب على الواحد أن يثبت لاثنين من الكفار قال سفيان وابن شبرمة وأرى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل هذا ان كانا رجلين أمرهما وان كانوا ثلاثة فهو في سعة من تركهم وقد قيل في نكتة التنصيص على غلب المائة للمائتين والالف للالفين انه بشارة للمسلمين بأن عساكر الاسلام سيجاوز عددها العشرات والمئات الى الالوف ثم أخبرهم بأن هذا الغلب هو (باذن الله) وتسهيله وتيسيره وارادته لا بقوتهم وجلادتهم ثم بشرهم بأنه مع الصابرين فقال (والله مع الصابرين) بعونه وفيه الترغيب الى الصبر والتأكيد عليهم بلزومه والتوصية به وأنه من أعظم أسباب النجاح والفلاح والنصر والظفر لان من كان الله معه لم يستقم لاحد أن يغلبه وعن النصراباذي ان هذا التخفيف كان للامة دون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو الذي يقول بك أصول وبك أجول ومن كان كذا لا يثقل عليه شيء حتى يخفف وقد اختلف أهل العلم هل هذا التخفيف نسخ أم لا ولا يتعلق بذلك كثير فائدة (ما كان) أي ما صح وما استقام (لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الارض) هذا حكم آخر من أحكام الجهاد والاسرى جمع أسير مثل قتلى وقتيل وجرحى وجريح ويقال في جمع أسير أسارى وهو مأخوذ من الاسر وهو القد لانهم كانوا يشدون به الاسير فسمي كل أخيذ وان لم يشد بالقد أسيرا وقال أبو عمرو بن العلاء الاسرى هم غير الموثقين عندما يؤخذون والاسارى هم الموثقون ربطا والاثخان كثرة القتل والمبالغة فيه تقول العرب أثخن فلان في هذا الامر أي بالغ فيه فالمعنى ما كان لنبي أن يكون له اسرى حتى يبالغ في قتل الكافرين ويستكثر من ذلك وقيل معنى الاثخان التمكن وقيل هو القوة وقيل الثخانة هي الغلظة والصلابة فاستعمل هنا في لازم المعنى الاصلي وهو القوة اللازمة وأثخن في الارض اثخانا سار الى العدو وأوسعهم قتلا وأثخنته أوهنته بالجراحة وأضعفته وعن ابن عباس حتى يثخن حتى يظهر على الارض وعن مجاهد قال الاثخان هو القتل أخبر الله سبحانه ان قتل المشركين يوم بدر كان أولى من أسرهم وفدائهم ثم لما كثر المسلمون رخص الله في ذلك فقال فاما منا بعد واما فداء كما يأتي في سورة القتال قال الرازي ان هذا الكلام يوهم ان قوله فاما منا بعد وأما فداء يزيل حكم الآية التي نحن في تفسيرها وليس الامر كذلك لان كلتا الآيتين متوافقتان وكلتاهما تدلان على انه لابد من تقديم الاثخان ثم بعده أخذ

أنا كم عذاب الله بغتة أو جهرة اى وأنتم لا تشعرون به حتى بغتكم وفجأكم أو جهرة اى ظاهرا عيانا هل يهلك الا القوم الظالمون اى انما كان يحيط بالظالمين أنفسهم بالشرك بالله وينجو الذين كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون كقوله الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم الآية وقوله وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين أى مبشرين عباد الله المؤمنين بالخيرات ومنذرين من كفر بالله النقمات والعقوبات ولهذا قال فمن آمن وأصلح أى فمن آمن قلبه بما جاء وأصلح عمله باتباعه اياهم فلا خوف عليهم أى بالنسبة (٥٦) لما يستقبلونه ولا هم يحزنون اى بالنسبة الى مافاتهم وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وصنيعها الله وليهم فيما خلفوه وحافظهم فيما تركوه ثم قال والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون اى ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرسل وخرجوا عن أوامر الله وطاعته وارتكبوا محارمه ومناهيه وانتهاك حرماته (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم انى ملك ان أتبع الا ما يوحى الى قل هل يستوى الاعمى والبصير أفلا تتفكرون وأنذر به الذين يخافون ان يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شئ وما من حسابك عليهم من شئ فتطردهم فتكون من الظالمين وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم) يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم قل لا أقول لكم عندى خزائن الله اى لست أملكها ولا التصرف فيها لمنصب ولا أعلم الغيب أى ولا أقول انى أعلم الغيب اى ماغاب من علم الله عز وجل انما ذاك من علم الله عز وجل لا أطلع منه الا على ما أطلعنى عليه ولا أقول لكم انى ملك اى ولا أدعى انى ملك انما أنا بشر من البشر ان أتبع الا ما يوحى الى من الله عز وجل شرفنى بذلك وأنعم على به ولهذا قال ان أتبع الا ما يوحى الى اى لست أخرج عنه قيد شبر ولا أدنى منه قل هل يستوى الاعمى والبصير أى هل يستوى من اتبع الحق وهدى اليه ومن ضل عنه فلم ينقد له أفلا تتفكرون وهذه كقوله تعالى أفمن يعلم انما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى انما يتذكر

الفداء انتهى وقال غيره لا تظهر دعوى النسخ من أصلها اذ النهى الضمنى كما هنا مقيد ومغيا بالاثخان أى كثرة القتال اللازمة لها قوة الاسلام وعزته وما فى سورة القتال من التخيير محله بعد ظهور شوكة الاسلام بكثرة القتال فلا تعارض بين الآيتين اذ ما هنالك بيان للغاية التى هنا (تريدون عرض الدنيا) الخطاب لاصحاب النبى صلى الله عليه وسلم والمراد بعرض الدنيا نفعها ومتاعها بما قبضوا من الفداء وسمى عرضا لانه سريع الزوال كما تزول الاعراض التى هى مقابلة الجواهر قال قتادة أراد أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يوم بدر الفداء ففادوهم بأربعة آلاف درهم وقيل كان الفداء لكل أسير أربعين أوقية والاوقية أربعون درهما فيكون مجموع ذلك ألفا وستمائة درهم وعن عكرمة قال عرض الدنيا الخراج (والله يريد) لكم الدار (الآخرة) بما يحصل لكم من الثواب فى الاثخان بالقتل والمراد بالارادة هنا الرضاء وعبر بها للمشاكلة فلا يرد أن الآية تدل على عدم وقوع مراد الله وهو خلاف مذهب أهل السنة قاله الشهاب (والله عزيز) لا يغالب (حكيم) فى أفعاله وقد استدل بهذه الآية من يقدح فى عصمة الانبياء واشتغل المفسرون برده وجوابه وما أقل فائدة ذلك (لولا كتاب) أى حكم مكتوب ومثبت فى اللوح المحفوظ (من الله سبق) اختلف المفسرون فى هذا الكتاب الذى سبق ما هو على أقوال الاول انه ما سبق فى علم الله من انه سيحل لهذه الامة الغنائم والاسرى بعد أن كانت محرمة على سائر الامم والثانى انه مغفرة الله لاهل بدر ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر كما فى الحديث الصحيح ان الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم القول الثالث هو انه لا يعذبهم ورسول الله فيهم كما قال تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم القول الرابع انه لا يعذب أحدا بذنب فعله جاهلا لكونه ذنبا القول الخامس انه ما قضاه الله من محو الصغائر باجتناب الكبائر القول السادس انه لا يعذب أحدا الا بعد تأكيد الحجة وتقديم النهى ولم يتقدم نهى عن ذلك وذهب ابن جرير الطبرى الى أن هذه المعانى كلها داخلة تحت اللفظ وانه يعمها (لمسكم) أى لحل بكم (فيما) اى لاجل ما (أخذتم) من الفداء (عذاب عظيم) وهذا عتاب له صلى الله عليه وسلم على ترك الاولى اذ كان الاولى له تدارك كثرة القتل فيهم لا الفداء وليس عتابا على فعل محرم تنزيها

أولوا الالباب وقوله وانذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع أي وانذر بالقرآن يا محمد الذين هم من خشية ربهم مشفقون الذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب الذين يخافون ان يحشروا الى ربهم أي يوم القيامة ليس لهم أي يومئذ من دونه ولي ولا شفيع أي لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه ان اراده بهم لعلهم يتقون أي انذر هذا اليوم الذي لا حاكم فيه الا الله عز وجل لعلهم يتقون فيعملون في هذه الدار عملا ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه وقوله تعالى ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي (٥٧) يريدون وجهه أي لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنك بل اجعلهم جلساءك واخصاءك كقوله واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا وقوله يدعون ربهم أي يعبدونه ويسألونه بالغداة والعشي قال سعيد بن المسيب ومجاهد والحسن وقتادة المراد به الصلاة المكتوبة وهذا كقوله وقال ربكم ادعوني استجب لكم أي أتقبل منكم وقوله يريدون وجهه أي يريدون بذلك العمل وجه الله الكريم وهم مخلصون فيما هم فيه من العبادات والطاعات وقوله ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء كقول نوح عليه السلام في الذين قالوا أنؤمن لك واتبعك الارذلون وما علمي بما كانوا يعملون ان حسابهم الا على ربي لو تشعرون أي انما حسابهم على الله عز وجل وليس علي من حسابهم من شيء كما انه ليس عليهم من حسابي من شيء وقوله فتطردهم فتكون من الظالمين أي

ان فعلت هذا والحالة هذه قال الامام أحمد حدثنا اسباط هو ابن محمد حدثني أشعث عن كردوس عن ابن مسعود قال مر الملأ من قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده خباب وصهيب وبلال وعمار فقالوا يا محمد أرضيت بهؤلاء فنزل عليه القرآن وانذر به الذين يخافون ان يحشروا الى ربهم الى قوله أليس الله بأعلم بالشاكرين ورواه ابن جرير من طريق أشعث عن كردوس عن ابن مسعود قال مر الملأ من قريش برسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده صهيب وبلال وعمار وخباب وغيرهم من ضعفاء المسلمين وفيه فقالوا يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا ونحن نصير تبعا

لمنصب النبوة عن ذلك وقد أخرج أحمد عن أنس قال استشار النبي صلى الله عليه وسلم الناس في الاسارى يوم بدر فقال ان الله قد أمكنكم منهم فقام عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله اضرب أعناقهم فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم عاد فقال مثل ذلك فقام أبو بكر الصديق فقال نرى ان تعفو عنهم وان تقبل منهم الفداء فعفا عنهم وقبل منهم الفداء فأنزل الله لولا كتاب من الله سبق الآية وفي الباب روايات كثيرة بطرق عديدة بالفاظ مختلفة وفي بعضها عند أحمد والترمذي وحسنه عن ابن مسعود فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللين وان الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة مثلك يا أبا بكر مثل ابراهيم عليه السلام قال من تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام اذ قال ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم ومثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام اذ قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا ومثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام اذ قال ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم الحديث روى انهم أمسكوا عن الغنائم فنزل (فكلوا) فالفاء لترتيب ما بعدها على سبب محذوف أي قد أبحت لكم الغنائم فكلوا (مما غنمتم) أو المعنى اتركوا الفداء فكلوا مما غنمتم من غيره وقيل ان ما عبارة عن الفداء أي كلوا من الفداء الذي غنمتم فانه من جملة الغنائم التي أحلها الله لكم أكلا ويأباه سياق النظم الكريم وسباقه (حلالا طيبا) أي أكلا حلالا أو النصب على الحال عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ولم تحل الغنائم لاحد قبلنا ثم أحل الله لنا وذلك بأن رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا أخرجه البخاري ومسلم (واتقوا الله) فيما يستقبل فلا تقدموا على شيء لم يأذن الله لكم به (ان الله غفور) لما فرط منكم (رحيم) بكم فلذلك رخص لكم في اخذ الفداء في مستقبل الزمان (يا أيها النبي) خاطب الله النبي صلى الله عليه وسلم بهذا أي (قل لمن) اي لهؤلاء الذين (في أيديكم من الاسرى) أسرتموهم يوم بدر وأخذتم منهم الفداء (ان يعلم الله في قلوبكم خيرا) من حسن ايمان وصلاح نية وخلوص طوية (يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) من الفداء أي يعوضكم

لهؤلاء اطردهم فلعلك ان طردتهم نتبعك فنزلت هذه الآية ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه وكذلك فتنا بعضهم ببعض الى آخر الآية وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد بن يحيى حدثنا سعيد القطان حدثنا عمرو بن محمد العنقزي حدثنا أسباط بن نصر عن السدي عن أبي سعيد الازدي وكان قارئ الازد عن أبي الكنود عن خباب في قول الله عز وجل ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي قال جاء الاقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعدا في ناس من الضعفاء من المؤمنين فلما رأوهم حول النبي صلى الله عليه وسلم حقروهم في نفر من أصحابه فأتوه فخلوا به وقالوا انا نريد أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا به العرب فضلنا فان وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هذه الاعبد فاذا نحن جئناك فأقمهم عنا فاذا نحن فرغنا فاقعد معهم ان شئت قال نعم قالوا اكتب لنا عليك كتابا قال فدعا بصحيفة ودعا عليا ليكتب ونحن قعود في ناحية فنزل جبريل فقال ولا تطرد الذين يدعون ربهم الآية فرمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصحيفة ثم دعانا فأتيناه ورواه ابن جرير من حديث أسباط به وهذا حديث غريب فان هذه الآية مكية والاقرع بن حابس وعيينة انما أسلما بعد الهجرة بدهر وقال سفيان الثوري عن المقدام ابن شريح عن أبيه قال قال سعد نزلت هذه الآية في ستة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم منهم ابن مسعود قال كنا نستبق الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وندنو منه ونسمع منه فقالت قريش تدني هؤلاء دوننا فنزلت ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي رواه الحاكم في مستدركه من طريق سفيان وقال على شرط الشيخين وأخرجه ابن حبان في صحيحه من طريق المقدام بن شريح وقوله كذلك فتنا بعضهم ببعض أي ابتلينا واختبرنا وامتحنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان غالب من اتبعه في أول بعثته ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والاماء ولم يتبعه من الاشراف الاقليل كما قال قوم نوح لنوح وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادي الرأي الآية وكما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان حين سأله عن تلك المسائل فقال له فأشراف الناس

في هذه الدنيا رزقا خيرا منه وأنفع لكم أو في الآخرة بما يكتبه لكم من المثوبة بالاعمال الصالحة (ويغفر لكم) ذنوبكم (والله غفور رحيم) شأنه المغفرة لعباده والرحمة بهم وقد أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن عائشة قالت لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في فداء أبي العاص وبعثت فيه بقلادة فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رق رقة شديدة وقال ان رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وقال العباس اني كنت مسلما يا رسول الله قال الله أعلم باسلامك فان يكن كما تقول فالله يجزيك فافد نفسك وابني أخويك نوفل بن الحرث وعقيل بن أبي طالب وحليفك عتبة بن عمرو ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه ونزلت قل لمن في أيديكم من الاسرى الآية الحديث مختصرا والروايات في هذا الباب كثيرة قال العباس فأبدلني الله خيرا مما أخذ مني عشرين عبدا كلهم تاجر يضرب بمال كثير أدناهم يضرب بعشرين ألف درهم مكان عشرين أوقية وأعطاني زمزم وأنا أنتظر المغفرة ولما ذكر ماذكر من العوض لمن علم في قلبه خيرا ذكر من هو على ضد ذلك منهم فقال (وان يريدوا خيانتك) بما قالوه لك بألسنتهم من أنهم قد آمنوا بك وصدقوك ولم يكن ذلك منهم عن عزيمة صحيحة ونية خالصة بل هو مماكرة ومخادعة فليس ذلك بمستبعد منهم فانهم قد فعلوا ما هو أعظم منه (فقد خانوا الله من قبل) أي من قبل أن يظفرهم بهم فكفروا به وقاتلوا رسوله (فأمكن منهم) بأن نصرك عليهم في يوم بدر فقتلت منهم من قتلت وأسرت من أسرت (والله عليم) بما في ضمائرهم (حكيم) في أفعاله بهم (ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) ختم الله سبحانه هذه السورة بذكر الموالاة ليعلم كل فريق وليه الذي يستعين به وسمى سبحانه المهاجرين الى المدينة بهذا الاسم لانهم هجروا أوطانهم وفارقوها طلبا لما عند الله واجابة لداعيه وسبقوا الهجرة بأن هاجروا قبل العام السادس عام الحديبية بدليل قوله فيما يأتي والذين آمنوا من بعد بأن هاجروا بعد عام الحديبية وقبل الفتح (والذين آووا) هم الانصار آووا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه من المهاجرين وأسكنوهم منازلهم وبذلوا لهم أموالهم وآثروهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (ونصروا) رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والاشارة بقوله (أولئك) الى الموصول الاول والآخر وخبره الجملة المذكورة بعده (بعضهم أولياء بعض) في النصرة والمعونة

يتبعونه أم ضعفاؤهم فقال بل ضعفاؤهم فقال هم أتباع الرسل والغرض أن مشركي قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم ويعذبون من يقدرون عليه منهم وكانوا يقولون أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أي ما كان الله ليهدي هؤلاء الى الخير لو كان ما صاروا اليه خيرا ويدعنا كقولهم لو كان خيرا ما سبقونا اليه وكقوله تعالى واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا قال الله تعالى في جواب ذلك وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا وقال في جوابهم حين قالوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين أي أليس هو أعلم (٥٩) بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم فيوفقهم ويهديهم سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم كما قال تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين وفي الحديث الصحيح ان الله لا ينظر الى صوركم ولا الى ألوانكم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين عن حجاج عن ابن جريج عن عكرمة في قوله وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم الآية قال جاء عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ومطعم بن عدي والحرث بن نوفل وقرظة بن عمرو بن نوفل في أشراف من بني عبد مناف من أهل الكفر الى أبي طالب فقالوا له لو أن ابن أخيك محمدا يردعنا موالينا وحلفاءنا فانما هم عبيدنا وعتقاؤنا كان أعظم في صدورنا وأطوع له عندنا وأدنى لاتباعنا اياه وتصديقنا له قال فأتى أبو طالب النبي صلى الله عليه وسلم فحدثه بذلك فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لو فعلت ذلك حتى تنظر ما الذي يريدون والى ما يصيرون من قولهم فأنزل الله عز وجل هذه الآية وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم الى قوله أليس الله بأعلم بالشاكرين قال وكانوا بلالا وعمار بن ياسر وسالما مولى أبي حذيفة وصبيحا مولى أسيد ومن الحلفاء ابن مسعود والمقداد بن عمرو ومسعود بن القاري وواقد بن عبد الله الحنظلي وعمرو بن عبد عمرو وذو الشمالين ويزيد بن أبي يزيد بن غني حليف حمزة بن عبد المطلب وأشباههم من الحلفاء ونزلت في أئمة الكفر من قريش والموالي والحلفاء وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا الآية فلما نزلت أقبل عمر رضي الله عنه فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فاعتذر من مقالته فأنزل الله عز وجل واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا الآية

والمعونة وقيل في الميراث وقد كانوا يتوارثون بالهجرة والنصرة ثم نسخ ذلك بقوله سبحانه وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض (والذين آمنوا ولم يهاجروا) من مكة بل أقاموا بها (ما لكم من ولايتهم) بفتح الواو وكسرها أي من نصرتهم واعانتهم أو من ميراثهم (من شيء) ولو كانوا من قراباتكم لعدم وقوع الهجرة منهم فلا ارث بينكم وبينهم (حتى يهاجروا) الى المدينة فيكون لهم ما كان للطائفة الاولى الجامعين بين الايمان والهجرة (وان استنصروكم في الدين) أي هؤلاء الذين آمنوا ولم يهاجروا اذا طلبوا منكم النصرة لهم على المشركين (فعليكم) أي فواجب عليكم (النصر) قال الزجاج ويجوز النصر بالنصب على الاغراء أثبت للقسمين الاولين النصرة والارث ونفى عن هذا القسم الارث وأثبت له النصرة (الا) أن يستنصروكم (على قوم بينكم وبينهم ميثاق) عهد فلا تنصروهم عليهم ولا تنقضوا العهد الذي بينكم وبين أولئك القوم حتى تنقضي مدته وهي عشر سنين (والله بما تعملون بصير) تحذير عن تعدي حد الشرع الشريف

(والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) أي بعضهم ينصر بعضا ويتولاه في أموره أو يرثه اذا مات وفيه تعريض للمسلمين بأنهم لا يناصرون الكفار ولا يتولونهم وهذا مفهومه ومفيد لنفي الموارثة والموازرة بينهم وبين المسلمين وايجاب المباعدة والمصارمة وان كانوا أقارب (الا تفعلوه) الضمير يرجع الى ما أمروا به قبل هذا من موالاة المؤمنين ومناصرتهم على التفصيل المذكور وترك موالاة الكافرين (تكن) أي تقع (فتنة في الارض) ان لم تفعلوا ذلك وهي قوة الكفار (وفساد كبير) أي مفسدة كبيرة في الدين والدنيا وهو ضعف المسلمين ثم بين سبحانه حكما آخر يتعلق بالمؤمنين المهاجرين المجاهدين في سبيل الله والمؤمنين الذين آووا من هاجر اليهم ونصروهم وهم الانصار فقال (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا) أي صدقا من غير ريب دون من آمن وسكن دار الشرك وفي الحديث المتفق على صحته بل المتواتر المرء مع من أحب ونصب حقا على المصدر المؤكد أو تقديره ايمانا حقا قاله في جامع البيان وقال أبو السعود كلام مسوق للثناء عليهم والشهادة لهم بفوزهم بالقدح المعلى من الايمان مع الوعد الكريم اهـ والحاصل انهم هم الكاملون في الايمان لانهم حققوه بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن ومفارقة الاهل والسكن والانسلاخ من المال والدنيا لاجل

وقوله واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم أي فاكرمهم برد السلام عليهم وأخبرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم ولهذا قال كتب ربكم على نفسه الرحمة أي أوجبها على نفسه تفضلا منه واحسانا وامتنانا انه من عمل منكم سوأ بجهالة قال بعض السلف كل من عصى الله فهو جاهل وقال معتمر بن سليمان عن الحكم بن أبان عن عكرمة في قوله عمل منكم سوأ بجهالة قال الدنيا كلها جهالة رواه ابن أبي حاتم ثم تاب من بعده وأصلح أي رجع عما كان عليه من المعاصي وأقلع وعزم على أن لا يعود وأصلح العمل في المستقبل فانه غفور رحيم قال الامام أحمد (٦٠) حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال هذا ما حدثنا أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قضى الله على الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش ان رحمتي غلبت غضبي أخرجاه في الصحيحين وهكذا رواه الاعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة ورواه موسى بن عقبة عن الاعرج عن أبي هريرة وكذا رواه الليث وغيره عن محمد بن عجلان عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي بذلك وقد روى ابن مردويه من طريق الحكم بن ابان عن عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا فرغ الله من القضاء بين الخلق أخرج كتابا من تحت العرش ان رحمتي سبقت غضبي وأنا أرحم الراحمين فيقبض قبضة أو قبضتين فيخرج من النار خلقا لم يعملوا خيرا مكتوب بين أعينهم عتقاء الله وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن عاصم ابن سليمان عن أبي عثمان النهدي عن سلمان في قوله كتب ربكم على نفسه الرحمة قال انا نجد في التوراة عطفتين ان الله خلق السموات والارض وخلق مائة رحمة أو جعل مائة رحمة قبل أن يخلق الخلق ثم خلق الخلق فوضع بينهم رحمة واحدة وأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة قال فبها يتراحمون وبها يتعاطفون وبها يتباذلون وبها يتزاورون وبها تحن الناقة وبها تثج البقرة وبها تثغو الشاة وبها تتابع الطير وبها تتابع الحيتان في البحر فاذا كان يوم القيامة جمع الله تلك الرحمة الى ما عنده ورحمته أفضل وأوسع وقد روي هذا مرفوعا من وجه آخر وسيأتي كثير من الاحاديث الموافقة لهذه عند قوله ورحمتي وسعت كل شيء ومما يناسب هذه الآية من الاحاديث أيضا قوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ ابن جبل أتدري ما حق الله على العباد أن يعبدوه لا يشركوا به شيئا ثم قال أتدري ما حق العباد على الله اذا هم فعلوا ذلك أن

الدين والعقبى وليس في هذا تكرير لما قبله فانه وارد في الثناء على هؤلاء والاول وارد في ايجاب الموالاة والنصرة ثم أخبر سبحانه أن (لهم) منه (مغفرة) لذنوبهم في الآخرة (و) لهم في الدنيا (رزق كريم) خالص عن الكدر طيب مستلذ لا تبعة له ولا منة فيه ثم ألحق بهم في الامرين من سيلحق بهم ويتسم بسمتهم فقال (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم) اختلف في قوله من بعد فقيل من بعد الحديبية وبيعة الرضوان قال القرطبي وذلك أن الهجرة من بعد ذلك كانت أقل رتبة من الهجرة الاولى والهجرة الثانية هي التي وقع فيها الصلح ووضعت الحرب أوزارها نحو عامين ثم كان فتح مكة اه وقيل بعد نزول هذه الآية وقيل من بعد غزوة بدر وقال الخازن الاصح أن المراد بهم أهل الهجرة الثانية لانها بعد الهجرة الاولى لان الهجرة قد انقطعت بعد فتح مكة لانها صارت دار الاسلام بعد الفتح (فأولئك منكم) أي مثلكم في استحقاق ما استحققتموه من الموالاة والمناصرة وكمال الايمان والمغفرة والرزق الكريم لكن فيه دليل على أن مرتبة المهاجرين الاولين أشرف وأعظم من مرتبة المهاجرين المتأخرين بالهجرة لان الله تعالى ألحق المهاجرين المتأخرين بالمهاجرين السابقين وجعلهم معهم وذلك معرض المدح والشرف ولولا أن الاولين أفضل وأشرف لما صح هذا الالحاق قال في الجمل ولم ينبهوا هنا على حكم التوارث بالهجرة الثانية هل هو ثابت كما في الهجرة الاولى أو غير ثابت لانحطاط رتبة أهل الهجرة الثانية عن رتبة أهل الهجرة الاولى الا ما رأيته في الخطيب ونصه فأولئك منكم أي من جملتكم أيها المهاجرون والانصار فلهم مالكم وعليهم ما عليكم من المواريث والغنائم وغيرهما (وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض) بين سبحانه بأن ذوي القرابات بعضهم أولى ببعض من غيرهم ممن لم يكن بينه وبينهم رحم في الميراث فيتناول كل قرابة وقيل المراد بهم هنا العصبات قالوا ومنه قول العرب وصلتك رحم فانهم لا يريدون قرابة الام ولا يخفاك أنه ليس في هذا ما يمنع من اطلاقه على غير العصبات وقد استدل بهذه الآية من أثبت ميراث ذوي الارحام وهم من ليس بعصبة ولا ذوي سهم على حسب اصطلاح أهل علم المواريث واليه ذهب أصحاب أبي حنيفة والخلاف في ذلك معروف مقرر في مواطنه وقد قيل ان هذه الآية ناسخة الميراث بالموالاة والنصرة عند من فسر ما تقدم من قوله بعضهم أولياء بعض وما بعده بالتوارث وأما من فسرها بالنصرة والمعونة فيجعل هذه

الآية

لا يعذبهم وقد رواه الامام أحمد من طريق كميل بن زياد عن أبي هريرة (وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين قل اني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت اذا وما أنا من المهتدين قل اني على بينة من ربي وكذبتم به ما عندي ما تستعجلون به ان الحكم الا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الامر بيني وبينكم والله أعلم بالظالمين وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين) يقول تعالى وكما بينا ما تقدم بيانه (٦١) من الحجج والدلائل على طريق الهداية والرشاد وذم المجادلة والعناد كذلك نفصل الآيات التي يحتاج المخاطبون الى بيانها ولتستبين سبيل المجرمين أي ولتظهر طريق المجرمين المخالفين للرسل وقرئ ولتستبين سبيل المجرمين أي ولتستبين يا محمد او يا مخاطب سبيل المجرمين وقوله قل اني على بينة من ربي أي على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها الله الي وكذبتم به أي بالحق الذي جاءني من الله ما عندي ما تستعجلون به أي من العذاب أن الحكم الا لله أي انما يرجع أمر ذلك الى الله ان شاء عجل لكم ما سألتموه وان شاء أنظركم وأجلكم لما له في ذلك من الحكمة العظيمة ولهذا قال يقص الحق وهو خير الفاصلين أي وهو خير من فصل القضايا وخير الفاتحين في الحكم بين عباده وقوله قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الامر بيني وبينكم أي لو كان مرجع ذلك الي لأوقعت لكم ما تستحقونه من ذلك والله أعلم بالظالمين فان قيل فما الجمع بين هذه الآية وبين ما ثبت في الصحيحين من طريق ابن وهب عن يونس عن الزهري عن عروة عن عائشة أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد فقال لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منه يوم العقبة اذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني الى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق الا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فاذا أنا بسحابة قد ظللتني فنظرت فاذا فيها جبريل عليه السلام فناداني فقال ان الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث اليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم قال فناداني ملك الجبال وسلم علي ثم قال يا محمد ان الله قد سمع قول قومك لك وقد بعثني

الآية اخبار منه سبحانه وتعالى بأن القرابات بعضهم أولى ببعض (في كتاب الله) أي في حكم الله أو في اللوح المحفوظ أو في القرآن وهو أن قسمة المواريث مذكورة في سورة النساء من كتاب الله وهو القرآن وكذا اعطاء أهل الفروض فروضهم وما بقي للعصبات وبهذا أجاب الشافعي أصحاب أبي حنيفة رحمه الله ويدخل في هذه الاولوية الميراث دخولا أوليا لوجود سببه أعني القرابة (ان الله بكل شيء عليم) لا يخفى عليه شيء من الاشياء كائنا ما كان ومن جملة ذلك ما تضمنته هذه الآيات من التوارث بمقتضى الايمان والهجرة ولو بدون قرابة الذي قد نسخ والتوارث بمقتضى القرابة ولو بدون مشاركة في الهجرة أو النصرة والله سبحانه وتعالى أعلم

(سورة براءة)

هي مائة وثلاثون آية وقيل مائة وسبع وعشرون آية ولها أسماء منها سورة التوبة لان فيها ذكر التوبة على المؤمنين وعن حذيفة انكم تسمونها سورة التوبة وهي سورة العذاب اه وتسمى الفاضحة لانه ما زال ينزل فيها ومنهم ومنهم حتى كادت أن لا تدع أحدا وتسمى البحوث لانها تبحث عن أسرار المنافقين وتسمى المبعثرة والبعثرة البحث وتسمى أيضا بأسماء أخر كالمقشقشة لانها تقشقش من النفاق أي تبرئ منه والمخزية لكونها أخزت المنافقين والمثيرة لانها تثير أسرارهم والحافرة لكونها تحفر عنها والمنكلة لما فيها من التنكيل لهم والمدمدمة لانها تدمدم عليهم أي تهلكهم قال الخفاجي وأسماؤها كلها بصيغة الفاعل الا البحوث بفتح الباء فانه صيغة مبالغة بمعنى اسم الفاعل اه قلت والا البراءة والتوبة وسورة العذاب وهي مدنية قال القرطبي باتفاق وعن ابن عباس قال نزلت بعد فتح مكة وعنه قال نزلت بالمدينة وعن ابن الزبير وقتادة نحوه وعن البراء قال آخر سورة نزلت تامة براءة رواه البخاري وقد اختلف العلماء في سبب سقوط البسملة من أولها على أقوال منها ما روي عن المبرد وغيره انه كان من شأن العرب اذا كان بينهم وبين قوم عهد فاذا أرادوا انقضه كتبوا اليهم كتابا ولم يكتبوا فيه بسملة فلما نزلت براءة بنقض العهد الذي كان بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمشركين بعث بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم علي بن أبي طالب فقرأها عليهم ولم يبسمل في ذلك على ما جرت به عادة

ربك الملك لتأمرني بأمرك فما شئت ان شئت أطبقت عليهم الاخشبين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيأ وهذا لفظ مسلم فقد عرض عليه عذابهم واستئصالهم فاستأناهم وسأل لهم التأخير لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيأ فالجواب والله أعلم أن هذه الآية دلت على أنه لو كان اليه وقوع العذاب الذي يطلبونه حال طلبهم له (٦٢) لأوقعه بهم وأما الحديث فليس فيه انهم سألوه وقوع العذاب بهم بل عرض عليه ملك الجبال انه ان شاء أطبق عليهم الاخشبين وهما جبلا مكة يكتنفانها جنوبا وشمالا فلهذا استأنى بهم وسأل الرفق لهم وقوله تعالى وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو قال البخاري حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا ابراهيم بن سعد عن ابن شهاب عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن الا الله ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الارحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت ان الله عليم خبير وفي حديث عمر أن جبريل حين تبدى له في صورة اعرابي فسأل عن الايمان والاسلام والاحسان فقال له النبي صلى الله عليه وسلم فيما قال له خمس لا يعلمهن الا الله ثم قرأ ان الله عنده علم الساعة الآية وقوله ويعلم ما في البر والبحر أي محيط علمه الكريم بجميع الموجودات بريها وبحريها لا يخفى عليه من ذلك شيء ولا مثقال ذرة في الارض ولا في السماء وما أحسن ما قال الصرصري

فلا يخفى عليه الذر اما * تراءى للنواظر أو توارى

وقوله وما تسقط من ورقة الا يعلمها أي ويعلم الحركات حتى من الجمادات فما ظنك بالحيوان ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وانسهم كما قال تعالى يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا أبو الاخوص عن سعيد بن مسروق حدثنا الثوري عن ابن عباس في قوله وما تسقط من ورقة الا يعلمها قال ما من شجرة في بر ولا بحر الا ملك موكل بها

العرب في نقض العهد من ترك التسمية وعن علي قال البسملة أمان وبراءة نزلت بالسيف أشار الى وجه ترك كتابة البسملة في هذه السورة والتلفظ بها دون غيرها قال الخفاجي وللسلف فيه أقوال ثلاثة أصحها هذا اه قلت وروى نحوه عن سفيان بن عيينة وروى عن مالك بن أنس وابن عجلان وابن جبير أنها كانت تعدل سورة البقرة أو قريبا منها وانه لما سقط أولها سقطت البسملة ومن جملة الاقوال في سقوطها انهم لما كتبوا المصحف في خلافة عثمان اختلفت الصحابة فقال بعضهم براءة والانفال سورة واحدة وقال بعضهم هما سورتان فتركت بينهما فرجة لقول من قال هما سورتان وتركت البسملة لقول من قال هما سورة واحدة فرضي الفريقان معا قاله خارجة وأبو عصمة وغيرهما وقول من جعلهما سورة واحدة أظهر لانهما جميعا نزلتا في القتال ومجموعهما مائتان وخمس آيات ويعدان جميعا سابعة السبع الطوال ومنها ما قال السيوطي انه لم تكتب فيها البسملة لانه صلى الله عليه وآله وسلم لم يأمر بذلك كما يؤخذ من حديث رواه الحاكم اه وعن عثمان قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يبين لنا أنها منها فظننت أنها منها فمن ثم قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم أخرجه الترمذي وحسنه والصحيح أنها لم تكتب لان جبريل ما نزل بها في هذه السورة قاله القشيري قال أبو السعود واشتهارها بهذه الاسماء يقضي بأنها سورة مستقلة وليست بعضا من سورة الانفال وادعاء اختصاص الاشتهار بالقائلين باستقلالها خلاف الظاهر فيكون حكمة ترك التسمية عند النزول نزولها في رفع الامان الذي يأبى مقامه التصدير بما يشعر بقائه من ذكر اسمه تعالى مشفوعا بوصف الرحمة كما روى عن ابن عيينة رضي الله تعالى عنه لا الاشتباه في استقلالها وعدمه كما يحكى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ولا رعاية ما وقع بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم من الاختلاف في ذلك على أن ذلك ينزع الى القول بأن التسمية ليست من القرآن وانما كتبت للفصل بين السور كما نقل عن قدماء الحنفية وان مناط اثباتها في المصاحف وتركها انما هو رأي من تصدى لجمع القرآن دون التوقيف ولا ريب في أن الصحيح من المذهب أنها آية فذة من القرآن أنزلت للفصل والتبرك بها وأن لا مدخل لرأي أحد في الاثبات والترك وانما المتبع في ذلك هو الوحي والتوقيف ولا مرية في عدم نزولها ههنا والا لامتنع أن يقع في الاستقلال

يكتب ما يسقط منها رواه ابن أبي حاتم وقوله ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين ولا حبة في ظلمات الارض قال محمد بن اسحق عن يحيى بن النضر عن أبيه سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول ان تحت الارض الثالثة وفوق الرابعة من الجن مالو انهم ظهروا يعني لكم لم تروا معهم نورا على كل زاوية من زوايا الارض خاتم من خواتيم الله عز وجل على كل خاتم ملك من الملائكة يبعث الله عز وجل اليه في كل يوم ملكا من عنده أن احتفظ بما عندك قال ابن أبي حاتم حدثنا عبد الله ابن محمد بن عبد الرحمن بن المسور الزهري حدثنا مالك بن شعير حدثنا (٦٣) الاعمش عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله ابن الحرث قال ما في الارض من شجرة ولا مغرز ابرة الا عليها ملك موكل يأتي الله بعلمها رطوبتها اذا رطبت ويبوستها اذا يبست وكذا رواه ابن جرير عن أبي الخطاب زياد بن عبد الله الحساني عن مالك ابن شعير به ثم قال ابن أبي حاتم ذكر عن أبي حذيفة حدثنا سفيان عن عمر بن قيس عن رجل عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال خلق الله النون وهي الدواة وخلق الالواح فكتب فيها أمر الدنيا حتى تنقضي ما كان من خلق مخلوق أو رزق حلال أو حرام أو عمل بر أو فجور وقرأ هذه الآية وما تسقط من ورقة الا يعلمها الى آخر الآية (وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم اليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ثم ردوا الى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين) يقول تعالى انه يتوفى عباده في منامهم بالليل وهو التوفي الاصغر كما قال تعالى اذ قال الله يا عيسى انى متوفيك ورافعك الي وقال تعالى يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى أجل مسمى فذكر في هذه الآية الوفاتين الكبرى والصغرى وهكذا ذكر في هذا المقام حكم الوفاتين الصغرى ثم الكبرى فقال وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار وهذه جملة معترضة دلت على احاطة علمه تعالى بخلقه في ليلهم ونهارهم في حال سكونهم وحال حركتهم كما قال سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار وكما قال تعالى ومن رحمته

الاستقلال اشتباه أو اختلاف فهو اما الاتحاد السورتين أو لما ذكرنا لا سبيل الى الاول والا لبينه عليه الصلاة والسلام لتحقق مزيد الحاجة الى البيان لتعاضد أدلة الاستقلال من كثرة الآيات وطول المدة فيما بين نزولهما فحيث لم يبينه عليه الصلاة والسلام تعين الثاني لان عدم البيان من الشارع في موضع البيان بيان للعدم (براءة) أي هذه براءة وتنوينه للتفخيم وقرئ بالنصب أي اسمعوا براءة قاله عيسى بن عمر يقال برئت من الشيء ابرأ براءة وأنا منه بريء اذا أزلته عن نفسك وقطعت سبب ما بينك وبينه وقيل معناها هنا التباعد مما تكره مجاورته (من الله ورسوله) من ابتدائية أي هذه براءة مبتدأة من جهة الله تعالى ورسوله واصلة (الى الذين عاهدتم من المشركين) عهدا مطلقا أو دون أربعة أشهر او فوقها والعهد العقد الموثق باليمين والخطاب للمسلمين ومن بيان للموصول وقد عاهدوا مشركي مكة وغيرهم بأذن من الله واتفاق من الرسول صلى الله عليه وسلم والمعنى الاخبار للمسلمين بأن الله ورسوله قد برئا من تلك المعاهدة بسبب ما وقع من الكفار من النقض فصار النبذ اليهم بعهدهم واجبا على المعاهدين من المسلمين ومعنى براءة الله سبحانه وقوع الاذن منه سبحانه بالنبذ من المسلمين لعهد المشركين بعد وقوع النقض منهم وفي ذلك من التفخيم لشأن البراءة والتهويل لها والتسجيل على المشركين بالذل والهوان ما لا يخفى (فسيحوا) أيها المشركون (في الارض أربعة أشهر) أمر اباحة منه سبحانه بالسياحة بعد الاخبار بتلك البراءة والسياحة السير يقال ساح فلان في الارض يسيح سيحا وسياحة وسيوحا وسيحانا ومنه سيح الخيل قال أبو السعود السياحة والسيح الذهاب في الارض والسير فيها بسهولة على مقتضى المشيئة كسيح الماء على موجب الطبيعة ففيه من الدلالة على كمال التوسعة والترفيه ما ليس في سيروا ونظائره وزيادة قوله في الارض لقصد التعميم لاقطارها من دار الاسلام وغيرها انتهى ومعنى الآية ان الله سبحانه بعد أن أذن بالنبذ الى المشركين بعهدهم أباح للمشركين الضرب في الارض والذهاب الى حيث يريدون والاستعداد للحرب هذه الاربعة الاشهر وليس المراد من الامر بالسياحة تكليفهم بها وهذا القول كناية عن عقد الامان لهم أربعة أشهر بعد نقضهم العهد بصورة الثلاث وانما اقتصر على الاربعة لقوة المسلمين اذ ذاك بخلاف صلح الحديبية فانه كان على عشر سنين لضعف المسلمين اذ ذاك قال محمد بن اسحق ومجاهد وغيرهما ان المشركين صنفان صنف كانت مدة عهده أقل من

جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه أي في الليل ولتبتغوا من فضله أي في النهار كما قال وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا ولهذا قال تعالى ههنا وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار أي ما كسبتم من الاعمال فيه ثم يبعثكم فيه أي في النهار قاله مجاهد وقتادة والسدى وقال ابن جريج عن عبد الله بن كثير أي في المنام والاول أظهر وقد روى ابن مردويه بسنده عن الضحاك عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال مع كل انسان ملك اذا نام يأخذ نفسه ويرد اليه فان أذن الله في قبض روحه قبضه (٦٤) والارد اليه فذلك قوله وهو الذي يتوفاكم بالليل وقوله ليقضى أجل مسمى يعني به أجل كل واحد من الناس ثم اليه مرجعكم أي يوم القيامة ثم ينبئكم أي فيخبركم بما كنتم تعملون أي ويجزيكم على ذلك ان خيرا فخير وان شرا فشر وقوله وهو القاهر فوق عباده أي هو الذي قهر كل شئ وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شئ ويرسل عليكم حفظة أي من الملائكة يحفظون بدن الانسان كقوله له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله وحفظة يحفظون عمله ويحصونه كقوله وان عليكم لحافظين الآية وقوله اذ يتلقى المتلقيان الآية وقوله حتى اذا جاء أحدكم الموت أي احتضر وحان أجله توفته رسلنا أي ملائكة موكلون بذلك قال ابن عباس وغير واحد لملك الموت أعوان من الملائكة يخرجون الروح من الجسد فيقبضها ملك الموت اذا انتهت الى الحلقوم وسيأتي عند قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت الاحاديث المتعلقة بذلك الشاهدة لهذا المروى عن ابن عباس وغيره بالصحة وقوله وهم لا يفرطون أي في حفظ روح المتوفى بل ويحفظونها يتركونها حيث شاء الله عز وجل ان كان من الابرار ففي عليين وان كان من الفجار ففي سجين عياذا بالله من ذلك وقوله ثم ردوا الى الله مولاهم الحق ونذكر ههنا الحديث الذي رواه الامام أحمد حيث قال حدثنا حسين بن محمد حدثنا ابن أبي ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن سعيد بن يسار رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الميت تحضره الملائكة فاذا كان الرجل الصالح قالوا اخرجي أيتها النفس المطمئنة كانت في الجسد الطيب اخرجي حميدة

أربعة أشهر فأمهل تمام أربعة أشهر والآخر كانت مدته أكثر من ذلك فقصر على أربعة أشهر ليرتاد لنفسه وهو حرب بعد ذلك لله ولرسوله وللمؤمنين يقتل حيث يوجد الا أن يتوب ويرجع الى الايمان وابتداء هذا الاجل يوم الحج الاكبر وانقضاؤه الى عشر من ربيع الآخر فامامن لم يكن له عهد فانما أجله انسلاخ الاشهر الحرم وذلك خمسون يوما عشرون من ذي الحجة وشهر محرم وقال الكلبي انما كانت الاربعة الاشهر لمن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد دون أربعة أشهر فتمم له الاربعة ومن كان عهده أكثر من ذلك فهو الذي امر الله ان يتم له عهده بقوله فاتموا اليهم عهدهم الى مدتهم كما سيأتي ورجح هذا ابن جرير وغيره وعن الزهري قال نزلت في شوال فهى اربعة اشهر شوال وذو القعدة وذو الحجة ومحرم والقول الاول اصوب وعليه الاكثرون وفي الباب أقوال وقيل المقصود من هذا التأجيل ان يتفكروا ويحتاطوا لانفسهم ويعلموا أنه ليس لهم بعد هذه المدة الا الاسلام أو القتل فيصير هذا داعيا لهم الى الدخول في الاسلام ولئلا ينسب المسلمون الى الغدر ونكث العهد وقال ابن الانباري التقدير قل لهم فسيحوا وليس هذا من باب الامر بل المقصود منه الاباحة والاطلاق والاعلام بحصول الامان وزوال الخوف يعني سيحوا في الارض وأنتم آمنون من القتل والقتال وقد توهم بعضهم ان بعث علي بن ابي طالب بقراءة اول براءة عزل أبي بكر عن الامارة وذلك جهل من هذا المتوهم والبحث مستوفى في موطنه (واعلموا انكم غير معجزي الله) أي اعلموا ان هذا الامهال ليس لعجز ولكن لمصلحة ليتوب من تاب وفي ذلك ضرب من التهديد كأنه قيل افعلوا في هذه المدة كل ما أمكنكم من اعداد الآلات والادوات فانكم لا تفوتون الله ولا تغتروا بعقد الامان لكم (وان الله مخزي الكافرين) أي وهو مخزيكم ومذلكم ومهينكم في الدنيا بالقتل والاسر وفي الآخرة بالعذاب والنار وفي وضع الظاهر موضع المضمر اشارة الى أن سبب هذا الاخزاء هو الكفر ويجوز ان يكون المراد جنس الكافرين فيدخل فيه المخاطبون دخولا أوليا وأخرج الترمذي وحسنه وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر وأمره ان ينادي بهؤلاء الكلمات ثم أتبعه عليا وأمره أن ينادي بهؤلاء الكلمات فانطلقا وحجا فقام علي في أيام التشريق فنادى ان الله بريء من المشركين ورسوله

وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها الى السماء فيستفتح فيفتح لها فيقال فلان مرحبا بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهى بها الى السماء التي فيها الله عزوجل واذا كان الرجل السوء قالوا اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها الى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا فيقال فلان فيقال لا مرحبا بالنفس الخبيثة كانت (٦٥) في الجسد الخبيث ارجعي ذميمة فانه لا يفتح لك أبواب السماء فترسل من السماء ثم تصير الى القبر فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل في الحديث الاول ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل في الحديث الاول هذا حديث غريب وقوله ثم ردوا الى الله يعني الملائكة ويحتمل أن يكون المراد بقوله ثم ردوا يعني الخلائق كلهم الى الله يوم القيامة فيحكم فيهم بعدله كما قال قل ان الاولين والآخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم وقال وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا الى قوله ولا يظلم ربك أحدا ولهذا قال مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون) يقول تعالى ممتنا على عباده في انجائه المضطرين منهم من ظلمات البر والبحر أي الحائرين الواقعين في المهامه البرية وفي اللجج البحرية اذا هاجت الرياح العاصفة فحينئذ يفردون الدعاء له وحده لا شريك له كقوله واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون الا اياه الآية وقوله هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين الآية وقوله أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح نشرا

ورسوله فسيحوا في الارض أربعة أشهر ولا يحجن بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ولا يدخل الجنة الا مؤمن فكان علي ينادي فاذا أعيا قام أبو بكر ينادي بها وفي الباب أحاديث في الصحيحين وغيرهما بألفاظ (وأذان من الله ورسوله) الاذان بمعنى الايذان وهو الاعلام كما أن الامان والعطاء بمعنى الايمان والاعطاء ومعنى (الى الناس) التعميم في هذا أي انه ايذان من الله الى كافة الناس غير مختص بقوم دون قوم فهذه الجملة متضمنة للاخبار بوجوب الاعلام لجميع الناس والجملة الاولى متضمنة للاخبار بالبراءة الى المعاهدين خاصة (يوم الحج الاكبر) ظرف لقوله واذان ووصفه بالاكبر لانه يجتمع فيه الناس أو لكون معظم افعال الحج فيه أو احترازا عن العمرة فهي الحج الاصغر لان اعمالها أقل من أعمال الحج اذ يزيد عليها بأمور كالرمي والمبيت فكان أكبر بهذا الاعتبار وسمي يوم الحج لان أعمال الحج يتم فيه معظمها وقد اختلف العلماء في تعيين هذا اليوم المذكور في الآية فذهب جمع منهم علي بن أبي طالب وابن مسعود وابن أبي أوفى والمغيرة بن شعبة ومجاهد الى أنه يوم النحر ورجحه ابن جرير وذهب آخرون منهم عمر وابن عباس وطاوس الى أنه يوم عرفة والاول أرجح لان النبي صلى الله عليه وسلم أمر من بعثه لابلاغ هذا الى المشركين أن يبلغهم يوم النحر وأخرج الترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن علي قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يوم الحج الاكبر فقال يوم النحر وأخرج أبو داود والنسائي والحاكم وصححه عن عبد الله بن قرط قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم الايام عند الله يوم النحر ثم يوم القر وعن أبي أوفى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يوم الاضحى هذا يوم الحج الاكبر أخرجه ابن مردويه وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فقال أي يوم هذا قالوا يوم النحر قال هذا يوم الحج الاكبر أخرجه البخاري وأبو داود وابن ماجه وغيرهم ولا يخفاك أن الاحاديث الواردة في كون يوم النحر هو يوم الحج الاكبر هي ثابتة في الصحيحين وغيرهما من طرق فلا تقوى لمعارضتها هذه الروايات المصرحة بأنه يوم عرفة وقيل أيام منى كلها وبه قال مجاهد وسفيان الثوري وهو (١) يوم النحر وقيل اليوم الذي حج فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وبه قال ابن سيرين والاول أولى وقيل القران قاله مجاهد (ان الله بريء من المشركين ورسوله) أي بأن الله بريء ورسوله بريء منهم وقرئ

(١) قوله وهو يوم النحر كذا في الاصل وانظر وحرر اه

بين يدى رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون وقال فى هذه الآية الكريمة قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا
وخفية أى جهرا وسرا لئن أنجيتنا من هذه أى من هذه الضيقة لنكونن من الشاكرين أى بعدها قال الله قل الله ينجيكم منها ومن
كل كرب ثم أنتم أى بعد ذلك تشركون أى تدعون معه فى حال الرفاهية آلهة أخرى وقوله قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا
من فوقكم أو من تحت أرجلكم لما قال ثم أنتم تشركون عقبه بقوله قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا أى بعد انجائه
اياكم كقوله فى سورة سبحان ربكم الذى يزجى (٦٦) لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله انه كان بكم رحيما واذا مسكم الضر
فى البحر ضل من تدعون الا اياه فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا أفأمنتم ان يخسف بكم جانب البر أو نرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا أم أمنتم أن نعيدكم فيه تارة أخرى فنرسل عليكم قاصفا من الريح فنغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا قال ابن أبى حاتم ذكر عن مسلم بن ابراهيم حدثنا هرون الاعور عن جعفر بن سليمان عن الحسن فى قوله قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم قال هذه للمشركين وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم لامة محمد صلى الله عليه وسلم وعفى عنه ونذكر هنا الاحاديث الواردة فى ذلك والآثار وبالله المستعان وعليه التكلان وبه الثقة قال البخارى رحمه الله تعالى فى قوله تعالى قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم
شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون
يلبسكم يخلطكم من الالتباس يلبسوا يخلطوا شيعا فرقا حدثنا أبو النعمان حدثنا حماد بن زيد عن عمرو بن دينار عن جابر بن
عبد الله قال لما نزلت هذه الآية قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعوذ
بوجهك أو من تحت أرجلكم قال أعوذ بوجهك أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم هذه أهون أو أيسر وهكذا رواه أيضا فى كتاب التوحيد عن قتيبة عن حماد به ورواه النسائى فى التفسير عن قتيبة

ورسوله بالجر على ان الواو للقسم وهى ضعيفة جدا وقرئ شاذا أيضا بالنصب على انه
مفعول معه قاله الزمخشرى والرفع قراءة الجمهور باتفاق السبعة (فان تبتم) من الكفر
وفيه التفات من الغيبة الى الخطاب وقيل فائدة هذا الالتفات زيادة التهديد (فهو) أى
المتاب أو التوب أو التوبة (خير لكم) أى أخير وأحسن من بقائكم على الكفر الذى
هو خير فى زعمكم أو التفضيل ليس على بابه والمعنى هو خير لا شر وفيه ترغيب فى التوبة
والاقلاع عن الشرك الموجب لدخول النار (وان توليتم) أى أعرضتم عن التوبة وبقيتم
على الكفر (فاعلموا أنكم غير معجزى الله) أى غير فائتين عليه بل هو مدرككم
فمجازيكم بأعمالكم وفيه وعيد عظيم وتهديد شديد (وبشر الذين كفروا بعذاب أليم)
عبر عن الاخبار بالبشارة تهكما بهم وفيه من التهديد ما لا يخفى (الا الذين عاهدتم من
المشركين) قال ابن عباس هم قريش وقال قتادة هم مشركو قريش الذين عاهدهم نبى
الله زمن الحديبية وقيل هم بنو ضمرة حى من كنانة وعن محمد بن عباد هم بنو جذيمة بن
عامر من بنى بكر بن كنانة قال أبو السعود الا الذين الخ استدراك من النبذ السابق الذى
أخر فيه القتال أربعة أشهر كأنه قيل لا تمهلوا الناكثين فوق أربعة أشهر لكن الذين
عاهدتموهم ثم لم ينكثوا عهدهم فلا تجروهم مجرى الناكثين فى المسارعة الى قتالهم بل
أتموا اليهم عهدهم ولا يضر فى ذلك تخلل الفاصل بقوله تعالى واذان من الله ورسوله الخ
لانه ليس باجنبى بالكلية بل هو أمر باعلام تلك البراءة كأنه قيل وأعلموها وقيل هو استثناء
متصل من المشركين الاول ويرده بقاء الثانى على العموم مع كونهما عبارة عن فريق
واحد وجعله استثناء من الثانى يأباه بقاء الاول كذلك وقيل هو استدراك من
المقدر فى فسيحوا أى قولوا لهم سيحوا أربعة أشهر لكن الذين عاهدتم منهم (ثم لم
ينقصوكم شيأ) من شروط الميثاق ولم يقتلوا منكم أحدا ولم يضروكم قط
أى لم يقع منهم أى نقص وان كان يسيرا وقرأ عكرمة وعطاء بن يسار بالضاد المعجمة
أى لم ينقضوا عهدكم وفيه دليل على انه كان من أهل العهد من خاس بعهده ومنهم
من ثبت عليه فاذن الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم بنقض عهد من نقض وبالوفاء
لمن لم ينقض الى مدته وقرأ الجمهور بالصاد المهملة قال الكرمانى قراءة المعجمة مناسبة
لذكر العهد فان من نقض العهد فقد نقص من المدة الا أن قراءة العامة أوقع

لمقابلتها

ومحمد بن النضر بن مساور ويحيى بن حبيب بن عدى أربعتهم عن حماد بن زيد به وقد رواه الحميدى فى مسنده عن سفيان ابن عيينة عن عمرو بن دينار سمع جابرا عن النبى صلى الله عليه وسلم به ورواه ابن حبان فى صحيحه عن أبى يعلى الموصلى عن أبى خيثمة عن سفيان بن عيينة به ورواه ابن جرير فى تفسيره عن أحمد بن الوليد القرشى وسعيد بن الربيع وسفيان ابن وكيع كلهم عن سفيان بن عيينة به ورواه أبو بكر بن مردويه من حديث آدم بن أبى اياس ويحيى بن عبد الحميد وعاصم ابن على عن سفيان بن عيينة به ورواه سعيد بن منصور عن حماد بن زيد (٦٧) وسفيان بن عيينة كلاهما عن عمرو بن دينار به (طريق آخر) قال الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا مقدام بن داود حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا ابن لهيعة عن خالد بن يزيد عن أبى الزبير عن جابر قال لما نزلت قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعوذ بالله من ذلك أو من تحت أرجلكم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعوذ بالله من ذلك أو يلبسكم شيعا قال هذا أيسر ولو استعاذه لأعاذه ويتعلق بهذه الآية أحاديث كثيرة * أحدها قال الامام أحمد بن حنبل فى مسنده حدثنا أبو اليمان حدثنا أبو بكر يعنى ابن أبى مريم عن راشد هو ابن سعد المقرائى عن سعد بن أبى وقاص قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم فقال اما انها كائنة ولم يأت تأويلها بعد وأخرجه الترمذى عن الحسن بن عرفة عن اسمعيل بن عياش عن أبى بكر بن أبى مريم به ثم قال هذا حديث غريب (حديث آخر) قال الامام أحمد حدثنا يعلى هو ابن عبيد حدثنا عثمان بن حكيم عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه قال أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مررنا على مسجد بنى معاوية فدخل فصلى ركعتين فصلينا معه فناجى ربه عز وجل طويلا قال سألت ربى ثلاثا سألته أن لا يهلك أمتى بالغرق فأعطانيها وسألته أن لا يهلك أمتى بالسنة فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها انفرد باخراجه مسلم فرواه فى كتاب الفتن عن أبى بكر بن أبى شيبة عن محمد بن عبد الله بن نمير وعن محمد بن يحيى بن أبى عمر

لمقابلتها التمام وكلمة ثم للدلالة على ثباتهم على عهدهم مع تمادى المدة (ولم يظاهروا) المظاهرة المعاونة أى لم يعاونوا (عليكم أحدا) من أعدائكم كما عدت بنو بكر على خزاعة فى غيبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فظاهرتهم قريش بالسلاح (فأتموا اليهم عهدهم) أى أدوا اليهم عهدهم تاما غير ناقص (الى مدتهم) التى عاهدتموهم اليها وان كانت أكثر من أربعة أشهر ولا تعاملوهم معاملة الناكثين من القتال بعد مضى المدة المذكورة سابقا وهى أربعة أشهر أو خمسون يوما على الخلاف السابق (ان الله يحب المتقين) الذين يتقون الله فيما حرم عليهم فيوفون بالعهد قال السدى فلم يعاهد النبى صلى الله عليه وسلم بعد هؤلاء الآيات أحدا (فاذا انسلخ الاشهر الحرم) انسلاخ الشهر تكامله جزأ فجزأ الى أن ينقضى كانسلاخ الجلد عما يحويه شبه خروج المتزمن عن زمانه بانفصال المتمكن عن مكانه وأصله الانسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده فاستعير لانقضاء الاشهر يقال سلخت المرأة درعها نزعته وفى التنزيل وآية لهم الليل نسلخ منه النهار قال الخفاجى السلخ يستعمل تارة بمعنى الكشط كسلخت الاهاب عن الشاة أى نزعته عنها وأخرى بمعنى الاخراج كسلخت الشاة عن الاهاب أى أخرجتها منه فاطلاق الانسلاخ على الاشهر استعارة من المعنى الاول فان الزمان ظرف محيط بالاشياء كالاهاب والبيضاوى جعله من الثانى كأنه لما انقضى أخرج من الاشياء الموجودة كذا قيل ومثل انسلخ انجرد وسنة جرداء تامة انتهى واختلف العلماء فى تعيين الاشهر الحرم المذكورة ههنا فقيل هى الاشهر الحرم المعروفة التى هى ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب ثلاثة سرد وواحد فرد ومعنى الآية على هذا وجوب الامساك عن قتال من لا عهد له من المشركين فى هذه الاشهر الحرم وقد وقع النداء والنبذ الى المشركين بعهدهم يوم النحر فكان الباقى من الاشهر الحرم التى هى الثلاثة المسرودة خمسين يوما تنقضى بانقضاء شهر المحرم فأمرهم الله بقتل المشركين حيث يوجدون وبه قال جماعة من أهل العلم منهم الضحاك والباقر وروى عن ابن عباس واختاره ابن جرير وقيل المراد بها شهور العهد المشار اليها بقوله فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم وسميت حرما لان الله سبحانه حرم على المسلمين فيها دماء المشركين والتعرض لهم والى هذا ذهب جماعة من أهل العلم منهم مجاهد وابن اسحق وابن زيد وعمرو بن شعيب وقيل هى الاشهر المذكورة فى قوله فسيحوا فى

عن مروان بن معاوية كلاهما عن عثمان بن حكيم به (حديث آخر) قال الامام أحمد قرأت على عبد الرحمن بن مهدى عن مالك عن عبد الله بن عبد الله بن جابر بن عتيك انه قال جاءنا عبد الله بن عمر فى حرة بنى معاوية من قرى الانصار فقال هل تدرى أين صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجدكم هذا فقلت نعم فاشرت الى ناحية منه فقال هل تدرى ما الثلاث التى دعا بهن فيه فقلت نعم فقال أخبرنى بهن فقال دعا ان لا يظهر عليهم عدوا من غيرهم ولا يهلكهم بالسنين فاعطيهما ودعا بأن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعها قال صدقت فلا يزال الهرج الى يوم القيامة (٦٨) ليس هو فى شىء من الكتب الستة واسناده جيد قوى ولله الحمد والمنة (حديث آخر) قال محمد بن اسحق عن حكيم ابن حكيم عن عبادة بن حنيف عن على بن عبد الرحمن أخبرنى حذيفة ابن اليمان قال خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى حرة بنى معاوية قال فصلى ثمان ركعات فأطال فيهن ثم التفت الى فقال حبستك قلت الله ورسوله أعلم قال انى سألت الله ثلاثا فاعطانى اثنتين ومنعنى واحدة سألته ان لا يسلط على أمتى عدوا من غيرهم فاعطانى وسألته ان لا يهلكهم بغرق فاعطانى وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنى رواه ابن مردويه من حديث ابن اسحق (حديث آخر) قال الامام أحمد حدثنا عبيدة بن حميد حدثنى سليمان بن الاعمش عن رجاء الانصارى عن عبد الله بن شداد عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل لى خرج قبل قال فجعلت لا أمر بأحد الا قال مر قبل حتى مررت فوجدته قائما يصلى قال فجئت حتى قمت خلفه قال فأطال الصلاة قلت يا رسول الله قد صليت صلاة طويلة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى صليت صلاة رغبة ورهبة سألت الله عز وجل ثلاثا فاعطانى اثنتين ومنعنى واحدة سألته ان لا يهلك أمتى غرقا فاعطانى وسألته ان لا يظهر عليهم عدوا ليس منهم فاعطانيها وسألته ان لا يجعل بأسهم بينهم فردها على ورواه ابن ماجه فى الفتن عن محمد بن عبد الله بن نمير وعلى بن محمد كلاهما عن أبى معاوية عن الاعمش به ورواه ابن مردويه من حديث أبى عوانة عن عبد الله بن عمير عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن معاذ بن جبل عن النبى صلى الله عليه وسلم بمثله أو نحوه (حديث آخر) قال الامام أحمد حدثنا هرون بن معروف حدثنا عبد الله بن وهب أخبرنى عمرو بن الحرث عن بكير بن الاشج ان الضحاك بن عبد الله القرشى

الارض أربعة أشهر وقد روى ذلك عن ابن عباس وجماعة ورجحه ابن كثير وحكاه عن مجاهد وعمرو بن شعيب ومحمد بن اسحق وقتادة والسدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وسيأتى بيان حكم القتال فى الاشهر الحرم الدائرة فى كل سنة فى هذه السورة ان شاء الله تعالى (فاقتلوا المشركين حيث) أى فى أى مكان وأى وقت (وجدتموهم) من حل أو حرم (وخذوهم) أى أسروهم فان الاخيذ هو الاسير (واحصروهم) أى احبسوهم فى القلاع والحصون حتى يضطروا ويلجؤا الى القتل أو الاسلام ومعنى الحصر منعهم من التصرف فى بلاد المسلمين الا باذن منهم وقيل امنعوهم من دخول مكة خاصة والاول أولى (واقعدوا لهم كل مرصد) أى طريق يسلكونه ونصب كل على نزع الخافض اى على كل طريق والمرصد الموضع الذى يرقب فيه العدو ويقعد يقال رصدت فلانا أرصده أى رقبته أى اقعدوا لهم فى المواضع التى ترتقبونهم فيها لئلا ينتشروا فى البلاد والمعنى كونوا لهم رصدا حتى تأخذوهم من اى وجه توجهوا وقيل بكل طريق مكة حتى لا يدخلوها وهذه الآية المتضمنة للامر بقتل المشركين عند انسلاخ الاشهر الحرم عامة لكل مشرك لا يخرج عنها الا من خصته السنة وهو المرأة والصبى والعاجز الذى لا يقاتل وكذلك يخصص منها أهل الكتاب الذين يعطون الجزية على فرض تناول لفظ المشركين لهم وهذه الآية نسخت كل آية فيها ذكر الاعراض عن المشركين والصبر على اذاهم وقال الضحاك وعطاء والسدى هى منسوخة بقوله فاما منا بعد واما فداء وان الاسير لا يقتل صبرا بل يمن عليه أو يفادى وقال مجاهد وقتادة بل هى ناسخة لقوله فاما منا بعد واما فداء وانه لا يجوز فى الاسارى من المشركين الا القتل وقال ابن زيد الآيتان محكمتان قال القرطبى وهو الصحيح لان المن والقتل والفداء لم يزل من حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم من أول حرب حاربهم وهو يوم بدر قال الرازى كلتا الآيتين متوافقتان وكلتاهما تدلان على انه لابد من تقديم الاثخان ثم بعده أخذ الفداء انتهى (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة) أى تابوا عن الشرك الذى هو سبب القتل وحققوا التوبة بفعل ما هو من أعظم أركان الاسلام وهو اقامة الصلاة وهذا الركن اكتفى به عن ذكر ما يتعلق بالابدان من العبادات لكونه رأسها واكتفى بالركن الآخر المالى وهو ايتاء الزكاة عن كل ما يتعلق بالاموال من العبادات لانه أعظمها (فخلوا سبيلهم) اى اتركوهم وشأنهم

فلا

حدثه عن أنس بن مالك أنه قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر صلى سبحة الضحى ثمان ركعات فلما انصرف قال اني صليت صلاة رغبة و رهبة وسألت ربي ثلاثا فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة سألته ان لا يبتلي أمتي بالسنين ففعل وسألته ان لا يظهر عليهم عدوهم ففعل وسألته ان لا يلبسهم شيعا فأبى علي رواه النسائي في الصلاة عن محمد بن سلمة عن ابن وهب به (حديث آخر) قال الامام أحمد حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب بن أبي حمزة قال قال الزهري حدثني عبد الله بن عبد الله بن الحرث بن نوفل عن عبد الله بن خباب عن أبيه خباب بن الأرت مولى بني زهرة وكان قد شهد بدرا مع رسول الله (٦٩) صلى الله عليه وسلم في ليلة صلاها كلها حتى كان مع الفجر فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاته قلت يارسول الله لقد صليت الليلة صلاة ما رأيتك صليت مثلها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل انها صلاة رغب و رهب سألت ربي عز وجل فيها ثلاث خصال فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألت ربي عز وجل ان لا يهلكنا بما أهلك به الأمم قبلنا فأعطانيها وسألت ربي عز وجل ان لا يظفر علينا عدوا من غيرنا فأعطانيها وسألت ربي عز وجل ان لا يلبسنا شيعا فمنعنيها ورواه النسائي من حديث شعيب ابن أبي حمزة به ومن وجه آخر وابن حبان في صحيحه باسناديهما عن صالح بن كيسان والترمذي في الفتن من حديث النعمان بن راشد كلاهما عن الزهري وقال حسن صحيح (حديث آخر) قال أبو جعفر ابن جرير في تفسيره حدثني زياد بن عبد الله المزني حدثنا مروان بن معاوية الفزاري حدثنا أبو مالك حدثني نافع بن خالد الخزاعي عن أبيه ان النبي صلى الله عليه وسلم صلى صلاة خفيفة تامة الركوع والسجود فقال قد كانت صلاة رغبة ورهبة سألت الله عز وجل فيها ثلاثا أعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألت الله ان لا يصيبكم بعذاب أصاب به من قبلكم فأعطانيها وسألت الله ان لا يسلط عليكم عدوا يستبيح بيضتكم فأعطانيها وسألت الله ان لا يلبسكم شيعا و يذيق بعضكم بأس بعض فمنعنيها قال أبو مالك فقلت له أبوك سمع هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال نعم سمعته يحدث بها القوم أنه سمعها من في رسول الله صلى الله عليه وسلم (حديث آخر) قال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق قال قال معمر أخبرني أيوب عن أبي قلابة عن الأشعث الصنعاني عن أبي أسماء الرحبي عن شداد بن أوس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان

فلا تأسروهم ولا تحصروهم ولا تقتلوهم ولا تمنعوهم من الدخول الى مكة والتصرف في بلادهم ولا تتعرضوا لهم (ان الله غفور) لهم (رحيم) بهم (وان أحد) مرتفع بفعل شرط مضمر يفسره الظاهر لا بالابتداء لان ان لا تدخل الا على الفعل (من المشركين) الناقضين للعهد الذين أمرت بالتعرض لهم في قوله فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين (استجارك) استأمنك من القتل (فأجره) يقال استجرت فلانا أي طلبت أن يكون جارا أي محاميا ومحافظا من ان يظلمني ظالم أو يتعرض لي متعرض وفي القاموس جار واستجار طلب أن يجار وأجاره أنقذه وأعاذه وفي المصباح استجاره طلب منه ان يحفظه فأجار والمعنى أمنه (حتى) يصح أن تكون للغاية والتعليل (يسمع كلام الله) منك ويتدبره حق تدبره و يقف على حقيقة ما تدعو اليه و يتحقق انه ليس من كلام الخلق والاقتصار على ذكر السماع لعدم الحاجة الى شئ آخر في الفهم لكونهم من أهل الفصاحة (ثم) ان أراد الانصراف ولم يسلم (أبلغه مأمنه) أي الى الدار التي يأمن فيها وهو دار قومه لينظر في أمره و يعرف ماله من الثواب ان آمن وما عليه من العقاب ان أصر على الشرك ثم بعد ان تبلغه مأمنه قاتله من غير غدر ولا خيانة فقد خرج من جوارك و رجع الى ما كان عليه من اباحة دمه ووجوب قتله حيث يوجد عن سعيد بن ابي عروبة قال كان الرجل يجيء اذا سمع كتاب الله وأقر به وأسلم فذاك الذي دعي اليه وان أنكر ولم يقر به رد مأمنه ثم نسخ ذلك فقال وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة وعن ابن زيد قال ان لم يوافقه ما يقص عليه و يخبر به فأبلغه مأمنه وهذا ليس بمنسوخ قال الحسن هذه الآية محكمة الى يوم القيامة (ذلك) أي الأمر بالاجارة وابلاغ المأمن (بأنهم قوم لا يعلمون) ما الايمان وما حقيقة ما تدعوهم اليه بسبب فقدانهم العلم النافع المميز بين الخير والشر في الحال والمآل فلا بد لهم من أمان بقدر زمان يسمعون فيه القرآن ويتدبرون (كيف يكون للمشركين) الاستفهام هنا للتعجب المتضمن للانكار ولهذا حسن بعده الا والمراد بالمشركين الناكثون لان البراءة هي في شأنهم (عهد عند الله) يأمنون به من عذابه (وعند رسوله) وقيل معنى الآية محال ان يثبت لهؤلاء عهد وهم اضدادكم مضمرون للغدر فلا تطمعوا في ذلك ولا تحدثوا به أنفسكم والمعنى ليس لمن لم يف بعهده ان يفي الله ورسوله له بالعهد ثم استدرك فقال (الا الذين عاهدتم) أي لكن

الذين عاهدتم ولم ينقضوا ولم ينكثوا أفلا تقاتلوهم وقيل الاستثناء متصل وفيه احتمالان أحدهما انه منصوب على أصل الاستثناء من المشركين والثاني انه مجرور على البدل منهم (عند المسجد الحرام) أي عند قربه يوم الحديبية قاله قتادة والمراد به جميع الحرم كما هي عادته في القرآن الا ما استثني (فما استقاموا لكم) أي فما داموا مستقيمين لكم على العهد الذي بينكم وبينهم ولم ينقضوه وفي ما وجهان أحدهما انها مصدرية زمانية والثاني انها شرطية (فاستقيموا لهم) على الوفاء به قيل هم بنو بكر وقيل بنو كنانة وبنو ضمرة وقال ابن عباس هم قريش وعن ابن زيد نحوه وقال السدي هم بنو جذيمة وقال مجاهد هم أهل العهد من خزاعة (ان الله يحب المتقين) اشارة الى أن الوفاء بالعهد والاستقامة عليه من أعمال المتقين فيكون تعليلا للامر بالاستقامة وقد استقام صلى الله عليه وآله وسلم على عهدهم حتى نقضوا باعانة بني بكر على خزاعة (كيف) يكون لهم عهد وهو زيادة ترق في استبعاد بقاء عهد لهم ولهذا أعاد الاستفهام التعجبي للتأكيد والتقرير (و) الحال انهم (ان يظهروا عليكم) بالغلبة لكم ويظفروا بكم (لا يرقبوا) أي لا يراعوا أو لا يحفظوا أو لا ينتظروا فيكم (الا ولا ذمة) قال في الصحاح الال العهد والقرابة قال الزجاج الال عندي على ما توجبه اللغة يدور على معنى الحدة ومنه الالة للحربة ومنه اذن مؤللة أي محددة وقال الفراء المراد به القرابة وقيل ان الال الجؤار وهو رفع الصوت عند التحالف وذلك انهم كانوا اذا تحالفوا جأروا وابذلك جؤارا ويجمع الال في القلة على آل وفي الكثرة على إلال كقدح وقداح والأل بالفتح قيل شدة القنوط قال الهروي في الحديث عجب ربكم من ألكم وقنوطكم وفي القاموس الال بالكسر العهد والحلف وموضع والجوار والقرابة والمعدن والحقد والعداوة والربوبية واسم الله تعالى وكل اسم آخره ال أو ايل فمضاف الى الله تعالى والوحي والامان والجزع عند المصيبة ومنه ما روي عجب ربكم من الكم فمن رواه بالكسر ورواية الفتح أكثر اه وقال ابن زيد والسدي وأبو عبيدة الال العهد وقيل الذمة والنديم وقال الازهري هو اسم لله بالعبرانية وأصله من الاليل وهو البريق يقال أل لونه يؤل ألا أي صفا ولمع والذمة العهد وجمعها ذمم فمن فسر الال بالعهد كان التكرير للتأكيد مع اختلاف اللفظين وقيل الذمة الضمان يقال هو في ذمتي أي في ضماني وبه سمي أهل الذمة لدخولهم في ضمان المسلمين ويقال له ذمة وذمام ومذمة

وشى

الله زوى لي الارض حتى رأيت مشارقها ومغاربها وان ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها واني أعطيت الكنزين الأبيض والاحمر واني سألت ربي عز وجل ان لا يهلك أمتي بسنة بعامة وان لا يسلط عليهم عدوا فيهلكهم بعامة ولا يلبسهم شيعا وان لا يذيق بعضهم بأس بعض فقال يا محمد اني اذا قضيت قضاء فانه لا يرد واني أعطيتك ان لا أهلكهم بسنة بعامة وان لا أسلط عليهم عدوا ممن سواهم فيهلكهم بعامة حتى يكون بعضهم يهلك بعضا وبعضهم يقتل بعضا وبعضهم يسبي بعضا قال وقال النبي صلى الله عليه وسلم اني لا أخاف على أمتي الا الائمة المضلين فاذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنهم الى يوم القيامة ليس في شيء من الكتب الستة واسناده جيد قوي وقد رواه ابن مردويه من حديث حماد بن زيد وعباد بن منصور وقتادة ثلاثتهم عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحوه فالله أعلم (حديث) الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا عبد الله بن اسمعيل بن ابراهيم الهاشمي وميمون بن اسحق بن الحسن الحنفي قالا حدثنا أحمد بن عبد الجبار حدثنا محمد بن فضيل عن أبي مالك الاشجعي عن نافع بن خالد الخزاعي عن أبيه قال وكان أبوه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من أصحاب الشجرة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا صلى والناس حوله صلى صلاة خفيفة تامة الركوع والسجود قال فجلس يوما فأطال الجلوس حتى أومأ بعضنا الى بعض أن اسكتوا انه ينزل عليه فلما فرغ قال له بعض القوم يا رسول الله لقد أطلت الجلوس حتى أومأ بعضنا الى بعض انه ينزل عليك قال لا ولكنها كانت صلاة رغبة ورهبة سألت الله فيها ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألت الله ان لا يعذبكم بعذاب عذب به من كان قبلكم فأعطانيها وان لا يسلط على أمتي عدوا يستبيحها فأعطانيها وسألته أن لا يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض فمنعنيها قال قلت أبوك سمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نعم سمعته يقول انه سمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم عدد اصابعي هذه عشر أصابع (حديث آخر) قال الامام أحمد حدثنا يونس هو ابن محمد المؤدب حدثنا الليث هو ابن سعد عن أبي وهب الخولاني عن رجل قد سماه عن أبي بصرة الغفاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سألت ربي عز وجل أربعا فأعطاني ثلاثا ومنعني واحدة سألت الله ان لا يجمع أمتي

على ضلالة فأعطانيها وسألت الله ان لا يظهر عليهم عدوا من غيرهم فأعطانيها وسألت الله ان لا يهلكهم بالسنين كما أهلك الأمم قبلهم فأعطانيها وسألت الله عزوجل ان لا يلبسهم شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة (حديث آخر) قال الطبراني حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدثنا منجاب بن الحرث حدثنا أبو حذيفة الثعلبي عن زياد بن علاقة عن جابر بن سمرة السوائي عن علي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سألت ربي ثلاث خصال فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة فقلت يارب لا تهلك أمتي جوعا فقال هذه لك قلت يارب لا تسلط عليهم

عدوا من غيرهم يعني أهل الشرك فيجتاحهم قال ذلك لك قلت يارب لا تجعل بأسهم بينهم قال فمنعني هذه (حديث آخر) قال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن ابراهيم عن أحمد بن محمد بن عاصم حدثنا أبو الدرداء المروزي حدثنا اسحق بن عبد الله بن كيسان حدثني أبي عن عكرمة عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال دعوت ربي عزوجل أن يرفع عن أمتي أربعا فرفع الله عنهم ثنتين وأبى علي ان لا يرفع عنهم ثنتين دعوت ربي أن يرفع الرجم من السماء والغرق من الارض وأبى الله ان يرفع اثنتين القتل والهرج (طريق أخرى) عن ابن عباس أيضا قال ابن مردويه حدثني عبد الله بن محمد بن زيد حدثني الوليد بن أبان حدثنا جعفر بن منير حدثنا أبو بدر شجاع بن الوليد حدثنا عمرو بن قيس عن رجل عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض قال فقام النبي صلى الله عليه وسلم فتوضأ ثم قال اللهم لا ترسل على أمتي عذابا من فوقهم ولا من تحت أرجلهم ولا تلبسهم شيعا ولا تذق بعضهم بأس بعض قال فأتاه جبريل فقال يا محمد ان الله قد أجار أمتك أن يرسل عليهم عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم (حديث آخر) قال ابن مردويه حدثنا أحمد بن محمد بن عبد الله البزار حدثنا عبد الله بن أحمد بن موسى حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد حدثنا عمرو بن محمد العنقزي حدثنا أسباط عن السدي عن أبي المنهال عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال سألت ربي لأمتي أربع خصال فأعطاني ثلاثا ومنعني واحدة سألته ان لا تكفر أمتي واحدة فأعطانيها وسألته أن لا يعذبهم بما عذب به الأمم قبلهم فأعطانيها وسألته ان

وهي الذم قاله ابن عرفة وقال الراغب الذمام ما يذم الرجل على اضاعته من عهد وكذلك الذمة والمذمة بالفتح والكسر وقيل لي مذمة فلا تهتكها وقال غيره سميت ذمة لان كل حرمة يلزمك من تضييعها الذم يقال لها ذمة وقال أبو عبيدة والازهري الذمة الأمان كما في قوله صلى الله عليه وآله وسلم ويسعى بذمتهم أدناهم وروى عنه أيضا ان الذمة ما يتذمم به أي ما يجتنب فيه الذم وقال قتادة الال الحلف وقال أبو مجلز هو الله تعالى وعن مجاهد وعكرمة مثله وقال ابن عباس الال القرابة والذمة العهد (يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم) أي يقولون بألسنتهم ما فيه مجاملة ومحاسنة لكم طلبا لمرضاتكم وتطييب قلوبكم وقلوبهم تأبى ذلك وتخالفه وتود ما فيه مساءتكم ومضرتكم كما يفعله أهل النفاق وذو الوجهين والكلام مستأنف لبيان حالهم عند عدم الظفر فهو مقابل في المعنى لقوله وان يظهروا عليكم الخ يقال أبى يأبى أي اشتد امتناعه فكل اباء امتناع من غير عكس ولم يصب من فسره بمطلق الامتناع ومجيء المضارع منه على يفعل بفتح العين شاذ ومنه قلى يقلى في لغة قاله السمين ثم حكم عليهم بالفسق فقال (وأكثرهم فاسقون) وهو التمرد والتجري والخروج عن الحق لنقضهم العهود وعدم مراعاتهم لها ثم وصفهم بقوله (اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا) أي استبدلوا بآيات القرآن التي من جملتها ما فيه الأمر بالوفاء بالعهود ثمنا حقيرا وهو ما آثروه من حطام الدنيا أي تركوا اتباعها للشهوات والهوى وكانت شهواتهم أكلة أطعمها أبو سفيان حملتهم على نقض العهد (فصدوا عن سبيله) أي فعدلوا وأعرضوا عن سبيل الحق أو صرفوا الناس عنه وذلك ان أهل الطائف أمدوهم بالاموال ليقووهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (انهم ساء ما كانوا يعملون) من الشرك ونقضهم العهد ومنعهم الناس عن الدخول في دين الاسلام (لا يرقبون في مؤمن الا ولا ذمة) قال النحاس ليس هذا تكريرا ولكن الاول لجميع المشركين والثاني لليهود خاصة والدليل على هذا اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا يعني اليهود وقيل هذا فيه مراعاة لحقوق المؤمنين على الاطلاق وفي الاول المراعاة لحقوق طائفة من المؤمنين خاصة وقيل الاول وقع جوابا لقوله وان يظهروا والثاني وقع خبرا عن تقبيح حالهم (وأولئك هم المعتدون) أي المجاوزون للحلال الى الحرام بنقض العهد أو المبالغون في الشر والتمرد الى الغاية القصوى (فان تابوا) عن الشرك وعن نقض

لايظهر عليهم عدوا من غيرهم فاعطانيها وسألته أن لايجعل بأسهم بينهم فمنعنيها ورواه ابن أبي حاتم عن أبي سعيد بن يحيى بن سعيد القطان عن عمرو بن محمد العنقزي به نحوه (طريق أخرى) وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن ابراهيم حدثنا محمد بن يحيى حدثنا أبو كريب حدثنا زيد بن الحباب حدثنا كثير بن زيد الليثي المدني حدثني الوليد بن رباح مولى آل أبي ذباب سمع أبا هريرة يقول قال النبي صلى الله عليه وسلم سألت ربي ثلاثا فاعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألته أن لا يسلط على أمتي عدوا من غيرهم فاعطاني وسألته ان لايهلكهم بالسنين فاعطاني (٧٢) وسألته أن لايلبسهم شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض فمنعني ثم رواه ابن مردويه باسناده عن سعد بن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه ورواه البزار من طريق عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه (أثر آخر) قال سفيان الثوري عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب قال أربع في هذه الأمة قد مضت اثنتان وبقيت اثنتان قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم قال الرجم أو من تحت أرجلكم قال الخسف أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض قال سفيان يعني الرجم والخسف وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض قال فهي أربع خلال منها اثنتان بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين سنة ألبسوا شيعا وذاق بعضهم بأس بعض وبقيت اثنتان لابد منهما واقعتان الرجم والخسف رواه أحمد عن وكيع عن أبي جعفر ورواه ابن أبي حاتم وقال ابن أبي حاتم حدثنا المنذر بن شاذان حدثنا أحمد بن اسحق الحسن حدثنا أبو الأشهب عن الحسن في قوله قل هو القادر على أن يبعث الآية قال حبست عقوبتها حتى عمل ذنبها فلما عمل ذنبها أرسلت عقوبتها وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وأبو مالك والسدي وابن زيد وغير واحد في قوله عذابا من فوقكم يعني الرجم أو من تحت أرجلكم يعني الخسف وهذا هو اختيار ابن جرير ورواه ابن جرير عن يونس عن ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم قال كان عبد الله بن مسعود يصيح وهو في المجلس

العهد الى الوفاء به قال قتادة يقول ان تركوا اللات والعزى وشهدوا أن لا اله الا الله وان محمدا رسول الله (وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة) أي التزموا أحكام الاسلام المفروضة (فاخوانكم) أي فهم اخوانكم (في الدين) أي في دين الاسلام لهم مالكم وعليهم ماعليكم وكرره لاختلاف جزاء الشرط اذ جزاء الشرط في الاول تخلية سبيلهم في الدنيا وفي الثاني أخوتهم لنا في الدين وهي ليست عين تخليتهم بل سببها (ونفصل الآيات) أي نبينها ونوضحها (لقوم يعلمون) بما فيها من الاحكام ويفهمونه وخص أهل العلم لانهم المنتفعون بها والمراد بالآيات مامر من الآيات المتعلقة بأحوال المشركين على اختلاف أنواعهم وعن ابن عباس قال حرمت هذه الآية قتال أودماء أهل الصلاة وقال ابن مسعود أمرتم بالصلاة والزكاة فمن لم يزك فلا صلاة له وقال ابن زيد افترضت الصلاة والزكاة جميعا لم يفرق بينهما وأبى أن يقبل الصلاة الا بالزكاة وقال يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه يريد ما قاله في حق من منع الزكاة والله لا أفرق بين شيئين جمع الله بينهما يعني الصلاة والزكاة (وان نكثوا أيمانهم) مقابل قوله فان تابوا والنكث النقض وأصله نقض الخيط بعد ابرامه ثم استعمل في كل نقض ومنه نقض الأيمان والعهود على طريق الاستعارة (من بعد عهدهم) أي من بعد ان عاهدوكم والمعنى ان الكفار ان نكثوا العهود التي عاهدوا بها المسلمين ووثقوا لهم بها (وطعنوا في دينكم) أي وضموا الى ذلك الطعن في دين الاسلام والقدح فيه وأظهروا ما في ضمائرهم من الشر وأخرجوه من القوة الى الفعل حسبما ينبئ عنه قوله تعالى وان يظهروا عليكم لايرقبوا الآية وبنوا على ماهم عليه من النكث لا انهم ارتدوا بعد الايمان كما قيل وعطف طعنوا على ماقبله مع ان نقض العهد كاف في اباحة القتل لزيادة تحريض المؤمنين على قتالهم وقيل عطف تفسير (فقاتلوا) أي فقد وجب على المسلمين قتالهم (أئمة الكفر) بهمزتين وبابدال الثانية ياء صريحة وفيه وضع الظاهر موضع المضمر وهي جمع امام والمراد صناديد المشركين وأهل الرياسة فيهم على العموم وعن قتادة قال هم أبو سفيان بن حرب وأمية بن خلف وعتبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وسهيل بن عمرو وهم الذين نكثوا عهد الله وهموا باخراج الرسول من مكة وعن مالك بن أنس مثله وقال ابن عباس رؤس قريش وعن

أوعلى المنبر يقول ألا أيها الناس انه قد نزل بكم ان الله يقول قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم لو جاءكم عذاب من السماء لم يبق منكم أحدا أو من تحت أرجلكم لو خسف بكم الارض أهلككم ولم يبق منكم أحدا أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض ألا انه نزل بكم أسوأ الثلاث (قول ثان) قال ابن جرير وابن أبي حاتم حدثنا يونس بن عبد الاعلى اخبرنا ابن وهب سمعت خلاد بن سليمان يقول سمعت عامر بن عبد الرحمن يقول ان ابن عباس كان يقول في هذه الآية قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم فأئمة السوء أو من تحت (٧٣) أرجلكم فخدم السوء وقال علي بن أبي طلحة

الحسن انهم الديلم وعن حذيفة قال ماقوتل أهل هذه الآية ولم يأت أهلها وعن علي نحوه وقال مجاهد هم فارس والروم والاولى ان الآية عامة في كل رؤساء الكفر من غير تقييد بزمن معين أو بطائفة معينة اعتبارا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ومما يفيد ذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير انه كان في عهد أبي بكر الصديق الى الناس حين وجههم الى الشام أنه قال انكم ستجدون قوما مجوفة رؤسهم فاضربوا مقاعد الشيطان منهم بالسيوف فوالله لأن أقتل رجلا منهم أحب الي من أن أقتل سبعين من غيرهم وذلك بأن الله يقول فقاتلوا أئمة الكفر (انهم لا أيمان لهم) قال الزمخشري هذه الجملة تعليل لما قبلها والأيمان جمع يمين أي لا عهد لهم وسمي العهد يمينا لاشتماله عليه غالبا والمعنى لا أيمان بارة لهم وان وجدت صورة ويمين الكافر شرعية عندنا والاستدلال به على ان يمين الكافر ليست يمينا ضعفه ظاهر لان المراد نفي الوثوق بقرينة وان نكثوا أيمانهم لا يقال الكلام باعتبار اعتقادهم لان المخاطب هم المؤمنون قال حذيفة لا عهود لهم وعن عمار مثله وقرئ بكسر الهمزة والمعنى ان هؤلاء الناكثين للايمان الطاعنين في الدين ليسوا من أهل الايمان بالله حتى يستحقوا العصمة لدمائهم وأموالهم فقتالهم واجب على المسلمين وقيل لا وفاء لهم بالعهود وقيل هو من الامان أي لا يعطون أمانا بعد نكثهم وطعنهم يعني لا تؤمنوهم بل اقتلوهم حيث وجدتموهم (لعلهم ينتهون) عن كفرهم ونكثهم وطعنهم في دين الاسلام والمعنى ان قتالهم يكون الى غاية هي الانتهاء عن ذلك وقد استدل بهذه الآية على ان الذمي اذا طعن في الدين لا يقتل حتى ينكث العهد كما قال أبو حنيفة لان الله انما أمر بقتلهم بشرطين أحدهما نقض العهد والثاني الطعن في الدين وذهب مالك والشافعي وغيرهما الى أنه اذا طعن في الدين قتل لانه ينتقض عهده بذلك قالوا وكذلك اذا حصل من الذمي مجرد النكث فقط من دون طعن في الدين فانه يقتل (ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم) الهمزة الداخلة على حرف النفي للاستفهام التوبيخي مع ما يستفاد منها من التحضيض على القتال والمبالغة في تحققه والمعنى ان من كان حاله كحال هؤلاء من نقض العهد فهو حقيق بأن لا يترك قتاله وان يوبخ من فرط في ذلك (وهموا باخراج الرسول) من مكة حين اجتمعوا في دار الندوة لكن لم يخرجوه بل خرج باختياره باذن الله في الهجرة وتقدم انهم هموا بأحد أمور ثلاثة

عن ابن عباس عذابا من فوقكم يعني أمراءكم أو من تحت أرجلكم يعني عبيدكم وسفلتكم وحكى ابن أبي حاتم عن أبي سنان وعمير بن هانئ نحو ذلك قال ابن جرير وهذا القول وان كان له وجه صحيح لكن الاول أظهر وأقوى وهو كما قال ابن جرير رحمه الله ويشهد له بالصحة قوله تعالى أأمنتم من في السماء ان يخسف بكم الارض فاذا هي تمور أم أمنتم من في السماء ان يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير وفي الحديث ليكونن في هذه الامة قذف وخسف ومسخ وذلك مذكور مع نظائره في أمارات الساعة واشراطها وظهور الآيات قبل يوم القيامة وسنأتي في موضعها ان شاء الله تعالى وقوله أو يلبسكم شيعا يعني يجعلكم ملتبسين شيعا فرقا متخالفين قال الوالبي عن ابن عباس يعني الاهواء وكذا قال مجاهد وغير واحد وقد ورد في الحديث المروي عنه من طرق عنه صلى الله عليه وسلم انه قال ستفترق هذه الامة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار

الا واحدة وقوله تعالى ويذيق بعضكم بأس بعض قال ابن عباس وغير واحد يعني يسلط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل وقوله تعالى انظر كيف نصرف الآيات اي نبينها ونوضحها ونقررها لعلهم يفقهون اي يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه قال زيد بن أسلم لما نزلت قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيوف قالوا ونحن نشهد أن لا اله الا الله وانك رسول الله قال نعم فقال بعضهم لا يكون هذا أبدا أن يقتل بعضنا بعضا ونحن مسلمون فنزلت انظر كيف نصرف

الآيات لعلهم يفقهون وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل لكل نبإ مستقر وسوف تعلمون رواه ابن أبي حاتم وابن جرير (وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل لكل نبإ مستقر وسوف تعلمون وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون) يقول تعالى وكذب به أي بالقرآن الذي جئتهم به والهدى والبيان قومك يعني قريشا وهو الحق أي الذي ليس وراءه حق (٧٤) قل لست عليكم بوكيل أي لست عليكم بحفيظ ولست بموكل بكم كقوله وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر أي إنما علي البلاغ وعليكم السمع والطاعة فمن اتبعني سعد في الدنيا والآخرة ومن خالفني فقد شقي في الدنيا والآخرة ولهذا قال لكل نبإ مستقر قال ابن عباس وغير واحد أي لكل نبإ حقيقة أي لكل خبر وقوع ولو بعد حين كما قال ولتعلمن نبأه بعد حين وقال لكل أجل كتاب وهذا تهديد ووعيد أكيد ولهذا قال بعده وسوف تعلمون وقوله وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا أي بالتكذيب والاستهزاء فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره أي حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب وإما ينسينك الشيطان والمراد بذلك كل فرد فرد من آحاد الأمة أن لا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير مواضعها فإن جلس أحد معهم ناسيا فلا يقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ولهذا ورد في الحديث رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه وقال السدي عن أبي مالك وسعيد بن جبير في قوله وإما ينسينك الشيطان قال إن نسيت فذكرت فلا تقعد معهم وكذا قال مقاتل بن حيان وهذه الآية هي المشار إليها في قوله وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم الآية أي إنكم إذا جلستم معهم وأقررتموهم على ذلك فقد ساويتموهم فيما هم فيه وقوله وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء أي إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم في ذلك فقد برئوا من عهدتهم وتخلصوا من إثمهم قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن السدي

قتله وحبسه وإخراجه وإنما اقتصر هنا على الهم بالإخراج لأنه هو الذي وقع أثره في الخارج بحسب الظاهر وكانت دار الندوة مكان اجتماع القوم للتحدث وكان قد بناها قصي وقد أدخلت الآن في المسجد فهي مقام الحنفي الآن (وهم بدؤكم) بالقتال (أول مرة) أي يوم بدر قال مجاهد قتال قريش حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم وهمهم بإخراج الرسول زعموا أن ذلك عام عمرة النبي صلى الله عليه وسلم في العام التاسع للحديبية نكثت قريش العهد عهد الحديبية وجعلوا في أنفسهم إذا دخلوا مكة أن يخرجوا منها فذلك همهم بإخراجه فلم تتابعهم خزاعة على ذلك فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة قالت قريش لخزاعة عميتمونا عن إخراجه فقاتلوهم فقتلوا منهم رجالا (أتخشونهم) الاستفهام للتوبيخ والتقريع أي أتخشون أن ينالكم منهم مكروه فتتركون قتالهم لهذه الخشية ثم بين ما يجب أن يكون الأمر عليه فقال (فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين) أي هو أحق بالخشية منكم فإنه هو الضار النافع في الحقيقة ومن خشيتكم له أن تقاتلوا من أمركم بقتاله فإن قضية الإيمان توجب ذلك عليكم ثم زاد في تأكيد الأمر بالقتال فقال (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم) ورتب على هذا الأمر فوائد الأولى تعذيب الله للكفار بأيدي المؤمنين بالقتل والأسر والثانية إخزاؤهم قيل بالأسر وقيل بما نزل بهم من الذل والهوان والثالثة نصر المسلمين عليهم وغلبتهم لهم والرابعة أن الله يشفي بالقتال صدور قوم مؤمنين ممن لم يشهد القتال ولا حضره والخامسة أنه سبحانه يذهب بالقتال غيظ قلوب المؤمنين الذي نالهم بسبب ما وقع من الكفار من الأمور الجالبة للغيظ وحرج الصدر فإن قيل شفاء الصدور وإذهاب غيظ القلوب كلاهما بمعنى فيكون تكرارا قيل في الجواب إن القلب أخص من الصدر وقيل إن شفاء الصدور إشارة إلى الوعد بالفتح ولا ريب أن الانتظار لنجاز الوعد مع الثقة به فيه شفاء للصدور وإن إذهاب غيظ القلوب إشارة إلى وقوع الفتح وقد وقعت للمؤمنين ولله الحمد هذه الأمور كلها عن عكرمة قال نزلت هذه الآية في خزاعة وعن مجاهد والسدي وقتادة نحوه وقد ساق القصة ابن إسحق في سيرته وأورد فيها النظم الذي أرسلته خزاعة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أوله

يا رب إني ناشد محمدا ✽ حلف أبينا وأبيه الأتلدا

وأخرج

عن أبي مالك عن سعيد بن جبير قوله وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء قال ما عليك أن يخوضوا في آيات الله اذا فعلت ذلك أي اذ تجنبتهم وأعرضت عنهم وقال آخرون بل معناه ان جلسوا معهم فليس عليهم من حسابهم من شيء وزعموا أن هذا منسوخ بآية النساء المدنية وهي قوله انكم اذا مثلهم قاله مجاهد والسدي وابن جريج وغيرهم وعلى قولهم يكون قوله ولكن ذكرى لعلهم يتقون اي ولكن أمرناكم بالاعراض عنهم حينئذ تذكيرا لهم عما هم فيه لعلهم يتقون ذلك ولا يعودون اليه (وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت (٧٥) ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وان تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) يقول تعالى وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا أي دعهم وأعرض عنهم وأمهلهم قليلا فانهم صائرون الى عذاب عظيم ولهذا قال وذكر به أي ذكر الناس بهذا القرآن وحذرهم نقمة الله وعذابه الاليم يوم القيامة وقوله تعالى أن تبسل نفس بما كسبت أي لئلا تبسل قال الضحاك عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن والسدي تبسل تسلم وقال الوالبي عن ابن عباس تفضح وقال قتادة تحبس وقال مرة وابن زيد تؤاخذ وقال الكلبي تجزى وكل هذه العبارات متقاربة في المعنى وحاصلها الاسلام للهلكة والحبس عن الخير والارتهان عن درك المطلوب كقوله كل نفس بما كسبت رهينة الا أصحاب اليمين وقوله ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع أي لا قريب ولا أحد يشفع فيها كقوله من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون وقوله وان تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أي ولو بذلت كل مبذول ما قبل منها كقوله ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الارض ذهبا الآية وهكذا قال ههنا أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون (قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد اذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الارض حيران له أصحاب يدعونه الى الهدى ائتنا قل ان هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين وأن أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذي اليه تحشرون وهو الذي خلق السموات والارض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب

وأخرج القصة البيهقي في الدلائل ثم قال (ويتوب الله على من يشاء) وهو ابتداء كلام مستأنف يتضمن الاخبار بما سيكون وهو ان بعض الكافرين يتوب عن كفره كما وقع من بعض أهل مكة يوم الفتح فانهم أسلموا وحسن اسلامهم كأبي سفيان وعكرمة وسهيل ابن عمرو فهؤلاء كانوا أئمة الكفر ثم من الله عليهم بالاسلام يوم فتح مكة (١) فان قيل كيف تقع التوبة جزاء المقاتلة أجيب بأن القتال قد يكون سببا لها اذا كانت من جهة الكفار واما اذا كانت من جهة المسلمين فوجهه ان النصر والظفر من جهة الله يكون سببا لخلوص النية والتوبة عن الذنوب (والله عليم حكيم أم حسبتم أن تتركوا) أم هذه هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة والاستفهام للتوبيخ وحرف الاضراب للدلالة على الانتقال من كلام الى آخر والمعنى كيف يقع الحسبان منكم بأن تتركوا على ما أنتم عليه وقوله ان تتركوا في موضع مفعولي الحسبان عند سيبويه وقال المبرد انه حذف الثاني والتقدير أم حسبتم أن تتركوا من غير أن تبتلوا بما يظهر به المؤمن والمنافق الظهور الذي يستحق به الثواب والعقاب يعني بدون تكليفكم بالقتال الذي سئمتموه (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) الواو حالية ولما للنفي مع التوقع والمراد من نفي العلم نفي المعلوم بالطريق البرهاني اذ لو شم رائحة الوجود لعلم قطعا فلما لم يعلم لزم عدمه قطعا والمعنى كيف تحسبون انكم تتركون ولما يتبين المخلص منكم في جهاده من غير المخلص وما في لما من التوقع منبه على ان ذلك سيكون وفائدة التعبير عما ذكر من عدم التبين بعدم علم الله تعالى أن المقصود هو التبين من حيث كونه متعلقا للعلم ومدارا للثواب وعدم التعرض لحال المقصرين لما أن ذلك بمعزل من الاندراج تحت ارادة أكرم الاكرمين وجملة (ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) معطوفة على جاهدوا داخلة معه في حكم النفي واقعة في حيز الصلة والوليجة من الولوج وهو الدخول ولج يلج ولوجا اذا دخل فالوليجة الدخيلة قال أبو عبيدة كل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وليجة ويكون للمفرد وغيره بلفظ واحد وقد يجمع على ولائج وولج كصحائف وصحف قال الفراء الوليجة البطانة من المشركين وقيل وليجة الرجل من يداخله في باطن أموره والمعنى واحد أي كيف تتخذون دخيلة أو بطانة من المشركين تفشون اليهم اسراركم وتعلمونهم أموركم من دون الله وقال قتادة وليجة يعني خيانة وقال الضحاك خديعة وقال الراغب الوليجة

(١) قوله فان قيل الخ كذا في أصله ولعله مرتب على قراءة نصب يتوب كما يؤخذ من عبارة الكشاف اه مصححه

والشهادة وهو الحكيم الخبير) قال السدي قال المشركون للمسلمين اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد فأنزل الله عز وجل قل أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا أي في الكفر بعد اذ هدانا الله فيكون مثلنا مثل الذي استهوته الشياطين في الارض يقول مثلكم ان كفرتم بعد ايمانكم كمثل رجل خرج مع قوم على الطريق فضل الطريق فحيرته الشياطين واستهوته في الارض وأصحابه على الطريق فجعلوا يدعونه اليهم يقولون ائتنا فانا على الطريق فأبى أن يأتيهم فذلك مثل من تبعهم بعد المعرفة بمحمد صلى الله عليه وسلم (٧٦) ومحمد هو الذي يدعو الى الطريق والطريق هو الاسلام رواه ابن جرير

وقال قتادة استهوته الشياطين في الارض أضلته في الارض يعني استهوته سيرته كقوله تهوى اليهم وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قل أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا الآية هذا مثل ضربه الله للآلهة ومن يدعو اليها والدعاة الذين يدعون الى هدى الله عز وجل كمثل رجل ضل عن الطريق تائها اذ ناداه مناديا فلان بن فلان هلم الى الطريق وله أصحاب يدعونه يا فلان هلم الى الطريق فان اتبع الداعي الاول انطلق به حتى يلقيه الى الهلكة وان أجاب من يدعوه الى الهدى اهتدى الى الطريق وهذه الداعية التي تدعو في البرية من الغيلان يقول مثل من يعبد هذه الآلهة من دون الله فانه يرى أنه في شئ حتى يأتيه الموت فيستقبل الندامة والهلكة وقوله كالذي استهوته الشياطين في الارض هم الغيلان يدعونه باسمه واسم أبيه وجده فيتبعها ويرى أنه في شئ فيصبح وقد رمته في هلكة وربما أكلته أو تلقيه في مضلة من الارض يهلك فيها عطشا فهذا مثل من أجاب الآلهة التي تعبد من دون الله عز وجل رواه ابن جرير وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد كالذي استهوته الشياطين في الارض حيران قال رجل حيران يدعوه أصحابه الى الطريق وذلك مثل من يضل بعد اذ هدى وقال العوفي عن ابن عباس قوله كالذي استهوته الشياطين في الارض حيران له أصحاب هو الذي لا يستجيب لهدى الله وهو رجل أطاع الشيطان وعمل في الارض بالمعصية وجار عن الحق وضل عنه وله أصحاب يدعونه الى الهدى ويزعمون ان الذي يأمرونه به هدى يقول الله ذلك لأوليائهم من الانس يقول ان الهدى هدى الله والضلال ما يدعو اليه الجن رواه ابن جرير ثم قال وهذا يقتضي أن أصحابه

تكملة

كل ما يتخذه الانسان معتمدا عليه وليس من قولهم فلان وليجة في القوم اذا دخل فيهم (والله خبير بما تعملون) أي بجميع أعمالكم (ما كان للمشركين) أي ما ينبغي ولا يصح لهم (أن يعمروا) من عمر يعمر وقرئ من أعمر يعمر أي يجعلون لها من يعمرها عمارة معتدا بها (مساجد الله) قرئ بالجمع واختاره أبو عبيدة قال النحاس لانه أعم والخاص يدخل تحت العام وقد يحتمل أن يراد بالجمع المسجد الحرام خاصة لقوله وعمارة المسجد الحرام وهذا جائز فيما كان من أسماء الاجناس كما يقال فلان يركب الخيل وان لم يركب الا فرسا وقرئ بالافراد ويراد به جنس المسجد وعلى هذا يندرج فيه سائر المساجد ويدخل المسجد الحرام دخولا أوليا قال النحاس وقد أجمعوا على الجمع في قوله انما يعمر مساجد الله قلت وهي أيضا محتملة للامرين وعن الحسن البصري انما قال تعالى مساجد والمراد المسجد الحرام لانه قبلة المساجد كلها وامامها فعامره كعامر جميع المساجد أو لان كل بقعة وناحية من بقاعه ونواحيه المختلفة الجهات مسجد على حياله بخلاف سائر المساجد اذ ليس في نواحيها اختلاف الجهة ويؤيده القراءة بالتوحيد قال الفراء العرب قد تضع الواحد مكان الجمع كقولهم فلان كثير الدرهم وبالعكس كقولهم فلان يجالس الملوك ولعله لم يجالس الا ملكا واحدا والمراد بالعمارة اما المعنى الحقيقي أو المعنى المجازي وهو ملازمته ودخوله والتعبد والقعود فيه وكلاهما ليس للمشركين اما الاول فلانه يستلزم المنة على المسلمين بعمارة مساجدهم واما الثاني فلكون الكفار لا عبادة لهم مع نهيهم عن قربان المسجد الحرام قيل لو أوصى كافر ببناء المسجد لم تقبل وصيته وكذا يمنع من دخول المسجد بغير اذن مسلم حتى لو دخل عزر وان دخل باذن لم يعزر ولكن لا بد من حاجة فيشترط للجواز الاذن والحاجة ويدل على جواز دخول الكافر المسجد بالاذن ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم شد ثمامة بن اثال الى سارية من سواري المسجد وهو كافر والاولى تعظيم المساجد ومنعهم من دخولها (شاهدين) باظهار ما هو كفر من نصب الاوثان والعبادة لها وجعلها آلهة فان هذا شهادة منهم (على أنفسهم بالكفر) وان أبوا ذلك بألسنتهم فكيف يجمعون بين أمرين متنافيين عمارة المساجد التي هي من شأن المؤمنين والشهادة على أنفسهم بالكفر التي ليست من شأن من يتقرب الى الله بعمارة مساجده وقيل المراد بهذه الشهادة قولهم في طوافهم لبيك لا شريك لك الا شريك هو لك

يدعونه الى الضلال ويزعمون أنه هدى قال وهذا خلاف ظاهر الآية فان الله أخبر أنهم يدعونه الى الهدى فغير جائز أن يكون ضلالا وقد أخبر الله أنه هدى وهو كما قال ابن جرير فان السياق يقتضي أن هذا الذي استهوته الشياطين في الارض حيران وهو منصوب على الحال أي في حال حيرته وضلاله وجهله وجه المحجة له أصحاب على المحجة سائرون فجعلوا يدعونه اليهم والى الذهاب معهم على الطريقة المثلى وتقدير الكلام فيأبى عليهم ولا يلتفت اليهم ولو شاء الله لهداه ولرد به الى الطريق ولهذا قال قل ان هدى الله هو الهدى كما قال ومن يهد الله فماله من مضل وقال ان تحرص على هداهم فان الله لا يهدي من يضل ومالهم من ناصرين وقوله وأمرنا لنسلم لرب العالمين أي نخلص له العبادة وحده لا شريك له وان أقيموا الصلاة واتقوه أي أمرنا باقامة الصلاة وبتقواه في جميع الاحوال وهو الذي اليه تحشرون أي يوم القيامة وهو الذي خلق السموات والارض بالحق أي بالعدل فهو خالقهما ومالكهما والمدبر لهما ولمن فيهما وقوله ويوم يقول كن فيكون يعني يوم القيامة الذي يقول الله كن فيكون عن أمره كلمح البصر أو هو أقرب ويوم منصوب اما على العطف على قوله واتقوه وتقديره واتقوا يوم يقول كن فيكون واما على قوله خلق السموات والارض أي وخلق يوم يقول كن فيكون فذكر بدء الخلق واعادته وهذا مناسب واما على اضمار فعل تقديره واذكر يوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك جملتان محلهما الجر على انهما صفتان لرب العالمين وقوله يوم ينفخ في الصور يحتمل أن يكون بدلا من قوله ويوم يقول كن فيكون يوم ينفخ في الصور ويحتمل أن يكون ظرفا لقوله وله الملك يوم ينفخ في الصور كقوله لمن الملك اليوم لله الواحد القهار وكقوله الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا وما أشبهه واختلف المفسرون في قوله يوم ينفخ في الصور فقال بعضهم المراد بالصور هنا جمع صورة أي يوم ينفخ فيها فتحيا قال ابن جرير كما يقال سور لسور البلد وهو جمع سورة والصحيح أن المراد بالصور القرن الذي ينفخ فيه اسرافيل عليه السلام قال ابن جرير والصواب عندنا ما تظاهرت به الاخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ان اسرافيل قد التقم الصور وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ وقال الامام أحمد حدثنا اسمعيل حدثنا سليمان التيمي عن أسلم العجلي عن بشر بن عفان عن عبد الله بن عمرو قال قال اعرابي

تملكه وما ملك مع قولهم نحن نعبد اللات والعزى وقيل ان اليهودي يقول هو يهودي والنصراني يقول هو نصراني والصابي يقول هو صابي والمشرك يقول هو مشرك وقال ابن عباس شهادتهم سجودهم للاصنام وقال الحسن كلامهم بالكفر وقيل شاهدين على رسولهم بالكفر لانه من أنفسهم وما أبعده عن المقام (أولئك حبطت أعمالهم) التي يفتخرون بها ويظنون انها من أعمال الخير مثل العمارة والحجابة والسقاية وفك العاني لانها مع الكفر لا تأثير لها أي بطلت ولم يبق لها اثر (وفي النار هم خالدون) في هذه الجملة الاسمية مع تقديم الظرف المتعلق بالخبر تأكيد لمضمونها ثم بين سبحانه من هو حقيق بعمارة المساجد فقال (انما يعمر مساجد الله) الظاهر ان الجمع هنا حقيقة لان المراد جميع المؤمنين العامرين لجميع مساجد أقطار الارض والتعمير بنحو البناء والتزيين بالفرش والسراج وبالعبادة وترك حديث الدنيا يقال عمرت الدار عمرا من باب قتل بنيتها والاسم العمارة بالكسر وعمرت الخراب عمرا من باب كتب فهو عامر أي معمور قال أبو السعود والمراد بالعمارة ما يعم مرمة ما استرم منها وقمها وتنظيفها ودراسة العلوم فيها ونحو ذلك انتهى وقد تقدم الكلام في وجه جمع المساجد وفي بيان ماهية العمارة ومن يجوز الجمع بين الحقيقة والمجاز حمل العمارة هنا عليهما قال أبو السعود ادراج المسجد الحرام في ذلك غير مخالف لمقتضى الحال فان الايجاب ليس كالسلب وقد قرئ بالافراد أيضا والمراد هنا أيضا قصر تحقق العمارة ووجودها على المؤمنين لا قصر جوازها ولياقتها أي انما يصح ويستقيم ان يعمرها عمارة يعتد بها (من آمن بالله) وحده (واليوم الآخر) الذي فيه من البعث والحساب والجزاء حسبما نطق به الوحي (وأقام الصلاة وآتى الزكاة) على ما علم من الدين فيندرج فيه الايمان بنبوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتما وقيل هو مندرج تحت الايمان بالله خاصة فان أحد جزأي كلمتي الشهادة علم للكل وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالايمان قال الله تعالى انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر أخرجه أحمد والدارمي والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن المنذر والبيهقي وعبد بن حميد وعن أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من بنى لله مسجدا صغيرا كان أو كبيرا بنى الله له بيتا في الجنة أخرجه الترمذي وعن عثمان بن عفان قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يا رسول الله ما الصور قال قرن ينفخ فيه وقد روينا حديث الصور بطوله من طريق الحافظ أبي القاسم الطبراني في كتابه المطولات
قال حدثنا أحمد بن الحسن المقري الابلي حدثنا أبو عاصم النبيل حدثنا اسمعيل بن رافع عن محمد بن زياد عن محمد بن كعب
القرظي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في طائفة من أصحابه فقال ان الله لما فرغ من
خلق السموات والارض خلق الصور فاعطاه اسرافيل فهو واضعه على فيه شاخصا ببصره الى العرش ينتظر متى يؤمر قلت يا رسول
الله وما الصور قال القرن قلت كيف هو قال عظيم والذي بعثني بالحق ان عظم دارة فيه لعرض السموات والارض

يقول من بنى مسجدا يبتغي به وجه الله بنى الله له بيتا في الجنة وقد وردت أحاديث كثيرة في استحباب ملازمة المساجد وعمارتها والتردد اليها للطاعات (ولم يخش) أحدا (الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) فيه حسم لأطماع الكفار في الانتفاع بأعمالهم فان الموصوفين بتلك الصفات الاربع اذا كان اهتداؤهم مرجوا فقط فكيف بالكفار الذين لم يتصفوا بشيء من تلك الصفات وقيل عسى من الله واجبة وقال ابن عباس كل عسى في القرآن فهي واجبة كقوله لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا وهي الشفاعة وقيل هي بمعنى خليق أي خليق أن يكونوا من المهتدين وقيل ان الرجاء راجع الى العباد قال ابن عباس يقول من وحد الله وآمن بما أنزل الله وأقام الصلوات الخمس ولم يعبد الا الله فهو من المهتدين فمن كان جامعا بين هذه الاوصاف فهو الحقيق بعمارة المساجد لا من كان خاليا منها أو من بعضها واقتصر على ذكر الصلاة والزكاة والخشية تنبيها بما هو أعظم أمور الدين على ما عداه مما افترضه الله على عباده لان كل ذلك من لوازم الايمان والاستفهام في قوله (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام) للانكار وهو استئناف خوطب به المشركون التفاتا عن الغيبة في قوله ما كان للمشركين ان يعمروا والسقاية والعمارة مصدران كالسعاية والحماية لا يتصور تشبيههما بالاعيان والجثث فلا بد من اضمار تقديره أجعلتم أهل سقاية الحاج أو أجعلتم سقاية الحاج كايمان من آمن ويؤيد الاول قراءة من قرأ أسقاة الحاج وعمرة المسجد جمع ساق وعامر وفيها تشبيه ذات بذات كما في الوجه الاول وعلى هذا لا يحتاج الى تقدير محذوف (كمن) أي كايمان أو كعمل من (آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله) حتى يتفق الموضوع والمحمول (لا يستوون عند الله) المعنى أن الله أنكر عليهم التسوية بين ما كان تعمله الجاهلية من الاعمال التي صورتها صورة الخير وان لم ينتفعوا بها وبين ايمان المؤمنين وجهادهم في سبيل الله وقد كان المشركون يفتخرون بالسقاية والعمارة ويفضلونهما على عمل المسلمين فأنكر الله عليهم ذلك فصرح سبحانه بالمفاضلة بين الفريقين وتفاوتهم وعدم استوائهم اي لا تساوي تلك الطائفة الكافرة الساقية للحجيج العامرة للمسجد الحرام هذه الطائفة المؤمنة بالله واليوم الآخر المجاهدة في سبيله ودل سبحانه بنفي الاستواء على نفي الفضيلة التي يدعيها المشركون أي اذا لم تبلغ أعمال الكفار

الى

ينفخ فيه ثلاث نفخات النفخة الاولى نفخة الفزع والثانية نفخة الصعق والثالثة نفخة القيام لرب العالمين يأمر الله اسرافيل بالنفخة الاولى فيقول انفخ فينفخ نفخة الفزع فيفزع أهل السموات والارض الا من شاء الله ويأمره فيطيلها ويديمها ولا يفتر وهي كقول الله وما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة ما لها من فواق فيسير الله الجبال فتمر مر السحاب فتكون سرابا ثم ترتج الارض بأهلها رجة فتكون كالسفينة المرمية في البحر تضربها الامواج تكفأ بأهلها كالقنديل المعلق في العرش ترججه الرياح وهي التي يقول يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة فيميل الناس على ظهرها وتذهل المراضع وتضع الحوامل وتشيب الولدان وتطير الشياطين هاربة من الفزع حتى تأتي الاقطار فتأتيها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع ويولي الناس مدبرين ما لهم من أمر الله من عاصم ينادي بعضهم بعضا وهو الذي يقول الله تعالى يوم التناد فبينما هو على ذلك اذ تصدعت الارض من قطر الى قطر فرأوا أمرا عظيما لم يروا مثله وأخذهم لذلك من الكرب والهول ما الله به عليهم ثم نظروا الى السماء فاذا هي كالمهل ثم انشقت فانتثرت نجومها وانخسفت شمسها وقمرها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الاموات لا يعلمون بشيء من ذلك قال أبو هريرة يا رسول الله من استثنى الله عز وجل حين يقول ففزع من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله قال اولئك الشهداء وانما يصل الفزع الى الاحياء وهم أحياء عند الله يرزقون وقاهم الله فزع ذلك اليوم وآمنهم منه وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه قال وهو الذي يقول الله عز وجل يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء

عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد فيقومون فى ذلك البلاء ماشاء الله الا انه يطول ثم يأمر الله اسرافيل بنفخة الصعق فينفخ نفخة الصعق فيصعق أهل السموات والارض الا من شاء الله فاذا هم قد خمدوا جاء ملك الموت الى الجبار عزوجل فيقول يارب قد مات أهل السموات والارض الا من شئت فيقول الله وهو أعلم بمن بقى فمن بقى فيقول يارب بقيت أنت الحى الذى لا تموت وبقيت حملة العرش وبقى جبريل وميكائيل فينطق الله العرش فيقول يارب يموت جبريل وميكائيل فيقول اسكت فانى كتبت الموت على كل من كان تحت عرشى فيموتان ثم يأتى ملك الموت الى الجبار فيقول يارب قد مات جبريل وميكائيل فيقول الله وهو أعلم بمن بقى فمن بقى فيقول بقيت أنت الحى الذى لا تموت وبقيت حملة عرشك فيقول الله ليمت حملة العرش فيموتوا ويأمر الله العرش فيقبض الصور من اسرافيل ثم يأتى ملك الموت فيقول يارب قد مات حملة عرشك فيقول الله وهو أعلم بمن بقى فمن بقى فيقول يارب بقيت أنت الحى الذى لا تموت وبقيت أنا فيقول الله أنت خلق من خلقى خلقتك لما رأيت فمت فيموت فاذا لم يبق الا الله الواحد القهار الاحد الذى لم يلد ولم يولد كان آخرا كما كان أولا طوى السموات والارض طى السجل للكتاب ثم دحاهما ثم تلقفهما ثلاث مرات ثم يقول أنا الجبار أنا الجبار ثلاثا ثم هتف بصوته لمن الملك اليوم ثلاث مرات فلا يجيبه أحد ثم يقول لنفسه لله الواحد القهار يقول الله يوم تبدل الارض غير الارض والسموات فيبسطهما ويسطحهما ثم يمدهما مد الاديم العكاظى لا ترى فيها عوجا ولا أمتا يزجر الله الخلق زجرة فاذا هم فى هذه المبدلة مثل ما كانوا فيها من الاولى من كان فى بطنها كان فى بطنها ومن كان على ظهرها كان على ظهرها ثم ينزل الله عليهم ماء من تحت العرش ثم يأمر الله السماء أن تمطر فتمطر أربعين يوما حتى يكون الماء فوقهم اثنى عشر ذراعا ثم يأمر الله الاجساد أن تنبت فتنبت كنبات الطراثيث أو كنبات البقل حتى اذا تكاملت أجسادهم فكانت كما كانت قال الله عزوجل ليحى حملة عرشى فيحيون ويأمر الله اسرافيل فيأخذ الصور فيضعه على فيه ثم يقول ليحى جبريل وميكائيل فيحييان ثم يدعو الله الارواح فيؤتى بها تتوهج أرواح المسلمين نورا وأرواح الكافرين ظلمة فيقبضها جميعا ثم يلقيها فى الصور ثم يأمر الله

الى أن تكون مساوية لاعمال المسلمين فكيف تكون فاضلة عليها كما يزعمون وهذا الكلام استئناف مؤكد لما علم من ابطال المساواة بالتوبيخ المستفاد من الاستفهام أى لا يستوى الفريقان ثم حكم عليهم بالظلم فقال (والله لا يهدى القوم الظالمين) أى انهم مع ظلمهم بما هم فيه من الشرك لا يستحقون الهداية من الله سبحانه وهو تعليل فى المعنى لنفى المساواة وفى هذا اشارة الى الفريق المفضول ثم صرح بالفريق الفاضل فقال (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة) أى الجامعون بين الايمان والهجرة والجهاد بالاموال والانفس أحق بما لديه من الخير من تلك الطائفة المشركة المفتخرة بأعمالها المحبطة الباطلة وفى قوله (عند الله) تشريف عظيم للمؤمنين (وأولئك) أى المتصفون بالصفات الثلاثة المذكورة (هم الفائزون) بسعادة الدارين المختصون بالفوز المحصلون لاصله بالنسبة لكون الغير أهل السقاية والعمارة والمحصلون لاكمله بالنسبة لكون الغير من لم يجمع الاوصاف المذكورة ثم فسر الفوز بقوله (يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات) التنكير فى الثلاثة للتعظيم والمعنى انها فوق وصف الواصفين وتصور المتصورين قال أبو حيان لما وصف الله المؤمنين بثلاث صفات الايمان والهجرة والجهاد بالنفس والمال قابلهم على ذلك بالتبشير بثلاث وبدأ بالرحمة فى مقابلة الايمان لتوقفها عليه وثنى بالرضوان الذى هو نهاية الاحسان فى مقابلة الجهاد الذى فيه بذل الانفس والاموال ثم ثلث بالجنات فى مقابلة الهجرة وترك الاوطان اشارة الى أنهم لما آثروا تركها بدلهم دارا عظيمة دائمة وهى الجنات انتهى (لهم فيها نعيم مقيم) الدائم المستمر الذى لا يفارق صاحبه (خالدين فيها أبدا) ذكر الابد بعد الخلود تأكيدا له (ان الله عنده أجر عظيم) مؤكدة لما قبلها مع تضمنها التعليل أى أعطاهم الله سبحانه هذه الاجور العظيمة لكون الاجر الذى عنده عظيما يهب منه ما يشاء لمن يشاء وهو ذو الفضل العظيم وهذه أعظم البشارات ونهاية المقصودات (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء) يعنى بطانة وأصدقاء تفشون اليهم أسراركم وتؤثرون المقام معهم على الهجرة والخطاب للمؤمنين كافة وهو حكم باق الى يوم القيامة يدل على قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين والمراد النهى لكل فرد من أفراد المخاطبين عن موالاة فرد من أفراد المشركين بقضية مقابلة الجمع بالجمع الموجب

اسرافيل أن ينفخ نفخة البعث فتخرج الارواح كأنها النحل قد ملأت ما بين السماء والارض فيقول وعزتي وجلالي ليرجعن كل روح الى جسده فدخل الارواح في الارض الى الاجساد فتدخل في الخياشيم ثم تمشي في الاجساد كما يمشي السم في اللديغ ثم تنشق الارض عنكم وأنا أول من تنشق الارض عنه فتخرجون سراعا الى ربكم تنسلون مهطعين الى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر حفاة عراة غرلا فتقفون موقفا واحدا مقداره سبعون عاما لا ينظر اليكم ولا يقضي بينكم فتبكون حتى تنقطع الدموع ثم تدمعون دما وتعرقون حتى يلجمكم (٨٠) أو يبلغ الاذقان ويقولون من يشفع لنا الى ربنا فيقضي بيننا فيقولون من أحق بذلك من أبيكم آدم خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وكلمه قبلا فيأتون آدم فيطلبون ذلك اليه فيأبى ويقول ما أنا بصاحب ذلك فيستقرون الانبياء نبيا نبيا كلما جاؤا نبيا أبى عليهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يأتوني فانطلق الى الفحص فأخر ساجدا قال أبو هريرة يا رسول الله وما الفحص قال قدام العرش حتى يبعث الله الي ملكا فيأخذ بعضدي فيرفعني فيقول لي محمد فأقول نعم يارب فيقول الله عز وجل ما شأنك وهو أعلم فأقول يارب وعدتني الشفاعة فشفعني في خلقك فاقض بينهم قال قد شفعتك أنا آتيكم أقضي بينكم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فارجع فاقف مع الناس فبينما نحن وقوف اذ سمعنا حسا من السماء شديدا فهالنا فنزل أهل السماء بمثل من في الارض من الجن والانس حتى اذا دنوا من الارض أشرقت الارض بنورهم وأخذوا مصافهم وقلنا لهم أفيكم ربنا قالوا لا ثم ينزلون على قدر ذلك من التضعيف حتى ينزل الجبار عز وجل في ظلل من الغمام والملائكة ويحمل عرشه يومئذ ثمانية وهو اليوم أربعة أقدامهم في تخوم الارض واتما
السفلى والارض والسموات الى حجزهم والعرش على مناكبهم لهم زجل في تسبيحهم يقولون سبحان ذي العرش والجبروت سبحان ذي الملك والملكوت سبحان الحي الذي لا يموت سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت سبوح قدوس قدوس قدوس سبحان ربنا الاعلى رب الملائكة والروح سبحان ربنا الاعلى الذي يميت الخلائق ولا يموت فيضع الله كرسيه حيث شاء من أرضه ثم يهتف بصوته يا معشر الجن والانس اني قد أنصت لكم منذ خلقتكم الى يومكم هذا أسمع قولكم وأبصر أعمالكم وصحفكم تقرأ عليكم

لانقسام الآحاد الى الآحاد كما في قوله وما للظالمين من أنصار لا عن موالاة طائفة منهم فان ذلك مفهوم من اللفظ دلالة لا عبارة وقالت طائفة من أهل العلم انها نزلت في الحض على الهجرة ورفض بلاد الكفر فيكون الخطاب لمن كان من المؤمنين بمكة وغيرها من بلاد العرب نهوا أن يوالوا الآباء والاخوة فيكونون لهم تبعا في سكنى بلاد الكفر وقال بعضهم حمل هذه الآية على الهجرة مشكل لان هذه السورة نزلت بعد الفتح وهي آخر القرآن نزولا والاقرب ان يقال ان الله تعالى لما أمر بالتبري عن المشركين قالوا كيف يمكن أن يقاطع الرجل أباه وأخاه وابنه فذكر الله تعالى ان مقاطعة الرجل اهله وأقاربه في الدين واجبة فالمؤمن لا يوالي الكافر وان كان أباه وأخاه وابنه وقال مجاهد هذه الآية متصلة بما قبلها نزلت في قصة العباس وطلحة وامتناعهما من الهجرة وقال ابن عباس لما أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الناس بالهجرة الى المدينة فمنهم من تعلق به أهله وأولاده يقولون ننشدك بالله أن لا تضيعنا فيرق لهم فيقيم عليهم ويدع الهجرة فأنزل الله هذه الآية وقال مقاتل نزلت في التسعة الذين ارتدوا عن الاسلام ولحقوا بمكة فنهى الله المؤمنين عن موالاتهم وأنزل هذه الآية والعبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب (ان استحبوا الكفر) أي أحبوا كما يقال استجاب بمعنى أجاب وهو في الاصل طلب المحبة أي ان اختاروا الكفر وأقاموا عليه (على الايمان) وتركوه وقد تقدم تحقيق المقام في سورة المائدة ثم حكم على من يتولى من استحب الكفر على الايمان من الآباء والاخوان بالظلم فقال (ومن يتولهم) فيه مراعاة لفظ من (منكم فأولئك) فيه مراعاة معناها (هم الظالمون) فدل ذلك على ان تولي من كان كذلك واختيار المقام معه على الهجرة والجهاد من أعظم الذنوب وأشدها ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم قائلا له (قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله) العشيرة الجماعة المجتمعة التي ترجع الى نسب وعقد واحد أو ود كعقد العشرة وعشيرة الرجل أهله وقرابته الادنون وهم الذين يعاشرونه ويتكثر بهم سواء بلغوا العشرة أم فوقها وهي اسم جمع وقرأ السلمي وأبو رجاء عشيراتكم بالجمع ووجهه ان لكل من المخاطبين عشيرة فحسن الجمع قال الاخفش لا تكاد العرب تجمع عشيرة على عشيرات

فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه ثم يأمر الله جهنم فيخرج منها عنق ساطع ثم يقول ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين وان اعبدوني هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون هذه جهنم التي كنتم توعدون وبها تكذبون وامتازوا اليوم أيها المجرمون فيميز الله الناس وتجثو الامم يقول الله تعالى وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى الى كتابها فيقضي الله عز وجل بين خلقه الا الثقلين الجن والانس فيقضي بين الوحوش والبهائم حتى انه ليقضي للجماء من ذات القرن فاذا فرغ من ذلك فلم يبق تبعة عند واحدة لاخرى قال الله كوني ترابا فعند ذلك يقول الكافر يا ليتني كنت ترابا ثم يقضي الله بين العباد فكان أول من يقضى فيه الدماء ويأتي كل قتيل في سبيل الله عز وجل ويأمر الله كل قتيل يحمل رأسه تشخب أوداجه يقول يا رب فيم قتلني هذا فيقول وهو أعلم فيم قتلته فيقول قتلتهم لتكون العزة لك فيقول الله له صدقت فيجعل الله وجهه مثل نور الشمس ثم تمر به الملائكة الى الجنة ويأتي كل من قتل غير ذلك يحمل رأسه تشخب أوداجه فيقول يا رب قتلني هذا فيقول وهو أعلم لم قتلته فيقول يا رب قتلتهم لتكون العزة لك ولي تعست ثم لا تبقى نفس قتلها الا مثل بها ولا مظلمة لاحد عند أحد الا أخذها للمظلوم من الظالم حتى انه ليكلف شائب اللبن بالماء ثم يبيعه الى أن يخلص اللبن من الماء فاذا فرغ الله من ذلك نادى مناد يسمع الخلائق كلهم ألا ليلحق كل قوم بآلهتهم الى النار وهو الذي يقول لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون فاذا لم يبق الا المؤمنون فيهم المنافقون جاءهم الله فيما شاء من هيئته فقال يا أيها الناس ذهب الناس فالحقوا بآلهتكم ما كنتم تعبدون فيقولون والله ما لنا اله الا الله وما كنا نعبد غيره فيكشف لهم عن ساقه ويتجلى لهم من عظمته ما يعرفون انه ربهم فيخرون سجدا على وجوههم ويخر كل منافق على قفاه ويجعل الله أصلابهم كصياصي البقر ثم يأذن الله لهم فيرفعون ويضرب الله الصراط بين ظهراني جهنم كحد الشعرة أو كحد السيف عليه كلاليب وخطاطيف وحسك كحسك السعدان دونه جسر دحض مزلة فيمرون كطرف العين أو كلمح البرق أو كمر الريح أو كجياد الخيل أو كجياد الركاب أو كجياد الرجال فناج سالم وناج مخدوش ومكردس على وجهه في جهنم فاذا

وانما يجمعونها على عشائر وهذه القراءة حجة عليه وقرأ الحسن عشائركم والباقون عشيرتكم والاقتراف الاكتساب وأصله اقتطاع الشيء من مكانه والتركيب يدور على الدنو والكاسب يدني الشيء من نفسه ويدخله تحت ملكه والتجارة الامتعة التي يشترونها ليربحوا فيها والكساد عدم النفاق لفوات وقت بيعها بالهجرة ومفارقة الاوطان ومن غرائب التفسير ما روي عن ابن المبارك انه قال ان المراد بالتجارة في هذه الآية البنات والاخوات اذا كسدن في البيت لا يجدون لهن خاطبا واستشهد لذلك بقول الشاعر

كسدن من الفقر في قومهن * وقد زادهن مقامي كسادا

وهذا البيت وان كان فيه اطلاق الكساد على عدم وجود الخاطب لهن فليس فيه جواز اطلاق اسم التجارة عليهن والمراد بالمساكن المنازل التي تعجبهم وتميل اليها أنفسهم ويرون الاقامة فيها أحب اليهم من المهاجرة الى الله ورسوله ومن الجهاد في سبيله فقعدوا لاجل ما ذكر من الامور الثمانية أو لاجل حبها والتعرض للصفات المذكورة للايذان بان اللوم على محبة ما ذكر من زينة الحياة الدنيا ليس لتناسي ما فيها من مبادي المحبة وموجبات الرغبة فيها وانها مع ما لها من فنون المحاسن بمعزل من ان يؤثر حبها على حبه تعالى وحب رسوله صلى الله عليه وآله وسلم كما في قوله عز وجل ما غرك بربك الكريم والمراد بالحب الاختياري دون الطبيعي وهو ايثارهم وتقديم طاعتهم لا ميل الطبع فانه أمر جبلي لا يمكن تركه ولا يؤاخذ عليه ولا يكلف الانسان بالتحفظ عنه (فتربصوا) أي فانتظروا (حتى يأتي الله بأمره) فيكم وما تقتضيه مشيئته من عقوبتكم وقيل المراد بأمر الله سبحانه القتال وقيل فتح مكة وفيه بعد فقد روي ان هذه السورة نزلت بعد الفتح وقيل هو عقوبة عاجلة أو آجلة وفي هذا وعيد شديد وتهديد لهم ويؤكده ابهام الامر وعدم التصريح به لتذهب أنفسهم كل مذهب وتتردد بين أنواع العقوبات وانما كان تهديدا لكونهم آثروا لذات الدنيا على الآخرة وهذا قل من يتخلص منه ولذا قيل انها أشد آية نعت على الناس كما فصله في الكشاف وهذه الآية تدل على انه اذا وقع التعارض بين مصلحة واحدة من مصالح الدين وبين مهمات الدنيا وجب ترجيح الدين على الدنيا ليبقى الدين سليما (والله لا يهدي القوم الفاسقين) أي الخارجين عن طاعته النافرين عن امتثال أوامره ونواهيه (لقد نصركم الله في مواطن كثيرة) تذكير للمؤمنين بنعمة عليهم

أنتهي أهل الجنة الى الجنة قالوا من يشفع لنا الى ربنا فندخل الجنة فيقولون من احق بذلك من أبيكم آدم عليه السلام خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وكلمه قبلا فيأتون آدم فيطلبون ذلك اليه فيذكر ذنبا ويقول ما أنا بصاحب ذلك ولكن عليكم بنوح فانه أول رسل الله فيؤتى نوح فيطلب ذلك اليه فيذكر ذنبا ويقول ما أنا بصاحب ذلك ويقول عليكم بابراهيم فان الله اتخذه خليلا فيؤتى ابراهيم فيطلب ذلك اليه فيذكر ذنبا ويقول ما أنا بصاحب ذلك ويقول عليكم بموسى فان الله قربه نجيا وكلمه وأنزل عليه التوراة فيؤتى موسى فيطلب ذلك اليه فيذكر (٨٢) ذنبا ويقول لست بصاحب ذلك ولكن عليكم بروح الله وكلمته عيسى ابن مريم فيؤتى عيسى بن مريم فيطلب ذلك اليه فيقول ما أنا بصاحبكم ولكن عليكم بمحمد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأتوني ولي عند ربي ثلاث شفاعات فانطلق فآتي الجنة فآخذ بحلقة الباب فاستفتح فيفتح لي فأحيي ويرحب بي فاذا دخلت الجنة فنظرت الى ربي خررت ساجدا فيأذن الله لي من حمده وتمجيده بشيء ما أذن به لأحد من خلقه ثم يقول ارفع يا محمد واشفع تشفع وسل تعطه فاذا رفعت رأسي فيقول الله وهو أعلم ما شأنك فأقول يارب وعدتني الشفاعة فشفعني في أهل الجنة فيدخلون الجنة فيقول الله قد شفعتك وقد أذنت لهم في دخول الجنة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول والذي نفسي بيده ما أنتم في الدنيا باعرف من أزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم فيدخل كل رجل منهم في ثنتين وسبعين زوجة مما ينشئ الله عزوجل وثنتين آدميتين من ولد آدم لهما فضل على من انشأ الله لعبادتهما الله في الدنيا فيدخل على الاولى في غرفة من ياقوتة على سرير من ذهب مكلل باللؤلؤ عليها سبعون زوجا من سندس واستبرق ثم انه يضع ما يده بين كتفيها ثم ينظر الى يده من صدرها من وراء ثيابها وجلدها ولحمها وانه لينظر الى مخ ساقها كما ينظر السلك في قصبة الياقوت كبدها له مرآة وكبده لها مرآة فبينا هو عندها لا يملها ولا تمله ما يأتيها من مرة الا وجدها عذراء ما يفتر ذكره وما تشتكي قبلها فبينا هو كذلك اذ نودي انا قد عرفنا انك لا تمل ولا تمل الا انه لا مني ولا منية الا ان لك أزواجا غيرها فيخرج فيأتيهم واحدة واحدة كلما أتى واحدة قالت والله ما أرى في الجنة شيأ أحسن منك ولا في الجنة شيء أحب الي منك واذا وقع أهل النار في النار وقع فيها خلق

والمواطن جمع موطن وفي المصباح الوطن مكان الانسان ومقره والجمع أوطان مثل سبب وأسباب والموطن مثل الوطن والجمع مواطن كمسجد ومساجد والموطن أيضا المشهد من مشاهد الحرب والمواطن التي نصر الله المسلمين فيها هي يوم بدر وقريظة والنضير وكانت غزوات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ما ذكر في الصحيحين من حديث زيد بن أرقم تسع عشرة غزوة وزاد بريدة في حديثه قاتل في ثمان منهن ويقال ان جميع غزواته وسراياه وبعوثه سبعون وقيل ثمانون (و) نصركم أيضا (يوم حنين) وهو واد بين مكة والطائف بينه وبين مكة ثمانية عشر ميلا كما في الخازن وانصرف على انه اسم مكان ومن العرب من يمنعه على انه اسم للبقعة قال قتادة قاتل بها نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم هوازن وثقيف وعلى هوازن مالك بن عوف وعلى ثقيف عبد ياليل بن عمرو وذلك في شوال سنة ثمان عقب رمضان الذي وقع فيه الفتح والقصة مبسوطة في كتب الحديث والسير (اذ أعجبتكم كثرتكم) وانما أعجب من أعجب من المسلمين بكثرتهم لانهم كانوا أحد عشر ألفا وقيل اثنى عشر ألفا وقيل ستة عشر ألفا والكفار أربعة آلاف قاله السيوطي والذي في شرح المواهب انهم كانوا أكثر من عشرين ألفا وقتل من المسلمين أربعة ومن المشركين أكثر من سبعين انتهى وبالجملة قال بعضهم لن نغلب اليوم من قلة فوكلوا الى هذه الكلمة (فلم تغن) أي لم تدفع الكثرة (عنكم شيأ) بل انهزمتم وثبت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وثبت معه طائفة يسيرة منهم عمه العباس وكان آخذا بلجام البغلة وأبو سفيان آخذ بركابه وهو ابن عمه اذ هو ابن الحرث بن عبد المطلب وقد أسلم هو والعباس يوم الفتح ثم تراجع المسلمون فكان النصر والظفر وفي سيرة الشامي ان الذين ثبتوا معه في حنين مائة ثلاثة وثلاثون من المهاجرين وسبعة وستون من الانصار والاغناء اعطاء ما يدفع الحاجة أي لم يعطكم الكثرة شيأ يدفع حاجتكم ولم تفدكم (وضاقت عليكم الارض بما رحبت) الرحب بضم الراء السعة والرحب بفتحها المكان الواسع والباء بمعنى مع وما مصدرية والمعنى ان الارض مع كونها واسعة الاطراف ضاقت عليهم بسبب ما حل بهم من الخوف والوجل وقيل ان الباء بمعنى على أي على رحبها (ثم وليتم) أي انهزمتم حال كونكم (مدبرين) أي مولين أدباركم جاعلين لها الى جهة عدوكم أخرج ابن المنذر عن الحسن قال لما اجتمع أهل مكة وأهل المدينة قالوا الآن نقاتل حين اجتمعنا فكره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

من خلق ربك أو بقيتم أعمالهم فمنهم من تأخذ النار قدميه لا تجاوز ومنهم من تأخذه الى أنصاف ساقيه ومنهم من تأخذه الى ركبتيه ومنهم من تأخذه الى حقويه ومنهم من تأخذ جسده كله الا وجهه حرم الله صورته عليها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يارب من وقع فى النار من أمتى فيقول أخرجوا من عرفتم فيخرجوا أولئك حتى لا يبقى منهم أحد ثم يأذن الله فى الشفاعة فلا يبقى نبى ولا شهيد الا شفع فيقول الله أخرجوا من وجدتم فى قلبه زنة دينار ايمانا فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد ثم يشفع الله فيقول أخرجوا من فى قلبه ايمانا ثلثى دينار ثم يقول ثلث دينار ثم يقول ربع (٨٣) دينار ثم يقول قيراط ثم يقول حبة من خردل فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم وحتى لا يبقى فى النار من عمل لله خيرا قط ولا يبقى أحد له شفاعة الا شفع حتى ان ابليس يتطاول مما يرى من رحمة الله رجاء ان يشفع له ثم يقول بقيت وأنا أرحم الراحمين فيدخل يده فى جهنم فيخرج منها مالا يحصيه غيره كأنهم حمم فيلقون على نهر يقال له نهر الحيوان فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل ما يلى الشمس منها أخيضر وما يلى الظل منها أصيفر فينبتون كنبات الطراثيث حتى يكونوا أمثال الذر مكتوب فى رقابهم الجهنميون عتقاء الرحمن يعرفهم أهل الجنة بذلك الكتاب ما عملوا خيرا لله قط فيمكثون فى الجنة ماشاء الله وذلك الكتاب فى رقابهم ثم يقولون ربنا امح عنا هذا الكتاب فيمحوه الله عز وجل عنهم ثم ذكره بطوله ثم قال هذا حديث وهو غريب جدا ولبعضه شواهد فى الاحاديث المتفرقة وفى بعض ألفاظه نكارة تفرد به اسمعيل بن رافع قاضى أهل المدينة وقد اختلف فيه فمنهم من وثقه ومنهم من ضعفه ونص على نكارة حديثه غير واحد من الائمة كأحمد بن حنبل وأبى حاتم الرازى وعمرو بن على الفلاس ومنهم من قال فيه هو متروك وقال ابن عدى أحاديثه كلها فيها نظر الا أنه يكتب حديثه فى جملة الضعفاء قلت وقد اختلف عليه فى اسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة قد افردتها فى جزء على حدة وأما سياقه فغريب جدا ويقال انه جمعه من أحاديث كثيرة وجعله سياقا واحدا فانكر عليه بسبب ذلك وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى يقول انه رأى للوليد بن مسلم مصنفا قد جمع فيه كل الشواهد لبعض مفردات هذا الحديث فالله أعلم (واذ قال ابراهيم لابيه آزر أتتخذ أصناما آلهة انى أراك

ما قالوا وما أعجبهم من كثرتهم فالتقوا فانهزموا حتى ما يقوم أحد منهم على أحد حتى جعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينادى احياء العرب الى الى فوالله ما يعرج عليه أحد حتى أعرى موضعه فالتفت الى الانصار وهم ناحية فناداهم يا انصار الله وانصار رسوله الى عباد الله انا رسول الله فجثوا يبكون وقالوا يا رسول الله ورب الكعبة اليك والله فنكسوا رؤسهم يبكون وقدموا اسيافهم يضربون بين يدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى فتح الله عليهم وقيل ناداهم العباس باذنه وكان صيتا يسمع صوته من نحو ثمانية أميال فقاتلوا ووقعة حنين مذكورة فى كتب السير والحديث بطولها وتفاصيلها فلا نطول بذلك (ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) أى أنزل ما يسكنهم فيذهب خوفهم حتى وقع منهم الاجتراء على قتال المشركين بعد ان ولوا مدبرين ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثابت لم يفر والمراد بالمؤمنين هم الذين لم ينهزموا وقيل الذين انهزموا والظاهر جميع من حضر منهم لانهم ثبتوا بعد ذلك وقاتلوا وانتصروا (وأنزل جنودا لم تروها) هم الملائكة واختلف فى عددهم على أقوال قيل كانوا خمسة آلاف وقيل ثمانية آلاف وقيل ستة عشر ألفا وقيل غير ذلك وهذا لا يعرف الا من طريق النبوة واختلفوا أيضا هل قاتلت الملائكة فى هذا اليوم أم لا وقد تقدم ان الملائكة لم تقاتل الا يوم بدر وانهم انما حضروا فى غير يوم بدر لتقوية قلوب المؤمنين وادخال الرعب فى قلوب المشركين وان كانوا لا يرونهم وقيل ان الكفار كانت تراهم عن جبير بن مطعم قال رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البجاد (1) الاسود اقبل من السماء حتى سقط بين القوم فنظرت فاذا نمل اسود مبثوث قد ملأ الوادى لم أشك انها الملائكة ولم تكن الا هزيمة القوم وأخرج الطبرانى والحاكم وصححه وأبو نعيم والبيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود قال كنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم حنين فولى عنه الناس وبقيت معه فى ثمانين رجلا من المهاجرين والانصار فكنا على أقدامنا نحوا من ثمانين قدما ولم نولهم الدبر وهم الذين أنزل عليهم السكينة ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على بغلته البيضاء يمضى قدما فقال ناولنى كفا من تراب فناولته فضرب به وجوههم فامتلأت أعينهم ترابا وولى المشركون أدبارهم (وعذب الذين كفروا) بما وقع عليهم من القتل والاسر وأخذ الاموال وسبى الذرية وقال السدى قتلهم بالسيف قيل أسر ستة آلاف من نسائهم وصبيانهم ولم تقع

(1) بجاد بالكسر كليم مخطط اه صراح

وقومك فى ضلال مبين وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم انى برىء مما تشركون انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين) قال الضحاك عن ابن عباس ان أبا ابراهيم لم يكن اسمه آزر وانما كان اسمه تارخ رواه ابن أبى حاتم وقال أيضا حدثنا أحمد بن عمرو بن أبى (٨٤) عاصم النبيل حدثنا أبى حدثنا أبو عاصم شبيب حدثنا عكرمة عن ابن عباس فى قوله واذ قال ابراهيم لابيه آزر يعنى بآزر الصنم وابو ابراهيم اسمه تارخ وأمه اسمها مثلى وامرأته اسمها سارة وأم اسمعيل اسمها هاجر وهى سرية ابراهيم وهكذا قال غير واحد من علماء النسب ان اسمه تارخ وقال مجاهد والسدى آزر اسم صنم قلت كأنه غلب عليه آزر لخدمته ذلك الصنم فالله أعلم وقال ابن جرير وقال آخرون هو سب وعيب بكلامهم ومعناه معوج ولم يسنده ولا حكاه عن أحد وقد قال ابن أبى حاتم ذكر عن معتمر بن سليمان سمعت أبى يقرأ واذ قال ابراهيم لابيه آزر بلغنى أنها أعوج وانها أشد كلمة قالها ابراهيم عليه السلام ثم قال ابن جرير والصواب ان اسم أبيه آزر ثم أورد على نفسه قول النسابين ان اسمه تارخ ثم أجاب بأنه قد يكون له اسمان كما لكثير من الناس أو يكون أحدهما لقبا وهذا الذى قاله جيد قوى والله أعلم واختلف القراء فى أداء قوله تعالى واذ قال ابراهيم لابيه آزر فحكى ابن جرير عن الحسن البصرى وأبى يزيد المدينى انهما كانا يقرآن واذ قال ابراهيم لابيه آزر أتتخذ أصناما آلهة معناه يا آزر أتتخذ أصناما آلهة وقرأ الجمهور بالفتح اما على انه علم أعجمى لا ينصرف جميع وهو بدل من قوله لابيه أو عطف بيان وهو أشبه وعلى قول من جعله نعتا لا ينصرف أيضا كأحمر واسود فأما من زعم انه منصوب لكونه معمولا لقوله أتتخذ أصناما تقديره يا أبت أتتخذ آزر أصناما آلهة فانه قول بعيد فى اللغة فان ما بعد حرف الاستفهام لا يعمل فيما قبله لان له صدر الكلام كذا قرره ابن جرير وغيره وهو مشهور فى قواعد العربية والمقصود ان ابراهيم وعظ أباه فى عبادة الاصنام وزجره عنها ونهاه فلم ينته كما قال واذ قال ابراهيم لابيه آزر أتتخذ أصناما آلهة أى أتتأله الصنم تعبده من دون الله انى أراك

غنيمة أعظم من غنيمتهم فقد كان فيها من الابل اثنا عشر ألفا ومن الغنم ما لا يحصى عددا ومن الاسرى ما سمعته وكان فيها غير ذلك (وذلك) التعذيب المفهوم من عذب (جزاء الكافرين) سمى ما حل بهم من العذاب فى هذا اليوم جزاء مع انه غير كاف بل لابد من عذاب الآخرة مبالغة فى وصف ما وقع عليهم وتعظيما له (ثم يتوب الله من بعد ذلك) التعذيب (على من يشاء) ممن هداه منهم الى الاسلام (والله غفور) يغفر لمن أذنب فتاب (رحيم) بعباده متفضل عليهم بالمغفرة لما اقترفوه (يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس) أى ذوو نجاسة لان معهم الشرك الذى هو بمنزلة النجس والنجس مصدر لا يثنى ولا يجمع يقال رجل نجس وامرأة نجس ورجلان نجس وامرأتان نجس ورجال نجس ونساء نجس ويقال نجس ونجس بكسر الجيم وضمها ويقال نجس بكسر النون وسكون الجيم وهو تخفيف من المحرك قيل لا يستعمل الا اذا قيل معه رجس وقيل ذلك أكثرى لا كلى والمشركون مبتدأ وخبره المصدر وصفهم بذلك حتى كأنهم عين النجاسة والقذر لخبث باطنهم مبالغة فى وصفهم بها قال ابن عباس أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير وقال قتادة ومعمر وغيرهما انهم وصفوا بذلك لانهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يتجنبون النجاسات فهى ملابسة لهم قيل أراد بالمشركين عبدة الاصنام دون غيرهم من أصناف الكفار وقيل بل جميع أصنافهم من اليهود والنصارى وغيرهم وقد استدل بالآية من قال بأن المشرك نجس الذات كما ذهب اليه بعض الظاهرية وروى عن الحسن البصرى وهو محكى عن ابن عباس وقال الحسن بن صالح من مس مشركا فليتوضأ ويروى هذا عن الزيدية وذهب الجمهور من السلف والخلف ومنهم أهل المذاهب الاربعة الى ان الكافر ليس بنجس الذات لان الله سبحانه أحل طعامهم وثبت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى ذلك من فعله وقوله ما يفيد عدم نجاسة ذواتهم فأكل فى آنيتهم وشرب منها وتوضأ فيها وأنزلهم فى مسجده وهو الحق وعن جابر بن عبد الله فى هذه الآية قال الا ان يكون عبدا أو واحدا من أهل الذمة (فلا يقربوا المسجد الحرام) الفاء للتفريع فعدم قربانهم للمسجد الحرام متفرع على نجاستهم وانما نهوا عن الاقتراب للمبالغة فى المنع من دخول الحرم ونهى المشركين ان يقربوا راجع الى نهى المسلمين عن تمكينهم من ذلك قاله أبو السعود فهو من باب قولهم لا أرينك ههنا والمراد بالمسجد الحرام

وقومك أي السالكين بسلكك في ضلال مبين أي تائهين لا يهتدون أن يسلكون بل أمركم في حيرة وضلال وجهل بين واضح لكل ذي عقل سليم وقال تعالى واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا اذ قال لابيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا يا أبت اني قد جاءني من العلم مالم يأتك فاتبعني اهدك صراطا سويا يا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا يا أبت اني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا قال أراغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا قال سلام عليك سأستغفر لك ربي انه كان بي حفيا (٨٥) واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيا فكان ابراهيم عليه السلام يستغفر لابيه مدة حياته فلما مات على الشرك وتبين ابراهيم ذلك رجع عن الاستغفار له وتبرأ منه كما قال تعالى وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ان ابراهيم لأواه حليم وثبت في الصحيح أن ابراهيم يلقى أباه آزر يوم القيامة فيقول له آزر يا بني اليوم لا أعصيك فيقول ابراهيم أي رب ألم تعدني انك لا تخزني يوم يبعثون وأي خزي أخزى من أبي الابعد فيقال يا ابراهيم انظر ما وراءك فاذا هو بذيخ ملتطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار وقوله وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض أي نبين له وجه الدلالة في نظره الى خلقهما الى وحدانية الله عز وجل في ملكه وخلقه وانه لا اله غيره كقوله أولم ينظروا في ملكوت السموات والارض وقال أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض ان نشأ نخسف بهم الارض أو نسقط عليهم كسفا من السماء ان في ذلك لآية لكل عبد منيب وأما ما حكاه ابن جرير وغيره عن مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والسدي وغيرهم قالوا واللفظ لمجاهد فرجت له السموات فنظر الى ما فيهن حتى انتهى بصره الى العرش وفرجت له الارضون السبع فنظر الى ما فيهن وزاد غيره فجعل ينظر الى العباد على المعاصي ويدعو عليهم فقال الله له اني أرحم بعبادي منك لعلهم ان يتوبوا أو يرجعوا وروى ابن مردويه في ذلك حديثين مرفوعين عن معاذ وعلي ولكن لا يصح اسنادهما والله أعلم وروى ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين فانه تعالى جلا له

جميع الحرم روي ذلك عن عطاء فيمنعون عنده من جميع الحرم ويؤيد هذا قوله تعالى سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام أراد به الحرم لانه أسري رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم من بيت أم هانئ وذهب غيره من أهل العلم الى أن المراد المسجد الحرام نفسه فلا يمنع المشرك من دخول سائر الحرم وقد اختلف أهل العلم في دخول المشرك غير المسجد الحرام من المساجد فذهب أهل المدينة الى منع كل مشرك عن كل مسجد وقال الشافعي الآية عامة في سائر المشركين خاصة في المسجد الحرام فلا يمنعون من دخول غيره من المساجد قال ابن العربي وهذا جمود منه على الظاهر لان قوله تعالى انما المشركون نجس تنبيه على العلة بالشرك والنجاسة ويجاب عنه بأن هذا القياس مردود بربطه صلى الله عليه وآله وسلم لثمامة بن أثال في مسجده وانزال وفد ثقيف فيه وروي عن أبي حنيفة مثل قول الشافعي وزاد انه يجوز دخول الذمي سائر المساجد من غير حاجة وقيده الشافعي بالحاجة وقال قتادة انه يجوز ذلك للذمي دون المشرك والحاصل ان بلاد الاسلام في حق الكفار ثلاثة أنواع أحدها الحرم فلا يجوز لكافر أن يدخله بحال ذميا كان أو مستأمنا لظاهر هذه الآية وبه قال الشافعي وأحمد ومالك واذا جاء رسول من دار الكفر الى الامام والامام في الحرم لا يأذن له في دخول الحرم بل يخرج اليه الامام أو يبعث اليه من يسمع رسالته خارج الحرم والثاني الحجاز وحده ما بين عمامة واليمن ونجد والمدينة الشريفة قيل نصفها تهامي ونصفها حجازي وقيل كلها حجازي وقال ابن الكلبي حد الحجاز ما بين جبل طي وطريق العراق قال الحربي وتبوك من الحجاز فيجوز للكفار دخول أرض الحجاز بالاذن ولكن لا يقيمون فيها أكثر من مقام المسافر وهو ثلاثة أيام لاحاديث صحيحة في هذا الباب منها ما روي عن عمر بن الخطاب انه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لاخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع الا مسلما وأجلاهم عمر في خلافته وأجل لمن قدم منهم تاجرا ثلاثة وجزيرة العرب من أقصى عدن الى ريف العراق في الطول وأما في العرض فمن جدة وما والاها من ساحل البحر الى أطراف الشام والثالث سائر بلاد الاسلام فيجوز للكافر أن يقيم فيها بعهد أو أمان وذمة لكن لا يدخلون المساجد الا باذن مسلم لحاجة (بعد عامهم هذا) فيه قولان أحدهما انه سنة تسع وهي التي حج فيها أبو بكر على الموسم وهو عام نزول السورة الثاني انه سنة عشر قاله

الأمر بسره وعلانيته فلم يخف عليه شيء من أعمال الخلائق فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب قال الله انك لن تستطيع هذا فرده كما كان قبل ذلك فيحتمل أن يكون هذا كشف له عن بصره حتى رأى ذلك عيانا و يحتمل أن يكون عن بصيرته حتى شاهده بفؤاده وتحققه وعرفه وعلم ما في ذلك من الحكم الباهرة والدلالات القاطعة كما روى الامام أحمد والترمذي وصححه عن معاذ بن جبل في حديث المنام أتاني ربي في أحسن صورة فقال يا محمد فيم يختصم الملأ الاعلى فقلت لا أدري يا رب فوضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين ثديي فتجلى لي كل شيء وعرفت ذلك وذكر الحديث وقوله وليكون من الموقنين قيل الواو زائدة تقديره وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض ليكون من الموقنين كقوله نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين وقيل بل هي على بابها أي نريه ذلك ليكون عالما وموقنا وقوله تعالى فلما جن عليه الليل أي تغشاه وستره رأى كوكبا أي نجما قال هذا ربي فلما أفل أي غاب قال محمد بن اسحق بن يسار الافول الذهاب وقال ابن جرير يقال أفل النجم يأفل و يأفل أفولا وأفلا اذا غاب ومنه قول ذي الرمة

مصابيح ليست باللواتي تقودها
دياج ولا بالآفلات الزوائل

ويقال أين أفلت عنا يعني أين غبت عنا قال لا أحب الآفلين قال قتادة علم ان ربه دائم لا يزول فلما رأى القمر بازغا أي طالعا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي أي هذا المنير الطالع ربي هذا أكبر أي جرما من النجم ومن القمر وأكثر اضاءة فلما أفلت أي غابت قال يا قوم اني بريء مما تشركون اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين أي أخلصت ديني وأفردت عبادتي للذي فطر السموات والارض أي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق حنيفا أي في حال كوني حنيفا أي مائلا عن الشرك الى التوحيد ولهذا قال وما أنا من المشركين وقد اختلف المفسرون في هذا المقام هل هو مقام نظر او مناظرة فروى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر واختاره ابن جرير مستدلا عليه بقوله لئن لم يهدني ربي الآية وقال محمد بن اسحق قال ذلك حين خرج من السرب الذي ولدته فيه أمه حين تخوفت عليه من نمروذ بن كنعان لما كان قد أخبر بوجود مولود يكون ذهاب

قتادة قال ابن العربي وهو الصحيح الذي يعطيه مقتضى اللفظ وان من العجب ان يقال انه سنة تسع وهو العام الذي وقع فيه الاذان ولو دخل غلام رجل داره يوما فقال له مولاه لا تدخل هذه الدار بعد يومك لم يكن المراد اليوم الذي دخل فيه اهـ ويجاب عنه بأن الذي يعطيه مقتضى اللفظ هو خلاف ما زعمه فان الاشارة بقوله بعد عامهم هذا الى العام المذكور قبل اسم الاشارة وهو عام النداء وهكذا في المثال الذي ذكره المراد النهي عن دخولها بعد يوم الدخول الذي وقع فيه الخطاب والامر ظاهر لا يخفى ولعله أراد تفسير بعد المضاف الى عامهم ولا شك انه عام عشر وأما تفسير العام المشار اليه بهذا فلا شك ولا ريب انه عام تسع وعلى هذا يحمل قول قتادة وقد استدل من قال بأنه يجوز للمشركين دخول المسجد الحرام وغيره من المساجد بهذا القيد أعني قوله بعد عامهم هذا قائلا ان النهي مختص بوقت الحج والعمرة فهم ممنوعون عن الحج والعمرة فقط لا عن مطلق الدخول ويجاب عنه بأن ظاهر النهي عن القربان بعد هذا العام يفيد المنع من القربان في كل وقت من الاوقات الكائنة بعده وتخصيص بعضها بالجواز يحتاج الى مخصص (وان خفتم عيلة) بالفتح الفقر يقال عال الرجل يعيل اذا افتقر وقرأ علقمة وغيره عائلة وهو مصدر كالقائلة والعافية والعاقبة وقيل معناه خصلة شاقة يقال عالني الامر يعولني أي شق علي واشتد وحكى ابن جرير الطبري انه يقال عال يعول اذا افتقر وعال الرجل من يعولهم وواحد العيال عيل كجيد والجمع عيائل كجيائد وأعال الرجل كثرت عياله فهو معيل والمرأة معيلة قال الاخفش أي صار ذا عيال وكان المسلمون لما منعوا المشركين من الموسم وهم كانوا يجلبون اليه الاطعمة والتجارات قذف في قلوبهم الشيطان الخوف من الفقر بانقطاع تجاراتهم عنهم وقالوا من أين نعيش فوعدهم الله أن يغنيهم وقال (فسوف يغنيكم الله من فضله) قال الضحاك ففتح الله عليهم باب الحرب من أهل الذمة بقوله قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله الآية وقال عكرمة أغناهم بادرار المطر والنبات وخصب الارض وأسلمت العرب فحملوا الى مكة ما أغناهم الله به وقيل أغناهم بالفيء قال مقاتل أسلم أهل جدة وصنعاء وجرش من اليمن وجلبوا الميرة الكثيرة الى مكة فكفاهم الله ما كانوا يخافون وقال الضحاك وقتادة عوضهم الله منها الجزية فأغناهم بها (ان شاء) فائدة التقييد بالمشيئة التعليم للعباد بأن يقولوا ذلك في كل ما يتكلمون به مما له تعلق بالزمن المستقبل ولئلا

يفتروا

ملكه على يديه فأمر بقتل الغلمان عامئذ فلما حملت أم ابراهيم به وحان وضعها ذهبت به الى سرب ظاهر البلد فولدت فيه ابراهيم وتركته هنالك وذكر أشياء من خوارق العادات كما ذكرها غيره من المفسرين من السلف والخلف والحق أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظرا لقومه مبينا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والاصنام فبين في المقام الاول مع أبيه خطأهم في عبادة الاصنام الارضية التي هي على صورة الملائكة السماوية ليشفعوا لهم الى الخالق العظيم الذي هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه وانما يتوسلون اليه بعبادة ملائكته ليشفعوا لهم عنده في الرزق (٨٧) وغير ذلك مما يحتاجون اليه وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة وهي القمر وعطارد والزهرى والشمس والمريخ والمشترى وزحل وأشدهن اضاءة وأشرفهن عندهم الشمس ثم القمر ثم الزهرة فبين أولا صلوات الله وسلامه عليه ان هذه الزهرة لا تصلح للالهية فانها مسخرة مقدرة بسير معين لا تزيغ عنه يمينا ولا شمالا ولا تملك لنفسها تصرفا بل هي جرم من الاجرام خلقها الله منيرة لما له في ذلك من الحكم العظيمة وهي تطلع من المشرق ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الابصار فيه ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال ومثل هذه لا تصلح للالهية ثم انتقل الى القمر فبين فيه مثل ما بين في النجم ثم انتقل الى الشمس كذلك فلما انتفت الالهية عن هذه الاجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الابصار وتحقق ذلك بالدليل القاطع قال يا قوم اني بريء مما تشركون أي أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن فان كانت آلهة فكيدوني بها جميعا ثم لا تنظرون اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين أي انما أعبد خالق هذه الاشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها الذي بيده ملكوت كل شيء خالق كل شيء وربه ومليكه والهه كما قال تعالى ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين وكيف يجوز أن يكون ابراهيم ناظرا في هذا المقام وهو الذي قال الله في حقه ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين اذ قال لابيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها

يفتروا عن الدعاء والتضرع ويعلموا ان الغنى الموعود به يكون لبعض دون بعض وفي عام دون عام (ان الله عليم) بأحوالكم (حكيم) في اعطائه ومنعه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله) فيه الامر بقتال من جمع بين هذه الاوصاف الآتية ولما فرغ من الكلام على مشركي العرب بقوله براءة من الله الى هنا أخذ يتكلم على أهل الكتابين وهو نص في ان أهل الكتاب لا يؤمنون بالله تعالى فاليهود كفروا لانهم ما قدروا الله حق قدره ولا عرفوه بصفات كماله وفرقوا بين الايمان بالله ورسله وغلوا في عزير فقالوا هو ابن الله والنصارى كفروا لانهم غلوا في المسيح وقالوا هو ثالث ثلاثة قال مجاهد نزلت هذه الآية حين أمر محمد وأصحابه بقتال الروم فغزا بعد نزولها غزوة تبوك وقال الكلبي نزلت في قريظة والنضير من اليهود فصالحهم فكانت أول جزية أصابها أهل الاسلام وأول ذل أصاب أهل الكتاب بأيدي المسلمين (و) نص الله تعالى في الآية بانهم (لا) يؤمنون (باليوم الآخر) فان قلت انهم قد قالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودة وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى واثبات الجنة والنار فرع اثبات اليوم الآخر قلت لما كان اثباتهم اياه بغير صفاته ودعوى كاذبة بانهم أهل الجنة لا غير وانهم يعذبون أياما معينة كان اثباتهم بهذه الصفة نفيا له فانه ايمان باطل والا لآمنوا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وقيل انهم يعتقدون بعثة الارواح دون الاجسام ويعتقدون ان أهل الجنة لا يأكلون فيها ولا يشربون ولا ينكحون ومن اعتقد ذلك فليس ايمانه كايمان المؤمنين وان زعم انه مؤمن (ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله) مما ثبت في كتبهم بأن الله حرم الشحوم فأذابوها وباعوها وأكلوا أثمانها وحرم عليهم أشياء كثيرة فاستحلوها قال سعيد ابن جبير في الآية يعني الذين لا يصدقون بتوحيد الله وما حرم الله من الخمر والخنزير وقيل معناه لا يحرمون ما حرم الله في القرآن ولا ما حرم رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في السنة والاول أولى وقيل لا يعملون بما في التوراة والانجيل بل حرفوهما وأتوا بأحكام من قبل أنفسهم وقلدوا أحبارهم ورهبانهم واتخذوهم أربابا من دون الله (ولا يدينون دين الحق) أي دين الاسلام الثابت الناسخ لسائر الاديان وقيل دين أهل الحق وهم المسلمون وقيل دين الله والمعنى واحد وفيه ان دينهم بعد بعثته صلى الله عليه وآله وسلم قد صار دينا باطلا ثم انه تعالى لما وصل اليهم بهذه الصلات الاربع بينهم بقوله (من الذين أوتوا الكتاب)

عا كنون الآيات وقال تعالى ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لانعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم وآتيناه فى الدنيا حسنة وانه فى الآخرة لمن الصالحين ثم أوحينا اليه أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال كل مولود يولد على الفطرة وفى صحيح مسلم عن عياض ابن حماد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال الله انى خلقت عبادى حنفاء وقال الله فى كتابه العزيز فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله وقال تعالى واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ومعناه على أحد القولين كقوله فطرت الله التى فطر الناس عليها كما سيأتى بيانه فاذا كان هذا فى حق سائر الخليقة فكيف يكون ابراهيم الخليل الذى جعله الله أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ناظرا فى هذا المقام بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة والسجية المستقيمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا شك ولا ريب ومما يؤيد انه كان فى هذا المقام مناظرا لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظرا قوله تعالى (وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربى شيأ وسع ربى كل شئ علما أفلا تتذكرون وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون انكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالامن ان كنتم تعلمون الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم) يقول تعالى مخبرا عن خليله ابراهيم حين جادله قومه فيما ذهب اليه من التوحيد وناظروه انه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان أى تجادلونى فى أمر الله وانه لا اله الا هو وقد بصرنى وهدانى الى الحق وأنا على بينة منه فكيف التفت الى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة وقوله ولا أخاف ما تشركون به الا ان يشاء ربى شيأ أى ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم اليه ان هذه الآلهة التى تعبدونها لا تؤثر شيأ وأنا لا أخافها ولا أباليها فان كان لها كيد فكيدونى بها ولا تنظرون بل عاجلونى بذلك وقوله تعالى الا أن يشاء ربى شيأ استثناء منقطع أى لا يضر ولا ينفع الا الله عز وجل وسع ربى كل شئ علما أى أحاط علمه بجميع الاشياء فلا يخفى عليه خافية أفلا تتذكرون أى فيما بينته

فكلمة من بيانية كما فى قوله تعالى فاجتنبوا الرجس من الاوثان وانما أبهم أولا ثم بين ثانيا زيادة فى تمكن العلم فى قلب السامع فيعلم المأمور به علمين علما اجماليا ثم علما تفصيليا فيكون زيادة فى تمكن الخبر عنده ولما فى ذلك من تشويق النفس الى البيان بعد الابهام فهذا بيان لاسم المبهم الموصول مع ما فى حيزه وهم اليهود والنصارى أهل التوراة والانجيل بالاتفاق ويدل له قوله تعالى قل يا أهل الكتاب لستم على شئ حتى تقيموا التوراة والانجيل فاذا أتى لفظ أهل الكتاب فالمراد به الفريقان واذا قيل بنو اسرائيل فالمراد بهم اليهود واذا قيل النصارى فهم الذين أنزل اليهم الانجيل والمجوس ليسوا من أهل الكتاب لقوله صلى الله عليه وآله وسلم سنوا بهم سنة أهل الكتاب أخرجه البخارى من حديث عبد الرحمن بن عوف ويدل له أيضا قوله تعالى ان تقولوا انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وهذا صريح فى انهم ليسوا منهم قال أبو الوفاء بن عقيل فى الآية ان قوله قاتلوا أمر بالعقوبة ثم قال لا يؤمنون بالله فبين الذنب الذى يوجب العقوبة ثم قال واليوم الآخر فأكد الذنب الذى فى جانب الاعتقاد ثم قال ولا يحرمون وفيه زيادة للذنب فى مخالفة الاعمال ثم قال ولا يدينون وفيه اشارة الى تأكيد المعصية بالانحراف والمعاندة والانفة عن الاستسلام ثم قال من الذين أوتوا الكتاب تأكيد للحجة عليهم لانهم كانوا يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل ثم قال (حتى يعطوا الجزية) فبين الغاية التى تمتد اليها العقوبة اهـ والجزية وزنها فعلة من جزى يجزى اذا كافى عما أسدى اليه وكأنهم أعطوها جزاء عما منحوا من الامن وقيل سميت جزية لانها طائفة مما على أهل الذمة ان يجزوه أى يقضوه وهى فى الشرع ما يعطيه المعاهد على عهده وهو الخراج المضروب على رقابهم كل عام اذلالا وصغارا قال أحمد بن تيمية رحمه الله والاول أصح وهذا يرجع الى انها عقوبة أو أجرة حتى غاية للقتال والمراد باعطائها التزامها بالعقد وان لم يجئ وقت دفعها (عن يد) فى موضع النصب على الحال أى يعطوها اذلاء مقهورين عن يد متوالية غير ممتنعة هذا ان أريد به المعطى وان أريد به الآخذ فالمراد عن يد قاهرة مستولية وقيل معناه يعطونها بأيديهم غير مستنيبين فيها أحدا وقيل المعنى نقدا غير نسيئة وقيل عن انعام منكم عليهم لان أخذها منهم نوع من أنواع الانعام عليهم قاله فى الكشاف وقيل معناه مذمومون وفى زاده اليد قد تجعل كناية عن الانقياد يقال أعطى

فلان

لكم فتعتبرون ان هذه الآلهة باطلة فتنزجروا عن عبادتها وهذه الحجة نظير ما احتج بها نبي الله هود عليه السلام على قومه عاد فيما قص عنهم في كتابه حيث يقول قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال اني أشهد الله واشهدوا اني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون اني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها الآية وقوله وكيف أخاف ما أشركتم أي كيف أخاف من هذه الاصنام التي تعبدون من دون الله ولا تخافون انكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي (٨٩) الفريقين قال ابن عباس وغير واحد من السلف أي حجة وهذا كقوله تعالى أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله وقوله تعالى ان هي الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان وقوله فأي الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون أي فأي الطائفتين أصوب الذي عبد من بيده الضر والنفع أو الذي عبد من لا يضر ولا ينفع بلا دليل أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة لا شريك له قال الله تعالى الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون أي هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له ولم يشركوا به شيئا هم الآمنون يوم القيامة المهتدون في الدنيا والآخرة قال البخاري حدثنا محمد بن بشار حدثنا ابن أبي عدي عن شعبة عن سليمان عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله قال لما نزلت ولم يلبسوا ايمانهم بظلم قال أصحابه وأينا لم يظلم نفسه فنزلت ان الشرك لظلم عظيم وقال الامام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله قال لما نزلت هذه الآية الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم شق ذلك على الناس فقالوا يا رسول الله فأينا لا يظلم نفسه قال انه ليس الذي تعنون ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح يا بني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم انما هو الشرك وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا وكيع وابن ادريس عن الاعمش عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله قال لما نزلت ولم يلبسوا ايمانهم بظلم شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا وأينا لم يظلم نفسه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس كما تظنون انما قال لابنه يا بني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم وحدثنا عمر بن تنبة النميري حدثنا أبو أحمد حدثنا سفيان عن الاعمش عن ابراهيم عن علقمة

فلان بيده اذا أسلم وانقاد لان من أبى وامتنع لم يعط يده بخلاف المطيع المنقاد كأنه قيل قاتلوهم حتى يعطوا الجزية عن طيب نفس وانقياد دون أن يكرهوا عليه فاذا احتج في أخذها منهم الى الاكراه لا يبقى عقد الذمة اهـ وقد ذهب جماعة من أهل العلم منهم الشافعي وأحمد وأبو حنيفة وأصحابه والثوري والاوزاعي وأبو ثور الى أنها لا تقبل الجزية الا من أهل الكتاب وقال الاوزاعي ومالك ان الجزية تؤخذ من جميع أجناس الكفرة كائنا من كان ويدخل في أهل الكتاب على القول الاول المجوس قال ابن المنذر لا أعلم خلافا في ان الجزية تؤخذ منهم قال علي بن أبي طالب أنا أعلم الناس بالمجوس كان لهم علم يعلمونه وكتاب يدرسونه الحديث ولكن ضعفه جماعة من الحفاظ كما قاله ابن القيم ويدل له ما في البخاري ان عمر توقف في أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عنده عبد الرحمن بن عوف ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخذها من مجوس هجر وفي الصحيحين من حديث عمرو بن عوف الانصاري ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعث أبا عبيدة بن الجراح الى البحرين يأتي بجزيتها وكان هو صلى الله عليه وآله وسلم صالح أهل البحرين وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي وذكر أبو عبيد في كتاب الاموال عن الزهري قال قبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الجزية من أهل البحرين وكانوا مجوسا فالجزية تؤخذ من هذه الطوائف الثلاث اتفاقا فاليهود والنصارى تؤخذ منهم بنص القرآن والمجوس تؤخذ منهم بنص السنة لقوله صلى الله عليه وآله وسلم سنوا بهم سنة أهل الكتاب أخرجه البخاري ثم اختلف أهل العلم في مقدار الجزية فقال عطاء لا مقدار لها وانما تؤخذ على ما صولحوا عليه وبه قال يحيى بن آدم وأبو عبيد وابن جرير الا انه قال أقلها دينار وأكثرها لا حد له وقال الشافعي دينار على الغني والفقير من الاحرار البالغين لا ينقص منه شيء وبه قال أبو ثور قال الشافعي وان صولحوا على أكثر من دينار جاز واذا زادوا وطابت بذلك أنفسهم قبل منهم وقال مالك انها أربعة دنانير على أهل الذهب وأربعون درهما على أهل الورق الغني والفقير سواء ولو كان مجوسيا لا تزيد ولا تنقص وقال أبو حنيفة وأصحابه ومحمد بن الحسن وأحمد بن حنبل اثنا عشر وأربعة وعشرون وثمانية وأربعون ولا تجب على صبي ولا مجنون ولا امرأة وهو اتفاق وفي كتابه صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذ الى أهل

عن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن ابن مسعود قال لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت ان الشرك لظلم عظيم رواه البخاري وفي لفظ قالوا أينا لم يظلم نفسه فقال النبي صلى الله عليه وسلم ليس بالذي تعنون ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح ان الشرك لظلم عظيم انما هو الشرك ولابن أبي حاتم عن عبد الله مرفوعا قال ولم يلبسوا ايمانهم بظلم قال بشرك قال وروي عن أبي بكر وعمر وأبي بن كعب وسلمان وحذيفة وابن عباس وابن عمر وعمرو بن شرحبيل وأبي عبد الرحمن السلمي ومجاهد وعكرمة والنخعي والضحاك وقتادة (٩٠) والسدي وغير واحد نحو ذلك وقال ابن مردويه حدثنا الشافعي حدثنا محمد بن شداد المسمعي حدثنا أبو عاصم حدثنا سفيان الثوري عن الاعمش عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله قال لما نزلت الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل لي أنت منهم وقال الامام أحمد حدثنا اسحق ابن يوسف حدثنا أبو خباب عن زاذان وعن جرير بن عبد الله قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه فلما برزنا من المدينة اذا راكب يوضع نحونا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كان هذا الراكب اياكم يريد فانتهى الينا الرجل فسلم فرددنا عليه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم من أين أقبلت قال من أهلي وولدي وعشيرتي قال ما تريد قال أريد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فقد أصبته قال يا رسول الله علمني ما الايمان قال تشهد أن لا اله الا الله وان محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت قال قد أقررت قال ثم ان بعيره دخلت يده في جحر جرذان يهوى بعيره فهوى فوقع الرجل على هامته فمات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بالرجل فوثب اليه عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان فأقعداه فقالا يا رسول الله قبض الرجل قال فأعرض عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم أما رأيتما اعراضي عن الرجل فاني رأيت ملكين يدسان في فيه من ثمار الجنة فعلمت انه مات جائعا ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا من الذين قال الله عز وجل فيهم الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم الآية ثم قال دونكم أخاكم فاحتملناه الى الماء فغسلناه وحنطناه وكفناه وحملناه الى القبر فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جلس على شفير القبر فقال الحدوا ولا تشقوا فان اللحد لنا والشق لغيرنا رواه أحمد عن أسود بن عامر عن عبد الحميد بن

اليمن انه يأخذ من كل حالم دينارا فخص الحالم دون المرأة والصبي وقد روي في ذلك حالمة قال الأئمة من المحدثين ان هذه الزيادة غير محفوظة ولان عمر بن الخطاب لما فتح الامصار لم يأخذ الجزية الا من الرجال دون النساء وأقره الصحابة واستمروا عليه وقال أبو محمد بن حزم رحمه الله تلزم الجزية الانثى لقوله تعالى حتى يعطوا الجزية ولا شك ان الدين لازم النساء كلزومه للرجال ولم يأت نص بالفرق بينهما في الجزية ثم ساق حديث معاذ بلفظ حالم وحالمة وأسنده الى ابن جريج وساق حديثا مرسلا مثله ولا يخفى ضعف ما ذهب اليه وأما العبد فان كان سيده مسلما فلا جزية عليه بالاتفاق ومن اليهود السامرية وانهم فرق كثيرة وقد فتح الصحابة الامصار وأقروهم على تسليم الجزية وكذلك الأئمة والخلفاء بعدهم وأما الصابئة فقال ابن القيم انهم أمة كثيرة وأكثرهم فلاسفة ولهم مقالات مشهورة ثم ذكر انها تؤخذ منهم الجزية فانهم أحسن حالا من المجوس فأخذها من المجوس تنبيه على أخذها من الصابئة بالطريق الاولى فان المجوس من أخبث الأمم دينا ومذهبا ثم ساق مذاهبهم وأما بنو تغلب وهم فرقة انتقلوا في الجاهلية الى النصرانية فهم من النصارى كانت لها شوكة وقوة وجاء الاسلام وهم كذلك وأنفوا من الجزية فضوعفت عليهم الصدقة عوضا عن الجزية فهذه الطوائف التي تؤخذ منها الجزية أو ما صولحوا عليه ويهود خيبر وغيرهم داخلون في عموم الآية ولم يأت لهم مخصص وانما لم يأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم من يهود المدينة ولا من يهود خيبر لانه أجلى يهود المدينة وقاتل من قاتل منهم قبل نزولها وأما أهل خيبر فانه صالحهم قبل نزول فريضة الجزية ولم ينزل فرضها الا في التاسعة من الهجرة واختلف الناس في أخذ الجزية ممن عدا من ذكرنا بعد الاتفاق على أخذها من أهل الكتابين والمجوس فقالت الحنفية تؤخذ أيضا من عبدة الاوثان من العجم ولا تؤخذ من عبدة الاوثان من العرب واستدلوا بالحديث الذي أخرجه أحمد والترمذي عن ابن عباس مرفوعا قال أريد منهم كلمة تدين لهم بها العرب وتؤدي الجزية بها اليهم العجم وذهب مالك وأبو يوسف الى انها تقبل الجزية من العربي الوثني مستدلين بحديث بريدة الذي أخرجه مسلم وهو حديث طويل شريف فيه وصايا الامراء السرايا وفيه اذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى ثلاث خصال وفيه فان هم أبوا فسلهم الجزية فان هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم فدل على ان الجزية تؤخذ من كل كافر

جعفر الفراء عن ثابت عن زاذان عن جرير بن عبد الله فذكر نحوه وقال فيه هذا ممن عمل قليلا وأجر كثيرا وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يوسف بن موسى القطان حدثنا مهران بن أبي عمر حدثنا علي بن عبد الاعلى عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير ساره اذ عرض له أعرابي فقال يا رسول الله والذي بعثك بالحق لقد خرجت من بلادي وتلادي ومالي لاهتدي بهداك وآخذ من قولك وما بلغتك حتى مالي طعام الا من خضر الارض فأعرض علي فعرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبل فازدحمنا حوله فدخل خف بكره في بيت جرذان فتردى الاعرابي فانكسرت عنقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق والذي بعثني بالحق لقد خرج من بلاده وتلاده وماله ليهتدي بهداي ويأخذ من قولي وما بلغني حتى ماله طعام الا من خضر الارض أسمعتم بالذي عمل قليلا وأجر كثيرا هذا منهم أسمعتم بالذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون فان هذا منهم وفي لفظ قال هذا عمل قليلا وأجر كثيرا وقوله وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه اي وجهنا حجته عليهم قال مجاهد وغيره يعني بذلك قوله وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن الآية وقد صدقه الله وحكم له بالأمن والهداية فقال الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون ثم قال بعد ذلك كله وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء قرئ بالاضافة وبلا اضافة كما في سورة يوسف وكلاهما قريب في المعنى وقوله ان ربك حكيم عليم أي حكيم في أقواله وافعاله عليم أي بمن يهديه ومن يضله وان قامت عليه الحجة والبراهين كما قال ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم ولهذا قال ههنا ان ربك حكيم عليم (ووهبنا له اسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين واسمعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فان يكفر

كافر هذا ظاهر الحديث ولم يستثن منهم كافرا دون كافر ولا يقال هذا خاص بأهل الكتاب فان اللفظ يأبى اختصاصه بهم وأيضا سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم وجيوشه أكثر ما كانت تقاتل عبدة الاوثان من العرب فيؤخذ من عموم الكفار بالسنة ومن أهل الكتاب بالقرآن وقد أخذها صلى الله عليه وسلم من المجوس عباد النار ولا فرق بينهم وبين عباد الاوثان فان قيل انه لم يأخذها من أحد من عباد الاوثان مع كثرة قتاله اياهم قلنا آية الجزية انما نزلت عام تبوك في التاسعة بعد اسلام من كان في جزيرة العرب ولم يبق بها أحد من عباد الاوثان قال الحافظ ابن القيم والمسئلة مبنية على حرف واحد وهو ان الجزية هل وضعت عاصمة للدم أو مظهرة لصغار الكفر واذلال أهله والثاني راجح وقد جاز استرقاق العربي الوثني فانه صح ذلك بلا مرية و يبقى على كفره والمقصود انه لا فرق بين الكفار في أخذ الجزية والاسترقاق وأطال في هذا واختاره وأما تقدير الجزية كما تقدم فيرد على الجميع انه صلى الله عليه وسلم أمر معاذا يقبض دينارا من كل حالم وجعله صنفا واحدا لا ثلاثة أصناف وأول من جعلهم ثلاثة عمر بن الخطاب وقد اختلف الجواب عن حديث معاذ ثم اعلم أنه لا يتعين في الجزية ذهب ولا فضة بل يجوز أخذها مما تيسر من أموالهم من ثياب وسلاح يعملونه وحديد ونحاس ومواش وحبوب وغير ذلك وهذا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه أخرج أحمد بسند جيد عن معاذ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه الى اليمن أمره ان يأخذ من كل حالم دينارا أو عدله معافريا ورواه أهل السنن وقال الترمذي حسن وكذلك أهل نجران لم يأخذ في جزيتهم ذهبا ولا فضة انما أخذ الحلل والسلاح واذا عرفت هذا فقد تبين ان الجزية غير مقدرة بالشرع تقديرا لا يقبل الزيادة والنقصان ولا معينة في جنس من الاجناس وأما وقت قبض الجزية فانها تجب في آخر الحول ولا يطالبون بها قبل ذلك وبه قال أحمد والشافعي وقال أبو حنيفة تجب بأول الحول ويؤخذ منه كل شهر بقسطه وقال غيرهم وهم الاكثرون انه صلى الله عليه وسلم لما ضرب الجزية على أهل الكتاب والمجوس لم يطالبهم بها حين ضربها ولا ألزمهم بادائها في الحال وقت نزول الآية بل صالحهم عليها وكان يبعث رسله وسعاته فيأتون بالجزية والصدقة عند محلها واستمرت على ذلك سيرة خلفائه من بعده قال الحافظ ابن القيم رحمه الله وهذا مقتضى قواعد الشريعة وأصولها فان الاموال التي تتكرر بتكرر الاعوام انما

بهؤلاء نقدو كلنا بها قوماليسوا بها بكافرين أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجرا ان هو الا ذكرى للعالمين) يذكر تعالى انه وهب لابراهيم اسحق بعد أن طعن في السن وأيس وامرأته سارة من الولد فجاءته الملائكة وهم ذاهبون الى قوم لوط فبشروهما باسحق فتعجبت المرأة من ذلك وقالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا ان هذا الشئ عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد فبشروهما فتعجبت وبشروهما مع وجوده بنبوته وبان له نسلا وعقبا كما قال تعالى وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين (٩٢) وهذا أكمل في البشارة وأعظم في النعمة وقال فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب أى ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما فتقرأعينكما به كما قرت بوالده وان الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه وقعت البشارة به وبولده باسمه يعقوب الذى فيه اشتقاق العقب والذرية وكانت هذه المجازاة لابراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه وتركهم ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهبا الى عبادة الله في الارض فعوضه الله عز وجل عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه لتقربهم عينه كما قال تعالى فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا وقال ههنا ووهبنا له اسحق ويعقوب كلا هدينا وقوله ونوحا هدينا من قبل أى من قبله هديناه كما هديناه ووهبنا له ذرية صالحة وكل منهما له خصوصية عظيمة أما نوح عليه السلام فان الله تعالى لما أغرق أهل الارض الا من آمن به وهم الذين صحبوه في السفينة جعل الله ذريته هم الباقين فالناس كلهم من ذريته وأما الخليل ابراهيم عليه السلام فلم يبعث الله عز وجل بعده نبيا الا من ذريته كما قال تعالى وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب الآية وقال تعالى ولقد أرسلنا نوحا وابراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب وقال تعالى اولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية ابراهيم واسرائيل وممن هدينا واجتبينا اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا وقوله في هذه الآية الكريمة ومن ذريته أى وهدينا من ذريته داود وسليمان الآية وعود الضمير الى نوح لانه أقرب المذكورين ظاهر لا اشكال فيه وهو اختيار ابن جرير وعوده الى ابراهيم لانه الذى سيق الكلام من أجله حسن لكن لا يشكل عليه لوط فانه

تجب في آخر العام لا في أوله وأما قوله حتى يعطوا الجزية فليس المراد به العطاء الاول بل العطاء المستمر المتكرر وهذه كانت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم وقال أصحاب الشافعي تجب بأول السنة دفعة واحدة ولكن يستقر جزء بعد جزء وقال بعضهم انما يدخل وقت وجوبها عند انقضاء السنة وتسقط الجزية بالاسلام ولو اجتمعت عليه جزية سنين فقد قال صلى الله عليه وسلم ليس على مسلم جزية (وهم صاغرون) اى يعطى الذمى الجزية حال كونه صاغرا والصغار الذل واختلف العلماء في المراد من الصغار فقال عكرمة ان يدفعها وهو قائم والآخذ جالس وقيل ان يأتي بها بنفسه ماشيا لا راكبا ويطال وقوفه عند اتيانه بها ويجر الى الموضع الذى فيه الآخذ ثم تجريده ويمتهن وفي الكشاف انه يتلتل تلتلة ويؤخذ بتلابيبه ويقال له أد الجزية وان كان يؤديها ويزج في قفاه انتهى وقال ابن عباس يمشون بها متلتلين وعنه قال يلكزون وقال الكلبي اذا أعطى يصفع قفاه وقيل هو ان يؤخذ بلحيته ويضرب في لهزمتيه ويقال له أد حق الله يا عدو الله وقال سلمان معنى صاغرين غير محمودين وقيل غير ذلك مما لم يدل عليه دليل قال الحافظ بن القيم رحمه الله وهذا كله مما لا دليل عليه ولا هو مقتضى الآية ولا نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن أصحابه قال والصواب في الآية ان الصغار هو التزامهم بجريان احكام الله تعالى عليهم واعطاء الجزية فان ذلك هو الصغار وبه قال الشافعي قلت ومن الصغار ما أخذه عمر رضي الله عنه في العهد العمري وهو ما أخرجه عبد الله بن أحمد عن عبد الرحمن بن غنم قال كتبت لعمر بن الخطاب حين صالح نصارى الشام وشرط عليهم فيه ان لا يحدثوا في مدينتهم ولا فيما حولها ديرا ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب ولا يجددوا ما خرب ولا يمنعوا كنائسهم ان ينزلها أحد من المسلمين ثلاث ليال يطعمونه ولا يؤووا جاسوسا ولا يكتموا غشا للمسلمين ولا يعلموا أولادهم القرآن ولا يظهروا شركا ولا يمنعوا ذوى قراباتهم الاسلام ان أرادوه وان يوقروا المسلمين وان يقوموا لهم من مجالسهم اذا أرادوا الجلوس ولا يتشبهوا بالمسلمين في شئ من لباسهم ولا يتكنوا بكناهم ولا يركبوا سرجا ولا يتقلدوا سيفا ولا يبيعوا الخمور وان يجزوا مقادم رؤسهم وان يلزموا زيهم حيثما كانوا وان يشدوا على أوساطهم ولا يظهروا صليبا ولا شيأ من كتبهم في شئ من طرق المسلمين ولا يجاوروا المسلمين بموتاهم ولا يضربوا بالناقوس الا ضربا خفيفا

ليس من ذرية ابراهيم بل هو ابن ماران بن آزر لانه ابن أخيه اللهم الا أن يقال انه دخل فى الذرية تغليبا كما فى قوله تعالى أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق الها واحدا ونحن له مسلمون فاسمعيل عمه ودخل فى آبائه تغليبا وفى ذكر عيسى عليه السلام فى ذرية ابراهيم أو نوح على القول الآخر دلالة على دخول ولد البنات فى ذرية الرجل لان عيسى عليه السلام انما ينتسب الى ابراهيم عليه السلام لامه مريم عليها السلام فانه لا أب له قال ابن أبى حاتم حدثنا سهل بن يحيى العسكرى حدثنا عبد الرحمن بن صالح حدثنا على بن عابس عن عبد الله ابن عطاء المكى عن أبى حرب بن أبى الاسود قال ارسل الحجاج الى يحيى ابن يعمر فقال بلغنى انك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبى صلى الله عليه وسلم تجده فى كتاب الله وقد قرأته من أوله الى آخره فلم أجده قال أليس تقرأ سورة الانعام ومن ذريته داود وسليمان حتى بلغ ويحيى وعيسى قال بلى قال أليس من ذرية ابراهيم وليس له أب قال صدقت فلهذا اذا أوصى الرجل لذريته أو وقف على ذريته أو وهبهم دخل أولاد البنات فيهم فاما اذا أعطى الرجل بنيه أو وقف عليهم فانه يختص بذلك بنوه لصلبه وبنو بنيه واحتجوا بقول الشاعر العربى

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا
بنوهن أبناء الرجال الاجانب

وقال آخرون ويدخل بنو البنات فيهم لما ثبت فى صحيح البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للحسن بن على ان ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين فسماه ابنا فدل على دخوله فى الابناء وقال آخرون هذا تجوز وقوله ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم ذكر أصولهم وفروعهم وذوى طبقتهم وان الهداية والاجتباء شملهم كلهم ولهذا قال واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم ثم قال تعالى ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده أى انما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته لهم اياهم ولو اشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون تشديد لامر الشرك وتغليظ لشأنه وتعظيم لملابسته كقوله تعالى ولقد أوحى اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك الآية وهذا شرط والشرط لا يقتضى جواز الوقوع كقوله قل ان كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين وكقوله لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين وكقوله لو أراد الله أن يتخذ

ولا يرفعوا أصواتهم بالقراءة فى كنائسهم فى شئ من حضرة المسلمين ولا يخرجوا شعانين ولا يرفعوا مع موتاهم أصواتهم ولا يظاهروا النيران معهم ولا يشتروا من الرقيق ما جرت فيه سهام المسلمين فان خالفوا فى شئ مما شرطوه فلا ذمة لهم وقد حل للمسلمين ما يحل من ذوى المعاندة والشقاق قال الحافظ ابن القيم وشهرة هذه الشروط تغنى عن اسنادها فان الائمة تلقوها بالقبول وذكروها فى كتبهم واحتجوا بها ولم يزل ذكر الشروط العمرية على ألسنتهم وفى كتبهم وقد أنفذها بعده الخلفاء وعملوا بموجبها اه قلت الدير للنصارى خاصة يبنونه للرهبان خارج البلد يجتمعون فيه للرهبانية وينفردون عن الناس واما القلاية بقاف مكسورة وباء موحدة فيبنيها رهبانهم مرتفعة كالمنارة والفرق بينها وبين الدير أن الدير يجتمعون فيه والقلاية لا تكون الا لواحد ينفرد بها بنفسه ولا يكون لها باب بل فيها طاقة يتناول منها شرابه وطعامه وما يحتاج اليه وأما الصومعة فهى كالقلاية تكون للراهب وحده والبيع جمع بيعة وهى متعبد النصارى وعن ابن عباس انها مساجد اليهود والكنائس جمع كنيسة وهى لاهل الكتابين ثم اعلم أنه لا يحل تكليفهم بما لا يقدرون عليه ولا حبسهم ولا تعذيبهم على اداء الجزية ولا ضربهم لما أخرج أبو عبيد أن هشام بن حكيم مر على قوم يعذبون فى الجزية بفلسطين فقال هشام سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ان الله يعذب يوم القيامة الذين يعذبون الناس فى الدنيا وعن عياض بن غنم مثله رواه الزهرى عن عروة بن الزبير وقد أخرج عن جبير ابن نفير عن أبيه انه أتى عمر بن الخطاب بمال كثير أحسبه قال الجزية فقال انى لاظنكم قد أهلكتم الناس قالوا لا والله ما أخذنا الا عفوا قال بلا سوط ولا نوط قالوا نعم قال الحمد لله الذى لم يجعل ذلك على يدى ولا فى سلطانى وعن على بن أبى طالب انه استعمل رجلا على عكبرى فقال له لا تبيعن لهم فى خراجهم حمارا ولا بقرة ولا كسوة شتاء ولا صيفا وارفق بهم وكان رضى الله عنه يأخذ من صاحب الابر ابرا ومن صاحب الحبال حبالا ونحوه من الامتعة قال أبو عبيد انما كان يأخذ منهم هذه الامتعة بقيمتها من الدراهم التى كانت عليهم من جزية رؤسهم ولا يحملهم على بيعها ارادة الرفق بهم والتخفيف عليهم ولهذا أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معاذا بأخذ معافر عدلا عن الدينار وانما يراد بهذا كله الرفق بأهل الذمة لا يباع عليهم من متاعهم شئ ولكن يؤخذ مما سهل عليهم

وإذا الاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار وقوله تعالى أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة أي أنعمنا عليهم بذلك رحمة للعباد بهم ولطفا منا بالخليقة فان يكفر بها أي بالنبوة ويحتمل أن يكون الضمير عائدا على هذه الاشياء الثلاثة الكتاب والحكم والنبوة وقوله هؤلاء يعني أهل مكة قاله ابن عباس وسعيد بن المسيب والضحاك وقتادة والسدي وغير واحد فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين أي ان يكفر بهذه النعم من كفر بها من قريش وغيرهم من سائر أهل الارض من عرب وعجم وملين وكتابيين فقد وكلنا بها قوما آخرين أي المهاجرين والانصار وأتباعهم الى يوم القيامة ليسوا بها بكافرين أي لا يجحدون منها شيأ ولا يردون منها حرفا واحدا بل يؤمنون بجميعها محكمها ومتشابهها جعلنا الله منهم بمنه وكرمه واحسانه ثم قال تعالى مخاطبا عبده ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم أولئك يعني الانبياء المذكورين مع من أضيف اليهم من الآباء والذرية والاخوان وهم الاشباه الذين هدى الله أي هم أهل الهدى لا غيرهم فبهداهم اقتده أي اقتد واتبع واذا كان هذا أمرا للرسول صلى الله عليه وسلم فأمته تبع له فيما يشرعه ويأمرهم به قال البخاري عند هذه الآية حدثنا ابراهيم بن موسى أخبرنا هشام أن ابن جريج أخبرهم قال أخبرني سليمان الاحول أن مجاهدا أخبره أنه سأل ابن عباس أفي سجدة ص سجدة فقال نعم ثم تلا ووهبنا له اسحق ويعقوب الى قوله فبهداهم اقتده ثم قال هو منهم زاد يزيد بن هرون ومحمد بن عبيد وسهل بن يوسف عن العوام عن مجاهد قلت لابن عباس فقال نبيكم صلى الله عليه وسلم ممن أمر أن يقتدى بهم وقوله تعالى قل لا أسألكم عليه أجرا أي لا أطلب منكم على ابلاغي اياكم هذا القرآن أجرا أي أجرة ولا أريد منكم شيأ ان هو الا ذكرى للعالمين أي يتذكرون به فيرشدوا من العمى الى الهدى ومن الغي الى الرشاد ومن الكفر الى الايمان (وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون) يقول تعالى وما عظموا الله

في القيمة والكلام في الجزية مقرر في مواطنه والحق ان هذه الاقوال ما قد قرره الشوكاني في شرحه للمنتقى وفي غيره من مؤلفاته وفي الباب كتاب افادة الامة في أحكام أهل الذمة للسيد محمد بن اسمعيل الامير اليمني وهو حافل جدا (وقالت اليهود عزير ابن الله) كلام مبتدأ لبيان شرك أهل الكتابين وظاهر الآية ان هذه المقالة لجميعهم وقيل هو لفظ خرج على العموم ومعناه الخصوص لانه لم يقل ذلك الا البعض منهم أو من متقدميهم أو ممن كانوا بالمدينة وقال النقاش لم يبق يهودي يقولها بل قد انقرضوا وقيل انه قال ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم جماعة منهم فنزلت الآية متضمنة لحكاية ذلك عن اليهود لان قول بعضهم لازم لجميعهم وقوله عزير بتنوين الصرف وتركه قراءتان سبعيتان فالاولى بناء على انه عربي وليس فيه الا العلمية والثانية بناء على انه أعجمي ففيه العلتان وعلى كل هو مبتدأ وابن الله خبر فلذلك ثبتت الالف في ابن لانه لا تحذف منه الا ان كان صفة (وقالت النصارى المسيح ابن الله) قالوا هذا لما رأوا من احيائه للموتى مع كونه من غير أب فكان ذلك سببا لهذه المقالة والاولى أن يقال انهم قالوا هذه المقالة لكون وصفه في الانجيل تارة بابن الله وتارة بابن الانسان كما رأينا ذلك في مواضع متعددة من الانجيل ولم يفهموا ان ذلك لقصد التشريف والتكريم أو لم يظهر لهم ان ذلك من تحريف سلفهم لغرض من الاغراض الفاسدة قال الرازي والاقرب عندي ان يقال لعله ذكر لفظ الابن في الانجيل على سبيل التشريف كما ورد لفظ الخليل في حق ابراهيم على سبيل التشريف فبالغوا وفسروا لفظ الابن بالبنوة الحقيقية والجهال قبلوا ذلك منهم وفشا هذا المذهب الفاسد في اتباع عيسى عليه السلام (ذلك قولهم) الاشارة الى ما صدر عنهم من هذه المقالة الباطلة ووجه قوله (بأفواههم) مع العلم بأن القول لا يكون الا بالفم بأن هذا القول لما كان ساذجا ليس فيه بيان ولا عضده برهان كان مجرد دعوى لا معنى تحتها فارغة صادرة عنهم صدور المهملات التي ليس فيها الا كونها خارجة من الافواه غير مفيدة لفائدة يعتد بها وقيل لان اثبات الولد له مع انه منزه عن الحاجة والشهوة والمضاجعة والمباضعة قول باطل ليس له تأثير في العقل وقيل ان ذكر الافواه لقصد التأكيد كما في كتبت بيدي ومشيت برجلي ومنه قوله تعالى يكتبون الكتاب بأيديهم وقوله ولا طائر يطير بجناحيه وقال بعض أهل العلم ان الله سبحانه لم يذكر قولا مقرونا بذكر الافواه والالسن الا وكان قولا

حق تعظيمه اذ كذبوا الرسل اليهم قال ابن عباس ومجاهد وعبد الله بن كثير نزلت في قريش واختاره ابن جرير وقيل نزلت في طائفة من اليهود وقيل في فنحاص رجل منهم وقيل في مالك بن الصيف قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء والاول أصح لان الآية مكية واليهود لا ينكرون انزال الكتب من السماء وقريش والعرب قاطبة كانوا ينكرون ارسال محمد صلى الله عليه وسلم لانه من البشر كما قال أكان للناس عجبا أن أوحينا الى رجل منهم أن أنذر الناس وكقوله تعالى وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا (٩٥) عليهم من السماء ملكا رسولا وقال ههنا وماقدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قال الله تعالى قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس أي قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لانزال شيء من الكتب من عند الله في جواب سلبهم العام باثبات قضية جزئية موجبة من انزال الكتاب الذي جاء به موسى وهو التوراة التي قد علمتم وكل أحد ان الله قد أنزلها على موسى ابن عمران نورا وهدى للناس أي ليستضاء بها في كشف المشكلات ويهتدى بها من ظلم الشبهات وقوله تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا أي تجعلون جملتها قراطيس أي قطعا تكتبونها من الكتاب الاصلي الذي بأيديكم وتحرفون منها ما تحرفون وتأولون وتقولون هذا من عند الله أي في كتابه المنزل وما هو من عند الله ولهذا قال تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وقوله تعالى وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم أي ومن انزال القرآن الذي علمكم الله فيه من خبر ما سبق ونبأ ما يأتي ما لم تكونوا تعلمون أنتم ولا آباؤكم وقد قال قتادة هؤلاء مشركو العرب وقال مجاهد هذه للمسلمين وقوله تعالى قل الله قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أي قل الله أنزله وهذا الذي قاله ابن عباس هو المتعين في تفسير هذه الكلمة وهذا الذي قاله هذا القائل يكون أمرا بكلمة مفردة من غير تركيب والاتيان بكلمة مفردة لا يفيد في لغة العرب فائدة يحسن السكوت عليها وقوله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون أي ثم دعهم في جهلهم وضلالهم يلعبون حتى يأتيهم من الله اليقين فسوف يعلمون ألهم العاقبة أم لعباد الله المتقين وقوله وهذا كتاب يعني القرآن أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى يعني مكة ومن حولها من أحياء العرب ومن سائر طوائف بني آدم من عرب وعجم كما قال في الآية الاخرى قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا وقال لانذركم به ومن بلغ وقال ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده وقال تبارك الذي نزل الفرقان على

زورا كقوله يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم وقوله كبرت كلمة تخرج من أفواههم وقوله يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم (يضاهون قول الذين كفروا من قبل) المضاهاة المشابهة قيل ومنه قول العرب امرأة ضهياء وهي التي لا تحيض لانها شابهت الرجال قال أبو علي الفارسي هذا خطأ لان الهمزة في ضاهأ أصلية وفي ضهياء زائدة كحمراء وأصله يضاهؤن وقيل فيه لغتان ضاهأت وضاهيت والاولى لغة ثقيف قال الحسن يوافقون وقال مجاهد يواطئون ومعنى مضاهاتهم لقولهم فيه أقوال لاهل العلم الاول انهم شابهوا بهذه المقالة عبدة الاوثان في قولهم اللات والعزى ومناة بنات الله الثاني شابهوا قول من يقول من الكافرين ان الملائكة بنات الله الثالث انهم شابهوا أسلافهم القائلين بأن عزيرا ابن الله والمسيح ابن الله (قاتلهم الله) دعاء عليهم بالهلاك لان من قاتله الله هلك وقيل هو تعجب من شناعة قولهم وقيل معناه لعنهم الله وحكى النقاش ان أصل قاتل الله الدعاء ثم كثر في استعمالهم حتى قالوه على التعجب في الخير والشر وهم لا يريدون الدعاء (أنى يؤفكون) أي كيف يصرفون عن الحق الى الباطل بعد وضوح الدليل واقامة الحجة بأن الله واحد أحد فجعلوا له ولدا تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) الاحبار جمع حبر وهو الذي يحسن القول ومنه ثوب محبر وقيل جمع حبر بكسر الحاء قال يونس لم أسمعه الا بكسر الحاء وقال الفراء الفتح والكسر لغتان وقال ابن السكيت الحبر بالكسر العالم والحبر بالفتح العالم قال الاصمعي لا أدري أهو الحبر أو الحبر وقال أبو الهيثم هو بالفتح وأنكر الكسر وقيل الكسر أفصح لانه يجمع على افعال دون فعول وقال أبو عبيد هو بالفتح وقال الليث الحبر العالم ذميا كان أو مسلما بعد أن يكون من أهل الكتاب والحبر الذي يكتب به وموضعه المحبرة بالكسر والحبر أيضا الاثر وفي الحديث يخرج رجل من النار قد ذهب حبره وسبره قال الفراء أي لونه وهيئته وقال الاصمعي الجمال والبهاء وأثر النعمة وتحبير الخط والشعر وغيرهما تحسينه والحبر بالفتح الحبور وهو السرور وحبره أي سره وبابه نصر وحبرة أيضا بالفتح ومنه قوله تعالى فهم في روضة يحبرون أي يسرون وينعمون ويكرمون والرهبان جمع راهب مأخوذ من الرهبة وهم علماء النصارى كما ان الاحبار علماء اليهود وقيل الرهبان أصحاب الصوامع من النصارى وقيل الرهبان النساك وقال الفراء ومعنى الآية لما

عبده ليكون للعالمين نذيرا وقال وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين أأسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد وثبت فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الانبياء قبلى وذكر منهن وكان النبى صلى الله عليه وسلم يبعث الى قومه وبعثت الى الناس عامة ولهذا قال والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به أى كل من آمن بالله واليوم الآخر آمن بهذا الكتاب المبارك الذى أنزلناه اليك يا محمد وهو القرآن وهم على صلاتهم يحافظون أى يقيمون بما فرض عليهم من أداء الصلوات فى أوقاتها (٩٦) (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى الى ولم يوح اليه شئ ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى اذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون) يقول تعالى ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أى لا أحد أظلم ممن كذب على الله فجعل له شركاء أو ولدا أو ادعى ان الله أرسله الى الناس ولم يرسله ولهذا قال تعالى أو قال أوحى الى ولم يوح اليه شئ قال عكرمة وقتادة نزلت فى مسيلمة الكذاب ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله أى ومن ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحى مما يفتريه من القول كقوله تعالى واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا الآية قال الله تعالى ولو ترى اذ الظالمون فى غمرات الموت أى فى سكراته وغمراته وكرباته والملائكة باسطو أيديهم أى بالضرب كقوله لئن بسطت الى يدك لتقتلنى الآية وكقوله ويبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء الآية من
وقال الضحاك وأبو صالح باسطو أيديهم أى بالعذاب كقوله ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ولهذا قال والملائكة باسطو أيديهم أى بالضرب لهم حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم ولهذا يقولون لهم أخرجوا أنفسكم وذلك أن الكافر اذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال والاغلال والسلاسل والجحيم والحميم وغضب الرحمن الرحيم فتتفرق روحه فى جسده وتعصى وتأبى الخروج فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم أخرجوا

اطاعوهم فيما يأمرونهم به وينهونهم عنه كانوا بمنزلة المتخذين لهم أربابا لانهم أطاعوهم كما تطاع الارباب قال الربيع قلت لابى العالية كيف كانت تلك الربوبية فى بنى اسرائيل قال انهم ربما وجدوا فى كتاب الله ما يخالف أقوال الاحبار والرهبان فكانوا يأخذون بأقوالهم وما كانوا يقبلون حكم كتاب الله تعالى قال الرازى فى تفسيره قال شيخنا رضى الله عنه قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله تعالى فى بعض المسائل وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا اليها وبقوا ينظرون الى كالمتعجب يعنى كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع ان الرواية عن سلفنا وردت على خلافها ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء ساريا فى عروق الاكثرين من أهل الدنيا والقول الثانى فى تفسير هذه الربوبية ان الجهال والحشوية اذا بالغوا فى تعظيم شيخهم وقدوتهم فقد يميل طبعهم الى الحلول والاتحاد وذلك الشيخ اذا كان طالبا للدنيا بعيدا عن الدين كان يأمر أتباعه وأصحابه بأن يسجدوا له وكان يقول لهم أنتم عبيدى فكان يلقى اليهم من حديث الحلول والاتحاد أشياء ولو خلا ببعض الحمقاء من أتباعه فربما ادعى الالهية فاذا كان ذلك مشاهدا فى هذه الامة فكيف يبعد ثبوته فى الامم السالفة وحاصل الكلام ان تلك الربوبية تحتمل أن يكون المراد منها انهم أطاعوهم فيما كانوا مخالفين فيه لحكم الله وان يكون المراد منها انهم قبلوا أنواع الكفر فكفروا بالله فصار ذلك جاريا مجرى انهم اتخذوا أربابا من دون الله ويحتمل انهم أثبتوا فى حقهم الحلول والاتحاد وكل هذه الوجوه الاربعة مشاهد وواقع فى هذه الامة اه (والمسيح ابن مريم) أى اتخذه النصارى ربا معبودا وفيه اشارة الى أن اليهود لم يتخذوا عزيرا ربا معبودا وانظر لم تثبت الالف فى ابن هنا مع انه صفة بين علمين لان المسيح لقب وهو من أقسام العلم وفى هذه الآية ما يزجر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عن التقليد فى دين الله وتأثير ما يقوله الاسلاف على ما فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة فان طاعة المتمذهب لمن يقتدى بقوله ويستن بسنته من علماء هذه الامة مع مخالفته لما جاءت به النصوص وقامت به حجج الله وبراهينه ونطقت به كتبه وأنبياؤه هو كاتخاذ اليهود والنصارى للاحبار والرهبان أربابا من دون الله للقطع بأنهم لم يعبدوهم بل أطاعوهم وحرموا ما حرموا وحللوا ما حللوا وهذا هو صنيع المقلدين من هذه الامة وهو أشبه به

أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق الآية أى اليوم تهانون غاية الاهانة كما كنتم تكذبون على الله وتستكبرون عن اتباع آياته والانقياد لرسله وقد وردت أحاديث فى كيفية احتضار المؤمن والكافر وهى مقررة عند قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة وقد ذكر ابن مردويه ههنا حديثا مطولا جدا من طريق غريبة عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعا فالله أعلم وقوله ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة أى كما بدأناكم أعدناكم وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه فهذا يوم البعث وقوله وتركتم ما خولناكم (٩٧) أى من النعم والاموال التى اقتنيتموها فى الدار الدنيا وراء ظهوركم وثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك الا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس وقال الحسن البصرى يؤتى بابن آدم يوم القيامة كأنه بلدح(١) فيقول الله عز وجل أين ما جمعت فيقول يا رب جمعته وتركته أوفر ما كان فيقول له يا ابن آدم ما قدمت لنفسك فلا يراه قدم شيأ وتلا هذه الآية ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم رواه ابن أبى حاتم وقوله وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنه فيكم شركاء تقريع لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا فى الدنيا من الانداد والاصنام والاوثان ظانين أنها تنفعهم فى معاشهم ومعادهم ان كان ثم معاد فاذا كان يوم القيامة تقطعت بهم الاسباب وانزاح الضلال وضل عنهم ما كانوا يفترون ويناديهم الرب جل جلاله على رؤس الخلائق أين شركائى الذين كنتم تزعمون ويقال لهم أينما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ولهذا قال ههنا وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء فى استحقاق العبادة لهم ثم قال تعالى لقد تقطع بينكم قرئ بالرفع أى شملكم وبالنصب أى تقطع ما بينكم من الاسباب والوصلات والوسائل وضل عنكم ما كنتم تزعمون أى وذهب عنكم ما زعمتم من رجاء الانداد والاصنام كقوله تعالى اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار وقال تعالى فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب

من شبه السبخة بالبيضة والتمرة بالتمرة والماء بالماء فيا عباد الله ويا أتباع محمد بن عبد الله ما بالكم تركتم الكتاب والسنة جانبا وعمدتم الى رجال هم مثلكم فى تعبد الله لهم بهما وطلبه للعمل منهم بما دلا عليه وأفاداه فعملتم بما جاؤا به من الآراء التى لم تعمد بعماد الحق ولم تعضد بعضد الدين ونصوص الكتاب والسنة تنادى بأبلغ نداء وتصوت بأعلى صوت بما يخالف ذلك ويباينه فأعرتموها آذانا صما وقلوبا غلفا وأفهاما مريضة وعقولا مهيضة وأذهانا كليلة وخواطر عليلة وأنشدتم بلسان الحال

وما أنا الا من غزية ان غوت * غويت وان ترشد غزية أرشد

فدعوا أرشدكم الله واياى كتبا كتبها لكم الاموات من أسلافكم واستبدلوا بها كتاب الله خالقهم وخالقكم ومتعبدهم ومتعبدكم ومعبودهم ومعبودكم واستبدلوا بأقوال من تدعونهم بأئمتكم وما جاؤكم به من الرأى بأقوال امامكم وامامهم وقدوتهم وقدوتكم وهو الامام الاول محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم

دعوا كل قول عند قول محمد * فما آمن فى دينه كمخاطر

اللهم هادى الضال مرشد التائه موضح السبيل اهدنا الى الحق وأرشدنا الى الصواب وأوضح لنا منهج الهداية (وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا) أى والحال انهم ما أمروا فى الكتب القديمة المنزلة عليهم على ألسنة أنبيائهم الا بعبادة الله وحده أو وما أمر الذين اتخذوهم أربابا من الاحبار والرهبان الا بذلك فكيف يصلحون لما أهلوهم له من اتخاذهم أربابا (لا اله الا هو) صفة ثانية لقوله الها أو استئناف مقرر للتوحيد (سبحانه عما يشركون) أى تنزيها له عن الاشراك فى طاعته وعبادته وقد أخرج ابن سعد وعبد ابن حميد والترمذى وحسنه وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن عدى بن حاتم قال أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ فى سورة براءة اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله فقال أما انهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا اذا أحلوا لهم شيأ استحلوه واذا حرموا عليهم شيأ حرموه وأخرجه أيضا احمد وابن جرير (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم) هذا كلام يتضمن ذكر نوع آخر من أنواع ضلالهم وبعدهم عن الحق وهو ما راموه من ابطال الحق بأقاويلهم الباطلة التى هى مجرد كلمات ساذجة ومجادلات زائفة وهذا تمثيل لحالهم فى محاولة ابطال دين الحق ونبوة

(١) قوله بلدح هكذا فى الاصل وحرر الرواية اهـ مصححه

بينهم يومئذ ولا يتساءلون وقال تعالى انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين وقال وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم الآية وقال ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا الى قوله وضل عنهم ما كانوا يفترون والآيات فى هذا كثيرة جدا (ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فانى تؤفكون فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم وهو الذى جعل لكم (٩٨) النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون) يخبر تعالى انه فالق الحب والنوى أى يشقه فى الثرى فينبت الزروع على اختلاف أصنافها من الحبوب والثمار على اختلاف ألوانها وأشكالها وطعومها من النوى ولهذا فسر قوله فالق الحب والنوى بقوله يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى أى يخرج النبات الحى من الحب والنوى الذى هو كالجماد الميت كقوله وآية لهم الارض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون الى قوله ومن أنفسهم ومما لا يعلمون وقوله ومخرج الميت من الحى معطوف على فالق الحب والنوى ثم فسره ثم عطف عليه قوله ومخرج الميت من الحى وقد عبروا عن هذا بعبارات كلها متقاربة مؤدية للمعنى فمن قائل يخرج الدجاجة من البيضة وعكسه ومن قائل يخرج الولد الصالح من الفاجر وعكسه وغير ذلك من العبارات التى تنتظمها الآية وتشملها ثم قال تعالى ذلكم الله أى فاعل هذا هو الله وحده فانى تؤفكون أى كيف تصرفون عن الحق وتعدلون عنه الى الباطل فتعبدون معه غيره وقوله فالق الاصباح وجعل الليل سكنا أى فالق الضياء والظلام كما قال فى أول السورة وجعل الظلمات والنور أى فهو سبحانه يفلق ظلام الليل عن غرة الصباح فيضىء الوجود ويستنير الافق ويضمحل الظلام ويذهب الليل بسواده وظلام رواقه ويجىء النهار بضيائه واشراقه كقوله يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا فبين تعالى قدرته على خلق الاشياء المتضادة المختلفة الدالة على كمال عظمته وعظيم سلطانه فذكر أنه فالق الاصباح وقابل ذلك بقوله وجعل الليل سكنا أى ساجيا مظلما لتسكن فيه الاشياء كما قال والضحى والليل اذا سجى وقال والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى وقال والنهار اذا جلاها والليل اذا يغشاها

نبى الصدق بحال من يريد ان ينفخ فى نور عظيم قد أنارت به الدنيا وانقشعت به الظلمة ليطفئه ويذهب أضواءه قيل المراد بالنور شرائعه وبراهينه وسميت الدلائل نورا لانه يهتدى بها الى الصواب كما يهتدى بالنور الى المحسوسات وقيل المراد به الدلائل الدالة على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم وهى أمور - أحدها المعجزات الباهرات الخارقة للعادات وثانيها القرآن العظيم وهو معجزة له باقية على الابد وثالثها ان دينه الذى أمر به هو دين الاسلام ليس فيه شىء سوى تعظيم الله والثناء عليه والانقياد لامره ونهيه والتبرى من كل معبود سواه فهذه أمور نيرة ودلائل واضحة فى صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى صدقه فمن أراد ابطال ذلك بكذب وتزوير فقد خاب سعيه وبطل عمله (ويأبى الله الا أن يتم نوره) أى دينه القويم باعلاء كلمته قال فى الكشاف ان أبى قد أجرى مجرى لم يرد أى ولا يريد الا أن يتم نوره وقال على بن سليمان انما جاز هذا فى أبى لانها منع أو امتناع فضارعت النفى قال النحاس وهذا أحسن وقال الزجاج التقدير ويأبى الله كل شىء الا أن يتم وقال الفراء انما دخلت الا لان فى الكلام طرفا من الجحد وانما صح الاستثناء المفرغ من الموجب لكونه بمعنى النفى وفيه من المبالغة والدلالة على الامتناع ما ليس فى نفى الارادة أى لا يريد شيأ من الاشياء الا اتمام نوره فيندرج فى المستثنى منه بقاؤه على ما كان عليه فضلا عن الاطفاء قاله الكرخى (ولو كره الكافرون) أى أبى الله الا أن يتم نوره ويعلى دينه ويظهر كلمته ويتم الحق الذى بعث الله به رسوله ولو كره ذلك الكافرون وجواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه والتقدير ولو كره الكافرون تمام نوره لاتمه ولم يبال بكراهتهم وقيل لو لم يكرهوه أو كرهوه أى على كل حال مفروضة ثم أكد هذا بقوله (هو الذى أرسل رسوله) يعنى محمدا (بالهدى) اى بما يهدى به الناس من البراهين والمعجزات والاحكام التى شرعها الله لعباده والتوحيد والاسلام والقرآن (ودين الحق) وهو دين الاسلام وفائدة ذكره مع دخوله فى الهدى قبله بيان شرفه وتعظيمه كقوله والصلاة الوسطى (ليظهره) أى ليظهر رسوله أو دين الحق بما يشتمل عليه من الحجج والبراهين (على الدين كله) اى على سائر الاديان وهو ان لا يعبد الله الا به فلا دين بخلاف الاسلام الا وقد قهرهم المسلمون وظهروا عليهم فى بعض المواضع وان لم يكن كذلك فى جميع مواضعهم فقهروا اليهود وأخرجوهم من بلاد العرب وغلبوا النصارى على بلاد الشام وما والاها الى ناحية الروم والغرب وغلبوا

المجوس

وقال صهيب الرومي لامرأته وقد عاتبته في كثرة سهره بأن الله جعل الليل سكنا الا لصهيب ان صهيبا اذا ذكر الجنة طال شوقه واذا ذكر النار طار نومه. رواه ابن أبي حاتم وقوله والشمس والقمر حسبانا أي يجريان بحسبان مقنن مقدر لا يتغير ولا يضطرب بل لكل منهما منازل يسلكها في الصيف والشتاء فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولا وقصرا كما قال هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل الآية وكما قال لا الشمس

ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون وقال والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره وقوله ذلك تقدير العزيز العليم أي الجميع جار بتقدير العزيز الذي لا يمانع ولا يخالف العليم بكل شئ فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الارض ولا في السماء وكثيرا اذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر يختم الكلام بالعزة والعلم كما ذكر في هذه الآية وكما في قوله وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ولما ذكر خلق السموات والارض ومافيهن في أول سورة حم السجدة قال وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم وقوله تعالى وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قال بعض السلف من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله سبحانه أن الله جعلها زينة للسماء ورجوما للشياطين ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر وقوله قد فصلنا الآيات أي قد بيناها ووضحناها لقوم يعلمون أي يعقلون ويعرفون الحق ويجتنبون الباطل (وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) يقول تعالى وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة يعني آدم عليه السلام كما قال يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها

المجوس على ملكهم وغلبوا عباد الاصنام على كثير من بلادهم مما يلي الترك والهند وكذلك سائر الاديان فثبت ان الذي أخبر الله عنه في هذه الآية قد وقع وحصل وكان ذلك اخبارا عن الغيب فكان معجزا وقد ذكرنا فتوح الاسلام في كتابنا حجج الكرامة في آثار القيامة الذي حررناه بعد هذا التفسير وقيل ذلك عند نزول عيسى وخروج مهدى فلا يبقى أهل دين الا دخلوا في الاسلام ويدل له بعض الاحاديث فمنها حديث أبي هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم وتهلك في زمانه الملل كلها الا الاسلام وقال الشافعي قد أظهر الله دين رسوله على الاديان كلها بأن أبان لكل من سمعه انه الحق وما خالفه من الاديان باطل وقيل قهر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأصنام حتى دانوا بالاسلام طوعا وكرها وقتل أهل الأصنام وسبى حتى دان بعضهم بالاسلام وأعطى بعضهم الجزية وجرى عليهم حكمه فهذا ظهوره على الدين كله وقيل المراد ظهوره على الدين كله في جزيرة العرب وقد حصل ذلك فانه تعالى ما أبقى فيها أحدا من الكفار وقيل المراد أن يوقفه على جميع شرائع الدين ويطلعه عليها بالكلية حتى لا يخفى عليه منها شئ وقيل المراد ظهوره على الدين كله بالحجة والبيان وفيه ضعف لان هذا وعد بأنه تعالى سيفعله والتقوية بالحجة والبرهان كان حاصلا من أول الامور (ولو كره المشركون) الكلام فيه كالكلام في ولو كره الكافرون كما قدمنا ذلك ووصفهم بالشرك بعد وصفهم بالكفر للدلالة على انهم ضموا الكفر بالرسول الى الكفر بالله تعالى وهذا آخر الآيات التي أمر علي بالتأذين بها في موسم الحج (يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل) لما فرغ سبحانه من ذكر حال أتباع الاحبار والرهبان المتخذين لهم أربابا ذكر حال المتبوعين وبين اغواءهم لاراذلهم قال الضحاك يعني علماء اليهود والنصارى وفي قوله ان كثيرا دليل على ان الاقل منهم لم يأكلوا أموال الناس بالباطل ولم يتلبسوا بذلك بل بقوا على ما يوجبه دينهم من غير تحريف ولا تبديل ولا ميل الى حطام الدنيا ولعلهم الذين كانوا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وعبر عن أخذ الاموال بالاكل لان المقصود الاعظم من جمع المال الاكل فسمى الشئ باسم ما هو أعظم مقاصده والباطل كتب كتبوها لم ينزلها الله فأكلوا بها أموال الناس وذلك قوله تعالى فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله وقيل المعنى انهم يأخذونها بالوجوه الباطلة

زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء وقوله فمستقر ومستودع اختلفوا في معنى ذلك فعن ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وغيرهم وأبي عبد الرحمن السلمي وقيس بن أبي حازم ومجاهد وابراهيم النخعي والضحاك وقتادة والسدي وعطاء الخراساني مستقر أي في الارحام ومستودع أي في الاصلاب وعن ابن مسعود وطائفة عكسه وعن ابن مسعود أيضا وطائفة فمستقر في الدنيا ومستودع حيث يموت وقال سعيد بن جبير فمستقر في الارحام وعلى ظهر الارض وحيث يموت وقال الحسن البصري المستقر الذي قد مات فاستقر به عمله وعن ابن مسعود مستقر في الدار الآخرة والقول الاول أظهر والله أعلم

كالرشوة في تخفيف الاحكام والمسامحة في الشرائع وقيل انهم كانوا يدعون عند العوام والحشرات انه لا سبيل لاحد الى الفوز بمرضاة الله تعالى الا بخدمتهم وطاعتهم وبذل الاموال في طلب مرضاتهم والعوام كانوا يغترون بتلك الاكاذيب وقيل التوراة كانت مشتملة على آيات دالة على مبعث محمد صلى الله عليه وسلم فكانوا يذكرون في تأويلها وجوها فاسدة ويحملونها على محامل باطلة وكانوا يأخذون الرشوة وقيل كانوا يقررون عند عوامهم ان الدين الحق هو الذي هم عليه فاذا قرروا ذلك قالوا وتقوية الدين الحق واجبة ثم قالوا ولا طريق الى تقويته الا اذا كان أولئك الفقهاء أصحاب الاموال الكثيرة والجمع العظيم فبهذا الطريق يحملون العوام على ان يبذلوا في خدمتهم نفوسهم وأموالهم فهذا هو الباطل الذي كانوا به يأكلون أموال الناس قال الرازي وهي بأسرها حاضرة في زماننا وهو الطريق لاكثر الجهال والمزورين الى أخذ أموال العوام والحمقى من الخلق انتهى ولقد اقتدى بهؤلاء الاحبار والرهبان من علماء الاسلام ومشايخهم من لا يأتي عليه الحصر في كل زمان قال الرازي ولعمري من تأمل في أحوال أهل الناموس والتزوير في زماننا وجد هذه الآيات كأنها ما أنزلت الا في شأنهم وفي شرح أحوالهم فترى الواحد منهم يدعي انه لا يلتفت الى الدنيا ولا يتعلق خاطره بجميع المخلوقات وأنه في الطهارة والعصمة مثل الملائكة المقربين حتى اذا آل الامر الى الرغيف الواحد تراه يتهالك عليه ويتحمل نهاية الذل والدناءة في تحصيله انتهى ولنعم ما قيل

عجبت من شيخي ومن زهده * وذكره النار وأهوالها
يكره ان يشرب في فضة * ويسرق الفضة ان نالها

(ويصدون عن سبيل الله) أي عن الطريق اليه وهو دين الاسلام وعن الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم أو عما كان حقا في شريعتهم قبل نسخها بسبب أكلهم لاموال الناس بالباطل (والذين يكنزون الذهب والفضة) قيل هم المتقدم ذكرهم من الاحبار والرهبان وأنهم كانوا يصنعون هذا الصنع قاله معاوية بن أبي سفيان وقيل هم من يفعل ذلك من المسلمين قاله ابن عباس وقال السدي نزلت في مانعي الزكاة من المسلمين وقال أبوذر نزلت في أهل الكتاب وفي المسلمين جميعا والاولى حمل الآية على عموم اللفظ فهو أوسع من ذلك وأصل الكنز في اللغة الضم والجمع ولا يختص بالذهب والفضة قال ابن جرير الكنز

وقوله تعالى قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون أي يفهمون ويعون كلام الله ومعناه وقوله تعالى وهو الذي أنزل من السماء ماء أي بقدر مباركا ورزقا للعباد واحياء للخلائق رحمة من الله بخلقه فأخرجنا به نبات كل شيء كقوله وجعلنا من الماء كل شيء حي فأخرجنا منه خضرا أي زرعا وشجرا أخضر ثم بعد ذلك نخلق فيه الحب والثمر ولهذا قال تعالى نخرج منه حبا متراكبا أي يركب بعضه بعضا كالسنابل ونحوها ومن النخل من طلعها قنوان أي جمع قنو وهي عذوق الرطب دانية أي قريبة من المتناول كما قال علي بن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس قنوان دانية يعني بالقنوان الدانية قصار النخل لاصقة عذوقها بالنخل رواه ابن جرير قال ابن جرير وأهل الحجاز يقولون قنوان وقيس يقولون قنوان وقال امرؤ القيس

فأثت أعاليه وآدت أصوله
(١) بقنوان من البسر احمرا

قال وتميم يقولون قنيان بالياء قال وهي جمع قنو كما أن صنوان جمع صنو وقوله تعالى وجنات من أعناب أي ونخرج منه جنات من أعناب وهذان النوعان هما أشرف الثمار عند أهل الحجاز وربما كانا خيار الثمار في الدنيا كما امتن الله بهما على عباده في قوله تعالى ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا وكان ذلك قبل تحريم الخمر وقال وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وقوله تعالى والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه قال قتادة وغيره متشابه في الورق والشكل قريب بعضه من بعض ومتخالف في الثمار شكلا وطعما وطبعا وقوله تعالى انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه أي نضجه قاله البراء بن عازب وابن عباس

(١) قوله بقنوان هكذا في الاصول وهذا الشطر ناقص بجزء اهـ مصححه

والضحاك وعطاء الخراساني والسدي وقتادة وغيرهم أي فكروا في قدرة خالقه من العدم الى الوجود بعد ان كان حطبا صار عنبا ورطبا وغير ذلك مما خلق سبحانه وتعالى من الالوان والاشكال والطعوم والروائح كقوله تعالى وفي الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل الآية ولهذا قال ههنا ان في ذلكم لآيات أي دلالات على كمال قدرة خالق الاشياء وحكمته ورحمته لقوم يؤمنون أي يصدقون به ويتبعون رسله (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون) (١٠١) هذا رد على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره الذين أشركوا بالله في عبادته أن عبدوا الجن فجعلوهم شركاء له في العبادة تعالى الله عن شركهم وكفرهم فان قيل فكيف عبدت الجن مع انهم انما كانوا يعبدون الاصنام فالجواب انهم ماعبدوها الاعن طاعة الجن وأمرهم بذلك كقوله ان يدعون من دونه الا اناثا وان يدعون الا شيطانا مريدا لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا ولاضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الانعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا يعدهم ويمنيهم ومايعدهم الشيطان الاغرورا وكقوله تعالى أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني الآية وقال ابراهيم لابيه ياأبت لاتعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا وكقوله ألم أعهد اليكم يابني آدم أن لاتعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين وان اعبدوني هذا صراط مستقيم وتقول الملائكة يوم القيامة سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ولهذا قال تعالى وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم أي وقد خلقهم فهو الخالق وحده فكيف يعبد معه غيره كقول ابراهيم أتعبدون ماتنحتون والله خلقكم وماتعملون ومعنى الآية انه سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق وحده فلهذا يجب أن يفرد بالعبادة وحده لاشريك له وقوله تعالى وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ينبه به تعالى على ضلال من ضل في وصفه ربه بأن له ولدا كما قاله من قاله من اليهود في عزير ومن قال من النصارى في عيسى ومن قال من مشركي العرب في الملائكة انها بنات الله تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ومعنى وخرقوا أي اختلقوا وائتفكوا وتخرصوا

كل شئ مجموع بعضه الى بعض في بطن الارض كان أو على ظهرها انتهى ومنه ناقة كناز اى مكتنزة اللحم يقال كنزت المال كنزا من باب ضرب جمعته وادخرته وكنزت التمر في وعائه كنزا أيضا وهذا زمن الكناز قال ابن السكيت لم يسمع الا بالفتح وحكى الازهري الفتح والكسر والكنز المال المدفون معروف تسمية بالمصدر والجمع كنوز واكتنز الشئ اكتنازا اجتمع وامتلأ ومال مكنوز أي مجموع واختلف أهل العلم في المال الذي أديت زكاته هل يسمى كنزا أم لا فقال قوم هو كنز وقال آخرون ليس بكنز ومن القائلين بالاول أبو ذر وقيده بما فضل عن الحاجة وبالثاني عمر بن الخطاب وابن عمر وابن عباس وجابر وأبو هريرة وعمر بن عبد العزيز وغيرهم وهو الحق لما سيأتي من الادلة المصرحة بأن ما أديت زكاته فليس بكنز أخرج أحمد في الزهد والبخاري وابن ماجه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عمر قال انما كان هذا قبل ان تنزل الزكاة فلما نزلت الزكاة جعلها الله طهرة للاموال ثم قال ما أبالي لو كان عندي مثل أحد ذهبا أعلم عدده وأزكيه وأعمل فيه بطاعة الله وعن أم سلمة مرفوعا نحوه ولقد كان كثير من الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وطلحة يقتنون الاموال ويتصرفون فيها وماعابهم أحد ممن أعرض عن القنية لان الاعراض اختيار للافضل والاقتناء مباح لايذم صاحبه وعن ابن عباس لما نزلت هذه الآية انطلق عمر واتبعه ثوبان فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يانبي الله انه قد كبر على أصحابك هذه الآية فقال ان الله لم يفرض الزكاة الا ليطيب بها مابقي من أموالكم وانما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم الحديث مختصرا أخرجه أبو داود والحاكم وصححه والبيهقي وابن أبي شيبة وأبو يعلى وغيرهم وعن علي قال أربعة آلاف ومادونها نفقة ومافوقها كنز وعن أبي أمامة قال حلية السيوف من الكنوز ما أحدثكم الا ما سمعت وعن عراك بن مالك وعمر ابن عبد العزيز قالا نسختها الآية الاخرى خذ من أموالهم صدقة الآية وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مامن صاحب ذهب ولا فضة لايؤدي زكاتها الا جعل له يوم القيامة صفائح ثم أحمي عليها في نار جهنم ثم تكوى بها جنباه وجبهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين الناس فيرى سبيله اما الى الجنة واما الى النار (ولا ينفقونها في سبيل الله) اختلف في وجه افراد الضمير مع كون المذكور قبله شيئين هما الذهب والفضة فقال ابن الانباري انه قصد الى

وكذبوا كما قاله علماء السلف قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وخرقوا يعني انهم تخرصوا وقال العوفي عنه وخرقوا له بنين وبنات بغير علم قال جعلوا له بنين وبنات وقال مجاهد وخرقوا له بنين وبنات قال كذبوا وكذا قال الحسن وقال الضحاك وضعوا وقال السدي قطعوا وقال ابن جرير وتأويله اذاً وجعلوا لله الجن شركاء في عبادتهم اياهم وهو المتفرد بخلقهم بغير شريك ولا معين ولا ظهير وخرقوا له بنين وبنات بغير علم بحقيقة ما يقولون ولكن جهلا بالله و بعظمته فانه لا ينبغي لمن كان الها أن يكون له بنون وبنات ولا صاحبة ولا أن يشركه خلقه شريك (١٠٢) ولهذا قال سبحانه وتعالى عما يصفون أي تقدس وتنزه وتعاظم عما يصفه هؤلاء الضالون من الاولاد والانداد والنظراء والشركاء (بديع السموات والارض انى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شئ وهو بكل شئ عليم) بديع السموات والارض أي مبدعهما وخالقهما على غير مثال سبق كما قال مجاهد والسدي ومنه سميت البدعة بدعة لانه لا نظير لها فيما سلف أنى يكون له ولد أي كيف يكون له ولد ولم تكن له صاحبة أي والولد انما يكون متولدا بين شيئين متناسبين والله تعالى لا يناسبه ولا يشابهه شئ من خلقه لانه خالق كل شئ فلا صاحبة له ولا ولد كما قال تعالى وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيأ ادا الى قوله وكلهم آتيه يوم القيامة فردا وخلق كل شئ وهو بكل شئ عليم فبين تعالى أنه الذي خلق كل شئ وأنه بكل شئ عليم فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه وهو الذي لا نظير له ولا ولد له تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا (ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شئ فاعبدوه وهو على كل شئ وكيل لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير) يقول تعالى ذلكم الله ربكم الذي خلق كل شئ ولا ولد له ولا صاحبة لا اله الا هو خالق كل شئ فاعبدوه أي فاعبدوه وحده لا شريك له وأقروا له بالوحدانية وانه لا اله الا هو لان وانه لا ولد له ولا والد ولا صاحبة له ولا نظير ولا عديل ووحده وهو على كل شئ وكيل أي حفيظ ورقيب يدبر كل ما سواه ويرزقهم ويكلأهم بالليل والنهار وقوله لا تدركه الابصار فيه أقوال للائمة من السلف أحدها لا تدركه في الدنيا وان كانت تراه في الآخرة كما تواترت به الاخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير ما طريق ثابت في الصحاح والمسانيد والسنن كما قال مسروق عن عائشة أنها قالت من زعم أن محمدا أبصر ربه فقد كذب فان الله تعالى قال لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار رواه ابن أبي حاتم

الاعم الاغلب وهو الفضة قال ومثله قوله تعالى استعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة رد الكناية الى الصلاة لانها أعم ومثله قوله تعالى واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها أعاد الضمير الى التجارة لانها الاعم وقيل ان الضمير راجع الى الذهب والفضة معطوفة عليه والعرب تؤنث الذهب وتذكره وقيل الضمير راجع الى الكنوز المدلول عليها بقوله يكنزون لانه أعم من النقدين وغيرهما وقيل الى الاموال وقيل الى الزكاة وقيل انه اكتفى بضمير أحدهما عن ضمير الآخر مع فهم المعنى وهو كثير في كلام العرب وقيل ان افراد الضمير من باب الذهاب الى المعنى دون اللفظ لان كل واحد من الذهب والفضة جملة وافية وعدة كثيرة ودنانير ودراهم فهو كقوله وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا وانما خص الذهب والفضة بالذكر دون سائر الاموال لكونهما أثمان الاشياء وغالب ما يكنز وان كان غيرهما له حكمهما في تحريم الكنز (فبشرهم بعذاب أليم) هذا من باب التهكم بهم كما في قوله * تحية بينهم ضرب وجيع * وقيل ان البشارة هي الخبر الذي يتغير له لون البشرة لتأثيره في القلب سواء كان من الفرح أو من الغم وعن أبي ذر قال انتهيت الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو جالس في ظل الكعبة فلما رآني قال هم الاخسرون ورب الكعبة قال فقلت يا رسول الله فداك أبي وأمي من هم قال هم الاكثرون أموالا الا من قال هكذا وهكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ما هم الحديث مختصر أخرجه مسلم وفرقه البخاري في موضعين (يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم) أي ان النار توقد عليها وهي ذات حمى وحر شديد ولو قال يوم تحمى أي الكنوز لم يعط هذا المعنى فجعل الاحماء للنار مبالغة ويحمى يجوز أن يكون من حميت وأحميت ثلاثيا ورباعيا يقال حميت الحديدة وأحميتها أي أوقدت عليها لتحمى والتقدير يوم تحمى النار عليها وخص الجباه والجنوب والظهور لان التألم بكيها أشد لما في داخلها من الاعضاء الشريفة وقيل ليكون الكي في الجهات الاربع من قدام وخلف وعن يمين ويسار وقيل لان الجمال في الوجه والقوة في الظهر والجنبين والانسان انما يطلب المال للجمال والقوة وقيل غير ذلك مما لا يخلو عن تكلف (هذا ما كنزتم لانفسكم) أي كنزتموه لتنتفعوا به فهذا انتفاعه ويقال لهم ذلك على طريق التهكم والتوبيخ (فذوقوا ما كنتم تكنزون) أي ذوقوا وباله وسوء عاقبته وقبح مغبته وشؤم فائدته

من حديث أبي بكر بن عياش عن عاصم بن أبي النجود عن أبي الضحى عن مسروق ورواه غير واحد وثبت في الصحيح وغيره عن عائشة من غير وجه وخالفها ابن عباس فعنه في اطلاق الرؤية وعنه أنه رآه بفؤاده مرتين والمسئلة تذكر في أول سورة النجم ان شاء الله وقال ابن أبي حاتم ذكر محمد بن مسلم حدثنا أحمد بن ابراهيم الدورقي حدثنا يحيى بن معين قال سمعت اسمعيل بن علية يقول في قول الله تعالى لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار قال هذا في الدنيا قال وذكر أبي عن هشام بن عبيد الله أنه قال نحو ذلك وقال آخرون لا تدركه الابصار أي جميعها وهذا مخصص بما ثبت من رؤية المؤمنين له في الآخرة (١٠٣) وقال آخرون من المعتزلة بمقتضى ما فهموه من هذه الآية انه لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة فخالفوا أهل السنة والجماعة في ذلك مع ما ارتكبوه من الجهل بما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله أما الكتاب فقوله تعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة وقال تعالى عن الكافرين كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون قال الامام الشافعي فدل هذا على ان المؤمنين لا يحجبون عنه تبارك وتعالى وأما السنة فقد تواترت الاخبار عن أبي سعيد وأبي هريرة وأنس وجرير وصهيب وبلال وغير واحد من الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم ان المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات وفي روضات الجنات جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه آمين وقيل المراد بقوله لا تدركه الابصار أي العقول رواه ابن أبي حاتم عن علي بن الحسين عن الفلاس عن ابن مهدي عن أبي الحصين يحيى بن الحصين قارئ أهل مكة انه قال ذلك وهذا غريب جدا وخلاف ظاهر الآية وكأنه اعتقد ان الادراك في معنى الرؤية والله أعلم وقال آخرون لا منافاة بين اثبات الرؤية ونفي الادراك فان الادراك أخص من الرؤية ولا يلزم من نفي الاخص انتفاء الاعم ثم اختلف هؤلاء في الادراك المنفي ما هو فقيل معرفة الحقيقة فان هذا لا يعلمه الا هو وان رآه المؤمنون كما ان من رأى القمر فانه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته فالعظيم أولى بذلك ولله المثل الاعلى قال ابن علية في الآية هذا في الدنيا رواه ابن أبي حاتم وقال آخرون الادراك أخص من الرؤية وهو الاحاطة قالوا ولا يلزم من عدم الاحاطة عدم الرؤية كما لا يلزم من عدم احاطة العلم عدم العلم قال تعالى ولا يحيطون به علما وفي صحيح مسلم لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ولا يلزم منه عدم الثناء فكذلك هذا قال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى

لان الكنوز لا تذاق وما بمعنى الذي والآية عامة وفي الباب أحاديث صحيحة توافق معنى هذه الآية لا نطول بذكرها (ان عدة الشهور) هذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر نوع آخر من قبائح الكفار وذلك ان الله سبحانه لما حكم في كل وقت بحكم خاص غيروا تلك الاوقات بالنسيء والكبيسة فأخبرنا الله بما هو حكمه فقال ان عدة الشهور أي عدد الشهور المعتد بها للسنة (عند الله) أي في حكمه وقضائه وحكمته لا بابتداع الناس (اثنا عشر شهرا) هي المحرم وصفر وربيع الاول وربيع الآخر وجمادى الاولى وجمادى الآخرة ورجب وشعبان ورمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة فهذه شهور السنة القمرية التي تدور على سير القمر في المنازل وهي شهور العرب التي يعتد بها المسلمون في صيامهم ومواقيت حجهم وأعيادهم وسائر أمورهم وأحكامهم وأيام هذه الشهور ثلثمائة وخمسة وخمسون يوما والسنة الشمسية عبارة عن دور الشمس في الفلك دورة تامة وهي ثلثمائة وخمسة وستون يوم وربع يوم فتنقص السنة الهلالية عن السنة الشمسية عشرة أيام فبسبب هذا النقصان يقع الحج والصوم تارة في الشتاء وتارة في الصيف (في كتاب الله) أي فيما أثبته في كتابه أي القرآن لان فيه آيات تدل على الحساب ومنازل القمر وقيل الكتاب هو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه جميع أحوال الخلائق وما يأتون وما يذرون وقيل المراد بالكتاب الحكم الذي أوجبه وأمر عباده بالاخذ به وفي هذه الآية بيان ان الله سبحانه وضع هذه الشهور وسماها بأسمائها على هذا الترتيب المعروف (يوم خلق السموات والارض) أي منذ خلق الاجرام والازمنة وبيان ان هذا هو الذي جاءت به الانبياء ونزلت به الكتب وأنه لا اعتبار بما عند العجم والروم والقبط من الشهور التي يصطلحون عليها ويجعلون بعضها ثلاثين وبعضها أكثر وبعضها أقل (منها أربعة حرم) أي محرمة قد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي بكرة ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم خطب في حجته فقال ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والارض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان والمعنى رجعت الاشهر الى ما كانت عليه من الحل والحرمة وعاد الحج الى ذي الحجة بعدما كانوا أزالوه عن محله بالنسيء الذي أحدثوه في الجاهلية وقد وافقت حجة الوداع ذا الحجة وكانت حجة أبي بكر قبلها في ذي القعدة واختلف في ترتيبها

لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار قال لايحيط بصر أحد بالملك وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عمرو بن حماد بن طلحة القناد حدثنا أسباط عن سماك عن عكرمة أنه قيل له لاتدركه الابصار قال ألست ترى السماء قال بلى قال فكلها ترى قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في الآية لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو أعظم من أن تدركه الابصار وقال ابن جرير حدثنا سعد بن عبد الله بن عبد الحكم حدثنا خالد بن عبد الرحمن حدثنا أبو عرفجة عن عطية العوفي في قوله تعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة قال ينظرون (١٠٤) الى الله لايحيط أبصارهم به من عظمته وبصره محيط بهم فذلك قوله لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار وورد في تفسير هذه الآية حديث رواه ابن أبي حاتم ههنا فقال حدثنا أبو زرعة حدثنا منجاب بن الحرث السهمي حدثنا بشر بن عمارة عن أبي روق عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار قال لو أن الانس والجن والشياطين والملائكة منذ خلقوا الى أن فنوا صفوا صفا واحدا ما أحاطوا بالله أبدا غريب لايعرف الا من هذا الوجه ولم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة والله أعلم وقال آخرون في الآية بما رواه الترمذي في جامعه وابن أبي عاصم في كتاب السنة له وابن أبي حاتم في تفسيره وابن مردويه أيضا والحاكم في مستدركه من حديث الحكم بن أبان قال سمعت عكرمة يقول سمعت ابن عباس يقول رأى محمد ربه تبارك وتعالى فقلت أليس الله يقول لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار الآية فقال لي لاأم لك ذاك نوره الذي هو نوره اذا تجلى بنوره لايدركه شئ وفي رواية لايقوم له شئ قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وفي معنى هذا الاثر ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى الاشعري رضي الله عنه مرفوعا ان الله لاينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع اليه عمل النهار قبل الليل وعمل الليل قبل النهار حجابه النور أو النار لو كشفه لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه وفي الكتب المتقدمة ان الله تعالى قال لموسى لما سأل الرؤية ياموسى انه لايراني حي الا مات ولا يابس الا تدهده أي تدعثر وقال تعالى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين ونفي هذا الادراك الخاص لاينفي الرؤية يوم القيامة يتجلى

فقيل أولها المحرم وآخرها ذو الحجة فهي شهور عام وقيل أولها رجب فهي من عامين وقيل أولها ذو القعدة وهو الصحيح لتواليها قاله النووي وأورد عليه ابن المنير في تفسيره أنه انما يمشي على أن أول السنة المحرم وهو حدث في زمن عمر رضي الله تعالى عنه وكان يؤرخ قبله بعام الفيل ثم أرخ في صدر الاسلام بربيع الاول فتأمل وقال الضحاك انما سمين حرما لئلا يكون فيهن حرب قلت وكانت العرب في الجاهلية تعظمها وتحرم فيها القتال حتى ان أحدهم لو لقي قاتل أبيه أو ابنه أو أخيه في هذه الاربعة الاشهر لم يزعجه ولما جاء الاسلام لم يزدها الا حرمة وتعظيما لان الحسنات والطاعات فيها تتضاعف والسيآت فيها أشد من غيرها فلا تنتهك حرمة هذه الاشهر الحرم (ذلك الدين القيم) أي كون هذه الشهور كذلك ومنها أربعة حرم هو الدين المستقيم دين ابراهيم واسمعيل وكانت العرب قد تمسكت به وراثة منهما وقيل الحساب الصحيح والعدد المستوفى وقيل الدين القيم هو الحكم الذي لايغير ولا يبدل ولا يزول (فلا تظلموا فيهن) أي في هذه الاشهر الحرم (أنفسكم) بايقاع المعاصي فانها فيها أعظم وزرا وبايقاع القتال فيها والهتك لحرمتها وبه قال أكثر المفسرين وقيل ان الضمير يرجع الى الشهور كلها الحرم وغيرها وان الله نهى عن الظلم فيها والاول أولى وقد ذهب جماعة من أهل العلم الى أن تحريم القتال في الاشهر الحرم ثابت محكم لم ينسخ لهذه الآية ولقوله يا أيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولقوله فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين الآية وذهب جماعة آخرون الى أن تحريم القتال في الاشهر الحرم منسوخ بآية السيف ويجاب عنه بأن الامر بقتل المشركين ومقاتلتهم مقيد بانسلاخ الاشهر الحرم كما في الآية المذكورة فتكون سائر الآيات المتضمنة للامر بالقتال مقيدة بما ورد في تحريم القتال في الاشهر الحرم كما هي مقيدة بتحريم القتال في الحرم للادلة الواردة في تحريم القتال فيه وأما ما استدلوا به من أنه صلى الله عليه وآله وسلم حاصر أهل الطائف في شهر حرام وهو ذو القعدة كما ثبت في الصحيحين وغيرهما فقد أجيب عنه بأنه لم يبتدئ محاصرتهم في ذي القعدة بل في شوال والمحرم انما هو ابتداء القتال في الاشهر الحرم لا اتمامه وبهذا يحصل الجمع (وقاتلوا المشركين كافة) أي جميعا في كل الشهور ولان عموم الاشخاص يستلزم عموم الاحوال والازمنة والبقاع وهو مصدر في موضع الحال من ضمير الفاعل في قاتلوا أو من المفعول

لعباده المؤمنين كما يشاء فأما جلاله وعظمته على ما هو عليه تعالى وتقدس وتنز[illegible] [illegible]ذا كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تثبت الرؤيا في الدار الآخرة وتنفيها في الدنيا وتحتج بهذه الآية لا تدر[illegible] [illegible] الابصار فالذي نفته الادراك الذي هو بمعنى رؤية العظمة والجلال على ما هو عليه فان ذلك غير ممكن للبشر ولا للملائكة ولا لشيء وقوله وهو يدرك الابصار أي يحيط بها ويعلمها على ما هي عليه لانه خلقها كما قال تعالى ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير وقد يكون عبر بالابصار عن المبصرين كما قال في قوله لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار لا يراه شيء (١٠٥) وهو يرى الخلائق وقال أبو العالية في قوله تعالى وهو اللطيف الخبير قال اللطيف لاستخراجها الخبير بمكانها والله أعلم وهذا كما قال تعالى اخبارا عن لقمان فيما وعظ به ابنه يا بني انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الارض يأت بها الله ان الله لطيف خبير (قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون) البصائر هي البينات والحجج التي اشتمل عليها القرآن وما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فمن أبصر فلنفسه كقوله فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولهذا قال ومن عمي فعليها أي انما يعود وباله عليه كقوله فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور وما أنا عليكم بحفيظ أي بحافظ ولا رقيب بل انما أنا مبلغ والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وقوله وكذلك نصرف الآيات أي وكما فصلنا الآيات في هذه السورة من بيان التوحيد وانه لا اله الا هو هكذا توضح الآيات ونفسرها ونبينها في كل موطن لجهالة الجاهلين وليقول المشركون والكافرون المكذبون دارست يا محمد من قبلك من أهل الكتاب وقارأتهم وتعلمت منهم هكذا قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم وقال الطبراني حدثنا عبد الله بن أحمد حدثنا أبي حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عمرو بن كيسان قال سمعت ابن عباس يقول دارست تلوت خاصمت جادلت وهذا كقوله تعالى اخبارا عن كذبهم وعنادهم وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤا ظلما وزورا وقالوا أساطير الاولين اكتتبها الآية وقال تعالى اخبارا عن زعيمهم وكاذبهم

المفعول وهو المشركين قال الزجاج مثل هذا من المصادر كعامة وخاصة لا يثنى ولا يجمع ولا تدخله أل ولا يتصرف فيه بغير الحال (كما يقاتلونكم كافة) فيه دليل على وجوب قتال المشركين وانه فرض على الاعيان ان لم يقم به البعض (واعلموا أن الله مع المتقين) أي ينصرهم ويثبتهم ومن كان الله معه فهو الغالب وله العاقبة (انما النسيء) قال الجوهري النسيء فعيل بمعنى مفعول من قولك نسأت الشيء فهو منسوء اذا أخرته ثم يحول منسوء الى نسيء كما تحول مقتول الى قتيل والى ذلك نحا أبو حاتم وقيل مصدر على فعيل من أنسأ أي أخر كالنذير من أنذر والنكير من أنكر وهذا ظاهر قول الزمخشري لانه يحتاج الى تقدير بخلاف ما اذا كان صفة فانه لا يخبر عنه بزيادة الا بتأويل أي ذو زيادة أو انساء النسيء زيادة قال ابن جرير في النسيء بالهمزة معنى الزيادة يقال نسأ ينسأ اذا زاد ولا يكون بترك الهمزة الا من النسيان كما قال تعالى نسوا الله فنسيهم وقرأ الجمهور النسيء بهمزة بعد الياء وغيرهم بادغام الياء وقرئ النسء باسكان السين والنسوء بزنة فعول وهو التأخير وفعول في المصادر قليل والنسيئة كالفعيلة التأخير وكذا النساء بالفتح والمد التأخير والنسيء في الآية فعيل بمعنى مفعول كما تقدم وكانت العرب تحرم القتال في الاشهر الحرم المذكورة فاذا احتاجوا الى القتال فيها قاتلوا فيها وحرموا غيرها فاذا قاتلوا في المحرم حرموا بدله شهر صفر وهكذا في غيره وكان الذي يحملهم على هذا ان كثيرا منهم انما كانوا يعيشون بإغارة بعضهم على البعض ونهب ما يمكنهم نهبه من أموال من يغيرون عليه ويقع بينهم بسبب ذلك القتال وكانت الاشهر الثلاثة المسرودة يضر بهم تواليها وتشتد حاجتهم وتعظم فاقتهم فيحلون بعضها ويحرمون مكانه بقدره من غير الاشهر الحرم فهذا هو معنى النسيء الذي كانوا يفعلونه وقد وقع الخلاف في أول من فعل ذلك فقيل هو رجل من بني كنانة يقال له حذيفة بن عبد وبلقب القلمس وقيل هو عمرو بن لحي وقيل هو نعيم بن ثعلبة من بني كنانة (زيادة في الكفر) أي نوع من أنواع كفرهم ومعصية من معاصيهم المنضمة الى كفرهم بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر وفي الشهاب يعني انهم لما توارثوه على انها شريعة ثم استحلوه كان ذلك مما يعد كفرا (يضل به الذين كفروا) قرئ على البناء للمعلوم والمجهول ومعنى الاولى أن الكفار يضلون بما يفعلون من النسيء ومعنى الثانية ان الذي سن لهم ذلك يجعلهم ضالين بهذه السنة

انه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال ان هذا الا سحر يؤثر ان هذا الا قول البشر وقوله ولنبينه لقوم يعلمون أي ولنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه والباطل فيجتنبونه فلله تعالى الحكمة البالغة في اضلال أولئك وبيان الحق لهؤلاء كقوله تعالى يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا الآية وكقوله ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وان الله لهادي الذين آمنوا الى صراط مستقيم وقال تعالى وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا (١٠٦) ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك الا هو وقال وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا وقال تعالى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد الى غير ذلك من الآيات الدالة على انه تعالى أنزل القرآن هدى للمتقين وأنه يضل به من يشاء ويهدي به من يشاء ولهذا قال ههنا وكذلك نصرف الآيات وليقولوا دارست ولنبينه لقوم يعلمون وقرأ بعضهم درست قال التميمي عن ابن عباس درست أي قرأت وتعلمت وكذا قال مجاهد والسدي والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد وقال عبد الرزاق عن معمر قال الحسن وليقولوا درست يقول تقادمت وامحت وقال عبد الرزاق أيضا أنبأنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار سمعت الزبير يقول ان صبيانا يقرؤون ههنا دارست وانما هي درست وقال شعبة حدثنا أبو اسحق الهمداني قال هي في قراءة ابن مسعود درست يعني بغير ألف فنصب الراء ووقف على التاء قال ابن جرير ومعناه انمحت وتقادمت أي هذا الذي تتلوه علينا قد مر بنا قديما وتطاولت مدته وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة أنه قرأها درست أي قرئت وتعلمت وقال معمر عن قتادة درست قرئت وفي حرف ابن مسعود درس وقال أبو عبيد القاسم بن سلام حدثنا حجاج عن هرون قال هي في حرف أبي بن كعب وابن مسعود وليقولوا درس قال يعنون النبي صلى الله عليه وسلم انه قرأ وهذا غريب وقد روي عن أبي بن كعب خلاف هذا قال أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن ابراهيم حدثنا الحسن بن ليث حدثنا أبو سلمة

السيئة والاولى من طريق العشرة والثانية سبعية (يحلونه) أي النسيء (عاما ويحرمونه عاما) أو الشهر الذي يؤخرونه ويقاتلون فيه أي يحلونه عاما بابداله بشهر آخر من شهور الحل ويحرمونه عاما أي يحافظون عليه فلا يحلون فيه القتال بل يبقونه على حرمته والجملة تفسيرية للضلال أو حالية (ليواطئوا عدة ما حرم الله) أي لكي يواطئوا والمواطأة الموافقة يقال تواطأ القوم على كذا أي توافقوا عليه واجتمعوا والمعنى انهم لم يحلوا شهرا الا حرموا شهرا ليبقى الاشهر الحرم أربعة قال قطرب معناه عمدوا الى صفر فزادوه في الاشهر الحرم وقرنوه بالمحرم في التحريم وكذا قال الطبري (فيحلوا ما حرم الله) من الاشهر الحرم التي أبدلوها بغيرها ولم ينظروا الى أعيانها (زين لهم سوء أعمالهم) أي زين لهم الشيطان أعمالهم السيئة التي يعملونها ومن جملتها النسيء فظنوه حسنا وقرئ على البناء للفاعل (والله لا يهدي القوم الكافرين) أي المصرين على كفرهم المستمرين عليه فلا يهديهم هداية توصلهم الى المطلوب واما الهداية بمعنى الدلالة على الحق والارشاد اليه فقد نصبها الله سبحانه لجميع عباده (يا أيها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الارض) لما شرح معائب أولئك الكفار عاد الى ترغيب المؤمنين في قتالهم والاستفهام في ما لكم للانكار والتوبيخ أي أي شيء يمنعكم عن ذلك ولا خلاف ان هذه الآية نزلت عتابا لمن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة تبوك وكانت في رجب سنة تسع من الهجرة بعد رجوعه من الطائف بعد الفتح بعام وتبوك مكان على طرف الشام بينه وبين المدينة عشرة مراحل وهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث وبعضهم يصرفه على ارادة الموضع فقد جاء في البخاري مصروفا وممنوعا منه وقصة هذه الغزوة في سيرة الحلبي مفصلة والنفر هو الانتقال بسرعة من مكان الى مكان لامر يحدث يقال استنفر الامام الناس اذا حثهم على الخروج الى الجهاد ودعاهم اليه ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم اذا استنفرتم فانفروا والاسم النفير واثاقلتم معناه تباطأتم وعدي بالى لتضمنه معنى الميل والاخلاد وقيل معناه ملتم الى الاقامة بأرضكم والبقاء فيها عن الجهاد وقرئ أثاقلتم على الاستفهام ومعناه التوبيخ مع النفي (أرضيتم) استفهام توبيخ وتعجب (بالحياة الدنيا) أي بخفض العيش وزهرة الدنيا ودعتها ونعيمها بدلا (من الآخرة) كقوله تعالى ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة أي بدلا منكم (فما متاع الحياة الدنيا في

الآخرة

حدثنا أحمد بن أبي نسيرة (1) المكى حدثنا وهب بن زمعة عن أبيه عن حميد الاعرج عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم وليقولوا درست ورواه الحاكم في مستدركه من حديث وهب بن زمعة وقال يعني بجزم السين ونصب التاء ثم قال صحيح الاسناد ولم يخرجاه (اتبع ما أوحي اليك من ربك لا اله الا هو وأعرض عن المشركين ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل) يقول تعالى آمرا لرسوله صلى الله عليه وسلم ولمن اتبعه اتبع ما أوحي اليك من ربك أي اقتد به واقتف أثره واعمل به فان ما أوحي اليك من ربك هو الحق (١٠٧) الذى لا مرية فيه لا اله الا هو وأعرض عن المشركين أي اعف عنهم واصفح واحتمل أذاهم حتى يفتح الله لك وينصرك ويظفرك عليهم واعلم ان لله حكمة في اضلالهم فانه لو شاء لهدى الناس جميعا ولو شاء الله ما أشركوا أي بل له المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره لا يسأل عما يفعل وهم يسألون وقوله تعالى وما جعلناك عليهم حفيظا أي حافظا تحفظ أقوالهم وأعمالهم وما أنت عليهم بوكيل أي موكل على أرزاقهم وأمورهم ان عليك الا البلاغ كما قال تعالى فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر وقال انما عليك البلاغ وعلينا الحساب (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم الى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون) يقول تعالى ناهيا لرسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن سب آلهة المشركين وان كان فيه مصلحة الا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها وهي مقابلة المشركين بسب اله المؤمنين وهو الله لا اله الا هو وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية قالوا يا محمد لتنتهين عن سبك آلهتنا أو لنهجون ربك فنهاهم الله ان يسبوا أوثانهم فيسبوا الله عدوا بغير علم وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة كان المسلمون يسبون أصنام الكفار فيسب الكفار الله عدوا بغير علم فأنزل الله ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي أنه قال في تفسير هذه الآية لما حضر أبا طالب الموت قالت قريش انطلقوا فلندخل على هذا الرجل فلنأمره أن ينهى عنا ابن أخيه فانا نستحي أن نقتله بعد موته فتقول العرب كان يمنعهم فلما مات قتلوه فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحرث وأمية وأبي ابنا خلف وعقبة بن أبي معيط وعمرو بن العاص والاسود بن البختري وبعثوا

الآخرة) أي محسوبا في جنبها أو في مقابلتها أو في هذه تسمى قياسية (الا قليل) أي الامتاع حقير لا يعبأ به لان لذات الدنيا خسيسة في نفسها ومشوبة بالآفات والبليات ومنقطعة عن قرب لا محالة ومنافع الآخرة شريفة عالية خالصة عن الآفات دائمة أبدية سرمدية وذلك يوجب القطع بأن متاع الدنيا في جنب متاع الآخرة قليل ويجوز أن يراد بالقليل العدم اذ لا نسبة للمتناهي الزائل الى غير المتناهي الباقي والظاهر أن هذا التثاقل لم يصدر من الكل اذ من البعيد أن يطبقوا جميعا على التباطؤ والتثاقل وانما هو من باب نسبة ما يقع من البعض الى الكل وهو كثير شائع وفي الآية دليل على وجوب الجهاد في كل حال وفي كل وقت لان الله سبحانه نص على ان تثاقلهم عن الجهاد أمر منكر فلو لم يكن منكرا لما عاتبهم على ذلك ويؤيد هذا قوله (الا تنفروا يعذبكم عذابا أليما) أي يهلككم بعذاب شديد مؤلم قيل في الدنيا فقط باحتباس المطر وغيره وقيل هو أعم من ذلك لان العذاب الاليم لا يكون الا في الآخرة قال الحسن وعكرمة هذه الآية منسوخة بقوله تعالى وما كان المؤمنون لينفروا كافة وقال الجمهور هذه الآية محكمة لانها خطاب لقوم استنفرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلم ينفروا كما نقل عن ابن عباس وعلى هذا التقدير فلا نسخ وفي الآية تهديد شديد ووعيد مؤكد لمن ترك النفر مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (ويستبدل قوما غيركم) أي يجعل لرسوله بدلا منكم ممن لا يتباطأ عند حاجتهم اليهم ويكون خيرا منكم وأطوع واختلف في هؤلاء القوم من هم فقيل أهل اليمن وقيل أهل فارس قاله سعيد بن جبير ولا وجه للتعيين بدون دليل (ولا تضروه) أي الله بترك امتثال أمره بالنفير (شيأ) لانه غني عن العالمين أو لا تضروا رسول الله بترك نصره والنفير معه شيأ فان الله ناصره على أعدائه ولا يخذله أبدا نفرتم أو تثاقلتم (والله على كل شئ قدير) ومن جملة مقدوراته تعذيبكم والاستبدال بكم (الا تنصروه فقد نصره الله) أي ان تركتم نصره فالله متكفل به أعنتموه أو لا فقد نصره في مواطن القلة وأظهره على عدوه بالغلبة والقهر أو فسينصره من نصره حين لم يكن معه الا رجل واحد (اذ أخرجه الذين كفروا) أي وقت اخراجهم اياه حال كونه (ثاني اثنين) وقرئ بسكون الياء على لغة من يجري الناقص مجرى المقصور في الاعراب أي أحد اثنين وهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر الصديق رضي الله عنه ومن

(1) قوله ابن أبي نسيرة في نسخة أبي برة اهـ مصححه

رجلا منهم يقال له المطلب قالوا استأذن لنا على أبي طالب فأتى أبا طالب فقال هؤلاء مشيخة قومك يريدون الدخول عليك فأذن لهم عليه فدخلوا عليه فقالوا يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا وان محمدا قد آذانا وآذى آلهتنا فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا ولندعه والهه فدعاه فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال له أبو طالب هؤلاء قومك وبنو عمك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماير يدون قالوا نريد أن تدعنا وآلهتنا وندعك والهك فقال النبي صلى الله عليه وسلم أرأيتم ان أعطيتكم هذا هل أنتم معطى كلمة ان تكلمتم بها ملكتم بها العرب ودانت (١٠٨) لكم بها العجم وأدت لكم الخراج قال أبو جهل وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها قال فما هي قال قولوا لا اله الا الله فأبوا واشمأزوا قال أبو طالب يا ابن أخي قل غيرها فان قومك قد فزعوا منها قال يا عم ما أنا بالذي يقول غيرها حتى يأتوا بالشمس فيضعوها في يدي ولو أتوا بالشمس فوضعوها في يدي ما قلت غيرها ارادة أن يؤيسهم فغضبوا وقالوا لتكفن عن شتم آلهتنا أو لنشتمنك ونشتمن من يأمرك فذلك قوله فيسبوا الله عدوا بغير علم ومن هذا القبيل وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها ما جاء في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ملعون من سب والديه قالوا يا رسول الله وكيف يسب الرجل والديه قال يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه أو كما قال عليه السلام وقوله كذلك زينا لكل أمة عملهم أي وكما زينا لهؤلاء القوم حب أصنامهم والمحاماة لها والانتصار كذلك زينا لكل أمة أي من الامم الخالية على الضلال عملهم الذي كانوا فيه ولله الحجة البالغة والحكمة التامة فيما يشاؤه ويختاره ثم الى ربهم مرجعهم أي معادهم ومصيرهم فينبئهم بما كانوا يعملون أي يجازيهم بأعمالهم ان خيرا فخير وان شرا فشر (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل انما الآيات عند الله وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون) يقول تعالى اخبارا عن المشركين انهم أقسموا بالله جهد أيمانهم أي حلفوا أيمانا مؤكدة لئن جاءتهم آية أي معجزة وخارق ليؤمنن بها أي ليصدقنها قل انما الآيات عند الله أي قل يا محمد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات تعنتا وكفرا وعنادا لا على سبيل الهدى استرشادا انما مرجع

غير اعتبار كونه صلى الله عليه وآله وسلم ثانيا فان معنى قولهم ثالث ثلاثة ورابع أربعة ونحو ذلك أحد هذه الاعداد مطلقا لا الثالث والرابع خاصة ولذلك منع الجمهور أن ينصب ما بعده بأن يقال ثالث ثلاثة ورابع أربعة (اذ هما في الغار) هو نقب عظيم في الجبل المسمى ثورا وهو المشهور بغار ثور وهو جبل قريب من مكة وبينهما مسيرة ساعة ويجمع على غيران والغار أيضا نبت طيب والجماعة والغاران البطن والفرج وألف الغار منقلبة عن واو وقصة خروجه صلى الله عليه وآله وسلم من مكة الى المدينة هو وأبو بكر ودخولهما الغار ومكثهما فيه ثلاثا مشهورة مذكورة في كتب السير والحديث وساق حديث الهجرة من أفراد البخاري وهو طويل جدا (اذ يقول لصاحبه) أي وقت قوله لأبي بكر (لا تحزن) أي دع الحزن (ان الله) بنصره وعونه وتأييده وعصمته وحفظه وولايته ومعونته وتسديده (معنا) والمراد بالمعية المعية الدائمة التي لا تحوم حول صاحبها شائبة شيء من الحزن وما هو المشهور من اختصاص مع بالمتبوع فالمراد بما فيه من المتبوعية هو المتبوعية في الامر المباشر قاله أبو السعود وقال الخفاجي انها معية مخصوصة والا فهو مع كل أحد اه والمعنى من كان الله معه فان يغلب ومن لا يغلب فيحق له أن لا يحزن وذلك ان أبا بكر خاف من الطلب أن يعلموا بمكانهم فجزع من ذلك وكان حزنه على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا على نفسه وقال اذا أنا مت فانا رجل واحد واذا مت أنت هلكت الامة والدين أخرج الشيخان عنه رضي الله عنه قال نظرت الى أقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رؤسنا فقلت يا رسول الله لو أن أحدهم نظر الى قدميه أبصرنا تحت قدميه فقال يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما وزاد البزار والطبراني والبيهقي في الدلائل عن أنس والمغيرة بن شعبة فأعماهم الله عن الغار فجعلوا يترددون حوله فلم يروه قال النووي هو داخل في قوله سبحانه ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وفيه بيان عظيم توكل النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى في هذا المقام وفيه فضيلة لأبي بكر وهي من أجل مناقبه وقال الشعبي عاتب الله عز وجل أهل الارض جميعا في هذه الآية غير أبي بكر وقال الحسين بن الفضل من قال ان أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو كافر لانكاره نص القرآن وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لأبي بكر أنت صاحبي على الحوض وصاحبي في الغار أخرجه الترمذي

وقال

هذه الآيات الى الله ان شاء جاءكم بها وان شاء تركم قال ابن جرير حدثنا هشام (١) حدثنا يونس بن بكير حدثنا أبو معشر عن محمد بن كعب القرظي قال كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم قريش فقالوا يا محمد تخبرنا ان موسى كان معه عصا يضرب بها فانفجرت منه اثنتى عشرة عينا وتخبرنا أن عيسى كان يحيى الموت وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقة فأتنا من الآيات حتى نصدقك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أى شئ تحبون ان آتيكم به قالوا تجعل لنا الصفا ذهبا فقال لهم ان فعلت تصدقونى قالوا نعم والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعين فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو (١٠٩) فجاءه جبريل عليه السلام فقال له ما شئت ان شئت أصبح الصفا ذهبا ولئن أرسل آية فلم يصدقوا عند ذلك ليعذبنهم وان شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل يتوب تائبهم فأنزل الله تعالى وأقسموا بالله جهد أيمانهم الى قوله تعالى ولكن أكثرهم يجهلون وهذا مرسل وله شواهد من وجوه أخر وقال الله تعالى وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون الآية وقوله تعالى وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون قيل المخاطب بما يشعركم المشركون واليه ذهب مجاهد كأنه يقول لهم وما يدريكم بصدقكم فى هذه الايمان التى تقسمون بها وعلى هذا فالقراءة انها اذا جاءت لا يؤمنون بكسر انها على استئناف الخبر عنهم بنفى الايمان عند مجئ الآيات التى طلبوها وقرأ بعضهم أنها اذا جاءت لا تؤمنون بالتاء المثناة من فوق وقيل المخاطب بقوله وما يشعركم المؤمنون يقول وما يدريكم أيها المؤمنون وعلى هذا فيجوز فى انها الكسر كالاول والفتح على أنه معمول يشعركم وعلى هذا فتكون لا فى قوله أنها اذا جاءت لا يؤمنون صلة كقوله ما منعك الا تسجد اذ أمرتك وقوله وحرام على قرية أهلكناها انهم لا يرجعون أى ما منعك أن تسجد اذ أمرتك وحرام انهم يرجعون وتقديره فى هذه وما يدريكم أيها المؤمنون الذين تودون لهم ذلك حرصا على ايمانهم أنها اذا جاءتهم الآيات يؤمنون قال بعضهم انها بمعنى لعلها قال ابن جرير وذكروا أن ذلك كذلك فى قراءة أبى بن كعب قال وقد ذكر عن العرب سماعا اذهب الى السوق انك تشترى شيأ بمعنى لعلك تشترى قال وقد قيل ان قول عدى بن زيد العبادى من هذا

أعاذل ما يدريك أن منيتى * الى ساعة فى اليوم أو فى ضحى الغد

وقد اختار هذا القول ابن جرير وذكر عليه شواهد من

وقال حديث صحيح حسن غريب وعبارة أبى السعود وفيه من الدلالة على علو طبقة الصديق رضى الله تعالى عنه وسابقة صحبته ما لا يخفى اه وفى الكشاف وقالوا من أنكر صحبة أبى بكر فقد كفر لانكاره كلام الله وليس ذلك لسائر الصحابة وقيل انه ليس بمنصوص عليه فيها بل المنصوص عليه أنه ثانيا هو صاحبه فيه فانكار ذلك يكون كفرا لا انكار صحبته بخصوصه ولذا قال قالوا لجعل العهدة فيه على غيره وفيه نظر قاله الخفاجى وقد استنبط أهل العلم من هذه الآية وجوها كثيرة على فضل أبى بكر الصديق رضى الله عنه يطول ذكرها (فأنزل الله سكينته) هى تسكين جاشه وتأمينه حتى ذهب روعه وحصل له الامن على أن الضمير فى (عليه) لابى بكر وبه قال ابن عباس وأكثر المفسرين وقيل هو للنبى صلى الله عليه وآله وسلم ويكون المراد بالسكينة النازلة عليه عصمته عن حصول سبب من أسباب الخوف له ويؤيد كون الضمير فى عليه للنبى صلى الله عليه وآله وسلم الضمير فى (وأيده بجنود لم تروها) فانه للنبى صلى الله عليه وآله وسلم لانه المؤيد بهذه الجنود التى هى الملائكة فى الغار يحرسونه ويسكنون روعه ويصرفون أبصار الكفار عنه كما كان فى يوم بدر وقيل انه لا محذور فى رجوع الضمير من عليه الى أبى بكر ومن وأيده الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فان ذلك كثير فى القرآن وفى كلام العرب (وجعل كلمة الذين كفروا) أى كلمة الشرك وهى دعوتهم اليه ونداؤهم للاصنام أو كل ما يدل على الشرك أو المراد بها عقيدة الشرك أى الكفر مطلقا بسائر أنواعه أقوال للمفسرين (السفلى) المغلوبة الى يوم القيامة (وكلمة الله هى العليا) فى ضمير الفصل أعنى هى تأكيد لفضيلة كلمته فى العلو وانها المختصة به دون غيرها والمراد بها كلمة التوحيد والدعوة الى الاسلام فهى ظاهرة غالبة باقية الى يوم القيامة عالية (والله عزيز حكيم) أى غالب قاهر لا يفعل الا ما فيه حكمة وصواب ثم لما توعد من لم ينفر مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وضرب له من الامثال ما ذكره عقبه بالامر بالجزم فقال (انفروا) حال كونكم (خفافا وثقالا) أى على الصفة التى يخف عليكم الجهاد فيها وعلى الصفة التى يثقل عليكم الجهاد فيها وهذان الوصفان يدخل تحتهما أقسام كثيرة فلهذا اختلفت عبارات المفسرين فيهما فقيل المراد منفردين أو مجتمعين وقيل نشاطا وغير نشاط وقيل فقراء وأغنياء وقيل شبابا وشيوخا وقيل ركبانا ومشاة رجالا وفرسانا وقيل من سبق الى

(١) قوله حدثنا هشام فى نسخة هناد (٢) وقوله حدثنا أبو حفص فى نسخة أبو معشر وحرر اه مصححه

أشعار العرب والله أعلم وقوله تعالى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية لما جحد المشركون ما أنزل الله في الآية لم تثبت قلوبهم على شيء وردت عن كل أمر وقال مجاهد في قوله ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ونحول بينهم وبين الإيمان ولو جاءتهم كل آية فلا يؤمنوا كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة وكذا قال عكرمة وعبد الله بن زيد بن أسلم وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال أخبر الله ما العباد قائلون قبل أن يقولوه وعملهم قبل أن يعملوه وقال ولا ينبئك مثل خبير جل وعلا أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله إلى قوله لو أن لي كرة فأكون من المحسنين فأخبر الله سبحانه أنهم لو ردوا لم يكونوا على الهدى وقال ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون وقال تعالى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة قال لو ردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا وقوله ونذرهم أي نتركهم في طغيانهم قال ابن عباس والسدي في كفرهم وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة في ضلالهم يعمهون قال الأعمش يلعبون وقال ابن عباس وغيره يترددون (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون) يقول تعالى ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها فنزلنا عليهم الملائكة تخبرهم بالرسالة من الله بتصديق الرسل كما سألوا فقالوا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا وقالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا وكلمهم الموتى فأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل وحشرنا عليهم كل شيء قبلا قرأ بعضهم قبلا بكسر القاف وفتح الباء من المقابلة والمعاينة وقرأ آخرون بضمهما قيل معناه من المقابلة أيضا كما رواه علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس وبه قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقال مجاهد قبلا أي أفواجا قبيلا قبيلا أي تعرض عليهم كل أمة بعد أمة فيخبرونهم بصدق الرسل فيما جاؤهم به ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله لأن الهداية إليه لا إليهم بل يهدي من يشاء وهو

الحرب كالطلائع ومن يتأخر كالجيش وقيل أهل الميسرة وأهل العسرة وقيل ثقالا من السلاح ومستكثرين منه وقيل مشاغيل وغير مشاغيل وقيل أصحاء ومرضى وقيل عزابا ومتأهلين وقيل خفافا من الحاشية والأتباع وثقالا مستكثرين منهم وقيل مسرعين في الخروج إلى الغزو ساعة سماع النفير وبعد التروي فيه والاستعداد له وقيل غير ذلك ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعاني لأن معنى الآية انفروا خفت عليكم الحركة أو ثقلت فالأولى أن هذا عام لكل الأحوال فيهما والأمر محمول على الوجوب قال السدي وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى ليس على الضعفاء ولا على المرضى وقيل الناسخ لها قوله فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة الآية قاله ابن عباس وقيل الأمر محمول على الندب وهي محكمة وليست بمنسوخة ويكون إخراج الأعمى والأعرج بقوله ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج وإخراج الضعيف والمريض بقوله ليس على الضعفاء ولا على المرضى من باب التخصيص لا من باب النسخ على فرض دخول هؤلاء تحت قوله خفافا وثقالا والظاهر عدم دخولهم تحت العموم ويدل عليه أن هذه الآية نزلت في غزوة تبوك وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خلف في المدينة في تلك الغزوة النساء وبعض الرجال فذلك دل على أن الجهاد من فروض الكفايات ليس على الأعيان (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله) فيه الأمر بالجهاد بالأنفس والأموال وإيجابه على العباد فالفقراء يجاهدون بأنفسهم والأغنياء بأموالهم وأنفسهم والجهاد من أكبر الفرائض وأعظمها وهو فرض كفاية مهما كان البعض يقوم بجهاد العدو وبدفعه فإن كان لا يقوم بالعدو إلا جميع المسلمين في قطر من الأرض أو أقطار وجب عليهم ذلك وجوب عين (ذلكم) أي ما تقدم من الأمر بالنفير والأمر بالجهاد (خير لكم) عظيم في نفسه وخير من السكون والدعة (إن كنتم تعلمون) ذلك وتعرفون الأشياء الفاضلة وتميزونها عن المفضولة فافعلوه ونزل في الذين تخلفوا عن غزوة تبوك (لو كان) المدعو إليه أو ما تدعوهم إليه (عرضا) هو ما يعرض من منافع الدنيا ومتاعها يقال الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر (قريبا) والمعنى غنيمة سهلة قريبة التناول غير بعيدة (وسفرا قاصدا) أي متوسطا بين القرب والبعد وكل متوسط بين الإفراط والتفريط فهو قاصد

الفعال لما يريد ولا يسأل عما يفعل وهم يسئلون لعلمه وحكمته وسلطانه وقهره وغلبته وهذه الآية كقوله تعالى ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ولتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون) يقول تعالى كما جعلنا لك أعداء يا محمد يخالفونك ويعادونك جعلنا لكل نبي من قبلك أيضا أعداء فلا يحزنك ذلك كما قال تعالى ولقد كذبت رسل (١١١) من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا الآية

قاصد (لاتبعوك) أي لوافقوك في الخروج ولخرجوا معك طمعا في تلك المنافع التي تحصل لهم (ولكن بعدت عليهم الشقة) قال أبو عبيدة وغيره ان الشقة السفر الى أرض بعيدة يقال منه شقة وشاقة والشقة المسافة التي تقطع بمشقة قال الجوهري الشقة بالضم من الثياب والشقة أيضا السفر البعيد وربما قالوه بالكسر فهي مشتقة من المشقة كما في السمين والمراد بها غزوة تبوك فانها كانت سفرة بعيدة شاقة وكانوا يستعظمون غزو الروم لاجرم تخلفوا بهذا السبب (وسيحلفون) أي المتخلفون عن غزوة تبوك وأتى بالسين لانه من قبيل الاخبار بالغيب فان الله أنزل هذه الآية قبل رجوعه من تبوك أي سيحلفون (بالله) اعتذارا عنه حال كونهم قائلين (لو استطعنا) أي لو قدرنا على الخروج ووجدنا ما نحتاج اليه فيه مما لابد منه وقيل لو كان لنا استطاعة من جهة العدة أو من جهة الصحة أو من جهتهما جميعا عن لهم من الكذب والتعلل وعلى كلا التقديرين فقوله (لخرجنا معكم) ساد مسد جوابي القسم والشرط جميعا وقد وقع حسبما أخبر به وهو من جملة المعجزات الباهرة وقوله (يهلكون أنفسهم) بدل من قوله سيحلفون لان من حلف كاذبا فقد أهلك نفسه ولذا قال صلى الله عليه وآله وسلم اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع أو يكون حالا أي مهلكين أنفسهم موقعين لها مواقع الهلاك بسبب هذه الايمان الكاذبة (والله يعلم انهم لكاذبون) في حلفهم الذي سيحلفون به لك لانهم كانوا مستطيعين للخروج (عفا الله عنك لما أذنت لهم) الاستفهام للانكار من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم حيث وقع منه الاذن لمن استأذنه في القعود قبل أن يتبين من هو صادق منهم في عذره الذي أبداه ومن هو كاذب فيه وفي ذكر العفو عنه صلى الله عليه وآله وسلم ما يدل على أن هذا الاذن الصادر منه كان خلاف الاولى وفي هذا عتاب لطيف من الله سبحانه وقيل ان هذا عتاب له صلى الله عليه وآله وسلم في اذنه للمنافقين بالخروج معه لا في اذنه لهم بالقعود عن الخروج قاله الطبري والاول أولى وقد رخص له سبحانه في سورة النور بقوله فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ويمكن أن يجمع بين الآيتين بأن العتاب هنا متوجه الى الاذن قبل الاستثبات حتى يتبين الصادق من الكاذب والاذن هنالك متوجه الى الاذن بعد الاستثبات والله أعلم وقيل ان قوله عفا الله عنك افتتاح كلام كما تقول أصلحك الله وأعزك ورحمك كيف فعلت كذا وكذا

وقال تعالى ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك ان ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم وقال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين الآية وقال ورقة بن نوفل لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأت أحد بمثل ما جئت به الا عودي وقوله شياطين الانس والجن بدل من عدوا أي لهم أعداء من شياطين الانس والجن من هؤلاء وهؤلاء قبحهم الله ولعنهم قال عبد الرزاق حدثنا معمر عن قتادة في قوله شياطين الانس والجن قال من الجن شياطين ومن الانس شياطين يوحي بعضهم الى بعض قال قتادة وبلغني أن أبا ذر كان يوما يصلي فقال النبي صلى الله عليه وسلم تعوذت يا أبا ذر من شياطين الانس والجن فقال أوان من الانس لشياطين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم وهذا منقطع بين قتادة وأبي ذر وقد روي من وجه آخر عن أبي ذر رضي الله عنه قال ابن جرير حدثنا المثنى حدثنا أبو صالح حدثني معاوية بن صالح عن أبي عبد الله محمد بن أيوب وغيره من المشيخة عن ابن عائذ عن أبي ذر قال أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجلس قد أطال فيه الجلوس قال فقال يا أبا ذر هل صليت قال لا يا رسول الله قال قم فاركع ركعتين قال ثم جئت فجلست اليه فقال يا أبا ذر هل تعوذت بالله من شياطين الجن والانس قال قلت لا يا رسول الله وهل للانس من شياطين قال نعم هم شر من شياطين الجن وهذا أيضا فيه انقطاع وروي متصلا كما قال الامام أحمد حدثنا وكيع حدثنا المسعودي أنبأني أبو عمر والدمشقي عن عبيد بن مسحاس (١) عن أبي ذر قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد فجلست فقال يا أبا ذر هل صليت قلت لا قال قم فصل قال فقمت فصليت ثم

(١) قوله عبيد بن مسحاس كذا بالاصل وحرر اهـ مصححه

جلست فقال يا أبا ذر تعوذت بالله من شياطين الانس والجن قال قلت يا رسول الله وللانس شياطين قال نعم وذكر تمام الحديث بطوله وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره من حديث جعفر بن عون ويعلى بن عبيد وعبيد الله بن موسى ثلاثتهم عن المسعودي به طريق أخرى عن أبي ذر قال ابن جرير حدثنا المثنى حدثنا حجاج حدثنا حماد عن حميد بن هلال حدثني رجل من أهل دمشق عن عوف بن مالك عن أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا أبا ذر هل تعوذت بالله من شياطين الانس والجن قال قلت يا رسول الله هل للانس من شياطين قال نعم (١١٢) طريق أخرى للحديث قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عوف الحمصي حدثنا أبو المغيرة حدثنا معان بن رفاعة عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا ذر تعوذت من شياطين الجن والانس قال يا رسول الله وهل للانس شياطين قال نعم شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا وقوله يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ورد من طرق ثم قال ومجموعها يفيد قوته وصحته والله أعلم (١) قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبو نعيم عن شريك عن سعيد بن مسروق عن عكرمة شياطين الانس والجن قال ليس في الانس شياطين ولكن شياطين الجن يوحون الى شياطين الانس وشياطين الانس يوحون الى شياطين الجن قال وحدثنا الحرث حدثنا عبد العزيز حدثنا اسرائيل عن السدي عن عكرمة في قوله يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا وقال أسباط عن السدي عن عكرمة في قوله يوحي بعضهم الى بعض اما شياطين الانس فالشياطين التي تضل الانس وشياطين الجن التي تضل الجن يلتقيان فيقول كل واحد منهما لصاحبه اني أضللت صاحبي بكذا وكذا فأضل أنت صاحبك بكذا وكذا فيعلم بعضهم بعضا ففهم ابن جرير من هذا أن المراد شياطين الانس منهم ولا شك أن هذا ظاهر من كلام عكرمة وأما كلام السدي فليس مثله في هذا المعنى وهو محتمل وروى عن عكرمة والسدي الشياطين من الجن الذين يضلون الناس

حكاه مكي والنحاس والمهدوي وعلى هذا التأويل يحسن الوقف على عفا الله عنك وعلى التأويل الاول لا يحسن ولا يخفاك أن التفسير الاول هو المطابق لما يقتضيه اللفظ على حسب اللغة العربية ولا وجه لاخراجه عن معناه العربي وفي الآية دليل على جواز الاجتهاد منه صلى الله عليه وآله وسلم والمسئلة مدونة في الاصول وفيها أيضا دلالة على مشروعية الاحتراز عن العجلة والاغترار بظواهر الامور وقال عمرو بن ميمون اثنان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم باجتهاده لم يؤمر فيهما بشئ أذنه للمنافقين في التخلف وأخذه الفداء من أسارى بدر فعاتبه الله كما تسمعون قال سفيان بن عيينة انظر هذا التلطف به بدأ بالعفو قبل أن يعيره بالذنب وحتى في قوله (حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) للغاية كأنه قيل لم سارعت الى الاذن لهم وهلا تأنيت حتى يتبين لك صدق من هو صادق منهم في العذر الذي أبداه وكذب من هو كاذب منهم في دعواه قال ابن عباس لم يكن يعرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المنافقين يومئذ حتى نزلت سورة براءة ثم ذكر سبحانه انه ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في القعود عن الجهاد بل كان من عادتهم أنه صلى الله عليه وآله وسلم اذا أذن لواحد منهم بالقعود شق عليه ذلك فقال (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم) وهذا على أن معنى الآية أن لا يجاهدوا وقيل المعنى لا يستأذنك في التخلف كراهة الجهاد وقيل ان معنى الاستئذان في الشئ الكراهة وأما على ما يقتضيه ظاهر اللفظ فالمعنى لا يستأذنك المؤمنون في الجهاد بل دأبهم أن يبادروا اليه من غير توقف ولا ارتقاب منهم لوقوع الاذن منك فضلا أن يستأذنوك في التخلف فحيث استأذنك هؤلاء في التخلف كان ذلك مظنة للتأني في أمرهم بل دليلا على نفاقهم (والله عليم بالمتقين) الذين لم يستأذنوا (انما يستأذنك) في القعود عن الجهاد والتخلف عنه من غير عذر وكذا يقال فيما بعده (الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر) وهم المنافقون وكانوا تسعة وثلاثين رجلا وذكر الايمان بالله أولا ثم باليوم الآخر ثانيا في الموضعين لانهما الباعثان على الجهاد في سبيل الله (وارتابت قلوبهم) جاء بالماضي للدلالة على تحقق الريب في قلوبهم وهو الشك فاذا دخلها الشك كان ذلك نفاقا (فهم في ريبهم يترددون) أي في شكهم الذي حل بقلوبهم يتحيرون والتردد التحير والمعنى فهؤلاء الذين

يستأذنونك

(١) قوله وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبو نعيم الى آخر تفسير الآية هكذا في النسخ وحرر الروايات التي في هذا المقام من أول تفسير الآية الى آخره ونعوذ بالله من سقم النسخ اهـ مصححه

لان المراد شياطين منهم وقد روى ابن أبي حاتم نحو هذا عن ابن عباس من رواية الضحاك عنه قال ان للجن شياطين يضلونهم مثل شياطين الانس يضلونهم قال فيلتقي شياطين الانس وشياطين الجن فيقول هذا لهذا اضلله بكذا فهو قوله يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا وعلى كل حال فالصحيح ماتقدم من حديث أبي ذر ان للانس شياطين منهم وشيطان كل شيء مارده ولهذا جاء في صحيح مسلم عن أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الكلب الاسود شيطان ومعناه والله أعلم شيطان في الكلاب وقال ابن جريج قال مجاهد في تفسير هذه الآية كفار الجن شياطين يوحون (١١٣) الى شياطين الانس كفار الانس زخرف القول غرورا وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال قدمت على المختار فأكرمني وأنزلني حتى كاد يتعاهد مبيتي بالليل قال فقال لي اخرج الى الناس فحدثهم قال فخرجت فجاء رجل فقال ماتقول في الوحي فقلت الوحي وحيان قال الله تعالى بما أوحينا اليك هذا القرآن وقال تعالى شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا قال فهموا بي أن يأخذوني فقلت لهم مالكم ذاك اني مفتيكم وضيفكم فتركوني وانما عرض عكرمة بالمختار وهو ابن أبي عبيد قبحه الله وكان يزعم انه يأتيه الوحي وقد كانت أخته صفية تحت عبد الله بن عمر وكانت من الصالحات ولما أخبر عبد الله بن عمر ان المختار يزعم أنه يوحى اليه فقال صدق قال الله تعالى وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم وقوله تعالى يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا أي يلقي بعضهم الى بعض القول المزين المزخرف وهو المزوق الذي يغتر سامعه من الجهلة بأمره ولوشاء ربك مافعلوه أي وذلك كله بقدر الله وقضائه وارادته ومشيئته أن يكون لكل نبي عدو من هؤلاء فذرهم أي فدعهم وما يفترون أي يكذبون أي دع أذاهم وتوكل على الله في عداوتهم فان الله كافيك وناصرك عليهم وقوله تعالى ولتصغى اليه أي ولتميل اليه قاله ابن عباس أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة أي قلوبهم وعقولهم وأسماعهم وقال السدي قلوب الكافرين وليرضوه أي يحبوه ويريدوه وانما يستجيب لذلك من لا يؤمن بالآخرة كما قال تعالى فانكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين الا من هو صال الجحيم وقال تعالى انكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك وقوله

يستأذنونك ليسوا بمؤمنين بل كانوا متحيرين تائهين حائرين لا يهتدون الى طريق الصواب ولا يعرفون الحق والآية محكمة كلها وقال ابن عباس نسختها الآية التي في سورة النور انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله الى قوله غفور رحيم فجعل الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأعلى النظرين في ذلك من غزا غزا في فضيلة ومن قعد قعد في غير حرج ان شاء الله (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة) أي لو كانوا صادقين فيما يدعونه ويخبرونك به من انهم يريدون الجهاد معك ولكن لم يكن معهم من العدة للجهاد ما يحتاجون اليه لما تركوا اعداد العدة وتحصيلها قبل وقت الجهاد كما يستعد لذلك المؤمنون فمعنى هذا الكلام انهم لم يريدوا الخروج أصلا ولا استعدوا للغزو والعدة ما يحتاج اليه المجاهد من الزاد والراحلة والسلاح (ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم) الاستدراك هنا يحتاج الى تأمل فلذلك قال الزمخشري ما حاصله ولكن كره الله خروجهم فثبطوا عن الخروج فيكون المعنى ماخرجوا ولكن ثبطوا الان كراهة الله انبعاثهم تستلزم تثبطهم عن الخروج والانبعاث الخروج أي حبسهم الله عن الخروج معك وخذلهم وكسلهم لانهم قالوا ان لم يؤذن لنا في الجلوس أفسدنا وحرضنا على المؤمنين وقيل المعنى لو أرادوا الخروج لاعدوا له عدة ولكن ما أرادوه لكراهة الله له وعلى هذا فهو استدراك على نفس المقدم على نهج ما في الاقيسة الاستثنائية وكان في خروجهم مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مفسدة عظيمة بدليل انه تعالى أخبر عنها بقوله الآتي ما زادوكم الا خبالا وأما عتاب الله لرسوله بقوله لم أذنت لهم فانه اذن لهم قبل تمام الفحص واكمال التأمل والتدبر في حالهم فلهذا السبب عاتبه وقيل انما عاتبه لاجل انه أذن لهم قبل أن يوحى اليه في أمرهم بالقعود (وقيل اقعدوا) والقائل لهم هو الشيطان بما يلقيه اليهم من الوسوسة وقيل قاله بعضهم لبعض وقيل قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غضبا عليهم وقيل هو عبارة عن الخذلان أي أوقع الله في قلوبهم القعود خذلانا لهم وقال السيوطي أي قدر الله ذلك أي القعود يعني فلا قول بالفعل لامن الله ولا من النبي صلى الله عليه وآله وسلم (مع القاعدين) أي مع أولي الضرر من العميان والمرضى والنساء والصبيان وفيه من الذم لهم والازراء عليهم والتنقص بهم ما لا يخفى (لو خرجوا) شروع في بيان المفاسد التي تترتب على خروجهم وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وللمؤمنين عن تخلف المنافقين

ولتقترفوا ما هم مقترفون قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وليكتسبوا ما هم مكتسبون وقال السدي وابن زيد وليعملوا ما هم عاملون (أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم) يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم قل لهؤلاء المشركين بالله الذين يعبدون غيره أفغير الله أبتغي حكما أي بيني وبينكم وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلا أي مبينا والذين آتيناهم الكتاب أي من اليهود (١١٤) والنصارى يعلمون أنه منزل من ربك بالحق أي بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين فلا تكونن من الممترين كقوله فان كنت في شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين وهذا شرط والشرط لا يقتضي وقوعه ولهذا جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لا أشك ولا أسأل وقوله تعالى وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا قال قتادة صدقا فيما قال وعدلا فيما حكم يقول صدقا في الاخبار وعدلا في الطلب فكل ما أخبر به فحق لا مرية فيه ولا شك وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه وكل ما نهى عنه فباطل فانه لا ينهى الا عن مفسدة كما قال تعالى يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر الى آخر الآية لا مبدل لكلماته أي ليس أحد يعقب حكمه تعالى لا في الدنيا ولا في الآخرة وهو السميع لأقوال عباده العليم بحركاتهم وسكناتهم الذي يجازي كل عامل بعمله (وان تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون ان ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) يخبر تعالى عن حال أكثر أهل الارض من بني آدم انه الضلال كما قال تعالى ولقد ضل قبلهم أكثر الاولين وقال تعالى وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم وانما هم في ظنون كاذبة وحسبان باطل ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون فان الخرص هو الحزر ومنه خرص النخل وهو حزر ما عليها من التمر وذلك كله عن قدر الله ومشيئته وهو أعلم من يضل عن سبيله فييسره لذلك وهو أعلم بالمهتدين فييسرهم لذلك وكل ميسر لما خلق له (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ان كنتم بآياته مؤمنين ومالكم أن لا تأكلوا مما ذكر

جواسيس

ومعنى (فيكم) في جيشكم أو في بمعنى مع أي معكم (ما زادوكم الا خبالا) هو الشر والفساد والنميمة وايقاع الاختلاف والاراجيف وأصله اضطراب ومرض يؤثر في العقل كالجنون قيل هذا الاستثناء منقطع أي ما زادوكم قوة ولكن طلبوا الخبال وليس بذاك لانه لا يكون مفرغا قاله الزمخشري والبيضاوي وأبو السعود قال الخفاجي وفيه بحث لانه لا مانع منه اذا دلت القرينة عليه كما اذا قيل ما أنيسك في البادية فقلت مالي بها الا اليعافير أي مالي أنيس الا هذه انتهى وقيل المعنى لا يزيدونكم فيما يترددون فيه من الرأي الا خبالا فيكون متصلا وقيل هو استثناء من أعم العام أي ما زادوكم شيأ الا خبالا فيكون الاستثناء من قسم المتصل لان الخبال من جملة ما يصدق عليه الشيء (ولاوضعوا خلالكم) الايضاع سرعة السير يقال أوضع البعير اذا أسرع السير وقيل هو سير الخبب وأوضع يستعمل لازما كما في القاموس ومتعديا كما في المختار والخلل الفرجة بين الشيئين والمفرد خلل والجمع الخلال كجمل وجمال أي الفرج التي تكون بين الصفوف والمعنى على الاول لسعوا بينكم بالافساد بما يختلقونه من الاكاذيب المشتملة على الارجاف والنمائم الموجبة لفساد ذوات البين وعلى الثاني أسرعوا ركائبهم بينكم بالنميمة وفيه استعارة تخييلية ومكنية وقيل انه استعارة تبعية شبه سرعة افسادهم لذات البين بالنميمة بسرعة سير الركائب المسماة بالايضاع وهو اسراع سير البعير ثم استعير لسرعة الافساد لفظ الايضاع وهو للابل ثم اشتق منه أوضعوا وأصل الاستعارة ولاوضعوا ركائب نمائمهم خلالكم ثم حذف النمائم وأقيم المضاف اليه مقامها لدلالة سياق الكلام على ان المراد النميمة ثم حذف الركائب قاله الطيبي كما ذكره زكريا (يبغونكم) يقال بغيته كذا طلبته له وأبغيته كذا أعنته على طلبه والمعنى يطلبون لكم (الفتنة) أي ما يفتنون به في ذات بينكم بما يصنعونه من التحريش والافساد وقولهم للمؤمنين لقد جمعوا لكم كذا وكذا ولا طاقة لكم بهم وانكم ستهزمون منهم وسيظهرون عليكم ونحو ذلك من الاحاديث الكاذبة التي تورث الجبن والفشل وقيل الفتنة العيب والشر وقيل الفتنة هنا الشرك (وفيكم سماعون لهم) أي والحال ان فيكم من يستمع ما يقولونه من الكذب فينقله اليكم فيتأثر من ذلك الاختلاف بينكم والفساد لاخوانكم قال مجاهد معناه محدثون لهم بأحاديثكم غير منافقين وهم عيون للمنافقين انتهى فعلى هذا يكون المراد فيكم

اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم الا ما اضطررتم اليه وان كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم ان ربك أعلم بالمعتدين) هذا اباحة من الله لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر عليه اسمه ومفهومه انه لا يباح ما لم يذكر اسم الله عليه كما كان يستبيحه كفار المشركين من أكل الميتات وأكل ما ذبح على النصب وغيرها ثم ندب الى الاكل مما ذكر اسم الله عليه فقال وما لكم ان لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم أي قد بين لكم ما حرم عليكم ووضحه وقرأ بعضهم فصل بالتشديد وقرأ آخرون بالتخفيف والكل بمعنى البيان والوضوح الا ما اضطررتم اليه أي الا في حال (١١٥) الاضطرار فانه يباح لكم ما وجدتم ثم بين تعالى جهالة المشركين في آرائهم الفاسدة في استحلالهم الميتات وما ذكر عليه غير اسم الله تعالى فقال وان كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم ان ربك هو أعلم بالمعتدين أي هو أعلم باعتدائهم وكذبهم وافترائهم (وذروا ظاهر الاثم وباطنه ان الذين يكسبون الاثم سيجزون بما كانوا يقترفون) قال مجاهد وذروا ظاهر الاثم وباطنه المعصية في السر والعلانية وفي رواية عنه هو ما ينوي مما هو عامل وقال قتادة وذروا ظاهر الاثم وباطنه أي سره وعلانيته قليله وكثيره وقال السدي ظاهره الزنا مع البغايا ذوات الرايات وباطنه مع الخليلة والصدائق والاخدان وقال عكرمة ظاهره نكاح ذوات المحارم والصحيح ان الآية عامة في ذلك كله وهي كقوله تعالى قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن الآية ولهذا قال تعالى ان الذين يكسبون الاثم سيجزون بما كانوا يقترفون أي سواء كان ظاهرا أو خفيا فان الله سيجزيهم عليه قال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن معاوية بن صالح عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه عن النواس بن سمعان قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاثم فقال الاثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع الناس عليه (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم وان أطعتموهم انكم لمشركون) استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب الى أن الذبيحة لا تحل اذا لم يذكر اسم الله عليها وان كان الذابح مسلما وقد اختلف الائمة رحمهم الله في هذه المسألة على ثلاثة أقوال فمنهم من قال لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة وسواء متروك التسمية

جواسيس منهم يسمعون لهم الاخبار منكم فاللام على الاول للتقوية وعلى الثاني للتعليل أي لاجلهم (والله عليم بالظالمين) وبما يحدث منهم لو خرجوا معكم فلذلك اقتضت حكمته البالغة ان لا يخرجوا معكم وكره انبعاثهم معكم ولا ينافي حالهم هذا لو خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما تقدم من عتابه على الاذن لهم في التخلف لانه سارع الى الاذن لهم ولم يكن قد علم من أحوالهم لو خرجوا انهم يفعلون هذه الافاعيل فعوتب صلى الله عليه وسلم على تسرعه الى الاذن لهم قبل أن يتبين له الصادق منهم في عذره من الكاذب ولهذا قال الله سبحانه فيما يأتي في هذه السورة فان رجعك الله الى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدا الآية وقال في سورة الفتح سيقول المخلفون اذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها الى قوله قل لن تتبعونا وفي الآية وعيد وتهديد للمنافقين الذين يلقون الفتن والشبهات بين المؤمنين ووضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالظلم والتشديد في الوعيد والاشعار بترتبه على الظلم قال أبو السعود ولعله شامل للفريقين السماعين والقاعدين (لقد ابتغوا الفتنة من قبل) أي لقد طلبوا الافساد والخبال وتفريق كلمة المؤمنين وتشتت شملهم من قبل هذه الغزوة التي تخلفوا عنك فيها كما وقع من عبد الله بن أبي وغيره يوم أحد حين انصرف بأصحابه عنك ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون (وقلبوا لك الامور) أي صرفوها من وجه الى وجه ودبروا لك الحيل والمكايد ورددوا الآراء في ابطال أمرك وتقليب الامر تصريفه من أمر الى أمر وترديده لاجل التدبير والاجتهاد في المكر والحيلة ومنه قول العرب للرجل حول قلب اذا كان دائرا حول المكايد والحيل يدير الرأي فيها ويتدبره وقرئ بالتخفيف (حتى جاء الحق) أي الى غاية هي مجيء الحق وهو النصر لك والتأييد وقيل الحق القرآن (وظهر أمر الله) باعزاز دينه واعلاء شريعته وقهر أعدائه (وهم كارهون) لمجيء الحق وظهور أمر الله ولكن كان ذلك على رغم منهم (ومنهم) أي من المنافقين (من يقول) لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (ائذن لي) في التخلف عن الجهاد (ولا تفتني) أي لا توقعني في الفتنة أي المعصية والاثم اذا لم تأذن لي فتخلفت بغير اذنك وقيل معناه لا توقعني في الهلكة بالخروج عن ابن عباس قال لما أراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يخرج الى غزوة تبوك قال للجد بن قيس يا جد بن قيس ما تقول في مجاهدة بني

عمدا أو سهوا وهو مروي عن ابن عمر ونافع مولاه وعامر الشعبي ومحمد بن سيرين وهو رواية عن الامام مالك ورواية عن أحمد بن حنبل نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين والمتأخرين وهو اختيار أبي ثور وداود الظاهري واختار ذلك أبو الفتوح محمد بن محمد بن علي الطائي من متأخري الشافعية في كتابه الاربعين واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية وبقوله في آية الصيد فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ثم قد أكد في هذه الآية بقوله وانه لفسق والضمير قيل عائد على الاكل وقيل عائد على الذبح بغير الله وبالاحاديث الواردة في الامر بالتسمية عند (١١٦) الذبيحة والصيد كحديثي عدي بن حاتم وأبي ثعلبة اذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك وهما في الصحيحين وحديث رافع ابن خديج ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه في الصحيحين أيضا وحديث ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للجن لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه رواه مسلم وحديث جندب بن سفيان البجلي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذبح قبل أن يصلي فليذبح مكانها أخرى ومن لم يكن ذبح حتى صلينا فليذبح باسم الله أخرجاه وعن عائشة رضي الله عنها ان ناسا قالوا يارسول الله ان قوما يأتوننا باللحم لاندري أذكر اسم الله عليه أم لا قال سموا عليه اسم الله وكلوا قالت وكانوا حديثي عهد بكفر رواه البخاري ووجه الدلالة انهم فهموا أن التسمية لابد منها وخشوا أن لاتكون وجدت من أولئك لحداثة اسلامهم فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الاكل لتكون كالعوض عن المتروكة عند الذبح ان لم تكن وجدت وأمرهم باجراء أحكام المسلمين على السداد والله أعلم والمذهب الثاني في المسألة انه لا يشترط التسمية بل هي مستحبة فان تركت عمدا أو نسيانا لا تضر وهذا مذهب الامام الشافعي رحمه الله وجميع أصحابه ورواية عن الامام أحمد نقلها عنه حنبل وهو رواية عن الامام مالك ونص على ذلك أشهب بن عبد العزيز من أصحابه وحكي عن ابن عباس وأبي هريرة وعطاء بن أبي رباح والله أعلم وحمل الشافعي الآية الكريمة ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق على ما ذبح لغير الله كقوله تعالى أو فسقا أهل لغير الله به وقال ابن جريج عن عطاء ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه قال ينهى عن ذبائح كانت تذبحها قريش للاوثان وينهى عن ذبائح المجوس وهذا المسلك الذي طرده الامام الشافعي قوي وقد حاول بعض المتأخرين أن يقويه بأن جعل الواو في قوله وانه لفسق حالية أي لاتأكلوا

لهم

الاصفر فقال يارسول الله اني امرؤ صاحب نساء ومتى أرى نساء بني الاصفر أفتتن فأذن لي ولا تفتني فأنزل الله ومنهم من يقول ائذن لي الآية (ألا في الفتنة سقطوا) أي في نفس الفتنة وهي فتنة التخلف عن الجهاد والاعتذار الباطل والمعنى انهم ظنوا انهم بالخروج أو بترك الاذن انهم يقعون في الفتنة وهم بهذا التخلف سقطوا في الفتنة العظيمة وفي التعبير بالسقوط ما يشعر بأنهم وقعوا فيها وقوع من يهوي من أعلى الى أسفل وذلك أشد من مجرد الدخول في الفتنة ثم توعدهم على ذلك فقال (وان جهنم لمحيطة بالكافرين) أي مشتملة عليهم من جميع الجوانب لايجدون عنها مخلصا ولا يتمكنون من الخروج منها بحال من الاحوال وهذا وعيد لهم على مافعلوا معطوف على الجملة السابقة داخل تحت التنبيه وقصة تبوك مذكورة في كتب الحديث والسير فلا نطول بذكرها (ان تصبك حسنة تسؤهم) أي حسنة كانت بأي سبب اتفق كما يفيده وقوعها في حيز الشرط وكذلك القول في المصيبة وتدخل الحسنة والمصيبة الكائنة في القتال كما يفيده السياق دخولا أوليا فمن جملة ما يصدق عليه الحسنة الغنيمة والظفر ومن جملة ما يصدق عليه المصيبة الخيبة والانهزام وهذا ذكر نوع آخر من خبث ضمائر المنافقين وسوء أفعالهم والاخبار بعظم عداوتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وللمؤمنين فان المساءة بالحسنة والفرح بالمصيبة من أعظم ما يدل على انهم قد بلغوا في العداوة الى الغاية (وان تصبك مصيبة) أي هزيمة أو شدة كما تقدم وقابل الله هنا الحسنة بالمصيبة ولم يقابلها بالسيئة كما قال في سورة آل عمران وان تصبكم سيئة يفرحوا بها لأن الخطاب هنا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وهي في حقه مصيبة يثاب عليها لا سيئة يعاتب عليها والتي هناك خطاب للمؤمنين قاله الشهاب (يقولوا) أي المنافقون حامدين لرأيهم (قد أخذنا أمرنا من قبل) أي احتطنا لانفسنا وأخذنا بالحزم واعتزلنا عنهم وقعدنا عن الحرب فلم نخرج للقتال كما خرج المؤمنون حتى نالهم ما نالهم من المصيبة (ويتولوا وهم فرحون) أي رجعوا الى أهلهم عن مقامات الاجتماع ومواطن التحدث حال كونهم فرحين بالمصيبة التي أصابت المؤمنين وبما صنعوا من أخذ الامر وبما أصابه صلى الله عليه وآله وسلم والجملة حال من الضمير في يقولوا ويتولوا لا من الاخير فقط لمقارنة الفرح لهما معا ثم لما قالوا هذا القول أمر الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأن يجيب عليهم فقال (قل)

مما لم يذكر اسم الله عليه في حال كونه فسقا ولا يكون فسقا حتى يكون قد أهل به لغير الله ثم ادعى أن هذا متعين ولا يجوز أن تكون الواو عاطفة لأنه يلزم منه عطف جملة اسمية خبرية على جملة فعلية طلبية وهذا ينتقض عليه بقوله وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم فانها عاطفة لا محالة فان كانت الواو الذى ادعى أنها حالية صحيحة على ما قال امتنع عطف هذه عليها فان عطفت على الطلبية ورد عليه ما أورد على غيره وان لم تكن الواو حالية بطل ما قال من أصله والله أعلم وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يحيى بن المغيرة أنبأنا جرير عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في الآية (١١٧) ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه قال الميتة

ثم رواه عن أبي زرعة عن يحيى ابن أبي كثير عن ابن لهيعة عن عطاء وهو ابن السائب به وقد استدل لهذا المذهب بما رواه أبو داود في المراسيل من حديث ثور بن يزيد عن الصلت السدوسي مولى سويد بن منجوف أحد التابعين الذين ذكرهم أبو حاتم بن حبان في كتاب الثقات قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذبيحة المسلم حلال ذكر اسم الله أو لم يذكر انه ان ذكر لم يذكر الا اسم الله وهذا مرسل يعضد بما رواه الدارقطني عن ابن عباس أنه قال اذا ذبح المسلم ولم يذكر اسم الله فليأكل فان المسلم فيه اسم من أسماء الله واحتج البيهقي أيضا بحديث عائشة رضي الله عنها المتقدم ان ناسا قالوا يا رسول الله ان قوما حديثي عهد بجاهلية يأتونا باللحم لا ندري أذكر اسم الله عليه أم لا فقال سموا أنتم وكلوا قال فلو كان وجود التسمية شرطا لم يرخص لهم الا مع تحققها والله أعلم المذهب الثالث في المسألة ان ترك البسملة على الذبيحة نسيانا لم يضر وان تركها عمدا لم تحل هذا هو المشهور من مذهب الامام مالك وأحمد بن حنبل وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه واسحق بن راهويه وهو محكي عن علي وابن عباس وسعيد بن المسيب وعطاء وطاوس والحسن البصري وأبي مالك وعبد الرحمن بن أبي ليلى وجعفر بن محمد وربيعة بن عبد الرحمن ونقل الامام أبو الحسن المرغيناني في كتابه الهداية الاجماع قبل الشافعي على تحريم متروك التسمية عمدا فلهذا قال أبو يوسف والمشايخ لو حكم حاكم بجواز بيعه لم ينفذ لمخالفة الاجماع وهذا الذي قاله غريب جدا وقد تقدم نقل الخلاف عمن قبل الشافعي والله أعلم وقال الامام أبو جعفر بن جرير رحمه الله من حرم ذبيحة الناسي فقد خرج من قول جميع الحجة وخالف الخبر الثابت عن رسول الله صلى

لهم بيانا لبطلان ما بنوا عليه مسرتهم من الاعتقاد (لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا) في اللوح المحفوظ أو في كتابه المنزل علينا وفائدة هذا الجواب ان الانسان اذا علم ان ما قدره الله كائن وان كل ما ناله من خير أو شر انما هو بقدر الله وقضائه هانت عليه المصائب ولم يجد مرارة شماتة الاعداء وتشفي الحسدة (هو مولانا) أي ناصرنا وجاعل العاقبة لنا ومظهر دينه على جميع الاديان (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) الفاء سببية والاصل ليتوكل قدم الظرف على الفعل لافادة القصر ثم أدخلت الفاء للدلالة على استيجابه تعالى للتوكل كما في قوله واياي فارهبون والتوكل على الله تفويض الامور اليه والمعنى ان من حق المؤمنين أن يجعلوا توكلهم في جميع أمورهم مختصا بالله سبحانه لا يتوكلون على غيره (قل هل تربصون بنا) أي هل تنتظرون أيها المنافقون أن يقع (بنا الا احدى) الخصلتين (الحسنيين) اما النصرة والغنيمة أو الشهادة والمغفرة وكلاهما مما يحسن لدينا والحسنى تأنيث الاحسن ومعنى الاستفهام التقريع والتوبيخ وهذا ايضاح وكشف لقوله الا ما كتب الله لنا (ونحن نتربص بكم) احدى المساءتين لكم من العواقب اما (أن يصيبكم الله بعذاب من عنده) أي قارعة نازلة من السماء كما أصاب من قبلكم من الامم المهلكة فيسحتكم بعذابه (أو) بعذاب لكم (بأيدينا) أي باظهار الله لنا عليكم بالقتل والاسر والنهب والسبي والفاء في (فتربصوا) فصيحة والامر للتهديد كما في قوله ذق انك أنت العزيز الكريم أي تربصوا بنا ما ذكرنا من عاقبتنا (انا) أي نحن (معكم متربصون) ما هو عاقبتكم فستنظرون عند ذلك ما يسرنا ويسوءكم (قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم) هذا الامر معناه الشرط والجزاء لان الله سبحانه لا يأمرهم بما لا يتقبله منهم والتقدير ان أنفقتم طائعين أو مكرهين فلن يتقبل منكم وقيل هو أمر في معنى الخبر أي ان أنفقتم طوعا أو كرها لن يتقبل منكم فهو كقوله استغفر لهم أو لا تستغفر لهم وفيه الاشعار بتساوي الامرين في عدم القبول وانتصاب طوعا وكرها على الحال فهما مصدران في موقع المشتقين أي انفقوا طائعين من غير أمر من الله ورسوله أو مكرهين بأمر منهما وليس المراد بالطوع الرغبة لقوله الآتي الا وهم كارهون أي لا رغبة لهم وسمى الامر منهما اكراها لانهم منافقون لا يأتمرون بالامر فكانوا بأمرهم الذي لا يأتمرون به

الله عليه وسلم في ذلك يعني ما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي أنبأنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو العباس الأصم حدثنا أبو أمية الطرسوسي حدثنا محمد بن يزيد حدثنا معقل بن عبيد الله عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال المسلم يكفيه اسمه ان نسي أن يسمي حين يذبح فليذكر اسم الله وليأكله وهذا الحديث رفعه خطأ أخطأ فيه معقل بن عبيد الله الجزري فانه وان كان من رجال مسلم الا أن سعيد بن منصور وعبد الله بن الزبير الحميدي روياه عن سفيان بن عيينة عن عمرو عن أبي الشعثاء عن عكرمة عن ابن عباس من قوله (١١٨) فزادا في اسناده أبا الشعثاء ووقفاه والله أعلم وهذا أصح نص عليه البيهقي ثم حكى ابن جرير وغيره عن الشعبي ومحمد بن سيرين انهما كرها متروك التسمية نسيانا والسلف يطلقون الكراهة على التحريم كثيرا والله أعلم الا أن من قاعدة ابن جرير أنه لا يعتبر قول الواحد ولا الاثنين مخالفا قول الجمهور فيعده اجماعا فليعلم هذا والله الموفق قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبو أسامة عن جهير بن يزيد قال سئل الحسن سأله رجل أتيت بطير كذا فمنه ما قد ذبح فذكر اسم الله عليه ومنه ما نسي أن يذكر اسم الله عليه واختلط الطير فقال الحسن كله كله قال وسألت محمد بن سيرين فقال قال الله ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه واحتج لهذا المذهب بالحديث المروي من طرق عند ابن ماجه عن ابن عباس وأبي هريرة وأبي ذر وعقبة بن عامر وعبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الله وضع عن امتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه وفيه نظر والله أعلم وقد روى الحافظ أبو أحمد بن عدي من حديث مروان بن سالم القرقساني عن الاوزاعي عن يحيى ابن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أرأيت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمي فقال النبي صلى الله عليه وسلم اسم الله على كل مسلم ولكن هذا اسناده ضعيف فان مروان بن سالم القرقساني أبا عبد الله الشامي ضعيف تكلم فيه غير واحد من الائمة والله أعلم وقد أفردت هذه المسألة على حدة وذكرت مذاهب الائمة ومأخذهم وأدلتهم ووجه الدلالات والمناقضات والمعارضات والله أعلم قال ابن جرير وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية هل نسخ من حكمها شيء أم لا فقال بعضهم لم ينسخ منها شيء وهي محكمة فيما عنيت به وعلى هذا قول مجاهد وعامة أهل العلم

كالمكرهين على الانفاق أو طائعين من غير اكراه من رؤسائكم أو مكرهين منهم قال الخطيب وهذه الآية وان كانت خاصة في انفاق المنافقين فهي عامة في حق كل من أنفق ماله لغير وجه الله بل أنفقه رياء وسمعة فانه لا يقبل منه (انكم كنتم قوما فاسقين) تعليل لعدم قبول انفاقهم والفسق هنا التمرد والعتو وقد سبق بيان الفسق لغة وشرعا ثم بين سبحانه السبب المانع من قبول نفقاتهم فقال (وما منعهم ان تقبل منهم نفقاتهم الا انهم كفروا بالله وبرسوله) استثناء من أعم الاشياء أي ما منعهم من قبول نفقاتهم شيء من الاشياء الا كفرهم بما جعل المانع من القبول ثلاثة أمور الاول الكفر والثاني (ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى) أي انهم لا يصلون في حال من الاحوال الا في حال الكسل والتثاقل لانهم لا يرجون ثوابا ولا يخافون عقابا بفعلها فصلاتهم ليست الا رياء للناس وتظهرا بالاسلام الذي يبطنون خلافه (و) الثالث انهم (لا ينفقون) أموالهم (الا وهم كارهون) ولا ينفقونها طوعا لانهم يعدون انفاقها وضعها في مضيعة لعدم ايمانهم بما وعد الله ورسوله لا يقال ان الكفر سبب مستقل لعدم القبول فما وجه التعليل بمجموع الامور الثلاثة وعند حصول السبب المستقل لا يبقى لغيره أثر لان هذا انما يتجه على قول المعتزلة القائلين بأن العلل مؤثرة في الحكم وأما أهل السنة فانهم يقولون هذه الاسباب معرفة غير موجبة للثواب ولا للعقاب واجتماع المعرفات الكثيرة على الشيء الواحد جائز قاله الشهاب (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم) الاعجاب بالشيء أن تسر به سرور راض به متعجب من حسنه قيل مع نوع من الافتخار به واعتقاد انه ليس لغيره ما يساويه وهذا المعنى انما يناسب في اعجاب الشخص بمال نفسه يقال أعجب بماله أو ولده أي فرح به واغتر به وما هنا في اعجاب المرء بمال غيره والمعنى عليه لا تستحسن ما معهم من الاموال والاولاد ولا تحمدها ولا تخبر برضاك بها فهي استدراج وقيل يقال في الاستحسان أعجبني بالالف وفي الذم والانكار عجبت وزان تعبت وهذا الخطاب وان كان مختصا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم لكن يعم جميع المؤمنين (انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا) بما يحصل معهم من الغم والحزن عندما يغنمها المسلمون ويأخذونها قسرا من أيديهم مع كونها زينة حياتهم وقرة أعينهم أو بما يلقون في جمعها من المشقة والمتاعب وفيها

من

وروى عن الحسن البصري وعكرمة ما حدثنا به ابن حميد حدثنا يحيى بن واضح عن الحسين بن واقد عن عكرمة والحسن البصري قالا قال الله فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ان كنتم بآياته مؤمنين وقال ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق فنسخ واستثنى من ذلك فقال وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم وقال ابن أبي حاتم قرئ على العباس بن الوليد بن مزيد حدثنا محمد بن شعيب أخبرني النعمان يعني ابن المنذر عن مكحول قال أنزل الله القرآن ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ثم نسخها الرب ورحم المسلمين فقال اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين (١١٩) أوتوا الكتاب حل لكم فنسخها بذلك وأحل طعام أهل الكتاب ثم قال ابن جرير والصواب أنه لا تعارض بين حل طعام أهل الكتاب وبين تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه وهذا الذي قاله صحيح ومن أطلق من السلف النسخ ههنا فانما أراد التخصيص والله سبحانه وتعالى أعلم وقوله تعالى وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا أبو بكر بن عياش عن أبي اسحق قال قال رجل لابن عمر ان المختار يزعم أنه يوحى اليه قال صدق وتلا هذه الآية وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم وحدثنا أبي حدثنا أبو حذيفة حدثنا عكرمة بن عمار عن أبي زميل قال كنت قاعدا عند ابن عباس وحج المختار بن أبي عبيد فجاءه رجل فقال يا ابن عباس زعم أبو اسحق انه أوحي اليه الليلة فقال ابن عباس صدق فنفر وقال يقول ابن عباس صدق فقال ابن عباس هما وحيان وحي الله ووحي الشيطان فوحي الله الى محمد صلى الله عليه وسلم ووحي الشيطان الى أوليائه ثم قرأ وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم وقد تقدم عن عكرمة في قوله يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ونحو هذا وقوله ليجادلوكم قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا عمران بن عيينة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير قال خاصمت اليهود النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله فأنزل الله ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق هكذا رواه مرسلا ورواه أبو داود متصلا فقال حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا عمران بن عيينة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال جاءت اليهود الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله فأنزل الله ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه الآية

من المصائب ومنه قول العرب بلوغ الآمال في ركوب الاهوال والمؤمن قد علم انه مخلوق للآخرة وانه يثاب بالمصائب الحاصلة له في الدنيا فلم يكن المال والولد في حقه عذابا في الدنيا واما المنافق فانه لا يعتقد كون الآخرة له ولا ان له فيها ثوابا فبقي ما يحصل له في الدنيا من التعب والحزن على المال والولد عذابا عليه في الدنيا فثبت بهذا الاعتبار ان المال والولد عذاب على المنافق في الدنيا دون المؤمن وكذا في الآخرة يعذبهم بعذاب النار بسبب عدم الشكر لربهم الذي أعطاهم ذلك وترك ما يجب عليهم من الزكاة فيها والتصدق بما يحق التصدق به وقيل في الكلام تقديم وتأخير والمعنى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا انما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة لانهم المنافقون فهم ينفقون كارهين فيعذبون بما ينفقون (وتزهق أنفسهم وهم كافرون) الزهوق الخروج بصعوبة والمعنى ان الله يريد ان تزهق أنفسهم ويخرج أرواحهم حال كفرهم لعدم قبولهم لما جاءت به الانبياء وأرسلت به الرسل وتصميمهم على الكفر وتماديهم في الضلالة قال الزمخشري والمراد الاستدراج بالنعم كقوله انما نملي لهم ليزدادوا اثما كأنه قيل ويريد أن يديم عليهم نعمه الى أن يموتوا وهم كافرون مشغولون بالتمتع عن النظر للعاقبة ثم ذكر الله سبحانه نوعا آخر من قبائح المنافقين فقال (ويحلفون بالله انهم لمنكم) أي من جملتكم في دين الاسلام والانقياد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولكتاب الله سبحانه (وما هم منكم) في ذلك الا بمجرد ظواهرهم دون بواطنهم (ولكنهم قوم يفرقون) أي يخافون ان ينزل بهم ما نزل بالمشركين من القتل والسبي فيظهرون لكم الاسلام تقية منهم لا عن حقيقة (لو يجدون ملجأ) أي مكانا يلجؤن اليه ويحفظون نفوسهم فيه منكم من حصن او رأس جبل أو قلعة أو جزيرة والملجأ يصلح للمصدر والزمان والمكان والظاهر منها هنا المكان قال ابن عباس الملجأ الحرز في الجبال وقيل حصنا ومعقلا (أو مغارات) جمع مغارة من غار يغير قال الاخفش ويجوز أن يكون من أغار يغير والمغارات الغيران والسراديب وهي المواضع التي يستتر فيها ومنه غار الماء وغارت العين والمغارة هي المكان المنخفض في الارض أو في الجبل والغور من كل شيء قعره والغور المطمئن من الارض وغار الرجل غورا أتى الغور وأغار بالالف مثله والغار والمغار والمغارة كالكهف في الجبل والكهف كالبيت في الجبل وقيل المغارة السرب في الارض كنفق اليربوع والغار الثقب في الجبل وهذا من أبدع النظم ذكر

كذا رواه ابن جرير عن محمد بن عبد الاعلى وسفيان بن وكيع كلاهما عن عمران بن عيينة ورواه البزار عن محمد بن موسى الحرشي عن عمران بن عيينة وهذا فيه نظر من وجوه ثلاثة أحدها أن اليهود لا يرون اباحة الميتة حتى يجادلوا الثاني ان الآية من الانعام وهي مكية الثالث أن هذا الحديث رواه الترمذي عن محمد بن موسى الحرشي عن زياد بن عبد الله المكاني عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير مرسلا عن ابن عباس ورواه الترمذي بلفظ أتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال حسن غريب وقال الطبراني حدثنا علي بن المبارك حدثنا زيد بن المبارك حدثنا موسى بن عبد العزيز حدثنا الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال لما نزلت ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه أرسلت فارس الى قريش ان خاصموا محمدا وقولوا له فما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال وما ذبح الله عز وجل بشمشير من ذهب يعني الميتة فهو حرام فنزلت هذه الآية وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم وان أطعتموهم انكم لمشركون أي وان الشياطين من فارس ليوحون الى أوليائهم من قريش وقال أبو داود حدثنا محمد بن كثير أخبرنا اسرائيل حدثنا سماك عن عكرمة عن ابن عباس في قوله وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم يقولون ما ذبح الله فلا تأكلوه وما ذبحتم أنتم فكلوه فأنزل الله ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ورواه ابن ماجه وابن أبي حاتم عن عمرو بن عبد الله عن وكيع عن اسرائيل به وهذا اسناد صحيح ورواه ابن جرير من طرق متعددة عن ابن عباس وليس فيه ذكر اليهود فهذا هو المحفوظ لان الآية مكية واليهود لا يحبون الميتة وفي بعض ألفاظه عن ابن عباس أن الذي قتلتم ذكر اسم الله عليه وان الذي قد مات لم يذكر اسم الله عليه وقال ابن جرير وقال عمرو بن دينار عن عكرمة ان مشركي قريش كاتبوا فارس على الروم وكاتبتهم فارس فكتبت فارس اليهم ان محمدا وأصحابه يزعمون انهم يتبعون أمر الله فما ذبح الله بسكين من ذهب فلا يأكلونه وما ذبحوه هم يأكلونه فكتب بذلك المشركون الى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء فأنزل الله وانه لفسق وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم وطاعة المشركين لا تخرجكم من الدين ليجادلوكم وان أطعتموهم انكم لمشركون ونزلت يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا وقال السدي في تفسير

أولا الامر الاعم وهو الملجأ من أي نوع كان ثم ذكر الغيران التي يختفي فيها في أعلى الاماكن وهي الجبال ثم الاماكن التي يختفي فيها في الاماكن السافلة وهي السروب وهي التي عبر عنها بالمدخل والمعنى لو وجدوا أمكنة يغيبون فيها أشخاصهم هربا منكم (أو مدخلا) من الدخول أي مكانا يدخلون فيه من الامكنة التي ليست بمغارات قال ابن عباس المدخل السرب كنفق اليربوع وقال الحسن وجها يدخلونه على خلاف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (لولوا اليه) أي لالتجؤا اليه وأدخلوا أنفسهم فيه وقيل المعنى لو كانوا يجدون مهربا لهربوا اليه أو قوما يأمنون عندهم على أنفسهم لصاروا اليهم ولفارقوكم (وهم يجمحون) أي والحال انهم يسرعون اسراعا الى ذلك المكان لا يردهم شيء من جمح الفرس براكبه يجمح اذا لم يرده اللجام واستعصى عليه حتى غلبه فهو جموح وجامح يستوي فيه المذكر والمؤنث وحاصل المعنى لو وجدوا شيأ من هذه الاشياء المذكورة وهي شر الامكنة وأضيقها لولوا اليه مسرعين هربا من المسلمين لشدة بغضهم اياهم تستراعنهم واستكراها لرؤيتهم (ومنهم من يلمزك) هذا ذكر نوع آخر من قبائحهم واللمز بمعنى العيب كما قال النحاس والجوهري يقال لمزه يلمزه اذا عابه وأصله الاشارة بالعين ونحوها ورجل لماز ولمزة أي عياب فهو أخص من الغمز اذ هو الاشارة بالعين ونحوها سواء كان على وجه الاستنقاص أولا وأما اللمز فهو خاص بكونه على وجه العيب وقال الزجاج لمزت الرجل ألمزه وألمزه بكسر الميم وضمها اذا عبته وكذا همزته وروي عن مجاهد انه قال معنى يلمزك يروزك ويسألك والقول عند أهل اللغة هو الاول وقال الازهري أصله الدفع يقال لمزته أي دفعته وقال الليث هو الغمز في الوجه ومنه همزة لمزة أي كثير هذين الفعلين وقرئ يلمزك بكسر العين مع التشديد وضمها وهما لغتان في المضارع ومعنى الآية ومن المنافقين من يعيبك (في الصدقات) أي الزكوات أو الغنائم وتفريقها وقسمتها (فان أعطوا منها) أي من الصدقات بقدر ما يريدون (رضوا) بما وقع من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يعيبوه وذلك لانه لا مقصد لهم الا حطام الدنيا وليسوا من الدين في شيء (وان لم يعطوا منها) ما يريدونه ويطلبونه (اذا هم يسخطون) أي فاجؤا السخط وفائدة اذا الفجائية ان الشرط مفاجئ للجزاء وهاجم عليه (ولو انهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله) أي ما فرضه الله لهم وقسمه وما أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الصدقات وقيل ذكر

هذه الآية ان المشركين قالوا للمسلمين كيف تزعمون انكم تبعون مرضات الله فما قتل الله فلا تأكلونه وما ذبحتم أنتم تأكلونه فقال الله تعالى ان أطعتموهم في أكل الميتة انكم لمشركون وهكذا قاله مجاهد والضحاك وغير واحد من علماء السلف وقوله تعالى وان أطعتموهم انكم لمشركون أي حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه الى قول غيره فقدمتم عليه غيره فهذا هو الشرك كقوله تعالى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله الآية وقد روى الترمذي في تفسيرها عن عدي بن حاتم انه قال يارسول الله ما عبدوهم فقال انهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم اياهم (121) (أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون) هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتا فأحييناه وجعلناه في الضلالة هالكا حائرا فأحياه الله أي أحيا قلبه بالايمان وهداه له ووفقه لاتباع رسله وجعلنا له نورا يمشي به في الناس أي يهتدي كيف يسلك وكيف يتصرف والنور هو القرآن كما رواه العوفي وابن أبي طلحة عن ابن عباس وقال السدي الاسلام والكل صحيح كمن مثله في الظلمات أي الجهالات والاهواء والضلالات المتفرقة ليس بخارج منها أي لا يهتدي الى منفذ ولا مخلص مما هو فيه كما قال تعالى الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون وقال تعالى أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أم من يمشي سويا على صراط مستقيم وقال تعالى مثل الفريقين كالأعمى والاصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون وقال تعالى وما يستوي الاعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الاحياء ولا الاموات ان الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور ان أنت الا نذير والآيات في هذا كثيرة ووجه المناسبة في ضرب المثلين ههنا بالنور والظلمات ما تقدم في أول السورة وجعل الظلمات والنور وزعم بعضهم أن المراد بهذا المثل رجلان معينان فقيل عمر بن الخطاب هو الذي كان ميتا فأحياه الله وجعل له نورا يمشي به في الناس وقيل عمار بن ياسر وأما الذي في الظلمات ليس بخارج منها أبو جهل عمرو بن هشام لعنه الله

الله للتعظيم والتنبيه على ان ما فعله الرسول كان بأمره تعالى والاصل ما آتاهم الرسول وجواب لو محذوف أي لكان خيرا لهم فان فيما أعطاهم الخير العاجل والآجل (وقالوا) عند أن أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما هو لهم (حسبنا) أي كفانا (الله سيؤتينا) أي سيعطينا (الله من فضله و) يعطينا (رسوله) بعد هذا ما نرجوه ونؤمله (انا الى الله راغبون) فهاتان الجملتان كالشرح لقولهم حسبنا الله فلذلك لم يتعاطفا لانهما كالشيء الواحد فشدة الاتصال منعت العطف قاله الكرخي وقد أخرج البخاري والنسائي وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال بينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقسم قسما اذ جاءه ابن ذي الخويصرة التميمي فقال اعدل يارسول الله فقال ويحك ومن يعدل اذا لم أعدل فقال عمر بن الخطاب ائذن لي فأضرب عنقه فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعه فان له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية. الحديث حتى قال وفيهم نزلت هذه الآية وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال لما قسم النبي صلى الله عليه وآله وسلم غنائم حنين سمعت رجلا يقول ان هذه القسمة ما أريد بها الله فأتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذكرت ذلك له فقال رحمة الله على موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر ونزل يعني هذه الآية (انما الصدقات للفقراء والمساكين) لما لمز المنافقون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قسمة الصدقات بين الله لهم مصرفها دفعا لطعنهم وقطعا لشغبهم وانما من صيغ القصر وتعريف الصدقات للجنس أي جنس هذه الصدقات مقصورة على هذه الاصناف الثمانية المذكورة لا يتجاوزها بل هي لهم لا لغيرهم ولا تعلق لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشيء منها ولم يأخذ لنفسه منها شيأ وقد اختلف العلماء هل يجب تقسيط الصدقات على هذه الاصناف الثمانية أو يجوز صرفها الى البعض دون البعض على حسب ما يراه الامام أو صاحب الصدقة فذهب الى الاول حذيفة والشافعي وجماعة من أهل العلم وذهب الى الثاني مالك وأبو حنيفة وبه قال عمر وحذيفة وابن عباس وأبو العالية وسعيد بن جبير وميمون بن مهران قال ابن جرير وهو قول عامة أهل العلم احتج الاولون بما في الآية من القصر وبحديث زياد بن الحرث الصدائي عند أبي داود والدارقطني قال أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فبايعته فأتى

والصحيح ان الآية عامة يدخل فيها كل مؤمن وكافر وقوله تعالى كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون أى حسنا لهم ما كانوا فيه من الجهالة والضلالة قدرا من الله وحكمة بالغة لا اله الا هو وفى المسند عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله خلق خلقه فى ظلمة ورش عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل كما قال تعالى يخرجهم من الظلمات الى النور وكقوله وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور (وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى (١٢٢) نؤتى مثل ما أوتى رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون) يقول تعالى كما جعلنا فى قريتك يا محمد أكابر من المجرمين ورؤساء ودعاة الى الكفر والصد عن سبيل الله والى مخالفتك وعداوتك كذلك كانت الرسل من قبلك يبتلون بذلك ثم تكون لهم العاقبة كما قال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين الآية وقال تعالى واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها الآية قيل معناه أمرناهم بالطاعة فخالفوا فدمرناهم وقيل أمرناهم أمرا قدريا كما قال ههنا ليمكروا فيها وقوله تعالى أكابر مجرميها ليمكروا فيها قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس أكابر مجرميها ليمكروا فيها قال سلطنا شرارهم فعصوا فيها فاذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب وقال مجاهد وقتادة أكابر مجرميها عظماؤها وقلت هذا كقوله تعالى وما أرسلنا فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين وقال تعالى وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون والمراد بالمكر ههنا دعاؤهم الى الضلالة أى بزخرف من المقال والفعال كقوله تعالى اخبارا عن قوم نوح ومكروا مكرا كبارا وكقوله تعالى ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا الآية وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا ابن أبى عمر حدثنا سفيان قال كل مكر فى القرآن

رجل فقال أعطنى من الصدقة فقال له ان الله لم يرض بحكم نبى ولا غيره فى الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها ثمانية أصناف فان كنت من تلك الاجزاء أعطيتك وأجاب الآخرون بأن ما فى الآية من القصر انما هو لبيان الصرف والمصرف لا لوجوب استيعاب الاصناف وبأن فى اسناد الحديث عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الافريقى وهو ضعيف ومما يؤيد ما ذهب اليه الآخرون قوله تعالى ان تبدوا الصدقات فنعما هى وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم والصدقة تطلق على الواجبة كما تطلق على المندوبة وصح عنه صلى الله عليه وآله وسلم انه قال أمرت ان آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردها فى فقرائكم وقد ادعى مالك الاجماع على القول الآخر قال ابن عبد البر يريد اجماع الصحابة فانه لا يعلم له مخالف منهم وقدم الفقراء لانهم أحوج من البقية على المشهور لشدة فاقتهم وحاجتهم وقد اختلف أهل العلم فى الفرق بين الفقير والمسكين على أقوال فقال يعقوب بن السكيت والقتبى ويونس بن حبيب ان الفقير أحسن حالا من المسكين قالوا لأن الفقير هو الذى له بعض ما يكفيه ويقيمه والمسكين الذى لا شئ له وذهب الى هذا قوم من أهل الفقه منهم أبو حنيفة وقال آخرون بالعكس فجعلوا المسكين أحسن حالا من الفقير واحتجوا بقوله تعالى أما السفينة فكانت لمساكين فأخبر أن لهم سفينة من سفن البحر وربما ساوت جملة من المال ويؤيده تعوذ النبى صلى الله عليه وآله وسلم من الفقر مع قوله اللهم احينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين والى هذا ذهب الاصمعى وغيره من أهل اللغة وحكاه الطحاوى عن الكوفيين وهو أحد قولى الشافعى وأكثر أصحابه وقال قوم ان الفقير والمسكين سواء لا فرق بينهما وهو أحد قولى الشافعى واليه ذهب ابن القاسم وسائر أصحاب مالك وبه قال أبو يوسف وقال قوم الفقير المحتاج المتعفف والمسكين السائل قاله الازهرى واختاره ابن شعبان وهو المروى عن ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وقد قيل غير هذه الاقوال مما لا يأتى الاستكثار منه بفائدة يعتد بها والاولى فى بيان ماهية المسكين ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ليس المسكين بهذا الطواف الذى يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان قالوا فما المسكين يا رسول الله قال الذى لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس شيأ (والعاملين عليها)

فهو عمل وقوله تعالى وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون أى وما يعود وبال مكرهم ذلك واضلالهم من أضـ
قال تعالى وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وقال ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون وقوله
آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله أى اذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة قالوا لن نؤمن حتى نؤتى
رسل الله أى حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة كما تأتى الى الرسل كقوله جل وعلا وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا
الملائكة أو نرى ربنا الآية وقوله الله أعلم حيث يجعل رسالته أى هو أعلم (١٢٣) حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه

أى السعاة والجباة الذين يبعثهم الامام لتحصيل الزكاة فانهم يستحقون منها قسطا واختلف فى القدر الذى يأخذونه منها فقيل الثمن روى ذلك عن مجاهد والشافعى وقيل على قدر أعمالهم من الاجرة روى ذلك عن أبى حنيفة وأصحابه وقيل يعطون من بيت المال قدر أجرتهم روى ذلك عن مالك ولا وجه لهذا فان الله قد أخبر بأن لهم نصيبا من الصدقة فكيف يمنعون منها ويعطون من غيرها واختلفوا هل يجوز أن يكون العامل هاشميا أم لا فمنعه قوم وأجازه آخرون قالوا ويعطى من غير الصدقة ولا ينحصر العامل فى الساعى والجابى اذ منه القاسم والكاتب الذى يكتب ما أعطاه أرباب الاموال والحاشر الذى يجمع المستحقين والعريف والحاسب (والمؤلفة قلوبهم) هم قوم كانوا فى صدر الاسلام فقيل هم الكفار الذين كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يتألفهم ليسلموا وكانوا لا يدخلون فى الاسلام بالقهر والسيف بل بالعطاء وقيل هم أسلموا فى الظاهر ولم يحسن اسلامهم فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتألفهم بالعطاء وقيل هم من أسلم من اليهود والنصارى وقيل هم قوم من عظماء المشركين لهم أتباع أعطاهم النبى صلى الله عليه وسلم ليؤلفوا أتباعهم على الاسلام وقد أعطى النبى صلى الله عليه وآله وسلم جماعة ممن أسلم ظاهرا كأبى سفيان ابن حرب والحرث بن هشام وسهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى أعطى كل واحد منهم مائة من الابل يؤلفهم بذلك وأعطى آخرين دونهم وقد اختلف العلماء هل سهم المؤلفة قلوبهم باق بعد ظهور الاسلام أم لا فقال عمر والحسن والشعبى قد انقطع هذا الصنف بعزة الاسلام وظهوره وهذا مشهور من مذهب مالك وأصحاب الرأى وقد ادعى بعض الحنفية ان الصحابة أجمعت على ذلك وقد صار اليه الرويانى وجماعة وقال جماعة من العلماء منهم الشافعى وهو الموافق لظاهر الآية ان سهمهم باق لان الامام ربما احتاج ان يؤلف على الاسلام وانما قطعهم عمر لما رأى من اعزاز الدين وبه أفتى الماوردى فى كتابه الاحكام السلطانية قال يونس سألت الزهرى عنهم فقال لا أعلم نسخ ذلك وعلى القول الاول يرجع سهمهم لسائر الاصناف ومن المؤلفة قلوبهم كفار يخاف شرهم بحيث لو أعطوا لانكف شرهم وهذا لا يعطى من زكاة ولا من غيرها باتفاق ومنهم من يذب عن المسلمين ومنهم من يقاتل من يليهم ويجاورهم من مانعى الزكاة ويقبض زكاتهم فتلخص ان المؤلفة أقسام وفى هذه الاقسام أقوال ذكرها فى الجمل (وفى الرقاب) أى مصروفة

كقوله تعالى وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أهم يقسمون رحمة ربك الآية يعنون لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير جليل مبجل فى أعينهم من القريتين أى مكة والطائف وذلك انهم قبحهم الله كانوا يزدرون بالرسول صلوات الله وسلامه عليه بغيا وحسدا وعنادا واستكبارا كقوله تعالى مخبرا عنه واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك الا هزوا أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون وقال تعالى واذا رأوك ان يتخذونك الا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا وقال تعالى ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن هذا وهم معترفون بفضله وشرفه ونسبه وطهارة بيته ومرباه ومنشئه صلى الله وملائكته والمؤمنون عليه حتى انهم كانوا يسمونه بينهم قبل ان يوحى اليه الامين وقد اعترف بذلك رئيس الكفار أبو سفيان حين سأله هرقل ملك الروم وكيف نسبه فيكم قال هو فينا ذو نسب قال هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول ما قال
قال لا الحديث بطوله الذى استدل به ملك الروم بطهارة صفاته عليه السلام على صدقه ونبوته وصحة ما جاء به وقال الامام أحمد
حدثنا محمد بن مصعب حدثنا الاوزاعى عن شداد أبى عمار عن واثلة بن الاسقع رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
ان الله اصطفى من ولد ابراهيم اسمعيل واصطفى من بنى اسمعيل بنى كنانة واصطفى من بنى كنانة قريشا واصطفى من قريش بنى هاشم
واصطفانى من بنى هاشم انفرد باخراجه مسلم من حديث الاوزاعى وهو عبد الرحمن بن عمرو امام أهل الشام به نحوه وفى صحيح البخارى
عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا حتى بعثت من القرن

الذى كنت فيه وقال الامام أحمد حدثنا أبو نعيم عن سفيان عن يزيد بن أبى زياد عن عبد الله بن الحرث بن نوفل عن المطلب بن أبى وداعة قال قال العباس بلغه صلى الله عليه وسلم بعض ما يقول الناس فصعد المنبر فقال من أنا قالوا أنت رسول الله قال أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ان الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه وجعلهم فريقين فجعلنى فى خير فرقة وخلق القبائل فجعلنى فى خير قبيلة وجعلهم بيوتا فجعلنى فى خيرهم بيتا فانا خيركم بيتا وخيركم نفسا صدق صلوات الله وسلامه عليه وفى الحديث أيضا المروى عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى جبريل قلبت الارض مشارقها ومغاربها فلم أجد بنى أب أفضل من هاشم رواه الحاكم والبيهقى وقال الامام أحمد حدثنا أبو بكر حدثنا عاصم عن زر ابن حبيش عن عبد الله بن مسعود قال ان الله نظر فى قلوب العباد فوجد قلب محمد صلى الله عليه وسلم خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه فبعثه برسالته ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد صلى الله عليه وسلم فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه فما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن وما رآه المسلمون سيأ فهو عند الله سيئ وذكر ابن أبى حاتم فى تفسير هذه الآية ذكر عن محمد بن منصور الجواز حدثنا سفيان عن ابن أبى حسين قال أبصر رجل ابن عباس وهو داخل من باب المسجد فلما نظر اليه راعه فقال من هذا قالوا ابن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الله أعلم حيث يجعل رسالته وقوله تعالى سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد الآية هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاؤا به فانه سيصيبه يوم القيامة بين يدى الله صغار وهو الذلة الدائمة كما انهم استكبروا فاعقبهم عبد ذلك ذلا بالذلة يوم القيامة لما استكبروا فى الدنيا كقوله تعالى ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين أى صاغرين ذليلين حقيرين وقوله تعالى وعذاب شديد بما كانوا يمكرون لما كان المكر غالبا انما يكون خفيا وهو التلطف فى التحيل والخديعة قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة جزاء وفاقا ولا يظلم ربك أحدا كما قال تعالى يوم تبلى السرائر أى تظهر المستترات والمكنونات والضمائر وجاء فى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ينصب لكل غادر لواء عند استه يوم

فى فكها بأن يشترى رقابا ثم يعتقها روى ذلك عن ابن عباس وابن عمر وبه قال مالك وأحمد ابن حنبل واسحق وأبو عبيد وقال الحسن البصرى ومقاتل بن حيان وعمر بن عبد العزيز وسعيد بن جبير والنخعى والزهرى وابن زيد انهم المكاتبون يعانون من الصدقة على مال الكتابة وهو قول الشافعى وأكثر الفقهاء وأصحاب الرأى ورواية عن مالك وبه قال سعيد ابن جبير والضحاك والزهرى والليث ويدل عليه أيضا قوله تعالى وآتوهم من مال الله الذى آتاكم والاولى حمل ما فى الآية على القولين جميعا لصدق الرقاب على شراء العبد واعتاقه وعلى اعانة المكاتب على مال الكتابة (والغارمين) هم الذين ركبتهم الديون ولا وفاء عندهم بها ولا خلاف فى ذلك الا من لزمه دين فى سفاهة فانه لا يعطى منها ولا من غيرها الا أن يتوب وقد أعان النبى صلى الله عليه وسلم من الصدقة من تحمل حمالة وأرشد الى اعانته منها وقال السيوطى ولاصلاح ذات البين ولو أغنياء اذا استدانوا لذلك وأصل الغرم فى اللغة لزوم ما يشق على النفس وسمى الدين غرما لكونه شاقا على الانسان ومنه قيل للعشق غرام ويعبر به عن الهلاك فى قوله تعالى ان عذابها كان غراما وغرامة المال فيه مشقة عظيمة (وفى سبيل الله) هم الغزاة والمرابطون يعطون من الصدقة ما ينفقون فى غزوهم ومرابطتهم وان كانوا أغنياء وهذا قول أكثر العلماء وقال ابن عمر هم الحجاج والعمار وروى عن أحمد واسحق انهما جعلا الحج من سبيل الله وقال أبو حنيفة وصاحباه لا يعطى الغازى الا اذا كان فقيرا منقطعا به وقيل ان اللفظ عام فلا يجوز قصره على نوع خاص ويدخل فيه جميع وجوه الخير من تكفين الموتى وبناء الجسور والحصون وعمارة المساجد وغير ذلك والاول أولى لاجماع الجمهور عليه (وابن السبيل) هو المسافر والسبيل الطريق ونسب اليها المسافر لملازمته اياها والمراد الذى انقطعت به الاسباب فى سفره عن بلده ومستقره فانه يعطى منها وان كان غنيا فى بلده وان وجد من يسلفه وقال مالك اذا وجد من يسلفه فلا يعطى وقال قتادة هو الضيف وقال فقهاء العراق هو الحاج المنقطع فى سفره والاول أولى أخرج ابن أبى شيبة وأبو داود وابن ماجه وابن المنذر وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا تحل الصدقة لغنى الا لخمسة العامل عليها أو الرجل اشتراها بماله أو غارم أو غاز فى سبيل الله أو مسكين تصدق عليه فأهدى منها الغنى وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود والنسائى عن

القيامة فيقال هذه غدرة فلان بن فلان والحكمة فى هذا انه لما كان الغدر خفيا لا يطلع عليه الناس فيوم القيامة يصير علما منشورا على صاحبه بما فعل (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) يقول تعالى فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام أى ييسره له وينشطه ويسهله لذلك فهذه علامات على الخير كقوله تعالى أفمن شرح الله (١٢٥) صدره للاسلام فهو على نور من ربه الآية وقال تعالى ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام يقول تعالى يوسع قلبه للتوحيد والايمان به وكذا قال أبو مالك وغير واحد وهو ظاهر وقال عبد الرزاق أخبرنا الثورى عن عمرو بن قيس عن عمرو بن مرة عن أبى جعفر قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى المؤمنين أكيس قال أكثرهم ذكرا للموت وأكثرهم لما بعده استعدادا قال وسئل النبى صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام قالوا كيف يشرح صدره يارسول الله قال نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح قالوا فهل لذلك من أمارة يعرف بها قال الانابة الى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقاء الموت وقال ابن جرير حدثنا هناد حدثنا قبيصة عن سفيان يعنى الثورى عن عمرو بن مرة عن رجل يكنى أبا جعفر كان يسكن المدائن قال سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى فمن يرد الله أن يهديه فذكر نحو ما تقدم قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا أبو ادريس عن الحسن بن الفرات القزاز عن عمرو بن مرة عن أبى جعفر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دخل الايمان القلب انفسح له القلب وانشرح قالوا يارسول الله هل لذلك من أمارة قال نعم الانابة الى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل الموت وقد رواه ابن جرير عن سوار بن عبد الله العنبرى حدثنا المعتمر بن

عبد الله بن عدى بن الخيار قال أخبرنى رجلان انهما أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع وهو يقسم الصدقة فسألاه منها فرفع فينا البصر وخفضه فرآنا جلدين فقال ان شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغنى ولا لقوى مكتسب (فريضة من الله) مصدر مؤكد لان قوله انما الصدقات للفقراء معناه فرض الله الصدقات لهم والمعنى ان كون الصدقات مقصورة على هذه الاصناف هو حكم لازم فرضه الله على عباده ونهاهم عن مجاوزته وقيل انها حال من الفقراء قاله الكرمانى وأبو البقاء أى كائنة لهم حال كونها فريضة أى مصروفة أو هى بمعنى مفروضة أو مصدر وقع موقع الحال قال فى الكشاف فان قلت لم عدل عن اللام الى فى فى الاربعة الآخرة قلت للايذان بانهم أرسخ فى استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره وقيل النكتة فى العدول ان الاصناف الاربعة الاول يصرف المال اليهم حتى يتصرفوا به كما شاؤا وفى الاربعة الاخيرة لا يصرف المال اليهم بل يصرف الى جهات الحاجات المعتبرة فى الصفات التى لأجلها استحقوا سهم الزكاة (والله عليم) بمصالح عباده (حكيم) فيما فرض لهم لا يدخل فى تدبيره وحكمه نقص ولا خلل قال السيوطى فلا يجوز صرفها لغير هؤلاء ولا منع صنف منهم اذا وجد فيقسمها الامام عليهم على السواء وله تفضيل بعض آحاد الصنف على بعض وأفادت اللام وجوب استغراق افراده اه وهو ظاهر الآية وقال الرازى لا دلالة فى الآية على قول الشافعى فى انه لا بد من صرفها الى الاصناف وقد أشار الى ذلك القاضى ورد عليه بعض الشيوخ وقال ظاهر الآية يؤيد قوله وتمام البحث فى الجمل (ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن) هذا نوع آخر مما حكاه الله من فضائح المنافقين وقبائحهم وذلك انهم كانوا يقولون للنبى صلى الله عليه وآله وسلم على وجه الطعن والذم هو أذن قال الجوهرى يقال رجل اذن اذا كان يسمع مقال كل أحد يستوى فيه الواحد والجمع ومرادهم أقماهم الله انهم اذا آذوا النبى صلى الله عليه وآله وسلم وبسطوا فيه ألسنتهم وبلغه ذلك اعتذروا له وقبل ذلك منهم لانه يسمع كل ما يقال له فيصدقه وانما أطلقت العرب على من يسمع ما يقال له فيصدقه انه أذن مبالغة لانهم سموه بالجارحة التى هى آلة السماع حتى كأن جملته أذن سامعة ونظيره قولهم للربيئة أى الطليعة عين وفى اطلاق الاذن عليه مجاز مرسل من اطلاق اسم الجزء على الكل للمبالغة فى استماعه وايذاؤهم له هو قولهم أذن لانهم نسبوه الى أنه يصدق كل ما يقال له

سليمان سمعت أبي يحدث عن عبدالله بن مرة عن عبدالله بن المسور قال تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآيات فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام قالوا يارسول الله ماهذا الشرح قال نور يقذف به في القلب قالوا يارسول الله فهل لذلك من امارة قال نعم قالوا وماهي قال الانابة الى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل الموت وقال ابن جرير أيضا حدثني هلال بن العلاء حدثنا سعيد بن عبد الملك بن واقد حدثنا محمد بن سلم عن أبي عبد الرحمن عن زيد بن أبي أنيسة عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة بن عبدالله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دخل النور القلب انفسح وانشرح

قالوا فهل لذلك من علامة يعرف بها قال الانابة الى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقي الموت وقد رواه من وجه آخر عن ابن مسعود متصلا مرفوعا فقال حدثني ابن سنان القزاز حدثنا محبوب بن الحسن الهاشمي عن يونس بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عتبة عن عبدالله بن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام قالوا يارسول الله وكيف يشرح صدره قال يدخل فيه النور فينفسح قالوا وهل لذلك علامة يارسول الله قال التجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل ان ينزل الموت فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضا والله أعلم وقوله تعالى ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا قرئ بفتح الضاد وتسكين الياء والاكثرون ضيقا بتشديد الياء وكسرها وهما لغتان كهين وهين وقرأ بعضهم حرجا بفتح الحاء وكسر الراء قيل بمعنى آثم وقال السدي وقيل بمعنى القراءة الاخرى حرجا بفتح الحاء والراء وهو الذي لا يتسع لشيء من الهدى ولا يخلص اليه شيء ما ينفعه من الايمان ولا ينفذ فيه وقد سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلا من الاعراب من أهل البادية من مدلج عن الحرجة فقال هي الشجرة تكون بين الاشجار لا تصل اليها راعية ولا وحشية ولا شيء فقال عمر رضي الله عنه كذلك قلب المنافق لا يصل اليه شيء من الخير وقال العوفي عن ابن عباس يجعل الله عليه الاسلام ضيقا والاسلام واسع وذلك حين يقول وما جعل عليكم في الدين من حرج يقول ما جعل عليكم في الاسلام من ضيق وقال مجاهد والسدي ضيقا حرجا شاكا وقال عطاء الخراساني ضيقا حرجا أي ليس للخير فيه

ولا يفرق بين الصحيح والباطل اغترارا منهم بحلمه عنهم وصفحه عن جناياتهم كرما وحلما وتغاضيا ثم أجاب الله عن قولهم هذا فقال (قل) هو (أذن خير) بالاضافة وقرئ بالتنوين كأنه قيل نعم هو أذن ولكن نعم الأذن هو ولكونه أذن خير (لكم) وليس بأذن في غير ذلك كقولهم رجل صدق يريدون الجودة والصلاح والمعنى انه يسمع الخير ولا يسمع الشر (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) أي يصدق بالله ويصدق المؤمنين لما علم فيهم من خلوص الايمان ويقبل قولهم ويسلم ويرضى لهم ولا يقبل قول المنافقين واللام زائدة للفرق بين ايمان الأمان من الخلود في النار وهو الايمان المقابل للكفر وحقه ان يعدى بالباء وبين ايمان التسليم والتصديق فانه يعدى باللام وان كان حقه ان يعدى بنفسه كالتصديق وهذا موافق لكثير من الآيات كقوله وما أنت بمؤمن لنا وقوله أن يؤمنوا لكم وقوله أنؤمن لك وأما قوله آمنتم له قبل أن آذن لكم وقوله آمنتم به فمشترك الدلالة بين الايمان بموسى والايمان بالله لان من آمن بموسى حقيقة آمن بالله كعكسه (ورحمة) أي وانه رحمة لهم وقرئ رحمة بالخفض واستبعده النحاس عند أهل العربية والمعنى ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أذن خير للمنافقين ورحمة لهم حيث لم يكشف أسرارهم ولم يهتك أستارهم ولا فضحهم فكأنه قال هو أذن كما قلتم لكنه أذن خير لكم لا أذن سوء فسلم لهم قولهم فيه الا انه فسره بما هو مدح له وثناء عليه وان كانوا قصدوا به المذمة والتقصير بفطنته (للذين آمنوا منكم) أي أظهروا الايمان وان لم يكونوا مؤمنين حقيقة (والذين يؤذون رسول الله) صلى الله عليه وآله وسلم لما تقدم من قولهم هو أذن ونحو ذلك مما يصدق عليه انه أذية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (لهم عذاب أليم) أي شديد الألم عن ابن عباس قال كان نبتل بن الحرث يأتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيجلس اليه ويسمع منه ثم ينقل حديثه الى المنافقين وهو الذي قال لهم انما محمد أذن من حدثه بشيء صدقه فأنزل الله فيه هذه الآية وعن عمير بن سعد قال في أنزلت هذه الآية وذلك ان عميرا كان يسمع أحاديث أهل المدينة فيأتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيساره حتى كانوا يتأذون بعمير بن سعد وكرهوا مجالسته وقالوا هو أذن فأنزلت فيه (يحلفون بالله لكم ليرضوكم) الخطاب للمؤمنين وذلك ان المنافقين كانوا في خلواتهم يطعنون على المؤمنين وعلى النبي

صلى

منفذ وقال ابن المبارك عن ابن جريج ضيقا حرجا بلا اله الا الله حتى لا يستطيع أن تدخل قلبه كأنما يصعد في السماء من شدة ذلك عليه وقال سعيد بن جبير يجعل صدره ضيقا حرجا قال لا يجد فيه مسلكا ولا مصعدا وقال السدي كأنما يصعد في السماء من ضيق صدره وقال عطاء الخراساني كأنما يصعد في السماء يقول مثله كمثل الذي لا يستطيع أن يصعد الى السماء وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس كأنما يصعد في السماء يقول فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والايمان قلبه حتى يدخله الله في قلبه وقال الاوزاعي كأنما يصعد في السماء كيف يستطيع من جعل الله صدره ميتا أن يكون مسلما وقال الامام أبو جعفر بن جرير وهذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر في شدة ضيقه عن وصول الايمان اليه يقول فمثله في امتناعه عن قبول الايمان وضيقه عن وصوله اليه مثل امتناعه عن الصعود الى السماء وعجزه عنه لانه ليس في وسعه وطاقته وقال في قوله كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون يقول كما يجعل الله صدر من أراد اضلاله ضيقا حرجا كذلك يسلط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الايمان بالله ورسوله فيغويه ويصده عن سبيل الله وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس الرجس الشيطان وقال مجاهد الرجس كل ما لا خير فيه وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم الرجس العذاب (وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون) لما ذكر تعالى طريق الضالين عن سبيله الصادين عنها نبه على أشرف ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق فقال تعالى وهذا صراط ربك مستقيما منصوب على الحال أي هذا الدين الذي شرعناه لك يا محمد بما أوحينا اليك هذا القرآن هو صراط الله المستقيم كما تقدم في حديث الحرث عن علي في نعت القرآن هو صراط الله المستقيم وحبل الله المتين وهو الذكر الحكيم رواه أحمد والترمذي بطوله قد فصلنا الآيات أي وضحناها وبيناها وفسرناها لقوم يذكرون أي لمن له فهم ووعي يعقل عن الله ورسوله لهم دار السلام وهي الجنة عند ربهم أي يوم القيامة وانما وصف الجنة ههنا بدار السلام لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم المقتفي أثر الانبياء وطرائقهم فكما سلموا من

صلى الله عليه وآله وسلم فاذا بلغ ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والى المؤمنين جاء المنافقون فحلفوا على أنهم لم يقولوا ما بلغ عنهم قاصدين بهذه الأيمان الكاذبة ان يرضوا رسول الله ومن معه من المؤمنين فنعى الله ذلك عليهم فقال (والله ورسوله أحق أن يرضوه) من ارضاء المؤمنين بالأيمان الكاذبة فانهم لو اتقوا الله وتركوا النفاق لكان ذلك أولى لهم وافراد الضمير في يرضوه اما للتعظيم للجناب الالهي بافراده بالذكر أو لكونه لا فرق بين ارضاء الله وارضاء رسوله فارضاء الله ارضاء لرسوله أو المراد الله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك كما قال سيبويه ورجحه النحاس أو لان الضمير موضوع موضع الاشارة فانه يشار به الى الواحد والمتعدد أو الضمير راجع الى المذكور وهو يصدق عليهما وقال الفراء المعنى ورسوله أحق أن يرضوه والله افتتاح كلام كما تقول ما شاء الله وشئت وجواب (ان كانوا مؤمنين) محذوف أي فليرضوا الله ورسوله فانهما أحق بالارضاء ولا يكون ذلك الا بالطاعة والمتابعة وايفاء الحقوق في باب الاجلال والاعظام مشهدا ومغيبا (ألم يعلموا) أي أولئك المنافقون والاستفهام للتوبيخ على ما أقدموا عليه من الجريمة العظيمة مع علمهم بسوء عاقبتها أي ألم يعلموا بما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من فنون القوارع والانذارات وقرئ بالتاء على الالتفات لزيادة التقريع والتوبيخ قال الخازن قال أهل المعاني ألم تعلم خطاب لمن علم شيأ ثم نسيه أو أنكره فيقال له ألم تعلم انه كان كذا وكذا ولما طال مكث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين أظهر المؤمنين والمنافقين وعلمهم من أحكام الدين ما يحتاجون اليه خاطب المنافقين بقوله ألم تعلموا يعني من شرائع الدين التي علمهم رسولنا (أنه من يحادد الله) أي يخالفه (و) يخاصم (رسوله) وأصل المحاددة في اللغة وقوع هذا في حد وذلك في حد كالمشاقة يقال حاد فلان فلانا أي صار في حد غير حده وكأن كل واحد من المتخاصمين صار في محل غير محل صاحبه (فان له) أي فحق ان له وقال الاخفش المعنى فوجوب النار له وأنكره المبرد وقال هذا خطأ (نار جهنم) جزاء (خالدا فيها) على الدوام (ذلك) أي ما ذكر من العذاب (الخزي العظيم) أي البالغ الى الغاية التي لا يبلغ اليها غيره وهو الذل والهوان (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة) قيل هو خبر وليس بأمر وقال الزجاج معناه ليحذر والمعنى على الاول ان المنافقين كانوا يحذرون نزول القرآن فيهم خوفا من الفضيحة وعلى الثاني الامر لهم بأن يحذروا ذلك ومعنى عليهم

آفات الاعوجاج أفضوا الى دار السلام وهو وليهم أى والسلام وهو الله وليهم أى حافظهم وناصرهم ومؤيدهم بما كانوا يعملون أى جزاء على أعمالهم الصالحة تولاهم وأثابهم الجنة بمنه وكرمه (ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله ان ربك حكيم عليم) يقول تعالى واذكر يا محمد فيما تقصه (١٢٨) عليهم وتنذرهم به يوم نحشرهم جميعا يعنى الجن وأولياءهم من الانس الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا ويعوذون بهم ويطيعونهم ويوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس أى تقول يا معشر الجن وسياق الكلام يدل على المحذوف ومعنى قوله قد استكثرتم من الانس أى من اغوائهم واضلالهم كقوله تعالى ألم أعهد اليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس يعنى أضللتم منهم كثيرا وكذلك قال مجاهد والحسن وقتادة وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض يعنى ان أولياء الجن من الانس قالوا مجيبين لله تعالى عن ذلك بهذا قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو الاشهب هوذة بن خليفة حدثنا عوف عن الحسن فى هذه الآية قال استكثرتم ربكم من أهل النار يوم القيامة فقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض قال الحسن وما كان استمتاع بعضهم ببعض الا أن الجن أمرت وعملت الانس وقال محمد بن كعب فى قوله ربنا استمتع بعضنا ببعض قال الصحابة فى الدنيا وقال ابن جرير كان الرجل من الجاهلية ينزل الارض فيقول أعوذ بكبير هذا الوادى فذلك استمتاعهم فاعتذروا يوم القيامة وأما استمتاع الجن بالانس فانه كان فيما ذكر ما ينال الجن من الانس من تعظيمهم اياهم فى استعانتهم بهم فيقولون قد سدنا الانس والجن وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا قال السدى يعنى الموت قال النار مثواكم أى مأواكم ومنزلكم أنتم واياهم خالدين فيها أى ماكثين فيها مكثا مخلدا الا ما شاء الله قال بعضهم

ثامنة

على المؤمنين فى شأن المنافقين على ان الضمير للمؤمنين ولا يبالى بتفكيك الضمائر عند ظهور الامر لعود المعنى اليه قاله الكرخى والاولى أن يكون الضمير للمنافقين أى فى شأنهم (تنبئهم) أى المنافقين (بما فى قلوبهم) مما يسرونه فضلا عما يظهرونه وهم وان كانوا عالمين بما فى قلوبهم فالمراد من انباء السورة لهم اطلاعهم على ان المؤمنين قد علموا بما فى قلوبهم قال قتادة وهذه السورة كانت تسمى الفاضحة والمبعثرة والمثيرة لانها فضحت المنافقين وبعثرت عن أخبارهم واثارتها وأسفرت عن مخازيهم ومثالبهم ثم أمر الله رسوله بأن يجيب عليهم فقال (قل استهزؤا) هو أمر تهديد أى افعلوا الاستهزاء (ان الله مخرج ما تحذرون) من ظهوره حتى يطلع عليه المؤمنون اما بانزال سورة أو باخبار رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك أو نحو ذلك (ولئن) لام قسم أى والله لئن (سألتهم) عما قالوه من الطعن فى الدين وثلب المؤمنين وهم سائرون معك الى تبوك بعد أن يبلغ اليك ذلك ويطلعك الله عليه (ليقولن انما كنا نخوض ونلعب) فى الحديث لنقطع به الطريق ولم نقصد ذلك ولم يكن فى شئ من أمرك ولا أمر المؤمنين ثم أمره الله أن يجيب عنهم فقال (قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن) الاستفهام للتقريع والتوبيخ وأثبت وقوع ذلك منهم ولم يعبأ بانكارهم لانهم كانوا كاذبين فى الانكار بل جعلهم كالمعترفين بوقوع ذلك منهم حيث جعل المستهزأ به واليا لحرف النفى فان ذلك انما يكون بعد وقوع الاستهزاء وثبوته ثم قال (لا تعتذروا) نهيا لهم عن الاشتغال بالاعتذارات الباطلة فان ذلك غير مقبول منهم وقد نقل الواقدى عن أئمة اللغة ان معنى الاعتذار محو أثر الذنب وقطعه من قولهم اعتذر المنزل اذا درس واعتذرت المياه اذا انقطعت (قد كفرتم) أى أظهرتم الكفر بما وقع منكم من الاستهزاء المذكور وفيه ان محمدا يزعم انه نزل فى أصحابنا قرآن وانما هو قوله وكلامه فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم على قولهم (بعد ايمانكم) أى بعد اظهاركم الايمان مع كونكم تبطنون الكفر (ان نعف عن طائفة منكم) وهم من أخلص الايمان وترك النفاق وتاب عنه كجحش بن حمير قال الزجاج الطائفة فى اللغة الجماعة قال ابن الانبارى ويطلق لفظ الجمع على الواحد عند العرب (نعذب طائفة بانهم) أى بسبب انهم (كانوا مجرمين) مصرين على النفاق لم يتوبوا منه (المنافقون) وكانوا

يرجع معنى الاستثناء الى البرزخ وقال بعضهم هذا رد الى مدة الدنيا وقيل غير ذلك من الاقوال التي سيأتي تقريرها عند قوله تعالى في سورة هود خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك ان ربك فعال لما يريد وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية من طريق عبد الله بن صالح كاتب الليث حدثني معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله ان ربك حكيم عليم قال ان هذه الآية آية لا ينبغي لاحد أن يحكم على الله في خلقه ولا ينزلهم جنة ولا نارا (وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون) (١٢٩) قال سعيد عن قتادة في تفسيرها انما يولي

ثلثمائة (والمنافقات) وكن مائة وسبعين (بعضهم من بعض) أي متشابهون في الدين كأبعاض الشيء الواحد ذكر ههنا جملة أحوال المنافقين وان ذكورهم في ذلك كاناثهم وانهم متناهون في النفاق والبعد عن الايمان وفيه اشارة الى نفي أن يكونوا من المؤمنين ورد لقولهم ويحلفون بالله انهم لمنكم ثم فصل ذلك المجمل ببيان مضادة حالهم لحال المنافقين فقال (يأمرون) أي يأمر بعضهم بعضا (بالمنكر) هو كل قبيح عقلا أو شرعا (وينهون عن المعروف) هو كل حسن عقلا أو شرعا قال الزجاج هذا متصل بقوله يحلفون بالله انهم لمنكم وما هم منكم أي ليسوا من المؤمنين ولكن بعضهم من بعض أي متشابهون في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف (ويقبضون أيديهم) أي يشحون فيما ينبغي اخراجه من المال في الصدقة والصلة والجهاد فالقبض كناية عن الشح كما ان البسط كناية عن الكرم (نسوا الله فنسيهم) النسيان الترك أي تركوا ما أمرهم به فتركهم من رحمته وفضله أو تركوا ذكر الله وعبادته فترك الله ذكرهم فيمن ذكرهم بالرحمة والاحسان لان النسيان الحقيقي لا يصح اطلاقه على الله سبحانه وانما أطلق عليه هنا من باب المشاكلة المعروفة في علم البيان فهو مجاز مرسل ثم حكم عليهم بالفسق فقال (ان المنافقين هم الفاسقون) الفسق الخروج عن طاعة الله الى معاصيه والانسلاخ من كل خير وهذا التركيب يفيد انهم هم الكاملون في الفسق والتمرد والاظهار في موضع الاضمار لزيادة التقرير أو للاهانة والتحقير فان الاظهار كما يأتي للتعظيم يأتي للتحقير كما نص عليه بعضهم (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار) يقال وعد في الخير والشر والاختلاف انما هو بالمصدر فمصدر الاول وعد ومصدر الثاني وعيد فاستعمل وعد في الشر كما هنا وفي الخير فيما سيأتي في قوله وعد الله المؤمنين ثم بين مآل حال أهل النفاق والكفر بأنهم (نار جهنم خالدين) أي يصلونها مقيمين (فيها) مقدرين الخلود (هي) أي النار (حسبهم) أي كافيهم جزاء وعقابا لا يحتاجون الى زيادة على عذابها (ولعنهم الله) أي ومع ذلك فقد طردهم عن بابه وأبعدهم عن رحمته (ولهم عذاب مقيم) أي نوع آخر من العذاب غير النار دائم لا ينفك عنهم كالزمهرير أو عذاب في الدنيا وهو ما يقاسونه من تعب النفاق اذ هم دائما في حذر من أن يطلع المسلمون على نفاقهم (كالذين من قبلكم) شبه حال المنافقين بالكفار الذين كانوا من قبلهم ملتفتا من الغيبة

الله الناس بأعمالهم فالمؤمن ولي المؤمن من أين كان وحيث كان والكافر ولي الكافر أينما كان وحيثما كان ليس الايمان بالتمني ولا بالتحلي واختاره ابن جرير وقال معمر عن قتادة في تفسير الآية يولي الله بعض الظالمين بعضا في النار يتبع بعضهم بعضا وقال مالك بن دينار قرأت في الزبور اني أنتقم من المنافقين بالمنافقين ثم أنتقم من المنافقين جميعا وذلك في كتاب الله قول الله تعالى وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا قال ظالمي الانس وظالمي الجن وقرأ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وقال ابن زيد في الآية ظالمي الجن وظالمي الانس وقرأ ومن يعش عن ذكر الرحمن الآية قال ونسلط ظلمة الجن على ظلمة الانس وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الباقي بن أحمد من طريق سعيد بن عبد الجبار الكرابيسي عن حماد بن سلمة عن عاصم عن زر عن ابن مسعود مرفوعا ومن أعان ظالما سلطه الله عليه وهذا حديث غريب وقال بعض الشعراء

وما من يد الا يد الله فوقها * وما ظالم الا سيبلى بظالم

ومعنى الآية الكريمة كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الانس تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن كذلك نفعل بالظالمين نسلط بعضهم على بعض ونهلك بعضهم ببعض وننتقم من بعضهم ببعض جزاء على ظلمهم وبغيهم (يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم انهم كانوا كافرين) وهذا أيضا مما يقرع الله به كافري الجن والانس من تقريعهم يوم القيامة حيث يسألهم وهو أعلم هل بلغتهم الرسل رسالته

وهذا استفهام تقرير يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم أى من جملتكم والرسل من الانس فقط وليس من الجن رسل كما قدنص على ذلك مجاهد وابن جريج وغير واحد من الأئمة من السلف والخلف قال ابن عباس الرسل من بنى آدم ومن الجن نذر وحكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم انه زعم ان فى الجن رسلا واحتج بهذه الآية الكريمة وفيه نظر لانها محتملة ليست بصريحة وهى والله أعلم كقوله مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان فبأى آلاء ربكما تكذبان الى أن قال يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ومعلوم ان اللؤلؤ والمرجان انما يستخرج (١٣٠) من الملح لا من الحلو وهذا واضح ولله الحمد وقد ذكر هذا الجواب بعينه ابن جرير والدليل على ان الرسل من الانس قوله تعالى انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده الى قوله رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وقوله تعالى عن ابراهيم وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب فحصر النبوة والكتاب بعد ابراهيم فى ذريته ولم يقل أحد من الناس ان النبوة كانت فى الجن قبل ابراهيم الخليل ثم انقطعت عنهم ببعثته وقال تعالى وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الاسواق وقال وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم من أهل القرى ومعلوم ان الجن تبع للانس فى هذا الباب ولهذا قال تعالى اخبارا عنهم واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين قالوا ياقومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الارض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين وقد جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى وغيره ان رسول الله الخامس

صلى الله عليه وسلم تلا عليهم سورة الرحمن وفيها قوله تعالى سنفرغ لكم أيها الثقلان فبأى آلاء ربكما تكذبان وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم وقوله تعالى يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا أى أقررنا على أنفسنا ان الرسل قد بلغونا رسالاتك وأنذرونا لقاءك وان هذا اليوم كائن لا محالة وقال تعالى وغرتهم الحياة الدنيا أى وقد فرطوا فى حياتهم وهلكوا فيها بتكذيب الرسل ومخالفتهم للمعجزات لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا وزينتها

الى الخطاب أى أنتم مثل الناس قبلكم أو المعنى فعلتم مثل فعل الذين مضوا من قبلكم من الأمم وقال الزجاج التقدير وعد الله الكفار نار جهنم وعدا كما وعد الذين من قبلهم وقيل المعنى فعلتم كأفعال الذين من قبلكم فى ترك الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وقبض الايدى ثم وصف حال هؤلاء الكفار الذين من قبلهم وبين وجه تشبيههم بهم وتمثيل حالهم بحالهم بأنهم (كانوا أشد منكم قوة) أى بطشا فى الابدان ومنعة من هؤلاء المنافقين والكفار المعاصرين للنبى صلى الله عليه وآله وسلم (وأكثر أموالا وأولادا منكم (فاستمتعوا) أى تمتعوا وفى صيغة الاستفعال ماليس فى صيغة التفعل من الاستزادة والاستدامة فى التمتع (بخلاقهم) أى نصيبهم الذى قدره الله لهم من ملاذ الدنيا وخاضوا فى الباطل واشتقاقه من الخلق بمعنى التقدير فانه ماقدر لصاحبه (فاستمتعتم أنتم (بخلاقكم) أى نصيبكم الذى قدره الله لكم (كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم) أى انتفعتم به كما انتفعوا به والغرض من هذا التمثيل ذم هؤلاء المنافقين والكفار بسبب مشابهتهم بمن قبلهم من الكفار فى الاستمتاع بما رزقهم الله من الشهوات الفانية والتشاغل بها عن السعى فى العاقبة والسعى فى تحصيل اللذائذ الحقيقية وقد قيل ما فائدة ذكر الاستمتاع بالخلاق فى حق الاولين مرة ثم ذكره فى حق المنافقين ثانيا ثم تكريره فى حق الاولين ثالثا أجيب بانه تعالى ذم الاولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا وشهواتها ورضاهم بها وحرمانهم عن سعادة الآخرة بسبب استغراقهم فى تلك الحظوظ الفانية فلما قرر تعالى هذا عاد فشبه حال المنافقين بحالهم فيكون ذلك نهاية فى المبالغة فى ذم المخاطبين وتقبيح حالهم ولم يسلك هذه الطريقة فى التشبيه الثانى وهو قوله وخضتم حيث لم يقل وخاضوا وخضتم كخوضهم اكتفاء بالتقييد الاول فاستغنى عن ذكر التقييد فى التشبيه الثانى قال ابن عباس ما أشبه الليلة بالبارحة هؤلاء بنو اسرائيل أشبهناهم والذى نفسى بيده لتتبعنهم حتى لو دخل رجل جحر ضب لدخلتموه (وخضتم) فى الباطل وتلبستم به (كالذى خاضوا) أى خوضا كخوضهم أو كالذين خاضوا أو كالفوج الذى خاضوا أو كالخوض الذى خاضوه يقال خضت الماء أخوضه خوضا وخياضا والموضع مخاضة وهو ما جاز الناس فيه مشاة وركبانا وجمعها

وشهواتها وشهدوا على أنفسهم أي يوم القيامة انهم كانوا كافرين أي في الدنيا بما جاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم (ذلك ان لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون) يقول تعالى ذلك ان لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون أي انما أعذرنا الى الثقلين بارسال الرسل وانزال الكتب لئلا يؤاخذ أحد بظلمه وهو لم تبلغه دعوة ولكن أعذرنا الى الأمم وما عذبنا أحدا الا بعد ارسال الرسل اليهم ثم قال تعالى وان من قرية الا خلا فيها نذير وقال تعالى ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت كقوله (١٣١) وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وقال تعالى كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير والآيات في هذا كثيرة قال الامام أبو جعفر بن جرير ويحتمل قوله تعالى بظلم وجهين أحدهما ذلك من أجل ان لم يكن ربك ليهلك القرى بظلم أهلها بالشرك ونحوه وهم غافلون يقول لم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعث اليهم من ينبههم على حجج الله عليهم وينذرهم عذاب الله يوم معادهم ولم يكن بالذي يؤاخذهم غفلة فيقول ما جاءنا من بشير ولا نذير والوجه الثاني ان ذلك ان لم يكن ربك مهلك القرى بظلم يقول لم يكن ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسل والآيات والعبر فيظلمهم بذلك والله غير ظلام للعبيد ثم شرع يرجح الوجه الاول ولا شك انه أقوى والله أعلم قال وقوله تعالى ولكل درجات مما عملوا أي ولكل عامل من طاعة الله ومعصيته مراتب ومنازل من عمله يبلغه الله اياها ويثيبه بها ان خيرا فخير وان شرا فشر قلت ويحتمل أن يعود قوله ولكل درجات مما عملوا أي ولكل عامل من طاعة الله أو معصيته لكافري الجن والانس أي ولكل درجة في النار بحسبه كقوله قال لكل ضعف وقوله الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون وما ربك بغافل عما يعملون قال ابن جرير أي وكل ذلك يا محمد بعملهم بعلم من ربك يحصيها ويثبتها لهم عنده ليجازيهم عليها عند لقائهم اياه ومعادهم اليه (وربك الغني ذو الرحمة ان يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين انما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين قل يا قوم اعملوا على مكانتكم اني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار انه لا يفلح الظالمون) يقول تعالى وربك الغني أي عن جميع خلقه من جميع الوجوه وهم الفقراء اليه في جميع أحوالهم

المخاض والمخاوض ويقال منه خاض القوم في الحديث والمعنى خضتم في أسباب الدنيا واللهو واللعب وقيل في أمر محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالتكذيب ودخلتم في ذلك (أولئك) اشارة الى كل من المشبهين والمشبه بهم فهي لمجموع الفريقين (حبطت) بطلت (أعمالهم) أي ما عملوه مما هو في صورة طاعة لا هذه الاعمال المذكورة هنا فانها من المعاصي وعاقبتها غنية عن البيان (في الدنيا والآخرة) أي انها باطلة على كل حال أما بطلانها في الدنيا فلان ما يترتب على أعمالهم فيها من السعة والصحة وغير ذلك لا يحصل لهم بل يصير ما يرجونه من الغنى فقرا ومن العز ذلا ومن القوة ضعفا وأما في الآخرة فلانهم يصيرون الى عذاب النار ولا ينتفعون بشيء مما عملوه من الاعمال التي يظنونها طاعة وقربة (وأولئك هم الخاسرون) أي المتمكنون في الخسران الكاملون فيه في الدنيا والآخرة (ألم يأتهم) أي المنافقين رجوع الى الغيبة عن الخطاب ففيه التفات وهو استفهام بمعنى التقرير والتحذير أي قد أتاهم (نبأ الذين من قبلهم) أي خبرهم الذي له شأن وهو ما فعلوه من التكذيب وما فعل بهم من الاهلاك ولما شبه حالهم بحالهم فيما سلف على الاجمال في المشبه بهم ذكرتهم ههنا ست طوائف قد سمع العرب اخبارهم لان آثارهم باقية وبلادهم بالشام والعراق واليمن وكل ذلك قريب من أرض العرب فكانوا يمرون عليهم ويعرفون اخبارهم (قوم نوح) وقد هلكوا بالاغراق وأهلكوا بالطوفان وهم أولهم (و) ثانيهم قوم (عاد) وقد أهلكوا بالريح العقيم (و) ثالثهم قوم (ثمود) وقد أخذوا بالصيحة وأهلكوا بالرجفة (وقوم ابراهيم) وقد سلط الله عليهم البعوض وقيل أهلكوا بسلب النعمة عنهم وهم رابعهم (وأصحاب مدين) وهم قوم شعيب وقد أخذتهم الرجفة وأهلكوا بعذاب يوم الظلة وهي غمامة أطبقت عليهم وهم خامسهم (و) سادسهم أصحاب (المؤتفكات) وهي قرى قوم لوط وقد أهلكهم الله بما أمطر عليهم من الحجارة فان كانت مرادة به فهي على حقيقتها وان كان المراد مطلق قرى المكذبين وهي لم تخسف بأجمعها فيكون المراد به مجازا انقلاب حالها من الخير الى الشر تشبيها له بالخسف على طريق الاستعارة كقول ابن الرومي

وما الخسف ان تلقى أسافل بلدة * أعاليها بل ان تسود الاراذل

وهي بدل من الذين بدل بعض من كل فقوله وعاد الى آخر المعطوفات كلها على قوم نوح

ذو الرحمة أي هو مع ذلك رحيم بهم رؤف كما قال تعالى ان الله بالناس لرؤف رحيم ان يشأ يذهبكم أي اذا خالفتم أمره ويستخلف من بعدكم ما يشاء أي قوما آخرين أي يعملون بطاعته كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين هو قادر على ذلك سهل عليه يسير لديه كما أذهب القرن الاول وأتى بالذي بعده كذلك هو قادر على اذهاب هؤلاء والاتيان بآخرين كما قال تعالى ان يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا وقال تعالى يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز وقال تعالى والله الغني وأنتم الفقراء وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم وقال محمد بن اسحق عن يعقوب بن عتبة قال سمعت أبان ابن عثمان يقول في هذه الآية كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين الذرية الاصل والذرية النسل وقوله تعالى انما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين أي أخبرهم يا محمد أن الذي يوعدون به من أمر المعاد كائن لا محالة وما أنتم بمعجزين أي ولا تعجزون الله بل هو قادر على اعادتكم وان صرتم ترابا رفاتا وعظاما قادر لا يعجزه شيء قال ابن أبي حاتم في تفسيرها حدثنا أبي حدثنا محمد بن المصفى حدثنا محمد بن حمير عن أبي بكر بن أبي مريم عن عطاء بن أبي رباح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال مرفوعا يا بني آدم ان كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى والذي نفسي بيده انما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين وقوله تعالى قل يا قوم اعملوا على مكانتكم اني عامل فسوف تعلمون هذا تهديد شديد ووعيد أكيد أي استمروا على طريقتكم وناحيتكم ان كنتم تظنون أنكم على هدى فاستمروا على طريقتكم وناحيتكم فأنا مستمر على طريقتي ومنهجي كقوله وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم انا عاملون وانتظروا انا منتظرون قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس على مكانتكم ناحيتكم فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار انه لا يفلح الظالمون أي أتكون لي أو لكم وقد أنجز الله موعده لرسوله صلوات الله عليه أي فانه تعالى مكن له البلاد وحكمه في نواصي مخالفيه من العباد وفتح له مكة وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناواه واستقر أمره على سائر جزيرة العرب وكذلك اليمن والبحرين وكل ذلك في حياته ثم فتحت الامصار والاقاليم والرساتيق بعد وفاته في أيام خلفائه رضي الله عنهم أجمعين كما قال الله تعالى كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ان الله قوي عزيز وقال انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة

لا على نوح غير ان الاخير وهو المؤتفكات على حذف مضاف كما قدرنا أي أهل القرى وليست من الذين خلوا حتى تكون من جملة البدل وسميت مؤتفكات لانها انقلبت بهم حتى صار عاليها سافلها والائتفاك الانقلاب يقال أفكه اذا قلبه وبابه ضرب ويقال أفكته فائتفك أي قلبته فانقلب والمادة تدل على التحول والصرف ومنه يؤفك عنه من أفك أي يصرف (أتتهم) استئناف لبيان نبأهم (رسلهم) أي رسل هذه الطوائف الست وقيل رسل أصحاب المؤتفكات لان رسولهم لوط وقد بعث الى كل قرية من قراهم رسولا (بالبينات) أي المعجزات الباهرات والحجج الواضحات الدالة على صدقهم فكذبوهم وخالفوا أمرنا فاحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم والفاء في (فما كان الله ليظلمهم) للعطف على مقدر يدل عليه الكلام أي فكذبوهم فأهلكهم الله فما ظلمهم بذلك ولم يعجل العقوبة لهم لانه قد بعث اليهم رسله فأنذروهم وحذروهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بسبب ما فعلوه من الكفر بالله وعدم الانقياد لأنبيائه وهذا التركيب يدل على ان ظلمهم لانفسهم كان مستمرا وقيل تقديم المفعول لمجرد الاهتمام به مع مراعاة الفاصلة من غير قصد الى قصر المظلومية عليهم (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) أي قلوبهم متحدة في التوادد والتحابب والتعاطف واتفاق الكلمة والعون والنصر بسبب ما جمعهم من أمر الدين وضمهم من الايمان بالله قال ابن عباس آخاهم في الله يتحابون بجلال الله والولاية لله فظهر الفرق بين الفريقين ثم بين أوصافهم الحميدة كما بين أوصاف من قبلهم من المنافقين فقال (يأمرون بالمعروف) أي بما هو معروف في الشرع غير منكر ومن ذلك توحيد الله سبحانه وترك عبادة غيره (وينهون عن المنكر) أي عما هو منكر في الدين غير معروف أي جنس المعروف وجنس المنكر الشاملين لكل خير وشر وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من الاحاديث ما هو معروف (ويقيمون الصلاة) المفروضة ويقومون أركانها وحدودها فلا يزالون يذكرون الله سبحانه فهو في مقابلة ما سبق من قوله نسوا الله (ويؤتون الزكاة) الواجبة عليهم وهو في مقابلة قوله يقبضون أيديهم قيل خصصهما بالذكر من جملة العبادات لكونهما الركنين العظيمين فيما يتعلق بالابدان والاموال

الدنيا ويوم يقوم الاشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار وقال تعالى اخبارا عن رسله فاوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الارض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد وقال تعالى وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيأ الآية وقد فعل الله ذلك بهذه الامة وله الحمد والمنة أولا وآخرا وظاهرا وباطنا (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان (١٣٣) لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون) هذا ذم وتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعا وكفرا وشركا وجعلوا لله شركاء وجزأ من خلقه وهو خالق كل شئ سبحانه وتعالى ولهذا قال تعالى وجعلوا لله مما ذرأ أي مما خلق وبرأ من الحرث أي من الزرع والثمار والانعام نصيبا أي جزأ وقسما فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا وقوله فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم قال علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس أنه قال في تفسير هذه الآية ان أعداء الله كانوا اذا احرثوا حرثا أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منه جزأ وللوثن جزأ فما كان من حرث أو ثمرة أو شئ من نصيب الاوثان حفظوه وأحصوه وان سقط منه شئ فيما سمي للصمد ردوه الى ما جعلوه للوثن وان سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن فسقى شيأ جعلوه لله جعلوا ذلك للوثن وان سقط شئ من الحرث والثمرة الذي جعلوه لله فاختلط بالذي جعلوه للوثن قالوا هذا فقير ولم يردوه الى ما جعلوه لله وان سبقهم الماء الذي جعلوه لله فسقى ما سمي للوثن تركوه للوثن وكانوا يحرمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام فيجعلونه للاوثان ويزعمون انهم يحرمونه قربة لله فقال الله تعالى وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا الآية وهكذا قال مجاهد وقتادة والسدي وغير واحد وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في الآية كل شئ يجعلونه لله من ذبح يذبحونه لا يأكلونه أبدا حتى يذكروا معه أسماء الآلهة وما كان للآلهة لم يذكروا اسم الله معه وقرأ الآية حتى بلغ ساء ما يحكمون أي ساء ما يقسمون لانهم أخطؤا أولا في القسم لان الله تعالى هو رب كل شئ ومليكه وخالقه وله الملك وكل شئ له وفي تصرفه وتحت قدرته ومشيئته لا اله غيره ولا رب سواه ثم لما قسموا فيما

والاموال وقد تقدم معنى هذا (ويطيعون الله ورسوله) في جميع ما أمرهم بفعله أونهاهم بتركه وهذا في مقابلة وصف المنافقين بكمال الفسق والخروج عن الطاعة (أولئك) يعني المؤمنين والمؤمنات المتصفين بهذه الاوصاف الفاضلة (سيرحمهم الله) السين للمبالغة في انجاز الوعد والدلالة على تحقق ذلك وتقرره بمعونة المقام كما هنا اذ السين موضوعة للدلالة على الوقوع مع التأخير فاذا كان المقام ليس مقام تأخير لكونه بشارة ووعدا تمحضت لتأكيد الوقوع أي وقوع ما وعد به من الرحمة والرضوان وما أعد لهم من النعيم المقيم في الجنان (ان الله عزيز) لا يغالب ولا يعجزه شئ عن انجاز وعده ووعيده (حكيم) في أفعاله وأقواله لا يضع شيأ الا في محله وفيه ترغيب وترهيب وتعليل لقوله سيرحمهم الله ثم ذكر تفصيل ما يدخل تحت آثار الرحمة اجمالا باعتبار الرحمة في الدار الآخرة فقال (وعد الله المؤمنين والمؤمنات) أي كل مؤمن ومؤمنة (جنات تجري من تحتها الانهار) الاظهار في موضع الاضمار لزيادة التقرير والاشعار بعلية وصف الايمان للوعد المذكور ومعنى جري الانهار من تحت الجنات انها تجري تحت أشجارها وغرفها والمراد البساتين التي يتحير في حسنها الناظر (خالدين) أي مقدرين الخلود (فيها) وقد تقدم تحقيق الآية في البقرة (ومساكن) أي منازل يسكنون فيها من الدر والياقوت (طيبة) تستطيبها النفوس ويطيب فيها العيش (في جنات عدن) اقامة يقال عدن بالمكان اذا أقام به ومنه المعدن أي بساتين خلد وقيل هي أعلى الجنة وقيل أوسطها وقيل قصور من ذهب لا يدخلها الا نبي أو صديق أو شهيد وأخرج ابن أبي حاتم والطبري بسنده عن عمران وابن مردويه عن الحسن قال سألت عمران بن حصين وأبا هريرة عن تفسير قوله تعالى ومساكن طيبة في جنات عدن قالا على الخبير سقطت سألنا عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال قصر من لؤلؤة في الجنة في ذلك القصر سبعون دارا من ياقوتة حمراء في كل دار سبعون بيتا من زمردة خضراء في كل بيت سبعون سريرا على كل سرير سبعون فراشا من كل لون على كل فراش امرأة من الحور العين في كل بيت سبعون مائدة في كل مائدة سبعون لونا من كل طعام في كل بيت سبعون وصيفا ووصيفة فيعطي المؤمن من القوة في كل غداة واحدة ما يأتي على ذلك كله أجمع قلت ووصف الله الجنة هنا بأوصاف الاول جري الانهار من تحتها لميل الطبع اليها والثاني

زعموا القسمة الفاسدة لم يحفظوها بل جاروا فيها كقوله جل وعلا ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون وقال تعالى وجعلوا له من عباده جزأ ان الانسان لكفور مبين وقال تعالى ألكم الذكر وله الانثى وقوله تلك اذا قسمة ضيزى (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون) يقول تعالى وكما زينت لهم الشياطين أن يجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الاملاق ووأد البنات خشية العار قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وكذلك (١٣٤) زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم زينوا لهم قتل أولادهم وقال مجاهد شركاؤهم شياطينهم يأمرونهم أن يئدوا أولادهم خشية العيلة وقال السدي أمرتهم الشياطين أن يقتلوا البنات اما ليردوهم فيهلكوهم واما ليلبسوا عليهم دينهم أي فيخلطوا عليهم دينهم ونحو ذلك قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقتادة وهذا كقوله تعالى واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به الآية وكقوله واذا الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت وقد كانوا أيضا يقتلون الاولاد من الاملاق وهو الفقر أو خشية الاملاق ان يحصل لهم في تلف المال وقد نهاهم عن قتل أولادهم لذلك وانما كان هذا كله من تزيين الشياطين وشرعهم لهم ذلك قال تعالى ولو شاء الله ما فعلوه أي كل هذا واقع بمشيئته تعالى وارادته واختياره لذلك كونا وله الحكمة التامة في ذلك فلا يسئل عما يفعل وهم يسئلون فذرهم وما يفترون أي فدعهم واجتنبهم وما هم فيه فسيحكم الله بينك وبينهم (وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها الا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سياقتها سيجزيهم بما كانوا يفترون) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس الحجر الحرام مما حرموا من الوصيلة وتحريم ما حرموا وكذلك قال مجاهد والضحاك والسدي وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهما وقال قتادة وقالوا هذه أنعام وحرث حجر عليهم في أموالهم من الشياطين وتغليظ وتشديد ولم يكن من الله تعالى وقال زيد بن أسلم حجر انما احتجروها لآلهتهم وقال السدي لا يطعمها الا من نشاء بزعمهم يقولون حرام لا يطعم الا من شئنا وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى قل أرأيتم ما أنزل الله لكم

أنهم فيها خالدون لا يعتريهم فيها افناء ولا تغيير والثالث طيب مساكنهم الخالية عن الكدورات والرابع انها ذات عدن أي اقامة غير منقطعة هذا على ما هو معنى عدن لغة وقيل هو علم قال الرازي والحاصل ان في عدن قولين أحدهما انه اسم علم لموضع معين في الجنة والآثار والاخبار تقوي ذلك وقال الزمخشري انه علم بدليل قوله جنات عدن التي وعد الرحمن عباده والثاني أنه صفة للجنة بمعنى اقامة فبهذا الاشتقاق قالوا الجنات كلها عدن والاحاديث في صفة الجنات وأصنافها كثيرة وقد أوضحت المقام في كتابي مثير ساكن الغرام الى روضات دار السلام فليرجع اليه (ورضوان) حقير يسير (من الله أكبر) من ذلك كله الذي أعطاهم الله اياه اذ عليه يدور فوز كل خير وسعادة وبه يناط كل شرف وسيادة ولعل عدم نظمه في سلك الموعود به مع عزته في نفسه لانه متحقق في ضمن كل موعود ولانه مستمر في الدارين وفيه دليل على انه لا شيء من النعم وان جلت وعظمت يماثل رضوان الله سبحانه وان أدنى رضوان الله لا يساويه شيء من اللذات الجسمانية وان كانت على غاية ليس وراءها غاية اللهم ارض عنا رضا لا يشوبه سخط ولا يكدره نكد يا من بيده الخير دقه وجله (ذلك) أي ما تقدم مما وعد الله به المؤمنين والمؤمنات (هو الفوز العظيم) دون كل فوز مما يعده الناس فوزا من حطام الدنيا وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله يقول لاهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك فيقول هل رضيتم فيقولون ربنا ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعطه أحدا من خلقك فيقول الا أعطيكم أفضل من ذلك قالوا يا ربنا وأي شيء أفضل من ذلك قال أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين) الامر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الجهاد أمر لامته من بعده وجهاد الكفار يكون بمقاتلتهم بالسيف والسنان حتى يسلموا وجهاد المنافقين يكون باقامة الحجة عليهم باللسان والبيان حتى يخرجوا عنه ويؤمنوا بالله وبه قال ابن مسعود وقال الحسن ان جهاد المنافقين باقامة الحدود عليهم واختاره قتادة قيل في توجيهه ان المنافقين كانوا أكثر من يفعل موجبات الحدود قال ابن العربي ان هذه دعوى لا برهان عليها وليس العاصي بمنافق انما المنافق بما يكون في قلبه من النفاق دائما لا بما يتلبس به الجوارح ظاهرا واخبار المحدودين تشهد

من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون وكقوله تعالى ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون وقال السدى أما انعام حرمت ظهورها فهى البحيرة والسائبة والحام وأما الانعام التى لا يذكرون اسم الله عليها اذا ولدوها ولا ان نحروها وقال أبو بكر بن عياش عن عاصم بن أبى النجود قال لى أبو وائل تدرى ما فى قوله وانعام حرمت ظهورها وانعام لا يذكرون اسم الله عليها قلت لا قال هى البحيرة كانوا لا يحجون عليها وقال مجاهد كان من ابلهم طائفة لا يذكرون (١٣٥) اسم الله عليها ولا فى شئ من شأنها لا ان ركبوا ولا ان حلبوا ولا ان حملوا ولا ان نحبوا ولا ان عملوا شيأ افتراء عليه أى على الله وكذبا منهم فى اسنادهم ذلك الى دين الله وشرعه فانه لم يأذن لهم فى ذلك ولا رضيه منهم سيجزيهم بما كانوا يفترون أى عليه ويسندون اليه سيجزيهم بما كانوا يفترون (وقالوا ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وان يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم انه حكيم عليم) قال أبو اسحق السبيعى عن عبد الله بن أبى الهذيل عن ابن عباس وقالوا ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا الآية قال العوفى عن ابن عباس فهو اللبن كانوا يحرمونه على اناثهم ويشرب ذكرانهم وكانت الشاة اذا ولدت ذكرا ذبحوه وكان للرجال دون النساء وان كانت أنثى تركت فلم تذبح وان كانت ميتة فهم فيه شركاء فنهى الله عن ذلك وكذا قال السدى وقال الشعبى البحيرة لا يأكل من لبنها الا الرجال وان مات منها شئ أكله الرجال والنساء وكذا قال عكرمة وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقال مجاهد فى قوله وقالوا ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا قال هى السائبة والبحيرة وقال أبو العالية ومجاهد وقتادة فى قول الله سيجزيهم وصفهم أى قولهم الكذب فى ذلك يعنى لقوله تعالى ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع الآية انه حكيم أى فى أفعاله وأقواله وشرعه وقدره عليم بأعمال عباده من خير وشر وسيجزيهم عليها أتم الجزاء (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين) يقول تعالى قد خسر الذين فعلوا هذه الافاعيل فى الدنيا والآخرة اما فى الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم

سياقتها انهم لم يكونوا منافقين وقال الطبرى أولى الاقوال قول ابن مسعود لان الجهاد عبارة عن بذل الجهد وقد دلت الآية على وجوب جهاد المنافقين وليس فى الآية ذكر كيفية ذلك الجهاد فلا بد من دليل آخر وقد دلت الدلائل المنفصلة ان الجهاد مع الكفار انما يكون بالسيف ومع المنافقين باظهار الحجة عليهم تارة وبترك الرفق بهم تارة وبالانتهار تارة وهذا هو قول ابن مسعود (واغلظ) أى شدد (عليهم) أى الفريقين بالانتهار والمقت والجهاد وأصل الغلظ قبض الرأفة وهو شدة القلب وخشونة الجانب قيل وهذه الآية نسخت كل شئ من العفو والصلح والصفح (ومأواهم) أى مسكنهم (جهنم) قال أبو البقاء ان قيل كيف حسنت الواو هنا والفاء أشبه بهذا الموضع ففيه ثلاثة أجوبة أحدها ان الواو واو الحال وتلك الحال حال كفرهم والتقدير افعل ذلك فى حال استحقاقهم جهنم والثانى تقديره واعلم ان مأواهم جهنم والثالث ان الكلام قد حمل على المعنى والمعنى انه قد اجتمع لهم عذاب الدنيا بالجهاد والغلظة وعذاب الآخرة فيجعل جهنم مأواهم قال السمين ولا حاجة الى هذا كله بل هذه جملة استئنافية قال أبو السعود مستأنفة لبيان مآل أمرهم بعد بيان عاجله (وبئس المصير) مصيرهم اليها ثم ذكر من خصال المنافقين انهم يحلفون الايمان الكاذبة فقال (يحلفون بالله ما قالوا) استئناف مسوق لبيان ما صدر عنهم من الجرائم الموجبة للامر بجهادهم والغلظة عليهم وقد اختلف أئمة التفسير فى سبب نزول هذه الآية فقيل نزلت فى الجلاس بن سويد بن الصامت ووديعة بن ثابت وذلك انه لما كثر نزول القرآن فى غزوة تبوك فى شأن المنافقين وذمهم قالا لئن كان محمد صادقا على اخواننا الذين هم سادتنا وخيارنا لنحن شر من الحمير فقال له عامر بن قيس أجل والله ان محمدا الصادق مصدق وانك لشر من الحمار وأخبر عامر بذلك النبى صلى الله عليه وآله وسلم وجاء الجلاس فحلف بالله ان عامرا لكاذب وحلف عامر لقد قال وقال اللهم انزل على نبيك شيأ فنزلت وقيل ان الذى سمع ذلك عاصم ابن عدى وقيل حذيفة وقيل بل سمعه ولد امرأته أى امرأة الجلاس واسمه عمير بن سعد فهم الجلاس بقتله لئلا يخبر بخبره وقيل ان هذه الآية نزلت فى عبد الله بن أبى رأس المنافقين لما قال ما مثلنا ومثل محمد الا كما قال القائل سمن كلبك يأكلك لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل فأخبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم بذلك فجاء عبد الله

وضيقوا عليهم في أموالهم حرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم وأماني الآخرة فيصيرون الى أسوء المنازل بكذبهم على الله وافترائهم كقوله تعالى ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع في الدنيا ثم الينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية حدثنا محمد بن أحمد بن ابراهيم حدثنا محمد بن أيوب حدثنا عبد الرحمن بن المبارك حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال اذا سرك ان تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين (١٣٦) والمائة من سورة الانعام قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين وهكذا رواه البخاري منفردا في كتاب مناقب قريش من صحيحه عن أبي النعمان محمد بن الفضل عارم بن أبي عوانة واسمه الوضاح بن عبد الله اليشكري عن أبي بشر واسمه جعفر بن أبي وحشية عن اياس به (وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره اذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين ومن الانعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين) يقول تعالى مبينا انه الخالق لكل شيء من الزرع والثمار والانعام التي تصرف فيها هؤلاء المشركون بآرائهم الفاسدة وقسموها وجزؤها فجعلوا منها حراما وحلالا فقال وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس معروشات مسموكات وفي رواية فالمعروشات ما عرش وغير معروشات ما خرج في البر والجبال من الثمرات وقال عطاء الخراساني عن ابن عباس معروشات ما عرش من الكرم وغير معروشات ما لم يعرش من الكرم وكذا قال السدي وقال ابن جريج متشابها وغير متشابه قال متشابها في المنظر وغير متشابه في الطعم وقال محمد بن كعب كلوا من ثمره اذا أثمر قال من رطبه وعنبه وقوله تعالى وآتوا حقه يوم حصاده قال ابن جرير قال بعضهم هي الزكاة المفروضة حدثنا عمرو حدثنا عبد الصمد حدثنا يزيد بن درهم قال سمعت أنس ابن مالك يقول وآتوا حقه يوم حصاده قال الزكاة المفروضة وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وآتوا حقه يوم حصاده يعني

ابن أبي خلف انه لم يقله وقيل انه قول جميع المنافقين وان الآية نزلت فيهم وعلى تقدير ان القائل واحد او اثنان فنسبة القول الى جميعهم هي باعتبار موافقة من لم يقل ولم يحلف من المنافقين لمن قد قال وحلف وفي الباب أحاديث مختلفة في سبب نزول هذه الآية وفيما ذكرناه كفاية ثم رد الله على المنافقين وكذبهم وبين انهم حلفوا كذبا فقال (ولقد قالوا كلمة الكفر) وهي ما تقدم بيانه على اختلاف الاقوال السابقة (وكفروا بعد اسلامهم) أي كفروا بهذه الكلمة بعد اظهارهم الاسلام وان كانوا كفارا في الباطن والمعنى انهم فعلوا ما يوجب كفرهم على تقدير صحة اسلامهم (وهموا بما لم ينالوا) قيل هو همهم بقتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة العقبة في غزوة تبوك وهم بضعة عشر رجلا فضرب عمار بن ياسر وفي قول حذيفة بن اليمان وجوه الرواحل لما غشوه فرجعوا والقصة مبسوطة في سيرة الحلبي وغيرها وقيل هموا بعقد التاج على رأس عبد الله بن أبي وقيل هو هم الجلاس بقتل من سمعه يقول تلك المقالة فأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (وما نقموا الا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) أي ما عابوا وأنكروا وكرهوا الا ما هو حقيق بالمدح والثناء وهو اغناء الله لهم من فضله والاستثناء مفرغ من أعم العام فهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم وقد كان هؤلاء المنافقون في ضيق من العيش فلما قدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم المدينة اتسعت معيشتهم وكثرت أموالهم فجعلوا موضع شكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم النقمة وقيل انهم بطروا النعمة أشرا (فان يتوبوا) أي فان تحصل منهم التوبة والرجوع الى الحق (يك) ذلك الذي فعلوه من التوبة (خيرا لهم) في الدين والدنيا وقد تاب الجلاس بن سويد وحسن اسلامه وفي ذلك دليل على قبول التوبة من المنافق والكافر وقد اختلف العلماء في قبولها من الزنديق فمنع قبولها مالك وأتباعه لانه لا يعلم صحة توبته اذ هو في كل حين يظهر التوبة والاسلام (وان يتولوا) أي يعرضوا عن التوبة والايمان ويصروا على النفاق والكفر (يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا) بالقتل والاسر ونهب الاموال عاجلا فلا ينافي ما سبق من ان قتالهم باللسان والحجة لا بالسيف لان ذلك اذا لم يظهروا الكفر بل أظهروا الايمان (و) في (الآخرة) بعذاب النار آجلا (وما لهم في الارض) مع سعتها وتباعد أقطارها وكثرة أهلها (من ولي) يواليهم (ولا نصير) ينصرهم (ومنهم من عاهد الله لئن) هي لام قسم أي والله لئن (آتانا من فضله)

الزكاة المفروضة يوم يكال ويعلم كيله وكذا قال سعيد بن المسيب وقال العوفي عن ابن عباس وآتوا حقه يوم حصاده وذلك ان الرجل كان اذا زرع فكان يوم حصاده لم يخرج مما حصد شيأ فقال الله تعالى وآتوا حقه يوم حصاده وذلك ان يعلم ما كيله وحقه من كل عشرة واحد وما يلقط الناس من سنبله وقد روى الامام أحمد وأبو داود في سننه من حديث محمد بن اسحق حدثني محمد بن يحيى ابن حبان عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر من كل جاد عشرة أوسق من التمر بقنو يعلق في المسجد للمساكين وهذا اسناد جيد قوي وقال طاوس وأبو الشعثاء وقتادة والحسن (١٣٧) والضحاك وابن جريج هي الزكاة وقال الحسن البصري هي الصدقة من الحب والثمار وكذا قال زيد بن أسلم وقال آخرون هو حق آخر سوى الزكاة وقال أشعث عن محمد بن سيرين وعن نافع بن عمر في قوله وآتوا حقه يوم حصاده قال كانوا يعطون شيأ سوى الزكاة رواه ابن مردويه وروى عبد الله بن المبارك وغيره عن عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء ابن أبي رباح في قوله وآتوا حقه يوم حصاده قال يعطي من حضره يومئذ ما تيسر وليس بالزكاة وقال مجاهد اذا حضرك المساكين طرحت لهم منه وقال عبد الرزاق عن ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد وآتوا حقه يوم حصاده قال عند الزرع يعطي القبضة وعند الصرام يعطي القبضة ويتركهم فيتبعون آثار الصرام وقال الثوري عن حماد عن ابراهيم قال يعطي مثل الضغث وقال ابن المبارك عن شريك عن سالم عن سعيد بن جبير وآتوا حقه يوم حصاده قال كان هذا قبل الزكاة للمساكين القبضة والضغث لعلف دابته وفي حديث ابن أبي لهيعة عن دراج عن أبي الهيثم عن سعيد مرفوعا وآتوا حقه يوم حصاده قال ما سقط من السنبل رواه ابن مردويه وقال آخرون هذا كل شئ كان واجبا ثم نسخه الله بالعشر ونصف العشر حكاه ابن جرير عن ابن عباس وابن الحنفية وابراهيم النخعي والحسن والسدي وعطية العوفي وغيرهم واختاره ابن جرير رحمه الله قلت وفي تسمية هذا نسخا نظر لانه قد كان شيأ واجبا في الاصل ثم انه فسر بيانه وبين مقدار المخرج وكميته قالوا وكان هذا في السنة الثانية من الهجرة فالله أعلم وقد ذم الله سبحانه الذين يصرمون ولا يتصدقون كما ذكر عن أصحاب الجنة في سورة ن اذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فاصبحت كالصريم أي كالليل المدلهم سوداء محترقة فتنادوا مصبحين ان اغدوا على حرثكم ان كنتم صارمين فانطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخلنها اليوم

من فضله) بان يوسع علينا في الرزق (لنصدقن) هي لام الجواب للقسم وحذف جواب الشرط لدلالة هذا الجواب عليه ولا يمتنع الجمع بين القسم واللام الموطئة له أي لنخرجن من ذلك المال الصدقة وهي أعم من المفروضة وغيرها (ولنكونن من الصالحين) أي من جملة أهل الصلاح من المؤمنين القائمين بواجبات الدين التاركين لمحرماته والصلاح ضد الفساد والمفسد هو الذي يبخل بما يلزمه في حكم الشرع (فلما آتاهم من فضله بخلوا به) أي لما أعطوهم ما طلبوا من الرزق لم يتصدقوا بشئ منه كما حلفوا به (وتولوا) أي أعرضوا عن طاعة الله واخراج صدقات ما أعطاهم الله من فضله (وهم) أي والحال انهم (معرضون) في جميع الاوقات قبل أن يعطيهم الله ما أعطاهم من الرزق وبعده عن ابن عباس قال ذلك ان رجلا كان يقال له ثعلبة من الانصار أتى مجلسا فاشهدهم فقال لئن آتاني الله من فضله آتيت كل ذي حق حقه وتصدقت منه وجعلت منه للقرابة فابتلاه الله فآتاه من فضله فأخلف ما وعده فأغضب الله بما أخلف ما وعده فقص الله شأنه في القرآن وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وغيرهم هذه القصة باطول من هذا جدا وفيه قال يعني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم له يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه فقال ادع الله أن يرزقني مالا فقال اللهم ارزقه مالا فاتخذ غنما فنمت كما تنمى الدود حتى ضاقت بها المدينة فتنحى بها فكان يشهد الصلاة بالنهار مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا يشهدها بالليل ثم نمت حتى لا يشهد جمعة ولا جنازة الحديث (فأعقبهم) الله سبحانه (نفاقا في قلوبهم) بسبب البخل الذي وقع منهم والاعراض نفاقا كائنا في قلوبهم متمكنا منها مستمرا فيها (الى يوم يلقونه) أي الله عز وجل وقيل ان الضمير يرجع الى البخل أي فاعقبهم البخل بما عاهدوا الله عليه الى يوم يلقون البخل أي جزاء بخلهم يعني ان الله سبحانه جعل النفاق المتمكن في قلوبهم الى تلك الغاية عاقبة ما وقع منهم من البخل (بما أخلفوا الله ما وعدوه) الباء السببية أي بسبب اخلافهم لما وعدوه من التصدق والصلاح وكذلك الباء في (وبما كانوا يكذبون) أي وبسبب تكذيبهم لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان وعن ابن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه

عليكم مسكين وغدوا على حرد أي قوة وجلد وهمة قادرين فلما رأوها قالوا انا لضالون بل نحن محرومون قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون قالوا سبحان ربنا انا كنا ظالمين فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون قالوا ياويلنا انا كنا طاغين عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها انا الى ربنا راغبون كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون وقوله تعالى ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين قيل معناه لا تسرفوا في الاعطاء فتعطوا فوق المعروف وقال أبو العالية كانوا يعطون يوم الحصاد شيأ ثم تبادروا فيه وأسرفوا فأنزل الله ولا تسرفوا قال ابن جريج نزلت في ثابت (١٣٨) بن قيس بن شماس جذ نخلا له فقال لا يأتيني اليوم أحد الا أطعمته فأطعم حتى أمسى وليست له ثمرة فأنزل الله تعالى ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين رواه ابن جرير عنه وقال ابن جريج عن عطاء نهوا عن السرف في كل شئ وقال اياس ابن معاوية ما جاوزت به أمر الله فهو سرف وقال السدي في قوله ولا تسرفوا قال لا تعطوا أموالكم فتقعدوا فقراء وقال سعيد بن المسيب ومحمد بن كعب في قوله ولا تسرفوا قال لا تمنعوا الصدقة فتعصوا ربكم ثم اختار ابن جرير قول عطاء انه نهى عن الاسراف في كل شئ ولا شك أنه صحيح لكن الظاهر والله أعلم من سياق الآية حيث قال تعالى كلوا من ثمره اذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا أن يكون عائدا على الاكل أي لا تسرفوا في الاكل لما فيه من مضرة العقل والبدن كقوله تعالى كلوا واشربوا ولا تسرفوا الآية وفي صحيح البخاري تعليقا كلوا واشربوا والبسوا من غير اسراف ولا مخيلة وهذا من هذا والله أعلم وقوله عز وجل ومن الانعام حمولة وفرشا أي وأنشأ لكم من الانعام ما هو حمولة وما هو فرش قيل المراد بالحمولة ما يحمل عليه من الابل والفرش الصغار منها كما قال الثوري عن أبي اسحق عن أبي الاحوص عن عبد الله في قوله حمولة ما حمل عليه من الابل وفرشا الصغار من الابل رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه وقال ابن عباس الحمولة هي الكبار والفرش الصغار من الابل وكذا قال مجاهد وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ومن الانعام حمولة وفرشا أما الحمولة فالابل والخيل والبغال والحمير وكل شئ يحمل عليه وأما الفرش فالغنم واختاره ابن جرير قال وأحسبه قال انما سمي فرشا لدنوه من الارض وقال الربيع بن أنس والحسن والضحاك وقتادة وغيره الحمولة الابل والبقر والفرش الغنم وقال السدي أما الحمولة فالابل وأما الفرش فالفصلان والعجاجيل والغنم وما حمل عليه فهو حمولة وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم

خلة كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها الحديث وفيه اذا خاصم فجر ثم أنكر عليهم فقال (ألم يعلموا) أي المنافقون (ان الله يعلم سرهم ونجواهم) أي جميع ما يسرونه من النفاق وما يتناجون به فيما بينهم من الطعن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلى أصحابه وعلى دين الاسلام (وان الله علام الغيوب) أي ما غاب عن العيان فلا يخفى عليه شئ من الاشياء المغيبة كائنا ما كان ومن جملة ذلك ما يصدر عن المنافقين (الذين يلمزون) أي يعيبون وقال قتادة يطعنون (المطوعين) أي المتطوعين والتطوع التبرع والتنفل بما ليس بواجب (من المؤمنين في الصدقات) والمعنى ان المنافقين كانوا يعيبون المسلمين اذا تطوعوا بشئ من أموالهم وأخرجوه للصدقة فكانوا يقولون ما أغنى الله عن هذا ويقولون ما فعلوا هذا الا رياء ولم يكن لله خالصا أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا فجاء رجل فتصدق بشئ كثير فقالوا مراء وجاء أبو عقيل بنصف صاع فقال المنافقون ان الله لغني عن صدقة هذا فنزلت هذه الآية وفي الباب روايات كثيرة (والذين لا يجدون الا جهدهم) بالضم الطاقة وهي لغة أهل الحجاز وبالفتح لغيرهم وهي المشقة وقيل هما لغتان ومعناهما واحد وفي القرطبي الجهد شئ يسير يعيش به المقل وقد تقدم بيان ذلك والمعنى ان المنافقين كانوا يعيبون المؤمنين الذين كانوا يتصدقون بما فضل عن كفايتهم (فيسخرون منهم) أي يستهزؤن بهم لحقارة ما يخرجونه في الصدقة مع كون ذلك جهد المقل وغاية ما يقدر عليه ويتمكن منه يقال سخرت منه سخرا من باب تعب هزئت به والسخري بالكسر اسم منه وبالضم لغة فيه والسخرة وزان غرفة ما سخرت من خادم أو جارية أو دابة بلا أجر ولا ثمن والسخري بالضم بمعناه وسخرته في العمل بالتثقيل استعملته مجانا وسخر الله الابل ذللها وسهلها ومنه سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين (سخر الله منهم) أي جازاهم على ما فعلوه من السخرية بالمؤمنين بمثل ذلك فسخر الله منهم بأن أهانهم وأذلهم وعذبهم والتعبير بذلك من باب المشاكلة كما في غيره وقيل هو دعاء عليهم بأن يسخر الله بهم كما سخروا بالمسلمين (ولهم عذاب أليم) أي ثابت مستمر شديد الألم في الآخرة (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) أخبر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأن صدور الاستغفار منه للمنافقين

وعدمه

وعدمه سواء فهذا كلام خرج مخرج الامر ومعناه الخبر وذلك لانهم ليسوا بأهل الاستغفار له صلى الله عليه وآله وسلم ولا للمغفرة من الله سبحانه فهو كقوله تعالى قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم وفيه بيان لعدم المغفرة من الله سبحانه للمنافقين وان أكثر النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الاستغفار لهم وليس المراد من هذا أنه لو زاد على السبعين لكان ذلك مقبولا كما في سائر مفاهيم الاعداد بل المراد بهذا المبالغة في عدم القبول فقد كانت العرب تجري ذلك مجرى المثل في كلامها عند ارادة التكثير والمعنى انه لن يغفر الله لهم وان استغفرت لهم استغفارا بالغا في الكثرة غاية المبالغ وقد ذهب بعض الفقهاء الى أن التقييد بهذا العدد المخصوص يفيد قبول الزيادة عليه ويدل لذلك ما أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عروة ان عبد الله بن أبي قال لولا انكم تنفقون على محمد وأصحابه لانفضوا من حوله وهو القائل ليخرجن الاعز منها الاذل فأنزل الله استغفر لهم أو لا تستغفر لهم فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لازيدن على السبعين فأنزل الله سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم وعن مجاهد وابن عباس نحوه قال الضحاك لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله قد رخص لي فسأزيد على السبعين لعل الله أن يغفر لهم فأنزل الله سواء عليهم الآية يعني فبين له حسم المغفرة ومعلوم أنه لم يخف عليه ذلك وانما أراد بما قال اظهار كمال رحمته ورأفته بمن بعث اليهم وفيه لطف بأمته وحث على المراحم وشفقة بعضهم على بعض وهذا دأب الانبياء كما قال ابراهيم ومن عصاني فانك غفور رحيم وذكر بعضهم لتخصيص السبعين وجها وليس بشيء فقال ان السبعة عدد شريف لانها عدد السموات والارضين والبحار والاقاليم والنجوم السيارة والاعضاء وأيام الاسبوع فصير كل واحد من السبعة الى عشرة لان الحسنة بعشرة أمثالها وقيل خصت السبعون بالذكر لانه صلى الله عليه وآله وسلم كبر على عمه حمزة سبعين تكبيرة فكأنه قال ان تستغفر لهم سبعين مرة بازاء تكبيراتك على حمزة وهذا كالذي قبله ثم علل عدم المغفرة لهم بقوله (ذلك) الامتناع ليس لعدم الاعتداد باستغفارك بل (بأنهم كفروا بالله ورسوله) ولفظ الكرخي ذلك اليأس من الغفران لهم بسبب انهم كفروا لا لبخل منا ولا قصور فيك بل لعدم قابليتهم بسبب الكفر الصارف عنه انتهى (والله لا يهدي القوم الفاسقين) أي المتمردين الخارجين عن

الحمولة ما تركبون والفرش ما تأكلون وتحلبون شاة لا تحملون عليها بل تأكلونها وتتخذون من صوفها الذي قاله عبد الرحمن في تفسير هذه الآية الكريمة حسن يشهد له قوله تعالى أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون وقال تعالى وان لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم خالصا سائغا للشاربين الى أن قال ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا الى حين وقال تعالى الله الذي جعل لكم الانعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون وقوله تعالى كلوا مما رزقكم الله أي من الثمار والزروع والانعام فكلها خلقها الله وجعلها رزقا لكم ولا تتبعوا خطوات الشيطان أي طريقه وأوامره كما اتبعها المشركون الذين حرموا ما رزقهم الله أي من الثمار والزروع افتراء على الله انه لكم أي ان الشيطان أيها الناس لكم عدو مبين أي بين ظاهر العداوة كما قال تعالى ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير وقال تعالى يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما الآية وقال تعالى أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا والآيات في هذا كثيرة في القرآن (ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آلذكرين حرم أم الانثيين أما اشتملت عليه أرحام الانثيين نبئوني بعلم ان كنتم صادقين ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرم أم الانثيين أما اشتملت عليه أرحام الانثيين أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ان الله لا يهدي القوم الظالمين) هذا بيان لجهل العرب قبل الاسلام فيما كانوا حرموا من الانعام وجعلوها أجزاء وأنواعا بحيرة وسائبة ووصيلة وحاما وغير ذلك من الانواع التي ابتدعوها في الانعام والزروع والثمار فبين تعالى أنه أنشأ جنات معروشات وغير معروشات وانه أنشأ من الانعام حمولة وفرشا ثم بين أصناف الانعام الى غنم وهو بياض وهو الضأن وسواد وهو المعز ذكره وأنثاه والى ابل ذكورها واناثها وبقر كذلك وانه تعالى لم يحرم شيئا من ذلك ولا شيئا من أولادها بل كلها مخلوقة لبني آدم أكلا وركوبا

وحمولة وحليا وغير ذلك من وجوه المنافع كما قال وأنزل لكم من الانعام ثمانية أزواج الآية وقوله تعالى أما اشتملت عليه أرحام الانثيين ردعليهم في قولهم ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا الآية وقوله تعالى نبئوني بعلم ان كنتم صادقين أي أخبروني عن يقين كيف حرم الله عليكم ما زعمتم تحريمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك وقال العوفي عن ابن عباس قوله ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين فهذه أربعة أزواج ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين الى قوله تعالى نبئوني بعلم ان كنتم صادقين يقول تعالى كله حلال (١٤٠) وقوله تعالى أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا تهكم بهم فيما ابتدعوه وافتروه على الله من تحريم ما حرموه من ذلك فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم أي لا أحد أظلم منه ان الله لا يهدي القوم الظالمين وأول من دخل في هذه الآية عمرو بن لحي بن قمعة لانه أول من غير دين الانبياء وأول من سيب السوائب ووصل الوصيلة وحمى الحام كما ثبت ذلك في الصحيح (قل لا أجد فيما أوحي الي محرما على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فانه رجس أو فسقا أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان ربك غفور رحيم) يقول تعالى آمرا عبده ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم قل يا محمد لهؤلاء الذين حرموا ما رزقهم الله افتراء على الله لا أجد فيما أوحي الي محرما على طاعم يطعمه أي آكل يأكله قيل معناه لا أجد شيأ مما حرمتم حراما سوى هذه وقيل معناه لا أجد من الحيوانات شيأ حراما سوى هذه فعلى هذا فيكون ما ورد من التحريمات بعد هذا في سورة المائدة وفي الاحاديث الواردة رافعا لمفهوم هذه الآية ومن الناس من يسمي هذا نسخا والاكثرون من المتأخرين لا يسمونه نسخا لانه من باب رفع مباح الاصل والله أعلم وقال العوفي عن ابن عباس أو دما مسفوحا يعني المهراق وقال عكرمة في قوله أو دما مسفوحا لولا هذه الآية لتتبع الناس ما في العروق كما تتبعه اليهود وقال حماد عن عمران بن جرير قال سألت أبا مجلز عن الدم وما يتلطخ من الذبح من الرأس وعن القدر يرى فيها الحمرة فقال انما نهى الله عن الدم المسفوح وقال قتادة حرم من الدماء ما كان مسفوحا فأما اللحم خالطه من الدم فلا بأس به قال ابن جرير حدثنا ابن المثنى حدثنا حجاج بن منهال حدثنا حماد عن يحيى بن سعيد عن القاسم عن

الطاعة المتجاوزين لحدودها والمراد هنا الهداية الموصلة الى المطلوب لا الهداية التي بمعنى الدلالة واراءة الطريق ثم ذكر سبحانه نوعا آخر من قبائح المنافقين فقال (فرح المخلفون) هم المتروكون وهم الذين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المنافقين فأذن لهم وخلفهم بالمدينة في غزوة تبوك أو الذين خلفهم الله وثبطهم أو الشيطان أو نفاقهم أو كسلهم أو المؤمنون (بمقعدهم) أي بقعودهم يقال قعد قعودا ومقعدا أي جلس وأقعده غيره ذكر معناه الجوهري (خلاف رسول الله) فيه ثلاثة أوجه أحدها انه منصوب على المصدر أي تخلفوا خلاف رسول الله والثاني انه مفعول من أجله أي فرحوا لاجل مخالفتهم رسول الله أو بقعودهم لمخالفتهم له واليه ذهب الطبري والزجاج ويؤيده قراءة خلف بضم الخاء وسكون اللام والثالث أن ينتصب على الظرف أي بعد رسول الله يقال أقام زيد خلاف القوم أي تخلف بعد ذهابهم وخلاف يكون ظرفا واليه ذهب أبو عبيدة وعيسى بن عمر قال الاخفش ويونس الخلاف بمعنى الخلف وذلك أن جهة الأمام التي يقصدها الانسان تخالفها جهة الخلف وقال قطرب بمعنى خلاف رسول الله مخالفة الرسول حين سار الى تبوك وأقاموا أي قعدوا لاجل المخالفة أو مخالفين له (وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) لكمال شحهم بالاموال والانفس وعدم وجود باعث الايمان وداعي الاخلاص ووجود الصارف عن ذلك وهو ما هم فيه من النفاق وفيه تعريض بالمؤمنين الباذلين لاموالهم وأنفسهم في سبيل الله لوجود الداعي معهم وانتفاء الصارف عنهم وفي الخازن وكرهوا الخروج الى الجهاد وذلك ان الانسان يميل بطبعه الى ايثار الراحة والقعود مع الاهل والولد ويكره اتلاف النفس والمال (وقالوا) أي قال المنافقون لاخوانهم (لا تنفروا في الحر) تثبيطا لهم وكسرا لنشاطهم وتواصيا بينهم بالمخالفة لامر الله ورسوله وكانت غزوة تبوك في شدة الحر والقحط فأمر الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله (قل نار جهنم أشد حرا) المعنى انكم أيها المنافقون كيف تفرون من هذا الحر اليسير ونار جهنم التي ستدخلونها خالدين فيها أبدا أشد حرا مما فررتم منه فانكم انما فررتم من حر يسير في زمن قصير ووقعتم في حر كثير في زمن كبير بل غير متناه أبد الآبدين ودهر الداهرين (لو كانوا يفقهون) انها كذلك لما فعلوا ما فعلوا وهذا اعتراض تذييلي من جهته تعالى غير داخل تحت القول

المأمور

عائشة رضي الله عنها انها كانت لاترى بأسا بلحوم الحمر والسباع والدم اللذين يكونا أعلى القدر بأسا وقرأت هذه الآية صحيح غريب وقال الحميدى حدثنا سفيان حدثنا عمرو بن دينار قال قلت لجابر بن عبد الله انهم يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الاهلية زمن خيبر فقال قد كان يقول ذلك الحكم بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن أبى ذلك البحر يعنى ابن عباس وقرأ قل لا أجد فيما أوحى الى محرما على طاعم يطعمه الآية وهكذا رواه البخارى عن على بن المدينى عن سفيان به وأخرجه أبوداود من حديث ابن جريج عن عمرو بن دينار ورواه الحاكم فى مستدركه (١٤١) حدثنا محمد بن على بن دحيم حدثنا أحمد بن حازم حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين حدثنا محمد بن شريك عن عمرو بن دينار عن أبى الشعثاء عن ابن عباس قال كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذرا فبعث الله نبيه وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرم حرامه فما أحل فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو عفو وقرأ هذه الآية قل لا أجد فيما أوحى الى محرما على طاعم يطعمه الآية وهذا لفظ ابن مردويه ورواه أبوداود منفردا به عن محمد بن داود بن صبيح عن أبى نعيم به وقال الحاكم هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه وقال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة عن سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال ماتت شاة لسودة بنت زمعة فقالت يارسول الله ماتت فلانة تعنى الشاة قال فلم لا أخذتم مسكها قالت نأخذ مسك شاة قد ماتت فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم انما قال الله قل لا أجد فيما أوحى الى محرما على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير وأنتم لا تطعمونه ان تدبغوه فتنتفعوا به فارسلت فسلخت مسكها فدبغته فاتخذت منه قربة حتى تخرقت عندها رواه أحمد ورواه البخارى والنسائى من حديث الشعبى عن عكرمة عن ابن عباس عن سودة بنت زمعة بذلك بنحوه وقال سعيد بن منصور حدثنا عبد العزيز بن محمد عن عيسى بن نميلة الفزارى عن أبيه قال كنت عند ابن عمر وأنه سئل عن أكل القنفذ فقرأ عليه قل لا أجد فيما أوحى الى محرما على طاعم يطعمه الآية فقال شيخ عنده سمعت أبا هريرة يقول ذكر عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال خبيث من الخبائث فقال ابن عمر ان كان النبى صلى الله عليه وسلم قاله فهو كما قال ورواه أبوداود عن أبى ثور عن سعيد بن منصور به وقوله تعالى فمن اضطر غير باغ

المأمور به مؤكد لمضمونه (فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا) هذان الامران معناهما الخبر والمعنى فسيضحك هؤلاء الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قليلا بالنسبة للبكاء فى الآخرة وان كان كثيرا فى نفسه لان الدنيا فانية والآخرة باقية والمنقطع الفانى بالنسبة الى الدائم الباقى قليل ويكون كثيرا وانما جىء بهما على لفظ الامر للدلالة على ان ذلك أمر محتوم لا يكون غيره والتقدير ضحكا قليلا وبكاء كثيرا أو زمانا قليلا وزمانا كثيرا وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لو تعلمون ما أعلم ضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا أخرجه البخارى (جزاء بما كانوا يكسبون) من المعاصى والمعنى يجزون جزاء أو سبب الامر بقلة الضحك وكثرة البكاء جزاؤهم بعملهم (فان رجعك الله) الرجع متعد كالرد والرجوع لازم واللازم من باب جلس والمتعدى من باب قطع وفى الكرخى معنى الرجوع تصيير الشئ الى المكان الذى كان فيه يقال رجعته رجعا كقولك رددته ردا والفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها وانما قال (الى طائفة منهم) لان جميع من أقام بالمدينة لم يكونوا منافقين بل كان فيهم غيرهم من المؤمنين لهم أعذار صحيحة وفيهم من المؤمنين من لا عذر له ثم عفا عنهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتاب الله عليهم كالثلاثة الذين خلفوا وسيأتى بيان ذلك وقيل انما قال الى طائفة لان منهم من تاب عن النفاق وندم على التخلف وفى البيضاوى ان المتخلفين كانوا اثنى عشر رجلا (فاستأذنوك للخروج) معك فى غزوة أخرى بعد غزوتك هذه (فقل) لهم اخراجا لهم عن ديوان الغزاة وابعادا لهم عن محفل صحبتك (لن تخرجوا معى أبدا) الى غزوة ولا الى سفر وهذا اخبار فى معنى النهى للمبالغة (ولن تقاتلوا معى عدوا) أى قل لهم ذلك عقوبة لهم ولما فى استصحابهم من المفاسد كما تقدم فى قوله لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا (انكم رضيتم بالقعود) تعليل أى لن تخرجوا معى ولن تقاتلوا لانكم رضيتم بالقعود والتخلف (أول مرة) وهى غزوة تبوك والفاء فى (فاقعدوا مع الخالفين) لتفريع ما بعدها على ما قبلها والخالفين جمع خالف كأنهم خلفوا الخارجين والمراد بهم من تخلف عن الخروج بعد القوم وقيل المعنى فاقعدوا مع الفاسدين من قولهم فلان خالف أهل بيته اذا كان فاسدا فيهم ومن ذلك خلف اللبن أى فسد بطول المكث فى السقاء ذكر معناه الاصمعى وقرئ مع الخلفين قال الفراء معناه المخالفين قيل المراد بهم

ولا عاد أي فمن اضطر الى أكل شيء مما حرم عليه في هذه الآية الكريمة وهو غير متلبس ببغي ولا عدوان فإن ربك غفور رحيم أي غفور له رحيم به وقد تقدم تفسير هذه الآية في البقرة بما فيه كفاية والغرض من سياق هذه الآية الكريمة الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه من تحريم المحرمات على أنفسهم بآرائهم الفاسدة من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك فأمر رسوله أن يخبرهم انه لا يجد فيما أوحاه الله اليه ان ذلك محرم وانما حرم ما ذكر في هذه الآية من الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به وما عدا ذلك فلم يحرم وانما هو عفو مسكوت (١٤٢) عنه فكيف تزعمون أنه حرام ومن أين حرمتموه ولم يحرمه وعلى هذا فلا يبقى تحريم أشياء أخر فيما بعد هذا كما جاء النهي عن لحوم الحمر الاهلية ولحوم السباع وكل ذي مخلب من الطير على المشهور من مذاهب العلماء (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون) قال ابن جرير يقول تعالى وحرمنا على اليهود كل ذي ظفر وهو البهائم والطير ما لم يكن مشقوق الاصابع كالابل والنعام والاوز والبط قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر وهو البعير والنعامة وكذا قال مجاهد والسدي في رواية وقال سعيد بن جبير هو الذي ليس منفرج الاصابع وفي رواية عنه كل من متفرق الاصابع ومنه الديك وقال قتادة في قوله وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر وكان يقال البعير والنعامة وأشياء من الطير والحيتان وفي رواية البعير والنعامة وحرم عليهم من الطير البط وشبهه وكل شيء ليس بمشقوق الاصابع وقال ابن جريج عن مجاهد كل ذي ظفر قال النعامة والبعير شقاشقا قلت الى للقاسم بن أبي زائدة وحدثته ما شقاشقا قال كل ما لم ينفرج من قوائم البهائم قال وما انفرج أكلته قال انفرجت قوائم البهائم والعصافير قال فيهود تأكله قال وما لم تنفرج قائمة البعير خفه ولا خف النعامة ولا قائمة الوز فلا تأكله اليهود الابل والنعام والوز ولا كل شيء لم تنفرج قائمته ولا تأكل حمار الوحش وقوله تعالى ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما قال السدي يعني الثرب والشحم الكليتين وكانت اليهود تقول انه حرمه اسرائيل فنحن نحرمه وكذا قال ابن زيد وقال قتادة الثرب وكل

النساء والصبيان والرجال العاجزون فلذلك جاز جمعه للتغليب وقال قتادة الخالفون النساء وهو مردود لاجل الجمع قال ابن عباس الخالفين هم الرجال الذين تخلفوا عن الغزو بغير عذر وفي الآية دليل على أن الرجل اذا ظهر منه مكر وخداع وبدعة يجب الانقطاع عنه وترك مصاحبته (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا) يعني صلاة الجنازة (ولا تقم على قبره) قال الزجاج معناه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان اذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له فمنع ههنا منه وقيل معناه لا تقم بمهمات اصلاح قبره ولا تتول دفنه ولما نزلت هذه الآية ما صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على منافق ولا قام على قبره بعدها (انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) تعليل النهي عن الصلاة والقيام على قبره وانما وصفهم بالفسق بعد وصفهم بالكفر لان الكافر قد يكون عدلا في دينه بأن يؤدي الامانة ولا يضمر لاحد سوأ وقد يكون خبيثا في نفسه كثير الكذب والمكر والنفاق والخداع والجبن واضمار السوء والغدر والخبث وهي مستقبحة في كل دين عند كل أحد وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قال لما توفي عبد الله ابن أبي ابن سلول أتى ابنه عبد الله الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقام عمر فأخذ ثوبه فقال يا رسول الله أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي على المنافقين فقال ان الله خيرني وقال استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم وسأزيد على السبعين فقال انه منافق فصلى عليه فأنزل الله ولا تصل على أحد منهم مات أبدا الآية فترك الصلاة عليهم والحديث له ألفاظ في الصحاح والسنن وكان ابن أبي رئيس الخزرج وينسب لابيه وأمه فأبوه أبي وأمه سلول وكان اسمه عبد الله (فلا تعجبك) نهى رسوله أن تعجبه (أموالهم وأولادهم انما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) هذا تكرير لما سبق في هذه السورة وتقرير لمضمونه وارادة أن يكون المخاطب به على بال ولا ينساه وان يعتقد أن العمل به مهم وقيل ان الآية المتقدمة في قوم وهذه في آخرين وقيل هذه في اليهود والاولى في المنافقين وقيل غير ذلك وقد تقدم في الآية الاولى جميع ما يحتاج اليه في تفسير هذه الآية وذكر في الخازن ما حصل من التفاوت في الالفاظ في هاتين الآيتين ولا يأتي بكثير فائدة ثم عاد الله سبحانه

شحم كان كذلك ليس فى عظم وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس الا ما حملت ظهورهما يعنى ما علق بالظهر من الشحوم وقال السدى وأبو صالح الألية مما حملت ظهورهما وقوله تعالى أو الحوايا وقال الامام أبو جعفر بن جرير الحوايا جمع واحدها حاوية وحوية وهو ما تحوى من البطن بما اجتمع واستدار وهى بنات اللبن وهى المباعر وتسمى المرابض وفيها الامعاء قال ومعنى الكلام ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الا ما حملت ظهورهما وما حملت الحوايا قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس أو الحوايا وهى المبعر وقال مجاهد الحوايا المبعر والمربض وكذا قال سعيد بن جبير والضحاك وقتادة (١٤٣) وأبو مالك والسدى وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره واحدها الحوايا المرابض التى تكون فيها الامعاء يكون وسطها وهو بنات اللبن وهى فى كلام العرب تدعى المرابض وقوله تعالى أو ما اختلط بعظم يعنى الا ما اختلط بالشحوم بعظم فقد أحللناه لهم وقال ابن جريج شحم الالية ما اختلط بالعصعص فهو حلال وكل شئ من القوائم والجنب والعين والرأس ونحوه وما اختلط بعظم فهو حلال وقوله تعالى ذلك جزيناهم ببغيهم قال السدى ذلك جزيناهم ببغيهم أى هذا التضييق انما فعلناه بهم وألزمناهم به مجازاة على بغيهم ومخالفتهم أوامرنا كما قال تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا وقوله وانا لصادقون أى وانا لعادلون فيما جازيناهم به وقال ابن جرير وانا لصادقون فيما أخبرناك به يا محمد من تحريمنا ذلك عليهم لا كما زعموا من أن اسرائيل هو الذى حرمه على نفسه والله أعلم وقال عبد الله بن عباس بلغ عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن سمرة باع خمرا فقال قاتل الله سمرة ألم يعلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها أخرجاه من حديث سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن طاوس عن ابن عباس عن عمر به وقال الليث حدثنى يزيد بن أبى حبيب قال قال عطاء بن أبى رباح سمعت جابر بن عبد الله يقول عام الفتح ان الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والاصنام فقيل يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فانها يدهن بها الجلود ويطلى بها السفن ويستصبح بها الناس فقال لا هو حرام ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك قاتل الله اليهود ان الله لما حرم عليهم شحومها جملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه رواه الجماعة من طرق عن يزيد بن أبى حبيب به وقال الزهرى عن سعيد بن المسيب عن

الى توبيخ المنافقين فقال (واذا أنزلت سورة) أى طائفة من القرآن ويجوز أن يراد بعض السورة وان يراد تمامها وقيل هى هذه السورة (أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله) الخطاب للمنافقين أى أخلصوا فى ايمانكم وجهادكم وانما قدم الامر بالايمان لان الاشتغال بالجهاد لا يفيد الا بعد الايمان (استأذنك أولوا الطول منهم) أى ذوو الفضل والسعة والقدرة وأهل الغنى والثروة من طال عليه طولا كذا قال ابن عباس والحسن وقال الاصم هم الرؤساء والكبراء المنظور اليهم وخصهم بالذكر لان الذم لهم ألزم اذ لا عذر لهم فى القعود ولان العاجز عن السفر والجهاد لا يحتاج الى الاستئذان (وقالوا) عطف تفسيرى (ذرنا) أى اتركنا (نكن مع القاعدين) أى المتخلفين عن الغزو من المعذورين كالضعفاء والزمنى (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) استئناف لبيان سوء صنيعهم والخوالف جمع خالفة ولذا قيل الخوالف النساء اللاتى يخلفن الرجال فى القعود فى البيوت وجوز بعضهم أن يكون جمع خالف وهو من لا خير فيه وهو مردود فان فواعل لا يكون جمعا لفاعل وصفا العاقل الا ما شذ من نحو فوارس ونواكس وهوالك وقال النحاس يجوز أن تكون من صفة الرجال بمعنى أنها جمع خالفة يقال رجل خالفة أى لا خير فيه فعلى هذا يكون جمعا للذكور باعتبار لفظه (وطبع على قلوبهم) هو كقوله ختم الله على قلوبهم وقد مر تفسيره (فهم لا يفقهون) شيئا مما فيه نفعهم وضرهم بل هم كالانعام أى لا يفهمون الخير الذى فى الجهاد ولا الشر الذى فى التخلف (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم) المقصود من الاستدراك الاشعار بأن تخلف هؤلاء غير ضائر فانه قد قام بفريضة الجهاد من هو خير منهم وأخلص نية كما فى قوله فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين وقد تقدم بيان الجهاد بالاموال والانفس ثم ذكر منافع الجهاد فقال (وأولئك لهم الخيرات) جمع خير فيشمل منافع الدنيا والدين من النصر والغنيمة والجنة والكرامة وقيل المراد بها النساء الحسان أى الحور قاله الحسن كقوله تعالى فيهن خيرات حسان ومفرده خيرة بالتشديد ثم خففت مثل هينة وهينة (وأولئك هم المفلحون) قد تقدم معنى الفلاح والمراد بهم هنا الفائزون بالمطلوب وتكرير اسم الاشارة لتفخيم شأنهم وتعظيم أمرهم (أعد الله لهم) استئناف

ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتل الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها ورواه البخاري ومسلم جميعا عن عبدان عن ابن المبارك عن يونس عن الزهري به وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن عبد الله بن ابراهيم حدثنا اسمعيل بن اسحق حدثنا سليمان بن حرب حدثنا وهيب حدثنا خالد الحذاء عن بركة أبي الوليد عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قاعدا خلف المقام فرفع بصره الى السماء فقال لعن الله اليهود ثلاثا ان الله حرم عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها وان الله لم يحرم على قوم أكل شئ الا حرم عليهم ثمنه (١٤٤) وقال الامام أحمد حدثنا علي بن عاصم أنبأنا خالد الحذاء عن بركة أبي الوليد أنبأنا ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعدا في المسجد مستقبلا الحجر فنظر الى السماء فضحك فقال لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها وان الله اذا حرم على قوم أكل شئ حرم عليهم ثمنه ورواه أبو داود من حديث خالد الحذاء وقال الاعمش عن جامع بن شداد عن كلثوم عن أسامة بن زيد قال دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مريض نعوده فوجدناه نائما قد غطى وجهه ببرد عدني فكشف عن وجهه وقال لعن الله اليهود يحرمون شحوم الغنم ويأكلون أثمانها وفي رواية حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها وفي لفظ لابي داود عن ابن عباس مرفوعا ان الله اذا حرم على قوم أكل شئ حرم عليهم ثمنه (فان كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين) يقول تعالى فان كذبك يا محمد مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم فقل ربكم ذو رحمة واسعة وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة واتباع رضوانه ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ترهيب لهم في مخالفتهم الرسول خاتم النبيين وكثيرا ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن كما قال تعالى في آخر هذه السورة ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم وقال وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وان ربك لشديد العقاب وقال تعالى نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وان عذابي هو العذاب الاليم وقال تعالى غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب وقال ان بطش ربك لشديد انه هو يبدئ ويعيد وهو الغفور الودود والآيات في هذا كثيرة جدا (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من

لبيان كونهم مفلحين (جنات) أي بساتين (تجري من تحتها الانهار) قد تقدم بيان جري الانهار من تحتها (خالدين فيها) قد سبق بيان الخلود والفوز الآتي أيضا (ذلك) أي ما تقدم من الخيرات والفلاح ونيل الكرامة العظمى واعداد الجنات الموصوفة تلك الصفة (الفوز العظيم) وصف الفوز بكونه عظيما يدل على انه الفرد الكامل من أنواع الفوز (وجاء المعذرون من الاعراب) قرئ بالتخفيف من أعذر وكان ابن عباس يقرؤها مخففة ويقول والله هكذا أنزلت قال النحاس الا أن مدارها على الكلبي يقال أعذر اذا بالغ في العذر ومنه من أنذر فقد أعذر وقرأ الجمهور بالتشديد وفيه وجهان أحدهما أن يكون أصله المعتذرون وهم الذين لهم عذر فالمعذرون على هذا هم المحقون في اعتذارهم وقد روي هذا عن الفراء والزجاج وابن الانباري وأبي عبيد والاخفش وأبي حاتم وقيل هو من عذر وهو الذي يعتذر ولا عذر له يقال عذر في الامر اذا قصر فيه واعتذر بما ليس بعذر ذكره الجوهري وصاحب الكشاف فالمعذرون على هذا هم المبطلون لانهم اعتذروا باعذار كاذبة باطلة لا أصل لها والمعنى انه جاء هؤلاء من الاعراب بما جاؤا به من الاعذار بحق أو بباطل على كلا التفسيرين قال الضحاك هم رهط عامر وقيل من أسد وغطفان وقال ابن عباس هم الذين تخلفوا بعذر وهذا شروع في بيان أحوال منافقي الاعراب اثر بيان أحوال منافقي أهل المدينة والاعراب سكان البادية وهم أخص من العرب اذ العربي من تكلم باللغة العربية سواء كان يسكن البادية أو الحاضرة وقد اختلف في أنهم كانوا معتذرين بالتصنع أو بالصحة (ليؤذن لهم) أي لاجل أن يأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالتخلف عن الغزو (وقعد) طائفة أخرى لم يعتذروا بل قعدوا عن الغزو بغير عذر وهم منافقو الاعراب (الذين كذبوا الله ورسوله) بالتخفيف أي كذبوا في ادعاء ايمانهم وبالتشديد أي لم يؤمنوا ولا صدقوا ما جاء به الرسول عن ربه ولا امتثلوا أمره قال أبو اسحق ذكر لي أنهم نفر من بني غفار جاؤا فاعتذروا منهم خفاف بن ايماء وقيل هم رهط عامر بن الطفيل قالوا ان غزونا معك أغارت أعراب طي على أهالينا ومواشينا وقيل منافقو الاعراب قسمان قسم جاؤا واعتذروا بالاعذار الكاذبة وقسم لم يجئ ولم يعتذر ثم توعدهم سبحانه فقال (سيصيب الذين كفروا منهم) أي من الاعراب وهم الذين اعتذروا بالاعذار الباطلة والذين لم يعتذروا بل كذبوا الله ورسوله

وأبى

شئ كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان ا

فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين قل هلم شهداءكم الذين يشهدون ان الله حرم هذا فان شهدوا فلا

أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون) هذه مناظرة ذكرها الله تعالى وشبهة تشبث بها المشركون لشركهم وتحريم ما حرموا فان الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الايمان أو يحول بيننا وبين الكفر فلم يغيره فدل على أنه (١٤٥) بمشيئته وارادته ورضاه منا بذلك ولهذا قال لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شئ كما في قوله تعالى وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم الآية وكذلك الآية التي في النحل مثل هذه سواء قال الله تعالى كذلك كذب الذين من قبلهم أي بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء وهي حجة داحضة باطلة لانها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم وأدال عليهم رسله الكرام وأذاق المشركين من أليم الانتقام قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا أي بأن الله راض عليكم فيما أنتم فيه فتخرجوه لنا أي فتظهروه لنا وتبينوه وتبرزوه ان تتبعون الا الظن أي الوهم والخيال والمراد بالظن ههنا الاعتقاد الفاسد وان أنتم الا تخرصون تكذبون على الله فيما ادعيتموه قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ولو شاء الله ما أشركنا وقال كذلك كذب الذين من قبلهم ثم قال ولو شاء الله ما أشركوا فانهم قالوا عبادتنا الآلهة تقربنا الى الله زلفى فأخبرهم الله أنها لا تقربهم فقوله ولو شاء الله ما أشركوا يقول

وأتى بمن التبعيضية لان منهم من أسلم فلم يصبه العذاب (عذاب أليم) أي كثير الألم فيصدق على عذاب الدنيا بالقتل والاسر وعذاب الآخرة بالنار المؤبدة ولما ذكر سبحانه المعذرين ذكر بعدهم اهل الاعذار الصحيحة المسقطة للغزو وبدأ بالعذر في أصل الخلقة فقال (ليس على الضعفاء) وهم ارباب الزمانة والهرم والعمى والعرج ونحو ذلك كالشيوخ والصبيان والنساء ومن خلق في أصل الخلقة ضعيفا نحيفا والضعفاء جمع ضعيف وهو الصحيح في بدنه العاجز عن الغزو ثم ذكر العذر العارض فقال (ولا على المرضى) المراد بالمرض كل ما يصدق عليه اسم المرض لغة أو شرعا وقيل انه يدخل في المرضى الاعمى والاعرج ونحوهما ثم ذكر العذر الراجع الى المال لا الى البدن فقال (ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج) أي ليست لهم أموال ينفقونها فيما يحتاجون اليه من التجهز للجهاد لفقرهم كجهينة ومزينة وبني عذرة فنفى سبحانه عن هؤلاء الثلاثة الحرج وأبان ان الجهاد مع هذه الاعذار ساقط عنهم غير واجب عليهم مقيدا بقوله (اذا نصحوا لله ورسوله) في حال قعودهم بالطاعة وعدم الارجاف والتثبيط وأصل النصح اخلاص العمل من الغش ومنه التوبة النصوح قال نفطويه نصح الشئ اذا خلص ونصح له القول أي أخلصه له والنصح لله الايمان به والعمل بشريعته وترك ما يخالفها كائنا ما كان ويدخل تحته دخولا أوليا نصح عباده ومحبة المجاهدين في سبيله وبذل النصيحة لهم في أمر الجهاد وترك المعاونة لاعدائهم بوجه من الوجوه ونصيحة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم التصديق بنبوته وبما جاء به وطاعته في كل ما يأمر به أو ينهى عنه وموالاة من والاه ومعاداة من عاداه ومحبته وتعظيم سنته واحياؤها بعد موته بما تبلغ اليه القدرة وقد ثبت في الحديث الصحيح ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال الدين النصيحة ثلاثا قالوا لمن قال لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم وفي الخازن النصح ان يقيموا في البلد ويحترزوا عن افشاء الاراجيف واثارة الفتن ويسعوا في ايصال الخير الى أهل الجهاد ويقوموا باصلاح مهمات بيوتهم (ما على المحسنين من سبيل) جملة مقررة لمضمون ما سبق أي ليس على المعذورين الناصحين طريق عتاب ومؤاخذة ومن مزيدة للتأكيد وعلى هذا فيكون لفظ المحسنين موضوعا في موضع الضمير الراجع الى المذكورين سابقا وأتى بالظاهر للدلالة على انتظامهم بنصحهم في سلك المحسنين

تعالى لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين وقوله تعالى قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم قل لهم يا محمد فلله الحجة البالغة أي له الحكمة التامة والحجة البالغة في هداية من هدى واضلال من أضل فلو شاء لهداكم أجمعين فكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويبغض الكافرين كما قال تعالى ولو شاء الله لجمعهم على الهدى وقال تعالى ولو شاء ربك لآمن من في الارض وقوله ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين وقال الضحاك لا حجة

لاحد عصى الله ولكن لله الحجة البالغة على عباده وقوله تعالى قل هلم شهداءكم الذين يشهدون ان الله حرم هذا أى هذا الذى حرمتموه وكذبتم وافتريتم على الله فيه فان شهدوا فلا تشهد معهم أى لأنهم انما يشهدون والحالة هذه كذبا وزورا ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون أى يشركون به ويجعلون له عديلا (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيأ وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى (١٤٦) حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) قال داود الاودى

عن الشعبى عن علقمة عن ابن مسعود رضى الله عنه قال من أراد أن ينظر الى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم التى عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيأ الى قوله لعلكم تتقون وقال الحاكم فى مستدركه حدثنا بكر بن محمد الصيرفى عن عروة حدثنا عبد الصمد بن الفضل حدثنا مالك ابن اسمعيل المهدى حدثنا اسرائيل عن أبى اسحق عن عبد الله بن خليفة قال سمعت ابن عباس يقول فى الانعام آيات محكمات هن أم الكتاب ثم قرأ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم الآيات ثم قال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه قلت ورواه زهير وقيس بن الربيع كلاهما عن أبى اسحق عن عبد الله ابن قيس عن ابن عباس به والله أعلم وروى الحاكم أيضا فى مسنده من حديث يزيد بن هرون عن سفيان ابن حسين عن الزهرى عن أبى ادريس عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيكم يبايعنى على ثلاث ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم حتى فرغ من الآيات فمن وفى فأجره على الله ومن انتقص منهن شيأ فأدركه الله به فى الدنيا كانت عقوبته ومن أخر الى الآخرة فأمره الى الله ان شاء عذبه وان شاء عفا عنه ثم قال صحيح الاسناد ولم يخرجاه وانما اتفقا على حديث الزهرى عن أبى ادريس عن عبادة بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيأ الحديث وقد روى سفيان بن حسين كلا الحديثين فلا ينبغى أن ينسب الى الوهم فى أحد الحديثين اذا جمع بينهما والله أعلم وأما تفسيرها فيقول تعالى لنبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله وحرموا ما رزقهم الله وقتلوا أولادهم وكل ذلك فعلوه بآرائهم وتسويل الشياطين لهم قل لهم تعالوا أى هلموا واقبلوا أتل ما حرم ربكم عليكم أى أقص

مشيخة

أو يكون المراد ما على جنس المحسنين من سبيل وهؤلاء المذكورون سابقا من جملتهم فتكون الجملة تعليلية وقولهم لا سبيل عليه معناه لا حرج ولا عتاب وانه بمعنى لا عاتب عبر عليه فضلا عن العتاب واذا تعدى بالى كقوله

ألا ليت شعرى هل الى أم سالم * سبيل فاما الصبر عنها فلا صبر

فبمعنى الوصول كما قال

هل من سبيل الى خمر فاشربها * أم من سبيل الى نصر بن حجاج

ونحوه فتنبه لمواطن استعماله فانه من مهمات الفصاحة (والله غفور رحيم) لهم أو للمسىء فكيف للمحسن والجملة تذييلية وفى معنى هذه الآية قوله تعالى لا يكلف الله نفسا الا وسعها وقوله ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج واسقاط التكليف عن هؤلاء المعذورين لا يستلزم عدم ثبوت ثواب الغزو لهم الذى عذرالله عنه مع رغبتهم اليه لولا حبسهم العذر عنه ومنه حديث أنس عند أبى داود وأحمد وأصله فى الصحيحين ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لقد تركتم بعدكم قوما ما سرتم من مسير ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم واديا الا وهم معكم فيه قالوا يا رسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة فقال حبسهم العذر وأخرجه أحمد ومسلم من حديث جابر عن قتادة قال أنزلت هذه الآية فى عائذ بن عمرو المزنى وقال الضحاك عذرهم وجعل لهم من العذر ما جعل للمجاهدين قال الرازى ليس فى الآية انه يحرم عليهم الخروج لان الواحد لو خرج ليعين المجاهدين بمقدار القدرة اما بحفظ متاعهم أو بتكثير سوادهم بشرط ان لا يجعل نفسه كلا و وبالا عليهم لكان ذلك طاعة مقبولة ثم ذكر الله سبحانه من جملة المعذورين من تضمنه قوله (ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه) العطف على جملة ما على المحسنين أو على الضعفاء أى لا عليهم حرج والمعنى ان من جملة المعذورين هؤلاء الذين أتوك لتحملهم على ما يركبون عليه فى الغزو فلم تجد ذلك الذى طلبوه منك قيل هم سبعة من الانصار وقيل بنو مقرن وقيل المعنى اذا ما أتوك قائلا لا أجد وقيل غير ذلك وهذا أولى وفى ايثار هذا التعبير على ليس عندى لطف فى الكلام وتطييب لقلوب السائلين كأنه قال أنا أطلب ما تسألونه وأفتش عنه فلا أجده فأنا معذور وعن أنس فى الآية قال الماء والزاد وعن على بن صالح قال حدثنى

عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقا لا تخرصا ولا ظنا بل وحيا منه وأمرا من عنده ألا تشركوا به شيأ وكأن في الكلام محذوفا دل عليه السياق وتقديره وأوصاكم ألا تشركوا به شيأ ولهذا قال في آخر الآية ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون وكما قال الشاعر

حج وأوصى بسليمى الأعبدا * أن لا ترى ولا تكلم أحدا * ولا يزل شرابها مبردا

وتقول العرب أمرتك أن لا تقوم وفي الصحيحين من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاني جبريل فبشرني انه من مات لا يشرك بالله شيأ من أمتك دخل الجنة قلت وان زنى وان سرق قال وان زنى وان سرق قلت وان زنى وان سرق (١٤٧) قال وان زنى وان سرق قلت وان زنى وان سرق قال وان زنى وان سرق وان شرب الخمر وفي بعض الروايات أن قائل ذلك انما هو أبو ذر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وانه عليه السلام قال في الثالثة وان رغم أنف أبي ذر فكان أبو ذر يقول بعد تمام الحديث وان رغم أنف أبي ذر وفي بعض المسانيد والسنن عن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى يا ابن آدم انك ما دعوتني ورجوتني فاني أغفر لك على ما كان منك ولا أبالي ولو أتيتني بقراب الارض خطيئة أتيتك بقرابها مغفرة ما لم تشرك بي شيأ وان أخطأت حتى تبلغ خطاياك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولهذا شاهد في القرآن قال الله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود من مات لا يشرك بالله شيأ دخل الجنة والآيات والاحاديث في هذا كثيرة جدا وروى ابن مردويه من حديث عبادة وأبي الدرداء لا تشركوا بالله شيأ وان قطعتم أو صلبتم أو حرقتم وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عوف الحمصي حدثنا ابن أبي مريم حدثنا نافع بن يزيد حدثني سيار بن عبد الرحمن عن يزيد بن قوذر عن سلمة بن شريح عن عبادة بن الصامت قال أوصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبع خصال ألا تشركوا بالله شيأ وان حرقتم وقطعتم وصلبتم رواه ابن أبي حاتم وقوله تعالى وبالوالدين احسانا أي وأوصاكم وأمركم بالوالدين احسانا وقرأ بعضهم ووصى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا أي احسنوا اليهم والله تعالى كثيرا ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين كما قال أن اشكر لي ولوالديك الي المصير وان جاهداك على أن تشرك بي

مشيخة من جهينة قالوا أدركنا الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحملان فقالوا ما سألناه الا الحملان على النعال وعن ابراهيم بن أدهم عمن حدثه في الآية قال ما سألوه الدواب ما سألوه الا النعال وعن الحسن بن صالح قال استحملوه النعال (تولوا) أي انصرفوا عنك لما قلت لهم لا أجد ما أحملكم عليه (وأعينهم تفيض) أي تسيل (من الدمع) أي حال كونهم باكين ومن للبيان وفي الشهاب ان الفيض انصباب عن امتلاء فوضع موضع الامتلاء للمبالغة أو جعلت أعينهم من فرط البكاء كأنها تفيض بأنفسها يعني ان الفيض مجاز عن الامتلاء بعلاقة السببية فان الثاني سبب للاول فالمجاز في المسند والدمع هو ذلك الماء أو الفيض على حقيقته والتجوز في اسناده الى العين للمبالغة كجرى النهر ومن للتعليل (حزنا ألا يجدوا) قال الفراء أي ليس يجدوا وقيل حزنا على أن لا يجدوا وقيل المعنى حزنا انهم لا يجدوا وقيل لاجل أن لا يجدوا (ما ينفقون) في الجهاد لا عند أنفسهم ولا عندك عن محمد بن كعب قال هم سبعة نفر من بني عمرو بن عوف سالم بن عمير ومن بني واقف حرمي بن عمرو ومن بني مازن بن النجار عبد الرحمن(١) بن كعب يكنى أبا ليلى ومن بني المعلى سلمان بن صخر ومن بني حارثة عبد الرحمن بن زيد أبو عبلة ومن بني سلمة عمرو بن عنمة وعبد الله بن عمرو المزني ومن ثم قيل لهم البكاؤن فحمل العباس منهم اثنين وعثمان ثلاثة زيادة على الجيش الذي جهزه وهو ألف وحمل يامين بن عمرو النضري اثنين كذا في مختصر سيرة الحلبي وقد اتفق الرواة على بعض هؤلاء السبعة واختلفوا في البعض ولا يأتي التطويل في مثل ذلك بكثير فائدة ثم ذكر الله سبحانه من عليه السبيل من المتخلفين فقال (انما السبيل) أي طريق العقوبة والمؤاخذة وهي الاعمال السيئة وأتى بانما للمبالغة في التوكيد لا للحصر قال السفاقسي وليس ثم ما يمنع أن تكون للحصر (على الذين يستأذنونك) في التخلف عن الغزو (وهم) أي والحال انهم (أغنياء) يجدون ما يحملهم وما يتجهزون به (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) وهم النساء والصبيان والجملة مستأنفة كأنه قيل ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء فقيل رضوا أي بالدناءة والضعة والانتظام فيهم واليه مال الزمخشري وقيل انه في محل نصب على الحال وقد مقدرة قاله الكرخي (وطبع الله على قلوبهم) معطوفة على رضوا أي سبب الاستئذان مع الغنى أمران أحدهما الرضا بالصفقة الخاسرة وهي ان يكونوا مع الخوالف والثاني الطبع من الله

---

(١) قوله عبد الرحمن كذا بالاصل والذي في حاشية الجمل والسيرة الحلبية عبد الله وقوله أبو عبلة كذا في الاصل وبالجملة فالسبعة فيهم خلاف طويل وحرر اه

ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب الى ثم الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون فأمر بالاحسان اليهما وان كانا مشركين بحسبهما وقال تعالى واذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا الآية والآيات فى هذا كثيرة وفى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى العمل أفضل قال الصلاة على وقتها قلت ثم أى قال بر الوالدين قلت ثم أى قال الجهاد فى سبيل الله قال ابن مسعود حدثنى بهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو استزدته لزادنى وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه باسناده عن أبى الدرداء وعن عبادة ابن الصامت كل منهما يقول أوصانى خليلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أطع والديك وان أمراك أن تخرج لهما من الدنيا فافعل ولكن فى اسناديهما ضعف والله أعلم وقوله تعالى ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم لما وصى تعالى بالوالدين والاجداد عطف على ذلك الاحسان الى الابناء والاحفاد فقال تعالى ولا تقتلوا أولادكم من املاق وذلك انهم كانوا يقتلون أولادهم كما سولت لهم الشياطين ذلك فكانوا يقتلون البنات خشية العار وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار ولهذا ورد فى الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أى قال ان تقتل ولدك خشية ان يطعم معك قلت ثم أى قال ان تزانى حليلة جارك ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون الآية وقوله تعالى من املاق قال ابن عباس وقتادة والسدى وغيره هو الفقر أى ولا تقتلوهم من فقركم الحاصل وقال فى سورة الاسراء ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق أى لا تقتلوهم خوفا من الفقر فى الآجل ولهذا قال هناك نحن نرزقهم واياكم فبدأ برزقهم للاهتمام بهم أى لا تخافوا من فقركم بسبب رزقهم فهو على الله واما هنا فلما كان الفقر حاصلا قال نحن نرزقكم واياهم لانه الاهم ههنا والله أعلم وقوله تعالى ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن كقوله تعالى قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون وقد تقدم تفسيرها فى قوله تعالى وذروا

عند

على قلوبهم (فهم) بسبب هذا الطبع (لا يعلمون) ما فيه الربح لهم حتى يختاروه على ما فيه الخسر عن مجاهد قال هى فى المنافقين قال السيوطى وقد تقدم مثله اهـ قال فى الجمل لكن مع نوع اختلاف فى الالفاظ كما لا يخفى (يعتذرون اليكم اذا رجعتم اليهم) اخبار من الله سبحانه عن المنافقين المعتذرين بالباطل بانهم يعتذرون الى المؤمنين اذا رجعوا عن الغزو وهذا كلام مستأنف وانما قال اليهم أى الى المعتذرين بالباطل ولم يقل الى المدينة لان مدار الاعتذار هو الرجوع اليهم لا الرجوع اليها وربما يقع الاعتذار عند الملاقاة قبل الوصول اليها ويحتمل أن يكون الضمير فى اليكم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على التأويل المشهور وفى هذا روى ان المعتذرين كانوا بضعة وثمانين رجلا ثم أخبر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بما يجيب به عليهم فقال (قل لا تعتذروا) فنهاهم أولا عن الاعتذار بالباطل ثم علله بقوله (لن نؤمن لكم) أى لن نصدقكم كأنهم ادعوا انهم صادقون فى اعتذارهم لان غرض المعتذر أن يصدق فيما يعتذر به فاذا عرف انه لا يصدق ترك الاعتذار وانما خص الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالجواب عليهم مع ان الاعتذار منهم كان الى جميع المؤمنين لانه صلى الله عليه وآله وسلم رأسهم والمتولى لما يرد عليهم من جهة الغير وجملة (قد نبأنا الله من أخباركم) تعليلية للتى قبلها أى لا يقع منا تصديق لكم لان الله قد أعلمنا بالوحى ما هو مناف لصدق اعتذاركم (وسيرى الله عملكم) أى ما ستفعلونه من الاعمال فيما بعد هل تقلعون عما أنتم عليه الآن من الشر أم تبقون عليه وقيل سيعلم عملكم السيء واقعا أى مستمرا على الوقوع والظاهر ان الاستقبال فى علم الله بالنظر الى ظهوره لنا (ورسوله) معطوف على الاسم الشريف ووسط مفعول الرؤية ايذانا بان رؤية الله سبحانه لما ستفعلونه من خير أو شر هى التى تدور عليها الاثابة أو العقوبة وفى جملة (ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) تخويف شديد لما هى مشتملة عليه من التهديد ولا سيما ما اشتملت عليه من وضع الظاهر موضع المضمر لاشعار ذلك باحاطته بكل شئ يقع منهم مما يكتمونه ويتظاهرون به واخباره لهم به ومجازاتهم عليه (سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم) ذكر ان هؤلاء المعتذرين بالباطل سيؤكدون ما جاؤا به من الاعذار الباطلة بالحلف

ظاهر الاثم وباطنه وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن وقال عبد الملك بن عمير عن وراد عن مولى المغيرة قال قال سعد بن عبادة لو رأيت مع امرأتي رجلا لضربته بالسيف غير مصفح فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أتعجبون من غيرة سعد فوالله لأنا أغير من سعد والله أغير مني من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن أخرجاه وقال كامل أبو العلاء عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قيل يا رسول الله أتغار قال والله اني لأغار والله أغير مني ومن غيرته (١٤٩) نهى عن الفواحش رواه ابن مردويه ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة وهو على شرط الترمذي فقد روى بهذا السند أعمار أمتي ما بين الستين الى السبعين وقوله تعالى ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق وهذا مما نص تبارك وتعالى عن النهي عنه تأكيدا والا فهو داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن فقد جاء في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا اله الا الله واني رسول الله الا باحدى ثلاث الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة وفي لفظ لمسلم والذي لا اله غيره لا يحل دم رجل مسلم وذكره قال الاعمش فحدثت به ابراهيم فحدثني عن الاسود عن عائشة بمثله وروى أبو داود والنسائي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يحل دم امرئ مسلم الا باحدى ثلاث خصال زان محصن يرجم ورجل قتل متعمدا فيقتل ورجل يخرج من الاسلام حارب الله ورسوله فيقتل أو يصلب أو ينفى من الارض وهذا لفظ النسائي وعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال وهو محصور سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يحل دم امرئ مسلم الا باحدى ثلاث رجل كفر بعد اسلامه أو زنى بعد احصانه أو قتل نفسا بغير نفس فوالله ما زنيت في جاهلية ولا اسلام ولا تمنيت أن لي بديني بدلا منه بعد اذ هداني الله ولا قتلت نفسا فبم تقتلونني رواه الامام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه وقال الترمذي هذا حديث حسن وقد جاء النهي والزجر والوعيد في قتل المعاهد وهو المستأمن من أهل الحرب فروى البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم مرفوعا من قتل معاهدا

عند رجوع المؤمنين اليهم من الغزو وغرضهم من هذا التأكيد (لتعرضوا عنهم) أي يعرض المؤمنون عنهم فلا يوبخونهم ولا يؤاخذونهم بالتخلف ويظهرون الرضا عنهم كما يفيده ذكر الرضا من بعد وحذف المحلوف عليه لكون الكلام يدل عليه وهو اعتذارهم الباطل (فأعرضوا عنهم) أي دعوهم وما اختاروا لانفسهم والمراد به تركهم والمهاجرة لهم لا الرضا عنهم والصفح عن ذنبهم كما تفيده جملة (انهم رجس) الواقعة علة للامر بالاعراض والمعنى انهم في أنفسهم رجس لكون جميع أعمالهم نجسة فكأنها قد صيرت ذواتهم رجسا أو أنهم ذوو رجس أي ذوو أعمال قبيحة ومثله انما المشركون نجس وهؤلاء لما كانوا هكذا كانوا غير متأهلين لقبول الارشاد الى الخير والتحذير من الشر فليس لهم الا الترك قال أهل المعاني ان هؤلاء طلبوا اعراض الصفح فأعطوا اعراض المقت (ومأواهم جهنم) من تمام التعليل فان من كان من أهل النار لا يجدي فيه الدعاء الى الخير وتعليل مستقل قاله أبو السعود والمأوى كل مكان يأوي اليه الشئ ليلا أو نهارا وقد أوى فلان الى منزله يأوي (جزاء) أي يجزون جزاء أو مفعول من أجله (بما كانوا يكسبون) الباء السببية (يحلفون لكم) حذف هنا المحلوف به لكونه معلوما مما سبق والمحلوف عليه بمثل ما تقدم (لترضوا عنهم) بين سبحانه ان مقصدهم بهذا الحلف هو رضا المؤمنين عنهم ثم ذكر ما يفيد انه لا يجوز الرضا عن هؤلاء المعتذرين بالباطل فقال (فان ترضوا عنهم) كما هو مطلوبهم مساعدة لهم وقبلتم عذرهم فلا ينفعهم رضاكم (فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) تعليل للمحذوف المتقدم واذا كان هذا هو ما يريده الله سبحانه من عدم الرضا عن هؤلاء الفسقة العصاة فينبغي لكم أيها المؤمنون ان لا تفعلوا خلاف ذلك بل واجب عليكم أن لا ترضوا عنهم على ان رضاكم عنهم لو وقع لكان غير معتد به ولا مفيد لهم والمقصود من اخبار الله سبحانه بعدم رضاه عنهم هو نهي المؤمنين عن ذلك لان الرضا عمن لا يرضى الله عنه مما لا يفعله مؤمن ونكتة العدول لهذا الظاهر التسجيل عليهم حيث وصفهم بالخروج عن الطاعة المستوجب لما حل بهم من السخط وللايذان بشمول الحكم لمن شاركهم في ذلك (الاعراب) أي جنسهم لا كل واحد لما سيأتي (أشد كفرا ونفاقا) لما ذكر سبحانه أحوال المنافقين بالمدينة ذكر حال من كان خارجا عنها من الاعراب وبين ان كفرهم

لم يرح رائحة الجنة وان ريحها ليوجد من مسيرة اربعين عاما وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من قتل معاهدا له ذمة الله وذمة رسوله فقد أخفر بذمة الله فلا يرح رائحة الجنة وان ريحها ليوجد من مسيرة خمسين خريفا رواه ابن ماجه والترمذي وقال حسن صحيح وقوله ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون أي هذا ما وصاكم به لعلكم تعقلون عن الله أمره ونهيه

(ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا الا وسعها واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) (١٥٠)

قال عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما أنزل الله ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن وان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما الآية فانطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله أو يفسد فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله ويسئلونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير وان تخالطوهم فاخوانكم قال فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم رواه أبو داود وقوله تعالى حتى يبلغ أشده قال الشعبي ومالك وغير واحد من السلف يعني حتى يحتلم وقال السدي حتى يبلغ ثلاثين سنة وقيل أربعون سنة وقيل ستون سنة قال وهذا كله بعيد ههنا والله أعلم وقوله تعالى وأوفوا الكيل والميزان بالقسط يأمر تعالى باقامة العدل في الأخذ والاعطاء كما توعد على تركه في قوله تعالى ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يبخسون المكيال

وفي كتاب الجامع لأبي عيسى الترمذي من حديث الحسين بن قيس أبي علي الرحبي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحاب الكيل والميزان انكم وليتم أمرا هلكت فيه الأمم السالفة قبلكم ثم قال لا نعرفه مرفوعا الا من حديث الحسين وهو ضعيف في الحديث وقد روي باسناد صحيح عن ابن عباس موقوفا قلت وقد رواه ابن مردويه في تفسيره من حديث شريك عن الأعمش عن سالم بن أبي الجعد عن ابن عباس قال قال رسول الله

ونفاقهم أشد من كفر غيرهم ومن نفاق غيرهم لانهم أقسى قلوبا وأغلظ طباعا وأجفى قولا وأبعد عن سماع كتب الله وما جاءت به رسله وأوحش فعلا ولان نشأتهم في معزل من مشاهدة العلماء ومفاوضتهم وهذا من باب وصف الجنس بوصف بعض افراده كما في قوله تعالى وكان الانسان كفورا اذ ليس كلهم كما ذكر على ما ستحيط به خبرا والأعراب هم من سكن البوادي بخلاف العرب فانه عام لهذا النوع من بني آدم سواء سكنوا البوادي أو القرى هكذا قال أهل اللغة ولهذا قال سيبويه ان الاعراب صيغة جمع وليست بصيغة جمع العرب لئلا يلزم كون الجمع أخص من مفرده قال النيسابوري قال أهل اللغة رجل عربي اذا كان نسبه الى العرب ثابتا وجمعه عرب كالمجوسي والمجوس واليهودي واليهود فالاعرابي اذا قيل له يا عربي فرح واذا قيل للعربي يا أعرابي غضب وذلك ان من استوطن القرى العربية فهو عربي ومن نزل البادية فهو اعرابي ولهذا لا يجوز ان يقال للمهاجرين والانصار أعراب وانما هم عرب فان قيل انما سمي العرب عربا لان أولاد اسمعيل عليه السلام نشؤا بالعرب وهي من تهامة فنسبوا الى بلدهم وكل من يسكن جزيرة العرب وينطق بلسانهم فهو منهم وقيل لان ألسنتهم معربة عما في ضمائرهم ولما في لسانهم من الفصاحة والبلاغة انتهى وفي المصباح واما الاعراب بالفتح فأهل البدو من العرب الواحد أعرابي بالفتح أيضا وهو الذي يكون صاحب نجعة وارتياد للكلا وزاد الازهري سواء كان من العرب أو من مواليهم فمن نزل البادية وجاور البادين وظعن بظعنهم فهم أعراب ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها ممن ينتمي الى العرب فهم عرب وان لم يكونوا فصحاء (وأجدر) معناه أخلق يقال فلان جدير بكذا أي خليق به وأنت جدير أن تفعل كذا وأصله من جدر الحائط وهو رفعه بالبناء يقال هو جدير وأجدر وحقيق وأحق وقمن وخليق وأولى بكذا كله بمعنى واحد قال الليث جدر يجدر جدارة فهو جدير ويؤنث ويثنى ويجمع وقد نبه الراغب على أصل اشتقاق هذه المادة وانها من الجدار أي الحائط فقال والجدير المنتهى لانتهاء الامر اليه انتهاء الشيء الى الجدار والذي يظهر ان اشتقاقه من الجدر وهو أصل الشجرة فكأنه ثابت كثبوت الجدر في قولك جدير بكذا (ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) من الشرائع والاحكام والفرائض وما أمر به من الجهاد لبعدهم عن مواطن الانبياء وديار

التنزيل

صلى الله عليه وسلم انكم معشر الموالي قد بشركم الله بخصلتين بهما هلكت القرون المتقدمة المكيال والميزان وقوله تبارك وتعالى لا نكلف نفسا الا وسعها أي من اجتهد في اداء الحق وأخذه فان أخطأ بعد استفراغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه وقد روى ابن مردويه من حديث بقية عن مبشر بن عبيد عن عمرو بن ميمون بن مهران عن أبيه عن سعيد بن المسيب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا الا وسعها عن ابن المسيب يرفعه في الآية فقال من أوفى على يده في الكيل والميزان والله يعلم صحة نيته بالوفاء فيهما لم يؤاخذ وذلك تأويل (١٥١) وسعها هذا مرسل غريب وقوله واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى كقوله يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط الآية وكذا التي تشبهها في سورة النساء يأمر تعالى بالعدل لكل أحد في كل وقت وفي كل حال وقوله وبعهد الله أوفوا قال ابن جرير يقول وبوصية الله التي أوصاكم بها فأوفوا وانقادوا لذلك بأن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم وأن تعملوا بكتابه وسنة رسوله وذلك هو الوفاء بعهد الله ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون يقول تعالى هذا أوصاكم به وأمركم به وأكد عليكم فيه لعلكم تذكرون أي تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه قبل هذا وقرأ بعضهم بتشديد الذال وآخرون بتخفيفها (وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية في قوله ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله وفي قوله أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ونحو هذا في القرآن قال أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة وأخبرهم انه انما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله ونحو هذا قاله مجاهد وغير واحد وقال الامام أحمد بن حنبل حدثنا الاسود بن عامر شاذان حدثنا أبو بكر هو ابن عياش عن عاصم هو ابن أبي النجود عن أبي وائل عن عبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه قال خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا بيده ثم قال هذا سبيل الله مستقيما وخط عن يمينه وشماله ثم قال هذه السبل ليس منها سبيل الا عليه شيطان يدعو اليه ثم قرأ وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله وكذا رواه الحاكم عن الاصم عن أحمد بن عبد الجبار عن أبي بكر بن عياش به وقال صحيح ولم يخرجاه وهكذا رواه أبو جعفر الرازي

التنزيل ومشاهدة المعجزات ومعاينة ما ينزل عليه في تضاعيف الكتاب والسنة ووصف العرب بأنهم جاهلون لا ينافي صحة الاحتجاج بألفاظهم وأشعارهم على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم اذ وصفهم بالجهل انما هو في أحكام القرآن لا في ألفاظه ونحن لا نحتج بلغتهم في بيان الاحكام بل في معاني بيان الالفاظ لان القرآن والسنة جاءا بلغتهم قاله الكرخي (والله عليم) بأحوال مخلوقاته على العموم وهؤلاء منهم (حكيم) فيما يجازيهم به من خير وشر عن الكلبي ان هذه الآية نزلت في أسد وغطفان وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي والبيهقي في شعب الايمان عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال من سكن البادية جفا ومن اتبع الصيد غفل ومن أتى السلطان افتتن قال الترمذي هذا حديث حسن غريب لا نعرفه الا من حديث الثوري وأخرج أبو داود والبيهقي من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من بدا جفا ومن اتبع الصيد غفل ومن أتى أبواب السلطان افتتن وما ازداد أحد من سلطانه قربا الا ازداد من الله بعدا (ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرما) هذا تنويع الجنس الى نوعين الاول هؤلاء والثاني ومن الاعراب من يؤمن بالله والمغرم الغرم والخسران وهو ثاني مفعولي يتخذ لانه بمعنى الجعل والمعنى انه اعتقد ما ينفقه في سبيل الله غرامة وخسرانا وأصل الغرم والغرامة ما ينفقه الرجل وليس بلازم له في اعتقاده ولكنه ينفقه للرياء والتقية وقيل أصل الغرم اللزوم كأنه اعتقد أنه يلزمه لامر خارج لا تنبعث له النفس قال النحاس يعني بالمغرم انه لا يرجو له ثوابا عند الله ولا مجازاة وانما يعطي ما يعطي من الصدقات كرها وعن ابن زيد قال هؤلاء المنافقون من الاعراب الذين انما ينفقون رياء اتقاء ان يغزوا ويحاربوا ويقاتلوا ويرون نفقاتهم مغرما وهم بنو أسد وغطفان (ويتربص) أي ينتظر (بكم الدوائر) جمع دائرة وهي الحالة المنقلبة عن النعمة الى البلية وأصلها ما يحيط بالشيء ودوائر الزمان نوبه وتصاريفه ودوله وكأنها لا تستعمل الا في المكروه وفي الدائرة مذهبان أظهرهما انها صفة على فاعلة كقائمة وقال الفارسي يجوز أن تكون مصدرا كالعاقبة والمعنى ينتظر بكم تقلب الزمان وصروفه التي تأتي مرة بالخير ومرة بالشر قال يمان بن رباب يعني يموت الرسول ويظهر المشركون ثم دعا سبحانه عليهم بقوله (عليهم دائرة السوء) وجعل ما دعا به عليهم مماثلا لما أرادوه بالمسلمين والسوء

وورقاء وعمرو بن أبي قيس عن عاصم عن أبي وائل شقيق بن سلمة عن ابن مسعود به مرفوعا نحوه وكذا رواه يزيد بن هرون ومسدد والنسائي عن يحيى بن حبيب بن عربي بن حبان من حديث ابن وهب أربعتهم عن حماد بن زيد عن عاصم عن أبي وائل عن ابن مسعود به وكذا رواه ابن جرير عن المثنى عن الحماني عن حماد بن زيد به ورواه الحاكم عن أبي بكر بن اسحق عن اسمعيل بن اسحق القاضي عن سليمان بن حرب عن حماد بن زيد به كذلك وقال صحيح ولم يخرجاه وقد روى هذا الحديث النسائي والحاكم من حديث أحمد بن عبد الله بن يونس عن أبي بكر بن عياش عن عاصم عن زر عن عبد الله بن مسعود به مرفوعا وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث يحيى الحماني عن أبي بكر بن عياش عن عاصم عن زر به فقد صححه الحاكم كما رأيت من الطريقين ولعل هذا الحديث عند عاصم بن أبي النجود عن زر وعن أبي وائل شقيق بن سلمة كلاهما عن ابن مسعود به والله أعلم وقال الحاكم وشاهد هذا الحديث حديث الشعبي عن جابر من وجه غير معتمد يشير الى الحديث الذي قال الامام وعبد بن حميد جميعا واللفظ لاحمد حدثنا عبد الله بن محمد وهو أبو بكر بن أبي شيبة أنبأنا أبو خالد الاحمر عن مجالد عن الشعبي عن جابر قال كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم فخط خطا هكذا أمامه فقال هذا سبيل الله وخطين عن يمينه وخطين عن شماله وقال هذا سبيل الشيطان ثم وضع يده في الخط الاوسط ثم تلا هذه الآية وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ورواه أحمد وابن ماجه في كتابه السنة من سننه والبزار عن أبي سعيد عبد الله بن سعيد عن خالد الاحمر به قلت ورواه الحافظ ابن مردويه من طريقين عن أبي سعيد الكندي حدثنا أبو خالد عن مجالد عن الشعبي عن جابر قال خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا وخط عن يمينه خطا وخط عن يساره خطا ووضع يده على الخط الاوسط وتلا هذه الآية وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولكن العهدة على حديث ابن مسعود مع ما فيه من الاختلاف ان كان مؤثرا وقد روى موقوفا عليه قال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الاعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر بن أبان عن عثمان ان رجلا قال لابن مسعود ما الصراط المستقيم قال تركنا محمد صلى الله عليه وسلم في أدناه وطرفه

عند الجمهور مصدر أضيف اليه الدائرة للملابسة كقولك رجل صدق وهو مصدر في الحقيقة قال أبو البقاء وهو الضرر وقال مكي من فتح السين فمعناه الفساد والرداءة ومن ضمها فمعناه البلاء والضرر وظاهر هذا انهما اسمان لما ذكر ويحتمل أن يكونا مصدرين ثم أطلقا على ما ذكر وقال غيره المضموم العذاب والضرر والمفتوح الذم وقرأ ابن كثير وغيره بضم السين وهو المكروه قال الاخفش عليهم دائرة الهزيمة والشر وقال الفراء دائرة العذاب والبلاء قال والسوء بالفتح مصدر سوته سوأ ومساءة وبالضم اسم لا مصدر وهو كقولك دائرة البلاء والمكروه قال الخفاجي وبين الفتح والضم شبه طباق وقال الضحاك الدوائر الهلكات (والله سميع) لما يقولونه (عليم) بما يضمرونه (ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر) هذا النوع الثاني من أنواع الأعراب كما تقدم أي منهم من يصدق بهما عن عبد الرحمن بن معقل قال كنا عشرة ولد مقرن فنزلت هذه الآية فينا وقال مجاهد هم بنو مقرن من مزينة وهم الذين قال الله ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم الآية وقال الكلبي هم أسلم وغفار وجهينة ومزينة وفي الباب أحاديث يطول ذكرها (ويتخذ ما ينفق قربات) أي سبب قربات (عند الله) وهي جمع قربة بالضم وهي ما يتقرب به الى الله سبحانه تقول منه قربت لله قربانا والجمع قرب وقربات والمعنى انه يجعل ما ينفقه في سبيل الله سببا لحصول القربات عند الله (وصلوات الرسول) أي سببا لدعوات الرسول لهم لانه صلى الله عليه وآله وسلم كان يدعو للمتصدقين ومنه قوله وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم اللهم صل على آل أبي أوفى وقال ابن عباس استغفار النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقيل انها منسوقة على ما ينفق أي ويتخذ ما ينفق وصلوات الرسول قربة وجوزه ابن عطية ولم يذكر أبو البقاء غيره وظاهر كلام الزمخشري انها نسق على قربات كما تقدم ثم انه سبحانه بين بان ما ينفقه هذا النوع من الاعراب تقربا الى الله مقبول واقع على الوجه الذي أرادوه فقال (الا انها قربة لهم) أخبر سبحانه بقبولها خبرا مؤكدا باسمية الجملة وحرفي التنبيه والتحقيق وفي هذا من التطييب لخواطرهم والطمأنينة لقلوبهم ما لا يقادر قدره مع ما يتضمنه من النعي على من يتخذ ما ينفق مغرما والتوبيخ له بأبلغ وجه والضمير في انها راجع الى ما في ما ينفق وتأنيثه باعتبار الخبر وقيل راجع الى صلوات الرسول والاول أولى ثم فسر سبحانه القربة بقوله (سيدخلهم الله

في

في الجنة وعن يمينه جواد وعن يساره جواد ورجال يدعون من مر بهم فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به الى النار ومن أخذ على الصراط انتهى به الى الجنة ثم قرأ ابن مسعود وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله الآية وقال ابن مردويه حدثنا أبو عمرو حدثنا محمد بن عبد الوهاب حدثنا آدم حدثنا اسمعيل بن عياش حدثنا أبان بن عياش عن مسلم بن أبي عمران عن عبد الله بن عمر سأل عبد الله عن الصراط المستقيم فقال ابن مسعود تركنا محمد صلى الله عليه وسلم في أدناه وطرفه في الجنة وذكر تمام الحديث كما تقدم والله أعلم وقد روي من حديث النواس بن سمعان (١٥٣) نحوه قال الامام أحمد حدثني الحسن ابن سوار أبو العلاء حدثنا الليث يعني ابن سعد عن معاوية بن صالح ان عبد الرحمن بن جبير بن نفير حدثه عن أبيه عن النواس بن سمعان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ضرب الله مثلا صراطا مستقيما وعن جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الابواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يقول يا أيها الناس هلم ادخلوا الصراط المستقيم جميعا ولا تفرقوا وداع يدعو من جوف الصراط فاذا أراد الانسان أن يفتح شيأ من تلك الابواب قال له ويحك لا تفتحه فانك ان تفتحه تلجه فالصراط الاسلام والسوران حدود الله والابواب المفتحة محارم الله وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم ورواه الترمذي والنسائي عن علي بن حجر زاد النسائي وعمرو بن عثمان كلاهما عن بقية ابن الوليد عن بحير بن سعد عن خالد ابن معدان عن جبير بن نفير عن النواس بن سمعان به وقال الترمذي حسن غريب وقوله تعالى فاتبعوه ولا تتبعوا السبل انما وحد سبيله

لان الحق واحد ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها كما قال تعالى الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون قال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان الواسطي حدثنا يزيد بن هرون حدثنا سفيان بن حسين عن الزهري عن أبي ادريس الخولاني عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث ثم تلا قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم حتى فرغ من ثلاث الآيات ثم قال ومن وفى بهن فأجره على الله ومن انتقص منهن شيأ فأدركه الله في الدنيا كانت

في رحمته) السين لتحقيق الوعد وهذه النعمة هي أقصى مرادهم (ان الله غفور) لاهل طاعته (رحيم) بعباده (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار) لما ذكر سبحانه أصناف الاعراب ذكر المهاجرين والانصار وبين ان منهم السابقين الى الهجرة وان منهم التابعين لهم وقرأ عمر بن الخطاب الانصار بالرفع عطفا على والسابقون وقرأ سائر القراء من الصحابة فمن بعدهم بالجر قال الاخفش الخفض في الانصار الوجه لان السابقين منهم يدخلون في قوله والسابقون وفي هذه الآية تفضيل السابقين الاولين من المهاجرين والانصار وهم الذين صلوا للقبلتين في قول سعيد بن المسيب وطائفة أو الذين شهدوا بيعة الرضوان وهي بيعة الحديبية في قول الشعبي أو أهل بدر في قول محمد بن كعب وعطاء بن يسار ولا مانع من حمل الآية على هذه الاصناف كلها قال محمد بن كعب القرظي هم جميع الصحابة لانهم حصل لهم السبق بصحبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال أبو منصور البغدادي أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الاربعة ثم الستة الباقون ثم البدريون ثم أصحاب أحد ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية (والذين اتبعوهم) أي اتبعوا السابقين الاولين من المهاجرين والانصار وهم المتأخرون عنهم من الصحابة فمن بعدهم الى يوم القيامة وليس المراد بهم التابعين اصطلاحا وهم كل من أدرك الصحابة ولم يدرك النبي صلى الله عليه وآله وسلم بل هم من جملة من يدخل تحت الآية فتكون من في قوله من المهاجرين على هذا للتبعيض وقيل انها للبيان فيتناول المدح جميع الصحابة ويكون المراد بالتابعين من بعدهم من الامة الى يوم القيامة كما قال ابن زيد هم من بقي من أهل الاسلام الى أن تقوم الساعة قال جماعة من الصحابة لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذا لامتي كلهم وليس بعد الرضا سخط عن حميد بن زياد قال قلت لمحمد بن كعب القرظي أخبرني عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وانما أريد الفتن قال ان الله قد غفر لجميع أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأوجب لهم الجنة في كتابه محسنهم ومسيئهم قلت له وفي أي موضع أوجب الله لهم الجنة في كتابه قال ألا تقرؤن قوله تعالى والسابقون الاولون الآية أوجب لجميع أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم الجنة والرضوان وشرط على التابعين شرطا لم يشرطه فيهم قلت وما اشترط عليهم قال

عقوبته ومن أخره الى الآخرة كان أمره الى الله ان شاء أخذه وان شاء عفا عنه (ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن وتفصيلا لكل شئ وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون) قال ابن جرير ثم آتينا موسى الكتاب تقديره ثم قل يا محمد مخبرا عنا انا آتينا موسى الكتاب بدلالة قوله قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم قلت وفي هذا نظر وثم ههنا انما هي لعطف الخبر بعد الخبر لا للترتيب ههنا كما قال الشاعر

قل لمن ساد ثم ساد أبوه * ثم ساد قبل ذلك جده

(١٥٤) وههنا لما أخبر الله سبحانه عن القرآن بقوله وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه عطف بمدح التوراة وكثيرا ما يقرن سبحانه بين الكتابين كقوله تعالى ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا وقوله أول هذه السورة قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا الآية وبعدها وهذا كتاب أنزلناه مبارك الآية وقوله تعالى مخبرا عن المشركين فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى قال تعالى أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا انا بكل كافرون وقوله تعالى مخبرا عن الجن انهم قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي الى الحق الآية وقوله تعالى تماما على الذي أحسن وتفصيلا أي آتيناه الكتاب الذي أنزلناه اليه تماما كاملا جامعا لما يحتاج اليه في شريعته كقوله وكتبنا له في الالواح من كل شئ الآية وقوله تعالى على الذي أحسن أي جزاء على احسانه في العمل وقيامه باوامرنا وطاعتنا كقوله هل جزاء الاحسان الا الاحسان وكقوله واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال اني جاعلك للناس اماما وكقوله وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن يقول أحسن فيما أعطاه الله وقال قتادة من أحسن في الدنيا تمم له ذلك في الآخرة واختار ابن جرير ان تقديره ثم آتينا موسى الكتاب تماما على احسانه فكأنه جعل الذي مصدرية كما قيل في قوله تعالى وخضتم كالذي خاضوا أي كخوضهم وقال ابن رواحة

وثبت الله ما آتاك من حسن * في المرسلين ونصرا كالذي نصروا

اشترط عليهم أن يتبعوهم باحسان يقول يقتدون بهم في أعمالهم الحسنة ولا يقتدون بهم في غير ذلك قال أبو صخر فوالله لكأني لم أقرأها قبل ذلك ولا عرفت تفسيرها حتى قرأها علي محمد بن كعب وقوله (باحسان) قيد للتابعين أي والذين اتبعوهم متلبسين باحسان في الافعال والاقوال اقتداء منهم بالسابقين الاولين (رضي الله عنهم) أي قبل طاعتهم وتجاوز عنهم ولم يسخط عليهم (ورضوا عنه) بما أعطاهم من فضله ومع رضائه عنهم فقد (أعد لهم جنات تجري تحتها الانهار) في الدار الآخرة وفي قراءة بزيادة من قاله السيوطي وفي الجمل أي سبعية لابن كثير ومعلوم ان قراءته الصلة فليتنبه القارئ اذا قرأ بزيادة من اصلة الميم في المواضع الثلاثة وهي اتبعوهم وعنهم وأعد لهم لئلا يقع في التلفيق وقد تقدم تفسير جري الانهار من تحت الجنات وتفسير الخلود (خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم) اختلفوا في أول الناس اسلاما بعد اتفاقهم على أن خديجة أول الخلق اسلاما على أقوال يطول ذكرها وقال اسحق بن ابراهيم أول من أسلم من الرجال أبو بكر ومن النساء خديجة ومن الصبيان علي بن أبي طالب ومن العبيد زيد بن حارثة فهؤلاء الاربعة سباق الخلق الى الاسلام وأسلم على يد أبي بكر عثمان والزبير وابن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة ثم تتابع الناس بعدهم في الدخول في الاسلام فهؤلاء السابقون الاولون من المهاجرين واما من الانصار فهم الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة العقبة وهي العقبة الاولى وكانوا خمسة نفر سعد وعوف ورافع وقطبة وجابر ثم أصحاب العقبة الثانية وكانوا اثني عشر رجلا ثم أصحاب العقبة الثالثة وكانوا سبعين رجلا فهؤلاء سابقوا الانصار وقيل غير ذلك مما ليس في ذكره كثير فائدة

(وممن حولكم من الاعراب منافقون) هذا عود الى شرح أحوال المنافقين من أهل المدينة ومن يقرب منها من الاعراب قيل وهؤلاء الذين هم حول المدينة من المنافقين هم جهينة ومزينة وأشجع وغفار وأسلم ذكره جمع من المفسرين كالبغوي والواحدي وابن الجوزي والنسفي والخازن والسيوطي وغيرهم وفيه اشكال لان النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعا لهؤلاء القبائل فان صح هذا النقل فتحمل الآية على القليل منهم لان لفظة من للتبعيض ويحمل الدعاء لهم على الاكثر والاغلب وبهذا يمكن الجمع بينهما وأطلق الطبري القول ولم يعين أحدا من القبائل المذكورة بل قال من القوم الذين حول

وقال آخرون الذي ههنا بمعنى الذين قال ابن جرير وذكر عن عبد الله بن مسعود انه كان يقرؤها تماما على الذين أحسنوا وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد تماما على الذي أحسن قال على المؤمنين والمحسنين وكذا قال أبو عبيدة وقال البغوي المحسنون الأنبياء والمؤمنون يعني أظهرنا فضله عليهم قلت كقوله تعالى قال يا موسى اني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ولا يلزم اصطفاؤه على محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والخليل عليهما السلام لأدلة أخرى قال ابن جرير وروى عن عمرو بن العلاء عن يحيى بن يعمر انه كان يقرؤها تماما على الذي أحسن رفعا بتأويل على الذي هو أحسن ثم قال وهذه قراءة لا استجيز القراءة بها وان كان لها في العربية وجه صحيح وقيل معناه تماما على احسان الله اليه حكاه ابن جرير والبغوي ولا منافاة بينه وبين القول الاول وبه جمع ابن جرير كما بيناه ولله الحمد وقوله تعالى وتفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة فيه مدح لكتابه الذي أنزله الله عليه لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون فيه الدعوة الى اتباع القرآن يرغب سبحانه عباده في كتابه ويأمرهم بتدبره والعمل به والدعوة اليه ووصفه بالبركة لمن اتبعه وعمل به في الدنيا والآخرة لأنه حبل الله المتين (أن تقولوا انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وان كنا عن دراستهم لغافلين أو تقولوا لو انا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون) قال ابن جرير معناه وهذا كتاب أنزلناه لئلا تقولوا انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا يعني لينقطع عذركم كقوله تعالى ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك الآية وقوله تعالى على طائفتين من قبلنا قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس هم اليهود والنصارى وكذا قال مجاهد والسدي وقتادة وغير واحد وقوله وان كنا عن دراستهم لغافلين أي وما كنا نفهم ما يقولون لأنهم ليسوا بلساننا ونحن في غفلة وشغل مع ذلك عما هم فيه وقوله أو تقولوا لو انا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم أي وقطعنا تعللكم أن تقولوا لو انا أنزل علينا ما أنزل عليهم لكنا أهدى منهم فيما أوتوه

مدينتكم أيها المؤمنون من الاعراب منافقون (ومن أهل المدينة) قوم أو أناس (مردوا على النفاق) قال البغوي أي من الاوس والخزرج وقيل المعنى وممن حولكم من الاعراب ومن أهل المدينة منافقون مردوا وأصل مرد وتمرد اللين والملاسة والتجرد فكأنهم تجردوا للنفاق ومنه غصن أمرد لا ورق عليه وفرس أمرد لا شعر فيه وغلام أمرد لا شعر بوجهه وأرض مرداء لا نبات فيها وصرح ممرد مجرد دملس كما قال

في منزل شيد بنيانه * يزل عنه ظفر الطائر

فالمعنى أنهم أقاموا على النفاق وثبتوا عليه ولم ينثنوا عنه ولم يتوبوا منه قال ابن زيد معناه لجوا فيه وأبوا غيره قال الخفاجي أصل معنى التمرد التمرن أي الاعتياد والتدرب في الامر حتى يصير ماهرا فيه لاتخاذه صنعة وديدناله ولذا خفي نفاقهم عليه صلى الله عليه وآله وسلم مع كمال فطنته وفراسته وقال الراغب انه من قولهم شجرة مرداء أي لا ورق عليها أي انهم خلوا من الخير وروى أهل الجنة جرد مرد وهو محمول على ظاهره أو المراد انهم خالصون من الشوائب والقبائح وجملة (لا تعلمهم) مبينة للجملة الاولى وهي مردوا على النفاق أي ثبتوا عليه ثبوتا شديدا ومهروا فيه حتى خفي أمرهم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكيف سائر المؤمنين والمراد عدم علمه صلى الله عليه وآله وسلم بأعيانهم لا من حيث الجملة فان للنفاق دلائل لا تخفى عليه صلى الله عليه وآله وسلم ولا ينافي هذا قوله تعالى ولتعرفنهم في لحن القول لان آية التي نزلت قبل آية الاثبات وهذه الجملة صفة المنافقين أو مستأنفة والعلم هنا اما على بابه فيتعدى لاثنين أي لا تعلمهم منافقين أو عرفاني فيتعدى لواحد قاله أبو البقاء وأما قوله (نحن نعلمهم) فلا يجوز أن يكون الا على بابه وهي مقررة لما قبلها لما فيها من الدلالة على مهارتهم في النفاق ورسوخهم فيه على وجه يخفى على البشر ولا يظهر لغير الله سبحانه لعلمه بما يخفى وما تجنه الضمائر وتنطوي عليه السرائر ثم توعدهم سبحانه فقال (سنعذبهم مرتين) قيل المراد بهما عذاب الدنيا بالقتل والسبي وعذاب الآخرة وقيل الفضيحة بانكشاف نفاقهم والعذاب في الآخرة وقيل المصائب في أموالهم وأولادهم وعذاب القبر قال مجاهد مرتين يعني بالجوع والقتل وعن أبي مالك قال بالجوع وعذاب القبر وعن قتادة قال عذاب في القبر وعذاب في النار وقد روي عن جماعة من السلف نحو هذا في تعيين العذابين

وهكذا قال ههنا فقد جاءكم بينة من ربكم
كقوله وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الامم الآية
وهدى ورحمة يقول فقد جاءكم من الله على لسان محمد صلى الله عليه وسلم النبي العربي قرآن عظيم فيه بيان للحلال والحرام وهدى
لما في القلوب ورحمة من الله لعباده الذين يتبعونه ويقتفون ما فيه وقوله تعالى فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها أي لم
ينتفع بما جاء به الرسول ولا اتبع ما أرسل به ولا ترك غيره بل صدف عن اتباع آيات الله أي صرف الناس وصدهم عن ذلك
قاله السدي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة (١٥٦) وصدف عنها أعرض عنها وقول السدي ههنا فيه قوة لانه قال فمن أظلم
ممن كذب بآيات الله وصدف عنها
كما تقدم في أول السورة
وهم ينهون عنه وينأون عنه وان
يهلكون الا أنفسهم وقال تعالى
الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله
زدناهم عذابا فوق العذاب وقال في
هذه الآية الكريمة سنجزي الذين
يصدفون عن آياتنا سوء العذاب
بما كانوا يصدفون وقد يكون
المراد فيما قاله ابن عباس ومجاهد
وقتادة فمن أظلم ممن كذب
بآيات الله وصدف عنها أي لا آمن
بها ولا عمل بها كقوله تعالى فلا
صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى
وغير ذلك من الآيات الدالة على
اشتمال الكافر على التكذيب
بقلبه وترك العمل بجوارحه
ولكن كلام السدي أقوى وأظهر
والله أعلم لان الله قال فمن أظلم ممن
كذب بآيات الله وصدف عنها
كقوله تعالى الذين كفروا وصدوا
عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق
العذاب بما كانوا يفسدون (هل
ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة أو
يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك
يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع
نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيرا قل انتظروا انا منتظرون)
يقول تعالى متوعدا للكافرين به والمخالفين لرسله والمكذبين آياته والصارفين عن سبيله هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة
أو يأتي ربك وذلك كائن يوم القيامة أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا ايمانها وذلك قبل يوم
القيامة كائن من امارات الساعة وأشراطها حين يرون شيأ من أشراط الساعة كما قال البخاري في تفسير هذه الآية حدثنا
موسى بن اسمعيل حدثنا عبد الواحد حدثنا عمارة حدثنا أبو زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى

وقيل غير ذلك مما يطول ذكره مع عدم الدليل على انه المراد بعينه والظاهر أن هذا
العذاب المكرر هو في الدنيا بما يصدق عليه اسم العذاب وانهم يعذبون مرة بعد مرة ثم
يردون بعد ذلك الى عذاب الآخرة وهو المراد بقوله (ثم يردون الى عذاب عظيم) ومن قال
ان العذاب في المرة الثانية هو عذاب الآخرة قال معنى قوله ثم يردون انهم يردون بعد
عذابهم في النار كسائر الكفار الى الدرك الاسفل منها أو انهم يعذبون في النار عذابا خاصا
بهم دون سائر الكفار ثم يردون بعد ذلك الى العذاب الشامل لهم ولسائر الكفار وفي
مسند أحمد عن ابن مسعود خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فحمد الله وأثنى
عليه ثم قال ان منكم منافقين فمن سميته فليقم ثم قال قم يا فلان حتى سمى ستة وثلاثين ثم
ذكر سبحانه حال طائفة من المسلمين وهم المخلطون في دينهم فقال (و) ممن حولكم أو من أهل
المدينة قوم (آخرون اعترفوا بذنوبهم) المعنى ان هؤلاء الجماعة تخلفوا عن الغزو بغير
عذر مسوغ للتخلف ثم ندموا على ذلك ولم يعتذروا بالاعذار الكاذبة كما اعتذر المنافقون
بل تابوا واعترفوا بالذنب ورجوا أن يتوب الله عليهم (خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا)
المراد بالعمل الصالح ما تقدم من اسلامهم وقيامهم بشرائع الاسلام وخروجهم الى
الجهاد في سائر المواطن والمراد بالعمل السيء هو تخلفهم عن هذه الغزوة وقد أتبعوا هذا
العمل السيء عملا صالحا وهو الاعتراف به والتوبة عنه وأصل الاعتراف الاقرار بالشيء
ومجرد الاقرار لا يكون توبة الا اذا اقترن به الندم على الماضي والعزم على تركه في الحال
والاستقبال وقد وقع منهم ما يفيد هذا ومعنى الخلطة انهم خلطوا كل واحد منهما
بالآخر كقولك خلطت الماء باللبن واللبن بالماء ذكره غالب المفسرين وأنكره الرازي
وقال الواو لمطلق الجمع وفيه تنبيه على نفي القول بالمخالطة وانه بقي كل واحد منهما كما كان
من غير أن يتأثر أحدهما بالآخر ويجوز أن يكون الواو بمعنى الباء كقولك بعت
الشاء شاة ودرهما أي بدرهم وقال الواحدي الواو أحسن من الباء لانه أريد به معنى الجمع
لا حقيقة الخلط ألا ترى أن العمل الصالح لا يختلط بالسيء كما لا يختلط الماء باللبن لكن قد
يجمع بينهما وقال التفتازاني وتحقيقه أن الواو للجمع والباء للالصاق والجمع والالصاق
من قبيل واحد فسلك به طريق الاستعارة وقال الزمخشري كل واحد مخلوط ومخلوط به
وفيه ما ليس في الباء وفي قوله (عسى الله أن يتوب عليهم) دليل على انه قد وقع منهم مع
الاعتراف

الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فاذا طلعت ورآها الناس آمن من عليها فذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل حدثنا اسحق حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها وفي لفظ فاذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون وذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل ثم قرأ هذه الآية هكذا روى هذا الحديث من هذين الوجهين ومن الوجه الاول أخرجه بقية الجماعة في كتبهم الا الترمذي من طرق عن عمارة بن القعقاع بن شبرمة عن أبي زرعة (١٥٧) بن عمرو بن جرير عن أبي هريرة به واما الطريق الثاني فرواه عن اسحق غير منسوب وقيل هو ابن منصور الكوسج وقيل اسحق بن نصر والله أعلم وقد رواه مسلم عن محمد ابن رافع الجنديسابوري كلاهما عن عبد الرزاق به وقد ورد هذا الحديث من طرق أخر عن أبي هريرة كما انفرد مسلم بروايته من حديث العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب مولى الحرقة عن أبيه عن أبي هريرة وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا ابن فضيل عن أبيه عن أبي حازم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث اذا خرجن لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيرا طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الارض ورواه أحمد عن وكيع عن فضيل بن غزوان عن أبي حازم سلمان عن أبي هريرة به وعنده والدخان ورواه مسلم عن أبي بكر ابن أبي شيبة وزهير بن حرب عن وكيع ورواه هو أيضا والترمذي من غير وجه عن فضيل بن غزوان به ورواه اسحق بن عبد الله القروي عن مالك عن أبي الزناد عن الاعرج عن ابي هريرة ولكن لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب من هذا الوجه لضعف القروي والله أعلم وقال ابن جرير حدثنا الربيع بن سليمان حدثنا شعيب بن الليث عن أبيه عن جعفر بن ربيعة عن عبد الرحمن ابن هرمز الاعرج عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فاذا طلعت آمن الناس كلهم وذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل الآية ورواه ابن لهيعة عن الاعرج عن أبي هريرة به ورواه وكيع عن فضيل بن غزوان عن أبي حازم عن أبي هريرة به أخرج هذه الطرق كلها الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره

الاعتراف ما يفيد التوبة أو ان مقدمة التوبة وهي الاعتراف قامت مقام التوبة وحرف الترجي هو عسى في كلام الله سبحانه يفيد تحقق الوقوع لان الاطماع من الله سبحانه ايجاب لكونه أكرم الاكرمين وفي المواهب واتفق المفسرون على ذلك قال القسطلاني وعبر بعسى للاشعار بأن ما يفعله تعالى ليس الا على سبيل التفضل منه حتى لا يتكل المرء بل يكون على خوف وحذر (ان الله غفور رحيم) يغفر الذنوب ويتفضل على عباده وهذا يفيد انجاز الوعد عن ابن عباس قال كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة تبوك فلما حضر رجوع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد وكان ممر النبي صلى الله عليه وآله وسلم اذا رجع عليهم فلما رآهم قال من هؤلاء الموثقون أنفسهم قالوا هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله فعاهدوا الله أن لا يطلقوا أنفسهم حتى تطلقهم وتعذرهم قال وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذي يطلقهم رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين فلما بلغهم ذلك قالوا ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يطلقنا فنزلت عسى الله أن يتوب عليهم وقيل الآية تعم جميع المسلمين والحمل على العموم أولى وان كان السبب مخصوصا بمن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة تبوك وروى الطبراني عن أبي عثمان قال ما في القرآن آية أرجى عندي لهذه الامة من هذه الآية (خذ من أموالهم صدقة) اختلف أهل العلم في هذه الصدقة المأمور بها فقيل هي صدقة الفرض وقيل هي مخصوصة بهذه الطائفة المعترفة بذنوبها لانهم بعد التوبة عليهم عرضوا أموالهم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت هذه الآية كما تقدم ومن للتبعيض على التفسيرين والآية مطلقة مبينة بالسنة المطهرة والصدقة مأخوذة من الصدق اذ هي دليل على صدق مخرجها في ايمانه (تطهرهم وتزكيهم بها) الضمير المرفوع في الفعلين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أي تطهرهم وتزكيهم يا محمد بما تأخذه من الصدقة منهم وقيل الضمير في تطهرهم للصدقة والضمير في تزكيهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والاول أولى لما في الثاني من الاختلاف في الضميرين في الفعلين المتعاطفين ومعنى التطهير اذهاب ما يتعلق بهم من أثر الذنوب ومعنى التزكية المبالغة في التطهير قال الزجاج الاجود أن يكون المخاطبة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أي فانك يا محمد تطهرهم وتزكيهم بها على القطع

وقال ابن جرير حدثنا الحسن بن يحيى أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها قبل منه لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة (حديث آخر) عن أبي ذر الغفاري في الصحيحين وغيرهما من طرق عن ابراهيم بن يزيد بن شريك التيمي عن أبيه عن أبي ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه ولهما عن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تدري أين تذهب الشمس اذا غربت قلت لا أدري قال انها تنتهي دون العرش فتخر ساجدة ثم تقوم حتى يقال لها ارجعي فيوشك يا أبا ذر أن يقال لها ارجعي من حيث دخلت وذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها

لم تكن آمنت من قبل ولمسلم عن حذيفة بن أسيد بن شريحة الغفاري رضي الله عنه قال الامام أحمد بن حنبل حدثنا سفيان بن فرات عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من غرفة ونحن نتذاكر الساعة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات طلوع الشمس من مغربها والدخان والدابة وخروج يأجوج ومأجوج وخروج عيسى بن مريم وخروج الدجال وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب ونار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا وهكذا رواه مسلم وأهل السنن الاربعة من حديث فرات القزاز عن أبي الطفيل عامر بن واثلة عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه وقال الثوري عن منصور عن ربعي عن حذيفة قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله ما آية طلوع الشمس من مغربها فقال النبي صلى الله عليه وسلم تطول تلك الليلة حتى تكون قدر ليلتين فبينما الذين كانوا يصلون فيها فيعملون كما كانوا يعملون قبلها والنجوم لا ترى قد قامت مكانها ثم يرقدون ثم يقومون فيعملون كما كانوا يعملون ثم يرقدون ثم يقومون فيعملون فتطل(١) عليهم جنوبهم حتى يتطاول عليهم الليل فيفزع الناس ولا يصبحون فبينما هم ينتظرون طلوع الشمس من مشرقها اذ طلعت من مغربها فاذا رآها الناس آمنوا فلم ينفعهم ايمانهم رواه ابن مردويه وليس هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه والله أعلم (حديث آخر) عن أبي سعيد الخدري واسمه سعد بن مالك بن سنان بن مالك رضي الله عنه

والاستئناف ويجوز الجزم على جواب الامر والمعنى ان تأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم قال السيوطي فأخذ ثلث أموالهم وتصدق بها على سبيل الكفارة لذنوبهم فان كل من أتى ذنبا يسن له التصدق (وصل عليهم) أي ادع لهم بعد أخذك لتلك الصدقة من أموالهم قال النحاس وحكى أهل اللغة جميعا فيما علمناه ان الصلاة في كلام العرب الدعاء ثم علل سبحانه أمره لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالصلاة على من يأخذ منه الصدقة فقال (ان صلاتك سكن لهم) السكن ما تسكن اليه النفس وتطمئن به وهو فعل بمعنى مفعول كالقبض بمعنى المقبوض والمعنى يسكنون اليها قال ابن عباس استغفر لهم من ذنوبهم التي كانوا أصابوها ان صلاتك رحمة لهم وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن أبي أوفى قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا أتى بصدقة قال اللهم صل على آل فلان فأتاه أبي بصدقته فقال اللهم صل على آل أبي أوفى (والله سميع) لاعترافهم بذنوبهم ودعائهم (عليم) بما في ضمائرهم من الندم والغم لما فرط منهم ولما تاب الله سبحانه على هؤلاء المذكورين سابقا قال (ألم يعلموا) أي غير التائبين أو التائبون قبل أن يتوب الله عليهم ويقبل صدقاتهم والاستفهام للتقرير أو للتخصيص والتأكيد (ان الله هو يقبل التوبة) لاستغنائه عن طاعة المطيعين وعدم مبالاته بمعصية العاصين وقرئ بالتاء وهو اما خطاب للتائبين أو الجماعة المؤمنين والمعنى أن ذلك ليس لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انما الله هو الذي يقبل التوبة ويردها فاقصدوه بها (عن عباده) قيل لا فرق بين عن ومن قال ابن عطية وكثيرا ما يتوصل في موضع واحد بهذه وهذه نحو لا صدقة الا عن غنى ومن غنى وفعل ذلك فلان من أشره وبطره وعن أشره وبطره وقيل بينهما فرق ولعل عن في هذا الموضع أبلغ لان فيه تبشيرا بقبول التوبة مع تسهيل سبيلها وقيل لفظة عن تشعر ببعد ما تقول جلس عن يمين الامير أي مع نوع من البعد والظاهر ان عن هنا للمجاوزة واذا قلت منه فمعناه ابتداء الغاية (ويأخذ الصدقات) أي يقبلها منهم وفي اسناد الاخذ اليه سبحانه بعد أمره لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأخذها تشريف عظيم لهذه الطاعة ولمن فعلها وفي ذكر لفظ الاخذ ترغيب في بذل الصدقة واعطائها الفقراء عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما تصدق أحدكم بصدقة من كسب حلال طيب ولا يقبل الله الا الطيب الا أخذها الرحمن بيمينه وان كانت تمرة

فتربو

---

(١) قوله فتطل عليهم جنوبهم كذا في الاصل وحرر الرواية اهـ مصححه

وأرضاه قال الامام أحمد حدثنا وكيع حدثنا ابن ابى ليلى عن عطية العوفى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا ايمانها قال طلوع الشمس من مغربها ورواه الترمذى عن سفيان بن وكيع عن أبيه وقال غريب ورواه بعضهم ولم يرفعه وفى حديث طالوت بن عبادة عن فضال بن جبير عن أبى أمامة صدى بن عجلان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أول الآيات طلوع الشمس من مغربها وفى حديث عاصم بن أبى النجود عن زر بن حبيش عن صفوان بن غسان قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن صفوان بن غسان مرفوعا ان الله فتح بابا قبل المغرب عرضه سبعون عاما للتوبة ثم لا يغلق حتى تطلع الشمس منه رواه الترمذى وصححه النسائى وابن ماجه فى حديث طويل (حديث آخر) عن عبد الله بن أبى أوفى قال ابن مردويه حدثنا محمد بن على بن رحيم حدثنا أحمد بن حازم حدثنا ضرار ابن صرد حدثنا ابن فضيل عن سليمان بن زيد عن عبد الله بن أبى أوفى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليأتين على الناس ليلة تعدل ثلاث ليال من لياليكم هذه فاذا كان ذلك يعرفها المتنفلون يقوم أحدهم فيقرأ حزبه ثم ينام ثم يقوم فيقرأ حزبه ثم ينام فبينما هم كذلك اذ صاح الناس بعضهم فى بعض فقالوا ما هذا فيفزعون الى المساجد فاذا هم بالشمس قد طلعت حتى صارت فى وسط السماء ورجعت وطلعت من مطلعها قال حينئذ لا ينفع نفسا ايمانها هذا حديث غريب من هذا الوجه وليس هو فى شئ من الكتب الستة (حديث آخر) عن عبد الله بن عمرو قال الامام أحمد حدثنا اسمعيل بن ابراهيم حدثنا حيان عن أبى زرعة عن عمرو بن جرير قال جلس ثلاثة نفر من المسلمين الى مروان بالمدينة فسمعوه يقول وهو يحدث عن الآيات يقول ان أولها خروج الدجال قال فانصرفوا الى عبد الله بن عمرو فحدثوه بالذى سمعوه من مروان فى الآيات فقال لم يقل مروان شيأ حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة ضحى فأيتهما كانت قبل صاحبتها فالاخرى على اثرها ثم قال عبد الله وكان يقرأ الكتب وأظن أولها خروجا طلوع الشمس من مغربها وذلك أنها كلما غربت أتت تحت العرش وسجدت واستأذنت فى الرجوع فأذن لها فى الرجوع حتى اذا بدا لله أن تطلع من مغربها فعلت

فتربو فى كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله، أخرجه الشيخان وفى الباب أحاديث يطول ذكرها (وان الله هو التواب الرحيم) أى ان هذا شأنه سبحانه وفى صيغة المبالغة فى التواب مع توسيط ضمير الفصل والتأكيد من التبشير لعباده والترغيب لهم ما لا يخفى (وقل) لهم أو للناس وهما قولان للمفسرين (اعملوا) ما شئتم من الاعمال الصالحة والسيئة (فسيرى الله عملكم) خيرا كان أو شرا تعليل لما قبله (ورسوله والمؤمنون) فيه تخويف وتهديد للمذنبين أى ان عملكم لا يخفى على الله ولا على رسوله ولا على المؤمنين فسارعوا الى أعمال الخير وأخلصوا أعمالكم لله عز وجل وفيه أيضا ترغيب وتنشيط للمطيعين فان من علم أن عمله لا يخفى سواء كان خيرا أو شرا رغب الى أعمال الخير وتجنب أعمال الشر وما أحسن قول زهير

ومهما يكن عند امرئ من خليقة * وان خالها تخفى على الناس تعلم

فظاهره ترغيب وترهيب والمراد بالرؤية هنا العلم بما يصدر من الاعمال والاستقبال بالنظر للمجازاة والا فالعلم حاصل بالفعل أى فيجازيكم على عملكم والمجازاة من الله معلومة ومن رسوله والمؤمنين بمعنى الثناء عليهم والدعاء لهم قال مجاهد هذا وعيد من الله عز وجل وقال أبو السعود زيادة ترغيب لهم فى العمل الصالح وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن حبان والحاكم والبيهقى وغيرهم عن أبى سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لاخرج الله عمله للناس كائنا ما كان ثم جاء سبحانه بوعيد شديد فقال (وستردون) أى بالبعث بعد الموت (الى عالم الغيب والشهادة) أى اليه سبحانه الذى يعلم ما تسرونه وما تعلنونه وما تخفونه وما تبدونه وفى تقديم الغيب على الشهادة اشعار بسعة علمه عز وجل وانه لا يخفى عليه شئ ويستوى عنده كل معلوم ثم ذكر سبحانه ما سيكون عقب ردهم اليه فقال (فينبئكم) أى يخبركم (بما كنتم تعملون) فى الدنيا فيجازى المحسن باحسانه والمسئ باساءته ويتفضل على من يشاء من عباده (وآخرون مرجون لامر الله) ذكر سبحانه ثلاثة أقسام فى المتخلفين الاول المنافقون الذين مردوا على النفاق الثانى التائبون المعترفون بذنوبهم الثالث الذين بقى أمرهم موقوفا فى تلك الحال وهم المرجون لامر الله من أرجيته وأرجأته اذا أخرته وهما لغتان والقراءتان أى بالهمز ودونه سبعيتان والمعنى انهم مؤخرون فى تلك الحال لا يقطع

كما كانت تفعل أنت تحت العرش فسجدت واستأذنت في الرجوع فلم يرد عليها شيء ثم استأذنت في الرجوع فلا يرد عليها شيء حتى اذا ذهب من الليل ماشاء الله أن يذهب عرفت أنه اذا أذن لها في الرجوع لم تدرك المشرق قالت رب ماأبعد المشرق من لي بالناس حتى اذا صار الافق كأنه طوق استأذنت في الرجوع فيقال لها مكانك فاطلعي فطلعت على الناس من مغربها ثم تلا عبد الله هذه الآية لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن امنت من قبل الآية وأخرجه مسلم في صحيحه وأبو داود وابن ماجه في سننيهما من حديث أبي حيان التيمي واسمه يحيى بن سعيد بن حيان (١٦٠) عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير به (حديث آخر عنه) قال الطبراني حدثنا أحمد بن يحيى بن خالد بن حيان الرقي حدثنا اسحق بن ابراهيم (١) زبريق الحمصي حدثنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار حدثنا ابن لهيعة عن حيي بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال النبي صلى الله عليه وسلم اذا طلعت الشمس من مغربها خر ابليس ساجدا ينادي ويجهر الهي مرني أن اسجد لمن شئت قال فيجتمع اليه زبانيته فيقولون كلهم ماهذا التضرع فيقول انما سألت ربي أن ينظرني الى الوقت المعلوم وهذا الوقت المعلوم قال ثم تخرج دابة الارض من صدع في الصفا قال فأول خطوة تضعها بانطاكيا فتأتي ابليس فتلطمه هذا حديث غريب جدا وسنده ضعيف ولعله من الزاملتين اللتين أصابهما عبد الله ابن عمرو يوم اليرموك فأما رفعه فمنكر والله أعلم (حديث آخر) عن عبد الله بن عمرو وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم أجمعين قال الامام أحمد حدثنا الحكم بن نافع حدثنا اسمعيل بن عياش عن ضمضم ابن زرعة عن شريح بن عبيد يرده الى مالك بن يخامر عن أبي السعدي ولأحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تنقطع الهجرة مادام العدو يقاتل فقال سارية وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمرو بن العاص ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الهجرة خصلتان احداهما تهجر السيئات والاخرى تهاجر الى الله ورسوله ولا تنقطع ماتقبلت التوبة ولا تزال التوبة تقبل حتى تطلع الشمس من مغربها فاذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه وكفي الناس العمل هذا الحديث حسن الاسناد ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة والله أعلم (حديث آخر) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال عوف

(١) قوله ابراهيم زبريق الحمصي كذا بالاصل وحرر اه مصححه

لهم بالتوبة ولا بعدمها بل هم على ماتبين من أمر الله سبحانه في شأنهم والفرق بين الثاني والثالث أن الثاني اعتذر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم باعذار فقبلها منه فعجلت توبته وان الثالث لم يعتذر لانه فتش فلم يجد عذرا صادقا فأخر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمره حتى ينزل الله قبول توبته فأخر الله قبولها خمسين يوما (اما يعذبهم) ان بقوا على ماهم عليه ولم يتوبوا (واما يتوب عليهم) ان تابوا توبة صحيحة وأخلصوا الاخلاص والتقدير وآخرون مرجون لامر الله حال كونهم اما معذبين واما متوبا عليهم واما هنا للشك بالنسبة الى المخاطب واما للابهام بالنسبة الى الله تعالى بمعنى انه تعالى أبهم على المخاطبين أعني هذا الترديد بالنظر لاعتقاد نافيهم والا فالله تعالى عالم بعين ماهو فاعل بهم (والله عليم) بأحوالهم (حكيم) فيما يفعله بهم من خير أو شر وعن عكرمة قال وآخرون مرجون لامر الله هم الثلاثة الذين خلفوا وعن مجاهد قال هم هلال بن أمية ومرارة بن الربيع وكعب بن مالك من الاوس والخزرج تخلفوا كسلا وميلا الى الدعة لانفاقا ولم يعتذروا الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم كغيرهم فوقف أمرهم خمسين ليلة وهجرهم الناس حتى نزلت توبتهم بعد (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين) لما ذكر سبحانه أصناف المنافقين وبين طرائقهم المختلفة عطف على ماسبق هذه الطائفة منهم وهم الذين اتخذوا مسجدا ضرارا وسيأتي بيان هؤلاء البانين لمسجد الضرار وفي اعرابه وجوه ذكرها في الجمل وقد أخبر الله سبحانه أن الباعث لهم على بناء هذا المسجد أمور أربعة الاول الضرار لغيرهم وهو المضاررة الثاني الكفر بالله والمباهاة لاهل الاسلام لانهم أرادوا ببنائه تقوية أهل النفاق الثالث التفريق بين المؤمنين لانهم أرادوا أن لا يحضروا مسجد قباء فتقل جماعة المسلمين وفي ذلك من اختلاف الكلمة وبطلان الالفة مالا يخفى الرابع قوله (وارصادا لمن حارب الله ورسوله) قال الزجاج الارصاد الانتظار وقال ابن قتيبة الارصاد الانتظار مع العداوة وقال الاكثرون هو الاعداد والمعنى متقارب يقال أرصدت لكذا اذا أعددته مرتقبا له وبه قال أبو زيد يقال رصدته وأرصدته في الخير وأرصدت له في الشر وقال ابن الاعرابي لا يقال أرصدت ومعناه ارتقبت والمراد بمن حارب الله ورسوله المنافقون وهم اثنا عشر رجلا منهم أبو عامر الراهب أي أعدوه لهؤلاء وارتقبوا به وصولهم وانتظروهم ليصلوا فيه حتى يباهوا

الاعرابي عن محمد بن سيرين حدثني أبو عبيدة عن ابن مسعود أنه كان يقول ما ذكر من الآيات فقد مضى غير أربع طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الارض وخروج يأجوج ومأجوج قال وكان يقول الآية التي تختم بها الاعمال طلوع الشمس من مغربها ألم تر ان الله يقول يوم يأتي بعض آيات ربك الآية كلها يعني طلوع الشمس من مغربها حديث ابن عباس رضي الله عنهما رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره من حديث عبد المنعم بن ادريس عن أبيه عن وهب بن منبه عن ابن عباس مرفوعا فذكر حديثا طويلا غريبا منكرا رفعه وفيه ان الشمس والقمر يطلعان يومئذ مقرونين واذا نصفا السماء رجعا ثم عاد الى ما كانا عليه وهو حديث غريب جدا بل منكر بل موضوع ان ادعى انه مرفوع فاما وقفه على ابن عباس أو وهب بن منبه وهو الاشبه فغير موضوع والله أعلم وقال سفيان عن منصور عن عامر عن عائشة رضي الله عنها قالت اذا خرج أول الآيات طرحت وحبست الحفظة وشهدت الاجساد على الاعمال رواه ابن جرير رحمه الله تعالى فقوله تعالى لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أي اذا أنشأ الكافر ايمانا يومئذ لم يقبل منه فاما من كان مؤمنا قبل ذلك فان كان مصلحا في عمله فهو بخير عظيم وان لم يكن مصلحا فأحدث توبة حينئذ لم تقبل منه توبته كما دلت عليه الاحاديث المتقدمة وعليه يحمل قوله تعالى أو كسبت في ايمانها خيرا أي ولا يقبل منها كسب عمل صالح اذا لم يكن عاملا به قبل ذلك وقوله تعالى قل انتظروا انا منتظرون تهديد شديد للكافرين ووعيد أكيد لمن سوف بايمانه وتوبته الى وقت لا ينفعه ذلك وانما كان الحكم كذلك عند طلوع الشمس من مغربها لاقتراب الساعة وظهور اشراطها كما قال فهل ينظرون الا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء اشراطها فأنى لهم اذا جاءتهم ذكراهم وقوله تعالى فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا الآية (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء انما أمرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) قال مجاهد وقتادة والضحاك والسدي نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى وقال العوفي عن ابن عباس في قوله ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا وذلك أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم

بهم المؤمنين (من قبل) أي من قبل أن ينافق هؤلاء ويبنوا مسجد الضرار أو المعنى لمن وقع منه الحرب لله ورسوله من قبل بناء مسجد الضرار (وليحلفن) جواب قسم مقدر أي والله (ان أردنا الا الحسنى) أي ما أردنا ببنائه الا الخصلة أو الارادة الحسنى وهي الرفق بالمسلمين والتوسعة على أهل الضعف والعجز عن الصلاة في مسجد قباء أو مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في المطر والحر فرد الله عليهم بقوله (والله يشهد) أي يعلم (انهم لكاذبون) فيما حلفوا عليه وقالوه عن ابن عباس قال هم أناس من الانصار ابتنوا مسجدا فقال لهم أبو عامر الراهب والد حنظلة غسيل الملائكة ابنوا مسجدكم واستمدوا ما استطعتم من قوة وسلاح فاني ذاهب الى قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم فأخرج محمدا وأصحابه فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب ان تصلي فيه وتدعو بالبركة فأنزل الله لا تقم فيه أبدا وعنه قال لما بنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مسجد قباء خرج رجال من الانصار فبنوا مسجد النفاق فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا بخدج ما أردت الا ما أرى قال ما أردت الا الحسنى وهو كاذب فصدقه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واراد ان يعذره فأنزل الله والذين اتخذوا مسجدا ضرارا الآية ثم نهى الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم عن الصلاة في مسجد الضرار فقال (لا تقم فيه أبدا) أي في وقت من الاوقات فأرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جماعة هدموه وأحرقوه وجعلوا مكانه كناسة تلقى فيه الجيف والنهي عن القيام فيه يستلزم النهي عن الصلاة فيه وقد يعبر عن الصلاة بالقيام يقال فلان يقوم الليل أي يصلي ومنه الحديث الصحيح من قام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه ثم ذكر الله سبحانه علة النهي عن القيام بقوله (لمسجد أسس على التقوى) اللام في لمسجد لام القسم وقيل لام الابتداء وفي ذلك تأكيد لمضمون الجملة وعلى قيل انها بمعنى مع والابلغ ابقاؤها على ظاهرها وجعل التقوى أساسا له وتأسيس البناء تثبيته ورفعه ومعنى تأسيسه على التقوى تأسيسه على الخصال التي لا تستحق بها العقوبة واختلف العلماء في هذا المسجد فقالت طائفة هو مسجد قباء كما روى عن ابن عباس والضحاك والحسن والشعبي وغيرهم ورجحه البيضاوي لظاهر قوله تعالى من أول يوم اذ لا يراد أول الايام مطلقا بل أول أيام الهجرة ودخول المدينة المنورة لانه

تفرقوا فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم أنزل الله عليه ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء الآية وقال ابن جرير حدثني سعيد بن عمرو السكوني حدثنا بقية بن الوليد كتب الى عباد بن كثير حدثني ليث عن طاوس عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء وليسوا منك هم أهل البدع وأهل الشبهات وأهل الضلالة من هذه الامة لكن هذا الاسناد لا يصح فان عباد بن كثير متروك الحديث ولم يختلق هذا الحديث ولكنه وهم في رفعه فانه رواه سفيان الثوري (١٦٢) عن ليث وهو ابن أبي سليم عن طاوس عن أبي هريرة في الآية انه قال نزلت في هذه الامة وقال أبو غالب عن أبي أمامة في قوله وكانوا شيعا قال هم الخوارج وروي عنه مرفوعا ولا يصح وقال شعبة عن مجالد عن الشعبي عن شريح عن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضي الله عنها ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا قال هم أصحاب البدع وهذا رواه ابن مردويه وهو غريب أيضا ولا يصح رفعه والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفا له فان الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق فمن اختلف فيه وكانوا شيعا أي فرقا كان أهلا لذلك كأهل الملل والنحل والاهواء والضلالات فان الله تعالى قد برأ رسوله صلى الله عليه وسلم مما هم فيه وهذه الآية كقوله تعالى شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك الآية وفي الحديث نحن معاشر الانبياء أولاد علات ديننا واحد فهذا هو الصراط المستقيم وهو ما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده لا شريك له والتمسك بشريعة الرسول المتأخر وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء والرسل برآء منها كما قال الله تعالى لست منهم في شيء وقوله تعالى انما أمرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون كقوله تعالى ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة الآية ثم بين لطفه سبحانه في حكمه وعدله يوم القيامة فقال تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها وهم لا يظلمون) وهذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل في الآية الاخرى وهي قوله من جاء بالحسنة فله خير منها . وقد وردت

بني قبل مسجد المدينة ولقوله فيه رجال يحبون أن يتطهروا ولانه أوفق بالمقام لانه بقباء كمسجد الضرار وذهب آخرون الى أنه مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما أخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم والترمذي والنسائي وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن خزيمة وابن حبان وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال اختلف رجلان رجل من بني خدرة وفي لفظ تماريت أنا ورجل من بني عمرو بن عوف في المسجد الذي أسس على التقوى فقال الخدري هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال العمري هو مسجد قباء فأتيا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسألاه عن ذلك فقال هو هذا المسجد لمسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال في ذلك خير كثير يعني مسجد قباء وأخرج أحمد وغيره عن أبي بن كعب قال سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن المسجد الذي أسس على التقوى قال هو مسجدي هذا وعن زيد بن ثابت مرفوعا مثله عند الطبراني وغيره وفي الباب أحاديث كثيرة وقد جمع الشريف السمهودي بين الاحاديث وقال كل منهما مراد لان كلا منهما أسس على التقوى من أول يوم تأسيسه والسر في اجابته صلى الله عليه وآله وسلم السؤال عن ذلك بما في الحديث دفع ما توهمه السائل من اختصاص ذلك بمسجد قباء والتنويه بمزية هذا على ذاك وهو غريب هنالك وقد سبقه اليه السهيلي في الروض الانف ولا يخفاك ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد عين هذا المسجد الذي أسس على التقوى وجزم بأنه مسجده صلى الله عليه وآله وسلم كما تقدم من الاحاديث الصحيحة فلا يقاوم ذلك قول فرد من الصحابة ولا جماعة منهم ولا من غيرهم ولا يصلح لايراده في مقابله ما قد صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال الكرخي والتحقيق ان رواية نزولها في مسجد قباء لا تعارض تنصيصه صلى الله عليه وآله وسلم على انه مسجد المدينة فانها لا تدل على اختصاص أهل قباء بذلك انتهى ولا فائدة في ايراد ما ورد في فضل الصلاة في مسجد قباء فان ذلك لا يستلزم كونه المسجد الذي أسس على التقوى على ان ما ورد في فضائل مسجده صلى الله عليه وآله وسلم أكثر مما ورد في فضل مسجد قباء بلا شك ولا شبهة و(من أول يوم) متعلق بأسس أي أسس على التقوى من أول يوم من أيام تأسيسه قال بعض النحاة ان من ههنا بمعنى منذ أي منذ أول يوم ابتدئ بنائه ووضع أساسه قال السهيلي نور الله مرقده في الآية من الفقه صحة ما اتفق عليه

الصحابة

الاحاديث مطابقة لهذه الآية كما قال الامام أحمد بن حنبل رحمه الله حدثنا عفان حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا الجعد أبو عثمان عن أبي رجاء العطاردي عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى ان ربكم عزوجل رحيم من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشر الى سبعمائة الى أضعاف كثيرة ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له واحدة أو يمحوها الله عزوجل ولا يهلك على الله الاهالك ورواه البخاري ومسلم والنسائي من حديث الجعد أبي عثمان به

وقال أحمد أيضا حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عزوجل من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأزيد ومن عمل سيئة فجزاؤها مثلها أو أغفر ومن عمل قراب الارض خطيئة ثم لقيني لا يشرك بي شيأ جعلت له مثلها مغفرة ومن اقترب الى شبرا اقتربت اليه ذراعا ومن اقترب الى ذراعا اقتربت اليه باعا ومن أتاني يمشي أتيته هرولة ورواه مسلم عن أبي كريب عن أبي معاوية به وعن أبي بكر بن أبي شيبة عن وكيع عن الاعمش به ورواه ابن ماجه عن علي بن محمد الطنافسي عن وكيع به وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا شيبان حدثنا حماد حدثنا ثابت عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشر ومن هم بسيئة لم يعملها فلم يكتب عليه شئ فان عملها كتبت عليه سيئة واعلم أن تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام تارة يتركها لله فهذا يكتب له حسنة على كفه عنها لله تعالى وهذا عمل ونية ولهذا جاء انه يكتب له حسنة كما جاء في بعض ألفاظ الصحيح فانما تركها من جرائي أي من أجلي وتارة يتركها نسيانا وذهولا عنها فهذا لاله ولا عليه لانه لم ينو خيرا ولا فعل شرا وتارة يتركها عجزا وكسلا عنها بعد السعي في أسبابها والتلبس بما يقرب منها فهذا بمنزلة فاعلها كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار قالوا يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال انه كان حريصا على قتل صاحبه قال الامام أبو يعلى الموصلي حدثنا مجاهد

الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين مع عمر رضي الله تعالى عنه حين شاورهم في التاريخ فاتفق رأيهم على أن يكون من عام الهجرة لانه الوقت الذي عز فيه الاسلام والحين الذي أمن فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبنيت المساجد وعبد الله كما يحب فوافق رأيهم هذا ظاهر التنزيل وفهمنا الآن بفعلهم ان قوله تعالى من أول يوم ان ذلك اليوم هو أول أيام التاريخ الذي يؤرخ به الآن فان كان الصحابة رضوان الله عليهم أخذوه من هذه الآية فهو الظن بهم لانهم أعلم الناس بتأويل كتاب الله وأفهمهم بما في القرآن من الاشارات وان كان ذلك عن رأي واجتهاد فقد علمه الله وأشار الى صحته قبل ان يفعل اذ لا يعقل قول القائل فعلته أول يوم الا بالاضافة الى عام معلوم أو شهر معلوم أو تاريخ معلوم وليس ههنا اضافة في المعنى الا الى هذا التاريخ المعلوم لعدم القرائن الدالة على غيره من قرينة لفظ أو حال فتدبره ففيه معتبر لمن ادكر وعلم لمن رأى بعين فؤاد واستبصر (أحق أن تقوم فيه) مصليا وأفعل التفضيل على غير بابه أو المفاضلة باعتبار زعمهم أو بالنظر له في ذاته فان المحظور قصدهم ونيتهم والمعنى لو كان القيام في غيره جائزا لكان هذا أولى بقيامك فيه للصلاة ولذكر الله لكونه أسس على التقوى من أول يوم ولكونه (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) هذه الجملة مستأنفة لبيان أحقية قيامه صلى الله عليه وآله وسلم فيه أي كما ان هذا المسجد أولى من جهة المحل فهو أولى من جهة الحال فيه ومعنى محبتهم للتطهر انهم يؤثرونه ويحرصون عليه عند عروض موجبه يعني من الاحداث والجنابات وسائر النجاسات وهذا قول أكثر المفسرين وقيل معناه يحبون التطهر من الذنوب بالتوبة والاستغفار والاول أولى وقال الرازي المراد بها الطهارة من الذنوب والمعاصي وعينه بوجوه ثلاثة وقيل يحبون أن يتطهروا بالحمى المطهرة للذنوب فحموا جميعا وهذا ضعيف جدا (والله يحب المطهرين) معنى محبة الله لهم الرضا عنهم والاحسان اليهم كما يفعل المحب بمحبوبه وأخرج ابن ماجه وابن المنذر وابن أبي حاتم والدارقطني والحاكم عن أبي أيوب وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك ان هذه الآية لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا معشر الانصار ان الله قد أثنى عليكم خيرا في الطهور فما طهوركم هذا قالوا نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة قال فهل مع ذلك غيره قالوا لا غير ان أحدنا اذا خرج الى الغائط احب ان يستنجي بالماء قال هو ذاك فعليكموه وفي حديث

ابن موسى حدثنا علي وحدثنا الحسن بن الصباح وأبو خيثمة قالا حدثنا اسحق بن سليمان كلاهما عن موسى بن عبيدة عن أبي بكر ابن عبيد الله بن أنس عن جده أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من هم بحسنة كتب الله له حسنة فان عملها كتبت له عشر ومن هم بسيئة لم تكتب عليه حتى يعملها فان عملها كتبت عليه سيئة فان تركها كتبت له حسنة يقول الله تعالى انما تركها من مخافتي هذا لفظ حديث مجاهد يعني ابن موسى وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا شيبان بن عبد الرحمن عن الركين بن الربيع عن أبيه عن عمه (١٦٤) فلان بن عميلة عن خريم بن فاتك الاسدي ان النبي صلى الله عليه وسلم قال الناس أربعة والاعمال ستة فالناس موسع له في الدنيا والآخرة وموسع له في الدنيا مقتور عليه في الآخرة ومقتور عليه في الدنيا موسع له في الآخرة وشقي في الدنيا والآخرة والاعمال موجبتان ومثل بمثل وعشرة أضعاف وسبعمائة ضعف فالموجبتان من مات مسلما مؤمنا لا يشرك بالله شيأ وجبت له الجنة ومن مات كافرا وجبت له النار ومن هم بحسنة فلم يعملها فعلم الله انه قد أشعرها قلبه وحرص عليها كتبت له حسنة ومن هم بسيئة لم تكتب عليه ومن عملها كتبت واحدة ولم تضاعف عليه ومن عمل حسنة كانت عليه بعشر أمثالها ومن أنفق نفقة في سبيل الله عز وجل كانت بسبعمائة ضعف ورواه الترمذي والنسائي من حديث الركين بن الربيع عن أبيه عن بشير بن عميلة عن خريم بن فاتك به ببعضه والله أعلم وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري حدثنا يزيد بن زريع حدثنا حبيب المعلم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يحضر الجمعة ثلاثة نفر رجل حضرها بلغو فهو حظه منها ورجل حضرها بدعاء فهو رجل دعا الله فان شاء أعطاه وان شاء منعه ورجل حضرها بانصات وسكوت ولم يتخط رقبة مسلم ولم يؤذ أحدا فهي كفارة له الى الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام وذلك لان الله عز وجل يقول من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا هاشم بن مرثد حدثنا محمد بن اسمعيل حدثني أبي حدثني ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبي مالك الاشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة كفارة لما بينها وبين الجمعة

رواه البزار قالوا نتبع الحجارة بالماء فقال هو ذاك فعليكموه وفي الباب روايات بألفاظ وقد روي عن جماعة من التابعين في ذكر سبب نزول الآية نحو هذا ولا يخفاك ان بعض هذه الاحاديث ليس فيه تعيين مسجد قباء وأهله وبعضها ضعيف وبعضها لا تصريح فيه بأن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد قباء وعلى كل حال لا يقاوم تلك الاحاديث المصرحة بأن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم في صحتها وصراحتها ثم بين سبحانه أن بين الفريقين بونا بعيدا فقال (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار) الهمزة للانكار والجملة مستأنفة مبينة لخيرية الرجال المذكورين على أهل مسجد الضرار والفاء عاطفة على مقدر أي أبعد ما علم حالهم فمن أسس والبنيان مصدر كالعمران وأريد به المبنى والمعنى ان من أسس بناء دينه على قاعدة قوية محكمة وهي تقوى الله ورضوانه خير ممن أسس دينه على ضد ذلك وهو الباطل والنفاق قيل انه استعارة مكنية شبهت التقوى والرضوان بما يعتمد عليه البناء تشبيها مضمرا في النفس وأسس بنيانه تخييل فهو مستعمل في معناه الحقيقي أو مجاز فتأسيس البنيان بمعنى احكام أمور دينه أو تمثيل لحال من أخلص لله وعمل الاعمال الصالحة بحال من بنى شيأ محكما مؤسسا يستوطنه ويتحصن فيه أو البنيان استعارة أصلية والتأسيس ترشيح والشفا الشفير وشفا كل شيء حرفه وطرفه ومنه يقال أشفى على كذا اذا دنا منه وقرب ان يقع فيه والجرف بضم الراء وسكونها قراءتان سبعيتان وعلى كل فالجيم مضمومة وهو ما يتجرف بالسيول وهي الجوانب التي تتحفر بالماء وقيل المكان الذي أكل الماء تحته فهو الى السقوط قريب وقيل البئر التي لم تطو وقيل هو الهوة والاجتراف اقتلاع الشيء من أصله والهار الساقط يقال هار البناء اذا سقط وأصله هائر كما قالوا شاك السلاح وشائك كذا قال الزجاج يقال هار يهور ويهار وهار يهير وتهور البناء وتهير فهو مقلوب بتقديم لامه على عينه وقيل حذفت عينه اعتباطا أي لغير موجب وقال أبو حاتم ان أصله هاور أي ساقط متداع منها قال في شمس العلوم الجرف ما جرف السيل أصله وأشرف أعلاه فان انصدع أعلاه فهو الهار انتهى وقيل لا قلب فيه ولا حذف وان أصله هور أو هير قال السمين وهذا أعدل الوجوه لاستراحته من ادعاء القلب والحذف اللذين هما على خلاف الاصل لولا انه غير مشهور عند

التي تليها وزيادة ثلاثة أيام وذلك لان الله تعالى قال من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وعن أبي ذر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الدهر كله رواه الامام أحمد وهذا لفظه والنسائي وابن ماجه والترمذي وزاد فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها اليوم بعشرة أيام ثم قال هذا حديث حسن وقال ابن مسعود من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها من جاء بلا اله الا الله ومن جاء بالسيئة يقول بالشرك وهكذا جاء عن جماعة من السلف رضي الله عنهم أجمعين فيه حديث مرفوع الله أعلم بصحته لكني لم أره من وجه يثبت (١٦٥) والاحاديث والآثار في هذا كثيرة جدا وفيما ذكر كفاية ان شاء الله وبه الثقة (قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) يقول تعالى آمرا نبيه صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم الله به عليه من الهداية الى صراطه المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف دينا قيما أي ثابتا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين كقوله ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه وقوله وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم وقوله ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم وآتيناه في الدنيا حسنة وانه في الآخرة لمن الصالحين ثم أوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين وليس يلزم من كونه أمر باتباع ملة ابراهيم الحنيفية ان يكون ابراهيم أكمل منه فيها لانه عليه السلام قام بها قياما عظيما وأكملت له اكمالا تاما لم يسبقه أحد الى هذا الكمال ولهذا قال أنا خاتم الانبياء وسيد ولد آدم على الاطلاق وصاحب المقام المحمود الذي يرغب اليه الخلق حتى الخليل عليه السلام وقد قال ابن مردويه حدثنا محمد بن عبد الله بن حفص حدثنا أحمد بن عصام حدثنا أبو داود الطيالسي حدثنا شعبة بن أبي سلمة بن كهيل سمعت ذر بن عبد الله الهمداني يحدث عن ابن أبزى عن أبيه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أصبح قال أصبحنا على ملة الاسلام وكلمة الاخلاص ودين نبينا وملة ابراهيم حنيفا وما كان من

عند أهل التصريف انتهى جعل الله سبحانه هذا مثلا لما بنوا عليه دينهم الباطل المضمحل بسرعة ثم قال (فانهار) الجرف أو الشفا أو بنيان الباني على شفا جرف هار (به) أي بالبنيان أو المعنى انه طاح الباطل بالبناء والباني (في نار جهنم) قال ابن عباس صيرهم نفاقهم الى النار روي انهم رأوا الدخان حين حفروا أساسه وقال قتادة والله ما تناهى بناؤهم حتى وقع في النار والباء في به للتعدية أو المصاحبة أي فانهار مصاحبا له وجاء بالانهيار الذي هو للجرف ترجيحا للمجاز وسبحان الله ما أبلغ هذا الكلام وأقوى تراكيبه وأوقع معناه وأفصح مبناه عن جابر بن عبد الله قال لقد رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار حيث انهار على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخرجه الحاكم ومسدد وابن جرير وغيرهم (والله لا يهدي القوم الظالمين) أي لا يوفقهم للخير عقوبة لهم على نفاقهم ثم ذكر سبحانه ان بنيانهم هذا موجب لمزيد ريبهم واستمرار ترددهم وشكهم فقال (لا يزال بنيانهم) مصدر بمعنى اسم المفعول (الذي بنوا ريبة في قلوبهم) أي شكا ونفاقا أي سبب ريبهم كأنه نفس الريبة اما حال بنائه فظاهر واما حال هدمه فلانه رسخ به ما كان في قلوبهم من الشر وتضاعفت آثاره وأحكامه وقيل معنى الريبة الحسرة والندامة لانهم ندموا على بنيانه وقال المبرد أي حرارة وغيظا وقد كان هؤلاء الذين بنوا مسجد الضرار منافقين شاكين في دينهم ولكنهم ازدادوا بهدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم له نفاقا وتصميما على الكفر ومقتا للاسلام لما أصابهم من الغيظ الشديد والغضب العظيم بهدمه ثم ذكر سبحانه ما يدل على استمرار هذه الريبة ودوامها وهو قوله (الا أن تقطع قلوبهم) قطعا وتفرق أجزاء اما بالموت أو بالسيف وقيل في القبور أو في النار والمقصود ان هذه الريبة دائمة لهم ماداموا أحياء ويجوز أن يكون ذكر التقطع تصويرا لحال زوال الريبة وقيل معناه الا أن يتوبوا توبة يتقطع بها قلوبهم ندما وأسفا على تفريطهم وقرئ تقطع بالتخفيف والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أي الا أن تقطع يا محمد قلوبهم وتمكن منهم كل التمكن وقرئ ولو تقطعت قلوبهم وقرئ شاذا الى أن تقطع على الغاية أي لا يزالون كذلك الى أن يموتوا والمستثنى منه محذوف والتقدير في كل وقت الا وقت تقطيع قلوبهم أو في كل حال الا حال تقطيعها (والله عليم) بعزائمهم (حكيم) في جزاء جرائمهم (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) لما شرح

المشركين وقال الامام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا محمد بن اسحق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي الاديان أحب الى الله تعالى قال الحنيفية السمحة وقال أحمد أيضا حدثنا سليمان ابن داود حدثنا عبد الرحمن عن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذقني على منكبه لانظر الى زفن الحبشة حتى كنت التي مللت فانصرفت عنه قال عبد الرحمن عن أبيه قال قال لي عروة ان عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ليعلم يهود ان في ديننا فسحة اني أرسلت بحنيفية سمحة أصل الحديث مخرج في الصحيحين والزيادة لها شواهد من طرق عدة وقد استقصيت طرقها في شرح البخاري ولله الحمد والمنة وقوله تعالى قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه أنه مخالف لهم في ذلك فان صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له وهذا كقوله تعالى فصل لربك وانحر أي اخلص له صلاتك وذبحك فان المشركين كانوا يعبدون الاصنام ويذبحون لها فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه والاقبال بالقصد والنية والعزم على الاخلاص لله تعالى قال مجاهد في قوله ان صلاتي ونسكي النسك الذبح في الحج والعمرة وقال الثوري عن السدي عن سعيد بن جبير ونسكي قال ذبحي وكذا قال السدي والضحاك وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عوف حدثنا أحمد بن خالد الذهبي حدثنا محمد بن اسحق عن يزيد بن أبي حبيب عن ابن عباس قال ضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم عيد النحر بكبشين وقال حين ذبحهما وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين وقوله عز وجل وأنا أول المسلمين قال قتادة أي من هذه الامة وهو كما قال فان جميع الانبياء قبله كلهم كانت دعوتهم الى الاسلام وأصله عبادة الله وحده لا شريك له كما قال وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون وقد أخبرنا تعالى عن نوح أنه قال لقومه فان توليتم فما سألتكم من أجر ان أجري الا على الله

الله تعالى فضائح المنافقين وقبائحهم بسبب تخلفهم عن غزوة تبوك وذكر أقسامهم وفرع على كل قسم منها ما هو لائق به عاد على بيان فضيلة الجهاد والترغيب فيه وقد بالغ في ذلك على وجه لا مزيد عليه حيث عبر عن قبوله أنفسهم وأموالهم التي بذلوها في سبيله واثابته اياهم بمقابلتها الجنة بالشراء فذكر الشراء تمثيل على طريقة الاستعارة التبعية كما في قوله أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ثم جعل المبيع الذي هو العمدة والمقصد أنفس المؤمنين وأموالهم وجعل الثمن الذي هو الوسيلة في الصفقة الجنة ولم يجعل الامر على العكس بأن يقال ان الله باع الجنة من المؤمنين بأنفسهم وأموالهم ليدل على ان المقصود في العقد هو الجنة وما بذله المؤمنون في مقابلتها وسيلة اليها ايذانا بكمال العناية بهم وبأموالهم ثم انه لم يقل بالجنة بل قال بان لهم الجنة مبالغة في تقرر وصول الثمن اليهم واختصاصه بهم كأنه قيل بالجنة الثابتة لهم المختصة بهم وأصل الشراء بين العباد هو اخراج الشئ عن الملك بشئ آخر مثله أو دونه أو أنفع منه فهؤلاء المجاهدون باعوا أنفسهم من الله بالجنة التي أعدها الله للمؤمنين أي بأن يكونوا من أهل الجنة وممن يسكنها فقد جادوا بأنفسهم وهي أنفس الاعلاق والجود بها غاية الجود وجاد الله عليهم بالجنة وهي أعظم ما يطلبه العباد ويتوسلون اليه بالاعمال والمراد بالانفس هنا أنفس المجاهدين وبالاموال ما ينفقونه في الجهاد أو في جميع وجوه البر والطاعات ويدخل فيها الجهاد دخولا أوليا قال أهل المعاني لا يجوز ان يشتري الله شيأ في الحقيقة لان المشتري انما يشتري ما لا يملكه والاشياء كلها ملك لله عز وجل ولهذا قال الحسن أنفسنا هو خلقها وأموالنا هو رزقنا اياها لكن جرى هذا مجرى التلطف في الدعاء الى الطاعة والجهاد وجعل ذلك استبدالا وشراء ودخلت الباء هنا على المتروك على بابها وسماها أبو البقاء باء المقابلة كقولهم باء العوض وباء الثمنية وقرأ عمر بن الخطاب بالجنة عن جابر بن عبد الله قال لما نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في المسجد كبر الناس في المسجد فأقبل رجل من الانصار ثانيا طرفي ردائه على عاتقه فقال يا رسول الله أنزلت هذه الآية قال نعم فقال الانصاري بيع ربيح لا نقيل ولا نستقيل وقد أخرج ابن سعد عن عبادة بن الصامت ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم اشترط في بيعة العقبة على من بايعه من الانصار أن يشهدوا أن لا اله الا الله وانه رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا

الزكاة

وأمرت ان أكون من المسلمين وقال تعالى ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون وقال يوسف عليه السلام رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث فاطر السموات والارض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين وقال موسى ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين وقال تعالى انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار الآية وقال تعالى واذ أوحيت الى الحواريين ان آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد باننا مسلمون فاخبر تعالى أن بعث رسله بالاسلام ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التي ينسخ بعضها بعضا الى أن نسخت بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم التي لا تنسخ أبدا بدين ولا تزال قائمة منصورة وأعلامها منشورة الى قيام الساعة ولهذا قال عليه السلام نحن معاشر الانبياء أولاد علات ديننا واحد فان أولاد العلات هم الاخوة من أب واحد وأمهات شتى فالدين واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له وان تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الامهات كما أن اخوة الأخياف عكس هذا بنو الأم الواحدة من آباء شتى والاخوة الاعيان والاشقاء من أب واحد وأم واحدة والله أعلم وقد قال الامام احمد حدثنا ابو سعيد حدثنا عبد العزيز بن عبد الله الماجشون حدثنا عبد الله بن الفضل الهاشمي عن الاعرج عن عبيد الله بن أبي رافع عن علي رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا كبر استفتح ثم قال وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين الى آخر الآية اللهم أنت الملك لا اله الا أنت أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعا لا يغفر الذنوب الا أنت واهدني لاحسن الاخلاق لا يهدي لاحسنها الا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها الا أنت تباركت وتعاليت أستغفرك وأتوب اليك ثم ذكر تمام الحديث فيما يقوله في الركوع والسجود والتشهد وقد رواه مسلم في صحيحه (قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس الا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) يقول

الزكاة والسمع والطاعة ولا ينازعوا في الامر أهله ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم قالوا نعم قال قائل الانصار نعم لك هذا يارسول الله فما لنا قال الجنة وأخرجه ابن سعد أيضا من وجه آخر وليس في قصة العقبة ما يدل على انها سبب نزول الآية (يقاتلون في سبيل) استئناف لبيان البيع الذي يقتضيه الاشتراء المذكور لا لبيان نفس الاشتراء لان قتالهم في سبيل الله ليس باشتراء من الله أنفسهم وأموالهم كأنه قيل كيف يبيعونها بالجنة فقيل يقاتلون وقيل فيه معنى الامر أي قاتلوا في سبيله ثم بين هذه المقاتلة بقوله (فيقتلون) أعداء الله (ويقتلون) في طاعته والمراد انهم يقدمون على قتل الكفار في الحرب ويبذلون أنفسهم في ذلك فان فعلوا فقد استحقوا الجنة وان لم يقع القتل عليهم بعد الابلاء في الجهاد والتعرض للموت بالاقدام على الكفار وتقديم حالة القاتلية على حالة المقتولية للايذان بعدم الفرق بينهما في كونهما مصداقا لكون القتال بذلا للنفس وفي قراءة بتقديم المبني للمفعول رعاية لكون الشهادة عريقة في الباب وايذانا بعدم مبالاتهم بالموت في سبيل الله بل بكونه أحب اليهم من السلامة أي فيقتل بعضهم ويقاتل الباقي يعني لا يشترط اجتماع الامرين في الشخص الواحد بل يتحقق الفضل العظيم وان لم يوجد واحد من الوصفين كما اذا وجدت المضاربة من غير قتل بل يتحقق الجهاد بمجرد العزم وتكثير السواد (وعدا عليه حقا) مصدران منصوبان بفعلهما المحذوف أي وعدهم وعدا وحق ذلك الوعد حقا أي محقق وثبت اخبار من الله سبحانه بان فريضة الجهاد واستحقاق الجنة بها قد ثبت الوعد بها من الله (في التوراة والانجيل والقرآن) أي كما وقع في القرآن وفيه وجهان أحدهما انه متعلق باشترى وعلى هذا ففيه دليل على ان الامر بالجهاد موجود في جميع الشرائع ومكتوب على جميع أهل الملل وكل أمة وعدت عليه بالجنة والثاني انه متعلق بمحذوف والمعنى وعدا مذكورا كائنا في التوراة وعلى هذا فيكون الوعد بالجنة لهذه الامة مذكورا في كتب الله المنزلة (ومن أوفى بعهده من الله) في هذا من تأكيد الترغيب للمجاهدين في الجهاد والتنشيط لهم على بذل الانفس والاموال ما لا يخفى فانه أولا أخبر بانه قد اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة وجاء بهذه العبارة الفخيمة وهي كون الجنة قد صارت ملكا لهم ثم أخبر ثانيا بانه قد وعد بذلك في كتبه المنزلة ثم أخبر ثالثا بانه بعد هذا الوعد الصادق لا بد من حصول الموعود به

تعالى قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله فى اخلاص العبادة له والتوكل عليه أغير الله أبغى ربا أى أطلب ربا سواه وهو رب كل شئ يربينى ويحفظنى ويكلؤنى ويدبر أمرى أى لا أتوكل الا عليه ولا أنيب الا اليه لانه رب كل شئ ومليكه وله الخلق والامر ففى هذه الآية الامر باخلاص العبادة والتوكل كما تضمنت الآية التى قبلها اخلاص العبادة له لا شريك له وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيرا كقوله تعالى مرشدا العباده أن يقولوا اياك نعبد واياك نستعين وقوله فاعبده وتوكل عليه وقوله قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا وقوله رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا واشباه ذلك من الآيات وقوله تعالى ولا تكسب كل نفس الا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى اخبار عن الواقع يوم القيامة فى جزاء الله تعالى وحكمه وعدله ان النفوس انما تجازى بأعمالها ان خيرا فخير وان شرا فشر وانه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد وهذا من عدله تعالى كما قال وان تدع مثقلة الى حملها لا يحمل منه شئ ولو كان ذا قربى وقوله تعالى فلا يخاف ظلما ولا هضما قال علماء التفسير أى فلا يظلم بأن يحمل عليه سيآت غيره ولا يهضم بأن ينقص من حسناته وقال تعالى كل نفس بما كسبت رهينة الا أصحاب اليمين معناه كل نفس مرتهنة بعملها السيئ الا أصحاب اليمين فانه قد يعود بركة أعمالهم الصالحة على ذرياتهم (١) باعان ألحقنا بهم ذرياتهم فى المنزلة الرفيعة فى الجنة وان لم يكونوا قد شاركوهم فى الاعمال بل فى أصل الايمان وما ألتناهم أى نقصنا أولئك السادة الرفعاء من أعمالهم شيأ حتى ساويناهم وهؤلاء الذين هم أنقص منهم منزلة بل رفعهم تعالى الى منزلة الآباء ببركة أعمالهم بفضله ومنته ثم قال كل امرئ بما كسب رهين أى من شر وقوله ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون أى اعملوا على مكانتكم انا عاملون على ما نحن عليه فستعرضون ونعرض عليه وينبئنا واياكم بأعمالنا وأعمالكم وما كنا نختلف فيه فى الدنيا كقوله قل لا تسئلون عما أجرمنا ولا نسئل عما تعملون قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم وقوله تعالى (وهو الذى جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم).

فانه لا أحد اوفى بعهده من الله سبحانه وهو صادق الوعد لا يخلف الميعاد فان اخلاف الوعد مما لا يكاد يصدر عن كرام الخلق مع امكان صدوره منهم فكيف بجناب الخلاق الغنى عن العالمين جل جلاله فالجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من حقية الوعد على نهج المبالغة فى كونه أوفى بالعهد من كل واف ثم زادهم سرورا وحبورا فقال (فاستبشروا ببيعكم) البشارة هى اظهار السرور وظهوره يكون فى بشرة الوجه ولذا يقال أسارير الوجه أى التى يظهر فيها السرور والسين ليست للطلب كاستوقد وأوقد بل للمطاوعة وقد تقدم ايضاح هذا والفاء لترتيب الاستبشار أو الامر به على ما قبله والمعنى أظهروا السرور وافرحوا غاية الفرح بهذا البيع (الذى بايعتم به) الله عز وجل فقد ربحتم فيه ربحا لم يربحه أحد من الناس الا من فعل مثل فعلكم وفيه التفات عن الغيبة تشريفا لهم على تشريف وزيادة لسرورهم على سرور وفيه زيادة تقرير بيعهم واشعار بكونه مغايرا لسائر البياعات فانه بيع للفانى بالباقى وكلا البدلين له سبحانه وتعالى والاشارة بقوله (ذلك) الى الجنة أو الى نفس المبيع الذى ربحوا فيه الجنة (هو الفوز العظيم) وصف الفوز وهو الظفر بالمطلوب بالعظيم يدل على انه فوز لا فوز مثله قال عمر بن الخطاب ان الله بايعك وجعل الصفقتين لك وقال الحسن اسمعوا الى بيعة ربيحة بايع الله بها كل مؤمن وعنه ان الله أعطاك الدنيا فاشتر الجنة ببعضها وقال قتادة ثامنهم فاغلى لهم وقال الصادق ليس لابدانكم ثمن الا الجنة فلا تبيعوها الا بها (التائبون) رفع على المدح أى هم التائبون يعنى المؤمنين والتائب الراجع أى هم الراجعون الى طاعة الله عن الحالة المخالفة للطاعة وقال الزجاج عندى ان قوله التائبون رفع بالابتداء وخبره مضمر أى التائبون ومن بعدهم الى آخر الآية لهم الجنة أيضا وان لم يجاهدوا قال وهذا أحسن اذ لو كانت هذه أوصافا للمؤمنين المذكورين لكان الوعد خاصا بالمجاهدين وقد ذهب الى هذا طائفة من المفسرين وقيل ان الخبر قوله الآمرون وقيل ان التائبون بدل من الضمير المستتر فى يقاتلون وذهب آخرون الى أن هذه الاوصاف راجعة الى المؤمنين فى الآية الاولى وانها على جهة الشرط أى لا يستحق الجنة بتلك المبايعة الا من كان من المؤمنين على هذه الاوصاف وبه قال ابن عطية وقيل غير ذلك وجوز صاحب الكشاف أن يكون التائبون مبتدأ وخبره العابدون وما بعده اخبار كذلك أى التائبون

(١) قوله على ذرياتهم باعان الخ هكذا فى الاصل ولعل فيه سقطا والاصل على ذرياتهم كما قال تعالى والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان الخ وحرر اه مصححه

يقول تعالى وهو الذي جعلكم خلائف الارض أي جعلكم تعمرونها جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن وخلفا بعد سلف قال ابن زيد وغيره كقوله تعالى ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الارض يخلفون وقوله عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون وقوله ورفع بعضكم فوق بعض درجات أي فاوت بينكم في الارزاق والاخلاق والمحاسن والمساوى والمناظر والاشكال والالوان وله الحكمة في ذلك كقوله تعالى نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا وقوله انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا وقوله تعالى ليبلوكم فيما آتاكم أي ليختبركم في الذي أنعم به عليكم أي امتحنكم ليختبر الغني في غناه ويسأله عن شكره والفقير في فقره ويسأله عن صبره وفي صحيح مسلم من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فناظر ما تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فان أول فتنة بني اسرائيل كانت في النساء وقوله تعالى ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم ترهيب وترغيب ان حسابه وعقابه سريع ممن عصاه وخالف رسله وانه لغفور رحيم لمن والاه واتبع رسله فيما جاؤا به من خير وطلب وقال محمد بن اسحق ليرحم العباد على ما فيهم رواه ابن أبي حاتم وكثيرا ما يقرن الله تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين كقوله وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وان ربك لشديد العقاب وقوله نبئ عبادي اني أنا الغفور الرحيم وان عذابي هو العذاب الاليم الى غير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب فتارة يدعو عباده اليه

عن الكفر على الحقيقة الجامعون لهذه الخصال وفيه من البعد ما لا يخفى ثم قيل المراد به التوبة عن الشرك والبراءة من النفاق وقيل من كل معصية وقيل من جميع المعاصي لان اللفظ عام يتناول الكل وحاصل ما ذكر أوصاف تسعة الستة الاولى تتعلق بمعاملة الخالق والسابع والثامن يتعلقان بمعاملة المخلوق والتاسع يعم القسمين قاله الحفناوي وأتى بترتيب هذه الصفات في الذكر على أحسن نظم وهو ظاهر بالتأمل فانه قدم التوبة أولا ثم ثنى بالعبادة الى آخرها (العابدون) أي القائمون بما أمروا به من عبادة الله مع الاخلاص (الحامدون) الذين يحمدون الله سبحانه على كل حال في السراء والضراء ويقومون بشكره على جميع نعمه دينا وأخرى (السائحون) السياحة في اللغة أصلها الذهاب على وجه الارض كما يسيح الماء وهي مما يعين العبد على الطاعة لانقطاعه عن الخلق ولما يحصل له من الاعتبار بالتفكر في مخلوقات الله سبحانه فالسياحة لها أثر عظيم في تهذيب النفس وتحسين أخلاقها وفي القاموس السياحة بالكسر الذهاب في الارض للعبادة ومنه المسيح بن مريم وذكرت في اشتقاقه خمسين قولا في شرحي لمختصر البخاري والسائح الصائم الملازم للسياحة قيل هم الصائمون واليه ذهب جمهور المفسرين وبه قال ابن مسعود ومنه قوله تعالى عابدات سائحات وانما قيل للصائم سائح لانه يترك اللذات كلها كما يترك السائح في الارض قاله سفيان بن عيينة وقال الازهري سمي الصائم سائحا لان الذي يسيح في الارض متعبدا لازاد معه فكان ممسكا عن الاكل وكذلك الصائم ممسك عنه قال الزجاج ومذهب الحسن ان السائحين هنا هم الذين يصومون الفرض وقيل انهم الذين يديمون الصيام وقال عطاء السائحون هم الغزاة والمجاهدون وقال عبد الرحمن ابن زيد هم المهاجرون وقال عكرمة هم الذين يسافرون لطلب الحديث وقيل هم الجائرون بأفكارهم في توحيد ربهم وملكوته وما خلق من العبر وقيل هم طلبة العلم مطلقا لانهم ينتقلون من بلد الى بلد في طلبه ويسيحون في الارض يطلبونه من مظانه ويدخل فيه طالب الحديث دخولا أوليا (الراكعون الساجدون) معناه المصلون المحافظون على الصلوات وعبر عنها بهما لانهما معظم أركانها وبهما يمتاز المصلي من غيره بخلاف غيرهما كالقيام والقعود لانهما حالتا المصلي وغيره (الآمرون بالمعروف) أي القائمون بأمر الناس بما هو معروف في الشريعة (والناهون عن المنكر) أي القائمون بالانكار على

 بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه وتارة يدعوهم اليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها وتارة بهما لينجع في كل بحسبه جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر وترك ما عنه نهى وزجر وصدقه فيما أخبر انه قريب مجيب سميع الدعاء جواد كريم وهاب وقد قال الامام أحمد حدثنا عبد الرحمن حدثنا زهير عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط أحد من الجنة خلق الله مائة رحمة فوضع واحدة بين خلقه يتراحمون بها وعند الله تسعة وتسعون ورواه الترمذي عن قتيبة عن

عبد العزيز الدراوردي عن العلاء به وقال حسن ورواه مسلم عن يحيى بن يحيى وقتيبة وعلي بن حجر ثلاثتهم عن اسمعيل بن جعفر عن العلاء وعنه أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش ان رحمتي تغلب غضبي وعنه أيضا قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا وأنزل في الارض جزءا واحدا فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه رواه مسلم

آخر تفسير سورة الانعام ولله الحمد والمنة

(تفسير سورة الاعراف وهي مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(المص كتاب أنزل اليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون) قد تقدم الكلام في أول سورة البقرة على ما يتعلق بالحروف وبسطه واختلاف الناس فيه قال ابن جرير حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا أبي عن شريك عن عطاء بن السائب عن أبي الضحى عن ابن عباس المص أنا الله أفصل وكذا قال سعيد بن جبير كتاب أنزل اليك أي هذا كتاب أنزل اليك أي من ربك فلا يكن في صدرك حرج منه قال مجاهد وقتادة والسدي شك منه وقيل لا تتحرج به في ابلاغه والانذار به فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولهذا قال لتنذر به أي أنزلناه اليك لتنذر به الكافرين وذكرى للمؤمنين ثم قال تعالى مخاطبا للعالم اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم أي اقتفوا آثار النبي الامي الذي جاءكم بكتاب أنزل اليكم من رب كل شيء ومليكه ولا تتبعوا من دونه أولياء أي لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول الى غيره فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله الى حكم غيره قليلا ما تذكرون كقوله وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين وقوله وان تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله الآية وقوله وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون (وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون فما كان دعواهم اذ جاءهم بأسنا الا أن قالوا انا كنا ظالمين فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين) يقول تعالى وكم من قرية أهلكناها أي بمخالفة رسلنا وتكذيبهم فأعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولا بذل الآخرة كما قال تعالى ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن وكقوله فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد وقال تعالى وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك

من فعل منكر أي شيء ينكره الشرع قال الحسن اما انهم لم يأمروا الناس بالمعروف حتى كانوا من أهله ولم ينهوا عن المنكر حتى انتهوا عنه ولم يأت بعاطف بين هذه الاوصاف لمناسبتها لبعضها الا في هذين الوصفين المتضادين فانهما متبائنان اذ الاول طلب فعل والثاني طلب ترك أو كف (والحافظون لحدود الله) أي القائمون بحفظ شرائعه التي أنزلها في كتبه وعلى لسان رسله وقيل بطاعة الله وقال الحسن بفرائض الله وهم أهل الوفاء ببيعة الله وقيل بأوامره ونواهيه أو بمعالم الشرع وقيل ان العطف في الصفات يجيء بالواو وبغيرها كقوله غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب وقيل ان الواو زائدة وقيل هي واو الثمانية المعروفة عند النحاة كما في قوله تعالى ثيبات وأبكارا وقوله وفتحت أبوابها وقوله سبعة وثامنهم كلبهم وقد أنكر واو الثمانية أبو علي الفارسي وناظره في ذلك ابن خالويه قال الخفاجي وقائل هذا القول يعني كون السبع عنده تاما فأتي بالقاطع لغيره من أثبت واو الثمانية وهو قول ضعيف لم يرضه النحاة كما فصله صاحب المغني اه والحافظ ابن القيم في البدائع (وبشر المؤمنين) الموصوفين بالصفات السابقة بالجنة عن ابن عباس قال من مات على هذه التسع فهو في سبيل الله ومن مات وفيه تسع فهو شهيد وفيه اظهار في مقام الاضمار للتنبيه على علة الحكم أي سبب استحقاقهم الجنة هو ايمانهم وحذف المبشر به لخروجه عن حد البيان (ما كان) أي لا يصح ولا ينبغي ولا يجوز (للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) لما بين الله سبحانه في أول السورة وما بعدها ان البراءة من المشركين والمنافقين واجبة بين سبحانه هنا ما يزيد ذلك تأكيدا وصرح بان ذلك متحتم (ولو كانوا أولي قربى) فان القرابة في مثل هذا الحكم لا تأثير لها وقد ذكر أهل التفسير ان ما كان في القرآن يأتي على وجهين الاول على النفي نحو ما كان لنفس ان تموت الا باذن الله والآخر على النهي نحو ما كان لكم أن تؤذوا رسول الله (من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) هذه الجملة تتضمن التعليل للنهي عن الاستغفار والمعنى ان هذا التبيين موجب لقطع الموالاة لمن كان هكذا وعدم الاعتداد بالقرابة لانهم ماتوا على الشرك وقد قال سبحانه ان الله لا يغفر أن يشرك به فطلب المغفرة لهم في حكم المخالفة لوعد الله ووعيده عن علي قال أخبرت النبي صلى الله عليه وآله وسلم بموت أبي طالب فبكى فقال اذهب فغسله وكفنه وواره غفر الله له ورحمه ففعلت وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستغفر له أياما

فما كنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين وقوله تعا[illegible]تا أوهم قائلون أى فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته بياتا أى ليلا أوهم قائلون من القيلولة وهى الاستراحة وسط النهار وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو كما قال أفأمن أهل القرى ان يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون وقال أفأمن الذين مكروا السيآت أن يخسف الله بهم الارض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين أو يأخذهم على تخوف فان ربكم لرؤف رحيم وقوله فما كان دعواهم اذ جاءهم بأسنا الا ان قالوا انا كنا ظالمين (١٧١) أى فما كان قولهم عند مجىء العذاب الا ان اعترفوا بذنوبهم وانهم حقيقون بهذا كقوله تعالى وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة الى قوله خامدين قال ابن جرير فى هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم حدثنا بذلك ابن حميد حدثنا جرير عن ابن سنان عن عبد الملك بن ميسرة الزراد قال قال عبد الله بن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم قال قلت لعبد الملك كيف يكون ذلك قال فقرأ هذه الآية فما كان دعواهم اذ جاءهم بأسنا الا ان قالوا انا كنا ظالمين وقوله فلنسئلن الذين أرسل اليهم الآية كقوله ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين وقوله يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا انك أنت علام الغيوب فيسأل الله الامم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به ويسأل الرسل أيضا عن ابلاغ رسالاتهم ولهذا قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية فلنسئلن الذين أرسل اليهم ولنسئلن المرسلين عما بلغوا وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن ابراهيم حدثنا ابراهيم بن محمد بن الحسن حدثنا أبو سعيد الكندى حدثنا المحاربى عن ليث عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلكم راع وكلكم مسؤل عن رعيته فالامام يسئل عن الرجل والرجل يسئل عن أهله والمرأة تسئل عن بيت زوجها والعبد يسئل عن مال سيده قال الليث وحدثنى ابن طاوس مثله ثم قرأ فلنسئلن الذين أرسل اليهم ولنسئلن المرسلين وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين بدون هذه الزيادة وقال ابن عباس فى قوله فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون وما كنا غائبين يعنى انه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير لانه تعالى الشهيد على كل شئ لا يغيب عنه شئ ولا يغفل عن شئ بل

ولا يخرج من بيته حتى نزل عليه ما كان للنبى الآية وقد روى فى سبب نزول الآية استغفار النبى صلى الله عليه وآله وسلم لابى طالب من طرق كثيرة وأصله فى الصحيحين وما فيهما مقدم على ما لم يكن فيهما على فرض انه صحيح فكيف وهو ضعيف غالبه وقيل ان أريد بطلب المغفرة للكافر هدايته للاسلام قبل الموت جاز الاستغفار له وان أريد به ان يغفر ذنبه مع بقائه على الكفر لم يجز ففهوم هذه الآية فيه تفصيل وهذه الآية متضمنة لقطع الموالاة للكفار وتحريم الاستغفار لهم والدعاء بما لا يجوز لمن كان كافرا ولا ينافى هذا ما ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم فى الصحيح انه قال يوم أحد حين كسر المشركون رباعيته وشجوا وجهه اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون لانه يمكن ان يكون ذلك قبل ان يبلغه تحريم الاستغفار لهم وعلى فرض انه قد كان بلغه كما يفيده سبب النزول فانه قبل يوم أحد بمدة طويلة فصدور هذا الاستغفار منه لقومه انما كان على سبيل الحكاية عمن تقدمه من الانبياء كما فى صحيح مسلم عن عبد الله قال كأنى أنظر الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم يحكى نبيا من الانبياء ضربه قومه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول رب اغفر لقومى فانهم لا يعلمون (وما كان استغفار ابراهيم لابيه) بقوله واغفر لابى أى بأن توفقه للايمان وتهديه اليه وجه تعلق هذه الآية بما قبلها انه تعالى لما بالغ فى وجوب الانقطاع عن المشركين الاحياء منهم والاموات بين أن هذا الحكم غير مختص بدين محمد صلى الله عليه وآله وسلم بل هو مشروع أيضا فى دين ابراهيم فتكون المبالغة فى وجوب الانقطاع أكمل وأقوى (الا عن موعدة وعدها اياه) ذكر سبحانه السبب فى استغفار ابراهيم لابيه انه كان لاجل وعد تقدم من ابراهيم لابيه بالاستغفار له والاستثناء مفرغ من أعم العلل أى لم يكن استغفاره لابيه ناشئا عن شئ ولا لاجل شئ الا عن موعدة مبنية على عدم تبين أمره وعدها اياه أى لاجلها (فلما تبين له انه عدو لله) مصر على العداوة والكفر ومستمر عليه وانه غير مستحق للاستغفار بموته على الكفر (تبرأ منه) وترك الاستغفار له وهذا يدل على انه انما وعده قبل أن يتبين له انه من أهل النار ومن أعداء الله فلا حاجة الى السؤال الذى يورده كثير من المفسرين انه كيف خفى ذلك على ابراهيم فانه لم يخف عليه تحريم الاستغفار لمن أصر على الكفر ومات عليه وهو لم يعلم ذلك الا باخبار الله سبحانه له بانه عدو لله فان ثبوت هذه العداوة يدل على الموت على الكفر وكذلك لم يعلم نبينا صلى الله عليه وآله وسلم بتحريم ذلك

هو العالم بخائنة الاعين وما تخفي الصدور وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين (والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون) يقول تعالى والوزن أى للاعمال يوم القيامة الحق أى لا يظلم تعالى أحدا كقوله ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين وقال تعالى ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما وقال تعالى (١٧٢) فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ما هيه نار حامية وقال تعالى فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون * (فصل) * والذى يوضع في الميزان يوم القيامة قيل الاعمال وان كانت أعراضا الا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساما قال البغوي يروى هذا عن ابن عباس كما جاء في الصحيح أن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف ومن ذلك في الصحيح قصة القرآن وانه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون فيقول من أنت فيقول أنا القرآن الذى أسهرت ليلك وأظمأت نهارك وفي حديث البراء في قصة سؤال القبر فيأتي المؤمن شاب حسن اللون طيب الريح فيقول من أنت فيقول أنا عملك الصالح وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق وقيل يوزن كتاب الاعمال كما جاء في حديث البطاقة في الرجل الذى يؤتى به ويوضع له في كفة تسعة وتسعون سجلا كل سجل مد البصر ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها لا اله الا الله فيقول يارب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول الله تعالى انك لا تظلم فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فطاشت السجلات وثقلت البطاقة رواه الترمذى بنحو من هذا وصححه وقيل يوزن صاحب العمل كما في الحديث يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة ثم قرأ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا وفي مناقب عبد الله بن مسعود ان النبي صلى الله عليه وسلم قال أتعجبون من دقة ساقيه والذى نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أحد وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحا فتارة توزن الاعمال وتارة توزن محالها وتارة يوزن فاعلها والله أعلم (ولقد مكناكم في الارض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون) يقول تعالى

الا بعد ان أخبره الله بهذه الآية وهذا الحكم انما يثبت بالسمع لا بالعقل وقيل المراد من استغفار ابراهيم لابيه دعاؤه الى الاسلام وهو ضعيف جدا وقيل المراد به هنا النهي عن الصلاة على جنائز الكفار فهو كقوله تعالى ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا حاجة الى تفسير الاستغفار بالصلاة ولا ملجئ الى ذلك ثم ختم الله سبحانه هذه الآية بالثناء العظيم على ابراهيم فقال (ان ابراهيم) استئناف مسوق لبيان الحامل له على الاستغفار قبل التبين فليس لغيره أن يقتدى به فيه اذ ليس لغيره ماله من الرأفة والرقة فلا بد من أن يكون غيره أكثر اجتنابا وتبريا (لأواه) هو كثير التأوه كما تدل على ذلك صيغة المبالغة وبه قال كعب الاحبار وهو كناية عن فرط ترحمه ورقة قلبه والتأوه أن يقول الرجل عند الشكاية والتوجع آه وقد أوه الرجل تأويها وتأوه تأوها اذا قال أوه أى أتوجع وحكى قطرب يقال آه يؤه كقام يقوم أوها وأنكر النحويون هذا القول عليه وقالوا لا يقال من أوه فعل ثلاثي وقد اختلف أهل العلم في معنى الاواه فقال ابن مسعود وعبيد بن عمير انه الذى يكثر الدعاء وقال الحسن وقتادة انه الرحيم بعباد الله وروى عن ابن عباس انه المؤمن التواب بلغة الحبش وقال الكلبي انه الذى يذكر الله في الارض القفر وروى مثله عن ابن المسيب وقيل الذى يكثر الذكر من غير تقييد روى ذلك عن عقبة بن عامر وقيل هو الذى يكثر التلاوة وقيل انه الفقيه قاله مجاهد والنخعي وقيل المتضرع الخاضع روى ذلك عن عبد الله بن شداد وقيل الموقن قاله مجاهد وقيل هو الذى اذا ذكر خطاياه استغفر لها روى ذلك عن أبي أيوب وقيل هو الشفيق قاله عبد العزيز بن يحيى وقيل هو المسبح قاله سعيد بن جبير وقال أبو عبيدة هو المتأوه شفقا وفرقا المتضرع ايقانا ولزوما للطاعة قال الزجاج انتظم في قول ابى عبيدة جميع ما قيل في الاواه وقيل انه المعلم للخير وقيل انه الراجع عن كل ما يكرهه الله الخائف من النار قاله عطاء والمطابق لمعنى الاواه لغة أن يقال انه الذى يكثر التأوه من ذنوبه فيقول مثلا آه من ذنوبي آه مما أعاقب به بسببها ونحو ذلك وبه قال الفراء وهو مروى عن أبي ذر وكان ابراهيم عليه السلام يكثر أن يقول أوه من النار قبل أن لا ينفع أوه وأصله من التأوه وهو أن يسمع للصدر صوت من تنفس الصعداء والفعل منه أوه قال في الصحاح وقد أوه الرجل تأويها وتأوه تأوها والاسم منه الآهة بالمد قال المثقب العبدى

اذا

ممتنا على عبيده فيما مكن لهم من أنه جعل الارض قرارا وجعل فيها رواسى وأنهارا وجعل لهم فيها منازل وبيوتا وأباح لهم منافعها وسخر لهم السحاب لاخراج أرزاقهم منها وجعل لهم فيها معايش أى مكاسب وأسبابا يكسبون بها ويتجرون فيها وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك كقوله وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار وقد قرأ الجميع معايش بلا همز الا عبد الرحمن ابن هرمز الاعرج فانه همزها والصواب الذى عليه الاكثرون بلا همز لان معايش جمع معيشة من عاش يعيش عيشا ومعيشة أصلها معيشة فاستثقلت الكسرة على الياء فنقلت الى العين فصارت معيشة فلما جمعت (١٧٣) رجعت الحركة الى الياء لزوال الاستثقال فقيل معايش ووزنه مفاعل لان الياء أصلية فى الكلمة بخلاف مدائن وصحائف وبصائر جمع مدينة وصحيفة وبصيرة من مدن وصحف وأبصر فان الياء فيها زائدة ولهذا تجمع على فعائل وتهمز لذلك والله أعلم (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين) ينبه تعالى بنى آدم بهذا على شرف أبيهم آدم ويبين لهم عداوة عدوهم ابليس وما انطوى عليه من الحسد لهم ولابيهم آدم ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه فقال تعالى ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم وهذا كقوله تعالى واذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين وذلك أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام بيده من طين لازب وصوره بشرا ونفخ فيه من روحه أمر الملائكة بالسجود له تعظيما لشأن الرب تعالى جلاله فسمعوا كلهم وأطاعوا الا ابليس لم يكن من الساجدين وقد تقدم الكلام على ابليس فى أول تفسير سورة البقرة وهذا الذى قررناه هو اختيار ابن جرير ان المراد بذلك كله آدم عليه السلام وقال سفيان الثورى عن الاعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ولقد خلقناكم ثم صورناكم قال خلقوا فى أصلاب الرجال وصوروا فى أرحام النساء رواه الحاكم وقال صحيح على شرطهما ولم يخرجاه ونقل ابن جرير عن بعض السلف أيضا ان المراد بخلقناكم ثم صورناكم الذرية وقال الربيع بن أنس والسدى وقتادة والضحاك فى هذه الآية ولقد خلقناكم ثم صورناكم أى خلقنا آدم ثم صورنا الذرية وهذا فيه نظر لانه قال بعده ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فدل على ان المراد بذلك آدم وانما قيل ذلك بالجمع لانه أبو البشر كما يقول تعالى لبنى اسرائيل الذين كانوا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى والمراد آباؤهم الذين كانوا فى زمن موسى ولكن لما كان ذلك

اذا ما قمت أرحلها بليل * تأوه آهة الرجل الحزين

وعن ابن شداد بن الهاد قال قال رجل يا رسول الله ما الاواه قال الخاشع المتضرع فى الدعاء أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ وابن أبى حاتم وفيه شهر بن حوشب فيه الخلاف وهذا ان ثبت وجب المصير اليه وتقديمه على ما ذكره أهل اللغة فى معنى الاواه (حليم) الكثير الحلم كما تفيده صيغة المبالغة وهو الذى يصفح عن الذنوب ويصبر على الاذى ثم يقابله بالاحسان واللطف كما فعل ابراهيم مع أبيه حين قال له لئن لم تنته لارجمنك فأجابه بقوله سلام عليك سأستغفر لك ربى وقيل الذى لا يعاقب أحدا قط الا لله قال ابن عباس كان من حلمه اذا آذاه الرجل من قومه قال له هداك الله وقيل الحليم السيد (وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم) لما نزلت الآية المتقدمة فى النهى عن الاستغفار للمشركين خاف جماعة ممن كان يستغفر لهم العقوبة من الله بسبب ذلك الاستغفار فأنزل الله هذه الآية أى ان الله سبحانه لا يوقع الضلال على قوم ولا يسميهم ضلالا بعد أن هداهم الى الاسلام والقيام بشرائعه مالم يقدموا على شئ من المحرمات بعد أن تبين لهم انه محرم وأما قبل ان يتبين لهم ذلك فلا اثم عليهم ولا يؤاخذون به وهذا مثل قوله فى آل عمران بعد اذ هديتنا وفيه وجهان أى بعد ان هداهم أو بعد وقت هداهم فيه يعنى اذ بمعنى أن أو انها ظرف بمعنى وقت (حتى يبين لهم ما يتقون) أى ما يجب عليهم اتقاؤه من محرمات الشرع وقال الضحاك ما يأتون وما يذرون وقال مقاتل والكلبى هذا فى المنسوخ أى ما كان الله ليبطل عمل قوم قد عملوا بالمنسوخ حتى يبين الناسخ قال ابن عباس نزلت حين أخذوا الفداء من المشركين يوم الاسارى قال لم يكن لكم ان تأخذوه حتى يؤذن لكم ولكن ما كان الله ليعذب قوما بذنب أذنبوه حتى يبين لهم ما يتقون أى ينهاهم قبل ذلك وقال مجاهد بيان الله للمؤمنين فى ترك الاستغفار للمشركين خاصة وبيانه لهم فى طاعته ومعصيته عامة فافعلوا أو اتركوا (ان الله بكل شئ عليم) مما يحل لعباده ويحرم عليهم ومن سائر الاشياء التى خلقها ومنه مستحق الاضلال والهداية ثم بين لهم (ان الله) سبحانه (له ملك السموات والارض) لا يشاركه فى ذلك مشارك ولا ينازعه منازع يتصرف فى ملكه بما يشاء من التصرفات التى من جملتها انه (يحيى ويميت) من قضت مشيئته باحيائه وباماتته (وما لكم) أى ٤ لعباده (من دون الله من ولى) يواليهم (ولا نصير)

(٤) قوله أى لعباده وقوله بعد يواليهم كذا فى أصله اه

نصرهم فلا يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى فإن القرابة لا تنفع شيأ ولا تؤثر أثرا بل التصرف في جميع الأشياء لله وحده (لقد تاب الله) أي أدام توبته (على النبي) فيما وقع منه صلى الله عليه وآله وسلم من الإذن في التخلف أو فيما وقع منه من الاستغفار للمشركين وليس من لازم التوبة أن يسبق الذنب ممن وقعت منه أو له لأن كل العباد محتاج إلى التوبة والاستغفار (1) وقد يكون التوبة منه على النبي من باب أنه ترك ما هو الأولى والأليق كما في قوله عفا الله عنك لم أذنت لهم ويجوز أن يكون ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأجل التعريض للمذنبين بأن يجتنبوا الذنوب ويتوبوا عما قد لابسوه منها قال أهل المعاني هو مفتاح كلام للتبرك وفيه تشريف لهم في ضم توبتهم إلى توبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما ضم اسم الرسول إلى اسم الله في قوله فأن لله خمسه وللرسول فهو تشريف له (و) كذلك تاب الله سبحانه على (المهاجرين والأنصار) فيما قد اقترفوه من الذنوب ومن هذا القبيل ما صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم من قوله إن الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم والانسان لا يخلو من زلات وتبعات في مدة عمره إما من باب الصغائر وإما من باب ترك الأفضل ثم وصف سبحانه المهاجرين والأنصار بأنهم (الذين اتبعوه) أي النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلم يتخلفوا عنه (في ساعة العسرة) هي غزوة تبوك فإنهم كانوا فيها في عسرة شديدة وقد ذكر بعض العلماء أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سار إلى تبوك في سبعين ألفا ما بين راكب وماش من المهاجرين والأنصار وغيرهم من سائر القبائل فالمراد بالساعة أوقات جميع تلك الغزاة ولم يرد ساعة بعينها والعسرة صعوبة الأمر والشدة والضيق وقد وقع الاتفاق بين الرواة أن ساعة العسرة هي غزوة تبوك وتسمى غزوة العسرة والجيش الذي سار يسمى جيش العسرة لأنه كان عليهم عسرة في الزاد والظهر والماء وأخرج ابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهم عن ابن عباس أنه قال لعمر بن الخطاب حدثنا من شأن ساعة العسرة فقال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا فأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع حتى أن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده فقال أبو بكر الصديق يا رسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيرا فادع لنا فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء فأظلت ثم سكبت فملؤا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها

منه على الآباء الذين هم أصل صار به كأنه واقع على الأبناء وهذا بخلاف قوله تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين الآية فإن المراد آدم والمخلوق من السلالة ذريته مخلوقون من نطفة وصح هذا لأن المراد وخلقنا الانسان الجنس لا معينا والله أعلم (قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) قال بعض النحاة في توجيه قوله تعالى ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك لا هنا زائدة وقال بعضهم زيدت لتأكيد الجحد كقول الشاعر * ما إن رأيت ولا سمعت بمثله * فأدخل إن وهي للنفي على ما النافية لتأكيد النفي قالوا وكذا هنا ما منعك أن لا تسجد (174) مع تقدم قوله لم يكن من الساجدين حكاهما ابن جرير وردهما واختار أن منعك مضمن معنى فعل آخر تقديره ما أحوجك وألزمك واضطرك أن لا تسجد إذ أمرتك ونحو هذا وهذا القول قوي حسن والله أعلم وقول ابليس لعنه الله أنا خير منه من العذر الذي هو أكبر من الذنب كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول يعني لعنه الله وأنا خير منه فكيف تأمرني بالسجود له ثم بين أنه خير منه بأنه خلق من نار والنار أشرف مما خلقته منه وهو الطين فنظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف العظيم وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه وقاس قياسا فاسدا في مقابلة نص الله قوله تعالى فقعوا له ساجدين فشذ من بين الملائكة لترك السجود فلهذا أبلس من الرحمة أي أويس من الرحمة فأخطأ قبحه الله في قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضا فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت والطين محل النبات والنمو والزيادة والاصلاح والنار من شأنها الاحراق والطيش والسرعة ولهذا خان ابليس عنصره ونفع آدم عنصره بالرجوع والانابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة وعن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقت الملائكة من نور وخلق ابليس من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم رواه مسلم وقال ابن مردويه حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا اسمعيل بن عبد الله بن مسعود حدثنا نعيم بن حماد حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقت الملائكة من نور العرش وخلق الجان من نار وخلق آدم مما وصف لكم قلت لنعيم بن حماد أين سمعت هذا من عبد الرزاق قال باليمن وفي بعض ألفاظ هذا الحديث في غير الصحيح وخلقت الحور العين من الزعفران وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا محمد بن كثير عن ابن شوذب عن مطر

(1) قوله وقد يكون التوبة الخ بهامش الأصل ما نصه الظاهر ترك ذلك إذ لم يصح أنه ترك ما هو الأولى اه

الوراق عن الحسن في قوله خلقتني من نار وخلقته من طين قال قاس ابليس وهو أول من قاس اسناده صحيح وقال حدثني عمر بن مالك حدثنا يحيى بن سليمان الطائفي عن هشام عن ابن سيرين قال أول من قاس ابليس وما عبدت الشمس والقمر الا بالمقاييس اسناد صحيح أيضا (قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين قال أنظرني الى يوم يبعثون قال انك من المنظرين) يقول تعالى مخاطبا لابليس بأمر قدري كوني فاهبط منها أي بسبب عصيانك لأمري وخروجك عن طاعتي فما يكون لك أن تتكبر فيها قال كثير من

المفسرين الضمير عائد الى الجنة ويحتمل أن يكون عائدا الى المنزلة التي هو فيها من الملكوت الاعلى فاخرج انك من الصاغرين أي الذليلين الحقيرين معاملة له بنقيض قصده ومكافأة لمراده بضده فعند ذلك استدرك اللعين وسأل النظرة الى يوم الدين قال أنظرني الى يوم يبعثون قال انك من المنظرين أجابه تعالى الى ما سأل لماله في ذلك من الحكمة والارادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب (قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين) يخبر تعالى انه لما أنظر ابليس الى يوم يبعثون واستوثق ابليس بذلك أخذ في المعاندة والتمرد فقال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم أي كما أغويتني قال ابن عباس أضللتني وقال غيره أهلكتني لأقعدن لعبادك الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه على صراطك المستقيم أي طريق الحق وسبيل النجاة ولأضلنهم عنه لئلا يعبدوك ولا يوحدوك بسبب اضلالك اياي وقال بعض النحاة الباء هنا قسمية كأنه يقول فبإغوائك اياي لأقعدن لهم صراطك المستقيم يعني الحق وقال محمد بن سوقة عن عون بن عبد الله يعني طريق مكة قال ابن جرير والصحيح ان الصراط المستقيم أعم من ذلك (قلت) لما روى الامام أحمد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا أبو عقيل يعني الثقفي عبد الله بن عقيل حدثنا موسى بن المسيب أخبرني سالم بن أبي الجعد عن سبرة بن الفاكه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الشيطان قعد لابن آدم بطرقه فقعد له بطريق الاسلام فقال أتسلم وتذر دينك ودين آبائك قال فعصاه وأسلم قال وقعد له بطريق الهجرة فقال أتهاجر وتدع أرضك

جاوزت العسكر (من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم) في كاد ضمير الشأن بيان لتناهي الشدة وبلوغها النهاية ومعنى يزيغ يتلف بالجهد والمشقة والشدة وقيل معناه يميل عن الحق ويترك المناصرة والممانعة وقيل معناه يهم بالتخلف عن الغزو لما هم فيه من الشدة العظيمة وفي قراءة ابن مسعود من بعد ما زاغت وهم المتخلفون على هذه القراءة وفي تكرير التوبة عليهم بقوله (ثم تاب عليهم) تأكيد ظاهر واعتناء بشأنها هذا ان كان الضمير راجعا الى من تقدم ذكر التوبة عنهم وان كان الضمير الى الفريق الثاني فلا تكرار وذكر التوبة أولا قبل ذكر الذنب تفضلا منه وتطييبا لقلوبهم ثم ذكر الذنب بعد ذلك وأردفه بذكر التوبة مرة أخرى تعظيما لشأنهم وليعلموا انه تعالى قد قبل توبتهم وعفا عنهم ثم أتبعه بقوله (انه بهم رؤف رحيم) تأكيدا لذلك أي رفيق بعباده لانه لم يحملهم ما لا يطيقون من العبادات وبين الرؤف والرحيم فرق لطيف وان تقاربا في المعنى قال الخطابي قد تكون الرحمة مع الكراهة ولا تكاد الرأفة تكون معها وقيل الرأفة عبارة عن السعي في ازالة الضرر والرحمة عبارة عن السعي في ايصال النفع (و) تاب (على الثلاثة الذين خلفوا) أي أخروا ولم تقبل توبتهم في الحال كما قبلت توبة أولئك المتخلفين المتقدم ذكرهم قال ابن جرير معنى خلفوا تركوا يقال خلفت فلانا فارقته وقرئ خلفوا بالتخفيف أي أقاموا بعد نهوض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين الى الغزو وقرئ خالفوا وقيل معنى خلفوا فسدوا مأخوذ من خلوف الفم وهؤلاء الثلاثة هم كعب ابن مالك ومرارة بن الربيع أو ابن ربيعة العامري وهلال بن أمية الواقفي وكلهم من الانصار لم يقبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم توبتهم حتى نزل القرآن بأن الله قد تاب عليهم (حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت) كناية عن شدة التحير وعدم الاطمئنان يعني انهم أخروا عن قبول التوبة الى هذه الغاية وهي وقت أن ضاقت عليهم الارض برحبها لاعراض الناس عنهم وعدم مكالمتهم من كل أحد لان النبي صلى الله عليه وآله وسلم نهى الناس أن يكلموهم والرحب الواسع يقال منزل رحب ورحيب ورحاب والمضموم مصدر والمفتوح مكان وفي هذه الآية دليل على جواز هجران أهل المعاصي تأديبا لهم لينزجروا عن المعاصي (وضاقت عليهم أنفسهم) أي انها ضاقت صدورهم بما نالهم من الوحشة وبما حصل لهم من الجفوة وشدة الغم والحزن ومجانبة الناس اياهم وترك كلامهم

وسماك وانما مثل المهاجر كالفرس فى الطول فعصاه وهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهاد النفس والمال فقال تقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال قال فعصاه وجاهد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقا على الله ان يدخله الجنة او وقصته دابة كان حقا على الله ان يدخله الجنة وقوله ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم الآية قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس من بين أيديهم أشككهم فى آخرتهم ومن خلفهم أرغبهم فى دنياهم وعن ايمانهم أشبه عليهم أمر دينهم وعن شمائلهم أشهى لهم المعاصى وقال ابن أبى طلحة فى رواية (١٧٦) والعوفى كلاهما عن ابن عباس أما من بين أيديهم فمن قبل دنياهم وأما من خلفهم فأمر آخرتهم وأما عن ايمانهم فمن قبل حسناتهم وأما عن شمائلهم فمن قبل سيآتهم وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار ومن خلفهم من أمر الدنيا زينها لهم ودعاهم اليها وعن ايمانهم من قبل حسناتهم بطأهم عنها وعن شمائلهم زين لهم المعاصى ودعاهم اليها وأمرهم بها أتاك يا ابن آدم من كل وجه غير انه لم يأتك من فوقك لم يستطع أن يحول بينك و بين رحمة الله وكذا روى عن ابراهيم النخعى والحكم بن عيينة والسدى وابن جريج الا انهم قالوا من بين أيديهم الدنيا ومن خلفهم الآخرة وقال مجاهد من بين أيديهم وعن أيمانهم من حيث يبصرون ومن خلفهم وعن شمائلهم حيث لا يبصرون واختار ابن جرير أن المراد جميع طرق الخير والشر فالخير يصدهم عنه والشر يحسنه لهم وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولم يقل من فوقهم لان الرحمة تنزل من فوقهم وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ولا تجد أكثرهم هو شاكرين قال موحدين وقول ابليس هذا انما هو ظن منه وتوهم وقد وافق فى هذا الواقع كما قال تعالى ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين وما كان له عليهم من سلطان الا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شئ حفيظ ولهذا ورد فى الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الانسان من جهاته كلها كما قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده حدثنا نصر بن على حدثنا عمرو بن مجمع عن يونس بن خباب عن ابن جبير بن مطعم يعنى نافع بن جبير عن ابن عباس وحدثنا

فلا ليعهاسرور ولا انس وعبر بالظن فى قوله (وظنوا) عن العلم أى علموا وأيقنوا (ان لا ملجأ) يلجؤن اليه قط (من الله) أى من عذابه أو من سخطه (الا اليه) سبحانه بالتوبة والاستغفار (ثم تاب) أى رجع (عليهم) بالقبول والرحمة وأنزل فى القرآن التوبة عليهم ليستقيموا أو وفقهم للتوبة فيما يستقبل من الزمان ان فرطت منهم خطيئة (ليتوبوا) عنها ويرجعوا فيها الى الله ويندموا على ما وقع منهم ويحصلوا التوبة وينشؤها فحصل التغاير وصح التعليل (ان الله هو التواب) أى الكثير القبول لتوبة التائبين (الرحيم) أى الكثير الرحمة لمن طلبها من عباده قال أبو بكر الوراق التوبة النصوح ان تضيق على التائب الارض بما رحبت وتضيق عليه نفسه كتوبة هؤلاء الثلاثة وفيه دليل على أن قبول التوبة بمحض الرحمة والكرم والرأفة والاحسان من الله تعالى وأنه لا يجب عليه شئ (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) فى مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم (وكونوا مع الصادقين) هذا الامر بالكون مع الصادقين بعد قصة الثلاثة يفيد الاشارة الى أن هؤلاء الثلاثة حصل لهم بالصدق ما حصل من توبة الله وظاهر الآية الامر للعباد على العموم قال نافع قيل للثلاثة كونوا مع محمد وأصحابه وقال سعيد بن جبير كونوا مع أبى بكر وعمر وزاد الضحاك وأصحابهما وعن ابن عباس مع على بن أبى طالب وعن جعفر قال مع الثلاثة الذين خلفوا وقال ابن جرير مع المهاجرين وقيل مع الذين خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى تبوك وقيل مع الذين صدقوا فى الاعتراف بالذنب ولم يعتذروا بالاعذار الباطلة وهذه الآية تدل على فضيلة الصدق روى أن أبا بكر احتج بهذه الآية على الانصار فى يوم السقيفة حين قال الانصار منا أمير ومنكم أمير فقال ان الله يقول فى كتابه للفقراء المهاجرين الى قوله أولئك هم الصادقون نحن هؤلاء قال الانصار أنتم هم فقال ان الله يقول اتقوا الله وكونوا مع الصادقين فأمركم ان تكونوا معنا ولم يأمرنا أن نكون معكم قيل والآية تدل على أن الاجماع حجة لانه أمر بالكون مع الصادقين فلزم قبول قولهم وقيل مع بمعنى من أى كونوا منهم والله أعلم (ما كان لاهل المدينة ومن حولهم من الاعراب أن يتخلفوا عن رسول الله) زيادة تأكيد لوجوب الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتحريم التخلف عنه أى ما صح وما استقام لهم ولمن حولهم كمزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار أن يتخلفوا عنه صلى الله عليه وآله وسلم فى غزوة تبوك وقيل

هو عام في كل الأعراب لان اللفظ عام وحمله على العموم أولى وانما خصهم الله سبحانه لانهم قد استنفروا فلم ينفروا بخلاف غيرهم من العرب فانهم لم يستنفروا مع كون هؤلاء لقربهم وجوارهم أحق بالنصرة والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ابن زيد هذا حين كان الاسلام قليلا لم يكن لاحد أن يتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلما كثر الاسلام وفشا قال الله وما كان المؤمنون لينفروا كافة (ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه) أي وما كان لهم ذلك فيشحون بها ويصونونها ولا يشحون بنفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويصونونها كما شحوا بأنفسهم وصانوها يقال رغبت عن كذا أي ترفعت عنه وأعرضت والمعنى ولا يجعلوا أنفسهم راغبة معرضة عما ألقى فيه نفسه الكريمة بل واجب عليهم ان يكابدوا معه المشاق ويجاهدوا بين يديه أهل الشقاء ويبذلوا أنفسهم دون نفسه بان يصحبوه على البأساء والضراء علما بأنها أعز نفس عند الله وأكرمها عليه فاذا تعرضت مع عزتها وكرامتها للخوض في شدة وهول وجب على سائر الانفس أن تتهافت فيما تعرضت له ولا يكترث بها أصحابها ولا يقيموا لها وزنا وتكون أخف شئ عليهم وأهونه وفي هذا الاخبار معنى الامر لهم مع ما يفيده ايراده على هذه الصيغة من التوبيخ لهم والتقريع الشديد والتهييج لهم والازراء عليهم والاشارة بقوله (ذلك) الى ما يفيده السياق من وجوب المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أي ذلك الوجوب (بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة) أي بسبب انهم مثابون على أنواع المتاعب وأصناف الشدائد والظمأ العطش والنصب التعب والمخمصة المجاعة الشديدة التي يظهر عندها ضمور البطن وتوسيط كلمة لا ههنا للدلالة على استقلال كل واحد منها بالفضيلة والاعتداد به ومعنى (في سبيل الله) في طاعة الله (ولا يطؤن موطئا يغيظ) بفتح الياء باتفاق السبعة وان كان يجوز لغة ضمها اذ يقال لغته غاظه وأغاظه بمعنى واحد أي يغضب (الكفار) أي لا يدوسون مكانا من أمكنة الكفار بأقدامهم أو بحوافر خيولهم أو بأخفاف رواحلهم فيحصل بسبب ذلك الغيظ والغم والحزن للكفار والموطئ اسم مكان ويجوز أن يكون مصدرا وفيه ان المدد يشارك الجيش في الغنيمة بعد انقضاء الحرب لان وطء ديارهم مما يغيظهم (ولا ينالون) أي لا يصيبون (من عدو نيلا) أي قتلا واسرا أو هزيمة أو غنيمة وأصله من نلت الشئ أنال أي أصبت قال الكسائي هو من قولهم أمر

عمر بن الخطاب يعني السجستاني حدثنا عبيد الله بن جعفر حدثنا عبد الله بن عمرو عن زيد بن أبي أنيسة عن يونس بن خباب عن ابن جبير بن مطعم عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو اللهم اني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي واحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بك اللهم ان اغتال من تحتي تفرد به البزار وحسنه وقال الامام أحمد حدثنا وكيع بن عبادة بن مسلم الفزاري حدثني ابن أبي سليمان بن جبير بن مطعم سمعت عبد الله بن عمر يقول لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي اللهم اني أسألك العافية في الدين والآخرة اللهم اني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بعظمتك ان أغتال من تحتي قال وكيع من تحتي يعني الخسف ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم في صحيح عبادة بن مسلم وقال الحاكم صحيح الاسناد (قال اخرج منها مذؤما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين) أكد تعالى عليه اللعنة والطرد والابعاد والنفي عن محل الملا الاعلى بقوله اخرج منها مذؤما مدحورا قال ابن جرير أما المذؤم فهو المعيب والذأم غير مشدد العيب يقال ذأمه يذأمه ذأما فهو مذؤوم ويتركون الهمز فيقول ذمته اذيمه ذيما وذاما والذام والذيم أبلغ في العيب من الذم قال والمدحور المقصى وهو المبعد المطرود وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ما نعرف المذوم والمذموم الا واحدا وقال سفيان الثوري عن أبي اسحق عن التميمي عن ابن عباس اخرج منها

مذؤما مدحورا قال مقيتا وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس صغيرا مقيتا وقال السدي مقيتا مطرودا وقال قتادة لعينا مقيتا وقال مجاهد منفيا مطرودا وقال الربيع بن أنس مذؤما منفيا والمدحور المصغر وقوله تعالى لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين كقوله قال اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الاموال والاولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا ان عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا (ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين

أو تكونا من الخالدين وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين) يذكر تعالى انه أباح لآدم عليه السلام ولزوجته حواء الجنة ان يأكلا منها من جميع ثمارها الا شجرة واحدة وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى في المكر والوسوسة والخديعة ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن (١) وقال كذبا وافتراء ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أى لئلا تكونا ملكين أو خالدين ههنا ولو أكلتما منها لحصل لكما ذلكما كقوله قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى أى لئلا تكونا ملكين كقوله يبين الله (١٧٨) لكم أن تضلوا أى لئلا تضلوا وألقى في الارض رواسى أن تميد بكم وكان ابن عباس ويحيى بن أبى كثير يقرآن الا أن تكونا ملكين بكسر اللام وقراءة الجمهور بفتحها وقاسمهما أى حلف لهما بالله انى لكما لمن الناصحين فانى من قبلكما ههنا وأعلم بهذا المكان وهذا من باب المفاعلة والمراد أحد الطرفين كما قال خالد بن زهير بن عم أبى ذئب

وقاسمها بالله جهدا لأنتم ... ألذ من السلوى اذا ما نشورها

أى حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما وقد يخدع المؤمن بالله قال قتادة في الآية حلف بالله انى خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتبعانى أرشدكما وكان بعض أهل العلم يقول من خدعنا بالله انخدعنا له (فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) قال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبى بن كعب رضى الله عنه قال كان آدم رجلا طوالا كأنه نخلة سحوق كثير شعر الرأس فلما وقع فيما وقع فيه من الخطيئة بدت له عورته عند ذلك وكان لا يراها فانطلق هاربا في الجنة فتعلقت برأسه شجرة من شجر الجنة فقال لها ارسلينى فقالت انى غير مرسلتك فناداه ربه عز وجل يا آدم أمنى تفر قال يا رب انى استحييتك وقد رواه ابن جرير وابن مردويه من طرق عن الحسن عن أبى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم مرفوعا والموقوف أصح اسنادا وقال عبد الرزاق أنبأنا سفيان بن عيينة وابن المبارك أنبأنا الحسن بن عمارة عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كانت الشجرة التى نهى الله عنها آدم وزوجته السنبلة فلما أكلا منها بدت لهما سوآتهما وكان الذى وارى عنهما من سوآتهما أظفارهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ورق التين يلزقان بعضه الى بعض فانطلق آدم عليه السلام موليا في الجنة فعلقت برأسه شجرة من الجنة

(١) قوله وقال كذبا وافتراء ما نهاكما ربكما الى قوله وكان ابن عباس ويحيى الخ هكذا في الاصل ولتحرر العبارة اهـ مصححه

منيل منه وليس هو من التناول انما التناول من نلته بالعطية قال غيره نلت أنول من العطية ونلته أناله أدركته (الا كتب لهم به) أى بكل واحد من الامور المذكورة (عمل صالح) حسنة مقبولة يجازيهم بها وثواب عمل صالح قد ارتضاه لهم وقبله منهم بحكم الوعد الكريم للثواب الجميل ونيل الزلفى قال الاوزاعى وجماعة من الائمة هذه الآية للمسلمين الى أن تقوم الساعة وقال قتادة هذا الحكم خاص برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والاول أولى وفى الآية دليل على ان من قصد طاعة الله كان قيامه وقعوده ومشيه وحركته وسكونه كلها حسنات مكتوبة عند الله وكان سعيه مشكورا (ان الله لا يضيع أجر المحسنين) جملة في حكم التعليل لما سبق مع كونه يشمل كل محسن ويصدق على المذكورين هنا صدقا أوليا والعدول من الاضمار الى الاظهار لاجل مدحهم (ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة) أى ولا يقع منهم الانفاق في الحرب أو في سبيل الله وان كان شيئا حقيرا صغيرا يسيرا كثمرة فما دونها أو أكثر منها حتى علاقة سوط (ولا يقطعون واديا) مقبلين أو مدبرين فيه وهو في الاصل كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذا للسيل والعرب تقول واد وأودية على غير قياس قال النحاس ولا يعرف فيما علمت فاعل وأفعلة والمراد هنا مطلق الارض قاله الخفاجى (الا كتب لهم) ذلك الذى عملوه من النفقة والسفر في الجهاد (ليجزيهم الله) به (أحسن) جزاء (ما كانوا يعملون) من الاعمال وقال الرازى الاحسن من صفة أفعالهم وفيها الواجب والمندوب والمباح فالله يجزيهم على الاحسن وهو الواجب والمندوب دون المباح والاول أولى وقيل يجزيهم على كل واحد جزاء أحسن عمل كان لهم فيلحق ما دونه به توفيرا لاجرهم وفى الآية دليل على فضل الجهاد وانه من أحسن أعمال العباد وقد ذهب جماعة الى ان هذه الآية منسوخة بالآية المذكورة بعدها وهى قوله (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) فانها تدل على جواز التخلف من البعض مع القيام بالجهاد من البعض واختلف المفسرون في معنى هذه الآية فذهب جماعة الى انه من بقية أحكام الجهاد لانه سبحانه لما بالغ في الامر بالجهاد والانتداب الى الغزو كان المسلمون اذا بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سرية الى الكفار ينفرون جميعا ويتركون المدينة خالية فأخبرهم الله سبحانه بانه ما كان لهم ذلك أى ما صح ولا استقام ان ينفروا جميعا (فلولا) تحضيضية فالمعنى على الطلب أى فهلا (نفر من

فناداه الله يا آدم أمنى تفر قال لا ولكنى أستحيك يارب قال أما كان لك فيما منحتك من الجنة وأبحتك منها مندوحة عليك قال بلى يارب ولكن وعزتك ماحسبت ان أحدا يحلف بك كاذبا قال وهو قول الله عزوجل وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين قال فبعزتى لاهبطنك الى الارض ثم لاتنال العيش الا كدا قال فاهبط من الجنة وكانا يأكلان منها رغدا فاهبط الى غير رغد من طعام وشراب فعلم صنعة الحديد وأمر بالحرث فحرث وزرع ثم سقى حتى اذا بلغ حصده ثم داسه ثم ذراه ثم طحنه ثم عجنه ثم خبزه ثم أكله فلم يبلغه حتى بلغ منه ماشاء الله ان يبلغ وقال الثورى عن ابن أبى ليلى (١٧٩) عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة قال ورق التين صحيح اليه وقال مجاهد جعلا يخصفان عليهما من ورق الجنة قال كهيئة الثوب وقال وهب بن منبه فى قوله ينزع عنهما لباسهما قال كان لباس آدم وحواء نورا على فروجهما لايرى هذا عورة هذه ولا هذه عورة هذا فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سوآتهما رواه ابن جرير بسند صحيح اليه وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة قال قال آدم أى رب أرأيت ان تبت واستغفرت قال اذا أدخلك الجنة وأما ابليس فلم يسأله التوبة وسأله النظرة فأعطى كل واحد منهما الذى سأل وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا عباد بن العوام عن سفيان بن حسين عن يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما أكل آدم من الشجرة قيل له لم أكلت من الشجرة التى نهيتك عنها قال حواء أمرتنى قال فانى قد أعقبتها أن لاتحمل الا كرها ولا تضع الا كرها قال فرنت عند ذلك حواء فقيل لها الرنة عليك وعلى ولدك وقال الضحاك بن مزاحم فى قوله ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين هى الكلمات التى تلقاها آدم من ربه

(قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) قيل المراد بالخطاب فى اهبطوا آدم وحواء وابليس والحية ومنهم من لم يذكر الحية والله أعلم والعمدة فى العداوة آدم وابليس ولهذا قال تعالى فى سورة طه قال اهبطا منها جميعا الآية وحواء تبع لآدم والحية ان كان ذكرها صحيحا فهى تبع لابليس وقد ذكر المفسرون الاماكن التى هبط فيها كل منهم ويرجع حاصل تلك الاخبار الى الاسرائيليات والله أعلم بصحتها ولو كان فى تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين فى أمر دينهم أو دنياهم لذكرها الله تعالى فى كتابه أو رسوله صلى الله عليه وسلم وقوله ولكم فى الارض مستقر

كل فرقة منهم طائفة) الطائفة فى اللغة الجماعة أى بل ينفر من كل فرقة منهم طائفة من تلك الفرق ويبقى من عداها هذه الطائفة النافرة فالواو يكون الضمير فى قوله (ليتفقهوا فى الدين) عائدا الى الفرقة الباقية والمعنى ان طائفة من هذه الفرقة تخرج الى الغزو ومن بقى من الفرقة يقفون لطلب العلم ويعاونون الغزاة أو يذهبون فى طلبه الى المكان الذى يجدون فيه من يتعلمون منه ليأخذوا عنه الفقه فى الدين (ولينذروا قومهم) عطف عليه ففيه اشارة الى انه ينبغى أن يكون غرض المتعلم الاستقامة وتبليغ الشريعة لا الترفع على العباد والتبسط فى البلاد كما هو دأب أبناء الزمان (اذا رجعوا) أى وقت رجوعهم (اليهم) من الغزو وذهب آخرون الى أن هذه الآية ليست من بقية أحكام الجهاد وهى حكم مستقل بنفسه فى مشروعية الخروج لطلب العلم والتفقه فى الدين جعله الله سبحانه متصلا بما دل على ايجاب الخروج الى الجهاد فيكون السفر نوعين الاول سفر الجهاد والثانى السفر لطلب العلم ولاشك ان وجوب الخروج لطلب العلم انما يكون اذا لم يجد الطالب من يتعلم منه فى الحضر من غير سفر والفقه هو العلم بالاحكام الشرعية وبما يتوصل به الى العلم بها من لغة ونحو وصرف وبيان واصول وقد جعل الله سبحانه الغرض من هذا هو التفقه فى الدين وانذار من لم يتفقه فجمع بين المقصدين الصالحين والمطلبين الصحيحين وهما تعلم العلم وتعليمه فمن كان غرضه بطلب العلم غير هذين فهو طالب لغرض دنيوى لا لغرض دينى (لعلهم يحذرون) الترجى لوقوع الحذر منهم عن التفريط فيما يجب فعله فيترك أو فيما يجب تركه فيفعل واستدل به على ان أخبار الآحاد حجة لان عموم كل فرقة يقتضى ان ينفر من كل ثلاثة تفردوا بقرية طائفة الى التفقه لتنذر فرقتها كى يتذكروا ويحذروا فلو لم تعتبر الاخبار مالم تتواتر لم يفد ذلك (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) فى هذا الفعل لغتان أكثرهما وليه يليه بالكسر فيهما والثانية من باب وعد وهى قليلة الاستعمال وجلست مما يليه أى يقاربه وكأن الآية جاءت على اللغة الثانية وأصله يليون أى الاقرب فالاقرب منهم أمر سبحانه المؤمنين بان يجتهدوا فى مقاتلة من يليهم من الكفار فى الدار والبلاد والنسب قيل مثل قريظة والنضير وخيبر ونحوها قاله ابن عباس وقال ابن عمر هم الروم لانهم كانوا سكان الشام والشام أقرب الى المدينة من العراق وقيل هم الديلم وقال ابن زيد هم العرب فقاتلوهم حتى فرغوا منهم ثم أمروا بقتال أهل الكتاب

الى آجال معلومة قد جرى بها القلم وأحصاها القدر وسطرت فى الكتاب الاول وقال ابن عباس ومتاع الى حين أى قرار وأعمار مضروبة الى آجال معلومة قد جرى بها القلم وأحصاها القدر وسطرت فى الكتاب الاول وقال ابن عباس مستقر القبور وعنه قال مستقر فوق الارض وتحتها رواهما ابن أبى حاتم وقوله قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون كقوله تعالى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى يخبر تعالى انه يجعل الارض دارا لبنى آدم مدة الحياة الدنيا فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم ومنها نشورهم ليوم القيامة الذى يجمع الله فيه الاولين والآخرين ويجازى كلا بعمله (يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا ولباس التقوى (١٨٠) ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون) ينبه تعالى عباده بما جعل لهم من اللباس والريش فاللباس ستر العورات وهى السوآت والرياش والريش ما يتجمل به ظاهرا فالاول من الضروريات والريش من التكملات والزيادات قال ابن جرير الرياش فى كلام العرب الاثاث وما ظهر من الثياب وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس وحكاه البخارى عنه الريش المال وهكذا قال مجاهد وعروة بن الزبير والسدى والضحاك وغير واحد وقال العوفى عن ابن عباس الرياش اللباس والعيش والنعيم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم الرياش الجمال وقال الامام أحمد حدثنا يزيد بن هرون حدثنا أصبغ عن أبى العلاء الشامى قال لبس أبو أمامة ثوبا جديدا فلما بلغ ترقوته قال الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمل به فى حياتى ثم قال سمعت عمر بن الخطاب يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من استجد ثوبا فلبسه فقال حين يبلغ ترقوته الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمل به فى حياتى ثم عمد الى الثوب الخلق فتصدق به كان فى ذمة الله وفى جوار الله وفى كنف الله حيا وميتا ورواه الترمذى وابن ماجه من رواية يزيد بن هرون عن أصبغ هو ابن الجهنى وقد وثقه يحيى بن معين وغيره وشيخه أبو العلاء الشامى لا يعرف الا بهذا الحديث ولكن لم يخرجه أحد والله أعلم وقال الامام أحمد أيضا حدثنا محمد بن عبيد حدثنا مختار بن نافع التمار عن أبى مطر انه رأى عليا رضى الله عنه أتى غلاما حدثا فاشترى منه قميصا بثلاثة دراهم ولبسه بين الرسغين الى الكعبين يقول حين لبسه الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به فى الناس وأوارى به عورتى فقيل هذا شئ ترويه عن نفسك أو عن النبى صلى الله عليه وسلم قال هذا شئ سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند الكسوة الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به فى الناس وأوارى به عورتى رواه الامام أحمد وقوله تعالى ولباس التقوى

وجهادهم حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون وهكذا المفروض على أهل كل ناحية أن يقاتلوا من وليهم وأن يأخذوا فى حربهم بالغلظة والشدة كما قال (وليجدوا) أى ليدركوا (فيكم غلظة) أى شدة وقوة وشجاعة قال الخفاجى قالوا انها كلمة جامعة للجرأة والصبر على القتال وشدة العداوة والانف فى القتل والاسر وظاهرها أمر الكفار بأن يجدوا فى المؤمنين غلاظة والمقصود أمر المؤمنين بالاتصاف بصفات كالصبر وما معه حتى يجدهم الكفار المتصفين بها فهى على حد قولهم لا أرينك ههنا والغلظة بالكسر ضد الرقة وهى لغة أسد والفتح لغة أهل الحجاز والضم لغة تميم حكى أبو عمرو اللغات الثلاث وبها قرئ لكن السبعة على الكسر والغلظة أصلها فى الاجرام فاستعيرت هنا للشدة والتجلد والصبر وقال الحسن صبرا على جهادهم والجهاد واجب لكل الكفار وان كان الابتداء بمن يلى المجاهدين منهم أهم وأقدم ثم الاقرب فالاقرب ونقل عن بعض العلماء أنه قال أنزلت هذه الآية قبل الامر بقتال المشركين كافة فلما نزلت وقاتلوا المشركين كافة صارت ناسخة لهذه الآية وقال المحققون من العلماء لا وجه للنسخ فانه تعالى أمرهم بقتالهم كافة وأرشدهم الطريق الاصوب الاصلح وهو أن يبدؤا بقتال الاقرب فالاقرب قربا مكانيا لا قربا نسبيا حتى يصلوا الى الابعد فالابعد وبهذا الطريق يحصل الغرض من قتال المشركين كافة لان قتالهم فى دفعة واحدة لا يتصور ولهذا السبب قد قاتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أولا قومه ثم انتقل منهم الى قتال سائر العرب ثم الى قتال أهل الكتاب وهم قريظة والنضير وخيبر وفدك ثم انتقل الى غزو الروم والشام فكان فتحه فى زمن الصحابة ثم انهم انتقلوا الى العراق ثم بعد ذلك الى سائر الامصار لانه اذا قاتل الاقرب أولا تقوى بما ينال منهم من الغنائم على الابعد ثم أخبرهم الله بما يقوى عزائمهم ويثبت أقدامهم فقال (واعلموا ان الله مع المتقين) بالنصرة لهم وتأييدهم على عدوهم ومن كان الله معه لم يقم له شئ (واذا ما أنزلت سورة) حكاية منه سبحانه لبقية فضائح المنافقين أى والحال اذا ما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم سورة من كتابه العزيز (فمنهم) أى فمن المنافقين (من يقول) لاخوانه منهم (أيكم زادته هذه) السورة النازلة (ايمانا) يقولون هذا استهزاء بالمؤمنين ويجوز أن يقولوه لجماعة من المسلمين قاصدين بذلك صرفهم عن الاسلام وتزهيدهم فيه وقد تقدم بيان معنى السورة (فأما

ذلك خير قرأ بعضهم ولباس التقوى بالنصب وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء وذلك خير خبره واختلف المفسرون في معناه فقال عكرمة يقال هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة رواه ابن أبي حاتم وقال زيد بن علي والسدي وقتادة وابن جريج ولباس التقوى الايمان وقال العوفي عن ابن عباس العمل الصالح وعنه هو السمت الحسن في الوجه وعن عروة بن الزبير لباس التقوى خشية الله وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ولباس التقوى يتقي الله فيواري عورته فذاك لباس التقوى وكلها متقاربة ويؤيد ذلك الحديث الذي رواه ابن جرير حيث قال حدثني المثنى حدثنا اسحق بن الحجاج حدثني اسحق (١٨١) بن اسمعيل عن سليمان بن أرقم عن الحسن قال رأيت عثمان بن عفان رضي الله عنه على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه قميص فوهي محلول الزر وسمعته يأمر بقتل الكلاب وينهى عن اللعب بالحمام ثم قال يا أيها الناس اتقوا الله في هذه السرائر فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول والذي نفس محمد بيده ما أسر أحد سريرة الا ألبسه الله رداءها علانية ان خيرا فخير وان شرا فشر ثم قرأ هذه الآية وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله قال السمت الحسن هكذا رواه ابن جرير من رواية سليمان بن أرقم وفيه ضعف وقد روى الآية الشافعي وأحمد والبخاري في كتاب الأدب من طرق صحيحة عن الحسن البصري أنه سمع أمير المؤمنين عثمان بن عفان يأمر بقتل الكلاب وذبح الحمام يوم الجمعة على المنبر وأما المرفوع منه فقد روى الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير له شاهدا من وجه آخر حيث قال حدثنا(١) (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) يحذر تعالى بني آدم من ابليس وقبيله مبينا لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم عليه السلام في سعيه في اخراجه من الجنة التي هي دار النعيم الى دار التعب والعناء والتسبب في هتك عورته بعدما كانت مستورة عنه وما هذا الا عن عداوة أكيدة وهذا كقوله تعالى أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا (واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل ان الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون انهم مهتدون) قال مجاهد كان المشركون يطوفون بالبيت عراة يقولون نطوف كما ولدتنا

(فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا) حكى الله سبحانه بعد مقالتهم هذه ان المؤمنين زادتهم ايمانا الى ايمانهم لتصديقهم بها والزيادة ضم شيء الى آخر من جنسه مما هو في صفته وقد تقدم الكلام على زيادة الايمان (وهم يستبشرون) أي والحال انهم يفرحون مع هذه الزيادة بنزول الوحي شيأ بعد شيء وما يشتمل عليه من المنافع الدينية والدنيوية (وأما الذين في قلوبهم مرض) وهم المنافقون والمراد بالمرض هنا الشرك والنفاق (فزادتهم) السورة المنزلة (رجسا الى رجسهم) أي خبثا مضموما الى خبثهم الذي هم عليه من الكفر وفساد الاعتقاد واظهار غير ما يضمرونه ولذا عدي بالى وقيل ان الى بمعنى مع وسمي الكفر رجسا لانه أقبح الاشياء وأصل الرجس في اللغة الشيء المستقذر (وماتوا وهم كافرون) أي وثبتوا واستمروا عليه الى ان ماتوا كفارا منافقين وقيل المعنى زادتهم اثما الى اثمهم (أولا يرون) قرئ بالتحتية وبالفوقية خطابا للمؤمنين وقرأ الأعمش أولم يروا وقرأ طلحة أولا ترى خطابا للرسول صلى الله عليه وآله وسلم والهمزة على القراءة بالياء للانكار والتوبيخ وعلى الخطاب للتعجيب والرؤية قلبية أو بصرية (انهم يفتنون) يختبرون قاله ابن جرير وغيره أو يبتليهم الله بالقحط والشدة والجوع والسنة قاله مجاهد وقال ابن عطية بالامراض والاوجاع وقال قتادة بالغزو والجهاد مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال الحسن بالعدو (في كل عام مرة أو مرتين) عن أبي سعيد قال كانت لهم في كل عام كذبة أو كذبتان قال حذيفة فيضل بها فئام من الناس كثير وقيل انهم يفتضحون باظهار نفاقهم وقيل ينافقون ثم يؤمنون ثم ينافقون وقيل ينقضون عهدهم في السنة مرة أو مرتين ويرون ما وعد الله من النصر (ثم لا يتوبون) بسبب ذلك من النفاق ونقض العهد ولا يرجعون الى الله مع ان الابتلاء يقتضي الرجوع والتذكر وثم للعطف على يرون (ولا هم يذكرون) أي لا يرون ولا يتنظرون ولا يتعظون وهذا تعجيب من الله سبحانه للمؤمنين من حال المنافقين وتصلبهم في النفاق واهمالهم للنظر والاعتبار ثم ذكر الله سبحانه ما كانوا يفعلونه عند نزول السورة بعد ذكر ما كانوا يقولونه فقال (واذا ما أنزلت سورة) فيها عيب المنافقين وذكرهم وتوبيخهم وقرأها النبي صلى الله عليه وآله وسلم (نظر بعضهم) أي بعض المنافقين (الى بعض) آخر وتغامزوا بالعيون انكارا لها أو سخرية أو غيظا لما فيها من عيوبهم وحكى ابن جرير عن بعض أهل العلم انه قال نظر في هذه الآية موضع مرضع

(١) هنا بياض في الاصل بقدر نصف صحيفة وانظر النسخ الصحيحة التامة اهـ مصححه

قال أى قال بعضهم لبعض (هل يريكم من أحد) من المؤمنين لننصرف عن المقام الذى ينزل فيه الوحى فانه لا صبر لنا على استماعه أو انشكام بما يزيد من الطعن والسخرية والضحك وقيل المعنى واذا أنزلت سورة ذكر الله فيها فضائح المنافقين ومخازيهم قال بعض من يحضر مجلس النبى صلى الله عليه وآله وسلم للبعض الآخر منهم هل يراكم من أحد (ثم انصرفوا) الى منازلهم عن ذلك المجلس أو عما يقتضى الهداية والايمان الى ما يقتضى الكفر والنفاق والتراخى باعتبار وجدان الفرصة والوقوف على عدم رؤية أحد من المؤمنين ثم دعا الله سبحانه عليهم فقال (صرف الله قلوبهم) عن الخير وما فيه الرشد لهم والهداية وهو سبحانه مصرف القلوب ومقلبها . وقيل المعنى أنه خذلهم عن قبول الهداية قال الزجاج أضلهم الله مجازاة على فعلهم وقيل هو دعاء لا يراد به وقوع مضمونه كقولهم قاتله الله وقيل اخبار بحالهم ثم ذكر سبحانه السبب الذى لاجله انصرفوا عن مواطن الهداية أو السبب الذى لاجله استحقوا الدعاء عليهم بقوله صرف الله قلوبهم فقال (بأنهم قوم لا يفقهون) ما يسمعونه لعدم تدبرهم وانصافهم عن ابن عباس لا تقولوا انصرفنا من الصلاة فان قوما انصرفوا فصرف الله قلوبهم ولكن قولوا قضينا الصلاة وعن ابن عمر نحوه وأقول الانصراف يكون عن الخير كما يكون عن الشر وليس فى اطلاقه هنا على رجوع المنافقين عن مجلس الخير ما يدل على انه لا يطلق الا على نحو ذلك والا لزم أن كل لفظ يستعمل فى لغة العرب فى الامور المتعددة اذا استعمل فى القرآن فى حكاية ما وقع من الكفار لا يجوز استعماله فى حكاية ما وقع عن أهل الخير كالرجوع والذهاب والدخول والخروج والقيام والقعود واللازم باطل بالاجماع فالملزوم مثله ووجه الملازمة ظاهر لا يخفى ثم ختم الله سبحانه هذه السورة بما يهون عنده بعض ما اشتملت عليه من التكاليف الشاقة فقال سبحانه (لقد جاءكم) يامعشر العرب والخطاب لهم عند جمهور المفسرين وقال الزجاج هى خطاب لجميع العالم أى لقد جاءكم (رسول) أرسله الله اليكم له شأن عظيم (من أنفسكم) أى من جنسكم فى كونه عربيا قرشيا مثلكم تعرفون نسبه وحسبه وانه من ولد اسمعيل لا من العجم ولا من الجن ولا من الملك وقرئ أنفس أفعل تفضيل من النفاسة والمراد الشرف أى أشرفكم وأفضلكم وسيأتى تخريجه (عزيز عليه ما عنتم) ما مصدرية والعنت التعب لهم والمشقة

فالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها فأنزل الله واذا فعلوا فاحشة ... وما بدا منه فلا أحله * وما بدا منه فلا أحله
أمهاتنا فتضع المرأة على قبلها النسعة أو الشئ وتقول اليوم يبدو بعضه أو كله * وما بدا منه فلا أحله فأنزل الله واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها الآية قال كانت العرب ما عدا قريش لا يطوفون بالبيت فى ثيابهم التى لبسوها يتأولون فى ذلك انهم لا يطوفون فى ثياب عصوا الله فيها وكانت قريش وهم الحمس يطوفون فى ثيابهم ومن أعاره احمسى ثوبا طاف فيه ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يتملكه أحد ومن لم يجد ثوبا جديدا ولا اعاره أحمسى ثوبا طاف عريانا وربما كانت امرأة فتطوف عريانة فتجعل على فرجها أشياء تستره (١٨٢) بعض الستر فتقول اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله وأكثر ما كان النساء يطفن بالليل وكان هذا شيأ قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم واتبعوا فيه آباءهم ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند الى أمر من الله وشرع فأنكر الله تعالى عليهم ذلك فقال واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها فقال تعالى ردا عليهم قل أى يا محمد لمن ادعى ذلك ان الله لا يأمر بالفحشاء أى هذا الذى تصنعونه فاحشة منكرة والله لا يأمر بمثل ذلك أتقولون على الله ما لا تعلمون أى أتسندون الى الله من الاقوال ما لا تعلمون صحته وقوله تعالى قل أمر ربى بالقسط أى بالعدل والاستقامة وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين أى أمركم بالاستقامة فى عبادته فى محالها وهى متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله وما جاؤا به من الشرائع وبالاخلاص له فى عبادته فانه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين ان يكون صوابا موافقا للشريعة وأن يكون خالصا من الشرك وقوله تعالى كما بدأكم تعودون الى قوله الضلالة اختلف فى معنى كما بدأكم تعودون فقال ابن أبى نجيح عن مجاهد كما بدأكم تعودون يحييكم بعد موتكم وقال الحسن البصرى كما بدأكم فى الدنيا كذلك تعودون يوم القيامة وقال قتادة كما بدأكم تعودون بدأ خلقهم ولم يكونوا شيأ ثم ذهبوا ثم يعيدهم وقال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم كما بدأكم أولا كذلك يعيدكم آخرا واختار هذا القول أبو جعفر بن جرير وأيده بما رواه من حديث سفيان الثورى وشعبة بن الحجاج كلاهما عن المغيرة بن النعمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال يا أيها الناس انكم تحشرون الى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين من حديث شعبة وفى حديث البخارى أيضا من حديث الثورى به وقال سعيد بن جبير كما بدأكم تعودون كما كتب عليكم تكونون وفى رواية كما كنتم تكونون عليه تكونون وقال محمد بن كعب القرظى فى قوله تعالى كما بدأكم

تعودون من ابتدأ الله خلقه على الشقوة صار الى ما ابتدئ عليه خلقه وان عمل بأعمال اهل السعادة ومن ابتدأ خلقه على السعادة صار الى ما ابتدئ خلقه عليه وان عمل بأعمال أهل الشقاء كما ان السحرة عملوا بأعمال أهل الشقاء ثم صاروا الى ما ابتدؤا عليه وقال السدى كما بدأكم تعودون كما خلقكم فريق مهتدون وفريق ضلال كذلك تعودون وتخرجون من بطون أمهاتكم وقال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس قوله كما بدأكم تعودون فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة قال ان الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمنا وكافرا كما قال هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأهم مؤمنا وكافرا قلت ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود في صحيح البخاري فوالذى لا اله غيره ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة وقال أبو القاسم البغوى حدثنا علي بن الجعد حدثنا أبو (١) عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان العبد ليعمل فيما يرى الناس بعمل اهل الجنة وانه من اهل النار وانه ليعمل فيما يرى الناس بعمل اهل النار وانه من اهل الجنة وانما الاعمال بالخواتيم هذا قطعة من حديث رواه البخاري من حديث أبي غسان محمد بن مطرف المدني في قصة قزمان يوم أحد وقال ابن جرير حدثني ابن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن الاعمش عن ابي سفيان عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تبعث كل نفس على ما كانت عليه وهذا الحديث رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه عن الاعمش به ولفظه يبعث كل عبد على ما مات عليه وعن ابن عباس مثله قلت ويتأيد بحديث ابن مسعود قلت ولا بد من الجمع بين هذا القول ان كان هو المراد من الآية وبين قوله تعالى فاقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها وما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى اني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم الحديث ووجه الجمع على هذا أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر في ثاني الحال وان كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده والعلم بانه لا اله غيره كما أخذ عليهم الميثاق بذلك

(١) بياض بالاصل

عليهم ولقاء المكروه بعذاب الدنيا بالسيف ونحوه أو بعذاب الآخرة بالنار أو بمجموعهما والمعنى شاق عليه عنتكم لكونه من جنسكم ومبعوثا لهدايتكم (حريص) شحيح (عليكم) بأن تدخلوا النار أو حريص على ايمانكم وهدايتكم والاول أولى وبه قال الفراء (بالمؤمنين رؤف رحيم) قد تقدم بيان معناهما أى هذا الرسول بالمؤمنين الطائعين منكم أيها العرب أو الناس رؤف رحيم فسماه الله رؤفا رحيما ولم يجمع لاحد من أنبيائه بين اسمين من أسمائه الا النبي صلى الله عليه وآله وسلم قاله الحسين بن الفضل قرئ رؤف بالمد وبالقصر وهما قراءتان سبعيتان في هذه الكلمة أينما وقعت في القرآن والرؤف أخص من الرحيم وانما قدم عليه رعاية للفواصل وعن ابن عباس في هذه الآية ليس من العرب قبيلة الا وقد ولدت النبي صلى الله عليه وآله وسلم مضريها وربيعيها ويمانيها وعلى هذا يكون المقصود ترغيب العرب في نصره والايمان به فانه تم شرفهم بشرفه وعزهم بعزه وفخرهم بفخره فانه من عشائرهم وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال من أنفسكم بفتح الفاء من النفاسة أى من أشرفكم قال لم يصبه شئ من ولادة الجاهلية وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح وهذا فيه انقطاع ولكنه وصله الحافظ الرامهرمزى في كتابه الفاصل بين الراوى والواعى عن علي بن أبي طالب وزاد من لدن آدم الى أن ولدني أبي وأمي وقال علي ما معنى من أنفسكم يا رسول الله قال نسبا وصهرا وحسبا ليس في ولا في آبائي من لدن آدم سفاح كلنا نكاح وعن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ من أنفسكم يعني من أعظمكم قدرا وبه قرأ الزهري وفي الباب أحاديث بمعناه ويؤيده ما في صحيح مسلم وغيره من حديث واثلة بن الاسقع قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله اصطفى من ولد ابراهيم اسمعيل واصطفى من ولد اسمعيل بني كنانة واصطفى من بني كنانة قريشا واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي عن العباس ابن عبد المطلب قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله حين خلق الخلق جعلني من خير خلقه ثم حين فرقهم جعلني في خير الفريقين ثم حين خلق القبائل جعلني من خيرهم قبيلة وحين خلق الانفس جعلني من خير أنفسهم ثم حين خلق البيوت جعلني من خير بيوتهم فأنا خيرهم بيتا وخيرهم نفسا وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله

وجعله فى غرائزهم وفطرهم ومع هذا قدر ان منهم شقيا ومنهم سعيدا هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن وفى الحديث كل
الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها وقدر الله نافذ فى بريته فانه هو الذى قدر فهدى والذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى وفى
الصحيحين فأما من كان من اهل السعادة فسييسر لعمل اهل السعادة ومن كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة ولهذا
قال تعالى فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة ثم علل ذلك فقال انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله الآية قال ابن جرير
وهذا من أبين الدلالة على خطا من زعم (١٨٤) ان الله لا يعذب أحدا على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها الا أن يأتيها بعد علم منه
بصواب وجهها فيركبها عنادا منه
لربه فيها لانه لو كان كذلك لم يكن بين
فريق الضلالة الذى ضل وهو
يحسب أنه مهتد وفريق الهدى
فرق وقد فرق الله تعالى بين أسمائهما
واحكامهما فى هذه الآية (يا بنى آدم
خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا
واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب
المسرفين) هذه الآية الكريمة رد على
المشركين فيما كانوا يعتمدونه من
الطواف بالبيت عراة كما رواه مسلم
والنسائى وابن جرير واللفظ له من
حديث شعبة عن سلمة بن كهيل عن
مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن
ابن عباس قال كانوا يطوفون بالبيت
عراة الرجال والنساء الرجال بالنهار
والنساء بالليل وكانت المرأة تقول
اليوم يبدو بعضه أو كله * وما بدا
منه فلا أحله فقال الله تعالى خذوا
زينتكم عند كل مسجد وقال
العوفى عن ابن عباس فى قوله خذوا
زينتكم عند كل مسجد الآية قال
كان رجال يطوفون بالبيت عراة
فأمرهم الله بالزينة والزينة اللباس
وهو ما يوارى السوأة وما سوى ذلك
من جيد البز والمتاع فأمروا أن
يأخذوا زينتهم عند كل مسجد هكذا قال مجاهد وعطاء وابراهيم النخعى وسعيد بن جبير وقتادة والسدى والضحاك كنت
ومالك عن الزهرى وغير واحد من أئمة السلف فى تفسيرها انها نزلت فى طواف المشركين بالبيت عراة وقد روى الحافظ ابن مردويه
من حديث سعيد بن بشير والاوزاعى عن قتادة عن أنس مرفوعا انها نزلت فى الصلاة فى النعال وفى صحته نظر والله أعلم ولهذه الآية
وما ورد فى معناها من السنة يستحب التجمل عند الصلاة ولاسيما يوم الجمعة ويوم العيد والطيب لانه من الزينة والسواك لانه من
تمام ذلك ومن أفضل اللباس البياض كما قال الامام أحمد حدثنا على بن عاصم حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير
وصححه عن ابن عباس مرفوعا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم البسوا من ثيابكم البياض فانها من خير ثيابكم وكفنوا فيها

وسلم بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا حتى كنت من القرن الذى كنت فيه أخرجه
البخارى وفى الباب أحاديث ثم قال مخاطبا لرسوله ومسليا له ومرشدا له الى ما يقوله عند
أن يعصى (فان تولوا) أى أعرضوا عنك ولم يعملوا بما جئت به ولا قبلوه (فقل) يا محمد
(حسبى) أى كافى (الله) سبحانه (لا اله الا هو) أى المتفرد بالالوهية وهذه الجملة الحالية
كالدليل لما قبلها (عليه توكلت) أى فوضت جميع أمورى اليه لا الى غيره (وهو رب
العرش العظيم) وصفه بالعظم لانه أعظم المخلوقات قرأ الجمهور بالجر على انه صفة العرش
وقرئ بالرفع صفة لرب ورويت هذه القراءة عن ابن كثير قال أبو بكر الاصم وهذه القراءة
أعجب الى لان جعل العظيم صفة للرب أولى من جعله صفة للعرش قال ابن عباس انما سمى
العرش عرشا لارتفاعه وقد رويت أحاديث كثيرة فى صفة العرش وماهيته وقدره وقال
السيوطى الكرسى قال الصاوى قوله الكرسى مرور على القول باتحاد العرش مع
الكرسى وهو خلاف الصحيح ان العرش غير الكرسى انتهى وعبارة الخازن اعترض
بعضهم على هذا التفسير بأن العرش غير الكرسى وان الكرسى أصغر من العرش فكيف
يفسر به وهو مدفوع بأن المسئلة خلافية والمشهور ما سمعته وقيل انهما اسمان لشىء
واحد فالعرش والكرسى معناهما الجسم العظيم المحيط بجميع المخلوقات المسمى بالعرش
على القول المشهور انتهى وعن أبى بن كعب رضى الله عنه أن آخر ما نزل هاتان الآيتان
ذكره القاضى والمفتى وغيرهما قال السيوطى رواه الحاكم فى المستدرك وقال الخفاجى
أخرجه أحمد بن حنبل وقوله آخر ما نزل الخ يعارضه ما رواه الشيخان عن البراء بن عازب
رضى الله تعالى عنه ان آخر آية نزلت يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة وآخر سورة
نزلت براءة وعن ابن عباس رضى الله عنهما آخر آية نزلت واتقوا يوما ترجعون فيه الى
الله وكان بينها وبين موته صلى الله عليه وآله وسلم ثمانون يوما وقيل تسع ليال وحاول
بعضهم التوفيق بين هذه الروايات بما لا يخلو عن كدر وفى هذه الآية اشكال مشهور فى
كتب الحديث

(سورة يونس عليه السلام)

وهى مائة وتسع آيات وهى مكية قاله الحسن وعطاء وعكرمة وجابر الا ثلاث آيات فان

موتاكم وان من خير أكحالكم الاثمد فانه يجلوا البصر وينبت الشعر هذا حديث جيد الاسناد رجاله على شرط مسلم ورواه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث عبد الله بن عثمان بن خثيم به وقال الترمذى حسن صحيح وللامام أحمد أيضا وأهل السنن باسناد جيد عن سمرة بن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عليكم بالثياب البيض فالبسوها فانها أطهر وأطيب وكفنوا فيها موتاكم وروى الطبرانى بسند صحيح عن قتادة عن محمد بن سيرين ان تميما الدارى اشترى رداء بألف وكان يصلى فيه وقوله تعالى وكلوا واشربوا الآية قال بعض السلف جمع الله الطب كله فى نصف آية وكلوا (١٨٥) واشربوا ولا تسرفوا وقال البخارى قال ابن عباس كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الاعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال أحل الله الاكل والشرب ما لم يكن سرفا أو مخيلة اسناده صحيح وقال الامام أحمد حدثنا بهز حدثنا همام عن قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف فان الله يحب أن يرى نعمته على عبده ورواه النسائى وابن ماجه من حديث قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبى صلى الله عليه وسلم قال كلوا وتصدقوا والبسوا فى غير اسراف ولا مخيلة وقال الامام أحمد حدثنا أبو المغيرة حدثنا سليمان بن سليم الكلبى حدثنا يحيى بن جابر الطائى سمعت المقدام بن معد يكرب الكندى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فان كان فاعلا لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه ورواه النسائى والترمذى من طرق عن يحيى بن جابر به وقال الترمذى حسن وفى نسخة حسن صحيح وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده حدثنا سويد ابن عبد العزيز حدثنا بقية عن يوسف بن أبى كثير عن نوح بن ذكوان عن الحسن عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت ورواه الدارقطنى فى الافراد وقال هذا حديث غريب تفرد به بقية وقال السدى كان الذين يطوفون بالبيت عراة يحرمون عليهم الودك ما أقاموا فى الموسم فقال الله تعالى لهم كلوا واشربوا الآية يقول لا تسرفوا

كنت فى شك الى آخرهن قاله ابن عباس وبه قال قتادة وقال مقاتل الا آيتين فان كنت فى شك الى آخرهما أو ثلاث وقال الكلبى الا قوله ومنهم من يؤمن به الآية فانها نزلت بالمدينة وقالت فرقة من أولها نحو من أربعين آية مكى وباقيها مدنى قاله القرطبى وقال ابن سيرين كانت هذه السورة تعد السابعة وأخرج ابن مردويه عن أنس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ان الله أعطانى الرائيات أى الطواسين مكان الانجيل وعن الاحنف قال صليت خلف عمر غداة فقرأ يونس وهودا وغيرهما قال الصاوى سميت السورة بذلك لذكر اسمه فيها وقصته وقد جرت عادة الله بتسمية السورة ببعض أجزائها

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الر) قال الجلال الله أعلم بمراده بذلك قال الصاوى هذا أحد الاقوال وهو أتمها وأسلمها انتهى وقد تقدم الكلام مستوفى على هذه الحروف الواقعة فى أوائل السور فى أول سورة البقرة فلا نعيده ففيه ما يغنى عن الاعادة وقد قيل ان معنى الر انا الله أرى قال النحاس ورأيت أبا اسحق يميل الى هذا القول لان سيبويه قد حكى مثله عن العرب وقال الحسن وعكرمة الر قسم وقال قتادة الر اسم للسورة وقيل غير ذلك مما فيه تكلف لعلم ما استأثر الله بعلمه وقد اتفق القراء على أن الر ليس بآية وعلى أن طه آية وفى مقنع أبى عمرو الدانى أن العادين لطه آية هم الكوفيون فقط ولعل الفرق ان الر لا تشاكل مقاطع الآى التى بعدها (تلك) اى ما تضمنته السورة من الآيات والتبعيد للتعظيم وقيل الآيات المتقدمة على هذه السورة وقال مجاهد وقتادة أراد التوراة والانجيل وسائر الكتب المتقدمة فان تلك اشارة الى غائب مؤنث وقيل تلك بمعنى هذه اى هذه (آيات الكتاب الحكيم) وهو القرآن ويؤيد كون الاشارة الى القرآن انه لم يجر للكتب المتقدمة ذكر وان الحكيم من صفات القرآن لا من صفات غيره والاضافة بمعنى من لان هذه السورة بعض القرآن والحكيم المحكم بالحلال والحرام والحدود والاحكام قاله أبو عبيدة وغيره وقيل الحكيم معناه الحاكم فهو فعيل بمعنى فاعل كقوله وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس وقيل بمعنى المحكوم اى حكم الله فيه بالعدل والاحسان قاله الحسن وغيره وقيل

في التحريم وقال مجاهد أمرهم أن يأكلوا ويشربوا مما رزقهم الله وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ولا تسرفوا يقول ولا تأكلوا حراما ذلك الاسراف وقال عطاء الخراساني عن ابن عباس قوله وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين في الطعام والشراب وقال ابن جرير وقوله انه لا يحب المسرفين يقول الله تعالى ان الله لا يحب المعتدين حده في حلال أو حرام الغالين فيما أحل باحلال الحرام أو بتحريم الحلال ولكنه يحب أن يحلل ما أحل ويحرم ما حرم وذلك العدل الذي أمر به (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي (١٨٦) للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) يقول تعالى ردا على من حرم شيأ من المآكل والمشارب والملابس من تلقاء نفسه من غير شرع من الله قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم من حرم زينة الله التي أخرج لعباده الآية أي هي مخلوقة لمن آمن بالله وعبده في الحياة الدنيا وان شركهم فيها الكفار حسا في الدنيا فهي لهم خاصة يوم القيامة لا يشركهم فيها أحد من الكفار فان الجنة محرمة على الكافرين قال أبو القاسم الطبراني حدثنا أبو حصين محمد بن الحسين القاضي حدثنا يحيى الحماني حدثنا يعقوب القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون فأنزل الله قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده فأمروا بالثياب (قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لا تعلمون) قال الامام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن شقيق عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أحد أغير من الله أخرجاه في الصحيحين من حديث سليمان بن مهران الاعمش عن شقيق أبي وائل عن عبد الله بن مسعود وتقدم الكلام على ما يتعلق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن في سورة الانعام وقوله والاثم والبغي بغير الحق قال السدي أما الاثم فالمعصية والبغي أن تبغي على الناس بغير الحق وقال مجاهد الاثم المعاصي كلها وأخبر أن الباغي بغيه كائن على نفسه وحاصل ما فسر به الاثم أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه والبغي هو المتعدي الى الناس فحرم الله هذا وهذا وقوله تعالى وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا

الحكيم ذو الحكمة لاشتماله عليها وقيل الحكيم المنظوم نظما متقنا لا يعتريه خلل بوجه من الوجوه وقيل الممتنع من الفساد فيكون المعنى لا تغيره الدهور والمراد براءته من الكذب والتناقض والاستفهام في قوله (أكان للناس عجبا أن أوحينا) لانكار العجب مع ما يفيده من التقريع والتوبيخ أي أكان ايحاؤنا عجبا للناس والعجب حالة تعتري الانسان من رؤية شيء على خلاف العادة وقيل العجب ما لا يعرف سببه والمراد بالناس هنا أهل مكة يعني قريشا (الى رجل منهم) أي من جنسهم وليس في هذا ما يقتضي العجب فانه لا يلابس الجنس ويرشده ويخبره عن الله سبحانه الا من كان من جنسه ولو كان من غير جنسهم لكان من الملائكة أو من الجن ويتعذر المقصود حينئذ من الارسال لانهم لا يأنسون اليه ولا يشاهدونه ولو فرضنا تشكله لهم وظهوره فاما أن يظهر في غير شكل النوع الانساني وذلك أوحش لقلوبهم وأبعد من انسهم أو في الشكل الانساني فلا بد من انكارهم لكونه في الاصل غير انسان هذا ان كان العجب منهم لكونه من جنسهم وان كان لكونه يتيما أو فقيرا فذلك لا يمنع من أن يكون من كان كذلك جامعا من خصال الخير والشرف ما لا يجمعه غيره وبالغا في كمال الصفات الى حد يقصر عنه من كان غنيا أو غير يتيم وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن يصطفيه الله بالرسالة من خصال الكمال عند قريش ما هو أشهر من الشمس وأظهر من النهار حتى كانوا يسمونه الامين (ان أنذر الناس) اي خوفهم قيل ان هي المفسرة لان في الايحاء معنى القول وقيل مصدرية والانذار اخبار مع تخويف كما ان البشارة اخبار مع سرور (وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم) من اضافة الموصوف الى الصفة كمسجد الجامع وصلاة الاولى وحب الحصيد وفائدة هذه الاضافة التنبيه على زيادة الفضل ومدح القدم لان كل شيء أضيف الى الصدق فهو ممدوح ومثله مقعد صدق ومدخل صدق واختلفت عبارات المفسرين وأهل اللغة في معنى قدم صدق فقيل منزل صدق وقال الزجاج درجة عالية وقال ابن الاعرابي القدم المتقدم في الشرف وقال أبو عبيدة والكسائي كل سابق من خير أو شر فهو عند العرب قدم يقال لفلان قدم في الاسلام وله عندي قدم صدق وقدم خير وقدم شر وقال ثعلب القدم كل ما قدمت من خير وقال ابن الانباري القدم كناية عن العمل الذي لا يقع فيه تأخير ولا ابطاء وقال قتادة سلف صدق وقال الربيع والضحاك ثواب

صدق

أي تجعلوا له شركاء في عبادته وان تقولوا على الله ما لا تعلمون من الافتراء والكذب من دعوى انه له ولد ونحو ذلك مما لا علم لكم به كقوله فاجتنبوا الرجس من الاوثان الآية (ولكل أمة أجل فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون يا بني آدم اما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) يقول تعالى ولكل أمة أي قرن وجيل أجل فاذا جاء أجلهم أي ميقاتهم المقدر لهم لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون ثم أنذر تعالى بني آدم بانه سيبعث اليهم رسلا يقصون عليهم آياته وبشر وحذر فقال فمن

صدق وقال الحسن هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم يشفع لهم ونحوه عن زيد بن أسلم وهو قول قتادة وقال الحكيم الترمذي قدمه صلى الله عليه وآله وسلم في المقام المحمود وقال مجاهد الاعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم وقيل عمل صالح أسلفوه يقدمون عليه قاله الحسن وقال الليث وأبو الهيثم القدم السابقة أي سبق لهم عند الله خير وقال مقاتل اعمالا قدموها واختاره ابن جرير وقال ابن عباس ما سبق لهم من السعادة في الذكر الاول يعني اللوح المحفوظ وقال أيضا أجرا حسنا بما قدموا من اعمالهم وعن ابن مسعود قال القدم هو العمل الذي تقدموه قال الله سبحانه سنكتب ما قدموا وآثارهم والآثار ممشاهم قال مشى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين اسطوانتين من مسجده ثم قال هذا أثر مكتوب وقيل غير ما تقدم مما لا حاجة الى التطويل بايراده والروايات من التابعين وغيرهم في هذا كثيرة وقد قدمنا أكثرها والسبب في اطلاق لفظ القدم على هذه المعاني أن السعي والسبق لا يحصل الا بالقدم فسمي المسبب باسم السبب كما سميت النعمة يدا لانها تعطى باليد (قال الكافرون ان هذا لسحر مبين) قرئ لساحر على انهم أرادوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم باسم الاشارة وقرئ لسحر على انهم أرادوا القرآن وقد تقدم معنى السحر في البقرة والجملة مستأنفة كأنه قيل ماذا صنعوا ابعد التعجب وقال القفال فيه اضمار والتقدير فلما أنذرهم قال الكافرون ذلك ثم ان الله سبحانه جاء بكلام يبطل به التعجب الذي حصل للكفار من الايحاء الى رجل منهم فقال (ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة أيام) من أيام الدنيا اي في قدرها لانه لم يكن ثم شمس ولا قمر ولو شاء لخلقهن في لمحة والعدول عنه لتعليم خلقه التأني والتمهل في الامور وتخصيص الستة بالذكر مع أن التثبت يتأتى بأقل منها او بأزيد عليها اقدا استأثر الله بعلمه والمعنى ان من كان له هذا الاقتدار العظيم الذي تضيق العقول عن تصوره كيف يكون ارساله لرسوله الى الناس من جنسهم محلا للتعجب مع كون الكفار يعترفون بذلك فكيف لا يعترفون بصحة هذه الرسالة لهذا الرسول (ثم استوى على العرش) استواء يليق به وهذه طريقة السلف المفوضين وقد تقدم تفسير هذه الآية في الاعراف بما فيه كفاية فلا نعيده هنا قال الكرخي ان الاستواء على العرش صفة له سبحانه بلا كيف انتهى فهذه الصفة يجب الايمان بها وامرارها على ظاهرها من غير تأويل ولا تكييف

اتقى وأصلح أي ترك المحرمات وفعل الطاعات فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أي كذبت بها قلوبهم واستكبروا عن العمل بها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون أي ماكثون فيها مكثا مخلدا (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب حتى اذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم انهم كانوا كافرين) يقول فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته أي لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله أو كذب بآياته المنزلة أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب اختلف المفسرون في معناه فقال العوفي عن ابن عباس ينالهم ما كتب عليهم وكتب لمن كذب على الله ان وجهه مسود وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يقول نصيبهم من الاعمال من عمل خيرا جزي به ومن عمل شرا جزي به وقال مجاهد ما وعدوا به من خير وشر وكذا قال قتادة والضحاك وغير واحد واختاره ابن جرير وقال محمد بن كعب القرظي أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب قال عمله ورزقه وعمره وكذا قال الربيع ابن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهذا القول قوي في المعنى والسياق يدل عليه وهو قوله حتى اذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ويصير المعنى في هذه الآية كقوله ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع في الدنيا ثم الينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون وقوله ومن كفر فلا يحزنك كفره الينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ان الله عليم بذات الصدور نمتعهم قليلا الآية وقوله حتى اذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم الآية يخبر تعالى ان الملائكة اذا توفت المشركين تفزعهم عند الموت وقبض أرواحهم الى النار

يقولون لهم أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله ادعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه قالوا ضلوا عنا أي ذهبوا عنا فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم وشهدوا على أنفسهم أي أقروا واعترفوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين (قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى اذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لاولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون وقالت أولاهم لاخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) (١٨٨) يقول تعالى مخبرا عما يقوله لهؤلاء المشركين به المفترين عليه المكذبين بآياته ادخلوا في أمم أي من أمثالكم وعلى صفاتكم قد خلت من قبلكم أي من الامم السالفة الكافرة من الجن والانس في النار يحتمل أن يكون بدلا من قوله في أمم ويحتمل أن يكون في أمم أي مع أمم وقوله كلما دخلت أمة لعنت أختها كما قال الخليل عليه السلام ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض الآية وقوله تعالى اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وماهم بخارجين من النار وقوله حتى اذا اداركوا فيها جميعا أي اجتمعوا فيها كلهم قالت أخراهم لاولاهم أي أخراهم دخولا وهم الاتباع لاولاهم وهم المتبوعون لانهم أشد جرما من أتباعهم فدخلوا قبلهم فيشكوهم الاتباع الى الله يوم القيامة لانهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل فيقولون ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار أي أضعف عليهم العقوبة كما قال تعالى يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب الآية وقوله قال لكل ضعف الآية أي قد فعلنا ذلك وجازينا كلا بحسبه كقوله الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا الآية وقوله وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وقوله ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم الآية وقالت أولاهم لاخراهم أي قال المتبعون للاتباع فما كان لكم علينا من فضل قال السدي فقد ضللتم كما ضللنا فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون وهذه الحال كما أخبر الله تعالى عنهم في حال محشرهم في قوله تعالى ولو ترى اذ الظالمون

ولا تعطيل ولا تمثيل ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وطريقة الخلف المؤولين محجوجة بنصوص الكتاب والسنة وأقوال سلف الامة وأئمتها وظاهر الآية يدل على أنه تعالى انما استوى على العرش بعد خلق السموات والارض لان كلمة ثم للتراخي وذلك يدل على أنه تعالى كان قبل العرش غنيا عنه فلما خلقه امتنع أن تنقلب حقيقته وذاته عن الاستغناء الى الحاجة فوجب أن يبقى بعد خلق العرش غنيا عنه ولكن لما قال هو سبحانه وتعالى باستوائه عليه وجب الايمان به على ما يليق بجلاله ثم ذكر ما يدل على مزيد قدرته وعظيم شأنه مع ما مر من خلق هاتيك الاجرام العظام فقال (يدبر الامر) وترك العاطف لان جملة يدبر كالتفسير والتفصيل لما قبلها وأصل التدبير النظر في أدبار الامور وعواقبها لتقع على الوجه المقبول والشكل المحمود وقال مجاهد يقضيه ويقدره وحده على الوجه الاتم الاكمل وقيل يبعث الامر وقيل ينزل الامر وقيل يأمر به ويمضيه والمعنى متقارب واشتقاقه من الدبر والامر الشأن وهو أحوال ملكوت السموات والارض والعرش وسائر الخلق من الجزئيات الحادثة شيأ فشيأ على أطوار شتى لا تكاد تحصى (ما من شفيع) يشفع عنده يوم القيامة (الا من بعد اذنه) له في الشفاعة لانه عالم بمصالح عباده في تدبيرهم فلا يجوز لاحد أن يسأله ما ليس له به علم قال الزجاج ان الكفار الذين خوطبوا بهذه الآية كانوا يقولون ان الاصنام شفعاؤنا عند الله فرد الله عليهم بأنه ليس لاحد أن يشفع اليه في شيء الا بعد اذنه لانه أعلم بموضع الحكمة والصواب وله التصرف المطلق في العالم وقد تقدم معنى الشفاعة في البقرة وفي هذا بيان لاستبداده بالامور في كل شيء سبحانه وتعالى (ذلكم) أي فاعل هذه الاشياء العظيمة من الخلق والتدبير (الله ربكم) أي سيدكم لا رب لكم سواه وفي هذه الجملة زيادة تأكيد لقوله ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض (فاعبدوه) أمرهم بعبادته بعد أن بين لهم أنه الحقيق بها دون غيره لبديع صنعه وعظيم اقتداره فكيف تعبدون الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر والاستفهام في قوله (أفلا تذكرون) للانكار والتوبيخ والتقريع لان من له أدنى تذكر وأقل اعتبار يعلم بهذا ولا يخفى عليه ثم بين لهم ما يكون آخر أمرهم بعد الحياة الدنيا فقال (اليه مرجعكم جميعا) وفي هذا من التهديد والتخويف ما لا يخفى والمراد بالمرجع الرجوع اليه سبحانه اما بالموت أو بالبعث أو بكل واحد منهما وانتصاب (وعد الله) على المصدر أو هو منصوب بفعل مقدر أي كذلك

الوعد

موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الاغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون الاما كانوا يعملون (ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء ولايدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين

لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين) قوله لاتفتح لهم أبواب السماء قيل المراد لايرفع لهم منها عمل صالح ولادعاء قاله مجاهد وسعيد بن جبير ورواه العوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس وكذا رواه الثوري عن ليث عن عطاء عن ابن عباس وقيل المراد لاتفتح لارواحهم أبواب السماء رواه الضحاك عن ابن عباس وقاله السدي وغير واحد ويؤيده ما قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا أبو بكر بن عياش عن الاعمش عن المنهال هو ابن عمرو عن زاذان عن البراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر قبض روح الفاجر وأنه يصعد بها الى السماء فيصعدون بها فلا تمر على ملا من الملائكة الاقالوا ماهذه الروح الخبيثة فيقولون فلان بأقبح أسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا حتى ينتهي بها الى السماء فيستفتحون بابها له فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتفتح لهم أبواب السماء الآية هكذا رواه وهو قطعة من حديث طويل رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من طرق عن المنهال بن عمرو به وقد رواه الامام أحمد بطوله فقال حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الانصار فانتهينا الى القبر ولما يلحد فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله كأن على رؤسنا الطير وفي يده عود ينكت به في الارض فرفع رأسه فقال استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثا ثم قال ان العبد المؤمن اذا كان في انقطاع من الدنيا واقبال الى الآخرة نزل اليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من

الوعد بقوله (حقا) فهو تأكيد للتأكيد فيكون في الكلام من الوكادة ماهو الغاية في ذلك وقرئ وعد الله حق على الاستئناف ثم علل سبحانه ماتقدم بقوله (انه) بالكسر استئنافا (يبدأ الخلق) أي ان هذا شأنه يبتدئ خلقه من التراب (ثم يعيده) اليه والخلق بمعنى المخلوق والمضارع بمعنى الماضي وعبر به استحضارا للصورة الغريبة أو معنى الاعادة الجزاء يوم القيامة قال مجاهد ينشئه ثم يميته ثم يحييه للبعث وقيل ينشئه من الماء ثم يعيده من حال الى حال وقرئ انه بالفتح وهي شاذة أي وعدكم الله انه يبدأ الخلق ثم يعيده أو التقدير لانه يبدأ الخلق قال أحمد بن يحيى التقدير حقا ابداؤه الخلق وفي الآية دليل على امكان الحشر والنشر والمعاد وصحة وقوعه ورد على منكري البعث ثم ذكر غاية مايترتب على الاعادة فقال (ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط) أي بالعدل الذي لاجور فيه أي يجزيهم متلبسا بالقسط أو متلبسين به أو بسبب قسطهم والمراد به هنا الايمان بدليل المقابلة في قوله بما كانوا يكفرون (والذين كفروا) يحتمل وجهين أحدهما أن يكون مرفوعا بالابتداء وجملة (لهم شراب من حميم وعذاب أليم) خبره والثاني أن يكون منصوبا عطفا على الموصول قبله وتكون الجملة بعده مبينة لجزائهم وقيل الجملة في محل نصب على الحال أي حال كونهم لهم هذا الشراب وهذا العذاب المؤلم ولكن يشكل على ذلك ان هذا الشراب وهذا العذاب الاليم هما من الجزاء والحميم الماء الحار الذي قد انتهى حره وكل مسخن عند العرب فهو حميم وتغيير الاسلوب للمبالغة في استحقاقهم للعقاب والتنبيه على ان المقصود بالذات من الابداء والاعادة هو الاثابة والعذاب وقع بالعرض وانه تعالى يتولى اثابة المؤمنين بما يليق بلطفه وكرمه ولذلك لم يعينه وأما عقاب الكفرة فكأنه داء ساقه اليهم سوء اعتقادهم وسوء أفعالهم (بما كانوا يكفرون) أي بسبب كفرهم (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا) ذكر ههنا بعض نعمه على المكلفين وهو مما يستدل به على وجوده ووحدته وقدرته وعلمه وحكمته باتقان صنعه في هذين النيرين المتعاقبين على الدوام بعد ماذكر قبل هذا ابداعه للسموات والارض واستواءه على العرش وغير ذلك والضياء قيل جمع ضوء كالسياط والسوط والحياض والحوض والاولى أن يكون ضياء مصدرا لاجمعا ولابد من تقدير مضاف أي جعل الشمس ذات ضياء والقمر ذا نور الاان

حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس المطمئنة اخرجي الى مغفرة من الله ورضوان قال فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فم السقاء فيأخذها فاذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الارض فيصعدون بها فلا يمرون يعني بها على ملأ من الملائكة الا قالوا ما هذه الروح الطيبة فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا به الى السماء الدنيا فيستفتحون له (١٩٠) فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها الى السماء التي تليها حتى ينتهى بها الى السماء السابعة فيقول الله عز وجل اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه الى الارض فاني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى قال فتعاد روحه فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول ربي الله فيقولان له ما دينك فيقول ديني الاسلام فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولان له وما علمك فيقول قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابا الى الجنة فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد البصر قال ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول له من أنت فوجهك الوجه يجيء بالخير فيقول انا عملك الصالح فيقول رب أقم الساعة رب أقم الساعة حتى أرجع الى أهلي ومالي قال وان العبد الكافر اذا كان في انقطاع من الدنيا واقبال من الآخرة نزل اليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الخبيثة اخرجي الى سخط من الله وغضب قال فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها فاذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الارض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة الا قالوا ما هذه الروح الخبيثة فيقولون فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا فيستفتح له فلا يفتح ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تفتح لهم أبواب السماء

يحمل على المبالغة كأنهما جعلا نفس الضياء والنور قيل الضياء أقوى من النور وقيل هو ما كان بالذات والنور ما كان بالعرض فما قام بالشمس يقال له ضياء وما قام بالقمر يقال له نور ومن هنا قال الحكماء ان نور القمر مستفاد من ضوء الشمس والشعاع الفائض من الشمس قيل جوهر وقيل عرض قال الصاوي والحق انه عرض لقيامه بالاجرام وضياء مفعول ثان ان جعل الجعل بمعنى التصيير وحال ان جعل بمعنى الخلق قال السدي لم يجعل الشمس كهيئة القمر لكي يعرف الليل من النهار وهو قوله فمحونا آية الليل الآية قال ابن عباس وجوههما الى السموات وأقفيتهما الى الارض وعن ابن عمرو مثله (وقدره) أي قدر مسير القمر في (منازل) أو قدره ذا منازل وبه يعرف انقضاء الشهور والسنين وذلك ان الشهور المعتبرة في الشرع مبنية على رؤية الاهلة والسنة المعتبرة في الشرع هي القمرية لا الشمسية ومنازله هي المسافة التي يقطعها في يوم وليلة بحركته الخاصة به وجملتها ثمانية وعشرون وهي معروفة منقسمة على اثني عشر برجا لكل برج منزلان وثلث منزل ينزل القمر في كل ليلة منزلا منها الى انقضاء ثمانية وعشرين لا يتخطاه فيبدو صغيرا في أول منازله ثم يكبر قليلا قليلا حتى يبدو كاملا واذا كان في آخر منازله رق واستقوس ثم يستتر ليلتين لا يبصر ولا يرى اذا كان الشهر كاملا أو ليلة اذا كان الشهر ناقصا والكلام في هذا يطول وقد جمع الشوكاني فيه رسالة مستقلة جوابا عن سؤال أورده عليه بعض الاعلام وقيل ان الضمير راجع الى كل واحد من الشمس والقمر كما قيل في قوله تعالى واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها وقوله والله ورسوله أحق أن يرضوه وقد قدمنا تحقيق هذا فيما سبق من هذا التفسير والاولى رجوع الضمير الى القمر وحده كما في قوله تعالى والقمر قدرناه منازل ثم ذكر بعض المنافع المتعلقة بهذا التقدير فقال (لتعلموا) بذلك التقدير (عدد السنين والحساب) أي حساب الشهور والايام والساعات ونقصانها وزيادتها ووقت دخولها وانقضائها فان في العلم بعدد السنين من المصالح الدينية والدنيوية ما لا يحصى وفي العلم بحساب الاشهر والايام والليالي من ذلك ما لا يخفى ولولا هذا التقدير الذي قدره الله سبحانه لم يعلم الناس بذلك ولا عرفوا ما يتعلق به كثير من مصالحهم والسنة تحصل من اثني عشر شهرا والشهر يحصل من ثلاثين يوما ان كان كاملا ومن تسع وعشرين يوما ان كان ناقصا واليوم يحصل من ساعات معلومة هي أربع وعشرون ساعة

لليل

ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط فيقول الله عز وجل اكتبوا كتابه فى سجين فى الارض السفلى فتطرح روحه طرحا ثم قرأ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان ما دينك فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان ما هذا الرجل الذى بعث فيكم فيقول هاه هاه لا أدرى فينادى مناد من السماء ان كذب فأفرشوه من النار وافتحوا له بابا من النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه اضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول ابشر بالذى يسوءك هذا يومك الذى كنت توعد فيقول من أنت فوجهك الوجه يجىء بالشر فيقول انا عملك الخبيث فيقول رب لا تقم الساعة وقال الامام أحمد أيضا حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن يونس بن خباب عن المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جنازة فذكر نحوه وفيه حتى اذا خرج روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والارض وكل ملك فى السماء وفتحت له أبواب السماء ليس من أهل باب الا وهم يدعون الله عز وجل أن يعرج بروحه من قبلهم وفى آخره ثم يقيض له أعمى أصم أبكم فى يده مرزبة لو ضرب بها جبل كان ترابا فيضربه ضربة فيصير ترابا ثم يعيده الله عز وجل كما كان ويضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعه كل شئ الا الثقلين قال البراء ثم يفتح له باب من النار ويمهد له من فرش النار وفى الحديث الذى رواه الامام أحمد والنسائى وابن ماجه وابن جرير واللفظ له من حديث محمد بن عمرو بن عطاء عن سعيد بن يسار عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الميت تحضره الملائكة فاذا كان الرجل الصالح قالوا اخرجى أيتها النفس المطمئنة كانت فى الجسد الطيب اخرجى حميدة وابشرى بروح وريحان ورب غير غضبان فيقولون ذلك حتى يعرج بها الى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا فيقولون فلان فيقال مرحبا بالنفس الطيبة التى كانت فى الجسد الطيب ادخلى حميدة وابشرى بروح وريحان ورب غير غضبان فيقال لها ذلك حتى ينتهى بها الى السماء التى فيها الله عز وجل واذا كان الرجل السوء قالوا اخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث اخرجى ذميمة وابشرى بحميم وغساق وآخر من شكله ازواج فيقولون ذلك

لليل والنهار وقد يكون لكل واحد منهما اثنتا عشرة ساعة فى أيام الاستواء ويزيد أحدهما على الآخر فى أيام الزيادة وأيام النقصان والاختلاف بين السنة الشمسية والقمرية معروف ذكرناه فى لقطة العجلان وحجج الكرامة (ما خلق الله ذلك) بين سبحانه انه ما خلق الشمس والقمر واختلاف تلك الاحوال (الا بالحق) والصواب دون الباطل والعبث والاشارة بقوله ذلك الى المذكور قبله من جعل الشمس ضياء والقمر نورا أو تقديره منازل والاستثناء مفرغ من أعم الاحوال (يفصل الآيات لقوم يعلمون) معنى التفصيل تبيينها والمراد بالآيات التكوينية أو التنزيلية أو مجموعهما ويدخل هذه الآيات التكوينية المذكورة هنا دخولا أوليا فى ذلك قرئ يفصل بالياء والنون وهما سبعيتان وعلى الثانية فيه التفات ثم ذكر سبحانه المنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والارض من تلك المخلوقات فقال (ان فى اختلاف الليل والنهار) أى فى تعاقبهما وكون كل منهما خلفة للآخر بحسب طلوع الشمس وغروبها أو فى تفاوتهما فى أنفسهما بازدياد كل منهما وانتقاص الآخر باختلاف حال الشمس بالنسبة الينا قربا وبعدا بحسب الازمنة أو فى اختلافهما وتفاوتهما بحسب الامكنة اما فى الطول والقصر فان البلاد القريبة من القطب الشمالى أيامها الصيفية أطول ولياليها الصيفية أقصر من أيام البلاد البعيدة منه ولياليها وأما فى انفسها فان كرية الارض تقتضى أن يكون بعض الاوقات فى بعض الاماكن ليلا وفى مقابله نهارا (وما خلق الله فى السموات) من ملائكة وشمس وقمر ونجوم وغير ذلك (والارض) من حيوان وجبال وبحار وأنهار وأشجار وغيرها (لآيات) دلالات على قدرته تعالى (لقوم يتقون) الله سبحانه ويجتنبون معاصيه خصهم بهذه الآيات لانهم الذين يمعنون النظر والتفكر فى مخلوقات الله سبحانه حذرا منهم عن الوقوع فى شئ مما يخالف مراد الله سبحانه ونظرا لعاقبة أمرهم وما يصلحهم فى معادهم قال القفال من تدبر فى هذه الاحوال علم ان الدنيا (1) مخلوقة لبقاء الناس فيها وان خالقها وخالقهم ما أهملهم بل جعلها لهم دار عمل واذا كان كذلك فلا بد من أمر ونهى عن خليفة العبدى قال لو ان الله تبارك وتعالى لم يعبد الا عن رؤية ما عبده أحد ولكن المؤمنين تفكروا فى مجىء هذا الليل اذا جاء فملأ كل شئ وغطى كل شئ وفى مجىء سلطان النهار اذا جاء فمحا سلطان الليل وفى السحاب المسخر بين السماء والارض وفى النجوم

(1) قوله مخلوقة الخ كذا فى أصله وحرر العبارة فلعل فيها سقطا اه مصححه

كانت فى الجسد الخبيث ارجعى ذميمة فانه لم يفتح لك أبواب السماء فترسل بين السماء والارض فتصير الى القبر وقد قال ابن جريج فى قوله لاتفتح لهم أبواب السماء لاتفتح لاعمالهم ولا لارواحهم وهذا فيه جمع بين القولين والله أعلم وقوله تعالى ولايدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط هكذا قرأه الجمهور وفسروه بانه البعير قال ابن مسعود هو الجمل ابن الناقة وفى رواية زوج الناقة وقال الحسن البصرى حتى يدخل البعير فى خرق الابرة (١٩٢) وكذا قال أبو العالية والضحاك وكذا روى على بن أبى طلحة والعوفى عن ابن عباس

حتى تخرج ثم يعرج بها الى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا فيقولون فلان فيقولون لامرحبا بالنفس الخبيثة

وقال مجاهد وعكرمة عن ابن عباس انه كان يقرؤها يلج الجمل فى سم الخياط بضم الجيم وتشديد الميم يعنى الحبل الغليظ فى خرق الابرة وهذا اختيار سعيد بن جبير فى رواية أنه قرأ حتى يلج الجمل يعنى قلوس السفن وهى الحبال الغلاظ وقوله لهم من جهنم مهاد قال الفرش ومن فوقهم غواش قال اللحف وكذا قال الضحاك بن مزاحم والسدى وكذلك نجزى الظالمين (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لانكلف نفسا الا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ونزعنا مافى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الانهار وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) لما ذكر تعالى حال الاشقياء عطف بذكر حال السعداء فقال والذين آمنوا وعملوا الصالحات أى آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ضد أولئك الذين كفروا بآيات الله واستكبروا عنها نبه تعالى على أن الايمان والعمل به سهل لانه تعالى لايكلف نفسا الا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ونزعنا مافى صدورهم من غل أى من حسد وبغض كما جاء فى صحيح البخارى من حديث قتادة عن أبى المتوكل الناجى عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار فاقتص لهم مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى اذا هذبوا ونقوا اذن لهم فى دخول الجنة فوالذى نفسى بيده ان أحدهم بمنزله فى الجنة أدل منه بمسكنه كان فى الدنيا وقال السدى فى قوله ونزعنا مافى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الانهار الآية ان أهل الجنة اذا سيقوا الى الجنة وجدوا عند بابها

وفى الشتاء والصيف فوالله مازال المؤمنون يتفكرون فيما خلق ربهم حتى أيقنت قلوبهم بربهم وقد تقدم تفسير هذه الآية فى نظائرها (ان الذين لايرجون لقاءنا) شرع الله سبحانه فى شرح أحوال من لايؤمن بالمعاد ومن يؤمن به وقدم الطائفة التى لم تؤمن لان الكلام فى هذه السورة مع الكفار الذين يعجبون مما لاعجب فيه ويهملون النظر والتفكر فيما لاينبغى اهماله مما هو مساعد لكل حى طول حياته فيتسبب عن اهمال النظر والتفكر الصادق عدم الايمان بالمعاد ومعنى الرجاء هنا الخوف وقيل الطمع فالمعنى على الاول لايخافون عقابا وعلى الثانى لايطمعون فى ثواب اذا لم يكن المراد باللقاء حقيقته فان كان المراد به حقيقته كان المعنى لايخافون رؤيتنا أو لايطمعون فى رؤيتنا وقيل المراد بالرجاء هنا التوقع فيدخل تحته الخوف والطمع فيكون المعنى لايتوقعون لقاءنا فهم لايخافونه ولايطمعون فيه (ورضوا بالحياة الدنيا) عوضا عن الآخرة فعملوا لها (واطمأنوا بها) أى وقد سكنت نفوسهم اليها وفرحوا بها (والذين هم عن آياتنا غافلون) العطف انما هو لتغاير الصفات أى غفلوا عن آياتنا الكونية والشرعية لايعتبرون بها ولايتفكرون فيها قيل المراد بالآيات أدلة التوحيد وقيل محمد والقرآن (أولئك) أى المتصفون بالصفات السابقة من عدم الرجاء وحصول الرضا والاطمئنان والغفلة (مأواهم النار) أى مثواهم ومكان اقامتهم (بما كانوا) أى بسبب ما كانوا (يكسبون) من الكفر والتكذيب بالمعاد فهذا حال الذين لايؤمنون بالمعاد وأما حال الذين يؤمنون به فقد بينه سبحانه بقوله (ان الذين آمنوا) أى فعلوا الايمان الذى طلبه الله منهم بسبب ماوقع منهم من التفكر والاعتبار فيما تقدم ذكر من الآيات (وعملوا الصالحات) التى يقتضيها الايمان وهى ماشرعه الله لعباده المؤمنين (يهديهم ربهم بايمانهم) أى يرزقهم الهداية بسبب هذا الايمان المضموم اليه العمل الصالح فيصلون بذلك الى الجنة وعبارة أبى السعود يهديهم بسبب ايمانهم الى مأواهم ومقصدهم وهى الجنة وانما لم تذكر تعويلا على ظهورها وانسياق النفس اليها قال القاضى ومفهوم الترتيب وان دل على ان سبب الهداية هو الايمان والعمل الصالح لكن دل منطوق قوله بايمانهم على استقلال الايمان بالسببية وأن العمل الصالح كالتتمة والرديف له انتهى وهذا رد لما فى الكشاف من أن الآية دلت على أن المعتبر فى الهداية الى الجنة هو المقيد بالعمل الصالح لا المطلق قال

لهم هذه النار التي كنتم بها تكذبون أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم انما تجزون ما كنتم تعملون وكذلك قرع رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلى القليب يوم بدر فنادى يا أبا جهل بن هشام ويا عتبة بن ربيعة ويا شيبة بن ربيعة وسمى رؤسهم هل وجدتم ما وعد ربكم حقا فاني وجدت ما وعدني ربي حقا وقال عمر يا رسول الله تخاطب قوما قد جيفوا فقال والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا وقوله فأذن مؤذن بينهم أي أعلم معلم ونادى مناد أن لعنة الله على الظالمين أي مستقرة عليهم (١٩٤) ثم وصفهم بقوله الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا أي يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الانبياء ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها أحد وهم بالآخرة كافرون أي وهم بلقاء الله في الدار الآخرة كافرون أي جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به فلهذا لا يبالون فيأتون المنكر من القول والعمل لانهم لا يخافون حسابا عليه ولا عقابا فهم شر الناس أقوالا وأعمالا (وبينهما حجاب وعلى الاعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار نبه أن بين الجنة والنار حجابا وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار الى الجنة قال ابن جرير وهو السور الذي قال الله تعالى فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب وهو الاعراف الذي قال الله تعالى فيه وعلى الاعراف رجال ثم روى باسناده عن السدي انه قال في قوله وبينهما حجاب هو السور وهو على الاعراف وقال مجاهد الاعراف الجد

حجاب بين الجنة والنار سور له باب قال ابن جرير والاعراف جمع عرف وكل مرتفع من الارض عند العرب يسمى عرفا وانما قيل لعرف الديك عرف لارتفاعه وحدثنا سفيان بن وكيع حدثنا ابن عيينة عن عبد الله بن ابي يزيد سمع ابن عباس يقول الاعراف هو الشيء المشرف وقال الثوري عن جابر عن مجاهد عن ابن عباس قال الاعراف سور كعرف الديك وفي رواية عنه الاعراف تل بين الجنة والنار حبس عليه أناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار وفي رواية عنه هو سور بين الجنة والنار وكذا قال الضحاك

باب الاسناد المعنوي فلا يلزم ان يقولوا هذا اللفظ فقط بل يقولونه أو ما يؤدي معناه من جميع صفات التنزيه والتقديس قيل الدعاء العبادة كقوله وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وقيل معنى دعواهم هنا الادعاء الكائن بين المتخاصمين والمعنى ان أهل الجنة يدعون في الدنيا والآخرة تنزيه الله سبحانه من المعائب والاقرار له بالالهية وقيل قولهم وكلامهم قال القفال أصله من الدعاء لان الخصم يدعو خصمه الى من يحكم بينهما وقيل معناه طريقتهم وسيرتهم وذلك ان المدعي للشيء مواظب عليه فيمكن أن يجعل الدعوى كناية عن الملازمة وان لم يكن في قوله سبحانك اللهم دعوى ولا ادعاء وقيل معناه تمنيهم كقوله ولهم ما يدعون وكان تمنيهم في الجنة ليس الا تسبيح الله وتقديسه وأخرج ابن مردويه عن أبي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا قالوا سبحانك اللهم أتاهم ما اشتهوا من الجنة من ربهم وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين فهذه الكلمة علامة بين أهل الجنة والخدم في احضار الطعام فاذا أرادوه قالوا سبحانك اللهم فيأتونهم به في الوقت على حسب ما يشتهون واضعين له على الموائد في كل صحفة لون من الطعام لا يشبه بعضه بعضا فاذا فرغوا من الطعام حمدوا الله على ما أعطاهم كما يأتي فترفع الموائد عند ذلك قال الزجاج أعلم الله ان أهل الجنة يبتدئون بتعظيم الله وتنزيهه ويختمون بشكر الله والثناء عليه وقيل انهم يلهمون ذلك كما ذكر في الحديث والمعنى نسبحك يا الله تسبيحا (وتحيتهم فيها سلام) أي تحية بعضهم للبعض فيكون المصدر مضافا الى الفاعل أو تحية الله أو الملائكة لهم فيكون من اضافة المصدر الى المفعول والتحية التكرمة بالحالة الجليلة أصلها أحياك الله حياة طيبة والسلام السلامة من كل مكروه وقد مضى تفسير هذا في سورة النساء (وآخر دعواهم) أي وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح في كل مجلس (ان) يقولوا (الحمد لله رب العالمين) وليس معناه انقطاع الحمد فان أقوال أهل الجنة وأحوالها لا آخر لها والدعوى مشهورة في الادعاء لكنها وردت بمعنى الدعاء أيضا وهو المراد هنا بقرينة ما بعده لانه من جنس الدعاء وتكون أيضا بمعنى العبادة وقد يجوز ارادته هنا وان كانت الجنة ليست دار تكليف أي لا عبادة لهم غير هذا القول والاول أظهر والثاني أدق أو المراد انه عبادة لهم تلذذا لا تكليفا كذا ذكره الخفاجي قال أبو السعود ولا يساعده تعيين الخاتمة اه قال النحاس مذهب الخليل ان أن هذه مخففة من الثقيلة والمعنى انه

وغير واحد من علماء التفسير وقال السدي انما سمي الاعراف أعرافا لان أصحابه يعرفون الناس واختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الاعراف من هم وكلها قريبة ترجع الى معنى واحد وهو انهم قوم استوت حسناتهم وسيآتهم نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله وقد جاء في حديث مرفوع رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا عبد الله بن اسمعيل حدثنا عبيد بن الحسين حدثنا سليمان حدثنا داود بن النعمان بن عبد السلام حدثنا شيخ لنا يقال له أبو عباد عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر بن عبد الله قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن استوت حسناته وسيآته فقال أولئك أصحاب الاعراف لم يدخلوها وهم يطمعون وهذا حديث غريب من هذا الوجه ورواه من وجه آخر عن سعيد بن سلمة بن أبي الحسام عن محمد بن المنكدر عن رجل من مزينة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن استوت حسناته وسيآته وعن أصحاب الاعراف فقال انهم قوم خرجوا عصاة بغير اذن آبائهم فقتلوا في سبيل الله وقال سعيد بن منصور حدثنا أبو معشر حدثنا يحيى بن شبل عن يحيى بن عبد الرحمن المزني عن أبيه قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الاعراف قال هم ناس قتلوا في سبيل الله بمعصية آبائهم فمنعهم من دخول الجنة معصية آبائهم ومنعهم من النار قتلهم في سبيل الله ورواه ابن مردويه وابن جرير وابن أبي حاتم من طرق عن أبي معشر به وكذا رواه ابن ماجه مرفوعا من حديث أبي سعيد الخدري وابن عباس والله أعلم بصحة هذه الاخبار المرفوعة وقصاراها أن تكون موقوفة وفيه دلالة على ما ذكر

وقال ابن جرير حدثني يعقوب حدثنا هشيم أخبرنا حصين عن الشعبي عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الاعراف قال فقال هم قوم استوت حسناتهم وسيآتهم فقعدت بهم سيآتهم عن الجنة وخلفت بهم حسناتهم عن النار قال فوقفوا هنالك على السور حتى يقضي الله فيهم وقد رواه من وجه آخر أبسط من هذا فقال حدثنا ابن حميد حدثنا يحيى بن واضح حدثنا يونس بن أبي اسحق قال قال الشعبي أرسل الى عبد الحميد بن عبد الرحمن وعنده أبو الزناد عبد الله بن ذكوان مولى قريش فاذا هما قد ذكرا من أصحاب الاعراف ذكرا ليس كما ذكرا فقلت لهما ان شئتما أنبأتكما بما ذكر حذيفة فقالا هات فقلت ان حذيفة ذكر أصحاب الاعراف فقال

الحمد لله وقال المبرد يجوز أن تعملها خفيفة عملها ثقيلة والرفع أقيس ولم يحك أبو عبيد الا التخفيف قال أبو الهذيل الحمد أول الكلام وآخر الكلام ثم تلا هذه الآية ولما ذكر الله سبحانه الوعيد على عدم الايمان بالمعاد ذكر أن هذا العذاب من حقه ان يتأخر عن هذه الحياة الدنيا فقال (ولو يعجل الله للناس الشر) أي اجابة دعائهم بالشر مما لهم فيه مضرة ومكروه في نفس أو مال والتعجيل تقديم الشيء قبل وقته وقال القفال لما وصفهم بالغفلة أكد ذلك بأن من غاية غفلتهم ان الرسول متى أنذرهم استعجلوا العذاب فبين الله سبحانه انه لا مصلحة في ايصال الشر اليهم فلعلهم يتوبون أو يخرج من أصلابهم من يؤمن قيل ومعناه لو يعجل الله للناس العقوبة (استعجالهم بالخير) أي كما يستعجلون بالثواب والخير أي استعجالا مثل استعجالهم قال مكي وهذا مذهب سيبويه أو تعجيلا مثل استعجالهم وهذا تقدير أبي البقاء وهو الظاهر وقال الزمخشري أصله تعجيله لهم بالخير وهو ضعيف جدا وقيل منصوب على اسقاط كاف التشبيه أي كاستعجالهم والاستعجال طلب العجلة (لقضي اليهم أجلهم) أي لاهلكهم وقيل معناه لأميتوا قال ابن قتيبة ان الناس عند الغضب والضجر قد يدعون على أنفسهم وأهلهم وأولادهم بالموت وتعجيل البلاء كما يدعون بالرزق والرحمة واعطاء المسئول يقول لو أجابهم الله اذا دعوه بالشر الذي يستعجلون به استعجالهم بالخير لفرغ من اهلاكهم ولكن الله عز وجل بفضله وكرمه يستجيب للداعي في الخير ولا يستجيب له في الشر وقال مجاهد في الآية هو قول الانسان لولده وأهله عند الغضب لعنكم الله لا بارك الله فيكم وقال سعيد بن جبير هو قول الرجل للرجل اللهم العنه اللهم اخزه وهو يحب أن يستجاب له وقال قتادة هو دعاء الرجل على نفسه وأهله وماله بما يكره أن يستجاب له فيه وقيل الآية خاصة بالكفار الذين أنكروا البعث وما يترتب عليه وقيل نزلت في النضر بن الحرث حين قال اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء الآية وقرئ لقضى على البناء للفاعل وهي قراءة حسنة لمناسبة ذلك لقوله ولو يعجل الله وصورة القياس هكذا لو يعجل الله الشر للناس لاهلكهم لكنه لم يهلكهم بل أمهلهم فلم يعجل لهم الشر ويدل على هذا القول قوله (فنذر الذين لا يرجون لقاءنا) أي لا يتوقعونه فالفاء للعطف على مقدر يدل عليه الكلام فكأنه قيل لكن لا يعجل لهم الشر ولا يقضي اليهم أجلهم فيذرهم أي فيتركهم ويمهلهم

هم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقعدت بهم سيآتهم عن الجنة فاذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين فبينما هم كذلك اذ طلع عليهم ربك فقال لهم اذهبوا فادخلوا الجنة فانى قد غفرت لكم وقال عبد الله بن المبارك عن أبى بكر الهذلى قال قال سعيد بن جبير وهو يحدث ذلك عن ابن مسعود قال يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيآته بواحدة دخل الجنة ومن كانت سيآته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ثم قرأ قول الله فمن ثقلت موازينه الآيتين ثم قال الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح قال ومن (١٩٦) استوت حسناته وسيآته كان من أصحاب الاعراف فوقفوا على الصراط ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار فاذا نظروا الى أهل الجنة نادوا سلام عليكم واذا صرفت أبصارهم الى يسارهم نظروا أهل النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين تعوذوا بالله من منازلهم قال فأما أصحاب الحسنات فانهم يعطون نورا يمشون به بين أيديهم وبأيمانهم ويعطى كل عبد يومئذ نورا وكل أمة نورا فاذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة فلما رأى أهل الجنة ما لقى المنافقون قالوا ربنا أتمم لنا نورنا وأما أصحاب الاعراف فان النور كان بأيديهم فلم ينزع فهنالك يقول الله تعالى لم يدخلوها وهم يطمعون فكان الطمع دخولا قال فقال ابن مسعود على أن العبد اذا عمل حسنة كتب له بها عشر واذا عمل سيئة لم تكتب الا واحدة ثم يقول هلك من غلب واحدته أعشاره رواه ابن جرير وقال أيضا حدثنى ابن وكيع حدثنا ابن حميد قالا حدثنا جرير عن منصور عن حبيب بن أبى ثابت عن عبد الله ابن الحرث عن ابن عباس قال الاعراف السور الذى بين الجنة والنار وأصحاب الاعراف بذلك المكان حتى اذا بدا لله أن يعافيهم انطلق بهم الى نهر يقال له نهر الحياة حافتاه قصب الذهب مكلل باللؤلؤ ترابه المسك فألقوا فيه حتى تصلح ألوانهم وتبدو فى نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها حتى اذا صلحت ألوانهم أتى بهم الرحمن تبارك وتعالى فقال تمنوا ما شئتم فيتمنون حتى اذا انقطعت أمنيتهم قال لهم لكم الذى تمنيتم ومثله سبعون ضعفا فيدخلون الجنة وفى نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها يسمون مساكين اهل الجنة وكذا رواه ابن أبى حاتم عن أبيه عن يحيى بن المغيرة عن ابن جرير به وقد رواه سفيان الثورى عن حبيب بن أبى ثابت عن مجاهد عن عبد الله بن الحرث من قوله

(فى طغيانهم) أى الذى هو عدم رجاء اللقاء وانكار البعث والجزاء وما يتفرع على أعمالهم السيئة ومقالاتهم الشنيعة والطغيان التطاول وهو العلو والارتفاع (يعمهون) يعنى يتركهم يتحيرون فى تطاولهم وتكبرهم وعدم قبولهم للحق استدراجا لهم منه سبحانه وخذلانا ثم بين سبحانه انهم كاذبون فى استعجال الشر ولو أصابهم ما طلبوه لاظهروا العجز والجزع فقال (واذا مس الانسان الضر) أى هذا الجنس الصادق على كل ما يحصل التضرر به كالمرض والفقر (دعانا لجنبه) اللام للوقت أو بمعنى على أى دعانا مضطجعا (أو قاعدا أو قائما) كأنه قال دعانا فى جميع الاحوال المذكورة وغيرها وخص المذكورة بالذكر لانها الغالب على الانسان ولا يخلو عنها عادة وما عداها نادر كالركوع والسجود ويجوز أن يراد أنه يدعو الله حال كونه مضطجعا غير قادر على القعود وقاعدا غير قادر على القيام وقائما غير قادر على المشى والاول أولى قال الزجاج ان تعديد أحوال الدعاء أبلغ من تعديد أحوال المضرة لانه اذا كان داعيا على الدوام ثم نسى فى وقت الرخاء كان أعجب وعن أبى الدرداء قال ادع الله يوم سرائك يستجاب لك يوم ضرائك وأقول أنا أكثر من شكر الله على السراء ليدفع عنى الضراء فان وعده للشاكرين بزيادة النعم مؤذن بدفعه عنهم النقم لذهاب حلاوة النعمة عند وجوب مرارة النقمة اللهم اجمع لنا بين جلب النعم وسلب النقم فانا نشكرك عدد ما شكرك الشاكرون ونحمدك عدد ما حمدك الحامدون بكل لسان فى كل زمان ومكان (فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه) أى مضى على طريقته التى كان عليها قبل ان يمسه الضر ونسى حالة الجهد والبلاء والضيق والفقر وأهمل جانب الله أو مضى عن موقف الدعاء والتضرع لا يرجع اليه كأنه لا عهد له به كأنه لم يدعنا عند ان مسه الضر الى كشف ذلك الضر الذى مسه وقيل معنى مر استمر على كفره مشبها بمن لم يدعنا ولم يشكر ولم يتعظ وهذه الحالة التى ذكرها الله سبحانه للداعى لا تختص بأهل الكفر بل تتفق لكثير من المسلمين تلين ألسنتهم بالدعاء وقلوبهم بالخشوع والتذلل عند نزول ما يكرهون بهم فاذا كشفه الله عنهم غفلوا عن التضرع والدعاء وذهلوا عما يجب عليهم من شكر النعمة التى أنعم الله بها عليهم من اجابة دعائهم ورفع ما نزل بهم من الضر ودفع ما أصابهم من المكروه وهذا مما يدل على ان الآية تعم المسلم والكافر كما يشعر به لفظ الناس ولفظ الانسان اللهم أوزعنا شكر نعمك وأذكرنا

الاحوال

الاحوال التي مننت علينا فيها باجابة الدعاء حتى نستكثر من الشكر الذي لا نطيق سواه ولا نقدر على غيره وما أغناك عنه وأحوجنا اليه ولئن شكرتم لأزيدنكم (كذلك) اي مثل ذلك التزيين العجيب أي كما زين له الدعاء عند الضرر والاعراض عند الرخاء (زين للمسرفين ما كانوا يعملون) أي عملهم والمسرف في اللغة هو الذي ينفق المال الكثير لاجل الغرض الخسيس والتزيين هو اما من جهة الله تعالى على طريق التخلية وعدم اللطف بهم أو من طريق الشيطان بالوسوسة أو من طريق النفس الامارة بالسوء والمعنى انه زين لهم الاعراض عن الدعاء والغفلة عن الشكر والاشتغال بالشهوات ثم ذكر سبحانه ما يجري مجرى الردع والزجر عما صنعه هؤلاء فقال (ولقد أهلكنا القرون) يعني الامم الماضية (من قبلكم) أي قبل هؤلاء الكفار المعاصرين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم يعني أهلكناهم من قبل زمانكم وقيل الخطاب لاهل مكة على طريق الالتفات للمبالغة في الزجر (لما ظلموا) أي أهلكناهم حين فعلوا الظلم بالتكذيب والتجارئ على الرسل والتطاول في المعاصي من غير تأخير لاهلاكهم كما أخرنا اهلاككم وقيل الظلم هنا الشرك أي لما أشركوا (وجاءتهم رسلهم) الذين أرسلناهم اليهم (بالبينات) أي بالآيات الواضحات الدالة على صدق الرسل (وما كانوا ليؤمنوا) الجملة اعتراضية واللام لتأكيد النفي أي وما صح لهذه الامم وما استقام أن يؤمنوا برسلهم لعدم استعدادهم لذلك وسلب الالطاف عنهم (كذلك نجزي القوم المجرمين) أي مثل ذلك الجزاء وهو الاستئصال الكلي لكل مجرم وهذا وعيد شديد لمن كان في عصره من الكفار أو لكفار مكة على الخصوص ثم خاطب سبحانه الذين بعث اليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال (ثم جعلناكم خلائف) أي استخلفناكم (في الارض) بعد تلك القرون التي تسمعون أخبارها وتنظرون آثارها والخلائف جمع خليفة وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة الانعام (لننظر كيف تعملون) اللام لام كي أي لكي ننظر أي عمل تعملونه من أعمال الخير والشر وعلى اي حالة تعملون الاعمال اللائقة بالاستخلاف وقيل النظر هنا بمعنى العلم أي لنختبر أعمالكم كقوله تعالى ليبلوكم أيكم أحسن عملا ذكره الواحدي والرازي وقيل لنعامل معاملة من ينظر فهي استعارة تمثيلية والاول أولى عن أبي سعيد الخدري أن رسول

وهذا أصح والله أعلم وهكذا روى عن مجاهد والضحاك وغير واحد وقال سنيد بن داود حدثني جرير عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن عمرو بن جرير قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الاعراف قال هم آخر من يفصل بينهم من العباد فاذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد قال أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار ولم تدخلوا الجنة فأنتم عتقائي فارعوا من الجنة حيث شئتم وهذا مرسل حسن وقيل هم أولاد الزنا حكاه القرطبي وروى الحافظ بن عساكر في ترجمة الوليد بن موسى عن شيبة بن عثمان عن عروة بن رويم عن الحسن عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم ان مؤمني الجن لهم ثواب وعليهم عقاب فسألناه عن ثوابهم وعن مؤمنيهم فقال على الاعراف وليسوا في الجنة مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم فسألناه وما الاعراف فقال حائط الجنة تجري فيه الانهار وتنبت فيه الاشجار والثمار رواه البيهقي عن ابن بشران عن علي بن محمد المصري عن يوسف بن يزيد عن الوليد بن موسى به وقال سفيان الثوري عن خصيف عن مجاهد قال أصحاب الاعراف قوم صالحون فقهاء علماء وقال ابن جرير حدثنا يعقوب بن ابراهيم حدثنا ابن علية عن سليمان التيمي عن أبي مجلز في قوله تعالى وبينهما حجاب وعلى الاعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم قال هم رجال من الملائكة يعرفون أهل الجنة وأهل النار قال ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون واذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ونادى أصحاب الاعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة قال فيقال حين يدخل أهل الجنة الجنة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون وهذا صحيح الى أبي مجلز لاحق بن حميد أحد التابعين وهو غريب من قوله وخلاف الظاهر من السياق وقول الجمهور مقدم على قوله بدلالة الآية على ما ذهبوا اليه وكذا قول مجاهد انهم قوم صالحون علماء فقهاء فيه غرابة أيضا والله أعلم وقد حكى القرطبي وغيره فيهم اثني عشر قولا منها انهم شهدوا انهم صلحاء تفرعوا من فرع الآخرة وجعلوا يطلعون على أخبار الناس وقيل هم أنبياء وقيل ملائكة وقوله تعالى يعرفون كلا بسيماهم قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه وأهل النار بسواد الوجوه وكذا روى الضحاك عنه وقال

العوفى عن ابن عباس أن الله جعل تلك المنزلة ليعرفوا من فى الجنة والنار وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه ويتعوذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين وهم فى ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام لم يدخلوها وهم يطمعون أن يدخلوها وهم داخلوها ان شاء الله وكذا قال مجاهد والضحاك والسدى والحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم وقال معمر عن الحسن انه تلا هذه الآية لم يدخلوها وهم يطمعون قال والله ما جعل ذلك الطمع فى قلوبهم الا لكرامة يريدها بهم وقال قتادة قد أنبأكم الله بمكانهم من الطمع وقوله واذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا (١٩٨) مع القوم الظالمين قال الضحاك عن ابن عباس ان أصحاب الاعراف اذا نظروا الى أهل النار وعرفوهم قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين وقال السدى واذا مروا بهم يعنى بأصحاب الاعراف بزمرة يذهب بها الى النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين وقال عكرمة تحدد وجوههم فى النار فاذا رأوا أصحاب الجنة ذهب ذلك عنهم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله واذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار فرأوا وجوههم مسودة وأعينهم مزرقة قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين (ونادى أصحاب الاعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون) يقول الله تعالى اخبارا عن تقريع أهل الاعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم يعرفونهم فى النار بسيماهم ما أغنى عنكم جمعكم أى كثرتكم وما كنتم تستكبرون أى لا ينفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله بل صرتم الى ما أنتم فيه من العذاب والنكال أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى أصحاب الاعراف ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون وقال ابن جرير حدثنى محمد بن سعد حدثنى أبى حدثنى عمى حدثنى أبى عن أبيه عن ابن عباس قال ما أغنى عنكم جمعكم الآية قال فلما قال لهم الذى قضى الله أن يقولوا يعنى أصحاب الاعراف لاهل الجنة وأهل النار قال الله لاهل التكبر والاموال أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون وقال حذيفة ان أصحاب الاعراف قوم تكافأت أعمالهم فقصرت بهم حسناتهم عن الجنة وقصرت بهم سيآتهم عن النار فجعلوا على الاعراف يعرفون الناس بسيماهم

النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واحذروا فتنة النساء أخرجه مسلم ثم حكى الله سبحانه نوعا ثالثا من تعنتهم وتلاعبهم بآياته فقال (واذا تتلى عليهم) فيه التفات عن الخطاب الى الغيبة اعراضا عنهم (آياتنا) التى فى الكتاب العزيز أى واذا تلا التالى عليهم آياتنا الدالة على اثبات التوحيد وابطال الشرك حال كونها (بينات) أى واضحات الدلالة على المطلوب (قال الذين لا يرجون لقاءنا) أى لا يخافون البعث وهم المنكرون للمعاد وقال قتادة هم مشركو مكة وقد تقدم تفسيره قريبا أى قالوا لمن يتلوه عليهم وهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (ائت بقرآن غير هذا أو بدله) طلبوا منه صلى الله عليه وآله وسلم لما سمعوا ما غاظهم فيما تلاه عليهم من القرآن من ذم عبادة الاوثان والوعيد الشديد لمن عبدها أحد أمرين اما الاتيان بقرآن غير هذا القرآن مع بقاء هذا القرآن على حاله واما تبديل هذا القرآن بنسخ بعض آياته أو كلها ووضع أخرى مكانها مما يطابق ارادتهم ويلائم غرضهم قال الرازى اقدامهم على هذا الالتماس اما على سبيل السخرية والاستهزاء أو على سبيل التجربة والامتحان حتى انه لو فعل ذلك علموا انه كاذب فى قوله ان هذا القرآن نزل عليه من عند الله تعالى فأمره الله أن يقول فى جوابهم (قل ما يكون) أى ما ينبغى ولا يحل (لى أن أبدله من تلقاء نفسى) فنفى عن نفسه أحد القسمين وهو التبديل لانه الذى يمكنه لو كان ذلك جائزا بخلاف القسم الآخر وهو الاتيان بقرآن آخر فان ذلك ليس فى وسعه ولا يقدر عليه وقيل انه صلى الله عليه وآله وسلم نفى عن نفسه أسهل القسمين ليكون دليلا على نفى أصعبهما بالطريق الاولى وهذا منه صلى الله عليه وآله وسلم من باب مجاراة السفهاء اذ لا يصدر مثل هذا الاقتراح عن العقلاء بعد أن أمره الله سبحانه بذلك وهو أعلم بمصالح عباده وبما يدفع الكفار عن هذه الطلبات الساقطة والسؤالات الباردة قال الزجاج سألوه اسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور وقيل سألوه أن يسقط ما فيه من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم وقيل سألوه أن يحول الوعد وعيدا والحرام حلالا والحلال حراما ثم أمره أن يؤكد ما أجاب به عليهم من أنه ما صح له ولا استقام أن يبدله من تلقاء نفسه بقوله (ان أتبع الا ما يوحى الى) من عند الله سبحانه من غير تبديل ولا تحويل ولا تحريف ولا تصحيف فقصر حاله صلى الله عليه وآله وسلم على

اتباع

فلما قضى الله بين العباد أذن لهم فى طلب الشفاعة فأتوا آدم فقالوا يا آدم أنت أبونا فاشفع لنا عند ربك فقال هل تعلمون ان أحدا خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وسبقت رحمته اليه غضبه وسجدت له الملائكة غيرى فيقولون لا فيقول ما علمت كنهه ما أستطيع ان أشفع لكم ولكن ائتوا ابنى ابراهيم فيأتون ابراهيم صلى الله عليه وسلم فيسألون أن يشفع لهم عند ربهم فيقول تعلمون من أحد اتخذه الله خليلا هل تعلمون أن أحدا احرقه قومه بالنار فى الله غيرى فيقولون لا فيقول ما علمت كنهه ما أستطيع ان أشفع لكم ولكن ائتوا ابنى موسى فيأتون موسى عليه السلام فيقول (١٩٩) هل تعلمون من أحد كلمه الله تكليما وقربه نجيا غيرى فيقولون لا فيقول ما علمت كنهه ما أستطيع ان أشفع لكم ولكن ائتوا عيسى فيأتونه عليه السلام فيقولون له اشفع لنا عند ربك فيقول هل تعلمون أحدا خلقه الله من غير أب فيقولون لا فيقول هل تعلمون من أحد كان يبرئ الاكمه والابرص ويحيى الموتى باذن الله غيرى قال فيقولون لا فيقول أنا حجيج نفسى ما علمت كنهه ما أستطيع ان أشفع لكم ولكن ائتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فيأتونى فأضرب بيدى على صدرى ثم أقول أنا لها ثم أمشى حتى أقف بين يدى العرش فآتى ربى عز وجل فيفتح لى من الثناء ما لم يسمع السامعون بمثله قط ثم أسجد فيقال لى يا محمد ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسى فأقول رب امتى فيقول هم لك فلا يبقى نبى مرسل ولا ملك مقرب الا غبطنى بذلك المقام وهو المقام المحمود فآتى بهم الجنة فاستفتح فيفتح لى ولهم فيذهب بهم الى نهر يقال له نهر الحيوان حافتاه قصب مكلل باللؤلؤ ترابه المسك وحصباؤه الياقوت فيغتسلون منه فتعود اليهم ألوان أهل الجنة وريح فيصيرون كأنهم الكواكب الدرية ويبقى فى صدورهم شامات بيض يعرفون بها يقال مساكين أهل الجنة (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا ان الله حرمهما على الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون) يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم وانهم لا يجابون الى ذلك قال السدى ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله يعنى الطعام وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يستطعمونهم ويستسقونهم وقال الثورى عن عثمان الثقفى عن سعيد بن جبير فى هذه الآية قال ينادى الرجل أباه أو أخاه فيقول له قد احترقت فأفض على من الماء فيقال

اتباع ما يوحى اليه وربما كان قصد الكفار بهذا السؤال التعريض للنبى صلى الله عليه وآله وسلم بان القرآن كلامه وانه يقدر على الاتيان بغيره والتبديل له ثم أمره الله سبحانه أن يقول لهم تكميلا للجواب عليهم (انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم) فان هذه الجملة كالتعليل لما قدمه من الجواب قبلها واليوم العظيم هو يوم القيامة أى انى أخاف ان عصيت ربى بفعل ما تطلبون على تقدير امكانه عذاب يوم القيامة ثم أكد سبحانه كون هذا القرآن من عند الله وانه صلى الله عليه وآله وسلم انما يبلغ اليهم منه ما أمره الله بتبليغه لا يقدر على غير ذلك فقال (قل لو شاء الله) أى ان هذا القرآن المتلو عليكم هو بمشيئة الله وارادته ولو شاء الله أن لا أتلوه عليكم ولا أبلغكم اياه (ما تلوته عليكم) فالامر كله منوط بمشيئة الله ليس لى فى ذلك شئ (ولا أدراكم به) أى ولو شاء الله ما أدراكم بالقرآن أى ما أعلمكم به على لسانى يقال دريت الشئ وأدرانى الله به هكذا قرأ الجمهور بالالف من أدراه يدريه أعلمه يعلمه وقرأ ابن كثير ولأدراكم به بغير ألف بين اللام والهمزة والمعنى لاعلمكم به على لسان غيرى من غير أن أتلوه عليكم فيكون اللام لام تأكيد دخلت على ألف أفعل وقد قرئ ادرأكم بالهمزة فقيل هى منقلبة عن الالف لكونهما من واد واحد ويحتمل أن يكون من درأته اذا دفعته وأدرأته اذا جعلته داريا والمعنى لاجعلكم بتلاوته خصماء تدرؤنى بالجدال وتكذبونى وقرأ ابن عباس والحسن ولا أدرأتكم به قال أبو حاتم اصله ولا أدريتكم به فأبدل من الياء ألفا قال النحاس وهذا غلط والرواية عن الحسن ولا ادرأتكم به بالهمزة (فقد لبثت فيكم عمرا من قبله) تعليل لكون ذلك بمشيئة الله ولم يكن من النبى صلى الله عليه وآله وسلم الا التبليغ أى أقمت فيما بينكم زمانا طويلا من قبل القرآن وهو أربعون سنة تعرفونى بالصدق والامانة لست ممن يقرأ ولا ممن يكتب (أفلا تعقلون) الهمزة للتقريع والتوبيخ أى أفلا تجرون على ما يقتضيه العقل من عدم تكذيبى لما عرفتم من العادة المستمرة لى المدة الطويلة بالصدق والامانة وعدم قراءتى للكتب المنزلة على الرسل وتعلمى لما عند أهلها من العلم ولا طلبى لشئ من هذا الشأن ولا حرصى عليه ثم جئتكم بهذا الكتاب الذى عجزتم عن الاتيان بسورة منه وقصرتم عن معارضته وانتم العرب المشهود لهم بكمال الفصاحة المعترف لهم بانهم البالغون فيها الى مبلغ لا يتعلق به

ادم أجيبوهم فيقولون ان الله حرمهما على الكافرين وروى من وجه آخر عن سعيد عن ابن عباس مثله وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ان الله حرمهما على الكافرين يعنى طعام الجنة وشرابها قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا نصر بن على أخبرنا موسى بن المغيرة حدثنا أبو موسى الصفار فى دار عمرو بن مسلم قال سألت ابن عباس أو سئل أى الصدقة أفضل فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل الصدقة الماء ألم تسمع الى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله وقال أيضا حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش (٢٠٠) عن أبى صالح قال لما مرض أبو طالب قالوا له لو أرسلت الى ابن أخيك هذا فيرسل اليك بعنقود من الجنة لعله أن يشفيك به فجاءه الرسول وأبو بكر عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر ان الله حرمهما على الكافرين ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه فى الدنيا باتخاذهم الدين لهوا ولعبا واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للآخرة وقوله فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا أى نعاملهم معاملة من نسيهم لانه تعالى لا يشذ عن علمه شئ ولا ينساه كما قال تعالى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى وانما قال تعالى هذا من باب المقابلة كقوله نسوا الله فنسيهم وقال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وقال تعالى وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا وقال العوفى عن ابن عباس فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا قال نسيهم الله من الخير ولم ينسهم من الشر وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا وقال مجاهد نتركهم فى النار وقال السدى نتركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا وفى الصحيح ان الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ألم أزوجك ألم أكرمك ألم أسخر لك الخيل والابل وأذرك ترأس وتربع فيقول بلى فيقول أظننت انك ملاقى فيقول لا فيقول الله تعالى فاليوم أنساك كما نسيتنى (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون هل ينظرون الا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) يقول تعالى مخبرا عن اعذاره الى المشركين بارسال الرسول اليهم بالكتاب الذى جاء به الرسول وانه كتاب مفصل

غيركم أخرج ابن ابى شيبة والبخارى والترمذى عن ابن عباس قال بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لاربعين سنة فمكث بمكة ثلاث عشرة يوحى اليه ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة وعن السدى نحوه قال النووى ورد فى عمره صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث روايات احداها انه توفى وهو ابن ستين سنة والثانية خمس وستون سنة والثالثة ثلاث وستون سنة وهى اصحها واشهرها رواه مسلم من حديث انس وعائشة وابن عباس واتفق العلماء عليها وتأولوا الباقى عليه فرواية ستين سنة اقتصر فيها على العقود وترك الكسر ورواية الخمس متأولة أيضا بانها حصل فيها اشتباه (فمن أظلم) استفهام فيه معنى الجحد أى لا أحد أظلم (ممن افترى على الله كذبا) زيادة كذبا مع ان الافتراء لا يكون الا كذبا لبيان ان هذا مع كونه افتراء على الله هو كذب فى نفسه فربما يكون الافتراء كذبا فى الاسناد فقط كما اذا اسند ذنب زيد الى عمرو وذكر معنى هذا ابو السعود فى تفسيره قيل وهذا من جملة رده صلى الله عليه وآله وسلم على المشركين لما طلبوا منه ان يأتى بقرآن غير هذا القرآن أو يبدله فبين لهم انه لو فعل ذلك لكان من الافتراء على الله ولا ظلم يعادل ذلك وقيل المفترى على الله الكذب هم المشركون (أو كذب بآياته) وهم أهل الكتاب (انه) أى ان الشأن (لا يفلح المجرمون) تعليل لما قبله أى لا يظفرون بمطلوب ولا يفوزون بخير قال عكرمة قال النضر اذا كان يوم القيامة شفعت لى اللات والعزى فأنزل الله هذه الآية ثم نعى الله سبحانه عليهم عبادة الاصنام وبين انها لا تنفع من عبدها ولا تضر من لم يعبدها فقال (ويعبدون من دون الله) أى متجاوزين الله سبحانه الى عبادة غيره لا بمعنى ترك عبادته بالكلية بل بمعنى عدم الاكتفاء بها وضم عبادة الغير اليها للتقرب والشفاعة (ما لا يضرهم ولا ينفعهم) أى ما ليس من شأنه الضر ولا النفع ومن حق المعبود أن يكون مثيبا لمن أطاعه معاقبا لمن عصاه ونفى الضر والنفع هنا عن الاصنام باعتبار الذات واثباتهما لها فى الحج فى قوله يدعو لمن ضره أقرب من نفعه باعتبار السبب فلا منافاة بينهما (ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) أى زعموا أنهم يشفعون لهم فى الآخرة فلا يعذبهم الله بذنوبهم قاله ابن جريج وهذا غاية الجهالة منهم حيث ينتظرون الشفاعة فى المآل ممن لا يوجد منه نفع ولا ضر فى الحال وقيل أرادوا بهذه الشفاعة اصلاح أحوال

مبين كقوله كتاب أحكمت آياته ثم فصلت الآية وقوله فصلناه على علم أى على علم منا بما فصلناه به كقوله أنزله بعلمه قال ابن جرير وهذه الآية مردودة على قوله كتاب أنزل اليك فلا يكن فى صدرك حرج منه الآية ولقد جئناهم بكتاب الآية وهذا الذى قاله فيه نظر فانه قد طال الفصل ولا دليل عليه وانما الامر انه لما أخبر بما صار واليه من الخسارة فى الآخرة ذكر أنه قد أزاح عللهم فى الدنيا بارسال الرسل وانزال الكتب كقوله وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ولهذا قال هل ينظرون الا تأويله أى ما وعدوا به من عذابه والجنة والنار قاله مجاهد وغير واحد وقال مالك ثوابه وقال الربيع لا يزال يجىء من تأويله أمر حتى يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فيتم تأويله يومئذ وقوله يوم يأتى تأويله أى يوم القيامة قاله ابن عباس يقول الذين نسوه من قبل أى تركوا العمل به وتناسوه فى الدار الدنيا قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أى فى خلاصنا مما صرنا اليه أو نرد الى الدار الدنيا فنعمل غير الذى كنا نعمل كقوله ولو ترى اذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون كما قال ههنا قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون أى ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله فلا يشفعون فيهم ولا ينصرونهم ولا ينقذونهم مما هم فيه (ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين) يخبر تعالى انه خالق العالم سمواته وأرضه وما بين ذلك فى ستة أيام كما أخبر بذلك فى غير ما آية من القرآن والستة الأيام الاحد والاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس والجمعة وفيه اجتمع الخلق كله وفيه خلق آدم عليه السلام واختلفوا فى هذه الايام هل كل يوم منها كهذه الايام كما هو المتبادر الى الاذهان أو كل يوم كألف سنة كما نص على ذلك مجاهد والامام أحمد بن حنبل ويروى من رواية الضحاك عن ابن عباس فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق لانه اليوم السابع ومنه سمى السبت وهو القطع فأما الحديث الذى رواه الامام أحمد فى مسنده حيث قال حدثنا حجاج حدثنا ابن جريج أخبرنى اسمعيل بن أمية عن أيوب بن خالد

أحوال دنياهم قاله الحسن أى لانكارهم البعث وما يترتب عليه ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بان يجيب عنهم فقال (قل) لهم تبكيتا (أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الارض) والمعنى اتخبرون الله ان له شركاء فى ملكه يعبدون كما يعبد أو أتخبرونه ان لكم شفعاء بغير اذنه والله سبحانه لا يعلم لنفسه شريكا ولا شفيعا بغير اذنه من جميع مخلوقاته الذين هم فى سمواته وفى أرضه وهذا الكلام حاصله عدم وجود من هو كذلك أصلا وفى هذا من التهكم بالكفار ما لا يخفى (سبحانه وتعالى عما يشركون) بالياء والتاء سبعيتان نزه الله سبحانه نفسه عن اشراكهم وهو يحتمل أن يكون ابتداء كلام غير داخل فى الكلام الذى أمر الله سبحانه رسوله بان يجيب به عليهم ويحتمل أن يكون من تمام ما أمر النبى صلى الله عليه وآله وسلم أن يقوله لهم جوابا عليهم (وما كان الناس) قد تقدم تفسيره فى البقرة والمعنى أن الناس جميعا ما كانوا (الا أمة واحدة) موحدة لله سبحانه مؤمنة به من لدن آدم الى نوح وقيل من عهد ابراهيم الى عمرو بن لحى لان التوحيد والاسلام ملة قديمة اجتمعت عليها الناس قاطبة فطرة وتشريعا وأن الشرك وفروعه جهالات ابتدعها الغواة (فاختلفوا) أى فصار البعض كافرا وبقى البعض الآخر مؤمنا فخالف بعضهم بعضا وقال الزجاج هم العرب كانوا على الشرك وقال كل مولود يولد على الفطرة فاختلفوا عند البلوغ والاول أظهر وليس المراد ان كل طائفة أحدثت ملة من ملل الكفر مخالفة للاخرى بل المراد كفر البعض وبقى البعض على التوحيد كما قدمنا وقال ابن مسعود كانوا على هدى وروى أنه قرأ هكذا وعن مجاهد قال آدم وحده فاختلفوا حين قتل احد ابنى آدم أخاه وعن السدى قال اهل دين واحد على دين آدم فكفروا وقيل ليس فى الآية ما يدل على اى دين كانوا من ايمان او كفر فهو موقوف على دليل من خارج وقيل كانوا فى الكفر وهو منقول عن جماعة من المفسرين والاول اولى (ولولا كلمة سبقت من ربك) وهى انه سبحانه لا يقضى بينهم فيما اختلفوا فيه الا يوم القيامة (لقضى بينهم) فى الدنيا بنزول العذاب وتعجيل العقوبة للمكذبين وكان ذلك فصلا بينهم (فيما فيه يختلفون) لكنه قد امتنع ذلك بالكلمة التى لا تتخلف وقيل المعنى لقضى بينهم باقامة الساعة عليهم وقيل لفرغ من هلاكهم وقيل الكلمة ان الله أمهل هذه الامة فلا

عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أبي هريرة قال أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال فيها يوم الاحد وخلق الشجر فيها يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الاربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر الى الليل فقد رواه مسلم بن الحجاج في صحيحه والنسائي من غير وجه عن حجاج وهو ابن محمد الاعور عن ابن جريج به وفيه استيعاب الايام السبعة والله تعالى قد قال في ستة أيام ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الاحبار ليس مرفوعا والله أعلم وأما قوله تعالى ثم استوى على العرش فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جدا ليس هذا موضع بسطها وانما يسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح مالك والاوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد واسحق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديما وحديثا وهو امرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل والظاهر المتبادر الى أذهان المشبهين منفي عن الله فان الله لا يشبهه شئ من خلقه وليس كمثله شئ وهو السميع البصير بل الامر كما قال الأئمة منهم نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري قال من شبه الله بخلقه كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه فمن أثبت لله ما وردت به الآثار الصريحة والاخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى وقوله تعالى يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا أي يذهب ظلام هذا بضياء هذا وضياء هذا بظلام هذا وكل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا أي سريعا لا يتأخر عنه بل اذا ذهب هذا جاء هذا وعكسه كقوله وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون فقوله ولا الليل سابق النهار أي لا يفوته بوقت يتأخر عنه بل هو في أثره بلا واسطة بينهما ولهذا قال يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره منهم من نصب ومنهم من رفع وكلاهما قريب المعنى أي الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته ولهذا قال منبها ألا له الخلق والامر أي له الملك والتصرف تبارك

يهلكهم بالعذاب في الدنيا قاله الكلبي وقيل الكلمة انه لا يأخذ أحدا الا بحجة وهي ارسال الرسل كما قال تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وقيل الكلمة قوله سبقت رحمتي غضبي وعبر بالمضارع عن الماضي حكاية للحال الماضية (ويقولون) ذكر سبحانه ههنا نوعا رابعا من مخازيهم وجاء بالمضارع لاستحضار صورة ما قالوه قيل والقائلون هم أهل مكة كأنهم لم يعتدوا بما قد نزل على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم من الآيات الباهرة والمعجزات القاهرة التي لو لم يكن منها الا القرآن لكفى به دليلا بينا ومصدقا قاطعا (لولا) أي هلا (أنزل عليه آية) من الآيات التي نقترحها عليه ونطلبها منه كاحياء الاموات وجعل الجبال ذهبا ونحو ذلك (من ربه) كما كان للانبياء من الناقة والعصا واليد ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم فقال (فقل انما الغيب لله) أي ان نزول الآية غيب والله هو المحيط بعلمه المستأثر به لا علم لي ولا لكم ولا لسائر مخلوقاته وانما علي التبليغ (فانتظروا) نزول ما اقترحتموه من الآيات (اني معكم من المنتظرين) لنزولها وقيل المعنى انتظروا قضاء الله بيني وبينكم باظهار الحق على الباطل وقال الربيع خوفهم عذابه وعقوبته ان لم يؤمنوا (واذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم اذا لهم مكر في آياتنا) لما بين سبحانه في الآية المتقدمة انهم طلبوا آية عنادا ومكرا ولجاجا كذلك بما ذكره هنا من انه سبحانه اذا أذاقهم رحمة منه من بعد ان مستهم الضراء فعلوا مقابل هذه النعمة العظيمة المكر منهم في آيات الله والمراد باذاقتهم رحمته سبحانه انه وسع عليهم في الارزاق وأدر عليهم النعم بالمطر والخصب وصلاح الثمار بعد ان مسهم الضر بالجدب وضيق المعايش فما شكروا نعمته ولا قدروها حق قدرها بل أضافوها الى أصنامهم التي لا تنفع ولا تضر وطعنوا في آيات الله واحتالوا في دفعها بكل حيلة وهو معنى المكر فيها واذا الاولى شرطية وجوابها اذا لهم مكر وهي فجائية ذكر معنى ذلك الخليل وسيبويه ويستفاد منه السرعة لان المعنى انهم فاجؤا المكر أي أوقعوه على جهة الفجاءة والسرعة وقال مجاهد في الآية استهزاء وتكذيب وهذا تفسير مراد والا فأصل المكر اخفاء الحيل والمكايد وقال مقاتل لا يقولون هذا رزق الله انما يقولون سقينا بنوء كذا وكذا ثم أمر الله سبحانه رسوله ان يجيب عنهم فقال (قل الله أسرع مكرا) أي أعجل عقوبة وأشد أخذا وأقدر على الجزاء من سرعة مكرهم وقد دل أفعل التفضيل على ان مكرهم كان سريعا ولكن مكر الله

أسرع

الله رب العالمين كقوله تبارك الذي جعل في السماء بروجا الآية قال ابن جرير حدثني المثنى حدثنا إسحق حدثنا هشام أبو عبد الرحمن حدثنا بقية بن الوليد حدثنا عبد الغفار بن عبد العزيز الأنصاري عن عبد العزيز الشامي عن أبيه وكانت له صحبة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح وحمد نفسه فقد كفر وحبط عمله ومن زعم ان الله جعل للعباد من الامر شيأ فقد كفر بما أنزل الله على أنبيائه لقوله ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين وفي الدعاء المأثور عن أبي الدرداء وروى مرفوعا اللهم لك الملك كله ولك الحمد كله واليك يرجع الامر كله (٢٠٣) أسألك من الخير كله وأعوذ بك من الشر كله (ادعوا ربكم تضرعا وخفية انه لا يحب المعتدين ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها وادعوه خوفا وطمعا ان رحمة الله قريب من المحسنين) أرشد تبارك وتعالى عباده الى دعائه الذي هو صلاحهم في دنياهم وأخراهم فقال ادعوا ربكم تضرعا وخفية قيل معناه تذللا واستكانة وخفية كقوله واذكر ربك في نفسك الآية وفي الصحيحين عن أبي موسى الاشعري قال رفع الناس أصواتهم بالدعاء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيها الناس اربعوا على أنفسكم فانكم لا تدعون اصم ولا غائبا ان الذي تدعون سميع قريب الحديث وقال ابن جريج عن عطاء الخراساني عن ابن عباس في قوله تضرعا وخفية قال السر وقال ابن جرير تضرعا تذللا واستكانة لطاعته وخفية يقول بخشوع قلوبكم وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه لا جهارة مراآة وقال عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن قال ان كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس وان كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس وان كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزور وما يشعرون به ولقد أدركنا أقواما ما كان على الارض من عمل يقدرون أن يعملوه في السر فيكون علانية أبدا ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت ان كان الا همسا بينهم وبين ربهم وذلك ان الله تعالى يقول ادعوا ربكم تضرعا وخفية وذلك ان الله ذكر عبدا صالحا رضي فعله فقال اذ نادى ربه نداء خفيا وقال ابن جريج يكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء ويؤمر بالتضرع والاستكانة ثم روى عن عطاء الخراساني عن ابن عباس في قوله انه لا يحب المعتدين في الدعاء ولا في غيره وقال أبو مجلز انه لا يحب المعتدين لا يسئل منازل الانبياء وقال أحمد حدثنا عبد الرحمن بن

أسرع منه وتسمية عقوبة الله سبحانه مكرا من باب المشاكلة كما قرر في مواطن من عبارات الكتاب العزيز (ان رسلنا) أي الملائكة (يكتبون ما تمكرون) قرئ بالتاء والياء والاولى سبعية والثانية عشرية أي لا يخفى ذلك على الملائكة الذين هم الحفظة فكيف يخفى على العليم الخبير وفي هذا وعيد لهم شديد وتحقيق للانتقام منهم وهذه الجملة تعليل للتي قبلها فان مكرهم اذا كان ظاهرا لا يخفى فعقوبة الله كائنة لا محالة ومعنى هذه الآية قريب من معنى الآية المتقدمة وهي اذا مس الانسان الضر وفي هذه الآية زيادة وهي انهم لا يقتصرون على مجرد الاعراض بل يطلبون الغوائل لآيات الله بما يدبرونه من المكر (هو الذي يسيركم في البر والبحر) ضرب سبحانه لهؤلاء مثلا حتى ينكشف المراد انكشافا تاما وهو كلام مستأنف ومعنى تسييرهم في البر انهم يمشون على أقدامهم التي خلقها لهم لينتفعوا بها او يركبون على ما خلقه الله لركوبهم من الدواب ومعنى تسييرهم في البحر انه ألهمهم لعمل السفائن التي يركبون فيها في لجج البحر ويسر ذلك لهم ودفع عنهم أسباب الهلاك وقد قرأ ابن عامر وهو الذي ينشركم في البر والبحر بالنون من النشر كما في قوله تعالى فانتشروا في الارض أي ينشرهم سبحانه في البحر فينجي من يشاء ويغرق من يشاء (حتى) غاية للسير في البحر والغاية مضمون الجملة الشرطية بكمالها (اذا كنتم في الفلك) يقع على الواحد والجمع ويذكر ويؤنث والحركات فيه بينها تغاير اعتباري (وجرين) أي السفن (بهم) أي بالراكبين عليها والفائدة في صرف الكلام عن الخطاب الى الغيبة المبالغة كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم مزيد الانكار والتقبيح قاله الزمخشري وقيل ان مخاطبة الله لعباده على لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بمنزلة الخبر عن الغائب وكل من أقام الغائب مقام المخاطب حسن منه ان يرده الى الغائب وقيل هذا الالتفات فيه امتنان واظهار نعمة المخاطبين والمسيرون في البحر مؤمنون وكفار والخطاب شامل فحسن خطابهم بذلك ليستديم الصالح الشكر ولعل الطالح يتذكر هذه النعمة ولما كان في آخر الآية ما يقتضي انهم اذا نجوا بغوا في الارض عدل عن خطابهم بذلك الى الغيبة لئلا يخاطب المؤمنين بما لا يليق صدوره منهم وهو البغي بغير الحق قاله السمين وقيل ان الالتفات في الكلام من الغيبة الى الحضور وبالعكس من فصيح كلام العرب وقال الرازي الانتقال من مقام الخطاب الى مقام الغيبة في هذا المقام دليل المقت

مهدى حدثنا شعبة عن زياد بن مخراق سمعت أبا نعامة عن مولى لسعد أن سعدا سمع ابناله يدعو وهو يقول اللهم انى أسألك الجنة ونعيمها واستبرقها ونحوا من هذا وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها فقال لقد سألت الله خيرا كثيرا وتعوذت به من شر كثير وانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انه سيكون قوم يعتدون فى الدعاء وفى لفظ يعتدون فى الطهور والدعاء وقرأ هذه الآية ادعوا ربكم تضرعا الآية وان بحسبك أن تقول اللهم انى أسألك الجنة وماقرب اليها من قول أو عمل وأعوذ بك من النار وماقرب اليها من قول أو عمل ورواه أبو داود (٢٠٤) من حديث شعبة عن زياد بن مخراق عن أبى نعامة عن مولى لسعد فذكره والله أعلم وقال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا الجريرى عن أبى نعامة ان عبد الله ابن مغفل سمع ابنه يقول اللهم انى أسألك القصر الابيض عن يمين الجنة اذا دخلتها فقال يابنى سل الله الجنة وعذبه من النار فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يكون قوم يعتدون فى الدعاء والطهور وهكذا رواه ابن ماجه عن أبى بكر ابن أبى شيبة عن عفان به وأخرجه أبو داود عن موسى بن اسمعيل عن حماد بن سلمة عن سعيد بن اياس الجريرى عن أبى نعامة واسمه قيس ابن عباية الحنفى البصرى وهو اسناد حسن لا بأس به والله أعلم وقوله تعالى ولا تفسدوا فى الارض بعد اصلاحها ينهى تعالى عن الافساد فى الارض وما أضره بعد الاصلاح فانه اذا كانت الامور ماشية على السداد ثم وقع الافساد بعد ذلك كان أضر ما يكون على العباد فنهى تعالى عن ذلك وأمر بعبادته ودعائه والتضرع اليه والتذلل لديه فقال وادعوه خوفا وطمعا أى خوفا مما عنده من وبيل العقاب وطمعا فيما عنده من جزيل الثواب ثم قال ان رحمة الله قريب من المحسنين أى ان رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره كما قال تعالى ورحمتى وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون الآية وقال قريب ولم يقل قريبة لانه ضمن الرحمة معنى الثواب أو لانها مضافة الى الله فلهذا قال قريب من المحسنين وقال مطر الوراق استنجزوا موعود الله بطاعته فانه قضى أن رحمته قريب من المحسنين رواه ابن أبى حاتم (وهو الذى يرسل الرياح نشرا بين يدى رحمته حتى اذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون

والتبعيد كما أن عكس ذلك فى قوله اياك نعبد دليل الرضا والتقريب (بريح طيبة) أى ساكنة لينة الهبوب الى جهة المقصد والباء للسببية أو للحال (وفرحوا بها) أى بريح السفينة فالقيود المعتبرة فى الشرط ثلاثة أولها الكون فى الفلك والثانى جريها بهم بالريح الطيبة التى ليست بعاصفة وثالثها فرحهم والقيود المعتبرة فى الجزاء ثلاثة الاول (جاءتها) أى جاءت الفلك وعارضته وقابلته أو جاءت الريح الطيبة أى تلقتها (ريح عاصف) أى ذات عصف وهو من باب النسب كلابن وتامر وهو مما يستوى فيه المذكر والمؤنث كما صرحوا به والعصوف شدة هبوب الريح وهى الهواء بين السماء والارض والجمع أرواح ورياح وقيل أرياح على لفظ الواحد وغلطه أبو حاتم وهى مؤنثة على الاكثر وقد تذكر على معنى الهواء نقله أبو زيد وقال ابن الانبارى الريح مؤنثة لا علامة فيها وكذلك سائر أسمائها الا الاعصار فانه مذكر وراح اليوم يروح روحا من باب قال وفى لغة من باب خاف اذا اشتدت ريحه فهو رائح والثانى (وجاءهم) أى ركبان السفينة (الموج من كل مكان) أى من جميع الجوانب للفلك والموج ما ارتفع من غوارب الماء وعلا فوق البحر وقيل هو شدة حركة الماء واختلاطه (و) الثالث (ظنوا أنهم أحيط بهم) أى غلب على ظنونهم الهلاك وأصله من احاطة العدو بقوم أو ببلد فجعل هذه الاحاطة مثلا فى الهلاك وان كان بغير العدو كما هنا وهو استعارة تبعية وقيل الظن هنا اليقين أى أيقنوا أنه الهلاك وقيل بل المراد المقاربة من الهلاك والدنو منه والاشراف عليه وقوله (دعوا الله) بدل من ظنوا لكون هذا الدعاء الواقع منهم انما كان عند ظن الهلاك وهو الباعث عليه فكان بدلا منه بدل اشتمال لاشتماله عليه ويمكن أن يكون جملة مستأنفة كأنه قيل ماذا صنعوا فقيل دعوا الله (مخلصين له الدين) أى لم يشوبوا دعاءهم بشئ من الشوائب كما جرت عادتهم فى غير هذا الموطن انهم يشركون أصنامهم فى الدعاء وليس هذا الاجل الايمان بالله وحده بل لاجل أن ينجيهم مما شارفوه من الهلاك لعلمهم انه لا ينجيهم الا الله سبحانه وفى هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع الى الله فى الشدائد وان المضطر يجاب دعاؤه وان كان كافرا وفى هذه الآية بيان ان هؤلاء المشركين كانوا لا يلتفتون الى أصنامهم فى هذه الحالة وما شابهها فيا عجبا لما حدث فى الاسلام من طوائف يعتقدون فى الاموات فاذا عرضت لهم فى البحر مثل هذه الحالة دعوا الاموات ولم يخلصوا الدعاء لله كما فعله المشركون

كما

والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذى خبث لايخرج الانكدا كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون) لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والارض وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر وأرشد الى دعائه لانه على مايشاء قادر نبه تعالى على أنه الرزاق وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال وهو الذى يرسل الرياح نشرا أى بشرا منتشرة بين يدى السحاب الحامل للمطر ومنهم من قرأ كقوله ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وقوله بين يدى رحمته أى بين يدى المطر كما قال وهو الذى ينزل الغيث من بعد ماقنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد وقال فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيي الارض (٢٠٥) بعد موتها ان ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شئ قدير وقوله حتى اذا أقلت سحابا ثقالا أى حملت الرياح سحابا ثقالا أى من كثرة مافيها من الماء تكون ثقيلة قريبة من الارض مدلهمة كما قال زيد بن عمرو بن نفيل رحمه الله

وأسلمت وجهى لمن أسلمت
له المزن تحمل عذبا زلالا
وأسلمت وجهى لمن أسلمت
له الارض تحمل صخرا ثقالا

وقوله سقناه لبلد ميت أى لارض ميتة مجدبة لانبات فيها كقوله وآية لهم الارض الميتة أحييناها الآية ولهذا قال فاخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى أى كما أحيينا هذه الارض بعد موتها كذلك نحيي الاجساد بعد صيرورتها رميما يوم القيامة ينزل الله سبحانه وتعالى ماء من السماء فتمطر الارض أربعين يوما فتنبت منه الاجساد فى قبورها كما ينبت الحب فى الارض وهذا المعنى كثير فى القرآن يضرب الله مثلا ليوم القيامة باحياء الارض بعد موتها ولهذا قال لعلكم تذكرون وقوله والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه أى والارض الطيبة يخرج نباتها سريعا حسنا كقوله وأنبتها نباتا حسنا والذى خبث لايخرج الانكدا قال مجاهد وغيره كالسباخ ونحوها وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر وقال البخارى حدثنا محمد بن العلاء حدثنا حماد بن أسامة عن بريد بن عبد الله عن أبى بردة عن ابى موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل مابعثنى الله به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكانت منها نقية قبلت الماء فانبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب امسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى انما هى قيعان لاتمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه مابعثنى الله به فعلم وعلم ومثل

كما تواتر ذلك النبأ تواترا يحصل به القطع فانظر هداك الله مافعلت هذه الاعتقادات الشيطانية وأين وصل بها أهلها والى أين رمى بهم الشيطان وكيف اقتادهم وتسلط عليهم حتى انقادوا له انقيادا ما كان يطمع فى مثله ولا فى بعضه من عباد الاصنام فانا لله وانا اليه راجعون واللام فى (لئن أنجيتنا) هى الموطئة للقسم المحذوف على ارادة القول أى دعوا قائلين ذلك ويجوز أن يجرى دعوا الله مجرى قالوا لان الدعاء بمعنى القول اذ هو نوع من أنواعه فتحكى به الجملة وهو مذهب كوفى والاول هو الاولى لاستدعاء الثانى لاقتصار دعائهم على ذلك فقط (من هذه) أى ماوقعوا فيه من مشارفة الهلاك فى البحر من الريح العاصفة والامواج الشديدة (لنكونن) فى كل حال (من الشاكرين) أى ممن يشكر نعمك التى أنعمت بها علينا منها هذه النعمة (١) التى نحن بصدد سؤالك أن تفرجها عنا وتنجينا منها وهذا جواب القسم وفيه من المبالغة فى الدلالة على كونهم ثابتين فى الشكر مثابرين عليه منتظمين فى سلك المنعوتين بالشكر الراسخين فيه ماليس فى أن يقال لنشكرن (فلما أنجاهم) الله من هذه المحنة التى وقعوا فيها وأجاب دعاءهم لم يفوا بما وعدوا من أنفسهم بل فعلوا فعل الجاحدين لافعل الشاكرين وجعلوا البغى فى الارض بغير الحق مكان الشكر (اذا هم يبغون) أى فاجؤا البغى والفساد وسارعوا اليه والبغى هو الفساد من قولهم بغى الجرح اذا ترامى فى الفساد وقيل هو الشرك وزيادة (فى الارض) للدلالة على ان فسادهم هذا شامل لاقطار الارض والبغى وان كان ينافى أن يكون بحق بل لايكون الا بالباطل لكن زيادة (بغير الحق) اشارة الى أنهم فعلوا ذلك بغير شبهة عندهم بل تمردا وعنادا الا انهم قد يفعلون ذلك لشبهة يعتقدونها مع كونها باطلة وقيل البغى مجاوزة الحد وهو محمود ان كان من العدل الى الاحسان ومن الفرض الى التطوع ومذموم ان كان من الحق الى الباطل أو الى الشبهة وقال الزمخشرى البغى قد يكون بحق وهو استيلاء المسلمين على أرض الكفرة وهدم دورهم واحراق زروعهم وقلع أشجارهم كما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ببنى قريظة وهذا فائدة تقييده بغير الحق (ياأيها الناس انما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا) لما ذكر سبحانه ان هؤلاء المتقدم ذكرهم يبغون فى الارض بغير الحق ذكر عاقبة البغى وسوء مغبته قرئ بنصب

(١) قوله التى نحن بصدد الخ كذا فى أصله والمراد ظاهر على مافى العبارة فتأمل اه

من لم يرفع بذلك رأساولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به رواه مسلم والنسائى من طرق عن أبى اسامة حماد بن أسامة به (لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم قال الملأ من قومه انا لنراك فى ضلال مبين قال ياقوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون) لما ذكر تعالى قصة آدم فى أول السورة وما يتعلق بذلك وما يتصل به وفرغ منه شرع فى قصص الانبياء عليهم السلام الأول فالأول فابتدأ بذكر نوح عليه السلام فانه أول رسول الى أهل الارض (٢٠٦) بعد آدم عليه السلام وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن اخنوخ وهو ادريس عليه

متاع على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر بطريق الاستئناف أى بغيكم وبال على أنفسكم تتمتعون متاع الحياة الدنيا وقيل على انه ظرف زمان نحو مقدم الحاج أى زمن متاع الحياة الدنيا وقيل على انه مفعول له أى لاجل متاع الحياة الدنيا وقيل منصوب على نزع الخافض أى كمتاع وقيل على الحال على انه مصدر بمعنى المفعول أى ممتعين وقيل على انه مفعول افعل دل عليه المصدر أى تبغون متاع الحياة الدنيا وقد نوقش غالب هذه الاقوال فى توجيه النصب والحق الذى تقتضيه جزالة التنزيل انما هو الوجه الاول أما من قرأ برفع متاع فجعله خبر المبتدا أى بغيكم متاع الحياة الدنيا ويكون على أنفسكم متعلقا بالمصدر والتقدير انما بغيكم على أمثالكم والذين جنسهم جنسكم متاع الحياة الدنيا ومنفعتها التى لابقاء لها فيكون المراد بأنفسكم على هذا الوجه أبناء جنسهم وعبر عنهم بالانفس استعارة لما يدركه الجنس على جنسه من الشفقة وقيل ارتفاع متاع على انه خبر ثان وقيل على انه خبر لمبتدا محذوف أى هو متاع كما فى قوله تعالى الا ساعة من نهار بلاغ أى هذا بلاغ وقد نوقش أيضا بعض هذه الوجوه فى توجيه الرفع بما يطول به البحث فى غير طائل والحاصل انه اذا جعل خبر المبتدا على أنفسكم فالمعنى ان ما يقع من البغى على الغير هو بغى على نفس الباغى باعتبار ما يؤول اليه الامر من الانتقام منه مجازاة على بغيه وان جعل الخبر متاعا فالمراد ان بغى هذا الجنس الانسانى على بعضه بعضا هو سريع الزوال قريب الاضمحلال كسائر أمتعة الحياة الدنيا فانها ذاهبة عن قريب متلاشية بسرعة ليس لذلك كثير فائدة ولا عظيم جدوى وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم والخطيب فى تاريخه عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث هن رواجع على أهلها المكر والنكث والبغى ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انما بغيكم على أنفسكم ولا يحيق المكر السىء الا بأهله ومن نكث فانما ينكث على نفسه وعن مكحول ثلاث من كن فيه كن عليه المكر والبغى والنكث أقول أنا وينبغى ان يلحق بهذه الثلاث التى دل القرآن على انها تعود على فاعلها الخدع فان الله يقول يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لو بغى جبل على جبل لاندك الباغى منهما ثم ذكر سبحانه ما يكون على ذلك البغى من المجازاة يوم القيامة مع وعيد شديد فقال (ثم الينا مرجعكم)

تقديم

السلام فيما يزعمون وهو أول من خط بالقلم ابن برد بن مهليل بن قنين بن يانش بن شيث بن آدم عليه السلام هكذا نسبه ابن اسحق وغير واحد من أئمة النسب قال محمد بن اسحق ولم يلق نبى من قومه من الاذى مثل نوح الانبى قتل وقال يزيد الرقاشى انما سمى نوحا لكثرة ما ناح على نفسه وقد كان بين آدم الى زمن نوح عليه السلام عشرة قرون كلهم على الاسلام قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير وكان أول ما عبدت الاصنام ان قوما صالحين ماتوا فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا صور أولئك فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم فلما طال الزمان جعلوا أجسادا على تلك الصور فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الاصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا فلما تفاقم الامر بعث الله سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة رسوله نوحا فأمرهم بعبادة الله وحده لاشريك له فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم أى من عذاب يوم القيامة اذا لقيتم الله وأنتم مشركون به قال الملأ من قومه أى الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم انا لنراك فى ضلال مبين أى فى دعوتك ايانا الى ترك عبادة هذه الاصنام التى وجدنا عليها آباءنا وهكذا حال الفجار انما يرون الابرار فى ضلالة كقوله واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم الى غير ذلك من الآيات قال ياقوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين أى ما أنا ضال ولكن أنا رسول من رب كل شىء ومليكه أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون وهذا شأن الرسول ان

يكون مبلغا فصيحا ناصحا عالما بالله لا يدركهم أحد من خلق الله كما في صحيح مسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه يوم عرفة وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعا أيها الناس انكم مسؤلون عني فما أنتم قائلون قالوا نشهد انك قد بلغت وأديت ونصحت فجعل يرفع اصبعه الى السماء وينكسها عليهم ويقول اللهم اشهد اللهم اشهد (أوعجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوما عمين) يقول تعالى اخبارا عن نوح انه قال لقومه أوعجبتم الآية أي لا تعجبوا (٢٠٧) من هذا فان هذا ليس بعجب ان يوحي الله الى رجل منكم رحمة بكم ولطفا واحسانا اليكم لينذركم ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به ولعلكم ترحمون قال الله تعالى فكذبوه أي تمادوا على تكذيبه ومخالفته وما آمن معه منهم الا قليل كما نص عليه في موضع آخر فأنجيناه والذين معه في الفلك أي السفينة وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا كما قال مما خطاياهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا وقوله انهم كانوا قوما عمين أي عن الحق لا يبصرونه ولا يهتدون له فبين تعالى في هذه القصة انه انتقم لاوليائه من أعدائه وأنجى رسوله والمؤمنين وأهلك أعداءهم الكافرين كقوله انا لننصر رسلنا الآية وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة ان العاقبة للمتقين والظفر والغلب لهم كما أهلك قوم نوح بالغرق ونجى نوحا وأصحابه المؤمنين وقال مالك عن زيد بن أسلم كان قوم نوح قد ضاق بهم السهل والجبل وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ما عذب الله قوم نوح الا والارض ملأى بهم وليس بقعة من الارض الا ولها مالك وحائز وقال ابن وهب بلغني عن ابن عباس انه نجا مع نوح في السفينة ثمانون رجلا أحدهم جرهم وكان لسانه عربيا رواه ابن أبي حاتم وروى متصلا من وجه آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما (والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون قال الملأ الذين كفروا من قومه انا لنراك في سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين أوعجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون) يقول تعالى وكما أرسلنا الى قوم نوح

تقديم الخبر للدلالة على الثبات والقصر والمعنى انكم بعد هذه الحياة الدنيا ومتاعها ترجعون الى الله فيجازي المسيء باساءته والمحسن باحسانه (فننبئكم بما كنتم تعملون) في الدنيا من خير وشر والمراد بذلك المجازاة كما تقول لمن أساء سأخبرك بما صنعت وفيه أشد وعيد وأفظع تهديد ثم لما ذكر سبحانه ما تقدم من متاع الدنيا جاء بكلام مستأنف يتضمن بيان حالها وسرعة تقضيها وقصر مدة التمتع بها وقرب زمان الرجوع الموعود به بعد ان تملأ الاعين برونقها وتخلب النفوس ببهجتها وتحمل أهلها على أن يسفكوا دماء بعضهم بعضا ويتكوا احرمهم حبا لها وعشقا لجمالها الظاهري وتكالبا على التمتع بها وتهافتا على نيل ما تشتهي الانفس منها بضرب من التشبيه المركب العجيب البديع المثال المنتظم في سلك الامثال فقال (انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) أي ان مثلها في سرعة الذهاب والاتصاف بوصف يضاد ما كانت عليه ويباينه مثل ما على الارض من أنواع النبات في زوال رونقه وذهاب بهجته وسرعة تقضيه بعد ان كان غضا مخضرا طريا قد تعانقت أغصانه المتمايلة وزهت أوراقه المتصافحة وتلألأت أنوار نوره وحاكت الزهر أنواع زهره وانما ليست للحصر لانه تعالى ضرب للحياة الدنيا أمثالا غير هذا وليس المشبه به هو ما دخله الكاف في قوله كماء بل ما يفهم من الكلام (فاختلط به) أي بسببه (نبات الارض) بان اشتبك بعضه ببعض لكثرته حتى بلغ الى حد الكمال ويحتمل ان يراد أن النبات كان في أول بروزه ومبدأ حدوثه غير مهتز ولا مترعرع فاذا نزل الماء عليه اهتز وربا حتى اختلط بعض الانواع ببعض (مما يأكل الناس والانعام) أي كائنا من الحبوب والثمار والكلأ والتبن والعشب (حتى اذا أخذت الارض زخرفها) قال في الصحاح الزخرف الذهب ثم يشبه به كل مموه مزور اهـ وفي القاموس الزخرف بالضم الذهب وكمال حسن الشيء ومن القول حسنه ومن الارض ألوان نباتها والمعنى أن الارض استوفت واستكملت لونها الحسن المشابه بعضه للون الذهب وبعضه للون الفضة وبعضه للون الياقوت وبعضه للون الزمرذ وحتى غاية لمحذوف أي ما زال ينمو ويزهو حتى أخذت حسنها ونضارتها وبهجتها وأظهرت ألوان زهرها من أبيض وأخضر وأحمر وأصفر وغير ذلك (وازينت) أي تزينت به وقرئ أزينت على وزن أفعلت أي ازينت بالزينة التي عليها شبهها بالعروس التي تلبس الثياب الجيدة المتلونة ألوانا كثيرة ففي الكلام استعارة

نوحا كذلك أرسلنا الى عاد أخاهم هودا قال محمد بن اسحق هم ولد عاد بن ارم بن عوص بن سام بن نوح (قلت) هؤلاء هم عاد الاولى الذين ذكرهم الله وهم أولاد عاد بن ارم الذين كانوا يأوون الى العمد فى البر كما قال تعالى ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد وذلك لشدة بأسهم وقوتهم كما قال تعالى فأما عاد فاستكبروا فى الارض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون وقد كانت مساكنهم باليمن بالاحقاف وهى جبال الرمل قال ابن اسحق عن محمد بن عبد الله بن أبى سعيد الخزاعى عن أبى الطفيل عامر بن واثلة سمعت عليا يقول لرجل من حضرموت هل رأيت كثيبا أحمر يخالطه مدرة حمراء اراء أراك وسدر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت هل رأيته قال نعم يا أمير المؤمنين والله انك لتنعته نعت رجل قد رآه قال لا ولكنى قد حدثت عنه فقال الحضرمى وما شأنه يا أمير المؤمنين قال فيه قبر هود عليه السلام رواه ابن جرير وهذا فيه فائدة ان مساكنهم كانت باليمن فان هودا عليه السلام دفن هنالك وقد كان من أشرف قومه نسبا لان الرسل انما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم ولكن كان قومه كما شدد خلقهم شدد على قلوبهم وكانوا من أشد الامم تكذيبا للحق ولهذا دعاهم هود عليه السلام الى عبادة الله وحده لا شريك له والى طاعته وتقواه قال الملأ الذين كفروا من قومه والملأ هم الجمهور والسادة والقادة منهم انا لنراك فى سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين أى فى ضلالة حيث تدعونا الى ترك عبادة الاصنام والاقبال على عبادة الله وحده كما تعجب الملأ من قريش من الدعوة الى اله واحد فقالوا أجعل الآلهة الها واحدا الآية قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين أى لست كما تزعمون بل جئتكم بالحق من الله الذى خلق كل شئ فهو رب كل شئ ومليكه أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين وهذه الصفات التى اتصف بها الرسل البلاغ والنصح والامانة أوعجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم أى لا تعجبوا أن بعث الله اليكم رسولا من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه بل احمدوا الله على ذاكم واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح أى اذكروا نعمته عليكم فى جعلكم من ذرية نوح الذى أهلك الله أهل الارض بدعوته لما خالفوه وكذبوه وزادكم فى الخلق بسطة أى زاد طولكم على الناس بسطة أى جعلكم أطول من أبناء جنسكم كقوله فى قصة

مكنية (وظن أهلها) أى أهل تلك الارض الآخذة زخرفها (انهم قادرون عليها) أى غلب على ظنونهم أو تيقنوا أنهم قادرون على حصادها والانتفاع بها محصلون لثمرتها رافعون لغلاتها متمكنون على جدادها وقطافها والضمير فى عليها للارض والمراد النبات الذى هو عليها (أتاها) أى جاءها (أمرنا) اهلاكها واستئصالها وضربها ببعض العاهات (ليلا أونهارا) أو للتنويع أى تارة يأتى قضاؤنا وعذابنا ليلا وتارة يأتى نهارا (فجعلناها حصيدا) أى جعلنا زرعها شبيها بالمحصود فى قطعه من أصوله قال أبو عبيدة الحصيد المستأصل وقيل المقطوع بالمناجل (كأن لم تغن بالامس) أى كأن لم يكن زرعها موجودا قيما بالامس مخضرا طريا من غنى بالمكان بالكسر يغنى بالفتح اذا أقام قال البيضاوى أى لم تلبث أى لم تقم ولم تمكث وقيل لم تكن ولم توجد وفى القاموس ما يقتضى ان غنى يأتى بمعنى كان ووجد كقوله غنيت دارنا تهامة أى كانت بها والمراد بالامس الوقت القريب والزمن الماضى لا خصوص اليوم الذى قبل يومك قاله الكرخى والمغانى فى اللغة المنازل وقال قتادة كأن لم تنعم وقرأ لم يغن بالتحتية بارجاع الضمير الى الزخرف وقرأ من عدا تغن بالفوقية بارجاع الضمير الى الارض (كذلك) أى مثل ذلك التفصيل البديع (نفصل الآيات) القرآنية التى من جملتها هذه الآية المنبهة على احوال الدنيا ويجوز ان يراد الآيات التكوينية (لقوم يتفكرون) فيما اشتملت عليه عن أبى مجلز قال كان مكتوبا فى سورة يونس الى جنب هذه الآية ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى ثالثا ولا يشبع نفس ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب ثم ثبت قال النسفى فى الآية وهذا من التشبيه المركب شبهت حال الدنيا فى سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الاقبال بحال نبات الارض فى جفافه وذهابه حطاما بعد ما التف وتكاثف وزين الارض بخضرته ورفيفه والتنبيه على حكمة التشبيه أن الحياة صفوها شيبتها وكدرها شيبتها كما ان صفو الماء فى أعلى الاناء

ألم تر أن العمر كأس سلافة * فأوله صفو وآخره كدر

وحقيقته تزيين جنة الطين بمصالح الدنيا والدين كاختلاط النبات على اختلاف التلوين فالطينة الطيبة تنبت بساتين الانس ورياحين الروح وزهرة الزهد وكروم الكرم وحبوب

الحب

طالوت وزاده بسطة فى العلم والجسم واذكروا آلاء الله أى نعمه ومننه عليكم لعلكم تفلحون (قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا انى معكم من المنتظرين فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين) يخبر تعالى عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وانكارهم على هود عليه السلام قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده الآية كقول الكفار من قريش اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم وقد ذكر محمد بن اسحق وغيره انهم كانوا يعبدون أصناما فصنما يقال له صمدا وآخر يقال له صمودا وآخر يقال له هبا ولهذا قال عليه السلام قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أى قد وجب عليكم بمقالتكم هذه من ربكم رجس قيل هو مقلوب من رجز وعن ابن عباس معناه سخط وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم أى أتحاجوننى فى هذه الاصنام التى سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة وهى لا تضر ولا تنفع ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلا ولهذا قال ما أنزل الله بها من سلطان فانتظروا انى معكم من المنتظرين وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه ولهذا عقبه بقوله فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين وقد ذكر الله سبحانه صفة اهلاكهم فى أماكن أخر من القرآن بانه أرسل عليهم الريح العقيم ما تذر من شئ أتت عليه الا جعلته كالرميم كما قال فى الآية الاخرى وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية لما تمردوا وعتوا أهلكهم الله بريح عاتية فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه فى الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتثلغ رأسه حتى تبينه من جثته ولهذا قال كأنهم أعجاز نخل خاوية وقال محمد بن اسحق كانوا يسكنون باليمن من عمان وحضرموت وكانوا مع ذلك قد فشوا فى الارض وقهروا أهلها بفضل قوتهم التى آتاهم الله وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله فبعث الله اليهم هودا عليه السلام وهو من أوسطهم نسبا وأفضلهم موضعا فأمرهم أن يوحدوا الله

الحب وحدائق الحقيقة وشقائق الطريقة والخبيثة تخرج خلاف الخلف وثمام الاثم وشوك الشرك وشيح الشح وحطب العطب ولعاع اللعب ثم يدعوه معاده كما يحين للحرث حصاده فتزايله الحياة مغترا كما يهيج النبات مصفرا فتغيب جثته فى الرمس كأن لم تغن بالامس الى أن يعود بربيع البعث وموعد العرض والحث وكذلك حال الدنيا كالماء ينفع قليله ويهلك كثيره ولا بد من ترك ما زاد كما لا بد من أخذ الزاد وأخذ المال لا يخلو من زلة كما أن خائض الماء لا ينجو من بلة وجمعه وامساكه تلف صاحبه واهلاكه فما دون النصاب كضحضاح ماء يجاوز بلا احتماء والنصاب كنهر حائل بين المجتاز والجواز الى المفاز لا يمكن الا بقنطرة وهى الزكاة وعمارتها بذل الصلاة فتى اختلت القنطرة غرقته أمواج القناطير المقنطرة وكذا المال يساعد الاوغاد دون الامجاد كما أن الماء يجتمع فى الوهاد دون النجاد وكذلك المال لا يجتمع الا بكد البخيل كما أن الماء لا يجتمع الا بسد المسيل ثم يفنى ويتلف ولا يبقى كالماء فى الكف انتهى (والله يدعو الى دار السلام) لما نفر عباده عن الميل الى الدنيا بما ضربه لهم من المثل السابق رغبهم فى الدار الآخرة باخبارهم بهذه الدعوة منه عز وجل الى دار السلام قال الحسن وقتادة السلام هو الله تعالى وداره الجنة وقال الزجاج المعنى والله يدعو الى دار السلامة ومعنى السلام والسلامة واحد كالرضاع والرضاعة وقيل أراد دار السلام الذى هو التحية لان أهلها ينالون من الله السلام بمعنى التحية كما فى قوله تحيتهم فيها سلام وقيل السلام اسم لاحد الجنان السبع أحدها دار السلام والثانية دار الجلال والثالثة جنة عدن والرابعة جنة المأوى والخامسة جنة الخلد والسادسة جنة الفردوس والسابعة جنة النعيم وقيل المراد دار السلام الواقع من المؤمنين بعضهم على بعض فى الجنة وقد اتفقوا على أن دار السلام هى الجنة وانما اختلفوا فى سبب التسمية بدار السلام (ويهدى من يشاء) هدايته قال أبو العالية يهديهم للمخرج من الشبهات والفتن والضلالات (الى صراط مستقيم) دين الاسلام جعل سبحانه الدعوة الى دار السلام عامة والهداية خاصة بمن يشاء أن يهديه تكميلا للحجة واظهارا للاستغناء عن خلقه أخرج ابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى عن أبى جعفر محمد بن على قال حدثنى جابر قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوما فقال انى رأيت فى المنام كأن جبريل عند رأسى وميكائيل عند رجلى

ولا يجعلوا معه الها غيره وان يكفوا عن ظلم الناس فأبوا عليه وكذبوه وقالوا من أشد منا قوة واتبعه منهم ناس وهم يسير يكتمون ايمانهم فلما عتت عاد على الله وكذبوا انبياءه واكثروا في الارض الفساد وتجبروا وبنوا بكل ريع آية عبثا بغير نفع كلمهم هود فقال أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون واذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء أي بجنون قال اني أشهد الله واشهدوا اني بريء مما تشركون من دونه

فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون اني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربي على صراط مستقيم قال محمد بن اسحق فلما أبوا الا الكفر به أمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين فيما يزعمون حتى جهدهم ذلك قال وكان الناس اذا جهدهم أمر في ذلك الزمان وطلبوا من الله الفرج فيه انما يطلبونه بحرمه ومكانه وبيته وكان معروفا عند الملل وبه العماليق مقيمون وهم من سلالة عمليق بن آدم بن سام بن نوح وكان سيدهم اذ ذاك رجلا يقال له معاوية بن بكر وكانت له أم من قوم عاد واسمها جلهدة ابنة الخيبري قال فبعثت عاد وفدا قريبا من سبعين رجلا الى الحرم ليستسقوا لهم عند الحرم فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة فنزلوا عليه فأقاموا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان قينتان لمعاوية وكانوا قد وصلوا اليه في شهر فلما طال مقامهم عنده وأخذته شفقة على قومه واستحى منهم أن يأمرهم بالانصراف عمل شعرا يعرض لهم بالانصراف وأمر القينتين أن تغنيهم به فقال

ألا يا قيل ويحك قم فهينم * لعل الله يسقينا غماما
فيسقي أرض عاد ان عادا * قد امسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو * به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير * فقد أمست نساؤهم عيامى
وان الوحش تأتيهم جهارا * ولا تخشى لعادي سهاما
وأنتم ههنا فيما اشتهيتم * نهاركم وليلكم التماما
فقبح وفدكم من وفد قوم * ولا لقوا التحية والسلاما

قال فعند ذلك تنبه القوم لما جاؤا له فنهضوا الى الحرم ودعوا لقومهم فدعا داعيهم وهو قيل بن عنز فأنشأ الله سحابات ثلاثا بيضاء

يقول أحدهما لصاحبه اضرب له مثلا فقال اسمع سمعت أذنك واعقل عقل قلبك انما مثلك ومثل أمتك مثل ملك اتخذ دارا ثم بنى فيها بيتا ثم جعل فيها مأدبة ثم بعث رسولا يدعو الناس الى طعامه فمنهم من أجاب الرسول ومنهم من ترك فالله هو الملك والدار الاسلام والبيت الجنة وأنت يا محمد رسول فمن أجابك دخل الاسلام ومن دخل الاسلام دخل الجنة ومن دخل الجنة أكل منها وقد روي معنى هذا من طرق ثم قسم سبحانه أهل الدعوة الى قسمين وبين حال كل طائفة فقال (للذين أحسنوا) بالقيام بما أوجبه الله عليهم من الاعمال والكف عما نهاهم عنه من المعاصي وقيل للذين شهدوا أن لا اله الا الله (الحسنى) أي المثوبة الحسنى وان كان معه ذنوب فعصاة المؤمنين داخلون في هذا قال ابن الانباري الحسنى في اللغة تأنيث الاحسن والعرب توقع هذه اللفظة على الخصلة المحبوبة المرغوب فيها ولذلك ترك موصوفها وقيل المراد بالحسنى الجنة (وزيادة) قيل المراد بها ما يزيد على المثوبة من التفضل كقوله ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وقيل الزيادة النظر الى وجهه الكريم وبه قال جماعة من الصحابة منهم أبو بكر الصديق وحذيفة وأبو موسى الاشعري وعبادة بن الصامت وبه قال الحسن وعكرمة والضحاك ومقاتل والسدي وقيل الزيادة هي مضاعفة الحسنة الى عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف وقيل الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب قاله علي بن أبي طالب وقيل الزيادة مغفرة من الله ورضوان قاله مجاهد وقيل هي ما يعطيهم سبحانه في الدنيا من فضله لا يحاسبهم عليه يوم القيامة قاله ابن زيد وقيل غير ذلك مما لا فائدة في ذكره وأخرج أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه وابن خزيمة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وغيرهم عن صهيب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تلا هذه الآية قال اذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة ان لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون وما هو ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار قال فيكشف لهم الحجاب فينظرون اليه فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب اليهم من النظر اليه ولا أقر لاعينهم وفي لفظ من حديث أبي موسى مرفوعا الحسنى الجنة والزيادة النظر الى وجه الرحمن أخرجه الدارقطني وابن جرير وغيرهما وروي مثله عن جماعة من الصحابة مرفوعا بطرق وقد روي عن التابعين ومن بعدهم روايات في

تفسير

وسوداء وحمراء ثم نادادمنادا اخترت رمادا رمددا لا يبقى من عاد احدا ولا والدا تترك ولا ولدا الا جعلته همدا الا بنى اللوذية الهمدا قال وبنو اللوذية بطن من عاد مقيمون بمكة فلم يصبهم ما أصاب قومهم قال وهم من بقى من أنسالهم وذراريهم عاد الآخرة قال وساق الله السحابة السوداء فيما يذكرون التي اختارها قيل بن عنز بما فيها من النقمة الى عاد حتى تخرج عليهم من واد يقال له المغيث فلما رأوها استبشروا وقالوا هذا عارض ممطرنا يقول بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء فكان أول من أبصر ما فيها وعرف انها ريح فيما يذكرون امرأة من

عاد يقال لها مهدد فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت فلما أفاقت قالوا ما رأيت يا مهدد قالت ريحا فيها شبه النار امامها رجال يقودونها فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما كما قال الله تعالى والحسوم الدائمة فلم تدع من عاد أحدا الا هلك واعتزل هود عليه السلام فيما ذكر لى ومن معه من المؤمنين فى حظيرة ما يصيبه ومن معه الا ما تلين عليه الجلود وتلذ الانفس وانها لتمر على عاد بالظعن ما بين السماء والارض وتدمغهم بالحجارة وذكر تمام القصة بطولها وهو سياق غريب فيه فوائد كثيرة وقد قال الله تعالى ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ وقال الامام أحمد حدثنا زيد بن الحباب حدثنى أبو المنذر سلام بن سليمان النحوى حدثنا عاصم بن أبى النجود عن أبى وائل عن الحرث البكرى قال خرجت أشكو العلاء بن الحضرمى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمررت بالربذة فاذا عجوز من بنى تميم منقطع بها فقالت لى يا عبد الله ان لى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجة فهل أنت مبلغى اياه قال فحملتها فأتيت المدينة فاذا المسجد غاص بأهله واذا راية سوداء تخفق واذا بلال متقلد سيفا بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت ما شأن الناس قالوا يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجها قال فجلست فدخل منزله أو قال رحله فاستأذنت عليه فأذن لى فدخلت وسلمت فقال هل بينكم وبين تميم شيء فقلت نعم وكانت لنا الدائرة عليهم ومررت بعجوز من بنى تميم منقطع بها فسألتنى ان أحملها اليك وها هى بالباب فأذن لها فدخلت فقلت يا رسول الله ان رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزا فاجعل الدهنا فحميت العجوز واستوفزت

تفسير الزيادة غالبها أنها النظر الى وجه الله سبحانه وقد ثبت التفسير بذلك من قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلم يبق حينئذ لقائل مقال ولا التفات الى المجادلات الواقعة بين المتمذهبة الذين لا يعرفون من السنة المطهرة ما ينتفعون به فانهم لو عرفوا ذلك لكفوا عن كثير من هذيانهم والله المستعان (ولا يرهق) الرهق الغشيان وقيل أصله المقاربة وقيل معناه يلحق ومنه قيل غلام مراهق اذا لحق بالرجال وقيل يعلو والمعانى متقاربة والمعنى لا يغشى (وجوههم قتر) هو غبار معه سواد وقيل سواد الوجه وواحده قترة وقيل هو الدخان ومنه غبار القدر وقيل التقليل ومنه ولم يقتروا ومنه على المقتر قدره وقيل الكآبة (ولا ذلة) هى ما يظهر على الوجه من الخضوع والانكسار والهوان بمعنى لا يعلو وجوههم غبرة ولا يظهر فيها هوان وقال مجاهد فى الآية خزى وعن صهيب عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال هذا بعد نظرهم اليه عز وجل أخرجه أبو الشيخ والجملة مستأنفة أو فى محل نصب على الحال قاله أبو البقاء وهذا ليس بجائز لان المضارع متى وقع حالا منفيا بلا امتنع دخول واو الحال عليه كالمثبت أو فى محل الرفع نسقا على الحسنى والتقدير وان لا يرهق أى وعدم رهقهم (أولئك) أى المتصفون بالصفات السابقة هم (أصحاب الجنة هم فيها خالدون) أى المتنعمون بأنواع نعمها لا يخرجون منها أبدا (والذين كسبوا السيآت جزاء سيئة بمثلها) أى يجازى سيئة واحدة بسيئة واحدة لا يزاد عليها كما يزاد فى الحسنة وهذا أولى مما عداه وفيه سبعة أوجه قررها السمين لا نطول بذكرها والمراد بالسيئة اما الشرك أو المعاصى التى ليست بشرك وهى ما يتلبس به العصاة من المعاصى قال ابن كيسان الباء زائدة والمعنى جزاء سيئة مثلها وقيل جزاء سيئة كائن بمثلها وقيل التقدير فلهم جزاء سيئة وفيه التنبيه على الفرق بين الحسنات والسيآت لان الحسنات يضاعف ثوابها العامل لها من الواحدة الى العشرة الى السبعمائة الى اضعاف كثيرة تفضلا منه سبحانه وتكرما وأما السيآت فانه يجازى فاعلها عليها بمثلها عدلا منه سبحانه (وترهقهم ذلة) أى تغشاهم ذلة أى هوان وخزى وقال ابن عباس ذلة وشدة (مالهم من الله من عاصم) أى لا يعصمهم أحد كائنا من كان من سخط الله وعذابه أو ما لهم من جهة الله ومن عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين والاول أولى (كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما) القطع بفتح الطاء جمع قطعة وباسكانها جزء وهما قراءتان سبعيتان قال ابن السكيت

وقالت يارسول الله فالى أين يضطر مضطرك قال قلت ان مثلي مثل ما قال الاول معزى حملت حتفها حملت شذه ولا أشعر انها كانت لى خصما أعوذ بالله وبرسوله ان أكون كوافد عاد قال لى وما وافد عاد وهو أعلم بالحديث منه ولكن يستطعمه قلت ان عادا قحطوا فبعثوا وافدا لهم يقال له قيل فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهرا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان فلما مضى الشهر خرج الى جبال مهرة فقال اللهم انك تعلم أنى لم أجئ الى مريض فأداويه ولا الى أسير فأفاديه اللهم اسق عادا ما كنت تسقيه فمرت به سحابات سود فنودى منها اختر فأومأ الى سحابة منها سوداء فنودى منها خذها

رمادا أرمدا لا تبقى من عاد أحدا قال فما بعث الله عليهم من الريح الا قدر ما يجرى فى خاتمى هذا حتى هلكوا قال أبو وائل وصدق قال وكانت المرأة والرجل اذا بعثوا وافدا لهم قالوا لا تكن كوافد عاد هكذا رواه الامام احمد فى المسند ورواه الترمذى عن عبد بن حميد عن زيد ابن الحباب به نحوه ورواه النسائى من حديث سلام بن المنذر عن عاصم وهو ابن بهدلة ومن طريقه رواه ابن ماجه أيضا عن ابى وائل عن الحرث بن حسان البكرى به ورواه ابن جرير عن أبى كريب عن زيد ابن حباب به ووقع عنده عن الحرث ابن يزيد البكرى فذكره ورواه أيضا عن أبى كريب عن ابى بكر بن عياش عن عاصم عن الحرث بن حسان البكرى فذكره ولم أره فى النسخة أبا وائل والله أعلم (والى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الارض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الارض مفسدين قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون ان صالحا مرسل من ربه قالوا انا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا انا بالذى آمنتم به كافرون فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين) قال علماء التفسير والنسب ثمود بن عاثر بن ارم بن سام بن نوح وهو أخو جديس بن عاثر وكذلك قبيلة طسم كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل ابراهيم الخليل عليه السلام وكانت ثمود بعد عاد

القطع طائفة من الليل وقيل ظلمة آخر الليل وقال الاخفش سواد الليل والجملة حالية أو مستأنفة أى أغشيت والبست وجوههم قطعا وسوادا من الليل فى حال ظلمته (أولئك) أى الموصوفون بهذه الصفات الذمية (أصحاب النار هم فيها خالدون) اطلاق الخلود هنا مقيد بما تواتر فى السنة من خروج عصاة الموحدين (ويوم نحشرهم جميعا) الحشر الجمع من كل جانب وناحية الى موضع واحد وقال مجاهد الحشر الموت ويوم منصوب على المفعولية بمضمر أى انذرهم يوم نحشرهم لموقف الحساب والجملة مستأنفة لبيان بعض أحوالهم القبيحة والمعنى ان الله سبحانه يحشر العابد والمعبود لسؤالهم يوم القيامة (ثم نقول) فى حالة الحشر ووقت الجمع (للذين أشركوا) تقريعا لهم على رؤس الاشهاد وتوبيخا لهم مع حضور من يشاركهم فى العبادة وحضور معبوداتهم (مكانكم) أى الزموا مكانكم واثبتوا فيه وقفوا فى موضعكم ولا تنفكوا منه ولا تبرحوا عنه حتى تسئلوا وتنظروا ما يفعل بكم ونصب مكانكم على انه فى الاصل ظرف لفعل أقيم مقامه لا على انه اسم فعل وحركته حركة بناء كما هو رأى الفارسى قاله أبو السعود قال الخفاجى وهذا كله تكلف قال الدماميني لا أدرى ما الداعى الى جعل هذا الظرف اسم فعل اما لازموا او اماما متعديا وهلا جعلوه ظرفا على بابه ولم يخرجوه عن أصله أى اثبت مكانك انتهى وفيه بحث والضمير فى قوله (أنتم) تأكيد للضمير الذى فى مكانكم لسده مسد الزموا (وشركاؤكم) عطف عليه وقرئ بالنصب على المفعول معه وفى هذا وعيد وتهديد للعابدين والمعبودين والمراد بالشركاء هنا الملائكة وقيل الشياطين وقيل الاصنام وان الله سبحانه ينطقها فى هذا الوقت وقيل المسيح وعزير والظاهر أنه كل معبود للمشركين كائنا ما كان (فزيلنا) أى فرقنا وقطعنا ما كان (بينهم) من التواصل فى الدنيا يقال زيلته فتزيل أى فرقته فتفرق والمزايلة المفارقة والتزايل التباين قال السيوطى ميزنا بينهم وبين المؤمنين كما فى آية وامتازوا اليوم أيها المجرمون انتهى وفيه مسامحة قال القرطبي هذا التفسير بعيد من سابقه ولاحقه اذ هما فى الكلام على المشركين ومعبوداتهم فالاولى القول الآخر الذى جرى عليه غيره كالبيضاوى والخازن ونص الخطيب بينهم أى بين المشركين وشركائهم وذلك حين يتبرأ كل معبود ممن عبده وهذا أنسب بقوله (وقال

شركاؤهم

ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام الى وادي القرى وما حوله وقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهب الى تبوك في سنة تسع قال الامام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر قال لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا منها القدور فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم فأهراقوا القدور وعلفوا العجين الابل ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال اني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم وقال أحمد أيضا حدثنا عفان حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالحجر لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين الا أن تكونوا باكين فان لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم وأصل هذا الحديث مخرج في الصحيحين من غير وجه وقال الامام أحمد أيضا حدثنا يزيد بن هرون المسعودي عن اسمعيل بن واسط عن محمد بن أبي كبشة الانماري عن أبيه قال لما كان في غزوة تبوك تسارع الناس الى أهل الحجر يدخلون عليهم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنادى في الناس الصلاة جامعة قال فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ممسك بعنزة وهو يقول ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم فناداه رجل منهم نعجب منهم يا رسول الله قال أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وبما هو كائن بعدكم فاستقيموا وسددوا فان الله لا يعبأ بعذابكم شيأ وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيأ لم يخرجه أحد من أصحاب السنن وأبو كبشة اسمه عمر بن سعد ويقال عامر بن سعد والله أعلم وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبي الزبير عن جابر قال لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر قال لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت يعني الناقة ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعقروها وكانت تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يوما فعقروها فأخذتهم صيحة أخمد الله من تحت أديم السماء منهم الا رجلا واحدا كان في حرم الله فقالوا من هو يا رسول الله قال أبو رغال فلما خرج من الحرم اصابه ما أصاب قومه وهذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة وهو على شرط مسلم * قوله تعالى والى ثمود أي ولقد أرسلنا الى قبيلة ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره فجميع الرسل يدعون الى عبادة الله وحده

شركاؤهم) الذين عبدوهم وجعلوهم شركاء لله سبحانه وانما أضاف الشركاء اليهم مع انهم جعلوهم شركاء لله سبحانه لكونهم جعلوا لهم نصيبا من أموالهم فهم شركاؤهم في أموالهم من هذه الحيثية وقيل لكونهم شركاءهم في هذا الخطاب والاضافة لادنى ملابسة (ما كنتم ايانا تعبدون) في الحقيقة ونفس الامر وانما عبدتم هواكم وضلالكم وشياطينكم الذين أغووكم لانها الآمرة لكم بالاشراك على حد قوله قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم الآية وهذا الجحد من الشركاء وان كان مخالفا لما قد وقع من المشركين من عبادتهم فمعناه انكار عبادتهم اياهم عن أمرهم لهم بالعبادة وتقديم المفعول للفاصلة (فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم) ان كنا أمرناكم بعبادتنا أو رضينا ذلك منكم (ان كنا عن عبادتكم لغافلين) القائل لهذا الكلام هم المعبودون قالوا لمن عبدهم من المشركين والمراد بالغفلة هنا عدم الرضا بما فعله المشركون من العبادة لهم أو عدم علمهم بها أو كل من الامرين وفي هذا دليل على ان هؤلاء المعبودين غير الشياطين لانهم يرضون بما فعله المشركون من عبادتهم قال أبو السعود وهذا من كلام الاصنام كما علمت انتهى قلت ويمكن أن يكونوا من الشياطين ويحمل هذا الجحد منهم على انهم لم يجبروهم على عبادتهم ولا أكرهوهم عليها (هنالك) أي في ذلك المكان الدهش أو في ذلك الموقف الدحض أو في ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان (تبلو) أي تختبر وتذوق (كل نفس) مؤمنة كانت أو كافرة سعيدة أو شقية جزاء (ما أسلفت) من العمل وتعاينه بكنهه متبعة لآثاره من نفع أو ضر وخير أو شر فمعنى تبلو تذوق وتختبر وقيل تعلم وقيل تتبع فهو من التلو وهذا على القراءة بالفوقية باسناد الفعل الى كل نفس واما على القراءة بالنون فالمعنى ان الله يبتلي كل نفس ويختبرها وانه يعاملها معاملة من يختبرها ويتفقد أحوالها ويجوز أن يراد يصيب بالبلاء أي العذاب كل نفس عاصية بسبب ما اسلفت من الشر والبلية والبلاء والبلوى واحد والجمع البلايا ومعنى الكل الاختبار اخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يمثل لهم يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دون الله فيتبعونهم حتى يؤديهم النار ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هنالك تبلو الآية وعن ابن زيد قال تعاين كل نفس ما عملت وقرئ من التلاوة أي تقرأ كل نفس

لاشريك له كما قال تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون وقال ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت وقوله قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية أى قد جاءكم حجة من الله على صدق ماجئتكم به وكانوا هم الذين سألوا صالحا أن يأتيهم بآية واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم وهى صخرة منفردة فى ناحية الحجر يقال لها الكاتبة فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله الى سؤالهم وأجابهم الى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم قام صالح عليه السلام الى صلاته ودعا الله عز وجل فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها كما سألوا فعند ذلك آمن رئيسهم جندع بن عمرو ومن كان معه على أمره وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا فصدهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحب أوثانهم ورباب ابن صعمر بن جلهس وكان لجندع بن عمرو ابن عم له شهاب بن خليفة بن محلاة بن لبيد بن جواس وكان من أشراف ثمود وأفاضلها فأراد أن يسلم أيضا فنهاه أولئك الرهط فأطاعهم فقال فى ذلك رجل من مؤمنى ثمود يقال له مهوش بن عثمة بن الزميل رحمه الله

وكانت عصبة من آل عمرو
الى دين النبى دعوا شهابا
عزيز ثمود كلهم جميعا
فهم بأن يجيب فلو أجابا
لأصبح صالح فينا عزيزا
وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا
ولكن الغواة من آل حجر
تولوا بعد رشدهم ذبابا

وأقامت الناقة وفصيلها بعد ما وضعته بين أظهرهم مدة تشرب من بئرها يوما وتدعه لهم يوما وكانوا يشربون لبنها يوم شربها يحتلبونها فيملؤن ما شاؤا من أوعيتهم وأوانيهم كما قال فى الآية الاخرى ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر وقال تعالى هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم وكانت تسرح فى بعض تلك الاودية ترد من فج وتصدر من غيره ليسعها لانها كانت تتضلع من الماء وكانت على ما ذكر خلقا هائلا ومنظرا رائعا اذا مرت بأنعامهم نفرت منها فلما طال عليهم ذلك واشتد تكذيبهم لصالح النبى عليه السلام عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم فيقال انهم اتفقوا كلهم على قتلها قال قتادة بلغنى أن الذى قتلها طاف عليهم كلهم انهم راضون بقتلها حتى على النساء فى خدورهن وعلى الصبيان قلت وهذا هو الظاهر لقوله تعالى فكذبوه

صحيفة عملها من خير أو شر (وردوا) أى الذين أشركوا (الى الله) أى الى جزائه وما أعد لهم من عقابه والرد عبارة عن صرف الشئ الى الموضع الذى جاء منه (مولاهم) ربهم ومالكهم (الحق) صفة له أى الصادق الربوبية دون ما اتخذوه من المعبودات الباطلة وقرئ بالنصب على المدح كقولهم الحمد لله أهل الحمد (وضل عنهم) أى ضاع وبطل وذهب فى الموقف (ما كانوا يفترون) عليه من أن الآلهة التى لهم حقيقة بالعبادة تشفع لهم الى الله وتقربهم اليه والحاصل أن هؤلاء المشركين يرجعون فى ذلك المقام الى الحق ويعترفون به ويقرون ببطلان ما كانوا يعبدونه ويجعلونه الها ولكن حين لا ينفعهم ذلك وعن السدى قال نسخها قوله بأن الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لا مولى لهم ثم لما بين الله سبحانه فضائح المشركين اتبعها بايراد الحجج الدامغة من أحوال الرزق والحواس والموت والحياة والابتداء والاعادة والارشاد والهدى وبنى سبحانه الحجج على الاستفهام وتفويض الجواب الى المسؤلين ليكون أبلغ فى الزام الحجة وأوقع فى النفوس فقال (قل) يا محمد للمشركين احتجاجا لحقية التوحيد وبطلان ما هم عليه من الشرك وهذه أسئلة ثمانية جواب الخمسة الاولى منها منهم وجواب الاثنين بعدها منه صلى الله عليه وآله وسلم بتعليم الله اياه لعدم قدرتهم عليه وجواب الاخير لم يذكر لشهرته والعلم به (من يرزقكم من السماء) بالمطر (والارض) بالنبات والمعادن فان الارزاق تحصل بأسباب سماوية ومواد أرضية أو من كل واحدة منهما توسعة عليكم ومن لابتداء الغاية فان اعترفوا حصل المطلوب وان لم يعترفوا فان الله هو الذى خلقهما فقل (أم من يملك السمع والابصار) أم هى المنقطعة بمعنى بل وفى هذا اضراب انتقال من سؤال الى سؤال على القاعدة المقررة فى القرآن لا اضراب ابطال أى من يستطيع خلقهما وتسويتهما أو من يحفظهما من الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالهما من أدنى شئ وحقيقة الملك معروفة ويلزمها الاستطاعة لان المالك لشئ يستطيع التصرف فيه والحفظ له والحماية ولذلك تجوز به عن كل منهما وخصهما بالذكر لما فيهما من الصنعة العجيبة والخلقة الغريبة حتى ينتفعوا بهما هذا الانتفاع العظيم ويحصلون بهما من الفوائد ما لا يدخل تحت حصر الحاصرين ثم انتقل الى حجة ثالثة فقال (ومن يخرج الحى من الميت) أى الانسان من النطفة والطير من البيضة والنبات من الحبة أو المؤمن من الكافر والاول أقرب الى الحقيقة

(ويخرج الميت من الحي) أي النطفة من الانسان أو الكافر من المؤمن أو البيضة من الطائر الحي والمراد بهذا الاستفهام عمن يحيي ويميت وهذه حجة رابعة ثم انتقل الى حجة خامسة فقال (ومن يدبر الامر) بين الخلائق أي يقدره ويقضيه وهذا من عطف العام على الخاص لانه قد عم ما تقدم وغيره (فسيقولون الله) أي سيكون قولهم في جواب هذه الاستفهامات الخمس أن الفاعل لهذه الامور هو الله سبحانه ان انصفوا وعملوا على ما يوجبه الفكر الصحيح والعقل السليم والمعنى الله يفعل ذلك (فقل) أمره أن يقول لهم ذلك وعظا وتذكيرا بعد أن يجيبوا بهذا الجواب (أفلا تتقون) الاستفهام للانكار والفاء للعطف على مقدر أي تعلمون ذلك أفلا تتقون وتفعلون ما يوجبه هذا العلم من تقوى الله الذي يفعل هذه الافعال وتعبدون هذه الاموات والاصنام التي لا تقدر على شيء من هذه الامور بل ولا تعلم به وفي البيضاوي أفلا تتقون عقابه باشراككم اياه ما لا يشاركه في شيء من ذلك (فذلكم) الذي يفعل هذه الافعال (الله) وهو (ربكم) المتصف بانه (الحق) لا ما جعلتموهم شركاء له من الموتى والاصنام والاستفهام في قوله (فماذا بعد الحق الا الضلال) للتقريع والتوبيخ ان كانت ما استفهامية لا ان كانت نافية كما يحتمله الكلام والمعنى أي شيء بعد الحق الا الضلال فان ثبوت ربوبية الرب سبحانه حق باقرارهم وكان غيره باطلا لان واجب الوجود يجب أن يكون واحدا في ذاته وصفاته (فأنى تصرفون). أي كيف تستجيزون العدول عن الحق الظاهر وتقعون في الضلال اذ لا واسطة بينهما فمن تخطى أحدهما وقع في الآخر والاستفهام للانكار والاستبعاد والتعجب (كذلك) أي كما ثبت ان الحق ليس بعده الا الضلال أو كما حق انهم مصروفون عن الحق كذلك (حقت كلمة ربك) أي حق حكمه وقضاؤه (على الذين فسقوا) خرجوا من الحق الى الباطل وتمردوا في كفرهم عنادا ومكابرة قال الزمخشري أي مثل ذلك الحق حقت وقال الزجاج أي حقت عليهم هذه الكلمة ووجبت وهي (انهم لا يؤمنون) أي عدم ايمانهم بدل كل من كل أو المعنى لانهم لا يؤمنون فيكون تعليلا لحقيتها عليهم (قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده) أورد سبحانه في هذا حجة سادسة على المشركين وأمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يقولها لهم وهم وان كانوا لا يعترفون

فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها وقال وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وقال فعقروا الناقة فأسند ذلك الى مجموع القبيلة فدل على رضى جميعهم بذلك والله أعلم وذكر الامام أبو جعفر بن جرير وغيره من علماء التفسير ان سبب قتلها ان امرأة منهم يقال لها عنيزة ابنة غنم بن مجلز وتكنى أم عثمان كانت عجوزا كافرة وكانت من أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام وكانت لها بنات حسان ومال جزيل وكان زوجها ذؤاب بن عمرو أحد رؤساء ثمود وامرأة أخرى يقال لها صدقة بنت المحيا بن زهير بن المختار ذات حسب ومال وجمال وكانت تحت رجل مسلم من ثمود ففارقته فكانتا تجعلان لمن التزم لهما بقتل الناقة فدعت صدقة رجلا يقال له الحباب فعرضت عليه نفسها ان هو عقر الناقة فأبى عليها فدعت ابن عم لها يقال له مصدع بن مهرج ابن المحيا فأجابها الى ذلك ودعت عنيزة بنت غنم فأجابها ودعت العجوز قدار بن سالف بن جندع وكان رجلا أحمر قصيرا أزرق يزعمون انه ولد زنية وانه لم يكن من أبيه الذي ينسب اليه سالف وانما هو من رجل يقال له صيبان ولكن ولد على فراش سالف وقالت له أعطيك اي بناتي شئت على أن تعقر الناقة فعند ذلك انطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهرج فاستغويا غواة من ثمود فاتبعهما سبعة نفر فصاروا تسعة رهط وهم الذين قال الله تعالى وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الارض ولا يصلحون وكانوا رؤساء في قومهم فاستمالوا القبيلة الكافرة بكمالها فطاوعتهم على ذلك فانطلقوا فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء وقد كمن لها قدار بن سالف في أصل صخرة على طريقها وكمن لها مصدع في أصل أخرى فمرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها وخرجت أم غنم عنيزة وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس وجها فسفرت عن وجهها لقدار وزمرته وشد عليها قدار بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرت ساقطة الى الارض ورغت رغاة واحدة تحذر سقبها ثم طعن في لبتها فنحرها وانطلق سقبها وهو فصيلها حتى أتى جبلا منيعا فصعد أعلى صخرة فيه ورغا فروى عبد الرزاق عن معمر عمن سمع الحسن البصري انه قال يارب أين أمي ويقال انه رغا ثلاث مرات وانه دخل في صخرة فغاب فيها ويقال انهم اتبعوه فعقروه مع أمه فالله أعلم فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة وبلغ الخبر صالحا عليه السلام فجاءهم وهم مجتمعون فلما رأى الناقة بكى وقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام الآية وكان قتلهم

الناقة يوم الاربعاء فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح وقالوا ان كان صادقا عجلناه قبلنا وان كان كاذبا ألحقناه بناقته فقتاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك أهله وانا لصادقون ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم الآية فلما عزموا على ذلك وتواطؤا عليه وجاؤا من الليل ليفتكوا بنبي الله فأرسل الله سبحانه وتعالى وله العزة ولرسوله عليهم حجارة فرضختهم سلفا وتعجيلا قبل قومهم وأصبح ثمود يوم الخميس وهو اليوم الاول من أيام النظرة ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح عليه السلام وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة ووجوههم محمرة وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة فلما أصبحوا من يوم الاحد وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه عياذا بالله من ذلك لا يدرون ماذا يفعل بهم ولا كيف يأتيهم العذاب وأشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت الارواح وزهقت النفوس في ساعة واحدة فأصبحوا في ديارهم جاثمين أي صرعى لا أرواح فيهم ولم يفلت منهم أحد لا صغير ولا كبير ولا ذكر ولا أنثى قالوا الا جارية كانت مقعدة واسمها كلب ابنة السلق ويقال لها الزريقة وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه السلام فلما رأت ما رأت من العذاب أطلقت رجلاها فقامت تسعى كأسرع شيء فأتت حيا من الاحياء فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها ثم استسقتهم من الماء فلما شربت ماتت قال علماء التفسير ولم يبق من ذرية ثمود أحد سوى صالح عليه السلام ومن تبعه رضي الله عنهم الا ان رجلا يقال له أبو رغال كان لما وقعت النقمة بقومه مقيما اذ ذاك في الحرم فلم يصبه شيء فلما خرج في بعض الايام الى الحل جاءه حجر من السماء فقتله وقد تقدم في أول القصة حديث جابر بن عبد الله في ذلك وذكروا أن أبا رغال هذا هو والد ثقيف الذين كانوا يسكنون الطائف قال عبد الرزاق عن معمر أخبرني اسمعيل بن أمية أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقبر أبي رغال فقال أتدرون من هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا قبر أبي رغال رجل من ثمود كان في حرم الله فمنعه حرم الله عذاب الله فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن ههنا ودفن معه غصن من ذهب

بالمعاد لكنه لما كان أمرا ظاهرا بينا وقد أقام الادلة عليه في هذه السورة على صورة لا يمكن دفعها عند من أنصف ولم يكابر كان كالمسلم عندهم الذي لا جحد له ولا انكار فيه والمعنى هل من هذه الاصنام والاموات التي تزعمون انها آلهة من يقدر على أن ينشئ الخلق من العدم على غير مثال سبق ثم يعيده بعد الموت في القيامة كهيئته أول مرة للجزاء وهذا السؤال استفهام انكار واتمام يعطف على ما قبله لا اذا انا باستقلاله في اثبات المطلوب وعبارة أبي السعود هذا احتجاج آخر على حقية التوحيد وبطلان الاشراك باظهار كون شركائهم بمعزل عن استحقاق الالوهية ببيان اختصاص خواصها من بدء الخلق واعادته به تعالى اه والحاصل انه لا يقال ان الكفار ينكرون الاعادة والبعث فكيف يحتج عليهم بها لان الزام الخصم كما يصح بما يعترف به يصح أيضا بما ثبت وثبتت حقيته لقوة برهانه فلهذا جعل الاعادة كالبدء في الالزام بها لظهور برهانها وان لم يعترفوا بها ولذلك أمر الرسول ان ينوب عنهم في الجواب كما قال سبحانه (قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده) أي هو الذي يفعل ذلك لا غيره وهذا القول الذي قاله النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن أمر الله سبحانه له نيابة عن المشركين في الجواب كما تقدم اما على طريق التلقين لهم وتعريفهم كيف يجيبون وارشادهم الى ما يقولون واما لكون هذا المعنى قد بلغ في الوضوح الى غاية لا يحتاج معها الى اقرار الخصم ومعرفة ما لديه واما لكون المشركين لا ينطقون بما هو الصواب في هذا الجواب فرارا منهم عن ان تلزمهم الحجة أو ان يسجل عليهم بالمكابرة ان حادوا عن الحق (فأنى تؤفكون) أي فكيف تصرفون عن الحق وتنقلبون منه الى غيره والمراد التعجب من أحوالهم ثم أمره الله سبحانه ان يورد عليهم حجة سابعة فقال (قل هل من شركائكم) الاستفهام ههنا كالاستفهامات السابقة (من يهدي الى الحق) الاستدلال بالهداية بعد الاستدلال بالخلق وقع كثيرا في القرآن كقوله الذي خلقني فهو يهدين وقوله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وقوله الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى وفعل الهداية يجيء متعديا باللام والى وهما بمعنى واحد روى ذلك عن الزجاج وقيل كما يعدى بالى لتضمنه معنى الانتهاء يعدى باللام للدلالة على ان المنتهى غاية الهداية والمعنى متقارب وقد يحذف الحرف تخفيفا وقد جمع بين التعديتين هنا بحرف الجر فعدى الاول والثالث بالى والثاني باللام والتعدية بهذين الحرفين من باب التفنن في

فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن وقال عبد الرزاق قال معمر قال الزهري أبو رغال أبو ثقيف هذا مرسل من هذا الوجه وقد روي متصلا من وجه آخر كما قال محمد عن أبي اسحق عن اسمعيل بن أمية عن بجير بن أبي بجير قال سمعت عبد الله بن عمرو يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حين خرجنا معه الى الطائف فمررنا بقبر فقال هذا قبر أبي رغال وهو أبو ثقيف وكان من ثمود وكان بهذا الحرم فدفع عنه فلما خرج أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه وآية ذلك انه دفن معه غصن من ذهب ان أنتم (٢١٧) نبشتم عنه أصبتموه فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن وهكذا رواه أبو داود عن يحيى بن معين عن وهب بن جرير ابن حازم عن أبيه عن أبي اسحق قال شيخنا أبو الحجاج المزي وهو حديث حسن عزيز (قلت) تفرد بوصله بجير ابن أبي بجير هذا وهو شيخ لا يعرف الا بهذا الحديث قال يحيى بن معين ولم أسمع أحدا روى عنه غير اسمعيل ابن أمية (قلت) وعلى هذا فيخشى أن يكون وهم في رفع هذا الحديث وانما يكون من كلام عبد الله بن عمرو مما أخذه من الزاملتين قال شيخنا أبو الحجاج بعد ان عرضت عليه ذلك وهذا محتمل والله أعلم (فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) هذا تقريع من صالح عليه السلام لقومه لما أهلكهم الله بمخالفتهم اياه وتمردهم على الله وابائهم عن قبول الحق واعراضهم عن الهدى الى العمى قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريعا وتوبيخا وهم يسمعون ذلك كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ظهر على أهل بدر أقام هناك ثلاثا ثم أمر براحلته فشدت بعد ثلاث من آخر الليل فركبها ثم سار حتى وقف على القليب قليب بدر فجعل يقول يا أبا جهل بن هشام يا عتبة بن ربيعة يا شيبة بن ربيعة ويا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعد ربكم حقا فاني وجدت ما وعدني ربي حقا فقال له عمر يا رسول الله ما تكلم من أقوام قد جيفوا فقال والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون وفي السيرة أنه عليه السلام قال بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم كذبتموني وصدقني الناس وأخرجتموني وآواني الناس وقاتلتموني ونصرني الناس فبئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم وهكذا صالح عليه السلام قال لقومه

البلاغة ولذلك قال الزمخشري هداه للحق والى الحق فجمع بين اللغتين والمراد بالحق في المواضع الثلاثة ضد الباطل ولما كانوا جاهلين بالجواب الحق في ذلك أو معاندين أمر الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ان يجيب بقوله (قل) لهم (الله) الذي له الاحاطة الكاملة (يهدي للحق) من يشاء دون غيره ممن زعمتم وهم شركاء ودليل ذلك ما تقدم من الادلة الدالة على اختصاصه سبحانه بهذا وهداية الله سبحانه لعباده الى الحق هي بما نصبه لهم من الآيات في المخلوقات وارساله للرسل وانزاله للكتب وخلقه لما يتوصل به العباد الى ذلك من العقول والافهام والاسماع والابصار والاستفهام في قوله (أفمن) للتقرير والزام الحجة والفاء لترتيبه على ما سبق وهو برهان ثامن لم يذكر جوابه في الآية والمعنى أفمن (يهدي) الناس (الى الحق) وهو الله سبحانه (أحق أن يتبع) ويقتدى (أم من لا يهدي) أي أم الاحق بأن يتبع ويقتدى به من لا يهتدي بنفسه (الا أن يهدى) الاستثناء مفرغ من أعم الاحوال أي لا يهتدي في حال من الاحوال الا في حال هدى الغير اياه وكان مقتضى المقابلة ان يقال أم من لا يهدي وانما خولف اشارة الى أنه اذا لم يهتد بنفسه لا يهدي غيره وقال النحاس الاستثناء منقطع كما تقول فلان لا يسمع غيره الا ان يسمع أي لكنه يحتاج أن يسمع فعنى الا أن يهدى أي لكنه يحتاج أن يهدى (فما لكم كيف تحكمون) هذا تعجيب من حالهم باستفهامين متواليين أي أي شيء ثبت لكم في هذه الحالة فهذا جملة مستقلة وكيف تحكمون أي باتخاذ هؤلاء شركاء لله وهي جملة أخرى مستقلة وكلا الاستفهامين للتقريع والتوبيخ ثم بين سبحانه ما هؤلاء عليه في أمر دينهم وعلى أي شيء بنوه وبأي شيء اتبعوا هذا الدين الباطل وهو الشرك فقال (وما يتبع أكثرهم الا ظنا) هذا كلام مبتدأ غير داخل في الاوامر السابقة والمعنى ما يتبع هؤلاء المشركون في اشراكهم بالله وجعلهم له أندادا الا مجرد الظن والتخمين والحدس ولم يكن ذلك عن بصيرة والتفات الى فرد من أفراد العلم فضلا عن ان يسلكوا مسالك الادلة الصحيحة الهادية الى الحق المبنية على المقدمات اليقينية الصادقة فيفهموا مضمونها ويقفوا على مقتضاها وبطلان ما يخالفها بل ظن من ظن من سلفهم ان هذه المعبودات تقربهم الى الله وانها تشفع لهم ولم يكن ظنه هذا مستندا قط بل مجرد خيال مختل وحدس باطل فقلدوا فيه آباءهم ولعل تنكير الظن هنا للتحقير أي الا ظنا ضعيفا واهيا لا يستند الى

لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم أي فلم تنتفعوا بذلك لانكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحا ولهذا قال ولكن لا تحبون الناصحين وقد ذكر بعض المفسرين أن كل نبي هلكت أمته كان يذهب فيقيم في الحرم حرم مكة والله أعلم وقد قال الامام أحمد حدثنا وكيع حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بوادي عسفان حين حج قال يا أبا بكر أي واد هذا قال هذا وادي عسفان قال لقد مر به هود وصالح عليهما السلام على بكرات خطمهن الليف أزرهم العباء وأرديتهم النمار يلبون يحجون البيت العتيق هذا حديث غريب من هذا الوجه لم يخرجه أحد منهم (ولوطا اذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون) يقول تعالى ولقد أرسلنا لوطا أو تقديره واذكر لوطا اذ قال لقومه ولوط هو ابن هاران بن آزر وهو ابن أخي ابراهيم الخليل عليهما السلام وكان قد آمن مع ابراهيم عليه السلام وهاجر معه الى أرض الشام فبعثه الله الى أهل سدوم وما حولها من القرى يدعوهم الى الله عز وجل ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم وهو اتيان الذكور وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ولا يخطر ببالهم حتى صنعه أهل سدوم عليهم لعائن الله قال عمرو ابن دينار في قوله ماسبقكم بها من أحد من العالمين قال ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط وقال الوليد ابن عبد الملك الخليفة الاموي باني جامع دمشق لولا أن الله عز وجل قص علينا خبر قوم لوط ما ظننت أن ذكرا يعلو ذكرا ولهذا قال لهم لوط عليه السلام أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء أي عدلتم عن النساء وما خلق لكم ربكم منهن الى الرجال وهذا اسراف منكم وجهل لانه وضع الشيء في غير محله ولهذا قال لهم في الآية الاخرى قال هؤلاء بناتي ان كنتم فاعلين فأرشدهم الى نسائهم فاعتذروا اليه بأنهم لا يشتهونهن قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وانك لتعلم ما نريد أي لقد علمت انه لا أرب لنا في النساء ولا ارادة وانك لتعلم مرادنا من أضيافك وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض وكذلك وهو

ما تستند اليه سائر الظنون وقيل المراد بالآية انه ما يتبع أكثرهم في الايمان بالله والاقرار به الا ظنا والاول أولى وقيل المراد بالاكثر الكل لان جميعهم يتبعون الظن في دعواهم ان الاصنام تشفع لهم قال الكرخي وفيه دليل على ان تحصيل العلم في الاصول واجب والاكتفاء بالتقليد والظن غير جائز وقيل المراد بالاكثر الرؤساء ثم أخبرنا الله سبحانه (ان الظن لا يغني من الحق شيأ) لان أمر الدين انما يبنى على العلم وبه يتضح الحق من الباطل والظن لا يقوم مقام العلم ولا يدرك به الحق ولا يغني عن الحق في شيء من الاشياء والجملة مستأنفة لبيان شأن الظن وبطلانه ومن بمعنى عن والحق بمعنى العلم (ان الله عليم بما يفعلون) من الافعال القبيحة الصادرة لا عن برهان فيندرج تحتها ما حكى عنهم من الاعراض عن البراهين القاطعة والاتباع للظنون الفاسدة اندراجا أوليا (وما كان هذا القرآن أن يفترى) قيل ان بمعنى اللام أي ليفترى وقيل بمعنى لا أي لا يفترى لما فرغ سبحانه من دلائل التوحيد وحججه شرع في تثبيت أمر النبوة أي وما صح وما استقام أن يكون هذا القرآن المشتمل على الحجج البينة والبراهين الواضحة مفترى من الخلق (من دون الله) وانما هو من عند الله عز وجل وكيف يصح أن يكون مفترى على سبيل الانتحال والاختلاق وقد عجز عن الاتيان بسورة منه القوم الذين هم أفصح العرب لسانا وأدقهم اذهانا قال الفراء ومعنى الآية وما ينبغي لهذا القرآن ان يفترى كقوله وما كان لنبي ان يغل وما كان المؤمنون لينفروا كافة يعني ليس وصف القرآن وصف شيء يمكن ان يفترى به على الله لان المفترى هو الذي يأتي به البشر وانه مبرأ عن الافتراء والكذب (ولكن) كان هذا القرآن ووقعت لكن هنا أحسن موقع اذ هي بين نقيضين وهما الكذب والصدق المتضمن للتصديق وفيه أوجه أحدها العطف على خبر كان الثاني أنه خبر لكان مضمرة وتقدم تقديره والمذهب الكسائي والفراء وابن سعدان والزجاج وهذا كالذي قبله في المعنى الثالث تقديره وما كان هذا القرآن أن يفترى ولكن أنزل للتصديق والرابع تقديره ولكن يصدق الذي قاله السمين (تصديق الذي بين يديه) أي أمامه من الكتب الالهية المنزلة على الانبياء قبله التي تقدمت بشرت به قبل نزوله فجاء مصدقا لها ونفس هذا التصديق معجزة مستقلة لان أقاصيصه موافقة لما في الكتب المتقدمة مع ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يطلع على ذلك ولا تعلمه ولا سأل عنه ولا اتصل بمن له علم بذلك وقيل المعنى ولكن تصديق النبي الذي بين يدي القرآن

نساؤهم قد استغنى بعضهن ببعض أيضا (وما كان جواب ... ان قالوا أخرجوهم من قريتكم انهم أناس يتطهرون) اى ما أجابوا لوطا الا أن هموا باخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم فأخرجه الله تعالى سالما وأهلكهم فى أرضهم صاغرين مهانين وقوله تعالى انهم أناس يتطهرون قال قتادة عابوهم بغير عيب وقال مجاهد انهم أناس يتطهرون من أدبار الرجال وادبار النساء وروى مثله عن ابن عباس أيضا (فأنجيناه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) يقول تعالى فأنجينا لوطا وأهله ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط كما قال تعالى فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين الا امرأته فانها لم تؤمن به بل كانت على دين قومها تمالئهم عليه وتعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه باشارات بينها وبينهم ولهذا لما أمر لوط عليه السلام ليسرى بأهله امر أن لا يعلمها ولا يخرجها من البلد ومنهم من يقول بل اتبعتهم فلما جاء العذاب التفتت هى فأصابها ما أصابهم والاظهر أنها لم تخرج من البلد ولا أعلمها لوط بل بقيت معهم ولهذا قال ههنا الا امرأته كانت من الغابرين أى الباقين وقيل من الهالكين وهو تفسير باللازم وقوله وأمطرنا عليهم مطرا مفسر بقوله وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ولهذا قال فانظر كيف كان عاقبة المجرمين أى انظر يا محمد كيف كان عاقبة من يجترئ على معاصى الله عز وجل ويكذب رسله وقد ذهب الامام أبو حنيفة رحمه الله الى أن اللائط يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط وذهب آخرون من العلماء الى انه يرجم سواء كان محصنا أو غير محصن وهو أحد قولى الشافعى رحمه الله والحجة ما رواه الامام احمد وابو داود والترمذى وابن ماجه من حديث الدراوردى عن عمرو بن ابى عمرو عن عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به وقال آخرون هو كالزانى فان كان محصنا رجم وان لم يكن محصنا جلد مائة جلدة وهو القول الآخر للشافعى واما اتيان النساء فى الادبار فهو اللوطية الصغرى وهو حرام باجماع العلماء الا قولا شاذا لبعض السلف وقد ورد فى النهى عنه أحاديث كثيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تقدم الكلام عليها فى سورة البقرة (والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم

وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم لانهم شاهدوه وقبل أن يسمعوا منه القرآن (وتفصيل الكتاب) التفصيل التبيين أى يبين ما فى كتب الله المتقدمة والالف واللام فى الكتاب للجنس وقيل أراد ما بين فى القرآن من الاحكام فيكون المراد بالكتاب القرآن وقيل اللوح المحفوظ (لاريب فيه) الضمير عائد الى القرآن وهو داخل فى حكم الاستدراك وهو خبر ثالث أو حال من الكتاب أى منتفيا عنه الريب أو مستأنف أو معترض بين تصديق و بين (من رب العالمين) أى كائن منه خبر رابع أو حال ثانية أو متعلق بتصديق أو بتفصيل أو التقدير أنزل للتصديق من رب العالمين (أم يقولون افتراه) الاستفهام للانكار عليهم مع تقرير ثبوت الحجة وأم هى المنقطعة التى بمعنى بل والهمزة أى بل أيقولون افتراه واختلقه وقال أبو عبيدة أم بمعنى الواو أى ويقولون وقيل الميم زائدة أى أيقولون والاستفهام للتقريع والتوبيخ والانكار والاستبعاد أى هذا القول منهم فى غاية البعد والشناعة وقيل التقدير أيقرون به أم يقولون ثم أمره الله سبحانه ان يتحداهم حتى يظهر عجزهم ويتبين ضعفهم فقال (قل) تبكيتا لهم واظهارا لبطلان مقالتهم الفاسدة (فأتوا) أى ان كان الامر كما تزعمون من أن محمدا افتراه فأتوا أنتم على جهة الافتراء (بسورة مثله) فى البلاغة وجودة الصناعة فأنتم مثله فى معرفة لغة العرب وفصاحة الالسن وحسن النظم وبلاغة الكلام والمراد مثل هذه السورة لانها أقرب ما يمكن أن يشار اليه هكذا قال الرازى وهى مكية والاولى التناول لجميع السور فانهم لا يقدرون ان يأتوا بأقصر سورة (وادعوا) بمظاهريكم ومعاونيكم (من استطعتم) دعاءه والاستعانة به من قبائل العرب ومن آلهتكم التى تجعلونها شركاء لله (من دون الله) أى من سوى الله من خلقه (ان كنتم صادقين) فى دعواكم أن هذا القرآن مفترى فان ذلك مستلزم لامكان الاتيان بمثله وهو أيضا مستلزم لقدرتكم عليه وسبحان الله العظيم ما أقوى هذه الحجة وأوضحها وأظهرها للعقول فانهم لما نسبوا الافتراء الى واحد منهم فى البشرية والعربية قال لهم هذا الذى نسبتموه الى وأنا واحد منكم ليس عليكم الا أن تأتوا وأنتم الجمع الجم بسورة مماثلة لسورة من سوره واستعينوا بمن شئتم من أهل هذا اللسان العربية على كثرتكم وتباين مساكنهم أو من غيرهم من بنى آدم ومن الجن أو من الاصنام فان فعلتم هذا بعد التباوالتى فأنتم صادقون فيما نسبتموه الى وألصقتموه بى فلم يأتوا عند سماع هذا الكلام

فاوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين) قال محمد بن اسحق هم من سلالة مدين بن ابراهيم وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر قال واسمه بالسريانية بيرون (قلت) مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهي التي بقرب معان من طريق الحجاز قال الله تعالى ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون وهم أصحاب الايكة كما سنذكره ان شاء الله وبه الثقة قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره هذه دعوة الرسل كلهم قد جاءتكم بينة من ربكم أي قد أقام الله الحجج (٢٢٠) والبينات على صدق ما جئتكم به ثم وعظهم في معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان ولا يبخسوا الناس أشياءهم أي لا يخونوا الناس في أموالهم ويأخذوها على وجه البخس وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليسا كما قال تعالى ويل للمطففين الى قوله لرب العالمين وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد نسأل الله العافية منه ثم قال تعالى اخبارا عن شعيب الذي يقال له خطيب الانبياء لفصاحة عبارته وجزالة موعظته (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين وان كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين) ينهاهم شعيب عليه السلام عن قطع الطريق الحسي والمعنوي بقوله ولا تقعدوا بكل صراط توعدون أي توعدون الناس بالقتل ان لم يعطوكم أموالهم قال السدي وغيره كانوا عشارين وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد لا تقعدوا بكل صراط توعدون أي توعدون المؤمنين الآتين الى شعيب ليتبعوه والاول والمعنى أظهر لانه قال بكل صراط وهو الطريق وهذا الثاني هو قوله وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا أي تودون ان تكون سبيل الله عوجا مائلة واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم أي كنتم مستضعفين لقلتكم فصرتم أعزة لكثرة عددكم فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين أي من الامم الخالية والقرون الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصي الله وتكذيب رسله وقوله وان كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا أي قد اختلفتم

المنصف والتنزل البالغ بكلمة ولا نطقوا ببنت شفة بل كاعوا عن الجواب وتشبثوا باذيال العناد البارد والمكابرة المجردة عن الحجة وذلك مما لا يعجز عنه مبطل ومراتب تحدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالقرآن أربعة أولها انه تحداهم بكل القرآن كما قال تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن ثانيها انه تحداهم بعشر سور فقال تعالى قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ثالثها أنه تحداهم بسورة واحدة كما قال تعالى فأتوا بسورة مثله رابعها انه تحداهم بحديث مثله كما قال تعالى فليأتوا بحديث مثله فهذا مجموع الدلائل التي ذكرها الله في اثبات ان القرآن معجز ثم ان الله تعالى ذكر السبب الذي لاجله كذبوا بالقرآن وأتى به عقب هذا التحدي البالغ فقال (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) فاضرب عن الكلام الاول وانتقل الى بيان انهم سارعوا الى تكذيب القرآن قبل ان يتدبروه ويفهموا معانيه وما اشتمل عليه وهكذا صنع من تصلب في التقليد ولم يبال بما جاء به من دعا الى الحق وتمسك بذيول الانصاف بل يرده بمجرد كونه لم يوافق هواه ولا جاء على طبق دعواه قبل أن يعرف معناه ويعلم مبناه كما تراه عيانا وتعلمه وجدانا والحاصل ان من كذب بالحجة النيرة والبرهان الواضح قبل أن يحيط بعلمه فهو لم يتمسك بشئ في هذا التكذيب الا بجرد كونه جاهلا انما كذب به غير عالم به فكان بهذا التكذيب مناديا على نفسه بالجهل بأعلى صوت ومسجلا بقصوره عن تعقل الحجج بأبلغ تسجيل وليس على الحجة ولا على من جاء بها من تكذيبه شئ

ما يبلغ الاعداء من جاهل * ما يبلغ الجاهل من نفسه

(ولما يأتهم تأويله) أي بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولم يأتهم تأويله أي كذبوا به حال كونهم لم يفهموا تأويل ما كذبوا به ولا بلغته عقولهم ولا وصلت اذهانهم معانيه الرائقة المنبئة عن علو شأنه والمعنى أن التكذيب وقع منهم قبل الاحاطة بعلمه وقبل أن يعرفوا ما يؤول اليه من صدق ما اشتمل عليه من حكاية ما سلف من أخبار الرسل المتقدمين والامم السابقين ومن حكايات ما سيحدث من الامور المستقبلة التي أخبر عنها قبل كونها أو قبل أن يفهموه حق الفهم وتتعقله عقولهم فانهم لو تدبروه كل التدبر لفهموه كما ينبغي وعرفوا ما اشتمل عليه من الامور الدالة أبلغ دلالة على أنه كلام الله وعلى هذا فمعنى تأويله ما يؤول اليه لمن تدبره من المعاني الرشيقة واللطائف الانيقة وكلمة التوقع أظهر في المعنى الاول

علىّ فاصبروا أى انتظروا حتى يحكم الله بيننا وبينكم أى يفصل وهو خير الحاكمين فانه سيجعل العاقبة للمتقين والدمار على الكافرين
(قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا قال أولو كنا كارهين قد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا الله منها وما يكون لنا ان نعود فيها الا ان يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شئ علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) هذا خبر من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبيه شعيبا ومن معه من المؤمنين فى توعدهم اياه ومن معه من المؤمنين بالنفى عن القرية أو الاكراه على الرجوع فى ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه وهذا خطاب مع الرسول والمراد اتباعه الذين كانوا معه على الملة وقوله أولو كنا كارهين يقول أو أنتم فاعلو ذلك ولو كنا كارهين ما تدعونا اليه فانا ان رجعنا الى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه فقد أعظمنا الفرية على الله فى جعل الشركاء معه أندادا وهذا تنفير منه عن اتباعهم وما يكون لنا ان نعود فيها الا أن يشاء الله ربنا وهذا رد الى الله مستقيم فانه يعلم كل شئ وقد أحاط بكل شئ علما على الله توكلنا أى فى أمورنا ما نأتى منها وما نذر ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق أى احكم بيننا وبين قومنا وانصرنا عليهم وأنت خير الفاتحين أى خير الحاكمين فانك العادل الذى لا يجور أبدا (وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا انكم اذا لخاسرون فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين) يخبر تعالى عن شدة كفرهم وتمردهم وعتوهم وما هم فيه من الضلال وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق ولهذا أقسموا وقالوا لئن اتبعتم شعيبا انكم اذا لخاسرون فلهذا عقبه بقوله فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين أخبر تعالى هنا انهم أخذتهم الرجفة كما أرجفوا شعيبا وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء كما أخبر عنهم فى سورة هود فقال ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين والمناسبة هنالك والله أعلم انهم لما تهكموا به فى قولهم أصلاتك تأمرك الآية فجاءت الصيحة فأسكتتهم وقال تعالى اخبارا عنهم فى الشعراء فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة انه كان عذاب يوم عظيم وما ذاك الا انهم قالوا له فى سياق القصة فأسقط علينا كسفا من

والمعنى ان القرآن معجز من جهة النظم ومن جهة المعنى من حيث الاخبار بالغيب (كذلك) أى مثل ذلك التكذيب (كذب الذين من قبلهم) من الأمم عند ان جاءتهم الرسل بحجج الله وبراهينه فانهم كذبوا به قبل أن يحيطوا بعلمه وقبل أن يأتيهم تأويله (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) من الأمم السالفة من سوء العاقبة بالخسف والمسخ ونحو ذلك من العقوبات التى حلت بهم كما حكى ذلك القرآن عنهم واشتملت عليه كتب الله المنزلة عليهم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل فرد من الناس والجملة فى قوة فأهلكناهم (ومنهم) أى ومن هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن (من يؤمن به) فى نفسه ويعلم انه صدق وحق ولكنه كذب مكابرة وعنادا وقيل المراد ومنهم من يؤمن به فى المستقبل وان كذب به فى الحال (ومنهم من لا يؤمن به) ولا يصدقه فى نفسه بل كذب به جهلا وتقليدا أو لا يؤمن به فى المستقبل بل يبقى على جحوده واصراره وقيل الضمير فى الموضعين للنبى صلى الله عليه وآله وسلم وقد قيل ان هذا التقسيم خاص بأهل مكة وقيل عام فى جميع الكفار (وربك أعلم بالمفسدين) فيجازيهم بأعمالهم والمراد بهم المصرون المعاندون (وان كذبوك فقل) أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأن يقول لهم ان أصروا على تكذيبه واستمروا عليه (لى) جزاء (عملى ولكم عملكم) أى جزاؤه فقد أبلغت اليكم ما أمرت بابلاغه وليس علىّ غير ذلك ثم أكد بقوله (أنتم بريئون مما أعمل وأنا برئ مما تعملون) أى لا تؤاخذون بعملى ولا أؤاخذ بعملكم وفيه تأكيد لما أفادته لام الاختصاص من عدم تعدى أجر العمل الى غير عامله وقد قيل ان هذا منسوخ بآية السيف لما فيه من ايهام الاعراض عنهم وتخلية سبيلهم كما ذهب اليه جماعة من المفسرين منهم مقاتل والكلبى وعن ابن زيد قال أمره الله بهذا ثم نسخه فأمره بجهادهم قال الرازى وهو بعيد لان شرط الناسخ أن يكون رافعا الحكم المنسوخ ومدلول الآية اختصاص كل واحد بأفعاله وبثمرات أفعاله من الثواب والعقاب وآية القتال ما رفعت شيأ من مدلولات هذه الآية بل هو باق فكان القول بالنسخ باطلا (ومنهم من يستمعون اليك) بين الله سبحانه فى هذا أن فى أولئك الكفار من بلغت حاله فى النفرة والعداوة الى هذا الحد وهى أنهم يستمعون الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم اذا قرأ القرآن

وقد اجتمع عليهم ذلك كله أصابهم عذاب يوم الظلة وهي سحابة أظلتهم فيها شرر
السماء الآية فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة وقد اجتمع عليهم ذلك كله أصابهم عذاب يوم الظلة وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الارض شديدة من أسفل منهم فزهقت الارواح وفاضت النفوس وخمدت الاجسام فأصبحوا في دارهم جاثمين ثم قال تعالى كأن لم يغنوا فيها أي كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم التي أرادوا اجلاء الرسول وصحبه منها ثم قال تعالى مقابلا لقيلهم الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين (فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم (٢٢٢) كافرين) أي فتولى عنهم شعيب عليه السلام بعد ما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنقمة والنكال وقال مقرعا لهم وموبخا يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم أي قد أديت اليكم ما أرسلت به فلا آسف عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به فلهذا قال فكيف آسى على قوم كافرين (وما أرسلنا في قرية من نبي الا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون) يقول تعالى مخبرا عما اختبر به الامم الماضية الذين أرسل اليهم الانبياء بالبأساء والضراء يعني بالبأساء ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام والضراء ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك لعلهم يضرعون أي يدعون ويخشعون ويبتهلون الى الله تعالى في كشف ما نزل بهم وتقدير الكلام أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا فما فعلوا شيأ من الذي أراد منهم فقلب عليهم الحال الى الرخاء ليختبرهم فيه ولهذا قال ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة أي حولنا الحال من شدة الى رخاء ومن مرض وسقم الى صحة وعافية ومن فقر الى غنى ليشكروا على ذلك فما فعلوا وقوله حتى عفوا أي كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم يقال عفا الشيء اذا كثر وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون يقول تعالى ابتليناهم بهذا وهذا ليتضرعوا وينيبوا الى الله فما نجع فيهم لا هذا ولا هذا ولا انتهوا بهذا ولا بهذا وقالوا قد مسنا من البأساء والضراء ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا في قديم الزمان والدهر وانما هو الدهر تارات وتارات ولم يتفطنوا لأمر الله فيهم ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء ويصبرون على الضراء كما ثبت

وعلم الشرائع في الظاهر ولكنهم لا يسمعون في الحقيقة لعدم حصول أثر السماع وهو حصول القبول والعمل بما يسمعونه وجمع الضمير في يستمعون حملا على معنى من وأفرده في ومنهم من ينظر حملا على لفظه قيل والنكتة كثرة المستمعين بالنسبة الى الناظرين لان الاستماع لا يتوقف على ما يتوقف عليه النظر من المقابلة وانتفاء الحائل وانفصال الشعاع والنور الموافق لنور البصر والتقدير في قوله ومنهم من يستمعون ومنهم من ينظر ومنهم ناس يستمعون ومنهم بعض ينظر (أفأنت تسمع الصم) الهمزة للانكار يعني أن هؤلاء وان استمعوا في الظاهر فهم صم والصمم مانع من سماعهم فكيف يطمع منهم في ذلك مع حصول المانع وهو الصمم فكيف اذا انضم الى ذلك (ولو كانوا لا يعقلون) فان من كان أصم غير عاقل لا يفهم شيأ ولا يسمع ما يقال له والفاء عاطفة وفيه تنبيه على أن حقيقة استماع الكلام فهم المعنى المقصود منه ولذلك لا توصف به البهائم وهو لا يتأتى الا باستعمال العقل السليم في تدبره وعقولهم لما كانت مريضة بمعارضة الوهم ومتابعة الالف والتقليد تعذر افهامهم الحكم والمعاني الدقيقة فلم ينتفعوا بسرد الالفاظ عليهم غير ما ينتفع به البهائم من كلام الناعق والكلام في (ومنهم من ينظر اليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون) كالكلام فيما تقدم لان العمى مانع فكيف يطمع من صاحبه في النظر وقد انضم الى فقد البصر فقد البصيرة لان الاعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يكون له من الحدس الصحيح ما يفهم به في بعض الاحوال فهما يقوم مقام النظر وكذلك الاصم العاقل قد يحدس تحدسا يفيده بعض فائدة بخلاف من جمع له بين عمى البصر والبصيرة فقد تعذر عليه الادراك وكذا من جمع له بين الصمم وذهاب العقل فقد انسد عليه باب الهدى والمقصود من هذا الكلام تسلية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فان الطبيب اذا رأى مريضا لا يقبل العلاج أصلا أعرض عنه واستراح من الاشتغال به والهمزة للانكار (ان الله لا يظلم الناس شيأ ولكن الناس أنفسهم يظلمون) ذكر هذا عقب ما تقدم من عدم الاهتداء بالاسماع والابصار لبيان أن ذلك لم يكن لاجل نقص فيما خلقه الله لهم من السمع والعقل والبصر والبصيرة بل لاجل ما صار في طباعهم من التعصب والمكابرة للحق والمجادلة بالباطل والاصرار على الكفر فهم الذين ظلموا أنفسهم بذلك ولم يظلمهم الله شيأ من الاشياء بل خلقهم وجعل لهم من المشاعر ما يدركون به أكمل

ادراك

في الصحيحين عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء الا كان خيراً له ان أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وان أصابته سراء شكر فكان خيراً له فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من الضراء والسراء ولهذا جاء في الحديث لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقياً من ذنوبه والمنافق مثله كمثل الحمار لا يدري فيم ربطه أهله ولا فيم أرسلوه أو كما قال ولهذا عقب هذه الصفة بقوله فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون أي أخذناهم بالعقوبة بغتة أي على بغتة وعدم شعور منهم أي أخذناهم فجأة كما في الحديث موت الفجأة رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم (٢٢٣) بركات من السماء والارض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون أفأمن أهل القرى ان يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون أوأمن أهل القرى ان يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون) يخبر تعالى عن قلة ايمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل كقوله تعالى فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها الا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين أي ما آمنت قرية بتمامها الا قوم يونس فانهم آمنوا وذلك بعد ما عاينوا العذاب كما قال تعالى وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم الى حين وقال تعالى وما أرسلنا في قرية من نذير الآية وقوله تعالى ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا أي آمنت قلوبهم بما جاء به الرسل وصدقت به واتبعوه واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض أي قطر السماء ونبات الارض قال تعالى ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون أي ولكن كذبوا رسلهم فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم ثم قال تعالى مخوفاً ومحذراً من مخالفة أوامره والتجري على زواجره أفأمن أهل القرى أي الكفرة ان يأتيهم بأسنا أي عذابنا ونكالنا بياتاً أي ليلاً وهم نائمون أوأمن أهل القرى ان يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون أي في حال شغلهم وغفلتهم أفأمنوا مكر الله أي بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذه اياهم في حال سهوهم وغفلتهم فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن (أولم يهد للذين يرثون الارض من بعد أهلها ان لو نشاء أصبناهم بذنوبهم

ادراك وركب فيهم من الحواس ما يصلون به الى ما يريدون ووفر مصالحهم الدنيوية عليهم وخلى بينهم وبين مصالحهم الدينية * فعلى نفسها براقش تجني * قيل والنكتة في وضع الظاهر موضع المضمر زيادة اليقين والتقرير وتقديم المفعول على الفعل لافادة القصر أو لمجرد الاهتمام مع مراعاة الفاصلة (و) اذكر (يوم نحشرهم) أي المشركين المنكرين للبعث لموقف الحساب وأصل الحشر اخراج الجماعة وازعاجهم من مكانهم أي احياؤهم من القبور (كأن) أي كأنهم (لم يلبثوا) أي مشبهين بمن لم يلبث (الا ساعة من النهار) أي شيئاً قليلاً والمراد باللبث هو اللبث في الدنيا وقيل في القبور فاستقلوا المدة الطويلة اما لانهم ضيعوا أعمارهم في الدنيا فجعلوا وجودها كالعدم أو استقصروها للدهش والحيرة أو لطول وقوفهم في المحشر أو لشدة ما هم فيه من العذاب نسوا لذات الدنيا وكأنها لم تكن ومثل هذا قولهم لبثنا يوماً أو بعض يوم أو لان مقامهم في الدنيا في جنب مقامهم في الآخرة قليل جداً والمقصود من هذا التشبيه كما قاله أبو السعود بيان كمال سهولة الحشر بالنسبة اليه تعالى ولو بعد دهر طويل واظهار بطلان استبعادهم وانكارهم له بقولهم أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ونحو ذلك أو بيان تمام الموافقة بين النشأتين في الاشكال والصور فان اللبث اليسير يلزمه عدم التبدل والتغير والمراد بالساعة الزمن القليل فانها مثل في غاية القلة وتخصيصها بالنهار لان ساعاته أعرف حالاً من ساعات الليل (يتعارفون بينهم) أي يعرف بعضهم بعضاً كأنهم لم يتفارقوا الا قليلاً بيان وتقرير لما سبق وذلك يقع في الحشر الذي هو الاجتماع أي في ابتدائه وينقطع في أثنائه وقيل عند خروجهم من القبور ثم ينقطع التعارف بينهم لما بين أيديهم من الامور المدهشة للعقول المذهلة للافهام وأما البعث فلا تعارف فيه لعدم الاجتماع الذي هو لازمه وهذا أحد وجهين في المقام ذكره البيضاوي وأبو البقاء وغالب المفسرين على خلافه وهو تفسير الحشر بالبعث من القبور وجرى على هذا أبو السعود والخازن والقرطبي وقيل ان هذا التعارف هو تعارف التوبيخ والتقريع يقول بعضهم لبعض أنت أضللتني وأغويتني لا تعارف شفقة ورأفة كما قال تعالى ولا يسأل حميم حميماً وقوله فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فيجمع بان المراد بالتعارف هو تعارف التوبيخ وعليه يحمل قوله ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول وقوله تعالى كلما دخلت أمة الآية وقوله ربنا انا

ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله أولم يهد للذين يرثون الارض من بعد أهلها أولم يتبين لهم أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم وكذا قال مجاهد وغيره وقال أبو جعفر بن جرير فى تفسيرها يقول تعالى أولم يتبين للذين يستخلفون فى الارض من بعد اهلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها فساروا سيرتهم وعملوا أعمالهم وعتوا على ربهم أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم يقول ان لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم ونطبع على قلوبهم يقول ونختم على قلوبهم فهم لا يسمعون موعظة ولا تذكيرا (قلت) وهكذا قال تعالى (٢٢٤) أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى وقال تعالى أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ان فى ذلك لآيات أفلا يسمعون وقال أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم الآية وقال تعالى وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا أى هل ترى لهم شخصا أو تسمع لهم صوتا وقال تعالى ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الارض مالم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الانهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين وقال تعالى بعد ذكره اهلاك عاد فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شئ اذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون وقال تعالى وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلى فكيف كان نكير وقال تعالى ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير وقال تعالى فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور وقال تعالى ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن الى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نقمه بأعدائه وحصول نعمه لأوليائه ولهذا عقب ذلك بقوله وهو أصدق القائلين ورب العالمين

أطعنا سادتنا الآية قال القرطبى وهو الصحيح وقد جمع بين الآيات المختلفة فى مثل هذا وغيره بان المواقف يوم القيامة مختلفة فقد يكون فى بعض المواقف مالا يكون فى الآخر (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) هذا تسجيل من الله سبحانه عليهم بالخسران وتعجيب منه ولذا أتى بحرف التحقيق والمراد باللقاء يوم القيامة عند الحساب والجزاء أى من باع آخرته الباقية بدنياه الفانية قد خسر لانه آثر الفانى على الباقى والجملة مستأنفة أو فى محل نصب باضمار قول أى قائلين قد خسر (وما كانوا مهتدين) نفى عنهم أن يكونوا من جنس المهتدين لجهلهم وعدم طلبهم لما ينجيهم وينفعهم ويصلحهم (واما نرينك بعض الذى نعدهم) أصله ان نرك وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط ولاجله زيدت نون التأكيد خلافا لسيبويه والمعنى ان حصلت منا الاراءة لك بعض الذى وعدناهم من اظهار دينك فى حياتك بقتلهم واسرهم وجواب الشرط محذوف والتقدير فتراه أو فذاك وجملة (أو نتوفينك) معطوفة على ماقبلها والمعنى أولا نرينك ذلك فى حياتك بل نتوفينك قبل ذلك (فالينا مرجعهم) فعند ذلك نعذبهم فى الآخرة فنريك عذابهم فيها وجواب أو نتوفينك محذوف ايضا والتقدير او نتوفينك قبل الاراءة فنحن نريك ذلك فى الآخرة وقيل انه جواب للشرط وما عطف عليه اذ معناه صالح لذلك والى هذا ذهب الحوفى وابن عطية وقيل ان جواب او نتوفينك هو قوله فالينا مرجعهم لدلالته على ماهو المراد من اراءة النبى صلى الله عليه وآله وسلم تعذيبهم فى الآخرة وقيل العدول فى الموضعين الى صيغة المستقبل لاستحضار الصورة والاصل اريناك او توفيناك وفيه نظر فان اراءته صلى الله عليه وآله وسلم لبعض ماوعد الله المشركين من العذاب لم تكن قد وقعت كالوفاة وحاصل معنى هذه الآية ان لم ننتقم منهم عاجلا انتقمنا منهم آجلا وقد اراه الله سبحانه قتلهم واسرهم وذلهم وذهاب عزهم وانكسار سورة كبرهم بما أصابهم به فى يوم بدر ومابعده من المواطن فلله الحمد (ثم الله شهيد على ما يفعلون) من تكذيبهم وكفرهم فيعذبهم أشد العذاب وجاء بثم الدالة على التبعيد مع كون الله سبحانه شهيدا على ما يفعلونه فى الدارين للدلالة على ان المراد بهذه الافعال ما يترتب عليها من الجزاء أو ما يحصل من انطاق الجوارح بالشهادة عليهم يوم القيامة فجعل ذلك بمنزلة شهادة الله عليهم كما ذكره النيسابورى وفى السمين ثم هنا ليست للترتيب الزمانى بل هى لترتيب الاخبار

لا

(تلك القرى نقص عليك من انبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين وما وجدنا لأكثرهم من عهد وان وجدنا أكثرهم لفاسقين) لما قص تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم خبر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وما كان من اهلاكه الكافرين وانجائه المؤمنين وأنه تعالى أعذر اليهم بان بين لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين قال تعالى تلك القرى نقص عليك أي يا محمد من انبائها أي من اخبارها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات أي الحجج على صدقهم فيما أخبروهم به كما قال تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث (٢٢٥) رسولا وقال تعالى ذلك من انباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم وقوله تعالى فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل الباء سببية أي فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم حكاه ابن عطية رحمه الله وهو متجه حسن كقوله وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة الآية ولهذا قال هنا كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين وما وجدنا لأكثرهم أي لأكثر الامم الماضية من عهد وان وجدنا أكثرهم لفاسقين أي ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال والعهد الذي أخذه هو جبلهم عليه وفطرهم عليه وأخذ عليهم في الاصلاب أنه ربهم ومليكهم وانه لا اله الا هو وأقروا بذلك وشهدوا على أنفسهم به وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة لا من عقل ولا شرع وفي الفطر السليمة خلاف ذلك وجاءت الرسل الكرام من أولهم الى آخرهم بالنهي عن ذلك كما جاء في صحيح مسلم يقول الله اني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وفي الصحيحين كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه الحديث وقال تعالى في كتابه العزيز وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون وقال تعالى واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون وقال تعالى ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت الى غير ذلك من الآيات وقد قيل في تفسير قوله تعالى فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ما روى أبو جعفر الرازي عن الربيع بن انس عن أبي

لا لترتيب القصص في نفسها كقولك زيد عالم ثم هو كريم وقال الزمخشري ذكرت الشهادة والمراد مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب كأنه قيل ثم الله معاقب على ما يفعلون وفيه وعيد لهم وتهديد شديد (ولكل أمة) من الامم الخالية في وقت من الاوقات (رسول) يرسله الله اليهم يبين لهم ما شرعه الله لهم من الاحكام على حسب ما تقتضيه المصلحة (فاذا جاء رسولهم) اليهم وبلغهم ما أرسله الله به فكذبوه جميعا (قضي بينهم) أي بين الامة ورسولها (بالقسط) أي العدل فنجا الرسول وهلك المكذبون له فيكون ما يعذبون به عدلا لا ظلما كما قال سبحانه وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وقوله تعالى رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ويجوز أن يراد بالضمير في بينهم الامة على تقدير أنه كذبه بعضهم وصدقه البعض الآخر فيهلك المكذبون وينجو المصدقون وفي وقت هذا القضاء قولان أحدهما أنه في الدنيا والآخر انه في الآخرة والاول أولى (وهم لا يظلمون) في ذلك القضاء فلا يعذبون بغير ذنب ولا يؤاخذون بغير حجة ومنه قوله تعالى وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم وقوله فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد والمراد المبالغة في اظهار العدل والنصفة بين العباد ثم ذكر سبحانه شبهة أخرى من شبه الكفار (و) ذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان كلما هددهم بنزول العذاب كانوا (يقولون متى هذا الوعد) والاستفهام منهم للانكار والاستبعاد وللقدح في النبوة لا لطلب التعيين وقت مجيئه على وجه الالزام كما في سورة الملك فان المطلوب هنالك تعيين الوقت (ان كنتم صادقين) خطابا منهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وللمؤمنين ويحتمل أن يراد بالقائلين هذه المقالة جميع الامم الذين لم يسلموا الرسل الذين أرسلهم الله اليهم ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يجيب عليهم بما يحسم مادة الشبهة ويقطع اللجاج فقال (قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا) أي لا أقدر على جلب نفع لها ولا دفع ضر عنها فكيف أقدر على ان أملك ذلك لغيري وقدم الضر لان السياق لاظهار العجز عن ظهور الوعد الذي استعجلوه واستبعدوه والاستثناء في قوله (الا ما شاء الله) منقطع كما ذكره أئمة التفسير وبه قال الزمخشري أي ولكن ما شاء الله من ذلك كان فكيف أقدر على ان أملك لنفسي ضرا أو نفعا وقيل متصل تقديره الا ما شاء الله ان أملكه وأقدر عليه والاول أولى وفي هذا أعظم واعظ وأبلغ زاجر لمن صار ديدنه وهجيراه المناداة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والاستغاثة به عند نزول النوازل

العالية عن أبي بن كعب في قوله فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل قال كان في علمه تعالى يوم أقروا له بالميثاق أي فما كانوا ليؤمنوا لعلم الله منهم ذلك وكذا قال الربيع بن أنس واختاره ابن جرير وقال السدي فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل قال ذلك يوم أخذ منهم الميثاق فآمنوا كرها وقال مجاهد في قوله فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل هذا كقوله ولو ردوا لعادوا الآية (ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا الى فرعون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) يقول تعالى ثم بعثنا من بعدهم أي الرسل المتقدم ذكرهم كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب (٢٢٦) صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين موسى بآياتنا أي بحججنا ودلائلنا البينة الى فرعون وهو ملك مصر في زمن موسى وملئه أي قومه فظلموا بها أي جحدوا وكفروا بها ظلما منهم وعنادا كقوله تعالى وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين أي الذين صدوا عن سبيل الله وكذبوا رسله أي انظر يا محمد كيف فعلنا بهم وأغرقناهم عن آخرهم بمرأى من موسى وقومه وهذا أبلغ في النكال بفرعون وقومه واشفى لقلوب أولياء الله موسى وقومه من المؤمنين به (وقال موسى يا فرعون اني رسول من رب العالمين حقيق على ان لا أقول على الله الا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فارسل معي بني اسرائيل قال ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين) يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون والجامه اياه بالحجة واظهاره الآيات البينات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر فقال تعالى وقال موسى يا فرعون اني رسول من رب العالمين أي أرسلني الذي هو خالق كل شئ وربه ومليكه حقيق على ان لا أقول على الله الا الحق فقال بعضهم معناه حقيق بأن لا أقول على الله الا الحق أي جدير بذلك وحري به قالوا والباء وعلى يتعاقبان يقال رميت بالقوس وعلى القوس وجاء على حال حسنة وبحال حسنة وقال بعض المفسرين معناه حريص على ان لا أقول على الله الا الحق وقرأ آخرون من أهل المدينة حقيق علي بمعنى واجب وحق علي ذلك أن لا أخبر عنه الا بما هو حق وصدق لما أعلم من عز جلاله وعظيم شأنه قد جئتكم ببينة من ربكم أي بحجة قاطعة من الله اعطانيها دليلا على صدقي فيما جئتكم به فارسل معي بني اسرائيل أي أطلقهم من أسرك وقهرك ودعهم

التي لا يقدر على دفعها الا الله سبحانه وكذلك من صار يطلب من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ما لا يقدر على تحصيله الا الله سبحانه فان هذا مقام رب العالمين الذي خلق الانبياء والصالحين وجميع المخلوقين ورزقهم وأحياهم ويميتهم فكيف يطلب من نبي من الانبياء أو ملك من الملائكة أو صالح من الصالحين ما هو عاجز عنه غير قادر عليه ويترك الطلب لرب الارباب القادر على كل شئ الخالق الرزاق المعطي المانع وحسبك بما في هذه الآية موعظة فان هذا سيد ولد آدم وخاتم الرسل يأمره الله بان يقول لعباده لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا فكيف يملكه لغيره وكيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته ومنزلته لا تبلغ الى منزلته لنفسه فضلا عن أن يملكه لغيره فيا عجبا لقوم يعكفون على قبور الاموات الذين قد صاروا تحت اطباق الثرى ويطلبون منهم من الحوائج ما لا يقدر عليه الا الله عز وجل كيف لا يتيقظون لما وقعوا فيه من الشرك ولا ينتبهون لما حل بهم من المخالفة لمعنى لا اله الا الله ومدلول قل هو الله أحد وأعجب من هذا اطلاع أهل العلم على ما يقع من هؤلاء ولا ينكرون عليهم ولا يحولون بينهم وبين الرجوع الى الجاهلية الاولى بل الى ما هو أشد منها فان أولئك يعترفون بان الله سبحانه هو الخالق الرزاق المحيي المميت الضار النافع وانما يجعلون أصنامهم شفعاء لهم عند الله ومقربين لهم اليه وهؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضر والنفع وينادونهم تارة على الاستقلال وتارة مع ذي الجلال وكفاك من شر سماعه والله ناصر دينه ومطهر شريعته من أوضار الشرك وادناس الكفر ولقد توسل الشيطان اخزاه الله بهذه الذريعة الى ما تقر به عينه وينثلج به صدره من كفر كثير من هذه الامة المباركة وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا انا لله وانا اليه راجعون ثم بين سبحانه ان لكل طائفة حدا محدودا لا يتجاوزونه فلا وجه لاستعجال العذاب فقال (لكل أمة) ممن قضى بينهم وبين رسولهم أو بين بعضهم لبعض (أجل) أي وقت خاص ومدة مضروبة يحل بهم ما يريده الله سبحانه لهم عند حلوله والاجل يطلق على مدة العمر وعلى آخر جزء منه والمراد هنا الثاني كما يؤخذ من التفاسير (فاذا جاء أجلهم) أي اجل كل امة قال ابو السعود ان جعل الاجل عبارة عن حد معين من الزمان فمعنى مجيئه ظاهر وان اريد به ما امتد من الزمان فمجيئه عبارة عن انقضائه اذ هنالك يتحقق مجيئه بتمامه (فلا يستأخرون) عن ذلك الاجل المعين (ساعة) اى شيأ قليلا من الزمان (ولا يستقدمون) منه ومثله قوله تعالى

ما

وعبادة ربك وربهم فانهم من سلالة نبي كريم ... يعقوب بن اسحق بن ابراهيم خليل الرحمن قال ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين أي قال فرعون لست بمصدق فيما قلت ولا بمطيعك فيما طلبت فان كانت معك حجة فاظهرها لنراها ان كنت صادقا فيما ادعيت (فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ثعبان مبين الحية الذكر وكذا قال السدي والضحاك وفي حديث الفتون من رواية يزيد بن هرون بن الاصبغ ابن زيد عن القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال ألقى عصاه فتحولت حية عظيمة فاغرة فاها مسرعة الى فرعون فلما رآها فرعون انها قاصدة اليه اقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل وقال قتادة تحولت حية عظيمة مثل المدينة وقال السدي في قوله فاذا هي ثعبان مبين الثعبان الذكر من الحيات فاتحة فاها واضعة لحيها الاسفل في الارض والاعلى على سور القصر ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه فلما رآها ذعر منها ووثب وأحدث ولم يكن يحدث قبل ذلك وصاح ياموسى خذها وانا أومن بك وارسل معك بني اسرائيل فأخذها موسى عليه السلام فعادت عصا وروى عن عكرمة عن ابن عباس نحو هذا وقال وهب بن منبه لما دخل موسى على فرعون قال له فرعون أعرفك قال نعم قال ألم نربك فينا وليدا قال فرد اليه موسى الذي رد فقال فرعون خذوه فبادر موسى فالقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين فحملت على الناس فانهزموا منها فمات منهم خمسة وعشرون ألفا قتل بعضهم بعضا وقام فرعون منهزما حتى دخل البيت رواه ابن جرير والامام أحمد في كتابه الزهد وابن أبي حاتم وفيه غرابة في سياقه والله أعلم وقوله ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين أي أخرج يده من درعه بعد ما أدخلها فيه فاذا هي بيضاء تتلألأ من غير برص ولا مرض كما قال تعالى وادخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء الآية وفي حديث الفتون من غير سوء يعني من غير برص ثم أعادها الى كمه فعادت الى لونها الاول وكذا قال مجاهد وغير واحد (قال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون) أي قال الملأ وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون موافقين لقول فرعون فيه بعد ما رجع اليه روعه واستقر على سرير مملكته بعد ذلك قال للملأ حوله ان هذا لساحر عليم فوافقوه وقالوا كمقالته وتشاوروا

ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون والسين زائدة فيهما والكلام على هذه الآية المذكورة هنا قد تقدم في تفسير الآية التي في أول الاعراف فلا نعيده (قل أرأيتم ان أتاكم عذابه) هذا منه سبحانه تزييف لرأي الكفار في استعجال العذاب بعد التزييف الاول أي اخبروني عن عذاب الله ان أتاكم اي شيء تستعجلون منه وليس شيء من العذاب يستعجله العاقل اذ العذاب كله مر المذاق موجب لنفار الطبع منه فتكون جملة الاستفهام جاءت على سبيل التلطف بهم والتنبيه لهم على ان العذاب لا ينبغي ان يستعجل او جاءت على سبيل التعجب والتهويل للعذاب أي أي شيء شديد تستعجلون منه أي ما أشد وما أهول ما تستعجلون من العذاب قاله ابو حيان (بياتا) أي وقت بيات والمراد به الوقت الذي يبيتون فيه وينامون ويغفلون عن التحرز والبيات بمعنى التبييت اسم مصدر كالسلام بمعنى التسليم وكذلك قوله (أو نهارا) أي وقت الاشتغال بطلب المعاش والكسب والاستفهام في قوله (ماذا يستعجل منه المجرمون) للانكار المتضمن للنهي كما في قوله أتى أمر الله فلا تستعجلوه ووجه الانكار عليهم في استعجالهم ان العذاب مكروه تنفر منه القلوب وتاباه الطبائع فما المقتضي لاستعجالهم له وضمير منه راجع الى العذاب وقيل الى الله والجملة جواب الشرط بحذف الفاء وقيل ان الجواب محذوف والمعنى ان أتاكم عذابه تندموا على الاستعجال أو تعرفوا الخطأ منكم فيه وقيل ان الجواب قوله أثم اذا ما وقع ويكون جملة ماذا يستعجل اعتراضا والمعنى ان أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الايمان والاول أولى قال الحفناوي ولم يقل يستعجلون منه للدلالة على ما يوجب ترك الاستعجال وهو الاجرام لان من حق المجرم ان يخاف من العذاب على اجرامه وان يهلك فزعا من مجيئه وان أبطأ فكيف يستعجله ودخول الهمزة الاستفهامية في (أثم اذا ما وقع آمنتم به) لانكار ايمانهم حيث لا ينفع الايمان وذلك بعد نزول العذاب وهو يتضمن معنى التهويل عليهم وتفظيع مافعلوه في غير وقته مع تركهم له في وقته الذي يحصل به النفع والدفع وهذه الجملة داخلة تحت القول المأمور به وجيء بكلمة ثم التي للتراخي دلالة على الاستبعاد وجيء باذا مع زيادة ما للتأكيد دلالة على تحقق وقوع الايمان منهم في غير وقته ليكون في ذلك زيادة استجهال لهم والمعنى أبعد ما وقع عذاب الله عليكم وحل بكم سخطه وانتقامه آمنتم حين لا ينفعكم هذا الايمان شيأ ولا يدفع عنكم ضرا وقيل ان هذه الجملة ليست داخلة تحت

في أمره كيف يسعون في أمره وكيف تكون حيلتهم في اطفاء نوره واخماد كلمته وظهور كذبه وافترائه وتخوفوا أن يميل الناس اليه بسحره فيما يعتقدون فيكون ذلك سببا لظهوره عليهم واخراجه اياهم من أرضهم والذي خافوا منه وقعوا فيه كما قال تعالى ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون فلما تشاوروا في شأنه وائتمروا فيه اتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله تعالى (قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم) قال ابن عباس أرجه أخره وقال قتادة احبسه وأرسل أي ابعث في المدائن أي (٢٢٨) في الأقاليم ومدائن ملكك حاشرين أي من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم وقد كان السحر في زمانهم غالبا كثيرا ظاهرا واعتقد من اعتقد منهم وأوهم من أوهم منهم ان ما جاء موسى به عليه السلام من قبيل ما تشعبذه سحرتهم فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى وقال تعالى ههنا (وجاء السحرة فرعون قالوا ان لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين قال نعم وانكم لمن المقربين) يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى عليه السلام ان غلبوا موسى ليثيبنهم وليعطينهم عطاء جزيلا فوعدهم ومناهم أنه يعطيهم ما أرادوا ويجعلهم من جلسائه والمقربين عنده فلما توثقوا من فرعون لعنه الله قالوا يا موسى اما أن تلقي واما أن نكون نحن الملقين قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤا بسحر عظيم) شدة مبارزة من السحرة لموسى عليه السلام في قولهم اما أن تلقي واما أن نكون نحن الملقين قبلك أي كما قال في الآية الأخرى واما أن نكون أول من ألقى فقال لهم موسى عليه السلام ألقوا أي أنتم أولا قيل الحكمة في هذا والله أعلم ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه فاذا فرغوا من بهرجهم ومحالهم جاءهم الحق الواضح الجلي بعد التطلب له والانتظار لمجيئه فيكون أوقع في النفوس وكذا كان ولهذا قال تعالى فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم أي خيلوا الى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة في الخارج ولم يكن الا مجرد صنعة

حقيقة

القول المأمور به وانه من قول الملائكة استهزاء بهم وازراء عليهم والأول أولى وقيل ثم هنا بفتح الثاء بمعنى هنالك والأول أولى (آلآن) بهمزتين الأولى همزة الاستفهام والثانية همزة أل المعرفة واذا اجتمع هاتان الهمزتان وجب في الثانية أحد أمرين تسهيلها من غير ألف بينها وبين الأولى وابدالها ألفا بقدر ثلاث ألفات وقد وقع في القرآن الكريم من هذا القبيل ستة مواضع اثنان في الأنعام وهما آلذكرين مرتين وثلاثة في هذه السورة لفظ آلآن هنا وفيما سيأتي ولفظ آلله أذن لكم وواحد في النمل آلله خير فلا يجوز في هذه المواضع الستة تحقيق الهمزتين بل يجب أحد الأمرين اللذين قد عرفتهما قيل هو استئناف بتقدير القول غير داخل تحت القول الذي أمر الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ان يقوله لهم أي قيل لهم عند ايمانهم بعد وقوع العذاب آلآن آمنتم به (و) الحال انكم (قد كنتم به) أي العذاب (تستعجلون) يعني تكذبون لأن استعجالهم كان على جهة التكذيب والاستهزاء ويكون المقصود بأمره صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لهم هذا القول على سبيل التوبيخ لهم والازراء عليهم (ثم قيل للذين ظلموا) أنفسهم بالكفر وعدم الايمان (ذوقوا عذاب الخلد) أي العذاب الدائم الذي لا ينقطع وهو عطف على ما قدر قبل آلآن والمراد منه التقريع والتوبيخ لهم يوم القيامة على سبيل الاهانة أي قيل لهم ان هذا الذي تطلبونه ضرر محض عار عن النفع من كل وجه والعاقل لا يطلب ذلك والقائل لهم هذه المقالة قيل هم خزنة جهنم ولا يبعد أن يكون القائل لذلك هم الأنبياء على الخصوص أو المؤمنون على العموم (هل تجزون الا بما كنتم تكسبون) في الحياة الدنيا من الكفر والمعاصي والأعمال والاستفهام للتقرير والاستثناء مفرغ وكأنه يقال لهم هذا القول عند استغاثتهم من العذاب وحلول النقمة بهم ثم حكى الله سبحانه عنهم بعد هذه البيانات البالغة والجوابات عن أقوالهم الباطلة انهم استفهموا تارة أخرى عن تحقق العذاب فقال (ويستنبئونك) أي يستخبرونك على جهة الاستهزاء منهم والانكار (أحق هو) أي ما تعدنا به من العذاب في العاجل والآجل وهذا السؤال منهم جهل محض وظلمات بعضها فوق بعض فقد تقدم ذكره عنهم مع الجواب عليه فصنيعهم في هذا التكرير صنيع من لا يعقل ما يقول ولا ما يقال له وقيل المراد بهذا الاستخبار منهم هو عن

وخيال كما قال تعالى فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف انك أنت الاعلى والق ما في يمينك تلقف ما صنعوا انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى قال سفيان بن عيينة حدثنا أبو سعيد عن عكرمة عن ابن عباس ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا قال فأقبلت يخيل اليه من سحرهم انها تسعى وقال محمد بن اسحق صف خمسة عشر ألف ساحر مع كل ساحر حباله وعصيه وخرج موسى عليه السلام معه أخاه يتكئ على عصاه حتى أتى الجمع وفرعون في مجلسه مع اشراف أهل مملكته ثم قال السحرة يا موسى اما ان تلقي (٢٢٩) واما ان نكون أول من ألقى قال بل ألقوا فاذا حبالهم وعصيهم فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون ثم أبصار الناس بعد ثم ألقى كل رجل ما في يده من الحبال والعصي فاذا حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضا وقال السدي كانوا بضعا وثلاثين ألف رجل ليس رجل منهم الا ومعه حبل وعصا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم يقول فرقوهم أي من الفرق وقال ابن جرير حدثنا يعقوب بن ابراهيم حدثنا ابن علية عن هشام الدستوائي حدثنا القاسم بن أبي بزة قال جمع فرعون سبعين ألف ساحر فالقوا سبعين ألف حبل وسبعين ألف عصا حتى جعل يخيل اليه من سحرهم انها تسعى ولهذا قال تعالى وجاؤا بسحر عظيم (وأوحينا الى موسى ان ألق عصاك فاذا هي تلقف ما يأفكون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وألقي السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون) يخبر تعالى انه أوحى الى عبده ورسوله موسى عليه السلام في ذلك الموقف العظيم الذي فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل يأمره بأن يلقي ما في يمينه وهي عصاه فاذا هي تلقف أي تأكل ما يأفكون أي ما يلقونه ويوهمون انه حق وهو باطل قال ابن عباس فجعلت لا تمر بشيء من حبالهم ولا من خشبهم الا التقمته فعرفت السحرة ان هذا أمر من السماء ليس هذا بسحر فخروا سجدا وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون وقال محمد بن اسحق جعلت تتبع تلك الحبال والعصي واحدة واحدة حتى ما يرى بالوادي قليل ولا كثير مما ألقوا ثم أخذها موسى فاذا هي عصا في يده كما كانت ووقع السحرة سجدا قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون لو كان هذا ساحرا ما غلبنا وقال القاسم بن أبي بزة أوحى الله اليه ان

حقيقة القرآن (قل) أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ان يقول لهم في جواب استنبائهم الخارج مخرج الاستهزاء أي قل لهم يا محمد غير ملتفت الى ما هو مقصودهم من الاستهزاء (اى) أي نعم (وربي انه) أي ان ما أعد لكم به من العذاب (لحق) ثابت كائن لا محالة وفي هذا الجواب تأكيد من وجوه الاول القسم مع دخول الحرف الخاص بالقسم الواقع موقع نعم الثاني دخول ان المؤكدة الثالث اللام في لحق الرابع اسمية الجملة وذلك يدل على انهم قد بلغوا في الانكار والتمرد الى الغاية التي ليس وراءها غاية ثم توعدهم بأشد توعد ورهبهم بأعظم ترهيب فقال (وما أنتم بمعجزين) أي فائتين العذاب بالهرب والتحيل الذي لا ينفع والمكابرة التي لا تدفع من قضاء الله شيئا بل هو مدرككم ولابد وهذه الجملة اما معطوفة على جملة جواب القسم أو مستأنفة لبيان عدم خلوصهم عن عذاب الله بوجه من الوجوه ثم زاد في التأكيد فقال (ولو) امتناعية على ما هو الكثير فيها (ان لكل نفس) من الانفس المتصفة بانها (ظلمت) نفسها بالكفر بالله وعدم الايمان به (ما في الارض) من كل شئ من الاشياء التي تشتمل عليها من الاموال النفيسة والذخائر الفائقة (لافتدت به) أي جعلته فدية لها من العذاب يوم القيامة لا ينفعها الفداء ولا يقبل منها ومثله قوله تعالى ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الارض ذهبا ولو افتدى به ويجوز ان يكون الافتداء متعديا وان يكون قاصرا فاذا كان مطاوعا للمتعدي كان قاصرا تقول فديته فافتدى وان لم يكن مطاوعا يكون بمعنى فدى فيتعدى لواحد والفعل يحتمل الوجهين فان جعلناه متعديا فمفعوله محذوف تقديره لافتدت به نفسها وهو من المجاز كقوله تعالى يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها (وأسروا الندامة) الضمير راجع الى الكفار الذين سياق الكلام معهم وقيل راجع الى الانفس المدلول عليها بكل نفس وان كان المراد خصوص الرؤساء منهم ومعنى أسروا أخفوا أي لم يظهروا الندامة على ترك الايمان بل أخفوها لما قد شاهدوه في ذلك الموطن مما سلب عقولهم وذهب بتجلدهم ويمكن انه بقي فيهم وهم على تلك الحالة عرق ينزعهم الى العصبية التي كانوا عليها في الدنيا فأسروا الندامة لئلا يشمت بهم المؤمنون وقيل أسرها الرؤساء فيما بينهم دون أتباعهم خوفا من توبيخهم لهم لكونهم هم الذين أضلوهم وحالوا بينهم وبين الاسلام وقيل معنى أسروا أظهروا لان أسر من الاضداد ومعنى الاول

أتى عصاك فاذا هى ثعبان مبين فاغر فاه يبتلع حبالهم وعصيهم فألقى السحرة عند ذلك سجدا فارفعوا رؤسهم حتى رأوا الجنة والنار وثواب أهلهما (قال فرعون آمنتم به قبل ان آذن لكم ان هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لاصلبنكم أجمعين قالوا انا الى ربنا منقلبون وما تنقم منا الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين) يخبر تعالى عما توعد به فرعون لعنه الله السحرة لما آمنوا بموسى عليه السلام وما أظهره للناس من كيده ومكره فى قوله ان هذا لمكر مكرتموه فى المدينة (٢٣٠) لتخرجوا منها أهلها أى ان غلبته لكم فى يومكم هذا انما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك كقوله فى الآية الاخرى انه لكبيركم الذى علمكم السحر وهو يعلم وكل من له لب ان هذا الذى قاله من أبطل الباطل فان موسى عليه السلام بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون الى الله وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به فعند ذلك أرسل فرعون فى مدائن ملكه ومعاملة سلطنته فجمع سحرة متفرقين من سائر الاقاليم ببلاد مصر ممن اختار هو والملأ من قومه وأحضرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل ولهذا قد كانوا من أحرص الناس على ذلك وعلى الظهور فى مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون وموسى عليه السلام لا يعرف أحدا منهم ولا رآه ولا اجتمع به وفرعون يعلم ذلك وانما قال هذا تسترا وتدليسا على رعاع دولته وجهلتهم كما قال تعالى فاستخف قومه فاطاعوه فان قوما صدقوه فى قوله أنا ربكم الاعلى من أجهل خلق الله وأضلهم وقال السدى فى تفسيره باسناده المشهور عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من الصحابة فى قوله تعالى ان هذا لمكر مكرتموه فى المدينة قال التقى موسى عليه السلام وأمير السحرة فقال له موسى أرأيتك ان غلبتك أتؤمن بى وتشهد أن ما جئت به حق قال الساحر لآتين غدا بسحر لا يغلبه سحر فوالله لئن غلبتنى لاومنن بك ولاشهدن انك حق وفرعون ينظر اليهما قالوا فلهذا قال ما قال وقوله لتخرجوا منها أهلها أى تجتمعوا أنتم وهو وتكون لكم دولة وصولة وتخرجوا منها الاكابر والرؤساء وتكون الدولة والتصرف لكم فسوف تعلمون أى ما أصنع بكم ثم فسر هذا الوعيد بقوله لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف يعنى يقطع يد الرجل اليمنى ورجله اليسرى أو بالعكس ولاصلبنكم أجمعين وقال فى الآية الاخرى فى جذوع النخل أى على الجذوع

هو المشهور فى اللغة وهو فى الآية يحتمل الوجهين وقيل وجدوا ألم الحسرة فى قلوبهم لان الندامة لا يمكن اظهارها وذكر المبرد فى ذلك وجهين الاول انها بدت فى وجوههم اسرة الندامة وهى الانكسار واحدها سرار وجمعها أسارير والثانى ما تقدم وقيل معنى أسروا الندامة أخلصوها لان اخفاءها اخلاصها قيل انه ماض على بابه قد وقع وقيل بل هو بمعنى المستقبل (لما) ظرف بمعنى حين أى حين (رأوا العذاب) أى وقوع هذا منهم كان عند رؤية العذاب ومعاينته واما بعد الدخول فيه فهم الذين قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا (وقضى بينهم بالقسط) أى العدل مستأنفة وهو الظاهر أو معطوفة على رأوا أى قضى الله بين المؤمنين وبين الكافرين أو بين الرؤساء والاتباع أو بين الظالمين من الكفار والمظلومين بالعدل وقيل معنى القضاء بينهم انزال العقوبة عليهم (وهم لا يظلمون) أى لا يظلمهم الله فيما فعله بهم من العذاب الذى حل بهم فانه بسبب ما كسبوا وجملة (الا ان لله ما فى السموات والارض) مسوقة لتقرير كمال قدرته لان من ملك ما فى السموات والارض يتصرف به كيف يشاء وغلب غير العقلاء لانهم أكثر المخلوقات قيل لما ذكر سبحانه افتداء الكفار بما فى الارض لو كان لهم ذلك بين أن الاشياء كلها لله وليس لهم شئ يتمكنون من الافتداء به وقيل لما أقسم على حقية ما جاء به النبى صلى الله عليه وآله وسلم أراد أن يحتج فى ذلك بدليل البرهان المبين بان ما فى العالم على اختلاف أنواعه ملكه يتصرف به كيف يشاء وفى تصدير الجملة بحرف التنبيه انتباه للغافلين وايقاظ للذاهلين ثم أكد ما سبق بقوله (الا ان وعد الله حق) أى كائن لا محالة وهو عام يندرج فيه ما استعجلوه من العذاب اندراجا أوليا وتصدير الجملة بحرف التنبيه كما قلنا فى التى قبلها مع الدلالة على تحقق مضمون الجملتين وتقرير ما سلف من الآيات الكريمة والتنبيه على وجوب استحضار المحافظة عليه (ولكن أكثرهم) أى أكثر الناس يعنى الكفار (لا يعلمون) ما فيه صلاحهم فيعملون به وما فيه فسادهم فيجتنبونه لقصور عقلهم واستيلاء الغفلة عليهم (هو يحيى ويميت) أى يهب الحياة ويسلبها (واليه ترجعون) فى الدار الآخرة فيجازى كلا بما يستحقه ويتفضل على من يشاء من عباده (يا أيها الناس) قيل أراد قريشا وقيل هو على العموم وهو الاولى واختاره الطبرى وفيه التفات ورجوع الى استمالتهم عقب تحذيرهم من غوائل الضلال وشروع فى بيان أدلة الرسالة بعد بيان أدلة التوحيد (قد جاءتكم موعظة)

قال ابن عباس وكان أول من صلب وأول من قطع الايدي والارجل من خلاف فرعون وقول السحرة انا الى ربنا منقلبون أي قد تحققنا انا اليه راجعون وعذابه أشد من عذابك ونكاله على ما تدعونا اليه اليوم وأكرهتنا عليه من السحر أعظم من نكالك فلنصبرن اليوم على عذابك لنخلص من عذاب الله ولهذا قالوا ربنا افرغ علينا صبرا أي عمنا بالصبر على دينك والثبات عليه وتوفنا مسلمين أي متابعين لنبيك موسى عليه السلام وقالوا لفرعون فاقض ما أنت قاض انما تقضي هذه الحياة الدنيا انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى فكانوا في أول النهار سحرة وكانوا في آخره شهداء بررة قال ابن عباس وعبيد ابن عمير وقتادة وابن جريج كانوا في أول النهار سحرة وفي آخره شهداء (وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الارض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وانا فوقهم قاهرون قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون) يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعون وملؤه وما أضمروا لموسى عليه السلام وقومه من الاذى والبغضة وقال الملأ من قوم فرعون أي لفرعون أتذر موسى وقومه أي أتدعهم ليفسدوا في الارض أي يفسدوا أهل رعيتك ويدعوهم الى عبادة ربهم دونك يالله العجب صار هؤلاء يشفقون من افساد موسى وقومه الا ان فرعون وقومه هم المفسدون ولكن لا يشعرون ولهذا قالوا ويذرك وآلهتك قال بعضهم الواو هنا حالية أي أتذره وقومه يفسدون في الارض وقد ترك عبادتك وقرأ ذلك أبي بن كعب وقد تركوك أن يعبدوا آلهتك حكاه ابن جرير وقال آخرون هي عاطفة أي أتدعهم يصنعون من الفساد ما قد أقررتهم عليه وعلى ترك آلهتك وقرأ بعضهم الاهتك أي عبادتك وروى ذلك عن ابن عباس ومجاهد وغيره وعلى القراءة الاولى قال بعضهم كان لفرعون اله يعبده قال الحسن البصري كان لفرعون اله يعبده في السر وقال في رواية أخرى كان له حنانة في عنقه معلقة يسجد لها وقال السدي في قوله تعالى ويذرك وآلهتك وإلهته

موعظة) يعني القرآن فيما يتعظ به من قرأه وعرف معناه والوعظ في الاصل هو التذكير بالعواقب سواء كان بالترغيب أو الترهيب والواعظ هو كالطبيب ينهى المريض عما يضره وقيل الوعظ زجر مقترن بتخويف وقال الخليل هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب (من ربكم) من لابتداء الغاية وهو مجاز أو للتبعيض أي موعظة كائنة من مواعظ ربكم (وشفاء لما في الصدور) من الشكوك التي تعتري بعض المرتابين لوجود ما يستفاد منه فيه من العقائد الحقة واشتماله على تزييف العقائد الباطلة عن أبي سعيد الخدري قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال اني أشتكي صدري فقال اقرأ القرآن يقول الله شفاء لما في الصدور أخرجه ابن المنذر وابن مردويه وأخرج البيهقي في شعب الايمان عن واثلة بن الاسقع ان رجلا شكا الى النبي صلى عليه وآله وسلم وجع حلقه قال عليك بقراءة القرآن والعسل فالقرآن شفاء لما في الصدور والعسل شفاء من كل داء والشفاء في الاصل مصدر جعل وصفا مبالغة أو هو اسم لما يشفى به أي يتداوى فهو كالدواء لما يداوى به وانما خص الصدر بالذكر لانه موضع القلب وغلافه وهو أعز موضع في بدن الانسان لمكان القلب فيه وداء الجهل أضر للقلب من داء المرض للبدن والقرآن مزيل لامراض القلب كلها (وهدى ورحمة للمؤمنين) بانجائهم من الضلال نزل بالعطف تغاير الصفات منزلة تغاير الذات والهدى الارشاد لمن اتبع القرآن وتفكر فيه وتدبر معانيه الى الطريق الموصلة الى الجنة والرحمة هي ما يوجد في الكتاب العزيز من الامور التي يرحم بها عباده فيطلبها من أراد ذلك حتى ينالها فالقرآن العظيم مشتمل على هذه الامور وجامع لهذه الاشياء كلها قال الكرخي والحاصل أن الموعظة اشارة الى تطهير ظواهر الخلق عما لا ينبغي وهو الشريعة والشفاء اشارة الى تطهير الباطن عن العقائد الفاسدة والاخلاق الذميمة وهو الطريقة والهدى اشارة الى ظهور نور الحق في قلوب الصديقين وهو الحقيقة والرحمة اشارة الى كونها بالغة في الكمال والاشراق الى حيث تصير مكملة للناقصين وهي النبوة فهذه درجات عقلية ومراتب برهانية مدلول عليها بهذه الالفاظ القرآنية لا يمكن تأخير ما تقدم ذكره اه ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وجعل الخطاب معه بعد خطابه للناس على العموم فقال (قل بفضل الله وبرحمته) المراد بالفضل من الله سبحانه هو تفضله على عباده في الآجل والعاجل بما لا يحيط به الحصر

فيما زعم ابن عباس كانوا اذا رأوا بقرة حسناء أمرهم فرعون أن يعبدوها فلذلك أخرج لهم عجلا جسدا له خوار فأجابهم فرعون فيما سألوا بقوله سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وهذا أمر ثان بهذا الصنيع وكان قد نكل بهم به قبل ولادة موسى عليه السلام حذرا من وجوده فكان خلاف ما رامه وضد ما قصده فرعون وهكذا عومل في صنيعه هذا أيضا لما أراد اذلال بني اسرائيل وقهرهم جاء الامر على خلاف ما أراد أعزهم الله وأذله وأرغم أنفه وأغرقه وجنوده ولما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبني اسرائيل قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا. (٢٣٢) ووعدهم بالعاقبة وان الدار ستصير لهم في قوله ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا أي قد فعلوا بنا مثل ما رأيت من الهوان والاذلال من قبل ما جئت يا موسى ومن بعد ذلك فقال منبها لهم على حالهم الحاضر وما يصيرون اليه في ثاني الحال عسى ربكم أن يهلك عدوكم الآية وهذا تحضيض لهم على العزم على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه الا انما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون) يقول تعالى ولقد أخذنا آل فرعون أي اختبرناهم وامتحناهم وابتليناهم بالسنين وهي سني الجوع بسبب قلة الزرع ونقص من الثمرات قال مجاهد وهو دون ذلك وقال أبو اسحق عن رجاء بن حيوة كانت النخلة لا تحمل الا ثمرة واحدة لعلهم يذكرون فاذا جاءتهم الحسنة أي من الخصب والرزق قالوا لنا هذه أي هذا لنا بما نستحقه وان تصبهم سيئة أي جدب وقحط يطيروا بموسى ومن معه أي هذا بسببهم وما جاؤا به الا انما طائرهم عند الله قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس الا انما طائرهم عند الله مصائبهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون وقال ابن جريج عن ابن عباس قال الا انما طائرهم عند الله قال أي من قبل الله (وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني اسرائيل فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه

والرحمة رحمة لهم وروى عن ابن عباس أنه قال فضل الله القرآن ورحمته الاسلام وعن الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة أن فضل الله الايمان ورحمته القرآن وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فضل الله القرآن ورحمته ان جعلكم من أهله رواه أبو الشيخ وابن مردويه وقد روى عن جماعة من التابعين نحو هذه الروايات المتقدمة والاولى حمل الفضل والرحمة على العموم ويدخل في ذلك ما في القرآن منهما دخولا أوليا وتكرير الباء في برحمته للدلالة على أن كل واحد من الفضل والرحمة سبب مستقل في الفرح وأصل الكلام قل بفضل الله وبرحمته فليفرحوا ثم حذف هذا الفعل لدلالة الثاني عليه في قوله (فبذلك فليفرحوا) وقيل ان فرحوا بشيء فليخصوا فضل الله ورحمته بالفرح وهو اللذة في القلب بسبب ادراك المطلوب وتقديم الظرف على الفعل لافادة الحصر والتكرير للتأكيد والتقرير وايجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا وفي هاتين الفائين أوجه ذكرها في الجمل وقد ذم الله سبحانه الفرح في مواطن كقوله لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين وجوزه في قوله فرحين بما آتاهم الله من فضله وكما في هذه الآية وقيل التقدير جاءتكم موعظة بفضل الله ورحمته فبذلك أي فبمجيئهما فليفرحوا (هو خير) أي ان هذا خير لهم (مما يجمعون) من حطام الدنيا ولذاتها الفانية قرئ بالياء والتاء وهما سبعيتان ثم أشار سبحانه بقوله (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا) الى طريق أخرى غير ما تقدم في اثبات النبوة وتقرير ذلك ما حاصله انكم تحكمون بتحليل البعض وتحريم البعض فان كان بمجرد التشهي والهوى فهو مهجور باتفاق العقلاء مسلمهم وكافرهم وان كان لاعتقاد كم انه حكم الله فيكم وفيما رزقكم فلا تعرفون ذلك الا بطريق موصلة الى الله ولا طريق يتبين بها الحلال من الحرام الا من جهة الرسل الذين أرسلهم الله الى عباده والمعنى أخبروني الذي أنزل الله لكم من رزق أي زرع وضرع وغيرهما فجعلتم بعضه حراما كالبحيرة والسائبة وبعضه حلالا كالميتة وذلك كما كانوا يفعلونه في الانعام والحرث حسبما سبق حكاية ذلك عنهم في سورة الانعام من الكتاب العزيز وقيل ما استفهامية واليه ذهب الحوفي والزمخشري والظاهر أنها موصولة كما تقدم لان فيه ابقاء أرأيت على بابها ومعنى انزال الرزق كون المطر ينزل من جهة العلو وقال الزجاج أنزل بمعنى خلق

اذا هم ينكثون) هو اخبار من الله عز وجل عن تمرد قوم فرعون وعتوهم وعنادهم للحق واصرارهم على الباطل وقولهم مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين يقولون أى آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها رددناها فلا نقبلها منك ولا نؤمن بك ولا بما جئت به قال الله تعالى فأرسلنا عليهم الطوفان اختلفوا فى معناه فعن ابن عباس فى روايات كثيرة الامطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار وبه قال الضحاك بن مزاحم وعن ابن عباس فى رواية أخرى هو كثرة الموت وكذا قال عطاء وقال مجاهد الطوفان الماء والطاعون على كل حال وقال ابن جرير حدثنا ابن هشام الرفاعى حدثنا يحيى بن يمان (١) حدثنا المنهال (٢٣٢) بن خليفة عن الحجاج عن الحكم بن ميناء عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الطوفان الموت وكذا رواه ابن مردويه من حديث يحيى بن يمان به وهو حديث غريب وقال ابن عباس فى رواية أخرى هو أمر من الله طاف بهم ثم قرأ فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون وأما الجراد فمعروف مشهور وهو مأكول لما ثبت فى الصحيحين عن أبى يعفور قال سألت عبد الله بن أبى أوفى عن الجراد فقال غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات نأكل الجراد وروى الشافعى وأحمد بن حنبل وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم عن أبيه عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال أحلت لنا ميتتان ودمان الحوت والجراد والكبد والطحال ورواه أبو القاسم البغوى عن داود بن رشيد عن سويد بن عبد العزيز عن أبى تمام الايلى عن زيد بن أسلم عن ابن عمر مرفوعا مثله وروى أبو داود عن محمد بن الفرج عن محمد بن زبرقان الاهوازى عن سليمان التيمى عن أبى عثمان عن سلمان قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن

الجراد فقال أكثر جنود الله لا آكله ولا أحرمه وانما تركه عليه السلام لانه كان يعافه كما عافت نفسه الشريفة أكل الضب وأذن فيه وقد روى الحافظ ابن عساكر فى جزء جمعه فى الجراد من حديث أبى سعيد الحسن بن على العدوى حدثنا نصر بن يحيى بن سعيد حدثنا يحيى بن خالد عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأكل الجراد ولا الكلوتين ولا الضب من غير أن يحرمها اما الجراد فرجز وعذاب وأما الكلوتان فلقربهما من البول وأما الضب فقال أتخوف أن يكون مسخا ثم قال غريب لم أكتبه الا من هذا الوجه وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يشتهيه ويحبه

خالق كما قال وأنزل لكم من الانعام ثمانية أزواج وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد (قل آلله أذن لكم) فى هذا التحليل والتحريم والهمزة للانكار (أم على الله تفترون) أم منقطعة بمعنى بل كما فى الكشاف والظاهر أنها متصلة كما قال السفاقسى أى آلله أذن لكم أم تكذبون عليه فى نسبة الاذن اليه قال الكرخى وكفى به زاجرا لمن أفتى بغير اتقان كبعض فقهاء هذا الزمان اه واظهار الاسم الشريف وتقديمه على الفعل للدلالة على كمال قبح الافتراء قلت وفى هذه الآية الشريفة ما يصك مسامع المتصدرين للافتاء لعباد الله فى شريعته بالتحليل والتحريم والجواز وعدمه مع كونهم من المقلدين الذين لا يعقلون حجج الله ولا يفهمونها ولا يدرون ما هى ومبلغهم من العلم الحكاية لقول قائل من هذه الامة قد قلدوه فى دينهم وجعلوه شارعا مستقلا ما عمل به من الكتاب والسنة فهو المعمول به عندهم وما لم يبلغه أو بلغه ولم يفهمه حق فهمه وأخطأ الصواب فى اجتهاده وترجيحه فهو فى حكم المنسوخ عندهم المرفوع حكمه عن العباد مع كون من قلدوه متعبدا بهذه الشريعة كما هم متعبدون بها ومحكوما عليه بأحكامها كما هم محكوم عليهم بها وقد اجتهد رأيه وادى ما عليه وفاز بأجرين مع الاصابة وأجر مع الخطا انما الشأن فى جعلهم لرأيه الذى أخطأ فيه شريعة مستقلة ودليلا معمولا به وقد أخطؤا فى هذا خطأ بينا وغلطوا غلطا فاحشا فان الترخيص للمجتهد فى اجتهاد رأيه يخصه وحده ولا قائل من أهل الاسلام المعتد بأقوالهم انه يجوز لغيره أن يعمل به تقليدا له واقتداء به وما جاء به المقلدة فى تقويم هذا الباطل فهو من الجهل العاطل اللهم كما رزقتنا من العلم ما نميز به بين الحق والباطل فارزقنا من الانصاف ما نظفر عنده بما هو الحق عندك يا واهب الخير قال النسفى الآية زاجرة عن التجوز فيما يسئل من الاحكام وباعثة على وجوب الاحتياط فيه وان لا يقول أحد فى شئ جائز أو غير جائز الا بعد ايقان واتقان والا فهو مفتر على الديان ثم قال (وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة) أى أى شئ ظنهم فى هذا اليوم وما يصنع بهم فيه أى لا ينبغى هذا الحسبان ولا صحة له بوجه من الوجوه وهذه الجملة الاستفهامية المتضمنة لتعظيم الوعيد لهم غير داخلة تحت القول الذى أمر الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ان يقوله لهم بل مبتدأة مسوقة لبيان ما سيحل بهم من عذاب الله وذكر الكذب بعد الافتراء مع ان الافتراء لا يكون الا كذبا لزيادة التأكيد (ان الله لذو فضل على

(١) قوله يحيى بن يمان كذا بالاصل وحرر اه

الجراد فقال ليت أن عندنا منه قفعة أو قفعتين نأكله وروى ابن ماجه حدثنا أحمد
فروى عبد الله بن دينار عن ابن عمران عمر سئل عن الجراد فقال ليت أن عندنا منه قفعة أو قفعتين نأكله وروى ابن ماجه حدثنا أحمد
ابن منيع عن سفيان بن عيينة عن أبي سعد سعيد بن المرزبان البقال سمع أنس بن مالك يقول كن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم
يتهادين الجراد على الاطباق وقال أبو القاسم البغوي حدثنا داود بن رشيد حدثنا بقية بن الوليد عن يحيى بن يزيد القتبي حدثني
أبي عن صدى بن عجلان عن أبي أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مريم بنت عمران عليها السلام سألت ربها
عز وجل أن يطعمها لحما لا دم له فأطعمها الجراد فقالت اللهم أعشه بغير رضاع وتابع بينه بغير شياع وقلت يا
الشياع الصوت وقال أبو بكر بن أبي داود حدثنا أبو تقي هشام بن عبد الملك المزني حدثنا بقية بن الوليد حدثنا اسمعيل بن عياش عن ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبي زهير النميري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقاتلوا الجراد فانه جند الله الاعظم غريب جدا وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد قال كانت تأكل مسامير أبوابهم وتدع الخشب وروى ابن عساكر من حديث علي بن زيد الخرائطي عن محمد بن كثير سمعت الاوزاعي يقول خرجت الى الصحراء فاذا أنا برجل من جراد في السماء فاذا برجل راكب على جرادة منها وهو شاك في الحديد وكلما قال بيده هكذا مال الجراد مع يده وهو يقول الدنيا باطل باطل ما فيها الدنيا باطل باطل ما فيها الدنيا باطل باطل ما فيها وروى الحافظ أبو الفرج المعافى بن زكريا الحريري حدثنا محمد بن الحسن بن زياد حدثنا أحمد بن عبد الرحيم أخبرنا وكيع عن
الاعمش أنبأنا عامر قال سئل شريح القاضي عن الجراد فقال قبح الله الجرادة فيها خلقة سبعة
جبابرة رأسها رأس فرس وعنقها عنق ثور وصدرها صدر أسد وجناحها جناح نسر ورجلاها رجل جمل وذنبها ذنب حية
وبطنها بطن عقرب وقدمنا عند قوله تعالى أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة حديث حماد بن سلمة قال خرجنا مع
رسول الله صلى الله عليه وسلم في حج أو عمرة فاستقبلنا رجل جراد فجعلنا نضربه بالعصا ونحن محرمون فسألنا رسول الله صلى الله عليه
وسلم فقال لا بأس بصيد البحر وروى ابن ماجه عن هرون الحمالي عن هشام بن القاسم عن زياد بن عبد الله بن علاثة عن أبي المهزم
عن أبي هريرة عن موسى بن أبي محمد بن ابراهيم التيمي عن أبيه عن أنس وجابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان اذا دعا على

الناس) يتفضل عليهم بأنواع النعم في الدنيا والآخرة ومنه بعثة الرسل وانزال الكتب لبيان الحلال والحرام وابقاء الكتاب والسنة الى آخر الدهر والزمان (ولكن أكثرهم لا يشكرون) الله على نعمه الواصلة اليهم منه سبحانه في كل وقت من الاوقات وطرفة من الطرفات ولا يصرفون مشاعرهم الى ما خلقت له (وما تكون في شأن) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما نافية والشأن الامر بمعنى القصد وجمعه شؤن قال الاخفش تقول العرب ما شأنت شأنه اى ما عملت عمله وما قصدت قصده فهو مصدر بمعنى المفعول (وما تتلو منه من قرآن) قال الفراء والزجاج الضمير يعود على الشان والجار والمجرور صفة لمصدر محذوف اى تلاوة كائنة منه اذ التلاوة للقرآن من أعظم شؤنه صلى الله عليه وآله وسلم والمعنى أنه يتلو من أجل الشان الذي حدث القرآن فيعلم كيف حكمه أو يتلو القرآن الذي ينزل في ذلك الشان وقال ابن جرير الطبري الضمير في منه عائد الى الكتاب اى ما يكون من كتاب الله من قرآن واعاده تفخيما له كقوله الا انا الله وقيل ما تتلو من الله من قرآن نازل عليك فمن الثانية زائدة والاولى اما تعليلية أو ابتدائية بحسب الوجهين المتقدمين والخطاب في (ولا تعملون من عمل) لرسول الله وللامة وقيل الخطاب لكفار قريش (الا كنا عليكم شهودا) استثناء مفرغ من أعم الاحوال للمخاطبين بالافعال الثلاثة اى ما تلابسون بشئ منها في حال من الاحوال الا في حال كوننا رقباء مطلعين عليه حافظين له يقال شهدت على الشئ اطلعت عليه فانا شاهد وشهيد والجمع اشهاد وشهود والضمير في (اذ تفيضون فيه) عائد على العمل يقال أفاض فلان في الحديث والعمل اذا اندفع فيه وقال الضحاك الضمير في فيه عائد على القرآن والمعنى اذ تشيعون في القرآن الكذب والافاضة الدخول في العمل على جهة الانصباب اليه والانبساط فيه قال ابن الانباري اذ تندفعون فيه وتنبسطون في ذكره وقيل الافاضة الدفع بكثرة وقال الزجاج تنشرون فيه وقيل تخوضون فيه وقيل تأخذون أى تشرعون فيه والمعاني متقاربة (وما يعزب) أى يغيب ويخفى وقيل يبعد وقال ابن كيسان يذهب وهذه المعاني متقاربة قرئ بضم الزاى وبكسرها سبعيتان وهما لغتان فصيحتان (عن ربك) اى عن علمه ومن في (من مثقال ذرة) زائدة اى ما يعزب عنه وزن ذرة اى نملة حمراء وهي خفيفة الوزن جدا (في الارض ولا في السماء) اى في دائرة

الجراد قال اللهم اهلك كباره واقتل صغاره وافسد بيضه واقطع دابره وخذ بأفواههم عن معايشنا وارزقنا انك سميع الدعاء فقال له جابر يارسول الله أتدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره فقال انما هو نثرة حوت فى البحر قال هاشم أخبرنى زياد أنه أخبره من رآه ينثره الحوت قال من حقق ذلك ان السمك اذا باض فى ساحل البحر فنضب الماء عنه وبدا للشمس انه ينفقس كله جرادا طيارا وقدمنا عند قوله الا أمم أمثالكم حديث عمر رضى الله عنه ان الله خلق ألف أمة ستمائة فى البحر وأربعمائة فى البر وان أولها هلاكا الجراد وقال أبو بكر بن أبى داود حدثنا يزيد بن المبارك حدثنا (٢٣٥) عبد الرحمن بن قيس سالم بن سالم حدثنا أبو المغيرة الجوزجانى محمد بن مالك عن البراء ابن عازب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا دابع السيف ولا لخامع الجراد حديث غريب. وأما القمل فعن ابن عباس هو السوس الذى يخرج من الحنطة وعنه أنه الدباء وهو الجراد الصغار الذى لا أجنحة له وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة وعن الحسن وسعيد بن جبير القمل دواب سود صغار وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم القمل البراغيث وقال ابن جرير القمل جمع واحدتها قملة وهى دابة تشبه القمل تأكل الابل فيما بلغنى وهى التى عناها الاعشى بقوله

قوم تقابح قملا وسلاسلا (٣)
أجدا وبابا موصدا

قال وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة يزعم أن القمل عند العرب الحمنان واحدتها حمنانة وهى صغار القردان فوق القمقامة وقال الامام أبو جعفر بن جرير حدثنا ابن حميد الرازى حدثنا يعقوب القمى عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير قال لما أتى موسى عليه السلام فرعون قال له ارسل معى بنى اسرائيل فأرسل الله عليهم الطوفان وهو المطر فصب عليهم منه شيأ خافوا أن يكون عذابا فقالوا لموسى ادع لنا ربك يكشف عنا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بنى اسرائيل فدعا ربه فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى اسرائيل فأنبت لهم فى تلك السنة شيأ لم ينبته قبل ذلك من الزروع والثمار والكلا فقالوا هذا ما كنا نتمنى فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه على الكلا فلما رأوا أثره على الكلا عرفوا أنه لا يبقى الزرع فقالوا يا موسى ادع لنا ربك فيكشف عنا الجراد فنؤمن لك ونرسل معك بنى اسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم الجراد فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى اسرائيل فداسوا وأحرزوا فى البيوت فقالوا قد أحرزنا فأرسل الله عليهم القمل وهو السوس الذى يخرج

الوجود والامكان وانما عبر عنهما بهما مع أنه سبحانه لا يغيب عنه شئ لا فيهما ولا فيما هو خارج عنهما لان الناس لا يشاهدون سواهما وسوى ما فيهما من المخلوقات وقدم الارض على السماء لانها محل استقرار العالم فهم يشاهدون ما فيها من قرب (ولا أصغر من ذلك) أى من مثقال ذرة كلام برأسه مقرر لما قبله ولا نافية للجنس (ولا أكبر) منها (الا) وهو (فى كتاب مبين) فكيف يغيب عنه وهو الكتاب الذى عند الله يعنى اللوح المحفوظ قاله السدى وقد أورد على توجيه النصب والرفع فى أصغر وأكبر على العطف على لفظ مثقال ومحله أو على لفظ ذرة اشكال وهو أنه يصير تقدير الآية لا يعزب عنه شئ فى الارض ولا فى السماء الا فى كتاب ويلزم منه أن يكون ذلك الشئ الذى فى الكتاب خارجا عن علم الله وهو محال وقد أجيب عن هذا الاشكال بأن الاشياء المخلوقة قسمان قسم أوجده الله ابتداء من غير واسطة كخلق الملائكة والسموات والارض وقسم آخر أوجده بواسطة القسم الاول من حوادث عالم الكون والفساد ولا شك أن هذا القسم الثانى متباعد فى السلسلة العلية عن مرتبة الاول فالمراد من الآية أنه لا يبعد عن مرتبة وجوده سبحانه شئ فى الارض ولا فى السماء الا وهو فى كتاب مبين أثبت فيه صورة تلك المعلومات والغرض الرد على من يزعم أنه غير عالم بالجزئيات وأجيب أيضا بأن الاستثناء منقطع أى لكن هو فى كتاب مبين وذكر أبو على الجرجانى ان الا بمعنى الواو أى وهو أيضا فى كتاب مبين والعرب قد تضع الا موضع الواو ومنه قوله تعالى انى لا يخاف لدى المرسلون الا من ظلم يعنى ومن ظلم وقوله لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا أى والذين ظلموا وقدره هو بعد الواو التى جاءت الا بمعناها كما فى قوله وقولوا حطة أى هى حطة قال الكرخى وهذا الوجه فيه تعسف ومثله قوله ولا تقولوا ثلاثة وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين وجوز الكواشى كونه متصلا مستثنى من يعزب على أن معنا يبين ويصدر والمعنى لا يصدر عن الله شئ بعد خلقه له الا وهو فى كتاب وقال السكاكى قد حاول الرازى جعله متصلا بعبارة طويلة محصلها أنه جعله استثناء مفرغا وهو حال من أصغر وأكبر وهو فى قوة المتصل ولا يقال فيه متصل ولا منقطع ثم لما بين سبحانه احاطته بجميع الاشياء وكان فى ذلك تقوية لقلوب المطيعين وكسر لقلوب العاصين ذكر حال المطيعين فقال (ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم) الولى

(٣) قوله قوم تقابح البيت هو هكذا فى الاصل وحرره اه مصححه

في اللغة ضد العدو فهو المحب ومحبة العباد لله طاعتهم له ومحبته لهم اكرامه اياهم وعلى
الاول يكون فعيل بمعنى فاعل وعلى الثاني بمعنى مفعول فهو مشترك بينهما وتركيب
الواو واللام والياء يدل على معنى القرب فولي كل شيء هو الذي يكون قريبا منه والمراد
بالاولياء خاص المؤمنين كأنهم قربوا من الله سبحانه بطاعته واجتناب معصيته والمراد
بنفي الخوف عنهم انهم لا يخافون أبدا كما يخاف غيرهم لانهم قد قاموا بما أوجب الله عليهم
وانتهوا عن المعاصي التي نهاهم عنها فهم على ثقة من أنفسهم وحسن ظن بربهم وكذلك
(ولا هم يحزنون) على فوت مطلب من المطالب لانهم يعلمون ان ذلك بقضاء الله وقدره
فيسلمون للقضاء والقدر ويريحون قلوبهم عن الهم والكدر فصدورهم منشرحة
وجوارحهم نشطة وقلوبهم مسرورة وقد فسر سبحانه هؤلاء الاولياء بقوله (الذين آمنوا
وكانوا يتقون) أي يؤمنون بما يجب الايمان به ويتقون ما يجب عليهم اتقاؤه من معاصي
الله سبحانه قال أبو السعود والمراد بالتقوى المرتبة الثالثة منها الجامعة لما تحتها من
مرتبة التوقي عن الشرك التي يفيدها الايمان أيضا ومرتبة التجنب عن كل ما يؤثم من
فعل وترك أعني تنزه الانسان عن كل ما يشغل سره عن الحق والتبتل اليه بالكلية وهي
التقوى الحقيقي المأمور به في قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته وبه
يحصل الشهود والحضور والقرب الذي عليه يدور اطلاق الاسم عليه فلاك أمر الولاية
هو التقوى المذكور فأولياء الله هم المؤمنون المتقون وعن سعيد بن جبير قال هم الذين
اذا رأوا ذكر الله وعن ابن عباس قال اذا رأوا ايذكر الله لرؤيتهم وقال أبو حنيفة والشافعي
اذا لم تكن العلماء أولياء الله فليس لله ولي قال النووي وذلك في العالم العامل بعلمه وقد
أكثر أهل العلم من المتكلمين والصوفية وغيرهم في تعريف الولي ووصفه وأطالوا
المقالات في ذلك بما لا حاجة اليه وهذه الآية تغني عنها فانه اذا جاء نهر الله بطل نهر معقل
والحاصل أن ولي الله من كان آتيا بالاعتقاد الصحيح المبني على الدليل وبالاعمال الصالحة
على وفق ما وردت به السنة المطهرة لان الايمان مبني على العقيدة والعمل ومقام التقوى
هو ان يتقي العبد كل ما نهى الله عنه وعن عمرو بن الجموح أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله
وسلم يقول لا يحق العبد حق صريح الايمان حتى يحب لله ويبغض لله فاذا أحب لله
وأبغض لله فقد استحق الولاية من الله وان أوليائي من عبادي وأحبائي من خلقي الذين

يذكرون

منه فكان الرجل يخرج عشرة أجربة الى الرحى فلا يرد منها ثلاثة أقفزة فقالوا يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا القمل فنؤمن
لك ونرسل معك بني اسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم فأبوا أن يرسلوا معه بني اسرائيل فبينما هو جالس عند فرعون اذ سمع نقيق
ضفدع فقال لفرعون ما تلقى أنت وقومك من هذا فقال وما عسى أن يكون كيد هذا فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس الى ذقنه
في الضفادع ويهم ان يتكلم فتثب الضفدع في فيه فقالوا لموسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع فنؤمن لك ونرسل
معك بني اسرائيل فلم يؤمنوا وأرسل الله عليهم الدم فكانوا يستقون من الانهار والآبار وما كان في
أوعيتهم وجدوه دما عبيطا فشكوا
الى فرعون فقالوا انا قد ابتلينا بالدم
وليس لنا شراب فقال انه قد سحركم
فقالوا من أين سحرنا ونحن لا نجد في
أوعيتنا شيأ من الماء الا وجدناه دما
عبيطا فأتوه وقالوا يا موسى ادع لنا
ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن
لك ونرسل معك بني اسرائيل فدعا
ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا
ولم يرسلوا معه بني اسرائيل وقد
روى نحو هذا عن ابن عباس
والسدي وقتادة وغير واحد من
علماء السلف وقال محمد بن اسحق
ابن يسار رحمه الله فرجع عدو الله
فرعون حين آمنت السحرة مغلوبا
مغلولا ثم أبى الا الاقامة على
الكفر والتمادي في الشر فتابع الله
عليه الآيات فأخذه بالسنين
وأرسل عليه الطوفان ثم الجراد
ثم القمل ثم الضفادع ثم الدم آيات
مفصلات فأرسل الطوفان وهو
الماء ففاض على وجه الارض ثم
ركد لا يقدرون على أن يحرثوا
ولا يعملوا شيأ حتى جهدوا وجوعوا
فلما بلغهم ذلك قالوا يا موسى ادع لنا
ربك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن
لك ولنرسلن معك بني اسرائيل فدعا موسى ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا فأرسل الله عليهم
الجراد فأكل الشجر فيما بلغني حتى ان كان لا يأكل مسامير الابواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم فقالوا مثل ما قالوا
فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا فأرسل الله عليهم القمل فذكر لي أن موسى عليه السلام أمر أن يمشي الى كثيب
حتى يضربه بعصاه فمشى الى كثيب أهيل عظيم فضربه بها فأسال عليهم قملا حتى غلب على البيوت والاطعمة ومنعهم النوم والقرار
فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا فأرسل الله عليهم الضفادع فملأت البيوت

والاطعمة والآنية فلا يكشف أحد ثوبا ولا طعاما الا وجد فيه الضفادع قد غلب عليه فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا فسأل ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دما لا يستقون من بئر ولا نهر ولا يغترفون من اناء الا عاد دما عبيطا وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن منصور المروزي أنبأنا النضر أنبأنا اسرائيل أنبأنا جابر بن يزيد عن عكرمة عن عبيد الله بن عمرو قال لا تقتلوا الضفادع فانها لما أرسلت على قوم فرعون انطلق ضفدع منها فوقع في تنور فيه نار يطلب بذلك مرضاة الله فأبدلهن الله من هذا أبرد شيء يعلمه من الماء وجعل نقيقهن

التسبيح وروى من طريق عكرمة عن ابن عباس نحوه وقال زيد بن أسلم يعني بالدم الرعاف رواه ابن أبي حاتم (فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمردوا مع ابتلائه اياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة انتقم منهم باغراقه اياهم في اليم وهو البحر الذي فرقه لموسى فجاوزه وبنو اسرائيل معه ثم ورده فرعون وجنوده على اثرهم فلما استكملوا فيه التطم عليهم فغرقوا عن آخرهم وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها وأخبر تعالى انه اورث القوم الذين كانوا يستضعفون وهم بنو اسرائيل مشارق الارض ومغاربها كما قال تعالى ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الارض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون وقال تعالى كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوما آخرين وعن الحسن البصري وقتادة في قوله مشارق الارض ومغاربها يعني الشام التي باركنا فيها وقوله وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا قال مجاهد وابن جرير وهي قوله تعالى ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الارض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون وقوله ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون قال ابن عباس ومجاهد يعرشون يبنون (وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على

يذكرون بذكري واذكر بذكرهم أخرجه أحمد وغيره وأخرج أحمد عن عبد الرحمن بن غنم يبلغ به النبي صلى الله عليه وآله وسلم خيار عباد الله الذين اذا رأوا ذكر الله وشرار عباده المشاؤن بالنميمة المفرقون بين الاحبة الباغون البراء العنت وعن ابن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خياركم من ذكركم الله رؤيته وزاد في علمكم منطقه ورغبكم في الآخرة عمله أخرجه الحكيم الترمذي وعن ابن عمر مرفوعا ان لله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء يوم القيامة بقربهم ومجلسهم منه فجثى اعرابي على ركبتيه فقال يا رسول الله صفهم لنا حلهم لنا قال قوم من أفناء الناس من نزاع القبائل تصافوا في الله وتحابوا في الله يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم يخاف الناس ولا يخافون هم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون أخرجه الحاكم وصححه وأخرج أبو داود وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكر نحوه قال ابن كثير واسناده جيد وروى بطريق عن جماعة من الصحابة وقد ورد في فضل المتحابين في الله أحاديث ليس فيها أنهم المرادون بالآية (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) تفسير لمعنى كونهم أولياء الله أي لهم البشرى من الله ما داموا في الحياة بما يوحيه الى أنبيائه وينزله في كتبه من كون حال المؤمنين عنده هو ادخالهم الجنة ورضوانه عنهم كما وقع كثير من البشارات للمؤمنين في القرآن الكريم وكذلك ما يحصل لهم من الرؤيا الصالحة وما يتفضل الله به عليهم من اجابة دعائهم وما يشاهدونه من التبشير لهم عند حضور آجالهم بتنزل الملائكة عليهم قائلين لهم لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة قاله الزهري وقتادة واما البشرى في الآخرة فتلقي الملائكة لهم مبشرين بالفوز بالنعيم والسلامة من العذاب والبشرى مصدر أريد به المبشر به والمراد حال كونهم في الدنيا وحال كونهم في الآخرة وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن جرير والبيهقي وغيرهم عن رجل من أهل مصر قال سألت أبا الدرداء عن معنى قوله لهم البشرى فقال ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال ما سألني عنها أحد غيرك منذ أنزلت علي هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له فهي بشراه في الحياة الدنيا وبشراه في الآخرة الجنة وفي اسناده هذا الرجل المجهول وعن عبادة بن الصامت مرفوعا مثله عند أحمد والدارمي والترمذي وابن ماجه وأخرج

أحمد والبيهقي عن ابن عمر مرفوعا قال الرؤيا الصالحة يبشر بها المؤمن جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة فمن رأى ذلك فليخبر بها الحديث وفي الباب أحاديث وقد وردت أحاديث صحيحة بأن الرؤيا الصالحة من المبشرات وأنها جزء من أجزاء النبوة ولكنها لم تقيد بتفسير هذه الآية وقد روي عن ابن عباس أن المراد بالبشرى في الآية هي قوله وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا وعنه أنها قوله ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا وقيل البشرى في الحياة الدنيا هي الثناء الحسن وفي الآخرة الجنة وعن أبي ذر قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه قال تلك عاجل بشرى المؤمن أخرجه مسلم قال أهل العلم وهي دليل للبشرى المؤخرة في الآخرة وهذه البشرى المعجلة دليل على رضاء الله عنه وقيل غير ذلك واللفظ أوسع من ذلك (لا تبديل لكلمات الله) أي لا تغيير لأقواله ولا خلف لمواعيده على العموم فيدخل فيها ما وعد به عباده الصالحين دخولا أوليا (ذلك) أي المذكور قبله من كونهم مبشرين بالبشارتين في الدارين (هو الفوز العظيم) الذي لا يقادر قدره ولا يماثله غيره والجملتان اعتراض في آخر الكلام عند من يجوزه وفائدتها تحقيق المبشر به وتعظيم شأنه والأولى اعتراضية والثانية تذييلية (ولا يحزنك قولهم) نهي للنبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الحزن من قول الكفار المتضمن للطعن عليه وتكذيبه والقدح في دينه والمقصود تسليته صلى الله عليه وآله وسلم عما كان يلقاه من جهتهم من الأذية الناشئة عن مقالاتهم الموحشة وتبشير له بأنه تعالى ينصره ثم استأنف سبحانه الكلام مع رسوله صلى الله عليه وآله وسلم معللا لما ذكره من النهي فقال (ان العزة لله جميعا) أي الغلبة والقدرة والقهر له في مملكته وسلطانه ليست لأحد من عباده وإذا كان ذلك كله له فكيف يقدرون عليك حتى تحزن لأقوالهم الكاذبة وهم لا يملكون من الغلبة شيأ ولا ينافي هذا ما في سورة المنافقين ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين لأن كل عزة بالله فهي كلها لله حقيقة لكن قد يظهرها على يد رسوله وعلى أيدي المؤمنين تكريما وتعظيما لهم ومنه قوله كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إنا لننصر رسلنا (هو السميع) لما يقولون (العليم) بما يدبرون ويعزمون عليه وهو مكافئهم بذلك (ألا إن لله من في السموات ومن في الأرض) ومن جملتهم هؤلاء المشركون المعاصرون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وإذا كانوا في ملكه يتصرف فيهم

أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون) يخبر تعالى عما قاله جهلة بني إسرائيل لموسى عليه السلام حين جاوزوا البحر وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا فأتوا أي فمروا على قوم يعكفون على أصنام لهم قال بعض المفسرين كانوا من الكنعانيين وقيل كانوا من لخم قال ابن جرير وكانوا يعبدون أصناما على صور البقر فلهذا أثر ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك فقالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون أي تجهلون عظمة الله وجلاله وما يجب أن (١٣٨) ينزه عنه من الشريك والمثيل إن هؤلاء متبر ما هم فيه أي هالك وباطل ما كانوا يعملون وروى الإمام أبو جعفر ابن جرير في تفسير هذه الآية من حديث محمد بن إسحق وعقيل ومعمر كلهم عن الزهري عن سنان ابن أبي سنان عن أبي واقد الليثي أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين قال وكان للكفار سدرة يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط قال فمررنا بسدرة خضراء عظيمة قال فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن سنان ابن أبي سنان عن أبي واقد الليثي قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل حنين فمررنا بسدرة فقلت يا نبي الله اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها فقال النبي صلى الله عليه وسلم الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة إنكم تركبون سنن من قبلكم أورده ابن جرير وزاده ابن أبي حاتم من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده مرفوعا (قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) يذكرهم موسى عليه السلام نعم الله عليهم من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره وما كانوا فيه من الهوان والذلة وما صاروا إليه من العزة والاشتفاء من عدوهم والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه وغرقه ودماره وقد تقدم

كيف

(وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هرون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) يقول تعالى ممتنا على بنى اسرائيل بما حصل لهم من الهداية بتكليمه موسى عليه السلام واعطائه التوراة وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم فذكر تعالى انه واعد موسى ثلاثين ليلة قال المفسرون فصامها موسى عليه السلام فلما أتم الميقات استاك بلحاء شجرة فأمره الله تعالى أن يكمل بعشرة أربعين وقد اختلف المفسرون فى هذه العشر ما هى فالأكثرون على ان الثلاثين هى ذو القعدة والعشر عشر ذى الحجة قاله مجاهد ومسروق وابن جريج وروى عن ابن عباس وغيره فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر وحصل فيه التكليم لموسى عليه السلام وفيه أكمل الله الدين لمحمد صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا فلما تم الميقات وعزم موسى على الذهاب الى الطور كما قال تعالى يابنى اسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن الآية فحينئذ استخلف موسى على بنى اسرائيل أخاه هرون وأوصاه بالاصلاح وعدم الافساد وهذا تنبيه وتذكير والا فهرون عليه السلام نبى شريف كريم على الله وله وجاهة وجلالة صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الانبياء (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر اليك قال لن ترانى ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين) يخبر تعالى عن موسى عليه السلام انه جاء لميقات الله تعالى وحصل له التكليم من الله سأل الله تعالى ان ينظر اليه فقال رب أرنى أنظر اليك قال لن ترانى وقد أشكل حرف لن ههنا على كثير من العلماء لانها موضوعة لنفى التأبيد فاستدل به على المعتزلة على نفى الرؤية فى الدنيا والآخرة وهذا أضعف الاقوال لانه قد تواترت الاحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بان المؤمنين يرون الله فى الدار الآخرة كما سنوردها عند قوله تعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة وقوله تعالى اخبارا عن الكفار كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون وقيل انها لنفى التأبيد فى الدنيا جمعا بين هذه الآية وبين الدليل القاطع على صحة الرؤية فى الدار الآخرة وقيل ان هذا الكلام فى هذا المقام كالكلام فى قوله تعالى لا تدركه الابصار

كيف يشاء فكيف يستطيعون أن يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما لا يأذن الله به وألا كلمة تنبيه معناه انه لا ملك لاحد فيهما الا الله عز وجل فهو يملك ما فيهما وقال فى الآية الاولى ما وفى هذه من فجعوعهما دل على ان الله يملك جميع كل شئ فيهما من العقلاء وغيرهم أو غلب العقلاء على غيرهم لكونهم أشرف وفى الآية نعى على عباد البشر والملائكة والجمادات لانهم عبدوا المملوك وتركوا المالك وذلك مخالف لما يوجبه العقل ولهذا عقبه بقوله (وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء) ما نافية وشركاء مفعول يتبع وعلى هذا يكون مفعول يدعون محذوفا والاصل وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء فى الحقيقة انما هى أسماء لا مسميات لها فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه ويجوز أن يكون المذكور مفعول يدعون وحذف مفعول يتبع لدلالة المذكور عليه يعنى انهم وان سموا معبوداتهم شركاء لله فليس شركاء له على الحقيقة لان ذلك محال لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وقيل ما استفهامية أى أى شئ يتبع الذين يدعون وعلى هذا شركاء منصوب بيدعون والكلام خارج مخرج التوبيخ لهم والازراء عليهم وقيل موصولة والمعنى ان الله مالك لمعبوداتهم لكونها من جملة من فى السموات ومن فى الارض ثم زاد سبحانه فى تأكيد الرد عليهم والدفع لاقوالهم فقال (ان يتبعون الا الظن) أى ما يتبعون يقينا انما يتبعون ظنا ويظنون انهم آلهة تشفع لهم وان الظن لا يغنى من الحق شيأ (وان هم الا يخرصون) أصل معنى الخرص الحزر بتقديم الزاء على الراء أى التخمين والتقدير ويستعمل بمعنى الكذب لغلبته فى مثله والاسم الخرص بالكسر أى يقدرون انهم شركاء تقديرا باطلا وكذبا بحتا وقد تقدمت هذه الآية فى الانعام ثم ذكر سبحانه طرفا من آثار قدرته مع الامتنان على عباده ببعض نعمه فقال (هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا) الجعل ان كان بمعنى الابداع والخلق فمبصرا حال وان كان بمعنى التصيير فهو المفعول الثانى أى جعل لعباده الزمان منقسما الى قسمين أحدهما مظلم وهو الليل لاجل ان يسكن العباد فيه عن الحركة والتعب ويريحون أنفسهم عن الكد والكسب والآخر مبصر لاجل ان يسعوا فيه بما يعود على نفعهم وتوفير معايشهم ويحصلون ما يحتاجون اليه فى وقت مضئ منير لا يخفى عليهم كبير ولا حقير وجعله سبحانه للنهار مبصرا مجاز والمعنى انه مبصر صاحبه كقولهم نهاره صائم وقال قطرب تقول العرب أظلم الليل وابصر النهار

وشويدرك الابصار وهو اللطيف الخبير وقد تقدم ذلك في الانعام وفي الكتب المتقدمة ان الله تعالى قال لموسى عليه السلام يا موسى انه لا يراني حي الا مات ولا يابس الا تدهده ولهذا قال تعالى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا قال أبو جعفر بن جرير الطبري في تفسير هذه الآية حدثنا أحمد بن سهيل الواسطي حدثنا قرة بن عيسى حدثنا الاعمش عن رجل عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما تجلى ربه للجبل أشار باصبعه فجعله دكا وأرانا أبو اسمعيل باصبعه السبابة هذا الاسناد فيه رجل مبهم لم يسم ثم قال حدثني المثنى حدثنا حجاج بن منهال حدثنا حماد عن ليث عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا قال هكذا باصبعه ووضع النبي صلى الله عليه وسلم اصبعه الابهام على المفصل الاعلى من الخنصر فساخ الجبل هكذا وقع في هذه الرواية حماد بن سلمة عن ليث عن أنس والمشهور حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس كما قال ابن جرير حدثني المثنى حدثنا هدبة بن خالد حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا قال ووضع الابهام قريبا من طرف خنصره قال فساخ الجبل قال حميد لثابت يقول هذا فرفع ثابت يده فضرب صدر حميد وقال يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم و يقوله أنس وأنا أكتمه وهكذا رواه الامام أحمد في مسنده حدثنا أبو المثنى معاذ بن معاذ العنبري حدثنا حماد بن سلمة حدثنا ثابت البناني عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله فلما تجلى ربه للجبل قال قال هكذا يعني أنه أخرج طرف الخنصر فقال له حميد الطويل ما تريد الى هذا فضرب صدره ضربة شديدة وقال من أنت يا حميد وما أنت يا حميد يحدثني به أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول ما تريد اليه وهكذا رواه الترمذي في تفسير هذه الآية عن عبد الوهاب بن الحكم الوراق عن معاذ بن معاذ به وعن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي عن سليمان بن حرب عن حماد به ثم قال هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه الا من حديث حماد وهكذا رواه الحاكم في مستدركه من طرق عن حماد بن سلمة به وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ورواه أبو محمد الحسن بن محمد الخلال عن محمد بن علي بن سويد عن أبي القاسم البغوي عن هدبة بن خالد عن حماد بن

يعني صار ذا ظلمة وذا اضاءة وفي الكلام شبه احتباك حيث حذف من كل ما أثبته أو مقابله في الآخر فحذف مظلما لدلالة مبصرا عليه وحذف لتتحركوا لدلالة لتسكنوا عليه وهذا أفصح الكلام (ان في ذلك) الجعل المذكور (لآيات) عجيبة كثيرة (لقوم يسمعون) ما تتلى عليهم من الآيات التنزيلية المنبهة على الآيات التكوينية مما ذكره الله سبحانه ههنا منها ومن غيرها مما لم يذكره فعند السماع منهم لذلك يتفكرون ويعتبرون ويعلمون ان الذي خلق هذه الاشياء كلها هو الله المتفرد بالوحدانية في الوجود فيكون ذلك من أعظم أسباب الايمان (قالوا اتخذ الله ولدا) هذا نوع آخر من أباطيل المشركين أو أهل الكتاب التي كانوا يتكلمون بها وهو زعمهم بأن الله سبحانه اتخذ وتبنى ولدا فرد ذلك عليهم بقوله (سبحانه) فتنزه جل وعلا عما نسبوه اليه من هذا الباطل البين وكلمتهم الجفاء وبين أنه (هو الغني) عن ذلك وان الولد انما يطلب لاجل الحاجة والغني المطلق لا حاجة له حتى يكون له ولد يقضيها واذا انتفت الحاجة انتفى الولد وأيضا انما يحتاج الى الولد من يكون بصدد الانقراض ليقوم الولد مقامه والازلي القديم لا يفتقر الى ذلك وقد تقدم تفسير الآية في البقرة ثم بالغ في الرد عليهم بما هو كالبرهان فقال (له ما في السموات وما في الارض) واذا كان الكل له وفي ملكه فلا يصح أن يكون شيء مما فيهما ولدا له للمنافاة بين الملك والنبوة والابوة ثم زيف دعواهم الباطلة وبين انها بلا دليل فقال (ان) أي ما (عندكم من سلطان) حجة وبرهان (بهذا) القول الذي تقولونه ومن زائدة للتأكيد ثم وبخهم على هذا القول العاطل عن الدليل الباطل عند العقلاء (أتقولون على الله ما لا تعلمون) استفهام توبيخ ويستفاد من هذا ان كل قول لا دليل عليه ليس هو من العلم في شيء بل من الجهل المحض ثم أمر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ان يقول لهم قولا يدل على أن ما قالوه كذب وان من كذب على الله لا يفلح فقال (قل ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون) أي كل مفتر هذا شأنه ويدخل فيه قائل هذا القول دخولا أوليا وذكر الكذب مع الافتراء للتأكيد كما سبق في مواضع من الكتاب العزيز والمعنى أن هؤلاء الذين يكذبون على ربهم لا يفوزون بمطلب من المطالب ولا يسعدون وان اغتروا بطول السلامة والبقاء في النعمة ثم بين سبحانه ان هذا الافتراء وان فاز صاحبه بشيء من المطالب العاجلة فهو

(متاع)

سلمة فذكره وقال هذا اسناد صحيح لا علة فيه وقد رواه داود بن المحبر عن شعبة عن ثابت عن أنس مرفوعا بنحوه وأسنده ابن مردويه من طريقين عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس مرفوعا ولا يصح أيضا رواه الترمذي وصححه الحاكم وقال على شرط مسلم وقال السدي عن عكرمة عن ابن عباس في قول الله تعالى فلما تجلى ربه للجبل قال ما تجلى منه الا قدر الخنصر جعله دكا قال ترابا وخر موسى صعقا قال مغشيا عليه رواه ابن جرير وقال قتادة وخر موسى صعقا قال ميتا وقال سفيان الثوري ساخ الجبل في الارض حتى وقع في البحر فهو يذهب معه وقال سنيد عن حجاج بن محمد الاعور عن أبي بكر الهذلي فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا انقعر فدخل تحت الارض فلا يظهر الى يوم القيامة وجاء في بعض الاخبار أنه ساخ في الارض فهو يهوي فيها الى يوم القيامة رواه ابن مردويه وقال ابن أبي حاتم حدثنا عمر بن شبه حدثنا محمد بن يحيى أبو غسان الكناني حدثنا عبد العزيز بن عمران عن معاوية بن عبد الله عن الجلد بن أيوب بن قرة عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما تجلى الله للجبال طارت لعظمته ستة أجبل فوقعت ثلاثة بالمدينة وثلاثة بمكة بالمدينة أحد وورقان ورضوى ووقع بمكة حراء وثبير وثور وهذا حديث غريب بل منكر وقال ابن أبي حاتم ذكر عن محمد بن عبد الله بن أبي البلج حدثنا الهيثم بن خارجة

حدثنا عثمان بن حصين بن العلاف عن عروة ابن رويم قال كانت الجبال قبل أن يتجلى الله لموسى على الطور صما ملساء فلما تجلى الله لموسى على الطور دك وتفطرت الجبال فصارت الشقوق والكهوف وقال الربيع ابن أنس فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا وذلك ان الجبل حين كشف الغطاء ورأى النور صار مثل دك من الدكاك وقال بعضهم جعله دكا أي فتنة وقال مجاهد في قوله ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني فانه أكبر منك وأشد خلقا فلما تجلى ربه للجبل فنظر الى الجبل لا يتمالك وأقبل الجبل فدك على أوله ورأى موسى ما يصنع الجبل فخر صعقا وقال عكرمة جعله دكا قال نظر الله

الى الجبل فصار صخرا ترابا وقد قرأ بهذه القراءة بعض القراء واختارها ابن جرير وقد ورد فيها حديث مرفوع رواه ابن مردويه والمعروف ان الصعق هو الغشي ههنا كما فسره ابن عباس وغيره لا كما فسره قتادة بالموت وان كان ذلك صحيحا في اللغة كقوله تعالى ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون فان هناك قرينة تدل على الموت كما ان هنا قرينة تدل على الغشي وهي قوله فلما أفاق فانها لا تكون الا عن غشي قال سبحانك تنزيها وتعظيما واجلالا أن يراه أحد في الدنيا الا مات وقوله تبت اليك قال مجاهد أن أسألك الرؤية وأنا أول المؤمنين قال ابن عباس ومجاهد من بني اسرائيل واختاره ابن جرير وفي رواية أخرى عن ابن عباس وأنا أول المؤمنين أنه لا يراك أحد وكذا قال أبو العالية قد كان قبله مؤمنون ولكن يقول أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك الى يوم القيامة وهذا قول حسن له اتجاه وقد ذكر محمد ابن جرير في تفسيره ههنا أثرا طويلا فيه غرائب وعجائب عن محمد بن اسحق بن يسار وكأنه تلقاه من الاسرائيليات والله أعلم وقوله وخر موسى صعقا فيه أبو سعيد وأبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فأما حديث أبي سعيد فأسنده البخاري في صحيحه ههنا فقال حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال جاء رجل من

(متاع) قليل (في الدنيا) ثم يعقبه الموت والرجوع الى الله فيعذب المفتري عذابا مؤبدا والجملة مستأنفة لبيان ان ما يحصل للمفتري بافترائه وما يترآى فيه بحسب الظاهر من نيل المطالب والحظوظ الدنيوية بمعزل أن يكون من جنس الفلاح وليس بفائدة يعتد بها بل هو متاع يسير في الدنيا يعقبه الموت والعذاب الشديد بسبب الكفر الحاصل باسباب من جملتها الكذب على الله وليس بنافع في الآخرة وقال الاخفش ان التقدير لهم متاع في الدنيا وقال الكسائي ذلك متاع أو هو متاع (ثم الينا مرجعهم) بعد الموت (ثم نذيقهم العذاب الشديد بما) أي بسبب ما (كانوا يكفرون) أي يجحدون في الدنيا من نعمة الله عليهم ويصفونه بما لا يليق بجلاله ولما بالغ سبحانه في تقرير البراهين الواضحة ودفع الشبه المنهارة شرع في ذكر قصص الانبياء وما جرى لهم مع أممهم لما في ذلك من التسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأسوة بمن سلف من الانبياء ولما كان قوم نوح أول الامم هلاكا وأعظمهم كفرا وجحودا ذكر الله قصتهم وأنه أهلكهم بالغرق ليصير ذلك موعظة وعبرة لكفار قريش فقال (واتل عليهم) أي على الكفار المعاصرين لك المعارضين لما جئت به بأقوالهم الباطلة (نبأ نوح) أي خبره والنبأ هو الخبر الذي له خطر وشأن والمراد بعض ما جرى له مع قومه الذين كفروا وما جاءهم به كما فعله كفار قريش وأمثالهم (اذ) أي وقت ان (قال لقومه) اللام لام التبليغ (يا قوم ان كان كبر) أي عظم وثقل (عليكم

اليهود الى النبي صلى الله عليه وسلم قد لطم وجهه وقال يا محمد ان رجلا من أصحابك من الانصار لطم في وجهي قال ادعوه فدعوه قال لم لطمت وجهه قال يا رسول الله اني مررت باليهودي فسمعته يقول والذي اصطفى موسى على البشر قال فقلت وعلى محمد وأخذتني غضبة فلطمته قال لا تخيروني من بين الانبياء فان الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فاذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور وقد رواه البخاري في أماكن كثيرة من صحيحه ومسلم في أحاديث الانبياء من صحيحه وأبو داود في كتاب السنة من سننه من طرق عن عمرو بن يحيى بن عمارة بن أبي الحسن المازني الانصاري المدني عن أبيه عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري به وأما حديث أبي هريرة فقال الامام أحمد في مسنده حدثنا أبو كامل حدثنا ابراهيم بن سعد حدثنا ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعبد الرحمن الاعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال استب رجلان رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال المسلم والذي اصطفى محمدا على العالمين فقال اليهودي والذي اصطفى موسى على العالمين فغضب المسلم على اليهودي فلطمه فأتى اليهودي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله فأخبره فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعترف بذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تخيروني على موسى فان الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فاذا موسى ممسك بجانب العرش فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله عز وجل أخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري به وقد روى الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا رحمه الله ان الذي لطم اليهودي في هذه القصة هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه ولكن تقدم في الصحيحين انه رجل من الانصار وهذا هو أصح وأصرح والله أعلم والكلام في قوله عليه السلام لا تخيروني على موسى كالكلام على قوله لا تفضلوني على الانبياء ولا على يونس بن متى قيل من باب التواضع وقيل قبل أن يعلم بذلك وقيل نهى أن يفضل بينهم على وجه الغضب والتعصب وقيل على وجه القول بمجرد الرأي والتشهي والله أعلم وقوله فان الناس يصعقون يوم القيامة الظاهر أن هذا الصعق يكون في عرصات القيامة يحصل أمر يصعقون منه والله أعلم به وقد يكون ذلك اذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء وتجلى للخلائق الملك الديان كما صعق موسى من تجلي الرب تبارك وتعالى ولهذا قال عليه السلام فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور وقد روى القاضي عياض في أوائل كتابه الشفاء بسنده عن محمد بن محمد بن مرزوق حدثنا قتادة حدثنا الحسن عن قتادة عن يحيى بن وثاب عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما تجلى الله لموسى عليه السلام كان يبصر النملة على الصفا في الليلة الظلماء مسيرة عشرة فراسخ ثم قال ولا يبعد على هذا أن يختص نبينا بما ذكرناه من هذا الباب بعد الاسراء والحظوة بما رأى من آيات ربه الكبرى انتهى ما قاله وكأنه صحح هذا الحديث وفي صحته نظر ولا تخلو رجال اسناده من مجاهيل لا يعرفون ومثل هذا انما يقبل من رواية العدل الضابط عن مثله حتى ينتهي الى منتهاه والله أعلم (قال يا موسى اني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين وكتبنا له في الالواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين) يذكر تعالى أنه

مقامي) من باب الاسناد المجازي كقولهم ثقل على ظله والمقام بفتح الميم الموضع الذي يقام فيه وبالضم مكان الاقامة أو الاقامة نفسها وقد اتفق القراء هنا على الفتح وقرأ أبو رجاء وأبو مجلز وابن الجوزي بالضم قال ابن عطية ولم يقرأ هنا بالضم وكأنه لم يطلع على قراءة هؤلاء وكنى بالمقام عن نفسه كما يقال فعلته لمكان فلان أي لأجله ومنه ولمن خاف مقام ربه أي خاف ربه ويجوز أن يراد بالمقام المكث أي شق عليكم مكثي بين أظهركم لأنه مكث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما ويجوز أن يراد بالمقام القيام لأن الواعظ يقوم حال وعظه والمعنى ان كان كبر عليكم قيامي بالوعظ في مواطن اجتماعكم (و) كبر عليكم (تذكيري لكم (بآيات الله) التكوينية والتنزيلية (فعلى الله توكلت) أي دمت على تخصيص التوكل به تعالى وهذه الجملة جواب الشرط والمعنى اني لا أقابل ذلك منكم الا بالتوكل على الله فان ذلك دأبي الذي أنا عليه قديما وحديثا ويجوز أن يريد احداث مرتبة مخصوصة من مراتب التوكل ويجوز أن يكون جواب الشرط فأجمعوا كما يأتي قاله الاكثرون والجملة اعتراض كقولك ان كنت أنكرت على شيئا فالله حسبي وثقتي وقيل (فأجمعوا أمركم) عطف على الجواب وجزم السفاقسي بأن جوابه محذوف أي فافعلوا ما شئتم والمعنى اعزموا عليه من أجمع الامر اذا نواه وعزم عليه قاله الفراء وروى عنه أجمع الشيء أعده وقال مؤرج السدوسي أجمع الامر أفصح من أجمع عليه وقال أبو الهيثم أجمع أمره

خاطب موسى بانه اصطفاه على أهل زمانه برسالاته وبكلامه تعالى ولاشك ان محمدا صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم من الاولين والآخرين ولهذا اختصه الله تعالى بان جعله خاتم الانبياء والمرسلين الذى تستمر شريعته الى قيام الساعة وأتباعه أكثر من أتباع سائر الانبياء والمرسلين كلهم وبعده فى الشرف والفضل ابراهيم الخليل عليه السلام ثم موسى كليم الرحمن عليه السلام ولهذا قال تعالى له فخذ ما آتيتك أى من الكلام والمناجاة وكن من الشاكرين أى على ذلك ولا تطلب مالا طاقة لك به ثم أخبر تعالى أنه كتب له فى الالواح من كل شئ موعظة وتفصيلا لكل شئ قيل ان الالواح كانت من جوهر وانه تعالى كتب له فيها مواعظ وأحكاما مفصلة مبينة للحلال من الحرام وكانت هذه الالواح مشتملة على التوراة التى قال الله فيها ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى بصائر للناس وقيل الألواح أعطيها موسى قبل التوراة فالله أعلم وعلى كل تقدير كانت كالتعويض له عما سأل من الرؤية ومنع منه والله اعلم وقوله فخذها بقوة أى بعزم على الطاعة وأمر قومك يأخذوا باحسنها قال سفيان بن عيينة حدثنا أبو سعيد عن عكرمة عن ابن عباس قال أمر موسى عليه السلام أن يأخذ باشد ما أمر قومه وقوله سأريكم دار الفاسقين أى سترون عاقبة من خالف أمرى وخرج عن طاعتى كيف يصير الى الهلاك والدمار (٢٤٣) والتباب وقال ابن جرير وانما قال سأريكم دار الفاسقين كما يقول القائل لمن يخاطبه سأريك غدا الى ما يصير اليه حال من خالفنى على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره ثم نقل معنى ذلك عن مجاهد والحسن البصرى وقيل معناه سأريكم دار الفاسقين أى من أهل الشام واعطيكم اياها وقيل منازل قوم فرعون والاول أولى والله أعلم لان هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر وهو خطاب لبنى اسرائيل قبل دخولهم التيه والله أعلم (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ذلك بانهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون الا ما كانوا يعملون) يقول تعالى سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون الآية أى سأمنع فهم الحجج والادلة الدالة على عظمتى وشريعتى وأحكامى قلوب المتكبرين عن طاعتى ويتكبرون على الناس بغير حق أى كما استكبروا بغير حق اذلهم الله بالجهل كقوله تعالى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة وقوله تعالى فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم وقال بعض أهل العلم لا ينال العلم حيى ولا مستكبر وقال آخر من لم يصبر على ذل التعلم ساعة بقى فى ذل الجهل أبدا وقال سفيان بن عيينة فى قوله سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق يقول انزع عنهم فهم القرآن وأصرفهم عن آياتى قال ابن جرير وهذا يدل على أنه خطاب لهذه الامة قلت ليس هذا بلازم لان ابن عيينة انما أراد ان هذا مطرد فى حق كل أمة ولا فرق بين أحد وأحد فى هذا والله أعلم وقوله وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها كقوله تعالى ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون الآية وقوله وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا أى وان ظهر لهم سبيل الرشد أى طريق النجاة لا يسلكوها وان ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلا ثم علل مصيرهم الى هذه الحال بقوله ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا أى كذبت بها قلوبهم وكانوا عنها غافلين أى لا يعلمون بما فيها وقوله والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت اعمالهم أى من فعل ذلك

أمره جعله جميعا بعدما كان متفرقا وتفرقه أن يقول مرة أفعل كذا ومرة أفعل كذا فلما عزم على أمر واحد فقد جمعه أى جعله جميعا فهذا هو الاصل فى الاجماع ثم صار بمعنى العزم والتصميم يقال أجمع فى المعانى وجمع فى الاعيان وقد يستعمل كل واحد مكان الآخر وفى التنزيل فجمع كيده قال ابن الانبارى المراد من الامر هنا وجوه كيدهم ومكرهم فالتقدير لا تدعوا من أمركم شيأ الا أحضرتموه (وشركاءكم) أى ادعوهم لنصرتكم قاله الكسائى والفراء وقال الزجاج والفارسى والمعنى مع شركائكم ولم يذكر الزمخشرى غير هذا وقيل أجمعوا اشركاءكم وفى مصحف أبى وادعوا شركاءكم قال النحاس وغيره وقراءة الرفع بعيدة وقال المهدوى يجوز رفع الشركاء بالابتداء والخبر محذوف أى وشركاؤكم ليجمعوا أمرهم ونسبة ذلك الى الشركاء مع كون الاصنام لا تعقل لقصد التوبيخ والتقريع لمن عبدها (ثم لا يكن أمركم عليكم غمة) أى خفيا والغمة التغطية من قولهم غم الهلال اذا استتر أى ليكن أمركم ظاهرا منكشفا قاله الزجاج وقال الهيثم معناه لا يكن أمركم مبهما وقيل ان الغمة ضيق الامر كذا روى عن أبى عبيدة والمعنى لا يكن أمركم عليكم بمصاحبتى والمجاملة لى ضيقا شديدا بل ادفعوا هذا الضيق والشدة بما شئتم وقدرتم عليه وعلى الوجهين الاولين يكون المراد بالامر الثانى هو الامر الاول وعلى الثالث يكون المراد غيره وانما نسب عدم الستر الذى هو عدم الغمة الى الامر مبالغة (ثم اقضوا الى) ذلك

منهم واستمر عليه الى الممات حبط عمله وقوله هل يجزون الا ما كانوا يعملون أى انما نجازيهم بحسب أعمالهم التى اسلفوها ان خيرا فخير وان شرا فشر وكما تدين تدان (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا انه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين ولما سقط فى أيديهم ورأوا انهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا و يغفر لنا لنكونن من الخاسرين) يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بنى اسرائيل فى عبادتهم العجل الذى اتخذه لهم السامرى من حلى القبط الذى كانوا استعاروه منهم فشكل لهم منه عجلا ثم القى فيه القبضة من التراب التى أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام فصار عجلا جسدا له خوار والخوار صوت البقر وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى واعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور حيث يقول تعالى اخبارا عن نفسه الكريمة فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى وقد اختلف المفسرون فى هذا العجل هل صار لحما ودما له خوار أو استمر على كونه من ذهب الا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر على قولين والله أعلم ويقال انهم لما صوت لهم العجل رقصوا حوله وافتتنوا به وقال هذا الهكم واله موسى فنسى فقال الله تعالى أفلا يرون ان لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا وقال فى هذه الآية الكريمة ألم يروا انه لا يكلمهم ولا ينكر تعالى عليهم

فى ضلالهم بالعجل وذهولهم عن خالق السموات والارض ورب كل شئ ومليكه أن عبدوا معه عجلا جسدا له خوار لا يكلمهم ولا يرشدهم الى خير ولكن غطى على أعين بصائرهم عمى الجهل والضلال كما تقدم من رواية الامام أحمد وأبى داود عن أبى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حبك الشئ يعمى ويصم وقوله ولما سقط فى أيديهم أى ندموا على على ما فعلوا ورأوا انهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين وقرأ بعضهم لئن لم تغفر لنا بالتاء المثناة من فوق ربنا منادى وتغفر لنا لنكونن من الخاسرين أى من الهالكين هذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء الى الله عزوجل (ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم امر ربكم وألقى الالواح وأخذ برأس اخيه يجره اليه قال ابن أم ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الاعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين قال رب اغفر لى ولأخى وادخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين) يخبر تعالى ان موسى عليه السلام لما رجع الى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسف قال أبو الدرداء الأسف أشد الغضب قال بئسما خلفتمونى من بعدى يقول بئسما صنعتم فى عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتكم وقوله أعجلتم امر ربكم اى استعجلتم مجيئى اليكم وهو مقدر من الله وقوله وألقى الالواح وأخذ برأس أخيه يجره اليه قيل كانت الالواح من زمرذ وقيل من ياقوت وقيل من برد وقيل من سدر وفى هذا دلالة على ما جاء فى الحديث ليس الخبر كالمعاينة ثم ظاهر السياق انه انما ألقى الالواح غضبا على قومه وهذا قول الجمهور سلفا وخلفا وروى ابن جرير عن قتادة فى هذا قولا غريبا لا يصح اسناده الى حكاية قتادة وقد رده ابن عطية وغير واحد من العلماء وهو جدير بالرد وكأنه تلقاه قتادة عن بعض اهل الكتاب وفيهم كذابون ووضاعون وأفاكون وزنادقة وقوله وأخذ برأس اخيه يجره اليه خوفا ان يكون قد قصر فى نهيهم كما قال فى الآية الاخرى قال يا هرون ما منعك اذ رأيتهم ضلوا الا تتبعن أفعصيت أمرى قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى انى خشيت ان تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى وقال ههنا ابن أم ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الاعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين اى لا تسقنى مساقهم ولا تخلطنى معهم وانما قال ابن أم

الامر الذى تريدونه بى وأصل اقضوا من القضاء وهو الاحكام والمعنى احكموا ذلك الامر قال الاخفش والكسائى هو مثل وقضينا اليه ذلك الامر أى أنهيناه اليه وأبلغناه اياه وقيل معناه ثم امضوا الى قال النحاس هذا قول صحيح فى اللغة ومنه قضى الميت مضى وعن بعض القراء ثم افضوا بالفاء أى توجهوا (ولا تنظرون) أى ثم لا تمهلونى ولا تؤخرونى بل عجلوا أمركم ونفذوا واصنعوا ما بدا لكم وفى هذا الكلام من نوح عليه السلام ما يدل على وثوقه بنصر ربه وعدم مبالاته بما يتوعده به قومه ثم بين لهم ان كل ما اتى به اليهم من الاعذار والانذار وتبليغ الشريعة عن الله ليس هو لطمع دنيوى ولا لغرض خسيس فقال (فان توليتم) اى ان اعرضتم عن العمل بنصحى لكم وتذكيرى اياكم والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها (فما سألتكم) فى مقابلة ذلك عليه (من أجر) تؤدونه الى حتى تتهمونى فيما جئت به والفاء جزائية (ان أجرى) اى ما ثوابى فى النصح والتذكير (الا على الله) سبحانه فهو يثيبنى آمنتم او توليتم (وامرت أن أكون من المسلمين) المنقادين لحكم الله الذين يجعلون أعمالهم خالصة لله سبحانه لا يأخذون عليها أجرا ولا يطمعون فى عاجل أو من المستسلمين لكل ما يصعب من البلاء (فكذبوه) أى استمروا على تكذيبه واصروا على ذلك وليس المراد أحدثوا تكذيبه بعد أن لم يكن (فنجيناه) أى نوحا عليه السلام (ومن معه) أى من قد اجابه وصار على دينه وكانوا ثمانين أربعين رجلا وأربعين امرأة (فى الفلك)

ليكون ارق وأنجع عنده والا فهو شقيقه لابيه وأمه فلما تحقق موسى عليه السلام براءة ساحة هرون قال كما قال تعالى ولقد قال لهم هرون من قبل ياقوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري فعند ذلك قال موسى رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين قال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يرحم الله موسى ليس المعاين كالمخبر أخبره ربه عزوجل ان قومه فتنوا بعده فلم يلق الالواح فلما رآهم وعاينهم ألقى الالواح (ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين والذين عملوا السيآت ثم تابوا من بعدها وآمنوا ان ربك من بعدها لغفور رحيم) اما الغضب الذي نال بني اسرائيل في عبادة العجل فهو ان الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضا كما تقدم في سورة البقرة فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم واما الذلة فأعقبهم ذلك ذلا وصغارا في الحياة الدنيا وقوله وكذلك نجزي المفترين نائلة لكل من افترى بدعة فان ذل البدعة ومخالفة الرسالة متصلة من قلبه على كتفيه كما قال الحسن البصري ان ذل البدعة على أكتافهم وان هملجت بهم البغال وطقطقت بهم البراذين (٢٤٥) وهكذا روى أيوب عن أبي قلابة الجرمي انه قرأ هذه الآية وكذلك نجزي المفترين قال هي والله لكل مفتر الى يوم القيامة وقال سفيان بن عيينة كل صاحب بدعة ذليل ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم الى أنه يقبل التوبة من أي ذنب كان حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق ولهذا اعقب هذه القصة بقوله والذين عملوا السيآت ثم تابوا من بعدها وآمنوا ان ربك أي يا محمد يا رسول الرحمة ونبي النور من بعدها أي من بعد تلك الفعلة لغفور رحيم وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا مسلم بن ابراهيم حدثنا أبان حدثنا قتادة عن عزرة عن الحسن العرني عن علقمة عن عبد الله بن مسعود أنه سئل عن ذلك يعني عن الرجل يزني بالمرأة ثم يتزوجها فتلا هذه الآية والذين عملوا السيآت الآية فتلاها عبد الله عشر مرات فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها (ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الالواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) يقول تعالى ولما سكت أي سكن عن موسى الغضب أي غضبه على قومه أخذ الالواح أي التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل غيرة لله وغضبا له وفي نسختها هدى ورحمة يقول كثير من المفسرين انه لما ألقاها تكسرت ثم جمعها بعد ذلك ولهذا قال بعض السلف فوجد فيها هدى ورحمة وأما التفصيل فذهب وزعموا ان رضاضها لم يزل موجودا في خزائن الملوك من بني اسرائيل الى الدولة الاسلامية والله أعلم بصحة ذلك وما الدليل القاطع على انها تكسرت حين ألقاها وهي من جوهر من الجنة وقد أخبر تعالى انه لما أخذها بعد ما ألقاها وجد فيها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ضمن الرهبة معنى الخضوع ولهذا عداها باللام وقال قتادة في قوله تعالى أخذ الالواح قال رب اني أجد في الالواح أمة خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فاجعلهم أمتي قال تلك أمة أحمد قال رب اني أجد في الالواح أمة هم الآخرون السابقون أي آخرون في الخلق سابقون في دخولهم الجنة رب اجعلهم أمتي قال تلك أمة أحمد قال رب اني أجد في الالواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرؤنها وكان من قبلهم يقرؤن كتابهم

أي السفينة والمفرد على وزن قفل والجمع على وزن أسد والمراد هنا المفرد (وجعلناهم) أي الذين نجاهم معه في الفلك حملا على معنى من (خلائف) جمع خليفة والمعنى انه سبحانه جعلهم خلفاء يسكنون الارض التي كانت للمهلكين بالغرق ويخلفونهم فيها (وأغرقنا) بالطوفان (الذين كذبوا بآياتنا) من الكفار المعاندين لنوح الذين لم يؤمنوا به تأخيره عن ذكر الانجاء والاستخلاف حسبما وقع في قوله تعالى ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا الآية لاظهار كمال العناية بشأن المقدم ولتعجيل المسرة للسامعين وللايذان بسبق الرحمة التي هي من مقتضيات الربوبية على الغضب الذي هو من مستتبعات جرائم المجرمين (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) من اهلاكهم فكذلك نفعل بمن كذبك فيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتهديد للمشركين وتهويل عليهم (ثم بعثنا من بعده) أي من بعد نوح عليه السلام (رسلا الى قومهم) لم يسم هنا من كان بعد نوح من الرسل وقد كان بعده هود وصالح وابراهيم ولوط وشعيب (فجاؤهم بالبينات) أي بالمعجزات الباهرات والدلالات الواضحات وبما أرسلهم الله به من الشرائع التي شرعها الله لقوم كل نبي (فما كانوا ليؤمنوا) اى فما أحدثوا الايمان بل استمروا على الكفر وأصروا عليه والمعنى انه ما صح ولا استقام لقوم من أولئك الاقوام الذين أرسل الله اليهم رسله ان يؤمنوا في وقت من الاوقات (بما كذبوا به من قبل) أي من قبل تكذيبهم الواقع منهم عند مجيء الرسل اليهم والمعنى ان كل قوم من العالم

تترا حتى اذا رفعوها لم يحفظوا شيئا ولم يعرفوه وان الله أعطاكم أيتها الامة من الحفظ شيئا لم يعطه أحدا من الامم قال رب اجعلهم أمتى قال تلك أمة أحمد قال رب انى أجد فى الالواح أمة يؤمنون بالكتاب الاول وبالكتاب الآخر يقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتلوا الاعور الكذاب فاجعلهم أمتى قال تلك أمة أحمد قال رب انى أجد فى الالواح أمة صدقاتهم يأكلونها فى بطونهم ويؤجرون عليها وكان من قبلهم من الامم اذا تصدق بصدقة فقبلت منه بعث الله عليها نارا فأكلتها وان ردت عليهم تركت فتأكلها السباع والطير وان الله أخذ صدقاتكم من غنيكم لفقيركم قال رب اجعلهم أمتى قال تلك أمة أحمد قال رب انى أجد فى الالواح أمة اذا هم أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشر أمثالها الى سبعمائة رب اجعلهم أمتى قال تلك أمة أحمد قال رب انى أجد فى الالواح أمة هم الشفعون والمشفوع لهم فاجعلهم أمتى قال تلك أمة أحمد قال قتادة فذكر لنا أن نبى الله موسى عليه السلام اخذ الالواح وقال اللهم اجعلنى من امة احمد (واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت اهلكتهم من قبل واياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء انت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين (٢٤٦) واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة انا هدنا اليك) قال على بن ابى طلحة عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية ان الله امره ان يختار من قومه سبعين رجلا فاختار سبعين رجلا فوفدهم ليدعوا ربهم وكان فيما دعوا الله ان قالوا اللهم أعطنا مالم تعطه احدا من قبلنا ولا تعطه احدا بعدنا فكره الله ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة قال موسى رب لو شئت أهلكتهم الآية وقال السدى ان الله تعالى امر موسى ان يأتيه فى اناس من بنى اسرائيل يعتذرون اليه من عبادة العجل ووعدهم موعدا فاختار موسى من قومه سبعين رجلا على عينه ثم ذهب بهم ليعتذروا فلما أتوا ذلك المكان قالوا لن نؤمن لك ياموسى حتى نرى الله جهرة فانك قد كلمته فأرناه فأخذتهم الصاعقة فماتوا فقام موسى يبكى ويقول يارب ماذا اقول لبنى اسرائيل اذا القيتهم وقد أهلكت خيارهم رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياى وقال محمد بن اسحق اختار موسى من بنى اسرائيل سبعين رجلا الخير فالخير وقال انطلقوا الى الله فتوبوا اليه مما صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم فخرج بهم الى طور سيناء لميقات وقته له ربه وكان لا يأتيه الا باذن منه وعلم فقال له السبعون فيما ذكر لى حين صنعوا ما امرهم به وخرجوا معه للقاء ربه لموسى اطلب لنا نسمع كلام ربنا فقال أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم ادنوا وكان موسى اذا كلمه الله وقع على جبهة موسى نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى آدم ان ينظر اليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى اذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجودا فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل ولا تفعل فلما فرغ اليه من أمره وانكشف عن موسى الغمام أقبل اليهم فقالوا لموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الرجفة وهى الصاعقة فالتقت ارواحهم فماتوا جميعا فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب اليه ويقول رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياى قد سفهوا أفتهلك من ورائى من بنى اسرائيل وقال سفيان الثورى

لم يؤمنوا عند أن أرسل الله اليهم الرسول المبعوث اليهم على الخصوص بما كانوا مكذبين به من قبل مجيئه اليهم لانهم كانوا غير مؤمنين بل مكذبين بالدين ولو كانوا مؤمنين لم يبعث اليهم رسولا وهذا مبنى على ان الضمير فى كانوا وكذبوا راجع الى القوم المذكورين فى قوله الى قومهم وقيل ضمير كذبوا راجع الى قوم نوح أى فما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح وقيل المعنى بما كذبوا به من قبل أى فى عالم الذر (كذلك) أى مثل ذلك الطبع العظيم المحكم (نطبع) بنون العظمة وقرئ بالياء على ان الضمير لله (على قلوب المعتدين) أى المتجاوزين للحدود المعهودة فى الكفر والعناد المتجافين عن قبول الحق وسلوك طريق الرشاد وذلك بخذلانهم وتخليتهم وشأنهم لانهماكهم فى الغى والضلال وقد تقدم تفسير هذا فى غير موضع (ثم بعثنا من بعدهم) أى بعد الرسل المتقدم ذكرهم وخص (موسى وهرون) بالذكر مع دخولهما تحت الرسل لمزيد شرفهما وخطر شأن ما جرى بينهما وبين فرعون (الى فرعون وملئه) المراد بالملا الاشراف هكذا اقرره بعض المفسرين وقرر بعضهم ان المراد بالملا هنا مطلق القوم من استعمال الخاص فى العام وهو ظاهر صنيع السيوطى فى الجلالين (بآياتنا) أى مصحوبين بالمعجزات وهى التسع المذكورة فى الكتاب العزيز (فاستكبروا) عن قبولها ولم يتواضعوا لها ولم يذعنوا لما اشتملت عليه من المعجزات الموجبة لتصديق من جاء بها والاستكبار ادعاء الكبر من غير استحقاق والفاء فصيحة وقيل

حدثني ابو اسحق عن عمارة بن عبد السلولي عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه قال انطلق موسى وهرون وشبر وشبير فانطلقوا الى سفح جبل فقام هرون على سرير فتوفاه الله عز وجل فلما رجع موسى الى بني اسرائيل قالوا له أين هرون قال توفاه الله عز وجل فلما رجع موسى الى بني اسرائيل قالوا انت قتلته حسدتنا على خلقه ولينه أو كلمة نحوها قال فاختاروا من شئتم قال فاختاروا سبعين رجلا قال فذلك قوله تعالى واختار موسى قومه سبعين رجلا فلما انتهوا اليه قالوا يا هرون من قتلك قال ما قتلني ولكن توفاني الله قالوا يا موسى لن تعصى بعد اليوم قال فاخذتهم الرجفة قال فرجع موسى عليه السلام يرجع يمينا وشمالا وقال يارب لو شئت أهلكتهم من قبل واياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ان هي الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء قال فأحياهم الله وجعلهم انبياء كلهم هذا اثر غريب جدا وعمارة بن عبد هذا لا أعرفه وقد رواه شعبة عن ابي اسحق عن رجل من بني سلول فذكره وقال ابن عباس وقتادة ومجاهد وابن جرير انما أخذتهم الرجفة لانهم لم يزايلوا قومهم في عبادتهم العجل ولا نهوهم ويتوجه هذا القول بقول موسى اتهلكنا بما فعل السفهاء منا وقوله ان هي الا فتنتك اى ابتلاؤك واختبارك وامتحانك قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وأبو العالية والربيع بن انس وغير واحد من علماء السلف والخلف (٢٤٧) ولا معنى له غير ذلك يقول ان الامر الا أمرك وان الحكم الا لك فما شئت كان تضل من تشاء وتهدي من تشاء ولا هادى لمن أضللت ولا مضل لمن هديت ولا معطى لما منعت ولا مانع لما اعطيت فالملك كله لك والحكم كله لك لك الخلق والامر وقوله أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الغافرين الغفر هو الستر وترك المؤاخذة بالذنب والرحمة اذا قرنت مع الغفر يراد بها أن لا يوقعه في مثله في المستقبل وانت خير الغافرين اى لا يغفر الذنوب الا انت واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة هنالك الفصل الاول من الدعاء لرفع المحذور وهذا التحصيل المقصود واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة اى اوجب لنا واثبت لنا فيها حسنة وقد تقدم تفسير الحسنة في سورة البقرة انا هدنا اليك اى تبنا ورجعنا وأنبنا اليك قاله ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وأبو العالية والضحاك وابراهيم التيمي والسدي وقتادة وغير واحد وهو كذلك لغة وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا ابي عن شريك عن جابر عن عبد الله بن يحيى عن علي قال انما سميت اليهود لانهم قالوا انا هدنا اليك جابر هو ابن يزيد الجعفي ضعيف (قال عذابي أصيب به من اشاء ورحمتي وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون) يقول تعالى مجيبا لموسى في قوله ان هي الا فتنتك الآية قال عذابي اصيب به من اشاء ورحمتي وسعت كل شئ اى أفعل ما أشاء وأحكم ما أريد ولي الحكمة والعدل في كل ذلك سبحانه لا اله الا هو وقوله تعالى ورحمتي وسعت كل شئ آية عظيمة الشمول والعموم كقوله تعالى اخبارا عن حملة العرش ومن حوله انهم يقولون ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما وقال الامام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا ابي حدثنا الجريري عن ابي عبد الله الجشمي حدثنا جندب هو ابن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال جاء اعرابي فأناخ راحلته ثم عقلها ثم صلى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى راحلته فأطلق عقالها ثم ركبها ثم نادى اللهم ارحمني ومحمدا ولا تشرك في رحمتنا أحدا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتقولون هذا أضل أم

عن الايمان بموسى وهرون والاول أولى (وكانوا قوما مجرمين) أى كانوا ذوى اجرام عظام وآثام كبيرة فبسبب ذلك اجترؤا على ردها لأن الذنوب تحول بين صاحبها وبين ادراك الحق وابصار الصواب قيل وهذه الجملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها (فلما جاءهم) أى فرعون وملأه (الحق) أى المعجزات التسع (من عندنا قالوا ان هذا لسحر مبين) أى لم يؤمنوا بها بل حملوها على السحر مكابرة منهم (قال موسى) أى بجملا ثلاثا الاولى (أتقولون للحق لما جاءكم) قيل في الكلام حذف والتقدير أتقولون للحق سحر فلا تقولوا ذلك ثم استأنف انكارا آخر من جهة نفسه فقال (أسحر هذا) وهي الثانية والملجئ الى هذا أنهم لم يستفهموه عن السحر حتى يحكى ما قالوه بقوله أسحر هذا بل هم قوم قاطعون بانه سحر لانهم قالوا ان هذا لسحر مبين فحينئذ لا يكون قوله أسحر هذا من قولهم وقال الاخفش هو قولهم وفيه نظر لما قدمنا وقيل معنى أتقولون أتعيبون الحق وتطعنون فيه وكان عليكم أن تذعنوا له ثم قال أسحر هذا منكرا لما قالوه والاستفهام للتقريع والتوبيخ بعد الجملة الاولى المستأنفة والمعنى أتقولون للحق لما جاءكم ان هذا لسحر مبين وهو أبعد شئ من السحر ثم أنكر عليهم وقرعهم ووبخهم فقال أسحر هذا فجاء موسى عليه السلام بانكار بعد انكار وتوبيخ بعد توبيخ وتجهيل بعد تجهيل والثالثة (ولا يفلح الساحرون) أى والحال كذا فلا يظفرون بمطلوب ولا يفوزون بخير ولا ينجون من مكروه فكيف

بعيره ألم تسمعوا ما قال قالوا بلى قال لقد حجرت رحمة واسعة ان الله عز وجل خلق مائة رحمة فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق جنها
وأنسها وبهائمها وأخر عنده تسعا وتسعين رحمة تقولون هو أضل أم بعيره رواه أحمد وأبو داود عن علي بن نصر عن عبد الصمد بن
عبد الوارث به وقال الامام أحمد أيضا حدثنا يحيى بن سعيد عن سليمان عن أبي عثمان عن سلمان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال
ان الله عز وجل مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلق وبها تعطف الوحوش على أولادها وأخر تسعة وتسعين الى يوم القيامة تفرد
باخراجه مسلم فرواه من حديث سليمان هو ابن طرخان وداود بن أبي هند كلاهما عن أبي عثمان واسمه عبد الرحمن بن مل عن
سلمان الفارسي وقال الامام أحمد حدثنا عفان بن حماد عن عاصم بن بهدلة عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم
قال ان لله مائة رحمة عنده تسعة وتسعون وجعل عندكم واحدة تتراحمون بها بين الجن والانس وبين الخلق فاذا كان يوم القيامة
ضمها اليه تفرد به أحمد من هذا الوجه وقال أحمد حدثنا عثمان حدثنا عبد الواحد حدثنا الاعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لله مائة رحمة فقسم منها جزأ واحدا بين الخلق يتراحم الناس والوحش والطير ورواه ابن ماجه
من حديث أبي معاوية عن الاعمش به (٢٤٨) وقال الحافظ أبو القاسم الطبري حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدثنا
أحمد بن يونس حدثنا سعد أبو
غيلان الشيباني عن حماد بن أبي
سليمان عن ابراهيم عن صلة بن زفر
عن حذيفة بن اليمان رضي الله
عنه قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم والذي نفسي بيده
ليدخلن الفاجر في دينه الاحمق
في معيشته والذي نفسي بيده
ليدخلن الجنة الذي قد (١) محشته
النار بذنبه والذي نفسي بيده ليغفرن
الله يوم القيامة مغفرة يتطاول لها
ابليس رجاء أن تصيبه هذا حديث
غريب جدا وسعد هذا لا أعرفه
وقوله فسأكتبها للذين يتقون الآية
يعني فسأوجب حصول رحمتي منة
مني واحسانا اليهم كما قال تعالى

يقع في هذا من هو مرسل من عند الله وقد أيده بالمعجزات والبراهين الواضحة وحاصل
السحر تمويه وتخييل وصاحب ذلك لا يفلح أبدا (قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه
آباءنا) مستأنفة قال مجاهد لتلوينا وتصرفنا وقال السدي لتصدنا عن آلهتنا وفي هذا
ما يدل على أنهم انقطعوا عن الدليل وعجزوا عن ابراز الحجة ولم يجدوا ما يجيبون به عما
أورده عليهم بل لجؤا الى ما يلجأ اليه أهل الجهل والبلادة وهو الاحتجاج بما كان عليه
آباؤهم من الكفر وضموا الى ذلك ما هو غرضهم وغاية مطلبهم وسبب مكابرتهم للحق
وجحودهم للآيات البينة وهو الرياسة الدنيوية التي خافوا عليها وظنوا أنها ستذهب
عنهم ان آمنوا وكم بقي على الباطل وهو يعلم أنه باطل بهذه الذريعة من طوائف هذا العالم
في سابق الدهر ولاحقه فمنهم من حبسه ذلك عن الخروج من الكفر ومنهم من حبسه عن
الخروج الى السنة من البدعة والى الرواية الصحيحة من الرأي البحت قال أبو السعود
استئناف بياني مسوق لبيان أنه عليه السلام ألقمهم الحجر فانقطعوا عن الاتيان بكلام له
تعلق بكلامه صلى الله عليه وآله وسلم فضلا عن الجواب الصحيح واضطروا الى التشبث
بذيل التقليد الذي هو دأب كل عاجز محجوج وديدن كل معاند لدود انتهى واللفت والفتل
أخوان وكلاهما من باب ضرب يقال لفته لفتا اذا صرفه عن الشيء ولواه عنه وفي السمين
اللفت اللي والصرف يقال لفته عن رأيه اذا صرفه ولواه عنه الى ذات اليمين أو الشمال
وقال

كتب ربكم على نفسه الرحمة وقوله للذين يتقون أي سأجعلها للمتصفين بهذه
الصفات وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين يتقون أي الشرك والعظائم من الذنوب قوله ويؤتون الزكاة قيل زكاة النفوس
وقيل الأموال ويحتمل أن تكون عامة لهما فان الآية مكية والذين هم بآياتنا يؤمنون أي يصدقون (الذين يتبعون الرسول النبي
الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم
عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه
أولئك هم المفلحون) الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل وهذه صفة محمد صلى الله
عليه وسلم في كتب الأنبياء بشروا أممهم ببعثه وأمروهم بمتابعته ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم
كما روى الامام أحمد حدثنا اسمعيل عن الجريري عن أبي صخر العقيلي حدثني رجل من الاعراب قال جلبت حلوبة الى المدينة
في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما فرغت من بيعي قلت لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه قال فتلقاني بين أبي بكر وعمر
يمشون فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرؤها يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأجمل الفتيان وأحسنها

(١) قوله محشته كذا بالنسخة التي بأيدينا وليحرر لفظ الحديث اهـ

وقال الأزهري لفت الشيء وفتله لواه وهذا من المقلوب قلت ولا يدعى فيه قلب حتى يرجح أحد اللفظين في الاستعمال على الآخر أي تريد ان تصرفنا عن الشيء الذي وجدنا عليه آباءنا وهو عبادة الاصنام (وتكون لكما) أي لموسى وهرون (الكبرياء) مصدر على وزن فعلياء ومعناها العظمة والملك والسلطان (في الارض) أي مصر وفيه خمسة أوجه جوزها أبو البقاء أحدها أن يكون متعلقا بنفس الكبرياء الثاني أن يتعلق بنفس تكون الثالث أن يتعلق بالاستقرار في لكما لوقوعه خبرا الرابع أن يكون حالا من الكبرياء الخامس أن يكون حالا من الضمير في لكما لتحمله اياه قال الزجاج سمي الملك كبرياء لانه أكبر ما يطلب من أمور الدنيا وقيل سمي بذلك لان الملك يتكبر والحاصل انهم عللوا عدم قبولهم دعوة موسى بأمرين التمسك بالتقليد للآباء والحرص على الرياسة الدنيوية لانهم اذا أجابوا النبي وصدقوه صارت مقاليد أمر أمته اليه ولم يبق للملك رياسة تامة لان التدبير للناس بالدين يرفع تدبير الملوك لهم بالسياسات والعادات ثم قالوا (وما نحن لكما بمؤمنين) تصريحا منهم بالتكذيب وقطعا للطمع في ايمانهم وقد أفردوا الخطاب لموسى في قولهم أجئتنا لتلفتنا ثم جمعوا بينه وبين هرون في الخطابين الاخيرين ووجه ذلك انهم اسندوا المجيء والصرف عن طريق آبائهم الى موسى لكونه المقصود بالرسالة المبلغ عن الله ما شرعه لهم وجمعوا بينهما في الضميرين الآخرين لان الكبرياء شامل لهما في زعمهم ولكون ترك

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنشدك بالذي أنزل التوراة هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي فقال برأسه هكذا أي لا فقال ابنه اي والذي أنزل التوراة انا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك واني أشهد أن لا اله الا الله وانك رسول الله فقال أقيموا اليهودي عن أخيكم ثم تولى كفنه والصلاة عليه هذا حديث جيد قوي له شاهد في الصحيح عن أنس وقال الحاكم صاحب المستدرك أخبرنا محمد ابن عبد الله بن اسحق البغوي حدثنا ابراهيم بن الهيثم البلدي حدثنا عبد العزيز بن مسلم بن ادريس عن شرحبيل بن مسلم عن أبي أمامة الباهلي عن هشام بن العاص الاموي قال بعثت أنا ورجل آخر الى هرقل صاحب الروم ندعوه الى الاسلام فخرجنا حتى قدمنا الغوطة يعني غوطة دمشق فنزلنا على جبلة بن الايهم الغساني فدخلنا عليه فاذا هو على سرير له فأرسل الينا برسول نكلمه فقلنا والله لا نكلم رسولا انما بعثنا الى الملك فان أذن لنا كلمناه والا لم نكلم الرسول فرجع اليه الرسول فأخبره بذلك قال فأذن لنا فقال تكلموا فكلمه هشام بن العاص ودعاه الى الاسلام فاذا عليه ثياب سود فقال له هشام وما هذه التي عليك فقال لبستها وحلفت أن لا أنزعها حتى أخرجكم من الشام قلنا ومجلسك هذا والله لنأخذنه منك ولنأخذن ملك الملك الاعظم ان شاء الله أخبرنا بذلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قال لستم بهم بل هم قوم يصومون بالنهار ويقومون بالليل فكيف صومكم فأخبرناه فملئ وجهه سوادا فقال قوموا وبعث معنا رسولا الى الملك فخرجنا حتى اذا كنا قريبا من المدينة قال لنا الذي معنا ان دوابكم هذه لا تدخل مدينة الملك فان شئتم حملناكم على براذين من بغال قلنا والله لا ندخل الا عليها فأرسلوا الى الملك انهم يأبون ذلك فأمرهم أن ندخل على رواحلنا فدخلنا عليها متقلدين سيوفنا حتى انتهينا الى غرفة له فأنخنا في أصلها وهو ينظر الينا فقلنا لا اله الا الله والله أكبر فالله يعلم لقد انتفضت الغرفة حتى صارت كأنها عذق تصفقه الرياح قال فأرسل الينا ليس لكم ان تجهروا علينا بدينكم وأرسل الينا أن ادخلوا فدخلنا عليه وهو على فراش له وعنده بطارقة من الروم وكل شيء في مجلسه أحمر وما حوله حمرة وعليه ثياب من الحمرة فدنونا منه فضحك فقال ما عليكم لو جئتموني بتحيتكم فيما بينكم واذا عنده رجل فصيح بالعربية كثير الكلام فقلنا ان تحيتنا فيما بيننا لا تحل لك وتحيتك التي تحيا بها لا يحل لنا ان نحييك بها قال كيف تحيتكم فيما بينكم قلنا السلام عليك قال فكيف تحيون ملككم قلنا بها قال فكيف يرد عليكم قلنا بها قال فما أعظم كلامكم قلنا لا اله الا الله والله أكبر فلما تكلمنا بها والله يعلم لقد انتفضت الغرفة حتى رفع رأسه اليها فقال هذه الكلمة التي قلتموها حيث تنفض الغرفة أكلما قلتموها في بيوتكم انتفضت عليكم غرفكم قلنا لا ما رأيناها فعلت هذا قط الا عندك قال لوددت انكم كلما قلتم تنفض كل شيء عليكم واني قد خرجت من نصف ملكي قلنا لم قال لانه كان أيسر لشأنها وأجدر ان لا تكون من أمر النبوة وانها تكون من حيل الناس ثم سألنا عما أراد فأخبرناه ثم قال كيف صلاتكم وصومكم فأخبرناه فقال قوموا فأمر لنا بمنزل حسن ونزل كثير فأقمنا ثلاثا فأرسل الينا ليلا فدخلنا عليه فاستعاد قولنا فأعدناه ثم دعا بشيء كهيئة الربعة العظيمة مذهبة فيها بيوت صغار عليها أبواب ففتح بيتا وقفلا فاستخرج حريرة سوداء فنشرناها فاذا فيها صورة حمراء واذا فيها رجل ضخم العينين عظيم الاليتين لم أر مثل طول

عنقه واذا ليست له لحية واذا له ضفيرتان أحسن ما خلق الله فقال أتعرفون هذا قلنا لا قال هذا آدم عليه السلام واذا هو أكثر الناس شعرا ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة سوداء واذا فيها صورة بيضاء واذا له شعر القطط أحمر العينين ضخم الهامة حسن اللحية فقال هل تعرفون هذا قلنا لا قال هذا نوح عليه السلام ثم فتح بابا آخر فاستخرج حريرة سوداء واذا فيها رجل شديد البياض حسن العينين صلت الجبين طويل الخد أبيض اللحية كأنه يتبسم فقال هل تعرفون هذا قلنا لا قال هذا ابراهيم عليه السلام ثم فتح بابا آخر فاذا فيه صورة بيضاء واذا والله رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أتعرفون هذا قلنا نعم هذا محمد صلى الله عليه وسلم قال وبكينا قال والله يعلم انه قام قائما ثم جلس وقال والله انه لهو قلنا نعم انه لهو كأنك تنظر اليه فامسك ساعة ينظر اليها ثم قال اما انه كان آخر البيوت ولكني عجلته لكم لانظر ما عندكم ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فاذا فيها صورة ادماء سحماء واذا رجل جعد قطط غائر العينين حديد النظر عابس متراكب الاسنان غليظ الشفة كأنه غضبان فقال هل تعرفون هذا قلنا لا قال هذا موسى عليه السلام والى جانبه صورة تشبهه الا انه مدهان الرأس عريض الجبين فى عينيه قبل فقال هل تعرفون هذا قلنا لا قال هذا هرون بن عمران عليه السلام ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فاذا فيها صورة رجل آدم سبط ربعة كأنه غضبان فقال هل تعرفون هذا قلنا لا قال هذا لوط عليه السلام ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فاذا فيها صورة رجل أبيض مشرب حمرة أقنى خفيف العارضين حسن الوجه فقال هل تعرفون هذا قلنا لا قال هذا اسحق عليه السلام ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فاذا فيها صورة تشبه اسحق الا انه على شفته خال فقال هل تعرفون هذا قلنا لا قال هذا يعقوب عليه السلام ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فيها صورة رجل أبيض حسن الوجه أقنى الانف حسن القامة يعلو وجهه نور يعرف فى وجهه الخشوع يضرب الى الحمرة قال هل تعرفون هذا قلنا لا قال هذا اسمعيل جد نبيكم صلى الله عليه وسلم ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فاذا فيها صورة كصورة آدم كأن وجهه الشمس فقال هل تعرفون هذا قلنا لا قال هذا يوسف عليه السلام ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فاذا فيها صورة رجل أحمر حمش الساقين أخفش العينين ضخم البطن ربعة متقلد سيفا فقال هل تعرفون هذا قلنا لا قال هذا داود عليه السلام ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فيها صورة رجل ضخم الاليتين طويل الرجلين راكب فرسا فقال هل تعرفون هذا قلنا لا قال هذا سليمان بن داود عليهما السلام ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فيها صورة بيضاء واذا شاب شديد سواد اللحية كثير الشعر حسن العينين حسن الوجه فقال هل تعرفون هذا قلنا لا قال هذا عيسى ابن مريم عليه السلام قلنا من أين لك هذه الصور لانا نعلم انها على ما صورت عليه الانبياء عليهم السلام لانا رأينا صورة نبينا عليه السلام مثله فقال ان آدم عليه السلام سأل ربه ان يريه الانبياء من ولده فأنزل عليه صورهم فكانت فى خزانة آدم عليه السلام عند مغرب الشمس فاستخرجها ذو القرنين من مغرب الشمس فدفعها الى دانيال ثم قال اما والله ان نفسى طابت بالخروج من ملكى

الايمان بموسى يستلزم ترك الايمان بهرون وقد مرت القصة فى الاعراف (وقال فرعون) لما رأى اليد البيضاء والعصا (ائتونى بكل ساحر عليم) لانه اعتقد أنهما من السحر فأمر قومه بأن يأتوا بكل ساحر أراد أن يعارض معجزة موسى بأنواع من التلبيس ليظهر ان ما أتى به موسى سحر وقد تقدم الكلام على هذا فى الاعراف وقرئ السحار على صيغة المبالغة أى كثير السحر كثير العلم بعمله وأنواعه (فلما جاء السحرة) فى الكلام حذف أى فأتوا بهم اليه فلما جاء السحرة (قال لهم موسى) بعد ان قالوا له اما أن تلقى واما أن نكون نحن الملقين (ألقوا ما أنتم ملقون) أى اطرحوا على الارض ما معكم من حبالكم وعصيكم ليظهر الحق ويبطل الباطل ويتبين ان ما أتوا به فاسد زاهق (فلما ألقوا) ما ألقوه من ذلك الحبال والعصى (قال) لهم (موسى ما جئتم به) ما موصولة مبتدأ و(السحر) خبره والمعنى انه سحر لا انه آية من آيات الله كما سماه فرعون وقومه أو هو من جنس السحر يريهم ان حاله بين لا يعبأ به كأنه قال ما جئتم به مما لا ينبغى أن يجاء به وقرئ آلسحر على الاستفهام فما استفهامية أى شئ جئتم به أهو السحر الذى يعرف حاله كل أحد ولا يتصدى له عاقل وقرئ ما جئتم به سحر وقرئ ما أتيتم به سحر ودلالتهما على المعنى الثانى فى القراءة المشهورة أظهر وأجاز الفراء وغيره نصب السحر بجئتم وما شرطية والجزاء (ان الله سيبطله) على

تقدير

واني كنت عبد الاشرك ملكه حتى أموت ثم أجازنا فأحسن جائزتنا وسرحنا فلما أتينا أبا بكر الصديق رضي الله عنه فحدثناه بما أرانا وبما قال لنا وما أجازنا قال فبكى أبو بكر وقال مسكين لو أراد الله به خيرا لفعل ثم قال أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم انهم واليهود يجدون نعت محمد صلى الله عليه وسلم عندهم وهكذا أورده الحافظ الكبير أبو بكر البيهقي رحمه الله في كتاب دلائل النبوة عن الحاكم اجازة فذكره واسناده لا بأس به وقال ابن جرير حدثنا المثنى حدثنا عثمان بن عمر حدثنا فليح عن هلال بن علي عن عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله بن عمرو فقلت أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة قال أجل والله انه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للاميين أنت عبدي ورسولي اسمك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بان يقولوا لا اله الا الله ويفتح قلوبا غلفا وآذانا صما وأعينا عميا قال عطاء ثم لقيت كعبا فسألته عن ذلك فما اختلف حرفا الا ان كعبا قال بلغته قال قلوبا غلوفيا وآذانا صموميا وأعينا عموميا وقد رواه البخاري في صحيحه عن محمد بن سنان عن فليح عن هلال بن علي فذكر باسناده نحوه وزاد بعد قوله ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الاسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح وذكر حديث (٢٥١) عبد الله بن عمرو ثم قال ويقع في كلام كثير من السلف اطلاق التوراة على كتب أهل الكتاب وقد ورد في بعض الاحاديث ما يشبه هذا والله أعلم وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا موسى بن هرون حدثنا محمد ابن ادريس بن الحيدى حدثنا محمد ابن عمر بن ابراهيم من ولد جبير بن مطعم قال حدثتني أم عثمان بنت سعيد وهي جدتي عن أبيها سعيد ابن محمد بن جبير عن أبيه محمد بن جبير عن أبيه جبير بن مطعم قال خرجت تاجرا الى الشام فلما كنت بأدنى الشام لقيني رجل من أهل الكتاب فقال هل عندكم رجل نبيا قلت نعم قال هل تعرف صورته اذا رأيتها قلت نعم فأدخلني بيتا فيه صور فلم أر صورة النبي صلى الله عليه وسلم فبينا أنا كذلك اذ دخل رجل منهم علينا فقال فيم أنتم فأخبرناه فذهب بنا الى منزله فساعة ما دخلت نظرت الى صورة النبي صلى الله عليه وسلم واذا رجل آخذ بعقب النبي صلى الله عليه وسلم قلت من هذا الرجل القابض على عقبه قال انه لم يكن نبي الا كان بعده نبي الا هذا النبي فانه لا نبي بعده وهذا الخليفة بعده واذا صفة أبي بكر رضي الله عنه قال أبو داود حدثنا عمر بن حفص أبو عمرو الضرير حدثنا حماد بن سلمة ان سعيد بن اياس الجريري أخبرهم عن عبد الله بن شقيق العقيلي عن الاقرع مؤذن عمر بن الخطاب قال بعثني عمر الى الاسقف فدعوته فقال له عمر هل تجدني في الكتاب قال نعم قال كيف تجدني قال أجدك قرنا فرفع عمر الدرة وقال قرن مه قال قرن حديد أمير شديد قال فكيف تجد الذي بعدي قال أجد خليفة صالحا غير انه يؤثر قرابته قال عمر يرحم الله عثمان ثلاثا قال كيف تجد الذي بعده قال أجده صدي حديد قال فوضع عمر يده على رأسه وقال يا دفراه يا دفراه قال يا أمير المؤمنين انه خليفة صالح ولكنه يستخلف حين يستخلف والسيف مسلول والدم مهراق وقوله تعالى يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر هذه صفة الرسول صلى الله عليه وسلم في الكتب المتقدمة وهكذا كانت حاله عليه السلام لا يأمر الا بخير ولا ينهى الا عن شر كما قال عبد الله بن مسعود اذا سمعت الله يقول يا أيها الذين آمنوا

تقدير الفاء أي سيمحقه بالكلية ويهلكه فيصير باطلا عما يظهره على يدي من الآيات والمعجزة فلا يبقى له أثر والسين للتأكيد (ان الله لا يصلح عمل المفسدين) أي عمل هذا الجنس فيشمل كل من يصدق عليه انه مفسد ويدخل فيه السحر والسحرة دخولا أوليا والجملة تعليل لما قبلها أو عملكم فيكون من باب وضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالافساد والاشعار بعلة الحكم (ويحق الله الحق) أي يبينه ويوضحه (بكلماته) التي أنزلها في كتبه على أنبيائه لاشتمالها على الحجج والبراهين أو بوعده الصادق لموسى انه يظهره أو بما سبق من قضائه وقدره لموسى انه يغلب السحرة أو بأوامره وأحكامه والاول أولى (ولو كره المجرمون) من آل فرعون أو المجرمون على العموم ويدخل تحتهم آل فرعون دخولا أوليا والاجرام الآثام (فما آمن لموسى الا ذرية) اسم يقع على القليل من القوم وقيل المراد به التصغير وقلة العدد (من قومه) أي من قوم موسى وهم طائفة من ذراري بني اسرائيل وقيل المراد طائفة من ذراري فرعون فيكون الضمير عائدا على فرعون قيل ومنهم مؤمن آل فرعون وامرأته وماشطة ابنته وامرأة خازنه وقيل هم قوم آباؤهم من القبط وأمهاتهم من بني اسرائيل روى هذا عن الفراء كما يقال لاولاد فارس الذين نقلوا الى اليمن الابناء لان أمهاتهم من غير جنس الآباء (على) أي مع (خوف من فرعون وملائهم) الضمير لفرعون وجمع لانه لما كان جبارا جمعوا ضميره تعظيما له وقيل ان

فارعها سمعك فانه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه ومن أهم ذلك وأعظمه ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له والنهي عن عبادة من سواه كما أرسل به جميع الرسل قبله كما قال تعالى ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت وقال الامام أحمد حدثنا أبو عامر هو العقدي عبد الملك بن عمرو حدثنا سليمان هو ابن بلال عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن عبد الملك بن سعيد عن أبي حميد وأبي أسيد رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم وترون انه منكم قريب فأنا أولاكم به واذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون انه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه رواه الامام أحمد رضي الله عنه باسناد جيد ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب وقال الامام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن علي رضي الله عنه قال اذا سمعتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا فظنوا به الذي هو أهدى والذي هو أهنى والذي هو أتقى ثم رواه عن يحيى عن ابن سعيد عن مسعر عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن أبي عبد الرحمن عن علي رضي الله عنه قال اذا حدثتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا فظنوا به الذي هو أهداه وأهناه وأتقاه وقوله ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث أي يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل والحام ونحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم ويحرم عليهم الخبائث قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس كلحم الخنزير والربا وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التي حرمها الله تعالى قال بعض العلماء فكل ما أحل الله تعالى من المآكل فهو طيب نافع في البدن والدين وكل ما حرمه فهو خبيث ضار في البدن والدين وقد تمسك بهذه الآية الكريمة من يرى التحسين والتقبيح العقليين وأجيب عن ذلك بما لا يتسع هذا الموضع له وكذا احتج بها من ذهب من العلماء الى ان المرجع في حل المآكل التي لم ينص على تحليلها ولا تحريمها الى ما استطابته العرب في حال رفاهيتها وكذا في جانب التحريم الى ما استخبثته وفيه كلام طويل أيضا وقوله ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم أي انه جاء بالتيسير والسماحة كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال بعثت بالحنيفية السمحة وقال صلى الله عليه وسلم لاميريه معاذ وأبي موسى الاشعري لما بعثهما الى اليمن بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا وتطاوعا ولا تختلفا وقال صاحبه أبو برزة الاسلمي اني صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهدت تيسيره وقد كانت الامم الذين كانوا قبلنا في شرائعهم مشقة عليهم فوسع الله على هذه الامة أمورها وسهلها لهم ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تجاوز لامتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل وقال رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ولهذا قال أرشد الله هذه الامة ان يقولوا ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين وثبت في صحيح مسلم ان الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه قد فعلت قد فعلت وقوله فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه أي عظموه ووقروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أي القرآن والوحي الذي جاء به

قوم فرعون سموا فرعون مثل ثمود فرجع الضمير اليهم بهذا الاعتبار وقيل انه عائد على مضاف محذوف أي على خوف من آل فرعون روى هذا عن الفراء ومنعه الخليل وسيبويه وروى عن الاخفش ان الضمير يعود على الذرية وقواه النحاس (أن يفتنهم) أي يصرفهم عن دينهم بالعذاب الذي كان ينزله بهم وهو بدل اشتمال أو مفعول للمصدر أو مفعول له بعد حذف اللام والضمير عائد لفرعون وأفرد ولم يقل ان يفتنوهم أي فرعون والملأ الدلالة على ان الخوف من الملأ كان بسبب فرعون وتجبره من حيث استعانتهم به (وان فرعون لعال في الارض) أي عات متكبر متغلب على أرض مصر اعتراض تذييلي مؤكد لمضمون ما سبق (وانه لمن المسرفين) المجاوزين للحد في الكفر وما يفعله من القتل والصلب وتنويع العقوبات أو لانه كان عبدا فادعى الربوبية (وقال موسى يا قوم) تطمينا لقلوبهم وازالة للخوف عنهم وسماهم قومه من حيث ايمانهم به والا فهم من قوم فرعون أو المراد به بنو اسرائيل أو مطلق من آمن به ولو من القبط (ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين) قيل ان هذا من باب التكرير للشرط فشرط في التوكل على الله الايمان به والاسلام أي الاستسلام لقضائه وقدره وبه قال الكرخي وقيل ان هذا ليس من تعليق الحكم بشرطين بل المعلق بالايمان هو وجوب التوكل والمشروط بالاسلام حصوله ووجوده فانه لا يوجد مع التخليط والمعنى أن يسلموا أنفسهم لله أي يجعلوها لله سالمة

خالصة

أولئك هم المفلحون أي في الدنيا والآخرة (قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا الذي له ملك السموات والارض لا اله الا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الامي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون) يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم قل يا محمد يا أيها الناس وهذا خطاب للاحمر والاسود والعربي والعجمي اني رسول الله اليكم جميعا أي جميعكم وهذا من شرفه وعظمته صلى الله عليه وسلم انه خاتم النبيين وانه مبعوث الى الناس كافة كما قال الله تعالى قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي الي هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ وقال تعالى ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده وقال تعالى وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين أأسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ والآيات في هذا كثيرة كما ان الاحاديث في هذا أكثر من ان تحصر وهو معلوم من دين الاسلام ضرورة انه صلوات الله وسلامه عليه رسول الله الى الناس كلهم قال البخاري رحمه الله في تفسير هذه الآية حدثنا عبد الله حدثنا سليمان بن عبد الرحمن وموسى بن هرون قالا حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا عبد الله بن العلاء بن زبر حدثني بسر بن عبيد الله حدثني أبو ادريس الخولاني قال سمعت أبا الدرداء رضي الله عنه يقول كانت بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما محاورة فأغضب أبو بكر عمر فانصرف عنه عمر مغضبا فاتبعه أبو بكر (٢٥٣) يسأله ان يستغفر له فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه فأقبل أبو بكر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو الدرداء ونحن عنده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اما صاحبكم هذا فقد غامر أي غاضب وحاقد قال وندم عمر على ما كان منه فأقبل حتى سلم وجلس الى النبي صلى الله عليه وسلم وقص على رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر قال أبو الدرداء وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل أبو بكر يقول والله يا رسول الله لانا كنت أظلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل أنتم تاركو لي صاحبي اني قلت يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدقت انفرد به البخاري وقال الامام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا يزيد بن أبي زياد عن مقسم عن ابن عباس مرفوعا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أعطيت خمسا لم يعطهن نبي قبلي ولا أقوله فخرا بعثت الى الناس كافة الاحمر والاسود ونصرت بالرعب مسيرة شهر وأحلت لي الغنائم ولم تحل لاحد قبلي وجعلت لي الارض مسجدا وطهورا وأعطيت الشفاعة فأخرتها لامتي فهي لمن لا يشرك بالله شيأ اسناد جيد ولم يخرجوه وقال الامام أحمد أيضا حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا بكر بن مضر عن ابن الهاد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ان رسول الله صلى الله عليه وسلم عام غزوة تبوك قام من الليل فصلى فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه حتى اذا صلى انصرف اليهم فقال لهم لقد أعطيت الليلة خمسا ما أعطيهن أحد قبلي اما أنا فأرسلت الى الناس كلهم عامة وكان من قبلي انما يرسل الى قومه ونصرت على العدو بالرعب ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر لملئ مني رعبا وأحلت لي الغنائم آكلها وكان من قبلي يعظمون أكلها كانوا يحرقونها وجعلت لي الارض مسجدا وطهورا أينما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت وكان من قبلي يعظمون ذلك انما كانوا يصلون في بيعهم وكنائسهم والخامسة هي ما هي قيل لي سل فان كل نبي قد سأل فأخرت مسألتي الى يوم القيامة فهي لكم ولمن شهد أن لا اله الا الله اسناد جيد قوي أيضا ولم يخرجوه وقال أيضا حدثنا محمد بن

خالصة لاحظ للشيطان فيها الا ان التوكل لا يكون مع التخليط قال الكازروني المعنى ان كنتم آمنتم وجب عليكم التوكل وان كنتم مسلمين توكلتم عليه (فقالوا) أي قوم موسى مجيبين له (على الله توكلنا) أي اعتمدنا لا على غيره ثم دعوا الله مخلصين فقالوا (ربنا لا تجعلنا فتنة) أي موضع فتنة (للقوم الظالمين) والمعنى لا تسلطهم علينا فيعذبونا حتى يفتنونا عن ديننا قاله مجاهد أو لا تجعلنا فتنة لهم يفتنون بنا غيرنا فيقولون لهم لو كان هؤلاء على حق لما سلطنا عليهم وعذبناهم قاله مجاهد أيضا وعلى المعنى الاول تكون الفتنة بمعنى المفتون ولما قدموا التضرع الى الله سبحانه ان يصون دينهم عن الفساد أتبعوه بسؤال عصمة أنفسهم فقالوا (ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) أي من أيديهم وفي هذا دليل على انه كان اهتمامهم بأمر الدين فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم (وأوحينا الى موسى وأخيه ان تبوآ لقومكما بمصر بيوتا) قيل هي الاسكندرية وقيل هي مصر المعروفة لا الاسكندرية وأن هي المفسرة لان في الايحاء معنى القول أي اتخذا لقومكما يقال بوأت زيدا مكانا وبوأت لزيد مكانا والمبوأ المنزل الملزوم ومنه بوأه الله منزلا أي ألزمه اياه وأسكنه فيه ومنه حديث من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار والتبوء النزول والرجوع واللام زائدة أي بوآ قومكما وقيل غير زائدة (واجعلوا بيوتكم قبلة) أي متوجهة الى جهة القبلة قال قتادة ذلك حين منعهم فرعون الصلاة فأمروا أن

بجعفر حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن أبي موسى الاشعري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من سمع بي من أمتي أو يهودي أو نصراني فلم يؤمن بي لم يدخل الجنة وهذا الحديث في صحيح مسلم من وجه آخر عن أبي موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لا يسمع بي رجل من هذه الامة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي الا دخل النار وقال الامام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا أبو يونس وهو سليم بن جبير عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الامة يهودي أو نصراني ثم يموت ولا يؤمن بالذي أرسلت به الا كان من أصحاب النار تفرد به أحمد وقال الامام أحمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا اسرائيل عن أبي اسحق عن أبي بردة عن أبي موسى رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطيت خمسا بعثت الى الاحمر والاسود وجعلت لي الارض مسجدا وطهورا وأحلت لي الغنائم ولم تحل لمن كان قبلي ونصرت بالرعب شهرا وأعطيت الشفاعة وليس من نبي الا وقد سأل الشفاعة واني قد أخبأت شفاعتي ثم جعلتها لمن مات من أمتي لم يشرك بالله شيأ وهذا أيضا سنده صحيح ولم أرهم خرجوه والله أعلم وله مثله من حديث ابن عمر بسند جيد أيضا وهذا الحديث ثابت في الصحيحين أيضا من حديث جابر بن (٢٥٤) عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الانبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الارض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم ولم تحل لاحد قبلي وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث الى قومه وبعثت الى الناس عامة وقوله الذي له ملك السموات والارض لا اله الا هو يحيي ويميت صفة الله تعالى في قول رسول الله أي الذي أرسلني هو خالق كل شئ وربه ومليكه الذي بيده الملك والاحياء والاماتة وله الحكم وقوله فآمنوا بالله ورسوله النبي الامي أخبرهم أنه رسول الله اليهم ثم أمرهم باتباعه والايمان به النبي الامي أي الذي وعدتم به وبشرتم به في الكتب المتقدمة فانه منعوت بذلك في كتبهم ولهذا قال النبي الامي وقوله الذي يؤمن بالله وكلماته أي يصدق قوله عمله وهو يؤمن بما أنزل اليه من ربه واتبعوه أي اسلكوا طريقه واقتفوا أثره لعلكم تهتدون أي الى الصراط المستقيم بها

(ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) يقول تعالى مخبرا عن بني اسرائيل ان منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به كما قال تعالى من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون وقال تعالى وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم ان الله سريع الحساب وقال تعالى الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا الآية وقال تعالى الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به الآية وقال تعالى ان الذين أوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعا وقد ذكر ابن جرير في تفسيرها خبرا عجيبا فقال حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا حجاج عن ابن جريج قوله ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون قال بلغني ان بني اسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثني عشر سبطا تبرأ

يجعلوا مساجدهم في بيوتهم وان يوجهوها نحو القبلة وعن مجاهد قال كانوا لا يصلون الا في البيع حتى خافوا من آل فرعون فأمروا أن يصلوا في بيوتهم وعن ابن عباس نحوه وقيل المراد بالبيوت هنا المساجد واليه ذهب جماعة من السلف وقيل التي يسكنون فيها أمروا بان يجعلوها متقابلة بعضها بعضا والمراد بالقبلة على القول الاول هي جهة بيت المقدس وهو قبلة اليهود الى اليوم وقيل جهة الكعبة وانها كانت قبلة موسى ومن معه قال أبو سنان ان آدم فمن بعده كانوا يصلون قبل الكعبة وظاهر القرآن لا يدل على تعيينها وقيل انهم يجعلون بيوتهم مستقبلة للقبلة ليصلوا فيها سرا لئلا يصيبهم من الكفار معرة بسبب الصلاة ومما يؤيد هذا قوله (وأقيموا الصلاة) أي التي أمركم الله باقامتها فانه يفيد ان القبلة هي قبلة الصلاة اما في المساجد أو في البيوت لا جعل البيوت متقابلة وقيل أمر الله موسى وهرون وقومهما باتخاذ المساجد على رغم الاعداء وتكفل بان يصونهم عن شر الاعداء ذكره الخطيب وانما جعل الخطاب في أول الكلام مع موسى وهرون ثم جعله لهما ولقومهما في قوله واجعلوا وأقيموا ثم أفرد موسى بالخطاب بعد ذلك فقال (وبشر المؤمنين) أي بالنصر والجنة لان اختيار المكان مفوض الى الانبياء ثم جعل عاما في استقبال القبلة واقامة الصلاة لان ذلك واجب على الجميع لا يختص بالانبياء ثم جعل خاصا بموسى لانه الاصل في الرسالة وهرون تابع له فكان ذلك تعظيما للبشارة وللمبشر

سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله عز وجل ان يفرق بينهم وبينهم ففتح الله لهم نفقا في الارض فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين فهم هنالك حنفاء مسلمين يستقبلون قبلتنا قال ابن جريج قال ابن عباس فذلك قوله وقلنا من بعده لبني اسرائيل اسكنوا الارض فاذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا وعد الآخرة عيسى بن مريم قال ابن جريج قال ابن عباس ساروا في السرب سنة ونصفا وقال ابن عيينة عن صدقة أبي الهذيل عن السدي ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون قال قوم بينكم وبينهم نهر من شهد (وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما وأوحينا الى موسى اذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون واذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطاياكم سنزيد المحسنين فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون) تقدم تفسير هذا كله في سورة البقرة وهي مدنية وهذا السياق مكي ونبهنا على الفرق بين هذا السياق وذاك بما أغنى عن اعادته ههنا ولله الحمد والمنة (واسألهم عن القرية التي كانت (٢٥٥) حاضرة البحر اذ يعدون في السبت اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون) هذا السياق هو بسط لقوله تعالى ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت الآية يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه واسألهم أي واسأل هؤلاء اليهود بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ففجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في كتبهم لئلا يحل بهم ما حل باخوانهم وسلفهم وهذه القرية هي أيلة وهي على شاطئ بحر القلزم قال محمد بن اسحق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر قال هي قرية يقال لها ايلة بين مدين والطور وكذا قال عكرمة ومجاهد وقتادة والسدي وقال عبد الله بن كثير القاري سمعنا انها ايلة وقيل هي مدين وهو رواية عن ابن عباس وقال ابن زيد هي قرية يقال لها متنا بين مدين وعينونا وقوله اذ يعدون في السبت اي يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاة به اذ ذاك اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا قال الضحاك عن ابن عباس أي ظاهرة على الماء وقال العوفي عن ابن عباس ظاهرة من كل مكان وقوله ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم أي نختبرهم باظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده واخفائها عنهم في اليوم الحلال لهم صيده كذلك نبلوهم نختبرهم بما كانوا يفسقون يقول بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله بما تعاطوا من الاسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام وقد قال الفقيه الامام أبو عبد الله بن بطة رحمه الله حدثنا أحمد بن محمد بن مسلم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني حدثنا يزيد بن هرون حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل وهذا اسناد

بها وقيل ان الخطاب في وبشر المؤمنين لنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم على طريقة الالتفات والاعتراض والاول أولى (و) لما بالغ موسى عليه السلام في اظهار المعجزات واقامة الحجج البينات ولم يكن لذلك تأثير فيمن أرسل اليهم دعا عليهم بعد ان بين سبب اصرارهم على الكفر وتمسكهم بالجحود والعناد (قال موسى) مبينا للسبب أولا (ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا) قد تقدم أن الملأ هم الاشراف والزينة اسم لكل ما يتزين به من ملبوس ومركوب وحلية وفراش وسلاح وغير ذلك والمال ما زاد على هذه الاشياء من الصامت ونحوه ثم كرر النداء للتأكيد فقال (ربنا ليضلوا عن سبيلك) قال الخليل وسيبويه انها لام العاقبة والصيرورة والمعنى أنه لما كان عاقبة أمرهم الضلال صار كأنه سبحانه أعطاهم ما أعطاهم من النعم ليضلوا وقيل انها لام كي قاله الفراء أي أعطيتهم لكي يضلوا وقال قوم ان المعنى أعطيتهم ذلك لئلا يضلوا فحذفت لا كما قال سبحانه يبين الله لكم أن تضلوا قال النحاس ظاهر هذا الجواب حسن الا أن العرب لا تحذف لا الا مع أن فموه صاحب هذا التأويل بالاستدلال بقوله تعالى المتقدم وقيل اللام للدعاء عليهم والمعنى ابتلهم بالهلاك عن سبيلك قاله ابن الانباري واستدل بقوله سبحانه بعد هذا اطمس واشدد واليه ذهب الحسن البصري وقيل انها لام العلة والمعنى انك آتيتهم ما آتيتهم على سبيل الاستدراج فكان الايتاء لهذه العلة وقد أطال صاحب

جيد فان أحمد بن محمد بن مسلم هذا ذكره الخطيب في تاريخه ووثقه وباقي رجاله مشهورون ثقات ويصحح الترمذي بمثل هذا الاسناد كثيرا (وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة الى ربكم ولعلهم يتقون فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) يخبر تعالى عن أهل هذه القرية انهم صاروا الى ثلاث فرق فرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت كما تقدم بيانه في سورة البقرة وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ولكنها قالت للمنكرة لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا أي لم تنهون هؤلاء وقد علمتم انهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله فلا فائدة في نهيكم اياهم قالت لهم المنكرة معذرة الى ربكم قرأ بعضهم بالرفع كأنه على تقدير هذه معذرة وقرأ آخرون بالنصب أي نفعل ذلك معذرة الى ربكم أي فيما أخذ علينا من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ولعلهم يتقون يقولون ولعل لهذا الانكار يتقون ما هم فيه ويتركونه ويرجعون الى الله تائبين فاذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم فلما نسوا ما ذكروا به أي فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا (٢٥٦) أي ارتكبوا المعصية بعذاب بئيس فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين وسكت عن الساكتين لان الجزاء من جنس العمل فهم لا يستحقون مدحا فيمدحوا ولا ارتكبوا عظيما فيذموا ومع هذا فقد اختلف الائمة فيهم هل كانوا من الهالكين أو من الناجين على قولين وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا هي قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة يقال لها ايلة فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم وكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعا في ساحل البحر فاذا مضى يوم السبت لم يقدروا عليها فمضى على ذلك ما شاء الله ثم ان طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم فنهتهم طائفة وقالوا تأخذونها وقد حرمها الله عليكم يوم سبتكم فلم يزدادوا الا غيا وعتوا وجعلت طائفة أخرى تنهاهم فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النهاة تعلمون ان هؤلاء قوم حق عليهم العذاب لم تعظون قوما الله مهلكهم وكانوا أشد غضبا لله من الطائفة الاخرى فقالوا معذرة الى ربكم ولعلهم يتقون وكل قد كانوا ينهون فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم والذين قالوا معذرة الى ربكم وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة وروى العوفي عنه قريبا من هذا وقال حماد بن زيد عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس في الآية قال ما أدري أنجا الذين قالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم أم لا قال فلم أزل به حتى عرفته انهم قد نجوا فكساني حلة وقال عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج حدثني رجل عن عكرمة قال جئت ابن عباس يوما وهو يبكي واذا المصحف في حجره فأعظمت ان أدنو ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمت فجلست فقلت ما يبكيك يا أبا عباس جعلني الله فداك قال فقال هؤلاء الورقات قال واذا في سورة الاعراف قال تعرف ايلة قلت نعم قال فانه كان بها حي من اليهود سيقت الحيتان اليهم يوم السبت ثم غاصت لا يقدرون عليها حتى يغوصوا بعد كد ومؤنة شديدة كانت تأتيهم يوم السبت شرعا بيضاء سمانا كأنها الماخض تنتطح ظهورها

الكشاف في تقرير هذا بما طائل تحته والقول الاول هو الاولى وقرئ ليضلوا بضم الياء أي يوقعوا الاضلال على غيرهم وقرئ الباقون بالفتح أي يضلون في أنفسهم (ربنا اطمس على أموالهم) أي امسخها وأزل صورها قال الزجاج طمس الشئ اذهابه عن صورته وازالة أثر الشئ بالمحو قال مجاهد اهلكها وقال أكثر المفسرين امسخها وغيرها عن هيآتها والمعنى الدعاء عليهم بأن يمحق الله أموالهم ويهلكها وقرئ بضم الميم من اطمس وقد روي عن قتادة ان أموالهم وحروثهم وزروعهم وجواهرهم ودراهمهم ودنانيرهم تحولت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وانصافا وأثلاثا قيل ان عمر بن عبد العزيز دعا بخريطة فيها شئ من بقايا آل فرعون فأخرج منها البيضة منقوشة والجوزة مشقوقة وهي حجارة قال السدي مسخ الله أموالهم حجارة والنخل والثمار والدقيق والاطعمة وقال القرطبي صارت صورهم حجارة وفيه ضعف لان موسى دعا على أموالهم ولم يدع على أنفسهم بالمسخ وهذا الطمس هو أحد الآيات التسع التي أوتيها موسى عليه السلام (واشدد على قلوبهم) أي اربط عليها واجعلها قاسية مطبوعة حتى لا تقبل الحق ولا تنشرح للايمان ولا تلين قال الواحدي وهذا دليل على ان الله تعالى يفعل ذلك لمن يشاء ولولا ذلك لما جسر موسى على هذا السؤال (فلا يؤمنوا) أي اشدد على قلوبهم ليضلوا ولا يؤمنوا قاله المبرد والزجاج وقال الفراء والكسائي وأبو عبيدة هو دعاء بلفظ النهي والتقدير

والتقدير اللهم فلا يؤمنوا وقال الاخفش انه جواب الامر أى اطمس واشدد فلا يؤمنوا (حتى يروا العذاب الاليم) أى فلا يحصل منهم الايمان الامع المعاينة لما يعذبهم الله به وعند ذلك لا ينفع ايمانهم قال ابن عباس العذاب هو الغرق وقد استشكل بعض أهل العلم ما فى هذه الآية من الدعاء على هؤلاء وقال ان الرسل انما تطلب هداية قومهم وايمانهم واجيب بأنه لا يجوز لنبى أن يدعو على قومه الا باذن الله سبحانه وانما يأذن الله بذلك لعلمه بأنه ليس فيهم من يؤمن ولهذا لما أعلم الله نوحا عليه السلام بأنه لن يؤمن من قومه الا من قد آمن قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا (قال) الله تعالى (قد أجيبت دعوتكما) جعل الدعوة ههنا مضافة الى موسى وهرون وفيما تقدم أضافها الى موسى وحده فقيل ان هرون كان يؤمن على دعاء موسى فسمى ههنا داعيا وان كان الداعى موسى وحده ففى أول الكلام أضاف الدعاء الى موسى لكونه الداعى وههنا أضافه اليهما تنزيلا للمؤمن منزلة الداعى ويجوز أن يكونا جميعا داعيين ولكن أضاف الدعاء الى موسى فى أول الكلام لاصالته فى الرسالة قال النحاس سمعت على بن سليمان يقول الدليل على أن الدعاء لهما قول موسى ربنا ولم يقل رب وقرئ دعواتكما ودعوا كما قال ابن عباس فاستجاب له وحال بين فرعون وبين الايمان ويزعمون أن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة لحكمة يعلمها هو وعن ابن جريج ومجاهد نحوه (فاستقيما) أى

لبطونها بأفنيتهم فكانوا كذلك برهة من الدهر ثم ان الشيطان أوحى اليهم فقال انما نهيتكم عن أكلها يوم السبت فخذوها فيه وكلوها فى غيره من الايام فقالت ذلك طائفة منهم وقالت طائفة بل نهيتم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت فكانوا كذلك حتى جاءت الجمعة المقبلة فغدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها واعتزلت طائفة ذات اليمين وتنحت واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت وقال الايمنون ويلكم الله ينهاكم عن ان تعترضوا لعقوبة الله وقال الايسرون لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قال الايمنون معذرة الى ربكم ولعلهم يتقون أى ينتهون فهو أحب الينا أن لا يصابوا ولا يهلكوا وان لم ينتهوا فمعذرة الى ربكم فمضوا على الخطيئة وقال الايمنون فقد فعلتم يا أعداء الله والله لنأتينكم الليلة فى مدينتكم والله ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف أو قذف أو بعض ما عنده من العذاب فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ونادوا فلم يجابوا فوضعوا سلما وعلوا سور المدينة رجلا فالتفت اليهم فقال أى عباد الله قردة والله تعاوى لها أذناب قال ففتحوا فدخلوا عليهم فعرفت القرود أنسابها من الانس ولا تعرف الانس أنسابها من القردة فجعلت القرود يأتيها نسيبها من الانس فتشم ثيابه وتبكى فتقول لهم ألم ننهكم عن كذا فتقول برأسها أى نعم ثم قرأ ابن عباس فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس قال فأرى الذين نهوا قد نجوا ولا أرى الآخرين ذكروا ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها قال قلت اى جعلنى الله فداك ألا ترى انهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم وقالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم قال فأمر بى فكسيت ثوبين غليظين وكذا روى مجاهد عنه وقال ابن جرير حدثنا يونس أخبرنا أشهب بن عبد العزيز عن مالك قال زعم ابن رومان ان قوله تعالى تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم قال كانت تأتيهم يوم السبت فاذا كان المساء ذهبت فلا يرى منها شئ الى يوم السبت الآخر فاتخذ لذلك رجل خيطا وتدا فربط حوتا منها فى الماء يوم السبت حتى اذا أمسوا ليلة الاحد أخذه فاشتواه فوجد الناس ريحه فأتوه فسألوه عن ذلك فجحدهم فلم يزالوا به حتى قال لهم فانه جلد حوت وجدناه فلما كان السبت الآخر فعل مثل ذلك ولا أدرى لعله قال ربط حوتين فلما أمسى من ليلة الاحد أخذه فاشتواه فوجدوا رائحة فجاؤا فسألوه فقال لهم لو شئتم صنعتم كما أصنع فقالوا له وما صنعت فأخبرهم ففعلوا مثل ما فعل حتى كثر ذلك وكانت لهم مدينة لها ربض يغلقونها عليهم فأصابهم من المسخ ما أصابهم فغدوا عليهم جيرانهم ممن كانوا حولهم يطلبون منهم ما يطلب الناس فوجدوا المدينة مغلقة عليهم فنادوا فلم يجيبوهم فتسوروا عليهم فاذا هم قردة فجعل القرد يدنو يتمسح بمن كان يعرف قبل ذلك ويدنو منه ويتمسح به وقد قدمنا فى سورة البقرة من الآثار فى خبر هذه القرية ما فيه مقنع وكفاية ولله الحمد والمنة القول الثانى ان الساكتين كانوا من الهالكين قال محمد بن اسحق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس انه قال ابتدعوا السبت فابتلوا فيه فحرمت عليهم فيه الحيتان فكانوا اذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون اليها فى البحر فاذا انقضى السبت ذهبت فلم تر حتى السبت المقبل فاذا جاء السبت جاءت شرعا فمكثوا ما شاء الله ان يمكثوا كذلك ثم ان رجلا منهم أخذ حوتا فخزم أنفه ثم ضرب له وتدا فى الساحل

وربطه وتركه في الماء فلما كان الغد أخذه فشواه فأكله ففعل ذلك وهم ينظرون ولا ينكرون ولا ينهاهم منهم أحد الا عصبة منهم نهوه حتى ظهر ذلك في الاسواق ففعل علانية قال فقالت طائفة من الذين نهوهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة الى ربكم فقالوا اسقط أعمالهم ولعلهم يتقون فلما نسوا ما ذكروا به الى قوله قردة خاسئين قال ابن عباس كانوا اثلاثا ثلث نهوا وثلث قالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم وثلث أصحاب الخطيئة فما نجا الا الذين نهوا وهلك سائرهم وهذا اسناد جيد عن ابن عباس ولكن رجوعه الى قول عكرمة في نجاة الساكتين أولى من القول بهذا لانه تبين حالهم بعد ذلك والله أعلم وقوله تعالى وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس فيه دلالة بالمفهوم على ان الذين بقوا نجوا وبئيس فيه قراآت كثيرة ومعناه في قول مجاهد الشديد وفي رواية أليم وقال قتادة موجع والكل متقارب والله أعلم وقوله خاسئين أي ذليلين حقيرين مهانين (واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ان ربك لسريع العقاب وانه لغفور رحيم) تأذن تفعل من الاذان أي أعلم قاله مجاهد وقال غيره أمر وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة ولهذا اتلقيت باللام في قوله ليبعثن عليهم أي على اليهود الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب (٢٥٨) أي بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه واحتيالهم على المحارم ويقال ان موسى عليه السلام ضرب عليهم الخراج سبع سنين وقيل ثلاث عشرة سنة وكان أول من ضرب الخراج ثم كانوا في قهر الملوك اليونانيين والكسرانيين والكلدانيين ثم صاروا في قهر النصارى واذلالهم اياهم وأخذهم منهم الجزية والخراج ثم جاء الاسلام ومحمد صلى الله عليه وسلم فكانوا تحت قهره وذمته يؤدون الخراج والجزية قال العوفي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال هي المكنة وأخذ الجزية منهم بالمدينة وقال علي بن أبي طلحة عنه هي الجزية والذي يسومهم سوء العذاب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته الى يوم القيامة وكذا قال سعيد بن جبير وابن جرير والسدي وقتادة وهم وقال عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكريم الجزري عن سعيد بن المسيب قال يستحب ان تبعث الانباط في الجزية قلت ثم آخر أمرهم انهم يخرجون أنصار الدجال فيقتلهم المسلمون مع عيسى بن مريم عليه السلام وذلك آخر الزمان وقوله ان ربك لسريع العقاب أي لمن عصاه وخالف شرعه وانه لغفور رحيم أي لمن تاب اليه وأناب وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة لئلا يحصل اليأس فيقرن تعالى بين الترغيب والترهيب كثيرا لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف (وقطعناهم في الارض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الادنى ويقولون سيغفر لنا وان يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ان لا يقولوا على الله الا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة انا لا نضيع أجر المصلحين) يذكر تعالى انه فرقهم في الارض أمما أي طوائف وفرقا كما قال وقلنا من بعده لبني اسرائيل اسكنوا الارض فاذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا منهم الصالحون ومنهم دون ذلك أي فيهم الصالح وغير ذلك كقول الجن وانا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا

امضا الامر ودوما على الاستقامة قاله ابن عباس والاستقامة الثبات على ما هما عليه من الدعاء الى الله قال الفراء وغيره أمرا بالاستقامة على أمرهما والثبات عليه وعلى دعاء فرعون وقومه الى الايمان الى أن يأتيهما تأويل الاجابة أربعين سنة ثم أهلكوا وقيل معنى الاستقامة ترك الاستعجال ولزوم السكينة والرضا والتسليم لما يقضي الله به سبحانه (ولا تتبعان) قرئ بتشديد النون للتأكيد وبتخفيفها على النفي لا على النهي أو انه نفي في معنى النهي أي لا تسلكا (سبيل الذين لا يعلمون) حكمة تأخير المطلوب نهاهما عن سلوك طريقة من لا يعلم بعادة الله سبحانه في اجراء الامور على ما تقتضيه المصالح تعجيلا وتأجيلا وقيل انه خبر محض مستأنف لا تعلق له بما قبله والمعنى أنهما أخبرا بأنهما لا يتبعان وأما تشديد التاء وتخفيفها فلغتان من اتبع يتبع وتبع يتبع وهما بمعنى واحد يقال تبعه أي مشى خلفه واتبعه كذلك الا انه حاذاه في المشي واتبعه لحقه قال الرازي وهذا النهي لا يدل على أن ذلك قد صدر من موسى وهرون كما أن قوله لئن أشركت ليحبطن عملك لا يدل على صدور الشرك منه (وجاوزنا ببني اسرائيل البحر) هو من جاوز المكان اذا خلفه وتخطاه والباء للتعدية أي جعلناهم مجاوزين البحر حتى بلغوا الشط لان الله سبحانه جعل البحر يبسا فمروا فيه حتى خرجوا منه الى البر والمراد بحر القلزم وهو بحر السويس وكانوا ستمائة ألف قاله الخطيب وفي الخازن قال أهل التفسير اجتمع يعقوب وبنوه الى يوسف

و بلوناهم أي اختبرناهم بالحسنات والسيئات أي بالرخاء والشدة والرغبة والرهبة والعافية والبلاء لعلهم يرجعون ثم قال تعالى فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى الآية يقول تعالى فخلف من بعد ذلك الجيل الذي فيهم الصالح والطالح خلف آخر لا خير فيهم وقد ورثوا دراسة الكتاب وهو التوراة وقال مجاهد هم النصارى وقد يكون أعم من ذلك يأخذون عرض هذا الأدنى أي يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا ويسوفون أنفسهم ويعدونها بالتوبة وكلما لاح لهم مثل الأول أخذوه ولهذا قال وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه كما قال سعيد بن جبير يعملون الذنب ثم يستغفرون الله منه ويعترفون لله فإن عرض ذلك الذنب أخذوه وقال مجاهد في قوله تعالى يأخذون عرض هذا الأدنى قال لا يشرف لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه حلالا كان أو حراما ويتمنون المغفرة ويقولون سيغفر لنا وإن وجدوا عرضا مثله يأخذوه وقال قتادة في الآية أي والله لخلف سوء ورثوا الكتاب بعد أنبيائهم ورسلهم أورثهم الله وعهد إليهم وقال الله تعالى في آية أخرى فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة الآية قال يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا تمنوا على الله أماني وغرة يغترون بها وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه لا يشغلهم شيء عن شيء ولا ينهاهم شيء عن ذلك كلما هف لهم شيء من الدنيا أكلوه لا يبالون حلالا كان أو حراما وقال السدي قوله فخلف من بعدهم خلف إلى قوله ودرسوا ما فيه قال كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضيا إلا ارتشى في الحكم وإن خيارهم اجتمعوا فأخذ بعضهم على بعض العهود أن لا يفعلوا ولا يرتشوا فجعل الرجل منهم إذا استقضى ارتشى فيقال له ما شأنك ترتشي في الحكم فيقول سيغفر لي فيطعن عليه البقية الآخرون من بني إسرائيل فيما صنع فإذا مات أو نزع وجعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه فيرتشي يقول وإن يأت الآخرين عرض الدنيا يأخذوه قال الله تعالى ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق الآية يقول تعالى منكرا عليهم في صنيعهم هذا مع ما أخذ عليهم من الميثاق ليبينن الحق للناس ولا يكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون كقوله وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه الآية وقال ابن جريج قال ابن عباس ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق قال فيما يتمنون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون فيها ولا يتوبون منها وقوله تعالى والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون يرغبهم في جزيل ثوابه ويحذرهم من وبيل عقابه أي وثوابي وما عندي خير لمن اتقى المحارم وترك هوى نفسه وأقبل على طاعة ربه أفلا تعقلون يقول أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندي عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد صلى الله عليه وسلم كما هو مكتوب فيه فقال تعالى والذين يمسكون بالكتاب أي اعتصموا به واقتدوا بأوامره وتركوا زواجره وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله وإذ نتقنا الجبل فوقهم يقول رفعناه وهو قوله ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقال سفيان الثوري عن الأعمش عن سعيد بن جبير

وهم اثنان وتسعون وخرج بنوه مع موسى من مصر في الوقت المعلوم وهم ستمائة ألف وقد تقدم تفسير هذا في سورة البقرة في قوله سبحانه وإذ فرقنا بكم البحر وقرأ الحسن وجوزنا وهما لغتان والآية دليل على خلق الأفعال (فأتبعهم فرعون وجنوده) يقال تبع وأتبع بمعنى واحد إذا لحقه وقال الأصمعي يقال أتبعه بقطع الألف إذا لحقه وأدركه واتبعه بوصل الألف إذا اتبع أثره أدركه أو لم يدركه وكذا قال أبو زيد وقال أبو عمرو واتبعه بالوصل اقتدى به وفي المختار تبعه من باب طرب إذا مشى خلفه أو مر به فمضى معه وكذا اتبعه وهو افتعل وأتبعه على أفعل إذا كان قد سبقه فلحقه وقال الأخفش تبعه وأتبعه بمعنى مثل ردفه وأردفه (بغيا) ظلما (وعدوا) اعتداء أي لأجلهما أو باغين معتدين وقرأ الحسن عدوا بضم العين والدال وتشديد الواو وقيل إن البغي الاستعلاء في القول بغير حق والعدو في الفعل قال عكرمة العدو والعتو والعلو في كتاب الله التجبر (حتى إذا أدركه الغرق) أي ناله ووصله وألجمه غاية لاتباعه وذلك أن موسى خرج ببني إسرائيل على حين غفلة من فرعون فلما سمع فرعون بذلك لحقهم بجنوده ففرق الله البحر لموسى وبني إسرائيل فمشوا فيه حتى خرجوا من الجانب الآخر وتبعهم فرعون والبحر باق على الحالة التي كان عليها عند مضي موسى ومن معه فلما تكامل دخول جنود فرعون وكادوا أن يخرجوا من الجانب الآخر انطبق عليهم فغرقوا كما حكى الله سبحانه ذلك (قال آمنت أنه

عن ابن عباس رفعته الملائكة فوق رؤسهم وهو قوله ورفعنا فوقهم الطور وقال القاسم بن أبي ايوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال ثم سار بهم موسى عليه السلام الى الارض المقدسة وأخذ الالواح بعد ما سكت عنه الغضب وأمرهم بالذي أمر الله أن يبلغهم من الوظائف فثقلت عليهم وأبوا أن يقروا بها حتى نتق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة قال رفعته الملائكة فوق رؤسهم رواه النسائي بطوله وقال سنيد بن داود في تفسيره عن حجاج بن محمد عن أبي بكر بن عبد الله قال هذا كتاب أتقبلونه بما فيه فان فيه بيان ما أحل لكم وما حرم عليكم وما أمركم وما نهاكم قالوا انشر علينا ما فيها فان كانت فرائضها وحدودها يسيرة قبلناها قال اقبلوها بما فيها قالوا لا حتى نعلم ما فيها كيف حدودها وفرائضها فراجعوه مرارا فأوحى الله الى الجبل فانقلع فارتفع في السماء حتى اذا كان بين رؤسهم وبين السماء قال لهم موسى ألا ترون ما يقول ربي عز وجل لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لارمينكم بهذا الجبل قال فحدثني الحسن البصري قال لما نظروا الى الجبل خر كل رجل ساجدا على حاجبه الايسر ونظر بعينه اليمنى الى الجبل فرقا من أن يسقط عليهم فكذلك ليس اليوم في الارض يهودي يسجد الا على حاجبه الايسر يقولون هذه السجدة التي رفعت بها (٢٦٠) العقوبة قال أبو بكر فلما نشر الالواح فيها كتاب الله كتبه بيده لم يبق على وجه الارض جبل ولا شجر ولا حجر الا اهتز فليس اليوم يهودي على وجه الارض صغير ولا كبير يقرأ عليه التوراة الا اهتز ونفض لها رأسه والله أعلم (واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن يقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين أو يقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون) يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم ان الله ربهم ومليكهم وانه لا اله الا هو كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه قال تعالى فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة وفي رواية على هذه الملة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله اني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاختالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وقال الامام أبو جعفر بن جرير رحمه الله حدثنا يونس بن عبد الاعلى حدثنا ابن وهب أخبرني السري ابن يحيى أن الحسن بن أبي الحسن حدثهم عن الاسود بن سريع من بني سعد قال غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع غزوات قال فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشتد عليه ثم قال ما بال أقوام يتناولون الذرية فقال رجل يا رسول الله أليسوا أبناء المشركين فقال ان خياركم أبناء المشركين الا انها ليست نسمة تولد الا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها فأبواها يهودانها او ينصرانها قال الحسن والله لقد قال الله في كتابه واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم الآية وقد رواه الامام أحمد عن اسمعيل بن علية عن يونس بن عبيد عن الحسن البصري به

لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل) اى صدقت ولم ينفعه هذا الايمان لانه وقع منه بعد ادراك الغرق له كما تقدم في النساء ولم يقل اللعين آمنت بالله أو برب العالمين بل قال ما تقدم لانه بقي فيه عرق من دعوى الالهية (وأنا من المسلمين) اى المستسلمين لامر الله المنقادين له الذين يوحدونه وينفون ما سواه فان قيل انه آمن ثلاث مرات كما في هذه الآية فما السبب في عدم القبول قيل انه آمن عند نزول العذاب والايمان والتوبة عنده غير مقبول ويدل عليه قوله تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا وان الايمان انما يتم بالاقرار بالتوحيد والنبوة وفرعون لم يقر بالنبوة فلم يصح ايمانه وقيل غير ذلك ذكره الخطيب أخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أغرق الله فرعون فقال آمنت الآية قال جبريل يا محمد لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه مخافة ان تدركه الرحمة والمعنى دس جبريل في فيه بأمر الله فلا اعتراض عليه وقد روى هذا الحديث الترمذي من غير وجه وقال صحيح حسن غريب وصححه أيضا الحاكم عن ابن عباس من طرق أخرى واسناده على شرط البخاري وليس في رواتهما متهم وان كان فيهم من هو سيء الحفظ فقد تابعه عليه غيره وقد أطال الخازن في جواب ما اعترض به الرازي وأشكاله في هذا الحديث بما يطول ذكره وأخرج الطبراني في الاوسط عن أبي هريرة عن

النبي

وأخرجه النسائي في سننه من حديث هشيم بن يونس بن عبيد عن الحسن قال حدثني الاسود بن سريع فذكره ولم يذكر قول الحسن البصري واستحضاره الآية عند ذلك وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم الى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال وفي بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم قال الامام أحمد حدثنا حجاج حدثنا شعبة عن أبي عمران الجوني عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على من شيء أكنت مفتديا به قال فيقول نعم فيقول قد أردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيأ فأبيت الا أن تشرك بي أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة به (حديث آخر) قال الامام أحمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا جرير يعني ابن حازم عن كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلا قال ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا الى قوله المبطلون وقد روى هذا الحديث النسائي في كتاب التفسير من سننه عن محمد بن عبد الرحيم عن صاعقة عن حسين بن محمد المروزي به ورواه ابن (٢٦١) جرير وابن أبي حاتم من حديث حسين بن محمد به الا أن ابن أبي حاتم جعله موقوفا وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث حسين بن محمد وغيره عن جرير بن حازم عن كلثوم بن جبير به وقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه وقد احتج مسلم بكلثوم ابن جبير هكذا قال وقد رواه عبد الوارث عن كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فوقفه وكذا رواه اسمعيل بن علية ووكيع عن ربيعة بن كلثوم عن جبير أبيه به وكذا رواه عطاء بن السائب وحبيب بن أبي ثابت وعلي بن بذيمة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قوله وكذا رواه العوفي وعلي ابن أبي طلحة عن ابن عباس فهذا أكثر وأثبت والله أعلم وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبي عن أبي هلال عن أبي جمرة الضبعي عن ابن عباس قال أخرج الله ذرية آدم من ظهره كهيئة الذر وهو في أدى من الماء وقال أيضا حدثنا علي بن سهل حدثنا ضمرة بن ربيعة حدثنا أبو مسعود عن جويبر مات ابن الضحاك بن مزاحم ابن ستة أيام قال فقال يا جابر اذا أنت وضعت ابني في لحده فأبرز وجهه وحل عنه عقده فان ابني مجلس ومسؤل ففعلت به الذي أمر فلما فرغت قلت يرحمك الله عما يسئل ابنك من يسأله اياه قال يسئل عن الميثاق الذي أقر به في صلب آدم قلت يا أبا القاسم وما هذا الميثاق الذي أقر به في صلب آدم قال حدثني ابن عباس ان الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها الى يوم القيامة فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيأ وتكفل لهم بالارزاق ثم أعادهم في صلبه فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الاول ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يقر به لم ينفعه الميثاق الاول ومن مات صغيرا قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الاول على الفطرة فهذه الطرق كلها مما تقوي وقف هذا على ابن عباس والله أعلم (حديث آخر) قال ابن جرير حدثنا عبد الرحمن بن الوليد حدثنا أحمد بن أبي طيبة عن سفيان بن سعيد عن الاجلح عن الضحاك عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه

النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال قال لي جبريل ما كان على الارض يعني أبغض الي من فرعون فلما آمن جعلت أحشو فاه حمأة وأنا أغطه خشية أن تدركه الرحمة وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر مرفوعا نحوه وأبو الشيخ عن أبي أمامة نحوه أيضا وفي اسناد حديث أبي هريرة رجل مجهول وباقي رجاله ثقات والعجب كل العجب ممن لا علم له بفن الرواية من المفسرين ولا يكاد يميز بين أصح الصحيح من الحديث وأكذب الكذب منه كيف يتجارى على الكلام في أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والحكم ببطلان ما صح منها ويرسل لسانه وقلمه بالجهل البحت والقصور الفاضح الذي يضحك منه كل من له أدنى ممارسة بفن الحديث فيا مسكين مالك ولهذا الشأن الذي لست فيه في شيء ألا تستر نفسك وتربع على ضلعك وتعرف بانك بهذا العلم من أجهل الجاهلين وتشتغل بما هو علمك الذي لا تجاوزه وحاصلك الذي ليس لك غيره وهو علم اللغة وتوابعه من العلوم الآلية ولقد صار صاحب الكشاف عفا الله عنه بسبب ما يتعرض له في تفسيره من علم الحديث الذي ليس هو منه في ورد ولا صدر سخرة للساخرين وعبرة للمعتبرين فتارة يروي في كتابه الموضوعات وهو لا يدري أنه منها وتارة يتعرض لرد ما صح ويجزم بانه من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والبهت عليه وقد يكون في الصحيحين وغيرهما مما يلتحق بهما من رواية جماعة من الصحابة بأسانيد كلها أئمة ثقات حجج اثبات وأدنى نصيب من عقل

وسلم وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم قال أخذ من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم ألست بربكم قالوا بلى قالت الملائكة شهدنا أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أحمد بن أبي طيبة هذا هو أبو محمد الجرجاني قاضي قومس كان أحد الزهاد أخرج له النسائي في سننه وقال أبو حاتم الرازي يكتب حديثه وقال ابن عدي حدث بأحاديث كثيرة غرائب وقد روى هذا الحديث عبد الرحمن بن حمزة بن مهدي عن سفيان الثوري عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قوله وكذا رواه جرير عن منصور به وهذا أصح والله أعلم (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا روح هو ابن عبادة حدثنا مالك وحدثنا إسحق بن مالك عن زيد بن أبي أنيسة أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أخبره عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى الآية فقال عمر بن الخطاب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية قال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون فقال يا رسول الله ففيم العمل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة (٢٦٢) حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار وهكذا رواه أبو داود عن القعنبي والنسائي عن قتيبة والترمذي عن إسحق بن موسى عن معن وابن أبي حاتم عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب وابن جرير من حديث روح بن عبادة وسعيد بن عبد الحميد بن جعفر وأخرجه ابن حبان في صحيحه من رواية أبي مصعب الزبيري كلهم عن الإمام مالك بن أنس به قال الترمذي وهذا حديث حسن ومسلم بن يسار لم يسمع عمر وكذا قاله أبو حاتم وأبو زرعة زاد أبو حاتم وبينهما نعيم بن ربيعة وهذا الذي قاله أبو حاتم رواه أبو داود في سننه عن محمد بن مصفى عن بقية عن عمرو بن جعثم القرشي عن زيد بن أبي أنيسة عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن مسلم بن يسار الجهني عن نعيم بن ربيعة قال كنت عند عمر بن الخطاب وقد سئل عن هذه الآية وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم فذكره وقال الحافظ الدارقطني وقد تابع عمرو بن جعثم بن زيد بن سنان أبو فروة الرهاوي وقولهما أولى بالصواب من قول مالك والله أعلم قلت الظاهر أن الإمام مالكا إنما أسقط ذكر نعيم بن ربيعة عمدا لما جهل حال نعيم ولم يعرفه فإنه غير معروف إلا في هذا الحديث ولذلك يسقط ذكر جماعة ممن لا يرتضيهم ولهذا يرسل كثيرا من المرفوعات ويقطع كثيرا من الموصولات والله أعلم (حديث آخر) قال الترمذي عند تفسير هذه الآية حدثنا عبد بن حميد حدثنا أبو نعيم حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصا من نور ثم عرضهم على آدم فقال أي رب من هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال أي رب من هذا قال هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود فقال رب وكم جعلت عمره قال ستين سنة قال أي رب قد وهبت له من عمري أربعين سنة فلما انقضى عمر آدم جاءه

يحجر صاحبه عن التكلم في علم لا يعلمه ولا يدري به أقل دراية وإن كان ذلك العلم من علوم الاصطلاح التي يتواضع عليها طائفة من الناس ويصطلحون على أمور فيما بينهم فما بالك بعلم السنة الذي هو قسيم كتاب الله وقائله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورواته خير القرون ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم وكل حرف من حروفه وكلمة من كلماته يثبت بها شرع عام لجميع أهل الإسلام (آلآن) أي فقيل له أتؤمن الآن وقد اختلف في القائل لفرعون بهذه المقالة فقيل هي من قول الله سبحانه وقيل من قول جبريل وقيل من قول ميكائيل وقيل من قول فرعون قال ذلك في نفسه لنفسه والمعنى إنكار الإيمان منه عندما ألجمه الغرق والمقصود التقريع والتوبيخ له قال ابن عباس لم يقبل الله إيمانه عند نزول العذاب به وقد كان في مهل والإيمان والتوبة عند اليأس لا يقبل (وقد عصيت قبل) أي قبل هذا المقصود والجملة حالية أي وقد أيست من نفسك ولم يبق لك اختيار والإيمان في هذه الحالة لا ينفعك يعني آلآن تتوب وقد ضيعت التوبة في وقتها وآثرت دنياك الفانية على الآخرة الباقية (وكنت من المفسدين) في الأرض بضلالك عن الحق وإضلالك لغيرك (فاليوم ننجيك) أي نخرجك من البحر ونلقيك على الشط وذلك أن بني إسرائيل لم يصدقوا أن فرعون غرق وقالوا هو أعظم شأنا من ذلك فألقاه الله على نجوة من الأرض أي مكان مرتفع حتى شاهدوه أحمر قصيرا كأنه ثور ثم أعاده إلى البحر ثانيا في ذلك الوقت

لا يقبل

ملك الموت قال أولم يبق من عمري أربعون سنة قال أولم تعطها ابنك داود قال فجحد آدم فجحدت ذريته ونسي آدم فنسيت ذريته وخطئ آدم فخطئت ذريته ثم قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ورواه الحاكم في مستدركه من حديث أبي نعيم الفضل بن دكين به وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه أنه حدثه عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر نحو ما تقدم إلى أن قال ثم عرضهم على آدم فقال يا آدم هؤلاء ذريتك وإذا فيهم الأجذم والأبرص والأعمى وأنواع الأسقام فقال آدم يا رب لم فعلت هذا بذريتي قال كي تذكر نعمتي وقال آدم يا رب من هؤلاء الذين أراهم أظهر الناس نورا قال هؤلاء الأنبياء يا آدم من ذريتك ثم ذكر قصة داود كنحو ما تقدم (حديث آخر) قال عبد الرحمن بن قتادة النضري عن أبيه عن هشام بن حكيم رضي الله عنه أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أتبدأ الأعمال أم قد قضي القضاء قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم ثم أشهدهم على أنفسهم ثم أفاض بهم في كفيه ثم قال هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة وأهل النار

ميسرون لعمل أهل النار رواه ابن جرير وابن مردويه من طرق عنه (حديث آخر) روى جعفر بن الزبير وهو ضعيف عن القاسم عن أبي أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله الخلق وقضى القضية أخذ أهل اليمين بيمينه وأهل الشمال بشماله فقال يا أصحاب اليمين فقالوا لبيك وسعديك قال ألست بربكم قالوا بلى ثم خلط بينهم فقال قائل له يا رب لم خلطت بينهم قال لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ثم ردهم في صلب آدم رواه ابن مردويه (أثر آخر) قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب في قوله تعالى وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم الآيات قال جمعهم له يومئذ جميعا ما هو كائن منه إلى يوم القيامة فجعلهم في صورهم ثم استنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى الآية قال فإني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا اعلموا أنه لا إله غيري ولا رب غيري ولا تشركوا بي شيئا وإني سأرسل إليكم رسلا لينذرونكم عهدي وميثاقي وأنزل عليكم كتبي قالوا نشهد أنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك فأقروا له يومئذ بالطاعة ورفع أباهم آدم فنظر إليهم فرأى فيهم الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك فقال يا رب لو سويت بين عبادك قال إني أحببت أن أشكر ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة فهو الذي يقول تعالى وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم الآية وهو الذي يقول فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله الآية ومن ذلك قال هذا نذير من النذر الأولى ومن ذلك قال وما وجدنا لأكثرهم من عهد الآية رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في مسند أبيه ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه في تفاسيرهم من رواية أبي جعفر الرازي به وروي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والسدي وغير واحد من السلف سياقات توافق هذه الأحاديث اكتفينا

لا يقبل الماء ميتا أبدا قاله الخازن وقيل المعنى نخرجك مما وقع فيه قومك من الرسوب في قعر البحر ونجعلك طافيا ليشاهدوك ميتا بالغرق وقرئ بالحاء المهملة من التنحية أي نطرحك على ناحية من الأرض وقد اختلف المفسرون في معنى (ببدنك) فقيل معناه بجسدك بعد سلب الروح منه لا كما هو مطلوبك فهو تخييب له وحسم لطامعه والباء للمصاحبة وقيل معناه بدرعك والدرع تسمى بدنا والأبدان الدروع قاله أبو عبيدة ورجح الأخفش الأول وقرأ أبو حنيفة رحمه الله بأبدانك وهو مثل قولهم هو بأجرامه أي ببدنك كله وافيا بأجزائه

وقيل عريانا لا شيء عليه وقيل الباء سببية لأن بدنه سبب في تنجيته (لتكون لمن خلفك آية) هذا تعليل لتنجيته ببدنه وفي ذلك دليل على أنه لم يظهر جسده دون قومه إلا لهذه العلة لا لسوى والمراد بالآية العلامة أي لتكون علامة يعرفون بها هلاكك وأنك لست كما تدعي ويندفع عنهم الشك في كونك قد صرت ميتا بالغرق وقيل المراد ليكون طرحك على الساحل وحدك دون المغرقين من قومك آية من آيات الله يعتبر بها الناس أو يعتبر بها من سيأتي من الأمم إذا سمعوا ذلك حتى يحذروا من التكبر والتجبر والتمرد على الله سبحانه فإن هذا الذي بلغ إلى ما بلغ إليه من دعوى الإلهية واستمر على ذلك دهرا طويلا كانت له هذه العاقبة القبيحة وقرئ لمن خلفك على صيغة الماضي أي لمن يأتي بعدك من القرون أو من خلفك في الرياسة أو في السكون في المسكن الذي كنت تسكنه وهذا آخر مقول جبريل

فهذه الاحاديث دالة على ان الله عزوجل استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل الجنة وأهل النار وأما الاشهاد عليهم هنالك بأنه ربهم فما هو الا فى حديث كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وفى حديث عبد الله بن عمرو وقد بينا انهما موقوفان لامرفوعان كما تقدم ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف ان المراد بهذا الاشهاد انما هو فطرهم على التوحيد كما تقدم فى حديث أبى هريرة وعياض بن حمار المجاشعى ومن رواية الحسن البصرى عن الاسود بن سريع وقد فسر الحسن الآية بذلك قالوا ولهذا قال واذ أخذ ربك من بنى آدم ولم يقل من آدم من ظهورهم ولم يقل من ظهره ذرياتهم أى جعل نسلهم جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن كقوله تعالى وهو الذى جعلكم خلائف الارض وقال ويجعلكم خلفاء الارض وقال كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ثم قال وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى أى أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالا وقالا والشهادة تارة تكون بالقول كقوله قالوا شهدنا على أنفسنا الآية وتارة تكون حالا كقوله تعالى ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أى حالهم شاهد عليهم بذلك لا انهم قائلون ذلك وكذا قوله تعالى وانه على ذلك لشهيد كما أن السؤال تارة يكون بالقال وتارة يكون بالحال كقوله وآتاكم من

كل ما سألتموه قالوا ومما يدل على ان المراد بهذا هذا ان جعل هذا الاشهاد حجة عليهم فى الاشراك فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه فان قيل اخبار الرسول صلى الله عليه وسلم به كاف فى وجوده فالجواب ان المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه على الفطرة التى فطروا عليها من الاقرار بالتوحيد ولهذا قال أن يقولوا أى لئلا يقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين أى التوحيد غافلين أو يقولوا انما أشرك آباؤنا الآية

(واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الارض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون) قال عبد الرزاق عن سفيان الثورى عن الاعمش ومنصور عن أبى الضحى عن مسروق عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى قوله تعالى واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها الآية قال هو رجل من بنى اسرائيل يقال له بلعم بن باعوراء وكذا رواه شعبة وغير واحد عن منصور به وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن ابن عباس هو صيفى بن الراهب قال قتادة وقال كعب كان رجلا من أهل البلقاء وكان يعلم الاسم الاكبر وكان مقيما ببيت المقدس مع الجبارين وقال العوفى عن ابن عباس هو رجل من أهل اليمن يقال له بلعم آتاه الله آياته فتركها وقال مالك بن دينار كان من علماء بنى اسرائيل وكان مجاب الدعوة يقدمونه فى الشدائد بعثه نبى الله موسى الى ملك مدين يدعوه الى الله فأقطعه واعطاه فتبع دينه وترك دين موسى عليه السلام وقال سفيان بن عيينة عن حصين عن عمران بن الحرث عن ابن عباس هو بلعم بن باعوراء وكذا قال مجاهد وعكرمة وقال

عليه السلام (وان كثيرا من الناس عن آياتنا) التى توجب الاعتبار والتفكر وتوقظ من سنة الغفلة (لغافلون) عما توجبه تلك الآيات وهذه الجملة تذييلية جيء بها عقب الحكاية تقريرا الكلام المحكى (ولقد بوأنا بنى اسرائيل مبوأ صدق) هذا من جملة ما عدده الله سبحانه من النعم التى أنعمها عليهم ومعنى بوأنا أسكنا يقال بوأت زيدا منزلا أسكنته فيه والمبوأ اسم مكان أو مصدر واضافته الى الصدق على ما جرت عليه قاعدة العرب فانهم كانوا اذا مدحوا شيأ أضافوه الى الصدق والمراد به هنا المنزل المحمود الصالح المختار المرضى قيل هو أرض مصر قاله الضحاك وقيل جميع ما كان تحت أيدى فرعون وقومه من ناطق وصامت وزرع وغيره وقيل الاردن وفلسطين وقيل الشام قاله قتادة وقيل بيت المقدس لانها بلاد الخصب والخير والبركة (ورزقناهم من الطيبات) أى المستلذات من الرزق (فما اختلفوا) فى أمر دينهم وتشعبوا فيه شعبا بعدما كانوا على طريقة واحدة غير مختلفة (حتى جاءهم العلم) أى لم يقع منهم هذا الاختلاف فى الدين الا بعدما جاءهم العلم بقراءتهم التوراة وعلمهم بأحكامها وما اشتملت عليه من الاخبار بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فاختلفوا فيه وفى صفته وآمن به من آمن منهم وكفر به من كفر قال ابن زيد يعنى كتاب الله الذى أنزله عليه وآله وسلم وقيل العلم هو القرآن المنزل على نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وأمره الذى أمرهم به وانما سمى القرآن علما لانه سبب العلم فيكون المراد بالمختلفين على القول

ابن جرير حدثني الحرث حدثنا عبد العزيز حدثنا اسرائيل عن مغيرة عن مجاهد عن ابن عباس قال هو
ابن أبي الصلت وقال شعبة عن يعلى بن عطاء عن نافع بن عاصم عن عبد الله بن عمرو في قوله واتل عليهم نبأ الذي
قال هو صاحبكم أمية بن أبي الصلت وقد روي من غير وجه عنه وهو صحيح اليه وكأنه انما أراد ان أمية بن أبي الصلت
كان قد اتصل اليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة ولكنه لم ينتفع بعلمه فانه أدرك زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغته اعلامه
وآياته ومعجزاته وظهرت لكل من له بصيرة ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه وصار الى موالاة المشركين ومناصرتهم وامتداحهم ورثى أهل
بدر من المشركين بمرثاة بليغة قبحه الله وقد جاء في بعض الاحاديث انه ممن آمن لسانه ولم يؤمن قلبه فان له اشعارا ربانية وحكما وفصاحة
ولكنه لم يشرح الله صدره للاسلام وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان عن أبي سعيد الاعور عن عكرمة عن
ابن عباس في قوله واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها قال هو رجل أعطي ثلاث دعوات يستجاب له فيهن وكانت له امرأة له
منها ولد فقالت اجعل لي منها واحدة قال فلك واحدة فما الذي تريدين قالت ادع الله أن يجعلني اجمل امرأة في بني اسرائيل فدعا الله
فجعلها أجمل امرأة في بني اسرائيل فلما علمت ان ليس فيهم مثلها رغبت (٢٦٥) عنه وأرادت شيأ آخر فدعا الله أن يجعلها كلبة
فصارت كلبة فذهبت دعوتان فجاء بنوها فقالوا ليس بنا على هذا قرار قد صارت أمنا كلبة يعيرنا الناس بها فادع الله أن يردها الى الحال التي كانت عليها فدعا الله فعادت كما كانت وذهبت الدعوات الثلاث وتسمى البسوس غريب وأما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة فانما هو رجل من المتقدمين في زمن بني اسرائيل كما قال ابن مسعود وغيره من السلف وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس هو رجل من مدينة الجبارين يقال له بلعام وكان يعلم اسم الله الاكبر وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم وغيره من علماء السلف كان مجاب الدعوة ولا يسأل

القول الاول هم اليهود بعد أن أنزلت عليهم التوراة وعلموا بها وعلى القول الثاني هم اليهود المعاصرون لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وقد روي في الحديث أن اليهود اختلفوا على احدى وسبعين فرقة وان النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الامة على ثلاث وسبعين فرقة وهو في السنن والمسانيد والكلام فيه يطول (ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) من أمر الدين بانجاء المؤمنين وتعذيب الكافرين فيجازي المحسن باحسانه والمسيء باساءته والمحق بعمله بالحق والمبطل بعمله بالباطل (فان كنت) يا محمد (في شك) هو في أصل اللغة ضم الشيء بعضه الى بعض ومنه شك الجوهر في العقد والشاك كأنه يضم الى ما يتوهمه شيأ آخر خلافه فيتردد ويتحير والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمراد غيره كما ورد في القرآن في غير موضع وعن ابن عباس قال لم يشك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يسأل ونحوه عن سعيد بن جبير والحسن البصري وعن قتادة قال ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لا أشك ولا أسأل وهو مرسل (مما) أي في شك ناشئ مما (أنزلنا اليك) بأن تشك فيه ومن للابتداء أو انها بمعنى في من أول الامر قال القاضي عياض في الشفاء احذر ثبت الله قلبك أن يخطر ببالك ما ذكره بعض المفسرين من اثبات شك النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما أوحي اليه فمثل هذا لا يجوز عليه اه وقال ثعلب والمبرد أي قل يا محمد للكافر فان كنت في شك

الله شيأ الا أعطاه اياه واغرب بل أبعد بل اخطأ من قال كان قد أوتي النبوة فانسلخ منها حكاه
ابن جرير عن بعضهم ولا يصح وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس لما نزل موسى بهم يعني بالجبارين ومن معه أتاه يعني بلعام بنو
عمه وقومه فقالوا ان موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة وانه ان يظهر علينا يهلكنا فادع الله أن يرد موسى ومن معه عنا قال اني ان
دعوت الله ان يرد موسى ومن معه ذهبت دنياي وآخرتي فلم يزالوا به حتى دعا عليهم فسلخه الله مما كان عليه فذلك قوله تعالى فانسلخ منها
فاتبعه الشيطان الآية وقال السدي لما انقضت الاربعون السنة التي قال الله فانها محرمة عليهم أربعين سنة بعث يوشع بن نون نبيا
فدعا بني اسرائيل فأخبرهم انه نبي وان الله أمره ان يقاتل الجبارين فبايعوه وصدقوه وانطلق رجل من بني اسرائيل يقال له بلعام
وكان عالما يعلم الاسم الاعظم فكفر لعنه الله وأتى الجبارين وقال لهم لا ترهبوا بني اسرائيل فاني اذا خرجتم تقاتلونهم ادعو عليهم
دعوة فيهلكون وكان عندهم فيما شاء من الدنيا غير انه كان لا يستطيع ان يأتي النساء يعظمهن فكان ينكح أتانا له وهو الذي قال الله
تعالى فانسلخ منها وقوله تعالى فاتبعه الشيطان أي استحوذ عليه وعلى أمره فمهما أمره امتثل ولهذا قال فكان من الغاوين أي من
الهالكين الحائرين البائرين وقد ورد في معنى هذه الآية حديث رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده حيث قال حدثنا محمد بن

مرزوق حدثنا محمد بن بكر عن الصلت بن بهرام حدثنا الحسن حدثنا جندب البجلي في هذا المسجد ان حذيفة يعني ابن اليمان رضي الله عنه حدثه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى اذا رئيت بهجته عليه وكان رداؤه الاسلام اعتراه الى ماشاء الله انسلخ منه ونبذه وراء ظهره وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك قال قلت يانبي الله أيهما أولى بالشرك المرمي أو الرامي قال بل الرامي هذا اسناد جيد والصلت بن بهرام كان من ثقات الكوفيين ولم يرم بشئ سوى الارجاء وقد وثقه الامام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وغيرهما وقوله تعالى ولو شئنا لرفعناه بها واتبع هواه يقول تعالى ولو شئنا لرفعناه بها أي لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناه اياها ولكنه أخلد الى الارض أي مال الى زينة الدنيا وزهرتها وأقبل على لذاتها ونعيمها وغرته كما غرت غيره من غير أولي البصائر والنهى وقال أبو الراهوية في قوله تعالى ولكنه أخلد الى الارض قال تراءى له الشيطان على علوة قنطرة بانياس فسجدت الحمارة لله وسجد بلعام للشيطان وكذا قال عبد الرحمن بن جبير بن نفير وغير واحد وقال الامام أبو جعفر بن جرير رحمه الله وكان من قصة هذا الرجل ما حدثنا محمد بن عبد الاعلى حدثنا المعتمر عن أبيه أنه سئل عن هذه الآية واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فحدث (٢٦٦) عن سيار أنه كان رجلا يقال له بلعام وكان مجاب الدعوة قال وان موسى أقبل في بني اسرائيل يريد الارض التي فيها بلعام أو قال الشام قال فرعب الناس منه رعبا شديدا فأتوا بلعام فقالوا ادع الله على هذا الرجل وجيشه قال حتى أؤامر ربي أو حتى أؤامر قال فوامر بالدعاء عليهم فقيل لا تدع عليهم فانهم عبادي وفيهم نبيهم قال فقال لقومه اني قد وامرت ربي في الدعاء عليهم واني قد نهيت فأهدوا له هدية فقبلها ثم راجعوه فقالوا ادع عليهم فقال حتى اوامر ربي فوامر فلم يوح اليه شئ فقال قد وامرت ولم يحر الي شئ قال فقالوا لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك المرة الاولى قال فأخذ يدعو عليهم فاذا دعا عليهم جرى على لسانه الدعاء على قومه واذا أراد أن يفتح لقومه دعا ان يفتح لموسى وجيشه أو نحو من ذا ان شاء الله قال مكتوبا فقالوا ما نراك تدعو الا علينا قال ما يجري على لساني الا هكذا ولو دعوت عليه أيضا ما استجيب لي ولكن سأدلكم على أمر عسى أن يكون فيه هلاكهم ان الله يبغض الزنا وانهم ان وقعوا في الزنا هلكوا ورجوت أن يهلكهم الله فأخرجوا النساء تستقبلهم فانهم قوم مسافرون فعسى أن يزنوا فيهلكوا قال ففعلوا فأخرجوا النساء تستقبلهم قال وكان للملك ابنة فذكر من عظمها ما شاء الله قال فقال ابوها او بلعام لا تمكني نفسك الا من موسى ووقعوا في الزنا قال فأتاها رأس سبط من أسباط بني اسرائيل فأرادها على نفسها قال فقالت ما أنا بممكنة نفسي الا من موسى فقال ان منزلتي كذا وكذا وان من حالي كذا وكذا قال فأرسلت الى ابيها تستأمره قال فقال لها فأمكنيه قال ويأتيهما رجل من بني هرون ومعه الرمح فيطعنهما قال وأيده الله بقوة فانتظمهما جميعا ورفعهما على رمحه فرآهما الناس أو كما حدث قال وسلط الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون الفا قال المعتمر فحدثني سيار ان بلعاما ركب حمارة له حتى أتى العولى (١) أو قال طريقا من العولى جعل يضربها ولا تقدم وقامت عليه فقالت علام تضربني أما ترى هذا الذي بين يديك فاذا الشيطان بين يديه قال فنزل وسجد له قال الله تعالى واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها الى قوله لعلهم

(فاسئل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك) يعني مسلمي أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأمثاله وقد كان عبدة الاوثان يعترفون لهم بالعلم ويقرون بأنهم أعلم منهم فأمر الله سبحانه نبيه أن يرشد الشاكين فيما أنزله الله اليه من القرآن أن يسألوا أهل الكتاب الذين قد أسلموا فانهم سيخبرونهم بأنه كتاب الله حقا وان هذا رسوله وان التوراة شاهدة بذلك ناطقة به فان ذلك محقق عندهم ثابت في كتبهم والمراد اظهار نبوته عليه السلام بشهادة الاخبار وفي هذا الوجه مع حسنه مخالفة للظاهر قال الزجاج ان الله خاطب الرسول وهو شامل للخلق وهذا وجه حسن أيضا لكن فيه بعد لان الرسول متى كان داخلا في هذا الخطاب كان الايراد موجودا والاعتراض واردا وقيل ان في قوله فان كنت للنفي أي ما كنت في شك حتى تسأل وهذا أبعد وقال القتيبي المراد بهذه الآية من كان من الكفار غير قاطع بتكذيب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا بتصديقه بل كان في شك وقيل المراد بالخطاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا غيره والمعنى لو كنت ممن يلحقه الشك فيما أخبرناك به فسأل أهل الكتاب لأزالوا عنك الشك وقيل الشك هو ضيق الصدر أي ان ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر واسأل يخبرونك بصبر من قبلك من الانبياء على أذى قومهم وقيل معنى الآية الفرض والتقدير كأنه قال له فان وقع لك شك مثلا وخيل لك الشيطان خيالا منه تقديرا فاسأل فانهم سيخبرونك عن نبوتك وما نزل عليك ويعترفون بذلك لانهم يجدونه

(١) قوله اتى العولى الخ هكذا في الأصل وحرر اه

يتفكرون قال فحدثني بهذا سيار ولا أدري لعله قد دخل فيه شيء من حديث غيره قلت هو بلعام ويقال بلعم بن باعوراء ويقال ابن ابر ويقال ابن باعور بن شهوم بن قوشتم بن ماب بن لوط بن هاران ويقال ابن حران بن آزر وكان يسكن قرية من قرى البلقاء قال ابن عساكر وهو الذي كان يعرف اسم الله الاعظم فانسلخ من دينه له ذكر في القرآن ثم اورد من قصته نحو ما ذكرناه ههنا اورده عن وهب وغيره والله أعلم وقال محمد بن اسحق بن يسار عن سالم ابي النضر انه حدث ان موسى عليه السلام لما نزل في ارض كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعام اليه فقالوا له هذا موسى بن عمران في بني اسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني اسرائيل وانا قومك وليس لنا منزل وأنت رجل مجاب الدعوة فاخرج فادع الله عليهم قال ويلكم نبي الله معه الملائكة والمؤمنون كيف اذهب ادعو عليهم وانا اعلم من الله ما اعلم قالوا له ما لنا من منزل فلم يزالوا به يرققونه ويتضرعون اليه حتى فتنوه فافتتن فركب حمارة له متوجها الى الجبل الذي يطلعه على عسكر بني اسرائيل وهو جبل حسبان فلما سار عليها غير كثير ربضت به فنزل عنها فضربها حتى اذا ازلقها قامت فركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت به فضربها حتى اذا ازلقها اذن لها فكلمته حجة عليه فقالت ويحك يا بلعم أين تذهب اما ترى الملائكة امامي تردني عن وجهي هذا (٢٦٧) تذهب الى نبي الله والمؤمنين لتدعو عليهم فلم ينزع عنها فضربها فخلى الله سبيلها حين فعل بها ذلك فانطلقت به حتى اذا اشرفت به على رأس حسبان على عسكر موسى وبني اسرائيل جعل يدعو عليهم ولا يدعو عليهم بشر الا صرف بها لسانه الى قومه ولا يدعو لقومه بخير الا صرف لسانه الى بني اسرائيل فقال له قومه اتدري يا بلعم ما تصنع انما تدعو لهم وتدعو علينا قال فهذا ما لا املك هذا شيء قد غلب الله عليه قال واندلع لسانه فوقع على صدره فقال لهم قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة ولم يبق الا المكر والحيلة فسأمكر لكم واحتال جملوا النساء واعطوهن السلع ثم ارسلوهن الى العسكر يبعنها فيه ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل ارادها فانهم ان زنى رجل منهم واحد كفيتموهم ففعلوا فلما دخل النساء العسكر مرت امرأة من الكنعانيين اسمها كستى ابنة صور رأس امته برجل من عظماء بني اسرائيل وهو زمري بن شلوم رأس سبط شمعون ابن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام فلما رآها اعجبته فقام فأخذ بيدها واتى بها موسى وقال اني أظنك ستقول هذا حرام عليك لا تقربها قال اجل هي حرام عليك قال فوالله لا اطيعك في هذا فدخل بها قبته فوقع عليها وارسل الله عز وجل الطاعون في بني اسرائيل وكان فنحاص بن العيزار بن هرون صاحب أمر موسى وكان غائبا حين صنع زمري بن شلوم ما صنع فجاء والطاعون يجوس فيهم فأخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديد كلها ثم دخل القبة وهما متضاجعان فانتظمهما بحربته ثم خرج بهما رافعهما الى السماء والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة الى لحيته وكان بكر العيزار وجعل يقول اللهم هكذا تفعل بمن يعصيك ورفع الطاعون فحسب من هلك من بني اسرائيل في الطاعون فيما بين ان أصاب زمري المرأة الى أن قتله فنحاص فوجدوه قد هلك منهم سبعون ألفا والمقلل لهم يقول عشرون ألفا في ساعة من النهار فمن هنالك تعطي بنو اسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها الرقبة والذراع واللحي والبكر من كل أموالهم وأنفسهم لانه كان بكر أبيه العيزار

مكتوبا عندهم وقد زال فمن أسلم منهم ما كان مقتضيا للكتم عندهم (لقد) أي أقسم لقد (جاءك الحق من ربك) وفي هذا بيان ما يقلع الشك من أصله ويذهب به بجملته وهو شهادة الله سبحانه بأن هذا الذي وقع الشك فيه على اختلاف التفاسير في الشك هو الحق الذي لا يخالطه باطل ولا تشوبه شبهة ثم عقبه بالنهي للنبي صلى الله عليه وسلم عن الامتراء فقال (فلا تكونن من الممترين) فيما أنزل الله عليك بل استمر على ما أنت عليه من اليقين وانتفاء الشك ويمكن أن يكون هذا النهي له تعريضا لغيره كما في مواطن من الكتاب العزيز وهكذا القول في نهيه صلى الله عليه وسلم عن التكذيب في قوله تعالى (ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله) فان الظاهر فيه التعريض ولا سيما بعد تعقيبه بقوله (فتكون من الخاسرين) وفي هذا التعريض من الزجر للممترين والمكذبين ما هو أبلغ وأوقع من النهي لهم أنفسهم لانه اذا كان ينهى عنه من لا يتصور صدوره عنه فكيف عن يمكن منه ذلك (ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون) قد تقدم مثله في هذه السورة والمعنى انه حق عليهم قضاء الله وقدره بانهم يصرون على الكفر ويموتون عليه لا يقع منهم الايمان بحال من الاحوال وان وقع منهم ما صورته صورة الايمان كمن يؤمن منهم عند معاينة العذاب فهو في حكم العدم قال مجاهد حق عليهم سخط الله بما عصوه وقيل لعنة الله وقيل الكلمة هي قوله خلقت هؤلاء للنار ولا أبالي (ولو جاءتهم كل آية) من

ذي بلعام بن باعورا انزل الله واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها الى قوله لعلهم يتفكرون وقوله تعالى فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث اختلف المفسرون في معناه فعلى سياق ابن اسحق عن سالم أبي النضر ان بلعاما اندلع لسانه على صدره فتشبيهه بالكلب في لهثه في كلتا حالتيه ان زجر وان ترك ظاهر وقيل معناه فصار مثله في ضلاله واستمراره فيه وعدم انتفاعه بالدعاء الى الايمان وعدم الدعاء كالكلب في لهثه في حالتيه ان حملت عليه يلهث وان تركته هو يلهث في الحالين فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة الى الايمان ولا عدمه كما قال تعالى سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون استغفرت لهم ام لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ونحو ذلك وقيل معناه ان قلب الكافر والمنافق والضال ضعيف فارغ من الهدى فهو كثير الوجيب فعبر عن هذا بهذا نقل نحوه عن الحسن البصري وغيره وقوله تعالى فاقصص القصص لعلهم يتفكرون يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فاقصص القصص لعلهم أي لعل بني اسرائيل العالمين بحال بلعام وما جرى له في اضلال الله اياه وابعاده من رحمته بسبب انه استعمل نعمة الله عليه في تعليمه الاسم الاعظم الذي اذا سئل به أعطى واذا دعي به أجاب في غير طاعة ربه بل دعا به على حزب الرحمن وشعب الايمان اتباع عبده ورسوله في ذلك الزمان كليم الله موسى بن عمران (٢٦٨) ولهذا قال لعلهم يتفكرون أي فيحذروا أن يكونوا مثله فان الله قد اعطاهم علما وميزهم على من عداهم من الاعراب وجعل بأيديهم صفة محمد صلى الله عليه وسلم يعرفونها كما يعرفون أبناءهم فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته وموازرته كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك وأمرتهم به ولهذا من خالف منهم ما في كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد أحل الله به ذلا في الدنيا موصولا بذل الآخرة وقوله ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا يقول تعالى ساء مثلا مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا اي ساء مثلهم ان شبهوا بالكلاب الذين لا همة لهم الا في تحصيل أكلة أو شهوة فمن خرج عن حيز العلم والهدى واقبل على شهوة نفسه واتبع هواه صار شبيها بالكلب وبئس المثل مثله ولهذا ثبت
قبل
في الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليس لنا مثل السوء العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه وقوله وانفسهم كانوا يظلمون اي ما ظلمهم الله ولكن هم ظلموا انفسهم باعراضهم عن اتباع الهدى وطاعة المولى الى الركون الى دار البلى والاقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى (من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فاولئك هم الخاسرون) يقول تعالى من هداه الله فانه لا مضل له ومن اضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة فانه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولهذا جاء في حديث ابن مسعود ان الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور انفسنا ومن سيآت اعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له واشهد ان محمدا عبده ورسوله الحديث بتمامه رواه الامام أحمد وأهل السنن وغيرهم (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) يقول تعالى ولقد ذرأنا لجهنم أي خلقنا وجعلنا لجهنم كثيرا من الجن والانس أي هيأناهم لها وبعمل أهلها يعملون فانه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق علم ما هم عاملون قبل كونهم فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والارض بخمسين ألف سنة كما ورد في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله

الآيات التكوينية والتنزيلية فان ذلك لا ينفعهم لان الله سبحانه قد طبع على قلوبهم وحق منه القول عليهم (حتى يروا العذاب الاليم) فيقع منهم ما صورته صورة الايمان وليس بايمان ولا يترتب عليه شئ من أحكامه (فلولا كانت قرية آمنت) لولا هي التحضيضية التي بمعنى هلا كما قال الاخفش والكسائي وغيرهما ويدل على ذلك ما في مصحف أبي وابن مسعود فهلا قرية وفي هذا التحضيض معنى التوبيخ والنفي فوبخ الله أهل القرى المهلكة قبل يونس على عدم ايمانهم قبل نزول العذاب بهم والمعنى فهلا قرية واحدة من هذه القرى التي أهلكناها آمنت ايمانا معتدا به نافعا وذلك بأن يكون خالصا لله قبل معاينة عذابه ولم تؤخره كما أخره فرعون (فنفعها ايمانها) في حال البأس (الا قوم يونس) استثناء منقطع من القرى لان المراد أهلها والمعنى لكن قوم يونس وقد قال بان هذا الاستثناء منقطع جماعة من الائمة منهم الكسائي والاخفش والفراء وقيل متصل والجملة في معنى النفي كأنه قيل ما آمنت قرية من القرى الهالكة الا قوم يونس قال ابن جرير خص قوم يونس من بين الامم بأن تيب عليهم من بعد معاينة العذاب وحكى ذلك عن جماعة من المفسرين وقال الزجاج انهم لم يقع بهم العذاب وانما رأوا العلامة التي تدل على العذاب ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الايمان وهذا أولى من قول ابن جرير (لما آمنوا) ايمانا معتدا به قبل معاينة العذاب حين رؤية اماراته أو عند أول المعاينة

قدر مقادير الخلق قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء وفى صحيح مسلم أيضا من حديث عائشة بنت طلحة عن خالتها عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها انها قالت دعى النبى صلى الله عليه وسلم الى جنازة صبى من الانصار فقلت يارسول الله طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه فقال رسول صلى الله عليه وسلم أوغير ذلك ياعائشة ان الله خلق الجنة وخلق لها أهلا وهم فى أصلاب آبائهم وخلق النار وخلق لها أهلا وهم فى أصلاب آبائهم وفى الصحيحين من حديث ابن مسعود ثم يبعث الله اليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أم سعيد وتقدم ان الله لما استخرج ذرية آدم من صلبه وجعلهم فريقين أصحاب اليمين وأصحاب الشمال قال هؤلاء للجنة ولا أبالى وهؤلاء للنار ولا أبالى والاحاديث فى هذا كثيرة ومسئلة القدر كبيرة ليس هذا موضع بسطها وقوله تعالى لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها يعنى ليس ينتفعون بشئ من هذه الجوارح التى جعلها الله سببا للهداية كما قال تعالى وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شئ اذ كانوا يجحدون بآيات الله الآية وقال تعالى صم بكم عمى فهم لا يرجعون هذا فى حق المنافقين وقال فى حق الكافرين صم بكم عمى فهم لا يعقلون ولم يكونوا صما ولا بكما (٢٦٩) ولا عميا الا عن الهدى كما قال تعالى ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون وقال فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور وقال ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون انهم مهتدون وقوله تعالى أولئك كالانعام أى هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه ولا يبصرون الهدى كالانعام السارحة التى لا تنتفع بهذه الحواس منها الا فى الذى يقيتها فى ظاهر الحياة الدنيا كقوله تعالى ومثل الذين كفروا كمثل الذين ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء أى ومثلهم فى حال دعائهم الى الايمان كمثل الانعام اذا دعاها راعيها لا تسمع

قبل حلوله بهم (كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا) هو العذاب الذى كان قد وعدهم يونس انه سينزل عليهم ولم يروه أو الذى قد رأوا اعلاماته دون عينه (ومتعناهم الى حين) أى بعد كشف العذاب عنهم متعهم الله فى الدنيا الى حين معلوم قدره لهم أى الى وقت انقضاء آجالهم قال قتادة لم يكن هذا فى الامم قبل قوم يونس لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين عاينت العذاب الا قوم يونس وذكر لنا ان قومه كانوا بنينوى من أرض الموصل فلما فقدوا نبيهم قذف الله فى قلوبهم التوبة وبحث فى ذلك الزجاج فقال انه لم يقع بهم العذاب وانما رأوا اعلامته ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الايمان قال القرطبى وهو كلام حسين فان المعاينة التى لا ينفع معها الايمان هى التلبس بالعذاب كقصة فرعون وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان يونس دعا قومه فلما أبوا أن يجيبوه وعدهم العذاب فقال انكم يأتيكم يوم كذا وكذا ثم خرج عنهم وكانت الانبياء اذا وعدت قومها العذاب خرجت فلما أظلهم العذاب خرجوا ففرقوا بين المرأة وولدها والسخلة وولدها وخرجوا يعجون الى الله وعلم الله منهم الصدق فتاب عليهم وصرف عنهم العذاب وقعد يونس فى الطريق يسأل عن الخبر فمر به رجل فقال مافعل قوم يونس فحدثه بما صنعوا فقال لا أرجع الى قوم قد كذبتهم وانطلق مغاضبا يعنى مراغما وعن سعيد بن جبير قال غشى قوم يونس العذاب كما يغشى القبر بالثوب اذا

الا صوته ولا تفقه ما يقول ولهذا قال فى هؤلاء بل هم أضل أى من الدواب لانها قد تستجيب مع ذلك لراعيها اذا أبس بها وان لم تفقه كلامه بخلاف هؤلاء ولانها تفعل ما خلقت له اما بطبعها وامابتسخيرها بخلاف الكافر فانه انما خلق ليعبد الله ويوحده فكفر بالله وأشرك به ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة فى معاده ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتم منه ولهذا قال تعالى أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون (ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله تسعا وتسعين اسما مائة الا واحدا من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر أخرجاه فى الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة عن أبى الزناد عن الاعرج عنه ورواه البخارى عن أبى اليمان عن شعيب بن أبى حمزة عن أبى الزناد به وأخرجه الترمذى عن الجوزجانى عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم عن شعيب فذكره بسنده مثله وزاد بعد قوله يحب الوتر هو الله الذى لا اله الا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلى الكبير الحفيظ المقيت

الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوى المتين الولى الحميد المحصى المبدئ المعيد المحيى المميت الحى القيوم الواجد الماجد الواحد الاحد الفرد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الاول الآخر الظاهر الباطن الوالى المتعالى البر التواب المنتقم العفو الرؤف مالك الملك ذوالجلال والاكرام المقسط الجامع الغنى المغنى المانع الضار النافع النور الهادى البديع الباقى الوارث الرشيد الصبور ثم قال الترمذى هذا حديث غريب وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة ولا نعلم فى كثير من الروايات ذكر الاسماء الا فى هذا الحديث ورواه ابن حبان فى صحيحه من طريق صفوان به وقد رواه ابن ماجه فى سننه من طريق آخر عن موسى بن عقبة عن الاعرج عن أبى هريرة مرفوعا فسرد الاسماء كنحو ما تقدم بزيادة ونقصان والذى عول عليه جماعة من الحفاظ ان سرد الاسماء فى هذا الحديث مدرج فيه وانما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعانى عن زهير بن محمد انه بلغه عن غير واحد من أهل العلم انهم قالوا ذلك أى انهم جمعوها من القرآن كما روى عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبى زيد اللغوى والله أعلم ثم ليعلم ان الاسماء الحسنى غير منحصرة فى تسعة وتسعين بدليل ما رواه الامام أحمد فى مسنده عن يزيد بن هرون عن فضيل (٢٧٠) بن مرزوق عن أبى سلمة الجهنى عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال اللهم انى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتى بيدك ماض فى حكمك عدل فى قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك وأنزلته فى كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ان تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء حزنى وذهاب همى الا أذهب الله حزنه وهمه وأبدل مكانه فرحا فقيل يا رسول الله أفلا نتعلمها فقال بلى ينبغى لكل من سمعها ان يتعلمها وقد أخرجه الامام أبو حاتم بن حبان البستى فى صحيحه بمثله وذكر الفقيه الامام أبو بكر بن العربى أحد أئمة المالكية فى كتابه الاحوذى فى شرح الترمذى ان بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم فالله أعلم وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله تعالى وذروا الذين يلحدون فى أسمائه قال اشتقوا اللات من الله واشتقوا العزى من العزيز وقال قتادة يلحدون يشركون فى أسمائه وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس الالحاد التكذيب وأصل الالحاد فى كلام العرب العدول عن القصد والميل والجور والانحراف ومنه اللحد فى القبر لانحرافه الى جهة القبلة عن سمت الحفر (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) يقول تعالى وممن خلقنا أى بعض الامم أمة قائمة بالحق قولا وعملا يهدون بالحق يقولونه ويدعون اليه وبه يعدلون يعملون ويقضون وقد جاء فى الآثار ان المراد بهذه الامة المذكورة فى الآية هى هذه الامة المحمدية قال سعيد عن قتادة فى تفسير هذه الآية بلغنا ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول اذا قرأ هذه الآية هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس فى قوله تعالى وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من أمتى قوما على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم متى ما نزل وفى الصحيحين عن معاوية بن أبى سفيان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزال طائفة من أمتى على الحق

دخل فيه صاحبه ومطرت السماء دما عن ابن عباس ان العذاب كان هبط على قوم يونس لم يكن بينهم وبينه الا قدر ثلثى ميل فلما دعوا كشفه الله عنهم وقال قتادة قدر ميل وقال وهب غامت السماء غيما اسود هائلا يدخن دخانا شديدا فهبط حتى غشى مدينتهم واسودت أسطحتهم فتابوا وأخلصوا النية فرحمهم ربهم وكشف ما نزل بهم من العذاب بعد ما أظلهم وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء وكان يوم الجمعة قيل انهم قالوا ياحى حين لاحى وياحى يحيى الموتى وياحى لا اله الا أنت وقيل قالوا اللهم ان ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم وأجل فافعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله قاله الفضيل بن عياض والله أعلم ما قالوه ثم بين سبحانه ان الايمان وضده كلاهما بمشيئة الله وتقديره فقال (ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم) بحيث لا يخرج عنهم أحد (جميعا) مجتمعين على الايمان لا يتفرقون فيه ويختلفون ولكنه لم يشأ ذلك لكونه مخالفا للمصلحة التى أرادها الله سبحانه قال الاخفش جاء بقوله جميعا بعد كلهم للتأكيد كقوله لا تتخذوا الهين اثنين وقيل أتى به مع ان كلا منهما يفيد الاحاطة والشمول للدلالة على ان وجود الايمان منهم بصفة الاجتماع الذى لا يدل عليه كلهم ذكره الكرخى ولما كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم حريصا على ايمان جميع الناس أخبره الله بان ذلك لا يكون لان مشيئته الجارية على الحكمة البالغة والمصالح الراجحة لا تقتضى ذلك فقال (أفأنت تكره الناس) استفهام

ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة وفى رواية حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك وفى رواية وهم بالشام (والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملى لهم ان كيدى متين) يقول تعالى والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ومعناه انه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش فى الدنيا حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدون انهم على شئ كما قال تعالى فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ولهذا قال تعالى وأملى لهم أى وسأملى لهم أى أطول لهم ما هم فيه ان كيدى متين أى قوى شديد (أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ان هو الا نذير مبين) يقول تعالى أولم يتفكروا هؤلاء المكذبون بآياتنا ما بصاحبهم يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم من جنة أى ليس به جنون بل هو رسول الله حقا دعا الى حق ان هو الا نذير مبين أى ظاهر لمن كان له لب وقلب يعقل به ويعى به كما قال تعالى وما صاحبكم بمجنون وقال تعالى قل انما أعظكم بواحدة ان تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ان هو الا نذير لكم بين يدى عذاب شديد يقول انما أطلب منكم أن تقوموا لله قياما خالصا لله ليس فيه تعصب ولا عناد مثنى وفرادى أى مجتمعين ومتفرقين ثم تتفكروا فى هذا الذى جاءكم بالرسالة من الله أبه جنون أم لا فانكم اذا فعلتم ذلك بان لكم وظهر لكم انه رسول الله حقا وصدقا وقال قتادة بن دعامة ذكر لنا ان نبى الله صلى الله عليه وسلم كان على الصفا فدعا قريشا فجعل يفخذهم فخذا فخذا يا بنى فلان يا بنى فلان فحذرهم بأس الله ووقائع الله فقال قائلهم ان صاحبكم هذا المجنون بات يصوت الى الصباح أو حتى أصبح فأنزل الله تعالى أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ان هو الا نذير مبين (أولم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شئ وان عسى ان يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون) يقول تعالى أولم ينظر هؤلاء المكذبون بآياتنا فى ملك الله وسلطانه فى السموات والارض وفيما خلق من شئ فيهما فيتدبروا ذلك ويعتبروا به ويعلموا ان ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه ومن فعل من لا ينبغى أن تكون العبادة والدين الخالص الا له فيؤمنوا به ويصدقوا رسوله وينيبوا الى طاعته ويخلع الانداد والاوثان ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت فيهلكوا على كفرهم ويصيروا الى عذاب الله وأليم عقابه وقوله فبأى حديث بعده يؤمنون يقول فبأى تخويف وتحذير وترهيب بعد تحذير محمد صلى الله عليه وسلم وترهيبه الذى أتاهم به من عند الله أى كتاب يصدقون ان لم يصدقوا بهذا الحديث الذى جاءهم به محمد من عند الله عز وجل وقد روى الامام أحمد عن حسن بن موسى وعثمان بن مسلم وعبد الصمد بن عبد الوارث كلهم عن حماد بن سلمة عن على بن زيد بن جدعان عن أبى الصلت عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت ليلة أسرى بى كذا فلما انتهينا الى السماء السابعة فنظرت فوقى فاذا أنا برعد وبرق وصواعق قال وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم قلت من هؤلاء يا جبريل قال هؤلاء أكلة الربا فلما نزلت الى السماء الدنيا فنظرت الى أسفل منى فاذا انا برهج ودخان وأصوات فقلت ما هذا يا جبريل قال هؤلاء الشياطين يحومون على أعين بنى آدم ان لا يتفكروا فى ملكوت السموات والارض ولولا ذلك لرأوا العجائب على بن زيد بن جدعان له منكرات ثم قال تعالى (من يضلل الله فلا هادى له

استفهام تأديب للنبى صلى الله عليه وآله وسلم أى أتكرههم بما لم يشأه الله منهم (حتى يكونوا مؤمنين) فان ذلك ليس فى وسعك يا محمد ولا داخل تحت قدرتك وفى هذا تسلية له صلى الله عليه وآله وسلم ودفع لما يضيق به صدره من طلب صلاح الكل الذى لو كان لم يكن صلاحا محققا بل يكون الى الفساد أقرب ولله الحكمة البالغة وايلاء الاسم حرف الاستفهام للاعلام بان الاكراه ممكن مقدور عليه وانما الشأن فى المكره من هو وما هو الا هو وحده لا يشارك فيه لانه هو القادر على ان يخلق فى قلوبهم ما يضطرون عنده الى الايمان وذلك غير مستطاع للبشر ثم بين سبحانه ما تقدم بقوله (وما كان) أى ما صح وما استقام (لنفس) من الانفس (أن تؤمن الا باذن الله) أى بتسهيله وتيسيره ومشيئته لذلك فلا يقع غير ما يشاؤه كائنا ما كان (ويجعل الرجس) بكسر الراء وضمها لغتان أى العذاب أو السخط أو الكفر أو الخذلان الذى هو سبب العذاب وهذا معطوف على محذوف كأنه قيل فيأذن لبعضهم فى الايمان ويجعل الخ والمضارع فى المعطوف والمعطوف عليه بمعنى الماضى والمراد بقوله (على الذين لا يعقلون) هم الكفار الذين لا يعقلون حجج الله ولا يتفكرون فى آياته ولا يتدبرون فيما نصبه لهم من الادلة (قل انظروا) بضم اللام وكسرها سبعيتان (ماذا فى السموات والارض) لما بين سبحانه ان الايمان لا يحصل

ويذرهم في طغيانهم يعمهون) يقول تعالى من كتب عليه الضلالة فانه لا يهديه أحد ولو نظر لنفسه فيما نظر فانه لا يجزى عنه شيأ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيأ كما قال تعالى قل انظروا ماذا في السموات والارض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون

(يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل انما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها الا هو ثقلت في السموات والارض لا تأتيكم الا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل انما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون) يقول تعالى يسئلونك عن الساعة كما قال تعالى يسألك الناس عن الساعة قيل نزلت في قريش وقيل في نفر من اليهود والاول أشبه لان الآية مكية وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعادا لوقوعها وتكذيبا بوجودها كما قال تعالى ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين وقال تعالى يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق الا ان الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد وقوله أيان مرساها قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس منتهاها أى متى محطها وأيان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة قل انما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها الا هو أمر تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم اذا سئل عن وقت الساعة ان يرد علمها الى الله تعالى فانه هو الذي يجليها لوقتها أى يعلم جلية أمرها ومتى يكون على التحديد لا يعلم ذلك الا هو تعالى (٢٧٢) ولهذا قال ثقلت في السموات والارض قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله ثقلت في السموات والارض قال ثقل علمها على أهل السموات والارض انهم لا يعلمون قال معمر قال الحسن اذا جاءت ثقلت على أهل السموات والارض يقول كبرت عليهم وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله ثقلت في السموات والارض قال ليس شئ من الخلق الا يصيبه من ضرر يوم القيامة وقال ابن جريج ثقلت في السموات والارض قال اذا جاءت انشقت السماء وانتثرت النجوم وكورت الشمس وسيرت الجبال وكان ما قال الله عز وجل فذلك ثقلها واختار ابن جرير رحمه الله أن المراد ثقل علم وقتها على أهل السموات والارض كما قال قتادة وهو كما قالا كقوله تعالى لا تأتيكم الا بغتة ولا ينفي ذلك ثقل مجيئها على أهل السموات والارض والله أعلم قال السدى ثقلت في السموات والارض يقول خفيت في السموات والارض فلا يعلم قيامها حين تقوم ملك مقرب ولا نبي مرسل لا تأتيكم الا بغتة يبغتهم قيامها تأتيهم على غفلة وقال قتادة في قوله تعالى لا تأتيكم الا بغتة قضى الله أنها لا تأتيكم الا بغتة قال وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول ان الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقى ماشيته والرجل يقيم سلعته في السوق ويخفض ميزانه ويرفعه وقال البخاري حدثنا أبو اليمان أنبأنا شعيب أنبأنا أبو الزناد عن عبد الرحمن عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فاذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيرا ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه ولتقومن الساعة والرجل قد رفع أكلته الى فيه فلا يطعمها وقال مسلم في صحيحه حدثني زهير بن حرب حدثنا سفيان بن عيينة عن أبي الزناد عن الاعرج عن أبي هريرة يبلغ به قال تقوم الساعة والرجل يحلب لقحته فما يصل الاناء الى فيه حتى تقوم الساعة والرجلان

الا خشية الله أمر بالنظر والاستدلال بالدلائل السماوية والارضية والمراد النظر التفكر والاعتبار أى قل يا محمد للكفار تفكروا واعتبروا بما فيهما من المصنوعات الدالة على الصانع ووحدته وكمال قدرته ثم ذكر سبحانه ان التفكر والتدبر في هذه الدلائل لا ينفع في حق من استحكمت شقاوته فقال (وما تغنى) أى ما تنفع على ان ما نافية وهذا هو الظاهر ويجوز أن تكون استفهامية أى أى غنى تغنى (الآيات) هى التى عبر عنها بقوله ماذا في السموات والارض ففي الكلام اظهار في مقام الاضمار والجملة اما حالية أو اعتراضية بنوع ايضاح (والنذر) جمع نذير وهم الرسل أو جمع انذار وهو المصدر (عن قوم لا يؤمنون) في علم الله سبحانه والمعنى ان من كان هكذا لا يجدى فيه شئ ولا يدفعه عن الكفر دافع (فهل ينتظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم) أى فهل ينتظر هؤلاء الكفار المعاصرون لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم بتكذيبه الا مثل وقائع الله سبحانه بالكفار الذين خلوا من قبل هؤلاء قوم نوح وعاد وثمود فقد كان الانبياء المتقدمون يتوعدون كفار زمانهم بأيام مشتملة على أنواع العذاب وهم يكذبونهم ويصممون على الكفر حتى ينزل الله عليهم عذابه ويحل بهم انتقامه والعرب تسمى العذاب أياما والنعم أياما كقوله تعالى وذكرهم بأيام الله ثم قال (قل) يا محمد لهؤلاء الكفار المعاصرين لك (فانتظروا) أى تربصوا موعد ربكم (انى معكم من المنتظرين) لموعد ربي وفي هذا تهديد

شديد

يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم الساعة والرجل يلوط حوضه فما يصدر حتى تقوم وقوله يسألونك كأنك حفي عنها اختلف المفسرون في معناه فقيل معناه كما قال العوفي عن ابن عباس يسألونك كأنك حفي عنها يقول كأن بينك وبينهم مودة كأنك صديق لهم قال ابن عباس لما سأل الناس النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمدا حفي بهم فأوحى الله اليه انما علمها عنده استأثر به فلم يطلع الله عليها ملكا مقربا ولا رسولا وقال قتادة قالت قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم ان بيننا وبينك قرابة فأسر الينا متى الساعة فقال الله عز وجل يسألونك كأنك حفي عنها وكذا روي عن مجاهد وعكرمة وأبي مالك والسدي وهذا قول والصحيح عن مجاهد من رواية ابن أبي نجيح وغيره يسألونك كأنك حفي عنها قال استحفيت عنها السؤال حتى علمت وقتها وكذا قال الضحاك عن ابن عباس يسألونك كأنك حفي عنها يقول كأنك عالم بها لست تعلمها قل انما علمها عند الله وقال معمر عن بعضهم كأنك حفي عنها كأنك عالم بها وقد أخفى الله علمها على خلقه وقرأ ان الله عنده علم الساعة الآية وهذا القول أرجح في المعنى من الاول والله أعلم ولهذا قال قل انما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ولهذا لما جاء جبريل عليه السلام في صورة اعرابي ليعلم الناس أمر دينهم فجلس من رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢٧٣) مجلس السائل المسترشد وسأله صلى الله عليه وسلم عن الاسلام ثم عن الايمان ثم عن الاحسان ثم قال فمتى الساعة قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما المسؤل عنها بأعلم من السائل أي لست أعلم بها منك ولا أحد أعلم بها من أحد ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم ان الله عنده علم الساعة الآية وفي رواية فسأله عن اشراط الساعة فبين له اشراط الساعة ثم قال في خمس لا يعلمهن الا الله وقرأ هذه الآية وفي هذا كله يقول له بعد كل جواب صدقت ولهذا عجب الصحابة من هذا السائل يسأله ويصدقه ثم لما انصرف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم وفي رواية قال وما أتاني في صورة الا عرفته فيها الا صورته هذه وقد ذكرت هذا الحديث بطرقه وألفاظه من الصحاح والحسان والمسانيد في أول شرح البخاري ولله الحمد والمنة ولما سأله ذلك الاعرابي وناداه بصوت جهوري فقال يا محمد قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم هاؤم على نحو من صوته قال يا محمد متى الساعة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحك ان الساعة آتية فما أعددت لها قال ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام ولكني أحب الله ورسوله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء مع من أحب فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث وهذه له طرق متعددة في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال المرء مع من أحب وهي متواترة عند كثير من الحفاظ المتقنين ففيه انه عليه السلام انه كان اذا سئل عن هذا الذي لا يحتاجون الى علمه أرشدهم الى ما هو الاهم في حقهم وهو الاستعداد لوقوع ذلك والتهيؤ له قبل نزوله وان لم يعرفوا تعيين وقته ولهذا قال مسلم في صحيحه حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب قالا حدثنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت كانت الاعراب اذا قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألوه عن الساعة متى الساعة فينظر الى أحدث انسان منهم فيقول ان يعش هذا لم يدركه الهرم حتى قامت ساعتكم يعني بذلك موتهم الذي يفضي بهم الى الحصول في برزخ الدار الآخرة ثم

شديد ووعيد بالغ بأنه سينزل بهؤلاء ما نزل بأولئك من الاهلاك (ثم ننجي) بالتشديد باتفاق العشرة وقرئ بالتخفيف وهما لغتان فصيحتان أنجى ينجي انجاء ونجى ينجي تنجية بمعنى واحد وثم للعطف على مقدر يدل عليه ما قبله كأنه قيل أهلكنا الامم ثم نجينا (رسلنا) المرسلين اليهم (و) نجينا (الذين آمنوا) والتعبير بلفظ الفعل المستقبل لاستحضار صورة الحال الماضية تهويلا لامرها (كذلك) صفة لمصدر محذوف أي انجاء مثل ذلك الانجاء وقوله (حقا علينا) اعتراض أي حق ذلك علينا حقا أي وجب وتحتم بمقتضى الفضل والكرم (ننجي) بالتخفيف والتشديد قراءتان سبعيتان (المؤمنين) من عذابنا الكفار والمراد بالمؤمنين الجنس فيدخل في ذلك الرسل واتباعهم أو يكون خاصا بالمؤمنين وهم اتباع الرسل لان الرسل داخلون في ذلك بالاولى وقال السيوطي النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه حين تعذيب المشركين (قل يا أيها الناس) أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بان يظهر التباين بين طريقته وطريقة المشركين مخاطبا لجميع الناس أو للكفار منهم أو لاهل مكة على الخصوص بقوله (ان كنتم في شك من ديني) الذي انا عليه وهو عبادة الله وحده لا شريك له ولم تعلموا بحقيقته ولا عرفتم صحته وانه الدين الحق الذي لا دين غيره فاعلموا اني بريء من أديانكم التي أنتم عليها (فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله)

في حال من الاحوال (ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم) أي أخصه بالعبادة لا أعبد غيره من معبوداتكم من الاصنام وغيرها وخص صفة التوفي من بين الصفات لما في ذلك من التهديد لهم أي أعبد الله الذي يتوفاكم فيفعل بكم ما يفعل من العذاب الشديد ولكونه يدل على الخلق أولا وعلى الاعادة ثانيا ولكونه أشد الاحوال مهابة في القلوب ولكونه قد تقدم ذكر الاهلاك والوقائع النازلة بالكفار من الامم السابقة فكأنه قال أعبد الله الذي وعدني باهلاككم ولما ذكر انه لا يعبد الا الله بين انه مأمور بالايمان فقال (وأمرت ان أكون من المؤمنين) أي بأن أكون من جنس من آمن بالله وأخلص له الدين (وان أقم وجهك للدين) المعنى ان الله سبحانه أمره بالاستقامة في الدين والثبات فيه وعدم التزلزل عنه بحال من الاحوال وخص الوجه لانه أشرف الاعضاء أو أمره باستقبال القبلة في الصلاة وعدم التحول عنها (حنيفا) اى مائلا عن كل دين من الاديان الى دين الاسلام مستقيما عليه غير معوج عنه الى دين آخر ثم أكد الامر المتقدم بالنهي عن ضده فقال (ولا تكونن من المشركين) عطف على اقم داخل تحت الامر وهو من باب التعريض لغيره صلى الله عليه وآله وسلم (ولا تدع من دون الله) على حال من الاحوال (ما لا ينفعك ولا يضرك) بشيء من النفع والضر ان دعوته ودعاء من كان هكذا لا يجلب نفعا

قال مسلم وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا يونس بن محمد عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس ان رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يعش هذا الغلام فعسى أن لا يدركه الهرم حتى تقوم الساعة انفرد به مسلم وحدثني حجاج بن الشاعر حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد حدثنا سعيد بن أبي هلال المصري عن أنس بن مالك رضي الله عنه ان رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم قال متى الساعة فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم هنيهة ثم نظر الى غلام بين يديه من أزدشنوءة فقال ان عمر هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة قال أنس ذلك الغلام من أترابي وقال حدثنا هرون بن عبد الله حدثنا عفان بن مسلم حدثنا همام حدثنا قتادة عن أنس قال مر غلام للمغيرة بن شعبة وكان من أترابي فقال النبي صلى الله عليه وسلم ان يؤخر هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة قال أنس ذلك الغلام الي ورواه البخاري في كتاب الادب من صحيحه عن عمرو بن عاصم عن همام بن يحيى عن قتادة عن أنس ان رجلا من أهل البادية قال يا رسول الله متى الساعة فذكر الحديث وفي آخره فمر غلام للمغيرة بن شعبة وذكره وهذا الاطلاق في هذه الروايات محمول على التقييد بساعتكم في حديث عائشة رضي الله عنها وقال ابن جريج أخبرني (٢٧٤) أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قبل أن يموت بشهر قال تسألوني عن الساعة وانما علمها عند الله وأقسم بالله ما على ظهر الارض اليوم من نفس منفوسة تأتي عليها مائة سنة رواه مسلم وفي الصحيحين عن ابن عمر مثله قال ابن عمر وانما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم انخرام ذلك القرن وقال الامام أحمد حدثنا هشيم أنبأنا العوام عن جبلة بن سحيم عن مؤثر بن عفارة عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لقيت ليلة أسري بي ابراهيم وموسى وعيسى قال فتذاكروا أمر الساعة قال فردوا أمرهم الى ابراهيم عليه السلام فقال لا علم لي بها فردوا أمرهم الى موسى فقال لا علم لي بها فردوا أمرهم الى عيسى فقال عيسى أما وجبتها ولا فلا يعلم بها أحد الا الله عز وجل وفيما عهد الى ربي عز وجل ان الدجال خارج قال ومعي قضيبان فاذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص قال فيهلكه الله عز وجل اذا رآني حتى ان الشجر والحجر يقول يا مسلم ان تحتي كافرا فتعال فاقتله قال فيهلكهم الله عز وجل ثم يرجع الناس الى بلادهم وأوطانهم قال فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيطؤن بلادهم لا يأتون على شيء الا أهلكوه ولا يمرون على ماء الا شربوه قال ثم يرجع الناس الى فيشكونهم فأدعو الله عز وجل عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الارض من نتن ريحهم أي تنتن قال فينزل الله عز وجل المطر فتحمل أجسادهم حتى تقذفهم في البحر قال الامام أحمد قال يزيد بن هرون ثم تنسف الجبال وتمد الارض مد الاديم ثم رجع الى حديث هشيم قال ففيما عهد الى ربي عز وجل ان ذلك اذا كان كذلك فان الساعة كالحامل المتم لا يدري أهلها متى تفجأهم بولادتها ليلا أو نهارا ورواه ابن ماجه عن بندار عن يزيد بن هرون عن العوام بن حوشب بسنده نحوه فهؤلاء أكابر أولي العزم من المرسلين ليس عندهم علم بوقت الساعة على التعيين وانما ردوا الامر الى عيسى عليه السلام فتكلم على اشراطها لانه ينزل في آخر هذه الامة منفذا لاحكام رسول الله صلى الله عليه

وسلم ويقتل المسيح الدجال ويجعل الله هلاك يأجوج و ... الحديث به وقال الامام أحمد حدثنا يحيى بن بكير حدثنا عبد الله بن زياد بن لقيط قال سمعت أبي يذكر عن ... سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة فقال علمها عند ربي عز وجل لا يجليها لوقتها الا هو ولكن سأخبركم بمشاريطها وما يكون بين يديها ان بين يديها فتنة وهرجا قالوا يارسول الله الفتنة قد عرفناها فما الهرج قال بلسان الحبشة القتل قال ويلقى بين الناس التناكر فلا يكاد أحد يعرف أحدا لم يروه أحد من أصحاب الكتب من هذا الوجه وقال وكيع حدثنا ابن أبي خالد عن طارق بن شهاب قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال يذكر من شأن الساعة حتى نزلت يسألونك عن الساعة أيان مرساها الآية ورواه النسائي من حديث عيسى بن يونس عن اسمعيل بن أبي خالد به وهذا اسناد جيد قوي فهذا النبي الامي سيد الرسل وخاتمهم صلوات الله عليه وسلامه نبي الرحمة ونبي التوبة ونبي الملحمة والعاقب والمقفي والحاشر الذي تحشر الناس على قدميه مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح من حديث أنس وسهل ابن سعد رضي الله عنهما بعثت أنا والساعة كهاتين وقرن بين اصبعيه السبابة والتي تليها ومع هذا قد أمره الله ان يرد علم وقت الساعة اليه اذا سئل عنها فقال قل انما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٢٧٥) (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون) أمره الله تعالى أن يفوض الامور اليه وان يخبر عن نفسه انه لا يعلم الغيب المستقبل ولا اطلاع له على شئ من ذلك الا ما أطلعه الله عليه كما قال تعالى عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا الآية وقوله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير قال عبد الرزاق عن الثوري عن منصور عن مجاهد ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير قال لو كنت أعلم متى أموت لعملت عملا صالحا وكذا روى ابن أبي نجيح عن مجاهد وقال مثله ابن جريج وفيه نظر لان عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ديمة وفي رواية كان اذا عمل عملا أثبته فجميع عمله كان على منوال واحد كأنه ينظر الى الله عز وجل في جميع أحواله اللهم الا أن يكون المراد أن يرشد غيره الى الاستعداد لذلك والله أعلم والاحسن في هذا ما رواه الضحاك عن ابن عباس ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير أي من المال وفي رواية لعلمت اذا اشتريت شيأ ما أربح فيه فلا أبيع شيأ الا ربحت فيه ولا يصيبني الفقر وقال ابن جرير وقال آخرون معنى ذلك لو كنت أعلم الغيب لاعددت للسنة المجدبة من المخصبة ولوقت الغلاء من الرخص وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وما مسني السوء قال لاجتنبت ما يكون من الشر قبل ان يكون واتقيته ثم أخبر انه انما هو نذير وبشير أي نذير من العذاب وبشير للمؤمنين بالجنات كما قال تعالى فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون) ينبه تعالى على انه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام وانه خلق منه زوجته حواء ثم انتشر الناس منهما كما قال تعالى يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم وقال تعالى

ولا يقدر على ضر ضائع لا يفعله عاقل على تقدير انه لا يوجد من يقدر على النفع والضر غيره فكيف اذا كان موجودا فان العدول عن دعاء القادر الى دعاء غير القادر أقبح واقبح (فان فعلت) اى فان دعوت ولكنه كنى عن القول بالفعل (فانك اذا من الظالمين) هذا جزاء الشرط اى فانك في عداد الظالمين لانفسهم والمقصود من هذا الخطاب التعريض لغيره صلى الله عليه وآله وسلم (و) جملة (ان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو) مقررة لمضمون ما قبلها والمعنى ان الله سبحانه هو الضار النافع فان انزل بعبده ضرا لم يستطع احد أن يكشفه كائنا من كان بل هو المختص بكشفه كما هو اختص بانزاله (وان يردك بخير) اى خير كان لم يستطع احد أن يدفعه عنك ويحول بينك وبينه كائنا من كان وهو من القلب وأصله ان يردبك الخير ولكن لما تعلق كل واحد منهما بالآخر جاز ان يكون كل واحد منهما مكان الآخر قال النيسابوري وفي تخصيص الارادة بجانب الخير والمس بجانب الشر دليل على أن الخير يصدر عنه سبحانه بالذات والشر بالعرض قلت وفي هذا نظر فان المس هو أمر وراء الارادة فهو مستلزم لها وقيل ان الضر انما مسهم لا بالقصد الاول والمعنى متقارب (فلا راد لفضله) أى لا دافع لما أراد لك به من الخير ووضع الفضل موضع الضمير للدلالة على انه متفضل بما يريده بهم من الخير لا استحقاق لهم عليه ولم يستثن لان مراد الله تعالى لا يمكن رده وارادة الله قديمة لا تتغير بخلاف

يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها الآية وقال في هذه الآية الكريمة وجعل منها زوجها ليسكن إليها أي ليألفها ويسكن بها كقوله تعالى ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة فلا ألفة بين زوجين أعظم مما بين الزوجين ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه فلما تغشاها أي وطئها حملت حملا خفيفا وذلك أول الحمل لا تجد المرأة له ألما إنما هي النطفة ثم العلقة ثم المضغة وقوله فمرت به قال مجاهد استمرت عليه وروي عن الحسن وإبراهيم النخعي والسدي نحوه وقال ميمون بن مهران عن أبيه استخفته وقال أيوب سألت الحسن عن قوله فمرت به قال لو كنت رجلا عربيا لعرفت ما هي إنما هي استمرت به وقال قتادة فمرت به استبان حملها وقال ابن جرير معناه استمرت بالماء قامت به وقعدت وقال العوفي عن ابن عباس استمرت به فشكت أحملت أم لا فلما أثقلت أي صارت ذات ثقل بحملها وقال السدي كبر الولد في بطنها دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا أي بشرا سويا كما قال الضحاك عن ابن عباس أشفقا أن يكون بهيمة وكذلك قال أبو البختري وأبو مالك أشفقا أن لا يكون إنسانا وقال الحسن البصري لئن آتيتنا غلاما لنكونن من الشاكرين فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما (٢٧٦) فتعالى الله عما يشركون ذكر المفسرون ههنا آثارا وأحاديث سأوردها وأبين ما فيها ثم نتبع ذلك ببيان الصحيح في ذلك إن شاء الله وبه الثقة قال الإمام أحمد في مسنده حدثنا عبد الصمد حدثنا عمر بن إبراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحرث فإنه يعيش فسمته عبد الحرث فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره وهكذا رواه ابن جرير عن محمد بن بشار عن بندار عن عبد الصمد بن عبد الوارث به ورواه الترمذي في تفسير هذه الآية عن محمد بن المثنى عن عبد الصمد به وقال هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه ورواه الحاكم في مستدركه من حديث عبد الصمد مرفوعا ثم قال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ورواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيره عن أبي زرعة الرازي عن هلال بن فياض عن عمر بن إبراهيم به مرفوعا وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره من حديث شاذ بن فياض عن عمر بن إبراهيم به مرفوعا قلت وشاذ هو هلال وشاذ لقبه والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه أحدها أن عمر بن إبراهيم هذا هو المصري وقد وثقه ابن معين ولكن قال أبو حاتم الرازي لا يحتج به ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعا فالله أعلم الثاني أنه قد روي من قول سمرة نفسه ليس مرفوعا كما قال ابن جرير حدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا المعتمر عن أبيه حدثنا بكر بن عبد الله عن سليمان التيمي عن عبد الأعلى بن الشخير عن سمرة بن جندب قال سمى آدم ابنه عبد الحرث الثالث أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعا لما عدل عنه قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا سهل بن يوسف عن عمرو عن الحسن جعلا له شركاء فيما آتاهما قال كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم وحدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر قال قال

مس الضر فإنه صفة فعل (يصيب به) أي بفضله أو بكل واحد من الخير والضر (من يشاء من عباده) وجملة (وهو الغفور الرحيم) تذييلية عن عامر بن قيس قال ثلاث آيات في كتاب الله اكتفيت بهن عن جميع الخلائق أولهن أن يمسسك الله الآية والثانية ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له والثالثة وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها أخرجه البيهقي في الشعب وأخرج أبو الشيخ عن الحسن نحوه ثم ختم هذه السورة بما يتدل به على قضائه وقدره فقال (قل يا أيها الناس) لأجل أن تنقطع معذرتهم فهذا نهاية الأمر (قد جاءكم الحق من ربكم) أي القرآن أو الإسلام أو محمد صلى الله عليه وآله وسلم (فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه) أي منفعة اهتدائه مختصة به (ومن ضل فإنما يضل عليها) أي ضرر كفره مقصور عليه لا يتعداه وليس لله حاجة في شيء من ذلك ولا غرض يعود إليه ومن في الموضعين يجوز أن تكون شرطية والفاء واجبة الدخول وأن تكون موصولة والفاء جائزته (وما أنا عليكم بوكيل) أي بحفيظ يحفظ أموركم وتوكل إليه إنما أنا بشير ونذير ثم أمره الله سبحانه أن يتبع ما أوحاه من الأوامر والنواهي التي شرعها الله له ولأمته فقال (واتبع ما يوحى إليك) ثم أمره بالصبر على أذى الكفار وما يلاقيه من مشاق التبليغ وما يعانيه من تلون أخلاق المشركين وتجرئهم فقال (واصبر) وجعل ذلك الصبر ممتدا إلى غاية هي قوله (حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين)

الحسن عنى بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده يعني جعلا له شركاء فيما آتاهما وحدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال كان الحسن يقول هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادا فهودوا ونصروا وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضي الله عنه انه فسر الآية بذلك وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية ولو كان هذا الحديث عنده محفوظا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عدل عنه هو ولا غيره لاسيما مع تقواه لله وورعه فهذا يدلك على انه موقوف على الصحابي ويحتمل انه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم مثل كعب أو وهب بن منبه وغيرهما كما سيأتي بيانه ان شاء الله الا اننا برئنا من عهدة المرفوع والله أعلم فأما الآثار فقال محمد بن اسحق بن يسار عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولادا فيعبدهم لله ويسميهم عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك فيصيبهم الموت فأتاهما ابليس فقال انكما لو سميتماه بغير الذي تسميانه به لعاش قال فولدت له رجلا فسماه عبد الحرث ففيه أنزل الله يقول الله هو الذي خلقكم من نفس واحدة الى قوله جعلا له شركاء فيما آتاهما الى آخر الآية وقال العوفي عن ابن عباس قوله في آدم هو الذي خلقكم من نفس واحدة الى قوله فمرت به شكت أحملت أم لا فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين فأتاهما الشيطان فقال هل تدريان ما يولد لكما أم هل تدريان ما يكون أبهيمة أم لا وزين لهما الباطل انه غوي مبين وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا فقال لهما الشيطان انكما ان لم تسمياه بي لم يخرج سويا ومات كما مات الأول فسميا ولدهما عبد الحرث فذلك قول الله فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما الآية وقال عبد الله بن المبارك عن شريك عن خصيف عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس في قوله فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما قال قال الله تعالى هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها فلما تغشاها آدم حملت فأتاهما ابليس لعنه الله فقال اني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعنني أو لأجعلن له قرني ايل فيخرج من بطنك فيشقه ولأفعلن ولأفعلن يخوفهما فسمياه عبد الحرث فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتا ثم حملت الثانية فأتاهما أيضا فقال أنا صاحبكما الذي فعلت ما فعلت لتفعلن أو لأفعلن يخوفهما فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتا ثم حملت الثالثة فأتاهما أيضا فذكر لهما فأدركهما حب الولد فسمياه عبد الحرث فذلك قوله تعالى جعلا له شركاء فيما آتاهما رواه ابن أبي حاتم وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه كمجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة ومن الطبقة الثانية قتادة والسدي وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة وكأنه والله أعلم أصله مأخوذ من أهل الكتاب فان ابن عباس رواه عن أبي ابن كعب كما رواه ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو الجماهر حدثنا سعيد يعني ابن بشير عن عقبة عن قتادة عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال لما حملت حواء أتاها الشيطان فقال لها أتطيعيني ويسلم لك ولدك سميه عبد الحرث فلم تفعل فولدت فمات ثم حملت فقال لها مثل ذلك فلم تفعل ثم حملت الثالثة فجاءها فقال ان تطيعيني يسلم والا فانه يكون بهيمة فهيبهما فأطاعا وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم انها من آثار أهل الكتاب وقد صح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال اذا حدثكم أهل

الحاكمين) أي يحكم الله بينه وبينهم في الدنيا بالنصر له عليهم وفي الآخرة بعذابهم بالنار وهم يشاهدونه صلى الله عليه وآله وسلم هو وأمته المتبعون له المؤمنون به العاملون بما يأمرهم به المنتهون عما نهاهم عنه يتقلبون في نعيم الجنة الذي لا ينفد ولا يمكن وصفه ولا يوقف على أدنى مزاياه وقال مجاهد هذا منسوخ بأمره بجهادهم والغلظة عليهم وبه قال ابن عباس قال السيوطي وقد صبر حتى حكم على المشركين بالقتال وأهل الكتاب بالجزية اهـ وأشار بهذا الى قول مجاهد قاله الكرخي

(سورة هود عليه السلام وهي مائة وثلاث وعشرون آية)

وهي مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر ومجاهد وابن زيد وقال ابن عباس وقتادة الا آية وهي قوله وأقم الصلاة طرفي النهار وقال مقاتل أو الا فلعلك تارك الآية وأولئك يؤمنون به الآية والحاصل ان المدني عند ابن عباس آية واحدة وعند مقاتل آيتان وعن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اقرؤا هود يوم الجمعة أخرجه الدارمي وأبو داود والبيهقي وغيرهم وعن أبي بكر الصديق قال قلت يا رسول لقد أسرع اليك الشيب فقال شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون واذا الشمس كورت أخرجه الطبراني والترمذي وحسنه وعن أنس مرفوعا وهل أتاك حديث الغاشية رواه البزار وقد روى بطرق عن جمع من الصحابة قال بعض العلماء سبب شيبه من هذه السور ما فيها

الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ثم أخبارهم على ثلاثة أقسام فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله ومنها ما علمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضا ومنها ما هو مسكوت عنه فهو المأذون في روايته بقوله عليه السلام حدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج وهو الذي لا يصدق ولا يكذب لقوله فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وهذا الاثر هو من القسم الثاني أو الثالث فيه نظر فأما من حدث به من صحابي أو تابعي فانه يراه من القسم الثالث واما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا وانه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء وانما المراد من ذلك المشركون من ذريته ولهذا قال الله فتعالى الله عما يشركون ثم قال فذكره آدم وحواء أولا كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين وهو كالاستطراد من ذكر الشخص الى الجنس كقوله ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح الآية ومعلوم أن المصابيح وهي النجوم التي زينت بها السماء ليست هي التي يرمى بها وانما هذا استطراد من شخص المصابيح الى جنسه ولهذا نظائر في القرآن والله أعلم (أيشركون ما لا يخلق شيأ وهم يخلقون ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون وان تدعوهم الى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم (٢٧٨) ان كنتم صادقين ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ان وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون وان تدعوهم الى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون) هذا انكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الانداد والاصنام والاوثان وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة لا تملك شيأ من الامر ولا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تنتصر لعابديها بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم ولهذا قال أيشركون ما لا يخلق شيأ وهم يخلقون أي أتشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيأ ولا يستطيع ذلك كقوله تعالى يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيأ لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره ان الله لقوي عزيز أخبر تعالى ان الهتهم لو اجتمعوا كلهم ما استطاعوا خلق ذبابة بل لو سلبتهم الذبابة شيأ من حقير المطاعم وطارت لما استطاعوا انقاذه منها فمن هذه صفته وحاله كيف يعبد ليرزق ويستنصر ولهذا قال تعالى لا يخلقون شيأ وهم يخلقون أي بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل أتعبدون ما تنحتون الآية ثم قال تعالى ولا يستطيعون لهم نصرا أي لعابديهم ولا أنفسهم ينصرون يعني ولا لانفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء كما كان الخليل عليه الصلاة والسلام يكسر أصنام قومه ويهينها غاية الاهانة كما أخبر تعالى عنه في قوله فراغ عليهم ضربا باليمين وقال تعالى فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ ابن جبل رضي الله عنهما وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطبا للارامل ليعتبر قومهما بذلك ويرتأوا لانفسهم فكان لعمرو بن الجموح وكان سيدا

من ذكر القيامة والبعث والحساب والجنة والنار والله أعلم بمراد رسوله صلى الله عليه وآله وسلم

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الر) ان كان مسرودا على سبيل التعديد كما في سائر فواتح السور فلا محل له وان كان اسما للسورة فهو في محل الرفع على انه مبتدأ أو ما بعده خبره أو خبر مبتدأ محذوف وهو الاظهر أو في محل النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو اذكر أو اقرأ وقوله (كتاب) خبر لمبتدأ محذوف أي هذا كتاب ويدل على ذلك قوله في آية أخرى ذلك الكتاب والاشارة اما الى بعض القرآن أو الى مجموعه ومعنى (أحكمت آياته) صارت محكمة متقنة لا نقص فيها ولا نقض لها كالبناء المحكم المرصف وقيل معناه انها لم تنسخ بخلاف التوراة والانجيل وعلى هذا فيكون هذا الوصف للكتاب باعتبار الغالب وهو المحكم الذي لم ينسخ وقيل معناه أحكمت آياته بالامر والنهي والآيات المراد بها حقيقتها وهي الجمل من السور المفصل بعضها عن بعض أي نظمت نظما متقنا لا يعتريه خلل بوجه من الوجوه وقيل معنى احكامها ان لا فساد فيها أخذا من قولهم أحكمت الدابة اذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح (ثم فصلت) بالوعد والوعيد والثواب والعقاب وقيل أحكمها

وفي رواية سعيد بن منصور عن أبي معاوية عن هشام عن وهب بن كيسان عن أبي الزبير خذ العفو قال من أخلاق الناس والله لآخذنه منهم ما صحبتهم وهذا أشهر الأقوال ويشهد له ما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم جميعا حدثنا يونس حدثنا سفيان هو ابن عيينة عن أبي قال لما أنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هذا يا جبريل قال إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك وقد رواه ابن أبي حاتم أيضا عن أبي يزيد القراطيسي كتابة عن أصبغ بن الفرج عن سفيان بن عيينة عن الشعبي نحوه وهذا مرسل على كل حال وقد روي له شواهد من وجوه أخر وقد روي مرفوعا عن جابر وقيس بن سعد بن عبادة عن النبي صلى الله عليه وسلم أسندهما ابن مردويه وقال الإمام أحمد حدثنا أبو المغيرة حدثنا معاذ بن رفاعة حدثني علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة الباهلي عن عقبة ابن عامر رضي الله عنه قال لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فابتدأته فأخذت بيده فقلت يا رسول الله أخبرني بفواضل الأعمال فقال يا عقبة صل من قطعك وأعط من حرمك وأعرض عمن ظلمك وروى الترمذي نحوه من طريق عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد به وقال حسن قلت ولكن علي بن يزيد وشيخه (٢٨٠) القاسم أبو عبد الرحمن فيهما ضعف وقال البخاري خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين العرف المعروف حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب عن الزهري أخبرني عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة أن ابن عباس رضي الله عنهما قال قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس وكان من النفر الذين يدنيهم عمر وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولا كانوا أو شبانا فقال عيينة لابن أخيه يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه قال سأستأذن لك عليه قال ابن عباس فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر فلما دخل عليه قال هي يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل فغضب عمر حتى هم أن يوقع به فقال له الحر يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وإن هذا جزاء
من الجاهلين والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقافا عند كتاب الله عز وجل انفرد بإخراجه البخاري وقال ابن أبي حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة أخبرنا ابن وهب أخبرني مالك بن أنس عن عبد الله بن نافع أن سالم بن عبد الله بن عمر مر على عير لأهل الشام وفيها جرس فقال إن هذا ينهى عنه فقالوا نحن أعلم بهذا منك إنما يكره الجلجل الكبير فأما مثل هذا فلا بأس به فسكت سالم وقال وأعرض عن الجاهلين وقول البخاري العرف المعروف نص عليه عروة بن الزبير والسدي وقتادة وابن جرير وغير واحد وحكى ابن جرير أنه يقال أوليته معروفا وعارفا وعارفة كل ذلك بمعنى المعروف قال وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر عباده بالمعروف ويدخل في ذلك جميع الطاعات وبالإعراض عن الجاهلين وذلك وإن كان أمرا لنبيه صلى الله عليه وسلم فإنه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم لا بالإعراض عمن جهل الحق الواجب من حق الله ولا بالصفح عمن كفر بالله وجهل وحدانيته وهو للمسلمين حرب وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في قوله خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين قال هذه أخلاق أمر الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم ودله عليها وقد أخذ بعض الحكماء هذا المعنى فسبكه في بيتين فيهما جناس فقال

صفة لنذير وكأنه يريد أنه صفة في الأصل لو تأخر ولكن لما تقدم صار حالا صرح به أبو البقاء فصوابه كائنا من جهته وقيل يعود على الكتاب أي نذير لكم من مخالفته وبشير منه لمن آمن وعمل صالحا وقدم الإنذار لأن التخويف أهم إذ يحصل به الانزجار وقيل هو من كلام الله سبحانه كقوله ويحذركم الله نفسه (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه) تقدم الإرشاد إلى الاستغفار على التوبة لكونه وسيلة إليها وقيل إن التوبة من متممات الاستغفار وقيل معنى استغفروا توبوا ومعنى توبوا أخلصوا التوبة واستقيموا عليها وقيل استغفروا من سالف الذنوب ثم توبوا من لاحقها وقيل استغفروا من الشرك ثم ارجعوا إليه بالطاعة قال الفراء ثم ههنا بمعنى الواو أي وتوبوا إليه لأن الاستغفار هو التوبة والتوبة هي الاستغفار فذكرهما للتأكيد وقيل إنما قدم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هي الغرض المطلوب والتوبة هي السبب إليها وما كان آخرا في الحصول كان أولا في الطلب وقيل استغفروا في الصغائر وتوبوا إليه في الكبائر ثم رتب على ما تقدم أمرين الأول (يمتعكم متاعا حسنا) أصل الإمتاع الإطالة ومنه أمتع الله بك فمعنى الآية يطول نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية موسعة للرزق ورغد العيش وقيل هو الرضا بالميسور والصبر على المقدور (إلى أجل مسمى) إلى وقت مقدر عند الله وهو الموت وقيل القيامة وقيل دخول الجنة والأول أولى والأمر الثاني قوله (ويؤت كل ذي فضل) في الطاعة والعمل (فضله) أي

خذ العفو وأمر بعرف كما * أمرت وأعرض عن الجاهلين   ولن في الكلام لكل الانام * من

وقال بعض العلماء الناس رجلان فرجل محسن فخذ ما عفا لك من احسانه ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يحرجه وأما مسيء بالمعروف فان تمادى على ضلاله واستعصى عليك واستمر في جهله فأعرض عنه فلعل ذلك أن يرد كيده كما قال تعالى ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم أي هذه الوصية وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم فهذه الآيات الثلاث في الاعراف والمؤمنون وحم السجدة لا رابع لهن فانه تعالى يرشد فيهن الى معاملة العاصي من الامر بالمعروف بالتي هي أحسن فان ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد باذنه تعالى ثم أرشد تعالى الى الاستعاذة به من شيطان الجان فانه لا يكفه عنك الاحسان وانما يريد هلاكك ودمارك بالكلية فانه عدو مبين لك ولابيك من قبلك قال ابن جرير في تفسير قوله واما ينزغنك من الشيطان نزغ واما يغضبنك من الشيطان غضب يصدك عن الاعراض عن الجاهل ويحملك على مجازاته فاستعذ بالله يقول فاستجر بالله من نزغه انه سميع عليم سميع لجهل الجاهل عليك والاستعاذة به من نزغه وبغير ذلك من الكلام لخلقه لا يخفى عليه منه شيء عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان (٢٨١) وغير ذلك من أمور خلقه وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم لما نزلت خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين قال يارب كيف بالغضب فأنزل الله واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم قلت وقد تقدم في أول الاستعاذة حديث الرجلين اللذين تسابا بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم فغضب أحدهما حتى جعل أنفه يتمزع غضبا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اني لأعلم كلمة لو قالها الذهب عنه ما يجد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فقيل له فقال ما بي من جنون وأصل النزغ الفساد اما بالغضب أو غيره قال الله تعالى وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ان الشيطان ينزغ بينهم والعياذ الالتجاء والاستناد والاستجارة من الشر وأما الملاذ ففي طلب الخير كما قال الحسن بن هانئ في شعره

يامن ألوذ به فيما أؤمله * ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظما أنت كاسره * ولا يهيضون عظما أنت جابره

وقد قدمنا أحاديث الاستعاذة في أول التفسير بما أغنى عن اعادته ههنا (ان الذين اتقوا اذا مسهم طيف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون واخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون) يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر وتركوا ما عنه زجر انهم اذا مسهم أي أصابهم طيف وقرأ الآخرون طائف وقد جاء فيه حديث وهما قراءتان مشهورتان فقيل بمعنى واحد وقيل بينهما فرق ومنهم من فسر ذلك بالغضب ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصرع ونحوه ومنهم من فسره بالهم بالذنب ومنهم من فسره باصابة الذنب وقوله تذكروا أي عقاب الله وجزيل ثوابه ووعده ووعيده فتابوا وأنابوا واستعاذوا بالله ورجعوا اليه من قريب فاذا هم مبصرون أي قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه ههنا حديث محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال جاءت امرأة الى النبي صلى الله عليه وسلم وبها طيف فقالت يارسول الله ادع الله أن يشفيني فقال ان شئت دعوت الله فشفاك وان شئت فاصبري

جزاء فضله اما في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما جميعا والضمير راجع الى كل ذي فضل وقيل راجع الى الله سبحانه على معنى ان الله يعطي كل من فضلت حسناته فضله الذي يتفضل به على عباده عن ابن مسعود قال من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات فان عوقب بالسيئة التي عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات وان لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات ثم يقول هلك من غلب آحاده أعشاره وقال أبو العالية من كثرت طاعاته في الدنيا زادت حسناته ودرجاته في الجنة ثم توعدهم على مخالفة الامر فقال (وان تولوا) أي تعرضوا عن الاخلاص في العبادة والاستغفار والتوبة (فاني أخاف عليكم عذاب يوم كبير) هو يوم القيامة ووصفه بالكبر لما فيه من الاهوال وقيل اليوم الكبير يوم بدر وقيل صفة لعذاب فهو منصوب وانما خفض على الجوار ثم بين سبحانه عذاب اليوم الكبير بقوله (الى الله مرجعكم) أي رجوعكم اليه بالموت ثم البعث ثم الجزاء لا الى غيره (وهو على كل شيء قدير) ومن ذلك عذابكم على عدم الامتثال وهذه الجملة مقررة لما قبلها ثم أخبر الله سبحانه بان هذا الانذار والتحذير والتوعد لم ينجع فيهم ولا لانت له قلوبهم بل هم مصرون على العناد مصممون على الكفر فقال مصدرا لهذا الاخبار بكلمة التنبيه الدالة على التعجب من حالهم وانه أمر ينبغي أن يتنبه له

ولا حساب عليك فقالت بل أصبر ولا حساب علي ورواه غير واحد من أهل السنن وعندهم قالت يا رسول الله اني أصرع وأتكشف فادع الله أن يشفيني فقال ان شئت دعوت الله أن يشفيك وان شئت صبرت ولك الجنة فقالت بل أصبر ولي الجنة ولكن ادع الله أن لا أتكشف فدعا لها فكانت لا تتكشف وأخرجه الحاكم في مستدركه وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عمرو بن جامع من تاريخه ان شابا كان يتعبد في المسجد فهويته امرأة فدعته الى نفسها فما زالت به حتى كاد يدخل معها المنزل فذكر هذه الآية ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون فخر مغشيا عليه ثم أفاق فأعادها فمات فجاء عمر فعزى فيه أباه وكان قد دفن ليلا فذهب فصلى على قبره بمن معه ثم ناداه عمر فقال يا فتى ولمن خاف مقام ربه جنتان فأجابه الفتى من داخل القبر يا عمر قد أعطانيهما ربي عز وجل في الجنة مرتين وقوله تعالى واخوانهم أي واخوان الشياطين من الانس كقوله ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين من الانس وهم أتباعهم المستمعون لهم القابلون لأوامرهم يمدونهم في الغي أي تساعدهم الشياطين على المعاصي وتسهلها عليهم وتحسنها لهم وقال ابن كثير المد الزيادة يعني يزيدونهم في الغي يعني الجهل والسفه ثم لا يقصرون قيل

ان معناه ان الشياطين تمد الانس لا تقصر في أعمالهم بذلك كما قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله واخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون الآية قال لا الانس يقصرون عما يعملون ولا الشياطين تمسك عنهم وقيل معناه كما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون قال هم الجن يوحون الى أوليائهم من الانس ثم لا يقصرون يقول لا يسأمون وكذا قال السدي وغيره يعني ان الشياطين يمدون أولياءهم من الانس ولا تسأم من امدادهم من الشر لان ذلك طبيعة لهم وسجية ولا تفتر فيه ولا تبطل عنه كما قال تعالى ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا قال ابن عباس وغيره تزعجهم الى المعاصي ازعاجا (واذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها قل انما اتبع ما يوحى الي من ربي هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى قالوا لولا اجتبيتها يقول لولا تلقيتها وقال مرة أخرى لولا أحدثتها فأنشأتها وقال ابن جرير عن عبد الله بن كثير عن مجاهد في قوله واذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها قال لولا اقتضيتها قالوا تخرجها من نفسك وكذا قال قتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير وقال العوفي عن ابن عباس لولا اجتبيتها يقول تلقيتها من الله تعالى وقال الضحاك لولا اجتبيتها يقول لولا أخذتها أنت فجئت بها من السماء ومعنى قوله تعالى واذا لم تأتهم بآية أي معجزة وخارق كقوله تعالى ان نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين يقولون للرسول صلى الله عليه وسلم لا تجهد نفسك في طلب الآيات من الله حتى نراها ونؤمن بها قال الله تعالى له قل انما اتبع ما يوحى الي من ربي أي أنا لا أتقدم اليه تعالى في شيء وانما أتبع ما أمرني به فأمتثل ما يوحيه الي فان بعث آية قبلتها وان منعها لم أسأله ابتداء اياها الا أن يأذن لي في ذلك فانه حكيم عليم ثم أرشدهم الى ان هذا القرآن هو أعظم المعجزات وأبين الدلالات وأصدق الحجج والبينات فقال هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون (واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) لما ذكر تعالى

العقلاء ويفهموه (ألا انهم يثنون صدورهم) يقال ثنى صدره عن الشيء اذا ازور وانحرف عنه فيكون في الكلام كناية عن الاعراض لان من أعرض عن الشيء ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه وقيل معناه يعطفون صدورهم على ما فيها من الكفر والاعراض عن الحق وعداوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بحيث يكون ذلك مخفيا مستورا فيها كما تعطف الثياب على ما فيها من الاشياء المستورة فيكون في الكلام كناية عن الاخفاء لما يعتقدونه من الكفر كما كان دأب المنافقين والوجه الثاني أولى ويؤيده قوله (ليستخفوا منه) أي من الله فلا يطلع عليه رسوله والمؤمنين أو من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم كرر كلمة التنبيه مبينا للوقت الذي يثنون فيه صدورهم فقال (ألا حين يستغشون ثيابهم) أي يستخفون في وقت استغشاء الثياب وهو التغطي بها وقد كانوا يقولون اذا أغلقنا أبوابنا واستغشينا ثيابنا وثنينا صدورنا على عداوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فمن يعلم بنا وقيل معناه يأوون الى فراشهم ويتدثرون بثيابهم وقيل انه حقيقة وذلك ان بعض الكفار كان اذا مر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثنى صدره وولى ظهره واستغشى ثيابه لئلا يسمع كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال البخاري عن ابن عباس يغطون رؤسهم وروى عنه أيضا قال يعني به الشك في الله وعمل السيآت وكذا روى عن مجاهد والحسن وغيرهما أي انهم كانوا يثنون صدورهم

ان القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة أمر تعالى بالانصات عند تلاوته اعظاما له واحتراما لا كما يعتمده كفار قريش المشركون فى قولهم لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه الآية ولكن يتأكد ذلك فى الصلاة المكتوبة اذا جهر الامام بالقراءة كما رواه مسلم فى صحيحه من حديث أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما جعل الامام ليؤتم به فاذا كبر فكبروا واذا قرأ فانصتوا وكذا رواه أهل السنن من حديث أبى هريرة أيضا وصححه مسلم بن الحجاج أيضا ولم يخرجه فى كتابه وقال ابراهيم بن مسلم الهجرى عن أبى عياض عن أبى هريرة قال كانوا يتكلمون فى الصلاة فلما نزلت هذه الآية واذا قرئ القرآن فاستمعوا له والآية الاخرى أمروا بالانصات قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم عن المسيب بن رافع قال ابن مسعود كنا يسلم بعضنا على بعض فى الصلاة فجاء القرآن واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون وقال أيضا حدثنا أبو كريب حدثنا المحاربى عن داود بن أبى هند عن بشير بن جابر قال صلى ابن مسعود فسمع ناسا يقرؤن مع الامام فلما انصرف قال أما آن لكم أن تفهموا أما آن لكم أن تعقلوا واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا كما أمركم الله قال وحدثنى أبو السائب حدثنا حفص عن أشعث عن الزهرى قال نزلت هذه الآية فى فتى من الانصار كان رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢٨٣) كلما قرأ شيأ قرأه فنزلت واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا وقد روى الامام أحمد وأهل السنن من حديث الزهرى عن أبى أكيمة الليثى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال هل قرأ أحد منكم معى آنفا قال رجل نعم يا رسول الله قال انى أقول مالى أنازع القرآن قال فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة حين سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الترمذى هذا حديث حسن وصححه أبو حاتم الرازى وقال عبد الله بن المبارك عن يونس عن الزهرى قال لا يقرأ من وراء الامام فيما يجهر به الامام تكفيهم قراءة الامام وان لم يسمعهم صوته ولكنهم يقرؤن فيما لا يجهر به سرا فى أنفسهم ولا يصلح لاحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سرا ولا علانية فان الله تعالى قال واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون قلت هذا مذهب طائفة من العلماء ان المأموم لا يجب عليه فى الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الامام لا الفاتحة ولا غيرها وهو أحد قولى الشافعى وهو القديم كمذهب مالك ورواية عن أحمد بن حنبل لما ذكرناه من الادلة المتقدمة قال فى الجديد يقرأ الفاتحة فقط فى سكتات الامام وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل لا يجب على المأموم قراءة أصلا فى السرية ولا الجهرية بما ورد فى الحديث من كان له امام فقراءته قراءة له وهذا الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده عن جابر مرفوعا وهو فى موطأ مالك عن وهب بن كيسان عن جابر موقوفا وهذا أصح وهذه المسئلة مبسوطة فى غير هذا الموضع وقد أفردلها الامام أبو عبد الله البخارى مصنفا على حدة واختار وجوب القراءة خلف الامام فى السرية والجهرية أيضا والله أعلم وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية قوله واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا يعنى فى الصلاة المفروضة وكذا روى عن عبد الله بن المغفل وقال ابن جرير حدثنا حميد بن مسعدة حدثنا بشر بن المفضل حدثنا الجريرى عن طلحة بن عبيد الله بن كريز قال رأيت عبيد بن عمير وعطاء بن أبى رباح

اذا قالوا شيأ أو عملوه فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك فأعلمهم سبحانه انه حين يستغشون ثيابهم عند منامهم فى ظلمة الليل يعلم سرهم وعلانيتهم وعن عبد الله بن شداد قال كان المنافقون اذا مر أحدهم بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم ثنى صدره وتغشى ثوبه لكيلا يراه فنزلت وعن الحسن قال فى ظلمة الليل فى أجواف بيوتهم وعن قتادة قال كانوا يحنون صدورهم لكيلا يسمعوا كتاب الله وجملة (يعلم ما يسرون وما يعلنون) مستأنفة لبيان انه لا فائدة لهم فى الاستخفاء لان الله سبحانه يعلم ما يسرونه فى أنفسهم أو فى ذات بينهم وما يظهرونه فالظاهر والباطن عنده سواء والسر والجهر سيان (انه عليم بذات الصدور) تعليل لما قبله وتقرير له وذات الصدور هى الضمائر التى تشتمل عليها الصدور وقيل هى القلوب والمعنى انه عليم بجميع الضمائر أو عليم بالقلوب وأحوالها فى الاسرار والاظهار فلا يخفى عليه شئ من ذلك ثم أكد كونه عالما بكل المعلومات بما فيه غاية الامتنان ونهاية الاحسان فقال (وما من دابة) هى كل حيوان يدب على وجه الارض وتطلق على كل ذى أربع من الحيوان على سبيل العرف والمراد منه الاطلاق فيدخل فيه الآدمى وغيره من جميع الحيوان وفى المصباح دب الصغير يدب من باب ضرب اذا مشى ودب الجيش دبيبا أيضا سار ومن زائدة للتأكيد أى ما من حيوان وغيره (فى الارض الا على الله رزقها) أى الرزق الذى يحتاج اليه من الغذاء اللائق بالحيوان على

يتحدثان والقاص يقص فقلت ألا تستمعان الى الذكر وتستوجبان الموعود قال فنظرا الى ثم أقبلا على حديثهما قال فأعدت فنظرا الى وأقبلا على حديثهما قال فأعدت الثالثة قال فنظرا الى فقالا انما ذلك فى الصلاة واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا وكذا قال سفيان الثورى عن أبى هاشم اسمعيل بن كثير عن مجاهد فى قوله واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا قال فى الصلاة وكذا رواه غير واحد عن مجاهد وقال عبد الرزاق عن الثورى عن ليث عن مجاهد قال لا بأس اذا قرأ الرجل فى غير الصلاة ان يتكلم وكذا قال سعيد ابن جبير والضحاك وابراهيم النخعى وقتادة والشعبى والسدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ان المراد بذلك فى الصلاة وقال شعبة عن منصور سمعت ابراهيم بن أبى حرة يحدث انه سمع مجاهدا يقول فى هذه الآية واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا قال فى الصلاة والخطبة يوم الجمعة وكذا روى ابن جريج عن عطاء مثله وقال هشيم بن الربيع بن صبيح عن الحسن قال فى الصلاة وعند الذكر وقال ابن المبارك عن بقية سمعت ثابت بن عجلان يقول سمعت سعيد بن جبير يقول فى قوله واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا قال الانصات يوم الاضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة وفيما يجهر به الامام من الصلاة وهذا اختيار ابن جرير ان المراد من ذلك الانصات فى الصلاة وفى الخطبة كما جاء من الامر بالانصات خلف (٢٨٤) الامام وحال الخطبة وقال عبد الرزاق عن الثورى عن ليث عن مجاهد أنه كره اذا مر الامام بآية خوف أو بآية رحمة أن يقول أحد من خلفه شيأ قال السكوت وقال مبارك بن فضالة عن الحسن اذا جلست الى القرآن فانصت له وقال الامام أحمد حدثنا ابن سعيد مولى بنى هاشم حدثنا عباد بن ميسرة عن الحسن عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من استمع الى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة تفرد به الامام أحمد رحمه الله تعالى (واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون) يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره كثيرا كما أمر به تعالى فى هاتين الآيتين وفى قوله فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الاسراء وهذه الآية مكية وقال ههنا بالغدو وهو أول النهار والآصال جمع أصيل كما أن الأيمان جمع يمين واما قوله تضرعا وخيفة أى اذكر ربك فى نفسك تضرعا رغبة ورهبة وبالقول لا جهرا ولهذا قال ودون الجهر من القول ولهذا يستحب أن يكون الذكر لا يكون نداء وجهرا بليغا ولهذا لما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فأنزل الله عز وجل واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان وفى الصحيحين عن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه قال رفع الناس أصواتهم بالدعاء فى بعض الاسفار فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا غائبا أن الذى تدعونه سميع قريب أقرب الى أحدكم من عنق راحلته وقد يكون المراد من هذه الآية كما فى قوله تعالى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا فان المشركين كانوا اذا سمعوا القرآن سبوه وسبوا من أنزله وسبوا من جاء به فأمره الله تعالى أن لا يجهر به لئلا ينال منه المشركون ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعهم وليتخذ سبيلا بين

اختلاف أنواعه تفضلا منه واحسانا وانما جيء به على طريق الوجوب كما تشعر به كلمة على اعتبارا بسبق الوعد به منه وقيل ان على على بابها وانه عليه من باب الفضل لا الوجوب لانه لا يجب عليه شيء والحاصل أن المراد بالوجوب وجوب اختيار لا وجوب الزام فهو موكول الى مشيئته ان شاء رزقها وان شاء لم يرزقها وقيل ان على بمعنى من أى من الله رزقها أى ما يقوم به رمقها وتعيش به قال مجاهد ما جاءها من رزق فمن الله وربما لم يرزقها فتموت جوعا ووجه اتصال هذا الكلام بما قبله ان الله سبحانه لما كان لا يغفل عن كل حيوان باعتبار ما قسمه له من الرزق فكيف يغفل عن أحواله وأقواله وأفعاله (ويعلم مستقرها) أى محل استقرارها فى الارض أو محل قرارها فى الاصلاب (ومستودعها) موضعها فى الارحام وما يجرى مجراها كالبيضة ونحوها وقال الفراء مستقرها حيث تأوى اليه ليلا أو نهارا ومستودعها موضعها الذى تموت فيه وقد مر تمام الاقوال فى سورة الانعام ووجه تقديم المستقر على المستودع على قول الفراء ظاهر وأما على القول الاول فلعل وجه ذلك ان المستقر أنسب باعتبار ما هى عليه حال كونها دابة والمعنى وما من دابة الا يرزقها الله حيث كانت من أماكنها بعد كونها دابة وقيل كونها دابة وذلك حيث تكون فى الرحم ونحوه وفى البيضاوى أماكنها فى الحياة وفى الممات أو الاصلاب والارحام أو مساكنها من الارض حين وجدت بالفعل ومودعها من المواد والمقار حين

كانت

الجهروالاسرار وكذا قال فى هذه الآية الكريمة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا وقبله عبدالرحمن بن زيد بن أسلم ان المراد بها أمر السامع للقرآن فى حال استماعه بالذكر على هذه الصفة المأموربه ثم ان المراد بذلك فى الصلاة كما تقدم أو فى الصلاة والخطبة ومعلوم أن الانصات اذ ذاك أفضل من الذكر باللسان سواء كان سرا أوجهرا فهذا الذى قالاه لم يتابعا عليه بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال لئلا يكونوا من الغافلين ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون فقال ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته الآية وانما ذكرهم بهذا ليقتدى بهم فى كثرة طاعتهم وعبادتهم ولهذا شرع لنا السجود ههنا لما ذكر سجودهم لله عزوجل كما جاء فى الحديث ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها يتمون الصفوف الاول فالاول ويتراصون فى الصف وهذه أول سجدة فى القرآن مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالاجماع وقد ورد فى حديث رواه ابن ماجه عن أبى الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم انه عدها فى سجدات القرآن آخر تفسير سورة الاعراف ولله الحمد والمنة

(تفسير سورة الانفال وهى مدنية آياتها أربعون وست آيات كلماتها ألف كلمة وستمائة كلمة واحدى وثلاثون كلمة حروفها خمسة آلاف ومائتان وأربعة وتسعون حرفا والله أعلم)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يسألونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين) قال البخارى قال ابن عباس الانفال المغانم حدثنا محمد بن عبد الرحيم حدثنا سعيد بن سليمان أخبرنا هشيم أخبرنا أبو بشر عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس رضى الله عنهما سورة الانفال قال نزلت فى بدر أما ما علقه عن ابن عباس فكذلك رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس انه قال الانفال الغنائم كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خالصة ليس لاحد فيها شئ وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء والضحاك وقتادة وعطاء الخراسانى ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد انها المغانم وقال الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس انه قال الانفال الغنائم قال فيها لبيد ان تقوى ربنا خير نفل * وباذن الله ريثى وعجل وقال ابن جرير حدثنى يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنى مالك بن أنس عن ابن شهاب عن القاسم بن محمد قال سمعت رجلا يسأل ابن عباس عن الانفال فقال ابن عباس رضى الله عنهما الفرس من النفل والسلب من النفل ثم عاد لمسئلته فقال ابن عباس ذلك أيضا ثم قال الرجل الانفال التى قال الله فى كتابه ماهى قال القاسم فلم يزل يسأله حتى كاد يحرجه فقال ابن عباس أتدرون ما مثل هذا مثل صبيغ الذى ضربه عمر بن الخطاب وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهرى عن القاسم بن محمد قال قال ابن عباس كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه اذا سئل عن شئ قال لا آمرك ولا أنهاك ثم قال ابن عباس والله ما بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم الا زاجرا آمرا محللا محرما قال القاسم فسلط على ابن عباس رجل فسأله عن الانفال فقال ابن عباس كان الرجل ينفل فرس الرجل وسلاحه فأعاد عليه الرجل فقال له مثل ذلك ثم أعاد عليه حتى أغضبه فقال ابن عباس أتدرون ما مثل هذا مثل صبيغ الذى ضربه عمر بن الخطاب حتى سالت الدماء على عقبيه أو على رجليه فقال الرجل أما أنت فقد انتقم الله لعمر منك وهذا اسناد صحيح الى ابن عباس انه

كانت بعد بالقوة اه والمراد كالمنى والعلقة والمقار كالصلب والرحم وعن ابن مسعود قال مستقرها فى الارحام ومستودعها حيث تموت ويؤيد هذا التفسير ما أخرجه الحاكم وصححه عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال اذا كان أجل أحدكم بأرض أتيحت له اليها حاجة حتى اذا بلغ أقصى أثره منها فيقبض فتقول الارض يوم القيامة هذا ما استودعتنى ثم ختم الآية بقوله (كل فى كتاب مبين) أى كل مما تقدم ذكره من الدواب ومستقرها ومستودعها ورزقها فى اللوح المحفوظ أى مثبت فيه قبل خلقها ثم أكد دلائل قدرته بالتعرض لذكر خلق السموات والارض وكيف كان الحال قبل خلقها فقال (وهو الذى خلق السموات والارض) وما بينهما (فى ستة أيام) الكلام على التوزيع فكان خلق السموات فى يومين والارضين فى يومين وما عليها من أنواع الحيوان والنبات والاقوات والجمادات فى يومين والمراد بالايام هنا الاوقات أى فى ستة أوقات كما فى قوله ومن يولهم يومئذ دبره وقيل مقدار ستة أيام وقيل المراد هنا الايام المعروفة وهى المقابلة لليالى أولها الاحد وآخرها الجمعة ولا يستقيم ذلك لانه لم تكن حينئذ أرض ولا سماء وليس اليوم الا عبارة عن مدة كون الشمس فوق الارض وفى الجمل وهذا مشكل جدا اذ لا يتعين الأحد ولا غيره من الايام الا عند وجودها بالفعل وفى تلك الحال لم يكن زمان قط فضلا عن تفصيله أياما فضلا عن تخصيص كل يوم باسم والجواب عن هذا الاشكال ان المراد

فسر النفل بما ينفله الامام لبعض الاشخاص من سلب أو نحوه بعد قسم أصل المغنم وهو المتبادر الى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل والله أعلم وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد انهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخمس بعد الاربعة من الاخماس فنزلت يسألونك عن الانفال وقال ابن مسعود ومسروق لانفل يوم الزحف انما النفل قبل التقاء الصفوف رواه ابن أبي حاتم عنهما وقال ابن المبارك وغير واحد عن عبد الملك بن أبي سلمان عن عطاء بن أبي رباح في الآية يسألونك عن الانفال قال يسألونك فيما شذ من المشركين الى المسلمين في غير قتال من دابة أو عبد أو أمة أو متاع فهو نفل للنبي صلى الله عليه وسلم يصنع به ما يشاء وهذا يقتضي أنه فسر الانفال بالفيء وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال قال ابن جرير وقال آخرون هي أنفال السرايا حدثني الحرث حدثنا عبد العزيز حدثنا علي بن صالح بن حي قال بلغني في قوله تعالى يسألونك عن الانفال قال السرايا ومعنى هذا ما ينفله الامام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش وقد صرح بذلك الشعبي واختار ابن جرير أنها الزيادة على القسم ويشهد لذلك ما ورد في سبب نزول الآية وهو ما رواه الامام أحمد حيث قال حدثنا أبو معاوية حدثنا أبو اسحق الشيباني عن محمد بن عبيد الله الثقفي عن سعد بن أبي وقاص قال لما كان يوم بدر وقتل أخي عمير (٢٨٦) قتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه وكان يسمى ذا الكتيفة فأتيت به النبي صلى الله عليه وسلم فقال اذهب فاطرحه في القبض قال فرجعت وبي ما لا يعلمه الا الله من قتل أخي وأخذ سلبي قال فما جاوزت الا يسيرا حتى نزلت سورة الانفال فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم اذهب فخذ سلبك وقال الامام أحمد أيضا حدثنا أسود بن عامر أخبرنا أبو بكر عن عاصم بن أبي النجود عن مصعب بن سعد عن سعد ابن مالك قال قلت يارسول الله قد شفاني الله اليوم من المشركين فهب لي هذا السيف فقال ان هذا السيف لا لك ولا لي ضعه قال فوضعته ثم رجعت فقلت عسى أن يعطى هذا السيف اليوم من لا يبلي بلائي قال اذا رجل يدعوني من ورائي قال قلت قد أنزل الله في شيأ قال كنت سألتني السيف ولا وليس هو لي وانه قد وهب لي فهو لك قال وأنزل الله هذه الآية يسألونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من طرق عن أبي بكر بن عياش به وقال الترمذي حسن صحيح وهكذا رواه أبو داود الطيالسي أخبرنا شعبة أخبرنا سماك بن حرب قال سمعت مصعب بن سعد يحدث عن سعد قال نزلت في أربع آيات أصبت سيفا يوم بدر فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت نفلنيه فقال ضعه من حيث أخذته مرتين ثم عاودته فقال النبي صلى الله عليه وسلم ضعه من حيث أخذته فنزلت هذه الآية يسألونك عن الانفال الآية وتمام الحديث في نزول ووصينا الانسان بوالديه حسنا وقوله تعالى انما الخمر والميسر وآية الوصية وقد رواه مسلم في صحيحه من حديث شعبة به وقال محمد بن اسحق حدثني عبد الله بن أبي بكر عن بعض بني ساعدة قال سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة يقول أصبت سيف بن عائذ يوم بدر وكان السيف يدعى بالمرزبان فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس أن يردوا ما في أيديهم من النفل أقبلت به فألقيته في النفل وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يمنع شيأ يسئله فرآه الارقم بن أبي الارقم المخزومي فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه اياه ورواه ابن جرير من وجه آخر (سبب آخر في نزول

مقدار ستة أيام لا يدفع هذا الاشكال انما يدفع الاشكال الآخر وهو انه لم يكن ثم زمان اه (وكان عرشه) قبل خلقهما (على الماء) ليس تحته شيء غيره سواء كان بينهما فرجة أو كان موضوعا على متنه فلا دلالة فيه على امكان الخلاء كيف لا ولو دل لدل على وجوده لا على امكانه فقط ولا على كون الماء أول ما حدث في العالم بعد العرش وانما يدل على ان خلقهما أقدم من خلق السموات والارض من غير تعرض للنسبة بينهما قلت وكونه قبل خلقهما مأخوذ من كان لان المعنى المستفاد منها بالنسبة للحكم لا للتكلم وهو خلق السموات والارض وهذا ظاهر سواء كانت الجملة معطوفة أو حالية بتقدير قد ونقل عن السلف انه كان على الماء وهو الآن على ما كان عليه وعبارة سليمان الجمل بل هو في مكانه الذي هو فيه الآن وهو ما فوق السموات السبع والماء في المكان الذي هو فيه الآن وهو ما تحت الارضين السبع انتهى عن ابن عباس انه سئل على أي شيء كان الماء قال على متن الريح وعن أبي رزين العقيلي قال قلت يارسول الله أين كان ربنا قبل ان يخلق خلقه قال كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء وخلق عرشه على الماء أخرجه الترمذي قال أحمد يريد بالعماء انه ليس معه شيء قال البيهقي العماء ان كان ممدودا فمعناه سحاب رقيق والمعنى فوق سحاب مدبرا له وعاليا عليه وان كان مقصورا فمعناه لا شيء ثابت لانه مما عمي عن الخلق لكونه غير شيء ونحوه قال جمع من أهل العلم قال الازهري فنحن نؤمن به

الآية) وقال الامام أحمد حدثنا محمد بن سلمة عن ابن اسحق عن عبد الرحمن عن سليمان بن موسى عن مكحول عن أبي أمامة قال سألت عبادة عن الانفال قال فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه اخلاقنا فانتزعه الله من أيدينا وجعله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين عن بواء يقول عن سواء وقال الامام أحمد أيضا حدثنا أبو معاوية بن عمرو أخبرنا أبو اسحق عن عبد الرحمن بن الحرث بن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة عن سليمان بن موسى عن أبي سلام عن أبي أمامة عن عبادة بن الصامت قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشهدت معه بدرا فالتقى الناس فهزم الله تعالى العدو فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون و يقتلون وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه وأحدقت طائفة برسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصيب العدو منه غرة حتى اذا كان الليل وفي الناس بعضهم الى بعض قال الذين جمعوا الغنائم نحن حويناها فليس لاحد فيها نصيب وقال الذين خرجوا في طلب العدو لستم بأحق به منا نحن منعنا عنه العدو وهزمناهم وقال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به فنزلت يسألونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فقسمها رسول الله صلى الله (٢٨٧) عليه وسلم بين المسلمين وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أغار في أرض العدو نفل الربع فاذا أقبل راجعا نفل الثلث وكان يكره الانفال ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث سفيان الثوري عن عبد الرحمن ابن الحرث به نحوه قال الترمذي هذا حديث حسن ورواه ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه من حديث عبد الرحمن بن الحرث وقال الحاكم صحيح الاسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه وروى أبو داود والنسائي وابن جرير وابن مردويه واللفظ له وابن حبان والحاكم من طرق عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال لما كان يوم بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا فتسارع في ذلك شبان القوم وبقي الشيوخ تحت الرايات فلما كانت المغانم جاؤا يطلبون الذي جعل لهم فقال الشيوخ لا تستأثروا علينا فانا كنا ردأ لكم لو انكشفتم لثبتم الينا فتنازعوا فأنزل الله تعالى يسألونك عن الانفال الى قوله وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين وقال الثوري عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال لما كان يوم بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل قتيلا فله كذا وكذا ومن أتى بأسير فله كذا وكذا فجاء أبو اليسر بأسيرين فقال يا رسول الله صلى الله عليك أنت وعدتنا فقام سعد بن عبادة فقال يا رسول الله انك لو أعطيت هؤلاء لم يبق لاصحابك شيء وانه لم يمنعنا هذا زهادة في الاجر ولا جبن عن العدو وانما قمنا هذا المقام محافظة عليك مخافة ان يأتوك من ورائك فتشاجروا ونزل القرآن يسألونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول قال ونزل القرآن واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه الى آخر الآية وقال الامام أبو عبيد الله القاسم بن سلام رحمه الله في كتاب الاموال الشرعية وبيان جهاتها ومصارفها اما الانفال فهي المغانم وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب فكانت الانفال الاولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى يسألونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول فقسمها يوم بدر على ما أراه الله من غير ان يخمسها على ما ذكرناه في حديث سعد ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس فنسخت الاولى قلت هكذا روى على

ولا نكيف صفته وقد وردت أحاديث كثيرة في صفة العرش وفي كيفية خلق السموات والارض ليس هذا موضع ذكرها (ليبلوكم) أي خلق هذه المخلوقات ليبتلي عباده بالاعتبار والتفكر والاستدلال على كمال قدرته وعلى البعث والجزاء (أيكم أحسن عملا) فيما أمر به ونهى عنه من غيره ويدخل في العمل الاعتقاد لانه من أعمال القلب وقيل المراد بالاحسن عملا الاتم عقلا وقيل الازهد في الدنيا وقيل الاكثر شكرا وقيل الاتقى لله وجاز تعليق فعل البلوى لما في الاختبار من معنى العلم لانه طريق اليه فهو ملابس له (ولئن قلت) اللام موطئة للقسم فقد اجتمع في الكلام شرط وقسم والقاعدة أن يحذف جواب المتأخر ويذكر جواب المتقدم فقوله ليقولن جواب القسم وجواب الشرط محذوف وكذا في قوله ولئن أخرنا وقوله ولئن أذقنا الانسان وقوله ولئن أذقناه فالمواضع أربعة ولما كان الابتلاء يتضمن حديث البعث أتبع ذلك بذكره والمعنى لئن قلت لهم يا محمد على ما توجبه قضية الابتلاء (انكم مبعوثون من بعد الموت) فيجازى المحسن باحسانه والمسيء باساءته وقيل انكم بمعنى لعلكم على ان الرجاء باعتبار حال المخاطبين أي توقعوا ذلك ولا تبتوا القول بانكاره (ليقولن الذين كفروا) من الناس (ان هذا) الذي تقوله يا محمد (الا سحر مبين) أي كالسحر أو باطل كبطلان السحر وخدع كخدعه فالكلام من باب التشبيه البليغ ويجوز أن تكون الاشارة بهذا الى القرآن لانه المشتمل على الاخبار بالبعث وقرئ ساحر يعني النبي

ابن أبي طلحة عن ابن عباس سواء وبه قال مجاهد وعكرمة والسدي وقال ابن زيد ليست منسوخة بل هي محكمة قال أبو عبيد وفي ذلك آثار والانفال أصلها جماع الغنائم الا ان الخمس منها مخصوص لاهله على ما نزل به الكتاب وجرت به السنة ومعنى الانفال في كلام العرب كل احسان فعله فاعل تفضلا من غير ان يجب ذلك عليه فذلك النفل الذي أحله الله للمؤمنين من أموال عدوهم وانما هو شيء خصهم الله به تطولا منه عليهم بعد ان كانت الغنائم محرمة على الامم قبلهم فنفلها الله تعالى هذه الامة فهذا أصل النفل قلت شاهد هذا ما في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي فذكر الحديث الى أن قال وأحلت لي الغنائم ولم تحل لاحد قبلي وذكر تمام الحديث ثم قال أبو عبيد ولهذا سمي ما جعل الامام للمقاتلة نفلا وهو تفضيله بعض الجيش على بعض بشيء سوى سهامهم يفعل ذلك بهم على قدر الغناء عن الاسلام والنكاية في العدو وفي النفل الذي ينفله الامام سنن أربع لكل واحدة منهن موضع غير موضع الاخرى فاحداهن في النفل لا خمس فيه وذلك السلب والثانية النفل الذي يكون من الغنيمة بعد اخراج الخمس وهو أن يوجه الامام السرايا في أرض الحرب فتأتي بالغنائم فيكون للسرية مما جاءت به الربع أو الثلث (٢٨٨) والثالثة في النفل من الخمس نفسه وهو أن تحاز الغنيمة كلها ثم تخمس فاذا صار الخمس في يد الامام نفل منه على قدر ما يرى والرابعة في النفل في جملة الغنيمة قبل ان يخمس منها شيء وهو ان يعطى الادلاء ورعاة الماشية والسواقها وفي كل ذلك اختلاف قال الربيع قال الشافعي الانفال أن لا يخرج من رأس الغنيمة قبل الخمس شيء غير السلب قال أبو عبيد والوجه الثاني من النفل هو شيء زيدوه غير الذي كان لهم وذلك من خمس النبي صلى الله عليه وسلم فان له خمس الخمس من كل غنيمة فينبغي للامام أن يجتهد فاذا كثر العدو واشتدت شوكتهم وقل من بازائه من المسلمين نفل منه اتباعا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم واذا لم يكن ذلك لم ينفل والوجه الثالث من النفل اذا بعث الامام سرية أو جيشا فقال لهم قبل اللقاء من غنم شيئا فهو له بعد الخمس فهو لهم على ما شرط الامام لانهم على ذلك غزوا وبه رضوا انتهى كلامه وفيما تقدم من كلامه وهو قوله ان غنائم بدر لم تخمس نظر ويرد عليه حديث علي بن أبي طالب في شارفيه اللذين حصلا له من الخمس يوم بدر وقد بينت ذلك في كتاب السيرة بيانا شافيا ولله الحمد والمنة وقوله تعالى فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم أي اتقوا الله في أموركم وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا وما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه وأطيعوا الله ورسوله أي في قسمه بينكم على ما أراده الله فانه انما يقسمه كما أمره الله من العدل والانصاف وقال ابن عباس هذا تحريج من الله ورسوله ان يتقوا ويصلحوا ذات بينهم وكذا قال مجاهد وقال السدي فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم أي لا تستبوا ولنذكر ههنا حديثا أورده الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي رحمه الله في مسنده فانه قال حدثنا مجاهد بن موسى حدثنا عبد الله بن بكير حدثنا عباد بن شيبة الحبطي عن سعيد بن أنس عن أنس رضي الله عنه قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس اذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي فقال رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة

صلى الله عليه وآله وسلم (ولئن أخرنا عنهم العذاب) أي الذي يستعجلونه استهزاء وهو ما تقدم ذكره في قوله عذاب يوم كبير وقيل عذاب يوم القيامة وما بعده وقيل عذاب يوم بدر (الى أمة معدودة) أي الى طائفة من الايام قليلة لان ما يحصره العد قليل والامة اشتقاقها من الأم وهو القصد وأراد بها الوقت المقصود لايقاع العذاب وقيل هي في الاصل الجماعة من الناس وقد يسمى الحين باسم ما يحصل فيه كقولك كنت عند فلان صلاة العصر أي في ذلك الحين فالمراد على هذا الى حين تنقضي أمة معدودة من الناس (ليقولن ما يحبسه) أي أي شيء يمنعه من النزول استعجالا له على جهة الاستهزاء والتكذيب والسخرية فأجابهم الله بقوله (ألا) أداة استفتاح داخلة على ليس في المعنى (يوم يأتيهم) أي العذاب (ليس مصروفا) أي محبوسا (عنهم) بل واقع بهم لا محالة ويوم منصوب بخبر ليس مقدما عليه وهو دليل البصريين على جواز تقديم خبرها عليها اذ المعمول تابع للعامل فلا يقع الا حيث يقع متبوعه والا يلزم تقديم الفرع على أصله ورد بأن الظرف يجوز فيه ما لا يجوز في غيره توسعا ويبنى الامر فيه على التسامح فيه وبأنه قد يتقدم المعمول حيث لا مجال لتقدم العامل كما في قوله تعالى فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر فان اليتيم والسائل مع كونهما منصوبين بالفعلين المجزومين قد تقدما على لا الناهية مع امتناع تقدم الفعلين عليها قال أبو حيان وقد تتبعت جملة من دواوين العرب فلم أظفر بتقديم خبر ليس عليها ولا بتقديم

معموله

تبارك وتعالى فقال أحدهما يارب خذ لى مظلمتى   الى أعط أخاك مظلمته قال يارب لم يبق من حسناتى شئ قال رب فليحمل عنى من أوزارى قال ففاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم قال ان ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس الى من يحمل عنهم من أوزارهم فقال الله تعالى للطالب ارفع بصرك وانظر فى الجنان فرفع رأسه فقال يارب أرى مدائن من فضة وقصورا من ذهب مكللة باللؤلؤ لاى نبى هذا لاى صديق هذا لاى شهيد هذا قال هذا لمن أعطى ثمنه قال يارب ومن يملك ثمنه قال أنت تملكه قال ماذا يارب قال تعفو عن أخيك مظلمته قال يارب فانى قد عفوت عنه قال الله تعالى خذ بيد أخيك فادخلا الجنة ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم فان الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم اياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون. الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم قال المنافقون لا يدخل قلوبهم شئ من ذكر الله عند أداء فرائضه ولا يؤمنون بشئ من آيات الله ولا يتوكلون ولا يصلون اذا غابوا ولا يؤدون زكاة أموالهم فاخبر الله تعالى انهم ليسوا بمؤمنين ثم وصف الله (٢٨٩) المؤمنين فقال انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم فادوا فرائضه واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا يقول زادتهم تصديقا وعلى ربهم يتوكلون يقول لا يرجون غيره وقال مجاهد وجلت قلوبهم فرقت أى فزعت وخافت وكذا قال السدى وغير واحد وهذه صفة المؤمن حق المؤمن الذى اذا ذكر الله وجل قلبه أى خاف منه ففعل أوامره وترك زواجره كقوله تعالى والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون وكقوله تعالى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى ولهذا قال سفيان الثورى سمعت

السدى يقول فى قوله تعالى انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم قال هو الرجل يريد أن يظلم أو قال يهم بمعصية فيقال له اتق الله فيجل قلبه وقال الثورى أيضا عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء فى قوله انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم قال الوجل فى القلب كاحراق السعفة أما تجد له قشعريرة قال بلى قالت اذا وجدت ذلك فادع الله عند ذلك فان الدعاء يذهب ذلك قوله واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا كقوله واذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه ايمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون وقد استدل البخارى وغيره من الائمة بهذه الآية واشباهها على زيادة الايمان وتفاضله فى القلوب كما هو مذهب جمهور الامة بل قد حكى الاجماع عليه غير واحد كالشافعى وأحمد ابن حنبل وأبى عبيد كما بينا ذلك مستقصى فى أول شرح البخارى ولله الحمد والمنة وعلى ربهم يتوكلون أى لا يرجون سواه ولا يقصدون الا اياه ولا يلوذون الا بجنابه ولا يطلبون الحوائج الا منه ولا يرغبون الا اليه ويعلمون انه ما شاء كان وما لم يشاء لم يكن وانه المتصرف فى الملك وحده لا شريك له ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ولهذا قال سعيد بن جبير التوكل على الله جماع الايمان وقوله الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ينبه تعالى بذلك على أعمالهم بعد ما ذكر اعتقادهم وهذه الاعمال تشمل أنواع الخير كلها وهو

معموله الا ما دل عليه ظاهر هذه الآية وقول الشاعر

فأبى فما يزداد الا لجاجة * وكنت أبيا فى الخنا لست أقدم

قلت وهذا الخلاف بينهم فى تقديم الخبر على ليس لا على اسمها فانه جائز بلا خلاف والكلام فيه وفى أدلته مفصل فى كتب النحو (وحاق) أى أحاط (بهم ما كانوا به يستهزؤن) أى العذاب الذى كانوا يستعجلونه استهزاء منهم ووضع هذا مكان يستعجلون لان استعجالهم كان استهزاء منهم وعبر بلفظ الماضى تنبيها على تحقق وقوعه فكأنه قد حاق بهم (ولئن أذقنا الانسان) أى الجنس فيشمل المؤمن والكافر ويدل على ذلك الاستثناء الآتى وقيل المراد به جنس الكفار ويؤيده أن اليأس والكفران والفرح والفخر هى أوصاف أهل الكفر لا أهل الاسلام فى الغالب وقيل المراد بالانسان الوليد ابن المغيرة وقيل عبد الله بن أمية المخزومى (منا رحمة) أى نعمة من توفير الرزق والصحة والسلامة من المحن وسعة العيش والرخاء (ثم نزعناها منه) أى سلبناه اياها وأخذناها قهرا عليه وايراد النزع للاشعار بشدة تعلقه بها وحرصه عليها (انه ليؤس) أى آيس من الرحمة شديد القنوط من عودها وأمثالها القلة صبره وعدم ثقته بالله (كفور) عظيم الكفران وهو الجحود لها قاله ابن الاعرابى وفى ايراد صيغتى المبالغة ما يدل على أن الانسان كثير اليأس وكثير الجحد عند أن يسلبه الله بعض نعمه فلا يرجو عودها ولا يشكر ما قد سلف له

اقامة الصلاة وهو حق الله تعالى وقال قتادة اقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها وقال مقاتل بن حيان اقامتها المحافظة على مواقيتها واسباغ الطهور فيها وتمام ركوعها وسجودها وتلاوة القرآن فيها والتشهد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم هذا اقامتها والانفاق مما رزقهم الله يشمل اخراج الزكاة وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب والخلق كلهم عيال الله فأحبهم الى الله أنفعهم لخلقه قال قتادة في قوله ومما رزقناهم ينفقون فانفقوا مما رزقكم الله فانما هذه الاموال عوارى وودائع عندك يا ابن آدم أوشكت أن تفارقها وقوله أولئك هم المؤمنون حقا أى المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الايمان وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا محمد بن عبد الرحمن الحضرمي حدثنا أبو كريب حدثنا زيد بن الحباب حدثنا ابن لهيعة عن خالد بن يزيد السكسكي عن سعيد بن أبي هلال عن محمد بن أبي الجهم عن الحرث بن مالك الانصاري أنه مر برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له كيف أصبحت يا حارثة قال أصبحت مؤمنا حقا قال انظر ماذا تقول فان لكل شئ حقيقة فما حقيقة ايمانك فقال عزفت نفسي عن الدنيا فاسهرت ليلى وأظمأت نهارى وكأنى أنظر الى عرش ربي بارزا وكأنى أنظر الى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأنى أنظر الى أهل النار يتضاغون (٢٩٠) فيها فقال يا حارثة عرفت فالزم ثلاثا وقال عمرو بن مرة في قوله تعالى أولئك هم المؤمنون حقا انما أنزل القرآن بلسان العرب كقولك فلان سيد حقا وفي القوم سادة وفلان تاجر حقا وفي القوم تجار وفلان شاعر حقا وفي القوم شعراء وقوله لهم درجات عند ربهم أى منازل ومقامات ودرجات في الجنات كما قال تعالى هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون ومغفرة أى يغفر لهم السيئات ويشكر لهم الحسنات وقال الضحاك في قوله لهم درجات عند ربهم أهل الجنة بعضهم فوق بعض فيرى الذى هو فوق فضله على الذى هو أسفل منه ولا يرى الذى هو أسفل انه فضل عليه أحد ولهذا جاء في الصحيحين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان أهل عليين ليراهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغابر في افق من آفاق السماء قالوا يا رسول الله تلك منازل الانبياء لا ينالها غيرهم فقال بلى والذى نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وفي الحديث الآخر الذى رواه الامام أحمد وأهل السنن من حديث عطية عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أهل الجنة ليتراءون أهل الدرجات العلى كما تراءون الكوكب الغابر في افق السماء وان أبا بكر وعمر منهم وأنعما (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله ان يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) قال الامام أبو جعفر الطبرى اختلف المفسرون في السبب الجالب لهذه الكاف في قوله كما أخرجك ربك فقال بعضهم شبه به في الصلاح للمؤمنين اتقاؤهم ربهم واصلاحهم ذات بينهم وطاعتهم لله ورسوله ثم روى عن عكرمة نحو هذا ومعنى هذا ان الله تعالى يقول كما انكم لما اختلفتم في المغانم وتشاححتم فيها فانتزعها الله منكم وجعلها الى قسمه وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمها على العدل والتسوية فكان هذا هو المصلحة التامة لكم وكذلك

منها وفي التعبير بالذوق ما يدل على أنه يكون منه ذلك عند سلب أدنى نعمة ينعم الله بها عليه لان الاذاقة والذوق أقل ما يوجد به الطعم (ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته) والنعماء انعام يظهر أثره على صاحبه والضراء ظهور أثر الاضرار على من أصيب به والمعنى انه ان أذاق الله سبحانه العبد نعماء من الصحة والسلامة والغنى بعد ان كان في ضر من فقر أو مرض أو خوف لم يقابل ذلك بما يليق به من الشكر لله سبحانه وفي اختلاف الفعلين نكتة لا تخفى (ليقولن) أى بل يقول (ذهب السيئات عنى) أى المصائب التى ساءته من الضر والفقر والخوف والمرض عنه وزال أثرها غير شاكر لله ولا مثن عليه بنعمه (انه لفرح فخور) أى كثير الفرح بطرا وأشرا كثير الفخر على الناس بتعديد المناقب والتطاول عليهم بما يتفضل الله به عليه من النعم والفرح لذة تحصل في القلب بنيل المراد والمشتهى وفي التعبير عن ملابسة الضر له بالمس مناسبة للتعبير في جانب النعماء بالاذاقة فان كليهما لادنى ما يطلق عليه اسم الملاقاة كما تقدم (الا الذين صبروا) فان عادتهم الصبر عند نزول المحن والشكر عند حصول المنن قال الاخفش هو استثناء منقطع يعنى ولكن الذين صبروا فانهم ليسوا كذلك وقيل متصل اذ المراد بالانسان الجنس لا واحد بعينه قاله الفراء (وعملوا الصالحات) في حالة النعمة والنقمة (أولئك) اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بالصبر وعمل الصالحات (لهم مغفرة) لذنوبهم وان جلت (وأجر) يؤجرون به على أعمالهم الحسنة (كبير)

لما كرهتم الخروج الى الاعداء من قتال ذات الشوكة وهو النفير الذين خرجوا لنصر دينهم واحراز عيرهم فكان عاقبة كراهتكم للقتال بان قدره لكم وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد رشدا وهدى ونصرا وفتحا كما قال تعالى كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيأ وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون قال ابن جرير وقال آخرون معنى ذلك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق على كره من فريق من المؤمنين كذلك هم كارهون للقتال فهم يجادلونك فيه بعد ما تبين لهم ثم روى نحوه عن مجاهد أنه قال كما أخرجك ربك قال كذلك يجادلونك فى الحق وقال السدى أنزل الله فى خروجه الى بدر ومجادلتهم اياه فقال كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون لطلب المشركين يجادلونك فى الحق بعد ما تبين وقال بعضهم يسألونك عن الانفال مجادلة كما جادلوك يوم بدر فقالوا أخرجتنا للعير ولم تعلمنا قتالا فنستعد له قلت رسول الله صلى الله عليه وسلم انما خرج من المدينة طالبا لعير أبى سفيان التى بلغه خبرها انها صادرة من الشام فيها أموال جزيلة لقريش فاستنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين من خف منهم فخرج فى ثلثمائة وبضعة عشر رجلا وطلب نحو الساحل من على طريق بدر وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طلبه فبعث ضمضم بن عمرو نذيرا الى أهل مكة فنهضوا (٢٩١) فى قريب من ألف مقنع ما بين التسعمائة الى الالف وتيامن أبو سفيان بالعير الى سيف البحر فنجا وجاء النفير فوردوا ماء بدر وجمع الله المسلمين والكافرين على غير ميعاد لما يريد الله تعالى من اعلاء كلمة المسلمين ونصرهم على عدوهم والتفرقة بين الحق والباطل كما سيأتى بيانه والغرض أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغه خروج النفير أوحى الله اليه يعده احدى الطائفتين اما العير واما النفير ورغب كثير من المسلمين الى العير لانه كسب بلا قتال كما قال تعالى وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين قال الحافظ أبو بكر ابن مردويه فى تفسيره حدثنا سليمان بن أحمد الطبرانى حدثنا بكر بن سهل حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب عن أسلم بن عمران حدثه أنه سمع أبا أيوب الانصارى يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالمدينة انى أخبرت عن عير أبى سفيان انها مقبلة فهل لكم ان نخرج قبل هذا العير لعل الله ان يغنمناها فقلنا نعم فخرج وخرجنا فلما سرنا يوما أو يومين قال لنا ماترون فى قتال القوم فانهم قد أخبروا بخروجكم فقلنا لا والله مالنا طاقة بقتال العدو ولكنا أردنا العير ثم قال ماترون فى قتال القوم فقلنا مثل ذلك فقال المقداد بن عمرو اذا لانقول لك يارسول الله كما قال قوم موسى لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون قال فتمنينا معشر الانصار أن لو قلنا كما قال المقداد أحب الينا من أن يكون لنا مال عظيم قال فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون وذكر تمام الحديث ورواه ابن أبى حاتم من حديث ابن لهيعة بنحوه وروى ابن مردويه أيضا من حديث محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثى عن أبيه عن جده قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بدر حتى اذا كان بالروحاء خطب الناس فقال كيف ترون فقال أبو بكر يارسول الله بلغنا انهم بمكان كذا وكذا قال ثم خطب الناس فقال كيف ترون فقال عمر مثل قول أبى بكر ثم خطب الناس فقال كيف ترون فقال سعد بن معاذ يارسول الله

(كبير) متناه فى الكبر وهو الجنة ووصف الاجر به لما احتوى عليه من النعيم السرمدى ودفع التكاليف والامن من عذاب الله والنظر الى وجهه الكريم واختياره على العظيم لعله لرعاية الفواصل ثم سلى الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فقال (فلعلك) لعظم ماتراه منهم من الكفر والتكذيب واقتراح الآيات التى يقترحونها عليك على حسب هواهم وتعنتهم (تارك بعض مايوحى اليك) مما أنزله الله عليك وأمرك بتبليغه مما يشق عليهم سماعه أو يستثقلون العمل به كسب آلهتهم وأمرهم بالايمان بالله وحده وقيل هذا الكلام خارج مخرج الاستفهام أى هل أنت تارك وقيل هو فى معنى النفى مع الاستبعاد أى لايكون منك ذلك بل تبلغهم جميع ما أنزل الله عليك أحبوا ذلك أم كرهوا شاؤا أم أبوا (وضائق به صدرك) الضمير راجع الى ما والى بعض وعبر بضائق دون ضيق لان اسم الفاعل فيه معنى الحدوث والعروض والصفة المشبهة فيها معنى اللزوم (أن يقولوا) أى كراهة أو مخافة أو لاجل أن أو بأن لا وقال أبو البقاء لان يقولوا (لولا) أى هلا (أنزل عليه كنز) أى مال مكنوز مخزون ينتفع به ويستغنى به (أو جاء معه ملك) يصدقه ويبين لنا صحة رسالته ثم بين سبحانه ان حاله صلى الله عليه وآله وسلم مقصور على النذارة فقال (انما أنت نذير) ليس عليك الا الانذار بما أوحى اليك وليس عليك حصول مطلوبهم وايجاد

ايانا تريد فوالذى اكرمك وأنزل عليك الكتاب ماسلكتها قط ولالى بها علم ولئن سرت حتى تأتى برك الغماد من ذى يمن لنسيرن معك، ولا نكون كالذين قالوا لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون ولعلك ان تكون خرجت لامر وأحدث الله اليك غيره فانظر الذى أحدث الله اليك فامض له فصل حبال من شئت واقطع حبال من شئت وعاد من شئت وسالم من شئت وخذ من أموالنا ماشئت فنزل القرآن على قول سعد كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون الآيات وقال العوفى عن ابن عباس لما شاور النبى صلى الله عليه وسلم فى لقاء العدو وقال له سعد ابن عبادة ما قال وذلك يوم بدر أمر الناس أن يتهيؤا للقتال وأمرهم بالشوكة فكره ذلك أهل الايمان فأنزل الله كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون وقال مجاهد يجادلونك فى الحق فى القتال وقال ابن اسحق يجادلونك فى الحق أى كراهية للقاء المشركين وانكارا لمسير قريش حين ذكروا لهم وقال السدى يجادلونك فى الحق بعد ما تبين لهم أى بعد ما تبين لهم انك لا تفعل الا ما أمرك الله به قال ابن جرير وقال آخرون عنى بذلك المشركين حدثنا يونس أنبأنا ابن وهب قال قال ابن زيد فى قوله تعالى يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون قال هؤلاء المشركون جادلوه فى الحق كأنما يساقون الى الموت حين يدعون الى الاسلام وهم ينظرون قال وليس هذا من صفة الآخرين هذه صفة مبتدأة لاهل الكفر ثم قال ابن جرير ولا معنى لما قاله لان الذى قبل قوله يجادلونك فى الحق خبر عن أهل الايمان والذى يتلوه خبر عنهم والصواب قول ابن عباس وابن اسحق انه خبر عن المؤمنين وهذا الذى نصره ابن جرير هو الحق وهو الذى يدل عليه سياق الكلام والله أعلم وقال الامام أحمد رحمه الله حدثنا يحيى بن بكير وعبد الرزاق قالا حدثنا اسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وفاوضهم حين فرغ من بدر عليك بالعير ليس دونها شئ فناداه العباس بن عبد المطلب قال عبد الرزاق وهو أسير فى وثاقه انه لا يصلح لك قال ولم قال لان الله عز وجل انما وعدك احدى الطائفتين وقد أعطاك الله ما وعدك اسناد جيد ولم يخرجه ومعنى قوله تعالى وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم أى يحبون ان الطائفة التى لا حد لها ولا منعة ولا قتال تكون لهم وهى العير ويريد الله أن يحق الحق بكلماته أى هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التى لها الشوكة والقتال ليظفركم بهم وينصركم عليهم ويظهر دينه ويرفع كلمة الاسلام ويجعله غالبا على الاديان وهو أعلم بعواقب الامور وهو الذى يدبركم بحسن تدبيره وان كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم كقوله تعالى كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى ان تكرهوا شيأ وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيأ وهو شر لكم وقال محمد بن اسحق رحمه الله حدثنى محمد بن مسلم الزهرى وعاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبى بكر ويزيد بن رومان عن عروة بن الزبير وغيرهم من علمائنا عن عبد الله بن عباس كل قد حدثنى بعض هذا الحديث فاجتمع حديثهم فيما سقت من حديث بدر قالوا لما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبى سفيان مقبلا من الشام ندب المسلمين اليهم وقال هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا

مقترحاتهم (والله على كل شئ وكيل) يحفظ ما يقولون وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل (أم يقولون افتراه) أم هى المنقطعة بمعنى بل والهمزة أضرب عما تقدم من تهاونهم بالوحى وعدم قنوعهم بما جاء به من المعجزات الظاهرة وشرع فى ذكر ارتكابهم لما هو أشد من ذلك وهو افتراؤهم عليه بأنه افتراه والاستفهام للتقريع والتوبيخ والضمير المستتر للنبى صلى الله عليه وآله وسلم والبارز لما يوحى ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عليهم بما يقطعهم ويبين كذبهم ويظهر به عجزهم فقال (قل فأتوا بعشر سور مثله) أى مماثلة له فى البلاغة وحسن النظم وجزالة اللفظ وفخامة المعنى ووصف السور بما يوصف به المفرد فقال مثله ولم يقل أمثاله لان المراد مماثلة كل واحدة من السور أو لقصد الايماء الى أن وجه الشبه ومداره المماثلة فى شئ واحد وهو البلاغة البالغة الى حد الاعجاز وهذا انما هو على القول بان المطابقة فى الجمع والتثنية والافراد شرط وقيل لفظة مثل وان كانت بلفظ الافراد فانها يوصف بها المثنى والمجموع والمؤنث كقوله تعالى أنؤمن لبشرين مثلنا وتجوز المطابقة قال تعالى وحور عين كأمثال اللؤلؤ وقال تعالى ثم لا يكونوا أمثالكم والهاء فى مثله تعود لما يوحى ثم وصف السور بصفة أخرى فقال (مفتريات) جمع مفتراة كمصطفيات فى مصطفاة فانقلبت الالف ياء كالتثنية قاله السمين أى مختلقات حيث قالوا له افتريت هذا القرآن من عند نفسك وليس هو من عند الله فتحداهم وأرخى لهم العنان

اليها لعل الله ان ينفلكموها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم وذلك انهم لم يظنوا ان رسول الله
حربا وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز يتحسس الاخبار ويسأل من لقى من الركبان تخوفا على أمر
خبرا من بعض الركبان أن محمدا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك فحذر عند ذلك فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى فبعثه الى أهل مكة وأمره
أن يأتى قريشا فيستنفرهم الى أموالهم ويخبرهم أن محمدا قد عرض لها فى أصحابه فخرج ضمضم بن عمرو سريعا الى مكة وخرج رسول
الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه حتى بلغ واديا يقال له ذفران فخرج منه حتى اذا كان ببعضه نزل وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا
عيرهم فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس وأخبرهم عن قريش فقام أبو بكر رضى الله عنه فقال فأحسن ثم قام عمر رضى الله
عنه فقال فأحسن ثم قام المقداد بن عمرو فقال يارسول الله امض لما أمرك الله به فنحن معك والله لانقول لك كما قالت بنو اسرائيل
لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا
الى برك الغماد يعنى مدينة الحبشة لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ودعا له بخير ثم قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم أشيروا على أيها الناس وانما يريد الانصار وذلك انهم كانوا عدد الناس وذلك انهم حين بايعوه
بالعقبة قالوا يارسول الله انا برآء من ذمامك حتى تصل الى دارنا فاذا وصلت الينا فأنت فى ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف ان لاتكون الانصار ترى عليها نصرته الا ممن دهمه بالمدينة من عدوه وان ليس عليهم ان يسير بهم الى عدو من بلادهم فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك قال له سعد بن معاذ والله لكأنك تريدنا يارسول الله قال أجل فقال فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا ان ماجئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة
فامض يارسول الله لما أمرك الله فوالذى بعثك بالحق ان استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما يتخلف منا رجل واحد
وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا انا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله فسر
رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ونشطه ذلك ثم قال سيروا على بركة الله وابشروا فان الله قد وعدنى احدى الطائفتين والله
لكأنى الآن أنظر الى مصارع القوم وروى العوفى عن ابن عباس نحو هذا وكذلك قال السدى وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم
وغير واحد من علماء السلف والخلف اختصرنا أقوالهما كتفاء بسياق محمد بن اسحق (اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم انى ممدكم
بألف من الملائكة مردفين وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر الا من عند الله ان الله عزيز حكيم) قال الامام أحمد
حدثنا أبو نوح قراد حدثنا عكرمة بن عمار حدثنا سماك الحنفى أبو زميل حدثنى ابن عباس حدثنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال
لما كان يوم بدر نظر النبى صلى الله عليه وسلم الى أصحابه وهم ثلثمائة ونيف ونظر الى المشركين فاذا هم ألف وزيادة فاستقبل النبى صلى
الله عليه وسلم القبلة وعليه رداؤه وازاره ثم قال اللهم أنجز لى ماوعدتنى اللهم أنجز لى ماوعدتنى اللهم ان تهلك هذه العصابة من أهل
الاسلام فلا تعبد فى الارض أبدا قال فمازال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرداه
ثم التزمه من ورائه ثم قال يانبى الله كفاك مناشدتك ربك فانه سينجز لك ماوعدك فأنزل الله عزوجل اذ تستغيثون ربكم فاستجاب

وفاوضهم على مثل دعواهم وقال مفتريات فى مقابلة قولهم افتراه ولما تحداهم بهذا الكلام أمره بأن يقول لهم (وادعوا) للاستظهار على المعارضة بالعشر السور (من استطعتم) دعاءه وقدرتم على الاستعانة به من هذا النوع الانسانى و (من دون الله) أى ممن تعبدونه وتجعلونه شريكا لله سبحانه أى ادعوا من استطعتم متجاوزين الله سبحانه (ان كنتم صادقين) فيما تزعمون من افترائى له (فالم) تكتب بغير نون كما فى خط المصحف وهذا فى خصوص هذا الموضع (يستجيبوا لكم) أى فان لم يفعلوا ما طلبته منهم وتحديتهم به من الاتيان بعشر سور مثله ولا استجابوا الى المعارضة المطلوبة منهم ويكون الضمير فى لكم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وللمؤمنين أو للنبى صلى الله عليه وآله وسلم وحده وجمع تعظيما وتفخيما (فاعلموا) أمر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وللمؤمنين أو للرسول وحده على التأويل الذى سلف قريبا ومعنى أمرهم بالعلم أمرهم بالثبات عليه لانهم عالمون بذلك من قبل عجز الكفار عن الاتيان بعشر سور مثله أو المراد بالامر بالعلم الامر بالازدياد منه الى حد لايشوبه شك ولا تخالطه شبهة وهو علم اليقين والاول أولى (أنما أنزل) متلبسا (بعلم الله) المختص به الذى لا تطلع على كنهه العقول ولا تستوضح معناه الافهام لما اشتمل عليه من الاعجاز الخارج عن طوق البشر وليس مفترى على الله وانما اداة حصر ويجوز فى ما ان تكون موصولة اسمية أو حرفية تقديره فاعلموا أن تنزيله أو ان الذى

لكم انى ممدكم بألف من الملائكة مردفين فلما كان يومئذ التقوا فهزم الله المشركين فقتل منهم سبعون رجلا وأسر منهم سبعون رجلا واستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر وعليا فقال أبو بكر يارسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والاخوان وانى أرى ان تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار وعسى ان يهديهم الله فيكونوا لنا عضدا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماترى يا ابن الخطاب قال قلت والله ما أرى ما رأى أبو بكر ولكنى أرى ان تمكننى من فلان قريب لعمر فأضرب عنقه وتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه حتى يعلم الله انه ليس فى قلوبنا هوادة للمشركين هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت وأخذ منهم الفداء فلما كان من الغد قال عمر فغدوت الى النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وهما يبكيان فقلت يارسول الله ما يبكيك أنت وصاحبك فان وجدت بكاء بكيت وان لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما قال النبى صلى الله عليه وسلم للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة شجرة قريبة من النبى صلى الله عليه وسلم وأنزل الله عز وجل ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الارض الى قوله فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا فأحل لهم الغنائم فلما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون وفر أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه وسال الدم على وجهه فأنزل الله أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم ان الله على كل شئ قدير بأخذكم الفداء ورواه مسلم وأبو داود والترمذى وابن جرير وابن مردويه من طريق عن عكرمة بن عمار به وصححه على بن المدينى والترمذى وقالا لا يعرف الا من حديث عكرمة بن عمار اليمانى وهكذا روى على بن أبى طلحة والعوفى عن ابن عباس ان هذه الآية الكريمة قوله اذ تستغيثون ربكم فى دعاء النبى صلى الله عليه وسلم وكذا قال يزيد بن تبيع والسدى وابن جريج وقال أبو بكر بن عياش عن ابى حصين عن ابى صالح قال لما كان يوم بدر جعل النبى صلى الله عليه وسلم يناشد ربه أشد المناشدة يدعو فأتاه عمر بن الخطاب فقال يارسول الله بعض مناشدتك فوالله ليفين الله لك بما وعدك قال البخارى فى كتاب المغازى باب قول الله تعالى اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم الى قوله فان الله شديد العقاب حدثنا أبو نعيم حدثنا اسرائيل عن مخارق عن طارق بن شهاب قال سمعت ابن مسعود يقول شهدت من المقداد بن الاسود مشهدا لأن أكون صاحبه أحب الى مما عدل به أتى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يدعو على المشركين فقال لا نقول كما قال قوم موسى اذهب أنت وربك فقاتلا ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم أشرق وجهه وسره يعنى قوله حدثنى محمد بن عبد الله بن حوشب حدثنا عبد الوهاب حدثنا خالد الحذاء عن عكرمة عن ابن عباس قال قال النبى صلى الله عليه وسلم يوم بدر اللهم أنشدك عهدك ووعدك اللهم ان شئت لم تعبد فأخذ أبو بكر بيده فقال حسبك فخرج وهو يقول سيهزم الجمع ويولون الدبر ورواه النسائى عن بندار عن عبد الوهاب عن عبد المجيد

أنزله متلبسا بعلم الله (وأن لا اله الا هو) أى واعلموا ان الله هو المتفرد بالالوهية لا شريك له ولا يقدر غيره على ما يقدر عليه ثم ختم الآية بقوله (فهل أنتم مسلمون) أى ثابتون على الاسلام راسخون فيه مخلصون له اذا تحقق عندكم اعجازه عن مجاهد قال الخطاب لأصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم أى هل أنتم مزدادون من الطاعات لأنه قد حصل لكم بعجز الكفار عن الاتيان بمثل عشر سور من هذا الكتاب طمأنينة فوق ما كنتم عليه وبصيرة زائدة وان كنتم مسلمين من قبل هذا فان الثبوت عليه وزيادة البصيرة فيه والطمأنينة به مطلوب منكم وقيل المعنى فان لم يستجب لكم من دعوتموهم للمعاضدة والمناصرة على الاتيان بعشر سور من سائر الكفار ومن تعبدونهم وتزعمون انهم يضرون وينفعون فاعلموا ان هذا القرآن الذى أنزله الله على هذا الرسول خارج عن قدرة غيره سبحانه وتعالى لما اشتمل عليه من الاعجاز الذى يتقاصر دونه قوة المخلوقين وانه أنزل بعلم الله الذى لا تحيط به العقول ولا تبلغه الافهام واعلموا انه المنفرد بالالوهية لا شريك له فهل أنتم بعد هذا مسلمون أى داخلون فى الاسلام متبعون لأحكامه مقتدون بشرائعه بعد قيام الحجة القاطعة وفى مثل هذا الاستفهام ايجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر وهذا الوجه أقوى من الوجه الاول من جهة وأضعف منه من جهة فأما جهة قوته فلاتساق الضمائر وتناسبها وعدم احتياج بعضها

الى

وقوله تعالى بألف من الملائكة مردفين أي يردف بعضهم بعضا كما قال هرون بن هبيرة عن ابن عباس مردفين متتابعين ويحتمل أن المراد مردفين لكم أي نجدة لكم كما قال العوفي عن ابن عباس مردفين يقول المدد كما تقول أنت للرجل زده كذا وكذا وهكذا قال مجاهد وابن كثير القارى وابن زيد مردفين ممدين وقال أبو كدينة عن قابوس عن أبيه عن ابن عباس يمددكم ربكم بألف من الملائكة مردفين قال وراء كل ملك ملك وفي رواية بهذا الاسناد مردفين قال بعضهم على اثر بعض وكذا قال أبو ظبيان والضحاك وقتادة وقال ابن جرير حدثني المثنى حدثنا اسحق حدثنا يعقوب بن محمد الزهري حدثني عبد العزيز بن عمران عن الربعي عن أبي الحويرث عن محمد بن جبير عن علي رضي الله عنه قال نزل جبريل في ألف من الملائكة عن ميمنة النبي صلى الله عليه وسلم وفيها أبو بكر ونزل ميكائيل في ألف من الملائكة عن ميسرة النبي صلى الله عليه وسلم وأنا في الميسرة وهذا يقتضي أن صح اسناده ان الالف مردفة بمثلها ولهذا قرأ بعضهم مردفين بفتح الدال والله أعلم والمشهور ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال وامد الله نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بألف من الملائكة فكان جبريل في خمسمائة من الملائكة مجنبة وميكائيل في خمسمائة مجنبة وروى الامام أبو جعفر بن جرير ومسلم من حديث عكرمة بن عمار عن ابى زميل سماك بن وليد الحنفي عن ابن عباس عن عمر الحديث المتقدم ثم قال أبو زميل حدثني ابن عباس قال بينا رجل من المسلمين يشتد في اثر رجل من المشركين أمامه اذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول اقدم حيزوم اذ نظر الى المشرك أمامه خر مستلقيا قال فنظر اليه فاذا هو قد حطم وشق وجهه كضربة السوط فاحضر ذلك أجمع فجاء الانصاري فحدث ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين وقال البخاري باب شهود الملائكة بدرا حدثنا اسحق بن ابراهيم حدثنا جرير عن يحيى بن سعيد عن معاذ بن رفاعة ابن رافع الزرقي عن أبيه وكان أبوه من أهل بدر قال جاء جبريل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما تعدون أهل بدر فيكم قال من أفضل المسلمين أو كلمة نحوها قال وكذلك من شهد بدرا من الملائكة انفرد باخراجه البخاري وقد رواه الطبراني في المعجم الكبير من حديث رافع بن خديج وهو خطأ والصواب رواية البخاري والله أعلم وفي الصحيحين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمر لما شاوره في قتل حاطب بن أبي بلتعة انه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم وقوله تعالى وما جعله الله الا بشرى الآية أي وما جعل الله بعث الملائكة واعلامه اياكم بهم الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم والا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم ولتطمئن به قلوبكم وما النصر الا من عند الله اي بدون ذلك ولهذا قال وما النصر الا من عند الله كما قال تعالى فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم وقال تعالى وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين فهذه حكم شرع الله جهاد الكفار بأيدي المؤمنين لاجلها وقد كان تعالى انما يعاقب الامم السالفة المكذبة

الى تأويل وأما ضعفه فلما في ترتيب الامر بالعلم على عدم الاستجابة ممن دعوهم واستعانوا بهم من الخفاء واحتياجه الى تكلف وهو أن يقال ان عدم استجابة من دعوهم واستعانوا بهم من الكفار والآلهة مع حرصهم على نصرهم ومعاضدتهم ومبالغتهم في عدم ايمانهم واستمرارهم على الكفر يفيد حصول العلم لهؤلاء الكفار بان هذا القرآن من عند الله وان الله سبحانه هو الاله وحده لا شريك له وذلك يوجب دخولهم في الاسلام واعلم انه قد اختلف التحدي للكفار بمعارضة القرآن فتارة وقع بمجموع القرآن كقوله لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله وبعشر سور كما في هذه الآية وذلك لان العشرة أول عقد من العقود وبسورة منه كما تقدم في البقرة ويونس وذلك لان السورة أقل طائفة منه ثم ان الله سبحانه توعد من كان مقصور الهمة على الدنيا لا يطلب غيرها ولا يريد سواها فقال (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها) واختلف أهل التفسير في هذه الآية فقال الضحاك نزلت في الكفار وأهل الشرك واختاره النحاس بدليل الآية التي بعدها أولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار وقال أنس نزلت في اليهود والنصارى وعن الحسن مثله وقيل نزلت في المنافقين وقيل الآية واردة في الناس على العموم كافرهم ومسلمهم والحمل على العموم أولى والمعنى ان من كان يريد بعمله حظ الدنيا يكافأ بذلك وليس المراد مجرد الارادة والمراد بزينتها ما يزينها ويحسنها من الصحة والامن والسعة في

للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمم المكذبة كما أهلك قوم نوح بالطوفان وعاد الأولى بالدبور وثمود بالصيحة وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل وقوم شعيب بيوم الظلة فلما بعث الله تعالى موسى وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق في اليم ثم أنزل على موسى التوراة شرع فيها قتال الكفار واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك كما قال تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر وقتل المؤمنين للكافرين أشد إهانة للكافرين وأشفى لصدور المؤمنين كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ولهذا كان قتل صناديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان كقتل أبي جهل في معركة القتال وحومة الوغى أشد إهانة له من موته على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك كما مات أبو لهب لعنه الله بالعدسة بحيث لم يقربه أحد من أقاربه وإنما غسلوه بالماء قذفا من بعيد ورجموه حتى دفنوه ولهذا قال تعالى إن الله عزيز أي له العزة ولرسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة كقوله تعالى إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد حكيم فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته سبحانه وتعالى (٢٩٦) (إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار) يذكرهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم أمانا أمنهم به من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم وكذلك فعل تعالى بهم يوم أحد كما قال تعالى ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم الآية قال أبو طلحة كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد ولقد سقط السيف من يدي مرارا يسقط وآخذه ويسقط وآخذه ولقد نظرت إليهم يميدون وهم تحت الحجف وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا زهير حدثنا ابن مهدي عن شعبة عن أبي إسحق عن حارثة بن مضرب عن علي رضي الله عنه قال ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح وقال سفيان الثوري عن عاصم عن أبي رزين عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال النعاس في القتال أمنة من الله وفي الصلاة من الشيطان وقال قتادة النعاس في الرأس والنوم في القلب قلت أما النعاس فقد أصابهم يوم أحد وأمر ذلك مشهور جدا وأما يوم بدر فهذه الآية الشريفة إنما هي في سياق قصة بدر وهي دالة على وقوع ذلك أيضا وكأن ذلك كائن للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمته عليهم وكما قال تعالى فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق رضي الله عنه وهما يدعوان أخذت رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة من النوم ثم استيقظ متبسما فقال أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثناياه النقع ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالى سيهزم الجمع ويولون

الرزق وارتفاع الحظ ونفاذ القول وكثرة الأولاد والرياسة ونحو ذلك وإدخال كان في الآية يفيد أنهم مستمرون على إرادة الدنيا بأعمالهم لا يكادون يريدون الآخرة ولهذا قيل إنهم مع إعطائهم حظوظ الدنيا يعذبون في الآخرة لأنهم جردوا قصدهم إلى الدنيا ولم يعملوا للآخرة وظاهر قوله (نوف إليهم أعمالهم فيها) أن من أراد بعمله الدنيا حصل له الجزاء الدنيوي لا محالة ولكن الواقع في الخارج يخالف ذلك فليس كل متمن ينال من الدنيا أمنيته وإن عمل لها وأرادها فلا بد من تقييد ذلك بمشيئة الله سبحانه عن ابن عباس قال يعني من عمل صالحا التماس الدنيا صوما أو صلاة أو تهجدا بالليل لا يعمله إلا لذلك قال القرطبي ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة وكذلك الآية التي في الشورى من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها كذلك ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها وقيدتها وفسرتها التي في سبحان من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد (وهم فيها لا يبخسون) أي وهؤلاء المريدون بأعمالهم الدنيا هم في الدنيا لا ينقصون من جزائهم فيها بحسب أعمالهم لها وذلك في الغالب وليس بمطرد بل إن قضت به مشيئته سبحانه ورجحته حكمته البالغة وقال القاضي معنى الآية من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم وافية كاملة من غير بخس في الدنيا وهو ما ينالون من الصحة والكفاف وسائر اللذات والطيبات والمنافع فخص الجزاء بمثل ما ذكره وهو حاصل لكل عامل للدنيا

الدبر وقوله وينزل عليكم من السماء ماء قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال نزل النبي صلى الله عليه وسلم حين سار الى بدر والمشركون بينهم وبين الماء رملة دعصة وأصاب المسلمين ضعف شديد وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ يوسوس بينهم تزعمون انكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون مجنبين فأمطر الله عليهم مطرا شديدا فشرب المسلمون وتطهروا وأذهب الله عنهم رجز الشيطان وثبت الرمل حين أصابه المطر ومشى الناس عليه والدواب فساروا الى القوم وأمد الله نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بألف من الملائكة فكان جبريل في خمسمائة مجنبة وميكائيل في خمسمائة مجنبة وكذا قال العوفي عن ابن عباس ان المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير ولقاتلوا عنها نزلوا على الماء يوم بدر فغلبوا المؤمنين عليه فأصاب المؤمنين الظمأ فجعلوا يصلون مجنبين محدثين حتى تعاطوا ذلك في صدورهم فأنزل الله من السماء ماء حتى سال الوادي فشرب المؤمنون وملؤا الاسقية وسقوا الركاب واغتسلوا من الجنابة فجعل الله في ذلك طهورا وثبت الاقدام وذلك انه كانت بينهم وبين القوم رملة فبعث الله المطر عليها فضربها حتى اشتدت وثبتت عليها الاقدام ونحو ذلك وروى عن قتادة والضحاك والسدي وقد روى عن سعيد بن المسيب والشعبي والزهري وعبد الرحمن بن زيد بن (٢٩٧) أسلم أنه طش أصابهم يوم بدر والمعروف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سار الى بدر نزل على أدنى ماء هناك أي أول ماء وجده فتقدم اليه الحباب بن المنذر فقال يارسول الله هذا المنزل الذي نزلته منزل أنزلك الله اياه فليس لنا أن نجاوزه أو منزل نزلته للحرب والمكيدة فقال بل منزل نزلته للحرب والمكيدة فقال يارسول الله ان هذا ليس بمنزل ولكن سر بنا حتى ننزل على أدنى ماء يلي القوم ونغور ما وراءه من القلب ونستقي الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعل كذلك وفي مغازي الاموي ان الحباب لما قال ذلك نزل ملك من السماء وجبريل

جالس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ذلك الملك يا محمد ان ربك يقرئك السلام ويقول لك ان الرأي ما أشار به الحباب بن المنذر فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جبريل عليه السلام فقال هل تعرف هذا فنظر اليه فقال ما كل الملائكة أعرفهم وانه ملك وليس بشيطان وأحسن ما في هذا ما رواه الامام محمد بن اسحق بن يسار صاحب المغازي رحمه الله حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير قال بعث الله السماء وكان الوادي دهسا فأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما لبد لهم الارض ولم يمنعهم من المسير فأصاب قريشا ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه وقال مجاهد أنزل الله عليهم المطر قبل النعاس فأطفأ بالمطر الغبار وتلبدت به الارض وطابت نفوسهم وثبتت به أقدامهم وقال ابن جرير حدثنا هرون بن اسحق حدثنا مصعب بن المقدام حدثنا اسرائيل حدثنا أبو اسحق عن حارثة عن علي رضي الله عنه قال أصابنا من الليل طش من المطر يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر فانطلقنا تحت الشجر والحجف نستظل تحتها من المطر وبات رسول الله صلى الله عليه وسلم وحرض على القتال وقوله ليطهركم به أي من حدث أصغر أو أكبر وهو تطهير الظاهر ويذهب عنكم رجز الشيطان أي من وسوسة أو خاطر سيئ وهو تطهير الباطن كما قال تعالى في حق أهل الجنة عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة فهذا زينة الظاهر وسقاهم ربهم

ولو كان قليلا يسيرا اه وانما عبر عن عدم نقص أعمالهم بنفي البخس الذي هو نقص الحق مع انه ليس لهم شائبة حق فيما أوتوه كما عبر عن اعطائه بالتوفية التي هي اعطاء الحقوق مع ان أعمالهم بمعزل عن كونها مستوجبة لذلك بناء للامر على ظاهر الحال ومحافظة على صور الاعمال ومبالغة في نفي النقص كأن ذلك نقص لحقوقهم فلا يدخل تحت الوقوع والصدور عن الكريم أصلا (أولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار) الاشارة الى المريدين المذكورين ولا بد من تقييد هذا بأنهم لم يريدوا الآخرة بشيء من الاعمال المعتد بها الموجبة للجزاء الحسن في الدار الآخرة أو تكون الآية خاصة بالكفار كما تقدم (وحبط ما صنعوا فيها) أي ظهر في الدار الآخرة حبوط ما صنعوه من الاعمال التي كانت صورتها صورة الطاعات الموجبة للجزاء الاخروي لولا انهم أفسدوها بفساد مقاصدهم وعدم الخلوص وارادة ما عند الله في دار الجزاء بل قصروا ذلك على الدنيا وزينتها ثم حكم سبحانه ببطلان عملهم فقال (وباطل ما كانوا يعملون) أي انه كان عملهم في نفسه باطلا غير معتد به لانه لم يعمل لوجه صحيح يوجب الجزاء ويترتب عليه ما يترتب على العمل الصحيح عن مجاهد قال هم أهل الرياء وهذا مشكل لان قوله أولئك الذين الآية لا يليق بحال المؤمن الا اذا قلنا ان تلك الاعمال الفاسدة والافعال الباطلة لما كانت لغير الله استحق فاعلها الوعيد الشديد وهو عذاب النار ويدل له ما روى عن ابن عمر قال قال رسول الله

شرابا طهورا أى مطهرا لما كان من غل أو حسد أو تباغض وهو زينة الباطن وطهارته وليربط على قلوبكم أى بالصبر والاقدام على مجالدة الاعداء وهو شجاعة الباطن ويثبت به الاقدام وهو شجاعة الظاهر والله أعلم وقوله اذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم ليشكروه عليها وهو أنه تعالى وتقدس وتبارك وتمجد أوحى الى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين يوحى اليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا قال ابن اسحق وازروهم وقال غيره قاتلوا معهم وقيل كثروا سوادهم وقيل كان ذلك بأن الملك كان يأتى الرجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فيقول سمعت هؤلاء القوم يعنى المشركين يقولون والله لئن حملوا علينا لننكشفن فيحدث المسلمون بعضهم بعضا بذلك فتقوى أنفسهم حكاه ابن جرير وهذا لفظه بحروفه وقوله سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب أى ثبتوا أنتم المؤمنين وقووا أنفسهم عن أعدائهم عن أمرى لكم بذلك سألقى الرعب والذلة والصغار على من خالف أمرى وكذب رسولى فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان أى اضربوا الهام ففلقوها واضربوا الرقاب فقطعوها وقطعوا الاطراف منهم وهى أيديهم وأرجلهم وقد اختلف المفسرون فى معنى فوق الاعناق فقيل معناه اضربوا الرؤس قاله عكرمة وقيل معناه أى على الاعناق وهى الرقاب قاله الضحاك وعطية العوفى ويشهد لهذا المعنى ان الله تعالى أرشد المؤمنين الى هذا فى قوله تعالى فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق وقال وكيع عن المسعودى عن القاسم قال قال النبى صلى الله عليه وسلم انى لم أبعث لأعذب بعذاب الله انما بعثت بضرب الرقاب وشد الوثاق واختار ابن جرير انها قد تدل على ضرب الرقاب وفلق الهام قلت وفى مغازى الاموى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل يمر بين القتلى يوم بدر فيقول نفلق هاما فيقول أبو بكر من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما فيبتدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأول البيت ويستطعم أبا بكر رضى الله عنه انشاد آخره لانه كان لا يحسن انشاد الشعر كما قال تعالى وما علمناه الشعر وما ينبغى له وقال الربيع بن أنس كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب فوق الاعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به وقوله واضربوا منهم كل بنان قال ابن جرير معناه واضربوا من عدوكم أيها المؤمنون كل طرف ومفصل من أطراف أيديهم وأرجلهم والبنان جمع بنانة كما قال الشاعر

ألا ليتنى قطعت منى بنانة * ولاقيته فى البيت يقظان حاذرا

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس واضربوا منهم كل بنان يعنى البنان الاطراف وكذا قال الضحاك وابن جرير وقال السدى البنان الاطراف ويقال كل مفصل وقال عكرمة وعطية العوفى والضحاك فى رواية أخرى كل مفصل وقال الاوزاعى فى قوله تعالى واضربوا منهم كل بنان قال اضرب منه الوجه والعين وارمه بشهاب من نار فاذا أخذته حرم ذلك كله عليك وقال العوفى عن ابن عباس فذكر قصة بدر الى أن قال فقال أبو جهل لا تقتلوهم قتلا ولكن خذوهم أخذا حتى تعرفوهم الذى صنعوا من طعنهم فى دينكم ورغبتهم عن اللات والعزى فأوحى الله الى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين

صلى الله عليه وآله وسلم من تعلم علما لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار أخرجه الترمذى وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول قال الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه أخرجه مسلم وفى الباب أحاديث بمعناه والرياء هو الشرك الاصغر كما ورد فى الحديث وهذا أحد الاقوال والذى تقتضيه جزالة النظم الكريم ان المراد به مطلق الكفرة بحيث يندرج فيهم القادحون فى القرآن العظيم اندراجا أوليا فانه عز وعلا لما أمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين بان يزدادوا علما ويقينا بان القرآن منزل بعلم الله وبان لا قدرة لغيره على شئ أصلا وهيجهم على الثبات على الاسلام والرسوخ فيه عند ظهور عجز الكفرة وما يدعون من دون الله عن المعارضة وتبين انهم ليسوا على شئ أصلا اقتضى الحال ان يتعرض لبعض شؤنهم الموهمة لكونهم على شئ فى الجملة من نيلهم الحظوظ العاجلة واستيلائهم على المطالب الدنيوية وبيان ان ذلك بمعزل عن الدلالة عليه ولقد بين ذلك أى بيان ثم بين سبحانه ان بين من كان طالبا للدنيا فقط ومن كان طالبا للآخرة تفاوتا عظيما وتباينا بعيدا فقال (أفمن كان على بينة) برهان يدل على الحق (من ربه) فى اتباع النبى صلى الله عليه وآله وسلم والايمان بالله كغيره ممن يريد الحياة الدنيا وزينتها وقيل المراد به النبى صلى الله عليه وآله وسلم أى أفمن كان معه بيان من الله ومعجزة كالقرآن

كفروا الرعب فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان الآية فقتل أبو جهل لعنه الله في تسعة وستين رجلا وأسر عقبة بن أبي معيط فقتل صبرا فوفى ذلك سبعين يعني قتيلا ولهذا قال تعالى ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله أي خالفوهما فساروا في شق وتركوا الشرع والايمان به واتباعه في شق ومأخوذ أيضا من شق العصا وهو جعلها فرقتين ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب أي هو الطالب الغالب لمن خالفه وناواه ولا يفوته شيء ولا يقوم لغضبه شيء تبارك وتعالى لا اله غيره ولا رب سواه ذلكم فذوقوه وان للكافرين عذاب النار هذا خطاب للكفار أي ذوقوا هذا العذاب والنكال في الدنيا واعلموا أيضا ان للكافرين عذاب النار في الآخرة (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) يقول تعالى متوعدا على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا أي تقاربتم منهم ودنوتم منهم فلا تولوهم الادبار أي تفروا وتتركوا أصحابكم ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أي يفر بين يدي قرنه مكيدة ليريه انه قد خاف منه فيتبعه ثم يكر عليه فيقتله فلا بأس عليه في ذلك نص عليه سعيد بن جبير والسدي وقال الضحاك أن يتقدم عن أصحابه (٢٩٩) ليرى غرة من العدو فيصيبها أو متحيزا الى فئة أي فر من ههنا الى فئة أخرى من المسلمين يعاونهم ويعاونونه فيجوز له ذلك حتى لو كان في سرية ففر الى أميره أو الى الامام الاعظم دخل في هذه الرخصة قال الامام أحمد حدثنا حسن حدثنا زهير حدثنا يزيد بن أبي زياد عن عبد الرحمن ابن أبي ليلى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال كنت في سرية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم فحاص الناس حيصة فكنت فيمن حاص فقلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ثم قلنا لو دخلنا المدينة فبتنا ثم قلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فان كانت لنا توبة والا ذهبنا فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال من القوم فقلنا نحن الفرارون فقال لا بل أنتم العكارون انا فئتكم وأنا فئة المسلمين قال فأتيناه حتى قبلنا يده وهكذا رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من طرق عن يزيد بن أبي زياد وقال الترمذي حسن لا نعرفه الا من حديث ابن أبي زياد ورواه ابن أبي حاتم من حديث يزيد بن أبي زياد به وزاد في آخره وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية أو متحيزا الى فئة قال أهل العلم معنى قوله العكارون أي العطافون وكذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن أبي عبيد لما قتل على الجسر بأرض فارس لكثرة الجيش من ناحية المجوس فقال عمر لو تحيز الي لكنت له فئة هكذا رواه محمد بن سيرين عنه وفي رواية أبي عثمان النهدي عن عمر قال لما قتل أبو عبيد قال عمر أيها الناس أنا فئتكم وقال مجاهد قال عمر أنا فئة كل مسلم وقال عبد الملك بن عمير عن عمر أيها الناس لا تغرنكم هذه الآية فانما كانت يوم بدر وأنا فئة لكل مسلم وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا حسان ابن عبد الله المصري حدثنا خلاد بن سليمان الحضرمي حدثنا نافع أنه سأل ابن عمر قلت انا قوم لا نثبت عند قتال عدونا ولا ندري من الفئة امامنا أو عسكرنا فقال ان الفئة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت ان الله يقول اذا لقيتم الذين كفروا زحفا الآية فقال انما أنزلت هذه الآية في يوم بدر لا قبلها ولا بعدها وقال الضحاك في قوله أو متحيزا الى فئة المتحيز الفار الى النبي وأصحابه وكذلك من فر اليوم الى أميره أو أصحابه فأما ان كان الفرار لا عن سبب من هذه الاسباب فانه حرام وكبيرة من الكبائر لما رواه البخاري ومسلم في الصحيحين

كالقرآن ومعه شاهد كجبريل وقد بشرت به الكتب السابقة كمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها والضمير في (ويتلوه شاهد) راجع الى البينة باعتبار تأويلها بالبرهان أي يؤيده ويشدده ويقويه والضمير في (منه) راجع الى القرآن لانه تقدم ذكره في قوله أم يقولون افتراه أو راجع الى الله تعالى والمعنى ويتلو البرهان الذي هو البينة شاهد يشهد بصحته من القرآن أو من الله سبحانه والشاهد هو الاعجاز الكائن في القرآن أو المعجزات التي ظهرت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فان ذلك من الشواهد التابعة للقرآن وقال الفراء قال بعضهم ويتلوه شاهد منه الانجيل وان كان قبله فهو يتلو القرآن في التصديق والهاء في منه لله عز وجل وقيل المراد بمن كان على بينة من ربه هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه وعن علي بن أبي طالب قال ما من رجل من قريش الا نزل فيه طائفة من القرآن فقال له رجل ما نزل فيك قال أما تقرأ سورة هود أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بينة من ربه وأنا شاهد منه أخرجه أبو نعيم وابن أبي حاتم وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويتلوه شاهد منه علي أخرجه ابن عساكر وعنه وددت اني أناه ولكنه لسان محمد وعن ابن عباس ان الشاهد جبريل ووافقه سعيد بن جبير وعلقمة وابراهيم ومجاهد والضحاك وأكثر المفسرين وقال الحسن وقتادة هو لسان النبي صلى الله عليه وآله وسلم ووجه ذلك

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتنبوا السبع الموبقات قيل يا رسول الله وما هن قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله الا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات وله شواهد من وجوه أخر ولهذا قال تعالى فقد باء أي رجع بغضب من الله ومأواه أي مصيره ومنقلبه يوم ميعاده ومأواه جهنم وبئس المصير قال الامام أحمد حدثنا زكريا بن عدي حدثنا عبيد الله بن عمرو الرقي عن زيد بن أبي أنيسة حدثنا جبلة بن سحيم عن أبي المثنى العبدي سمعت السدوسي يعني ابن الخصاصية وهو بشير بن معبد قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم لأبايعه فاشترط علي شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأن أقيم الصلاة وأن أؤدي الزكاة وأن أحج حجة الاسلام وأن أصوم شهر رمضان وأن أجاهد في سبيل الله فقلت يا رسول الله أما اثنتان فوالله لا أطيقهما الجهاد فانهم زعموا أنه من ولى الدبر فقد باء بغضب من الله فأخاف ان حضرت ذلك خشعت نفسي وكرهت الموت والصدقة فوالله مالي الا الغنيمة وعشر ذود هن رسل أهلي وحمولتهم فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم يده ثم حرك يده ثم قال فلا جهاد ولا صدقة فبم تدخل الجنة اذن قلت يا رسول الله انا أبايعك فبايعته عليهن كلهن هذا (٣٠٠) حديث غريب من هذا الوجه ولم يخرجوه في الكتب الستة وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة حدثنا اسحق ابن ابراهيم أبو النضر حدثنا يزيد ابن ربيعة حدثنا أبو الاشعث عن ثوبان مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ثلاثة لا ينفع معهن عمل الشرك بالله وعقوق الوالدين والفرار من الزحف وهذا أيضا حديث غريب جدا وقال الطبراني أيضا حدثنا العباس بن الفضل الاسفاطي حدثنا موسى بن اسمعيل حدثنا حفص بن عمر الشني حدثني عمرو بن مرة قال سمعت بلال بن يسار بن زيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سمعت أبي يحدث عن جدي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال أستغفر الله الذي لا اله الا هو وأتوب اليه غفر له وان كان قد فر من الزحف وهكذا رواه أبو داود عن موسى بن اسمعيل به والترمذي وقال غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه قلت ولا يعرف لزيد مولى النبي صلى الله عليه وسلم عنه سواه وقد ذهب ذاهبون الى ان الفرار انما كان حراما على الصحابة لانه كان فرض عين عليهم وقيل على الانصار خاصة لانهم بايعوا على السمع والطاعة في المنشط والمكره وقيل المراد بهذه الآية أهل بدر خاصة يروى هذا عن عمر وابن عمر وابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد وأبي نضرة ونافع مولى ابن عمر وسعيد بن جبير والحسن البصري وعكرمة وقتادة والضحاك وغيرهم وحجتهم في هذا انه لم تكن عصابة لها شوكة يفيئون اليها الا عصابتهم تلك كما قال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد في الارض ولهذا قال عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن في قوله ومن يولهم يومئذ دبره قال ذلك يوم بدر فأما اليوم فان انحاز الى فئة أو مصر أحسبه قال فلا بأس عليه وقال ابن المبارك أيضا عن ابن لهيعة حدثني يزيد بن أبي حبيب قال أوجب الله تعالى لمن فر يوم بدر النار قال ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله فلما كان يوم أحد بعد ذلك قال ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان الى قوله ولقد عفا الله عنهم ثم كان يوم حنين بعد ذلك بسبع سنين قال ثم وليتم مدبرين ثم

ان اللسان لما كان يعرب عما في الجنان ويظهره جعل كالشاهد له لانه آية الفضل والبيان وبه يتلى القرآن وقال مجاهد الشاهد هو ملك يحفظ النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويسدده والاول أولى (ومن قبله) أي القرآن (كتاب موسى) عطف على شاهد والتقدير ويتلوه الشاهد وشاهد آخر وهو كتاب موسى فهو وان كان متقدما في النزول فهو يتلو الشاهد في الشهادة وانما قدم الشاهد على كتاب موسى مع كونه متأخرا في الوجود لكونه وصفا لازما غير مفارق فكان أعرق في الوصفية من كتاب موسى ومعنى شهادة كتاب موسى وهو التوراة انه بشر بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وأخبر بأنه رسول من الله قال الزجاج والمعنى ويتلوه من قبله كتاب موسى لان النبي صلى الله عليه وآله وسلم موصوف في كتاب موسى يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل وقرئ كتاب موسى بالنصب أي يتلو كتاب موسى جبريل (اماما ورحمة) الامام هو الذي يؤتم به في أمور الدين ويقتدى به في الاحكام والشرائع والرحمة النعمة العظيمة التي أنعم الله بها على من أنزله عليهم وعلى من بعدهم الى يوم القيامة باعتبار ما اشتمل عليه من الاحكام الشرعية الموافقة لحكم القرآن (أولئك) أي المتصفون بتلك الصفة الفاضلة وهو الكون على البينة من الله (يؤمنون به) أي يصدقون بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم أو بالقرآن (ومن يكفر به) أي بالنبي أو بالقرآن (من الاحزاب) وهم المتحزبون على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أهل

يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء وفي سنن أبي داود والنسائي ومستدرك الحاكم وتفسير ابن جرير وابن مردويه من حديث داود ابن أبي هند عن أبي نضرة عن أبي سعيد أنه قال في هذه الآية ومن يولهم يومئذ دبره إنما أنزلت في أهل بدر وهذا كله لا ينفي أن يكون الفرار من الزحف حراما على غيرهم وإن كان سبب نزول الآية فيهم كما دل عليه حديث أبي هريرة المتقدم من أن الفرار من الزحف من الموبقات كما هو مذهب الجماهير والله أعلم (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين) يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد وأنه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير لأنه هو الذي وفقهم له وأعانهم عليه ولهذا قال فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم أي ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم أي بل هو الذي أظفركم عليهم كما قال ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة الآية وقال تعالى لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين يعلم تبارك وتعالى أن النصر ليس على كثرة العدد ولا بلبس اللأمة والعدد وإنما النصر من عنده تعالى كقوله تعالى كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين

ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أيضا في شأن القبضة من التراب التي حصب بها وجوه الكافرين يوم بدر حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكانته فرماهم بها وقال شاهت الوجوه ثم أمر أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها ففعلوا فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله ولهذا قال تعالى وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى أي هو الذي بلغ ذلك إليهم وكبتهم بها لا أنت قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه يعني يوم بدر فقال يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبدا فقال له جبريل خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين وقال السدي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه يوم بدر أعطني حصباء من الأرض فناوله حصباء عليه تراب فرمى به في وجوه القوم فلم يبق مشرك إلا دخل في عينيه من ذلك التراب شيء ثم ردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم وأنزل الله فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وقال أبو معشر المدني عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظي قالا لما دنا القوم بعضهم من بعض أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من تراب فرمى بها في وجوه القوم وقال شاهت الوجوه فدخلت في أعينهم كلهم وأقبل أصحاب رسول الله يقتلونهم ويأسرونهم وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى قال هذا يوم بدر أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث حصيات فرمى بحصاة ميمنة القوم وحصاة في ميسرة القوم وحصاة بين أظهرهم وقال شاهت الوجوه فانهزموا وقد روي في هذه القصة عن عروة ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد من الأئمة أنها نزلت في رمية النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر وإن كان قد فعل ذلك يوم حنين أيضا وقال أبو جعفر بن جرير حدثنا أحمد بن منصور

أهل مكة وغيرهم أو المتحزبون من أهل الأديان كلها كما قال قتادة الكفار أحزاب كلهم على الكفر (فالنار موعده) أي هو من أهل النار لا محالة وفي جعل النار موعدا إشعار بأن فيها ما لا يحيط بها الوصف من أفانين العذاب عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة لا يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار أخرجه البغوي بسنده قال سعيد بن جبير ما بلغني حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على وجهه إلا وجدت مصداقه في كتاب الله حتى بلغني هذا الحديث فقلت أين هذا في كتاب الله حتى أتيت على هذه الآية (فلا تك في مرية منه) أي في شك من كون القرآن نازلا من عند الله وفيه تعريض بغيره صلى الله عليه وآله وسلم لأنه معصوم عن الشك في القرآن أو في شك من الموعد والمرية بالكسر والضم والأولى لغة الحجاز وبها قرأ جماهير الناس والثانية لغة أسد وتميم وبها قرأ السلمي وغيره (إنه الحق من ربك) فلا مدخل للشك فيه بحال من الأحوال (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) بذلك مع وجوب الإيمان به وظهور الدلائل الموجبة له ولكنهم يعاندون مع علمهم بكونه حقا أو قد طبع على قلوبهم فلا يفهمون أنه الحق أصلا (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) أي لا أحد أظلم منهم لأنفسهم لأنهم افتروا على الله سبحانه كذبا بقولهم لأصنامهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله وقولهم الملائكة بنات الله وأضافوا كلامه

حدثنا يعقوب بن محمد حدثنا عبد العزيز بن عمران حدثنا موسى بن يعقوب بن عبد الله بن زمعة عن يزيد بن عبد الله عن أبي بكر بن سليمان بن أبي حثمة عن حكيم بن حزام قال لما كان يوم بدر سمعنا صوتا وقع من السماء كأنه صوت حصاة وقعت في طست ورمى رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الرمية فانهزمنا غريب من هذا الوجه وههنا قولان آخران غريبان جدا أحدهما قال ابن جرير حدثني محمد بن عوف الطائي حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان بن عمرو حدثنا عبد الرحمن بن جبير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم ابن أبي الحقيق بخيبر دعا بقوس فأتي بقوس طويلة وقال جيئوني بقوس غيرها فجاؤه بقوس كبير فرمى النبي صلى الله عليه وسلم الحصن فأقبل السهم يهوي حتى قتل ابن أبي الحقيق وهو في فراشه فأنزل الله عز وجل وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى وهذا غريب واسناده جيد الى عبد الرحمن بن جبير بن نفير ولعله اشتبه عليه أو انه أراد ان الآية تعم هذا كله والا فسياق الآية في سورة الانفال في قصة بدر لا محالة وهذا مما لا يخفى على أئمة العلم والله أعلم والثاني روى ابن جرير أيضا والحاكم في مستدركه باسناد صحيح الى سعيد بن المسيب والزهري انهما قالا أنزلت في رمية النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد أبي بن خلف بالحربة وهو في لأمته فخدشه في ترقوته فجعل يتدأدأ عن فرسه مرارا حتى كانت (٣٠٢) وفاته بعد أيام قاسى فيها العذاب الاليم موصولا بعذاب البرزخ المتصل بعذاب الآخرة وهذا القول عن هذين الامامين غريب أيضا جدا ولعلهما أرادا ان الآية تتناوله بعمومها لا انها نزلت فيه خاصة كما تقدم والله أعلم وقال محمد بن اسحق حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير في قوله وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا أي ليعرف المؤمنين من نعمته عليهم من اظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم ليعرفوا بذلك حقه فيشكروه وهكذا فسره ابن جرير أيضا وفي الحديث وكل بلاء حسن أبلانا وقوله ان الله سميع عليم أي سميع الدعاء عليم بمن يستحق النصر والغلب وقوله ذلكم وان الله موهن كيد الكافرين هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر انه أعلمهم تعالى بانه مضعف كيد الكافرين فيما يدني

يستقبل مصغر أمرهم وانهم كل ما لهم في تبار ودمار ولله الحمد والمنة (ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وان تنتهوا فهو خير لكم وان تعودوا نعد ولن تغني عنكم فئتكم شيأ ولو كثرت وان الله مع المؤمنين) يقول تعالى للكفار ان تستفتحوا أي تستنصروا وتستقضوا الله وتستحكموه ان يفصل بينكم وبين اعدائكم المؤمنين فقد جاءكم ما سألتم كما قال محمد بن اسحق وغيره عن الزهري عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير أن أبا جهل قال يوم بدر اللهم أينا كان أقطع للرحم وأتى بما لا يعرف فاحنه الغداة وكان ذلك استفتاحا منه فنزلت ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح الى آخر الآية وقال الامام أحمد حدثنا يزيد يعني ابن هرون انبأنا محمد بن اسحق حدثني الزهري عن عبد الله بن ثعلبة ان أبا جهل قال حين التقى القوم اللهم أينا كان اقطع للرحم وأتى بما لا يعرف فاحنه الغداة فكان المستفتح واخرجه النسائي في التفسير من حديث صالح بن كيسان عن الزهري به وكذا رواه الحاكم في مستدركه من طريق الزهري به وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وروى نحو هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة ويزيد بن رومان وغير واحد وقال السدي كان المشركون حين خرجوا من مكة الى بدر أخذوا باستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين وخير القبيلتين

سبحانه الى غيره واللفظ وان كان لا يقتضي الا نفي وجود من هو أظلم منهم كما يفيده الاستفهام الانكاري فالمقام يفيد نفي المساوي لهم في الظلم فالمعنى على هذا لا أحد مثلهم في الظلم فضلا عن ان يوجد من هو أظلم منهم وذكر لهم هنا من أوصافهم أربعة عشر وصفا أولها افتراء الكذب وآخرها كونهم في الآخرة أخسر من غيرهم (أولئك) أي الموصوفون بالظلم المتبالغ (يعرضون على ربهم) يوم القيامة فيحاسبهم على أعمالهم أو المراد بعرضهم عرض أعمالهم عرضا تظهر به فضيحتهم (ويقول الاشهاد) جمع شهيد ورجحه أبو علي بكثرة ورود شهيد في القرآن كقوله ويكون الرسول عليكم شهيدا فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا وقيل هو جمع شاهد كأصحاب وصاحب قال مجاهد هم الملائكة الحفظة وقيل المرسلون قاله ابن عباس وقيل الملائكة والمرسلون والعلماء الذين بلغوا ما أمرهم الله بابلاغه وقيل جميع الخلائق قاله قتادة والمعنى انه يقول هؤلاء الاشهاد عند العرض (هؤلاء) المعروضون أو المعروضة أعمالهم (الذين كذبوا على ربهم) في الدنيا بما نسبوه اليه ولم يصرحوا بما كذبوا به كأنه كان أمرا معلوما عند أهل ذلك الموقف (ألا لعنة الله على الظالمين) الذين ظلموا أنفسهم بالافتراء هذا من تمام كلام الاشهاد أي يقولون ألا لعنة الله الخ ويجوز أن يكون من كلام الله سبحانه قاله بعدما قال الاشهاد وفي الصحيحين وغيرهما عن ابن عمر سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ان الله

فقال الله ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح يقول قد نصرت ماقلتم وهو محمد صلى الله عليه وسلم وقال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم هو قوله تعالى اخبارا عنهم واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك الآية وقوله وان تنتهوا أى عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله فهو خير لكم أى فى الدنيا والآخرة وقوله تعالى وان تعودوا نعد كقوله وان عدتم عدنا معناه وان عدتم الى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة نعد لكم بمثل هذه الوقعة وقال السدى وان تعودوا أى الى الاستفتاح نعد أى الى الفتح لمحمد صلى الله عليه وسلم والنصر له وتظفيره على أعدائه والاول أقوى ولن تغنى عنكم فئتكم شيأ ولو كثرت أى ولو جمعتم من الجموع ماعسى أن تجمعوا فان من كان الله معه فلا غالب له فان الله مع المؤمنين وهم الحزب النبوى والجناب المصطفوى (ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لايعقلون ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له ولهذا قال ولا تولوا عنه أى تتركوا طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره وأنتم تسمعون أى بعد ماعلمتم مادعاكم اليه (٣٠٣) ولاتكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون قيل المراد المشركون واختاره ابن جرير وقال ابن اسحق هم المنافقون فانهم يظهرون انهم قد سمعوا واستجابوا وليسوا كذلك ثم أخبر تعالى ان هذا الضرب من بنى آدم شر الخلق والخليقة فقال ان شر الدواب عند الله الصم أى عن سماع الحق البكم عن فهمه ولهذا قال الذين لايعقلون فهؤلاء شر البرية لان كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا ولهذا شبههم بالانعام فى قوله ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لايسمع الا دعاء ونداء الآية وقال فى الآية الاخرى أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون وقيل المراد بهؤلاء المذكورين نفر من بنى عبد الدار من قريش روى عن ابن عباس ومجاهد واختاره ابن جرير وقال محمد بن اسحق هم المنافقون قلت ولا منافاة بين المشركين والمنافقين فى هذا لان كلا منهم مسلوب الفهم الصحيح والقصد الى العمل الصالح ثم أخبر تعالى بانهم لافهم لهم صحيح ولاقصد لهم صحيح لو فرض ان لهم فهما فقال ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم أى لأفهمهم وتقدير الكلام ولكن لاخير فيهم فلم يفهمهم لانه يعلم انه لو أسمعهم أى أفهمهم لتولوا عن ذلك قصدا وعنادا بعد فهمهم ذلك وهم معرضون عنه (ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه وانه اليه تحشرون) قال البخارى استجيبوا اجيبوا لما يحييكم لما يصلحكم حدثنى اسحق حدثنا روح حدثنا شعبة عن خبيب بن عبد الرحمن قال سمعت حفص بن عاصم يحدث عن أبى سعيد بن المعلى رضى الله عنه قال كنت أصلى فمر بى النبى صلى الله عليه وسلم فدعانى فلم آتيه حتى صليت ثم أتيته فقال مامنعك ان تأتينى ألم يقل الله ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم ثم قال لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن قبل ان أخرج فذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخرج فذكرت له وقال معاذ حدثنا شعبة عن خبيب بن عبد الرحمن سمع حفص بن عاصم سمع أبا سعيد رجلا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بهذا وقال الحمد لله رب العالمين هى السبع

يدنى المؤمن حتى يضع كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له أتعرف ذنب كذا أتعرف ذنب كذا فيقول رب اعرف حتى اذا قرره بذنوبه ورأى فى نفسه انه قد هلك قال فانى سترتها عليك فى الدنيا وأنا اغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته وأما الكافر والمنافق فيقول الاشهاد الى قوله الظالمين والفائدة فى قول الاشهاد بهذه المقالة المبالغة فى فضيحة الكفار والتقريع لهم على رؤس الاشهاد ثم وصف هؤلاء الظالمين الذين لعنوا بانهم (الذين يصدون عن سبيل الله) أى يمنعون من قدروا على منعه عن دين الله والدخول فيه وقال السدى عن محمد صدت قريش عنه الناس (ويبغونها عوجا) أى يصفونها بالاعوجاج تنفيرا للناس عنها أو يبغون أهلها أن يكونوا معوجين بالخروج عنها الى الكفر يقال بغيتك شرا أى طلبته لك وقال أبو مالك يعنى يرجون بمكة غير الاسلام دينا (وهم) أى والحال أنهم هم بالآخرة (كافرون) أى غير مصدقين فكيف يصدون الناس عن طريق الحق وهم على الباطل البحت وتكرير الضمير لتأكيد كفرهم واختصاصهم به حتى كان كفر غيرهم غير معتد به بالنسبة الى عظيم كفرهم (أولئك) الموصوفون بتلك الصفات (لم يكونوا معجزين فى الارض) أى ما كانوا يعجزون الله فى الدنيا أن أراد عقوبتهم وقيل معناه سابقين وقيل فائتين وقيل مفلتين أنفسهم من أخذه لو أراد ذلك فى الارض مع سعتها وان هربوا فيها كل مهرب (وما كان لهم من دون الله من أولياء) يدفعون عنهم مايريده الله سبحانه من عقوبتهم

المثاني هذا اللفظ بحروفه وقد تقدم الكلام على هذا الحديث بذكر طرقه في أول تفسير الفاتحة وقال مجاهد في قوله لما يحييكم قال الحق وقال قتادة لما يحييكم قال هو هذا القرآن فيه النجاة والتقاة والحياة وقال السدي لما يحييكم الاسلام في احيائهم بعد موتهم بالكفر وقال محمد بن اسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم أي الحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل وقواكم بها بعد الضعف ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم وقوله تعالى واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه قال ابن عباس يحول بين المؤمن وبين الكفر وبين الكافر وبين الايمان رواه الحاكم في مستدركه موقوفا وقال صحيح ولم يخرجاه ورواه ابن مردويه من وجه آخر مرفوعا ولا يصح لضعف اسناده والموقوف أصح وكذا قال مجاهد وسعيد وعكرمة والضحاك وأبو صالح وعطية ومقاتل بن حيان والسدي وفي رواية عن مجاهد في قوله يحول بين المرء وقلبه أي حتى يتركه لا يعقل وقال السدي يحول بين الانسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر الا باذنه وقال قتادة هو كقوله ونحن أقرب اليه من حبل الوريد وقد وردت الاحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يناسب هذه الآية وقال الامام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش (٣٠٤) عن أبي سفيان عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قال فقلنا يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا قال نعم ان القلوب بين اصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها وهكذا رواه الترمذي في كتاب القدر من جامعه عن هناد ابن السري عن أبي معاوية محمد بن حازم الضرير عن الاعمش واسمه سليمان بن مهران عن أبي سفيان واسمه طلحة بن نافع عن أنس ثم قال حسن وهكذا روى عن غير واحد عن الاعمش ورواه بعضهم عنه عن أبي سفيان عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم وحديث أبي سفيان عن أنس أصح (حديث آخر) قال الامام احمد في مسنده حدثنا عبد بن حميد حدثنا عبد الملك بن عمرو حدثنا شعبة عن الحكم عن ابن أبي ليلى عن بلال رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك هذا حديث جيد الاسناد الا ان فيه انقطاعا وهو مع ذلك على شرط أهل السنن ولم يخرجوه (حديث آخر) قال الامام أحمد حدثنا الوليد بن مسلم قال سمعت ابن جابر يقول حدثنا بسر بن عبد الله الحضرمي انه سمع أبا ادريس الخولاني يقول سمعت النواس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه يقول سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول ما من قلب الا وهو بين اصبعين من أصابع الرحمن رب العالمين اذا شاء أن يقيمه أقامه واذا شاء أن يزيغه أزاغه وكان يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قال والميزان بيد الرحمن يخفضه ويرفعه وهكذا رواه النسائي وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن يزيد بن جابر فذكر مثله (حديث آخر) قال الامام أحمد حدثنا يونس حدثنا حماد بن زيد عن المعلى بن زياد عن الحسن ان عائشة قالت دعوات كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو بها يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قالت فقلت يا رسول الله انك تكثر ان تدعو بهذا الدعاء فقال ان قلب الآدمي بين اصبعين من أصابع الله فاذا شاء أزاغه واذا شاء أقامه (حديث آخر) قال الامام أحمد حدثنا هاشم حدثنا عبد الحميد حدثني شهر سمعت أم سلمة تحدث ان رسول الله

وازال أسماعهم بدون زائدة (يضاعف) وقرئ يضعف بالتشديد (لهم العذاب) في الآخرة مستأنفة لبيان أن تأخير العذاب والتراخي عن تعجيله لهم ليكون عذابا مضاعفا بسبب صدهم عن سبيل الله وانكارهم البعث بعد الموت وقال السيوطي باضلالهم غيرهم قال الصاوي حاصله (١) ان المضاعفة مخصوصة بالحسنات وأما السيئات فلا تضاعف قال تعالى ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها فمعنى المضاعفة الشدة لانهم يعذبون عذابين عذابا على ضلالهم في أنفسهم وعذابا على اضلالهم غيرهم (ما كانوا يستطيعون السمع) أي افرطوا في اعراضهم عن الحق وبغضهم له حتى كأنهم لا يقدرون على السمع للحق وهذا تعليل لمضاعفة العذاب (وما كانوا يبصرون) أي ولا يقدرون على الابصار لفرط تعاميهم عن الصواب ويجوز ان يراد بقوله وما كان لهم من دون الله من أولياء انهم جعلوا آلهتهم أولياء من دون الله ولا ينفعهم ذلك فما كان هؤلاء الاولياء يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون فكيف ينفعونهم فيجلبون لهم نفعا او يدفعون عنهم ضرا وقوله يضاعف لهم العذاب اعتراض وسط بينهما نعيا عليهم من اول الامر سوء العاقبة ويجوز أن يكون ما هي المدة والمعنى انه يضاعف لهم العذاب مدة استطاعتهم السمع والبصر وقال الفراء لا يستطيعون السمع لان الله أضلهم في اللوح المحفوظ وقال الزجاج لبغضهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعداوتهم له لا يستطيعون ان يسمعوا منه ولا يفهموا عنه قال النحاس

(١) قوله حاصله أي حاصل قول السيوطي اهـ منه

صلى الله عليه وسلم كان يكثر فى دعائه يقول اللهم مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك قالت فقلت يارسول الله أو ان القلوب لتقلب قال نعم ماخلق الله من بشر من بنى آدم الا أن قلبه بين اصبعين من أصابع الله عزوجل فان شاء اقامه وان شاء ازاغه فنسأل الله ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد اذ هدانا ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة انه هو الوهاب قالت فقلت يارسول الله ألا تعلمنى دعوات ادعو بها لنفسى قال بلى قولى اللهم رب النبى محمد اغفر لى ذنبى واذهب غيظ قلبى وأجرنى من مضلات الفتن ما أحييتنى (حديث آخر) قال الامام أحمد حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنا حيوة أخبرنى أبو هانئ أنه سمع أبا عبد الرحمن الحبلى أنه سمع عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان قلوب بنى آدم بين اصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف شاء ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا الى طاعتك انفرد باخراجه مسلم عن البخارى فرواه مع النسائى من حديث حيوة ابن شريح المصرى به (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا ان الله شديد العقاب) يحذر تعالى عباده المؤمنين فتنة أى اختبارا ومحنة يعم بها المسىء وغيره لا يخص بها أهل المعاصى ولا من باشر الذنب بل يعمهما حيث لم تدفع وترفع كما قال الامام أحمد حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم حدثنا شداد بن سعيد حدثنا غيلان بن جرير (٣٠٥) عن مطرف قال قلنا للزبير يا أبا عبد الله ماجاء بكم ضيعتم الخليفة الذى قتل ثم جئتم تطلبون بدمه فقال الزبير رضى الله عنه انا قرأنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة لم نكن نحسب انا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت وقد رواه البزار من حديث مطرف عن الزبير وقال لا نعرف مطرفا روى عن الزبير غير هذا الحديث وقد روى النسائى من حديث جابر بن حازم عن الحسن عن الزبير نحو هذا وروى ابن جرير حدثنى الحرث حدثنا عبد العزيز حدثنا مبارك بن فضالة عن الحسن قال قال الزبير لقد خوفنا يعنى قوله تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وما ظننا انا خصصنا بها خاصة وكذا رواه حميد عن الحسن عن الزبير رضى الله عنه وقال داود بن أبى هند عن الحسن فى هذه الآية قال نزلت فى على وعمار وطلحة والزبير رضى الله عنهم وقال سفيان الثورى عن الصلت بن دينار عن عقبة بن صهبان سمعت الزبير يقول لقد قرأت هذه الآية زمانا وما أرانا من أهلها فاذا نحن المعنيون بها واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا ان الله شديد العقاب وقد روى من غير وجه عن الزبير بن العوام وقال السدى نزلت فى أهل بدر خاصة فأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا وقال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة يعنى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم خاصة وقال وفى رواية له عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية أمر الله المؤمنين ان لا يقروا المنكر بين ظهرانيهم فيعمهم الله بالعذاب وهذا تفسير حسن جدا ولهذا قال مجاهد فى قوله تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة هى أيضا لكم وكذا قال الضحاك ويزيد ابن أبى حبيب وغير واحد وقال ابن مسعود ما منكم من أحد الا وهو مشتمل على فتنة ان الله تعالى يقول انما أموالكم وأولادكم فتنة فأيكم استعاذ فليستعذ بالله من مضلات الفتن رواه ابن جرير والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم وان كان الخطاب معهم

هذا معروف فى كلام العرب يقال فلان لا يستطيع أن ينظر الى فلان اذا كان ثقيلا عليه (أولئك) المتصفون بتلك الصفات (الذين خسروا أنفسهم) بعبادة غير الله والمعنى اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله فكان خسرانهم فى تجارتهم أعظم خسران (وضل) أى ذهب وضاع (عنهم ما كانوا يفترون) من الآلهة التى يدعون انها تشفع لهم ولم يبق بأيديهم الا الخسران (لا جرم انهم فى الآخرة هم الاخسرون) قال الخليل وسيبويه لا جرم بمعنى حق فهى عندهما بمنزلة كلمة واحدة وبه قال الفراء وروى عن الخليل والفراء أنها بمنزلة قولك لابد ولا محالة ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقا وقال الزجاج ان جرم بمعنى كسب وفاعله مضمر اى كسب ذلك الفعل لهم الخسران وان منصوبة بجرم قال الازهرى وهذا من أحسن ما نقل فى هذه اللغة وقال الكسائى معنى لا جرم لا صد ولا منع وقال جماعة من النحويين ان معنى لا جرم لا قطع قاطع قالوا والجرم القطع وقد جرم النخل واجترمه أى قطعه ووردت هذه اللفظة فى القرآن فى خمسة مواضع متلوة بان واسمها ولم يجئ بعدها فعل ويقال فى كل واحد منها ما قيل هنا وفيه لغات بكسر الجيم وبضمها ولا جر بحذف الميم ولا ان ذا جرم ولا ذو جرم ولا ذا جرم وغير ذلك وفى هذه الآية بيان انهم قد بلغوا فى الخسران الى حد يتقاصر عنه غيرهم ولا يبلغ اليه وهذه الآيات مقررة لما سبق من نفى المماثلة بين من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها وبين من كان على بينة من ربه (ان الذين آمنوا)

هو الصحيح ويدل عليه الاحاديث الواردة فى التحذير من الفتن ولذلك كتاب مستقل يوضح فيه ان شاء الله تعالى كما فعله الائمة وأفردوه بالتصنيف ومن أخص مايذكر ههنا ما رواه الامام أحمد حيث قال حدثنا أحمد بن الحجاج أنبأنا عبد الله يعني ابن المبارك أنبأنا سيف ابن أبي سليمان سمعت عدى بن عدى الكندى يقول حدثني مولى لنا انه سمع جدى يعني عدى بن عميرة يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه فاذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة فيه رجل مبهم ولم يخرجوه فى الكتب الستة ولا واحد منهم والله أعلم (حديث آخر) قال الامام أحمد حدثنا سليمان الهاشمى حدثنا اسمعيل يعني ابن جعفر أخبرني عمرو بن أبي عمرو عن عبد الله بن عبد الرحمن الاشهلى عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم ورواه عن أبي سعيد عن اسمعيل بن جعفر وقال أو ليبعثن الله عليكم قوما ثم تدعونه فلا يستجيب لكم وقال الامام أحمد حدثنا عبد الله بن نمير قال حدثنا زر بن حبيب الجهنى حدثنى أبو الرقاد قال خرجت مع مولاى فدفعت الى حذيفة (٣٠٦) وهو يقول ان كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير منافقا وانى لأسمعها من أحدكم فى المقعد الواحد أربع مرات لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتحاضن على الخير أو ليسحتكم الله جميعا بعذاب أو ليؤمرن عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم (حديث آخر) قال الامام أحمد أيضا حدثنا يحيى بن سعيد عن زكريا حدثنا عامر رضى الله عنه قال سمعت النعمان بن بشير رضى الله عنه يخطب يقول وأومأ باصبعيه الى أذنيه يقول مثل القائم على حدود الله والواقع فيها والمداهن فيها كمثل قوم ركبوا سفينة فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها وأصاب بعضهم أعلاها فكان الذين فى أسفلها اذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فآذوهم فقالوا لو خرقنا فى نصيبنا خرقا فاستقينا منه ولم نؤذ من فوقنا فان تركوهم وأمرهم هلكوا جميعا وان أخذوا على أيديهم نجوا جميعا انفرد باخراجه البخارى دون مسلم فرواه فى الشركة والشهادات والترمذى فى الفتن من غير وجه عن سليمان بن مهران الاعمش عن عامر بن شراحيل الشعبى به (حديث آخر) قال الامام أحمد حدثنا حسين حدثنا خلف بن خليفة عن ليث عن علقمة بن مرثد عن المعرور بن سويد عن أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا ظهرت المعاصى فى أمتى عمهم الله بعذاب من عنده فقلت يارسول الله أما فيهم أناس صالحون قال بلى قالت فكيف يصنع أولئك قال يصيبهم ما أصاب الناس ثم يصيرون الى مغفرة من الله ورضوان (حديث آخر) قال الامام أحمد حدثنا حجاج بن محمد حدثنا شريك عن أبى اسحق عن المنذر بن جرير عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن قوم يعملون المعاصى وفيهم رجل أعز منهم وأمنع لا يغيره الا عمهم الله بعقاب أو أصابهم العقاب ورواه أبو داود عن مسدد عن أبى الاحوص عن أبى اسحق به وقال الامام أحمد أيضا حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة سمعت أبا اسحق يحدث عن عبيد الله بن جرير عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مامن قوم يعمل فيهم بالمعاصى هم أعز وأكثر ممن يعملون ثم لم

أى صدقوا بكل ما يجب عليهم التصديق به من كون القرآن من عند الله وغير ذلك من خصال الايمان (وعملوا الصالحات) أراد بها جميع أعمال الجوارح (وأخبتوا الى ربهم) أى أنابوا اليه وسكنوا وقيل خشعوا وقيل خضعوا وقيل خافوا قاله ابن عباس وقيل اطمأنوا قاله مجاهد وهذا اشارة الى أعمال القلوب قيل وأصل الاخبات الاستواء فى الخبت وهو الارض المستوية الواسعة فيناسب معنى الخشوع والاطمئنان قال الفراء الى ربهم ولربهم واحد وقيل لفظ الاخبات يتعدى باللام والى فاذا قلت أخبت فلان الى كذا فمعناه اطمأن اليه واذا قلت له فمعناه خشع وخضع (أولئك) الموصوفون بتلك الصفات الصالحة (أصحاب الجنة هم فيها خالدون) لا انقطاع لنعيمها ولا زوال لاهلها (مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع) ضرب للفريقين مثلا وهو تشبيه فريق الكافرين بالاعمى والاصم وتشبيه فريق المؤمنين بالبصير والسميع على ان كل فريق شبه بشيئين أو شبه بمن جمع بين الشيئين فالكافر شبه بمن جمع بين العمى والصمم والمؤمن شبه بمن جمع بين السمع والبصر وعلى هذا يكون الواو فى والاصم وفى والسميع لعطف الصفة على الصفة (هل يستويان مثلا) أى حالا وصفة (أفلا تذكرون) فى عدم استوائهما وفيما بينهما من التفاوت الظاهر لا يخفى على من له تذكر وعنده تفكر وتأمل والهمزة لانكار عدم التذكر واستبعاد صدوره عن المخاطبين ولما أورد سبحانه على الكفار

المعاصرين

يغيروه الا عمهم الله بعقاب ثم رواه أيضا عن وكيع عن اسرائيل وعن عبد الرزاق عن معمر وعن أسود عن شريك ويونس كلهم عن أبي اسحق السبيعي به وأخرجه ابن ماجه عن علي بن محمد عن وكيع به وقال الامام أحمد حدثنا سفيان حدثنا جامع بن أبي راشد عن منذر عن حسن بن محمد عن امرأته عن عائشة تبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم اذا ظهر السوء في الارض أنزل الله بأهل الارض بأسه قلت وفيهم أهل طاعة الله قال نعم ثم يصيرون الى رحمة الله (واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون في الارض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم واحسانه اليهم حيث كانوا قليلين فكثرهم ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات واستشكرهم فأطاعوه وامتثلوا جميع ما أمرهم وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستخفين مضطرين يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله من مشرك ومجوسي ورومي كلهم أعداء لهم لقلتهم وعدم قوتهم فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله لهم في الهجرة الى المدينة فآواهم اليها وقيض لهم أهلها آووا ونصروا يوم بدر وغيره وواسوا بأموالهم وبذلوا مهجهم في طاعة الله وطاعة رسوله قال قتادة بن دعامة السدوسي رحمه الله في قوله تعالى واذكروا اذ أنتم قليل (٣٠٧) مستضعفون في الارض قال كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلا وأشقاه عيشا وأجوعه بطونا وأعراه جلودا وأبينه ضلالا من عاش منهم عاش شقيا ومن مات منهم ردي في النار يؤكلون ولا يأكلون والله ما نعلم قبيلا من حاضر أهل الارض يومئذ كانوا أشر منزلا منهم حتى جاء الله بالاسلام فمكن به في البلاد ووسع به في الرزق وجعلهم به ملوكا على رقاب الناس وبالاسلام أعطى الله ما رأيتم فاشكروا الله على نعمه فان ربكم منعم يحب الشكر وأهل الشكر في مزيد من الله (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون واعلموا انما أموالكم وأولادكم فتنة وان الله عنده أجر عظيم) قال عبد الرزاق بن أبي قتادة والزهري أنزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بني قريظة لينزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستشاروه في ذلك فأشار عليهم بذلك وأشار بيده الى حلقه أي انه الذبح ثم فطن أبو لبابة ورأى انه قد خان الله ورسوله فحلف لا يذوق ذواقا حتى يموت أو يتوب الله عليه وانطلق الى مسجد المدينة فربط نفسه في سارية فمكث كذلك تسعة أيام حتى كان يخر مغشيا عليه من الجهد حتى أنزل الله توبته على رسوله فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه وأرادوا أن يحلوه من السارية فحلف لا يحله منها الا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فحله فقال يا رسول الله اني كنت نذرت ان أنخلع من مالي صدقة فقال يجزيك الثلث ان تصدق به وقال ابن جرير حدثني الحرث حدثنا عبد العزيز حدثنا يونس بن الحرث الطائفي حدثنا محمد بن عبد الله بن عون الثقفي عن المغيرة بن شعبة قال نزلت هذه الآية في قتل عثمان رضي الله عنه يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول الآية وقال ابن جرير أيضا حدثنا القاسم بن بشر بن معروف حدثنا شبابة بن صوار حدثنا محمد بن المحرم قال لقيت عطاء بن أبي رباح فحدثني قال حدثني جابر بن عبد الله ان أبا سفيان خرج من مكة فأتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان أبا سفيان بمكان كذا وكذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أبا سفيان في موضع

المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم أنواع الدلائل التي هي أوضح من الشمس أكد ذلك بذكر القصص على طريقة الافتنان في الكلام ونقله من اسلوب الى اسلوب لتكون الموعظة أظهر والحجة أبين والقبول أتم فقال (ولقد) الواو للابتداء واللام هي الموطئة للقسم (أرسلنا نوحا الى قومه اني لكم نذير مبين) بالكسر على ارادة القول أي فقال أو قائلا وقرئ بالفتح على اضمار حرف الجر أي أرسلناه متلبسا بذلك الكلام وهو اني لكم واقتصر على النذارة دون البشارة لان دعوته كانت لمجرد الانذار أو لكونهم لم يعملوا بما بشرهم به وفي هذه السورة ذكر أنواع من القصص الاولى قصة نوح الثانية قصة هود الثالثة قصة صالح الرابعة قصة ابراهيم الخامسة قصة لوط السادسة قصة شعيب السابعة قصة موسى وهي آخر القصص على الترتيب الزماني (أن لا تعبدوا الا الله) أن مصدرية أو مفسرة متعلقة بأرسلنا أو بنذيرا أو بمبين ولا ناهية (اني أخاف عليكم عذاب يوم أليم) تعليلية والمعنى نهيتكم عن عبادة غير الله لاني أخاف عليكم وفيها تحقيق لمعنى الانذار واليوم هو يوم القيامة أو يوم الطوفان ووصفه بالاليم من باب الاسناد المجازي مبالغة ثم ذكر ما أجاب به قومه عليه وهذا الجواب يتضمن الطعن منهم في نبوته من ثلاث جهات (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) الملأ الاشراف كما تقدم غير مرة ووصفهم بالكفر ذما لهم وفيه دليل على ان بعض اشراف قومه لم يكونوا كفرة (ما نراك الا بشرا مثلنا)

كذا وكذا فاخرجوا اليه وا كتموا فكتب رجل من المنافقين اليه ان محمدا يريدكم فخذوا حذركم فأنزل الله عز وجل لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم الآية هذا حديث غريب جدا وفي سنده وسياقه نظر وفي الصحيحين قصة حاطب بن أبي بلتعة انه كتب الى قريش يعلمهم بقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم اياهم عام الفتح فأطلع الله رسوله على ذلك فبعث في اثر الكتاب فاسترجعه واستحضر حاطبا فأقر بما صنع وفيها فقام عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله الا أضرب عنقه فانه قد خان الله ورسوله والمؤمنين فقال دعه فانه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم قلت والصحيح ان الآية عامة وان صح أنها وردت على سبب خاص فالاخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وتخونوا أماناتكم الامانة الاعمال التي ائتمن الله عليها العباد يعني الفريضة يقول لا تخونوا لا تنقصوها وقال في رواية لا تخونوا الله والرسول يقول ترك سنته وارتكاب معصيته وقال محمد بن اسحق حدثني محمد بن جعفر الزبير عن عروة بن الزبير في هذه الآية أي لا تظهروا له من الحق ما يرضى به منكم ثم تخالفوه في السر الى غيره فان ذلك هلاك لاماناتكم وخيانة لانفسكم (٣٠٨) وقال السدي اذا خانوا الله والرسول فقد خانوا أماناتهم وقال أيضا كانوا يسمعون من النبي صلى الله عليه وسلم الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين وقال عبد الرحمن بن زيد نهاكم ان تخونوا الله والرسول كما صنع المنافقون وقوله واعلموا انما أموالكم وأولادكم فتنة أي اختبار وامتحان منه لكم اذ أعطاكموها ليعلم أتشكرونه وتطيعونه فيها أو تشتغلون بها عنه وتعتاضون بها منه كما قال تعالى انما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم وقال ونبلوكم بالشر والخير فتنة وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم الآية وقوله وان الله عنده أجر عظيم أي ثوابه وعطاؤه وجنانه خير لكم من الاموال والاولاد فانه قد يوجد منهم عدو وأكثرهم لا يغني عنك شيأ والله سبحانه هو المتصرف المالك للدنيا والآخرة ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة وفي الاثر يقول الله تعالى يا ابن آدم اطلبني تجدني فان وجدتني وجدت كل شئ وان فتك فاتك كل شئ وأنا أحب اليك من كل شئ وفي الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان من كان الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه الا لله ومن كان يحب ان يلقى في النار أحب اليه من ان يرجع الى الكفر بعد اذ أنقذه الله منه بل حب رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدم على الاولاد والاموال والنفوس كما ثبت في الصحيح انه صلى الله عليه وسلم قال والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من نفسه وأهله وماله والناس أجمعين (يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيآتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم) قال ابن عباس والسدي ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان وغير واحد فرقانا مخرجا زاد مجاهد في الدنيا والآخرة وفي رواية عن ابن عباس فرقانا نجاة وفي رواية عنه نصرا وقال محمد بن اسحق فرقانا أي فصلا بين الحق والباطل

هذه الجهة الاولى من جهات طعنهم في نبوته اي نحن وأنت مشتركون في البشرية فلم تكن لك علينا مزية تستحق بها النبوة دوننا والجهة الثانية (وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا) أي ولم يتبعك أحد من الاشراف فليس لك مزية علينا باتباع هؤلاء الاراذل لك والاراذل جمع أرذل بضم الذال وأرذل جمع رذل بسكونها مثل أكلب وأكالب وكلب فهو جمع الجمع وقيل الاراذل جمع أرذل كالاساود جمع أسود وهم السفلة كالحاكة والاساكفة والارذل الادون من كل شئ قال النحاس الاراذل الفقراء والذين لا حسب لهم والخسيس الصناعات قال الزجاج نسبوهم الى الحياكة ولم يعلموا ان الصناعات لا أثر لها في الديانة لان الرفعة في الدين ومتابعة الرسل لا تكون بالشرف والمال والمناصب العلية بل للفقراء الخاملين وهم اتباع الرسل ولا تضرهم خسة صنائعهم اذا احسنت سيرتهم في الدين وهذه عادة الله في الانبياء والاولياء ان أول من يتبعهم ضعفاء الناس لانهم لا يتكبرون عن الاتباع بمال ولا جاه وقال ثعلب عن ابن الاعرابي السفلة هو الذي يصلح الدنيا بدينه قيل له فمن سفلة السفلة قال الذي يصلح دنيا غيره بفساد دينه والظاهر من كلام أهل اللغة ان السفلة هو الذي يدخل في الحرف الدنية والرؤية في الموضعين ان كانت القلبية فبشرا في الاول واتبعك في الثاني هما المفعول الثاني وان كانت البصرية فهما منتصبان على الحال (بادي الرأي) أي في ظاهر الرأي من غير تعمق يقال بدا يبدو اذا ظهر قال الازهري معناه

وهذا التفسير من ابن اسحق أعم مما تقدم وهو يستلزم ذلك كله فان من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره وفق لمعرفة الحق من الباطل فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا وسعادته يوم القيامة وتكفير ذنوبه وهو محوها وغفرها سترها عن الناس وسببا لنيل ثواب الله الجزيل كقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم (واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ليثبتوك ليوثقوك وقال عطاء وابن زيد ليحبسوك وقال السدي الاثبات هو الحبس والوثاق وهذا يشمل ما قاله هؤلاء وهؤلاء وهو مجمع الاقوال وهو الغالب من صنيع من أراد غيره بسوء وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج عن عطاء سمعت عبيد بن عمير يقول لما ائتمروا بالنبي صلى الله عليه وسلم ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه قال له عمه أبو طالب هل تدري ما ائتمروا بك قال يريدون أن يسجنوني أو يقتلوني أو يخرجوني فقال من أخبرك بهذا قال ربي قال نعم الرب ربك استوص به خيرا قال أنا استوصي به بل هو يستوصي بي وقال أبو جعفر بن جرير حدثني محمد بن اسمعيل المصري المعروف بالوساوسي أخبرنا عبد المجيد بن أبي داود عن ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن المطلب بن أبي وداعة (٣٠٩) ان أبا طالب قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما يأتمر بك قومك قال يريدون أن يسحروني او يقتلوني أو يخرجوني فقال من أخبرك بهذا قال ربي قال نعم الرب ربك فاستوص به خيرا قال أنا استوصي به بل هو يستوصي بي قال فنزلت واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك الآية وذكر أبي طالب في هذا غريب جدا بل منكر لان هذه الآية مدنية ثم ان هذه القصة واجتماع قريش على هذا الائتمار والمشاورة على الاثبات أو النفي أو القتل انما كان ليلة الهجرة وكان ذلك بعد موت أبي طالب بنحو من ثلاث سنين لما تمكنوا منه واجترؤا عليه بسبب موت عمه أبي طالب الذي كان يحوطه وينصره ويقوم بأعبائه والدليل على صحة ما قلنا ما روى الامام محمد بن اسحق بن يسار صاحب المغازي عن عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال وحدثني الكلبي عن باذان مولى أم هانئ عن ابن عباس أن نفرا من قريش من أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة فاعترضهم ابليس في صورة شيخ جليل فلما رأوه قالوا من أنت قال شيخ من اهل نجد سمعت انكم اجتمعتم فاردت ان أحضركم ولن يعدمكم رأيي ونصحي قالوا أجل ادخل فدخل معهم فقال انظروا في شأن هذا الرجل والله ليوشكن ان يؤاتيكم في أمركم بأمره فلما نظروا في شأن هذا الرجل فقال قائل منهم احبسوه في وثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء زهير والنابغة انما هو كأحدهم قال فصرخ عدو الله الشيخ النجدي فقال والله ما هذا لكم برأي والله لئن حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه الى أصحابه ويوشك ان يثبوا عليكم فيقاتلوكم ويأخذوه من أيديكم فما آمن عليكم ان يخرجوكم من بلادكم قالوا صدق الشيخ فانظروا في غير هذا قال قائل منهم أخرجوه من بين أظهركم فتستريحوا منه فانه اذا خرج لن يضركم ما صنع واين وقع اذا غاب عنكم اذاه واسترحتم وكان أمره في غيركم فقال الشيخ النجدي والله ما هذا لكم برأي ألم تروا حلاوة قوله وطلاقة لسانه وأخذه القلوب بما يسمع من حديثه والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب ليجتمعن عليه ثم ليأتين اليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم قالوا صدق والله فانظروا رأيا غير هذا قال فقال ابو جهل لعنه الله والله لاشيرن عليكم برأي ما أراكم أبصرتموه

معناه فيما يبدو لنا من الرأي وقيل أول الرأي قرئ بالهمز وتركه وهما سبعيتان ونصبه على الظرف أي وقت حدوث أول رأيهم والوجه الثالث من جهات قدحهم في نبوته (وما نرى لكم علينا من فضل) بالمال والشرف والجاه والرأي خاطبوه في الوجهين الاولين منفردا وفي هذا الوجه خاطبوه مع متبعيه ثم اضربوا عن الثلاثة المطاعن وانتقلوا الى ظنهم المجرد عن البرهان الذي لا مستند له الا مجرد العصبية والحسد واستبقاء ما هم فيه من الرياسة الدنيوية فقالوا (بل نظنكم كاذبين) فيما تدعونه ويجوز أن يكون هذا خطابا للاراذل وحدهم والاول أولى لان الكلام مع نوح لا معهم الا بطريق التبعية له ثم ذكر سبحانه ما أجاب به نوح عليه السلام عليهم اجمالا فقال (قال يا قوم أرأيتم) أي اخبروني (ان كنت على بينة) برهان (من ربي) في النبوة يدل على صحتها ويوجب عليكم قبولها مع كون ما جعلتموه قادحا ليس بقادح في الحقيقة فان المساواة في صفة البشرية لا تمنع المفارقة في صفة النبوة واتباع الاراذل كما تزعمون ليس مما يمنع من النبوة فانهم مثلكم في البشرية والعقل والفهم فاتباعهم لي حجة عليكم لا لكم ويجوز أن يريد بالبينة المعجزة وفي هذا الخطاب غاية التلطف بهم (وآتاني رحمة من عنده) وهي النبوة وقيل الرحمة المعجزة والبينة النبوة قيل ويجوز أن يكون الرحمة هي البينة نفسها والاولى تفسير الرحمة بغير ما فسرت به البينة وقيل الرحمة هي على الحق وقيل هي الهداية الى معرفة البرهان وقيل الايمان والاسلام وفي (فعميت)

بعد لا أرى غيره قالوا وما هو قال تأخذون من كل قبيلة غلاما شابا وسيطا نهدا ثم يعطى كل غلام منهم سيفا صارما ثم يضربونه ضربة رجل واحد فاذا قتلوه تفرق دمه فى القبائل كلها فما أظن هذا الحى من بنى هاشم يقوون على حرب قريش كلها فانهم اذا رأوا ذلك قبلوا العقل واسترحنا وقطعنا عنا أذاه قال فقال الشيخ النجدى هذا والله الرأى القول ما قال الفتى لا أرى غيره قال فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له فأتى جبريل النبى صلى الله عليه وسلم فأمره أن لا يبيت فى مضجعه الذى كان يبيت فيه وأخبره بمكر القوم فلم يبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته تلك الليلة وأذن الله له عند ذلك بالخروج وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة الانفال يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين وأنزل فى قولهم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون فكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة للذى اجتمعوا عليه من الرأى وعن السدى نحو هذا السياق وأنزل الله فى ارادتهم اخراجه قوله تعالى وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها واذا لا يلبثون خلافك الا قليلا وكذا روى العوفى عن ابن عباس وروى عن مجاهد وعروة ابن الزبير وموسى بن عقبة وقتادة ومقسم (٣١٠) وغير واحد نحو ذلك وقال يونس بن بكير عن ابن اسحق فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظر أمر الله حتى اذا اجتمعت قريش فمكرت به وأرادوا به ما أرادوا أتاه جبريل عليه السلام فأمره أن لا يبيت فى مكانه الذى كان يبيت فيه فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابن أبى طالب فأمره أن يبيت على فراشه وأن يتسجى ببرد له أخضر ففعل ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على القوم وهو على بابه وخرج معه بحفنة من تراب فجعل يذرها على رؤسهم وأخذ بأبصارهم عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ يس والقرآن الحكيم الى قوله فأغشيناهم فهم لا يبصرون وقال الحافظ أبو بكر البيهقى روى عكرمة ما يؤكد هذا وقد روى ابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه من حديث عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال دخلت فاطمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى تبكى فقال ما يبكيك يا بنية قالت يا أبت ومالى لا أبكى وهؤلاء الملأ من قريش فى الحجر يتعاهدون باللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ولو قد رأوك لقاموا اليك فيقتلونك وليس منهم الا من قد عرف نصيبه من دمك فقال يا بنية ائتنى بوضوء فتوضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج الى المسجد فلما رأوه قالوا ها هو ذا فطأطؤا رؤسهم وسقطت رقابهم بين أيديهم فلم يرفعوا ابصارهم فتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من تراب فحصبهم بها وقال شاهت الوجوه فما أصاب رجلا منهم حصاة من حصياته الا قتل يوم بدر كافرا ثم قال الحاكم صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ولا أعرف له علة وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر أخبرنى عثمان الجريرى عن مقسم مولى ابن عباس أخبره ابن عباس فى قوله واذ يمكر بك الآية قال تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم اذا أصبح فأثبتوه بالوثاق يريدون النبى صلى الله عليه وسلم وقال بعضهم بل اقتلوه وقال بعضهم بل أخرجوه فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك فبات على رضى الله عنه على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج النبى صلى الله عليه وسلم حتى لحق بالغار وبات المشركون يحرسون عليا يحسبونه النبى صلى الله عليه وسلم فلما أصبحوا ثاروا اليه فلما رأوا عليا رد الله تعالى مكرهم فقالوا أين صاحبك هذا قال لا أدرى فاقتصوا أثره فلما بلغوا الجبل

على ارادة كل واحد منهما أو على ارادة البينة لانها هى التى تظهر لمن تفكر وتخفى على من لم يتفكر ومعنى عميت خفيت يقال عميت عن كذا وعمى على كذا اذا لم أفهمه قيل وهو من باب القلب لان البينة أو الرحمة لا تعمى وانما يعمى عنها فهو كقولهم ادخلت القلنسوة رأسى وقيل ان عمى الدليل بمعنى خفائه مجازا فيقال حجة عمياء كما يقال مبصرة للواضحة وهو استعارة تبعية شبه خفاء الدليل بالعمى فى ان كلا يمنع الوصول الى المقاصد وقرئ فعميت بضم العين وتشديد الميم على البناء للمفعول اى فعماها الله (عليكم) فلم تهتدوا كما لو عمى على القوم دليلهم فى المفازة بقوا بغير هاد وفى قراءة أبى فعماها عليكم والاستفهام فى (أنلزمكموها) للانكار اى لا يمكننى ان اضطركم الى المعرفة بها اى بالرحمة والمراد الزام الجبر بالقتل ونحوه لا الزام الايجاب اذ هو حاصل ولذا فسره السيوطى بقوله انجبركم على قبولها (وأنتم) اى والحال انكم (لها كارهون) اى منكرون ونافرون لها والمعنى أخبرونى ان كنت على حجة ظاهرة الدلالة على صحة النبوة الا انها خافية عليكم أيمكننا ان نضطركم الى العلم بها والحال انكم لها كارهون غير متدبرين فيها فان ذلك لا يقدر عليه الا الله عز وجل وعن قتادة قال اما والله لو استطاع نبى الله لالزمها قومه ولكنه لم يستطع ذلك ولم يمكنه (ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ان أجرى الا على الله)

اختلط عليهم فصعدوا في الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاث ليال وقال محمد بن اسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير في قوله ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين أي فمكرت بهم بكيدي المتين حتى خلصتك منهم (وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا أساطير الاولين وإذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) يخبر تعالى عن كفر قريش وعتوهم وتمردهم وعنادهم ودعواهم الباطل عند سماع آياته اذا تتلى عليهم انهم يقولون قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا وهذا منهم قول بلا فعل والا فقد تحدوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون الى ذلك سبيلا وانما هذا القول منهم يغرون به أنفسهم ومن تبعهم على باطلهم وقد قيل ان القائل لذلك هو النضر بن الحرث لعنه الله كما قد نص على ذلك سعيد بن جبير والسدي وابن جريج وغيرهم فانه لعنه الله كان قد ذهب الى بلاد فارس وتعلم من أخبار ملوكهم رستم واسفنديار ولما قدم وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه الله وهو يتلو على الناس القرآن فكان عليه الصلاة والسلام اذا قام من مجلس جلس فيه النضر فحدثهم من أخبار أولئك ثم يقول (٣١١) بالله أينا أحسن قصصا أنا أو محمد ولهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر ووقع في الاسارى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان تضرب رقبته صبرا بين يديه ففعل ذلك ولله الحمد وكان الذي أسره المقداد بن الاسود رضي الله عنه كما قال ابن جرير حدثنا محمد ابن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد ابن جبير قال قتل النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر صبرا عقبة بن أبي معيط وطعيمة بن عدي والنضر بن الحرث وكان المقداد أسر النضر فلما أمر بقتله قال المقداد يا رسول الله أسيري فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يقول في كتاب الله عز وجل ما يقول فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله فقال المقداد يا رسول الله أسيري فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم أغن المقداد من فضلك فقال المقداد هذا الذي أردت قال وفيه أنزلت هذه الآية وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا أساطير الاولين وكذا رواه هشيم عن أبي بشر جعفر بن أبي وحشية عن سعيد بن جبير انه قال المطعم بن عدي بدل طعيمة وهو غلط لان المطعم بن عدي لم يكن حيا يوم بدر ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ لو كان المطعم بن عدي حيا ثم سألني في هؤلاء النتنى لوهبتهم له يعني الاسارى لانه كان قد أجار رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم رجع من الطائف ومعنى أساطير الاولين وهو جمع أسطورة أي كتبهم اكتتبها فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس وهذا هو الكذب البحت كما أخبر الله عنهم في الآية الاخرى وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والارض انه كان غفورا رحيما أي لمن تاب اليه وأناب فانه يتقبل منه ويصفح عنه وقوله وإذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم هذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم وعتوهم وهذا مما عيبوا به وكان الاولى لهم ان يقولوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه ولكن استفتحوا على أنفسهم واستعجلوا العذاب وتقديم العقوبة كقوله تعالى ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب وقوله سأل سائل بعذاب واقع

الله) فيه التصريح منه عليه السلام بانه لا يطلب على تبليغ الرسالة مالا حتى يكون بذلك محلا للتهمة ويكون لقول الكافرين مجال بانه ادعى ما ادعى طلبا للدنيا والضمير في عليه راجع الى ما قاله لهم فيما قبل هذا (و) قوله (ما أنا بطارد الذين آمنوا) كالجواب عما يفهم من قولهم وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا من التلميح منهم الى ابعاد الاراذل عنه وقيل انهم سألوه طردهم تصريحا لا تلميحا وهذا كما قالت قريش لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم كما تقدم في سورة الانعام ولا تطرد الذين يدعون ربهم الآية ثم علل ذلك بقوله (انهم ملاقوا ربهم) أي لا اطردهم فانهم ملاقون يوم القيامة ربهم فهو يجازيهم على ايمانهم لانهم طلبوا بايمانهم ما عنده سبحانه وكأنه قال هذا على وجه الاعظام لهم ويحتمل انه قاله خوفا من مخاصمتهم له عند ربهم بسبب طرده لهم ثم بين لهم ما هم عليه في هذه المطالب التي طلبوها منه والعلل التي اعتلوا بها عن اجابته فقال (ولكني أراكم قوما تجهلون) كل ما ينبغي ان يعلم ومن ذلك استرذالهم للذين اتبعوه وسؤالهم له ان يطردهم ثم أكد عدم جواز طردهم بقوله (ويا قوم من ينصرني من الله) أي من يمنعني من عذاب الله وانتقامه (ان طردتهم) فان طردهم بسبب سبقهم الى الايمان والاجابة الى الدعوة التي أرسل الله رسوله لاجلها ظلم عظيم لا يقع من الانبياء المؤيدين بالعصمة ولو وقع ذلك منهم فرضا وتقديرا لكان فيه من الظلم ما لا يكون لو فعله غيرهم من سائر الناس (أفلا تذكرون) معطوف

للكافرين ليس له دافع من الله ذى المعارج وكذلك قال الجهلة من الامم السالفة كما قال قوم شعيب له فاسقط علينا كسفا من السماء ان كنت من الصادقين وقال هؤلاء اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم قال شعبة عن عبد الحميد صاحب الزيادى عن أنس بن مالك قال هو أبو جهل بن هشام قال اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم فنزلت وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون رواه البخارى عن احمد ومحمد بن النضر كلاهما عن عبيد الله بن معاذ عن ابيه عن شعبة به واحمد هذا هو احمد بن النضر بن عبد الوهاب قاله الحاكم أبو أحمد والحاكم ابو عبد الله النيسابورى والله اعلم وقال الاعمش عن رجل عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم قال هو النضر بن الحرث بن كلدة قال فأنزل الله سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع وكذا قال مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والسدى انه النضر بن الحرث زاد عطاء فقال الله تعالى وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب وقال ولقد جئتمونا فرادى كما خلقنا كم أول مرة وقال سأل سائل بعذاب واقع للكافرين قال عطاء ولقد أنزل (٣١٢) فيه بضع عشرة آية من كتاب الله عز وجل وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن ابراهيم حدثنا الحسن بن أحمد بن الليث حدثنا أبو غسان حدثنا أبو نميلة حدثنا الحسين عن ابن بريدة عن أبيه قال رأيت عمرو بن العاص واقفا يوم أحد على فرس وهو يقول اللهم ان كان ما يقول محمد حقا فاخسف بى وبفرسى وقال قتادة فى قوله واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك الآية قال ذلك سفهة هذه الامة وجهلتها فعاد الله بعائدته ورحمته على سفهة هذه الامة وجهلتها وقوله تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو حذيفة موسى ابن مسعود حدثنا عكرمة عن عمارة عن أبى زميل سماك الحنفى عن ابن عباس قال كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك فيقول النبى صلى الله عليه وسلم قد قد ويقولون لا شريك لك الا شريك هو لك تملكه وما ملك ويقولون غفرانك غفرانك فأنزل الله وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم الآية قال ابن عباس كان فيهم امانان النبى صلى الله عليه وسلم والاستغفار فذهب النبى صلى الله عليه وسلم وبقى الاستغفار وقال ابن جرير حدثنى الحرث حدثنى عبد العزيز حدثنا أبو معشر عن يزيد بن رومان ومحمد ابن قيس قالا قالت قريش بعضها لبعض محمد أكرمه الله من بيننا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك الآية فلما أمسوا ندموا على ما قالوا فقالوا غفرانك اللهم فأنزل الله عز وجل وما كان الله معذبهم الى قوله ولكن أكثرهم لا يعلمون وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم يقول ما كان الله ليعذب قوما وأنبياؤهم بين اظهرهم حتى يخرجهم ثم قال وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون يقول وفيهم من قد سبق له من الله الدخول فى الايمان وهو الاستغفار يستغفرون يعنى يصلون يعنى بهذا أهل مكة وروى عن مجاهد وعكرمة وعطية العوفى وسعيد بن جبير والسدى نحو ذلك وقال الضحاك وأبو مالك وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون يعنى المؤمنين الذين كانوا بمكة وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبد الغفار بن داود حدثنا النضر بن عدى قال قال ابن عباس ان الله جعل فى هذه الامة أمانين لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ما دام بين أظهرهم فأمان قبضه

على مقدر كأنه قيل أتستمرون على ما أنتم عليه من الجهل عاذكر فلا تذكرون من أحوالهم ما ينبغى تذكره وتتفكرون فيه حتى تعرفوا ما أنتم عليه من الخطا وما هم عليه من الصواب وقيل تقديره أتأمرونى بطردهم فلا تذكرون وقيل الاصل فلا تتذكرون وقيل أفلا بمعنى هلا التحضيضية كما ذكره الكرخى (ولا أقول لكم عندى خزائن الله) أعطيكم منها بين لهم انه كما لا يطلب منهم شيأ من أموالهم على تبليغ الرسالة كذلك لا يدعى ان عنده خزائن الله حتى تستدلوا بعدمها على كذبه كما قالوا وما نرى لكم علينا من فضل والمراد بخزائن الله خزائن رزقه وقال ابن الانبارى الخزائن هنا بمعنى غيوب الله وما هو منطو عن الخلق والاول أولى لقوله (ولا أعلم الغيب) اى ولا ادعى انى أعلم بغيب الله بل لم أقل لكم الا انى نذير مبين انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم وهذا رد لقولهم وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى اى فى ظاهر حالهم واول فكرهم وفى الباطن لم يتبعوك فقال لهم انى انما أعول على الظاهر لانى لا أعلم الغيب فاحكم به (ولا أقول) لكم (انى ملك) حتى تقولوا ما نراك الا بشرا مثلنا فان البشرية ليست من موانع النبوة بل من مباديها وقد استدل بهذا من قال ان الملائكة أفضل من الانبياء والادلة فى هذه المسألة مختلفة وليس لطالب الحق الى تحقيقها حاجة فليست هى مما كلفنا الله بعلمه (ولا أقول للذين) أى فى شأن الذين (تزدرى أعينكم) أى تحتقر وتستصغر والازدراء مأخوذ من أزرى

الله الموأمان بقي فيكم قوله وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون قال أبو صالح عبد الغفار حدثني بعض أصحابنا ان النضر بن عربي حدثه هذا الحديث مجاهد عن ابن عباس وروى ابن مردويه وابن جرير عن أبي موسى الاشعري نحوا من هذا وكذا روى عن قتادة وأبي العلاء النحوي المقرئ وقال الترمذي حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا ابن نمير عن اسمعيل بن ابراهيم بن مهاجر عن عباد بن يوسف عن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل على أمانين لامتي وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون فاذا مضيت تركت فيهم الاستغفار الى يوم القيامة ويشهد لهذا ما رواه الامام أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن وهب أخبرني عمرو بن الحرث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الشيطان قال وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم فقال الرب وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني ثم قال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه وقال الامام أحمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا راشد هو ابن سعد حدثني معاوية بن سعد التجيبي عمن حدثه عن فضالة بن عبيد عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال العبد آمن من عذاب الله ما استغفر الله (٣١٢) عز وجل (وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه ان أولياؤه الا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) يخبر تعالى انهم أهل لأن يعذبهم ولكن لم يوقع ذلك بهم لبركة مقام الرسول صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم ولهذا لما خرج من بين أظهرهم أوقع الله بهم بأسه يوم بدر فقتل صناديدهم وأسر سراتهم وأرشدهم تعالى الى الاستغفار من الذنوب التي هم متلبسون بها من الشرك والفساد وقال قتادة والسدي وغيرهما لم يكن القوم يستغفرون ولو كانوا يستغفرون ما عذبوا واختاره ابن

جرير فلولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين لوقع بهم البأس الذي لا يرد ولكن دفع عنهم بسبب أولئك كما قال تعالى في يوم الحديبية هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفا أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ان تطؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما قال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب عن جعفر بن أبي المغيرة عن ابن أبزى قال كان النبي صلى الله عليه وسلم بمكة فأنزل الله وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم قال فخرج النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة فأنزل الله وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون قال وكان أولئك البقية من المسلمين الذين بقوا فيها يستغفرون يعني بمكة فلما خرجوا أنزل الله وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه قال فأذن الله في فتح مكة فهو العذاب الذي وعدهم وروي عن ابن عباس وأبي مالك والضحاك وغير واحد نحو هذا وقد قيل ان هذه الآية ناسخة لقوله تعالى وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون على ان يكون المراد صدور الاستغفار منهم أنفسهم قال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا يحيى بن واضح عن الحسين بن واقد عن يزيد النحوي عن عكرمة والحسن البصري قالا قال في الانفال وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون فنسختها الآية التي تليها وما لهم ان لا يعذبهم الله الى قوله فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون فقوتلوا

أزرى عليه اذا عابه وزرى عليه اذا احتقره والمعنى اني لا أقول لهؤلاء المتبعين لي المؤمنين بالله الذين تعيبونهم وتحتقرونهم (لن يؤتيهم الله خيرا) أي توفيقا وهداية وايمانا وأجرا بل قد آتاهم الخير العظيم بالايمان به واتباع نبيه فهو مجازيهم بالجزاء العظيم في الآخرة ورافعهم في الدنيا الى أعلى محل ولا يضرهم احتقاركم لهم شيأ (الله أعلم بما في أنفسهم) من الايمان به والاخلاص له فمجازيهم على ذلك ليس لي ولا لكم من أمرهم شئ (اني اذا لمن الظالمين) لهم ان فعلت ما تريدونه بهم أو من الظالمين لانفسهم ان فعلت ذلك بهم ثم جاوبوه بغير ما تقدم من كلامهم وكلامه (قالوا) عجزا عن القيام بالحجة وقصورا عن رتبة المناظرة وانقطاعا عن المباراة بقولهم (يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا) أي خاصمتنا بأنواع الخصام ودفعتنا بكل حجة لها مدخل في المقام ولم يبق لنا في هذا الباب مجال فقد ضاقت علينا المسالك وانسدت أبواب الحيل (فأتنا بما تعدنا) من العذاب الذي تخوفنا منه وتخافه علينا (ان كنت من الصادقين) فيما تقوله لنا فأجاب بان ذلك ليس اليه وانما هو بمشيئة الله وارادته و (قال انما يأتيكم به الله ان شاء) فان قضت مشيئته وحكمته بتعجيله عجله لكم وان قضت مشيئته وحكمته بتأخيره أخره (وما أنتم بمعجزين) بفائتين عما أراده الله بكم بهرب أو مدافعة (ولا ينفعكم نصحي) الذي أبذله لكم وأستكثر

بمكة فأصابهم فيها الجوع والضر وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث أبي تميلة يحيى بن واضح وقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا حجاج بن محمد عن ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء عن ابن عباس وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ثم استثنى أهل الشرك فقال وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وقوله وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه ان أولياؤه الا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون أي وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام أي الذي بمكة يصدون المؤمنين الذين هم أهله عن الصلاة فيه والطواف به ولهذا قال وما كانوا أولياءه ان أولياؤه الا المتقون أي هم ليسوا أهل المسجد الحرام وانما أهله النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كما قال تعالى ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين وقال تعالى وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله الآية وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية حدثنا سليمان بن أحمد هو الطبراني حدثنا جعفر بن الياس بن صدقة المصري حدثنا نعيم (٣١٤) بن حماد حدثنا نوح بن أبي مريم عن يحيى بن سعيد الانصاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم من أولياؤك قال كل تقي وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أولياؤه الا المتقون وقال الحاكم في مستدركه حدثنا أبو بكر الشافعي حدثنا اسحق بن الحسن حدثنا أبو حذيفة حدثنا سفيان عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن اسمعيل بن عبيد بن رفاعة عن أبيه عن جده قال جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا فقال هل فيكم من غيركم فقالوا فينا ابن أختنا وفينا حليفنا وفينا مولانا فقال حليفنا منا وابن أختنا منا ومولانا منا ان أوليائي منكم المتقون ثم قال هذا صحيح ولم يخرجاه وقال عروة والسدي ومحمد بن اسحق في قوله تعالى ان أولياؤه الا المتقون قال هم محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم وقال مجاهد هم المجاهدون من كانوا وحيث كانوا ثم ذكر تعالى ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام وما كانوا يعاملونه به فقال وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية قال عبد الله بن عمر وابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو رجاء العطاردي ومحمد بن كعب القرظي وحجر بن عنبس ونبيط بن شريط وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم هو الصفير زاد مجاهد وكانوا يدخلون أصابعهم في أفواههم وقال السدي المكاء الصفير على نحو طير أبيض يقال له المكاء ويكون بأرض الحجاز وتصدية قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو خلاد سليمان بن خلاد حدثنا يونس بن محمد المؤدب حدثنا يعقوب يعني ابن عبد الله الاشعري حدثنا جعفر بن المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية قال كانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفر وتصفق والمكاء الصفير وانما شبهوا بصفير الطير والتصدية التصفيق وهكذا روى علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس وكذا روي عن ابن عمر ومجاهد ومحمد بن كعب وأبي سلمة بن عبد الرحمن والضحاك وقتادة وعطية العوفي وحجر بن عنبس وابن أبزى نحو هذا وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا أبو عامر حدثنا قرة عن عطية عن ابن عمر في قوله وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية قال المكاء الصفير والتصدية التصفيق قال قرة وحكى لنا عطية فعل ابن عمر فصفر ابن عمر وأمال خده

منه قياما مني بحق النصيحة لله بابلاغ رسالته ولكم بايضاح الحق وبيان بطلان ما أنتم عليه (ان أردت ان أنصح لكم) وجواب هذا الشرط محذوف والتقدير لا ينفعكم نصحي كما يدل عليه ما قبله (ان كان الله يريد أن يغويكم) أي اغواءكم فلا ينفعكم النصح مني وكان جواب هذا الشرط محذوفا كالاول وتقديره ما ذكرناه هذا التقدير انما هو على مذهب من يمنع من تقدم الجزاء على الشرط وأما على مذهب من يجيزه فجزاء الشرط الاول ولا ينفعكم نصحي والجملة جزاء الشرط الثاني قال ابن جرير معنى يغويكم يهلككم بعذابه وظاهر لغة العرب ان الاغواء الاضلال فمعنى الآية لا ينفعكم نصحي ان كان الله يريد أن يضلكم عن سبيل الرشاد ويخذلكم عن طريق الحق وحكى عن طي أصبح فلان غاويا أي مريضا وليس هذا المعنى هو المراد في الآية وقد ورد الاغواء بمعنى الاهلاك ومنه فسوف يلقون غيا وهو غير ما في الآية هذه (هو ربكم) فاليه الاغواء واليه الهداية (واليه ترجعون) فيجازيكم بأعمالكم ان خيرا فخير وان شرا فشر (أم يقولون افتراه) أنكر سبحانه عليهم قولهم ان ما أوحي الى نوح مفترى ثم أمره أن يجيب بكلام منصف فقال (قل ان افتريته فعلي اجرامي) بكسر الهمزة مصدر أجرم أي فعل ما يوجب الاثم وجرم وأجرم بمعنى قاله النحاس أي اكتسب الذنب وافتعله والمعنى فعلي اثمي أو جزاء كسبي ومن قرأ بفتح الهمزة قال هو جمع جرم ذكره النحاس أيضا قال قتادة

اجرامى

وصفق بيديه وعن ابن عمر أيضا انه قال انهم كانوا يضعون خدودهم على الارض ويصفقون ويصفرون رواه ابن أبي حاتم في تفسيره
بسنده عنه وقال عكرمة كانوا يطوفون بالبيت على الشمال قال مجاهد وانما كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا بذلك على النبي صلى الله
عليه وسلم صلاته وقال الزهري يستهزؤن بالمؤمنين وعن سعيد بن جبير وعبد الرحمن بن زيد وتصدية قال صدهم الناس عن سبيل الله
عزوجل قوله فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون قال الضحاك وابن جريج ومحمد بن اسحق هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي
واختاره ابن جرير ولم يحك غيره وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال
عذاب أهل الاقرار بالسيف وعذاب أهل التكذيب بالصيحة والزلزلة (ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله
فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا الى جهنم يحشرون ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث
بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون) قال محمد بن اسحق حدثني الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان
وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ قالوا لما أصيب قريش يوم بدر ورجع فلهم الى مكة ورجع
أبو سفيان بعيره مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان (٣١٥) بن أمية في رجال من قريش أصيب آباؤهم
وأبناؤهم واخوانهم ببدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا يا معشر قريش ان محمدا قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ان ندرك منه ثأرا بمن أصيب منا ففعلوا قال ففيهم كما ذكر عن ابن عباس أنزل الله عزوجل ان الذين كفروا ينفقون أموالهم الى قوله هم الخاسرون وهكذا روي عن مجاهد وسعيد بن جبير والحكم بن عيينة وقتادة والسدي وابن أبزى انها نزلت في أبي سفيان ونفقته الاموال في أحد لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الضحاك نزلت في أهل بدر وعلى كل تقدير
فهي عامة وان كان سبب نزولها خاصا فقد أخبر تعالى ان الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق فسيفعلون ذلك
ثم تذهب أموالهم ثم تكون عليهم حسرة أي ندامة حيث لم تجد شيأ لانهم أرادوا اطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق والله متم نوره
ولو كره الكافرون وناصر دينه ومعلن كلمته ومظهر دينه على كل دين فهذا الخزي لهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار فمن عاش
منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوءه ومن قتل منهم أومات فالى الخزي الابدي والعذاب السرمدي ولهذا قال فسينفقونها ثم
تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا الى جهنم يحشرون وقوله تعالى ليميز الله الخبيث من الطيب قال علي بن أبي طلحة عن
ابن عباس في قوله ليميز الله الخبيث من الطيب فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء وقال السدي يميز المؤمن من الكافر وهذا يحتمل
أن يكون هذا التمييز في الآخرة كقوله ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم الآية وقوله ويوم تقوم الساعة
يومئذ يتفرقون وقال في الآية الاخرى يومئذ يصدعون وقال تعالى وامتازوا اليوم أيها المجرمون ويحتمل أن يكون هذا التمييز في
الدنيا بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين وتكون اللام معللة لما جعل الله للكافرين من مال ينفقونه في الصد عن سبيل الله أي انما
أقدرناهم على ذلك ليميز الله الخبيث من الطيب أي من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين أو يعصيه بالنكول عن ذلك كقوله وما
أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا

اجرامي أي عملي والاجرام اكتساب السيئة واقترافها يقال جرم جرما أذنب والاسم منه
الجرم بالضم والجريمة مثله وأجرم هو الفاشي في الاستعمال ويجوز جرم ثلاثيا والمعنى
ان كنت افتريته فعلى عقاب جرمي وان كنت صادقا وكذبتموني فعليكم عقاب ذلك
التكذيب الا انه حذفت هذه البقية لدلالة الكلام عليها اولا يدل ذلك على انه كان شاكا
لانه قول يقال على وجه الانكار عند اليأس من القبول (وأنا بريء مما تجرمون) أي
من اجرامكم بسبب ما تنسبون الي من الافتراء قيل وفي الكلام حذف والتقدير لكن
ما افتريته فالاجرام وعقابه ليس الا عليكم وأنا بريء منه وقد اختلف المفسرون في هذه
الآية فقيل انها حكاية عن نوح وما قاله لقومه وقيل هي حكاية عن المحاورة الواقعة
بين نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وكفار مكة قاله مقاتل فعلى هذا تكون الآية
معترضة في قصة نوح والاول أولى لان الكلام قبلها وبعدها مع نوح عليه السلام
(وأوحي الى نوح انه) في محل رفع على انه نائب الفاعل الذي لم يسم ويجوز أن يكون
في محل نصب بتقدير الباء أي بانه (لن يؤمن من قومك الا من قد آمن) وفي الكلام تأييس
له من ايمانهم وانهم مستمرون على كفرهم مصممون عليه لا يؤمن أحد منهم الا من
قد سبق ايمانه أو المراد الا من استعد للايمان وتوقع منه ولا يراد ظاهره والا كان المعنى
الا من آمن فانه يؤمن وقيل ان الاستثناء منقطع وهو على طريقة قوله الا ما قد سلف

لاتبعنا كم الآية وقال تعالى ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب الآية وقال تعالى أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ونظيرتها في براءة أيضا فمعنى الآية على هذا انما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم وأقدرناهم على انفاق الاموال وبذلها في ذلك ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه أي يجمعه كله وهو جمع الشئ بعضه على بعض كما قال تعالى في السحاب ثم يجعله ركاما أي متراكما متراكبا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون أي هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة (قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وان يعودوا فقد مضت سنة الاولين وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير وان تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير) يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم قل للذين كفروا ان ينتهوا أي عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد ويدخلوا في الاسلام والطاعة والانابة يغفر لهم ما قد سلف أي من كفرهم وذنوبهم وخطاياهم كما جاء في الصحيح من حديث أبي وائل عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أحسن في الاسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ومن أساء في الاسلام (٣١٦) أخذ بالاول والآخر وفي الصحيح أيضا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الاسلام يجب ما قبله والتوبة تجب ما كان قبلها وقوله وان يعودوا أي يستمروا على ما هم فيه فقد مضت سنة الاولين أي فقد مضت سنتنا في الاولين انهم اذا كذبوا واستمروا على عنادهم انا نعاجلهم بالعذاب والعقوبة قال مجاهد في قوله فقد مضت سنة الاولين أي في قريش يوم بدر وغيرها من الامم وقال السدي ومحمد بن اسحق أي يوم بدر وقوله تعالى وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله قال البخاري حدثنا الحسن بن عبد العزيز حدثنا عبد الله بن يحيى حدثنا حيوة بن شريح عن بكر بن عمرو عن بكير عن نافع عن ابن عمر أن رجلا جاءه فقال يا أبا عبد الرحمن ألا تصنع ما ذكر الله في كتابه وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا الآية فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله في كتابه فقال يا ابن أخي اعير بهذه الآية ولا أقاتل أحب الي من ان اعير بالآية التي يقول الله عز وجل ومن يقتل مؤمنا متعمدا الى آخر الآية قال فان الله تعالى يقول وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة قال ابن عمر قد فعلنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ كان الاسلام قليلا وكان الرجل يفتن في دينه اما أن يقتلوه واما أن يوثقوه حتى كثر الاسلام فلم تكن فتنة فلما رأى انه لا يوافقه فيما يريد قال فما قولك في علي وعثمان قال ابن عمر أما قولي في علي وعثمان أما عثمان فكان الله قد عفا عنه وكرهتم أن يعفو الله عنه وأما علي فابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه وأشار بيده وهذه ابنته أو بنته حيث ترون وحدثنا أحمد بن يونس حدثنا زهير حدثنا بيان ان ابن وبرة حدثه قال حدثني سعيد بن جبير قال خرج علينا أو الينا ابن عمر رضي الله عنهما فقال كيف ترى في قتال الفتنة فقال وهل تدري ما الفتنة كان محمد صلى الله عليه وسلم يقاتل المشركين وكان الدخول عليهم فتنة وليس بقتالكم على الملك هذا كله سياق البخاري رحمه الله تعالى وقال عبيد الله عن نافع عن ابن عمر انه أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا ان الناس قد صنعوا ما ترى وأنت ابن عمر بن الخطاب وأنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فما يمنعك أن تخرج قال يمنعني ان الله حرم علي دم أخي المسلم قالوا أولم يقل الله وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة

قال قتادة وذلك حين دعا عليهم نوح قال لا تذر على الارض من الكافرين ديارا وعن الحسن قال ان نوحا لم يدع على قومه حتى نزلت الآية هذه فانقطع عند ذلك رجاؤه منهم فدعا عليهم (فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) البؤس الحزن أي فلا تحزن عليهم قاله ابن عباس والبائس المستكين فنهاه الله سبحانه عن أن يحزن حزن مستكين لان الابتئاس حزن في استكانة يقال ابتأس فلان اذا بلغه ما يكره والمبتئس الكاره الحزين ثم ان الله سبحانه لما أخبره انهم لا يؤمنون البتة عرفه الله هلاكهم وألهمه الامر الذي يكون به خلاصه وخلاص من آمن معه فقال (واصنع الفلك) الظاهر انه أمر ايجاب لانه لا سبيل الى صون روح نفسه وأرواح غيره من الهلاك الا بهذا الطريق وصون النفس من الهلاك واجب وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب أي اعمل السفينة متلبسا (بأعيننا) أي بمرأى منا أو بابصارنا لك وهو مجاز عن كلاءة الله له بالحفظ وعبر بالاعين عن ذلك لانها آلة الرؤية وهي التي تكون بها الحراسة والحفظ في الغالب وقيل بعلمنا لك وجمع الاعين للمبالغة والتعظيم لا للتكثير وقيل معناها بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيونا على حفظك وقيل بأمرنا والحق ان العين صفة من صفاته لا ندري كيفيتها فيجب امرارها على ظاهرها من دون تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل ولا تقدير ومعنى (ووحينا) بما أوحينا اليك من كيفية صنعتها وقال ابن عباس بعين الله ووحيه ولم يعلم نوح كيف يصنع

ويكون الدين كله لله قال قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله وكذا روى حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أيوب بن عبد الله اللخمي قال كنت عند عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فأتاه رجل فقال ان الله يقول وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فقال ابن عمر قاتلت أنا وأصحابي حتى كان الدين كله لله وذهب الشرك ولم تكن فتنة ولكنك وأصحابك تقاتلون حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله رواهما ابن مردويه وقال أبو عوانة عن الاعمش عن ابراهيم التيمي عن أبيه قال قال ذو البطين يعني اسامة بن زيد لا أقاتل رجلا يقول لا اله الا الله أبدا فقال سعد بن مالك وأنا والله لا أقاتل رجلا يقول لا اله الا الله أبدا فقال رجل ألم يقل الله وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فقالا قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله رواه ابن مردويه وقال الضحاك عن ابن عباس وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة يعني لا يكون شرك وكذا قال أبو العالية ومجاهد والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان وزيد بن أسلم وقال محمد بن اسحق بلغني عن الزهري عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا حتى لا تكون فتنة حتى لا يفتن مسلم عن دينه وقوله ويكون الدين كله لله قال الضحاك عن ابن عباس في هذه الآية (٣١٧) قال يخلص التوحيد لله وقال الحسن وقتادة وابن جريج ويكون الدين كله لله أن يقال لا اله الا الله وقال محمد بن اسحق ويكون التوحيد خالصا لله ليس فيه شرك ويخلع ما دونه من الانداد وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم ويكون الدين كله لله لا يكون مع دينكم كفر ويشهد لهذا ما ثبت في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال أمرت ان أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فاذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله عز وجل وفيهما عن أبي موسى الاشعري قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله عز وجل فقال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل وقوله فان انتهوا أي بقتالكم عما هم فيه من الكفر فكفوا عنه وان لم تعلموا بواطنهم فان الله بما يعملون بصير كقوله فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم الآية وفي الآية الاخرى فاخوانكم في الدين وقال وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأسامة لما علا ذلك الرجل بالسيف فقال لا اله الا الله فضربه فقتله فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لاسامة أقتلته بعد ما قال لا اله الا الله فكيف تصنع بلا اله الا الله يوم القيامة فقال يارسول الله انما قالها تعوذا قال هلا شققت عن قلبه وجعل يقول ويكرر عليه من لك بلا اله الا الله يوم القيامة قال أسامة حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت الا يومئذ وقوله وان تولوا فاعلموا ان الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير أي وان استمروا على خلافكم ومحاربتكم فاعلموا ان الله مولاكم سيدكم وناصركم على أعدائكم فنعم المولى ونعم النصير وقال محمد بن جرير حدثني عبد الوارث بن عبد الصمد حدثنا أبي حدثنا أبان العطار حدثنا هشام بن عروة عن عروة ان عبد الملك بن مروان كتب اليه يسأله عن أشياء فكتب اليه عروة سلام عليك فاني أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو أما بعد فانك كتبت الي تسألني عن مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة وسأخبرك به ولا حول ولا قوة الا بالله كان من شأن مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة ان الله أعطاه النبوة فنعم النبي ونعم

يصنع الفلك فأوحى الله اليه ان يصنعها مثل جؤجؤ الطائر (ولا تخاطبني في الذين ظلموا) قيل هم امرأته وابنه أي لا تطلب امهالهم وترك اهلاكهم أي لا تراجعني ولا تدعني باستدفاع العذاب عنهم فقد حان وقت الانتقام منهم (انهم مغرقون) تعليل لما قبله أي فانهم محكوم عليهم بالغرق وقد مضى به القضاء فلا سبيل الى دفعه ولا تأخيره وقيل المعنى ولا تخاطبني في تعجيل عقابهم فانهم مغرقون في الوقت المضروب لذلك لا يتأخر اغراقهم عنه (و) طفق (يصنع الفلك) أو أخذ أو أقبل يصنعها فاقتصر على يصنع وقيل هو حكاية حال ماضية لاستحضار صورتها العجيبة وأياما كان ففيه ملاءمة للاستمرار المفهوم من الجملة الآتية الواقعة حالا من ضميره ومكث في صنع السفينة مائتي سنة ذكره الصاوي وقيل أربعمائة سنة ذكره أبو السعود وقال ابن عباس اتخذ نوح السفينة في سنتين وقيل ثلاثين سنة وكان طولها ثلثمائة ذراع وسمكها في السماء ثلاثين ذراعا وعرضها خمسين ذراعا والذراع الى المنكب وكانت من خشب الساج لها ثلاثة بطون وأطباق سفلى ووسطى وعليا وكان بابها في عرضها فحمل في أسفلها الدواب والوحش وفي أوسطها الانس وفي أعلاها الطير وقيل السفلى للوحش والوسطى للطعام والعليا له ولمن آمن قال الخفاجي والساج شجر عظيم يكثر بالهند وقيل انه ورد في التوراة انها من الصنوبر وقيل غير ذلك (وكلما مر عليه ملأ) أي جماعة (من قومه سخروا منه) كل طرفة

السيد ونعم العشيرة فجزاه الله خيرا وعرفنا وجهه فى الجنة وأحيانا على ملته وأماتنا وبعثنا عليها وانه لما دعا قومه لما بعثه الله به من الهدى والنور الذى أنزل عليه لم يبعدوا منه أول ما دعاهم وكادوا يسمعون له حتى اذا ذكر طواغيتهم وقدم ناس من الطائف من قريش لهم أموال أنكر ذلك عليه ناس واشتدوا عليه وكرهوا ما قال وأغروا به من أطاعهم فانصفق عنه عامة الناس فتركوه الا من حفظه الله منهم وهم قليل فمكث بذلك ما قدر الله ان يمكث ثم ائتمرت رؤسهم بأن يفتنوا من اتبعه عن دين الله من أبنائهم واخوانهم وقبائلهم فكانت فتنة شديدة الزلزال فافتتن من افتتن وعصم الله من شاء منهم فلما فعل ذلك بالمسلمين أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يخرجوا الى أرض الحبشة وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشى لا يظلم أحد بأرضه وكان يثنى عليه مع ذلك وكانت أرض الحبشة متجرا لقريش يتجرون فيها وكانت مساكن لتجارهم يجدون فيها رفاغا من الرزق وأمنا ومتجرا حسنا وأمرهم بها النبى صلى الله عليه وسلم فذهب اليها عامتهم لما قهروا بمكة وخافوا عليهم الفتن ومكث هو فلم يبرح فمكث بذلك سنوات يشتدون على من أسلم منهم ثم انه فشا الاسلام فيها ودخل فيه رجال من أشرافهم ومنعتهم فلما رأوا ذلك استرخوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه وكانت (٣١٨) الفتنة الاولى هى أخرجت من خرج من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أرض الحبشة مخافتها وفرارا مما كانوا فيه من الفتن والزلزال فلما استرخى عنهم ودخل فى الاسلام من دخل منهم تحدث باسترخائهم عنه فبلغ ذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قد استرخى عمن كان منهم بمكة وانهم لا يفتنون فرجعوا الى مكة وكادوا يأمنون بها وجعلوا يزدادون ويكثرون وانه أسلم من الانصار بالمدينة ناس كثير وفشا الاسلام بالمدينة فطفق أهل المدينة يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فلما رأت قريش ذلك توامروا على أن يفتنوهم ويشتدوا فأخذوهم فحرصوا على أن يفتنوهم فأصابهم جهد شديد فكانت الفتنة الآخرة فكانت فتنتان فتنة أخرجت من خرج منهم الى أرض فى الحبشة حين أمرهم النبى صلى الله عليه وسلم بها وأذن لهم فى الخروج اليها وفتنة لما رجعوا ورأوا من يأتيهم من أهل المدينة ثم انه جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة سبعون نقيبا رؤس الذين أسلموا فوافوه بالحج فبايعوه بالعقبة وأعطوه عهودهم ومواثيقهم على انا منك وأنت منا وعلى انه من جاء من أصحابك أو جئتنا فانا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا فاشتدت عليهم قريش عند ذلك فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ان يخرجوا الى المدينة وهى الفتنة الآخرة التى أخرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه وخرج هو وهى التى أنزل الله عزوجل فيها وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ثم رواه عن يونس بن عبد الاعلى عن ابن وهب عن عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه عن عروة بن الزبير انه كتب الى الوليد يعنى ابن عبد الملك بن مروان بهذا فذكر مثله وهذا صحيح الى عروة رحمه الله (واعلموا انما غنمتم من شئ فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شئ قدير) يبين تعالى تفصيل ما شرعه مخصصا لهذه الامة الشريفة من بين سائر الامم المتقدمة باحلال الغنائم والغنيمة هى المال المأخوذ من الكفار بايجاف الخيل

وما مصدرية ظرفية أى كل وقت مرور قوم استهزؤا به لعمله السفينة والجملة فى محل نصب على الحال قال الاخفش والكسائى يقال سخرت به ومنه وفى وجه سخريتهم منه قولان أحدهما انهم كانوا يرونه يعمل السفينة فيقولون يا نوح صرت بعد النبوة نجارا وكان يصنعها فى برية فى أبعد موضع من الماء وفى وقت عزته عزة شديدة والثانى انهم لما شاهدوه يعمل السفينة وكانوا لا يعرفونها قبل ذلك ولا كيفية استعمالها والانتفاع بها فتعجبوا من ذلك وقالوا يا نوح ما تصنع بها (قال) أمشى بها على الماء فعجبوا من قوله وسخروا به ثم أجاب عليهم بقوله (ان تسخروا منا) وهذا الكلام مستأنف على تقدير سؤال كأنه قيل فماذا قال لهم فقيل قال والمعنى ان تسخروا منا بسبب عملنا السفينة اليوم (فانا نسخر منكم) غدا عند الغرق ومعنى السخرية هنا الاستجهال أى ان تستجهلونا فانا نستجهلكم وهذا على سبيل المشاكلة اذ السخرية لا تليق بمقام الانبياء وقيل انه جزاؤهم من جنس صنيعهم فلا يقبح (كما تسخرون) أى تستجهلون واستجهاله لهم باعتبار اظهاره لهم ومشافهتهم والا فهم عنده جهال قبل هذا وبعده والتشبيه لمجرد التحقيق والوقوع أو التجدد والتكرر والمعنى انا نسخر منكم سخرية متحققة واقعة كما تسخرون منا كذلك أو متجددة متكررة كما تسخرون منا كذلك وقيل معناه نسخر منكم فى المستقبل سخرية مثل سخريتكم اذا وقع عليكم الغرق وفيه نظر فان حالهم اذ ذاك لا تناسبه السخرية اذ هم

والركاب والفيء ما أخذ منهم بغير ذلك كالاموال التي يصالحون [illegible] ذلك هذا
مذهب الامام الشافعي في طائفة من العلماء من السلف والخلف ومن [illegible] بالمطلق عليهما الغنيمة وبالعكس
أيضا ولهذا ذهب قتادة الى أن هذه الآية ناسخة لآية الحشر ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى الآية
قال فنسخت آية الانفال تلك وجعلت الغنائم أربعة اخماس للمجاهدين وخمسا منها لهؤلاء المذكورين وهذا الذي قاله بعيد لان
هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر وتلك نزلت في بني النضير ولا خلاف بين علماء السير والمغازي قاطبة ان بني النضير بعد بدر وهذا أمر
لا يشك فيه ولا يرتاب فمن يفرق بين معنى الفيء والغنيمة يقول تلك نزلت في أموال الفيء وهذه في الغنائم ومن يجعل أمر الغنائم
والفيء راجعا الى رأي الامام يقول لا منافاة بين آية الحشر وبين التخميس اذا رآه الامام والله أعلم فقوله تعالى واعلموا انما غنمتم
من شيء فان لله خمسه توكيد لتخميس كل قليل وكثير حتى الخيط والمخيط قال الله تعالى ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى
كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون وقوله فان لله خمسه وللرسول اختلف المفسرون ههنا فقال بعضهم لله نصيب من الخمس يجعل
في الكعبة قال أبو جعفر الرازي عن الربيع عن أبي العالية الرياحي (٣١٩) قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى
بالغنيمة فيخمسها على خمسة تكون أربعة أخماس لمن شهدها ثم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه فيأخذ منه الذي قبض كفه فيجعله للكعبة وهو سهم الله ثم يقسم ما بقي على خمسة أسهم فيكون سهم للرسول وسهم لذوي القربى وسهم لليتامى وسهم للمساكين وسهم لابن السبيل وقال آخرون ذكر الله ههنا استفتاح كلام للتبرك وسهم لرسوله عليه السلام قال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا بعث سرية فغنموا خمس الغنيمة فضرب ذلك الخمس في خمسة ثم قرأ واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه
وللرسول فان لله خمسه مفتاح كلام لله ما في السموات وما في الارض فجعل سهم الله وسهم الرسول صلى الله عليه وسلم واحدا
وهكذا قال ابراهيم النخعي والحسن بن محمد بن الحنفية والحسن البصري والشعبي وعطاء بن أبي رباح وعبد الله بن بريدة وقتادة
ومغيرة وغير واحد ان سهم الله ورسوله واحد ويؤيده هذا ما رواه الامام الحافظ أبو بكر البيهقي باسناد صحيح عن
عبد الله بن شقيق عن رجل قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو بوادي القرى وهو معترض فرسا فقلت يا رسول الله
ما تقول في الغنيمة فقال لله خمسها وأربعة أخماسها للجيش قلت فما أحد أولى به من أحد قال لا ولا السهم تستخرجه من
جيبك ليس أنت أحق به من أخيك المسلم وقال ابن جرير حدثنا عمران بن موسى حدثنا عبد الوارث حدثنا أبان عن الحسن
قال أوصى الحسن بالخمس من ماله وقال ألا أرضى من مالي بما رضي الله لنفسه ثم اختلف قائلوا هذا القول فروى علي بن أبي طلحة
عن ابن عباس قال كانت الغنيمة تخمس على خمسة اخماس فأربعة منها بين من قاتل عليها وخمس واحد يقسم على أربعة اخماس
فربع لله وللرسول صلى الله عليه وسلم فما كان لله وللرسول فهو لقرابة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يأخذ النبي صلى الله عليه وسلم
من الخمس شيأ فهو لذوي النبي صلى الله عليه وسلم وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو معمر المقري حدثنا عبد الوارث بن سعيد

في شغل شاغل عنها ثم هددهم بقوله (فسوف تعلمون من) موصولة في محل نصب
أو استفهامية في محل رفع أي أينا (يأتيه عذاب يخزيه) أي يهينه وهو عذاب الغرق في
الدنيا قاله ابن عباس والمراد بعذاب الخزي العذاب الذي يخزي صاحبه ويحل عليه العار
(ويحل) التلاوة بكسر الحاء ويجوز لغة ضمها كما في المصباح أي ينزل (عليه عذاب مقيم)
في الآخرة وهو عذاب النار الدائم والخلود فيها وقيل معنى يحل يجعل المؤجل حالا مأخوذ
من حلول الدين المؤجل وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم عن عائشة
قالت قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان نوح مكث في قومه ألف سنة الا خمسين
عاما يدعوهم حتى كان آخر زمانه غرس شجرة فعظمت وذهبت كل مذهب ثم قطعها
ثم جعل يعمل منها سفينة ويمرون فيسألونه فيقول اعملها سفينة فيسخرون منه ويقولون
تعمل سفينة في البر وكيف تجري قال سوف تعلمون فلما فرغ منها وفار التنور وكثر الماء
في السكك خشيت أم الصبي عليه وكانت تحبه حبا شديدا فخرجت الى الجبل حتى بلغت
ثلثه فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء رقبته رفعته بين يديها
حتى ذهب الماء بها فلو رحم الله منهم أحدا لرحم أم الصبي وقد ضعفه الذهبي في مستدركه
على مستدرك الحاكم وقد روى في صفة السفينة وقدرها أحاديث وآثار ليس في
ذكرها هنا كثير فائدة (حتى اذا جاء أمرنا) حتى هي الابتدائية دخلت على الجملة

عن حسين المعلم عن عبد الله بن بريدة في قوله واعلموا أنما غنمتم من شئ فان لله خمسه وللرسول قال الذي لله فلنبيه والذي للرسول لازواجه وقال عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء بن أبي رباح قال خمس الله والرسول واحد يحمل منه ويصنع فيه ما شاء يعني النبي صلى الله عليه وسلم وهذا أعم وأشمل وهو أنه صلى الله عليه وسلم يتصرف في الخمس الذي جعله الله له بما شاء ويرده في أمته كيف شاء ويشهد لهذا ما رواه الامام أحمد حيث قال حدثنا اسحق بن عيسى حدثنا اسمعيل بن عياش عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم عن أبي سلام الاعرج عن المقدام بن معديكرب الكندي انه جلس مع عبادة بن الصامت وأبي الدرداء والحرث بن معاوية الكندي رضي الله عنهم فتذاكروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو الدرداء لعبادة يا عبادة كلمات رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة كذا وكذا في شأن الاخماس فقال عبادة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم في غزوة الى بعير من المغنم فلما سلم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فتناول وبرة بين أنملتيه فقال ان هذه من غنائمكم وانه ليس لي فيها الا نصيبي معكم الخمس والخمس مردود عليكم فأدوا الخيط والمخيط وأكبر من ذلك وأصغر ولا تغلوا فان الغلول عار ونار على أصحابه في الدنيا والآخرة وجاهدوا الناس في الله القريب والبعيد (٣٢٠) ولا تبالوا في الله لومة لائم وأقيموا حدود الله في الحضر والسفر وجاهدوا في الله فان الجهاد باب من أبواب الجنة عظيم ينجي الله به من الهم والغم هذا حديث حسن عظيم ولم أره في شئ من الكتب الستة من هذا الوجه ولكن روى الامام أحمد أيضا وأبو داود والنسائي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نحوه في قصة الخمس والنهي عن الغلول وعن عمرو بن عنبسة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم الى بعير من المغنم فلما سلم أخذ وبرة من ذلك البعير ثم قال ولا يحل لي من غنائمكم مثل هذا الا الخمس والخمس مردود عليكم رواه أبو داود والنسائي وقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم من الغنائم شئ يصطفيه لنفسه عبدا أو أمة أو فرسا أو سيفا أو نحو ذلك كما نص عليه محمد بن سيرين وعامر الشعبي وتبعهما على ذلك أكثر العلماء وروى الامام أحمد والترمذي وحسنه عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تنفل سيفه ذا الفقار يوم بدر وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أحد وعن عائشة رضي الله عنها قالت كانت صفية من الصفي رواه أبو داود في سننه وروى أيضا باسناده والنسائي أيضا عن يزيد بن عبد الله قال كنا بالمربد اذ دخل رجل معه قطعة أديم فقرأناها فاذا فيها من محمد رسول الله الى بني زهير بن أقيش انكم ان شهدتم أن لا اله الا الله وان محمدا رسول الله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأديتم الخمس من المغنم وسهم النبي صلى الله عليه وسلم وسهم الصفي أنتم آمنون بأمان الله ورسوله فقلنا من كتب لك هذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذه أحاديث جيدة تدل على تقرير هذا وثبوته ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له صلوات الله وسلامه عليه وقال آخرون ان الخمس يتصرف فيه الامام بالمصلحة للمسلمين كما يتصرف في مال الفئ وقال شيخنا الامام العلامة ابن تيمية رحمه الله وهذا قول مالك وأكثر السلف وهو أصح الاقوال فاذا ثبت هذا وعلم فقد اختلف أيضا في الذي كان يناله عليه السلام من الخمس ماذا يصنع به من بعده فقال قائلون يكون لمن يلي الامر من بعده روى هذا عن أبي بكر

الشرطية وجعلت غاية لقوله واصنع الفلك بأعيننا وما بينهما اعتراض والمراد بالامر العذاب أو وقته وهو واحد الامور لا الاوامر ويصح أن يراد الثاني على معنى جاء أمرنا بركوب السفينة (وفار التنور) أي غلى واختلف في تفسير التنور على أقوال الاول انه وجه الارض والعرب تسمي وجه الارض تنورا أو أشرف موضع فيها روى ذلك عن ابن عباس وعكرمة والزهري وابن عيينة الثاني انه تنور الخبز الذي يخبزون فيه ابتدئ منه النبع على خلاف العادة وبه قال مجاهد وعطية والحسن وهو قول أكثر المفسرين قيل وهذا أولى لان اللفظ اذا دار بين الحقيقة والمجاز كان حمله على الحقيقة أولى ولفظ التنور حقيقة في اسم الموضع الذي يخبز فيه الثالث انه موضع اجتماع الماء في السفينة وروى هذا عن الحسن الرابع انه طلوع الفجر من قولهم تنور الفجر روى ذلك عن علي ابن أبي طالب الخامس انه مسجد الكوفة روى ذلك عن علي أيضا ومجاهد وقال مجاهد كان ناحية التنور بالكوفة على يمين الداخل مما يلي باب كندة وكان الشعبي يحلف بالله انه ما فار الا من ناحية الكوفة الثالث انه أعالي الارض والمواضع المرتفعة قاله قتادة السابع انه العين التي بالجزيرة المسماة عين الوردة وهي بالشام روى ذلك عن عكرمة وبه قال مقاتل الثامن انه موضع بالهند قال ابن عباس كان تنور آدم بالهند وكانت حواء تخبز فيه وصار الى نوح قال النحاس وهذه الاقوال ليست بمتناقضة لان الله

سبحانه

على بقية

وعلى وقتادة وجماعة وجاء فيه حديث مرفوع وقال آخرون يصرف

وسلم وسهم

الاصناف ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل اختاره ابن جرير و
ذوى القربى مردودان على اليتامى والمساكين وابن السبيل قال ابن جرير وذلك قول جماعة من أهل العراق وقيل ان الخمس جميعه لذوى القربى كما رواه ابن جرير حدثنا الحرث حدثنا عبد العزيز حدثنا عبد الغفار حدثنا المنهال بن عمرو سألت عبد الله بن محمد بن على وعلى بن الحسين عن الخمس فقالا هو لنا فقلت لعلى فان الله يقول واليتامى والمساكين وابن السبيل فقالا يتامانا ومساكيننا وقال سفيان الثورى وأبو نعيم وأبو أسامة عن قيس بن مسلم سألت الحسن بن محمد بن الحنفية رحمه الله تعالى عن قول الله تعالى واعلموا انما غنمتم من شئ فان لله خمسه وللرسول فقال هذا مفتاح كلام الله الدنيا والآخرة ثم اختلف الناس فى هذين السهمين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قائلون سهم النبى صلى الله عليه وسلم تسليم للخليفة من بعده وقال آخرون لقرابة النبى صلى الله عليه وسلم وقال آخرون سهم القرابة لقرابة الخليفة واجتمع رأيهم أن يجعلوا هذين السهمين فى الخيل والعدة فى سبيل الله فكانا على ذلك فى خلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما قال الاعمش عن ابراهيم كان أبو بكر (٣٢١) وعمر يجعلان سهم النبى صلى الله عليه وسلم فى الكراع والسلاح فقلت لابراهيم ما كان على يقول فيه قال كان أشدهم فيه وهذا قول طائفة كثيرة من العلماء رحمهم الله وأما سهم ذوى القربى فانه يصرف الى بنى هاشم وبنى المطلب لان بنى المطلب وازروا بنى هاشم فى الجاهلية وفى أول الاسلام ودخلوا معهم فى الشعب غضبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحماية له مسلمهم طاعة لله ولرسوله وكافرهم حمية للعشيرة وأنفة وطاعة لابى طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل وان كانوا ابنى عمهم فلم يوافقوهم على ذلك بل حاربوهم ونابذوهم وقالوا بطون قريش على حرب الرسول ولهذا كان ذم أبى طالب لهم فى قصيدته اللامية أشد من غيرهم لشدة قربهم ولهذا يقول فى أثناء قصيدته

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا * عقوبة شر عاجل غير آجل
بميزان قسط لا يخيس شعيرة * له شاهد من نفسه غير عائل
لقد سفهت احلام قوم تبدلوا * بنو خلف قيضا بنا والعياطل
ونحن الصميم من ذؤابة هاشم * وآل قصى فى الخطوب الاوائل

وقال ابن جبير بن مطعم بن عدى بن نوفل مشيت انا وعثمان يعنى ابن عفان يعنى ابن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا يا رسول الله أعطيت بنى المطلب من خمس خيبر وتركتنا ونحن وهم منك بمنزلة واحدة فقال انما بنو هاشم وبنو المطلب شئ واحد رواه مسلم وفى بعض روايات هذا الحديث انهم لم يفارقونى فى جاهلية ولا اسلام وهذا قول جمهور العلماء انهم بنو هاشم وبنو المطلب قال ابن جرير وقال آخرون هم بنو هاشم ثم روى عن خصيف عن مجاهد قال علم الله ان فى بنى هاشم فقراء فجعل لهم الخمس مكان الصدقة وفى رواية عنه قال هم قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين لا تحل لهم الصدقة ثم روى على بن الحسين نحو ذلك قال ابن جرير وقال آخرون بل هم قريش كلها حدثنى يونس بن عبد الاعلى حدثنى عبد الله بن نافع

سبحانه قد أخبر بان الماء قد جاء من السماء والارض قال ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الارض عيونا فهذه الاقوال تجتمع فى ان ذلك كان علامة هكذا قال وفيه نظر فان القول الرابع ينافى هذا الجمع ولا يستقيم عليه التفسير بنبع الماء الا اذا كان المراد مجرد العلامة كما ذكره آخرا وقد ذكر أهل اللغة ان الفور الغليان يقال فار الماء يفور فورا نبع وجرى وفارت القدر فورا من باب قال وفورانا غلت وعلى هذا لا تجوز فى الآية الا من حيث نسبة الفوران الى التنور وهو اسم أعجمى عربته العرب وعلى هذا فلا اشتقاق له وقيل فارسى لا تعرف له العرب اسما غيره هذا فلذلك جاء فى القرآن بهذا اللفظ فخوطبوا بما يعرفون وقيل جاء هكذا بكل لفظ عربى وعجمى وانه مما اتفق عليه لغة العرب والعجم كالصابون ووزنه تفعول ويعزى هذا لثعلب وقيل فعول ويعزى لابى على الفارسى وقيل معنى فار التنور التمثيل بحضور العذاب كقولهم حمى الوطيس اذا اشتد الحرب وعلى هذا فهو كناية عن اشتداد الامر وقيل كان من حجر لحواء فصار الى نوح وقد روى فى تفسير التنور غير هذا ذكر ابن جرير وغيره ان الطوفان كان فى ثالث عشر من أبيب فى شدة القيظ وكان الفوران علامة لنوح على مجيئه وركوب السفينة (قلنا) يا نوح (احمل فيها) أى فى السفينة (من كل زوجين) مما فى الارض من الحيوانات (اثنين) ذكرا وأنثى وقرئ من كل بالتنوين أى من كل شئ زوجين والزوجان

عن ابى معشر عن سعيد المقبرى قال كتب نجدة الى عبد الله بن عباس يسأله عن ذوى القربى فكتب اليه ابن عباس كنا نقول انا هم فأبى علينا قومنا وقالوا قريش كلها ذوو قربى وهذا الحديث صحيح رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى من حديث سعيد المقبرى ذكره الى قوله فأبى علينا قومنا والزيادة من أفراد أبى معشر نجيح بن عبد الرحمن المدنى وفيه ضعف وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا ابراهيم بن مهدى المصيصى حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن حنش عن عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رغبت لكم عن غسالة الايدى لان لكم من خمس الخمس ما يغنيكم أو يكفيكم هذا حديث حسن الاسناد وابراهيم بن مهدى هذا وثقه أبو حاتم وقال يحيى بن معين يأتى بمناكير والله وقوله واليتامى أى أيتام المسلمين واختلف العلماء هل يختص الايتام بالفقراء أو يعم الاغنياء والفقراء على قولين والمساكين هم المحاويج الذين لا يجدون ما يسد خلتهم ويكفيهم وابن السبيل هو المسافر أو المريد للسفر الى مسافة تقصر فيها الصلاة وليس له ما ينفقه فى سفره ذلك وسيأتى تفسير ذلك فى آية الصدقات فى سورة براءة ان شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان وقوله ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا أى امتثلوا ما شرعنا لكم من الخمس فى الغنائم ان كنتم تؤمنون بالله واليوم (٣٢٢) الآخر وما أنزل على رسوله ولهذا جاء فى الصحيحين من حديث عبد الله ابن عباس فى حديث وفد عبد القيس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم وآمركم بأربع وأنهاكم عن أربع آمركم بالايمان بالله ثم قال هل تدرون ما الايمان بالله شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وان تؤدوا الخمس من المغنم الحديث بطوله فجعل أداء الخمس من جملة الايمان وقد بوب البخارى على ذلك فى باب الايمان من صحيحه فقال باب أداء الخمس من الايمان ثم أورد حديث ابن عباس هذا وقد بسطنا الكلام عليه فى شرح البخارى ولله الحمد والمنة وقال مقاتل بن حيان وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان أى يوم التقى الجمعان والله على كل شئ قدير ينبه تعالى على نعمه واحسانه الى خلقه بما فرق به بين الحق والباطل وأظهر دينه ونصر نبيه وحزبه ببدر ويسمى الفرقان لان الله أعلى فيه كلمة الايمان على كلمة الباطل قال على بن أبى طلحة والعوفى عن ابن عباس يوم الفرقان يوم بدر فرق الله فيه بين الحق والباطل رواه الحاكم وكذا قال مجاهد ومقسم وعبيد الله بن عبد الله والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان وغير واحد أنه يوم بدر وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن عروة بن الزبير فى قوله يوم الفرقان يوم فرق الله بين الحق والباطل وهو يوم بدر وهو أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة أو سبع عشرة مضت من رمضان وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ثلثمائة وبضعة عشر رجلا والمشركون ما بين الالف والتسعمائة فهزم الله المشركين وقتل منهم زيادة على السبعين وأسر منهم مثل ذلك وقد روى الحاكم فى مستدركه من حديث الاعمش عن ابراهيم عن الاسود عن ابن مسعود قال فى ليلة القدر تحروها لاحدى عشرة تبقين فان صبيحتها يوم بدر وقال على شرطهما وروى مثله عن عبد الله بن الزبير أيضا من حديث جعفر بن برقان عن رجل عنه وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا يحيى بن واضح حدثنا يحيى بن يعقوب أبو طالب عن ابن عون عن محمد بن عبد الله

للاثنين اللذين لا يستغنى أحدهما عن الآخر ويطلق على كل واحد منهما زوج كما تقول للرجل زوج وللمرأة زوج وهو المراد هنا أى من كل فردين متزاوجين اثنين بأن تحمل من الطير ذكرا وأنثى ومن الغنم ذكرا وأنثى وهكذا وترك الباقى والمراد من الحيوانات التى تنفع والتى تلد أو تبيض ليخرج المضرات والتى تتولد من العفونة والتراب كالدود والقمل والبق والبعوض فلم يحمل منه شيأ ويطلق الزوج على الاثنين اذا استعمل مقابلا للفرد ويطلق الزوج على الضرب والصنف ومنه قوله تعالى وأنبتت من كل زوج بهيج قال الرازى وأما ما روى ان ابليس دخل السفينة فبعيد لانه من الجن وهو جسم نارى أو هوائى فكيف يفر من الغرق وأيضا فان كتاب الله لم يدل على ذلك ولم يرد فيه خبر صحيح فالاولى ترك الخوض فيه انتهى (و) احمل (أهلك) والمراد امرأته المؤمنة وبنوه ونساؤهم (الا من سبق عليه القول) أى من تقدم الحكم عليه بأنه من المغرقين فى علمه أو فى قوله ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون على الاختلاف الشائع فيهم فمن جعلهم جميع الكفار من أهله وغيرهم كان هذا الاستثناء من جملة احمل فيها أو أهلك ومن قال المراد بهم ابنه كنعان وامرأته الكافرة واعلة أم كنعان جعل الاستثناء من أهلك ويكون متصلا ان أريد بالاهل ما هو أعم من المسلم والكافر منهم ومنقطعا ان أريد بالاهل المسلمون منهم فقط (و) احمل (من آمن) من قومك فى السفينة وأفرد الاهل منهم لمزيد العناية بهم

الثقفي عن أبي عبد الرحمن السلمي قال قال الحسن بن علي كانت ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان لسبع عشرة من رمضان اسناد جيد قوي ورواه ابن مردويه عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب عن علي قال كانت ليلة الفرقان ليلة التقى الجمعان في صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان وهو الصحيح عند أهل المغازي والسير وقال يزيد بن أبي حبيب امام أهل الديار المصرية في زمانه كان يوم بدر يوم الاثنين ولم يتابع على هذا وقول الجمهور مقدم عليه والله أعلم (اذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وان الله لسميع عليم) يقول تعالى يوم الفرقان اذ أنتم بالعدوة الدنيا أي أنتم نزول بعدوة الوادي الدنيا القريبة من المدينة وهم أي المشركون نزلوا بالعدوة القصوى اي البعيدة من المدينة الى ناحية مكة والركب أي العير الذي فيه أبو سفيان بما معه من التجارة أسفل منكم أي مما يلي سيف البحر ولو تواعدتم أي أنتم والمشركون أي في مكان لاختلفتم في الميعاد قال محمد بن اسحق وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه في هذه الآية قال ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم ما لقيتموهم ولكن (٣٢٢) ليقضي الله أمرا كان مفعولا أي ليقضي الله ما أراد بقدرته من اعزاز الاسلام وأهله واذلال الشرك وأهله من غير ملا منكم ففعل ما أراد من ذلك بلطفه وفي حديث كعب بن مالك قال انما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد وقال ابن جرير حدثني يعقوب حدثني ابن علية عن ابن عون عن عمير بن اسحق قال أقبل أبو سفيان في الركب من الشام وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فالتقوا ببدر ولا يشعر هؤلاء بهؤلاء ولا هؤلاء بهؤلاء حتى التقت السقاة ونهد الناس بعضهم الى بعض وقال محمد بن اسحق في السيرة ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجهه ذلك حتى اذا كان قريبا من الصفراء بعث بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء الجهنيين يلتمسان الخبر عن أبي سفيان فانطلقا حتى اذا وردا بدرا فأناخا بعيريهما الى تل من البطحاء فاستقيا في شن لهما من الماء فسمعا جاريتين يختصمان تقول احداهما لصاحبتها اقضيني حقي وتقول الاخرى انما تأتي العير غدا أو بعد غد فأقضيك حقك فخلص بينهما مجدي بن عمرو وقال صدقت فسمع ذلك بسبس وعدي فجلسا على بعيريهما حتى أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه الخبر وأقبل أبو سفيان حتى وليا وقد حذر فتقدم أمام عيره وقال لمجدي بن عمرو هل أحسست على هذا الماء من أحد تنكره فقال لا والله الا أني قد رأيت راكبين أناخا الى هذا التل فاستقيا في شن لهما ثم انطلقا فجاء أبو سفيان الى مناخ بعيريهما فأخذ من أبعارهما ففتته فاذا فيه النوى فقال هذه والله علائف يثرب ثم رجع سريعا فضرب وجه عيره فانطلق بها فساحل حتى اذا رأى أنه قد أحرز عيره بعث الى قريش فقال ان الله قد نجى عيركم وأموالكم ورجالكم فارجعوا فقال أبو جهل والله لا نرجع حتى نأتي بدرا وكانت بدر سوقا من أسواق العرب فنقيم بها ثلاثا فنطعم بها الطعام وننحر بها الجزر ونسقي بها الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا فلا يزالون يهابوننا بعدها أبدا فقال الاخنس بن شريق يا معشر بني زهرة ان الله

أو للاستثناء منهم على القول الآخر ثم وصف الله سبحانه قلة المؤمنين مع نوح بالنسبة الى من كفر به فقال (وما آمن معه الا قليل) واعتبار المعية في ايمانهم للايماء الى المعية في مقر الايمان والنجاة قيل كانوا ثمانية نوح وأهله وبنوه الثلاثة ونساؤهم وبه قال قتادة وابن جرير ومحمد بن كعب القرظي وقيل كانوا ثمانين رجلا أحدهم جرهم قاله ابن عباس قال الخفاجي وهي الرواية الصحيحة انتهى ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية يقال لها قرية الثمانين وهي موجودة بناحية الموصل وقيل سبعة نوح وبنوه وثلاث كنائن له قاله الاعمش قال الخفاجي ويرده عطف من آمن الا أن يكون الاهل بمعنى الزوجة فانه ثبت بهذا المعنى وهو خلاف الظاهر وقيل كانوا تسعة وسبعين زوجته المسلمة وبنوه الثلاثة سام وحام ويافث ونساؤهم واثنان وسبعون رجلا وامرأة من غيرهم وعن ابن اسحق كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة وقيل غير ذلك قال الطبري والصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال عز وجل وما آمن معه الا قليل ولم يحد عددا بمقدار فلا ينبغي أن يجاوز في ذلك حد الله سبحانه وتعالى اذ لم يرد ذلك في كتاب ولا خبر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (وقال اركبوا فيها) القائل نوح وقيل الله سبحانه والاول أولى لقوله ان ربي لغفور رحيم والركوب العلو على ظهر الشيء المتحرك حقيقة نحو ركب الدابة أو مجازا نحو ركبه الدين وفي الكلام حذف أي اركبوا الماء في السفينة فلا يرد أن ركب يتعدى بنفسه وقيل ان الفائدة في زيادة في أنه

قد أنجى أموالكم ونجى صاحبكم فارجعوا فأطاعوه فرجعت بنو زهرة فلم يشهدها ولا بنو عدي قال محمد بن اسحق وحدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير قال وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دنا من بدر علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام في نفر من أصحابه يتحسسون له الخبر فأصابوا سقاة لقريش غلاما لبني سعيد بن العاص وغلاما لبني الحجاج فأتوا بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدوه يصلي فجعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونهما لمن أنتما فيقولان نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم من الماء فكره القوم خبرهما ورجوا أن يكونا لأبي سفيان فضربوهما فلما أذلقوهما قالا نحن لأبي سفيان فتركوهما وركع رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد سجدتين ثم سلم وقال اذا صدقاكم ضربتموهما واذا كذباكم تركتموهما صدقا والله انهما لقريش أخبراني عن قريش قالا هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى والكثيب العقنقل فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم كم القوم قالا كثير قال ما عدتهم قالا ما ندري قال كم ينحرون كل يوم قالا يوما تسعا ويوما عشرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم القوم ما بين التسعمائة الى الألف ثم قال لهما فمن فيهم من أشراف قريش قالا عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام ونوفل بن خويلد والحرث (٣٢٤) بن عامر بن نوفل وطعيمة بن عدي والنضر بن الحرث وزمعة بن الاسود وأبو جهل وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو وعمرو بن عبد ود فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس فقال هذه مكة قد ألقت اليكم أفلاذ كبدها قال محمد بن اسحق رحمه الله تعالى وحدثني عبد الله بن أبي بكر ابن حزم أن سعد بن معاذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما التقى الناس يوم بدر يا رسول الله ألا نبني لك عريشا تكون فيه وننيخ ركائبك ونلقى عدونا فان أظفرنا الله عليهم وأعزنا فذاك ما نحب وان تكن الاخرى فتجلس على ركائبك وتلحق بمن وراءنا من قومنا فقد والله تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد لك حبا منهم لو علموا انك تلقى حربا ما تخلفوا عنك ويوازرونك وينصرونك فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ودعا له به فبني له عريشا فكان فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ما معهما غيرهما قال ابن اسحق وارتحلت قريش حين أصبحت فلما أقبلت ورآها رسول الله صلى الله عليه وسلم تصوب من العقنقل وهو الكثيب الذي جاؤا منه الى الوادي فقال اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم أحنهم الغداة وقوله ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة قال محمد بن اسحق أي ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآية والعبرة ويؤمن من آمن على مثل ذلك وهذا تفسير جيد وبسط ذلك انه تعالى يقول انما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد على غير ميعاد لينصركم عليهم ويرفع حجة الحق على الباطل ليصير الامر ظاهرا والحجة قاطعة والبراهين ساطعة ولا يبقى لاحد حجة ولا شبهة فحينئذ يهلك من هلك أي يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره انه مبطل لقيام الحجة عليه ويحيى من حي عن بينة أي يؤمن من آمن عن بينة أي حجة وبصيرة والايمان هو حياة القلوب قال الله تعالى أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس وقالت عائشة في قصة الافك فهلك فيّ من هلك أي قال فيها ما قال من البهتان والافك وقوله وان الله لسميع أي لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به عليم أي بكم وانكم تستحقون

أمرهم بان يكونوا في جوف السفينة لا على ظهرها وقيل بل انها زيدت لرعاية جانب المحلية والمكانية في السفينة كما في قوله فاذا ركبوا في الفلك وقوله حتى اذا ركبا في السفينة قيل ولعل نوحا قال هذه المقالة بعد ادخال ما أمر بحمله في الفلك من الازواج كأنه قيل فحمل الازواج وأدخلها في الفلك وقال للمؤمنين اركبوا فيها ويمكن أن يقال انه أمر بالركوب كل من أمر بحمله من الازواج والاهل والمؤمنين ولا يمتنع أن يفهم خطابه من لا يعقل من الحيوانات أو يكون هذا على طريقة التغليب وقد روي في صفة القصة وما جرى له نوح في السفينة وكيف كان الغرق وكم بقيت السفينة على ظهر الماء روايات كثيرة لا مدخل لها في تفسير كلام الله سبحانه (بسم الله) متعلق باركبوا أو حال من فاعله أي اركبوا مسمين الله أو قائلين بسم الله (مجراها ومرساها) بضم الميم فيهما من أجريت وأرسيت على انهما اسما زمان وهما في موضع نصب على الظرفية أي وقت اجرائها وارسائها أو مصدران كالاجراء والارساء بحذف الوقت كقولك آتيك خفوق النجم أو اسما مكان انتصبا بما في بسم الله من معنى الفعل أو ارادة القول وقرئ الاول بفتح الميم والثاني بضمها وهاتان القراءتان سبعيتان وقرئ بفتحهما فيهما من جرى ورسى وهذه شاذة وقرئ مجريها ومرسيها بلفظ اسم الفاعل مجروري المحل على انهما وصفان لله ويجوز أن يكونا في موضع رفع باضمار مبتدأ أي هو مجريها ومرسيها والرسو الثبات والاستقرار

 (اذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم فى الامر ولكن الله
سلم انه عليم بذات الصدور واذ يريكموهم اذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا والى الله
ترجع الامور) قال مجاهد أراهم الله اياه فى منامه قليلا وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بذلك فكان تثبيتا لهم وكذا قال ابن
اسحق وغير واحد وحكى ابن جرير عن بعضهم انه رآهم بعينه التى ينام بها وقد روى ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا يوسف بن موسى
المدبر حدثنا أبو قتيبة عن سهل السراج عن الحسن فى قوله اذ يريكهم الله فى منامك قليلا قال بعينك وهذا القول غريب وقد صرح
بالمنام ههنا فلا حاجة الى التأويل الذى لا دليل عليه وقوله ولو أراكهم كثيرا لفشلتم أى لجبنتم عنهم واختلفتم فيما بينكم ولكن
الله سلم أى من ذلك بأن أراكهم قليلا انه عليم بذات الصدور أى بما تخفيه الضمائر وتنطوى عليه الاحشاء فيعلم خائنة الاعين
وما تخفى الصدور وقوله واذ يريكموهم اذ التقيتم فى أعينكم قليلا وهذا أيضا من لطفه تعالى بهم اذ أراهم اياهم قليلا فى رأى العين
ليجرئهم عليهم ويطمعهم فيهم قال ابو اسحق السبيعى عن أبى عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال لقد قللوا فى أعيننا
يوم بدر حتى قلت لرجل الى جنبى تراهم سبعين قال لا بل هم مائة حتى أخذنا (٣٢٥) رجلا منهم فسألناه فقال كنا ألفا رواه ابن أبى
حاتم وابن جرير وقوله ويقللكم فى أعينهم قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد ابن زيد عن الزبير بن الحرث عن عكرمة واذ يريكموهم اذ التقيتم الآية قال حضض بعضهم على بعض اسناد صحيح وقال محمد بن اسحق حدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه فى قوله تعالى ليقضى الله أمرا كان مفعولا أى ليلقى بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه والانعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته ومعنى هذا انه تعالى أغرى كلا من الفريقين بالآخر وقلله فى عينه ليطمع فيه وذلك عند المواجهة
فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بالملائكة بألف من الملائكة مردفين بقى حزب الايمان يرى حزب الكفار ضعفا
كما قال تعالى قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من
يشاء ان فى ذلك لعبرة لأولى الابصار وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين فان كلا منهما حق وصدق ولله الحمد والمنة (يا أيها الذين
آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا
ان الله مع الصابرين) هذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين آداب اللقاء وطريق الشجاعة عند مواجهة الاعداء فقال يا أيها
الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا ثبت فى الصحيحين عن عبد الله بن أبى أوفى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انتظر فى بعض
أيامه التى لقى فيها العدو حتى اذا مالت الشمس قام فيهم فقال يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فاذا لقيتموهم
فاصبروا واعلموا ان الجنة تحت ظلال السيوف ثم قام النبى صلى الله عليه وسلم وقال اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم
الاحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم وقال عبد الرزاق عن سفيان الثورى عن عبد الرحمن بن زياد عن عبد الله بن يزيد عن عبد الله
ابن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فاذا لقيتموهم فاثبتوا واذكروا الله فان جلبوا
وصاحوا فعليكم بالصمت وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا ابراهيم بن هاشم البغوى حدثنا أمية بن بسطام حدثنا معتمر بن

والاستقرار قال مجاهد فى الآية أى حين تركبون وتجرون وترسون وعن الضحاك قال
كان اذا أراد ان ترسى قال بسم الله فرست واذا أراد ان تجرى قال بسم الله فجرت (ان
ربى لغفور) للذنوب (رحيم) بعباده ومن رحمته انجاء هذه الطائفة تفضلا منه لبقاء هذا
الجنس الحيوانى وعدم استئصاله بالغرق أخرج أبو يعلى والطبرانى وابن السنى وغيرهم
عن الحسن بن على قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمان لامتى من الغرق اذا
ركبوا الفلك ان يقولوا بسم الله الملك الرحمن بسم الله مجراها الآية وما قدروا الله حق
قدره الآية (وهى تجرى بهم) أى فركبوا مسمين والسفينة تجرى والجملة مستأنفة
أو حالية ولذلك فسره الزمخشرى بقوله أى تجرى وهم فيها (فى موج) جمع موجة وهى
ما ارتفع عن جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح واضطرابه فى خلاله (كالجبال) شبهها
بالجبال المرتفعة على الارض أى كل موجة منه كالجبل فى تراكمها وارتفاعها وعظمها
قال أهل السير ارتفع الماء على أعلى جبل وأطوله أربعين ذراعا وقيل خمسة عشر ذراعا
حتى أغرق كل شىء وعم العباد وشمل كل البلاد وما قيل من ان الماء طبق ما بين السماء
والارض وكانت السفينة تجرى فى جوفه كالحوت فغير ثابت (ونادى نوح ابنه) هو
كنعان وقيل يام وكان كافرا واستبعد كون نوح ينادى من كان كافرا مع قوله رب لا تذر
على الارض من الكافرين ديارا وأجيب بأنه كان منافقا فظن نوح انه مؤمن وقيل جملته

سلمان حدثنا ثابت بن زيد عن رجل عن زيد بن أرقم عن النبي صلى الله عليه وسلم مرفوعا قال ان الله يحب الصمت عند ثلاث عند تلاوة القرآن وعند الزحف وعند الجنازة وفي الحديث الآخر المرفوع يقول الله تعالى ان عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قرنه أي لا يشغله ذلك الحال عن ذكري ودعائي واستعانتي وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في هذه الآية قال افترض الله ذكره عند أشغل ما يكون عند الضراب بالسيوف وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبدة بن سليمان حدثنا ابن المبارك عن ابن جريج عن عطاء قال وجب الانصات وذكر الله عند الزحف ثم تلا هذه الآية قلت يجهرون بالذكر قال نعم وقال أيضا قرأ على يونس ابن عبد الاعلى أنبأنا ابن وهب أخبرني عبد الله بن عياش عن يزيد بن قوذر عن كعب الاحبار قال ما من شئ أحب الى الله تعالى من قراءة القرآن والذكر ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال ألا ترون انه أمر الناس بالذكر عند القتال فقال يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون قال الشاعر.

ذكرتك والخطي يخطر بيننا * وقد نهلت فينا المثقفة السمر

وقال عنترة

ولقد ذكرتك والرماح شواجر * فينا وبيض الهند تقطر من دمي

فأمر تعالى بالثبات عند قتال الاعداء والصبر على مبارزتهم فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجبنوا وان يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه بل يستغيثوا به ويتوكلوا عليه ويسألوه النصر على أعدائهم وان يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا وما نهاهم عنه انزجروا ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضا فيختلفوا فيكون سببا لتخاذلهم وفشلهم وتذهب ريحكم أي قوتكم وحدتكم وما كنتم فيه من الاقبال واصبروا ان الله مع الصابرين وقد كان للصحابة رضي الله عنهم في باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم الله ورسوله وامتثال ما أرشدهم اليه ما لم يكن لاحد من الامم والقرون قبلهم ولا يكون لاحد ممن بعدهم فانهم ببركة الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعته فيما أمرهم فتحوا القلوب والاقاليم شرقا وغربا في المدة اليسيرة مع قلة عددهم بالنسبة الى جيوش سائر الاقاليم من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش وأصناف السودان والقبط وطوائف بني آدم قهروا الجميع حتى علت كلمة الله وظهر دينه على سائر الاديان وامتدت الممالك الاسلامية في مشارق الارض ومغاربها في أقل من ثلاثين سنة فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين وحشرنا في زمرتهم انه كريم وهاب (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط واذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس واني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال اني بريء منكم اني أرى ما لا ترون اني أخاف الله والله شديد العقاب اذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم) يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالاخلاص في القتال في سبيله وكثرة ذكره ناهيا لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم بطرا أي دفعا للحق ورئاء الناس وهو المفاخرة والتكبر عليهم كما قال أبو جهل لما قيل له ان العير قد نجا فارجعوا

شفقة الابوة على ذلك وكان من صلبه على المعتمد وقال ابن عباس هو ابنه غير أنه خالفه في النية والعمل وقيل انه كان ابن امرأته ولم يكن ابنه ويؤيده ما روي ان عليا قرأ ونادى نوح ابنها وقيل انه كان لغير رشدة وولد على فراش نوح ورد بأن قوله هذا وقوله ان ابني من أهلي يدفع ذلك مع ما فيه من عدم صيانة منصب النبوة فان جناب الانبياء أرفع من أن يشار اليه بأصبع الطعن (وكان في معزل) أي في مكان عزل فيه نفسه عن قومه وقرابته بحيث لم يبلغه قول نوح اركبوا فيها وقيل في معزل من دين الله وقيل من السفينة قيل وكان هذا النداء قبل أن يستيقن الناس الغرق بل كان في أول فور التنور قبل سير السفينة (يا بني) أصله بثلاث ياآت ياء التصغير ولام الكلمة وياء المتكلم (اركب معنا) في السفينة أي اسلم واركب قال ملا علي الجلالي الظاهر ان معنى الآية أسلم لتستحق الركوب معنا (ولا تكن مع الكافرين) في البعد عنا فتهلك معهم نهاه عن الكون معهم خارج السفينة ويمكن ان يراد بالكون معهم الكون على دينهم في الكفر والاول أولى لانه عليه السلام بصدد التحذير عن الهلكة فلا يلائمه النهي عن الكفر ثم حكى الله سبحانه ما أجاب به ابن نوح على أبيه فقال (قال سآوي) أي سألتجئ وأصير (الى جبل يعصمني) أي يمنعني بارتفاعه وعلوه (من) وصول (الماء) الى زعما منه ان ذلك كسائر المياه في

أزمنة

فقال لا والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر وننحر الجزر ونشرب الخمر وتعزف علينا القيان وتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبدا فانعكس ذلك عليه أجمع لانهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحمام وركدوا في أطواء بدر مهانين أذلاء صغرة أشقياء في عذاب سرمدي أبدي ولهذا قال والله بما يعملون محيط أي عالم بما جاؤا به وله ولهذا جازاهم عليه شر الجزاء لهم قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك والسدي في قوله تعالى ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس قالوا هم المشركون الذين قاتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر وقال محمد بن كعب لما خرجت قريش من مكة الى بدر خرجوا بالقيان والدفوف فأنزل الله ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط وقوله تعالى واذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس واني جار لكم الآية حسن لهم لعنه الله ما جاؤا له وما هموا به وأطمعهم انه لا غالب لهم اليوم من الناس ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا في ديارهم من عدوهم بني بكر فقال اني جار لكم وذلك انه تبدى لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم سيد بني مدلج كبير تلك الناحية وكل ذلك منه كما قال تعالى عنه يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا قال ابن جريج قال ابن عباس في هذه الآية لما كان يوم بدر سار ابليس (٣٢٧) برايته وجنوده مع المشركين وألقى في قلوب المشركين ان أحدا لن يغلبكم واني جار لكم فلما التقوا ونظر الشيطان الى امداد الملائكة نكص على عقبيه قال رجع مدبرا وقال اني أرى ما لا ترون الآية وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال جاء ابليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رايته في صورة رجل من مدلج والشيطان في صورة سراقة بن مالك بن جعشم فقال الشيطان للمشركين لا غالب لكم اليوم من الناس واني جار لكم فلما اصطف الناس أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين فولوا مدبرين وأقبل جبريل عليه السلام الى ابليس فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع يده ثم ولى مدبرا وشيعته فقال الرجل يا سراقة أتزعم انك لنا جار فقال اني أرى ما لا ترون اني أخاف الله والله شديد العقاب وذلك حين رأى الملائكة وقال محمد بن اسحق حدثني الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ان ابليس خرج مع قريش في صورة سراقة بن مالك بن جعشم فلما حضر القتال ورأى الملائكة نكص على عقبيه وقال اني بريء منكم فتشبث به الحرث بن هشام فنخر في وجهه فخر صعقا فقيل له ويلك يا سراقة على هذه الحال تخذلنا وتبرأ منا فقال اني بريء منكم اني أرى ما لا ترون اني أخاف الله والله شديد العقاب وقال محمد بن عمر الواقدي أخبرني عمر بن عقبة عن شعبة مولى ابن عباس عن ابن عباس قال لما تواقف الناس أغمي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ثم كشف عنه فبشر الناس بجبريل في جند من الملائكة ميمنة الناس وميكائيل في جند آخر ميسرة الناس واسرافيل في جند آخر ألف وابليس قد تصور في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي يدبر المشركين ويخبرهم انه لا غالب لهم اليوم من الناس فلما أبصر عدو الله الملائكة نكص على عقبيه وقال اني بريء منكم اني أرى ما لا ترون فتشبث به الحرث بن هشام وهو يرى انه سراقة لما سمع من كلامه فضرب في صدر الحرث فسقط الحرث وانطلق ابليس لا يرى حتى سقط في البحر ورفع ثوبه وقال يا رب موعدك الذي وعدتني وفي الطبراني عن رفاعة بن رافع قريب من هذا

أزمنة السيول المعتادة التي ربما يتقى منها بالصعود الى الربى وأنى له ذلك وقد بلغ السيل الربى وجهلا بأن ذلك انما كان لاهلاك الكفرة وان لا محيص من ذلك سوى الالتجاء الى ملجأ المؤمنين فلذلك أراد عليه السلام ان يبين له حقيقة الحال وان يصرفه عن ذلك الفكر المحال (قال) أي فأجاب عنه نوح بقوله (لا عاصم) من الجبال أي لا مانع (اليوم من أمر الله) فانه يوم قد حق فيه العذاب وجف القلم بما هو كائن فيه نفي جنس العاصم فيندرج تحته العاصم من الغرق في ذلك اليوم اندراجا أوليا وعبر عن الماء أو عن الغرق بأمر الله سبحانه تفخيما لشأنه وتهويلا لامره (الا من رحم) وقرئ على البناء للمفعول والاستثناء منقطع قاله الزجاج أي لكن من رحمه فهو يعصمه واستظهره السفاقسي أو متصل على ان يكون عاصم بمعنى معصوم أي لا معصوم اليوم من أمر الله الا من رحمه الله مثل ماء دافق وعيشة راضية واختار هذا الوجه ابن جرير والزمخشري وتبعه القاضي وقيل العاصم بمعنى ذي العصمة كلابن وتامر والتقدير لا عاصم قط الا مكان من رحم الله وهو السفينة وحينئذ فلا يرد ما يقال ان معنى من رحم من رحمه الله ومن رحمه الله فهو معصوم فكيف يصح استثناؤه عن العاصم لان في كل وجه من هذه الوجوه دفعا للاشكال وذكر صاحب الانتصاف ان الاحتمالات الممكنة هنا أربعة لا عاصم الا راحم لا معصوم الا مرحوم لا عاصم الا مرحوم لا معصوم الا راحم فالاول ان استثناء

السياق أبسط منه ذكرناه في السيرة وقال محمد بن اسحق حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير قال لما أجمعت قريش المسير ذكرت الذي بينها وبين بني بكر من الحرب فكاد ذلك أن يثنيهم فتبدى لهم ابليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي وكان من أشراف بني كنانة فقال أنا جار لكم أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه فخرجوا سراعا قال محمد بن اسحق فذكر لي انهم كانوا يرونه في كل منزل في صورة سراقة بن مالك لا ينكرونه حتى اذا كان يوم بدر والتقى الجمعان كان الذي رآه حين نكص الحرث بن هشام أو عمير بن وهب فقال أين سراقة وميل عدو الله فذهب قال فأوردهم ثم أسلمهم قال ونظر عدو الله الى جنود الله قد أيد الله بهم رسوله والمؤمنين انتكص على عقبيه وقال اني بريء منكم اني أرى ما لا ترون وصدق عدو الله وقال اني أخاف الله والله شديد العقاب وهكذا روى عن السدي والضحاك والحسن البصري ومحمد بن كعب القرظي وغيرهم رحمهم الله وقال قتادة وذكر لنا انه رأى جبريل عليه السلام تنزل معه الملائكة فعلم عدو الله انه لا يدان له بالملائكة فقال اني أرى ما لا ترون اني أخاف الله وكذب عدو الله والله ما به مخافة الله ولكن علم انه لا قوة له ولا منعة وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له حتى اذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مسلم وتبرأ منهم عند ذلك قلت يعني (٣٢٨) بعادته لمن أطاعه كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال اني بريء منك اني أخاف الله رب العالمين وقوله تعالى وقال الشيطان لما قضي الامر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي اني كفرت بما أشركتمون من قبل ان الظالمين لهم عذاب أليم وقال يونس بن بكير عن محمد بن اسحق حدثني عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم عن بعض بني ساعدة قال سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة بعد ما كف بصره يقول لو كنت معكم الآن ببدر ومعي بصري لأخبرتكم بالشعب الذي خرجت منه الملائكة لا أشك ولا أتمارى فلما نزلت الملائكة ورآها ابليس وأوحى الله اليهم اني معكم فثبتوا الذين آمنوا وتثبيتهم ان الملائكة كانت تأتي الرجل في صورة الرجل يعرفه فيقول له أبشر فانهم ليسوا بشيء والله معكم فكروا عليهم فلما رأى ابليس الملائكة نكص على عقبيه وقال اني بريء منكم اني أرى ما لا ترون وهو في صورة سراقة وأقبل أبو جهل يحضض أصحابه ويقول لا يهولنكم خذلان سراقة اياكم فانه كان على موعد من محمد وأصحابه ثم قال واللات والعزى لا نرجع حتى نقرن محمدا وأصحابه في الحبال فلا تقتلوهم وخذوهم أخذا وهذا من أبي جهل لعنه الله كقول فرعون للسحرة لما أسلموا ان هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها وكقوله انه لكبيركم الذي علمكم السحر وهو من باب البهت والافتراء ولهذا كان أبو جهل فرعون هذه الامة وقال مالك بن أنس عن ابراهيم عن ابن عبلة عن طلحة عن عبيد الله بن كريز ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما رأى ابليس يوما هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ من يوم عرفة وذلك مما يرى من نزول الرحمة والعفو عن الذنوب الا ما رأى يوم بدر قالوا يا رسول الله وما رأى يوم بدر قال أما انه رأى جبريل عليه السلام يزع الملائكة هذا مرسل من هذا الوجه وقوله اذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم قال علي بن أبي طلحة

من الجنس والآخر ان استثناء من غير الجنس فيكون منقطعا أي لكن المرحوم يعصم على الاول ولكن الراحم يعصم من أراد على الثاني قال عكرمة لا ناج الا أهل السفينة (وحال بينهما الموج) أي حال بين نوح وابنه فتعذر خلاصه من الغرق وقيل بين ابن نوح وبين الجبل والاول أولى لان تفرع (فكان من المغرقين) عليه يدل على الاول لا على الثاني لان الجبل ليس بعاصم والمعنى فصار أو فكان كنعان من المغرقين في علم الله بالفعل والمهلكين بالماء (وقيل) أي بعد ما تناهى الطوفان وأغرق الله قوم نوح والقيل كالقول في هذين الموضعين عبارة عن تعلق القدرة التنجيزي بزوال الماء وبهلاكهم كما قيل في قوله تعالى ان يقول له كن فيكون وعلى هذا فالآية على الاستعارة المكنية والتخييلية وقيل تمثيلية كما فصل ذلك الخفاجي في العناية تفصيلا بسيطا مع ما يصحبه من لطائف البلاغة ولكن الحق الذي لا تردد فيه عند أولي البصيرة ان الآية على حقيقتها من النداء والامر وهو المختار في قوله سبحانه كن فيكون وأمثاله أيضا (يا أرض ابلعي) يقال بلع الماء يبلعه مثل منع يمنع وبلع يبلع مثل حمد يحمد لغتان حكاهما الكسائي والفراء والبلع الشرب وتغوير الماء ومنه البالوعة وهي الموضع الذي يشرب الماء والازدراد يقال بلع ما في فمه من الطعام اذا ازدرده واستعير البلع الذي هو من فعل الحيوان للنشف دلالة على ان ذلك ليس كالنشف المعتاد الكائن على سبيل التدريج قال الخفاجي النشف من

نشف

عن ابن عباس في هذه الآية لما دانا القوم بعضهم ... بن في أعين المشركين وقال المشركين في أعين المسلمين فقال المشركون غرهؤلاء دينهم وانما قالوا ذلك من قلتهم في أعينهم فظنوا انهم سيهزمونهم لا يشكون في ذلك فقال الله ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم وقال قتادة رأوا عصابة من المؤمنين تشددت لامر الله وذكر لنا ان أبا جهل عدو الله لما أشرف على محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه قال والله لا يعبد الله بعد اليوم قسوة وعتوا وقال ابن جريج في قوله اذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض هم قوم كانوا من المنافقين كانوا بمكة قالوه يوم بدر وقال عامر الشعبي كان ناس من أهل مكة قد تكلموا بالاسلام فخرجوا مع المشركين يوم بدر فلما رأوا قلة المسلمين قالوا غرهؤلاء دينهم وقال مجاهد في قوله عز وجل اذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غرهؤلاء دينهم قال فئة من قريش قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة والحرث بن زمعة ابن الاسود بن المطلب وعلي بن أمية بن خلف والعاص بن منبه بن الحجاج خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب فحبسهم ارتيابهم فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا غرهؤلاء دينهم حتى قدموا على ما قدموا عليه مع قلة عددهم وكثرة عدوهم وهكذا قال محمد بن اسحق بن يسار سواء

وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الاعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن الحسن في هذه الآية قال هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسموا منافقين قال معمر قال بعضهم هم قوم كانوا أقروا بالاسلام وهم بمكة فخرجوا مع المشركين يوم بدر فلما رأوا قلة المسلمين قالوا غر هؤلاء دينهم وقوله ومن يتوكل على الله أي يعتمد على جنابه فان الله عزيز أي لا يضام من التجأ اليه فان الله عزيز منيع الجناب عظيم السلطان حكيم في أفعاله لا يضعها الا في مواضعها فينصر من يستحق النصر ويخذل من هو أهل لذلك (ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد) يقول تعالى ولو عاينت يا محمد حال توفي الملائكة أرواح الكفار لرأيت أمرا عظيما هائلا فظيعا منكرا اذ يضربون وجوههم وأدبارهم ويقولون لهم ذوقوا عذاب الحريق قال ابن جريج عن مجاهد أدبارهم استاههم قال يوم بدر قال ابن جريج قال ابن عباس اذا أقبل المشركون بوجوههم الى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيوف واذا ولوا أدركتهم الملائكة يضربون أدبارهم وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم يوم بدر وقال وكيع عن سفيان الثوري عن أبي هاشم اسمعيل بن كثير عن مجاهد وعن شعبة عن يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير يضربون وجوههم وأدبارهم قال وأستاههم ولكن الله يكني وكذا قال عمر مولى عفرة وعن الحسن البصري قال قال رجل يا رسول الله اني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشوك قال ذاك ضرب الملائكة رواه ابن جرير وهو مرسل وهذا السياق وان كان سببه وقعة بدر ولكنه عام في حق كل كافر ولهذا لم يخصصه تعالى بأهل بدر بل قال تعالى ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وفي سورة القتال مثلها وتقدم في سورة الانعام قوله تعالى ولو ترى اذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم أي باسطو أيديهم بالضرب فيهم بامر ربهم اذا استعصت

نشف الثوب العرق كسمع وبصر اذا شربه قال المدقق هذا أولى من جعل السكاكي البلع مستعارا لغور الماء في الارض لدلالته على جذب الارض ما عليها كالبلع بالنسبة الى الحيوان ولان النشف فعل الارض والغور فعل الماء فلله دره ما أكثر اطلاعه على حقائق المعاني اه وقال عكرمة ابلعي هو بالحبشية ازدرديه وعن ابن منبه نحوه وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال معناه اشربي بلغة الهند وعن ابن عباس مثله أقول وثبوت لفظ البلع وما يشتق منه في لغة العرب ظاهر مكشوف فالتوافق للحبشة والهند والمعنى انشفي وتشربي (ماءك) أي ماعلى وجهك من ماء الطوفان دون المياه المعهودة فيها من العيون والانهار وعبر عنه بالماء بعد ما عبر عنه بأمر الله لان المقام مقام النقص والتقليل لا مقام التفخيم والتهويل (ويا سماء أقلعي) الاقلاع الامساك يقال أقلع المطر اذا انقطع وأقلع عن الشئ اذا تركه وهو قريب من الاول والمعنى أمر السماء بامساك الماء عن الارسال ولفظ أحمد المهايمي في تفسيره أي اجذبي الى جهة الفوق ما نزل منك اه وقيل ميز الله بين الماءين فما كان من ماء الارض أمرها فبلعته وصار ماء السماء بحارا وخوطبت الارض أولا بالبلع لان الماء نبع منها أولا قبل ان تمطر السماء (وغيض الماء) أي نقص ونضب ما بين السماء والارض من الماء يقال غاض الماء وغضته أنا وهو لازم ومتعد فمن اللازم قوله تعالى وما تغيض الارحام أي تنقص وقيل بل هو هنا متعد أيضا وسيأتي ومن

أنفسهم واستعصت من الخروج من الاجساد ان تخرج قهرا وذلك اذا بشروهم بالعذاب والغضب من الله كما فى حديث البراء ان ملك الموت اذا جاء الكافر عند احتضاره فى تلك الصورة المنكرة يقول اخرجى أيتها النفس الخبيثة الى سموم وحميم وظل من يحموم فتتفرق فى بدنه فيستخرجونها من جسده كما يخرج السفود من الصوف المبلول فيخرج معها العروق والعصب ولهذا أخبر تعالى ان الملائكة تقول لهم ذوقوا عذاب الحريق وقوله تعالى ذلك بما قدمت أيديكم أى هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الاعمال السيئة فى حياتكم الدنيا جزاكم الله بها هذا الجزاء وان الله ليس بظلام للعبيد أى لا يظلم أحدا من خلقه بل هو الحاكم العدل الذى لا يجور تبارك وتعالى وتقدس وتنزه الغنى الحميد ولهذا جاء فى الحديث الصحيح عن مسلم رحمه الله من رواية أبى ذر رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يقول انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا يا عبادى انما هى أعمالكم أحصيها لكم فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه ولهذا قال تعالى (كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم ان الله قوى شديد العقاب) يقول تعالى فعل هؤلاء المشركين المكذبين بما أرسلت به يا محمد كما فعل الامم المكذبة قبلهم ففعلنا بهم ما هو (٣٣٠) دأبنا أى عادتنا وسنتنا فى أمثالهم من المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم من الامم المكذبة بالرسل الكافرين بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم أى بسبب ذنوبهم أخذهم الله ان الله قوى شديد العقاب لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب (ذلك بان الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وان الله سميع عليم كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين) يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه فى حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد الا بسبب ذنب ارتكبه كقوله تعالى ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له وما لهم من دونه من وال وقوله كدأب آل فرعون أى كصنعه كلهم بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته أهلكهم بسبب ذنوبهم وسلبهم تلك النعم التى أسداها اليهم من جنات وعيون وزروع وكنوز ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين وما ظلمهم الله فى ذلك بل كانوا هم الظالمين (ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون فاما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون) أخبر تعالى ان شر ما دب على وجه الارض هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين كلما عاهدوا عهدا نقضوه وكلما أكدوه بالايمان نكثوه وهم لا يتقون أى لا يخافون من الله فى شئ ارتكبوه من الآثام فاما تثقفنهم فى الحرب أى تغلبهم وتظفر بهم فى حرب فشرد بهم من خلفهم أى نكل بهم قاله ابن عباس والحسن البصرى والضحاك والسدى وعطاء الخراسانى وابن عيينة ومعناه غلظ عقوبتهم واثخنهم قتلا ليخاف من سواهم من الاعداء من العرب وغيرهم ويصيروا لهم عبرة لعلهم يذكرون وقال السدى يقول لعلهم يحذرون ان ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك (واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين) يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم واما تخافن من قوم قد عاهدتهم خيانة أى نقضا لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود فانبذ اليهم

المتعدى هذه الآية لانه لا يبنى للمفعول من غير واسطة حرف الجر الا المتعدى بنفسه وهو اخبار عن حصول المأمور به من السماء والارض معا أى فامتثلا ما امرا به ونقص الماء ولا يختص غيض الماء بطوفان السماء كما توهم وفيه كلام طويل فى الكشف قال الصاوى أى ولم يذهب بالكلية لما علمت من بقاء ماء السماء (وقضى الامر) أى أحكم وفرغ منه يعنى أهلك الله قوم نوح على تمام واحكام وأنجز ما كان وعده قاله القرطبى (واستوت على الجودى) أى استقرت السفينة على الجبل المعروف بالجودى روى انه عليه السلام ركب فى الفلك فى عاشر رجب ونزل عنها فى عاشر المحرم فصام ذلك اليوم شكرا فصار سنة والجودى جبل بقرب الموصل وقيل ان الجودى اسم لكل جبل وقيل هو بالشام وقيل بآمل وفى الحديث لقد بقى منها شئ ادركه أوائل هذه الامة ويقال انه من جبال الجنة فلذا استوت عليه بعد ان طافت الارض كلها ستة أشهر (وقيل بعدا للقوم الظالمين) القائل هو الله سبحانه ليناسب صدر الآية وقيل هو نوح وأصحابه والمعنى وقيل هلاكا لهم وهو من الكلمات التى تختص بدعاء السوء ووصفهم بالظلم للاشعار بانه علة الهلاك وللايماء الى قوله ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا قال عبد الرحمن بن خلدون اتفقوا على ان الطوفان الذى كان فى زمن نوح وبدعوته ذهب بعمران الارض أجمع وبما كان من خراب المعمور وهلك الذين ركبوا معه فى السفينة ولم يعقبوا فصار أهل الارض

اى عهدهم على سواء أى اعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم وهم حرب لك وانه لاعهد بينك وبينهم على السواء أى تستوى انت وهم فى ذلك قال الراجز   فاضرب وجوه الغدر الأعداء * حتى يجيبوك الى السوا   وعن الوليد بن مسلم انه قال فى قوله فانبذ اليهم على سواء أى على مهل ان الله لا يحب الخائنين أى حتى ولو فى حق الكفار لا يحبها أيضا قال الامام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبى الفيض عن سليم بن عامر قال كان معاوية يسير فى أرض الروم وكان بينه وبينهم امد فاراد ان يدنو منهم فاذا انقضى الامد غزاهم فاذا شيخ على دابة يقول الله أكبر الله أكبر وفاء لا غدر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة ولا يشدها حتى ينقضى أمدها أو ينبذ اليهم على سواء قال فبلغ ذلك معاوية فرجع واذا الشيخ عمرو بن عنبسة رضى الله عنه وهذا الحديث رواه أبو داود الطيالسى عن شعبة وأخرجه أبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان فى صحيحه من طرق عن شعبة به وقال الترمذى حسن صحيح وقال الامام أحمد أيضا حدثنا محمد بن عبد الله الزبيرى حدثنا اسرائيل عن عطاء بن السائب عن أبى البخترى عن سلمان يعنى الفارسى رضى الله عنه انه انتهى الى حصن أو مدينة فقال لاصحابه ادعونى ادعوهم كما رأيت رسول الله صلى الله

عليه وسلم يدعوهم فقال انما كنت رجلا منهم فهدانى الله عز وجل للاسلام فان أسلمتم فلكم مالنا وعليكم ماعلينا وان أبيتم فأدوا الجزية وأنتم صاغرون وان أبيتم نابذناكم على سواء ان الله لا يحب الخائنين يفعل ذلك بهم ثلاثة أيام فلما كان اليوم الرابع غدا الناس اليها ففتحوها بعون الله (ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا انهم لا يعجزون وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شئ فى سبيل الله يوف اليكم وأنتم لا تظلمون) يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ولا تحسبن يا محمد الذين كفروا سبقوا أى فاتونا فلا نقدر عليهم بل هم تحت قهر قدرتنا وفى قبضة مشيئتنا فلا يعجزوننا كقوله تعالى ام حسب الذين يعملون السيئات ان يسبقونا ساء ما يحكمون أى يظنون وقوله تعالى ولا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الارض ومأواهم النار ولبئس المصير وقوله تعالى لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ثم أمر تعالى باعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والامكان والاستطاعة فقال وأعدوا لهم ما استطعتم أى مهما أمكنكم من قوة ومن رباط الخيل قال الامام أحمد حدثنا هارون بن معروف حدثنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحرث عن ابى على ثمامة بن شفى أخى عقبة بن عامر انه سمع عقبة بن عامر يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة الا ان القوة الرمى الا ان القوة الرمى رواه مسلم عن هرون بن معروف وأبو داود عن سعيد بن منصور وابن ماجه عن يونس بن عبد الاعلى ثلاثتهم عن عبد الله بن وهب به ولهذا الحديث طرق أخر عن عقبة بن عامر منها مارواه الترمذى من حديث صالح بن كيسان عن رجل عنه وروى الامام أحمد وأهل السنن عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ارموا واركبوا وان ترموا خير من أن تركبوا وقال الامام مالك عن زيد بن أسلم عن أبى صالح السمان عن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الخيل لثلاثة لرجل أجر ولرجل ستر وعلى رجل

كلهم من نسله وعاد ابا ثانيا للخليقة انتهى   وقال ابن الاثير فى الكامل واما المجوس فلا يعرفون الطوفان وكان بعضهم يقر به ويزعم انه كان فى اقليم بابل وما قرب منه وان مساكن ولد جيومرت كانت بالمشرق فلم يصل ذلك اليهم وكذلك جميع الامم المشرقية من الهند والفرس والصين لا يعترفون بالطوفان وبعض الفرس يعترف به ويقول لم يكن عاما ولم يتعد عقبة حلوان والصحيح ان جميع أهل الارض من ولد نوح عليه السلام لقوله تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين فجميع الناس من ولد سام وحام ويافث أولاد نوح انتهى وقال المقريزى فى الخطط ان جميع أهل الشرائع أتباع الانبياء من المسلمين واليهود والنصارى قد أجمعوا على ان نوحا هو الاب الثانى للبشر وان العقب من آدم عليه السلام انحصر فيه ومنه ذرأ الله جميع أولاد آدم فليس أحد من بنى آدم الا وهو من أولاد نوح وخالفت القبط والمجوس وأهل الهند والصين ذلك فانكروا الطوفان وزعم بعضهم ان الطوفان انما حدث فى اقليم بابل وما وراءه من البلاد الغربية فقط وان أولاد كيومرت الذى هو عندهم الانسان الاول كانوا بالبلاد الشرقية من بابل فلم يصل الطوفان اليهم ولا الى الهند والصين والحق ما عليه أهل الشرائع وان نوحا عليه السلام لما أنجاه الله ومن معه بالسفينة نزل بهم وهم ثمانون رجلا سوى أولاده فماتوا بعد ذلك ولم يعقبوا وصار العقب من نوح فى أولاده الثلاثة ويؤيد هذا قول الله تعالى عن نوح وجعلنا ذريته هم الباقين

وزر فأما الذى له أجر فرجل ربطها فى سبيل الله فاطال لها فى مرج او روضة فما أصابت فى طيلها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات ولو انها قطعت طيلها فاستنت شرفا أو شرفين كانت آثارها وارواثها حسنات له ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقى به كان ذلك حسنات له فهى لذلك الرجل أجر ورجل ربطها تغنيا وتعففا ولم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها فهى له ستر ورجل ربطها فخرا ورياء ونواء فهى على ذلك وزر وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحمر فقال ما أنزل الله على فيها شيأ الا هذه الآية الجامعة الفاذة فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره رواه البخارى وهذا لفظه ومسلم كلاهما من حديث مالك وقال الامام أحمد حدثنا حجاج أخبرنا شريك عن الركين بن الربيع عن القاسم بن حسان عن عبد الله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال الخيل ثلاثة ففرس للرحمن وفرس للشيطان وفرس للانسان فاما فرس الرحمن فالذى يربط فى سبيل الله فعلفه وروثه وبوله وذكر ماشاء الله وأما فرس الشيطان فالذى يقامر أو يراهن عليها وأما فرس الانسان فالفرس يربطها الانسان يلتمس بطنها فهى ستر من الفقر وقد ذهب أكثر العلماء الى أن الرمى أفضل من ركوب الخيل وذهب الامام مالك الى ان الركوب أفضل من الرمى وقول الجمهور أقوى للحديث والله أعلم وقال (٣٣٢) الامام أحمد حدثنا حجاج وهشام قالا حدثنا ليث حدثنى يزيد بن أبى حبيب عن ابن شماسة ان معاوية بن خديج مر على أبى ذر وهو قائم عند فرس له فسأله ماتعالج من فرسك هذا فقال انى أظن ان هذا الفرس قد استجيب له دعوته قال وما دعاء بهيمة من البهائم قال والذى نفسى بيده مامن فرس الا وهو يدعو كل سحر فيقول اللهم أنت خولتنى عبدا من عبادك وجعلت رزقى بيده فاجعلنى أحب اليه من أهله وماله وولده قال وحدثنا يحيى بن سعيد عن عبد الحميد بن جعفر حدثنى يزيد بن أبى حبيب عن سويد بن قيس عن معاوية بن خديج عن أبى ذر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انه ليس من فرس عربى الا يؤذن له مع كل فجر يدعو بدعوتين يقول اللهم انك خولتنى من خولتنى من بنى آدم فاجعلنى من أحب أهله وماله اليه أو أحب أهله وماله اليه رواه النسائى عن عمرو بن على الفلاس عن يحيى القطان به وقال أبو القاسم الطبرانى حدثنا الحسين بن اسحق التسترى حدثنا هشام بن عمار حدثنا يحيى بن حمزة حدثنا المطعم بن المقدام الصنعانى عن الحسن بن ابى الحسن انه قال لابن الحنظلية يعنى سهلا حدثنا حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الخيل معقود فى نواصيها الخير الى يوم القيامة وأهلها معانون عليها ومن ربط فرسا فى سبيل الله كانت النفقة عليه كالماد يده بالصدقة لا يقبضها والاحاديث الواردة فى فضل ارتباط الخيل كثيرة وفى صحيح البخارى عن عروة بن أبى الجعد البارقى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الخيل معقود فى نواصيها الخير الى يوم القيامة الاجر والمغنم وقوله ترهبون أى تخوفون به عدو الله وعدوكم أى من الكفار وآخرين من دونهم قال مجاهد يعنى بنى قريظة وقال السدى فارس وقال سفيان الثورى قال ابن غازهم الشياطين التى فى الدور وقد ورد حديث بمثل ذلك قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو عتبة أحمد بن الفرج الحمصى حدثنا أبو حيوة يعنى شريح بن يزيد المقرى حدثنا سعيد بن سنان عن ابن غريب يعنى يزيد بن عبد الله بن غريب عن ابيه

انتهى وقد أطبق علماء البلاغة على ان هذه الآية الشريفة بالغة من الفصاحة والبلاغة الى محل يتقاصر عن الوصف وتضعف عن الاتيان بما يقاربه قدرة القادرين على فنون البلاغة الثابتين الاقدام فى علم البيان الراسخين فى اللغة المطلعين على ماهو مدون من خطب مصاقع خطباء العرب واشعار بواقع شعرائهم المرتاضين بدقائق علوم العربية وأسرارها قال الصاوى وسليمان الجمل قال بعضهم هذه الآية ابلغ آية فى القرآن باحتوائها على احد وعشرين نوعا من أنواع البديع والحال ان كلماتها تسعة عشر انتهى قلت وقد تعرض لبيان ما اشتملت عليه من ذلك جماعة فاطالوا واطابوا رحمنا الله واياهم برحمته الواسعة منهم أبو حيان محمد بن يوسف الامام الاندلسى فى تفسيره المسمى بالنهر المادمن البحر المحيط ذكر فيه أحدا وعشرين نوعا من البديع وكذا السيد محمد بن اسمعيل ابن صلاح الامير فى رسالته المسماة بالنهر المورود فى تفسير آية هود وهو المناسبة والمطابقة والمجاز والاستعارة والاشارة والتمثيل والارداف والتعليل وصحة التقسيم والاحتراس والايضاح والمساواة وحسن النسق والايجاز والتسهيم والتهذيب وحسن البيان والتمكين والتجنيس والمقابلة والذم والوصف وبسط فى بيان هذه الانواع أتم بسط وقال هذا كله نظرا فى الآية من جانب البلاغة واما النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية فهى كما ترى نظم للمعانى لطيف سديد وتأدية لها ملخصة

عن جده ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في قول الله تعالى وآخرين من دونهم لا تعلمونهم قال هم الجن ورواه الطبراني عن ابراهيم بن لحيم عن أبيه عن محمد بن شعيب عن سنان بن سعيد بن سنان عن يزيد بن عبد الله بن غريب وزاد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخبل بيت فيه عتيق من الخيل وهذا الحديث منكر لا يصح اسناده ولا متنه وقال مقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم هم المنافقون وهذا أشبه الاقوال ويشهد له قوله تعالى وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم وقوله وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وأنتم لا تظلمون أي مهما أنفقتم في الجهاد فانه يوفى اليكم على التمام والكمال ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود أن الدرهم يضاعف ثوابه في سبيل الله الى سبعمائة ضعف كما تقدم في قوله تعالى مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدشتكي حدثنا أبي عن أبيه حدثنا الاشعث بن اسحق عن جعفر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان لا يأمر ان يتصدق الا على أهل الاسلام حتى نزلت وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم

فامر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين وهذا أيضا غريب (وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم) يقول تعالى اذا خفت من قوم خيانة فانبذ اليهم عهدهم على سواء فان استمروا على حربك ومنابذتك فقاتلهم وان جنحوا أي مالوا للسلم اي المسالمة والمصالحة والمهادنة فاجنح لها اي فمل اليها واقبل منهم ذلك ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع سنين أجابهم الى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الاخر وقال عبد الله بن الامام أحمد حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي حدثنا فضيل بن سليمان يعني النميري حدثنا محمد بن أبي يحيى عن اياس بن عمرو الاسلمي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سيكون اختلاف أو أمر فان استطعت ان يكون السلم فافعل وقال مجاهد نزلت في بني قريظة وفيه نظر لان السياق كله في وقعة بدر وذكرها مكتنف لهذا كله وقال ابن عباس ومجاهد وزيد بن أسلم وعطاء الخراساني وعكرمة والحسن وقتادة ان هذه الآية منسوخة بآية السيف في براءة قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر الآية وفيه نظر أيضا لان آية براءة فيها الامر بقتالهم اذا أمكن ذلك فاما اذا كان العدو كثيفا فانه يجوز مهادنتهم كما دلت عليه هذه الآية الكريمة وكما فعل النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص والله أعلم وقوله وتوكل على الله أي صالحهم وتوكل على الله فان الله كافيك وناصرك ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ليتقووا ويستعدوا فان الله حسبك اي كافيك وحده ثم ذكر نعمته عليه بما أيده به من المؤمنين المهاجرين والانصار فقال هو الذي ايدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم اي جمعها على الايمان بك وعلى طاعتك ومناصرتك وموازرتك لو أنفقت ما في الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم أي لما كان بينهم من

ملخصة مبينة لا تعقيد يعثر الفكر في طلب المراد ولا التواء يشمك الطريق على المرتاد بل ألفاظها تسابق معانيها ومعانيها تسابق ألفاظها وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية فالفاظها على ما ترى عربية أصلية مستعملة جارية على قانون اللغة سلمة عن التنافر بعيدة عن البشاعة عذبة على العذبات سلسلة على الاسلات كل منها كالماء في السلاسة وكالعسل في الحلاوة وكالنسيم في الرقة انتهى قلت النظر في هذه الآية من أربع جهات الاول من جهة علم البيان وهو النظر فيما فيها من المجاز وغيره كما تقدمت الاشارة اليه والثاني من جهة علم المعاني وهو النظر في فائدة كل كلمة فيها وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها والثالث والرابع من جهة الفصاحة المعنوية واللفظية كما تقدم وقد ذكر طرفا من هذه الجهات الاربع النسفي في المدارك ثم قال ومن ثم أطبق المعاندون على ان طوق البشر قاصر عن الاتيان بمثل هذه الآية ولله در شأن التنزيل لا يتأمل العالم آية من آياته الا أدرك لطائف لا تسع الحصر ولا تظنن الآية مقصورة على المذكور فلعل المتروك أكثر من المسطور انتهى قال القاضي والآية في غاية الفصاحة لفخامة لفظها وحسن نظمها والدلالة على كنه الحال مع الايجاز الخالي عن الاخلال قال الخفاجي هذه الآية حوت من البلاغة أمرا عجيبا ترقص الرؤس له طربا وما اشتملت عليه من الفصاحة والنكات مفصل في شرح المفتاح وقال أبو السعود ولقد بلغت الآية الكريمة

العداوة والبغضاء فان الانصار كانت بينهم حروب كثيرة فى الجاهلية بين الاوس والخزرج وأمور يلزم منها التسلسل فى الشر حتى قطع الله ذلك بنور الايمان كما قال تعالى واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون وفى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خطب الانصار فى شأن غنائم حنين قال لهم يامعشر الانصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى وعالة فأغناكم الله بى وكنتم متفرقين فألفكم الله بى كلما قال شيأ قالوا الله ورسوله أمن ولهذا قال تعالى ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم أى عزيز الجناب فلا يخيب رجاء من توكل عليه حكيم فى أفعاله وأحكامه وقال الحافظ أبو بكر البيهقى أخبرنا أبو عبد الله الحافظ على بن بشر الصيرفى القزوينى فى منزلنا أنبأنا أبو عبد الله محمد بن الحسن القنديلى الاسراباذى حدثنا أبو اسحق ابراهيم بن محمد بن النعمان الصنا رحدثنا ميمون بن الحكم حدثنا بكر بن الشرود عن محمد بن مسلم الطائفى عن ابراهيم بن ميسرة عن طاوس عن ابن عباس قال قرابة الرحم تقطع ومنة النعمة تكفر ولم ير مثل تقارب القلوب يقول الله تعالى لو أنفقت مافى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم وذلك موجود فى الشعر

(٣٣٤) اذا بت ذو قربى اليك بزلة * فغشك واستغنى فليس بذى رحم

ولكن ذا القربى الذى ان دعوته أجاب وان يرمى العدو الذى ترمى

قال ومن ذلك قول القائل

ولقد صحبت الناس ثم سبرتهم وبلوت ماوصلوا من الاسباب

فاذا القرابة لاتقرب قاطعا واذا المودة أقرب الاسباب

قال البيهقى لاأدرى هذا موصولا بكلام ابن عباس أو هو من قول من دونه من الرواة وقال أبو اسحق السبيعى عن أبى الاحوص عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه سمعه يقول لو أنفقت مافى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم الآية قال هم المتحابون فى الله وفى رواية نزلت فى المتحابين فى الله رواه النسائى والحاكم فى مستدركه وقال صحيح وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال ان الرحم لتقطع وان النعمة لتكفر وان الله اذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شئ ثم قرأ لو أنفقت مافى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم رواه الحاكم أيضا وقال أبو عمرو الاوزاعى حدثنى عبدة بن أبى لبابة عن مجاهد ولقيته وأخذ بيدى فقال اذا التقى المتحابان فى الله فأخذ أحدهما بيد صاحبه وضحك اليه تحاتت خطاياهما كما تحات ورق الشجر قال عبدة فقلت له ان هذا اليسير فقال لاتقل ذلك فان الله يقول لو أنفقت مافى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم قال عبدة فعرفت انه أفقه منى قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا ابن يمان عن ابراهيم الخزرى عن الوليد بن أبى مغيث عن مجاهد قال اذا التقى المسلمان فتصافحا غفر لهما قال قلت لمجاهد بمصافحة يغفر لهما قال مجاهد أما سمعته يقول لو أنفقت مافى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم فقال الوليد لمجاهد أنت أعلم منى وكذا روى طلحة بن مصرف عن مجاهد وقال ابن عون عن عمير بن اسحق قال كنا نتحدث ان أول مايرفع من الناس الالفة وقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن احمد الطبرانى رحمه الله حدثنا الحسين بن اسحق التسترى حدثنا عبيد الله بن عمر القواريرى حدثنا سالم بن غيلان سمعت جعدا أبا عثمان حدثنا أبو عثمان النهدى عن سلمان الفارسى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان المسلم اذا لقى أخاه

من مراتب الاعجاز قاصيتها وملكت من غرر المزايا ناصيتها وقد تصدى لتفصيلها المهرة المتقنون ولعمرى ان ذلك فوق مايصفه الواصفون فحرى بنا ان نوجز الكلام فى هذا الباب ونفوض الامر الى تأمل أولى الالباب والله عنده علم الكتاب (ونادى نوح ربه) أى دعاه والظاهر ان هذا النداء كان قبل سيرها لانه سؤال فى نجاة ابنه ولامعنى للسؤال الاعند امكان النجاة والمراد انه أراد دعاءه بدليل الفاء فى قوله (فقال رب ان ابنى من أهلى) وعطف الشئ على نفسه غير سائغ فلابد من التقدير المذكور قاله الزمخشرى وقيل عطف تفسيرا وتفصيل اذ القول المذكور هو عين النداء فهو مرتبط فى المعنى بقوله ونادى نوح ابنه والمعنى انه من الاهل الذين وعدتنى بتنجيتهم بقولك وأهلك فان قيل كيف طلب نوح عليه السلام انجاز ماوعده الله بقوله وأهلك وهو المستثنى منه وترك مايفيده الاستثناء وهو الامن سبق عليه القول فيجاب بانه لم يعلم اذ ذاك انه ممن سبق عليه القول فانه كان يظنه من المؤمنين (وان وعدك الحق) الصدق الذى لاخلف فيه وهذا منه (وأنت أحكم الحاكمين) أى أتقن المتقنين لما يكون به الحكم فلا يتطرق الى حكمك نقض وقيل أراد به أعلمهم وأعدلهم أى أنت أكثر علما وعدلا من ذوى الحكم وقيل ان الحاكم بمعنى ذى الحكمة كدارع ثم أجاب الله سبحانه عن نوح ببيان ان ابنه غير داخل فى عموم الاهل وانه خارج بقيد الاستثناء (قال يانوح انه) يعنى هذا الابن الذى

المسلم فأخذ بيده تحاتت عنهما ذنوبهما كما يتحات الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف والا غفر لهما ولو كانت ذنوبهما مثل زبد البحر (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين) يحرض تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على القتال ومناجزة الاعداء ومبارزة الاقران ويخبرهم انه حسبهم أي كافيهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم وان كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم ولو قل عدد المؤمنين قال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم حدثنا عبيد الله بن موسى أنبأنا سفيان عن ابن شوذب عن الشعبي في قوله يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين قال حسبك الله وحسب من شهد معك قال وروى عن عطاء الخراساني وعبد الرحمن بن زيد مثله ولهذا قال يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال أي حثهم وذمرهم عليه ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرض على القتال عند صفهم ومواجهة العدو كما قال لاصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون في عددهم وعددهم قوموا

الى جنة عرضها السموات والارض فقال عمير بن الحمام عرضها السموات والارض فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم فقال بخ بخ فقال ما يحملك على قولك بخ بخ قال رجاء ان أكون من أهلها قال فانك من أهلها فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن ثم ألقى بقيتهن من يده وقال لئن أنا حييت حتى آكلهن انها لحياة طويلة ثم تقدم فقاتل حتى قتل رضي الله عنه وقد روى عن سعيد ابن المسيب وسعيد بن جبير ان هذه الآية نزلت حين أسلم عمر بن الخطاب وكمل به الاربعون وفي هذا نظر لان هذه الآية مدنية واسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة الى أرض الحبشة وقبل الهجرة الى المدينة والله أعلم ثم قال تعالى مبشرا للمؤمنين وآمرا ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا كل واحد بعشرة ثم نسخ هذا الامر وبقيت البشارة قال عبد الله بن المبارك حدثنا جرير ابن حازم حدثني الزبير بن الخريت عن عكرمة عن ابن عباس قال لما نزلت ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين شق ذلك على المسلمين حين فرض الله عليهم ان لا يفر واحد من عشرة ثم جاء التخفيف فقال الآن خفف الله عنكم الى قوله يغلبوا مائتين قال خفف الله عنهم من العدة ونقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم وروى البخاري من حديث ابن المبارك نحوه وقال سعيد بن منصور حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس في هذه الآية قال كتب عليهم ان لا يفر عشرون من مائتين ثم خفف الله عنهم فقال الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فلا ينبغي لمائة ان يفروا من مائتين وروى البخاري عن علي بن عبد الله عن سفيان به نحوه قال محمد بن اسحق حدثني ابن أبي نجيح عن عطاء عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية ثقل على المسلمين وأعظموا ان يقاتل عشرون مائتين ومائة ألفا فخفف الله عنهم فنسخها بالآية الاخرى فقال الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا الآية فكانوا اذا كانوا على الشطر من عدوهم لم ينبغ لهم ان يفروا من عدوهم واذا كانوا دون ذلك لم يجب عليهم قتالهم وجاز لهم ان يتحوزوا عنهم وروى علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس نحو ذلك قال ابن أبي حاتم وروى عن مجاهد وعطاء وعكرمة

سأل نجاته (ليس من أهلك) الذين آمنوا بك وتابعوك ومن أهل دينك وان كان من أهلك باعتبار القرابة قال عكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وأكثر المفسرين انه ابن نوح من صلبه وهو الصحيح وعن ابن عباس قال ما بغت امرأة نبي قط وان الله نص عليه بقوله ونادى نوح ابنه ونوح أيضا نص عليه بقوله يا بني ولا يجوز صرف الكلام عن الحقيقة الى المجاز من غير ضرورة وقيل المعنى انه ليس من الذين وعدتك ان أنجيهم معك وانما خالف هذا الظاهر من خالفه لانه استبعد ان يكون ولد نبي كافرا وهذا خطأ ممن قاله لان الله يخرج الكافر من المؤمن والمؤمن من الكافر ولا فرق في ذلك بين الانبياء وغيرهم فان الله سبحانه قد أخرج قابيل من صلب آدم وهو نبي وكان كافرا وأخرج ابراهيم وهو نبي من صلب آزر وكان كافرا فكذلك أخرج كنعان من صلب نوح وهو كافر فهو المتصرف في خلقه كيف شاء لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ثم صرح بالعلة الموجبة لخروجه من عموم الاهل المبينة له بان المراد بالقرابة قرابة الدين لا قرابة النسب وحده فقال (انه عمل غير صالح) قرأ الجمهور عمل على لفظ المصدر وقرئ على لفظ الفعل ومعنى الاولى المبالغة في ذمه كأنه جعل نفس العمل وأصله ذو عمل غير صالح كذا قال أبو اسحق الزجاجي وأبو علي الفارسي وابن الانباري والواحدي وعبارة الصاوي ان الضمير عائد الى الولد ويقال في الاخبار عنه بعمل ما قيل في زيد عدل وهو الراجح انتهى ومعنى الثانية

والحسن وزيد بن أسلم وعطاء الخراساني والضحاك وغيرهم نحو ذلك وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث المسيب بن شريك عن ابن عون عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما في قوله ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين قال نزلت فينا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وروى الحاكم في مستدركه من حديث ابن عمرو بن العلاء عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ ألآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا رفع ثم قال صحيح الاسناد ولم يخرجاه. (ما كان لنبي ان يكون له اسرى حتى يثخن في الارض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله ان الله غفور رحيم) قال الامام أحمد حدثنا علي بن عاصم عن حميد عن أنس رضي الله عنه قال استشار النبي صلى الله عليه وسلم الناس في الاسارى يوم بدر فقال ان الله قد أمكنكم منهم فقام عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله اضرب أعناقهم فاعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم ثم عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أيها الناس ان الله قد امكنكم منهم وانما هم اخوانكم بالامس فقام عمر فقال يا رسول الله اضرب أعناقهم فاعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم ثم عاد النبي صلى الله عليه وسلم فقال للناس مثل ذلك فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال يا رسول الله نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء قال فذهب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان فيه من الغم فعفا عنهم وقبل منهم الفداء قال وأنزل الله عز وجل لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم وقد سبق في أول السورة حديث ابن عباس وفي صحيح مسلم بنحو ذلك وقال الاعمش عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن عبد الله قال لما كان يوم بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تقولون في هؤلاء الاسارى فقال أبو بكر يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم واستتبهم لعل الله ان يتوب عليهم وقال عمر يا رسول الله كذبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم وقال عبد الله بن رواحة يا رسول الله انت في واد كثير الحطب فاضرم الوادي نارا ثم ألقهم فيه قال فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيأ ثم قام فدخل فقال ناس نأخذ بقول أبي بكر وقال ناس نأخذ بقول عمر وقال ناس نأخذ بقول عبد الله بن رواحة ثم خرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن وان الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة وان مثلك يا أبا بكر كمثل ابراهيم عليه السلام قال فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم وان مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام قال ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم وان مثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام قال ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم وان مثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا أنتم عالة فلا ينفكن أحد منهم الا بفداء أو ضربة عنق قال ابن مسعود فقلت يا رسول الله الا سهيل بن بيضاء فانه يذكر الاسلام فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيتني في يوم أخوف من ان تقع علي حجارة من السماء مني في ذلك اليوم حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا سهيل ابن بيضاء فأنزل الله عز وجل ما كان لنبي أن يكون له أسرى الى آخر الآية رواه الامام أحمد والترمذي من حديث أبي معاوية

ظاهر أي انه عمل عملا غير صالح وهو كفره وعدم متابعته لابيه قاله أبو علي قال الصاوي أشار السيوطي الى ان الضمير في انه عائد الى نوح على حذف مضاف والمعنى قال الله له يا نوح ان سؤالك عمل غير مقبول انتهى ويؤيده ما قال ابن عباس يقول مسألتك اياي يا نوح عمل غير صالح لا أرضاه لك ثم نهاه عن مثل هذا السؤال فقال (فلا تسألن ما ليس لك به علم) أي ما لا تعلم أصواب هو فتسأل عنه أم ليس كذلك فتتركه وهو وان كان نهيا عاما بحيث يشمل كل سؤال لا يعلم صاحبه ان حصول مطلوبه منه صواب فهو يدخل تحته سؤاله هذا دخولا أوليا وفيه عدم جواز الدعاء بما لا يعلم الانسان مطابقته للشرع وسمى دعاءه سؤالا لتضمنه معنى السؤال باعتبار استنجازه في شأن ولده (اني أعظك) من (أن تكون من الجاهلين) أي أحذرك وأنهاك أن تكون جاهلا فتسأل مثل ما يسألون كقوله يعظكم الله ان تعودوا لمثله أبدا وسمى سؤاله جهلا لان حب الولد شغله عن تذكر استثناء من سبق عليه القول منهم بالاهلاك قاله الكرخي وقيل المعنى أرفعك ان تكون منهم قال ابن العربي وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحا عن مقام الجاهلين ويعليه بها الى مقام العلماء العاملين ثم لما علم نوح بان سؤاله لم يطابق الواقع وان دعاءه ناشئ عن وهم كان يتوهم بادر الى الاعتراف بالخطا وطلب المغفرة والرحمة و(قال رب اني أعوذ بك) أي ألجأ اليك واعتذر من (ان أسألك ما ليس لي به علم) أي أطلب

منك

عن الاعمش به والحاكم فى مستدركه وقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن عبد الله بن عمر وأبى هريرة رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم نحوه وفى الباب عن ابى أيوب الانصارى وروى ابن مردويه أيضا واللفظ له والحاكم فى مستدركه من حديث عبيد الله بن موسى حدثنا اسرائيل عن ابراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم لما أسر الاسارى يوم بدر أسر العباس فيمن أسر أسره رجل من الانصار قال وقد أوعدته الانصار أن يقتلوه فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى لم أنم الليلة من أجل عمى العباس وقد زعمت الانصار أنهم قاتلوه فقال له عمر أفآتيهم فقال نعم فأتى عمر الانصار فقال لهم أرسلوا العباس فقالوا لا والله لا نرسله فقال لهم عمر فان كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم رضى قالوا فان كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم رضى فخذه فأخذه عمر فلما صار فى يده قال له يا عباس أسلم فوالله لئن تسلم أحب الى من أن يسلم الخطاب وما ذاك الا لما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه اسلامك قال واستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر فيهم فقال أبو بكر عشيرتك فارسلهم فاستشار عمر فقال اقتلهم ففاداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله ما كان لنبى أن يكون له أسرى الآية قال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه وقال سفيان الثورى (٣٢٧) عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن عبيدة عن على رضى الله عنه قال جاء جبريل الى النبى صلى الله عليه وسلم يوم بدر فقال خير أصحابك فى الاسارى ان شاؤا الفداء وان شاؤا القتل على أن يقتل عاما مقبلا منهم مثلهم قالوا الفداء ويقتل منا رواه الترمذى والنسائى وابن حبان فى صحيحه من حديث الثورى به وهذا حديث غريب جدا وقال ابن عون عن عبيدة عن على قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اسارى يوم بدر ان شئتم قتلتموهم وان شئتم فاديتموهم واستمتعتم بالفداء واستشهد منكم بعدتهم قال فكان آخر السبعين ثابت بن قيس قتل يوم اليمامة رضى الله عنه ومنهم من روى هذا الحديث عن عبيدة مرسلا فالله أعلم وقال ابن اسحق عن ابن أبى نجيح عن عطاء عن ابن عباس ما كان لنبى أن يكون له أسرى فقرأ حتى بلغ عذاب عظيم قال غنائم بدر قبل أن يحلها لهم يقول لولا أنى لا أعذب من عصانى حتى أتقدم اليه لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم وكذا روى ابن أبى نجيح عن مجاهد وقال الاعمش سبق منه أن لا يعذب أحدا شهد بدرا وروى نحوه عن سعد بن أبى وقاص وسعيد بن جبير وعطاء وقال شعبة عن أبى هاشم عن مجاهد لولا كتاب من الله سبق أى لهم بالمغفرة ونحوه عن سفيان الثورى رحمه الله وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله لولا كتاب من الله سبق يعنى فى أم الكتاب الاول ان المغانم والاسارى حلال لكم لمسكم فيما أخذتم من الاسارى عذاب عظيم قال الله تعالى فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا الآية وكذا روى العوفى عن ابن عباس وروى مثله عن أبى هريرة وابن مسعود وسعيد بن جبير وعطاء والحسن البصرى وقتادة والاعمش أيضا ان المراد لولا كتاب من الله سبق لهذه الامة باحلال الغنائم وهو اختيار ابن جرير رحمه الله ويستشهد لهذا القول بما أخرجاه فى الصحيحين عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الانبياء قبلى نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لى الارض مسجدا وطهورا وأحلت لى الغنائم ولم تحل لاحد قبلى وأعطيت الشفاعة وكان النبى يبعث الى قومه وبعثت الى الناس عامة وقال الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله

منك بعد ذلك ما لا علم لى بصحته وجوازه (والا تغفر لى) ذنب ما دعوت به على غير علم منى وجهلى واقدامى عليه (وترحمنى) برحمتك التى وسعت كل شئ فتقبل توبتى (أكن من الخاسرين) فى أعمالى فلا أربح فيها وليس فى الآية ما يقتضى صدور ذنب ومعصية من نوح سوى تأويله واقدامه على سؤال ما لم يؤذن له فيه وهذا ليس بذنب ولا معصية وقال الخطيب أخطأ فى ذلك الاجتهاد كما وقع لآدم فى الأكل من الشجرة فلم يصدر منه الا هذه الزلة (قيل يا نوح) القائل هو الله أو الملائكة (اهبط) أى انزل من السفينة الى الارض أو من الجبل الى المنخفض منها فقد بلعت الارض ماءها وجفت (بسلام منا) أى بسلامة وأمن وقيل بتحية وعظمة كما قال سلام على نوح فى العالمين وذلك ان الغرق لما كان عاما فى جميع الارض فعندما خرج من السفينة علم انه ليس فى الارض شئ ينتفع به من النبات والحيوان فكان كالخائف فى انه كيف يعيش وكيف يدفع جهات الحاجات عن نفسه من المأكول والمشروب فلما قال الله ذلك زال عنه الخوف لان السلامة لا تكون الا مع الامن وسعة الرزق ثم أردفه الله تعالى بالبركة بقوله (وبركات) أى خيرات نامية ونعم ثابتة باقية دائمة فى نسلك وما يقوم به معاشك ومعاشهم من أنواع الارزاق والبركة مشتق من بروك الجمل وهو ثبوته ومنه البركة لثبوت الماء فيها (عليك) وفى هذا الخطاب دليل على قبول توبته ومغفرة زلته وخلاصه من الخسران واعلام وبشارة من الله تعالى

عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تحل الغنائم لسود الرؤس غيرنا ولهذا قال تعالى فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا الآية فعند ذلك أخذوا من الاسارى الفداء وقد روى الامام أبو داود في سننه حدثنا عبد الرحمن بن المبارك العيشي حدثنا سفيان بن حبيب حدثنا شعبة عن أبي العنبس عن أبي الشعثاء عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة وقد استمر الحكم في الاسرى عند جمهور العلماء ان الامام مخير فيهم ان شاء قتل كما فعل ببني قريظة وان شاء فادى بمال كما فعل بأسرى بدر أو بمن أسر من المسلمين كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سبي سلمة بن الاكوع حيث ردهما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين وان شاء استرق من أسر هذا مذهب الامام الشافعي وطائفة من العلماء وفي المسئلة خلاف آخر بين الائمة مقرر في موضعه من كتب الفقه (يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الاسرى ان يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم وان يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم) قال محمد بن اسحق حدثني العباس بن عبد الله بن معقل عن بعض أهله عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر اني قد عرفت

ان أناسا من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقي منكم أحدا منهم أي من بني هاشم فلا يقتله ومن لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله فانه انما أخرج مستكرها فقال أبو حذيفة ابن عتبة أنقتل آباءنا وأبناءنا واخواننا وعشائرنا ونترك العباس والله لئن لقيته لألجمنه بالسيف فبلغت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لعمر بن الخطاب يا أبا حفص قال عمر والله انه لاول يوم كناني فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا حفص أيضرب وجه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف فقال عمر يا رسول الله ائذن لي فاضرب عنقه فوالله لقد نافق فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك والله ما آمن من تلك الكلمة التي قلت ولا ازال منها خائفا الا أن يكفرها الله تعالى عني بشهادة فقتل يوم اليمامة شهيدا رضي الله عنه وبه عن ابن عباس قال لما أمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر والاسارى محبوسون بالوثاق بات رسول الله صلى الله عليه وسلم ساهرا أول الليل فقال له أصحابه يا رسول الله مالك لا تنام وقد أسر العباس رجل من الانصار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعت أنين عمي العباس في وثاقه فأطلقوه فسكت فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن اسحق وكان أكثر الاسارى يوم بدر فداء العباس وذلك انه كان رجلا موسرا فافتدى نفسه بمائة أوقية ذهبا وفي صحيح البخاري من حديث موسى بن عقبة قال ابن شهاب حدثنا أنس بن مالك أن رجالا من الانصار قالوا يا رسول الله ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه قال لا والله لا تذرون منه درهما وقال يونس بن بكير عن محمد بن اسحق عن يزيد بن رومان عن عروة وعن الزهري عن جماعة سماهم قالوا بعثت قريش في فداء أسراهم ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا وقال العباس يا رسول الله قد كنت مسلما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم باسلامك فان يكن كما تقول فان الله يجزيك وأما ظاهرك فقد كان علينا فافتد نفسك وابني أخيك نوفل بن الحرث بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب وحليفك عتبة بن عمرو أخي بني الحرث بن فهر قال ماذاك عندي

بفيضان أنواع الخيرات عليه في كل ما يأتي وما يذر (وعلى أمم) ناشئة وهم المتشعبون (ممن معك) أي من ذرية من كان معك في السفينة وهي الامم الى آخر الدهر وقيل الذين كانوا معه في السفينة لم يعقب أحد منهم الا أولاد نوح الثلاثة فانحصر النوع الانساني بعد نوح في ذريته ولذلك يقال انه آدم الصغير وقد كان بينه وبين آدم ألف سنة وثمانية أجداد فالمراد من هذه الآية تقسيم ذرية أولاد نوح الى فريق مؤمن وفريق كافر لا تقسيم من كان معه في السفينة اذ كانوا كلهم مؤمنين قال أبو السعود ويجوز أن تكون من بيانية أي وعلى أمم هم الذين معك وانما سموا أمما لانهم أمم متحزبة وجماعات متفرقة أو لان جميع الامم انما تشعبت منهم فحينئذ يكون المراد بالامم المشار اليهم في قوله (وأمم سنمتعهم) بعض الامم المتشعبة منهم وهي الامم الكافرة المتناسلة منهم الى يوم القيامة ويبقى أمر الامم المؤمنة الناشئة منهم مبهما غير متعرض له ولا مدلول عليه ومع ذلك ففي دلالة المذكور على خبره المحذوف خفاء لان من المذكورة بيانية والمحذوفة تبعيضية أو ابتدائية فتأمل اه قيل أراد الله سبحانه بهذا الامم الذين كانوا معه من صار مؤمنا من ذريتهم وأراد بقوله وأمم سنمتعهم من صار كافرا من ذريتهم الى يوم القيامة والتقدير ومنهم أمم أو يكون أمم والمعنى سنمتعهم في الدنيا بما فيها من المتاع ونعطيهم منها ما يعيشون به (ثم يمسهم منا) في الآخرة أو في الدنيا (عذاب أليم) وعن الضحاك قال وعلى أمم ممن معك

يارسول الله قال فأين المال الذى دفنته أنت وأم الفضل فقلت لها ان أصبت فى سفرى هذا فهذا المال الذى دفنته لبنى الفضل وعبد الله وقثم قال والله يارسول الله انى لاعلم انك رسول الله ان هذا الشئ ما علمه أحد غيرى وغير أم الفضل فاحسب لى يارسول الله ما أصبتم منى عشرين أوقية من مال كان معى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ذاك شئ أعطانا الله تعالى منك ففدى نفسه وابنى أخويه وحليفه فأنزل الله عز وجل فيه يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الاسرى ان يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم قال العباس فأعطانى الله مكان العشرين الاوقية فى الاسلام عشرين عبدا كلهم فى يده مال يضرب به مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل وقد روى ابن اسحق أيضا عن ابن أبى نجيح عن عطاء عن ابن عباس فى هذه الآية بنحو مما تقدم وقال أبو جعفر بن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا ابن ادريس عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال قال العباس فىّ نزلت ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الارض فأخبرت النبى صلى الله عليه وسلم باسلامى وسألته أن يحاسبنى بالعشرين الاوقية التى أخذ منى فأبى فأبدلنى الله بها عشرين عبدا كلهم تاجر مالى فى يده وقال ابن اسحق أيضا حدثنى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله بن رباب قال كان العباس بن عبد المطلب يقول فىّ نزلت (٣٣٩) والله حين ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم اسلامى ثم ذكر نحو الحديث كالذى قبله وقال ابن جريج عن عطاء الخراسانى عن ابن عباس يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الاسرى عباس وأصحابه قال قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم آمنا بما جئت به ونشهد انك رسول الله لننصحن لك على قومنا فأنزل الله ان يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ايمانا وتصديقا يخلف لكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم الشرك الذى كنتم عليه قال فكان العباس يقول ما أحب ان هذه الآية لم تنزل فينا وان لى الدنيا لقد قال يؤتكم خيرا مما أخذ منكم فقد أعطانى خيرا مما أخذ منى مائة ضعف وقال ويغفر لكم وارجو أن يكون قد غفر لى وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى هذه الآية كان العباس أسر يوم بدر فافتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب فقال العباس حين قرئت هذه الآية لقد أعطانى الله عز وجل خصلتين ما أحب ان لى بهما الدنيا انى أسرت يوم بدر ففديت نفسى بأربعين أوقية فآتانى أربعين عبدا وانى لارجو المغفرة التى وعدنا الله عز وجل وقال قتادة فى تفسير هذه الآية ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم عليه مال البحرين ثمانون ألفا وقد توضأ لصلاة الظهر فما أعطى يومئذ شاكيا ولا حرم سائلا وما صلى يومئذ حتى فرقه فأمر العباس أن يأخذ منه ويحتثى فكان العباس يقول هذا خير مما أخذ منا وارجو المغفرة وقال يعقوب بن سفيان حدثنا عمرو بن عاصم حدثنا سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال قال بعث ابن الحضرمى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من البحرين ثمانين ألفا ما أتاه مال أكثر منه لا قبل ولا بعد قال فنثرت على حصير ونودى بالصلاة قال وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فمثل قائما على المال وجاء أهل المسجد فما كان يومئذ عدد ولا وزن ما كان الا قبضا وجاء العباس ابن عبد المطلب فحثا فى خميصة عليه وذهب يقوم فلم يستطع قال فرفع رأسه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ارفع على قال فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى خرج ضاحكه أو نابه وقال له أعد من المال طائفة وقم بما تطيق قال ففعل

معك يعنى ممن لم يولد أوجب الله لهم البركات لما سبق لهم فى علم الله من السعادة وأمم سنمتعهم يعنى متاع الحياة الدنيا لما سبق لهم فى علم الله من الشقاوة قال محمد بن كعب القرظى دخل فى ذلك السلام والبركات كل مؤمن ومؤمنة الى يوم القيامة ودخل فى ذلك العذاب الاليم كل كافر وكافرة الى يوم القيامة وعن ابن زيد هبطوا والله راض عنهم ثم أخرج منهم نسلا منهم من رحم الله ومنهم من عذب وقيل المراد بالامم الممتعة قوم هود وصالح ولوط وشعيب وبالعذاب ما نزل بهم والى هنا انتهت قصة نوح عليه السلام (تلك) أى قصة نوح وهو مبتدأ (من أنباء الغيب) خبره أى من جنسها والانباء جمع نبا وهو الخبر أى اخبار الغيب التى مرت بك فى هذه السورة (نوحيها) أى القصة (اليك) خبر ثان والمجئ بالمضارع لاستحضار الصورة (ما كنت) يا محمد (تعلمها أنت) تفصيلا خبر ثالث والا كانت مشهورة عند كل القرون لكن اجمالا (ولا) يعلمها (قومك) يعنى العرب بل هى مجهولة عندكم وفى ذكرهم تنبيه على انه لم يتعلمه اذ لم يخالط غيرهم وانهم مع كثرتهم لما لم يسمعوه فكيف بواحد منهم (من قبل هذا) أى الوحى أو القرآن أو من قبل هذا الوقت (فاصبر) على ما تلاقيه من كفار زمانك كما صبر نوح على أذى قومه والفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها (ان العاقبة) المحمودة فى الدنيا والآخرة (للمتقين) لله المؤمنين بما جاءت به رسله وفى هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

وجعل العباس يقول وهو منطلق أما احدى اللتين وعدنا الله فقد أنجزنا وما ندرى ما يصنع فى الاخرى يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الاسرى الآية ثم قال هذا خير مما أخذ منا وما أدرى ما يصنع الله فى الاخرى فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماثلا على ذلك المال حتى ما بقى منه درهم وما بعث الى أهله بدرهم ثم أتى الصلاة فصلى (حديث آخر) فى ذلك قال الحافظ أبو بكر البيهقى أنبأنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنى أبو الطيب محمد بن محمد بن عبد الله السعيرى حدثنا محمش بن عصام حدثنا حفص بن عبد الله حدثنا ابراهيم بن طهمان عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس بن مالك قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمال من البحرين فقال انثروه فى مسجدى قال وكان أكثر مال أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج الى الصلاة ولم يلتفت اليهم فلما قضى الصلاة جاء فجلس اليه فما كان يرى أحدا الا أعطاه اذ جاءه العباس فقال يا رسول الله أعطنى فانى فاديت نفسى وفاديت عقيلا فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خذ فحثا فى ثوبه ثم ذهب يقله فلم يستطع فقال مر بعضهم يرفعه الى قال لا قال فارفعه أنت على قال لا فنثر منه ثم احتمله على كاهله ثم انطلق فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبعه بصره حتى خفى عنه عجبا من حرصه فما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وثم منها درهم وقد رواه البخارى فى مواضع من صحيحه تعليقا (٣٤٠) بصيغة الجزم يقول وقال ابراهيم بن طهمان ويسوقه وفى بعض السياقات أتم من هذا وقوله وان يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل أى وان يريدوا خيانتك فيما أظهروا لك من الاقوال فقد خانوا الله من قبل أى من قبل بدر بالكفر به فأمكن منهم أى بالاسارى يوم بدر والله عليم حكيم أى عليم بما يفعله حكيم فيه قال قتادة نزلت فى عبد الله بن سعد بن أبى سرح الكاتب حين ارتد ولحق بالمشركين وقال ابن جريج عن عطاء الخراسانى عن ابن عباس نزلت فى عباس وأصحابه حين قالوا لننصحن لك على قومنا وفسرها السدى على العموم وهو أشمل وأظهر والله أعلم (ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شئ حتى يهاجروا وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير) ذكر تعالى أصناف المؤمنين وقسمهم الى مهاجرين خرجوا من ديارهم وأموالهم وجاؤا لنصر الله ورسوله واقامة دينه وبذلوا أموالهم وأنفسهم فى ذلك والى أنصار وهم المسلمون من أهل المدينة اذ ذاك آووا اخوانهم المهاجرين فى منازلهم وواسوهم فى أموالهم ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم فهؤلاء بعضهم أولياء بعض أى كل منهم أحق بالآخر من كل أحد ولهذا آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والانصار كل اثنين اخوان فكانوا يتوارثون بذلك ارثا مقدما على القرابة حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث ثبت ذلك فى صحيح البخارى عن ابن عباس ورواه العوفى وعلى بن أبى طلحة عنه وقاله مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد قال الامام أحمد حدثنا وكيع عن شريك عن عاصم عن أبى وائل عن جرير هو ابن عبد الله البجلى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرون والانصار بعضهم أولياء بعض والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض الى يوم القيامة تفرد به أحمد وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا سفيان حدثنا عكرمة يعنى ابن ابراهيم الازدى حدثنا عاصم عن شقيق عن ابن مسعود قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول المهاجرون والانصار والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم

وتبشير له بأن الظفر للمتقين فى عاقبة الامر ولا اعتبار بعبادته (و) أرسلنا (الى عاد أخاهم هودا) أى واحدا منهم فى النسب لا فى الدين وهود عطف بيان وقوم عاد كانوا عبدة أوثان وقد تقدم مثل هذا فى الاعراف وقيل هم عادان الاولى والاخرى فهؤلاء هم عاد الاولى من ذرية سام بن نوح وعاد الاخرى هم شداد ولقمان وقومهما المذكورون فى قوله ارم ذات العماد وأصل عاد اسم رجل ثم صار اسما للقبيلة كتميم وبكر ونحوهما وبين هود ونوح ثمانمائة سنة وعاش أربعمائة سنة وأربعا وستين سنة (قال يا قوم اعبدوا الله) وحدوه ولا تشركوا معه شيأ فى العبادة (مالكم من اله غيره) فى معنى العلة لما قبله وقرئ غيره بالجر على اللفظ وبالرفع على محل من اله وبالنصب على الاستثناء (ان أنتم) أى ما أنتم باتخاذ الله غير الله وجعله شفيعا (الا مفترون) أى كاذبون على الله عز وجل ثم خاطبهم فقال (يا قوم لا أسألكم عليه أجرا) أى لا أطلب منكم أجرا على الذى أبلغكم وأنصحكم به من الارشاد الى عبادة الله وحده وانه لا اله لكم سواه فالضمير راجع الى مضمون هذا الكلام وخاطب بهذا كل نبى قومه ازاحة لما عسى أن يتوهموه وامحاضا للنصيحة فانها ما دامت مشوبة بالمطامع فهى بمعزل عن التأثير وقد تقدم معنى هذا فى قصة نوح وقال هنا أجرا وهنالك مالا تفننا أو لذكر الخزائن بعده هنالك ولفظ المال بها أليق (ان أجرى الا على الذى فطرنى) أى ما أجرى الذى أطلب الا ممن خلقنى فهو الذى يثيبنى على ذلك (أفلا تعقلون)

أولياء بعض فى الدنيا والآخرة هكذا رواه فى مسند عبد الله بن مسعود وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والانصار فى غير ما آية
فى كتابه فقال والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات
تجرى تحتها الانهار الآية وقال لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة الآية وقال تعالى للفقراء
المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون والذين
تبوؤا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم
خصاصة الآية وأحسن ما قيل فى قوله ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا أى لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم
فان ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الانصار وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء لا يختلفون فى ذلك ولهذا قال الامام أبو بكر بن عمرو
ابن عبد الخالق البزار فى مسنده حدثنا محمد بن معمر حدثنا مسلم بن ابراهيم حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب
عن حذيفة قال خيرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الهجرة والنصرة فاخترت الهجرة ثم قال لا نعرفه الا من هذا الوجه وقوله
تعالى والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا (٣٤١) هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين وهم الذين آمنوا
ولم يهاجروا بل أقاموا فى بواديهم فهؤلاء ليس لهم فى المغانم نصيب ولا فى خمسها الا ما حضروا فيه القتال كما قال الامام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه عن يزيد بن الخصيب الاسلمى رضى الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا بعث أميرا على سرية أو جيش أوصاه فى خاصة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيرا وقال اغزوا باسم الله فى سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى ثلاث خصال أو خلال فأيتهما أجابوك اليها فاقبل منهم وكف عنهم ادعهم الى الاسلام فان أجابوك فاقبل منهم
وكف عنهم ثم ادعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين وأعلمهم ان فعلوا ذلك ان لهم ما للمهاجرين وأن عليهم ما على المهاجرين
فان أبوا واختاروا دارهم فأعلمهم انهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين ولا يكون لهم فى الفىء
والغنيمة نصيب الا ان يجاهدوا مع المسلمين فان هم أبوا فادعهم الى اعطاء الجزية فان أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم فان أبوا فاستعن
بالله وقاتلهم انفرد به مسلم وعنده زيادات أخر وقوله وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر الآية يقول تعالى وان استنصركم
هؤلاء الاعراب الذين لم يهاجروا فى قتال دينى على عدو لهم فانصروهم فانه واجب عليكم نصرهم لانهم اخوانكم فى الدين الا ان
يستنصروكم على قوم من الكفار بينكم وبينهم ميثاق أى مهادنة الى مدة فلا تخفروا ذمتكم ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم
وهذا مروى عن ابن عباس رضى الله عنه (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض الا تفعلوه تكن فتنة فى الارض وفساد كبير) لما
ذكر تعالى ان المؤمنين بعضهم أولياء بعض قطع الموالاة بينهم وبين الكفار كما قال الحاكم فى مستدركه حدثنا محمد بن صالح بن
هانئ حدثنا أبو سعيد يحيى بن منصور الهروى حدثنا محمد بن أبان حدثنا محمد بن يزيد وسفيان بن حسين عن الزهرى عن على بن
الحسين عن عمرو بن عثمان عن أسامة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال لا يتوارث أهل ملتين ولا يرث مسلم كافرا ولا كافر مسلما ثم

تعقلون) ان أجر الناصحين انما هو من رب العالمين ثم أرشدهم الى الاستغفار والتوبة
فقال (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه) أى اطلبوا مغفرته لما سلف من ذنوبكم بفعل
الطاعة ثم توسلوا اليه بالتوبة وقد تقدم زيادة بيان لمثل هذا فى قصة نوح ثم رغبهم
فى الايمان بالخير العاجل فقال (يرسل السماء عليكم مدرارا) أى كثير الدرور وأى السيلان
والنزول والتتابع والسماء المطر يقال درت السماء تدر فهى مدرار ولم يؤنثه لان المراد
بالسماء المؤنثة السحاب أو المطر كما تقدم فذكر على المعنى أو ان مفعالا للمبالغة فيستوى
فيه المذكر والمؤنث أو ان الهاء حذفت من مفعال على طريق النسب قاله مكى وكان قوم
هود أهل بساتين وزروع وعمارة وكانت مساكنهم الرمال التى بين الشام واليمن عن
الضحاك قال أمسك الله القطر عن عاد ثلاث سنين فأجدبت بلادهم وقحطت بسبب
كفرهم فقال لهم هود استغفروا الآية فأبوا الا تماديا (ويزدكم قوة الى قوتكم) أى شدة
مضافة الى شدتكم أو خصبا الى خصبكم أو عزا الى عزكم قال الزجاج قوة فى النعم وقال
عكرمة القوة الى القوة ولدا الى الولد وقيل كانت قد عقمت نساؤهم ثلاثين سنة لم تلد وقيل قوة
فى الدين الى قوة الابدان (ولا تتولوا مجرمين) أى لا تعرضوا عما أدعوكم اليه وتقيموا على
الكفر مصرين عليه والاجرام الآثام كما تقدم ثم أجابه قومه بما يدل على فرط جهالتهم
وعظيم غباوتهم (قالوا يا هود ما جئتنا ببينة) أى بحجة واضحة نعمل عليها ونؤمن لك بها غير

عبدعن أبي حاتم المزني قال قال رسول الله (٣٤٢) صلى الله عليه وسلم اذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه الاتفعلوه تكن

قرّ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض الاتفعلوه تكن فتنة في الارض وفساد كبير ثم قال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه قلت

الحديث في الصحيحين من رواية أسامة بن زيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لايرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم وفي

المسند والسنن من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لايتوارث أهل ملتين

شتى وقال الترمذي حسن صحيح وقال أبوجعفر بن جرير حدثنا محمد عن معمر عن الزهري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ

على رجل دخل في الاسلام فقال تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتحج البيت وتصوم رمضان وانك لاترى نارمشرك الا وأنت له حرب

وهذا مرسل من هذا الوجه وقد روي متصلا من وجه آخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال انما أنابريء من كل مسلم بين

ظهراني المشركين ثم قال لايتراءى ناراهما وقال أبوداود في آخر كتاب الجهاد حدثنا محمد بن داود بن سفيان أخبرني يحيى بن حسان أنبأنا

سليمان بن موسى أبوداود حدثنا جعفر بن سعد بن سمرة عن سمرة بن جندب اما بعد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من جامع المشرك

وسكن معه فانه مثله وقال الحافظ أبوبكر بن مردويه من حديث حاتم بن اسمعيل عن عبدالله بن هرمز عن محمد وسعيد ابني

عبيد عن أبي حاتم المزني قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه الاتفعلوه تكن

فتنة في الارض وفساد كبير قالوا

يارسول الله وان كان (١)

قال اذا أتاكم من ترضون دينه

وخلقه فأنكحوه ثلاث مرات

وأخرجه أبوداود والترمذي من

حديث حاتم بن سليمان به بنحوه

ثم روي من حديث عبدالحميد بن

سليمان عن ابن عجلان عن ابن أبي

وثيمة النصري عن أبي هريرة رضي

الله عنه قال قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم اذا أتاكم من

ترضون خلقه ودينه فزوجوه

الاتفعلوه تكن فتنة في الارض

وفساد عريض ومعنى قوله

الاتفعلوه تكن فتنة في الارض

وفساد كبير أي ان لم تجانبوا المشركين

وجوه

وتوالوا المؤمنين والاوقعت فتنة في الناس وهو التباس الامر واختلاط المؤمنين بالكافرين فيقع

بين الناس فساد منتشر عريض طويل (والذين امنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون

حقا لهم مغفرة ورزق كريم والذين امنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض

في كتاب الله ان الله بكل شيء عليم) لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا عطف بذكر مالهم في الآخرة وأخبر عنهم بحقيقة الايمان كما

تقدم في أول السورة وانه سبحانه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن الذنوب ان كانت وبالرزق الكريم وهو الحسن الكثير الطيب

الشريف دائم مستمر أبدا لاينقطع ولاينقضي ولايسأم ولايمل لحسنه وتنوعه ثم ذكر ان الاتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من

الايمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة كقوله والسابقون الاولون الآية وقال والذين جاؤا من بعدهم الآية وفي الحديث

المتفق عليه بل المتواتر من طرق صحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال المرء مع من أحب وفي الحديث الآخر من أحب

قوما فهو منهم وفي رواية حشر معهم وقال الامام أحمد حدثنا وكيع عن شريك عن عاصم عن أبي وائل عن جرير قال قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم المهاجرون والانصار أولياء بعضهم لبعض والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم (١) بياض بالاصل

معترفين بما جاءهم به من حجج الله وبراهينه عنادا وبعدا عن الحق والباء للتعدية أو للمصاحبة (وما نحن بتاركي آلهتنا) التي نعبدها من دون الله (عن قولك) أي لاجله أو تركا صادرا عنه فعن على الاول للتعليل كما أشار اليه ابن عطية ولكن اختار الثاني ولم يذكر الزمخشري غيره (وما نحن لك بمؤمنين) أي بمصدقين في شيء مما جئت به (ان نقول الا اعتراك) يقال عراه الامر واعتراه اذا ألم به أي مانقول الا أنه أصابك (بعض آلهتنا) التي تعيبها وتسفه رأيك في عبادتها (بسوء) بجنون حتى نشأ عنه ماتقوله لنا وتكرره علينا من التنفير عنها والاستثناء مفرغ كما قال الزمخشري فأجابهم بما يدل على عدم مبالاته بهم وعلى وثوقه بربه وتوكله عليه وانهم لايقدرون على شيء مما يريده به الكفار بل الله سبحانه هو الضار النافع (قال اني أشهد الله) على نفسي (واشهدوا) أنتم أيضا علي (أني بريء مما تشركون) به (من دونه) أي من اشراككم من دون الله من غير أن ينزل به سلطانا (فكيدوني جميعا) أنتم وآلهتكم ان كانت كما تزعمون من أنها تقدر على الاضرار بي وانها اعترتني بسوء (ثم لاتنظرون) أي لاتمهلوني بل عاجلوني واصنعوا ما بدا لكم واحتالوا في هلاكي وفي هذا من اظهار عدم المبالاة بهم وبأصنامهم التي يعبدونها مايصك مسامعهم ويوضح عجزهم وعدم قدرتهم على شيء وهذا من معجزاته الباهرة (اني توكلت على الله ربي وربكم) فهو يعصمني من كيدكم وان بالغتم في تطلب

أولياء بعض الى يوم القيامة قال شريك فحدثنا الاعمش عن تميم بن سلمة عن عبد الرحمن بن هلال عن جرير عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله تفرد به أحمد من هذين الوجهين وأما قوله تعالى وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله أى فى حكم الله وليس المراد بقوله وأولوا الارحام خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة الذين لا فرض لهم ولا عصبة بل يدلون بوارث كالخالة والخال والعمة وأولاد البنات وأولاد الاخوات ونحوهم كما زعمه بعضهم ويحتج بالآية ويعتقد ذلك صريحا فى المسئلة بل الحق ان الآية عامة تشمل جميع القرابات كما نص عليه ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد على انها ناسخة للارث بالحلف والاخاء الذين كانوا يتوارثون به أولا وعلى هذا فتشمل ذوى الارحام بالاسم الخاص ومن لم يورثهم يحتج بأدلة من أقواها حديث ان الله قد أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث قالوا فلو كان ذا حق لكان ذا فرض فى كتاب الله مسمى فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثا والله أعلم آخر تفسير سورة الانفال ولله الحمد والمنة وعليه التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل

(تفسير سورة التوبة مدنية) (براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا فى الارض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وان الله مخزى الكافرين) هذه السورة الكريمة (٣٤٢) من أواخر ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال البخارى حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة عن أبى اسحق قال سمعت البراء يقول آخر آية نزلت يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة وآخر سورة نزلت براءة وانما لم يبسمل فى أولها لان الصحابة لم يكتبوا البسملة فى أولها فى المصحف الامام بل اقتدوا فى ذلك بامير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه وأرضاه كما قال الترمذى حدثنا محمد بن بشار حدثنا يحيى بن سعيد ومحمد بن أبى جعفر وابن أبى عدى وسهيل بن يوسف قالوا حدثنا عوف بن أبى جميلة أخبرنى يزيد الفارسى أخبرنى ابن عباس قال قلت لعثمان بن عفان ما حملكم ان عمدتم الى الانفال وهى من المثانى والى براءة وهى من المئين وقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها فى السبع الطوال ما حملكم على ذلك فقال عثمان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يأتى عليه الزمان وهو تنزل عليه السور ذوات العدد فكان اذا نزل عليه الشئ دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هذه الآية فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا وكانت الانفال من أول ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن وكانت قصتها شبيهة بقصتها وخشيت انها منها وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا انها منها فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها فى السبع الطوال وكذا رواه الامام أحمد وأبو داود والنسائى وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه من طرق أخر عن عوف الاعرابى به وقال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة تبوك وهم بالحج ثم ذكر ان المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم فى ذلك وانهم يطوفون بالبيت عراة فكره مخالطتهم وبعث أبا بكر الصديق رضى الله عنه أميرا على الحج تلك السنة ليقيم للناس مناسكهم ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا وان ينادى بالناس براءة من الله ورسوله فلما قفل أتبعه بعلى بن أبى طالب ليكون مبلغا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لكونه عصبة له كما سيأتى بيانه فقوله تعالى براءة من الله ورسوله

وجوه الاضرار بى كل مبلغ فمن توكل على الله كفاه ثم لما بين لهم توكله على الله وثقته بحفظه وكلاءته وصفه بما يوجب التوكل عليه والتفويض اليه من اشتمال ربوبيته عليه وعليهم وانه مالك للجميع فقال (ما من دابة) تدب على الارض (الا هو آخذ بناصيتها) أى ان ناصية كل دابة من دواب الارض بيده وفى قبضته وتحت قهره وأنتم من جملة الدابة فلا تؤثروا فى شيأ وهو تمثيل لغاية التسخير ونهاية التذليل وكانوا اذا أسروا الاسير وأرادوا اطلاقه والمن عليه جزوا ناصيته فجعلوا ذلك علامة لقهره قال الفراء معنى آخذ بناصيتها مالكها والقادر عليها وقال القتيبى قاهرها لان من أخذت بناصيته فقد قهرته والناصية قصاص الشعر من مقدم الرأس ويسمى الشعر النابت أيضا ناصية باسم محله ثم علل ما تقدم بقوله (ان ربى على صراط مستقيم) أى هو على الحق والعدل فلا يكاد يسلطهم على وقيل ان دين ربى هو الصراط وقيل ان ربى يحملكم على صراط وقيل ان ربى يدل على صراط والاول أولى (فان تولوا) أى تستمروا على الاعراض عن الاجابة والتصميم على ما أنتم عليه من الكفر فلا أبالى ولا على مؤاخذة فى شأنكم (فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم) وليس على الا ذلك وقد لزمتكم الحجة (ويستخلف ربى قوما غيركم) جملة مستأنفة لتقرير الوعيد بالهلاك أى يستخلف فى دياركم وأموالكم قوما آخرين (ولا تضرونه شيأ) بتوليكم ولا تقدرون على كثير من الضرر ولا حقير (ان

أي هذه براءة أي تبرى من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة أشهر اختلف المفسرون ههنا اختلافا كثيرا فقال قائلون هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة أو من له عهد دون أربعة أشهر فيكمل له أربعة أشهر فأما من كان له عهد مؤقت فأجله الى مدته مهما كان لقوله تعالى فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم الآية ولما سيأتي في الحديث ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فعهده الى مدته وهذا أحسن الاقوال وأقواها وقد اختاره ابن جرير رحمه الله وروي عن الكلبي ومحمد بن كعب القرظي وغير واحد وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الارض أربعة أشهر الآية قال حد الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر يسيحون في الارض حيث شاؤا وأجل أجل من ليس له عهد انسلاخ الاشهر الحرم من يوم النحر الى سلخ المحرم فذلك خمسون ليلة فأمر الله نبيه اذا انسلخ المحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد بقتلهم حتى يدخلوا في الاسلام وأمر بمن كان له عهد اذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر الى عشر خلون من ربيع الآخر ان يضع (٣٤٤) فيهم السيف أيضا حتى يدخلوا في الاسلام وقال أبو معشر المدني حدثنا محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أميرا على الموسم سنة تسع وبعث علي بن أبي طالب بثلاثين آية أو أربعين آية من براءة فقرأها على الناس يؤجل المشركين أربعة أشهر يسيحون في الارض فقرأها عليهم يوم عرفة أجلهم عشرين من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الاول وعشرا من ربيع الآخر وقرأها عليهم في منازلهم وقال لا يحجن بعد عامنا هذا مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد براءة من الله ورسوله الى أهل العهد خزاعة ومدلج ومن كان له عهد أو غيرهم فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك حين فرغ فأراد رسول الله أو صلى الله عليه وسلم الحج ثم قال انما يحضر المشركون فيطوفون عراة فلا أحب ان أحج حتى لا يكون ذلك فأرسل أبا بكر وعليا رضي الله عنهما فطافا بالناس في ذي المجاز وبأمكنتهم التي كانوا يتبايعون بها وبالمواسم كلها فآذنوا أصحاب العهد بأن يؤمنوا أربعة أشهر فهي الاشهر المتواليات عشرون من ذي الحجة الى عشر يخلون من ربيع الآخر ثم لا عهد لهم وآذن الناس كلهم بالقتال الا ان يؤمنوا وهكذا روي عن السدي وقتادة وقال الزهري كان ابتداء التأجيل من شوال وآخره سلخ المحرم وهذا القول غريب وكيف يحاسبون بمدة لم يبلغهم حكمها وانما ظهر لهم أمرها يوم النحر حين نادى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ولهذا قال تعالى (وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الاكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فان تبتم فهو خير لكم وان توليتم فاعلموا انكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) يقول تعالى واعلام من الله ورسوله وتقدم وانذار الى الناس يوم الحج الاكبر وهو يوم النحر الذي هو أفضل ايام المناسك وأظهرها وأكبرها جمعا ان الله بريء من المشركين ورسوله أي بريء منهم أيضا ثم دعاهم الى التوبة اليه فقال فان تبتم أي مما أنتم فيه من الشرك والضلال فهو خير لكم وان توليتم أي

ربي على كل شيء حفيظ) أي رقيب مهيمن عليه يحفظه من كل شيء قيل وعلى بمعنى اللام فيكون المعنى لكل شيء حفيظ فهو يحفظني من ان تنالوني بسوء (ولما جاء أمرنا) اى عذابنا الدنيوي الذي هو اهلاك عاد بالريح (نجينا هودا والذين آمنوا معه) من قومه من هذا العذاب وكانوا أربعة آلاف (برحمة) عظيمة كائنة (منا) لانه لا ينجو أحد من العذاب اذا نزل الا برحمة الله وقيل هي الايمان (ونجيناهم من عذاب غليظ) أي شديد في الآخرة وقيل هو السموم التي كانت تدخل أنوفهم في الدنيا والى هنا تمت القصة (وتلك عاد) أنث الاشارة اعتبارا بالقبيلة قال الكسائي ان من العرب من لا يصرف عادا ويجعله اسما للقبيلة وقيل اشارة الى آثارهم كقبورهم ومدائنهم (جحدوا بآيات ربهم) أي كفروا بها وكذبوها وأنكروا المعجزات (وعصوا) أي رؤساؤهم وسفلتهم (رسله) أي هودا وحده لانه لم يكن في عصره رسول سواه وانما جمع هنا للتعظيم أو لان من كذب رسولا فقد كذب جميع الرسل وقيل انهم عصوا هودا ومن كان قبله من الرسل أو كانوا بحيث لو بعث الله اليهم رسلا متعددين لكذبوهم (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) الجبار المتكبر والعنيد الطاغي الذي لا يقبل الحق ولا يذعن له ويتجاوز في الظلم قال أبو عبيدة العنيد والعنود والعاند والمعاند هو المعارض بالخلاف منه ومنه قيل للعرق الذي يتفجر بالدم عاند وعن قتادة قال عنيد مشرك وقال السدي العنيد المشاق (واتبعوا) أي جميعهم

أو السفلة والرؤساء (في هذه الدنيا لعنة) أي ألحقوها على لسان الانبياء واللعنة هي الابعاد من الرحمة والطرد من الخير والمعنى انها لازمة لهم لا تفارقهم ماداموا في الدنيا (و) اتبعوها (يوم القيامة) فلعنوا هنالك كما لعنوا في الدنيا قال السدي لم يبعث نبي بعد عاد الا لعنت على لسانه وقال قتادة تتابعت عليهم لعنتان من الله لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة (ألا ان عادا كفروا ربهم) قال الفراء أي بنعمة ربهم يقال كفرته وكفرت به مثل شكرته وشكرت له (ألا بعدا لعاد قوم هود) أي لا زالوا مبعدين من رحمة الله والبعد الهلاك والتباعد عن الخير يقال بعد يبعد بعدا اذا تأخر وتباعد وبعد يبعد بعدا اذا هلك والمبالغة في التنصيص والتكرير بعبارتين مختلفتين تدل على تقوية التأكيد ونهاية التحقيق وقد تقدم ان العرب تستعمله في الدعاء بالهلاك (و) أرسلنا (الى ثمود أخاهم صالحا) وهم سكان الحجر فقوم هود عاد الاولى وقوم صالح عاد الثانية كما قال المحلي في سورة النجم وقرأ الحسن ثمود بالتنوين في جميع المواضع واختلف سائر القراء فيه فصرفوه في موضع ولم يصرفوه في موضع فالصرف باعتبار التأويل بالحي والمنع بالقبيلة وهكذا سائر ما يصح فيه التأويلان وبين صالح وهود مائة سنة وعاش صالح مائتي سنة وثمانين سنة ومكانهم بين الشام والمدينة وتقدم في الاعراف بسط قصتهم وقصة الناقة بأكثر مما هنا والكلام فيه وفي قوله (قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) كما تقدم في قصة هود

استمررتم على ما أنتم عليه فاعلموا انكم غير معجزي الله بل هو قادر عليكم وأنتم في قبضته وتحت قهره ومشيئته وبشر الذين كفروا بعذاب أليم اي في الدنيا بالخزي والنكال وفي الآخرة بالمقامع والاغلال قال البخاري رحمه الله حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا الليث حدثني عقيل عن ابن شهاب قال أخبرني حميد بن عبد الرحمن ان أبا هريرة قال بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في المؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان قال حميد ثم أردف النبي صلى الله عليه وسلم بعلي بن أبي طالب فأمره ان يؤذن ببراءة قال أبو هريرة فأذن معنا علي في أهل منى يوم النحر ببراءة وأن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ورواه البخاري أيضا حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري أخبرني حميد بن عبد الرحمن ان أبا هريرة قال بعثني أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمنى لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ويوم الحج الاكبر يوم النحر وانما قيل الاكبر من أجل قول الناس الحج الاصغر فنبذ أبو بكر الى الناس في ذلك العام فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم مشرك هذا لفظ البخاري في كتاب الجهاد وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله براءة من الله ورسوله قال لما كان النبي صلى (٣٤٥) الله عليه وسلم زمن حنين اعتمر من الجعرانة ثم أمر أبا بكر على تلك الحجة قال معمر قال الزهري وكان أبو هريرة يحدث ان أبا بكر أمر أبا هريرة ان يؤذن ببراءة في حجة أبي بكر قال أبو هريرة ثم اتبعنا النبي صلى الله عليه وسلم عليا وأمره ان يؤذن ببراءة وأبو بكر على الموسم كما هو أو قال هيئته وهذا السياق فيه غرابة من جهة ان أمير الحج كان سنة عمرة الجعرانة انما هو عتاب بن أسيد فاما أبو بكر انما كان أميرا سنة تسع وقال الامام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن مغيرة عن الشعبي عن محرز بن أبي هريرة عن أبيه قال كنت مع علي بن أبي طالب حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أهل مكة (٤٤ فتح البيان رابع) ببراءة فقال ما كنتم تنادون قال كنا ننادي انه لا يدخل الجنة الا نفس مؤمنة ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فان أجله أو مدته الى أربعة أشهر فاذا مضت الاربعة الاشهر فان الله بريء من المشركين ورسوله ولا يحج هذا البيت بعد عامنا هذا مشرك قال فكنت أنادي حتى صحل صوتي وقال الشعبي حدثني محرز ابن أبي هريرة عن أبيه قال كنت مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين بعثه النبي صلى الله عليه وسلم ينادي فكان اذا صحل ناديت فقلت بأي شيء كنتم تنادون قال بأربع لا يطوف بالبيت عريان ومن كان له عهد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فعهده الى مدته ولا يدخل الجنة الا نفس مؤمنة ولا يحج بعد عامنا هذا مشرك رواه ابن جرير من غير وجه عن الشعبي ورواه شعبة عن مغيرة عن الشعبي به الا انه قال ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فعهده الى أربعة أشهر وذكر تمام الحديث قال ابن جرير وأخشى أن يكون وهما من بعض نقلته لان الاخبار متضافرة في الاجل بخلافه وقال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد

عن سماك عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه ببراءة مع أبي بكر فلما بلغ ذا الحليفة قال لا يبلغها الا أنا أو رجل من أهل بيتي فبعث بها مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه ورواه الترمذي في التفسير عن بندار عن عفان وعبد الصمد كلاهما عن حماد بن سلمة به ثم قال حسن غريب من حديث أنس رضي الله عنه وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثنا محمد بن سليمان حدثنا لوين حدثنا محمد بن جابر عن سماك عن حنش عن علي رضي الله عنه قال لما نزلت عشر آيات من براءة على النبي صلى الله عليه وسلم دعا النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر فبعثه بها ليقرأها على أهل مكة ثم دعاني فقال أدرك أبا بكر فحيثما لحقته فخذ الكتاب منه فاذهب الى أهل مكة فاقرأه عليهم فلحقته بالجحفة فأخذت الكتاب منه ورجع أبو بكر الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله نزل في شيء فقال لا ولكن جبريل جاءني فقال لن يؤدي عنك الا أنت أو رجل منك هذا اسناد فيه ضعف وليس المراد أن أبا بكر رضي الله عنه رجع من فوره بل بعد قضائه للمناسك التي أمره عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء مبينا في الرواية الاخرى وقال عبد الله أيضا حدثني أبو بكر حدثنا عمرو بن حماد عن اسباط بن نصر عن سماك عن حنش عن علي رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه (٣٤٦) ببراءة قال يا نبي الله اني لست باللسن ولا بالخطيب قال ما بد لي ان أذهب بها أنا أو تذهب بها أنت قال فان كان ولا بد فسأذهب أنا قال انطلق فان الله يثبت لسانك ويهدي قلبك قال ثم وضع يده على فيه وقال الامام أحمد حدثنا سفيان عن أبي اسحق عن زيد بن يثيع رجل من همدان سألنا عليا بأي شيء بعثت يعني يوم بعثه النبي صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر في الحجة قال بعثت بأربع لا يدخل الجنة الا نفس مؤمنة ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد فعهده الى مدته ولا يحج المشركون بعد عامهم هذا ورواه الترمذي عن قلابة عن سفيان بن عيينة وقال حسن صحيح كذا قال ورواه شعبة عن أبي اسحق فقال عن زيد بن أثيل ووهم فيه ورواه الثوري عن أبي اسحق عن بعض أصحابه عن علي رضي الله عنه وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا ابو اسامة عن زكريا عن أبي اسحق عن زيد بن يثيع عن علي قال بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزلت براءة بأربع ان لا يطوف بالبيت عريان ولا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد عامهم هذا ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو الى مدته ولا يدخل الجنة الا نفس مؤمنة ثم رواه ابن جرير عن محمد ابن عبد الاعلى عن ابن ثور عن معمر عن أبي اسحق عن الحرث عن علي قال أمرت بأربع فذكره وقال اسرائيل عن أبي اسحق عن زيد بن يثيع قال نزلت براءة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر ثم أرسل عليا فأخذها فلما رجع أبو بكر قال نزل في شيء قال لا ولكن امرت ان أبلغها انا أو رجل من أهل بيتي فانطلق الى اهل مكة فقام فيهم بأربع لا يدخل مكة مشرك بعد عامه هذا ولا يطوف بالبيت عريان ولا يدخل الجنة الا نفس مسلمة ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فعهده الى مدته وقال محمد بن اسحق عن حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيف عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي قال لما نزلت براءة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان بعث أبا بكر ليقيم الحج للناس فقيل يا رسول الله لو بعثت الى أبي بكر فقال لا يؤدي عني الا رجل من

(هو أنشأكم من الارض) اى ابتدأ خلقكم لان كل بني آدم من صلب آدم وهو مخلوق منها فمن لابتداء الغاية وقيل هي بمعنى في (واستعمركم فيها) أي جعلكم عمارها وسكانها من قولهم أعمر فلان فلانا داره فهي له عمرى فيكون استفعل بمعنى افعل مثل استجاب بمعنى أجاب والسين والتاء زائدتان وقال الضحاك معناه أطال عمركم وكانت اعمارهم ثلثمائة الى ألف سنة وقيل معناه أمركم بعمارتها من بناء المساكن وغرس الاشجار وقال ابن زيد استخلفكم فيها (فاستغفروه) اى سلوه المغفرة لكم من عبادة الاصنام (ثم توبوا اليه) أي ارجعوا الى عبادته (ان ربي قريب مجيب) أي قريب الاجابة لمن دعاه وقد تقدم القول فيه في البقرة عند قوله تعالى فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان (قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا) اى كنا نرجوا أن تكون فينا سيدا مطاعا ننتفع برأيك ونسعد بسيادتك لما نرى فيك من مخايل الرشد والسداد لانه كان من قبيلتهم وكان يعين ضعيفهم ويغني فقيرهم (قبل هذا) الذي أظهرته من ادعائك النبوة ودعوتك الى التوحيد وقيل كان صالح يعيب آلهتهم وكانوا يرجون رجوعه الى دينهم فلما دعاهم الى الله قالوا انقطع رجاؤنا منك والاستفهام في قوله (أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا) للانكار أنكروا عليه هذا النهي والمعنى ما كان يعبد آباؤنا فهو حكاية حال ماضية لاستحضار

أهل بيتي ثم دعا عليا فقال اذهب بهذا ... النحر اذا اجتمعوا انه لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عر... ن كان له عهد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو له الى مدته فخرج علي رضي الله عنه على ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم العضباء حتى ادرك أبا بكر في الطريق فلما رآه أبو بكر قال أمير أو مأمور فقال بل مأمور ثم مضيا فاقام أبو بكر للناس الحج اذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية حتى اذا كان يوم النحر قام علي ابن أبي طالب فأذن في الناس بالذي أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أيها الناس انه لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان له عهد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو الى مدته فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ولم يطف بالبيت عريان ثم قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان هذا من براءة فيمن كان من أهل الشرك من اهل العهد العام وأهل المدة الى الأجل المسمى وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أخبرنا أبو زرعة وعبد الله بن راشد أخبرنا حيوة ابن شريح أخبرنا ابن صخر انه سمع أبا معاوية البجلي من أهل الكوفة يقول سمعت أبا الصهباء البكري وهو يقول سألت عليا عن يوم الحج الاكبر فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر بن أبي قحافة يقيم للناس الحج وبعثني معه بأربعين آية من براءة حتى أتى عرفة فخطب الناس يوم عرفة فلما قضى خطبته التفت الي فقال قم يا علي فأد رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقمت فقرأت عليهم أربعين آية من براءة ثم صدرنا فأتينا منى فرميت الجمرة ونحرت البدنة ثم حلقت رأسي وعلمت ان أهل الجمع لم يكونوا كلهم حضروا خطبة أبي بكر يوم عرفة فجعلت اتتبع بها الفساطيط اقرأها عليهم فمن ثم اخال حسبتم انه يوم النحر ألا وهو يوم عرفة وقال عبد الرزاق عن معمر عن أبي اسحق سألت أبا جحيفة عن يوم الحج الاكبر قال يوم عرفة فقلت أمن عندك أم من عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كل في ذلك وقال عبد الرزاق أيضا عن ابن جريج عن عطاء قال يوم الحج الاكبر يوم عرفة وقال عمرو بن الوليد الشني حدثنا شهاب بن عباد البصري عن أبيه قال سمعت عمر بن الخطاب يقول هذا يوم عرفة هذا يوم الحج الاكبر فلا يصومنه أحد قال فحججت بعد أبي فأتيت المدينة فسألت عن أفضل أهلها فقالوا سعيد بن المسيب فأتيته فقلت اني سألت عن أفضل أهل المدينة فقالوا سعيد بن المسيب فأخبرني عن صوم يوم عرفة فقال أخبرك عمن هو أفضل مني مائة ضعف عمر بن عمر كان ينهى عن صومه ويقول هو يوم الحج الاكبر رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وهكذا روى عن ابن عباس وعبد الله بن الزبير ومجاهد وعكرمة وطاوس انهم قالوا يوم عرفة يوم الحج الاكبر وقد ورد فيه حديث مرسل رواه ابن جرير أخبرت عن محمد بن قيس عن ابن مخرمة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب يوم عرفة فقال هذا يوم الحج الاكبر وروى من وجه آخر عن ابن جريج عن محمد ابن قيس عن المسور بن مخرمة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه خطبهم بعرفات فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فان هذا يوم الحج الاكبر والقول الثاني انه يوم النحر قال هشيم عن اسمعيل بن أبي خالد عن الشعبي عن علي رضي الله عنه قال يوم الحج الاكبر يوم النحر وقال أبو اسحق السبيعي عن الحرث الاعور سألت عليا رضي الله عنه عن يوم الحج الاكبر فقال هو يوم النحر وقال شعبة عن

لاستحضار الصورة (وانا لفي شك مما تدعونا اليه) من عبادة الله (مريب) موقع في الريبة من أربته فانا أريبه اذا فعلت به فعلا يوجب له الريبة وهي قلق النفس وانتفاء الطمأنينة أو من أراب الرجل اذا كان ذا ريبة فالاسناد مجازي للمبالغة كجد جده والظاهر انه على الاول مجازي أيضا والمعنى انا لنا تابون في عبادة الله وحده وترك عبادة الاوثان والتنوين فيه وفي شك للتفخيم (قال يا قوم أرأيتم) قال ابن عطية هي من رؤية القلب والشرط الذي بعده وجوابه يسد مسد مفعولين لأرأيتم قال الشيخ والذي تقرر ان أرأيت ضمن معنى أخبرني وعلى تقدير أن لا يضمن فجملة الشرط والجواب لا تسد مسد مفعولي علمت (ان كنت على بينة من ربي) أي حجة ظاهرة وبرهان صحيح (وآتاني منه) أي من جهته (رحمة) أي نبوة وهذه الامور وان كانت متحققة الوقوع لكنها صدرت بكلمة الشك اعتبارا بحال المخاطبين لانهم في شك من ذلك كما وصفوه عن أنفسهم وعبارة الشهاب انه من باب ارخاء العنان (فمن ينصرني من الله) استفهام معناه النفي أي لا ناصر لي يمنعني من عذاب الله والنصرة مستعملة في لازم معناها وهو المنع ولذا عدي بمن (ان عصيته) في تبليغ الرسالة وراقبتكم وفترت عما يجب علي من البلاغ (فما تزيدونني) بتثبيطكم اياي (غير تخسير) بان تجعلوني خاسرا بابطال عملي ومامنحني الله والتعرض لعقوبة الله لي قال الفراء أي تضليل وابعاد من الخير وقيل المعنى فما تزيدونني باحتجاجكم بدين آبائكم غير بصيرة

الحكم سمعت يحيى بن الجزار يحدث عن علي رضي الله عنه انه خرج يوم النحر على بغلة بيضاء يريد الجبانة فجاء رجل فأخذ بلجام
دابته فسأله عن يوم الحج الاكبر فقال هو يومك هذا خل سبيلها وقال عبد الرزاق عن سفيان عن شعبة عن عبد الملك بن عمير عن
عبد الله بن أبي أوفى أنه قال يوم الحج الاكبر يوم النحر وروى شعبة وغيره عن عبد الملك بن عمير به نحوه وهكذا رواه هشيم وغيره عن
الشيباني عن عبد الله بن ابي أوفى وقال الاعمش عن عبد الله بن سنان قال خطبنا المغيرة بن شعبة يوم الاضحى على بعير فقال هذا يوم
الاضحى وهذا يوم النحر وهذا يوم الحج الاكبر وقال حماد بن سلمة عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس انه قال الحج الاكبر يوم
النحر وكذا روي عن أبي جحيفة وسعيد بن جبير وعبد الله بن شداد بن الهاد ونافع بن جبير بن مطعم والشعبي وابراهيم النخعي ومجاهد
وعكرمة وأبي جعفر الباقر والزهري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم انهم قالوا يوم الحج الاكبر هو يوم النحر واختاره ابن جرير وقد تقدم
الحديث عن أبي هريرة في صحيح البخاري ان أبا بكر بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى وقد ورد في ذلك أحاديث أخر كما قال الامام أبو
جعفر بن جرير حدثني سهل بن محمد الحساني حدثنا ابو جابر الحرمي حدثنا هشام بن الغاز الجرشي عن نافع عن ابن عمر قال وقف
رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع فقال هذا يوم الحج الاكبر وهكذا رواه ابن أبي
حاتم وابن مردويه من حديث أبي
جابر واسمه محمد بن عبد الملك به
ورواه ابن مردويه أيضا من حديث
الوليد بن مسلم عن هشام بن الغاز
به ثم رواه من حديث سعيد بن عبد
العزيز عن نافع به وقال شعبة عن
عمرو بن مرة الهمداني عن رجل
من أصحاب النبي صلى الله عليه
وسلم قال قام فينا رسول الله صلى
الله عليه وسلم على ناقة حمراء
مخضرمة فقال أتدرون أي يومكم
هذا قالوا يوم النحر قال صدقتم يوم
الحج الاكبر وقال ابن جرير حدثنا
أحمد بن المقدام حدثنا يزيد بن زريع
حدثنا ابن عون عن محمد بن سيرين
عن عبد الرحمن بن ابي بكرة عن أبيه
قال لما كان ذلك اليوم قعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعيره وأخذ الناس بخطامه أو زمامه فقال
أي يوم هذا قال فسكتنا حتى ظننا انه سيسميه سوى اسمه فقال أليس هذا يوم الحج الاكبر وهذا اسناد صحيح واصله مخرج في الصحيح
وقال ابو الاحوص عن شبيب عن عروة عن سليمان بن عمرو بن الاحوص عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة
الوداع فقال أي يوم هذا فقالوا اليوم الحج الاكبر وعن سعيد بن المسيب انه قال يوم الحج الاكبر اليوم الثاني من يوم النحر رواه ابن
أبي حاتم وقال مجاهد أيضا في يوم الحج الاكبر أيام الحج كلها وكذا قال أبو عبيد قال سفيان يوم الحج الاكبر كما يقال يوم الجمل ويوم
صفين أي أيامه كلها وقال سهل السراج سئل الحسن البصري عن يوم الحج الاكبر فقال مالكم وللحج الاكبر ذاك عام حج فيه أبو بكر
الذي استخلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم فحج بالناس رواه ابن أبي حاتم وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبو اسامة عن ابن
عون سألت محمدا يعني ابن سيرين عن يوم الحج الاكبر فقال كان يوما وافق فيه حج رسول الله صلى الله عليه وسلم وحج أهل الوبر (الا الذين
عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين) هذا استثناء من
ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت فأجله أربعة أشهر يسيح في الارض يذهب فيها لينجو بنفسه حيث

بخسارتكم وقال مجاهد وعطاء الخراساني ما تزدادون أنتم الا خسارا (ويا قوم هذه ناقة
الله لكم آية) أي معجزة ظاهرة وقد مر تفسير هذه الآية في الاعراف وانما قال هذه
ناقة الله لانه أخرجها لهم من جبل على حسب اقتراحهم وقيل من صخرة صماء والاضافة
للتشريف كبيت الله وعبد الله (فذروها) أي فدعوها (تأكل في أرض الله) مما فيها
من المراعي التي تأكلها الحيوانات وليس عليكم كلفة في مؤنتها وهذا من تتمة الزامهم قال
الكرخي أي ترع نباتها وتشرب ماءها فهو من قبيل الاكتفاء نحو تقيكم الحر وجعل
تأكل من عموم المجاز يحتاج الى قرينة صارفة (ولا تمسوها بسوء) قال الفراء بعقر
والظاهر ان النهي عما هو أعم من ذلك (فيأخذكم) ان قتلتموها (عذاب قريب) في الدنيا
جواب النهي أي قريب من عقرها وذلك ثلاثة أيام (فعقروها) أي فلم يمتثلوا الامر من
صالح ولا النهي بل خالفوا كل ذلك فوقع منهم العقر لها وعقرها قدار وهو من أشقى
الاشقياء (فقال) لهم صالح (تمتعوا في داركم) أي بالعيش في منازلكم أو بلادكم
ومساكنكم فان العقاب نازل عليكم وعبر عن الحياة بالتمتع لان الحي يكون متمتعا
بالحواس (ثلاثة أيام) ثم تهلكون قيل عقروها يوم الاربعاء فأقاموا الخميس والجمعة
والسبت وأتاهم العذاب يوم الاحد (ذلك) أي التمتع ثلاثة أيام (وعد غير مكذوب) فيه
حذف الجار اتساعا أو من باب المجاز كأن الوعد اذا وفى به صدق ولم يكذب ويجوز ان

يكون

شاء الامن له عهد مؤقت فأجله الى مدته المضروبة التى عوهد عليها وقد رسول الله صلى الله
عليه وسلم فعهده الى مدته وذلك بشرط ان لا ينقض المعاهد عهده ولم يظاهر تعالى عليهم من سواهم فهذا
الذى يوفى له بذمته وعهده الى مدته ولهذا حرض تعالى على الوفاء بذلك فقال ان الله يحب المتقين اى الموفين بعهدهم (فاذا انسلخ
الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا
الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم) اختلف المفسرون فى المراد بالاشهر الحرم ههنا ماهى فذهب ابن جرير الى انها المذكورة فى
قوله تعالى منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم الآية قاله أبو جعفر الباقر ولكن قال ابن جرير آخر الاشهر الحرم
فى حقهم المحرم وهذا الذى ذهب اليه حكاه على بن أبى طلحة عن ابن عباس واليه ذهب الضحاك أيضا وفيه نظر والذى يظهر من
حيث السياق ماذهب اليه ابن عباس فى رواية العوفى عنه وبه قال مجاهد وعمرو بن شعيب ومحمد بن اسحق وقتادة والسدى
وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ان المراد بها أشهر التسيير الاربعة المنصوص عليها بقوله فسيحوا فى الارض أربعة أشهر ثم قال فاذا
انسلخ الاشهر الحرم اى اذا انقضت الاشهر الاربعة التى حرمنا عليكم ٣٤٩ فيها قتالهم وسيأتى بيان حكمها فى آية
اخرى بعد هذا فى هذه السورة
الكريمة وقوله فاقتلوا المشركين
حيث وجدتموهم اى من الارض
فهو عام والمشهور تخصيصه بتحريم
القتال فى الحرم بقوله ولا تقاتلوهم
عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم
فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم وقوله
وخذوهم اى وأسروهم ان
شئتم قتلا وان شئتم اسرا وقوله
واحصروهم واقعدوا لهم كل
مرصد أى لا تكتفوا بمجرد
وجدانكم لهم بل اقصدوهم
بالحصار فى معاقلهم وحصونهم
والرصد فى طرقهم ومسالكهم حتى
تضيقوا عليهم الواسع وتضطروهم
الى القتل أو الاسلام ولهذا قال فان
تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم ولهذا اعتمد الصديق رضى الله عنه فى قتال مانعى الزكاة على هذه
الآية الكريمة وأمثالها حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الافعال وهى الدخول فى الاسلام والقيام باداء واجباته ونبه باعلاها على
أدناها فان اشرف أركان الاسلام بعد الشهادتين الصلاة التى هى حق الله عز وجل وبعدها اداء الزكاة التى هى نفع متعد الى
الفقراء والمحاويج وهى اشرف الافعال المتعلقة بالمخلوقين ولهذا كثيرا ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة وقد جاء فى الصحيحين عن ابن
عمر رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول
الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة الحديث وقال أبو اسحق عن ابى عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال امرتم باقام
الصلاة وايتاء الزكاة ومن لم يزك فلا صلاة له وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أبى الله ان يقبل الصلاة الا بالزكاة وقال يرحم الله
أبا بكر ما كان أفقهه وقال الامام أحمد حدثنا على بن اسحق أنبأنا عبد الله بن المبارك أنبأنا حميد الطويل عن أنس ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال امرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله فاذا شهدوا أن لا اله الا الله
وأن محمدا رسول الله واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا وصلوا صلاتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم الا بحقها لهم ما للمسلمين

يكون مصدرا أى وعد غير كذب (فلما جاء أمرنا) أى عذابنا أو أمرنا بوقوع العذاب
(نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة) عظيمة (منا) قد تقدم تفسير هذا فى قصة هود
والباء للسببية أو للمصاحبة وهى بالنسبة الى صالح النبوة وبالنسبة الى المؤمنين الايمان
(و) نجيناهم (من خزى يومئذ) وهو هلاكهم بالصيحة وسمى خزيا لان فيه خزيا للكفار
والخزى الذل والمهانة وقيل من عذاب يوم القيامة والاول أولى ويومئذ بكسر الميم اعرابا
وفتحها بناء لاضافته الى مبنى قال السيوطى وهو الاكثر أى فى الاستعمال والا فهما
قراءتان سبعيتان على السواء (ان ربك هو القوى العزيز) القادر الغالب الذى لا يعجزه
شئ والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والقصة تمت عند قوله يومئذ (وأخذ
الذين ظلموا الصيحة) أى فى اليوم الرابع من عقر الناقة صيح بهم فماتوا وذكر الفعل لان
الصيحة والصياح واحد مع كون التأنيث غير حقيقى والصيحة فعلة تدل على المرة من
الصياح وهو الصوت الشديد يقال صاح يصيح صياحا أى صوت بقوة قيل صيحة جبريل
وقيل صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم وماتوا وتقدم فى الاعراف فأخذتهم الرجفة
قيل ولعلها وقعت عقب الصيحة (فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) ميتين صرعى هلكى ساقطين
على وجوههم موتى قد لصقوا بالتراب كالطير اذا جثمت والجثوم كالركوب من البعير
والفاعل جاثم وجثام مبالغة يقال جثم الطائر والارنب يجثم (كأن لم يغنوا فيها) أى

وعليهم ماعليهم ورواه البخاري في صحيحه وأهل السنن الا ابن ماجه من حديث عبد الله بن المبارك به وقال الامام ابو جعفر بن جرير حدثنا عبد الاعلى بن واصل الاسدي حدثنا عبيد الله بن موسى اخبرنا ابو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من فارق الدنيا على الاخلاص لله وحده وعبادته لا يشرك به فارقها والله عنه راض قال وقال أنس هو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم قبل هرج الاحاديث واختلاف الاهواء وتصديق ذلك في كتاب الله في آخر ما أنزل قال الله تعالى فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم قال توبتهم خلع الاوثان وعبادة ربهم وحده وأقام الصلاة وايتاء الزكاة ثم قال في الآية الاخرى فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين ورواه ابن مردويه ورواه محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة له حدثنا اسحق بن ابراهيم انبأنا حكام بن سلمة حدثنا أبو جعفر الرازي به سواء وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك بن مزاحم انها نسخت كل عهد بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين احد من المشركين وكل عقد وكل مدة وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية لم يبق لاحد من المشركين عهد ولا ذمة منذ نزلت براءة وانسلاخ الاشهر الحرم ومدة من كان له عهد من المشركين قبل ان تنزل براءة اربعة (٣٥٠) اشهر من يوم اذن ببراءة الى عشر من اول شهر ربيع الآخر وقال علي بن ابي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية قال أمره الله تعالى ان يضع السيف فيمن عاهد ان لم يدخلوا في الاسلام ونقض ما كان سمي لهم من العهد والميثاق وأذهب الشرط الاول وقال ابن ابي حاتم حدثنا أبي حدثنا اسحق ابن موسى الانصاري قال قال سفيان ابن عيينة قال علي بن ابي طالب بعث النبي صلى الله عليه وسلم باربعة اسياف سيف في المشركين من العرب قال الله تعالى فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم هكذا رواه مختصرا واظن ان السيف الثاني هو قتال اهل الكتاب لقوله تعالى قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون والسيف الثالث قتال المنافقين في قوله يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين الآية والرابع قتال الباغين في قوله وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله ثم اختلف المفسرون في آية السيف فقال الضحاك والسدي هي منسوخة بقوله تعالى فاما منا بعد واما فداء وقال قتادة بالعكس (وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون) يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه وان احد من المشركين الذين امرتك بقتالهم استجارك اي استأمنك فأجبه الى طلبته حتى يسمع كلام الله اي القرآن تقرؤه عليه وتذكر له شيأ من امر الدين تقيم به عليه حجة الله ثم ابلغه مأمنه اي وهو آمن مستمر الامان حتى يرجع الى بلاده وداره ومأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون اي انما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله في عباده وقال ابن ابي نجيح عن مجاهد في تفسير هذه الآية قال انسان يأتيك ليسمع ما تقول وما أنزل عليك فهو آمن حتى يأتيك فتسمعه كلام الله وحتى يبلغ مأمنه حيث جاء ومن هذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي الامان لمن جاءه مسترشدا أو في رسالة كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش منهم عروة بن مسعود

كأنهم لم يقيموا في بلادهم أو ديارهم ولم يعيشوا فيها اولم يعمروا اولم ينعموا والتقدير مماثلين لمن لم يوجد ولم يقم في مقام قط يقال غنيت بالمكان اذا أتيته وأقمت فيه (ألا ان ثمود كفروا ربهم) وضع الظاهر موضع المضمر لزيادة البيان وصرح بكفرهم مع كونه معلوما تعليلا للدعاء عليهم بقوله (ألا بعدا لثمود) بالصرف وتركه قراءتان سبعيتان على معنى الحي والقبيلة وقد تقدم تفسير هذه القصة في الاعراف بما يحتاج الى مراجعته لضم ما في احدى القصتين من الفوائد الى الاخرى (ولقد جاءت رسلنا ابراهيم) بسكون السين وضمها حيثما وقع مضافا الى الضمير بخلاف ما اذا أضيف الى مظهر فليس فيه الا ضمها وهذا شروع في قصة ابراهيم لكنها مذكورة توطئة لقصة لوط لا استقلالا ولذا لم يذكرها على أسلوب ما قبلها وما بعدها فلم يقل وأرسلنا ابراهيم الى كذا وعاش ابراهيم من العمر مائة وخمسا وسبعين سنة وبينه وبين نوح ألفا سنة وستمائة سنة وأربعون سنة وابنه اسحق عاش مائة وثمانين سنة ويعقوب بن اسحق عاش مائة وخمسا وأربعين سنة ولوط عليه السلام هو ابن أخي ابراهيم عليه السلام وكانت قرى قوم لوط بنواحي الشأم وابراهيم ببلاد فلسطين فلما انزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط مروا بابراهيم ونزلوا عنده وكان كل من نزل عنده يحسن قراه وكان مرورهم عليه لتبشيره بهذه البشارة الآتية فظنهم اضيافا وهم جبريل وميكائيل واسرافيل قاله عطاء وقيل كانوا تسعة قاله الضحاك وقيل احد عشر قاله السدي وقيل اثني عشر

ومكرز بن حفص وسهيل بن عمرو وغيرهم واحدا بعد واحد يترددون فى القضية بينه وبين المشركين فرأوا من اعظام المسلمين رسول الله صلى الله عليه وسلم مابهرهم ومالم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر فرجعوا الى قومهم وأخبروهم بذلك وكان ذلك وامثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم ولهذا أيضا لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له أتشهد أن مسيلمة رسول الله قال نعم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا ان الرسل لاتقتل لضربت عنقك وقد قيض الله له ضرب العنق فى امارة ابن مسعود على الكوفة وكان يقال له ابن النواحة ظهر عنه فى زمان ابن مسعود انه يشهد لمسيلمة بالرسالة فارسل اليه ابن مسعود فقال له انك الآن لست فى رسالة وأمر به فضربت عنقه لارحمه الله ولعنه والغرض ان من قدم من دار الحرب الى دار الاسلام فى اداء رسالة او تجارة او طلب صلح او مهادنة او حمل جزية او نحو ذلك من الاسباب وطلب من الامام او نائبه امانا أعطى امانا مادام مترددا فى دار الاسلام وحتى يرجع الى مأمنه ووطنه لكن قال العلماء لا يجوز أن يمكن من الاقامة فى دار الاسلام سنة ويجوز أن يمكن من اقامة أربعة أشهر فيما بين ذلك فيما زاد على أربعة اشهر ونقص عن سنة قولان عن الامام الشافعى وغيره من العلماء رحمهم الله (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله (٣٥١) الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ان الله يحب المتقين) يبين تعالى حكمته فى البراءة من المشركين ونظرته اياهم أربعة اشهر ثم بعد ذلك السيف المرهف اين يثقفوا فقال تعالى كيف يكون للمشركين عهد أى امان ويتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام يعنى يوم الحديبية كما قال تعالى هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا ان يبلغ محله الآية فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم اى مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين فاستقيموا لهم ان الله يحب المتقين وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك والمسلمون استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذى القعدة فى سنة ست الى ان نقضت قريش العهد ومالؤا حلفاءهم وهم بنو بكر على خزاعة احلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتلوهم معهم فى الحرم أيضا فعند ذلك غزاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رمضان سنة ثمان ففتح الله عليه البلد الحرام ومكنه من نواصيهم ولله الحمد والمنة فاطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم فسموا الطلقاء وكانوا قريبا من ألفين ومن استمر على كفره وفر من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث اليه بالامان والتسيير فى الارض أربعة أشهر يذهب حيث شاء ومنهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل وغيرهما ثم هداهم الله بعد ذلك الى الاسلام التام والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله (كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الا ولا ذمة يرضونكم بافواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون) يقول تعالى محرضا للمؤمنين على معاداتهم والتبرى منهم ومبينا انهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله تعالى وكفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ولو أنهم اذ ظهروا على المسلمين وأديلوا عليهم لم يبقوا ولم يذروا ولا راقبوا فيهم الا ولا ذمة قال على بن أبى طلحة وعكرمة والعوفى عن ابن عباس الال القرابة والذمة العهد وكذا قال الضحاك والسدى كما قال تميم بن مقبل

عشر قاله مقاتل وقيل كان جبريل ومعه سبعة املاك قاله محمد بن كعب القرظى والاول اولى لان اقل الجمع ثلاثة (بالبشرى) التى بشروه بها هى بشارته بالولد وقيل باهلاك قوم لوط والاول اولى (قالوا سلاما) أى سلمنا عليك سلاما وهذه تحيتهم التى وقعت منهم وهى لفظ سلاما (قال) لهم ابراهيم (سلام) اى أمركم سلام أو عليكم سلام وهذه التحية الواقعة منه جوابا وهى لفظ سلام وحياهم بالجملة الاسمية فى جواب تحيتهم بالفعلية ومن المعلوم ان الاولى أبلغ من الثانية فكانت تحيته أحسن من تحيتهم كما قال تعالى فحيوا بأحسن منها (فما لبث) أى ابراهيم (ان جاء بعجل حنيذ) قال أكثر النحاة ان هنا بمعنى حتى وقيل التقدير فما لبث عن ان جاء أى ما ابطأ ابراهيم عن مجيئه بعجل وما نافية قاله سيبويه وقال الفراء فما لبث مجيئه اى ما ابطأ مجيئه وقيل ان ما موصولة والتقدير فالذى لبث ابراهيم هو مجيئه والحنيذ المشوى مطلقا وقيل المشوى بحر الحجارة من غير أن تمسه النار وهذا من فعل أهل البادية يقال حنذ الشاة يحنذها جعلها فوق حجارة محماة لينضجها فهى حنيذ وقيل هو سمين وقيل هو السميط وقيل النضيج وهو فعيل بمعنى مفعول وانما جاءهم بعجل لان البقر كانت أكثر أمواله (فلما رأى) الرؤية بصرية أى أبصر (أيديهم لا تصل اليه) أى لا تمدونها الى العجل المشوى كما يمده من يريد الاكل (نكرهم) يقال نكرته وانكرته واستنكرته اذا وجدته على غير ما تعهده ويقال أنكرت لما تراه بعينك ونكرت لما تراه

أفسد الناس خلوف خلفوا ٭ قطعوا الال وأعراق الرحم

وقال حسان بن ثابت رضى الله عنه

وجدناهم كاذبا الهم ٭ وذو الال والعهد لا يكذب

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد لا يرقبون فى مؤمن الا الال الله وفى رواية لا يرقبون الله ولا غيره وقال ابن جرير حدثنى يعقوب

حدثنا ابن علية عن سليمان عن ابى مجلز فى قوله تعالى لا يرقبون فى مؤمن الا ولا ذمة مثل قوله جبريل ميكائيل اسرافيل كأنه

يقول لا يرقبون الله والقول الاول أظهر وأشهر وعليه الاكثر وعن مجاهد أيضا الال العهد وقال قتادة الال الحلف (اشتروا

بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله انهم ساء ما كانوا يعملون لا يرقبون فى مؤمن الا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون فان تابوا

وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم فى الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون) يقول تعالى ذما للمشركين وحثا للمؤمنين على

قتالهم اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا يعنى انهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة فصدوا عن سبيله

اى منعوا المؤمنين من اتباع الحق انهم ساء ما كانوا يعملون لا يرقبون فى مؤمن الا ولا ذمة تقدم تفسيره وكذا

الآية التى بعدها فان تابوا

وأقاموا الصلاة الى آخرها تقدمت

وقال الحافظ ابو بكر البزار حدثنا

محمد بن المثنى حدثنا يحيى بن أبى

بكر حدثنا ابو جعفر الرازى حدثنا

الربيع بن أنس قال سمعت انس بن

مالك يقول قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم من فارق الدنيا على

الاخلاص لله وعبادته لا يشرك به

وأقام الصلاة وآتى الزكاة فارقها

والله عنه راض وهو دين الله الذى

جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم قبل

هرج الاحاديث واختلاف الاهواء

وتصديق ذلك فى كتاب الله فان تابوا

يقول فان خلعوا الاوثان وعبادتها

وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم وقال فى آية اخرى فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة

فاخوانكم فى الدين ثم قال البزار آخر الحديث عندى والله اعلم فارقها وهو عنه راض وباقيه عندى من كلام الربيع بن أنس

(وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون) يقول تعالى وان نكث

هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة ايمانهم اى عهودهم ومواثيقهم وطعنوا فى دينكم اى عابوه وانتقصوه ومن

هنا أخذ قتل من سب الرسول صلوات الله وسلامه عليه او من طعن فى دين الاسلام او ذكره بنقص ولهذا قال فقاتلوا أئمة

الكفر انهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون اى يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال وقد قال قتادة وغيره أئمة الكفر كأبى

جهل وعتبة وشيبة وامية بن خلف وعدد رجالا وعن مصعب بن سعد بن ابى وقاص قال مر سعد بن ابى وقاص برجل من الخوارج

فقال الخارجى هذا من ائمة الكفر فقال سعد كذبت بل انا قاتلت ائمة الكفر رواه ابن مردويه وقال الاعمش عن زيد بن وهب

عن حذيفة قال ما قوتل اهل هذه الآية بعد وروى عن على بن ابى طالب رضى الله عنه مثله والصحيح ان الآية عامة وان كان

بتلك قيل وانما استنكر منهم ذلك لان عادتهم ان الضيف اذا نزل بهم ولم يأكل من طعامهم ظنوا انه قد جاء بشر ولم يأت بخير قاله قتادة وفى الذاريات قوم منكرون أى غرباء لا أعرفهم قال ذلك فى نفسه كما قاله ابن عباس وقيل انما أنكر أمرهم لانهم دخلوا عليه من غير استئذان وقال أبو العالية انكر سلامهم فى ذلك الزمان وفى تلك الارض (وأوجس منهم) أى أحس فى نفسه (خيفة) أى خوفا وفزعا وقيل معنى اوجس أضمر فى نفسه والاول أصوب بالمعنى اللغوى والوجس هو رعب القلب والايجاس الادراك وقيل الاضمار وفى السمين الايجاس حديث النفس وأصله من الدخول كأن الخوف داخله والوجيس ما يعترى النفس أوان الفزع ووجس فى نفسه كذا أى خطر بها يجس وجسا ووجوسا ووجيسا وكأنه ظن انهم قد نزلوا به لامر ينكره أو لتعذيب قومه (قالوا لا تخف) قالوا له ذلك مع كونه لم يتكلم بما يدل على الخوف بل أوجس ذلك فى نفسه فلعلهم استدلوا على خوفه بامارات كظهور أثره على وجهه أو قالوه له بعدما قال عقب ما أوجس فى نفسه من الخيفة قولا يدل على الخوف كما فى قوله فى سورة الحجر قال انا منكم وجلون ولم يذكر ذلك ههنا اكتفاء بما هنالك ثم عللوا نهيهم عن الخوف بقولهم (انا أرسلنا الى قوم لوط) خاصة ولوط أول من آمن بابراهيم وأبوهما اران أخو ابراهيم ويمكن ان يكون ابراهيم عليه السلام قد قال قولا يكون هذا جوابا عنه كما قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا انا

أرسلنا

أرسلنا الى قوم مجرمين (وامرأته) اى سارة زوجة ابراهيم وهي ابنة هرون بن ناحور وهي ابنة عم ابراهيم (قائمة) قيل كانت قائمة عند تحاورهم وراء الستر تسمع كلامهم وقيل كانت واقفة قائمة تخدم الملائكة وهو جالس والجملة مستأنفة أو حالية (فضحكت) الضحك هنا هو الضحك المعروف الذي يكون للتعجب أو للسرور كما قاله الجمهور وأصل الضحك انبساط الوجه من سرور يحصل للنفس ولظهور الاسنان عنده سميت مقدمات الاسنان الضواحك ويستعمل في السرور المجرد وفي التعجب المجرد ايضا وعليه اكثر المفسرين وقال مجاهد وعكرمة انه الحيض والعرب تقول ضحكت الارنب اذا حاضت وقد انكر بعض اللغويين ان يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت قال الراغب وقول من قال حاضت ليس تفسيرا لقوله فضحكت كما تصوره بعض المفسرين وانما ذكر ذلك تنصيصا لحالها فان ذلك أمارة لما بشرت به فحيضها في الوقت ليعلم ان حملها ليس بمنكر لان المرأة مادامت تحيض فانها تحمل قال الفراء ضحكت بمعنى حاضت لم نسمعه من ثقة وقال الزجاج ليس بشيء ضحكت بمعنى حاضت وقال ابن الانباري قد أنكر الفراء وأبو عبيدة ان يكون ضحكت بمعنى حاضت وقال في المحكم ضحكت المرأة حاضت والاول أولى ولا مصير الى المجاز الا عند تعذر الحقيقة وظاهر النص انها ضحكت قال قتادة ضحكت تعجبا مما فيه قوم لوط من الغفلة ومما أتاهم من العذاب وقال السدي ضحكت تعجبا من عدم أكلهم وقال مقاتل والكلبي ضحكت من خوف ابراهيم من ثلاثة وهو فيما بين خدمه وحشمه وخواصه وقيل ضحكت من زوال الخوف عنها وعن ابراهيم حين قالوا لا تخف وقيل ضحكت سرورا من البشارة وقال وهب ضحكت تعجبا من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها وقيل غير ذلك مما ليس في ذكره كثير فائدة والله أعلم مما ضحكت وقال ابن عباس حاضت وهي بنت ثمان وتسعين سنة وعن مجاهد قال وكان ابراهيم ابن مائة سنة (فبشرناها باسحق) ظاهره ان التبشير كان بعد الضحك وقال الفراء فيه تقديم وتأخير والمعنى فبشرناها فضحكت سرورا بالولد وولد اسحق بعد البشارة بسنة وكانت ولادته بعد اسمعيل بأربعة عشر سنة (ومن وراء) أي وهبنا لها من وراء (اسحق يعقوب) وقرئ بجر يعقوب ومنعه الفراء وقرئ بالرفع على الابتداء وخبره الظرف الذي قبله وبالنصب وهما بعيدتان وقد وقع التبشير هنا لها ووقع لابراهيم في قوله تعالى وبشرناه بغلام حليم وبشروه بغلام عليم لان كل واحد منهما مستحق للبشارة به لكونه منهما قال ابن عباس هو ولد الولد أي فبشرت بأنها تعيش حتى ترى ولد الولد وقد رأته (قالت يا ويلتا) مستأنفة كأنه قيل فاذا قالت وهي لم ترد الدعاء على نفسها بالويل ولكنها كلمة تقع كثيرا على أفواه النساء اذا طرأ عليهن ما يعجبن منه وأصل الويل الخزي ثم شاع في كل أمر فظيع والالف مبدلة من ياء الاضافة والاستفهام في قولها (أألد وأنا عجوز) للتعجب أي كيف ألد وأنا شيخة قد طعنت في السن يقال عجزت تعجز مخففا ومثقلا عجزا وتعجيزا أي طعنت في السن ويقال عجوز وعجوزة وأما عجزت بكسر الجيم فمعناه عظمت عجيزتها (وهذا بعلي) أي زوجي ابراهيم (شيخا) لا تحبل من مثله النساء ونصبه على الحال والعامل فيه

سبب نزولها مشركي قريش فهي عامة لهم ولغيرهم والله أعلم وقال الوليد بن مسلم حدثنا صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير أنه كان في عهد أبي بكر رضي الله عنه الى الناس حين وجههم الى الشام قال انكم ستجدون قوما مجوفة رؤسهم فاضربوا معاقد الشيطان منهم بالسيوف فوالله لان أقتل رجلا منهم أحب الي من ان أقتل سبعين من غيرهم وذلك بان الله يقول فقاتلوا أئمة الكفر رواه ابن أبي حاتم (ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدؤكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم) وهذا أيضا تهييج وتحضيض واغراء على قتال المشركين الناكثين بايمانهم الذين هموا باخراج الرسول من مكة كما قال تعالى واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين وقال تعالى يخرجون الرسول واياكم أن تؤمنوا بالله ربكم الآية وقال تعالى وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها الآية وقوله وهم بدؤكم أول مرة قيل المراد بذلك يوم بدر حين خرجوا لنصر عيرهم فلما نجت وعلموا بذلك استمروا على وجوههم طلبا للقتال بغيا وتكبرا كما تقدم بسط ذلك وقيل المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة أحلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سار اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح وكان ما كان ولله

العباد من سطوتي وعقوبتي فبيدي الأمر وما شئت كان وما لم أشأ لم يكن ثم قال تعالى عزيمة على المؤمنين وبيانا لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على اهلاك الاعداء بامر من عنده قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين وهذا عام في المؤمنين كلهم وقال مجاهد وعكرمة والسدي في هذه الآية ويشف صدور قوم مؤمنين يعني خزاعة وأعاد الضمير في قوله ويذهب غيظ قلوبهم عليهم أيضا وقد ذكر ابن عساكر في ترجمة مؤذن لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن مسلم بن يسار عن عائشة رضي الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا غضبت أخذ بأنفها وقال يا عويش قولي اللهم رب النبي محمد اغفر ذنبي واذهب غيظ قلبي وأجرني من مضلات الفتن ساقه من طريق أبي أحمد الحاكم عن الباغندي عن هشام بن عمار حدثنا عبد الرحمن بن أبي الجوزاء عنه ويتوب الله على من يشاء اي من عباده والله عليم أي بما يصلح عباده حكيم في افعاله واقواله الكونية والشرعية فيفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وهو العادل الحاكم الذي لا يجور أبدا ولا يضيع مثقال ذرة من خير وشر بل يجازي عليه في الدنيا والآخرة (أم حسبتم ان تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون) يقول تعالى أم حسبتم أيها المؤمنون ان نترككم مهملين

معنى اسم الاشارة ومثل هذه الحال من غوامض العربية اذ لا تجوز الاحيث يعرف الخبر وقرئ بالرفع على انه خبر محذوف أي هو شيخ أو خبر بعد خبر أو هو الخبر وبعلي بدل ويجوز كونه عطف بيان وكون شيخ تابعا لبعلي أيضا والبعل هو المستعلي على غيره والزوج مستعل على المرأة قائم بأمرها فسمي بعلا لذلك قيل كان ابراهيم ابن مائة وعشرين سنة وهي بنت تسع وتسعين وقيل بنت تسعين وهذه المبشرة هي سارة امرأة ابراهيم وقد كان ولد لابراهيم من هاجر أمته اسمعيل فتمنت سارة أن يكون لها ابن وأيست منه لكبر سنها فبشرها الله به على لسان ملائكته وكانت بين الولادة والبشارة سنة (ان هذا لشيء عجيب) أي ما ذكرته الملائكة من التبشير بحصول الولد مع كونهما في هذه السن العالية التي لا يولد لمن كان في مثلها شيء يقضى منه العجب ولم تنكر قدرة الله (قالوا أتعجبين من أمر الله) مستأنفة جواب سؤال مقدر والاستفهام فيها للانكار أي كيف تعجبين من قضاء الله وقدره وهو لا يستحيل عليه شيء وقيل المعنى لا تعجبي من ذلك وانما أنكروا عليها مع كون ما تعجبت منه من خوارق العادة لانها من بيت النبوة ولا يخفى على مثلها ان هذا من مقدوراته سبحانه ولهذا قالوا (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) أي الرحمة التي وسعت كل شيء واستتبعت كل خير وانما وضع المظهر موضع المضمر لزيادة تشريفها والبركات الخيرات النامية المتكاثرة في كل باب التي من جملتها هبة الاولاد والبركة هي النمو والزيادة وقيل الرحمة النبوة والبركات الاسباط من بني اسرائيل لما فيهم من الانبياء وكلهم من ولد ابراهيم وانتصاب أهل البيت على المدح أو الاختصاص وبين النصبين فرق ذكره السمين وصرف الخطاب من صيغة الواحدة الى الجمع لقصد التعميم وقيل خطاب لها ولأهله وهذا على معنى الدعاء من الملائكة بالخير والبركة وفيه دليل على ان أزواج الرجل من أهل بيته عن ابن عباس انه كان ينهى عن ان يزاد في جواب التحية على قولهم عليكم السلام ورحمة الله وبركاته ويتلو هذه الآية وعن ابن عمر نحوه (انه حميد) أي يفعل موجبات الحمد من عباده على سبيل الكثرة (مجيد) كثير الاحسان الى عباده بما يفيضه اليهم من الخيرات وقيل المجيد المنيع الذي لا يرام وقال الخطابي المجيد الواسع الكريم وأصل المجد في كلامهم السعة وقيل هو ذو الشرف والكرم والجملة تعليل لقوله رحمة الله وبركاته الخ (فلما ذهب عن ابراهيم الروع) أي الخيفة التي أوجسها في نفسه يقال ارتاع من كذا اذا خاف قال مجاهد الروع الفرق وهو الخوف وقيل الفزع (وجاءته البشرى) أي بالولد أو بقولهم لا تخف (يجادلنا في قوم لوط) قال الاخفش والكسائي ان يجادلنا في موضع جادلنا فيكون هو جواب لما لما تقرر من أن جوابها يكون بالماضي لا بالمستقبل قال النحاس جعل المستقبل مكانه كما يجعل الماضي مكان المستقبل في الشرط وقيل ان الجواب محذوف ويجادلنا في محل نصب على الحال قاله الفراء وتقديره فلما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى اجترأ على خطابنا حال كونه يجادلنا أي يجادل رسلنا وقيل ان المعنى أخذ أو جعل يجادلنا ومجادلته انهم قيل انه لما سمع قولهم انا مهلكوا أهل هذه القرية قال أرأيتم ان كان فيهم خمسون من المسلمين أتهلكونهم قالوا لا قال فاربعون قالوا لا قال فعشرون قالوا لا قال فعشرة فخمسة قالوا لا

قال

قال فواحـد قالوا لا قال ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الآية وعن ابن عباس قال لما جاءت الملائكة الى ابراهيم قالوا لابراهيم ان كان فيها خمسة يصلون رفع عنهم العذاب فهذا معنى مجادلته فى قوم لوط أى فى شأنهم وأمرهم وقيل معناه يكلمنا و يسألنا لان العبد لا يقدر أن يخاصم ربه وان كان نبيا ولهذا قال جمهور المفسرين معناه يجادل رسلنا ثم أثنوا على ابراهيم اذ أثنى الله عليه فقال (ان ابراهيم لحليم) أى ليس بعجول فى الامور ولا بموقعها على غير ما ينبغى (أواه) أى كثير التاوه أو الرحيم (منيب) أى راجع الى الله وقد تقدم فى براءة الكلام على الاواه والمنيب هو المقبل الى طاعة الله وقال قتادة المنيب المخلص وفى الآية ما يشير الى أن المراد بالمجادلة فيما تقدم مجادلة الرسل لا مجادلة الرب كما قاله الجمهور والمقصود من ذلك بيان الحامل له على المجادلة وهو رقة قلبه وفرط رحمته فطلب تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون ويرجعون عما هم فيه من الكفر والمعاصى (يا ابراهيم أعرض عن هذا) هذا قول الملائكة له أى أعرض عن هذا المقال واترك هذا الجدال فى أمر قد فرغ منه وجف به القلم وحق به القضاء (انه قد جاء أمر ربك) الضمير للشأن والمعنى مجىء عذابه الذى قدره عليهم وسبق به قضاؤه فى أزله (وانهم آتيهم عذاب غير مردود) أى لا يرده دعاء ولا جدال بل هو واقع بهم لا محالة ونازل بهم على كل حال ليس بمصروف ولا مدفوع (ولما جاءت رسلنا لوطا) أى لما خرجت الملائكة من عند ابراهيم وكان بين ابراهيم وقرية لوط أربعة فراسخ جاؤا الى لوط فلما رآهم لوط وكانوا فى صورة غلمان حسان مرد (سىء بهم) أى ساءه مجيئهم اليه يقال ساءه يسوءه لانهم جاؤه فى صورة غلمان حسان مرد فظن انهم أناس فخاف عليهم ان يقصدهم قومه فيعجز عن مدافعتهم (وضاق بهم ذرعا) قال الازهرى الذرع يوضع موضع الطاقة وأصله ان البعير يذرع بيده فى سيره على قدر سعة خطوه أى يبسطها فاذا حمل عليه اكثر من طاقته ضاق ذرعه عن ذلك فجعل ضيق الذرع كناية عن قلة الوسع والطاقة وشدة الامر وقيل هو من ذرعه القىء اذا غلبه وضاق عن حبسه والمعنى انه ضاق صدره لما رأى الملائكة فى تلك الصورة خوفا عليهم من قومه لما يعلم من فسقهم وارتكابهم لفاحشة اللواط ولم يجد مخلصا قال ابن عباس ساء ظنا بقومه وضاق ذرعا بأضيافه وقيل ضاق بهم قلبا وصدرا ولا يعرف أصله ويقال ضاق فلان ذرعا بكذا اذا وقع فى مكروه ولا يطيق الخروج منه (وقال هذا يوم عصيب) أى شديد كأنه قد عصب به الشر والبلاء أى شد به مأخوذ من العصابة التى يشد بها الرأس يقال عصيب وعصبصب وعصوصب على التكثير أى يوم مكروه يجتمع فيه الشر ومنه عصبة وعصابة أى مجتمعو الكلمة ورجل معصوب أى مجتمع الخلق (وجاءه قومه يهرعون اليه) اى جاؤا لوطا يسرعون اليه قاله قتادة وقال الكسائى والفراء وغيرهما من أهل اللغة لا يكون الاهراع الا اسراعا مع رعدة يقال اهرع الرجل اهراعا أى أسرع فى رعدة من برد أو غضب أو حمى وقيل يهرولون قاله مجاهد وقيل هو مشى بين الهرولة والعدو قاله الحسن وقال شمر هو بين الهرولة والخبب والجمز والمعنى ان قوم لوط لما بلغهم مجىء الملائكة فى تلك الصورة أسرعوا اليه كأنما يدفعون دفعا لطلب

لاتختبركم بأمور يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب ولهذا قال ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة أى بطانة ودخيلة بل هم فى الظاهر والباطن على النصح لله ورسوله فاكتفى باحد القسمين عن الآخر كما قال الشاعر

وما أدرى اذا يممت أرضا
أريد الخير أيهما يلينى

وقد قال الله تعالى فى الآية الاخرى الم أحسب الناس أن يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين وقال تعالى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة الآية وقال تعالى ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه الآية والحاصل انه تعالى لما شرع لعباده الجهاد بين ان له فيه حكمة وهو اختبار عبيده من يطيعه ممن يعصيه وهو تعالى العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون فيعلم الشىء قبل كونه ومع كونه على ما هو عليه لا اله الا هو ولا رب سواه ولا راد لما قدره وأمضاه

(ما كان للمشركين ان يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك ان يكونوا من المهتدين) يقول تعالى ما ينبغى للمشركين بالله ان يعمروا مساجد الله التى بنيت على اسمه وحده لا شريك له ومن قرأ مسجد الله فأراد به المسجد الحرام أشرف المساجد فى الارض الذى بنى من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له وأسسه خليل الرحمن هذا وهم

شاهدون على أنفسهم بالكفر أى بحالهم وقالهم كما قال السدى لو سألت النصرانى ما دينك لقال نصرانى واليهودى

الفاحشة من أضيافه (ومن قبل) أى ومن قبل مجئ الرسل (كانوا يعملون السيآت) أى يأتون الرجال فى أدبارهم وكانت ذلك عادتهم فلا حياء عندهم منها فلما جاؤا الى لوط وقصدوا أضيافه لذلك العمل قام اليهم لوط مدافعا (قال يا قوم) خاطبهم بهذا الخطاب وهم من وراء الباب خارجه (هؤلاء بناتى) أى تزوجوهن ودعوا ما تطلبونه من الفاحشة بأضيافى وقد كان له ثلاث بنات وقيل ابنتان وكانوا يطلبون منه أن يزوجهم بهن فيمتنع لخبثهم لا لعدم كفاءتهم وكان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما بنتيه والمراد بالجمع ما فوق الواحد وقيل أراد بقوله هؤلاء بناتى النساء جملة لان نبى القوم أب لهم قاله ابن عباس وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير قال الكرخى وهذا القول أولى لان اقدام الانسان على عرض بناته على الاوباش والفجار مستبعد لا يليق بأهل المروأة فكيف بالانبياء وأيضا فبناته لا تكفى الجمع العظيم أما بنات أمته ففيهن كفاية للكل انتهى لكن فيه مخالفة لظاهر النظم وقيل كان فى ملته يجوز تزوج الكافر بالمسلمة قال قتادة المراد بناته لصلبه وقى أضيافه ببناته وقال الحسين بن الفضل عرض بناته عليهم بشرط الاسلام وقالت طائفة انما كان هذا القول منه على طريق المدافعة ولم يرد الحقيقة وعن حذيفة بن اليمان قال عرض عليهم بناته تزويجا وأراد أن يقى أضيافه بتزويج بناته (هن أطهر لكم) أى أحل وأنزه والتطهر التنزه عما لا يحل وليس فى صيغة أطهر دلالة على التفضيل بل هى مثل الله أكبر (فاتقوا الله) بترك ما تريدون من الفاحشة بهم (ولا تخزون) أى لا تذلونى ولا تفضحونى وتجلبوا على العار يقال خزى الرجل خزاية أى استحيى أو ذل أوهان وخزى خزيا اذا افتضح (فى ضيفى) الضيف فى الاصل مصدر يطلق على الطارق ليلا الى المضيف ولذلك يقع على الواحد والاثنين والجماعة والمذكر والمؤنث وقد يثنى فيقال ضيفان ويجمع فيقال اضياف والاول أكثر والمعنى فى شأن ضيفى وحقهم فخزى الضيف خزى المضيف وذلك من عراقة الكرم وأصالة المروأة ثم وبخهم فقال (أليس منكم رجل رشيد) يرشدكم الى ترك هذا العمل القبيح ويمنعكم منه ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر قاله أبو مالك وقال ابن عباس يعنى واحدا يقول لا اله الا الله والاستفهام للتوبيخ (قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق) أى ما لنا فيهن من شهوة ولا حاجة لان من احتاج الى شئ فكأنه حصل له فيه نوع حق ومعنى ما نسبوه اليه من العلم انه قد علم منهم المكالبة على اتيان الذكور وشدة الشهوة اليهم فهم من هذه الحيثية كأنهم لا حاجة لهم الى النساء ويمكن أن يريدوا به انه لا حق لنا فى نكاحهن لانه لا ينكحهن ولا يتزوج بهن الا رجل مؤمن ونحن لا نؤمن أبدا وقيل انهم كانوا قد خطبوا بناته من قبل فردهم وكان من سنتهم ان من خطب فرد فلا تحل له المخطوبة أبدا (وانك لتعلم ما نريد) من اتيان الذكور والرجال قاله السدى وما مصدرية أو موصولة والعلم بمعنى العرفان ولذلك تعدى لواحد أى لتعرف ارادتنا أو الذى نريد ويجوز أن تكون استفهامية وهى معلقة للعلم قبلها ثم لما علم تصميمهم على الفاحشة وانهم لا يتركون ما قد طلبوه (قال لو أن لى بكم قوة) جواب لو محذوف أى

ما دينك لقال يهودى والصابى لقال صابى والمشرك لقال مشرك أولئك حبطت أعمالهم أى بشركهم وفى النار هم خالدون كقوله تعالى وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه ان أولياؤه الا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون ولهذا قال تعالى انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر فشهد تعالى بالايمان لعمار المساجد كما قال الامام أحمد حدثنا شريح حدثنا ابن وهب عن عمرو ابن الحرث ان دراجا أبا السمح حدثه عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالايمان قال الله تعالى انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ورواه الترمذى وابن مردويه والحاكم فى مستدركه من حديث عبد الله بن وهب به وقال عبد ابن حميد فى مسنده حدثنا يونس بن محمد حدثنا صالح المرى عن ثابت البنانى عن ميمون بن سياه وجعفر ابن زيد عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما عمار المساجد هم أهل الله ورواه الحافظ أبو بكر البزار عن عبد الواحد ابن غياث عن صالح بن بشير المرى عن ثابت عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما عمار المساجد هم أهل الله ثم قال لا نعلم رواه عن ثابت غير صالح وقد روى الدارقطنى فى الافراد من طريق حكامة بنت عثمان بن دينار عن أبيها عن أخيه مالك بن دينار عن أنس مرفوعا

لدافعتكم

لدافعتكم عنهم ومنعتكم منهم وبطشت بكم وهذا منه عليه السلام على طريق التمني أي لو وجدت ناصرا ومعينا فسمى ما يتقوى به قوة (أو آوي الى ركن شديد) مراده بالركن الشديد العشيرة وما يمتنع به عنهم هو ومن معه وانما قال ذلك لانه لم يكن من قومه نسبا بل كان غريبا فيهم لانه كان أولا بالعراق مع ابراهيم فلما هاجر الى الشام أرسله الله الى أهل سدوم وهي قرية عند حمص قال أبو هريرة ما بعث الله نبيا بعده الا في منعة من عشيرته وقيل أراد بالقوة الولد وبالركن من ينصره من غير ولده وقيل أراد بالقوة قوته في نفسه قال السدي الى جند شديد لقاتلتكم وقد ثبت في البخاري وغيره من حديث أبي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يغفر الله للوط ان كان يأوي الى ركن شديد وهو مروي في غير الصحيح من طريق غيره من الصحابة وقال النووي المراد بالركن الشديد هو الله عز وجل فانه أشد الاركان وأقواها وأمنعها اه وهو يخالف ظاهر الآية والحديث المتقدم ولما سمعته الملائكة يقول هذه المقالة ووجدوا قومه قد غلبوه وعجز عن مدافعتهم (قالوا يا لوط انا رسل ربك) أخبروه أولا انهم رسل ربه ثم بشروه بقولهم (لن يصلوا اليك) وهذه الجملة موضحة لما قبلها لانهم اذا كانوا مرسلين من عند الله اليه لم يصل عدوه اليه بسوء ولم يقدروا عليه ثم أمروه ان يخرج عنهم فقالوا له (فاسر بأهلك) قرئ بالوصل وبالقطع من اسرى وسرى وهما لغتان سبعيتان فصيحتان قال تعالى والليل اذا يسر وقال سبحان الذي أسرى وهل هما بمعنى واحد أو بينهما فرق خلاف مشهور فقيل هما بمعنى واحد وهو قول أبي عبيد وقيل ان أسرى للمسير من أول الليل وسرى للمسير من آخره وهو قول الليث وأما سار فيختص بالنهار وليس مقلوبا من سرى والباء للتعدية أو للمصاحبة والاهل هم بنتاه فلم يخرج من القرية الا هو وبنتاه فقط وفي القرطبي خرج لوط وطوى الله له الارض في وقته حتى نجا ووصل الى ابراهيم (بقطع) أي مصاحبين بقطع (من الليل) القطع الطائفة منه قال ابن الاعرابي بساعة منه وقال الاخفش بجنح من الليل وقال الضحاك بقية الليل وقال قتادة بعد مضي أوله وقيل انه السحر الاول وقيل نصف منه لانه قطعة منه مساوية لباقيه وقيل بظلمة منه وقيل بعد هدو من الليل وقال ابن عباس بجوف الليل وسواده وقيل ان الباء بمعنى في وقد تقدم الكلام على القطع في يونس بأشبع من هذا وقيل ان السرى لا يكون الا في الليل فما وجه زيادة بقطع من الليل قيل لو لم يقله لجاز ان يكون في أوله قبل اجتماع الظلمة وليس ذلك بمراد (ولا يلتفت منكم أحد) أي بقلبه الى ما خلف أولا ينظر الى ما وراءه أولا يشتغل بما خلفه من مال أو غيره قيل وجه النهي عن الالتفات ان لا يروا عذاب قومهم وهول ما نزل بهم فيرحموهم ويرقوا لهم أو لئلا ينقطعوا عن السير المطلوب منهم بما يقع من الالتفات فانه لا بد للملتفت من فترة في سيره وقع فيه ضمير منكم للاهل فهو التفات فقوله لا يلتفت من تسمية النوع وهذا من بديع النكات وهو عند المتأخرين من أهل البديع ان يؤتى بشيء من البديع ويذكر اسمه على سبيل التورية وتبجحوا باختراعه وانه قد وقع في القرآن في هذه الآية قال الخفاجي ثم اني وجدت منه قوله تعالى من وجد في رحله فهو

اذا أراد الله بقوم عاهة نظر الى أهل المساجد فصرف عنهم ثم قال (٣٥٧) غريب وروى الحافظ البهاء في المستقصى عن أبيه بسنده الى أبي أمية الطرسوسي حدثنا منصور بن صقير حدثنا صالح المري عن ثابت عن أنس مرفوعا يقول الله وعزتي وجلالي اني لاهم بأهل الارض عذابا فاذا نظرت الى عمار بيوتي والى المتحابين في والى المستغفرين بالاسحار صرفت ذلك عنهم ثم قال ابن عساكر حديث غريب وقال الامام أحمد حدثنا روح حدثنا سعيد عن قتادة حدثنا العلاء بن زياد عن معاذ بن جبل ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الشيطان ذئب الانسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية فاياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد وقال عبد الرزاق عن معمر عن أبي اسحق عن عمرو بن ميمون الاودي قال أدركت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وهم يقولون ان المساجد بيوت الله في الارض وانه حق على الله أن يكرم من زاره فيها وقال المسعودي عن حبيب بن أبي ثابت وعدي بن ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال من سمع النداء بالصلاة ثم لم يجب ويأتي المسجد ويصلي فلا صلاة له وقد عصى الله ورسوله قال الله تعالى انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر الآية رواه ابن مردويه وقد روي مرفوعا من وجه آخر وله شواهد من وجوه أخر ليس هذا موضع بسطها وقوله وأقام الصلاة أي التي هي أكبر عبادات البدن وآتى الزكاة أي التي هي أفضل الاعمال المتعدية الى بر الخلائق وقوله ولم يخش الا الله أي ولم يخف الا من الله تعالى

جزاؤه فى سورة يوسف فان فهو جزاؤه جزاء من الشرطية وقد ذكرانه جزاء ومنه قوله تعالى أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها الى قوله كذلك يضرب الله الامثال اه (الا امرأتك) بالنصب سبعية والاستثناء من قوله فأسر بأهلك أى اسر بأهلك جميعا الا امرأتك فلا تسر بها لكونها كافرة وأنكر قراءة الرفع جماعة منهم أبو عبيدة قال النحاس الرفع على البدل له معنى صحيح أى لا يلتفت منكم أحد الا امرأتك فانها تلتفت وتهلك وقيل ان الرفع على البدل من أحد ويكون الالتفات بمعنى التخلف لا بمعنى النظر الى الخلف فكأنه قال ولا يتخلف منكم أحد الا امرأتك فانها تتخلف والمجئ الى هذا التأويل البعيد الفرار من تناقض القراءتين (انه مصيبها ما أصابهم) من العذاب وهو رميهم بالحجارة والجملة تعليل للاستثناء (ان موعدهم الصبح) هذه الجملة تعليل لما تقدم من الامر بالاسراء والنهى عن الالتفات والمعنى ان موعد عذابهم أى وقت هلاكهم الصبح المسفر عن تلك الليلة روى انه قال لهم متى موعد هلاكهم فقالوا هذه المقالة فقال أريد أسرع من ذلك فقالوا (أليس الصبح بقريب) الهمزة للانكار التقريرى على حد ألم نشرح لك صدرك والجملة تأكيد للتعليل ولعل جعل الصبح ميقاتا لهلاكهم لكون النفوس فيه أسكن والناس فيه مجتمعون لم يتفرقوا الى أعمالهم (فلما جاء أمرنا) أى الوقت المضروب لوقوع العذاب فيه أو المراد بالامر نفس العذاب والاول أولى (جعلنا عاليها) أى عالى قرى قوم لوط (سافلها) والمعنى انه قلبها على هذه الهيئة وهى كون عاليها صار سافلها وسافلها صار عاليها وذلك لان جبريل أدخل جناحه تحتها فرفعها من تخوم الارض حتى أدناها من السماء ثم قلبها عليهم قال مجاهد لما أصبحوا غدا جبريل على قريتهم فقطعها من أركانها ثم أدخل جناحه ثم حملها على خوافى جناحه بما فيها ثم صعد بها الى السماء حتى سمع أهل السماء صياح ديكهم ونباح كلابهم ثم قلبها فكان أول ما سقط منها سرادقها فلم يصب قوما ما أصابهم ثم ان الله طمس على أعينهم ثم قلبت قريتهم وهى خمس مدائن أكبرها سذوم وهى المؤتفكات المذكورة فى سورة براءة يقال كان فيها أربعة آلاف ألف (وأمطرنا عليها) أى على المدن حين رفعها جبريل أو على شذاذها وعلى من كان خارجا عنها من مسافريها أو من بعد قلبها قيل انه يقال امطرنا فى العذاب ومطرنا فى الرحمة وقيل هما لغتان يقال مطرت السماء وأمطرت حكى ذلك الهروى (حجارة من سجيل) هو الطين المتحجر بطبخ أو غيره وقيل هو الشديد الصلب من الحجارة وقيل هو الكثير وقيل ان السجيل لفظة غير عربية أصله سج وجيل وهما بالفارسية حجر وطين عربتهما العرب فجعلتهما اسما واحدا قال سعيد معناه سنك وكل فارسى معرب لان العرب اذا تكلمت بشئ من الفارسى صار لغة للعرب ولا يضاف الى الفارسى مثل قوله سندس واستبرق فكل هذه ألفاظ فارسية تكلمت بها العرب واستعملتها فى ألفاظهم فصارت عربية قال قتادة وعكرمة هو الحجر والطين دليله قوله تعالى فى موضع آخر حجارة من طين وقال مجاهد أولها حجر وآخرها طين وقال الحسن أصل الحجارة طين فشددت وقال الضحاك يعنى الآجر وقيل هو من لغة العرب وذكر الهروى ان السجيل اسم لسماء الدنيا

قال

ولم يخش سواه فعسى أولئك ان يكونوا من المهتدين قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر يقول من وحد الله وآمن باليوم الآخر يقول من آمن بما أنزل الله وأقام الصلاة يعنى الصلوات الخمس ولم يخش الا الله يقول لم يعبد الا الله ثم قال فعسى أولئك ان يكونوا من المهتدين يقول تعالى ان أولئك هم المفلحون كقوله لنبيه صلى الله عليه وسلم عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا وهى الشفاعة وكل عسى فى القرآن فهى واجبة وقال محمد بن اسحق بن يسار رحمه الله وعسى من الله حق (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدا ان الله عنده أجر عظيم) قال العوفى فى تفسيره عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية قال ان المشركين قالوا عمارة بيت الله وقيام على السقاية خير ممن آمن وجاهد وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل انهم أهله وعماره فذكر الله استكبارهم واعراضهم فقال لاهل الحرم من المشركين قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون مستكبرين به سامرا تهجرون يعنى انهم كانوا يستكبرون بالحرم قال به سامرا كانوا يسمرون به ويهجرون القرآن والنبى صلى الله عليه وسلم فخير الله الايمان والجهاد مع النبى

قال ابن عطية وهذا ضعيف يرده وصفه بمنضود وقيل هو بحر معلق في الهواء بين السماء والارض وقيل هي جبال في السماء الدنيا وقال الزجاج هو من التسجيل لهم أي ما كتب لهم من العذاب فهو في معنى سجين ومنه قوله تعالى وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم وقيل هو من أسجلته اذا أعطيته فكأنه عذاب اعطوه والاول أولى (منضود) أي نضد بعضه فوق بعض ومنه وطلح منضود أي متراكب والمراد وصف الحجارة بالكثرة وقيل بعضه في اثر بعض يقال نضدت المتاع اذا جعلت بعضه على بعض فهو منضود ونضد اي متتابع أو مجموع معه العذاب نعت لسجيل (مسومة) معلمة أي التي لها علامة حال من حجارة وسوغ مجيئها من النكرة تخصص النكرة بالوصف والتسويم العلامة قيل كان عليها أمثال الخواتيم قاله الحسن والسدي وقيل مكتوب على كل حجر اسم من رمى به وقال الفراء زعموا أنها كانت مخططة بحمرة وسواد في بياض فذلك تسويمها قال ابن جريج عليها سيما لاتشاكل حجارة الارض وقال قتادة وعكرمة عليها خطوط حمر على هيئة الجزع (عند ربك) أي في خزائنه أو في حكمه والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم (وما هي) أي الحجارة الموصوفة وقيل العقوبة المفهومة من السياق والاول أولى لانه أقرب مذكور (من الظالمين) وهم قوم لوط (ببعيد) فانهم بظلمهم حقيق بأن تمطر عليهم وفيه وعيد لكل ظالم من الظلمة ومنهم كفار قريش ومن عاضدهم على الكفر بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وقيل الضمير للقرى أي هي قريبة من ظالمي مكة ممن كفر بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم فانها بين الشام والمدينة يمرون بها في أسفارهم وتذكير البعيد على تأويل الحجارة بالحجر أو اجرائه على موصوف مذكر أي شيء بعيد أو مكان بعيد أو لكونه مصدرا كالزفير والصهيل والمصادر يستوي في الوصف بها المذكر والمؤنث وعن مجاهد قال يرهب بها قريشا ان يصيبهم ما أصابهم وعن السدي قال من ظلمة العرب ان لم يؤمنوا فيعذبوا بها وعن قتادة قال من ظالمي هذه الامة وقد ذكر المفسرون روايات وقصصا في كيفية هلاك قوم لوط طويلة متخالفة وليس في ذكرها فائدة ولا سيما وبين من قال بشيء من ذلك وبين هلاك قوم لوط دهر طويل لا يتيسر له في مثله اسناد صحيح وغالب ذلك مأخوذ عن أهل الكتاب وحالهم في الرواية معروف وقد أمرنا بأن لا نصدقهم ولا نكذبهم فاعرف هذا فهو الوجه لحذفنا كثيرا من هذه الروايات الكائنة في قصص الانبياء وقومهم (و) أرسلنا (الى مدين) هو اسم ابن ابراهيم الخليل ثم صار اسما للقبيلة من أولاده وهو المراد هنا وقيل هو في الاصل اسم مدينة بناها مدين المذكور والتقدير الى أهل مدين قال المقريزي في الخطط ان مدين أمة شعيب هم بنو مديان بن ابراهيم وأمهم قنطورا ابنة يقطان الكنعانية ولدت له ثمانية من الولد تناسلت منهم أمم ومدين على بحر القلزم محاذي تبوك على نحو ست مراحل وهي أكبر من تبوك وبها البئر التي استقى منها موسى لسائمة شعيب وعمل عليها بيت قال الفراء مدين اسم بلد وقطر والجمهور على ان مدين أعجمي وقيل عربي فان كان عربيا فانه يحتمل أن يكون فعيلا من مدن بالمكان أقام به وهو بناء نادر وقيل مفعل أو مفعلا من دان فتصحيحه شاذ وهو ممنوع الصرف على كل

صلى الله عليه وسلم على عمارة المشركين بالبيت وقيامهم على السقاية ولم يكن (٣٥٩) ينفعهم عند الله مع الشرك به وان كانوا يعمرون بيته ويحرمون به قال الله تعالى لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين يعني الذين زعموا انهم أهل العمارة فسماهم الله ظالمين بشركهم فلم تغن عنهم العمارة شيئا وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال ان المشركين قالوا وقد نزلت في العباس ابن عبد المطلب حين أسر ببدر قال لأن كنتم سبقتمونا بالاسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي ونفك العاني قال الله عز وجل أجعلتم سقاية الحاج الى قوله والله لا يهدي القوم الظالمين يعني ان ذلك كان في الشرك ولا أقبل ما كان في الشرك وقال الضحاك بن مزاحم أقبل المسلمون على العباس وأصحابه الذين أسروا يوم بدر يعيرونهم بالشرك فقال العباس أما والله لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونفك العاني ونحجب البيت ونسقي الحاج فأنزل الله أجعلتم سقاية الحاج الآية وقال عبد الرزاق أخبرنا ابن عيينة عن اسمعيل عن الشعبي قال نزلت في علي والعباس رضي الله عنهما تكلما في ذلك وقال ابن جرير حدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرني ابن لهيعة عن ابن صخر قال سمعت محمد ابن كعب القرظي يقول افتخر طلحة ابن شيبة من بني عبد الدار وعباس ابن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب فقال عثمان بن طلحة أنا صاحب البيت معي مفتاحه ولو أشاء بت فيه وقال العباس أنا صاحب السقاية والقائم عليها ولو أشاء بت في المسجد فقال علي رضي الله عنه ما أدري ما تقولان لقد صليت الى القبلة ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب

حال سواء كان اسم الارض أو اسم القبيلة عجميا أو عربيا اه وبه قال النحاس وقد تقدم الكلام على هذا في الاعراف بأبسط مما هنا وهم قوم شعيب (أخاهم) في النسب لان (شعيبا) بن ميكائيل بن يشجر بن مدين بن ابراهيم عليه السلام وقد تقدم تفسير قوله (قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) في أول السورة وهذه الجملة مستأنفة كأنه قيل ماذا قال لهم شعيب عليه السلام لما أرسله الله تعالى اليهم وقد كان شعيب عليه السلام يسمى خطيب الانبياء لحسن مراجعته لقومه وهذه عادة الانبياء عليهم السلام يبدؤن بالاهم فالاهم ولما كان الدعوة الى توحيد الله وعبادته أهم الاشياء دعاهم اليه ثم نهاهم عن ان ينقصوا المكيال والميزان لانهم كانوا مع كفرهم أهل تطفيف وكان المعتاد منهم البخس في الكيل والوزن وكانوا اذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائد وكذلك اذا وصل اليهم الموزون أخذوا بوزن زائد واذا باعوا باعوا بكيل ناقص ووزن ناقص فقال (ولا تنقصوا المكيال والميزان) أي لا عند الاخذ ولا عند الدفع والنقص فيهما على وجهين كما قدمنا الاشارة اليه والمراد بالمكيال المكيل به وبالميزان الموزون به وهذا أبلغ في الامر بوفائهما (اني أراكم بخير) أي بثروة وسعة في الرزق تغنيكم عن البخس فلا تغيروا نعمة الله عليكم بمعصيته والاضرار بعباده وهذه النعمة حقها ان تتفضلوا على الناس شكرا عليها لا ان تنقصوا حقوقهم وهو في الجملة علة النهي ثم ذكر بعد هذه العلة علة أخرى فقال (واني أخاف عليكم عذاب يوم محيط) فهذه العلة فيها الاذكار لهم بعذاب الآخرة كما ان العلة الاولى فيها الاذكار لهم بنعيم الدنيا ووصف اليوم بالاحاطة والمراد العذاب لان العذاب واقع في اليوم فهو مجاز في الاسناد كقولهم نهاره صائم ومعنى احاطة عذاب اليوم بهم انه لا يشذ منهم أحد عنه ولا يجدون منه ملجأ ولا مهربا واليوم هو يوم القيامة وقيل هو يوم الانتقام منهم في الدنيا بالصيحة قال ابن عباس الخير رخص السعر والعذاب غلاء السعر ثم أكد النهي عن نقص الكيل والوزن بقوله (ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط) الايفاء هو التمام والقسط العدل وهو عدم الزيادة والنقص وان كانت الزيادة على الايفاء فضل وخير ولكنها فوق ما يفيده اسم العدل والنهي عن النقص وان كان يستلزم الايفاء ففي تعاضد الدلالتين مبالغة بليغة وتأكيد حسن وشدة اهتمام فلذا كرر ليقوى الزجر والمنع من ذلك الفعل والمعنى أتموهما ولا تطففوا فيهما وقيل القسط تقويم لسان الميزان وتعديل المكيال ثم زاد ذلك تأكيدا ثالثا فقال (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) قد مر تفسير هذا في الاعراف وفيه النهي عن البخس على العموم والاشياء أعم مما يكال ويوزن فيدخل البخس بتطفيف الكيل والوزن في هذا دخولا أوليا فظهر بهذا البيان فائدة هذا التكرير وقيل البخس المكس خاصة ثم قال (ولا تعثوا في الارض) بتطفيف الكيل والوزن ومنع الناس حقوقهم وقد مر أيضا تفسيره في البقرة والعثي في الارض يشمل كل ما يقع فيها من الاضرار بالناس فيدخل فيه كل ما في السياق من نقص المكيال والميزان وعثي مصدر قياسي وعثو سماعي وقيده بالحال

الجهاد فأنزل الله عز وجل أجعلتم سقاية الحاج (٣٦٠) الآية كلها وهكذا قال السدي الا انه قال افتخر علي والعباس وشيبة بن عثمان وذكر نحوه وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن عمرو عن الحسن قال أنزلت في علي وعباس وعثمان وشيبة تكلموا في ذلك فقال العباس ما أراني الا اني تارك سقايتنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أقيموا على سقايتكم فان لكم فيها خيرا ورواه محمد بن ثور عن معمر عن الحسن فذكر نحوه وقد ورد في تفسير هذه الآية حديث مرفوع فلا بد من ذكره هنا قال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن يحيى بن أبي كثير عن النعمان بن بشير رضي الله عنه ان رجلا قال ما أبالي ان لا أعمل عملا بعد الاسلام الا أن أسقي الحاج وقال آخر ما أبالي ان لا أعمل عملا بعد الاسلام الا أن أعمر المسجد الحرام وقال آخر الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم فزجرهم عمر رضي الله عنه وقال لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك يوم الجمعة ولكن اذا صلينا الجمعة دخلنا على النبي صلى الله عليه وسلم فسألناه فنزلت أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام الى قوله لا يستوون عند الله (طريق أخرى) قال الوليد بن مسلم حدثني معاوية بن سلام عن جده أبي سلام الاسود عن النعمان بن بشير الانصاري قال كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه فقال رجل منهم ما أبالي ان لا أعمل لله عملا بعد الاسلام الا ان أسقي الحاج وقال آخر بل عمارة المسجد الحرام وقال آخر بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم فزجرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال لا ترفعوا أصواتكم

وهو

وهو قوله (مفسدين) ليخرج ما كان صورته من العثي في الارض والمراد به الاصلاح كما وقع من الخضر في السفينة (بقيت الله) أي ما يبقيه لكم من الحلال بعد ايفاء الحقوق بالقسط (خير لكم) أي أكثر خيرا وبركة مما تبقونه لانفسكم من التطفيف والبخس والفساد في الارض ذكر معناه ابن جرير وغيره من المفسرين وقال مجاهد بقية الله طاعته وقال الربيع وصيته وقال الفراء مراقبته وقال قتادة حظكم من ربكم وقال ابن عباس رزق الله وقيل ثوابه في الآخرة وبقيت يرسم بالتاء المجرورة واذا وقف عليه اضطرارا فيصح الوقف بالمجرورة والمربوطة وليس في القرآن غيرها وانما قيد ذلك بقوله (ان كنتم مؤمنين) لان ذلك انما ينتفع به المؤمن لا الكافر والمراد بالمؤمنين هنا المصدقون لشعيب عليه السلام وفي البيضاوي بشرط أن تؤمنوا فان خيريتها باستتباع الثواب مع النجاة وذلك مشروط بالايمان (وما أنا عليكم بحفيظ) أحفظكم من الوقوع في المعاصي من التطفيف والبخس وغيرهما وأحفظ عليكم أعمالكم وأحاسبكم بها وأجازيكم عليها وانما أنا ناصح مبلغ وقد أعذرت حين أنذرت أولست بحافظ عليكم نعم الله لو لم تتركوا سوء صنيعكم (قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك) مستأنفة كأنه قيل فماذا قالوا لشعيب عليه السلام والاستفهام للانكار عليه والاستهزاء به لان الصلاة عندهم ليست من الخير الذي يقال لفاعله عند ارادة تليين قلبه وتذليل صعوبته كما يقال لمن كان كثير الصدقة اذا فعل بما لا يناسب الصواب أصدقتك أمرتك بهذا وقيل المراد بالصلاة هنا القراءة قاله الاعمش وقيل المراد بها الدين وقيل المراد بها اتباعه ومنه المصلي الذي يتلو السابق قال الاحنف ان شعيبا كان أكثر الانبياء صلاة فلذلك قالوا هذه المقالة وانما ذكر الصلاة لانها من أعظم شعائر الدين (أن نترك ما يعبد آباؤنا) أي عبادة الاوثان وفيه ان الترك فعلهم لا فعل شعيب وهو المأمور والانسان يؤمر بفعل نفسه فالمضاف محذوف وهو التكليف وهذا فعله أي هل هي تأمرك بتكليفك ايانا ترك عبادة الاصنام وهذا منهم جواب لشعيب عن أمره لهم بعبادة الله وحده وقولهم (أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء) جواب له عن أمره لهم بايفاء الكيل والوزن ونهيهم عن نقصهما وعن بخس الناس وعن العثي في الارض معطوف على ما يعبد فالترك مسلط عليه وأو بمعنى الواو والمعنى هل تأمرك بتكليفك لنا ترك ان نفعل في أموالنا ما نشاء من الاخذ والاعطاء والزيادة والنقص وهذا لف ونشر مرتب وقرئ بالتاء في الفعلين عطفا على مفعول تأمرك أي أصلاتك تأمرك ان تفعل أنت في أموالنا ما تشاء وقرئ نفعل بالنون وما تشاء بالفوقية أي نفعل فيها ما تشاء انت وندع ما نشاء نحن وما يجري به التراضي بيننا وعن ابن زيد في الآية قال نهاهم عن قطع هذه الدنانير والدراهم فقالوا انما هي أموالنا نفعل فيها ما نشاء ان شئنا قطعناها وان شئنا أحرقناها وان شئنا طرحناها وعن محمد بن كعب وزيد بن أسلم وابن المسيب نحوه ثم وصفوه بوصفين عظيمين فقالوا (انك لأنت الحليم الرشيد) عند نفسك وفي اعتقادك ومعناه ان هذا الذي نهيتنا عنه وأمرتنا به يخالف ما يعتقده في نفسك من الحلم والرشد وقيل انهم قالوا ذلك لا على طريق الاستهزاء بل هو عندهم كذلك وانكروا

عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك يوم الجمعة ولكن اذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستفتيته فيما اختلفتم فيه قال ففعل فأنزل الله عزوجل أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام الى قوله والله لا يهدي القوم الظالمين ورواه مسلم في صحيحه وأبو داود وابن جرير وهذا لفظه وابن مردويه وابن أبي حاتم في تفاسيره وابن حبان في صحيحه (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) أمر تعالى بمباينة الكفار به وان كانوا آباء أو أبناء ونهى عن موالاتهم ان استحبوا أي اختاروا الكفر على الايمان وتوعد على ذلك كقوله تعالى لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الانهار الآية وروى الحافظ البيهقي من حديث عبد الله ابن شوذب قال جعل أبو أبي عبيدة ابن الجراح ينعت له الآلهة يوم بدر وجعل أبو عبيدة يحيد عنه فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبو عبيدة فقتله فأنزل الله فيه هذه الآية لا تجد

قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله الآية ثم أمر تعالى رسوله ان يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله ورسوله وجهاد في سبيله فقال قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال

اقترفتموها أي اكتسبتموها وحصلتموها وتجارة (٣٦٢) تخشون كسادها ومساكن ترضونها أي تحبونها لطيبها وحسنها اى

عليه الامر والنهي منه لهم بما يخالف الحلم والرشد في اعتقادهم والمعنى انك فينا حليم رشيد فلا يحمد بك شق عصا قومك ومخالفتهم في دينهم وقال ابن عباس يقولون انك لست بحليم ولا رشيد اى ارادوا السفيه الغاوي لان العرب قد تصف الشئ بضده فيقولون للديغ سليم وللفلاة المهلكة مفازة وقيل هو على حقيقته وانما قالوا ذلك على سبيل السخرية قال قتادة استهزاء به (قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي) مستأنفة كالجمل التي قبلها والمعنى اخبروني ان كنت على بيان وحجة واضحة وبصيرة وهداية من عند ربي فيما أمرتكم به ونهيتكم عنه (ورزقني منه) اى من فضله وخزائن ملكه ومن عنده وباعانته بلا كد مني ولا تعب في تحصيله (رزقا حسنا) أى كثيرا واسعا حلالا طيبا وقد كان عليه السلام كثير المال والنعمة وقيل أراد بالرزق النبوة وقيل الحكمة وقيل العلم وقيل التوفيق وقيل المعرفة وقيل الهداية وجواب الشرط محذوف يدل عليه سياق الكلام تقديره أأترك أمركم ونهيكم أو تقولون في شأني ما تقولون مما تريدون به السخرية والاستهزاء أو هل يسعني مع هذه النعمة ان اخون في وحيه وهذا الجواب شديد المطابقة بقولهم انك لانت الحليم الرشيد اى كيف يليق بالحليم الرشيد ان يخالف امر ربه وله عليه نعم كثيرة (وما أريد) بنهيي لكم عن التطفيف والبخس (ان اخالفكم الى ما أنهاكم نهيتكم (عنه) فأفعله دونكم يقال خالفه الى كذا اذا قصده وهو مول عنه وخالفته عن كذا في عكس ذلك قال الزجاج معناه لست انهاكم عن شئ وادخل فيه انما اختار لكم ما اختار لنفسي قال ابن الانباري بين ان الذي يدعوهم اليه من اتباع طاعة الله وترك البخس والتطفيف هو ما يرتضيه لنفسه ولا ينطوي الا عليه فكان هذا محض النصح لهم وقال قتادة لم اكن لانهاكم عن امر وأرتكبه (ان أريد) اى ما أريد بالامر والنهي (الا الاصلاح) لكم ودفع الفساد عن دينكم ومعاملاتكم (ما استطعت) ما بلغت اليه استطاعتي وتمكنت منه طاقتي (وما توفيقي الا بالله) أي ما صرت موفقا هاديا نبيا مرشدا الا بتأييد الله سبحانه واقداري عليه ومنحي اياه (عليه توكلت) في جميع أموري التي منها أمركم ونهيكم (واليه أنيب) أي اليه ارجع في كل ما نابني من الامور وافوض جميع أموري الى ما يختاره لي من قضائه وقدره وقيل معناه اليه ارجع في الآخرة وقيل ان الانابة الدعاء ومعناه وله أدعو وعن علي قال قلت يا رسول الله أوصني قال قل الله ربي ثم استقم قلت ربي الله وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب قال ليهنك العلم يا أبا الحسن لقد شربت العلم شربا ونهلته نهلا أخرجه أبو نعيم في الحلية وفي اسناده محمد بن يوسف الكديمي (ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي) قال الزجاج معناه لا يكسبنكم والشقاق العداوة وقال قتادة لا يحملنكم فراقي وعن السدي لا يحملنكم عداوتي وعن مجاهد نحوه (ان يصيبكم) مفعول ثان ليجرمنكم اى ان لا يكسبنكم معاداتكم لي أن لا يصيبكم (مثل ما أصاب قوم نوح) من الغرق (او قوم هود) من الريح (أو قوم صالح) من الحجارة وغيرها (وما قوم لوط منكم ببعيد) يحتمل ان يريد ليس مكانهم ببعيد من مكانكم أو ليس زمانهم ببعيد من زمانكم او ليسوا منكم ببعيد في السبب الموجب لعقوبتهم وهو مطلق الكفر

ان كانت هذه الاشياء أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا أي فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم ولهذا قال حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين وقال الامام أحمد حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا ابن لهيعة عن زهرة بن معبد عن جده قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال والله يا رسول الله لانت أحب الي من كل شئ الا من نفسي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من نفسه فقال عمر فأنت الآن والله أحب الي من نفسي فقال رسول الله الآن يا عمر انفرد باخراجه البخاري فرواه عن يحيى بن سليمان عن ابن وهب عن حيوة بن شريح عن أبي عقيل زهرة بن معبد انه سمع جده عبد الله ابن هشام عن النبي صلى الله عليه وسلم بهذا وقد ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من والده وولده والناس أجمعين وروى الامام أحمد وابو داود واللفظ له من حديث أبي عبد الرحمن الخراساني عن عطاء الخراساني عن نافع عن ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا الى دينكم وروى الامام أحمد أيضا عن يزيد بن هرون عن ابي حباب عن شهر بن حوشب انه سمع عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحو ذلك وهذا شاهد للذي قبله وأفرد

والله أعلم لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيأ وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم

وأفرد لفظ بعيد لمثل ماسبق وقيل بشيء بعيد كذا قدره الزمخشري وتبعه الشيخ وقال الزمخشري يجوز أن يستوي في بعيد وقريب وقليل وكثير بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التي هي كالصهيل والنهيق ونحوهما وقال قتادة انما كانوا حديثي عهد قريب بهلاكهم بعد نوح وثمود ثم بعد ترهيبهم بالعذاب أمرهم بالاستغفار والتوبة فقال (واستغفروا ربكم) من عبادة الاوثان (ثم توبوا اليه) من البخس والنقصان في المكيال والميزان وقد تقدم تفسير الاستغفار مع ترتيب التوبة عليه في أول السورة (ان ربي رحيم) بالمؤمنين (ودود) للتائبين وتقدم تفسير الرحيم والمراد هنا انه عظيم الرحمة والودود المحب صيغة مبالغة من ود الشيء يوده ودا وودادا ووداده أي أحبه وآثره قال في الصحاح وددت الرجل أوده ودا اذا أحببته والود والود والود المحبة والمشهور وددت بكسر العين وسمع بفتحها والودود بمعنى فاعل أي يود عباده ويرحمهم وقيل بمعنى مفعول بمعنى ان عباده يحبونه ويوادون أولياءه فهم بمنزلة المواد مجازا والاول أولى والمعنى هنا انه يفعل بعباده فعل من هو بليغ المودة بمن يوده من اللطف به وسوق الخير اليه ودفع الشر عنه وفي هذا تعليل لما قبله من الامر بالاستغفار والتوبة وجملة (قالوا ياشعيب ما نفقه كثيرا مما تقول) مستأنفة كالجمل السابقة والمعنى انك تأتينا بما لا عهد لنا به من الاخبار بالامور الغيبية كالبعث والنشور ولا نفهم ذلك كما نفهم الامور الحاضرة المشاهدة فيكون نفي الفقه على هذا حقيقة لا مجازا وقيل قالوا ذلك اعراضا عن سماعه وايذانا بقلة المبالاة به واحتقار الكلام مع كونه مفهوما لديهم معلوما عندهم فلا يكون نفي الفقه حقيقة بل مجازا يقال فقه يفقه اذا فهم فقها وفقها وحكى الكسائي فقها نا ويقال فقه فقها اذا صار فقيها (وانا لنراك فينا ضعيفا) أي لا قوة لك تقدر بها على ان تمنع نفسك منا وتتمكن بها من مخالفتنا أو مهينا لا عزلك وهذا قريب من الاول وقيل المراد انه ضعيف في بدنه قاله علي بن عيسى وقيل انه كان مصابا ببصره قال النحاس وحكى أهل اللغة ان حمير تقول للاعمى ضعيف أي قد ضعف بذهاب بصره كما يقال له ضرير أي قد ضر بذهاب بصره وقال الزجاج الاعمى يسمى ضعيفا عن سعيد بن جبير قال كان أعمى وانما عمي من بكائه من حب الله عز وجل وعن شداد بن أوس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكى شعيب عليه السلام من حب الله حتى عمي أخرجه ابن عساكر والواحدي وقال السدي معناه انما أنت واحد وقال علي كان مكفوفا فنسبوه الى الضعف وقيل الضعيف العاجز عن الكسب والتصرف وقال الحسن ومقاتل يعني ذليلا والاول أولى ويدل لصحته قوله (ولولا رهطك) رهط الرجل جماعته وعشيرته الذين يستند اليهم ويتقوى بهم ومنه الراهط لجحر اليربوع لانه يتوثق به ويخبأ فيه ولده والرهط والراهط يقع على الثلاثة الى العشرة وقيل الى السبعة قاله الزمخشري ولا يقع الرهط والعصبة والنفر الا على الرجال ويجمع على أرهط وأرهط على أراهط وانما جعلوا رهطه مانعا من ايقاع الضرر به مع كونهم في قلة والكفار ألوف مؤلفة لانهم كانوا على دينهم فتركوه احتراما لهم لا خوفا منهم وقال علي فوالله الذي لا اله غيره ما هابوا اجلال ربهم ما هابوا الا العشيرة (لرجمناك)

ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم) قال ابن جريج عن مجاهد هذه أول آية نزلت من براءة يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم واحسانه لديهم في نصره اياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله وان ذلك من عنده تعالى وبتأييده وتقديره لا بعددهم ولا بعددهم ونبههم على ان النصر من عنده سواء قل الجمع أو كثر فان يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيأ فولوا مدبرين الا القليل منهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه كما سنبينه ان شاء الله تعالى مفصلا ليعلمهم ان النصر من عنده تعالى وحده وبامداده وان قل الجمع فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين وقد قال الامام أحمد حدثنا وهب بن جرير حدثنا أبي سمعت يونس يحدث عن الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الصحابة أربعة وخير السرايا أربعمائة وخير الجيوش أربعة آلاف ولن تغلب اثنا عشر ألفا من قلة وهكذا رواه أبو داود والترمذي ثم قال هذا حديث حسن غريب جدا لا يسنده أحد غير جرير ابن حازم وانما روي عن الزهري عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا وقد رواه ابن ماجه والبيهقي وغيره عن أكثم بن الجون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحوه والله أعلم وقد كانت وقعة حنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة وذلك لما فرغ صلى الله عليه وسلم من فتح مكة وتمهدت أمورها وأسلم عامة أهلها وأطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فبلغه ان هوازن جمعوا له ليقاتلوه وان أميرهم مالك بن عوف النصري ومعه ثقيف بكمالها وبنو جشم وبنو سعد بن بكر

أي لقتلناك بالحجارة والرجم بالحجارة أسوء القتلات وأشرها وقيل معناه لشتمناك وأغلظنا لك القول والاول أظهر ثم أكدوا ما وصفوه به من الضعف بقولهم (وما أنت علينا بعزيز) أي كريم مكرم معظم حتى نكف عنك لاجل عزتك ومنعتك عندنا بل تركنا رجمك لعزة رهطك علينا لموافقتهم لنا في الدين لا لقوة شوكتهم (قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله) مستأنفة وانما قال من الله ولم يقل مني لان نفي العزة عنه واثباتها لقومه كما يدل عليه ايلاء الضمير حرف النفي استهانة به والاستهانة بأنبياء الله استهانة بالله عزوجل فقد تضمن كلامهم ان رهطه أعز عليهم من الله فاستنكر ذلك عليهم وتعجب منه وألزمهم ما لا مخلص لهم عنه ولا مخرج لهم منه بصورة الاستفهام وفي هذا من قوة المحاجة ووضوح المجادلة والقام الخصم الحجر ما لا يخفى والضمير في (واتخذتموه) راجع الى الله سبحانه والمعنى واتخذتم الله عزوجل بسبب عدم اعتدادكم بنبيه الذي أرسله اليكم (وراءكم ظهريا) أي منبوذا وراء الظهر لا تبالون به وقيل المعنى واتخذتم أمر الله الذي أمرني بابلاغه اليكم وهو ما جئتكم به وراء ظهوركم كالشئ الملقى الذي لا يلتفت اليه يقال جعلت أمره بظهر اذا قصرت فيه وظهريا منسوب الى الظهر والكسر من تغييرات النسب والقياس فتح الظاء كما قالوا في أمس امسي بكسر الهمزة وفي دهر دهري بضم الدال قال مجاهد نبذتم أمره وقال قتادة لا تخافونه وقال الضحاك تهاونتم به وقيل ان الضمير يعود الى العصيان أي واتخذتم العصيان عونا على عداوتي فالظهري على هذا بمعنى المعين المقوي (ان ربي بما تعملون محيط) لا يخفى عليه شئ من أقوالكم ولا أفعالكم فيجازيكم بها يوم القيامة (ويا قوم اعملوا على مكانتكم) لما رأى اصرارهم على الكفر وتصميمهم على دين آبائهم وعدم تأثير الموعظة فيهم توعدهم بأن يعملوا على غاية تمكنهم ونهاية استطاعتهم يقال مكن مكانة اذا تمكن أبلغ تمكن (اني عامل) على حسب ما يمكنني ويقدره الله لي ثم بالغ في التهديد والوعيد بقوله (سوف تعلمون) أينا الجاني على نفسه المخطئ في فعله وتعلمون عاقبة ما أنتم عليه من عبادة غير الله والاضرار بعباده وقد تقدم مثله في الانعام قال الزمخشري وصل سوف تارة بالفاء وتارة بالاستئناف كما هو عادة البلغاء من العرب وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف لانه أكمل في باب الفصاحة والتهويل اه يعني حذف الفاء هنا لانه جواب سائل هو المسمى في علم البيان بالاستئناف البياني كأن قائلا قال فماذا يكون بعد ذلك فهو أبلغ في التهويل (من يأتيه عذاب يخزيه) أي سوف تعلمون من هو الذي يأتيه العذاب المخزي الذي يتأثر عنه الذل والفضيحة والعار (ومن هو كاذب) في زعمكم ومن هو المعذب وفيه تعريض بكذبهم في قولهم لولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز وقيل التقدير من هو كاذب فسيعلم كذبه ويذوق وبال أمره (وارتقبوا اني معكم رقيب) أي انتظروا اني معكم منتظر لما يقضي به الله بيننا (ولما جاء أمرنا) بعذابهم أو وعدنا (نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا) لهم بسبب ايمانهم أو بهدايتهم للايمان (وأخذت الذين ظلموا) غيرهم بما أخذوا من أموالهم بغير وجه وظلموا أنفسهم بالتصميم على الكفر (الصيحة) التي صاح بها جبريل حتى خرجت أرواحهم من أجسادهم

واوزاع من بني هلال وهم قليل وناس من بني (٣٦٤) عمرو بن عامر وعون بن عامر وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم وجاؤا بقضهم وقضيضهم فخرج اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في جيشه الذي جاء معه للفتح وهو عشرة آلاف من المهاجرين والانصار وقبائل العرب ومعه الذين أسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء في الفين فسار بهم الى العدو فالتقوا في واد بين مكة والطائف يقال له حنين فكانت فيه الوقعة في اول النهار في غلس الصبح انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون الا بهم قد بادروهم فرشقوا بالنبال وأصلتوا السيوف وحملوا حملة رجل واحد كما أمرهم ملكهم فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين كما قال الله عزوجل وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها الى نحر العدو والعباس عمه آخذ بركابها الايمن وأبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب آخذ بركابها الايسر يثقلانها لئلا تسرع السير وهو ينوه باسمه عليه الصلاة والسلام ويدعو المسلمين الى الرجعة أين يا عباد الله الي أنا رسول الله ويقول في تلك الحال أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب وثبت معه من أصحابه قريب من مائة ومنهم من قال ثمانون فمنهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما والعباس وعلي والفضل ابن عباس وأبو سفيان بن الحرث وأيمن ابن أم أيمن وأسامة بن زيد وغيرهم رضي الله عنهم ثم أمر صلى الله عليه وسلم عمه العباس وكان جهير الصوت ان ينادي بأعلا صوته يا أصحاب الشجرة يعني شجرة بيعة الرضوان التي بايعه المسلمون من المهاجرين والانصار تحتها على ان لا يفروا عنه فجعل ينادي بهم يا أصحاب السمرة ويقول تارة يا أصحاب سورة البقرة فجعلوا يقولون يا لبيك يا لبيك وانعطف الناس فتراجعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ان الرجل منهم اذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع

أجسادهم وفي الاعراف فأخذتهم الرجفة وكذا في العنكبوت وقد قدمنا ان الرجفة الزلزلة ولنها تكون تابعة للصيحة لتموج الهواء المفضي اليها وهذا في أهل قريته واما أصحاب الايكة فأهلكوا بعذاب الظلة وهو نار نزلت من السماء أحرقتهم (فأصبحوا في ديارهم جاثمين) ميتين باركين على الركب وقد تقدم تفسيره وتفسير (كأن لم يغنوا فيها) قريبا وكذا تفسير (الا بعدا لمدين كما بعدت ثمود) قال المهدوي من ضم العين من بعدت فهي لغة تستعمل في الخير والشر وبعدت بالكسر على قراءة الجمهور تستعمل في الشر خاصة وهي هنا بمعنى اللعنة وقيل بكسر العين بمعنى الهلاك وبضمها ضد القرب والمصدر البعد بفتح العين والمعنى هلاكا لهم كما هلكت ثمود والتشبيه من حيث ان هلاك كل بالصيحة قال ابن الانباري من العرب من يسوي بين الهلاك والبعد الذي هو ضد القرب قيل لم يعذب أمتان قط بعذاب واحد الا قوم شعيب وقوم صالح فأما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم وأما قوم شعيب فأخذتهم الصيحة من فوقهم (ولقد أرسلنا موسى) هذه سابعة قصص ذكرت في هذه السورة فتقدم قصة نوح وهود وصالح وابراهيم ولوط ومدين على هذا الترتيب وهذه قصة موسى (بآياتنا) أي بالتوراة حال كونه متلبسا بها (وسلطان مبين) أي المعجزات الباهرات وقيل المراد بالآيات هي التسع المذكورة في غير هذا الموضع منها ثمانية في الاعراف والتاسعة في يونس وليس من الآيات المرادة هنا التوراة لانها أنزلت بعد اغراق فرعون وقومه والسلطان العصا وهي وان كانت من التسع لكنها لما كانت أعظم الآيات وأبهرها للعقول وأشدها خرقا للعادة أفردت بالذكر وقيل المراد بالآيات ما يفيد الظن والسلطان ما يفيد القطع مما جاء به موسى وقيل هما جميعا عبارة عن شيء واحد أي أرسلناه بما يجمع وصف كونه آية وكونه سلطانا بينا وقيل ان السلطان المبين ما أورده موسى على فرعون في المحاورة بينهما (الى فرعون وملئه) أي أرسلناه بذلك الى هؤلاء وقد تقدم ان الملأ أشراف القوم وانما خصهم بالذكر دون سائر القوم لانهم أتباع لهم في الاصدار والايراد وخص هؤلاء الملا دون فرعون بقوله (فاتبعوا أمر فرعون) أي أمره لهم بالكفر لان حال فرعون في الكفر أمر واضح اذ كفر قومه من الاشراف وغيرهم انما هو مستند الى كفره ويجوز أن يراد بأمر فرعون شأنه وطريقته فيعم الكفر وغيره (وما أمر فرعون برشيد) أي ليس فيه رشد قط بل هو غي وضلال والرشيد بمعنى المرشد والاسناد مجازي أو بمعنى ذي رشد وفيه تعريض بأن الرشد في أمر موسى (يقدم قومه) تعليل للنفي قبله من قدمه بمعنى تقدمه أي يصير متقدما لهم (يوم القيامة) وسابقا لهم الى عذاب النار كما كان يتقدمهم في الدنيا (فأوردهم النار) أي انه لا يزال متقدما لهم وهم يتبعونه حتى يوردهم النار في الآخرة والورود الدخول وأورد ماض لفظا مستقبل معنى لانه عطف على ما هو نص في الاستقبال وعبر بالماضي تنبيها على تحقق وقوعه والهمزة في أورد للتعدية لانه قبلها يتعدى لواحد قال تعالى ولما ورد ماء مدين وقيل بل هو ماض على حقيقته وهذا قد وقع وانفصل وذلك انه أوردهم في الدنيا النار قال تعالى النار يعرضون عليها وقيل أوردهم موجباتها وأسبابها وفيه بعد

لبس درعه ثم انحدر عنه وأرسله ورجع بنفسه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣٦٥) فلما اجتمعت شرذمة منهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم عليه السلام ان يصدقوا الحملة وأخذ قبضة من التراب بعدما دعا ربه واستنصره وقال اللهم انجز لي ما وعدتني ثم رمى القوم بها فما بقي انسان منهم الا أصابه منها في عينيه وفمه ما شغله عن القتال ثم انهزموا فاتبع المسلمون اقفاءهم يقتلون ويأسرون وما تراجع بقية الناس الا والاسرى مجندلة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا يعلى بن عطاء عن عبد الله بن سيار عن أبي همام عن أبي عبد الرحمن الفهري واسمه يزيد بن أسيد ويقال يزيد بن أنيس ويقال كرز قال كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة حنين فسرنا في يوم قائظ شديد الحر فنزلنا تحت ظلال الشجر فلما زالت الشمس لبست لأمتي وركبت فرسي فانطلقت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في فسطاطه فقلت السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته حان الرواح فقال أجل فقال يا بلال فثار من تحت سمرة كأن ظله ظل طائر فقال لبيك وسعديك وأنا فداؤك فقال اسرج لي فرسي فأخرج سرجا دفتاه من ليف ليس فيهما أشر ولا بطر قال فأسرج فركب وركبنا فصاففناهم عشيتنا وليلتنا فتشامت الخيلان فولى المسلمون مدبرين كما قال الله تعالى ثم وليتم مدبرين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عباد الله انا عبد الله ورسوله ثم قال يا معشر المهاجرين أنا عبد الله ورسوله قال ثم اقتحم عن فرسه فأخذ كفا من تراب فأخبرني الذي كان أدنى اليه مني انه ضرب به وجوههم وقال شاهت الوجوه فهزمهم الله تعالى قال يعلى بن عطاء فحدثني أبناؤهم عن آبائهم انهم قالوا لم يبق منا أحد الا امتلأت عيناه وفمه ترابا وسمعنا صلصلة بين السماء والارض كامرار الحديد

لاجل العطف بالفاء قال قتادة يمشي فرعون بين أيدي قومه حتى هجم بهم على النار قال الخفاجي وأنزل لهم النار منزلة الماء فسمي اتيانها ورودا فالنار استعارة مكنية تهكمية للضد وهو الماء واثبات الورود لها تخييل ثم ذم الورد الذي أوردهم اليه فقال (وبئس الورد المورود) أي المدخل المدخول فيه الذي وردوه لان الوارد الى الماء الذي يقال له الورد انما يرده ليطفئ حر العطش ويذهب ظمأه والنار على ضد ذلك والورد يكون مصدرا بمعنى الورود فلا بد من حذف مضاف تقديره وبئس مكان الورد المورود وهو النار وانما احتيج الى هذا التقدير لان تصادق فاعل نعم وبئس ومخصوصهما شرط فلا يقال نعم الرجل الفرس ثم ذمهم بعد ذم المكان الذي يردونه فقال (وأتبعوا) أي أتبع قوم فرعون مطلقا أو الملأ خاصة أو هم وفرعون (في هذه) الدنيا (لعنة) عظيمة أي طردوا وابعادا من الامم بعدهم (و) اتبعوا لعنة (يوم القيامة) يلعنهم أهل المحشر جميعا ثم انه جعل اللعنة رفدا لهم على طريقة التهكم فقال (بئس الرفد المرفود) أي العون المعان او العطاء المعطى قال الكسائي وأبو عبيدة رفدته أرفده رفدا أعنته وأعطيته واسم العطية الرفد أي بئس العطاء والاعانة ما أعطوهم اياه وأعانوهم به والمخصوص بالذم محذوف أي رفدهم وهو اللعنة التي اتبعوها في الدنيا والآخرة كأنها لعنة بعد لعنة تمد الاخرى الاولى وتؤيدها وسميت اللعنة عونا لانها اذا تبعتهم في الدنيا أبعدتهم عن رحمة الله وأعانتهم على ما هم فيه من الضلال وسميت رفدا أي عونا لهذا المعنى على التهكم والا فاللعنة اذلال لهم وانزال بهم الى الحضيض الاسفل وسميت معانا لانها أرفدت في الآخرة بلعنة أخرى لتكونا هاديتين الى طريق الجحيم وذكر الماوردي حكاية عن الاصمعي ان الرفد بالفتح القدح وبالكسر ما فيه من الشراب فكأنه ذم ما يسقونه في النار وهذا أنسب بالمقام وقيل ان الرفد الزيادة أي بئسما يرفدونه به بعد الغرق وهو الزيادة قاله الكلبي وأصل الرفد العون والعطاء والصلة والارفاد أيضا الاعطاء والاعانة قال أبو السعود وقد فسر الرفد بالعطاء ولا يلائم المقام وأصله ما يضاف الى غيره ليعمده (ذلك) أي ما قصه الله سبحانه في هذه السورة من القصص السبعة (من أنباء القرى) أي من أخبار الامم السالفة والقرون الماضية وما فعلوه بأنبيائهم (نقصه عليك) أي هو مقصوص عليك لتخبر به قومك لعلهم يعتبروا وقد تقدم تحقيق معنى القصص (منها) أي من القرى التي أهلكنا أهلها (قائم وحصيد) القائم ما كان قائما على عروشه والحصيد ما لا أثر له وقيل القائم العامر والحصيد الخراب وقيل القائم القرى الخاوية على عروشها والحصيد المستأصل بمعنى محصود شبه ما بقي من آثار القرى بالزرع القائم على ساقه وشبه المقطوع والمعفو منها بالحصيد قال ابن عباس يعني قرى عامرة وقرى خامدة وقال قتادة قائم يرى مكانه وحصيد لا يرى له أثر وقال ابن جريج قائم خاو على عروشه وحصيد ملصق بالارض والمعنى بعضها باق وبعضها عاف والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا لانه لما ذكر أنباء القرى اتجه لسائل ان يقول ما حال هذه القرى أباقية آثارها أم لا (وما ظلمناهم) بما فعلنا بهم من العذاب والاهلاك (ولكن ظلموا أنفسهم) بأن جعلوها عرضة للهلاك باقتراف ما يوجبه

على الطشت الحديد وهكذا رواه الحافظ البيهقي في دلائل النبوة من حديث أبي داود الطيالسي عن حماد بن سلمة به وقال محمد ابن اسحق حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه جابر بن عبد الله قال فخرج مالك بن عوف بمن معه الى حنين فسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه فاعدوا وتهيؤا في مضايق الوادي واحنائه وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى انحط بهم الوادي في عماية الصبح فلما انحط الناس ثارت في وجوههم الخيل فاشتدت عليهم وانكفأ الناس منهزمين لا يقبل أحد على أحد وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين يقول أيها الناس هلموا الي أنا رسول الله أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله فلا شيء وركبت بعضها بعضا فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الناس قال يا عباس اصرخ يا معشر الانصار يا أصحاب السمرة فأجابوه لبيك لبيك فجعل الرجل يذهب ليعطف بعيره فلا يقدر على ذلك فيقذف درعه في عنقه ويأخذ سيفه وقوسه ثم يؤم الصوت حتى اجتمع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم مائة فاستعرض الناس فاقتتلوا وكانت الدعوة أول ما كانت بالانصار ثم جعلت آخرا بالخزرج وكانوا صبراء عند الحرب وأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم في ركابه فنظر الى مجتلد القوم فقال الآن حمي الوطيس قال فوالله ما راجعة الناس الا والاسارى عند رسول الله ملقون فقتل الله منهم من قتل وانهزم منهم ما انهزم وأفاء الله على رسوله أموالهم وأبناءهم وفي الصحيحين من حديث شعبة عن أبي اسحق عن البراء بن عازب رضي الله عنهما ان رجلا قال له يا أبا عمارة أفررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين فقال لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر ان هوازن كانوا قوما رماة فلما لقيناهم من وحملنا عليهم انهزموا فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهام فانهزم الناس فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو سفيان

من الكفر والمعاصي (فما أغنت عنهم آلهتهم) أي فما دفعت عنهم أصنامهم أو ما نفعت قاله أبو عاصم (التي يدعون) يعبدونها (من دون الله) أي غيره (من شيء) أي شيأ من العذاب و بأس الله ومن زائدة (لما جاء) أي حين جاء (أمر ربك) أي عذابه (وما زادوهم غير تتبيب) أي هلاك وخسران قال ابن عمر أي هلكة وقال ابن زيد أي تخسير وقيل تدمير والتتبيب اسم من تببه بالتشديد وتبت يده تتب بالكسر خسرت كناية عن الهلاك وتباله أي هلاكا واستتب الامر تهيأ و يستعمل لازما ومتعديا يقال تببه غيره وتب هو بنفسه والمعنى ما زادتهم أصنامهم التي يعبدونها الا هلاكا وخسرانا وقد كانوا يعتقدون انها تعينهم على تحصيل المنافع ودفع المضار (وكذلك) أي مثل ذلك الاخذ (أخذ ربك) قرئ على انه فعل وعلى انه مصدر (اذا أخذ القرى وهي ظالمة) أي أهلها وهم ظالمون بالذنوب فلا يغني عنهم من أخذه شيء (ان أخذه) عقوبته للكافرين (أليم شديد) أي موجع غليظ على المأخوذ وهو مبالغة في التهديد والتحذير أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي موسى الاشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله سبحانه وتعالى ليملي للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته ثم قرأ وكذلك أخذ ربك الآية ولا تظن ان الآية حكمها مختص بظالمي الامم الماضية بل هو عام في كل ظالم ويعضده الحديث (ان في ذلك) أي أخذ الله سبحانه لاهل القرى أو في القصص السبعة التي قصها الله على رسوله (لآية) لعبرة وموعظة لان القصص المذكورة فيها عذاب الدنيا وعذاب الآخرة وقد حصل الاول فيعلم العاقل ان القادر على انزال الاول قادر على انزال الثاني (لمن خاف عذاب الآخرة) لانهم الذين يعتبرون بالعبر ويتعظون بالمواعظ قال ابن زيد يقول انا سوف نفي لهم بما وعدناهم في الآخرة كما وفينا للانبياء انا ننصرهم (ذلك) أي يوم القيامة المدلول عليه بذكر الآخرة (يوم مجموع له) صفة ليوم جرت على غير من هي له فلذلك رفعت الظاهر وهو (الناس) من الاولين والآخرين للمحاسبة والمجازاة (وذلك) أي يوم القيامة (يوم مشهود) يشهده أهل المحشر أو مشهود فيه الخلائق أو يشهده أهل السماء والارض فاتسع في الظرف باجرائه مجرى المفعول (وما نؤخره) أي ذلك اليوم (الا لاجل) اللام للتعليل أي لانتهاء أجل أي وقت (معدود) معلوم بالعدد لا يعلمه الا الله وهو مدة الدنيا وقد عين سبحانه وقوع الجزاء بعده وعبارة أبي السعود الا لانقضاء مدة قليلة مضروبة حسبما تقتضيه الحكمة (يوم) حين (يأت) يوم القيامة وقيل الضمير لله تعالى كقوله الا أن يأتيهم الله أو يأتي ربك (لا تكلم) أي لا تتكلم فيه (نفس) بما ينفع وينجي من جواب (الا باذنه) أي بما أذن لها من الكلام وقيل لا تتكلم بحجة ولا شفاعة الا باذنه سبحانه لها في التكلم بذلك كقوله لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن وقوله تعالى من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه وقد جمع بين هذا وبين قوله يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وقوله اخبارا عن مجادلة الكفار ربنا ما كنا مشركين وقوله هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون باختلاف أحوالهم باختلاف مواقف القيامة وقد تكرر مثل

ابن الحرث آخذ بلجام بغلته البيضاء وهو يقول أنا النبي لا كذب أنا ابن ... قلت وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة انه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى وقد انكشف عنه جيشه وهو مع هذا على بغلة ليست سريعة الجري ولا تصلح لفر ولا لكر ولا لهرب وهو مع هذا أيضا يركضها الى وجوههم وينوه باسمه ليعرفه من لم يعرفه صلوات الله وسلامه عليه دائما الى يوم الدين وما هذا كله الا ثقة بالله وتوكلا عليه وعلما منه بأنه سينصره ويتم ما أرسله به ويظهر دينه على سائر الاديان ولهذا قال تعالى ثم أنزل الله سكينته على رسوله أي طمأنينته وثباته على رسوله وعلى المؤمنين أي الذين معه وأنزل جنودا لم تروها وهم الملائكة كما قال الامام أبو جعفر بن جرير حدثني الحسن بن عرفة قال حدثني المعتمر بن سليمان عن عوف هو ابن أبي جميلة الاعرابي قال سمعت عبد الرحمن مولى أم برثن حدثني رجل كان مع المشركين يوم حنين قال لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين لم يقوموا لنا حلب شاة قال فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم حتى انتهينا الى صاحب البغلة البيضاء فاذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فتلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه فقالوا لنا شاهت الوجوه ارجعوا قال فانهزمنا وركبوا أكتافنا فكانت اياها وقال الحافظ أبو بكر البيهقي أنبأنا أبو عبد الله الحافظ حدثني محمد بن أحمد بن بالويه حدثنا اسحق بن الحسن الحربي حدثنا عفان بن مسلم حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا الحرث بن حصيرة حدثنا القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه قال قال ابن مسعود رضي الله عنه كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين فولى عنه الناس وبقيت معه في ثمانين رجلا من المهاجرين والانصار فقدمنا ولم نولهم الدبر وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة قال ورسول الله صلى الله عليه

وسلم على بغلته البيضاء يمضي قدما فحادت بغلته (٣٦٨) فمال عن السرج فقلت ارتفع رفعك الله قال ناولني كفا من التراب فناولته قال فضرب به وجوههم فامتلأت أعينهم ترابا قال أين المهاجرون والانصار قلت هم هناك قال اهتف بهم فهتفت بهم فجاؤا وسيوفهم بأيمانهم كأنها الشهب وولى المشركون أدبارهم ورواه الامام أحمد في مسنده عن عفان به بنحوه وقال الوليد بن مسلم حدثني عبد الله بن المبارك عن أبي بكر الهذلي عن عكرمة مولى ابن عباس عن شيبة بن عثمان قال لما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين قد عرى ذكرت أبي وعمي وقتل علي وحمزة اياهما فقلت اليوم أدرك ثاري منه قال فذهبت لاجيئه عن يمينه فاذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائما عليه درع بيضاء كأنها فضة يكشف عنها العجاج فقلت عمه ولن يخذله قال فجئته عن يساره فاذا أنا بأبي سفيان بن الحرث بن عبد المطلب فقلت ابن عمه ولن يخذله فجئته من خلفه فلم يبق الا ان اسوره سورة بالسيف اذ رفع لي شواظ من نار بيني وبينه كأنه برق فخفت ان يمحشني فوضعت يدي على بصري ومشيت القهقرى فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ياشيبة ياشيبة ادن مني اللهم اذهب عنه الشيطان قال فرفعت اليه بصري ولهو أحب الي من سمعي وبصري فقال ياشيبة قاتل الكفار رواه البيهقي من حديث الوليد فذكره ثم روى من حديث أيوب بن جابر عن صدقة بن سعيد عن مصعب بن شيبة عن أبيه قال خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين والله ما أخرجني اسلام ولا معرفة به ولكني أبيت أن تظهر هوازن على قريش فقلت وأنا واقف معه يارسول الله اني أرى خيلا بلقا فقال ياشيبة انه لا يراها الا كافر فضرب ... وروى

هذا الجمع في مواضع وقد اشتملت هذه الآية على ثلاثة أنواع من البديع الجمع في قوله لا تكلم نفس والتفريق في قوله فمنهم شقي وسعيد والتقسيم في قوله فأما الذين شقوا (فمنهم) أي من الانفس أو من أهل الموقف وان لم يذكروا قال الزمخشري لان ذلك معلوم ولان قوله لا تكلم نفس يدل عليه وكذا قال ابن عطية (شقي) هو من كتبت عليه الشقاوة (وسعيد) أي من كتبت له السعادة وتقديم الشقي على السعيد لان المقام مقام تحذير أخرج الترمذي وحسنه وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال لما نزلت فمنهم شقي وسعيد قلت يارسول الله فعلام نعمل على شئ قد فرغ منه أو على شئ لم يفرغ منه قال بل على شئ قد فرغ منه وجرت به الاقلام ياعمر ولكن كل ميسر لما خلق له وقد استدل بهذه الآية على ان أهل الموقف قسمان لا ثالث لهما وظاهر الآية والحديث يدل على ذلك لكن بقي قسم آخر مسكوت عنه وهو من استوت حسناته وسيآته أو لا حسنات لهم ولا سيآت كالمجانين والاطفال فهم تحت مشيئته يحكم فيهم بما شاء وتخصيص القسمين لا ينفي القسم الثالث (فأما الذين شقوا) أي الذين سبقت لهم الشقاوة في علمه تعالى وهم الذين يموتون على الكفر وان تقدم منهم ايمان (ففي النار) أي فيستقرون فيها (لهم فيها زفير وشهيق) قال الزجاج الزفير من شدة الانين وهو المرتفع جدا قال وزعم أهل اللغة من البصريين والكوفيين ان الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير والشهيق بمنزلة آخره وقيل الزفير للحمار والشهيق للبغل وقيل الزفير الصوت الشديد والشهيق الصوت الضعيف وقيل الزفير اخراج النفس والشهيق ردها وقيل الزفير من الصدر والشهيق من الحلق وقيل الزفير ترديد النفس في الصدر من شدة الخوف حتى تنتفخ منه الاضلاع والشهيق النفس الطويل الممتد أو رد النفس الى الصدر والمراد بهما الدلالة على شدة كربهم وغمهم وتشبيه حالهم بمن استولت الحرارة على قلبه وانحصر فيه روحه وقال الليث الزفير ان يملأ الرجل صدره حال كونه في الغم الشديد من النفس ويخرجه والشهيق ان يخرج ذلك النفس وهو قريب من قولهم تنفس الصعداء والجملة اما مستأنفة أو حالية (خالدين) لابثين (فيها) أي في النار (ما دامت السموات والارض) ما مصدرية أي مدة دوامهما في الدنيا وهذه المدة غير ما يريده الله مما لانهاية له ودامت هنا تامة لانها بمعنى بقيت وقد اختلف العلماء في بيان معنى هذا التوقيت لانه قد علم بالادلة القطعية تأبيد عذاب الكفار في النار وعدم انقطاعه عنهم وثبت أيضا ان السموات والارض تذهب عند انقضاء أيام الدنيا فقالت طائفة ان هذا الاخبار جار على ما كانت العرب تعتاده اذا أرادوا المبالغة في دوام الشئ قالوا هو دائم ما دامت السموات والارض ومنه قولهم لا آتيك ما جن الليل وما اختلف الليل والنهار وما ناح الحمام ونحو ذلك فيكون المعنى انهم خالدون فيها أبدا لا انقطاع لذلك ولا انتهاء له وقيل ان المراد سموات الآخرة وأرضها فقد ورد ما يدل على ان للآخرة سموات وأرضا غير هذه الموجودة في الدنيا وهي دائمة بدوام دار الآخرة وأيضا لابد لهم من موضع يقلهم وآخر يظلهم وهما أرض وسماء قال ابن عباس لكل جنة أرض وسما

وروى نحوه عن السدى والحسن (الا ماشاء ربك) قد اختلف أهل العلم فى معنى هذا الاستثناء على اقوال الاول انه من قوله فى النار كأنه قال الا ماشاء ربك من تأخير قوم عن ذلك روى هذا عن أبى سعيد الخدرى الثانى ان الاستثناء انما هو للعصاة من الموحدين وانهم يخرجون بعد مدة من النار وعلى هذا يكون قوله سبحانه فاما الذين شقوا عاما فى الكفرة والعصاة ويكون الاستثناء من خالدين ، يكون ما بمعنى من وبهذا قال قتادة والضحاك وأبو سنان وغيرهم قال البيضاوى هو استثناء من الخلود فى النار لان بعضهم وهم فساق الموحدين يخرجون منها وذلك كاف فى صحة الاستثناء لان زوال الحكم عن الكل يكفيه زواله عن البعض وهم المرادون بالاستثناء الثانى فانهم مفارقون عن الجنة أيام عذابهم فان التأبيد من مبدء معين ينتقص باعتبار الابتداء كما ينتقص باعتبار الانتهاء وهؤلاء وان شقوا بعصيانهم فقد سعدوا بايمانهم انتهى وقد ثبت بالاحاديث المتواترة تواترا يفيد العلم الضرورى بانه يخرج من النار أهل التوحيد فكان ذلك مخصصا لكل عموم الثالث ان الاستثناء من الزفير والشهيق أى لهم فيها ذلك الا ماشاء ربك من أنواع العذاب غير الزفير والشهيق قاله ابن الانبارى الرابع ان معنى الاستثناء أنهم خالدون فيها ما دامت السموات والارض لا يموتون فيها الا ماشاء ربك فانه يأمر النار فتأكلهم حتى يفنوا ثم يجدد الله خلقهم روى ذلك عن ابن مسعود الخامس ان الا بمعنى سوى ولكن والاستثناء منقطع والمعنى ما دامت السموات والارض سوى ما يتجاوز ذلك من الخلود كأنه ذكر فى خلودهم ما ليس عند العرب أطول منه ثم زاد عليه الدوام الذى لا آخر له حكاه الزجاج السادس ما روى عن الفراء وابن الانبارى وابن قتيبة من ان هذا لا ينافى عدم المشيئة كقولك والله لاضربنه الا ان أرى غير ذلك ونوقش هذا بان معنى الآية الحكم بخلودهم الا المدة التى شاء الله فالمشيئة قد حصلت جزما وقد حكى هذا القول الزجاج أيضا السابع ان المعنى خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ماشاء ربك من مقدار موقفهم فى قبورهم وللحساب حكاه الزجاج أيضا الثامن ان المعنى خالدين فيها الا ماشاء ربك من زيادة النعيم لاهل النعيم وزيادة العذاب لاهل الجحيم حكاه الزجاج أيضا واختاره الحكيم الترمذى التاسع ان الا بمعنى الواو قاله الفراء والمعنى وما شاء ربك من الزيادة قال مكى وهذا القول بعيد عند البصريين ان يكون الا بمعنى الواو العاشر ان الا بمعنى الكاف والتقدير كما شاء ربك ومنه قوله تعالى ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف أى كما قد سلف الحادى عشر ان هذا الاستثناء انما هو على سبيل الاستثناء الذى ندب اليه الشارع فى كل كلام فهو على حد قوله لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين قاله ابن عطية وروى نحو هذا عن أبى عبيد ولا يحتاج الى ان يوصف بمتصل ولا منقطع وهذه الاقوال هى جملة ما وقفنا عليه من أقوال أهل العلم وقد نوقش بعضها بمناقشات ودفعت بدفوعات وقد أوضح الشوكانى ذلك فى رسالة مستقلة جمعها فى جواب سؤال ورد من بعض الاعلام قال السيوطى وما تقدم من التأويل هو الذى ظهر وهو خال من التكلف والله أعلم بمراده انتهى قال فى الجمل أى التفسير للاستثناء وحاصله ان الا فى المعنى بمعنى حرف العطف

بيده على صدرى ثم قال اللهم اهد شيبة ثم ضرب بها الثانية ثم قال اللهم اهد شيبة ثم ضرب بها الثالثة ثم قال اللهم اهد شيبة قال فوالله ما رفع يده عن صدرى فى الثالثة حتى ما كان احد من خلق الله أحب الى منه وذكر تمام الحديث فى التقاء الناس وانهزام المسلمين ونداء العباس واستنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى هزم الله المشركين قال محمد بن اسحق حدثنى أبى اسحق ابن يسار عمن حدثه عن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال أنا لمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين والناس يقتتلون اذ نظرت الى مثل البجاد الاسود يهوى من السماء حتى وقع بيننا و بين القوم فاذا نمل منثور قد ملأ الوادى فلم يكن الا هزيمة القوم فما كنا نشك انها الملائكة وقال سعيد بن السائب ابن يسار عن أبيه قال سمعت يزيد ابن عامر السوائى وكان شهد حنينا مع المشركين ثم أسلم بعد فكنا نسأله عن الرعب الذى ألقى الله فى قلوب المشركين يوم حنين فكان يأخذ الحصاة فيرمى بها فى الطست فيطن فيقول كنا نجد فى أجوافنا مثل هذا وقد تقدم له شاهد من حديث الفهرى يزيد بن أسيد فالله أعلم وفى صحيح مسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق أنبأنا معمر عن همام قال هذا ما حدثنا أبو هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم

والاستثناء منقطع فكأنه قيل خالدين فيها مادامت السموات والارض و زيادة على هذه المدة لامنتهى لها وقوله هو الذى ظهر أى ظهر له اختياره من ثلاثة عشر وجها للمفسرين فى هذا المقام وهو وجه حسن لان فيه التأبيد بما يعلمه المخاطبون بالمشاهدة ويعترفون به وهو دوام الدنيا واما التأبيد بدوام سموات الآخرة وأرضها كما قيل ففيه انه غير معلوم للمخاطبين خصوصا من ينكر البعث وقد استوفى السمين الوجوه المذكورة ولنقتصر على نقل بعضها لكونه أقرب من غيره انتهى ثم ذكر الوجه الثانى والخامس والحادى عشر كامر وقال ابن حجر الهيتمى المكى فى الزواجر عن اقتراف الكبائر دلت الآيات والاحاديث على ان عذاب الكفار فى جهنم دائم مؤبد وما ورد مما يخالف ذلك يجب تأويله فمن ذلك قوله تعالى خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك ان ربك فعال لما يريد فظاهره ان مدة عقابهم مساوية لمدة بقاء السموات والارض الا ماشاء الله من هذه المدة فلا يكونون فيه خالدين فيها وقد أوله العلماء بنحو عشرين وجها يرجع بعضها الى حكمة التقييد بمدة دوام السموات والارض وبعضها الى حكمة الاستثناء ومما فى الاول ان المراد سموات الجنة وأرضها اذ السماء كل ماعلاك والارض كل مااستقررت عليه وكون الجنة والنار لهما سماء وأرض بهذا الاعتبار أمر قطعى لايخفى على أحد فاندفع التنظير فى هذا القول بانه لايجوز حمل مافى الآية عليه لانه غير معروف للمخاطبين أو سموات الدنيا وأرضها وأجرى ذلك على عادة العرب فى الاخبار عن دوام الشئ وتأبيده بذلك ونحوه كقولهم لاآتيك ماسال سيل وماجن ليل وماطما البحر وماقام جبل لانه تعالى يخاطب العرب على عرفهم فى كلامهم وهذه الالفاظ فى عرفهم تفيد الابد والدوام وعن ابن عباس ان جميع الاشياء المخلوقة أصلها من نور العرش وان السموات والارض فى الآخرة تردان الى النور الذى خلقتا منه وهما دائمتان أبدا من نور العرش ثم هذا الجواب انما يحتاج اليه بناء على ان مفهوم التقييد بدوام السموات والارض انهم لايبقون فى النار الا بقدر مدة دوامهما من حين ايجادهما الى اعدامهما ومنع بعضهم ذلك بان المفهوم من الآية انهما متى كانتا دائمتين كان كونهم فى النار باقيا وقضيته ذلك انه كلما حصل الشرط وهو دوامهما حصل المشروط وهو بقاؤهم فى النار ولا يقتضى انه اذا اعدم الشرط يعدم المشروط فاذا قلنا مادامتا باقيتين بقى عقابهم ثم قلنا لكنهما دائمتان لزم دوام عقابهم أولكنهما مابقيتا لم يلزم عدم دوام عقابهم لايقال اذا دام عقابهم بقيتا أوعدمتا فلا فائدة للتقييد بدوامهما لانا نقول بل فيه أعظم الفوائد وهو دلالته على بقاء ذلك العذاب دهرا دائما طويلا لايحيط العقل بقدر طوله وامتداده فأما انه هل لذلك العذاب آخر ام لافذلك يحصل من ادلة أخرى وهى الآيات المصرحة بتأبيد خلودهم المستلزم انه لاآخر له ومن الثانى انه استثناء من فيها الا انهم يخرجون من النار الى الزمهرير والى شرب الحميم ثم يعودون فيها فهم خالدون فيها أبدا الافى تلك الاوقات فانهم وان كانت أوقات عذاب أيضا الا انهم ليسوا حينئذ فيها حقيقة أوأن ما لمن يعقل كانكحوا ماطاب لكم من النساء وحينئذ فيكون استثناء العصاة المؤمنين من ضمير خالدين متصلا بناء على شمول شقوا لهم أومنقطعا بناء على

ولهذا قال تعالى ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين وقوله ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم قد تاب الله على بقية هوازن فاسلموا وقدموا عليه مسلمين ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يوما فعند ذلك خيرهم بين سبيهم وبين أموالهم فاختاروا سبيهم وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبى وامرأة فرده عليهم وقسم الاموال بين الغانمين ونفل أناسا من الطلقاء لتتألف قلوبهم على الاسلام فأعطاهم مائة مائة من الابل وكان من جملة من أعطى مائة مالك بن عوف النضرى واستعمله على قومه كما كان فامتدحه بقصيدته التى يقول فيها

ما ان رأيت ولاسمعت بمثله
فى الناس كلهم بمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل اذا اجتدى
ومتى يشأ يخبرك عما فى غد
واذا الكتيبة عردت انيابها
بالسمهرى وضرب كل مهند
فكأنه ليث على اشباله
وسط المباءة خادر فى مرصد

قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر ولايحرمون ماحرم الله

عدم شموله لهم وهو الاظهر وانه منقطع والا بمعنى سوى أى مادامتا سوى ما شاء ربك زيادة على ذلك وبقيت اجوبة كثيرة اعرضت عنها لبعدها ولا ينافى ذلك ما رواه أحمد عن عبد الله بن عمرو ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد وذلك بعد ما يلبثون فيها احقابا لان فى سنده من قالوا فيه انه غير ثقة وصاحب أكاذيب كثيرة عظيمة ثم نقل غير واحد هذه المقالة عن ابن مسعود وأبى هريرة قال شيخ الاسلام ابن تيمية وهو قول عمر بن الخطاب وابن عباس وابن مسعود وأبى هريرة وأنس واليه ذهب الحسن البصرى وحماد ابن سلمة وبه قال على بن طلحة الوالبى وجماعة من المفسرين انتهى ويرد ما نقله عن الحسن قول غيره قال العلماء قال ثابت سألت الحسن عن هذا فانكره والظاهر ان هؤلاء الذين ذكرهم لم يصح عنهم من ذلك شئ وعلى التنزل فمعنى كلامهم كما قاله العلماء ليس فيها أحد من عصاة المؤمنين أما مواضع الكفار فهى ممتلئة بهم لا يخرجون عنها أبدا كما ذكره الله فى آيات كثيرة وفى تفسير الرازى قال قوم ان عذاب الكفار منقطع وله نهاية واستدلوا بهذه الآية وبلابثين فيها أحقابا وبان معصية الظالم متناهية فالعقاب عليها بما لا يتناهى ظلم انتهى والجواب عن الآية وقوله تعالى أحقابا لا يقتضى ان له نهاية لما مر ان العرب يعبرون به وبنحوه عن الدوام ولا ظلم فى ذلك لان الكافر كان عازما على الكفر ما دام حيا فعوقب دائما فهو لم يعاقب بالدائم الا على دائم فلم يكن عذابه الا جزاء وفاقا واعلم ان التقييد والاستثناء فى أهل الجنة ليس المراد بهما ظاهرهما باتفاق الكل لقوله تعالى غير مجذوذ فيؤول بنظير ما مر ويكون المراد بما اذا جعلناها بمعنى من أهل الاعراف عصاة المؤمنين الذين لم يدخلوها بعد قال ابن زيد أخبرنا الله تعالى بالذى يشاء لاهل الجنة فقال عطاء غير مجذوذ أى مقطوع ولم يخبرنا بالذى يشاء لاهل النار انتهى كلام ابن حجر وفى الذى تحامل به على ابن تيمية نظر فقد أوضح البحث الحافظ ابن القيم رحمه الله فى حادى الارواح الى بلاد الافراح مستوفيا بماله وعليه فمن شاء فليرجع اليه أخرج أبو الشيخ عن قتادة انه تلا هذه الآية فقال حدثنا أنس ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال يخرج قوم من النار ولا نقول كما قال أهل حروراء ان من دخلها بقى فيها وعن جابر قال قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية فقال ان شاء الله ان يخرج أناسا من الذين شقوا من النار فيدخلهم الجنة فعل أخرجه ابن مردويه وعن خالد بن معدان فى الآية قال انها فى ذوى التوحيد من أهل القبلة وعن جابر بن عبد الله أو أبى سعيد الخدرى قال هذه الآية قاضية على القرآن كله يقول حيث كان فى القرآن خالدين فيها تأتى عليه وعن ابن عباس فى قوله الا ما شاء ربك قال فقد شاء ربك ان يخلد هؤلاء فى النار وان يخلد هؤلاء فى الجنة وعنه قال استثنى الله من النار ان تأكلهم وعن السدى فى الآية قال فجاء بعد ذلك من مشيئة الله ما نسخها فأنزل بالمدينة ان الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا الى آخر الآية فذهب الرجاء لاهل النار ان يخرجوا منها وأوجب لهم خلود الابد وقوله وأما الذين سعدوا الآية فجاء بعد ذلك من مشيئة الله ما نسخها فأنزل بالمدينة والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات الى قوله ظلا ظليلا فأوجب لهم

ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين دينا وذاتا بنفى المشركين الذين هم نجس دينا عن المسجد الحرام وان لا يقربوه بعد نزول هذه الآية وكان نزولها فى سنة تسع ولهذا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا صحبة أبى بكر رضى الله عنهما عامئذ وأمره ان ينادى فى المشركين ان لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان فأتم الله ذلك وحكم به شرعا وقدرا وقال عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج أخبرنى أبو الزبير انه سمع جابر بن عبد الله يقول فى قوله تعالى انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا الا ان يكون عبدا أو أحدا من أهل الذمة وقد روى مرفوعا من وجه آخر فقال الامام أحمد حدثنا حسن حدثنا شريك عن الاشعث يعنى ابن سوار عن الحسن عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل مسجدنا هذا بعد عامنا هذا مشرك الا أهل العهد وخدمكم تفرد به الامام أحمد مرفوعا والموقوف أصح اسنادا وقال الامام أبو عمر الاوزاعى كتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ان امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين واتبع نهيه قول الله تعالى انما المشركون نجس وقال

خلود الابد وعن أبي نضرة قال ينتهي القرآن كله الى هذه الآية يعني (ان ربك فعال لما يريد) وفي المناوي الكبير على الجامع الصغير مانصه تنبيه ماذكرناه آنفا من ان عذاب الكفار في جهنم دائم أبدا هو ما دلت عليه الآيات والاخبار وأطبق عليه جمهور الامة سلفا وخلفا ووراء ذلك أقوال يجب تأويلها فمنها ماذهب اليه الشيخ محيي الدين بن عربي انهم يعذبون فيها مدة ثم تنقلب عليهم وتبقى طبيعة نارية لهم يتلذذون بها لموافقتها لطبيعتهم فان الثناء بصدق الوعد لابصدق الوعيد بل بالتجاوز وقال فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ولم يقل وعيده بل قال ويتجاوز عن سيئاتهم مع انه توعد على ذلك وأثنى على اسمعيل بانه كان صادق الوعد وقال في موضع آخر ان أهل النار اذا دخلوها لايزالون خائفين مترقبين ان يخرجوا منها فاذا أغلقت عليهم أبوابها اطمأنوا لانها خلقت على وفق طباعهم قال الحافظ ابن القيم وهذا في طرف أي جهة والمعتزلة القائلون بانه يجب على الله تعذيب من توعده بالعذاب في طرف آخر فاولئك عندهم لاينجو من النار من دخلها أبدا والقولان مخالفان لما علم بالاضطرار ان الرسول جاء به وأخبر به عن الله ومنها قول جمع النار تفنى فانه تعالى جعل لها أمدا تنتهي اليه ثم يزول عذابها لهذه الآية وقوله تعالى لابثين فيها أحقابا قال هؤلاء وليس في القرآن دلالة على بقاء النار وعدم فنائها انما الذي فيه ان الكفار خالدون فيها وانهم غير خارجين منها وانه لا يفتر عنهم عذابها وانهم لايموتون وان عذابهم فيها مقيم وانه غرام لازم وهذا لانزاع فيه من الصحابة والتابعين انما النزاع في أمر آخر وهو ان النار أبدية أو مما كتب عليه الفناء واما كون الكفار لايخرجون منها ولا يدخلون الجنة فلم يختلف فيه أحد من أهل السنة وقد نقل شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله القول بفنائها عن جمع من الصحابة والتابعين وقد نصر هذا القول ابن القيم كشيخه ابن تيمية وهو مذهب متروك وقول مهجور لايصار اليه ولا يعول عليه وقد أول ذلك كله الجمهور وأجابوا عن الآيات المذكورة بنحو عشرين وجها وعما نقل أولئك الصحب بأن معناه ليس فيها أحد من عصاة المؤمنين أما مواضع الكفار فهي ممتلئة منهم لايخرجون عنها أبدا كما ذكره الله في آيات كثيرة انتهى كلامه قلت وبالله التوفيق أخرج ابن المنذر عن عمر قال لولبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه وروى عبد بن حميد باسناد رجاله ثقات عن عمر نحوه وأخرج ابن راهويه عن أبي هريرة قال سيأتي على جهنم يوم لايبقى فيها أحد وقرأ فأما الذين شقوا وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابراهيم قال ما في القرآن آية أرجى لاهل النار من هذه الآية خالدين فيها الخ قال وقال ابن مسعود ليأتين عليها زمان تخفق أبوابها وروى أحمد عن ابن عمرو بن العاص ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد وحكاه البغوي وغيره عن أبي هريرة وغيره وأخرج ابن جرير عن الشعبي قال جهنم أسرع الدارين عمرانا وأسرعهما خرابا وعن قتادة قال الله أعلم بثنيته على ماوقعت وقد روى عن جماعة من السلف مثل ماذكره ابن مسعود وعمرو وأبو هريرة كابن عباس وابن عمرو وجابر وأبي سعيد من الصحابة وعن أبي مجلز وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهما من التابعين وورد في ذلك حديث في

عطاء الحرم كله مسجد لقوله تعالى فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما ورد في الصحيح المؤمن لاينجس وأما نجاسة بدنه فالجمهور على انه ليس بنجس البدن والذات لان الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب وذهب بعض الظاهرية الى نجاسة أبدانهم وقال أشعث عن الحسن من صافحهم فليتوضأ رواه ابن جرير وقوله ان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله قال ابن اسحق وذلك ان الناس قالوا لتقطعن عنا الاسواق ولتذهبن عنا التجارة وليذهبن عنا ما كنا نصيب فيها من المرافق فأنزل الله وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله من وجه غير ذلك ان شاء الله الى قوله وهم صاغرون أي هذا عوض ماتخوفتم من قطع تلك الاسواق فعوضهم الله مما قطع أمر الشرك ما أعطاهم من اعناق أهل الكتاب من الجزية وهكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك وغيرهم ان الله عليم أي بما يصلحكم حكيم أي فيما يأمر به وينهى عنه لانه الكامل في أفعاله وأقواله العادل في خلقه وأمره تبارك وتعالى ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب باموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة وقوله تعالى قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق

معجم الطبراني الكبير عن أبي امامة صدى بن عجلان الباهلي واسناده ضعيف وقد ثبت بذلك صحة مانقله شيخ الاسلام ابن تيمية عن هؤلاء وانتصره الحافظ ابن القيم ووضح وهن ماقاله ابن حجر والمناوي عليهما وان كان لاشك في أن الراجح هو الاول ولقد تكلم صاحب الكشاف في هذا الموضع بما كان له في تركه سعة وفي السكوت عنه غنى فقال ولا يخدعنك قول المجبرة ان المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار فان الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم و يسجل بافترائهم وماظنك بقوم نبذوا كتاب الله لما روى لهم بعض النوابت عن ابن عمر وليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد ثم قال وأقول ما كان لابن عمرو في سيفيه ومقاتلته بهما على بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ما يشغله عن تسيير هذا الحديث انتهى قال الشوكاني وأقول أما الطعن على من قال بخروج أهل الكبائر من النار فالقائل بذلك يامسكين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما صح عنه في دواوين الاسلام التي هي دفاتر السنة المطهرة وكما صح عنه في غيرها من طريق جماعة من الصحابة يبلغون عدد التواتر فمالك والطعن على قوم عرفوا ما جهلته وعملوا بما أنت عنه في مسافة بعيدة وأي مانع من حمل الاستثناء على هذا الذي جاءت به الادلة الصحيحة الكثيرة كما ذهب الى ذلك وقال به جمهور العلماء من السلف والخلف وأما ماظننته من ان الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم ويسجل بافترائهم فلامناداة ولامخالفة واي مانع من حمل الاستثناء في الموضعين على العصاة من هذه الامة فالاستثناء الاول يحمل على معنى الاماشاء ربك من خروج العصاة من هذه الامة من النار والاستثناء الثاني يحمل على معنى الاماشاء ربك من عدم خلودهم في الجنة كما يخلد غيرهم وذلك لتأخر دخولهم اليها مقدار المدة التي لبثوا فيها في النار وقد قال بهذا من أهل العلم من قدمنا ذكره وبه قال ابن عباس حبر الامة وأما الطعن على صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحافظ سنته وعابد الصحابة عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنه فالى أين يا محمود أتدري ماصنعت وفي أي واد وقعت وعلى أي جنب سقطت ومن أنت حتى تصعد الى هذا المكان وتتناول نجوم السماء بيدك القصيرة ورجلك العرجاء أما كان لك في مكسري طلبتك من أهل النحو واللغة ما يردك عن الدخول فيما لاتعرف والتكلم بما لاتدري فيا الله العجب ما يفعل القصور في علم الرواية والبعد عن معرفتها الى أبعد مكان من الفضيحة لمن لم يعرف قدر نفسه ولا أوقفها حيث أوقفها الله سبحانه (وأما الذين سعدوا) أي في علمه تعالى وهم الذين يموتون على الايمان وان تقدم منهم كفر أوغيره من المعاصي قرأ الكسائي وغيره سعدوا بضم السين وقرأ الباقون بفتحها قال سيبويه لا يقال سعد فلان كما لا يقال شقي فلان لكونه ممالا يتعدى قال النحاس ورأيت على بن سليمان يتعجب من قراءة الكسائي بضم السين مع علمه بالعربية وهذا لحن لايجوز قال السمين قرأ الاخوان وحفص بضم السين والباقون بفتحها فالاولى من قولهم سعده الله أي أسعده حكى الفراء عن هذيل انها تقول كذلك قال الازهري سعد فهو وسعيد كسلم فهو سليم وسعد فهو مسعود وقال أبو عمرو بن العلاء يقال سعد الرجل كما يقال حسن وقيل سعده لغة

من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون فهم في نفس الامر لما كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم لم يبق لهم ايمان صحيح بأحد من الرسل ولا بما جاؤا به وانما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه لا لانه شرع الله ودينه لانهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم ايمانا صحيحا لقادهم ذلك الى الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم لان جميع الانبياء بشروا به وأمروا باتباعه فلما جاء وكفروا به وهو أشرف الرسل دل على انهم ليسوا متمسكين بشرع الانبياء والاقدمين لانه من عند الله بل لحظوظهم وأهوائهم فلهذا لا ينفعهم ايمانهم ببقية الانبياء وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم ولهذا قال قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب وهذه الآية الكريمة أول الامر بقتال أهل الكتاب بعد ما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجا واستقامت جزيرة العرب أمر الله رسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى وكان ذلك في سنة تسع ولهذا تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم لقتال الروم ودعا الناس الى ذلك وأظهره لهم وبعث الى أحياء العرب حول المدينة فندبهم فاوعبوا معه واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفا وتخلف بعض الناس من أهل

مهجور وقد ضعف جماعة قراءة الاخوين وفى المصباح سعد فلان يسعد من باب تعب فى دين أو دنيا سعدا وبالمصدر سمى ومنه سعد بن عبادة والفاعل سعيد والجمع سعداء ويعدى بالحركة فى لغة فيقال سعده الله يسعده بفتحتين فهو مسعود وقرئ فى السبعة بهذه اللغة فى هذه الآية بالبناء للمفعول والاكثر ان يتعدى بالهمزة فيقال أسعده الله وسعد بالضم خلاف شقى (ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والارض) معنى الآية كما مر فى قوله وأما الذين شقوا (الا ما شاء ربك) من الزيادة التى لا منتهى لها فالمعنى خالدين فيها أبدا وقد عرف من الاقوال المتقدمة ما يصلح لحمل هذا الاستثناء عليه ولا يستقيم الا على التأويل المذكور فى الوجه الخامس والسابع وما بعده (عطاء) اسم مصدر والمصدر فى الحقيقة الاعطاء أو يكون مصدرا على حذف الزوائد كقوله أنبتكم من الارض نباتا أو منصوب بمقدر يقال عطوت بمعنى ناولت (غير مجذوذ) من جذه يجذه اذا قطعه وكسره والجذاذ بكسر الجيم ما تكسر منه والضم أفصح والجذاذات القراضات والمعنى يعطيهم الله عطاء غير مقطوع يعنى انه ممتد الى غير نهاية قال القاضى وهو تصريح بان الثواب لا ينقطع وتنبيه على ان المراد من الاستثناء فى الثواب ليس الانقطاع ولاجله فرق بين الثواب والعقاب فى التأبيد انتهى قال الخفاجى وقع لبعضهم هنا ان النار ينقطع عذابها بخلاف نعيم أهل الجنة وأورد فيه حديثا عن عبد الله بن عمرو بن العاص وقد تقدم قال ابن الجوزى انه موضوع وأشار لنحو منه الزمخشرى الا انه تكلم فى ابن عمرو كلاما لا ينبغى ذكره انتهى وقد ثبت بالنصوص القاطعة ان لا وجود لذلك فيقدر الخلود ولا يتوهم جواز التعارض بين هذه وبين النصوص الدالة على عدم الخلود لان المحتمل لا يعارض القطعى ولما فرض الله سبحانه من أقاصيص الكفرة وبيان حال السعداء والاشقياء سلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشرح أحوال الكفرة من قومه فى ضمن النهى عن الامتراء فقال (فلا تك) حذف النون لكثرة الاستعمال ولان النون اذا وقعت طرف الكلام لم يبق عند التلفظ بها الا مجرد الغنة فلا جرم أسقطوها قاله الكرخى (فى مرية مما يعبد هؤلاء) أى ما يعبدونه غير نافع لهم ولا ضار ولا تأثير له فى شئ والمرية الشك والاشارة بهؤلاء الى كفار عصره صلى الله عليه وآله وسلم من قريش وقيل المعنى لا تك فى شك من بطلان ما يعبد هؤلاء من الاصنام وقيل لا تك فى شك من سوء عاقبتهم ولا مانع من الحمل على جميع هذه المعانى وهذا النهى له صلى الله عليه وآله وسلم هو تعريض لغيره ممن يداخله شئ من الشك فانه صلى الله عليه وآله وسلم لا يشك فى ذلك أبدا ثم بين له سبحانه بقوله (ما يعبدون الا كما يعبد آباؤهم) ان معبودات هؤلاء كمعبودات آبائهم وان عبادتهم كعبادة آبائهم (من قبل) وفى هذا الاستئناف تعليل للنهى عن الشك والمعنى انهم سواء فى الشرك بالله وعبادة غيره فلا يكن فى صدرك حرج مما تراه من قومك فهم كمن قبلهم من طوائف الشرك وفى الخازن يعنى انه ليس لهم فى عبادة هذه الاصنام مستند الا تقليد آبائهم انتهى وجاء بالمضارع فى كما يعبد لاستحضار الصورة ثم بين له انه مجازيهم بأعمالهم فقال (وانا لموفوهم نصيبهم) من العذاب (غير منقوص) لا ينقص ذلك شئ وانتصاب غير على الحال

المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم وكان ذلك فى عام جدب ووقت قيظ وحر وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الشام لقتال الروم فبلغ تبوك فنزل بها وأقام بها قريبا من عشرين يوما ثم استخار الله فى الرجوع فرجع لعامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس كما سيأتى بيانه بعد ان شاء الله تعالى وقد استدل بهذه الآية الكريمة من يرى أنه لا تؤخذ الجزية الا من أهل الكتاب أو من أشبههم كالمجوس كما صح فى الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها من مجوس هجر وهذا مذهب الشافعى وأحمد فى المشهور عنه وقال أبو حنيفة رحمه الله بل تؤخذ من جميع الاعاجم سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين ولا تؤخذ من العرب الا من أهل الكتاب وقال الامام مالك بل يجوز ان تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابى ومجوسى ووثنى وغير ذلك ولمأخذ هذه المذاهب وذكر أدلتها مكان غير هذا والله أعلم وقوله حتى يعطوا الجزية أى ان لم يسلموا عن يد أى عن قهر لهم وغلبة وهم صاغرون أى ذليلون حقيرون مهانون فلهذا لا يجوز اعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين بل هم أذلاء صغرة أشقياء كما جاء فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لا تبدؤا اليهود والنصارى بالسلام واذا لقيتم أحدهم فى

والتوفية لا تستلزم عدم النقص فقد يجوز ان يوفى وهو ناقص كما يجوز ان يوفى وهو كامل قال القاضى كالزمخشرى فانك تقول وفيته حقه وتريد به وفاء بعضه ولو مجازا انتهى وأنت خبير بانه اذا لم تمكن قرينة المجاز قائمة كما فى هذا المقام لا تكون الحال الا للتأكيد لان التوفية تقتضى الاكمال فقد استفيد معناها من عاملها وهو شأن المؤكدة وفائدته دفع توهم التجوز قال بعضهم وجعلها مقيدة له لدفع احتمال كونه منقوصا فى حد نفسه مبنى على الذهول عن كون العامل هو التوفية تأمل قاله الكرخى وقيل المراد نصيبهم من الرزق وقيل ما هو أعم من الخير والشر (ولقد آتينا موسى الكتاب) أى التوراة (فاختلف فيه) أى فى شأنه وتفاصيل أحكامه فآمن به قوم وكفر به آخرون وعمل باحكامه قوم وترك العمل ببعضها آخرون فلا يضيق صدرك يا محمد بما وقع من هؤلاء فى القرآن وقيل فى سببية أى هو سبب اختلافهم وقيل بمعنى على (ولولا كلمة) الانظار الى يوم القيامة أى الحكم الازلى بتأخير عذابهم (سبقت من ربك) لما علم فى ذلك من الصلاح (لقضى بينهم) أى بين قومك أو بين قوم موسى فيما كانوا فيه مختلفين فاثيب المحق وعذب المبطل وعذبوا فى الحال وفرغ من عذابهم واهلاكهم والكلمة هى ان رحمته سبحانه سبقت غضبه فامهلهم ولم يعاجلهم لذلك وقيل ان الكلمة هى انهم لا يعذبون بعذاب الاستئصال وهذا من جملة التسلية له صلى الله عليه وآله وسلم ثم وصفهم بانهم فى شك من الكتاب فقال (وانهم لفى شك منه) أى من القرآن ان حمل على قوم محمد صلى الله عليه وآله وسلم أو من التوراة ان حمل على قوم موسى (مريب) موقع فى الريبة من أراب اذا حصل الريب لغيره أو صار هو فى نفسه ذا ريب ثم جمع الاولين والآخرين فى حكم توفية العذاب لهم أو هو والثواب فقال (وان كلا) أى كل الخلائق (لما ليوفينهم ربك أعمالهم) أى جزاءها وفى ان وكلا ولما أقوال متخالفة هل ان مخففة أم مثقلة والتنوين فى كلا مع النصب عوض عن المضاف اليه ونصبه بان ولما خفيفة أم ثقيلة وهى بمعنى الا ام لا وأحسن هذه الاقوال انها بمعنى الاستثنائية وقد روى ذلك عن الخليل وسيبويه ورجحه الزجاج وقرأ أبى ان كلا الا ليوفينهم وقرئ بالتنوين بمعنى جميعا وبسط الكلام فى ذلك فى جمل قال السمين هذه الآية الكريمة مما تكلم الناس فيها قديما وحديثا وعسر على أكثرهم تلخيصها قراءة وتخريجا وقد سهل الله تعالى ذلك فذكرت أقاويلهم وما هو الراجح منها فاقول قرأ بعضهم ان ولما مخففتين وبعضهم خفف ان وثقل لما وبعضهم شددهما وبعضهم شدد ان وخفف لما فهذه أربع قرآت فى هذين الحرفين وكلها متواترة سبعية قال والرابعة وهى تشديدان وتخفيف لما فواضحة جدا وقرئ شاذا وان كل بتخفيف ان ورفع كل ولما بالتشديد وهى قراءة الحسن البصرى وعليها فلما بمعنى الا انتهى ملخصا وقرئ أيضا شاذا قرآت أخر فلتراجع فى السمين وغيره (انه بما تعملون) أيها المختلفون (خبير) لا يخفى عليه منه شئ والجملة تعليل لما قبلها وفيه وعد للمحسنين المصدقين ووعيد للمكذبين الكافرين ثم أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بكلمة جامعة لانواع الطاعة له سبحانه فقال (فاستقم كما أمرت) أى كما أمرك الله فيدخل فى ذلك جميع

طريق فاضطروهم الى أضيقه ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه تلك الشروط المعروفة فى اذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم وذلك ما رواه الائمة الحفاظ من رواية عبد الرحمن ابن غنم الاشعرى قال كتبت لعمر ابن الخطاب رضى الله عنه حين صالح نصارى من أهل الشام بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا انكم لما قدمتم علينا سألناكم الامان لانفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا ان لا نحدث فى مدينتنا ولا فيما حولها ديرا ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب ولا نجدد ما خرب منها ولا نحيى منها ما كان خططا للمسلمين وان لا نمنع كنائسنا ان ينزلها أحد من المسلمين فى ليل ولا نهار وان نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل وان ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم ولا نؤوى فى كنائسنا ولا منازلنا جاسوسا ولا نكتم غشا للمسلمين ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظهر شركا ولا ندعو اليه أحدا ولا نمنع أحدا من ذوى قرابتنا الدخول فى الاسلام ان أرادوه وان نوقر المسلمين وان نقوم لهم من مجالسنا ان أرادوا الجلوس ولا نتشبه بهم فى شئ من ملابسهم فى قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا نتكلم بكلامهم ولا نكتنى بكناهم ولا نركب

البروج ولا نتقلد السيوف ولا نتخذ شيأ من السلاح ولا نحمله معنا ولا ننقش خواتيمنا بالعربية ولا نبيع الخمور وان نجز مقاديم رؤسنا وأن نلزم زينا حيثما كنا وان نشد الزنانير على أوساطنا وان لا نظهر الصليب على كنائسنا وان لا نظهر صلبنا ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا الا ضربا خفيا وان لا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين ولا نخرج سعانين ولا باعوثا ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نجاورهم موتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين وان نرشد المسلمين ولا نطلع عليهم في منازلهم قال فلما أتيت عمر بالكتاب زاد فيه ولا نضرب أحدا من المسلمين شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الامان فان نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم ووظفنا على أنفسنا فلا ذمة لنا وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون)

ما أمر به وجميع ما نهاه عنه لانه قد أمره بتجنب ما نهاه عنه كما أمره بفعل ما تعبده بفعله وأمته اسوته في ذلك قال قتادة أمره ان يستقيم على أمره ولا يطغى في نعمته وقال سفيان استقم على القرآن وعن الحسن قال لما نزلت هذه الآية قال شمروا شمروا وما رئي ضاحكا قال أبو السعود وبالجملة فهذا الامر منتظم لجميع محاسن الاحكام الاصلية والفرعية والكمالات النظرية والعملية والخروج عن عهدته في غاية ما يكون من الصعوبة ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم شيبتني سورة هود (و) ليستقم (من تاب معك) أي آمن ورجع عن الكفر الى الاسلام وشاركك في الايمان وما أعظم موقع هذه الآية وأشد أمرها فان الاستقامة كما أمر الله لا تقوم بها الا الانفس المطهرة والذوات المقدسة ولهذا يقول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم شيبتني هود كما تقدم وعن سفيان الثقفي قال قلت يا رسول الله قل لي في الاسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم أخرجه مسلم أقول هي تشمل العقائد والاعمال والاخلاق فانها في العقائد اجتناب التشبيه والتأويل والتعطيل والصرف عن الظاهر وفي الاعمال الاحتراز عن الزيادة والنقصان والبدع والمحدثات والتغيير للكتاب والتبديل للسنن والتقليد للرجال وللآراء وفي الاخلاق التباعد عن طرفي الافراط والتفريط وهذا في غاية العسر وبالله التوفيق وهو المستعان (ولا تطغوا) الطغيان مجاوزة الحد لما أمر الله سبحانه بالاستقامة المذكورة بين ان الغلو في العبادة والافراط في الطاعة على وجه يخرج به عن الحد الذي حده والمقدار الذي قدره ممنوع منه منهي عنه وذلك كمن يصوم ولا يفطر ويقوم الليل ولا ينام ويترك الحلال الذي أذن الله به ورغب فيه ولهذا يقول الصادق المصدوق فيما صح عنه اما انا فاصوم وافطر واقوم وانام وانكح النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولامته تغليبا لحالهم على حاله أو النهي عن الطغيان خاص بالامة قال ابن عباس لا تطغوا الا تعلموا وقال العلاء بن عبد الله لم يرد أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم انما عنى الذين يجيؤن من بعدهم وعن ابن زيد الطغيان خلاف أمره وارتكاب معصيته (انه بما تعملون بصير) يجازيكم على حسب ما تستحقون والجملة تعليل لما قبلها قيل ما نزلت آية على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي أشد عليه من هذه الآية (ولا تركنوا الى الذين ظلموا) قرئ بفتح الكاف وضمها وهي لغة تميم وقيس والاول لغة أهل الحجاز قال أبو عمرو ولغة تميم بكسر التاء وفتح الكاف وهم يكسرون حرف المضارعة في كل ما كان من باب علم يعلم قال الازهري وليست بالفصيحة وركن يركن بفتحتين وليست بالاصل بل من تداخل اللغتين وقال الراغب والصحيح انه يقال بالفتح فيهما وبالكسر في الماضي والفتح في المضارع وبالفتح في الماضي والضم في المضارع وقرئ على البناء للمفعول من أركنه وقال في الصحاح ركن اليه يركن بالضم وحكى أبو زيد ركن اليه بالكسر يركن ركونا فيهما أي مال اليه وسكن قال الله تعالى ولا تركنوا الى الذين ظلموا واما بالفتح فيهما فانما هو على الجمع بين اللغتين اه وقال في شمس العلوم الركون السكون وقال في القاموس ركن اليه كنصر وعلم ومنع ركونا

مال وسكن اه فهؤلاء الائمة من رواة اللغة فسروا الركون بمطلق الميل والسكون من غير تقييد بما قيده به صاحب الكشاف حيث قال فان الركون هو الميل اليسير وهكذا فسره المفسرون بمطلق الميل والسكون من غير تقييد الا من كان من المتقيدين بما ينقله صاحب الكشاف ومن المفسرين من ذكر في تفسير الركون قيودا لم يذكرها أئمة اللغة قال القرطبي في تفسيره الركون حقيقة الاستناد والاعتماد والسكون الى الشيء والرضا به ومن أئمة التابعين من فسر الركون بما هو أخص من معناه اللغوي فروى عن قتادة وعكرمة ان معناها لا تودوهم ولا تطيعوهم وقال عبد الرحمن بن زيد الركون هنا الادهان وذلك ان لا ينكر عليهم كفرهم وقال أبو العالية معناه لا ترضوا أعمالهم وقال ابن عباس الركون الى الشرك ولا تركنوا لا تميلوا ولا تدهنوا وعن عكرمة لا تصطنعوهم وقد اختلف أيضا الائمة من المفسرين في هذه الآية هل هي خاصة بالمشركين أو عامة فقيل خاصة وان معنى الآية النهي عن الركون الى المشركين وانهم المرادون بالذين ظلموا وقد روي ذلك عن ابن عباس وقيل انها عامة في الظلمة من غير فرق بين كافر ومسلم وهذا هو الظاهر من الآية ولو فرضنا ان سبب النزول هم المشركون لكان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فان قلت وقد وردت الادلة الصحيحة البالغة عدد التواتر الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبوتا لا يخفى على من له أدنى تمسك بالسنة المطهرة بوجوب طاعة الائمة والسلاطين والامراء حتى ورد في بعض الفاظ الصحيح أطيعوا السلطان وان كان عبدا حبشيا رأسه كالزبيبة وورد وجوب طاعتهم ما أقاموا الصلاة وما لم يظهر منهم الكفر البواح وما لم يأمروا بمعصية الله وظاهر ذلك انهم وان بلغوا في الظلم الى أعلى مراتبه وفعلوا أعظم أنواعه مما لم يخرجوا به الى الكفر البواح فان طاعتهم واجبة حيث لم يكن ما أمروا به من معصية الله ومن جملة ما يأمرون به تولي الاعمال لهم والدخول في المناصب الدينية التي ليس الدخول فيها من معصية الله ومن جملة ما يأمرون به الجهاد وأخذ الحقوق الواجبة من الرعايا واقامة الشريعة بين المتخاصمين منهم واقامة الحدود على من وجبت عليه وبالجملة فطاعتهم واجبة على كل من صار تحت أمرهم ونهيهم في كل ما يأمرون به مما لم يكن من معصية الله ولا بد في مثل ذلك من المخالطة لهم والدخول عليهم ونحو ذلك مما لا بد منه ولا محيص عن هذا الذي ذكرنا من وجوب طاعتهم بالقيود المذكورة لتواتر الادلة الواردة به بل قد ورد به الكتاب العزيز أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم بل ورد انهم يعطون الذي لهم من الطاعة وان منعوا ما هو عليهم للرعايا كما في بعض الاحاديث الصحيحة أعطوهم الذي لهم واسألوا الله الذي لكم بل ورد الامر بطاعة السلطان وبالغ في ذلك النبي صلى الله عليه وسلم حتى قال وان أخذ مالك وضرب ظهرك فان اعتبرنا مطلق الميل والسكون فمجرد هذه الطاعة المأمور بها مع ما تستلزمه من المخالطة هي ميل وسكون وان اعتبرنا الميل

وهذا اغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال المشركين الكفار من اليهود والنصارى على مقالتهم هذه المقالة الشنيعة والفرية على الله تعالى فأما اليهود فقالوا في العزير انه ابن الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وذكر السدي وغيره ان الشبهة التي حصلت لهم في ذلك ان العمالقة لما غلبت على بني اسرائيل فقتلوا علماءهم وسبوا كبارهم بقي العزير يبكي على بني اسرائيل وذهاب العلم منهم حتى سقطت جفون عينيه فبينما هو ذات يوم اذ مر على جبانة واذا امرأة تبكي عند قبر وهي تقول وامطعماه واكاسياه فقال لها ويحك من كان يطعمك قبل هذا قالت الله قال فان الله حي لا يموت قالت يا عزير فمن كان يعلم العلماء قبل بني اسرائيل قال الله قالت فلم تبكي عليهم فعرف انه شيء قد وعظ به ثم قيل له اذهب الى نهر كذا فاغتسل منه وصل هنالك ركعتين فانك ستلقى هنالك شيخا فما أطعمك فكله فذهب ففعل ما أمر به فاذا الشيخ فقال له افتح فمك ففتح فمه فألقى

والسكون ظاهرا وباطنا فلا يتناول النهي في هذه الآية من مال إليهم في الظاهر لأمر يقتضي ذلك شرعا كالطاعة أو للتقية ومخافة الضرر منهم أو لجلب مصلحة عامة أو خاصة أو دفع مفسدة عامة أو خاصة اذا لم يكن له ميل اليهم في الباطن ولا محبة ولا رضى بأفعالهم قلت أما الطاعة على عمومها بجميع أقسامها حيث لم تكن في معصية الله فهي على فرض صدق مسمى الركون عليها مخصصة لعموم النهي عنه بأدلتها التي قدمنا الاشارة اليها ولا شك في هذا ولا ريب فكل من أمروه ابتداء ان يدخل في شيء من الأعمال التي أمرها اليهم مما لم يكن من معصية الله كالمناصب الدينية ونحوها اذا وثق من نفسه بالقيام بما وكل اليه فذلك واجب عليه فضلا عن ان يقال جائز له وأما ما ورد من النهي عن الدخول في الامارة فذلك مقيد بعدم وقوع الأمر ممن تجب طاعته من الأئمة والسلاطين والأمراء جمعا بين الأدلة أو مع ضعف المأمور عن القيام بما أمر به كما ورد تعليل النهي عن الدخول في الامارة بذلك في بعض الأحاديث الصحيحة وأما مخالطتهم والدخول عليهم لجلب مصلحة عامة أو خاصة أو دفع مفسدة عامة أو خاصة مع كراهة ما هم عليه من الظلم وعدم ميل النفس اليهم ومحبتهم اليهم وكراهة المواصلة لهم لولا جلب تلك المصلحة أو دفع تلك المفسدة فعلى فرض صدق مسمى الركون على هذا فهو مخصص بالأدلة الدالة على مشروعية جلب المصالح ودفع المفاسد والأعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى ولا تخفى على الله خافية وبالجملة فمن ابتلى بمخالطة من فيه ظلم فعليه ان يزن اقواله وافعاله وما يأتي وما يذر بميزان الشرع فان زاغ عن ذلك فعلى نفسه ابراقش تجني ومن قدر على الفرار منهم قبل أن يؤمر من جهتهم بأمر يجب عليه طاعته فهو الأولى له والأليق به يا مالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين اجعلنا من عبادك الصالحين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر الذين لا يخافون فيك لومة لائم وقونا على ذلك ويسره لنا وأعنا عليه قال القرطبي في تفسيره وصحبة الظالم على التقية مستثناة من النهي بحال الاضطرار انتهى وقال النيسابوري في تفسيره قال المحققون الركون المنهي عنه هو الرضا بما عليه الظلمة أو تحسين الطريقة وتزيينها عند غيرهم ومشاركتهم في شيء من تلك الأبواب فأما مداخلتهم لدفع شيء من الضرر واجتلاب منفعة عاجلة فغير داخل في الركون قال وأقول هذا من طريق المعاش والرخصة ومقتضى التقوى هو الاجتناب عنهم بالكلية أليس الله بكاف عبده انتهى (فتمسكم النار) بحرها بسبب الركون اليهم وفيه اشارة الى ان الظلمة أهل النار أو كالنار ومصاحبة النار توجب لا محالة مس النار قيل هذا فيمن ركن الى من ظلم فكيف بالظالم والجملة حالية أو مستأنفة قال ابو السعود واذا كان حال الميل في الجملة الى من وجد منه ظلم ما في الافضاء الى مساس النار هكذا فما ظنك بمن يميل الى الراسخين في الظلم والعدوان ميلا عظيما ويتهالك على مصاحبتهم ومنادمتهم ويلقي تشراشره على مؤانستهم ومعاشرتهم ويبتهج بالتزيي بزيهم ويمد عينيه الى زهرتهم الفانية ويغبطهم بما أوتوا من القطوف الدانية وهو في الحقيقة من

فيه شيأ كهيئة الجمرة العظيمة ثلاث مرات فرجع عزير وهو من أعلم الناس بالتوراة فقال يابني اسرائيل قد جئتكم بالتوراة فقالوا يا عزير ما كنت كذابا فعمد فربط على اصبع من أصابعه قلما وكتب التوراة باصبعه كلها فلما تراجع الناس من عدوهم ورجع العلماء أخبروا بشأن عزير فاستخرجوا النسخ التي كانوا اودعوها في الجبال وقابلوها فوجدوا ما جاء به صحيحا فقال بعض جهلتهم انما صنع هذا لانه ابن الله واما ضلال النصارى في المسيح فظاهر ولهذا كذب الله سبحانه الطائفتين فقال ذلك قولهم بأفواههم أي لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افترائهم واختلاقهم يضاهئون أي يشابهون قول الذين كفروا من قبل أي من قبلهم من الأمم ضلوا كما ضل هؤلاء قاتلهم الله قال ابن عباس لعنهم الله أنى يؤفكون أي كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون الى الباطل وقوله اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم روى الامام

الحبة طفيف ومن جناح البعوض خفيف بمعزل عن أن تميل اليه القلوب ضعف الطالب والمطلوب والآية ابلغ ما يتصور في النهي عن الظلم والتهديد عليه وخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين تثبيت على الاستقامة التي هي العدل فان الميل الى أحد طرفي الافراط والتفريط ظلم على نفسه أو على غيره انتهى (ومالكم من دون الله من أولياء) ان ركنتم اليهم والمعنى انها تمسكم النار حال عدم وجود من ينصركم وينقذكم منها ونفي الاولياء ليس بطريق نفي أن يكون لكل واحد منهم أولياء حتى يصدق أن يكون له ولي بل لمكان الكم بطريق انقسام الآحاد على الآحاد لكن لا على معنى نفي استقلال كل منهم بنصير بل على معنى نفي أن يكون لواحد منهم نصير بقرينة المقام (ثم لا تنصرون) من جهة الله سبحانه اذ قد سبق في علمه انه يعذبكم بسبب ركونكم الذي نهيتم عنه فلم تنتهوا عنادا وتمردا والجملة حالية أو مستأنفة معترضة وأتى بثم هنا تنبيها على تراخي رتبة كونهم غير منصورين من جهة الله بعد ما أوعدهم بالعذاب وأوجبه عليهم ويجوز أن يكون منزلا منزلة الفاء بمعنى الاستبعاد فانه لما بين ان الله تعالى معذبهم وان غيره لا ينقذهم أنتج انهم لا ينصرون أصلا (وأقم الصلاة طرفي النهار) لما ذكر الله سبحانه الاستقامة خص من أنواعها اقامة الصلاة لكونها رأس الايمان والمراد صلاة الغداة والعشي وهما الفجر والعصر قاله الحسن وقيل الظهر موضع العصر وقيل الطرفان الصبح والمغرب قاله ابن عباس وقيل هما الظهر والعصر وقال مجاهد صلاة الفجر وصلاتي العشي يعني الظهر والعصر ورجح ابن جرير انهما الصبح والمغرب قال والدليل عليه اجماع الجميع على ان أحد الطرفين الصبح فدل على ان الطرف الآخر المغرب قال الرازي كثرت المذاهب في تفسير طرفي النهار والاشهر انهما الفجر والعصر لان أحد طرفي النهار هو طلوع الشمس والثاني هو غروبها فالطرف الاول هو صلاة الفجر والطرف الثاني لا يجوز أن يكون صلاة المغرب لانها داخلة تحت قوله وزلفا من الليل فوجب حمل الطرف الثاني على صلاة العصر (وزلفا) أي في زلف (من الليل) والزلف الساعات القريبة بعضها من بعض ومنه سميت المزدلفة لانها منزل بعد عرفة بقرب مكة وقرئ زلفا بضم اللام جمع زليف ويجوز أن يكون واحده زلفة وقرئ باسكان اللام وقرأ مجاهد زلفى على وزن فعلى وقرأ الباقون زلفا بفتح اللام كغرفة وغرف قال ابن الاعرابي الزلف الساعات واحدتها زلفة وقال قوم الزلفة أول ساعة من الليل بعد مغيب الشمس وفي القاموس الزلفة الطائفة من الليل والجمع زلف وزلفات والزلف ساعات الليل الآخذة من النهار وساعات النهار الآخذة من الليل قال الاخفش معنى زلفا من الليل صلاة الليل قال ابن عباس صلاة العتمة وقال الحسن هما زلفتان صلاة المغرب وصلاة العشاء وعن مجاهد والحسن نحوه وقال أيضا ساعة بعد ساعة يعني صلاة العشاء الآخرة (ان الحسنات) أي الواجبة والمندوبة وغيرها على العموم ومن جملتها بل عمادها الصلوات عن ابن مسعود قال هي الصلوات الخمس وزاد ابن

أحمد والترمذي وابن جرير من طريق عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فر الى الشام وكان قد تنصر في الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه ثم من رسول الله صلى الله عليه وسلم على أخته وأعطاها فرجعت الى أخيها فرغبته في الاسلام وفي القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدم عدي المدينة وكان رئيسا في قومه طيء وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم فتحدث الناس بقدومه فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عنق عدي صليب من فضة وهو يقرأ هذه الآية اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله قال فقلت انهم لم يعبدوهم فقال بلى انهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم اياهم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عدي ما تقول أيضرك أن يقال الله أكبر فهل تعلم شيأ أكبر من الله ما يضرك أن يقال لا اله الا الله فهل تعلم الها غير الله ثم دعاه الى

عباس والباقيات الصالحات (يذهبن السيئات) على العموم وقيل المراد بها الصغائر ومعنى يذهبن يكفرنها حتى كأنها لم تكن أخرج البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود ان رجلا أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فذكر ذلك له كأنه يسأل عن كفارتها فأنزلت عليه وأقم الصلاة طرفي النهار الآية فقال الرجل يارسول الله ألي هذه قال هي لمن عمل بها من أمتي وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود وغيرهم عن أبي أمامة ان رجلا أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال يارسول الله أقم فيّ حد الله مرة أو مرتين فأعرض عنه ثم أقيمت الصلاة فلما فرغ قال أين الرجل قال أنا ذا قال أتممت الوضوء وصليت معنا آنفا قال نعم قال فانك من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد وأنزل الله حينئذ على رسوله وأقم الصلاة طرفي النهار وفي الباب أحاديث كثيرة بألفاظ مختلفة ووردت أحاديث صحيحة أيضا ان الصلوات الخمس كفارات لما بينهن وقال مجاهد الحسنات قول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر والاول أولى وبه قال ابن المسيب والقرطبي والضحاك وجمهور المفسرين أي الصلوات الخمس وله تدل الاحاديث (ذلك) اشارة الى قوله فاستقم وما بعده وقيل الى القرآن (ذكرى للذاكرين) أي موعظة للمتعظين عن الحسن قال هم الذين يذكرون الله في السراء والضراء والشدة والرخاء والعافية والبلاء وعن ابن جريج قال للمنازع الذي قبل المرأة تذكر فذلك قوله ذلك ذكرى للذاكرين (واصبر) على ما أمرت به من الاستقامة وعدم الطغيان والركون الى الذين ظلموا وقيل ان المراد الصبر على ما أمر به دون ما نهي عنه لانه لا مشقة في اجتنابه وفيه تطرف فان المشقة في اجتناب المنهي عنه كائنة وعلى فرض كونها دون مشقة امتثال الامر فذلك لا يخرجها عن مطلق المشقة (فان الله لا يضيع أجر المحسنين) أي يوفيهم أجورهم ولا يضيع منها شيأ فلا يهمله ولا يبخسه بنقص قيل المحسنون المصلون (فلولا كان) هذا عود الى أحوال الامم الخالية لبيان ان سبب حلول عذاب الاستئصال بهم انه ما كان فيهم من ينهى عن الفساد ويأمر بالرشاد فقال فلولا أي فهلا كان (من القرون) الماضية المهلكة بالعذاب الكائنة (من قبلكم أولو بقية) من الرأي والعقل والدين والبقية في الاصل اسم لما يستبقيه الرجل مما يخرجه وهو لا يستبقي الا أجوده وأفضله فصار لفظ البقية مثلا في الجودة يقال فلان ذو بقية اذا كان فيه خير والمراد بها ههنا جيد الشيء وخياره من قولهم فلان بقية الناس وبقية الكرام وانها صفة على فعيلة للمبالغة بمعنى فاعلة ولذلك دخلت التاء فيها وقيل معناه أولو بقية من خير يقال فلان على بقية من الخير اذا كان على خصلة محمودة ومنه قولهم في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا وقيل انها مصدر بمعنى البقوى كالتقية بمعنى التقوى أي فهلا كان منهم ذوو بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله وعقابه وقرئ بتخفيف الياء وهي اسم فاعل من بقي والتقدير ولو طائفة بقية أي باقية وقرئ بضم الباء

الاسلام فأسلم وشهد شهادة الحق قال فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال ان اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسير اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله انهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا وقال السدي استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ولهذا قال تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا أي الذي اذا حرم الشيء فهو الحرام وما حلله فهو الحلال وما شرعه اتبع وما حكم به نفذ لا اله الا هو سبحانه عما يشركون أي تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والاعوان والاضداد والاولاد لا اله الا هو ولا رب سواه (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) يقول تعالى يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب أن يطفئوا

وسكون القاف أخرج ابن مردويه عن أبي بن كعب قال أقرأني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أولو بقية وأحلام (ينهون) قومهم (عن الفساد في الارض) ويمنعونهم من ذلك لكونهم ممن جمع الله له بين جودة العقل وقوة الدين وفي هذا من التوبيخ للكفار ما لا يخفى والاستثناء في قوله (الا قليلا) منقطع أي لكن قليلا (ممن أنجينا منهم) أي من الامم الماضية وهم أتباع الانبياء نهوا عن الفساد في الارض وسائرهم تركوا النهي وقيل هو متصل لان في حرف التحضيض معنى النفي فكأنه قال ما كان في القرون أولو بقية ينهون عن الفساد في الارض الا قليلا ممن أنجينا منهم الا انه يؤدي الى النصب في غير الموجب وان كان غير النصب أولى قال الزمخشري ان جعلته متصلا كان المعنى فاسدا لان الكلام يؤل الى ان الناجين لا يحضون على النهي ومن في ممن بيانية لانه لم ينج الا الناهون قيل هؤلاء القليل هم قوم يونس لقوله فيما مر الا قوم يونس وقيل هم أتباع الانبياء أهل الحق من الامم على العموم (واتبع الذين ظلموا) أنفسهم بسبب مباشرتهم للفساد وتركهم للنهي عنه (ما أترفوا فيه) أي أنعموا من الشهوات فاهتموا بتحصيل أسبابها وأعرضوا عما وراء ذلك والمترف الذي أبطرته النعمة يقال صبي مترف منعم البدن وفي القاموس الترفة بالضم النعمة والطعام الطيب والشيء الظريف تخص به صاحبك وترف كفرح تنعم وأترفته النعمة أطغته وأترف فلان أصر على المنكر والمترف كمكرم المتروك يصنع ما يشاء ولا يمنع والمتنعم لا يمنع من تنعمه أي صاروا تابعين للنعم التي صاروا بها مترفين من خصب العيش ورفاهية الحال وسعة الرزق وآثروا ذلك على الاشتغال بأعمال الآخرة واستغرقوا بأعمارهم في الشهوات النفسانية وقيل المراد بالذين ظلموا تاركو النهي ورد بأنه يستلزم خروج مباشري الفساد عن الذين ظلموا وهم أشد ظلما ممن لم يباشر وكان ذنبه ترك النهي وقرئ واتبع على البناء للمفعول ومعناه اتبعوا جزاء ما أترفوا فيه قال مجاهد واتبع الذين ظلموا أي في ملكهم وتجبرهم وتركهم للحق وقال ابن عباس أترفوا أبطروا وجملة (وكانوا مجرمين) متضمنة لبيان سبب اهلاكهم أي وكان هؤلاء الذين اتبعوا ما أترفوا فيه مجرمين كافرين والاجرام الآثام والمعنى انهم أهل اجرام بسبب اتباعهم للشهوات واشتغالهم بها عن الامور التي يحق الاشتغال بها ويجوز أن تكون معطوفة على واتبع الذين أي اتبعوا شهواتهم وكانوا بسبب ذلك الاتباع مجرمين (وما كان ربك ليهلك القرى) أي ما صح ولا استقام بل استحال في الحكمة ان يهلك القرى التي أهلكها حسب ما بلغك انباؤها ويعلم من ذلك حال باقيها من القرى الظالمة واللام لتأكيد النفي (بظلم) أي متلبسا به قيل هو حال من الفاعل أي ظالما لها والتنكير للتفخيم والايذان بان اهلاك المصلحين ظلم عظيم والمراد تنزيه الله تعالى عن ذلك بالكلية بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى والا فلا ظلم فيما فعله الله تعالى بعباده كائنا ما كان لما تقرر من قاعدة أهل السنة قال الزجاج يجوز أن يكون المعنى وما كان ربك ليهلك أحدا وهو يظلمه وان كان على

نور الله أي ما بعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الهدى ودين الحق بمجرد جدالهم وافترائهم فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس أو نور القمر بنفخه وهذا لا سبيل اليه فكذلك ما أرسل به رسول الله صلى الله عليه وسلم لابد أن يتم ويظهر ولهذا قال تعالى مقابلا لهم فيما راموه وأرادوه ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون والكافر هو الذي يستر الشيء ويغطيه ومنه سمي الليل كافرا لانه يستر الاشياء والزراع كافرا لانه يغطي الحب في الارض كما قال يعجب الكفار نباته ثم قال تعالى هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق فالهدى هو ما جاء به من الاخبار الصادقة والايمان الصحيح والعلم النافع ودين الحق هو الاعمال الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة ليظهره على الدين كله أي على سائر الأديان كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله زوى لي الارض

نهاية الصلاح لان تصرفه فى ملكه دليله قوله تعالى ان الله لا يظلم الناس شيأ وقوله وان الله ليس بظلام للعبيد (وأهلها مصلحون) حال من المفعول والعامل عامله ولكن لا باعتبار تقييده بها وقع حالا من فاعله أعنى بظلم لدلالته على تقييد نفى الاهلاك ظلما بحال كون أهلها مصلحين ولا ريب فى فساده بل مطلقا عن ذلك وقيل المراد بالظلم الشرك والباء للسببية أى لا يهلك القرى بسبب اشراك أهلها أى بمجرد الشرك وحده حتى ينضم اليه الفساد فى الارض ومتابعة الهوى كما أهلك قوم شعيب بنقص المكيال والميزان وبخس الناس أشياءهم وأهلك قوم لوط بسبب ارتكابهم للفاحشة الشنعاء وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم لا يظلمون الناس شيأ وذلك لفرط رحمته وسامحته فى حقوقه تعالى ومن ذلك قدم الفقهاء عند تزاحم الحقوق حقوق العباد الفقراء على حقوق الله الغنى الحميد وقيل الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم وأنت تدرى ان مقام النهى عن المنكرات التى أقبحها الاشراك بالله لا يلائمه فان الشرك داخل فى الفساد فى الارض دخولا أوليا ولذلك ينهى كل من الرسل الذين قصت انباؤهم أمته أولا عن الاشراك ثم عن سائر المعاصى التى كانوا يتعاطونها فالوجه حمل الظلم على مطلق الفساد الشامل للشرك وغيره من أصناف المعاصى وحمل الاصلاح على اصلاحه والاقلاع عنه بكون بعضهم متصدين للنهى عنه وبعضهم متوجهين الى الاتعاظ غير مصرين على ما هم عليه من الشرك وغيره من أنواع الفساد وقيل المعنى وما كان يهلكهم بذنوبهم وهم مخلصون فى الايمان فالظلم المعاصى على هذا أخرج الطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمى عن جرير قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسئل عن تفسير هذه الآية فقال وأهلها ينصف بعضهم بعضا وروى موقوفا على جرير قيل والمراد بالهلاك عذاب الاستئصال فى الدنيا وأما عذاب الآخرة فهو لازم لهم (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) أى أهل دين واحد اما أهل ضلالة أو أهل هدى وقيل معناه جعلهم مجتمعين على الحق غير مختلفين فيه أو مجتمعين على دين الاسلام دون سائر الاديان ولكنه لم يشأ ذلك فلم يكن ولهذا قال (ولا يزالون مختلفين) فى ذات بينهم على أديان شتى ما بين يهودى ونصرانى ومجوسى ومشرك ومسلم فكل هؤلاء قد اختلفوا فى أديانهم اختلافا كثيرا لا ينضبط وقيل مختلفين فى الحق أو دين الاسلام وقيل مختلفين فى الرزق فهذا غنى وهذا فقير وعن ابن عباس فى الآية قال أهل الحق وأهل الباطل عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين والنصارى كذلك وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة أخرجه أبو داود والترمذى بنحوه عن معاوية قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال ألا ان من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة وان هذه الامة ستفترق على ثلاث وسبعين اثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة وهى الجماعة أخرجه أبو داود قال الخطابى فيه دلالة على ان هذه

مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها وقال الامام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن محمد بن أبى يعقوب سمعت شقيق بن حيان يحدث عن مسعود بن قبيصة أو قبيصة بن مسعود يقول صلى هذا الحى من محارب الصبح فلما صلوا قال شاب منهم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انه سيفتح لكم مشارق الارض ومغاربها وان عمالها فى النار الا من اتقى الله وأدى الامانة وقال الامام أحمد حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان حدثنا سليم بن عامر عن تميم الدارى رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليبلغن هذا الامر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر الا أدخله هذا الدين بعز عزيز او بذل ذليل عزا يعز الله به الاسلام وذلا يذل الله به الكفر فكان تميم الدارى يقول قد عرفت ذلك فى أهل بيتى لقد أصاب

الفرق غير خارجة عن الملة والدين اذ جعلهم من أمته وقال غيره المراد بها أهل البدع والاهواء الذين تفرقوا واختلفوا وظهروا بعده كالخوارج والقدرية والمعتزلة والرافضة وغيرهم والمراد بالواحدة هي فرقة السنة والجماعة الذين اتبعوا الرسول في قوله وفعله ولم يقلدوا أحدا في خلافه (الا من رحم ربك) أي الا أهل رحمته فانهم لا يختلفون وعن عطاء ابن أبي رباح قال لا يزالون مختلفين أي اليهود والنصارى والمجوس والحنيفية وهم الذين رحم ربك وقال الحسن الناس مختلفون على أديان شتى الا من رحم ربك فمن رحم ربك غير مختلف وعن مجاهد قال من اختلف أهل الباطل ومن رحم أهل الحق فوفق الله عليهم بالتوفيق والهداية الى الدين الحق فانهم لم يختلفوا أو الا من رحم ربك من المختلفين في الحق أو دين الاسلام بهدايته الى الصواب الذي هو حكم الله وهو الحق الذي لا حق غيره أو الا من رحم ربك بالقناعة والاولى تفسير لجعل الناس أمة واحدة بالمجتمعة على الحق حتى يكون معنى الاستثناء في الا من رحم واضحا غير محتاج الى تكلف (ولذلك) أي ولما ذكر من الاختلاف أو ولرحمته وصح تذكير الاشارة الى الرحمة لكون تأنيثها غير حقيقي والضمير في (خلقهم) ان كان راجعا الى الناس فالاشارة الى الاختلاف واللام للعاقبة أو اليه والى الرحمة وان كان الى من فالى الرحمة وقيل الاشارة بذلك الى مجموع الاختلاف والرحمة ولا مانع من الاشارة بها الى شيئين كما في قوله عوان بين ذلك وقوله وابتغ بين ذلك سبيلا وقوله فبذلك فليفرحوا قال مجاهد خلقهم للرحمة وعن عكرمة نحوه وقال ابن عباس خلقهم فريقين فريقا يرحم فلا يختلف وفريقا لا يرحم فيختلف فذلك قوله فمنهم شقي وسعيد وقال الحسن وعطاء خلقهم للاختلاف وقال أشهب سألت مالك بن أنس عن هذه الآية فقال خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير وقال الفراء خلق أهل الرحمة للرحمة وأهل الاختلاف للاختلاف قال شيخ الاسلام ابن تيمية في كتاب الرد على المنطقيين ان القوم كلما بعدوا عن اتباع الرسل والكتب المنزلة كان أعظم في تفرقهم واختلافهم فانهم يكونوا أضل وقد أمر الله بالجماعة والائتلاف ونهى عن الفرقة والاختلاف فقال تعالى واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وقال تعالى ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء وقال ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وقد أخبر ان أهل الرحمة لا يختلفون فقال تعالى ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك يوجد اتبع الناس للرسول أقلهم اختلافا كأهل الحديث والسنة فانهم أقل اختلافا من جميع الطوائف ثم من كان اليهم أقرب كان من الاختلاف أبعد فأما من بعد عن السنة كالمعتزلة والرافضة فتجدهم أكثر الطوائف اختلافا واما اختلاف الفلاسفة فلا يحصره أحد وقد ذكر أبو الحسن الاشعري في كتاب المقالات مقالات غير الاسلاميين عنهم من المقالات ما لم يذكره الفارابي وابن سينا وأمثالهما وكذلك القاضي أبو بكر بن الطيب في كتاب الدقائق الذي رد فيه على الفلاسفة والمنجمين ورجح فيه منطق

من اسلم منهم الخير والشرف والعز ولقد أصاب من كان كافرا منهم الذل والصغار والجزية وقال الامام أحمد حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا الوليد بن مسلم حدثني ابن جابر سمعت سليم بن عامر قال سمعت المقداد بن الأسود يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يبقى على وجه الارض بيت مدر ولا وبر الا دخلته كلمة الاسلام يعز عزيزا ويذل ذليلا اما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها واما يذلهم فيدينون لها وفي المسند أيضا حدثنا محمد بن أبي عدي عن ابن عون عن ابن سيرين عن ابي حذيفة عن عدي بن حاتم سمعه يقول دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا عدي اسلم تسلم فقلت اني من أهل دين قال انا أعلم بدينك منك فقلت أنت أعلم بديني مني قال نعم ألست من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك قلت بلى قال فان هذا لا يحل لك في دينك قال فلم يعد

المتكلمين من العرب على منطق اليونان وكذلك متكلمة المعتزلة والشيعة وغيرهم في ردهم على الفلاسفة ذكروا أنواعا من المقالات وردوها ولكن مذهب الفلاسفة الذي نصره الفارابي وابن سينا وأمثالهما كالسهروردي المقتول على الزندقة وكأبي بكر بن الصائغ وابن رشد الحفيد وهو مذهب المشائين أتباع ارسطو صاحب المنطق وهو الذي يذكره الغزالي في كتاب مقاصد الفلاسفة وعليه رد في التهافت وهو الذي يذكره الرازي في الملخص والمباحث المشرقية ويذكره الآمدي في دقائق الحقائق ورموز الكنوز وغير ذلك وعلى طريقتهم مشى أبو البركات صاحب المعتبر لكن لم يقلدهم تقليد غيره بل اعتبر ماذكروه بحسب نظره وعقله وكذلك الرازي والآمدي يعترضان عليهم في كثير مما يذكرونه بحسب ما يسنح لهم وابن سينا أيضا قد يخالف الاولين في بعض ماذكروه والفلاسفة طوائف كثيرون وبينهم اختلاف كثير في الطبيعيات والالهيات وفي الهيئة أيضا وأول من خلط منطقهم بأصول المسلمين أبو حامد الغزالي وتكلم فيه علماء المسلمين بما يطول ذكره وهذا الرد عليهم مذكور في كثير من كتب أهل الكلام والفلاسفة ليسوا أمة واحدة لها مقالة في العلم الالهي والطبيعي وغيرهما بل هم أصناف متفرقون وبينهم من التفرق والاختلاف مالا يحصيه الا الله أعظم مما بين الملة الواحدة كاليهود والنصارى أضعافا مضاعفة والمقصود ان نظار المسلمين مازالوا يصنفون في الرد عليهم في المنطق وغير المنطق ويثبتون خطأهم فيما ذكروه جميعا اذ لا يحكم بين الناس فيما تنازعوا فيه الا كتاب منزل ونبي مرسل كما قال تعالى وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ولهذا قال تعالى فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا انتهى المقصود بتصرف في العبارة وحاصل الآية ان الله خلق أهل الباطل وجعلهم مختلفين وخلق أهل الحق وجعلهم متفقين وحكم على بعضهم بالاختلاف ومصيرهم الى النار وحكم على بعضهم بالرحمة ومصيرهم الى الجنة وهم أهل الاتفاق ويدل لصحة هذا قوله (وتمت كلمة ربك) أي ثبتت كما قدره في أزله واذا تمت وحقت ووجبت امتنعت من التغيير والتبديل وقيل الكلمة هي قوله للملائكة (لأملأن جهنم من الجنة) أي الجن والتاء للمبالغة (والناس أجمعين) أي ممن يستحقها من الطائفتين (وكلا) أي وكل نبأ فالتنوين عوض عن المضاف اليه (نقص عليك) أي نخبرك به مما يحتاج اليه وقوله (من أنباء الرسل) بيان لكلا وقوله (ما نثبت به فؤادك) بدل منه والاظهر ان يكون المضاف اليه المحذوف في كلا المفعول المطلق لنقص أي كل اقتصاص أي كل أسلوب من أساليبه نقص عليك من أنباء الرسل وقوله ما نثبت مفعول نقص وفائدته التنبيه على ان المقصود بالاقتصاص زيادة يقينه عليه السلام

أن قالها فتواضعت انها قال أماني أعلم ما الذي يمنعك عن الاسلام تقول انما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له وقد رمتهم العرب أتعرف الحيرة قلت لم أرها وقد سمعت بها قال فوالذي نفسي بيده ليتمن الله هذا الامر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد ولتفتحن كنوز كسرى ابن هرمز قلت كسرى بن هرمز قال نعم كسرى بن هرمز وليبذلن المال حتى لا يقبله احد قال عدي بن حاتم فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قالها وقال مسلم حدثنا ابو معن زيد بن يزيد الرقاشي حدثنا خالد بن الحرث حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن الاسود بن العلاء عن أبي سلمة عن عائشة رضي الله عنها قالت سمعت رسول الله

وطمأنينة

وطمأنينة قلبه وثبات نفسه على اداء الرسالة واحتمال أذية الكفار بالوقوف على تفاصيل أحوال الأمم السالفة فى تماديهم فى الضلال وما لقى الرسل من جهتهم من مكابدة المشاق لان تكاثر الادلة أثبت للقلب وأرسخ فى النفس وأقوى للعلم (وجاءك فى هذه) أى السورة قاله ابن عباس وأبو موسى الاشعرى وسعيد بن جبير والحسن وعليه الاكثر أو فى هذه الدنيا قاله قتادة وفيه بعد لانه لم يجر للدنيا ذكر وقيل فى هذه الآية أو فى هذه الانباء (الحق) أى البراهين القاطعة الدالة على صحة المبدأ والمعاد وقيل النبوة وعلى الاول يكون تخصيص هذه السورة بمجىء الحق فيها مع كونه قد جاء فى غيرها من السور لقصد بيان اشتمالها على ذلك لا بيان كونه موجودا فيها دون غيرها وقيل لانها جمعت من اهلاك الامم وشرح حالهم ما لم يجتمع غيرها وقيل خصها بالذكر تشريفا لها والتعريف فى الحق اما للجنس أو للعهد وانما عرفه ونكر تاليه تفخيما له لكونه يطلق على الله بخلاف تاليه (وموعظة) يتعظ بها الواقف عليها اذا تذكر أحوال الامم الماضية (وذكرى للمؤمنين) أى يتذكر بها من تفكر فيها منهم وخص المؤمنين لكونهم المتأهلين للاتعاظ والتذكر (وقل للذين لا يؤمنون) بهذا الحق ولا يتعظون ولا يتذكرون (اعملوا) حال كونكم قارين وثابتين (على مكانتكم) على تمكنكم وحالكم وجهتكم من الكفر وقد تقدم تحقيقه وقال قتادة على منازلكم (انا عاملون) على مكانتنا وحالنا وجهتنا من الايمان بالحق والاتعاظ والتذكر وفى هذا تشديد للوعيد وتهديد لهم (وانتظروا) عاقبة أمرنا وقال ابن جريج انتظروا مواعيد الشيطان اياكم على ما يزين لكم (انا منتظرون) عاقبة أمركم وما يحل بكم من عذاب الله وعقوبته وفيه من الوعيد والتهديد ما لا يخفى (ولله غيب السموات والارض) أى علم جميع ما هو غائب عن العباد فيهما وخص الغيب مع كونه يعلم بما هو مشهود كما يعلم بما هو مغيب لكونه من العلم الذى لا يشاركه فيه غيره وقيل ان غيب السموات والارض نزول العذاب من السماء وطلوعه من الارض والاول أولى وبه قال أبو على الفارسى وغيره وأضاف الغيب الى المفعول توسعا (واليه يرجع) بالبناء للفاعل يعود وللمفعول يرد (الامر كله) أى أمر الخلق كلهم فى الدنيا والآخرة فيجازى كلا بعمله فينتقم ممن عصى ويثيب من أطاع وقال ابن جريج فيقضى بينهم بحكم العدل (فاعبده وتوكل عليه) فانه كافيك كل ما تكره ومعطيك كل ما تحب والفاء لترتيب الامر بالعبادة والتوكل على كون مرجع الامور كلها الى الله سبحانه قيل هذا الخطاب له ولجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم وفى تأخير الامر بالتوكل عن الامر بالعبادة اشعار بأنه لا ينفع دونها (وما ربك بغافل عما تعملون) بل عالم بجميع ذلك ومجاز عليه ان خيرا فخير وان شرا فشر وقرأ أهل المدينة والشام وحفص بالفوقية على الخطاب وهى سبعية والباقون بالتحتية وهم الجمهور وأخرج عبد الله بن أحمد وابن الدريس وابن جرير وأبو الشيخ عن كعب الاحبار قال

صلى الله عليه وسلم يقول لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى فقلت يارسول الله ان كنت لأظن حين أنزل الله عزوجل هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق الآية ان ذلك تام قال انه سيكون من ذلك ما شاء الله عزوجل

فاتحة التوراة فاتحة الانعام وخاتمة التوراة خاتمة هود ولله غيب السموات والارض الى آخر الآية

ثم يبعث الله ريحا طيبة فيتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة خردل من ايمان فيبقى من لا خير فيه فيرجعون الى دين آبائهم

الى هنا ما يخص الجزء الرابع ويليه الخامس أوله يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان

ولما اقتطف من جنى هذا التفسير الداني وفاز من لطائف مسامرته بما يزري بمغازلة الحور الغواني الحبر الفهامة والبحر الكلامة ترجمان القرآن وشارح قول سيد عدنان زبدة الفضلاء الكرام عمدة العلماء الاعلام الشيخ محمد بن عبد الله الزوائ مفتي مدينة الزبيدية رفع الله شأنه في البرية كتب مقرظاله ما نصه

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي أهل لخدمة كتابه العزيز من اختاره من عباده وجعلهم خزنة علمه وعيبة اسراره ومطلع أنواره وخلفاء أنبيائه في أقطار بلاده والصلاة والسلام على نبي الرحمة وهادي الامة وأفضل ناطق بالحكمة وعلى آله الائمة وأصحابه مصابيح الظلمة (وبعد) فقد وقفت على هذا التفسير الخطير والمنهل العذب النمير الذي جمع بين الرواية والدراية وسبق بسهولة التعبير وحسن التقرير الى أقصى غاية فلقد منح الله مؤلفه من مفاتح الغيب علما كشافا لمشكلات التأويل وفهما يعلم الخبير الخبير أسرار البلاغة في معالم التنزيل كيف لا ومؤلفه المتسلسل من ذؤابة أبي السبطين والحائز للشرفين السيد الامام صدر العلماء الاعلام أجل المسندين وعمدة الحفاظ المحدثين المعتمدين شريف النجار عظيم المقدار الذي افتخرت به بهوبال على جميع الاقطار وانتشرت بوجوده علوم السنة والآثار (نواب والاجاه أمير الملك السيد محمد صديق حسن خان بهادر) لا زال مشرقا بدر كماله الباهر محميا بحماية الملك القادر فقد برهن هذا التفسير الجليل بأنه حفظه الله قد جلى في سبقه وسطعت شمس العلوم من أفقه ولمعت أنوار التحقيق عن برقه واستمد البحر والنهر من ودقه أعزه الله وبله وأحبابه العلم وأهله وبارك في عمره ونشر في الآفاق أعلام فضله وفخره آمين

يا طالب التفسير ان أغلقت * أبوابه دونك فتح البيان

4826

وان تكن أبحاثه أشكلت * واستعجمت فهو لها ترجمان

لله تفسير بديع بدا * ألفه الحبر وحيد الزمان

أتى أخير العصر لكنه * سباق غايات بيوم الرهان

يقول من يسمع ألفاظه * هذا جنا يانع أم جنان

لازال بدرا في سماء العلى * مظفر المولى منيع المكان

كتبه العبد الفقير محمد بن عبد الله الزواك المعروف بابن صائم الدهر الحسيني مفتي مدينة الزبيد غفر الله له آمين

بتاريخ سلخ ذي الحجة الحرام

ختم سنة ١٢٩١

الهجرية

(تم الجزء الرابع ويليه الجزء الخامس أوله سورة يوسف)

